فهرست الموضوعات

صفحة

المَواعِظُ والاعْتِبار في ذِكْر الخِطَط والآثار

صفحة

جُمَل من أخبار مصر وأحْوال نيلها وخَراجِها وجبالها

صفحة

ذِكْرُ مَدائن أرْض مصر

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ذِكْرُ تأريخ الخَليقَة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

تُعَدُّ المخْطوطات الإسلامية السّجلَّ الحافِل الذي يَجْمَع خُلاصَة ما أنْتجه الفِكْرُ العربي والإسلامي على امتداد أربعة عشر قرْنًا. وكان إحْياءُ هذه المخْطوطات في عَصْر الطِّباعة بنَشْرها نَشْرًا علميًّا وتوفيرها لجمهورٍ أكبر من العُلَماء والباحثين والقُرَّاء، عَمَلًا بدأه المُسْتَشْرقون ثم قامَ بعبئه العُلَماءُ العرب والمسلمون.

ورأت مُؤسَّسَةُ الفُرْقان للتراث الإسلامي أن تُساهِمَ في هذا المجال الهام بنَشْر بعض المخطوطات القديمة في تحقيقاتٍ جديدة تُواكِبُ ما وَصَلَ إليه علم المخْطوطات الحَديث، وتَدْفَع بالقديم من تُراثِنا إلى طريق حضارة إنسانية شامِلَة.

والكتابُ الذي تُقدِّمُه المُؤسَّسَةُ اليوم «المَواعِظ والاعْتِبار في ذِكْر الخِطَط والآثار» لشَيْخ مؤرِّخي مصر الإسلامية تقيّ الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المَقْريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، يُعدُّ أَحَدَ مَفاخِر التُّراث العربي وأَهَمَّ مَصادِر تاريخ مصر الإسلامية، فهو مَصْدَرٌ لا غنى عنه لدارسي تاريخ مصر الإسلامية وآثارها فقد حَفِظ لنا المَقْريزي في هذا الكتاب - إضافَةً إلى مُلاحظاته الشَّخْصِيَّة - نُقُولًا مهمّة للمؤلِّفين القُدماء الذين فُقِدَت مؤلَّفاتُهم اليوم.

وكان الدكتور أيمن فؤاد سَيِّد قد قامَ بتحقيق مُسَوَّدَة هذا الكتاب المحفوظة في متحف طوبقبوسراي باستانبول ونَشَرَتْها له مُؤسَّسَةُ الفُرْقان سنة ١٩٩٥، وكان للاستقبال الطَّيِّب الذي قوبلت به هذه النَّشْرَة من جانِب المتخصِّصين والمعنيين بتاريخ وجغرافية وآثار مصر، دافِعًا قويًّا له للإقدام على تحقيق وإخراج نَصّ الكتاب كامِلًا بعد أن تَعَرَّف على نُسَخِه الأصلية، سواء مُسَوَّدات المَقْريزي أو النُّسَخ الكاملة المنسوخة عن أصوله المكتوبة بخطِّه والمحفوظة على الأخصّ في مكتبات استانبول.

وقد عَهَدت المُؤسَّسَةُ ممثَّلَة في مجلس الخُبَراء إلى الدكتور أيمن فؤاد بالقيام بعبء إخراج هذا الكتاب، فهو من المُتَخصِّصين في دِراسَة تاريخ القاهِرَة حيث كَتَبَ أُطْروحَةَ

عن «عاصِمَة مصر حتى نهاية عصر الفاطميين»، ونَشَرَ العديدَ من مَصادِر التاريخ المصري في العصر الفاطمي، وكَتَبَ تقييمًا جَديدًا للدَّوْلَة الفاطمية في مصر، كما أنَّه من خُبَرَاء عِلْم المخْطوطات وأَصْدَرَ فيه كتابَه «الكتاب العربي المخطوط وعلم المخْطوطات».

وقامَ الدكتور أيمن فؤاد بتَحْقيق الكتاب اعتمادًا على أَقْدَم نُسَخ الكتاب وأَهَمِّها المنقولة عن خَطّ المؤلِّف، وأضافَ إليه شُروحًا وتَعْليقات غنيَّة اعتمادًا على ما ظَهَر من نُصوصٍ جديدة ودراسات متخصِّصة حَديثَة، كما قامَ برَبْط أجزاء الكتاب بعضها ببعض وخرَّج معلوماته من مصادِرِها الأصلية. وسيقوم في الأجزاء الخاصَّة بوصف المَدينَة ومَساجِدها ومَدارسها وخوانِقها بإضافة صُوَرٍ ومُخَطَّطاتٍ لهذه المعالم الأثرية مع خَرائِط تُوَضِّح تَطَوُّر نُمو المدينة وأحْيائِها المختلفة منذ إنْشائِها وحتَّى عصر المَقْريزي في منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.

ومُؤَسَّسَةُ الفُرْقان إذ تُسْهم بنَشْر هذا الكتاب، تأْمَل أن تُؤَدِّي جزءًا من واجِبٍ كبيرٍ يُلْقى على عاتقها وعاتِق المؤسَّسات العلمية التي تُشارِكُها أهدافَها.

والله من وَراء القَصْد وهو الهادي إلى سَواء السَّبيل.

لندن يناير ٢٠٠٢

أحمد زكي يماني

رئيس مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحَمْدُ لله الذي عَرَّفَ وفَهَّمَ وعَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَكُن يَعْلَم ، وأَسْبَغَ على عِبادِه نِعَمًا ظاهِرةً وباطِنَةً[a]، ووالَى عليهم من مَزيدِ آلائِه مِنَنًا مُتظافِرَةً مُتواتِرَةً ، وبثَّهم في أرْضِه حينًا يتقلَّبون ، واسْتَخْلَفَهُم في مالِه فهم به يَتَنَعَّمون . وهَدَى قَوْمًا إلى اقْتِناص شَوارِدِ المعارفِ والعُلوم ، وشَوَّقَهم للتَّفَنُّن في مَسارِحِ التَّدَبُّر والرَّكْض بمَيادين الفُهوم ، وأَرْشَدَ قَوْمًا إلى الانْقطاع من دون الخَلْق إليه ، ووَفَّقَهم للاعتماد في كلِّ أمْرٍ عليه . وصَرَفَ آخرين عن كُلِّ مَكْرُمَةٍ وفَضيلَة ، وقَيَّضَ لهم قُرَناء قادُوهُم إلى كلِّ ذَميمَة من الأخلاق ورَذيلَة . وطَبَعَ على قُلوبِ آخرين فلا يكادون يَفْقَهون قَوْلًا ، وثَبَّطَهم عن سُبُل الخَيْرات فما اسْتَطاعوا قُوَّةً ولا حَوْلًا . ثم حَكَمَ على الكُلِّ بالفَناء ، ونَقَلهم جميعًا من دار التَّمْحيصِ والابْتِلاء ، إلى بَرْزخ البُيود والبَلاء ، وسيَحْشُرُهم أَجْمَعين إلى دار الجَزاء ، ليُوَفِّيَ كلَّ عامِلٍ منهم عَمَلَه ، ويسأله عَمَّا أَعْطاه وخَوَّلَه ، وعن مَوْقِفه بين يديه سُبْحانه وما أَعَدَّ له ، ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُون﴾ [الآية ٢٣ سورة الأنبياء] .

أَحْمَدُه سُبْحانُه حَمْدَ مَنْ عَلِمَ أنَّه إلـه لا يُعْبَد إلَّا إيَّاه ، ولا خالِقَ للخَلْق سِواه ، حَمْدًا يقتضي المَزيد من النَّعْماء ، ويُوالي المِنَن بتَجَدُّد الآلاء .

وصَلَّى الله على سَيِّدنا محمد عَبْده ورَسُوله ، ونَبِيِّه وخَليله ، سَيِّد البَشَر ، وأَفْضَل من مَضَى وغَبَر ، الجامِع لمَحاسِن الأخلاق والسِّيَر ، والمُسْتَحِق لاسم الكمال على الإطْلاق من البَشَر ، الذي كان نَبِيًّا وآدَم بين الماءِ والطِّين ، ورُقِمَ اسْمه من الأزَل في عِلِّيين ، ثم تَنَقَّلَ من الأصْلاب الفاخِرة الزكية إلى الأرْحام الطَّاهِرَة المَرْضِيَّة ، حتى بَعَثَه الله – عَزَّ وجَلَّ – إلى الخَلائِق أجمعين ، وخَتَم به الأنْبياءَ والمُرْسَلين ، وأَعْطاه ما لم يُعْطَ من الفَضْل[b] أَحَدًا من العالَمين ، وعلى آلِه وصَحابَته والتَّابِعين ، وسَلَّم تَسليمًا كثيرًا إلى يَوْم الدِّين .

---

a) بولاق: باطنة وظاهرة . b) ساقطة من بولاق .

وبَعْدُ ، فإنَّ عِلْمَ التَّاريخ من أَجَلِّ العُلُوم قَدْرًا ، وأَشْرَفِها عند العُقَلاء مكانَةً وخَطَرًا ، لما يَحْويه من المَواعِظ والإنْذار بالرَّحيل إلى الآخِرَة عن هذه الدَّار ، والاطِّلاع على مَكارِم الأَخْلاق ليُقْتَدى بها ، واسْتِعْلام مَذام الفِعال ليَرْغَب عنها أُولُو النُّهَى ؛ لا جَرَم أن كانت الأَنْفُسُ الفاضِلَة به وامِقَة ، والهِمَمُ العالية إليه مائِلَة وله عاشِقَة ، وقد صَنَّفَ فيه الأئِمَّةُ كثيرًا ، وضَمَّنَ الجِلَّةُ[a] كُتُبَهُم منه شيئًا كبيرًا .

وكانت مصرُ هي مَسْقَطَ رأسي ، ومَلْعَبَ أَتْرابي ومَجْمَعَ ناسي ، ومَغْنَى عَشيرتي وحامَّتي ، ومَوْطِنَ خاصَّتي وعامَّتي ، وجَوِّي[b] الذي رُبِّي جَناحي في وَكْره ، وعِشّ مأْرَبي فلا تَهْوى الأَنْفُسُ غير ذكره . لا زِلْت مُذْ شَذَوْت العِلْمَ ، وآتاني رَبِّي الفَطانَة والفَهْم ، أَرْغَبُ في مَعْرِفَة أَخْبارِها ، وأُحِبّ الإشْراف على الاغْتِراف من آبارِها ، وأَهْوى مُساءَلَة الرُّكْبان من سُكَّان دِيارِها .

/فقَيَّدْتُ بخَطِّي في الأَعْوام الكثيرة ، وجَمَعْتُ من ذلك فَوائِدَ قَلَّ ما يَجْمَعُها كِتابٌ ، أو يَحْويها لعِزَّتِها وغَرابَتِها إهاب . إلَّا أنَّها ليست بمُرَتَّبَة على مِثال ، ولا مُهَذَّبَة بطريقة ما نُسِجَ على مِنْوال . فأَرَدْتُ أن أُلَخِّص منها أَنْباءَ ما بديار مصر من الآثارِ الباقِيَة عن الأُمَم الماضِيَة والقُرون الخالية ، وما بقي بفُسْطاط مصر من المَعَاهِد غير ما كادَ يُفْنيه البِلَى والقِدَم ، ولم يَبْق إلَّا أن يَمْحو رَسْمَها الفَناءُ والعَدَمُ .

وأَذْكُرُ ما بمَدينَة القاهِرَة من آثار القُصور الزَّاهِرَة ، وما اشْتَمَلَت عليه من الخِطَط والأَصْقَاع ، وحَوَتْه من المباني البَديعَة الأَوْضاع ، مع التعريف بحالِ من أَسَّسَ ذلك من أَعْيان الأماثِل ، والتَّنْويه بذِكْر الذي شادَها مِن سُراة الأعاظِم والأفاضِل ؛ وأَنْثُر خِلال ذلك نُكَتًا لطيفَة وحِكَمًا بَديعَة شَريفَة ، من غير إطالَة ولا إكْثار ، ولا إجْحافٍ مُخِلٍّ بالغَرَض ولا اخْتِصار ، بل وَسَطٌ بين الطَّرَفَيْن ، وطريقٌ بَيْنَ بَيْنْ ؛ فلهذا سَمَّيْتُه كِتابَ «المَواعِظ والاعْتِبَار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثار» .

وإنِّي لأَرْجو أن يَحْظَى - إن شاءَ الله تعالى - عند الملوك ، ولا يَنْبُو عنه طِباع العامِّيِّ والصُّعْلوك ، ويُجِلُّه العالِمُ المُنْتهي ، ويُعْجَب به الطَّالِب المُبْتَدي ، وتَرْضاه خَلائِقُ العابِد النَّاسِكِ ، ولا يَمُجُّه سَمْعُ الخَليع الفاتِك ، ويَتَّخِذه أهلُ الرَّفاهة والبَطالَة[c] سَمَرًا ، ويَعُدُّه أولو الرأي والتدبير مَوْعِظَةً وعِبَرًا ، يستدلُّون به على عَظيم قُدْرَة الله ـ جلَّ جَلالُه[d] ـ في تَبْديل الأَبْدال ، ويَعْرِفون به عَجائِبَ صُنْع رَبِّنا سُبْحانه من تَنَقُّل الأُمُور إلى حالٍ بعد حال .

---

a) بولاق: الأجلة. b) بولاق: جؤجؤي. c) بولاق: أهل البطالة والرفاهية. d) بولاق: تعالى.

فإن كنتُ أحْسَنْتُ فيما جَمَعْت، وأَصَبْتُ في الذي صَنَّفْتُ[a] ووَضَعْتُ، فذلك من عَميم مِنَن الله – عزّ وجلّ[b] – وجَزيل فَضْله، وعَظيم أَنْعُمِه عليّ وجَليل طَوْلِه. وإن أنا أَسَأْتُ فيما فَعَلْتُ، وأَخْطَأْتُ إذ صَنَعْت[c]، فما أَجْدَر الإنسان بالإساءَة والعُيوب، إن لم يَعْصمه أو يَحْفَظْه[d] عَلّامُ الغُيوب:

[الكامل]

وما أُبَرِّئُ نَفْسي أنّني بَشَرٌ أَسْهُو وأُخْطِئُ ما لم يَحْمِني قَدَرُ
ولا تَرَى عُذْرًا أَوْلَى بذي زَلَلٍ من أن يَقولَ مُقِرًّا: إنّني بَشَرُ

فليُسْبِل النّاظِرُ في هذا التأليف على مُؤَلِّفِه ذَيْلَ سَتْره إن مَرَّت به هَفْوَة، وليُغْض تَجاوُزًا وصَفْحًا إن وَقَفَ منه على كَبْوَة أو نَبْوَة، فأيّ جَوادٍ – وإن عتقَ – ما يكبو؟ وأيُّ عَضْب مُهَنَّد لا يكلّ ولا يَنْبو؟ لاسِيَّما والخاطِرُ بالأفكار مَشْغولٌ، والعَزْمُ لالْتِواء الأُمور وتَعَسُّرها فاتِرٌ مَحْلولٌ، والذِّهْن من خُطُوب هذا الزَّمَن القَطُوب كَليلٌ، والقَلْبُ لتوالي المِحَن وتَواتُر الإحَن عَليل:

[الطويل]

يُعَانِدُني دَهْري كأنّي عَدُوُّه وفي كلّ يَوْمٍ بالكَريهَة يَلْقاني
فإن رُمْتُ شَيْئًا جاءَني منه ضِدُّه وإن رَاقَ لي يومًا تَكَدَّرَ في الثاني

اللّهُم غُفْرًا مّا هذا من التَّبَرُّم بالقَضاء، ولا التَّضَجُّر بالمَقْدور، بل إنَّهُ سَقيم ونَفْثَةُ مَصْدُور، يَسْتَرْوِح إن أَبْدَى التَّوَجُّع والأَنين، ويجد خفًّا من ثِقَلِه، إذا باحَ بالشَّكْوَى والحَنين:

[الطويل]

ولَوْ نَظَروا بَيْنَ الجَوانِح والحَشَا رَأَوْا من كِتاب الحُبِّ في كَبِدي سَطْرا
ولو جَرَّبُوا ما قد لَقِيتُ من الهَوَى إذن عَذَرُوني أو جَعَلْتُ لهم عُذْرا

والله أسألُ أن يُحَلِّي هذا الكتابَ بالقَبول عند الجِلَّة والعُلَماء، كما أَعُوذُ به من تَطَرُّق أَيْدي الحُسَّاد إليه والجُهَلاء، وأن يَهْديني فيه وفيما سِواه من الأَقْوال والأَفْعال إلى سَواء السَّبيل، إنَّه حَسْبُنا ونِعْم الوَكيل، وفيه جَلَّت قُدْرَتُه لي سِلْوٌ من كلّ حادِث، وعليه – عَزَّ وجَلَّ – أتوكَّل في جَميع الحَوادِث، لا إله إلَّا هُوَ سبحانه[e].

---

a) بولاق: صنعت. b) بولاق: تعالى. c) بولاق: وضعت. d) بولاق: إذا ... ويحفظه. e) بعد ذلك في بولاق: ولا معبود سواه.

ذِكْر الرُّؤُوس الثَّمانِيَة

اعْلَم أنَّ عادَةَ القُدَماء من المُعَلِّمين قد جَرَت أن يأتوا بالرُّؤُوس الثَّمانِية قَبْل افْتِتاحِ كلِّ كِتاب، وهي: الغَرَض، والعُنْوان، والمَنْفَعَة، والمَرْتَبَة، وصِحَّة الكِتَاب، ومن أيِّ صِناعَةٍ هو، وكَمْ فيه من أجْزاء، وأيّ أنْحاه التَّعاليم المستعملة فيه، فنقول:

أمَّا «الغَرَضُ» في هذا التَّأْليف، فإنَّه جَمْعُ ما تَفَرَّق من أخبار أرْض مصر وأحْوال سُكَّانها كي يَلْتَئِم من مَجْموعها مَعْرِفَةُ جُمَل أخْبار إقْليم مصر، وهي التي إذا حَصَلَت في ذِهْن إنسان، اقتدر على أن يُخْبِر في كلِّ وَقْت بما كان في أرض مصر من الآثار الباقية والبائِدة، ويَقُصّ أحوالَ من ابتدأها ومن حَلَّها، وكيف كانت مَصائرُ أُمورِهم وما يَتَّصل بذلك على سَبيل الاتِّباع لها بحَسَب ما تَحْصُل به الفائِدَة الكُلِّيَة بذلك الأثَر.

وأمَّا «عُنْوانُ» هذا الكِتَاب - أَعْني الذي وَسَمْتُه به - فإنِّي لمَّا فَحَصْتُ عن أخبار مصر، وَجَدْتها مختلطة متفرِّقة، فلم يتهيَّأ لي إذ جَمَعْتها أن أَجْعَل وَضْعَها مرتَّبًا على السنين، لعَدَم ضَبْط وَقْت كلِّ حادِثَة، لا سيَّما في الأَعْصُر الخالية، ولا أن أَضَعَها على أسْماءِ النَّاس / لِعِلَلٍ أُخَر تَظْهَرُ عند تَصَفُّح هذا التأليف.

فلهذا فَرَّقْتُها في ذِكْر الخِطَط والآثار، فاحْتَوَى كلُّ فَصْلٍ منها على ما يُلائمه ويُشاكِلُه، وصارَ بهذا الاعْتِبار قد جَمَعَ ما تَفَرَّق وتَبَدَّد من أَخْبَار مِصْر. ولم أَتَحاشَ من تَكْرار الخَبَر إذا احْتَجْت إليه، بطَريقَةٍ يَسْتَحْسِنها الأَريب ولا يَسْتَهْجِنها الفَطِن الأَديب، كي يَسْتَغْني مُطالِعُ كلّ فَصْل بما فيه عمَّا في غيرِه من الفُصُول، فلذلك سَمَّيته كِتابَ «المَواعِظِ والاعْتِبارِ في ذِكْر [a]الخِطَطِ والآثار».

وأمَّا «مَنْفَعَةُ» هذا الكتاب، فإنَّ الأَمْرَ فيها يَتَبَيَّنُ من الغَرَض في وَضْعه ومن عُنْوانه، أعني أنَّ مَنْفَعَته هي أن يُشْرِفَ المرءُ في زَمنٍ قصيرٍ على ما كان في أرْض مصر من الحَوادِث والتغييرات في الأَزْمِنَة المُتطاوِلَة والأَعْوام الكثيرة، فتتهَذَّبُ بتَدَبُّر ذلك نَفْسُه وتَرْتاضُ أخْلاقُه، فيُحبّ الخَيْرَ ويَفْعَله، ويَكْرَه الشَّرَّ ويَجْتنبه[b]، ويَعْرِف فَناء الدُّنْيا فيَحْظَى بالعُزُوف[c] عنها والإقْبال على ما يَبْقَى.

---

a) بولاق: بذكر. b) بولاق: بتجنبه. c) بولاق: بالإعراض.

وأمَّا «مَرْتَبَةُ» هذا الكِتَاب ، فإنَّه من جُمْلة أَحَد قِسْمَي العِلْم اللَّذين هما : العَقْلي والنَّقْلي ، فينبغي أن يَتفرَّغ لمطالَعته ويَتَدبُّر[a] مواعِظه بعد إتْقان ما تَجِبُ معرفته من العُلوم النَّقْلية والعلوم[b] العَقْلية . فإنَّه يحصل بتَدبُّره ، لمن أزالَ الله أكنَّة قلبه وغِشاوَةَ بَصَره ، نتيجةَ العِلْم بما صارَ إليه أبْناءُ جنسه ، بعد التَّخَوُّل في الأموال والجُنود ، من الفَناء والبُيود . فإذن مَرْتَبَتُه بعد مَعْرِفة أقسام العُلوم العَقْلية والنَّقْلية ، ليعرف منه كيف كان عاقِبَةُ الذين كانوا من قَبْل .

وأمَّا «واضِعُ» هذا الكِتَاب ومُرَتِّبه ، فاسْمُه أَحْمَد بن عليّ بن عبد القادِر بن محمد ، ويُعْرَف بابن[b] المَقْريزي[1] ، وُلِدَ بالقاهِرَة المُعِزِّيَّة من دِيار مِصْر بعد سنة ستين وسبع مائة من سني الهِجْرَة المُحَمَّدِيَّة ، ورُتْبَتُه من العلم[c] ما يَدُلّ عليه هذا الكِتَاب وغيره ممَّا أَلَّفه وجَمَعَه .

وأمَّا «مِنْ أيّ عِلْمٍ» هذا الكِتَاب ، فإنَّه من عِلْم الأَخْبار ، وبها عُرِفَتْ شَرائِعُ الله تعالى التي شَرَعَها ، وحُفِظَت سُنَنُ أنبياء الله[b] ورُسُله ، ودُوِّن هَدْيُهم[d] الذي يَقْتَدي به من وَفَّقَه الله تعالى[e] إلى عِبادَته ، وهَداهُ إلى طاعَتِه ، وحَفِظَه من مُخالَفَتِه . وبها نُقلت أخبارُ من مَضَى من الملوك والفَراعِنة ، وكيف حَلَّ بهم سُخْط الله تعالى لمَّا أَتَوا ما نُهُوا عنه . وبها اقْتَدَر الخَلِيقَةُ من أبْنَاء البَشَر على مَعْرِفَة ما دَوَّنوه من العُلوم والصَّنائع ، وتأتَّى لهم عِلْمُ ما غابَ عنهم من الأَقْطار الشَّاسِعَة والأَمْصَار المتنائية[f] ، وغير ذلك ممَّا لا يُنْكَر فَضْلُه . ولكلِّ أُمَّة من أُمَمِ العَرَب والعَجَم ، على تَبايُن آرائِهم واخْتِلاف عَقائِدِهم ، أخبارٌ مَعْروفَة عندهم مَشْهورَة ذائِعَة بينهم . ولكلِّ مِصْرٍ من الأَمْصَار المعمورة حَوادِثُ قد مَرَّت به ، يَعْرِفُها عُلماءُ ذلك المِصْر في كلِّ عَصْر . ولو اسْتَقْصَيْتُ ما صَنَّفَ عُلماءُ العَرَب والعَجَم في ذلك لتجاوَز حَدّ الكَثْرَة ، وعَجَزَت القُدْرَة البشرية[g] عن حَصْره .

وأمَّا «أجْزاءُ» هذا الكتاب فإنَّها سَبْعة :

---

a) بولاق: تدبر. b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: العلوم. d) بولاق: هداهم. e) ساقطة من الأصل. f) بولاق: النائية. g) ساقطة من بولاق.

---

[1] واضح مما جاء في نسخة الأصل – وهي نقلا عن خط المقريزي – أن المقريزي لقبٌ لجد مؤلفنا أحمد بن عليّ المقريزي ، يؤكد ذلك ما كتبه بخطه على ظهرية الجزء الأول من كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» المحفوظة في مكتبة يني جامع باستانبول ، فبعد أن ذكر نسبه قال: الشهير جده بالمقريزي .

أَوَّلُها : يَشْتَمِلُ على جُمَلِ أَخْبار[a] أَرْض مِصْر وأَحْوَال نِيلها وخَراجِها وجِبالِها .

وثانِيها : يَشْتَمِلُ على كَثيرٍ من مُدُنِها وأَجْناسِ أَهْلِها .

وثالِثُها : يَشْتَمِلُ على أَخْبار فُسْطاط مصر ومَنْ مَلَكها .

ورابِعُها : يَشْتَمِلُ على أَخْبارِ القاهِرَة وخَلائِفها ، وما كان لهُم من الآثار .

وخامِسُها : يَشْتَمِل على ذِكْر ما أَدْرَكْتُ عليه القاهِرَة وظَواهِرَها من الأَحْوال .

وسادِسُها : يَشْتَمِلُ على ذِكْر قَلْعَة الجَبَل ومُلوكِها .

وسابِعُها : يَشْتَمِلُ على ذِكْر الأَسْباب التي نَشَأَ عنها خَرابُ إِقْليم مصر .

وقد تَضَمَّنَ كلُّ جُزْءٍ من هذه الأَجْزاء السَّبْعَة عِدَّةُ أَقْسام .

وأَمَّا «أَيُّ أَنْحاء التَّعاليم» قَصَدْتُ[b] في هذا الكِتاب ، فإِنِّي سَلَكْتُ فيه ثَلاثَة أَنْحاء ، وهي : «النَّقْلُ من الكُتُب المُصَنَّفَة في العُلوم» ، و«الرِّوايَةُ عَمَّن أَدْرَكْتُ من مَشْيَخَة العِلْم وجُلَّة الناس» ، و«المُشاهَدَة لما عايَنْتُه ورَأَيْتُه» .

فأَمَّا «النَّقْلُ» من دَواوين العُلَماء التي صَنَّفوها في أَنْواع العُلوم ، فإِنِّي أَعْزو كلَّ نقْلٍ إلى الكِتاب الذي نَقَلْتُه منه ، لأَخْلُصَ من عُهْدَتِه وأَبْرَأَ من جَريرَته ؛ فكثيرٌ مِمَّن ضَمَّني وإيَّاه العَصْرُ واشْتَمَل علينا المِصْرُ ، صَارَ لِقِلَّة إِشْرافِه على العُلوم وقُصُور باعِه في مَعْرِفَة [c]عُلوم التَّاريخ وجَهْل[c] مَقالات النَّاسِ ، تَهَجَّمَ بالإِنْكار على ما لا يَعْرِفه ، ولو أَنْصَفَ لعَلِمَ أَنَّ العَجْزَ من قِبَلِه . وليس ما تَضَمَّنَه هذا الكِتَابُ من العِلْم الذي يُقْطَعُ عليه ولا يُحْتاج في الشَّريعة إليه ، وحَسْبُ العالِمِ أن يَعْلَم ما قيل في ذلك ويَقِف عليه .

وأَمَّا «الرِّوايَةُ» عمَّنْ أَدْرَكْتُ من المشايخ والجِلَّة[d]، فإِنِّي - في الأَكْثَر والغالِب[e] - أُصَرِّح باسْم من حَدَّثَني ، إلَّا أَلَّا يُحْتاج إلى تَعْيينه ، أو أكون قد أُنْسيتُه ، وقَلَّ ما يَتَّفِقُ مثل ذلك .

وأَمَّا «ما شَاهَدتُه» ، فإِنِّي أَرْجو أن أَكُونَ - ولله الحَمْد - غَيْر مُتَّهَم ولا ظَنين[f] .

وقد قُلْت في هذه الرُّؤوس الثَّمانية ما فيه مَقْنَعٌ[g] وكِفايَة ، ولم يَبْقَ إلَّا أن أَشْرَعَ فيما قَصَدْتُ . وعَزْمي أن أَجْعَلَ الكَلامَ في كلِّ خُطٍّ من الأَخْطَاط ، وفي كلِّ أَثَرٍ من الآثار على حِدَة ، ليكون

---

a) بولاق: جمل من أخبار. b) بولاق: التي قصدت. (c-c) ساقطة من الأصل. d) بولاق: من الجلة والمشايخ. e) بولاق: في الغالب والأكثر. f) الأصل: ضنين. g) بولاق: متاع.

العِلْمُ بما يَشْتَمل عليه من الأَخْبَار أَجْمَع وأَكْثَر فائِدَة وأَسْهَل تناوُلًا ، والله يَهْدي من يَشَاء إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ، وفَوْقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عَليم .

فَصْــــل

وأَوَّلُ[a] من رَتَّب خِطَطَ مصر وآثارَها[b]، وذَكَرَ أَسْبابَها في ديوانٍ جَمَعَه ، أبو عُمَر محمد بن يُوسُف الكِنْدي . ثم كَتَبَ / بعدَه القاضي أبو عبد الله محمَّد بن سَلامَة القُضَاعِيُّ كِتابَه المَنْعُوت بـ «المُخْتار في مَعْرِفَة[c] الخِطَطِ والآثار» ، وماتَ في سنة أربعٍ[d] وخمسين وأربع مائة قبل سِنِي الشِّدَّة . فدَثَرَ أَكْثَرُ ما ذَكَراه ، ولم يَبْقَ إلَّا لُمَعٌ ومَوْضِعٌ بَلْقَع ، بما حَلَّ بمصر من سِنِي الشِّدَّة المُسْتَنْصِرِيَّة من سنة سبعٍ وخمسين إلى سنة أربعٍ وستين وأربع مائة من الغَلاء والوَباء : فماتَ أَهْلُها ، وخَرِبت دِيارُها ، وتَغَيَّرت أَحْوالُها ، واسْتَوْلَى الخَرَابُ على عَمَلِ فَوْق[1] من الطَّرَفَيْن بجانِبِ[e] الفُسْطَاط الغَرْبي والشَّرْقي .

فأمَّا الغَرْبِيُّ فمن قَنْطَرة بني وَائِل ، حيث الوَرَّاقات الآن قَرِيبًا من باب القَنْطَرَة خارج مَدينَة مِصْر ، إلى الشَّرَف المعروف اليوم[f] بالرَّصْد وأنت مارّ إلى القَرافَة الكُبْرَىٰ . وأمَّا الشَّرْقِيُّ فمن طَرَف بِرْكَة الحَبَش التي تَلي القَرافَة إلى نحو جامِع أَحْمد بن طُولون .

ثم دَخَلَ أَميرُ الجُيُوش بَدْرُ الجَماليّ إلى مصر في سنة ستّ وستين وأربع مائة ، وهذه المَوَاضِع خاوِيَة على عُرُوشِها ، خالِيَة من سُكَّانِها وأَنيسِها ، قد أبادَهم الوَباءُ واليَبَاب ، وشَتَّتَهُم الموتُ والخَرَابُ . ولم يَبْقَ بمصر إلَّا بَقَايَا من النَّاس كأنَّهم أَمْواتٌ قد اصْفَرَّت وُجوهُهُم ، وتَغَيَّرَت سِحَنُهم من غَلاء الأَسْعَار وكَثْرَة الخَوْف من العَسْكَرِيَّة ، وفَساد طَوائِف العَبيد والمِلْحِيَّة ، ولم يَجد من يَزْرَع الأَراضي[2] .

هذا ، والطُّرقات قد انْقَطَعت [g]بَرًّا وبَحْرًا[g] إلَّا بخِفارَة وكُلْفَة كبيرة وصارَت القاهِرَةُ أيضًا يبابًا دائِرَة ، فأباحَ للناس من العَسْكرِيَّة والمِلْحِيَّة والأَرْمَن ، وكلُّ من وَصَلت قُدْرَتُه إلى عِمارَة ، أن يَعْمُر

---

a) بولاق: أول. b) ساقطة من الأصل. c) بولاق: في ذكر. d) بولاق: سبع. e) بولاق: بجانبي.
f) بولاق: الآن. (g-g) بولاق: بحرا وبرا.

---

[1] انظر عن عمل فوق فيما يلي ١: ٢٩٩ . [2] انظر فيما يلي ١: ٣٦٤.

ما شاءَ في القاهِرَة ، ممَّا خَلا من دُور الفُسْطَاط بمَوْت أَهْلِها . فأَخَذَ الناسُ في هَدْم المساكِن ونَحْوها بمصر ، وعَمَّروا بها في القاهِرَة ، فكانَ[a] هذا أَوَّلَ وَقْتِ اخْتَطَّ الناسُ فيه بالقاهِرَة[1] .

ثم كان المُنَبِّهَ بعد القُضَاعِيّ على الخِطَطِ والتَّعْريف بها ، تِلْميذُه أبو عبد الله محمَّد بن بَرَكات النَّحْوي ، في تَأْليفٍ لَطيفٍ نَبَّه فيه الأَفْضَلَ أبا القاسِم شاهِنْشاه بن أَمير الجُيُوش بَدْر الجَمالي ، على مَوَاضِع قد اغْتُصِبَت وتُمُلِّكت بعد ما كانَت أَحْباسًا .

ثم كَتَبَ الشَّريفُ محمَّد بن أَسْعَد الجَوَّانيّ كتابَ «النُّقَط لعَجْم[b] ما أَشْكِلَ من الخِطَط» فنَبَّه[c] فيه على مَعالِمَ قد جُهِلَت ، وآثار قد دَثَرَت .

وآخِر مَنْ كَتَب في ذلك القاضي تاجُ الدين مُحَمَّد بن عبد الوَهَّاب بن المُتَوَّج كِتاب «اتِّعَاظ المُتَأَمِّل وإيقَاظ المُتَغَفِّل في الخِطَط» بَيَّنَ فيه جُمَل أَحْوال[d] مصر وخِطَطِها ، إلى أعْوام بضع وعشرين وسبع مائة . فدَثَرَ بعده مُعْظَمُ ذلك في وَبَاء سنة تسع وأربعين وسبع مائة، ثم في وَباءِ سنة إحدى وستين ، ثم في غَلَاءِ سنة ست وسبعين وسبع مائة .

وكَتَب القاضي مُحْيي الدِّين عبد الله بن عبد الظَّاهِر كِتابَ «الرَّوْضَة البَهِيَّة الزَّاهِرَة في خِطَطِ المُعِزِّيَّة القاهِرَة» ففَتَحَ فيه بابًا كانت الحاجَةُ داعِيَةً له[e][2] .

ثم تزايَدَت العِمارَةُ من بعده ، في الأَيَّام النَّاصِريَّة محمَّد بن قَلاوون بالقاهِرَة وظَواهِرِها ، إلى أن كادَت تَضيقُ عن[f] أَهْلِها ، حتى حَلَّ بها وَباءُ سنة تسع وأربعين ، وسنة إحدى وستين ، ثم غَلاءُ سنة ست وسبعين ، فخَرِبَت بها عِدَّةُ أماكِن .

فلمَّا كانت الحَوادِثُ والمِحَنُ من سنة ستّ وثمان مائة ، شَمِلَ الخَرابُ القاهِرَةَ ومِصْر وعامَّة الإِقْليم . وسأُورِد من ذِكْر الخِطَطِ ما تَصِلُ إليه قُدْرَتي إن شاءَ الله .

---

a) بولاق: وكـان. b) بولاق: بعجم. c) بولاق: نبه. d) بولاق: جملًا من أحوال. e) بولاق: إليه. f) بولاق: على.

---

[1] انظر فيما يلي ١: ٣٦٤.

[2] انظر عن هذه الكتب وعن تاريخ التأليف في الخِطَط المصرية قبل المقريزي وبعده Fu'âd Sayyid, A., «L'évolution de la composition du genre de Khitat en Égypte musulmane» dans *The Historiography of Islamic Egypt (C. 950-1800)*, Leiden-Brill 2001, pp. 77-92، ودراسة مصادر المقريزي في مقدمة الكتاب .

ذِكْرُ طَرَفٍ من هَيْـئَـةِ الأَفْلاك

اعْلَم أنَّه لمَّا كانَت مِصْرُ قِطْعَةً من الأرض ، تعَيَّنَ - قبل التَّعْريف بمَوْقِعِها من الأرض ، وتَبْيين مَوْقِع[a] الأرض من الفَلَك - أن أَذْكُرَ طَرَفًا من هَيْئة الأفْلاك ، ثم أَذْكُر صُورَة[b] الأَرْض ومَوْقِع[a] الأقاليم منها ، وأَذْكُر مَحَلّ مِصْرَ من الأرْضِ ومَوْضِعها من الأقاليم ، وأَذْكُر حُدودَها واشْتِقاقَها وفَضائِلَها وعَجائِبَها وكُنوزَها وأَخْلاق أَهْلِها ، وأَذْكُر نِيلَها وخُلجانَها وكُوَرَها ومَبلغَ خَراجِها ، وغير ذلك مما يَتَعَلَّق بها ، قبل الشُّروع في ذِكْر خِطَط مِصْر والقاهِرَة ، فأَقُول :

عِلْمَ النُّجوم ثَلاثة أَقْسام :

الأَوَّل : مَعْرِفَةُ تَرْكيب الأَفْلاك ، وكَمِّيَة الكَواكِب ، وأَقْسام البُروج ، وأَبْعادها ، وعِظَمِها ، وحَرَكَتها ، ويُقال لهذا القِسْم «عِلْمُ الهَيْئَة» .

والقِسْمُ الثَّاني : عِلْمُ حَلّ[c] الزِّيج وعِلْمُ التَّقْويم .

والقِسْمُ الثَّالِث : مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّة الاسْتِدْلال بدَوَران الفَلَك وطَوالِع البُروج على الحَوادِث قَبْل كَوْنِها ، ويُسَمَّى هذا القِسْم «عِلْم الأَحْكام» .

والغَرَضُ هنا إيراد نُبَذٍ من «علْم الهَيْئَة» تكون تَوْطِئَةً لما يأتي ذِكْره .

اعْلَم أنَّ الكَواكِبَ أَجْسامُ كُرِّياتٍ ، والذي أَدْرَكَ منها الحُكَماءُ بالرَّصْد أَلْف كَوْكَب وتسعة وعشرون كَوْكَبًا . وهي على قسمين : سَيَّارَة ، وثَابِتَة . فالسَّيَّارَةُ سَبْعَة ، وهي زُحَل والمُشْتَري والمَرِّيخ والشَّمْس والزُّهَرَة وعُطارِد والقَمَر . وقد نُظِمَت في بَيْتٍ واحِد وهو :

[الكامل]

زُحَلٌ مشْتَري مَرِّيخه من شَمْسِه   فـتـزاهـرت بـعُـطـارِد أَقْـمـارُ[d]

ويُقالُ لهذه السَّبْعة : الخُنَّس ، وقيل إنَّها التي عَنَاها الله سبحانه[e] بقوله : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ * الجوارِ الكُنَّسِ﴾ [الآيتان ١٥، ١٦ سورة التكوير] ، والتي عَناها الله بقوله : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [الآية ٥ سورة النازعات] ، وقيل لها الخُنَّس ، لاسْتِقامَتِها في سَيْرِها ورُجُوعِها . وقيل لها الكُنَّس ، لأنَّها تَجْري في البُرُوج ثم تُكْنَس ، أي تَسْتَتِر ، كما يَكْنِس الظَّبْي .

---

a) بولاق: موضع.   b) الأصل: صوب.   c) ساقطة من بولاق.   d) بولاق: الأقمار.   e) بولاق: تعالى.

وقيل: الكُنَّسُ والخُنَّسُ منها خمسة، وهي ما سِوَى الشَّمْس/ والقَمَر، سُمِّيَت بذلك من الانْخِنَاس، وهو الانْقِباض. وفي الحَدِيث: «الشَّيْطانُ يُوَسْوِسُ للعَبْد، فإذا ذَكَرَ الله خَنَسَ»، أي انْقَبَضَ ورَجَع، فيكون الخَنَسُ على هذا في الكَواكِب بمعني الرُّجُوع، وسُمِّيت بالكُنَّس من قَوْلهم: كَنَسَ الظَّبْيُ إذا دَخَلَ الكِنَاس، وهو مَقَرّه. فالكَنْسُ على هذا في الكَواكِب بمعنى اخْتِفائها تحت ضَوْءِ الشَّمْس.

ويُقالُ لهذه الكَواكِب: المُتَحيِّرة، لأنَّها تَرْجع أحيانًا عن سَمْت مَسيرها بالحَرَكة الشرقية وتتبع الغَربية في رأْي العَيْن، فيكون هذا الارْتِدادُ لها شَبَه التَّحَيُّر.

وهذه الأسْمَاءُ التي لهذه الكَواكِب يُقالُ: إنَّها مُشْتَقَّة من صِفاتِها. فزُحَل مُشْتَقٌّ من زَحَلَ فُلانٌ إذا أَبْطأ، سُمِّيَ بذلك لبُطْء سَيْره، وقيل الزُّحْل[a]، والزَّحِيلُ[b] الحِقْد، وهو بزَعْمِهم يدلُّ على ذلك. ويُقال إنَّه المُراد في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ والطَّارِقِ * وما أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الآيات ١ - ٣ سورة الطارق].

والمُشْتَرِي سُمِّيَ بذلك لحُسْنه، كأنَّه اشْتَرى الحُسْنَ لنَفْسه، وقيل لأنَّه نَجْم الشِّراء والبَيْع، ودَليلُ الرِّبْح والمال في قَوْلهم.

والمِرِّيخُ مأْخوذٌ من المَرْخ، وهو شَجَرٌ يَحْتَكّ بعضُ أغْصَانه ببعض فيُوري نارًا، سُمِّيَ بذلك لاحْمِراره. وقيل المِرِّيخُ سَهْم لا ريش له، إذا رُمِيَ به لا يَسْتَوي في مَمَرِّه، وكذا المِرِّيخ فيه الْتِواءٌ كثيرٌ في سَيْره، ودلالته بزَعْمهم تُشْبه ذلك.

والشَّمْسُ لمَّا كانت واسِطَةً بين ثلاثَة كَواكِب عُلْوية، لأنَّهم من فَوْقِها، وثلاثة كَواكِب[c] سُفْلية لأنَّهم من تَحْتها، سُمِّيَت بذلك لأنَّ الوَاسِطَةَ التي في المِخْنَقَة تُسَمَّى شَمْسَة.

والزُّهَرَةُ من الزَّاهِر، وهو الأبيض النَّيِّر من كلِّ شيء.

وعُطارِدُ هو النَّافِذ في كلِّ الأُمورِ، ولذلك يُقالُ له أيضًا الكاتِب، فإنَّه كثيرُ التَّصَرُّف مع ما يُقارِنه ويُلابِسه من الكَواكِب.

والقَمَرُ مأْخوذٌ من القُـمْرَة، وهي البَيَاض، والأَقْمَرُ: الأَبْيَض.

---

a) بولاق: للزحل. b) بولاق: والزحل. c) ساقطة من بولاق.

ويُقالُ لزُحَل كِيوان، وللمُشْتري تِيْر[1] والبَرْجِيس أيضًا، وللمَرِّيخ بَهْرام، وللشَّمْس مِهْر، وللزُّهَرَة أَناهيد وبيدخت أيضًا، ولعُطارد هِرْمِس، وللقَمَر ماه. وقد جُمِعَت في بَيْتٍ واحِدٍ وهو[a]:

[البسيط]

لا زِلْت تَبْقَى وتَرْقَى للعُلَا أَبَدًا ... ما دامَ للسَّبْعَة الأَفْلاك إحْكامُ
مِهْرٌ وماهُ وكِيوانٌ وتِيْرٌ معًا ... وهِـرْمِـسٌ وأَنـاهِـيـدُ وبَـهْـرامُ

ويُقالُ لما عَدَا هذه الكَواكِب السَّبْعَة من بقيَّة نُجوم السَّماء: الكَواكِب الثَّابِتة، سُمِّيَت بذلك لثَباتِها في الفَلَك بِمَوْضِعٍ واحِدٍ، وقيل لبُطْءِ حَرَكَتِها، فإنَّها تَقْطع الفَلَك بزَعْمِهم بعد كلِّ ستة وثلاثين ألف سنة شَمْسية مَرَّةً واحِدة. ولكُلِّ كَوْكَبٍ من الكَواكِبِ السَّبْعة السَّيَّارةَ فَلَكٌ من الأفْلاك يَخُصّه.

والأَفْلاكُ أَجْسامٌ كُرِيات مُشِفَّات، بعضُها في جَوْف بعض، وهي تسعة: أَقْرَبها إلينا فَلَكُ القَمَرِ، وبعده فَلَك عُطارِد، ثم بعده فَلَكُ الزُّهَرَة، وبعده فَلَكُ الشَّمْس، وفَوْقَه فَلَكُ المرِّيخ، ثم فَلَكُ المُشْتَري، وفَوْقه فَلَكُ زُحَل، ثم فَلَكُ الثَّوابِت وفيه كلُّ كَوْكَب يُرَى في السَّماء سوى السَّبْعَة السَّيَّارة، ومن فَوْق فَلَك الثَّوابِت الفَلَكُ المُحيطِ، وهو الفَلَكُ التاسع ويُسَمَّى الأَطْلَس، وفَلَكُ الأَفْلاك، وفَلَكُ الكُلّ.

وقد اخْتُلِف في الأَفْلاك: فقيل هي السَّمٰوات، وقيل بل السَّمٰوات غيرها، وقِيل هي كُرِيَّة، وقيل غير ذلك، وقيل الفَلَكُ الثامِن هو الكُرْسي، والفَلَكُ التاسِع هو العَرْشُ، وقيل غير ذلك.

وهذا الفَلَكُ التاسع دائِم الدَّوَران كالدُّولاب، ويدور في كلِّ أربعة وعشرين ساعَة مستوية دَوْرَةً واحدة. ودَوَرانُه يكون أبدًا من المشْرق إلى المغْرب. ويدور بدَوَرانِه جميعُ الأفْلاك الثمانية، وما حَوَتْه من الكَواكِب، دَوَرانًا حركته قَسْرية لإدارة التاسع لها. وعن حَرَكَة التاسع المذكور يكون اللَّيْلُ والنَّهارُ، فالنَّهارُ مُدَّة بَقاء الشَّمْس فوق أُفُق الأرض، واللَّيْلُ مُدَّة غَيْبوبَة الشَّمْس تحت أُفُق الأرض.

---

a) بولاق: وهو هذا.

---

[1] ورد الاسم هكذا في سائر النسخ، وفضَّل Wiet قراءتها «بيل» وهو الاسم السرياني للمشتري.

وفَلَكُ الكواكِب الثَّابِتَة مقسومٌ باثني عشر قِسْمًا كحُجَز البِطِّيخة ، كلّ قِسْم منها يُقالُ له بُرْج ، وهي : الحَمَل ، والثَّوْر ، والجوزاء ، والسَّرطان ، والأَسَد ، والسُّنبلة ، والميزان ، والعَقْرب ، والقَوْس ، والجَدْي ، والدَّلْو ، والحُوت . وكلُّ بُرْجٍ من هذه البُروجِ الاثني عشر ينقسم ثلاثين قِسْمًا ، يُقالُ لكلِّ قسمٍ منها دَرَجَة ؛ وكلُّ دَرَجَة من هذه الثلاثين مقسومَة ستين قسمًا ، يُقالُ لكلِّ قسمٍ منها دَقيقَة ؛ وكلُّ دقيقة من هذه الستين مقسومة ستين قسمًا ، يُقال لكلِّ قسمٍ منها ثانية ، وهكذا إلى الثَّوالِث والرَّوابع والخَوامِس إلى الثَّواني عشر وما فَوْقَها من الأجْزاء .

وكلُّ ثَلاثَة بُروج تُسَمَّى فَصْلًا ، فالزَّمانُ على ذلك أربعةُ فُصُول ، وهي : الرَّبيعُ ، والصَّيفُ ، والخَريفُ ، والشِّتاءُ .

وجِهاتُ الأَقْطار أربعة : الشَّرْقُ ، والغَرْبُ ، والشَّمالُ ، والجَنُوب .

والأَرْكانُ أربعة : النَّارُ ، والهَوَاءُ ، والماءُ ، والتُّرابُ .

والطَّبائعُ أربعة : الحَرَارَةُ ، والبُرودَةُ ، والرُّطوبَةُ ، واليُبُوسَةُ .

والأَخْلاطُ أربعة : الصَّفْراءُ ، والسَّوْداءُ ، والبَلْغَم ، والدَّمُ .

والرِّياحُ أربعة : الصَّبَا ، والدَّبور ، والشَّمال ، والجَنوب .

فالبُروجُ : منها ثلاثة رَبيعية ، صاعِدَة في الشَّمال ، زائِدَة النَّهار على اللَّيْل ، وهي الحَمَل والثَّوْر والجَوْزَاء . وثلاثة صَيْفية ، هابِطة في الشَّمال ، آخِذَة اللَّيْل من النَّهار ، وهي السَّرطان والأَسَد/ والسُّنْبُلَة . وثلاثة خَرِيفية ، هابطة في الجَنُوب زائِدة اللَّيْل على النَّهار ، وهي : الميزان والعَقْرَب والقَوْس . وثلاثة شتوية ، صاعِدَة في الجَنوب آخِذَة النَّهار من اللَّيْل ، وهي الجَدْي والدَّلْو والحُوت .

والفَلَكُ المُحيط - كما تَقَدَّم - دائِمُ الدَّوَران كالدولاب ، يدور أبدًا من المَشْرِق إلى المَغْرب فوق الأرض ، ومن المَغْرب إلى المَشْرق تحتها . فيكون دائمًا نصف الفَلَك - وهو سَتَّة بُرُوج بمائة وثمانين دَرَجَة - فوق الأرض ، ونصفه الآخر - وهو ستة بُروجٍ بمائة وثمانين دَرَجة - تحت الأرض .

وكلَّما طَلَعت من أُفُق المَشْرق دَرَجَةٌ من درجات الفَلَك التي عِدَّتُها ثلاث مائة وستون دَرَجة ، غَرَبَ نظيرُها في أُفُق المَغْرب من البُرْج السابع ، فلا يزال دائمًا ستةُ بُروج طُلوعُها بالنَّهار ، وستةُ بُروج طُلوعُها بالليل .

والأُفُقُ عبارة عن الحدّ الفاصِل من الأرض بين المَرْئي والخَفِيّ من السَّماء.

والفَلَكُ يدور على قُطْبَيْن: شمالي وجنوبي، كما يَدُور الحُقّ على قُطْبَي المَخْرَوطة، ويُقَسِّم الفَلَكَ خَطٌّ من دائِرة تُقَسِّمه نِصْفَين مُتساويين، بُعْدُها من كلا القُطْبَيْن سَواء، وتُسَمَّى هذه الدائِرَة دائِرَة مُعَدِّل النَّهار، فهي تُقاطِع فَلَك البُروج. ودائِرَة فَلَك البُروج تُقاطِع دائِرَة مُعَدِّل النَّهار. ويميل نصفُها إلى الجانِب الشَّمالي بقَدْر أربع وعشرين دَرَجَة تقريبًا، وفي هذا النصف[a] قُسِمَت البُرُوج الستة الشَّمالية، وهي من أوَّل الحَمَل إلى آخر السُّنْبُلَة. ويميل نصفُها الثاني عنها إلى الجنوب بمثل ذلك، وفيه قُسِمَت البُرُوج الستة الجنوبية، وهي من أوَّل بُرْج الميزان إلى آخر بُرْج الحُوت.

ومَوْضِعُ تَقاطُع هاتين الدَّائِرتين - أعْني دائِرَة مُعَدِّل النَّهار ودائرة فَلَك البُرُوج - من الجانبين، هما نُقْطَتا الاعْتدالين، أعني رأس الحَمَل ورأس الميزان.

ومَدارُ الشَّمْس والقَمَر وسائِر النُّجُوم على مُحاذاة دائرة فَلَك البُرُوج دون دائِرَة مُعَدِّل النَّهار؛ وتَمُرُّ الشَّمْسُ على دائرة مُعَدِّل النَّهار عند حُلولها بنُقْطَتَي الاعتدالين فقط، لأنَّها مَوْضعُ تَقاطُع الدائرتين، وهذا هو خَطُّ الاسْتِواء الذي لا يختلف فيه الزَّمانُ بزيادة اللَّيْل على النَّهار، ولا النَّهارُ على اللَّيْل، لأنَّ مَيْلَ الشَّمْس عنه إلى كِلا الجانبين، الشمالي والجنوبي، سَوَاء.

فالشَّمْسُ تَدُورُ الفَلَك، وتَقْطَع الاثني عشر بُرْجًا، في مُدَّة ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا ورُبْع يوم بالتقريب، وهذه هي مُدَّةُ السَّنَة الشَّمْسِيَّة، وتُقِيم في كلّ بُرْج ثلاثين يومًا وكَسْرًا من يوم، وتكون أبدًا بالنَّهار ظاهرة فوق الأرْض وباللَّيل بخِلاف ذلك.

وإذا حَلَّت في البُروج السِّتَّة الشمالية - التي هي الحَمَل والثَّوْر والجَوْزَاء والسَّرطان والأَسَد والسُّنْبلَة - فإنَّها تكون مُرْتَفِعة في الهَواء، قريبة من سَمْت رُؤوسِنا، وذلك زَمَن فَصْل الرَّبيع وفَصْل الصَّيْف.

وإذا حَلَّت في البُرُوج الجنوبية - وهي الميزان والعَقْرَب والقَوْس والجَدْي والدَّلْو والحُوت - كان فَصْلُ الخَريف وفَصْلُ الشِّتاء، وانْحَطَّت الشَّمْسُ وبَعُدَت عن سَمْت الرؤوس.

وزَعَم وَهْبُ بن مُنَبِّه أنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ الله تعالى من الأَزْمِنَة الأربعة الشِّتاء، فَجَعَلَه بارِدًا رَطْبًا، وخَلَق الرَّبيع فجَعَلَه حارًّا رَطْبًا، وخَلَقَ الصَّيْف حارًّا يابِسًا، وخَلَقَ الخَريف بارِدًا يابِسًا.

---

a) بولاق: وهذا النصف فيه.

وأوَّلُ الفُصول، عند أهل زَماننا، الرَّبيع؛ ويكون فَصْلُ الرَّبيع عندما تنتقل الشَّمْسُ من بُرْج الحُوت.

وقد اختلف القُدَماءُ في البداية من الفُصُول: فمنهم من اختار فَصْل الرَّبيع وصَيَّرَه أوَّل السَّنَة، ومنهم من اخْتار تَقْديم الانْقِلاب الصَّيْفي، ومنهم من اخْتَار تَقْديم الاعْتِدال الخَريفي، ومنهم من اخْتَار تَقْديم الانْقِلاب الشَّتْوي.

فإذا حَلَّت أوَّلَ جزء من بُرْج الحَمَل، استوى اللَّيْلُ والنَّهارُ، واعْتَدَل الزَّمانُ، وانْصَرَم[a] الشِّتاءُ، وحَلَّ[b] الرَّبيعُ، وطابَ الهَوَاءُ، وهَبَّ النَّسيمُ، وذابَ الثَّلْجُ، وسالَت الأَوْدية، ومَدَّت الأَنْهارُ - فيما عدا مصر - ونَبَتَ العُشْبُ، وطال الزَّرْعُ، ونَما الحَشيشُ، وتَلألأ الزَّهْرُ، وأَوْرَقَ الشَّجَرُ، وتَفَتَّح النَّوْرُ، واخْضَرَّ وَجْهُ الأَرْض، ونَتَجَت البَهائِمُ، ودَرَّت الضُّروعُ، وأَخْرَجت الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَت، وصارَت كصَبِيَّة شابَّة قد تَزَيَّنَت للنَّاظرين[1].

ولله دَرُّ القائل، وهو الحافِظ جَمالُ الدين يوسُف بن أحمد اليَغْموري[c] [2]، رحمه الله تعالى:

[الكامل]

واسْتَنْشِقُوا لِهَوا الرَّبيع فإنَّه ... نِعْمَ الصَّديق[d] وعنده أَلْطافُ
يُغَذِّي الجُسومَ نَسيمُه فكأنَّه[e] ... روحٌ حَواها جَوْهَرٌ شَفَّافُ

وقال ابنُ قُتَيْبَة[3]: ومن ذلك الرَّبيع يَذْهَب النَّاسُ إلى أنَّه الفَصْلُ الذي يَتْبَع الشِّتاء، ويأتي فيه

---

a) بولاق: انصرف. b) بولاق: ودخل. c) بولاق: اليعمري. (d-d) بولاق: النسيم. e) بولاق: وكأنه.

---

[1] عن ذكر الفصول وأزمنتها وطبائعها راجع، القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٠٣-٤١٦.

[2] الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليَغموري الدمشقي المتوفى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، عرف باليغموري لمصاحبته للأمير شهاب الدين بن يَغْمُور وملازمته له (ابن شاكر: فوات الوفيات ٤: ٣٣٨-٣٣٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٢٤٧).

[3] أبو محمد عبد الله بن مُسْلم بن قُتَيْبَة الدينوري أحد أئمة الأدب والمصنفين المكثرين توفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م. اعتمد المقريزي على كتابين من مصنفاته: «أدب الكاتب» و«غريب الحديث». (راجع، ابن النديم: الفهرست ٨٥-٨٦؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠: ١٧٠-١٧١؛ القفطي: إنباه الرواه ٢: ١٤٣-١٤٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٢-٤٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣: ٢٩٦-٣٠٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧: ٦٠٧-٦٠٩؛ Le comte, G; *Ibn Qutayba (mort en 276/889), l'homme, son œuvre, ses idées,* Damas IFD 1965; id., *EI*[2] art. *Ibn Qutayba* III, pp. 868-71).

النَّوْرُ والوَرْدُ[a]، ولا يَعْرِفون الرَّبيعَ غيره. والعَرَبُ تختلف في ذلك: فمنهم من يَجْعَل الرَّبيعَ الفَصْلَ الذي تُدْرَك فيه الثِّمار – وهو الخَريف – وفَصْلَ الشِّتاء بعده؛ ثم فَصْلُ الصَّيْف بعد الشِّتاء – وهو الوَقْتُ الذي تَدْعوه العامَّةُ الرَّبيع – ثم فَصْلُ القَيْظ [بعده][b]، وهو [الوقت][b] الذي تدعوه العامَّة الصَّيْف؛ ومن العَرَبِ من يُسَمِّي الفَصْلَ الذي تُدْرِك فيه الثِّمار – وهو الخَريف – الرَّبيع الأَوَّل، ويُسَمِّي الفَصْلَ الذي يتلوه الشِّتاء، ويأتي فيه الكَمْأةُ[c] والنَّوْرُ، الرَّبيعَ الثَّاني، وكُلّهم مُجْمِعون[d] على أنَّ الخريف هو الربيع[e][1].

فإذا حَلَّت الشَّمْسُ آخر بُرْج الجَوْزاء وأَوَّل بُرْج السَّرَطان، تناهَى طولُ النَّهار وقِصَر اللَّيْل، وابتدأ نَقْصُ النَّهار وزيادة/ اللَّيْل، وانصرم فَصْلُ الرَّبيع، ودَخَل فَصْلُ الصَّيْف، فاشْتَدَّ الحَرُّ، وحَمِي الهَوَاء، وهَبَّت السَّمائِم، ونَقَصَت المياه إلَّا بمصر، ويَبِس العُشْبُ، واسْتَحْكَم الحَبُّ، وأَدْرَكَ حَصادُ الغِلال، ونَضِجَت الثِّمارُ، وسَمِنَت البَهائِمُ، واشتدَّت قُوَّةُ الأَبدان، ودَرَّت أخلاف النَّعَم، وصارَت الأَرْضُ كأنَّها عَروس.

فإذا بَلَغَت آخِر بُرْج السُّنْبُلَة وأَوَّل بُرْج الميزان، تساوَى اللَّيْلُ والنَّهارُ مَرَّةً ثانية، وأَخَذ اللَّيْلُ في الزيادة والنَّهارُ في النُّقْصان، وانْصَرَمَ فصلُ الصَّيف ودَخَلَ فَصْلُ الخَريف، فبَرَدَ الهَواءُ، وهَبَّت الرِّياحُ، وتغَيَّر الزمانُ، وجَفَّت الأَنهارُ، وغارَت العُيونُ، واصْفَرَّ وَرَقُ الشَّجر، وصَرمت الثِّمار، ودَرَسَت البيادِرُ، واخْتُزن الحَبّ، وفَنِيَ[f] العُشْب، واغْبَرَّ وَجْهُ الأَرْض إلَّا بمصر، وهَزُلَت البَهائِمُ، وماتَت الهَوامُّ، وانْحَجَرَت الحَشَراتُ، وانْصَرَف الطَّيْرُ والوَحْشُ يُريد البلاد الدَّافِئة، وأَخَذَ الناسُ يَخْزنون القُوت للشِّتاء، وصارَت الدنيا كأنَّها امْرَأةٌ كَهْلَة قد أَدْبَرت وأَخَذَ شَبابُها يولِّي.

ولله دَرُّ القائل – وهو الإمامُ عِزُّ الدين أبو الحَسَن أحمد بن عليّ بن مَعْقِل الأَزْدي المُهَلَّبي الحِمْصي[٢] – حيث يقول:

---

a) عند ابن قتيبة: الورد والكمأة والنور. b) زيادة من ابن قتيبة. c) بولاق: الكمام. d) بولاق: مجتمعون.
e) بولاق: الربيع هو الخريف. f) بولاق: اقتنى.

---

[١] ابن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٣٥٥هـ، ٢٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤١٥.

[٢] توفي سنة ٦٤٤هـ (الذهبي: العبر في خبر من غبر ٥: ١٨٢–١٨٣، سير أعلام النبلاء ٢٣: ٢٢٢–٢٢٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٧: ٢٣٩–٢٤٠).

[البسيط]

لله فَضْلُ الخَريف المُسْتَلَذّ به بَرْد الهَواء لقد أَبْدَى لنا عَجَبًا
أَهْدَى إلى الأَرْض من أَوْراقِه ذَهَبًا والأَرْضُ من شَأْنِها أن تُهْدِيَ الذَّهَبَا

وقال أيضًا :

[المنسرح]

لله فَـضْـلُ الخَريـف فَـضْـلًا رَقَّـت حَـواشـيـه فـهـو رائِـقْ
فالماءُ يَجْري من قَلْب سال والـدَّمْعُ يَبْدو بوَجْـه عاشِـقْ
فـبَـرْد هــذا ولَــوْنُ هــذا يَـلَـذّه ذائِــقٌ ورَامِــقْ

وقال أيضًا :

[الوافر]

أَتَى فَصْلُ الخَريف بكُلِّ طِيبِ وحُسْـنٍ مُـعْـجِـبٍ قَلْبًا وعَيْنا
أَرَانـا الـدَّوْح مُـصْـفَرًّا نُـضَـارًا وصـافي الماء مُـبْـيَـضًّـا لُجَيْنَا
فـأَحْـسَـن كـلَّ إحْـسانٍ إلـينا وأَنْـعَـمَ كـلَّ إنْـعَـامٍ عَـلَـيْـنا

وقال آخرُ يَذُمُّ الخَريف :

[الكامل]

خُذ في التَّدَثُّر في الخَريف فإنَّه مُسْتَوْبِل ونَسيمه خَطَّافُ
يَجْري مع الأَجْسام جَرْيَ حَياتِها كَصَديقها ، ومن الصَّديق يُخافُ

وقال آخَر :

[الكامل]

يا عائِبًا فَصْلَ الخَريفِ وغائِبًا عن فَضْلِه في ذَمِّه لِزَمانِه
لا شيء أَلْطَفُ منه عنْدي مَوْقِعًا أَبَدًا يُعَرِّي الغُصْنَ من قُمْصانِه
وتَـراهُ يَـفْـرِش تَحْتَـه أَثْـوابَـه فاعْجَبْ لرَأْفَتِه وفَرْط حَنانِه
وأَلَذّ ساعات الوِصالِ إذا دَنَا وَقْتُ الرَّحيل وحانَ حينُ أَوَانِه

فإذا حَلَّت الشَّمْسُ آخر بُرْج القَوْس وأوّل بُرْج الجَدْي ، تَناهَى طولُ اللَّيل وقِصَر النَّهارِ ، وأَخَذ النَّهارُ في الزيادة واللَّيْلُ في النُّقْصان ، وانْصَرَم فَصْلُ الخَريف وحَلَّ فَصْلُ الشِّتاء ، واشْتَدَّ البَرْدُ وخَشُنَ الهَواءُ ، وتساقَط وَرَقُ الشَّجر وماتَ أكثرُ النَّبات ، وغارَت الحَيَوانات في جَوْف الأَرض ، وضَعُفَ قُوَى الأَبْدان ، وعُرِّيَ وَجهُ الأرض من الزِّينة ، ونشأت الغُيومُ وكَثُرَت الأَنْداءُ ، وأَظْلَم الجَوُّ ، وكَلَحَ وجهُ الأَرض إلّا بمصر ، وامتنع الناسُ من التصرُّف ، وصارَت الدنيا كأَنَّها عَجُوزٌ هَرِمَة قد دَنَا منها المَوْتُ .

فإذا بَلَغَت آخر بُرْجِ الحُوت وأوَّل بُرْج الحَمَل ، عادَ الزمانُ كما كان عام أوَّل وهذا دَأْبه ؛ تَقْديرُ العَزيز العَليم ، وتَدْبيرُ الخَبير الحكيم ، لا إلـه إلّا هو .

وقد شَبَّه بَطْلَمْيوس فَصْلَ الرَّبيع بزَمَان الطُّفولية ، وفَصْلَ الصَّيف بالشَّباب ، والخَريف بالكُهولَة ، والشِّتاء بالشَّيْخوخَة .

وعن حَرَكَة الشَّمْس ، وتَنَقُّلها في البُروج الاثني عشر المذكورة ، تكون أزْمانُ السنة وأوقاتُ اليوم من اللَّيْل والنَّهار وساعاتهما .

وعن حَرَكَة القمَر في البُروج الاثني عشر تكون الشُّهور القَمَرِيَّة والسَّنَة القَمَرِيَّة .

فالقَمَرُ يَدُورُ البُروجَ الاثني عشر ، ويَقْطَعُ الفَلَكَ كلَّه ، في مُدَّة ثمانية وعشرين يومًا وبعض يوم ، ويُقيم في كلِّ بُرْج يومين وثُلْث يوم بالتقريب ، ويُقيم في كلِّ مَنْزِلَة من مَنازِل القَمَر الثمانية والعشرين مَنْزلة يومًا ولَيْلة ، فيظهر عند إهْلاله من ناحية المَغْرب بعد غُروب جِرْم الشَّمْس ، ويَزيد نورُه في كلِّ ليلة قَدْر نصف سُبْع حتَّى يَكْمُل نورُه ، ويمتلئ في لَيْلَة الرابع عشر من إهْلاله ، ثم يأخُذ من الليلة الخامسة عشر / في النُّقْصان ، فيَنْقُص من نُوره في كلِّ ليلة نصف سُبْع كما بَدَا ، ٩
إلى أن يُمْحَق نورُه في آخر ثمانية وعشرين يومًا من إهْلاله .

ويمرُّ في هذه المُدَّة - منذ يُفارِق الشَّمْس ، ويَبْدو في ناحية الغَرْب ، وإلى[a] أن يُجامِعها - بثمانٍ[b] وعشرين مَنْزِلة ، وهي : السَّرَطان والبُطَيْن والثُّرَيَّا والدَّبَران والهَقْعَة والهَنْعَة والذِّراع والنَّثْرَة والطَّرْف والجَبْهَة والزُّبْرة والصَّرْفَة والعَوَّاء والسِّماك والغَفْر والزُّبانا والإكْليل والقَلْب والشَّوْلة والنَّعائِم والبَلْدَة وسَعْد الذَّابح وسَعْد بُلَع وسَعْد السُّعود وسَعْد الأَخْبية والفَرْغ المُقَدَّم والفَرْغ المُؤَخَّر وبَطْن الحَوت .

ولحِساب ذلك كُتُبٌ مَوْضوعَة ، وفيما ذُكِرَ كِفايَة ، ﴿والله يَعْلَم وَأَنْتُم لَا تَعْلَمُون﴾ [الآية ١٩ سورة النور] .

a) بولاق : ويستمر إلى . b) الأصول : ثمانية .

ذِكْرُ صُورَة الأَرض ومَوْضِع الأقاليم منها

ولمّا تَقدَّم من القَوْل في الأَفْلاك ما يَتَبيَّنُ به ، لمن أَلْهَمَه الله تعالى ، كيف تكون الحَرَكَةُ التي بها اللَّيْلُ والنَّهار وتَرَكُب الشُّهور والأَعْوام منهما ، جازَ حينئذٍ الكلامُ على الأرض ، فأقول : الجِهاتُ من حَيْث هي سِتّ : الشَّرْق ، وهو حيث تطلع الشَّمْسُ والقَمَرُ وسائِرُ الكَواكِب في كلِّ قُطْرٍ من الأُفُق . والغَرْبُ ، وهو حيث تَغْرُب . والشَّمالُ ، وهو حيثُ مَدار الجَدْي والفَرْقَدَيْن . والجَنُوبُ ، وهو حيث مَدار سُهَيْل . والفَوْقُ ، وهو مِمَّا يلي السَّماء . والتَّحْتُ ، وهو ممّا يلي مَرْكَز الأرْض .

ذَهَبَ الجمهورُ إلى أنَّ الأرضَ كالكُرة ، مَوْضوعَة في جَوْف الفَلَك كالمُحّ في البَيْضَة ، وأنَّها في الوَسَط ، وبُعْدُها في الفَلَك من جَميع الجوانِب[a] على التَّساوي .

وزَعَمَ هِشامُ بن الحَكَم[1] أنَّ تحت الأرض جسْمًا من شأنه الارْتفاع ، وهو المانِع للأَرْض من الانْحِدار ، وهو ليس مُحتاجًا إلى ما بعده ، لأنَّه ليس يطلب الانْحِدار بل الارْتِفاع . وقال آخر[b]: إنَّ الله وَقَفَها بلا عِمَاد .

وقال ديمُقْراطيس : إنَّها تقومُ على الماء ، وقد حُصِر الماءُ تحتها حتى لا يجد مَخْرَجًا فيُضْطرّ إلى الانتقال[2] .

وقال آخر : هي واقِفَةٌ على الوَسَط على مِقْدارٍ واحِدٍ من كلِّ جانِب ، والفَلَكُ يجذبها من كلِّ وَجْه ، فلذلك لا تَميل إلى ناحية من الفَلَك دون أخرى[c]، لأنَّ قُوَّة الأَجْزاء مُتكافِئَة ، وذلك كحَجَر المَغْناطيس في جَذْبه الحَديد ، فإنَّ الفَلَكَ بالطَّبْع مَغْناطيس الأرض ، فهو يَجْذِبها فهي واقِفَة في الوَسَط ، وسَبَبُ وُقوفِها في الوَسَط سُرْعَة تَدْوير الفَلَك ودَفْعه إيَّاها من كلِّ جِهَة إلى

a) بولاق : الجهات . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : ناحية .

[1] أبو محمد هِشام بن الحكَم الكُوفي شيخ الإمامية في وقته ، وكان منقطعًا إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان ينزل بالكَرْخ في الجانب الغربي من بغداد ، توفي بعد نكبة البرامكة بفترة قصيرة وهو مستتر . (ابن النديم : الفهرست ٢٢٣–٢٢٤؛ المسعودي : مروج الذهب ٤: ٢٣٨)، وانظر فيما يلي ٢: ٣٤٨، ٣٥٣.

[2] انظر ياقوت : معجم البلدان ١: ١٦٦.

الوَسَط، كما إذا وَضَعْتَ تُرابًا في قارورة وأَدَرْتَها بقُوَّة فإنَّ التُّراب يقوم في الوَسَط [١].

وقال محمد بن مُوسَى الخُوَارَزْمي [٢]: الأَرْضُ في وَسَط السَّماء، والوَسَط هو السُّفْل بالحَقيقَة، وهي مُدَوَّرَة مُضَرَّسَة من جِهَة الجِبال البارِزَة والوِهاد الغائِرَة، وذلك لا يُخْرِجها عن الكُرِّيَّة إذا اعْتُبِرَت جُمْلَتها، لأنَّ مَقاديرَ الجِبال – وإن شَمَخَت – يسيرة بالقِياس إلى كُرَة[a] الأَرْض، فإنَّ الكُرَةَ التي قُطْرها ذِراعٌ أو ذِراعان مثلًا إذا نتأ منها شيءٌ أو غارَ فيها لا يُخْرِجها عن الكُرِّيَّة، ولا هذه التَّضاريس لإحاطَة الماء بها من جَميع جَوانِبها[b] وغَمْرِها بحيث لا يَظْهَر منها شيءٌ، فحينئذٍ تَبْطُل الحِكْمَة المودَعَة في المعادن والنَّبات والحَيَوان [٣]، فسُبْحان من لا يَعْلَم أَسْرار حُكْمِه إلَّا هو.

والأَرْضُ جِسْمٌ مُسْتَديرٌ كالكُرَة، وقيل ليست بكُرِّيَّة الشكل، وهي واقِفَة في الهَوَاء بجميع جِبالها وبحارِها وعامِرِها وغامِرِها، والهَواءُ مُحيطٌ بها من جميع جِهاتها كالمُحّ في جَوْف البيضة. وبُعْدُها من السَّماء مُتَساوٍ من جَميع الجهات. وأَسْفَلُ الأرض ما تحقيقه هو عُمْق باطِنها مما يلي مركزها من أي جانب كان.

وأمَّا سَطْحُها الظَّاهِر، المُمَاس للهَواء من جَميع الجِهات، فإنَّه فَوْق، والهَوَاءُ فَوْق الأرض يُحيط بها ويَجْذبها من سائِر الجِهات. وفَوْقَ الهَوَاء الأَفْلاكُ المذكورة فيما تقدَّم، واحِدًا فوق آخَر، إلى الفَلَك التاسع الذي هو أعلى الأَفْلاك ونهاية المَخْلوقات بأَسْرِها.

وقد اخْتُلِفَ فيما وَراء ذلك: فقيل خَلاءٌ، وقيل مَلاءٌ، وقيل لا خَلاءٌ ولا مَلاءٌ.

---

a) في معجم البلدان: كل. b) في معجم البلدان: ولولا هذا التضريس لأحاط بها الماء من جميع الجوانب.

---

[١] قارن ياقوت: معجم البلدان ١٦:١-١٧.

[٢] في جميع النسخ: محمد بن أحمد الخوارزمي وهو سبق قلم من المقريزي تابع فيه ياقوت مصدره في هذه المعلومات، فالمقصود هو أبو عبد الله (جعفر) محمد بن موسى الخوارزمي صاحب كتاب «الجبر والمقابلة»، كان ينتمي إلى الفلكيين الذين عملوا في بيت الحكمة في بغداد في أيام المأمون العباسي وتوفي بعد سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م. والكتاب الذي يقصده المقريزي هنا هو كتابه المعروف بـ«صورة الأرض» الذي استخرجه من كتاب جغرافيا الذي ألفه بطلميوس القلوذي والذي توجد منه نسخة وحيدة كتبت في رمضان سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م موجودة الآن في مكتبة ستراسبورج Strasburg بفرنسا، نشرها هانس فون مزيك Mzik في ڤيينا سنة ١٩٢٦، وهو على هيئة زيج، أي جداول فلكية (راجع، Nallino, C., «al, Khuwarismi et son remaniement de la Géographie de Ptolémée», BSKG IV série n° 8 (1896), pp. 525-43؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٠٦-١١٣؛ فؤاد سزكين: مساهمة الجغرافيين العرب والمسلمين في صنع خريطة العالم، فرانكفورت ١٩٨٧، ٢١-٢٢. أما محمد بن أحمد الخوارزمي فهو مؤلف كتاب «مفاتيح العلوم». انظر فيما يلي ٢٥٨:١.

[٣] ياقوت: معجم البلدان ١: ١٧.

وكلُّ مَوْضِعٍ يقف فيه الإنسانُ من سَطْح الأرض ، فإنَّ رأسَه أبدًا يكون ممَّا يلي السَّمَاء إلى فَوْق ، ورِجْلاه أبدًا تكون أَسْفَل ممَّا يلي مَرْكز الأرْض ، وهو دائِمًا يَرَى من السَّماء نِصْفَها ، ويَسْتُر عنه النِّصف الآخر حَدْبَةُ الأرْض . وكلَّما انتقل من مَوْضِعٍ إلى آخر ، ظَهَرَ له من السَّماء بقَدْر ما خَفِيَ عنه .

والأرْضُ غامِرَةٌ بالماء كعِنَبَة طافية فوق الماء قد انْحَسَرَ عنها نحو النصف وانْغَمَر النصفُ الآخر في الأرض ، وصارَ المُنْكَشِفُ من الأرض نِصْفَين ، كأنَّما قُسِمَ بخَطٍّ مُسامِت لخَط مُعَدَّل النَّهار يمرُّ تحت دائِرته .

وجَميعُ البِلاد التي على هذا الخَطّ لا عَرْضَ لها أَلبتَّة ، والقُطْبان غير مُرَتَّبين فيها ، ويكونان هناك على دائِرَة الأُفُق من الجانبين . وكُلَّما بَعُدَ مَوْضِعُ بلدٍ عن هذا الخَط إلى ناحية الشَّمال قَدْر دَرَجَة [1] ، ارْتَفَعَ القُطْبُ الشَّمالي الذي هو الجَدْي على أهل ذلك البلد دَرَجَة ، وانْخَفَض القُطْبُ الجنوبي الذي هو سُهَيْل دَرَجَة ، وهكذا ما زاد .

ويكون الأَمْرُ فيما بعد ، من البِلاد الواقِعَة في ناحية الجَنُوب كذلك ، من ارتفاع القُطْب الجنوبي وانْحِطاط القُطْب الشَّمالي . وبهذا عُرِفَ عَرْض [2] / البُلْدان ، وصارَ عَرْضُ البَلَد عِبارة عن مَيْل دائرة مُعَدَّل النَّهار عن سَمْت رؤوس أَهْله وارْتِفاع القُطْب عليهم ، وهو أيضًا بُعْد ما بين سَمْت رؤوس أَهْل ذلك البلد وسَمْت رؤوس أَهْل بَلَدٍ لا عَرْضَ له .

فأمَّا ما انْكَشَفَ من الأرض ، ممَّا يلي الجَنوب من خَطّ الاسْتِواء ، فإنَّه خَراب . والنِّصفُ الآخر ، الذي يلي الشَّمال من خَطّ الاسْتِواء ، فهو الرُّبْع العامِر ، وهو المَسْكون من الأَرْض .

وخَطُّ الاسْتِواء لا وُجود له في الخارِج ، وإنَّما هو فَرْضٌ تَوَهَّمْنا أنَّه خط ، ابتداؤه من المشرق إلى المغرب تحت مَدار رأس الحَمَل ، وسُمِّي بذلك من أَجْل أنَّ النَّهارَ واللَّيْلَ هناك أبدًا سَواء ، لا يزيد أحدُهما عن الآخر شيئًا أَلبتَّة في سائِر أَوْقات السَّنَة كلِّها . ونُقْطَتا هذا الخَطّ مُلازمتان للأُفُق : إحْداهما على مَدار سُهَيْل في ناحية الجَنوب ، والأُخرى ممَّا يلي الجَدْي في ناحية الشَّمال [3] .

---

[1] الدَّرَجَه . قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة من الفلك ، وفي مساحة الأرض خمسة وعشرون فرسخًا (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣٩) .

[2] عرض البلد مقابل لطوله ، ومعناه عند المنجمين هو بُعْدُه الأقصى عن خط الاستواء نحو الشمال (نفسه ١ : ٣٩) .

[3] قارن مع ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٨ .

والعِمارَةُ من المَشْرق إلى المَغْرب مائة وثمانون درَجَة ، من الجَنوب إلى الشَّمال من خَطّ أرين[a] إلى بَنَات نَعْش ثمان وأربعون درَجَة ، وهو مِقْدار مَيْل الشَّمْس مرّتين ، وخَلْف خَطّ أرين[a] وهو مِقْدار ستة عشر دَرَجَة . وجُمْلَة مَعْمور الأَرْض نحو من سبعين درَجَة ، لاعْتِدال مَسير الشَّمْس في هذا الوَسَط ، ومُرورها على ما وَراء الحَمَل والميزان مرّتين في السَّنَة . وأمَّا الشَّمالُ والجَنوبُ فالشَّمْس لا تُحاذيهما إلَّا مَرَّةً واحِدة ، ولأنَّ أَوْجَ الشَّمْس في جهة الشَّمال ، كانت العِمارة فيه ، لارْتِفاعها وانْتِفَاء ضَرَر قُرْبها عن ساكنيه ، ولأنَّ حَضيضَها في الجَنوب عُدِمَت العِمارَةُ هنالك .

وقد اختلف الناسُ في مَسافَة الأَرْض ، فقيل مَسافَتها خمس مائة عام : ثُلْث عُمْران ، وثُلْث خَراب ، وثُلْث بِحار .

وقيل المَعْمورُ من الأرض مائة وعشرون سنة : تسعون ليَأْجوج ومَأْجوج ، واثنا عشر للسُّودان ، وثمانية للرُّوم ، وثلاثة للعَرَب ، وسبعة لسائِر الأُمَم .

وقيل الدُّنْيا سبعة أجزاء : ستة ليَأْجُوج ومَأْجوج ، وواحِد لسائِر الناس .

وقيل الأرْضُ خمس مائة عام : البِحارُ ثلاث مائة ، ومائة خَراب ، ومائة عُمْران .

وقيل الأرْضُ أربعة وعشرون ألف فَرْسَخ[1] : للسُّودان اثنا عشر ألف ، وللرُّوم ثمانية آلاف ، ولفارِس ثلاثة آلاف ، وللعَرَب ألف[2] .

وعن وَهْب بن مُنَبِّه : ما العِمارَة من الدُّنْيا في الخَراب إلَّا كفُسْطاطٍ في الصَّحْراء .

وقال أَرْدَشير بن بابَك[b] : الأَرْضُ أربعة أجزاء : جُزْءٌ منها للتُّرْك ، وجُزْءٌ للعَرَب ، وجُزْءٌ للفُرْس ، وجُزْءٌ للسُّودان[3] .

وقيل الأقاليمُ سبعة ، والأطْرافُ أربعة ، والنَّواحي خمسة وأربعون ، والمَدائن عشرة آلاف ، والرَّساتيق[4] مائتا ألف وستة وخمسون ألفًا .

---

a) بولاق : أريس . b) بولاق : تابك .

---

[1] الفَرْسَخ . فارسي معرب وأصله فَرْسَنْك ، وهو ثلاثة أميال ، والميل ألفا خطوة وثلاث مائة وثلاثون خطوة . (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣٥-٣٦) .

[2] ياقوت : معجم البلدان ١ : ٢٠.

[3] نفسه ١ : ١٨.

[4] الرساتيق جمع ، مفرده : الرُسْتاق ، وهو مشتق من رُوذه فستا . =

وقيل المُدُنُ والحُصونُ أَحَد وعشرون أَلفًا وستُّ مائة مَدينَة وحِصْن . ففي الإقْليم الأوَّل ثلاثة آلاف ومائة مَدينَة كبيرة ، وفي الثاني أَلفان وسبع مائة وثلاثة عشر مَدينَة وقَرْيَة كبيرة ، وفي الثالِث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون مَدينَة وقَرْيَة كبيرة[a]، وفي الرابع - وهو بابِل - أَلفان وتسع مائة وأربع وسبعون مَدينَة ، وفي الخامس ثلاثة آلاف مَدينَة وستّ مُدُن[b]، وفي السادس ثلاثة آلاف وأربع مائة وثمان مُدُن ، وفي السابع ثلاثة آلاف وثلاث مائة مَدينَة في الجَزائِر .

وقال[c] الخُوارَزْمي : قُطْرُ الأرْض سبعة[d] آلاف فَرْسَخ ، وهو نصف سُدُس الأرض والجبال والمَفاوِز والبحار ، والباقي خَرابٌ يَبابٌ لا نَباتَ فيه ولا حَيَوان [1].

وقيل المَعْمورُ من الأرض مثل طائِر : رَأْسُه الصِّين ، والجَناحُ الأَيْمَن الهِنْد والسِّنْد ، والجناحُ الأيسر الخَزَر ، وصَدْرُه مَكَّة والعِراق والشَّام ومصر ، وذَنَبه المَغْرِب[e].

وقيل قُطْرُ الأرْض سبعة آلاف وأربع مائة وأربعة عشر ميلًا ، ودورها عشرون أَلف ميل وأربع مائة ميل ، وذلك بجَميع ما أَحاطَت به من بَرّ وبحر .

وقال أبو زَيْد أحمد بن سَهْل البَلْخيّ [2]: طُولُ الأرْض ، من أَقْصَى المَشْرق إلى أَقْصى المغرب ، نحو أربع مائة مَرْحَلَة ؛ وعَرْضُها من حيث العُمْران الذي من جهة الشَّمال ، وهو مَساكِن يَأْجُوج ومَأْجُوج ، إلى حيث العُمْران الذي من جِهَة الجَنُوب ، وهو مَساكِن السُّودان ، مائتان وعشرون مَرْحَلَة . وما بين[f] بَراري يَأْجوج ومَأْجوج إلى البحر المُحيط في الشَّمال ، وما بين[f] بَراري السُّودان

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : مدائن . c) بولاق : قال . d) ياقوت : تسعة . e) بولاق : الغرب . f) في الأصل : مائتين .

= رُوذَه اسم للسطر والصَّف والسماط ، وفستا اسم للحال ، ومعناه أنه على التسطير والنظام . ويعني الفرس بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، وهو عند الفرس بمنزلة السَّواد عند أهل بغداد . (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣٧-٣٨) .

١ ياقوت : معجم البلبدان ١ : ١٨.

٢ أبو زَيْد أحمد بن سَهْل البَلْخي المتوفى نحو سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م ، عالم من أهل بلخ شغل لفترة من الزمن وظيفة كاتب لأمير بَلْخ أحمد بن سَهْل (حوالي عام ٣٠٧هـ/٩٢٠م)، ارتبط اسمه بما يقرب من ستين مصنفًا لا نعرف منها إلَّا أسماءها . ووضع البَلْخي نحو سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م - أي وهو في شيخوخته حيث ولد سنة ٢٣٥هـ/٨٥٠م - مصنفًا في الجغرافيا ذكرته المصادر بأسماء مختلفة ، فهو مرة «صُوَر الأقاليم» وحينًا «أشكال البلاد» وتارة «تقويم البلدان» ، مما يدلّ على أنّه لم يكن معروفًا في صورته الأصلية حتى في العهد القريب من زمن المؤلف . وهو يمثل شيئًا أشبه بالأطلس=

والبحر المُحيط في الجَنُوب، خَرابٌ ليس فيه عِمارَة، ويُقالُ إنَّ مَسافَة ذلك خمسة آلاف فَرْسَخ. وهذه أقوالٌ لا دَليل على صِدْقِها.

والطَّريقُ في مَعْرِفَة مِساحَة الأرض، أنَّا لو سِرْنَا على خَطٍّ نصف النَّهار من الجَنُوب إلى الشَّمال بقَدْر مَيْل دائِرَة مُعَدِّل النَّهار عن سَمْت رُؤُوسنا إلى الجَنوب دَرَجَة من دَرَج الفَلَك التي هي جُزْء من ثلاث مائة وستين جزءًا، وارتفع القُطْبُ علينا دَرَجَةً نظير تلك الدَّرَجَة، فإنَّا نعلم أنَّا قد قَطَعْنا من مُحيط جَرْم الأرض جزءًا من ثلاث مائة وستين جزءًا، وهو نَظير ذلك الجُزْء من الفَلَك.

فلو قِسْنا من ابْتِداء مَسيرنا إلى انْتِهاء مكانِنا الذي وَصَلْنا إليه، حيث ارْتَفَع القُطْبُ علينا دَرَجة، فإنَّا نجد حَقيقَة الدَّرَجَة الواحدة من الفَلَك قد قَطَعَت من الأرض ستة وخمسين ميلًا وثُلُثَيْ ميل، عنها خمسة وعشرون فَرْسَخًا.

فإذا ضَرَبْنا حِصَّة الدَّرَجَة الواحِدة – وهو ما ذُكِرَ من الأمْيال – في ثلاث مائة وستين، خَرَجَ من الضَّرْب عشرون ألفًا وأربع مائة ميل، وذلك مِساحَة دَوْر الأرْض.

فإذا قَسَمْنا هذه الأمْيال – التي هي مِساحَة دَوْر الأرض / – على ثلاثة وسبع، خَرَجَ من القِسْمَة ستة آلاف وأربع مائة وأربعون ميلًا، وهي مساحَة قُطْر الأرض.

فلو ضَرَبْنا هذا القُطْر في مَبْلَغ دَوْر الأرْض، لبَلَغَت مِساحَةُ بَسيط الأرض بالتكسير مائة ألف ألف واثنين وثلاثين ألف ألف وستّ مائة ألف ميل بالتقريب.

فعلَى هذا مِساحَة رُبْع الأرض المَسْكون بالتكسير ثلاثة وثلاثون ألف ألف ميل ومائة [a]ألف ميل[a] وخمسون ألْف ميل. وعَرْض المَسْكُون من هذا الرُّبْع بقَدْر بُعْد مَدار السَّرَطان عن القُطْب، وهو ستة[b] وخمسون جزءًا وسُدْس جزء، وهذا هو سُدْس الأَرض، وانتهاؤه إلى جَزيرَةِ تُولي في

(a-a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: خمسة.

= المصحوب ببعض التوضيحات. وكان الكتاب نادرًا حتى في العصور المبكرة، وربما كان نقل المقريزي عنه ليس نقلًا مباشرًا وإنَّما عن طريق مصادر سابقة عليه. (انظر حول أبي زَيْد البلخي وكتابه في الجغرافيا، كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢١٣-٢١٤)، ونُسِب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي أيضًا كتاب «البدء والتاريخ» الذي تبيَّن أنَّ مؤلفه هو مُطَهَّر بن طاهر المقدسي المتوفى بعد سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م كما أوضح ناشر الكتاب Clement Huart.

بِرطانِيَة ، وهي آخِر المعمور من الشَّمال ، وهو من الأَميال ثلاثة آلاف وسبع مائة وأربعة وستون ميلًا [١].

فإذا ضَرَبْنا هذا السُّدْس الذي هو مِساحَة العَرْض[a] في النصف وهو قَدْر[b] الطُّول ، كان المَعْمورُ من الشَّمال قَدْر نصف سُدْس الأرض [٢]. وأمَّا الطُّول فإنَّه يَقِلّ لتضايق أقْسام كُرَة الأرض ، ومِقْداره مثل خُمْس الدور ، وهو بالتقريب أربعة آلاف وثمانون ميلا .

وفي الرُّبع المسكون من الأرض سبعة أَبْحُر كِبار ، وفي كلّ بَحْر منها عِدَّةُ جَزائِر ، وفيه خمسة عشر بُحَيْرَة منها مِلْحٌ وعَذْبٌ ، وفيه مائتا جَبَل طوال ، ومائتا نَهْر وأربعون نَهْرًا طُوالا ، ويشتمل على سبعة أقاليم تحتوي على سبعة عشر ألف مَدينَة كبيرة .

وقال في كِتاب هُرُوشْيوش [٣]: لمَّا اسْتقامَت طاعَةُ يُوليس الملقَّب «قَيْصر» الملك ، في عامَّة الدُّنيا ، تَخَيَّر أربعة من الفَلاسِفَة سَمَّاهم ، فأَمَرَهُم أن يَأْخُذوا له وَصْف حُدود الدُّنْيا وعِدَّة بِحارِها وكُوَرِها أرْباعًا . فوَلِيَ أحدُهم أَخْذ وَصْف جُزْء المشرق ، ووَلِيَ آخر أَخْذ وَصْف جُزْء المغرب ، ووَلِيَ آخر[c] أخْذ[d] وَصْف جُزْء الشَّمال ، ووَلِيَ الرابع أَخْذ[d] وَصْف جُزْء الجَنُوب ، فتمَّت كِتابَةُ الجميع على أيديهم في نحو من ثلاثين سنة . فكانت جُملةُ البِحار المسمَّاة في الدُّنْيا تسعة وعشرين قد سَمَّوها [٤]: منها لجُزْء[e] الشَّرْق ثمانية ، ولجزء[e] الغَرْب ثمانية ، ولجزء[e] الشَّمال أَحَدَ عشر ، ولجزء[e] الجَنُوب اثنان . وعِدَّة الجَزائِر المعروفة الأُمَّهات إحدى وسبعون جَزيرَة : منها في الشَّرْق ثمان ، وفي الغَرْب ستّ عشرة ، وفي جهة الشَّمال إحدى وثلاثون ، وفي جهة الجَنُوب ستّ عشرة .

---

a) بولاق : مساحة عرض الأرض . b) بولاق والمسعودي : مقدار . c) بولاق : الثالث . d) ساقطة من الأصل . e) في الأصل وبولاق : بجزء والتصويب من الترجمة العربية لكتاب أوروسيوس .

---

[١] قارن المسعودي : مروج الذهب ١ : ٩٩.

[٢] المسعودي : مروج الذهب ١ : ٩٩- ١٠٠.

[٣] هو المؤلف الأسباني باولوس أوروسيوس Paulus Orosius الذي عاش في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ، كلَّفه القديس أوغسطين St. Augustin بكتابة مختصر للتاريخ العام للإنسانية منذ البداية وحتى سنة ٤١٦ ميلادية أتمَّه سنة ٤١٨م، وعنوانه باللاتينية *Historica Adversus Paganos*. وعرف المؤرخون العرب هذا الكتاب عن طريق ترجمة عربية تمت في الأندلس عن الأصل اللاتيني في زمن الخليفة الأموي الحكَم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) . وورد اسم المؤلف في الكتب العربية على صور مختلفة : هروسيوس ، هروشيوش، هروسيس (انظر دراسة مصادر المقريزي في المقدمة) .

[٤] في ترجمة كتاب هروشيوش : «وقد سموها في مواضعها وتركنا ذكرها إذ كانت أسماؤها غير معروفة في اللسان العربي» . (أوروسيوس : تاريخ العالم ٧٣) .

وعِدَّةُ الجِبال الكِبار المعروفة في جَميع الدُّنْيا ستة وثلاثون ، وهي أُمَّهات الجِبال ، وقد سَمَّوها فيما فَسَّرُوه : منها في جهة الشَّرْق سبعة ، وفي جهة الغَرْب خمسة عشر ، وفي الشَّمال اثنا عشر ، وفي الجَنُوب اثنان .

والبُلْدانُ الكِبارُ ثلاثة وستون : منها في المَشْرق سبعة ، وفي المَغْرب خمسة وعشرون ، وفي الشَّمال تسعة عشر ، وفي الجَنُوب اثنا عشر ؛ وقد سَمَّوها .

والكُوَرُ الكِبارُ المعروفة تسع ومائتان : منها في المَشْرق خمس وسبعون ، وفي المَغْرب ستّ وستون ، وفي الشَّمال ستّ ، وفي الجَنُوب اثنان وستون .

والأنْهارُ الكِبارُ المعروفة في جَميع الدُّنْيا ستة وخمسون : منها الجُزْء الشَّرْق سبعة عشر ، والجُزْء الغَرْب ثلاثة عشر ، والجُزْء الشَّمال تسعة عشر ، والجُزْء الجَنُوب سبعة [١] .

والأقاليمُ السَّبْعَة ، كلٌّ إقْليم منها كأنَّه بِساطٌ مَفْروش قد مُدَّ ، طولُه من الشَّرْق إلى الغَرْب ، وعَرْضُه من الشَّمال إلى الجَنُوب .

وهذه الأقاليمُ مختلفة الطُّول والعَرْض ؛ فالإقْليمُ الأوَّلُ منها يمرُّ وَسَطُه بالمواضِع التي طول نهارها الأطول ثلاثة عشر ساعة ، والسابع منها يمر بالمواضِع التي طول نَهارها الأطول ستّ عشر ساعة ، لأنَّ ما حاذَى حَدّ الإقْليم الأوّل إلى نحو الجَنُوب يشتمل عليه البَحْر ولا عِمارَة فيه ، وما حاذَى الإقْليم السابع إلى الشَّمال لا يُعْرَف[a] فيه عِمارَة .

فجَعَل طُول الأقاليم السَّبْعَة من الشَّرْق إلى الغَرْب مَسافَة اثنتي عشرة ساعة من دَوْر الفَلَك ، وصارَت عُروضُها تتفاضَل نصف ساعة من ساعات النَّهار الأَطْول . فأَطْوَلُها وأَعْرَضُها الإقْليم الأوّل ، وطولُه من المَشْرق إلى المغرب نحو ثلاثة آلاف فَرْسَخ ، وعرْضه من الشَّمال إلى الجَنُوب مائة وخمسون فَرْسَخًا . وأَقْصَرُها طولًا وعَرْضًا الإقْليمُ السابع ، وطولُه من الشَّرق إلى الغَرْب ألف وخمس مائة فَرْسَخ ، وعَرْضُه من الشَّمال إلى الجَنُوب نحو من سبعين فَرْسَخًا ؛ وبقيَّةُ الأقاليم الخمسة فيما بين ذلك .

---

a) بولاق : لا يعلم .

---

[١] أوروسيوس : تاريخ العالم ٧٣- ٧٤.

وهذه الأقاليمُ خُطوطٌ مُتَوَهَّمَة لا وُجُودَ لها في الخارِجِ ، وَضَعها القُدَماءُ الذين جالُوا في الأَرْض لِيَقِفُوا على حقيقة حُدودها ، ويتيقَّنوا مَواضِعَ البُلْدان منها ، ويَعْرِفوا طُرُق مَسالِكِها . هذا حالُ الرُّبْع المَسْكُون .

وأمَّا الثَّلاثة الأَرْباع الباقية فإنَّها خَراب ؛ فجِهَة الشَّمال واقِعَة تحت مَدار الجَدْي ، قد أَفْرَط هناك البَرْدُ ، وصارَت ستة أشهر ليلًا مستمرة ، وهي مُدَّة الشِّتَاء عندهم لا يُعْرَف فيها نهار ، ويُظْلم الهَواء ظُلْمَة شديدة ، وتَجْمُد المياه لقُوَّة البَرْد فلا يكون هناك نَباتٌ ولا حَيَوان .

ويُقابِل هذه الجِهَة الشَّمالية ناحية الجَنُوب حيث مَدار سُهَيْل ، فيكون النَّهارُ ستة أشهر بغير لَيْل ، وهي مُدَّةُ الصَّيْف عندهم ، فيَحْمى الهَواء ويَصير سَمُومًا مُحْرِقًا يُهْلك بشِدَّة حَرِّه[a] الحَيوان والنَّبات ، فلا يمكن سُلوكه ولا السُّكْنَى فيه .

وأمَّا ناحية الغرب فيمنع البحر المُحيط من السُّلوك فيه ، لتلاطُم أمْواجِه وشِدَّة ظُلْماته . وناحية الشَّرْق تَمْنَع من سلوكها الجِبالُ الشَّامِخَة .

وصارَ الناسُ أَجْمَعهم قد انْحَصَروا في الرُّبْع المَسْكُون من الأَرض/، ولا عِلْمَ لأَحَدٍ منهم بالثلاثة الأَرْباع الباقية .

والأَرْضُ كلُّها ، بجميع ما عليها من الجِبال والبِحار ، نِسْبَتها إلى الفَلَك كنُقْطَة في دائرة .

وقد اعْتُبِرَت حُدود الأقاليم السَّبْعة بساعات النَّهار ؛ وذلك أنَّ الشَّمسَ إذا حَلَّت برأس الحَمَل ، تساوَى طولُ النَّهار واللَّيْل في سائِر الأقاليم كلِّها . فإذا انْتَقَلَت في دَرَجات بُرْج الحَمَل والثَّوْر والجَوْزَاء ، اختلفت ساعاتُ نَهار كلِّ إقليم . فإذا بَلَغَت آخِر الجَوْزَاء وأوَّل بُرْج السَّرَطان ، بلَغَ طولُ النَّهار في وَسَط الإقليم الأوَّل ثلاث عشرة ساعَة سَواء ، وصارَت في وَسَط الإقْليم الثاني ثلاث عشرة ساعَة ونصف ساعَة ، وفي وَسَط الإقْليم الثالث أربع عشرة ساعَة ، وفي وَسَط الإقْليم الرابع أربع عشرة ساعة ونصف ساعَة ، وفي وَسَط الإقْليم الخامس خمس عشرة ساعَة ، وفي وَسَط الإقْليم السَّادس خمس عشرة ساعَة ونصف ساعة ، وفي وَسَط الإقْليم السَّابع ست عشرة ساعة سَواء ، وما زادَ على ذلك إلى عَرْض تسعين دَرَجَة يصير نَهارًا كلّه .

---

a) الأصل : حرارة .

ومَعْنَى طولُ البَلَد، هو بُعْدها من أَقْصَى العِمارة في الغَرْب، وعَرْضُها هو بُعْدها عن خَطّ الاسْتواء. وخَطُّ الاسْتِواء - كما تَقَدَّم - هو المَوْضِعُ الذي يكون فيه اللَّيْلُ والنَّهارُ طول الزمان سواءً. فكلُّ بَلَدٍ على هذا الخَطّ لا عَرْضَ له. وكلُّ بَلَدٍ في أَقْصَى الغَرْب لا طُولَ له. ومن أَقْصَى الغَرْب إلى أَقْصَى الشَّرْق مائة وثمانون درَجَة. وكلُّ بَلَدٍ يكون طُولُه تسعين دَرَجَة، فإنَّه في وَسَط ما بين الشَّرْق والغَرْب. وكلُّ بَلَدٍ كان طولُه أقلّ من تسعين دَرَجَة، فإنّه أقرب إلى الغَرْب وأَبْعَد من الشَّرْق. وما كان طولُه من البلاد أكثر من تسعين دَرَجَة، فإنَّه أَبْعَد عن الغَرْب وأَقْرَب إلى الشَّرْق.

وقد ذَكَر القُدَماءُ أنَّ العالَم السُّفْلي مَقْسومٌ سَبْعَة أَقْسام، وكلُّ قِسْمٍ يُقال له إقْليم: فإقْليم الهِنْد لزُحَل، وإقْليمُ بابِل للمُشْتَري، وإقْليمُ التُّرْك للمَرِّيخ، وإقليم الرُّوم للشَّمْس، وإقْليمُ مصر لعُطارِد، وإقْليمُ الصِّين للقَمَر.

وقال قومٌ: الحَمَلُ والمُشْتَري لبابِل، والجَدْيُ وعُطارِد للهِنْد، والأَسَدُ والمَرِّيخ للتُّرْك، والميزانُ والشَّمْس للرُّوم؛ ثم صارَت القِسْمَةُ على اثني عشر بُرْجًا: فالحَمَلُ ومُثَلَّثه[a] للمَشْرق، والثَّوْرُ ومُثَلّثه[a] للجَنُوب، والجَوْزاءُ ومُثَلّثه[a] للمغرب، والسَّرَطان ومُثَلَّثه[a] للشَّمال. قالوا: وفي كلِّ إقْليم مَدينَتَان عَظيمتان بحسب بيتي كلِّ كَوْكَب، إلَّا إقْليم الشَّمْس وإقْليم القَمَر، فإنَّه ليس في كلِّ إقْليم منهما سِوى مَدينَة واحِدَة عظيمة. وجميعُ مَدائِن الأقاليم السَّبْعَة وحُصُونها أَحَد وعشرون ألف مَدينَة وستّ مائة مَدينَة وحِصْن بقَدْر دقائق دَرَج الفَلَك.

وقال هِرْمس[1]: إذا جُعِلَت هذه الدَّقائِق رَوابع كانت بعَدد[b] أُناس هذه الأقاليم، وإذا ماتَ أَحَدٌ وُلِد نَظيرُه.

ويُقالُ إنَّ عَدَدَ مُدُن الإقْليم الأوَّل من مَطْلَع الشَّمْس وقُراها ثلاثة آلاف ومائة مَدينَة وقَرْيَة كبيرة، وإنَّ في الثاني ألفان وسبع مائة وثلاث عشرة مَدينَة وقَرْيَة كبيرة، وفي الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون، وفي الرابع - وهو بابِل - ألفان وتسع مائة وأربع وسبعون، وفي الخامِس ثلاثة آلاف وست مُدُن، وفي السَّادِس ثلاثة آلاف وأربع مائة وثمان

a) بولاق: ومثلاه. b) ساقطة من بولاق.

[1] عن هِرْمِس المعروف بهرمس المثلث الحكمة (انظر فيما يلي ٣١٩-٣٢٠).

مُدُن، وفي السَّابع ثلاثة آلاف وثلاث مائة مَدينَة وقَرْيَة كبيرة في الجَزائِر.

فـ«الإقْليمُ الأوَّلُ» يمرُّ وَسَطُه بالمَواضِع التي طُول نهارها الأطْوَل ثلاث عشرة ساعَة، ويرتفع القُطْبُ الشَّمالي فيها عن الأُفُق ست عشرة دَرَجَة وثُلُثا دَرَجَة وهو العَرْض. وانتهاء عَرْض هذا الإقْليم من حيث يكون طولُ النَّهار الأطول فيه ثلاث عشرة ساعَة ورُبُع ساعَة، وارْتِفاعُ القُطْب الشَّمالي، وهو العَرْض، عشرون دَرَجَة ونصف دَرَجَة؛ وهو مَسافَةُ أربع مائة وأربعين ميلًا، وابتداؤه من أَقْصَى بلاد الصِّين، فيمرُّ فيها إلى ما يلي الجَنُوب، ويمرُّ بسَواحِل الهِنْد ثم ببلاد السِّنْد، ويمرُّ في البحر على جَزيرَة العَرَب وأرْض اليَمَن، ويقطع بَحْر القُلْزُم فيمرُّ ببلاد الحَبَشَة، ويقطع نِيل مصر إلى بلاد الحَبَشَة ومَدينَة دُمْقُلَة[a] من أرض النُّوبَة، ويمرُّ في أرْض المغرب على جَنوب بلاد البَرْبَر إلى بَحْر المغرب المُحيط[b].

وفي هذا الإقْليم عشرون جَبَلًا، فيها ما طُوله من عشرين فَرْسَخًا إلى ألف فَرْسَخ. وفيه ثلاثون نَهْرًا طويلًا، منها ما طوله ألف فَرْسَخ إلى عشرن فَرْسَخًا. وفيه خمسون مَدينَة كبيرة. وعامَّةُ أهْل هذا الإقْليم سُود الألوان.

ولهذا الإقْليم من البُرُوج الحَمَل والقَوْس، وله من الكَواكِب[c] المُشْتَري؛ وهو - مع فَرْط حَرارَته - كَثيرُ المياه كثير المُرُوج، وَزَرَع أهلُه الذُّرة والأُرْز، إلَّا أنَّ الاعْتِدال عندهم مَعْدوم، فلا يُثمر عندهم كَرْمٌ ولا حِنْطَة، والبَقَرُ عندهم كثير لكَثْرَة المُروج، وفي مَشْرِقه البَحْر الخارج وراء خَطِّ الاسْتِواء بثلاث عشرة درجة، وفي مَغْربه النِّيل وبَحْر الغَرْب. ومن هذا الإقليم يأتي نِيلُ مصر، وشرقهم مَعْمُور بالبَحْر الشَّرْقي الذي هو بَحْر الهِنْد واليَمَن.

و«الإقْليمُ الثَّاني» حيث يكون طُولُ النَّهار الأَطْوَل ثلاث عشرة ساعَة ونصف، ويَرْتَفِع القُطْبُ الشَّمالي، وهو العَرْض[d]، أربعة وعشرين جزءًا وعُشْر جزء؛ وعَرْضه، من حَدِّ الإقْليم الأوَّل إلى حيث يكون النَّهار الأَطْوَل ثلاث عشرة ساعَة ونصف ورُبْع ساعَة. وارْتِفاعُ القُطْب الشَّمالي، وهو العَرْض، سبعة وعشرون دَرَجَة ونصف درجة.

ومِساحَةُ هذا الإقليم أربع مائة مِيل/، ويَبْتدئ من الشَّرق مارًّا ببلاد الصِّين إلى بلاد الهِنْد والسِّنْد، ثم يَلْتَقي البحر الأَخْضَر وبَحْر البَصْرَة، ويقطع جَزيرَة العَرَب في أرْض نَجْد وتِهامَة،

---

a) بولاق: دنقلة. b) بولاق: إلى نحو البحر المحيط. c) بولاق: الكواكب السيارة. d) بولاق: فيه قدر.

فيدخل في هذا الإقْليم اليَمامَة والبَحْرين وهَجَر ومَكَّة والمَدينَة والطَّائِف وأرْض الحِجاز ، ويقطع بحر القُلْزُم فيمرّ بصَعيد مصر الأعْلى ، ويقطع النِّيل فيصير فيه مَدينَة قُوص وإخْميم وإسْنا وأَنْصِنَا وأُسْوان ، ويمرُّ في أرض المغرب على وَسَط بلاد إفريقية فيمرُّ على بلاد البَرْبَر إلى البحر في المغرب .

وفي هذا الإقْليم سبعة عشر جَبَلًا ، وسبعة عشر نهرًا طُوالًا ، وأربع مائة وخمسون مَدينَة كبيرة . وألْوانُ أهْل هذا الإقْليم ما بَيْنَ السُّمْرَة والسَّواد ، وله من البُرُوج الجَدْي ، والسَّيَّارَة زُحَل .

ويسكُنُ هذا الإقْليم الرَّحَّالَة : ففي المَغْرِب منهم جَدَّالة وصِنْهَاجة ولَمْتُونَة ومَسوفَة ، ويتَّصل بهم رَحَّالَة مصر من ألْوَاح . وفي هذا الإقْليم يكون النَّخْل[a]، وفيه مَكَّة والمَدينَة ، ومنه السَّمَاوَة من أهل العِراق إلى رَحَّالَة التُّرْك .

و«الإقْليمُ الثَّالِث» وَسَطُه حيث يكون طُول النَّهار الأَطْوَل أربع عشرة ساعَة . وارْتِفاعُ القُطْب ، وهو العَرْض ، ثلاثون دَرَجَة ونصف وخُمْس دَرَجَة . وعَرْضُ هذا الإقْليم من حَدِّ الإقْليم الثاني إلى حيث يكون النَّهارُ الأَطْوَل أرْبَع عشرة ساعَة ورُبْع ساعَة . وارْتِفاعُ القُطْب وهو العَرْض ثلاث وثلاثون دَرَجَة . ومَسافَتُه ثلاث مائة وخمسون ميلًا ، ويبتدئ من الشَّرْق فيمرّ بشَمال الصِّين وبلاد الهِنْد وفيه مَدينَة القَنْدَهار[b]، ثم بشَمال السِّنْد وبلاد كابُل وكِرْمان وسِجِسْتان إلى سَواحِل بَحْر البَصْرَة ، وفيه إصْطَخْر وسابُور وشِيراز وسِيراف ، ويمرُّ بالأَهْواز والعِراق والبَصْرَة وواسِط وبَغْداد والكُوفَة والأَنْبار وهِيت ، ويمرُّ ببلاد الشَّام إلى سَلَمِيَّة وصُور وعَكَّا ودِمَشْق وَطَبَرِيَّة وقَيْسارِيَّة وبَيْت المَقْدِس وعَسْقَلان وغَزَّة ومَدْيَن والقُلْزُم ، ويقطع أسْفَل أرْض مصر من شَمال أَنْصِنَا إلى فُسْطاط مصر وسَواحِل البَحْر وفيه الفَيُّوم والإسْكَنْدَرية والفَرَمَا وتِنِّيس ودِمياط ، ويمرُّ ببلاد بَرْقَة إلى إفريقيَّة فيدخل فيه القَيْرَوان ، وينتهي إلى البَحْر في الغرب .

وبهذا الإقليم ثلاث وثلاثون جَبلًا كِبارًا ، واثنان وعشرون نَهْرًا طُوالًا ، ومائة وثمانية وعشرون مَدينَة . وأهله سُمْر الأَلْوان . وله من البُرُوج العَقْرَب ، ومن السَّيَّارَة الزُّهَرَة . وفي هذا الإقْليم العَمائِر الفاضِلَة[c] من أوَّله إلى آخره.اهـ.

و«الإقْليم الرَّابع» وَسَطُه حيث يكون النَّهارُ الأَطْوَل أربع عشرة ساعَة ونصف ساعَة ، وارتفاع القُطْب الشَّمالي ، وهو العَرْض ، ست وثلاثون دَرَجَة وخُمْس درجة . وحَدُّ هذا الإقْليم ، من حَدِّ

---

a) بولاق : النحل . b) بولاق : الهندهار . c) بولاق : المتواصلة .

الإقْليم الثالث إلى حيث يكون النَّهارُ الأَطْول أربع عشرة ساعَة ونصف ورُبْع ساعة، والعَرْضُ تسعًا وعشرين دَرَجَة وثُلْث دَرَجَة.

ومَسافَةُ هذا الإقْليم ثلاث مائة ميل، ويبتدئ من الشَّرْقِ فيمرُّ ببلاد التِّبت وخُراسَان وخُجَنْدَة وفَرْغانَة وسَمَرْقَنْد وبُخارَى وهَراة ومَرْوالرُّوذ وسَرَخْس وطُوس ونَيْسابُور وجُرْجان وقُومَس وَطَبرسْتان وقَزْوين والدَّيْلَم والرَّيّ وأَصْفَهان وهَمَذَان ونَهاوَنْد ودِينَوَر والمَوْصِل ونَصِيبين وآمِد ورأْس العَيْن وسُمَيْساط والرَّقَّة، ويمرُّ ببلاد الشَّام فيدخل فيه بالِس ومَنْبج ومَلَطِيَّة وحَلَب وأَنْطاكية وَطَرابُلُس والمِصِّيصَة وحَماة وصَيْدا وطَرَسُوس وعَمُّوريَّة واللاَّذِقِيَّة، ويقطع بَحْرَ الشَّام على جَزيرة قُبْرُس ورُودس، ويمرُّ ببلاد طَنْجَة فينتهي إلى بحر المَغْرب.

وفي هذا الإقْليم خمسة وعشرون جَبَلًا كِبارًا، وخمسة وعشرون نَهْرًا طِوالًا، ومائتا مَدينَة واثنتا عشرة مَدينَة. وألوانُ أَهْله بين السُّمْرَة والبَياض. وله من البُرُوج الجَوْزاء، ومن السَّيَّارة عُطارِد، وفيه البَحْر الرُّومي من مَغْرِبه إلى القُسْطَنْطِينيَّة.

ومن هذا الإقْليم ظَهَرَت الأَنْبياءُ والرُّسُلُ - صَلَواتُ الله عليهم أجْمَعين - ومنه انْتَشَرَ الحُكَماءُ والعُلَماءُ، فإنَّه وَسَطُ الأَقاليم ثلاثة جَنوبية وثلاثة شَمالية، وهو في قِسْم الشَّمْس، وبعده في الفَضيلَة الإقْليم الثالث والخامس، فإنَّهما على جَنْبَيْه، وبقيَّة الأَقاليم أَهْلُوها ناقِصون ومُنْحَطُّون عن الفَضيلَة لسَماجَة صُوَرِهم وتَوَحُّش أخْلاقهم، كالزَّنْج والحَبَشَة، وأكثر أُمَم الإقْليم الأوَّل والثَّاني والسادس والسابع يأْجُوج ومَأْجُوج والتُّغْزُغْز[1] والصَّقالِبَة ونَحْوهم.

و«الإقْليم الخامِس» وَسَطُه حيث يكون النَّهارُ الأَطْوَل خمس عشر ساعَة. وارْتِفاعُ القُطْب الشَّمالي، وهو العَرْض، إحدى وأربعون دَرَجَة وثُلْث دَرَجَة. وابتداؤه من نهاية عَرْض الإقْليم الرابع إلى حيث يكون النَّهارُ الأَطْوَل خمس عشرة ساعَة ونصف ساعَة، والعَرْضُ ثلاثًا وأربعين دَرَجَة.

وَمَسافَته خَمْسون ومائتا ميل، ويبتدئ من المَشْرِق إلى بلاد يَأْجُوج ومَأْجُوج، ويمرُّ بشَمال خُراسان وفيه خُوارَزْم وإسْبيجاب وأَذْرَبيجان وبَرْذَعَة وسِجِسْتان وأَرْزَن وخَلاط، ويمرُّ على بلاد الرُّوم إلى رُوميَّة الكبرىٰ والأَنْدَلُس حتى ينتهي إلى البَحْر في الغرب.

[1] التُّغْزُغز أو الطُّغْزُغز: انظر عنهم فيما يلي ١: ٣١٣.

وفي هذا الإقْليم من الجِبال الطّوال ثلاثون جَبَلًا ، ومن الأنْهار الكِبار خمسة عشر نَهْرًا ، ومن المَدائِن الكبار مائتا مَدينَة . وأكثر أهْله بِيض الألْوان ، وله من البُرُوج الدَّلْو ، ومن السَّيَّارَة القَمَر .

و«الإقليمُ السّادِس» وَسَطُه حيث يكون النَّهارُ الأطول خمس عشرة ساعَة ونصف ساعَة . وارتفاعُ القُطْب الشَّمالي ، وهو العَرْض ، خمسًا/ وأربعين دَرَجَة وخُمْسَيْ دَرَجَة . وابتداؤه من حَدّ نهاية عَرْض الإقْليم الخامِس إلى حيث يكون النَّهارُ الأَطْوَل خمس عشرة ساعَة ونصف ورُبْع ساعَة . والعَرْض سبعًا وأربعين دَرَجَة ورُبْع دَرَجَة .

ومَسافَةُ هذا الإقْليم مائتا ميل وعشرة أَمْيال ، ويبتدئُ من المَشْرق ، فيمرُّ بمَساكِن التُّرْك من الخَزْخيز[a] والتُّغْزغُز ، إلى بلاد الخَزَر من شمال تُخُومهم[b] على اللّان والسَّرير وأرض بُرْجان والقُسْطَنْطِينية وشَمَال الأَنْدَلُس إلى البحر المحيط الغربي [1] .

وفي هذا الإقْليم من الجِبال الطّوال اثنان وعشرون جَبَلًا ، ومن الأنْهار الطّوال اثنان وثلاثون نَهْرًا ، ومن المُدُن الكِبار تسعون مَدينَة . وأكثرُ أهل هذا الإقْليم أَلْوانُهم ما بين الشُّقْرَة والبَياض . وله من البُرُوج السَّرَطان ، ومن السَّيَّارَة المِرِّيخ .

و«الإقْليمُ السّابِع» وَسَطُه حيث يكون النَّهارُ الأَطْوَل ستّ عشرة ساعَة سواء . وارْتِفاعُ القُطْب الشّمالي ، وهو العَرْض ، ثمانيًا وأربعين دَرَجَة وثُلُثَيْ دَرَجَة .

وابتداءُ هذا الإقْليم من حَدِّ نهاية الإقْليم السّادِس إلى حيث يكون النَّهارُ الأَطْوَل ستَّ عشرة ساعة ورُبْع ساعَة ، والعَرْضُ خمسين دَرَجة ونصف درجة . ومسافَتُه مائة وخمسة وثمانون مِيلًا .

فتبَيَّنُ أنَّ ما بَيْنَ أَوَّل حَدِّ الإقْليم الأَوَّلُ وآخِر حَدّ الإقْليم السّابع ، ثلاث ساعات ونِصف ، وأنَّ ارْتِفاع القُطْب الشّمالي ثمانية وثلاثون دَرَجَة ، تكون من الأمْيال أَلفين ومائة وأربعين مِيلًا .

ويبتدئُ الإقْليم السّابع من المَشْرِق على بلادِ يَأْجوج ومَأْجوج ، ويمرُّ ببلادِ التُّرْك على سواحِل بَحْر جُرْجان ممّا يلي الشّمال ، ويقطع بَحْر الرُّوم على بلاد جُرْجان والصَّقالِبَة إلى أن ينتهي إلى البَحْر المحيط في الغَرْب .

a) بولاق : أبخرخير . b) بولاق : نجومهم .

[1] انظر المسعودي : التنبيه والإشراف ٨٣؛ ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣١.

وبهذا الإقْليم عَشْرَةُ جِبال طِوال ، وأربعون نَهْرًا طوالًا ، واثنتان وعشرون مَدينَة كبيرة . وأهْله شُقْرُ الأَلْوان ؛ وله من البُرُوج الميزان ، ومن السَّيَّارَة الشَّمْس .

وفي كلِّ إقْليم من هذه الأقاليم السَّبْعَة أُمَمٌ مختلفة الألْسُن والأَلْوان ، وغير ذلك من الطَّبائِع والأَخْلاق والآراء والدِّيانات والمَذاهِب والعَقائِد والأَعْمال والصَّنائع والعَادات والعِبادات ، لا يُشْبِه بعضُهم بعضًا ، وكذلك الحَيَوانات والمَعادِن والنَّبات مختلفة في الشكل والطَّعْم واللَّوْن .

والرِّيحُ بحَسب اخْتلاف أَهْوية البُلْدان ، وتُرْبة البِقاع وعُذوبَة المياه ومُلوحَتها على ما اقْتَضَتْه طَوالِعُ كلِّ بَلَد من البُرُوج على أُفُقِه ، ومَمَرّ الكَواكبُ على مُسامَتة البِقاع من الأرْض ، ومَطارِح شُعاعاتها على المَواضِع ، كما هو معروفٌ[a] في مواضعه من كُتُب الحِكْمَة ، ليَتَدَبَّر أُولو النُّهَىٰ ، ويَعْتَبِر ذوو الحِجَا بتدبير الله في خَلْقه ، وتَقْديره لما يَشاء وفِعْله لما يُريد ، لا إلٰه إلَّا هو .

ومع ذلك فإنَّ الرُّبْعَ المسكون من الأرض – على تَفاوُت أَقْطارِه – مَقْسومٌ بين سَبْع أُمَمٍ كِبار ، وهم الصِّين والهِنْد والسُّودان والبَرْبَر والرُّوم والتُّرْك والفُرْس . فجَنوبُ مَشْرِق الأرض في يد الصِّين ، وشَماله في يد التُّرْك ، ووَسَط جنوب الأرض في يد الهِنْد ، وفي وَسَط شَمال الأرض الرُّوم ، وفي جنوب مَغْرب الأرض السُّودان ، وفي شَمال مَغْرب الأرض البَرْبَر ، وكانت الفُرْسُ في وَسَط هذه المَمالِك قد أحاطَت بهم الأُمَمُ السِّتّ .

ذِكْرُ مَحَلِّ مِصْر من الأرْض

ومَوْضِعِها من الأقاليم السَّبْعَة

وإذْ يَسَّرَ الله سُبْحَانه بذِكْر جُمَل أَحْوال الأرْض ومَعْرِفَة ما في كلِّ إقْليم من أقاليم الأرض ، فلنَذْكُرْ مَحَلَّ مصر من ذلك فنقول :

ديارُ مصر بعضُها واقِعٌ في الإقْليم الثاني ، وبعضُها واقِعٌ في الإقْليم الثالث : فما كان منها في الصَّعيد الأَعْلَى ، كقُوص وإخْميم وإسْنا وأَنْصِنا وأُسْوان ، فإنَّ ذلك واقِعٌ في أقْسام الإقْليم الثاني . وما كان من دِيار مصر في جِهَة الشَّمال من أنْصِنا ، وهو الصَّعيد الأَدْنى من سُيوط إلى فُسْطاط مصر والفَيُّوم والقَاهِرَة والإسْكَنْدَرية والفَرَمَا وتِنِّيس ودِمْياط ، فإنَّ ذلك من أقْسام الإقْليم الثالث .

---

a) بولاق : مقرر .

وطُولُ مَدينَة مِصْرِ الفُسْطاط والقَاهِرَة – وهو بُعْدُهما من أوَّل العِمارَة في جهة الغَرْب – خمس وخمسون دَرَجَة، والعَرْضُ – وهو البُعْد من خَطِّ الاسْتِواء – ثلاثون دَرَجَة، وطولُ النَّهار الأَطْوَل أربع عشرة ساعةً، وغاية ارْتِفاع الشَّمْس في الفَلَك بها ثلاث وثمانون دَرَجَة وثُلْث ورُبْع دَرَجَة.

وفُسْطاطُ مِصْر مع القاهِرَة من مَكَّة – شَرَّفَها الله تعالى – واقِعان في الرُّبْع الجنوبي الشرقي، والصَّعيدُ الأَعْلَى أَشَدّ تَشريقًا لبُعْده عن مَدينَة الفُسْطاط بأيَّام عَديدَة في جِهَة الجَنوب، فيكون على ذلك مُقابِلًا لمكَّة من غربيها.

ومصرُ لا يُتَوَصَّل إليها إلَّا من مَفازَة: ففي شَرْقيها بَحرُ القُلْزُم من وَرَاءِ الجبَل الشَّرْقي، وفي غربيها صَحْراءُ المغرب، وفي جَنوبها مَفازَة النُّوبَة والحَبَشَة، وفي شمالها البَحْر الشَّامي، والرِّمالُ التي فيما بين بَحْر الرُّوم وبَحْر القُلْزُم. وبين مصر وبَغْداد – على ما ذَكَرَه ابنُ خُرْداذْبه[١] في كتاب «المَسَالِك والمَمَالِك» – ألف وسبع مائة وعشرة أمْيال، يكون خمس مائة وسبعين فَرْسَخًا ومائة وبضعًا وأربعين بَريدًا[٢].

وبين مصر والشَّام – أعني دِمَشْق – ثلاث مائة وخمسة وستون ميلًا، تكون من الفَراسِخ مائة وإحدى وعشرين فَرْسَخًا وثلثي فَرْسَخ، عنها ثلاثون بَريدًا[٣] وكَسْر.

وقال ابنُ خُرداذْبَه: أَرْضَ الحَبَشَة/ والسُّودان مَسيرَة سبع سنين، وأَرْضُ مصر جُزْء واحد من ستين جُزْءًا من أرض السُّودان، وأرْضُ السُّودان جزءٌ واحِد من الأرض كلها[٤].

---

[١] أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرْداذْبَه (أو خُرْداذْبِه) مؤلِّف فارسي الأصل، اتَّصل ببلاط الخليفة العباسي المُعْتَمد على الله بسامرًا، وشغل وظيفة «صاحب البريد» بنواحي الجبال بإيران، ومن المحتمل أن هذا الوضع هو الذي دفعه إلى تأليف كتابه الجغرافي استجابة لطلب أحد العباسيين. وعدَّ كراتشكوفسكي كتابه «المسالك والممالك» أوَّل مصنف يصل إلينا في الجغرافيا الوصفية، ويرى دي خويه De Goeje أن للكتاب مسودتين الأولى كتبها نحو سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م والثانية قبل سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م، أما ما نشر من الكتاب فلا يمثل سوى موجز متأخر، وتوفِّي ابن خرداذبه حوالي عام ٣٠٠هـ/٩١٢م وشمل القسم الرئيسي من الكتاب وصف الطرق بدرجات تتفاوت بالتفصيل. وترجع أغلب نقول المقريزي من كتابه إلى هذا القسم. (كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٦٧ – ١٧١؛ Hady-Sadok, M., *EI* ² art. *Ibn Khurrâdadhbih* III, p. 863).

[٢] ابن خرداذبة: المسالك والممالك ٨٣.

[٣] البريد. ذكر ياقوت أن فيه خلافًا، وأنه في البادية اثنا عشر ميلًا وبالشام وخراسان ستة أميال (ياقوت: معجم البلدان ١: ٣٥).

[٤] ابن خرداذبه: المسالك والممالك ٩٣.

وفي كِتاب هُروشيوش : بَلَدُ مصر الأَدْنَى شَرْقَه فِلَسْطين[a]، وغَرْبه أرض لِيبْية ، وأرض مصر الأَعْلَى تمتدُّ إلى ناحية الشَّرْق ، وحَدّه في الشَّمال[b] خَليج الغَرْب ، وفي الجنوب[c] البحر المُحيط ، وفي الغَرْب مصر[d] الأَدْنَى ، وفي الشَّرْق بَحْر القُلْزُم ، وفيه من الأجْناس ثمانية وعشرون جِنْسًا[1].

ذِكْرُ حُدُودِ مِصْرَ وَجِهَاتِهَا

اعْلَم أنَّ التَّحديدَ هو صِفَة المَحْدود على ما هو عليه ، والحَدُّ هو نِهايَةُ الشَّيء ، والحُدُود تَكْثُر وتَقِلُّ بحسب المَحْدود . والجِهاتُ التي تُحَدُّ بها المَساكِن والبِقاع أرْبَع جهات ، وهي :

جِهَةُ الشَّمال التي هي إشارة إلى مَوْضِع قُطْب الفَلَك الشَّمالي ، المعروف من كَواكِبه الجَدْي والفَرْقَدان .

ويُقابِلُ جِهَة الشَّمال الجِهَةُ الجَنُوبية ؛ والجَنوبُ عبارة عن مَوْضع قُطْب الفَلَك الجَنوبي ، الذي يقرب منه سُهَيْل وما يَتْبَعه من كَواكِب السَّفينَة .

والجِهَةُ الثالثة جِهَةُ المَشْرق ، وهو مَشْرِقُ الشَّمْس في الاعْتدالين اللذين هما رأس الحَمَل أوَّل فَصْل الرَّبيع ، ورَأْس الميزان أَوَّل فَصْل الخَريف .

والجِهَة الرابعة جِهَةُ المَغْرب ، وهو مَغْرب الشَّمْس في الاعْتدالين المذكورين .

فهذه الجِهاتُ الأَرْبَعُ ثابِتَة بثُبُوت الفَلَك ، غير متغيِّرة بتَغَيُّر الأوْقات ، وبها تُحَدّ الأراضي ونحوها من المساكِن ، وبها يهتدي الناسُ في أسْفارِهم ، وبها يَسْتَخرجون سَمْت مَحاريبهم . فالمَشْرقُ والمَغْربُ معروفان . والشَّمالُ والجَنوبُ جِهتان مُقاطعتان بجهتي[e] المَشْرق والمَغْرب على تربيع الفَلَك .

فالخَطُّ المارُّ بنُقْطَتي الشَّمال والجَنُوب يُسَمَّى خَط نِصْف النَّهار ، وهو مُقاطِع للخط المار بنُقْطَتي المَشْرق والمَغْرب المُسَمَّى بخَط الاسْتِواء ، على زَوايا قائِمَة وأبْعاد ما بين هذين الخَطَّيْن

a) في كتاب أوروسيوس : فإن شرقه بلد سورية فلسطين . b) في كتاب أوروسيوس : وحده في الجوف . c) في كتاب أوروسيوس : وفي القبلة . d) في كتاب أورسيوس : مبتدأ من مصر . e) بولاق : لجهتي .

[1] أوروسيوس : تاريخ العالم ٦١، ٦٢ (باختصار) .

مُتساوية . فالمُسْتَقْبِل للجَنوب يكون أبَدًا مُسْتَدْبِرًا للشَّمال ، ويصيرُ المغربُ عن يَمينه والمَشْرقُ عن يَساره .

وهذه الجِهاتُ الأَرْبَع هي التي يُنْسَب إليها ما يُحَدُّ من البلاد والأراضي والدور ؛ إلّا أنَّ أَهْلَ مِصْر يَسْتَعْمِلون في تَحديدهم بَدَلًا من الجِهَة الجنوبية لَفْظَة القِبليّة ، فيقولُون الحَدّ القِبْلي ينتهي إلى كذا ولا يقولون الحَدّ الجَنوبي ، وكذلك يقولون الحَدّ البَحْريّ ينتهي إلى كذا ، ويريدون بالبَحْري الحَدّ الشَّمالي[1] .

وقد يَقَعُ في هاتين الجِهَتَيْن الغَلَطُ في بَعْض البلاد ؛ وذلك أنَّ البِلادَ التي تُوافِق عروضُها عَرْض مَكَّة ، إذا كانت أطْوالُها أقلّ من طُول مَكَّة ، فإنَّ القِبْلَة فيها تكونُ[a] نَفْس المَشْرِق ، بخلاف البلاد[b] التي تُوافق عُروضها عَرْض مَكَّةَ إلّا أنَّ أطْوالَها أكْثَر[c] من طول مَكَّة ، فإنَّ القِبْلَةَ في هذه البلاد تكون نَفْس المَغْرِب . فمن حَدَّد في شيءٍ من هذه البلاد أرْضًا أو مَسْكَنًا بحُدود أربعة ، فإنَّه يصير منها حَدَّان[d] حَدًّا واحدًا . وكذلك جِهَةُ البَحْر لمَّا جعلوها قُبالَة جِهَة القِبْلَة ، وحَدَّدوا ما بينهما من الأَراضي والدُّور بما يُسامِتها منه ، فإنَّهم أيضًا رُبَّما غَلِطوا ، وذلك أنَّ القِبْلَةَ والبَحْر يكونان في بعض البلاد في جِهَة واحِدَة .

فإذا عَرَفْتَ ذلك ، فاعْلَم أنَّ أَرْضَ مصر لها حَدٌّ يأْخُذ من بَحْر الرُّوم من الإسْكَنْدَرية ـ ويَزْعُم قومٌ من بَرْقَة في البَرّ ـ حتى ينتهي إلى ظَهْر الوَاحات ، ويمتدّ إلى بَلَدِ النُّوبَة ، ثم يَعْطف على حُدود النُّوبَة في حَدّ أُسْوان ـ على حَدّ أرْض البُجَة[e] في قِبْلي أُسْوان ـ حتى ينتهي إلى بَحْر القُلْزُم ، ثم يمتدُّ على بحْر القُلْزُم ، ويُجاوز القُلْزُم إلى طُور سَيْنَاء ، ويَعْطف على تِيه بني إسْرائيل مارًّا إلى بحر الرُّوم في الجِفار خَلْف العَريش ورَفَح[f] ، ويرجع إلى السَّاحِل مارًّا على بحر الرُّوم إلى الإسْكَنْدَرية ، ويتَّصل بالحَدّ الذي قَدَّمْتُ ذِكْره من نواحي بَرْقَة .

وقال أبو الصَّلْت أُمَيَّة بن عبد العَزيز الأنْدَلُسي[g][2] ، في «رِسالَته المِصْرية» : أَرْضُ مصر بأَسْرها واقِعَةٌ في المعمورة في قِسْم[h] الإقليم الثاني والإقليم الثالِث ، ومعظمها في الثالِث .

---

a) بولاق : فإن القبلة تكون في هذه البلاد . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : أطول . d) بولاق : حدان منها . e) بولاق : السبخة . f) بولاق : رمح . g) ساقطة من بولاق . h) بولاق : قسمي .

---

[1] انظر أيضًا فيما يلي ١: ٣٤٣.

[2] أبو الصَّلْت أُمَيَّة بن عبد العزيز الأندلسي المتوفى نحو =

وحَكَى المَعْنِيُّون[a] بأَخْبارها وتَواريخها : أنَّ حَدَّها في الطول من مَدينَة بَرْقَة التي في جنوب البحر الرُّومي ، إلى أَيْلَة من ساحِل الخَليج الخارِج من بحر الحَبَشَة والزَّنْج والهِنْد والصِّين ، ومَسافَةُ ذلك قَريب من أربعين يومًا . وحَدُّها في العَرْض من مَدينَة أُسْوان وما سامَتَها من الصَّعيد الأَعْلى المُتاخِم لأرض النُّوبَة إلى رَشيد وما حاذاها من مَساقِط النِّيل في البحر الرُّومِي ، ومَسافَة ذلك قريب من ثلاثين يومًا [1].

ويكتنفُها في العرض إلى مُنْتَهاها جَبَلان : أَحَدُهما في الضِّفَّة الشَّرْقِيَّة من النِّيل وهو المُقَطَّم ، والآخَر في الضَّفَّة الغَرْبِيَّة منه ، والنِّيلُ مُتَسَرِّب فيما بينهما . وهما جَبَلان أَجْرَدان غير شامِخَيْنِ ، يتقاربان جدًّا في وَضْعِهما من لدن أُسْوان إلى أن يَنْتَهيا إلى الفُسْطاط ، ثم يتَّسع ما بينهما ويَنْفَرِج قليلًا ، ويأخذ المُقَطَّم منهما مشرقًا والآخر مغربًا ، على وِراب في مَأْخَذيهما وتَعْريج في مَسْلكيهما ، فتتَّسع أَرْض مصر من الفُسْطاط إلى ساحِل البَحْر الرُّومي الذي عليه الفَرَما وتِنِّيس ودِمْياط ورَشيد والإسْكَنْدَرية ، فهُناك تنقطع في عَرْضها الذي هو مَسافَة ما بين أَوْغَلها في الجَنوب وأَوْغَلها في ⌈الغرب و⌉[b] الشَّمال .

وإذا نَظَرْنا بالطَّريق البُرْهانية في مِقْدار / هذه المسافَة من الأميال ، لم تَبْلُغ ثلاثين ميلًا بل تنقص

---

a) بولاق : المعتنون . b) زيادة من الرسالة المصرية .

= سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م ، عالم أندلسي زار مصر وأقام بها في الفترة بين سنتي ٤٨٩هـ/١٠٩٦م و٥٠٦هـ/١١١٢م وسجَّل ملاحظاته وما شاهده فيها في رسالة سمَّاها «الرِّسالة المصرية» ، وأشار فيها إلى أنه لم يجد من علماء مصر في الطب من يستفيد منه أو يستزيد بمذاكرته ، وأن أكثر أطبائها المبرزين هم النَّصارى واليهود . كما ذكر أن المصريين هم أكثر الناس استعمالًا لأحكام النجوم وتصديقا لها وتعويلًا عليها . وذكر في نهايتها بعض مَنْ لقيه من أدبائها وظرفائها وفضلائها وعلمائها وشعرائها ، وبعضهم غير مذكور في كتب التراجم . ونقل عن «الرسالة المصرية» ، إضافة إلى المقريزي ، ياقوت الحموي والعماد الأصفهاني الكاتب (ياقوت : معجم الأدباء ٧:٥٢-٧٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١:٢٤٣-٢٤٧؛ العماد الكاتب : خريدة القصر (قسم المغرب) ١:١٨٩-٢٧٠، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ٢:٥٢-٦٢؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٩:٤٠٢-٤٠٦؛ محمد كامل حسين: فى أدب مصر الفاطمية ١٧٩-١٨٧؛ Brockelmann, C., *GAL* I, 641; *S* I 889; Millos, J.M., *EI*[2] art. *Abûl-Salt* I, p. 153). ونشر «الرسالة المصرية» عبد السلام هارون أولًا في مجلة الكتاب المصرية سنة ١٩٤٧-١٩٤٨م ثم في المجموعة الأولى من «نوادر المخطوطات»، القاهرة ١٩٥١، ٣-٥٦.

[1] أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ١٥؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١:٣٦؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١:١٢.

عنها نُقْصانًا ما له قَدْر ، وذلك لأنَّ فَضْل ما بين عَرْض مَدينة أُسْوان ـ التي هي أَوْغَلها في الجنوب ـ وعَرْض مَدينَة تِنِّيس ـ التي هي أَوْغَلها في الشمال ـ تسعة أجزاء ونحو سُدْس جُزْء ، وليس بين طُولَيْها فَضْل له قَدْر يُعْتَدّ به ، ويَنُوب[a] ذلك نحو خمس مائة وعشرين ميلًا بالتقريب ، وذلك مَسافَة عشرين يومًا أو قَريب منها .

وفي هذه المُدَّة من الزَّمان تقطع السُّفَّارُ [أبدًا][b] ما بين البَلَدَيْن بالسَّيْر المعتدل أو أكثر من ذلك [قليلًا][b]، لما في الطَّريق من التَّعْريج وعَدَمِ الاسْتِقامَة[1].

وقال القُضاعِيُّ[2] : الذي يَقَعُ عليه اسْمُ مصر من العَريش إلى آخر لُوبْيَة ومَرَاقِيَة ، وفي آخر أَرْض مَراقِيَة تلقى أَرض أَنْطابُلُس وهي بَرْقة . ومن العَريش فصَاعِدًا يكون ذلك مسيرة أربعين لَيْلَة ، وهو ساحِلٌ كلُّه على البَحْر الرُّومي ، وهو بَحْري أرض مصر ، كذلك مَهَبُّ الشَّمال منها إلى القِبْلَة شيئًا ما .

فإذا بَلَغْتَ آخِر أَرْض مَراقِيَة ، عُدْتَ ذات الشَّمال واستقبلت الجَنُوب ، وتَسير في الرَّمْل ـ وأنت مُتَوَجِّه إلى القِبْلَة ـ يكون الرَّمْلُ من مَصَبِّه عن يمينك إلى إفْريقية ، وعن يَسارِك من أَرْض مصر إلى أَرْض الفَيُّوم منها ، وأرض الواحَات الأربع ، فذلك غَرْبيّ مصر وهو ما اسْتَقْبَلْتَه منه . ثم تعرج من آخِر أَرْض الوَاحات ، وتَسْتَقْبِل الشَّرْق سائِرًا إلى النِّيل تسير ثماني مَراحِل إلى النِّيل ، ثم على النِّيل فصاعِدًا ، وهي آخر أَرْض الإسْلام هناك ، ويليها بلاد النُّوبَة . ثم تَقْطَع[c] النِّيلَ ، فتأْخُذ من أُسْوان في الشَّرْق مُنَكِبًّا عن بَلَد أُسْوان إلى عَيْذاب ساحل البحر الحِجازي ، فمن أُسْوان إلى عَيْذاب خمس عشرة مَرْحَلة ، وذلك كلُّه قِبْليّ أرض مصر ، ومَهَبُّ الجَنُوب منها . ثم تَقْطَع[c] البَحْرَ المِلْح من عَيْذاب إلى أرض الحِجاز ، فتنزل الحَوْراء أوَّل أرض مصر ، وهي مُتَّصِلَة بأَعْراض مَدِينَة الرَّسُول ﷺ .

a) الأصل : ويتعرف . b) زيادة من الرسالة المصرية . c) بولاق : ينقطع .

[1] أمية بن عبد العزيز : الرسالة المصرية ١٥-١٦.

[2] القضاعي ، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر المتوفى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م مؤرخ مصري وأحد رواد التأليف في الخطط ، اشتهر بكتابيه «عيون المعارف» ، و«المختار في معرفة الخطط والآثار» ، وهذا الكتاب الأخير هو الكتاب الذي ينقل عنه المقريزي في الخطط (انظر المقدمة) .

وهذا البَحْر المحدود هو بَحْر القُلْزُم، وهو داخِل في أرض مصر بشَرْقيه وغَرْبيه وبَحْريه: فالشَّرقيُّ منه أَرْض الحَوْراء وطنسه والنَّبْك وأَرْض مَدْيَن وأَرْض أَيْلَة فصاعِدًا إلى المُقَطَّم بمصر، والغَرْبي منه ساحِل عَيْذَاب إلى بحر النَّعام إلى المُقَطَّم، والبَحْريُّ منه مَدينَة القُلْزُم وجَبل الطُّور. ومن القُلْزُم إلى الفَرَما مَسيرَة يوم وليلة، وهو الحاجِز فيما بين البَحْرَيْن، بَحْرُ الحِجاز وبَحْرُ الرُّوم؛ وهذا كلّه شَرْقي أَرْض مصر من الحَوْراء إلى العَرِيش وهو مَهَبّ الصَّبَا منها[1]. فهذا المحدود من أَرْض مصر. وما كان بعد هذا من الحَدّ الغربي، فمن فُتُوح أهل مصر وثُغُورهم من بَرْقَة إلى الأَنْدَلُس.

ذِكْر بَحْر القُلْزُم

(a القَلازِم: الدَّواهي والمُضايَقَة، ومنه بَحْرُ القُلْزُم[2]، لأنَّه مَضيقٌ بين جِبال(a)، ولمَّا كانت أَرْض مصر مُنْحَصِرَة بين بَحْرَيْن، هما بَحْرُ القُلْزُم من شرقيها وبَحْرُ الرُّوم من شماليها، وكان بَحْرُ القُلْزُم داخِلًا في أَرْض مصر كما تقدَّم، صارَ من شَرْط هذا الكتاب التَّعْريف به، فنَقُول:

هذا البَحْرُ إنَّما عُرِفَ في ناحية ديار مصر بالقُلْزُم، لأنَّه كان بساحِله الغَرْبي في شَرْقي أرض مصر مَدينَة تُسَمَّى القُلْزُم، وقد خَرِبَت - كما ستقف عليه إن شاءَ الله تعالى في مَوْضِعه من هذا الكتاب[3] عند ذِكْري قُرَى مصر ومُدُنها - فسُمِّيَ هذا البَحْر باسم تلك المَدينَة وقيل له «بَحْر القُلْزُم» على الإضافة، ويُقالُ له بالعِبْرانية: يَمّ سوف(b).

وهذا البَحْرُ إنَّما هو خَليجٌ يخرج من البَحْر الكبير المُحيط بالأَرْض الذي يُقالُ له بَحْر أُقْيانُس، ويُعْرف أيضًا ببحر الظُّلُمات، لتَكاثُف البُخار المُتصاعِد منه وضَعْف الشَّمْس عن حَلّه، فيَغْلَظ وتشتدّ الظُّلْمَة، ويَعْظُم مَوْجُ هذا البحر وتكثُر أهوالُه، ولم يوقَف من خَبَره إلَّا على ما عُرِفَ من بَعْض سَواحِله وما قَرُب من جَزائِره.

(a-a) ساقطة من الأصل. (b) بولاق: ثم منسوب.

---

[1] ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٩ - ١٠.

[2] انظر عن بحر القُلْزُم وهو المعروف الآن بالبحر الأحمر، ياقوت: معجم البلدان ٤: ٣٨٧ - ٣٨٨؛ Beckingham, C.H., *EI*² art. *Bahr al-Kulzum* I, pp. 960-61.

[3] فيما يلي ٢١٣.

وفي جانِب هذا البَحْر الغَرْبي - الذي يَخْرُج منه البَحْر الرُّومي الآتي ذكره إن شاءَ الله - الجَزائِرُ الخَالِدات[1]، وهي فيما يُقالُ سِتّ جَزائِر يسكُنُها قومٌ مُتَوَحِّشون . وفي جانِب هذا البحر الشَّرقي ، ممَّا يلي الصِّين ، سِتّ جَزائِر أيضًا تُعْرَف بجَزائِر السبلي ، نَزَلَها بعضُ العَلويين في أوَّل الإسلام خَوْفًا على أنفسهم من القَتْل .

ويَخْرُج من هذا المُحيط ستة أَبْحُر : أَعْظَمُها اثنان ، وهما اللَّذان عَناهُما الله تعالى بقَوْله : ﴿مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيان﴾ [الآية ١٩ سورة الرحمن] ، وقَوْلِهِ : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [الآية ٦١ سورة النمل] . فأَحَدُهما من جِهَة الشَّرْق ، والآخر من جِهَة الغَرْب .

فالخارِجُ من جِهَة الشَّرْق يُقالُ له «البَحْرُ الصِّينى»، و«البَحْرُ الهِنْدي»، و«البَحْرُ الفارِسي»، و«البَحْرُ اليَمَني»، و«البَحْرُ الحَبَشي»، بحَسَب ما يمرّ عليه من البُلْدان . وأمَّا الخارِج من الغَرْب ، فيُقالُ له «البَحْرُ الرُّومي» .

فأمَّا البَحْرُ الهِنْدي الخارِج من جهة الشَّرْق ، فإنَّ مبدأ خُروجه من مَشْرق الصِّين ، وَرَاء خَطّ الاسْتِواء بثلاثة عشر درجة ، ويجري إلى ناحية الغَرْب ، فيمرُّ على بلاد الصِّين وبلاد الهِنْد إلى مَدينَة كَنْباية وإلى التبير من بلاد مُكْران . فإذا صارَ إلى بلاد مُكْران ينقسم هناك قسمين : أَحَدُهما يسمَّى بَحْرُ فارِس ، والآخَر يسمَّى بَحْرُ اليَمَن ، فيخرج بَحْرُ اليَمَن من رُكْن جَبَل خارج في البحر يسمَّى هذا الركن رَأْس الجُمْجُمَة ، فيمتدّ من هناك إلى مَدينَة ظَفَار ، ويسير إلى الشِّحْرِ وساحِل بلاد حَضْرَمَوْت إلى عَدَن وإلى باب المَنْدَب . وطُولُ هذا البَحْر الهِنْدي ثمانية / آلاف ميل ، في عَرْض ألف وسبع مائة ميل عند بعض المَواضِع ، ورُبَّما ضاقَ عن هذا القَدْر من العَرْض .

فإذا انتهى إلى باب المَنْدَب يخرج إلى بَحْر القُلْزُم ؛ والمَنْدَب جَبَلٌ طوله اثنا عشر ميلًا ، وسَعة فَوْهَتَه قَدْر ما يَرَى الرجل الآخر من البَرّ تجاهه .

فإذا فارَق باب المَنْدَب ، مَرَّ في جهة الشَّمال بساحِلَيْ زَبيد والحِرْدَة إلى عَثَّر - وكانت عَثَّر مَقَرَّ المُلْك في القَديم - ويمرُّ من هناك على حَلْي إلى عُسْفان والجار ، وهي فُرْضَة المدينة النَّبوية - على الحال بها أَفْضَل الصَّلاة والسَّلام والتَّحِيَّة والإكْرام - ومنها على ما يُقابل الجُحْفَة - حيث يُسَمَّى اليوم رابغ - إلى الحَوْراء ومَدْيَن وأَيْلَة والطُّور وفاران ومَدينَة القُلْزُم . فإذا وَصَلَ إلى القُلْزُم انْعَطَفَ

---

[1] الجزائر الخالدات . جزائر في المحيط الأطلنطي كانت تعرف بـ Iles Fortunée ومنها Canaries كانت مبدأ الأطوال عند فريق من العلماء (المسعودي : مروج الذهب ١:٩٩) .

من جِهَة الجَنُوب ، ومرَّ إلى القُصَيْر وهي فُرْضَة قُوص ، ومن القُصَيْر إلى عَيْذَاب وهي فُرْضَة البُجَة ، ويمتدُّ من عَيْذاب إلى بَلَدِ الزَّيْلَع - وهو ساحِل بلاد الحَبَشَة - ويتّصل ببَرْبَرا .

وطُولُ هذا البحر ألف وخمس مائة ميل ، وعَرْضُه من أربع مائة ميل إلى ما دونها . وهو بَحْرٌ كَريه المَنْظَر والرّائِحَة .

وفي هذا البَحْر مَصَبُّ دِجْلَة والفُرات ، وعلى أطْرافه بلاد السِّنْد وبلاد اليَمَن كأنّها جَزائِرُ أحاطَ بها الماءُ من جِهاتها الثلاث ، وهو يَرْدَع نَهْر مَهْران كرَدْع البَحْر الرُّومي لنيل مصر .

وفيه - فيما بين مَدينَة القُلْزُم ومَدينَة أَيْلَة - مكانٌ يُعْرف بمَدينَة فاران ، وعندها جَبَلٌ لا يكاد يَنْجو منه مَرْكبٌ لشِدَّة اخْتِلاف الرِّيح وقُوَّة مَمَرّها من بين شعبتيْ جَبَلَيْن[1] ، وهي بِرْكَة سعتها ستة أميال تُعْرف ببِرْكَة الغُرُنْدَل ، يُقالُ إنَّ فِرْعَوْنَ غرِق فيها . فإذا هَبَّتَ ريحُ الجَنوب لا يمكن سُلوك هذه البِرْكَة .

ويُقالُ إنَّ الغُرُنْدَل اسم صَنَم كان في القَديم هناك ، قد وُضِعَ ليَحْبس من خَرَج من أرض مصر مُغاضِبًا للمَلك أو فارًّا منه ، وإنَّ مُوسَىٰ - عليه السَّلام - لمَّا خَرَج ببني إسْرائيل من مصر وصارَ بهم مُشَرِّقًا ، أَمَرَه الله سبحانه أن يَنْزل تجاه هذا الصَّنَم ، فلمَّا بَلَغَ ذلك فِرعَون ظَنَّ أنَّ الصَّنَمَ قد حَبَس مُوسَىٰ ومَنْ معه ومنعهم من المسير ، كما يَعْهَدُونه منه ، فخَرَج بجُنوده في طَلَب مُوسَىٰ وقَوْمه ليأخذهم برَغْمه ، فكان من غَرَقِه ما قَصَّه الله سبحانه .

وسيرد خَبَرُ مُوسَىٰ - عليه السَّلام - عند ذِكْر كَنيسَة دَموه من هذا الكتاب في ذِكْر كَنائِس اليَهود[2] .

وفي بَحْر القُلْزُم هذا خَمْس عشرة جَزيرَة . منها أربع عامِرات ، وهي : جَزيرَة دَهْلَك ، وجَزيرَة سَواكِن ، وجَزيرَة النُّعمان ، وجَزيرَة السَّامِري .

ويخرج من هذا البحر خَليجان : خَليجٌ لطيفٌ ببلاد الهِنْد المُتَّصلة بالبحر الأَعْظَم ، وخَليجٌ يَحُول بين بلاد السُّودان وبلاد اليَمَن عَرْض زُقاقه نحو من فَرْسَخَيْن .

ويَقْرُب هذا البَحْر من البَحْر الرُّومي في أعالي بلاد الشَّام وديار مصر حتى يكون بينهما نحو يوم .

---

[1] انظر فيما يلي ٥١٢.

[2] انظر فيما يلي ٢: ٤٦٥.

ذِكْرُ البَحْرِ الرُّومِيّ

ولمَّا كانت عِدَّةُ بلادٍ من أرض مصر مُطِلَّة على البحر الرُّومي[١] كمَدينَة الإسْكَنْدَرية ودِمْياط وتِنّيس والفَرَمَا والعَريش وغير ذلك، وكان حَدُّ أرض مصر ينتهي في الجهة الشّمالية إلى هذا البَحْر وهو نهاية مَصَبّ النِّيل، حَسُنَ التَّعريف بشيءٍ من أخْبارِه :

وقد تَقَدَّم أنَّ مَخْرَجَ البَحْر الرُّومي هذا من جِهَة الغَرْب، وهو يخرج في الإقليم الرابع بين الأَنْدَلُس والغَرْب سائِرًا إلى القُسْطَنْطِينيَّة.

ويُقالُ إنَّ هركلش[a] الجَبَّار حَفَرَه وأَجْراه من البحر المُحيط الغربي، وأنَّ جَزيرةَ الأَنْدَلُس وبلاد البَرْبَر كانت أرضًا واحِدَة يسكنها الأشْبان والبَرْبَر[b]، فكان بعضُهم يُغير على بعض، إلى أن مَلَكَ هركلش[a] الجَبَّار بن ملكا بن[c] بيديعوس[d] بن إغريقش بن يونان، فرَغَّب إليه الأشبان في أن يجعل بينهم وبين البَرْبَر خَليجًا من البَحْر يمكن به احْتِراز كلّ طائِفَة عن الأخرى، فحَفَر زُقاقًا طوله ثمانية عشر ميلًا في عَرْض اثني عشر ميلًا، وبَنَى بجانبيه سِكْرين وعَقَد بينهما قَنْطَرَة يُجازُ عليها، وجَعَلَ عندها حَرَسًا يمنعون البَرْبَر من الجَواز عليها إلّا بإذن. وكان قاموسُ البحر أعْلَا من أرض هذا الزُّقاق، فطَمَى الماء حتى غَطَّى السُّكْرين مع القَنْطَرَة وساقَ بين يديه بلادًا كثيرة، وطغى على عِدَّة بلاد.

ويُقالُ إنَّ المُسافِرين في هذا الزُّقاق بالبَحْر يُخْبرون أنَّ المراكِبَ في بعض الأوقات يتوَقَّف سَيْرُها مع وُجُود الرِّيح فيجدون المانِع لها كونها قد سَلَكَت بين شَرافات السُّور وبين حائِطَيْن. ثم عَظُمَ هذا الزُّقاق في الطُّول والعَرْض حتى صارَ بَحْرًا عرضه ثمانية عشر ميلًا، ويذكرون أنَّ البَحْرَ إذا جَزَرَ ترى القَنْطَرَة حينئذٍ.

وهذا الخَبَرُ أَظُنُّه غير صَحيح، فإنَّ أَخْبارَ هذا البحر وكَوْنه بسَواحِل مصر، لم يزل ذكره في الدَّهْر الأوَّل قبل هركلش[a] بزمان طويل، فإمَّا أن يكون ذلك قد كان في أوَّل الدَّهْر ممَّا عمله

---

a) بولاق : إسكندر. b) بولاق : البربر والأشبان. c) ساقطة من بولاق. d) بولاق : سلقوس.

---

[١] عن بحر الروم المعروف الآن بالبحر المتوسط La Méditeranée، انظر مقال Dunlop, D.M., *EI*² art. *Bahr al-Rûm* I, pp. 963-65.

بعضُ الأوائل، وإمَّا أن يكون خبرًا واهِيًا، وإلَّا فزَمان هركلش[a] حادِث بعد كَوْن هذا البحر، والله أعْلَم.

وهذا الزُّقاقُ صَعْبُ السُّلوك، شَديد الهَوْل، مُتلاطِم الأمْواج. وإذا خَرَجَ البحرُ من هذا الزُّقاق، مَرَّ مشرِّقًا في بلاد البَرْبَر وشمال الغرب الأَقْصى إلى وَسَط بلاد المغرب على إفْريقيّة وبَرْقَة والإسْكَنْدَرية وشَمال التِّيه وأرْض فِلَسْطين والسَّواحِل من بلاد الشَّام، ثم يعطف / من هناك إلى العَلايا وأنْطاكية إلى ظَهْر بلاد القُسْطَنْطِينيّة، حتى ينتهي إلى البَحْر المحيط الذي خَرَجَ منه.

وطولُ هذا البَحْرَ خمسة آلاف ميل، وقيل ستة آلاف ميل، وعَرْضُه من سبع مائة ميل إلى ثلاث مائة ميل، وفيه مائة وسبعون جَزيرَة عامِرَة فيها أُمَمٌ كثيرة معروفة، إلَّا أنه ليس من شَرْط هذا الكِتاب، منها صِقِلِّيَّة وميورْقَة وإقْريطش.

وقُبالَة البَحْر الهِنْدي من جهة المغرب بَحْرٌ خارِج من المُحيط في مَغْرب بلاد الزَّنْج، ينتهي إلى قريب من جَبَل القَمَر، وفيه مَصَبُّ النِّيل المار على بلاد الحَبَشَة، وفي أَسْفَلِه جَزائر الخالِدات التي هي مُنْتَهَى الطُّول في المغرب.

ويُقابلُ البَحْر الشَّامي من ناحية المَشْرِق بَحْرُ جُرْجَان، وقيل إنَّه يَتَّصل بالبَحْر المُحيط من بين جِبال شامِخَة.

وبَحْرُ الصَّقْلَب بَحْرٌ يخرج من جِهَة المغرب بين الإقليم السَّادِس والإقليم السَّابع، وهو مُتَّسع، وفيه جَزائِر كثيرة، ومنها جَزيرَة الأَنْدَلُس إلَّا أنها تتَّصل بالبَرِّ الكبير، وهو جَبَل كالذِّراع يَتَّصل بهذا البَرّ عند بَرْشلونة، ولهم بَحْر ـ يُعْرف بـ: يأْجُوج ومأْجُوج ـ غزير وفيه عجائِب، إلَّا أنَّه ليس من شَرْط هذا الكتاب ذِكْرها. ويُقالُ إنَّ مَسافَةَ هذا البحر الرُّومي نحو أربعة أشهر.

وقال أبو الرَّيْحان محمد بن أحمد البِيرونيّ[1] في كتاب «تَحْديد نِهايات الأَماكِن لتَصْحيح مَسافَات المَساكِن»: وقد كان حِرْصُ[b] بعض مُلوك الفُرْس في بعض استيلائهم على مصر، على

a) بولاق: إسكندر. b) بولاق: حرْض.

[1] أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، أحد أكبر كبار العلماء المسلمين، وأكثرهم أصالة وعُمقًا، وتخصص في العلوم الرياضية والفلك والطبيعة، كما اشتهر أيضًا كجغرافي ومؤرخ، وأطلقت عيه المصادر لقب «الأستاذ»، وتوفي في =

أن يَحْفُروا ما بَيْنَ البَحْرَيْن : القُلْزُم ، والرُّومي ، ويَرْفَعُوا البَرْزَخ[a] من بينهما ، وكان أوَّلُهم ساسيس طراطسَ[b] الملك ، ثم من بعده داريوش الملك ، فلم يتمكَّن لهم ذلك لارتفاع ماء القُلْزُم على أرض مصر . فلمَّا كانت دَوْلَةُ اليُونانيين جاءَ بَطْلَميوس الثالِث ، ففَعَل ذلك على يد أَرْشِمِيدس ، بحيث يحصل الغَرضُ بلا ضَرَر . فلمَّا كانت دَوْلَةُ الرُّوم القَياصِرَة طَمُّوه مَنْعًا لمن يصل إليهم من أعْدائِهم [١] .

وذَكَرَ بَعْضُ أصْحاب السِّيَر من الفَلاسِفَة أنَّ ما بين الإسْكَنْدَرية وبلادِها وبين القُسْطَنطينِيَّة كان في قَديم الزَّمان أرضًا تُنْبِت الجِمِّيز ، وكانت مَسْكُونَةً وَخِمَة ، وكان أهلُها من اليُونانية ، وأنَّ الإسْكَنْدَرية خَرَقَ إليها البَحْرُ فغَلَبَت أمواهه[c] على تلك الأرض .

وكان بها ـ فيما يَزْعُمون ـ الطَّائِرُ الذي يُقال له قِقْنُس ، وهو طائِرٌ حَسَن الصَّوْت ، وإذا حانَ مَوْتُه زادَ حُسْن صَوْته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يُمْكِن أحَدٌ يسمع صوتَه لأنَّه يَغْلُب على قلبه من حُسْن صوته ما يُميت السَّامِع ، وأنَّه يُدْرِكه قبل مَوْته بأيام طَرَبٌ عظيمٌ وسُرورٌ فلا يهدأ من الصِّياح .

وزَعَمُوا أنَّ عامِلَ الموسيقىٰ من الفَلاسِفَة أرادَ أن يَسْمَع صوت قِقْنُس في تلك الحال ، فخَشِي إن هَجَمَ عليه أن يَقْتُله حُسْنُ صَوْتِه ، فسَدَّ أذنيه سَدًّا مُحْكَمًا ، ثم قَرُب إليه فجَعَلَ يَفْتَح من أذنيه شيئًا بعد شيء حتى اسْتَكْمَل فَتْح الأذنين في ثلاثة أيام ، يُريد أن يَتَوَصَّل إلى سَماعِه رُتْبَةً بعد رُتْبَة ، فلا يَبْغَته حُسْنُه في أوَّل مَرَّة فيأتي عليه .

وزَعموا أنَّ ذلك الطَّائِر هَلَكَ ، ولم يَبْق منه ولا من فِراخِه شيءٌ بسبب هُجُوم ماء البحر عليه وعلى رَهْطه باللَّيْل في الأوْكار ، فلم يُبْق له بَقِيَّة .

---

a) بولاق : ورفعوا من بينهما البرزخ ، البيروني : ويرفعوا البرزخ عما بين البحرين . b) بولاق : ثاسيس بن طراطس ، البيروني : سيس طراطس . c) ساقطة من بولاق .

= غزنة بعد سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م . كتب البيروني سلسلة من المؤلفات المهمة اعتمد المقريزي في الخطط على ثلاثة منها . حيث نقل مرة واحدة عن كتاب «تحديد نهايات الأماكن» وعن كتاب «القانون المسعودي» (فيما يلي ١ : ٢٥١) . أما كتابه الثالث «الآثار الباقية عن القرون الخالية» فقد اعتمد عليه المقريزي في مواضع كثيرة ، وخاصَّة عند حديثه عن «تاريخ الخليقة» وتواريخ الأمم السابقة على الإسلام ، أحيانًا دون الإشارة إليه ، ولكن في أغلب الأحيان كان يسند إليه ما نقله عنه (انظر المقدمة) .

[١] البيروني : تحديد نهايات الأماكن وتصحيح =

ويُقالُ إنَّ بعض الفَلاسِفَة أراد مَلِكٌ من الملوك قَتْله ، فأعْطاه قَدَحًا فيه سُمّ ليشربه فأعْلَمه بذلك ، فظَهر منه مَسَرَّة وفَرَح ، فقال له ما هذا أيها الحكيم ؟ فقال : هل أَعْجَز أن أكون مثل قِقْنُس ؟

ذِكْرُ اشْتِقاق مِصْر ومَعْناها وتَعْداد[a] أَسْمائها

يُقالُ كان اسْمُها في الدَّهْر الأَوَّل قَبْل الطُّوفان «جِزْلَة»[١]، ثم سُمِّيَت «مِصْر» .

وقد اخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْم في المَعْنَى الذي من أَجْله سُمِّيَت هذه الأرض بِمِصْر ، فقال قَوْمٌ : سُمِّيَت بمصريم بن مركائيل بن دوائيل بن عرياب بن آدَم ، وهو مِصْر الأَوَّل[٢] . وقيل : بل سُمِّيَت بِمِصْر الثاني ، وهو مِصْرام بن نَقْراوس الجَبَّار ابن مِصْريم الأَوَّل ، وبه سُمِّيَ مِصْر بن بَيْصَر بن حَام بعد الطُّوفان[٣] . وقيل : بل سُمِّيَت بِمِصْر الثالث ، وهو مِصْر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح ، وهو اسم أعْجَمي لا يَنْصَرف ؛ وقال آخَرون : هي اسمٌ عربيٌّ مُشْتَقٌّ .

فأمَّا من ذَهَب إلى أنَّ مِصْرَ اسم أَعْجميّ ، فإنَّه استدلَّ بما رَواهُ أهلُ العِلْم بالأخبار من نُزُول مِصْر بن بَيْصَر بهذه الأرض ، وقِسْمَتِها بين أوْلادِه فعُرِفَت به[٤] .

وذَكَرَ الحَسَنُ بن أحمد الهَمْداني[٥] أنَّ مِصْرَ بن حَام هو[b] مِصْرايم . وقيل : إنَّما سُمِّيَ بمصر[c]

---

a) بولاق : تعدد . b) بولاق والإكليل : وهو . c) بولاق : وقيل إن بيصر والمثبت من الإكليل .

= مسافات المساكن ، حققه پ. بولجاكوف ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثامن ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٤٩ .

[١] في النجوم الزاهرة . زجلة من المزجلة .

[٢] انظر فيما يلي ٣٥٠ .

[٣] قارن مع ابن خرداذبة : المسالك والممالك ٨٠ ؛ القلقشندي : صبح ٢ : ٣١٤ ؛ وكذلك الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٥٤٣ (ربما نقلا عن المقريزي أو ابن إياس) .

[٤] ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٩ ؛ وقارن ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٩ ، وفيما يلي ١ : ٤٢ .

[٥] أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف الهمداني المعروف بلسان اليمن وبابن الحائك ، أحد كبار علماء اليمن كان فقيهًا ونسّابة ومؤرخا وطبيبًا ، وكان عارفًا بكتابة المُسْنَد وضمن كتابه «الإكليل في أنساب حِمْيَر وملوكها» - وهو في عشرة مجلدات - جميع تاريخ اليمن القديم ، لذلك اعتبره اليمنيون كتاب مجدها وحضارتها وتاريخها وسجل أنسابها وقبائلها وشعوبها . ويقف مصنفه هذا دليلًا ساطعًا على سعة معارفه حيث أفرغ فيه جماع معارفه بالأنساب والتاريخ والآثار ، ولم يكتف بعرض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي قبل الإسلام بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد وذلك على ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية ، واستطاع في كثير من =

ابن هِرْمِس بن هردس جَدّ الإسْكَنْدَر[١] . قالَ ونَكَح فوط[a] بن حام بخت[b] بنت تباويل بن ترس[b] ابن يافِث بن نُوح ، فوَلَدَت له بوقير وقِبْط ـ أبا القِبْط قِبْط مصر ـ ومن هـٰهنا [وَهِمَ الذين قالوا][c] إنَّ مصر بن حام ، وإنَّما هو مصر بن هِرْمِس بن هردس بن ميطون بن رومي[d] بن ليطي بن يُونان ، وبه سُمِّيت مصر فهي مَقْدونية[٢] .

وذكر أبو الحَسَن المَسْعُودي[٣] في كتاب «أَخْبار الزَّمان» أنَّ بني آدم لمَّا تَحاسَدوا وبَغَى[e] عليهم بنو قَابِيل بن آدَم ، رَكِب نَقْراوُس الجَبَّار ابن مَصْريم بن مركائيل بن دوابيل بن غرياب[f] بن آدم عليه السَّلام ، في نَيِّف وسبعين راكِبًا من بني غرياب[f] جَبابِرَة ، كلّهم يَطْلُبون مَوْضِعًا من الأرض يَقْطُنون فيه فِرارًا من بني أَبيهم . فلم يزالُوا يَمْشُون حتى وَصَلُوا إلى النِّيل فأطالُوا المَشْي عليه ، فلمَّا رَأَوْا سَعَة البَلَد فيه وحُسْنه ، أعْجَبَهُم وقالوا : هذه بَلَدُ زَرْع وعِمارَة ، فاقْطُنوا فيه واسْتَوْطِنوا ؛ وبَنَوا فيه الأبنية / المُحْكَمَة والصَّنائِع العجيبة ، وبَنَى نَقْراوس مصر وسَمَّاها باسم أبيه مَصريم[٤] .

وكان نَقْراوس جَبَّارًا له قُوَّة ، وكان مع ذلك عالِمًا ، وله ائتمر الجِنُّ في هَلاك بني أبيه ، ولم يزل مُطاعًا . وقد كان وَقَعَ إليه من العُلوم ، التي كان دوابيل عَلَّمَها لآدَم عليه السَّلام ، ما قَهَرَ به الجَبابِرَة الذين كانوا قَبْلَه ومُلوكَهم .

ثم أَمَرَ ، حين ملك ، ببناء مَدينَة في مَوْضِع خَيْمَته ، فقَطَعُوا له الصُّخور من الجبال ، وأثاروا مَعادِن الرَّصاص ، وبنوا مَدينَة سمَّاها أَمُسوس[٥] ، وأقاموا فيها أَعْلامًا [طوالًا][g] طول كل عَلَم منها

---

a) بولاق : لو ما . b) ساقطة من بولاق . c) إضافة من الإكليل . d) بولاق : يطون بن روي .
e) المسعودي : فغلب . f) كذا في الأصل وعند ڤييت والمسعودي : عرباق . g) زيادة من المسعودي .

= مواضع كتابه أن يوازن بين ما ورد في القرآن الكريم وبين ما جاء في الكتابات الحميرية ، فجاءت استنتاجاته مطابقة لكثير من الكشوف الحديثة . توفي بعد سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م (صاعد الأندلسي : التعريف بطبقات الأمم ٢٢٩-٢٣١ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٣٠- ٢٣١ ؛ القفطي : إنباه الرواة ١ : ٢٧٩-٢٨٥ ؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٨٧-١٨٩ ؛ Löfgren, O., *EI*² art. *al-Hamdânî* III, pp. 126-28 ؛ أيمن فؤاد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٤ ، ٦٨-٧٦) .

[١] الهمداني : الإكليل ١ : ٦٣ .

[٢] نفسه ٦٤- ٦٥ .

[٣] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي أكثر الكُتَّاب الجغرافيين العرب أصالة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، وهو مؤلف العديد من المصادر الموسوعية اعتمد المقريزي على ثلاثة منها هي : مروج الذهب ، والتنبيه والإشراف بالإضافة إلى «أخبار الزمان» المنسوب إليه ، وتوفي سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م (انظر المقدمة) .

[٤] انظر فيما يلي ١٣٦ .

[٥] انظر فيما يلي ٣٥٠ .

مائة ذِراع، وزَرَعوا وعَمَرُوا الأرض. ثم أَمَرهم ببناء المَدائِن والقُرَى، وأَسْكَن كلَّ ناحِيَة من الأرض مَنْ رَأَى؛ ثم حَفَروا النِّيلَ حتى أَجْرَوا ماءَه إليهم، ولم يكن قَبْل ذلك مُعْتَدل الجَرْي، إنَّما كان يَنْبَطِح ويتفرَّق في الأرض حتى وَجَّه إلى النُّوبَة [جماعةً حتى][a] هَنْدَسوه وساقُوا منه أنهارًا إلى مَواضِع كثيرة من مُدُنِهم التي بَنوها، وساقوا منه نهرًا إلى مَدينتهم أَمْسوس يَجري في وَسَطها[1].

ثم سُمِّيَت مصر، بعد الطُّوفان، بِمِصْر[b] بن بَيْصَر بن حام بن نُوح. وذلك أنَّ فليمون الكاهِن خَرَجَ من مصر ولَحِق بنُوح ـ عليه السَّلام ـ وآمَن به هو وأَهْله ووَلَده وتَلامِذته، ورَكِبَ معه في السَّفينَة، وزَوَّجَ ابنته من بَيْصَر بن حام بن نُوح. فلمَّا خَرَجَ نُوحُ من السَّفينَة وقَسَمَ الأرضَ بين أَوْلاده ـ وكانت ابنة فليمون قد وَلَدَت لبَيْصر وَلَدًا سمَّاه مِصْرايِم ـ فقال فليمون لنُوح: ابْعَث معي يا نَبيَّ الله ابني حتى أَمْضي به إلى[c] بلدي، وأُظْهره على كُنوزي، وأُوْقِفه على عُلومه ورُموزه؛ فأَنْفَذَه معه في جَماعَةٍ من أهل بيته ـ وكان غُلامًا مُرَفَّهًا ـ فلمَّا قَرُب من مصر بَنَى له عَريشًا من أَغْصان الشَّجَر، وسَتَره بحَشِيش الأرض، ثم بَنَى له بعد ذلك في هذا المَوْضِع مَدينَةً وسمَّاها دُرْسان أي باب الجَنَّة. فزَرَعُوا وغَرَسُوا الأَشْجَار والأَجِنة من دُرْسان إلى البحر، فصارَت هناك زُروعٌ وأَجِنَّة وعِمارَة. وكان الذي مع مصرايم جَبابِرَة، فَقَطَعُوا الصُّخور، وبَنَوا المعالِم والمَصانِع، وأقاموا في أَرْغَد عَيْش[2].

ويُقالُ إنَّ أهلَ مصر أقامُوا عليهم مِصْرِيم بن بَيْصَر مَلِكًا في أيَّام تالِغ بن عابر بن شالِخ بن أَرْفَخْشِذ بن سَام بن نُوح، فمَلَك مصر وبنى مَدينَة مَنف[d] على النِّيل وسمَّاها باسمه.

ويُقال إنَّ مِصْرِيم غَرَسَ الأَشْجار بيده، وكانت ثِمارُها عَظيمَةً بحيث تُشَقّ الأُتْرُجَّة نصفين فيُحْمَل على البَعير نصفها! وكان القِثَّاء في طول أربعة عشر شبرًا. ويُقالُ إنَّه أوَّلُ من صَنَع السُّفُن بالنِّيل، وإنَّ أوَّل سَفينَة كانت ثلاث مائة ذِراع طولًا في عرض مائة ذِراع[3].

---

a) إضافة من المسعودي. b) المسعودي: مصرايم c) ساقطة من بولاق. d) بولاق: وهي مدينة منيعة.

---

[1] المسعودي: أخبار الزمان ١١٠-١١١؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١-٢ (نقلًا عن ابن وصيف شاه)؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٨-٤٩ (نقلًا عن المسعودي)؛ وفيما يلي ١٣٦.

[2] المسعودي: أخبار الزمان ١٥٢-١٥٣، وفيما يلي ٢٢٧.

[3] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٩.

ويُقالُ إِنَّ مِصْرِيم نَكَحَ امرأةً من بني الكَهَنَة فَوَلَدَت له وَلَدًا فسمَّاه قُبْطيم ، ونَكَحَ قُبْطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأةً وَلَدَت له أربعة نَفَر : قُبْطيم وأُشْمون وأَتْريب وصَا ، فكَثُروا وعَمَّروا الأَرض وبُورِك لهم فيها .

وقيل إنَّه كان عَدَدُ من وَصَلَ معهم ثلاثون رجلًا ، فبَنَوا مَدينَةً سمُّوها نافَة ، ومعنى نافَة ثلاثون بلغتهم ، وهي مَنْف . وكَشَفَ أصحابُ فَليمون الكاهِن عن كُنُوز مصر وعُلومهم ، وأثاروا المَعادِن ، وعَلَّموهم عِلْم الطِّلَّسْمات ، ووَصَفوا لهم عَمَل[a] الصَّنْعَة ، وبَنَوا على غير البحر مُدُنًا منها رَقُودة مكان الإسْكَنْدَرية . ولمَّا حَضَر مِصريم الوَفاة عَهِد إلى ابنه قُبْطيم ، وكان قد قَسَم أَرْضَ مصر بين بنيه ، فجَعَلَ لقُبْطيم من قِفْط إلى أُسْوان ، ولأُشْمون من أُشْمون إلى مَنْف ، ولأَتْريب الحَوْف كلّه ، ولصَا من ناحية صَا البحرية إلى قُرْب بَرْقَة ، وقال لأخيه فارِق : لك من بَرْقَة إلى الغَرب ، فهو صاحِب إفْريقية ووالد الأفارِق ، وأَمَرَ كلَّ واحِدٍ من بنيه أن يَبْني لنفسه مَدينَةً في مَوْضِعه[1] .

وأَمَرَهم عند مَوْته أن يَحْفُروا له في الأرض سَرَبًا ، وأن يَفْرِشوه بالمَرْمَر الأَبْيَض ويَجْعلوا فيه جَسَدَه ، ويَدْفِنوا معه جميع ما في خَزائِنه من الذَّهب والجَوْهَر ويَزْبُروا عليه أسْماء الله تعالى المانِعة من أَخْذه ؛ فحَفَروا له سَرَبًا طُولُه مائة وخمسون ذِراعًا ، وجَعَلوا في وَسَطه مَجْلِسًا مُصَفَّحًا بصَفائِح الذهب ، وجَعَلوا له أربعة أبواب على كلِّ باب منها تِمْثال من ذَهَب ، عليه تاج مُرَصَّع بالجَوْهَر ، وهو جالِس على كُرْسي من ذَهَب قَوائِمه من زَبَرْجَد ، وزَبَروا في صَدْر كلّ تِمْثال آيات مانِعَة ، وجَعَلوا جَسَدَه في جُرْن[b] مَرْمَر مُصَفَّح بالذهب ؛ وزَبَروا على مَجْلِسِه :

«ماتَ مِصْريم بن بَيْصَر بن حام بن نُوح بعد سبع مائة عام مَضَت من أَيَّام الطُّوفان ، ولم يَعْبُد الأَصْنام ، إذ لا هَرَمَ ولا سِقام ولا حُزْن ولا اهْتمام ، وحَصَّنَه بأسماء الله العِظام ، لا يَصِل إليه إلَّا مَلِكٌ ولدته سبعة مُلوك تَدين بدين المَلِك الدَّيَّان ، ويُؤْمِن بالمَبْعوث بالفُرْقان الداعي إلى الإيمان آخِر الزَّمان» .

---

a) بولاق : ووضعوا لهم عمل . b) بولاق : جمد .

---

[1] انظر كذلك فيما يلي ٣٧٠ ، ٥١٤ .

وجَعَلوا معه في ذلك المجْلس ألف قطعة من الزَّبَرْجَد المَخْروط، وألف تِمْثال من الجَوْهَر النَّفيس، وألف بَرْنية مملوءَة من الدُّرّ الفاخِر والصَّنْعَة الإلهية، والعَقاقير والطِّلَّسْمات العَجيبة، وسَبائِك الذَّهَب، وسَقَّفوا ذلك بالصُّخور، وهالوا فَوْقَها الرِّمال بين جبلين، ووَلي ابنه قُبْطيم المَلك[1].

قال أبو محمد عبد الملك بن هِشَام[2] في كتاب «التِّيجان»[a]: أنَّ عَبْدَ شَمْس بن يَشْجب بن يَعْرُب بن قَحْطان بن هُود أخي عاد بن عابِر بن شالِخ بن أَرْفَخْشذ بن سام بن نُوح عليه السَّلام. واسْمُ عَبْد شَمْس هذا عامِر، وعُرِفَ بعَبْد شَمْس لأنَّه أوَّلُ من عَبَد/ الشَّمْس[3]، وقيل له أيضًا سَبَأ لأنَّه أوَّلُ من سَبَى، وهو سَبَأ الأكبر أبو حِمْيَر وكَهْلان، مَلَكَ بعد أبيه يَشْجُب بأرض اليمن[4]، جَمَعَ بني قَحْطان وبني هُود - عليه السَّلام - وحَثَّهم على الغَزْو، ثم سارَ بهم إلى أرْض بابِل فَفَتَحها، وقَتَلَ مَنْ كان بها من الثُّوَّار حتى بلَغَ أرْض أرْمينية، ومَلَكَ أرْض بني يافِث بن نُوح، وأرادَ أن يَعْبُر من هُناك إلى الشَّام وأرْض الجَزيرَة، فقيل له ليس لك مَجاز غير الرُّجوع في طَريقك، فَبَنَى قَنْطَرَةً على البحر بناحية[b].... وجازَ عليها إلى الشَّام، فَأَخَذ تلك الأراضي إلى الدَّرْب، ولم يكن خَلْف الدَّرْب إذ ذاك أَحَدٌ.

ثم نَهَضَ يُريد بلاد المَغْرِب[c]، فنَزَلَ على النِّيل، وجَمَعَ أهل مَشْورته وقال لهم: إنِّي رَأَيْتُ أن أبني مِصْرًا - أي حَدًّا[d] - بين هَذَيْن البَحْرَيْن - يعني بحر الرُّوم وبحر القُلْزُم - فيكون فاصِلًا بين المَشْرِق[e] والمَغْرِب[c]، فقالوا: نِعْمَ الرَّأْي أيُّها الملك.

---

a) بولاق: التحانف. b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: الغرب. d) بولاق: إلى حد. e) بولاق: الشرق.

---

[1] المسعودي: أخبار الزمان ١٥٣-١٥٥؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٤-٤٦ (عن ابن وصيف شاه)؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٩-٥٠.

[2] أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيّوب الذُّهلي؛ عالم ينتمي إلى أسرة من أصل حميري انتقلت من البصرة إلى مصر حيث استقرت بها، وبها ولد عبد الملك وأمضى بها حياته حتى وفاته سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م. اشتهر بكتابه في «السيرة النبوية» الذي اختصر فيه سيرة محمد بن إسحاق، والذي أصبح المصدر الرئيسي لدراسة السيرة النبوية، وكذلك بكتابه حول تاريخ اليمن القديم «التيجان في ملوك حمير» وهو الذي ينقل عنه المقريزي هنا (ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١٧٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠: ٤٢٨-٤٢٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩: ٢١٤؛ Montgomery Watt, W., *EI*[2] art. *Ibn Hishâm* III, p. 824).

[3] قارن ابن هشام: التيجان في ملوك حمير ٢٥-٤٧ (حيث نقل المقريزي النسب فقط دون سائر التفاصيل التي أوردها ابن هشام رواية عن وهب بن منبه مؤلف الكتاب الأصلي). وانظر كذلك أخبار عبيد بن شرية الجرهمي ٣٩٧، ٣٩٩.

[4] نفسه ٤٩، ٥٠، وأخبار عبيد بن شرية ٣٩٧، ٣٩٩.

فبَنَى مَدينَةً سَمَّاها مصر ووَلَّى عليها ابنه بابِلْيون ، ومَضَى إلى بني حام بن نُوح - وهم نُزول في البَراري إلى قَمُونيَة وبَقْمونية[a] القِبْط - فأَوْقَع بجميع تلك الطَّوائِف ، وسَبَى ذَراريهم كما فَعَلَ ببِلاد الشَّرْق ، فقيل له من أَجْل ذلك «سَبَأ» . ثم عادَ إلى مصر ومَضَى فيها إلى الشَّام يُريد الحِجَاز ، وأَوْصَى ابنه بابِلْيون عند رحيله فقال :

[الطويل]

أَلَا قُل لبَابِلْيون والقَوْلُ حِكْمَة مَلَكْتَ زِمامَ الشَّرْقِ والغَرْبِ فاجْمِلْ
وخُذ لبني حَامٍ من الأَمْر وَسَطه فإن صَدَفوا يَوْمًا عن الحَقّ فاقْبِل
وإنْ جَنَحوا بالقَوْل للرِّفْق طاعَةً يُريدون وَجْه الحَقّ والعَدْل فاعْدِل
ولا تُظهرنَّ الرَّأْي في الناس يَجْتَروا عليك به واجْعَله ضَرْبَة فَيْصِل
ولا تَأْخُذَنَّ المالَ من غير وَجْهه فإنّك إنْ تأخُذْه بالرِّفْق يَسْهُل
ولا تُنْفِقنّ المال في غير حَقِّه وإن جاءَ ما لابُدّ منه فابْذل
وداوِ ذَوي الأَحْقادِ بالسَّيْف إنَّه مَتَى يَلْق منك العَزْم ذُو الحِقْد يُجْمِل
وخُذ لذَوي الأَحْساب لِيْنا وشِدَّة ولا تَكُ جَبَّارًا عَليهم وأَجْمِل
وكُنْ لِسُؤال النَّاسِ غَوْثًا ورَحْمَةً ومنْ يَكُ ذا عُرْفٍ من النَّاس يُسْأَل
وإيَّاكَ والسَّفَر القَريب فإنَّه سيُغْني بما يُوليه في كلِّ مَنْهِل

ثم عادَ إلى اليمن وبَنَى سَدَّ مَأْرِب ، وهو سَدٌّ فيه سبعون نهرًا ، ويَصِلُ إليه السَّيْلُ من مَسيرة ثلاثة أَشهر في مِثْلها ، ثم ماتَ عن خمس مائة سنة [1].

وقامَ من بعده ابنُه حِمْيَر بن سَبَأ ، فعَتَا بنو حام على بابِلْيون وأرادوا تَخْريب مصر ، فاسْتَدْعى أخاه حِمْيَر ليُنْجِده عليهم ، فقَدِمَ عليه مصر ، ومَضَى إلى بلاد المغرب ، فأقامَ بها مائة عامٍ يبني المَدائِن ويتَّخِذ المَصانِع ، فماتَ [بعده أخوه][b] بابِلْيون بن سَبَأ بمصر ، ووَلِي بعده ابنه امرؤُ القَيْس ابن بابِلْيون [2].

ثم ماتَ حِمْيَرُ بن سَبَأ عن أربع مائة سنة وخمس وأربعين سنة ، منها في المُلْك أربع مائة سنة ؛ وأقامَ من بعده وائِل بن حِمْيَر ثم مات [3].

---

a) بولاق : بعمونية . b) زيادة من التيجان .

---

[1] ابن هشام : التيجان ٤٨- ٥٠، وفيما يلي ١ : ٢٨٧.
[2] نفسه ٥٣.
[3] نفسه ٥١- ٥٥.

فقامَ من بعده ابنه الشَّكْسَك بن وائِل الذي يُقالُ له مُقَعْقِعُ المُلْك[a] ـ وقد افْتَرق مُلْكُ حِمْيَر ـ فحارَب الثُّوّار، وسارَ إلى الشَّام، فلقيه عمرو بن امْرئِ القَيْس بن بابِلْيون بن سَبَأ بالرَّمْلَة ـ وقد مَلَكَ بعد أبيه ـ وقَدَّمَ له هَدية، فأقَرَّه على مصر حتى قَدِمَ عليه إبراهيم الخَليل ـ عليه السَّلام ـ ووَهَبَه هاجَر[1].

وقال أبو القاسِمُ عبد الرَّحْمَـٰن بن عَبْد الله بن عَبْد الحَكَم[2] في كتاب «فُتُوح مِصْر وأَخْبارِها»، عن عبد الله بن عَبَّاس ـ رضي الله عنهما / قال: كان لنُوح ـ عليه السَّلام ـ أربعة من الوَلَد: سَام وحَام ويافِث ويحْطون، وأنَّ نُوحًا رَغِبَ إلى الله عَزَّ وجَلَّ، وسأَلَه أن يَرْزُقَه الإجابَة في وَلَده وذُرِّيته حين تكامَلوا بالنَّماء والبَرَكَة، فوَعَدَه ذلك. فنادَى نُوحٌ وَلَدَه وهم نِيام عند السَّحَر، فنادَى سامًا فأجابَه يَسْعَى، وصاحَ سامُ في وَلَده فلم يُجِبه أَحَدٌ منهم، إلَّا ابنه أَرْفَخْشِذ، فانْطَلَق به معه حتى أَتَياه، فوَضَعَ نُوحٌ يمينَه على سام وشِماله على أَرْفَخْشذ بن سَام، وسأل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن يُبارِكَ في سام أَفْضَلَ البَرَكَة، وأن يجعل المُلْك والنُّبُوَّة في وَلَد أَرْفَخْشِذ.

ثم نادَى حامًا وتَلَفَّت يمينًا وشِمالًا، فلم يُجِبه ولم يَقُم إليه هو ولا أَحَدٌ من وَلَده، فدَعا الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ نُوحٌ أن يجعل وَلَدَه أَذِلَّاء، وأن يَجْعَلَهم عبيدًا لوَلَد سام.

وكان مِصرُ بن بَيْصَر بن حام نائِمًا إلى جنب جَدِّه، فلمَّا سَمِع دُعاءَ نُوح على جَدِّه ووَلَدِه، قام يَسْعَى إلى نُوح وقال: يا جَدِّي قد أَجَبْتُك إذ لم يُجِبْك أبي[b] ولا أَحَدٌ من وَلَدِه، فاجْعَل لي دَعْوةً من دُعائِك؛ ففَرِحَ نُوحٌ، ووَضَعَ يده على رَأْسه وقال: «اللَّهم إنَّه قد أجابَ دَعْوَتي فبارِكْ فيه وفي ذُرِّيته، وأَسْكِنه الأرضَ المُبارَكَة التي هي أمّ البلاد وغَوْث العِباد، التي نَهْرها أَفْضَلُ أنْهار الدنيا، واجْعَل فيها أَفْضَلَ البَرَكات، وسَخِّر له ولوَلَده الأَرض وذَلِّلها لهم وقَوِّهم عليها». ثم دَعَا ابنه يافِث، فلم يُجِبه [هو][c] ولا أَحَدٌ من وَلَده، فدَعا الله عليهم أن يجعلهم شِرارَ الخَلْق[3].

---

a) بولاق: الحمد، والتيجان: العمد. b) بولاق: جدي. c) زيادة من ابن عبد الحكم.

---

[1] ابن هشام: التيجان ٥٧ – ٥٨.

[2] أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم مُحَدِّث ومؤرخ مصري المولد والوفاة، توفي بمصر سنة ٢٥٧هـ/٨٧١م. يعد أوّل مؤرخ لمصر الإسلامية، كما يعد كتابه الذي وصل إلينا «فتوح مصر وأخبارها»، المصدر الوحيد الذي سجل أحداث الفتح العربي الإسلامي لمصر وكان عليه اعتمادُ كل الذين تناولوا هذا الموضوع (انظر المقدمة).

[3] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٧ – ٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٩ – ١٠.

وعاشَ سامُ مُبارَكًا إلى أن ماتَ ؛ وعاشَ ابنه أَرْفَخْشِذ بن سام مُبارَكًا حتى مات . وكان المُلْك الذي يَهَبُه[a] الله والنُّبُوَّة والبَرَكَة في وَلَد أَرْفَخْشِذ بن سام .

وكان أكبرُ وَلَدِ حام / كَنْعان بن حام ـ وهو الذي حُبِلَ به في الرِجْز في الفُلْك ـ فدَعَا عليه نُوحٌ فخَرَج أَسْوَد ، وكان في وَلَده الجفَاء والمُلْك والجَبَرُوت ، وهو أبو السُّودان والحَبَش كلّهم . وابنه الثاني كُوش بن حام ، وهو أبو السِّنْد والهِنْد . وابنه الثالث قُوط بن حَام ، وهو أبو البَرْبَر ، وابنه الأصغر الرابع بَيْصَر بن حام ، وهو أبو القِبْط كلهم [1] .

فوَلَدَ بَيْصَر بن حام أربعة : مصر بن بَيْصَر وهو أكبرهم والذي دَعَا له نُوح بما دَعَا له ، وفارِق ابن بَيْصَر ، وماح بن بَيْصَر [وياح بن بيصر][b] . وقيل وَلَد مصر أربعة : قِفْط بن مصر ، وأَشْمُن بن مصر ، وأَتْريب بن مصر ، وصَا بن مصر [2] .

وعن ابن لَهِيعَة وعبد الله بن خالِد : أَوَّلُ مَنْ سَكَنَ مصر بَيْصَر بن حام بن نُوح ـ عليه السَّلام ـ بعد أن أَغْرَق الله تعالى قَوْمَه ، وأوَّلُ مَدينَةٍ عُمِّرت بمصر مَنْف : فسَكَنَها بَيْصَر بوَلَده وهم ثلاثون نَفْسًا ، منهم أربعة أولاد له قد بَلَغُوا وتَزَوَّجُوا ، وهم مصر وفارِق وياح وماح ـ وكان مِصْرُ أكبرهم ـ فبَنُوا مصر ، وكان إقامتهم قبل ذلك بسَفْح المُقَطَّم ، ونَقَرُوا هناك مَنازِل كثيرة [3] .

وكان نُوحٌ ـ عليه السَّلام ـ قد دَعَا لمصر أن يُسْكِنَه الله الأرضَ الطَّيِّبَة المُبارَكَة التي هي أمّ البلاد وغَوْث العِباد ، ونَهْرُها أَفْضَل الأنهار ، ويجعل له فيها أَفْضَل البَرَكات ، ويُسَخِّر له الأرض ولوَلَده ويُذَلِّلها لهم ويُقَوِّيهم عليها ، فسأَلَه عنها فوَصَفَها له وأخبره بها .

قالوا : وكان مِصْرُ بن بَيْصَر مع نُوح في السَّفينَة لمَّا دَعَا له ، وكان بَيْصَر بن حام قد كَبُرَ وضَعُف ، فساقَ وَلَدَه مصر وجميع إخوته إلى مصر فنَزَلوها ، وبذلك سُمِّيَت مِصر [4] .

فلمَّا قَرَّ قَرارُ بَيْصَر وبنيه بمصر ، قال لمصر إخوته فارِق وماح وياح بنو بَيْصَر : قد عَلِمْنا أنك أَكْبَرُنا وأَفْضَلُنا ، وأن هذه الأرضَ التي أَسْكَنَك إيَّاها جَدُّك نُوح ، ونحن نُضَيِّق عليك أَرْضَك ـ

---

a) بولاق : يحبه . b) زيادة من ابن عبد الحكم . c) في الفضائل الباهرة : نبط .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨. يلي ٣٦٤.

[2] نفسه ٨.

[3] نفسه ٩؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣١٣ وفيما

[4] نفسه ٩؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٦.

وذلك حين كَثُرَ وَلَدُه وأولادُهم ـ ونحن نَطْلُب إليك البَرَكَة التي جَعَلَها فيك جَدُّنا نُوح أن تُبارِكَ لنا في أرضٍ نَلْحَق بها ونَسْكُنها وتكون لنا ولأولادِنا.

فقال: نعم، عليكم بأقْرَب البلاد إليَّ ولا تُباعِدُوا مِنِّي، فإنَّ لي في بلادي مَسيرة شهر من أربعة وُجوه أَحُوزها لنَفْسي، فتكون لي ولوَلَدي ولأولادهم.

فحازَ مِصْرُ بن بَيْصَر لنفسه ما بين الشَّجَرَتَيْن التي بالعَريش إلى أَسْوان طُولًا، ومن بَرْقَة إلى أَيْلَة عَرْضًا. وحازَ فارِقُ لنفسه ما بين بَرْقَة إلى إفْريقية، وكان وَلَدُه الأفارِقَة، ولذلك سُمِّيَت إفْريقية، وذلك مَسيرَة شهر. وحازَ ماحُ ما بين الشَّجَرَتَيْن من مُنْتَهى حَدّ مصر إلى الجَزيرَة مسيرة شهر، وهو أبو قِبْط الشَّام. وحازَ ياحُ ما وَراء الجَزيرَة كلّها ما بين البَحْر إلى الشَّرْق مسيرة شهر، وهو أبو قِبْطُ العِراق. ثم توفِّيَ بَيْصَر بن حام، ودُفِنَ في مَوْضِع دير أبي هِرْميس غربيّ الأهْرام، فهي أوَّلُ مَقْبَرَةٍ قُبِرَ فيها بأرْض مصر[1].

وكَثُرَ أولادُ مصر، وكان الأكابِرُ منهم قِفْط وأَتْريب وأُشْمُن وَصا، والقِبْطُ من وَلَد مصر هذا ويُقالُ إنَّ قِبْطًا أخو قِفْط، وهو بلسانهم قُفْطيم وقُبْطيم ومِصْرايم[2].

قال: ثم إنَّ بَيْصَر بن حَام توفي، واسْتَخْلَف ابنه مصر، وحازَ كلُّ واحِدٍ من إخْوة مصر قطعةً من الأرض لنفسه سِوَى أرْض مصر التي حازَها لنفسه ولولده. فلمَّا كَثُرَ وَلَدُ مصر وأوْلاد أولادهم، قَطَعَ مصر لكلِّ واحِدٍ من وَلَده قَطيعَة يحُوزها لنفسه ولوَلَده، وقَسَّم لهم هذا النِّيل. فقَطَع لابنه قِفْط مَوْضِعَ قِفْط فسَكَنَها، وبه سُمِّيت قِفْط قِفْطًا، وما فوقها إلى أُسْوان وما دونها إلى أُشْمون في الشرق والغرب. وقَطَعَ لأُشْمُن من أُشْمون فما دونها إلى مَنْف في الشرق والغرب، فسَكَن أُشْمُن أُشْمون فسُمِّيَت به. وقَطَعَ لأَتْريب ما بين مَنْف إلى صَا، فسَكَنَ أَتْريبَ فسُمِّيَت به. وقَطَعَ لصَا ما بين صَا إلى البَحْر، فسَكَنَ صا فسُمِّيَت به. فكانت مصرُ كلّها على أربعة أجزاء: جُزأين بالصَّعيد، وجُزأين بأَسْفَل الأَرض[3].

قال البَكْريُّ[4]: ومصر مُؤَنَّثَة. قالَ تعالى: ﴿أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ﴾، وقالَ: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾. وقالَ عامِرُ بن واثِلَة الكِناني لمُعاوِيَة: أمَّا عَمْرو بن العَاص فأَنْطَقته مصر. وأمَّا قولُه سبحانه:

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح ٩؛ وفيما يلي ٣٦٨. ودير أبي هرميس هو الموضع المعروف الآن باسم «سَقَّارَة» حيث يوجد الهرم المدرّج المعروف بهرم زوسَر (فيما يلي ٣١٧).

[2] ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٧.

[3] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٩؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٨.

[4] أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري «أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة»، وكانت اهتماماته الجغرافية =

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ فإنَّه أرادَ مصرًا من الأَمْصَار . وقرأ سليمان الأَعْمَش : (اهْبِطُوا مِصْرَ). وقال : هي مِصْرُ التي عليها سليمان بن عليّ ، فلم يُجْرِها [١].

وقال القُضَاعِيُّ : وكان بَيْصَر بن حام قد كَبُرَ وضَعُفَ ، فساقَه وَلَدُه مصر وجميع إخوته إلى مصر فنَزَلوها ، وبذلك سُمِّيَت مصر . وهو اسْمٌ لا يَنْصَرِف في المعرفة لأنَّه اسم مُذَكَّر ، سُمِّيَت به هذه المَدِينَة ، فاجْتَمَع فيها التأْنيث والتَّعْريف فمنعاها الصَّرْف ، ثم قيل لكلِّ مَدينَة عَظيمَة يَطْرِقها السُّفَّار مِصْر ، فإذا أُريد مِصْر من الأَمْصَار صُرِفَ لزوال إحدى العِلَّتَيْنِ وهي التَّعْريف .

وأمَّا قولُه تعالى إخبارًا عن مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [الآية ٦١ سورة البقرة] . فإنَّه مَصْروفٌ في قِراءَة سائِر القُرَّاء ، وفي قِراءَة الحَسَن والأَعْمَش غير مَصْروف . فمن صَرَفَها فله وَجْهان : أحَدُهما أنَّه أراد اهْبِطُوا مِصْرًا من الأَمْصار لأَنَّهم كانوا يومئذٍ في التِّيه ، والآخَر أنَّه أرادَ مِصْر هذه بعَيْنِها ، وصَرَفَها لأنَّه جَعَل مِصْرًا اسمًا للبَلَد ، وهو اسمٌ مُذَكَّر سُمِّي به مُذَكَّر فلم يَمْنَعه الصَّرْف . وأمَّا مَنْ لم يَصْرفه فإنَّه أرادَ بمِصْر هذه المَدِينَة .

وكذلك قولُه تعالىٰ إخْبارًا عن يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ :﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [الآية ١٠٠ سورة يوسف]، وقَوْلُ فِرْعَون : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف] إنَّما يُراد به مصر هذه [٢].

فأمَّا المِصْرُ في كَلام العَرَب فهو الحَدُّ بين الأرضين . ويُقالُ إنَّ أَهْلَ هَجَر يقولون : اشْتَرَيْتُ الدَّار بمُصُورِها ، أي بحُدودها [٣]. وقال الجَاحِظُ/ في كتاب «مَدْح مصر» [٤] : إنَّما سُمِّيَت مصر بمصر لمصير[a]

a) ساقطة من الأصل .

= تخضع إلى حد كبير لميوله الأدبية واللغوية ، وتوفي بقرطبة بالأندلس سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م . وضع البكري مصنفين في الجغرافيا أحدهما وهو «معجم ما استعجم» يمثل نمط الكتب الجغرافية التي وضعها اللغويون ، واعتمد عليه المقريزي كثيرًا في ضبط أسماء المواضع المصرية ، تمامًا مثلما اعتمد على لغوي أندلسي آخر هو ابن سيدة لنفس الغرض . أما الكتاب الثاني وهو «المسالك والممالك» الذي أتمّ تأليفه سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م ونحا فيه منحى كتب المسالك والممالك المشرقية في وصف الطرق والمراحل مع بيان بلدان العالم الإسلامي المختلفة ، فلم يعتمد عليه المقريزي كثيرًا (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٩ :٣٥-٣٦؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٧ :٢٩٠-٢٩٢؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢٩٦-٣٠٢؛ حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ١٠٨-١٤٨؛ عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي ، الكويت ١٩٩٦؛ Lévi- Prevençal, E., *EI*² art. *Abu* ͨ*Ubayd* (*al-Bakrī* I, pp. 159-61) .

[١] البكري : معجم ما استعجم ١٤٠٦.

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٢٧٩.

[٣] ابن قتيبة : غريب الحديث ١ :٤٧٧ وفيما يلي ٥٩.

[٤] لم أقف في تراجم الجاحظ على كتاب « مدح مصر » .

النَّاس إليها واجْتِماعهم بها، كما سُمِّيَ مَصير الخَوف مَصيرًا ومُصْرانًا لمصير الطَّعام إليه[1].

قال: وجَمْعُ المِصْر من البُلْدان أَمْصار، وجَمْع مَصير الطَّعام مُصْران، وليس لِمِصْر هذه جَمْع لأنَّها واحِدَة.

قال: وقال الأَخْطَلُ: هَمَمْتُ بالإسلام ثم تَوَقَّفْت عنه؛ قيل: ولِمَ ذلك؟ قال: أَتَيْتُ امرأةً لي وأنا جائِعٌ فقلت: أَطْعِميني شيئًا، فقالت: يا جارية، ضَعي لأبي مالِك مَصيرًا في النار، ففَعَلت؛ فاستعجلتها بالطَّعَام فقالت: يا جارية، أين مَصير أبي مالِك؟ قالت: في النار. قال: فتطَيَّرْتُ، وهَمَمْتُ بأن أُسْلِم فتَوَقَّفْت.

وقال الجَوْهَرِيُّ في كتاب «الصِّحَاح»: مِصْرُ هي المَدينة المَعْروفَة تُذَكَّر وتُؤَنَّث؛ عن ابن السَّرَّاج: والمِصْران: الكُوفَة والبَصْرَة[2].

وقال ابنُ خالَوَيْه في كتاب «لَيس»[3]: لَيْسَ أَحَدٌ فَسَّر لنا لم سُمِّيَت مصر مَقْدونية قَديمًا إلَّا في اللِّسان العِبْراني، قال: مَقْدُونية مغيث، وإنَّما سُمِّيَت مصر لمَّا سَكَنَها بَيْصَر ابن حام.

وتَزْعُم الرُّومُ أنَّ بلادَ مَقْدونية جميعًا وَقْفٌ على الكَنيسَة العُظَمىٰ التي بالقُسْطَنْطينِيَّة، ويُسَمُّون بلاد مَقْدونية الأَوْصَفِيَّة، وهي عندهم الإسْكَنْدَرية وما يُضافُ إليها، وهي مصر كلّها بأَسْرها إلَّا الصَّعيد الأَعْلىٰ.

ويُقال لمصر: أم خَنُّور، وتفسيره النِّعْمَة. والمِصْر: الفَرْق بين الشَّيْئَيْن. قال الشَّاعِرُ يصف الله تعالىٰ:

[البسيط]

وجَعَلَ[a] الشَّمْس مِصْرًا لا خَفَاء به ... بين النَّهار وبَيْنَ اللَّيْل قد فَصَلا

---

a) بولاق: جاعل.

---

[1] القلقشنديّ: صبح الأعشى ٣/ ٣١٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٧.

[2] الجوهري: الصحاح ٢: ٨١٧؛ ابن منظور: لسان العرب ٧: ٢٤؛ الزبيدي: تاج العروس ٣: ٥٤٣.

[3] لا يوجد هذا النص في القسم الذي وصل إلينا من كتاب «ليس في كلام العرب» لابن خالويه.

هذا البَيْتُ قائِلُه عَدِيٌّ بن زَيْد العِبادي [١]، ويُرْوى لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت الثَّقَفي [٢]، وهو من أَبيات أَوَّلها :

[البسيط]

اسْمَع حَديثًا كما يَوْمًا تحدثه   عن ظَهْر غَيْبٍ إذا ما سائِلٌ سَأَلا
كيف بَدَا ثم رَبَّى الله نِعْمَتَه   فيهـا وعَـلَّـمَـنَـا آيـاتِـه الأُوَلا
كانت رِياحٌ وسَيْلٌ ذو كرانية   وظُلْمَة لم تَدَع فَتْقًا ولا خَلَلا
فأَمَر الظُّلْمَة السَّوْدَاء فانْكَشَفَت   وَعَزلَ الماءَ عَمَّا كان قد شَغَلا
وَبَسطَ الأَرْضَ بَسْطًا ثم قَدَّرَها   تحت السَّماء سَواميلَ وما نَقَلا
وجاعِل الشَّمْس مِصْرًا لا خَفَاء به   بين النَّهار وبين اللَّيْل قد فَصَلا
وفي السَّماء مَصابيحٌ تُضيء لنَا   ما أن تكَلَّفْنا زَيْتًا ولا فَتْلا
قَضَى، لستَّة أيَّام، خَلِيقَتَه   وكان آخِر شَيْءٍ صَوَّر الرَّجُلا
فَأَخذ الله من طِينٍ فصَوَّرَه   لمَّا رَأَى أنَّه قد تَمَّ واعْتَدَلا
دَعاهُ آدَمَ صَوْتًا فاسْتَجابَ له   فنَفَخ الرُّوحَ في الجِسْم الذي جَبَلا
ثَمَّة أَوْرَثَه الفِرْدَوْسَ يَسْكُنُها   وزَوَّجه ضِلْعَه من جَنْبه سلا
لم يَنْهَه ربُّه عن غير وَاحِدَةٍ   مِن شَجَرٍ طِيبٍ إن شَمَّ أو أكَلا
وكانت الحَيَّةُ الرَّقْشَاءُ إذ خُلِقَت   كما تَرَى ناقَةً في الخَلْق أو جَمَلا
فلامَها الله إذْ أَطْغَت خَلِيقَتَه   طُولَ اللَّيالي ولم يَجْعَلْ لها أكُلا
تَمْشِي على بَطْنِها في الأَرْض ما عَمُرت   والتُّرْب تأْكُلُه حَزْنًا وإن سَهُلا

وقال الحافِظُ أبو الخَطَّاب مَجْد الدين عُمَر بن دِحْيَة [٣] : ومِصْرُ أَخْصَبُ بِلاد الله، وسمَّاها الله بمِصر، وهي هذه دون غيرها بإجْماع القُرَّاء على تَرْك صَرْفِها. وهي اسْمٌ لا يَنْصَرِف في مَعْرِفَة

[١] عَدِيٌّ بن زَيْد العبادي التميمي، شاعرٌ جاهليٌّ نصرانيٌّ من فحول الشعراء، لا يعرف تاريخ وفاته، قيل إنه توفيِّ قبل الإسلام وقيل إنه توفيِّ في زمن الخلفاء الراشدين (ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١٤٠-١٤٢؛ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١: ٢٢٥-٢٣٣؛ أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ٢/٩٧-١٥٤؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥: ١١٠-١١١؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩: ٥٣٠-٥٣١).

[٢] أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت عبد الله بن أبي ربيعة بن عَوْف الثَّقَفي : أشهر شعراء ثقيف، طمع في النبوَّة، وتوفيِّ بعد فتح حُنَيْن (أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ٤: ١٢٠-١٣٣؛ ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ٢٦٢-٢٦٨؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٩: ٣٩٥-٤٠٠).

[٣] أبو الخَطَّاب عمر بن الحسن بن عليّ بن محمد ينتهي نسبه إلى دِحْيَة الكلبي الصحابي المعروف شبيه جبريل عليه السلام، الأندلسي البلنسي الداني، من أعيان العلماء متقنًا لعلم الحديث وشُغِلَ بطلبه في أكثر بلاد الأندلس. ثم =

لأنَّه اسْمٌ مُذَكَّر سُمِّيَت به هذه المَدِينَة ، واجتمع فيه التأْنيثُ والتعريفُ فمنعاه الصَّرْف . وهي عندنا مُشْتَقَّة من : مَصَرْتَ الشَّاة إذا أَخَذْت من ضَرْعها اللَّبن ، فسُمِّيت مِصْر لكثرة ما فيها من الخَيْر ممَّا ليس في غيرها ، فلا يَخْلو ساكِنُها من خَيْرٍ يُدَرّ عليه منها كالشَّاة التي يُنْتَفع بلَبَنها وصُوفِها وولادَتها [1] .

وقال ابنُ الأَعْرابي [2] : المِصْرُ الوُعاء ، ويُقالُ للمِعَا : المَصِير ، وجمعه مُصْران ومَصَارين .

وكذلك هي خَزائِنُ الأرض ، قال أبو بَصْرَة الغِفاريّ من أَصْحاب رَسُول الله ﷺ : مِصْرُ خَزائِنُ الأَرْض كلّها ، ألا تَرَى إلى قَوْل يُوسُف ، عليه السَّلام : ﴿اجْعَلْني على خَزَائِنِ الأَرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية ٥٥ سورة يوسف] . فأغاثَ الله بمصر يومئذٍ وخَزائِنها كلّ حاضِرٍ وباد ؛ ذَكَره عن[a] الحَوْفي في تَفْسيره .

وقال البَكْرِيُّ : أُمّ خَنُّور ـ بفَتْح أوَّله وتَشْديد ثانيه وبالراء المهملة ـ اسم لمِصْرَ ؛ وقال أَرْطَاةُ بن سُهَيَّة :

[البسيط]

يا آل ذُبْيانَ ذُودُوا عن دِمائكمُ　　　ولا تَكونُوا لقَوْمٍ أُمَّ خَنُّورِ

يقول : لا تكونوا أَذِلَّاء ، ينالكم من أَرَاد ، ويأخُذ منكم من أَحَبَّ ، كما تُمْتَار مِصْر وهي أُمّ خَنُّور .

---

a) ساقطة من بولاق .

= رحل منها إلى بَرّ العَدْوَة ودخل مُرّاكش وارتحل منها إلى إفريقية ومنها إلى الديار المصرية ثم إلى الشام والشرق والعراق ، كما دخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها ومازندران ، كل ذلك في طلب الحديث . وفي زيارته الثانية لمصر ولَّاه السلطان الكامل محمد رئاسة دار الحديث الكاملية التي أنشأها سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٧م - وهي ثاني مدرسة عملت للحديث - (انظر فيما يلي ٢ :٣٧٥) وظل بمصر إلى أن توفي بها سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عن سبع وثمانين سنة ودفن في سفح المقطم . من مؤلفاته : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، والمُطْرب من أشعار أهل المغرب (راجع ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ :٤٤٨- ٤٥٠؛ أبا شامة ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٦٣؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢ :٣٨٩- ٣٩٥؛ تذكرة الحفاظ ٤ : ١٤٢٠-١٤٢٢؛ المقريزي : نفح الطيب ٢ :٩٩-١٠٤، مقدمة عباس العزاوي لكتاب النبراس ومقدمة إبراهيم الإبياري لكتاب المطرب ؛ de la Granja, F., *EI*² art. *Ibn Dihya*, III, p. 770).

[1] قارن ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٩؛ الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٥٤٣.

[2] محمد بن زياد الأعرابي من أئمة علم اللغة توفى سنة ٢٣١هـ/٨٤٦م (راجع ابن النديم : الفهرست ٧٥- ٧٦؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٥ :٢٨٢- ٢٨٥؛ القفطي : إنباه الرواة ٣ :١٢٨-١٣٧؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٣ :٧٩- ٨٠؛ Sezgin, F., *GAS* VII, pp. 127-129).

وقال كُراعُ : أمّ خَنُّور النِّعْمَة ، ولذلك سُمِّيَتْ مِصْرُ أُمَّ خَنُّور لكثرة خَيْرِها .

وقال عليُّ بن حَمْزَة[1] : سُمِّيَت أمّ خَنُّور ، لأنَّها يُساق إليها / القِصارُ الأَعْمار . ويُقالُ للضَّبُع : خَنُّور وخَنُّوز ، بالراء وبالزاي[2] .

وقال ابنُ قُتَيْبَة في «غريب الحَديث» : ومصر الحَدُّ ، وأهْلُ هَجَر يَكْتُبون في شُروطهم : اشْتَرَى فُلانٌ الدار بمُصُورها كلّها ، أي بحُدودها ؛ وقال عَدِيُّ بن زَيْد[3] :

[البسيط]

وجَعَلَ[a] الشَّمْس مِصْرًا لا خَفَاء به ... بين النَّهار وبين اللَّيْل قد فَصَلا

أي : حَدًّا[4] .

ذِكْرُ طَرَفٍ من فَضَائِلِ مِصْر

ولمصر فَضائِلُ كثيرة ، منها أنَّ الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ ذَكَرَها في كتابه العَزيز بِضْعًا وعشرين مَرَّة ، تارَةً بصَريحِ الذِّكْر وتارَةً إيماءً ؛ قال تعالىٰ : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [الآية ٦١ سورة البقرة]. [5] قال أبو محمد عبد الحَقّ بن عَطِيَّة في «تَفْسيره للقرآن»[b] : وجُمْهُورُ النَّاس يَقْرأون مِصْرًا بالتنوين ، وهو خَطُّ المَصَاحِف ، إلَّا ما حُكِيَ عن بعض مَصاحِف عُثْمان بن عَفَّان[b] رضي الله عنه .

وقال مُجاهِدٌ وغيره : من صَرَفَها أراد مِصْرًا من الأَمْصَار غير مُعَيَّن ، واستدلُّوا بما اقْتَضَاه القُرْآنُ من أَمْرِهم بدُخول القَرْيَة ، وبما تَظاهَرَت به الرِّواية أنَّهم سَكَنُوا الشَّام بعد التِّيه .

وقالَت طائِفَةٌ ممن صَرَفها : أرادَ مصر فِرْعَوْن بعينها ، واستدلُّوا بما في القُرْآن أنَّ الله تعالى أَوْرَثَ بني إسرائيل دِيارَ فِرْعَوْن وآثارَه ، وأجازوا صَرْفَها . قال الأَخْفَشُ : لخِفَّتِها وشَبَهِها بهِنْد ودعد . وسِيبَوَيْه لا يُجيز هذا . وقال غيرُ الأَخْفَش : أراد المكان فصُرِف .

a) بولاق : وجاعل . b) ساقطة من بولاق .

[1] أي علي بن حمزة الكسائي .

[2] البكري : معجم ما استعجم ٥١٤ .

[3] ديوان عديّ بن زَيْد ، نشره محمد جبّار المعيبد ، بغداد ١٩٦٥، ١٥٩ .

[4] ابن قتيبة : غريب الحديث ١ : ٤٧٧ ، وفيما تقدم ٥٦ .

[5] ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٤ نقلًا عن ابن زولاق ، وفيما يلي ١ : ٢٤ ، وانظر كذلك المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٦٥ - ٦٨ ؛ ابن الكندي : فضائل مصر المحروسة ٥ - ١١ ؛ ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ٣ - ٥ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٧٩ ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٢٧ - ٢٨ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٥ - ٩ .

وقرأ الحَسَنُ وأَبَان بن تَغْلِب وغيرهما : ﴿اهْبِطُواْ مِصْرَ﴾ ، بترك الصَّرْف ، وكذلك هي في مُصْحف أُبَيّ بن كَعْب ، وقال : هي مِصْر فِرْعَوْن ؛ قال الأَعْمَشُ : هي مِصْرُ التي عليها صالِح بن عَليّ [1] .

وقال أَشْهَبُ : قال لي مالِكُ : هي عندي مِصْر قريتك مسكن فِرْعَوْن ؛ قال تعالىٰ : ﴿ادْخُلُواْ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [الآية ٩٩ سورة يوسف] .

قال أبو جَعْفَر محمد بن جَرير الطَّبَرِيّ في «تَفْسيره»، عن فَرْقَد السَّبَخي[a]، قال : خَرجَ يوسُف ـ عليه السَّلام ـ يتلقَّى يَعْقوب ـ عليه السَّلام ـ ورَكِبَ أهلُ مصر مع يوسُف وكانوا يُعَظِّمونَه ؛ فلمَّا دَنا أَحَدُهما من صاحِبه ، وكان يَعْقُوبُ يَمْشي وهو يتوكَّأ على رَجُلٍ من وَلَده يُقال له يَهُوذا ؛ فَنَظَر يَعْقُوب إلى الخَيْل وإلى الناس فقال : يا يَهُوذا ، هذا فِرْعَونُ مصر ؟ قال : لا ، هذا ابْنُك ! فلمَّا دَنَا كلُّ واحِدٍ منهما من صاحِبِه قال يَعْقُوب ـ عليه السَّلام ـ : السَّلامُ عليك يا ذاهِب الأَحْزان عَنّي ؛ هكذا قال : يا ذاهِب الأَحْزان عَنّي [2] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [الآية ٨٧ سورة يونس] . قال الطَّبَرِيُّ عن ابن عَبَّاس وغيره : كانت بنو إسْرائيل تَخاف فِرْعَوْن ، فأُمِرُوا أن يَجْعَلوا بيوتَهم مَساجِدَ يُصَلُّون فيها . قال قَتادَةُ : وذلك حين مَنَعَهم فِرْعَوْن الصَّلاة ، فأُمِرُوا أن يَجْعَلوا مَساجِدَهم في بُيوتهم ، وأن يُوَجِّهوا نحو القِبْلَة .

وعن مُجاهِد : (بُيوتَكم قِبْلَة)، قال : نحو الكَعْبَة حين خافَ مُوسَىٰ ومَنْ معه من فِرْعَوْن أن يُصَلُّوا في الكَنائِس الجامِعَة ، فأُمِرُوا أن يَجْعَلُوا في بُيوتهم مَساجِد مُسْتَقْبِلَة الكَعْبَة ، يُصَلُّون فيها سِرًّا [3] .

وعن مُجاهِد في قَوْله : ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكما بِمِصْر بُيُوتًا﴾ قال : مِصْر الإسْكَنْدَرية .

وقال تعالىٰ مُخْبِرًا عن فِرْعَون إنَّه قال : ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف] [4] .

---

a) بولاق : الشيخي .

---

[1] انظر فيما تقدم ٥٥.

[2] الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن (نشرة محمود شاكر) ١٦ : ٢٦٥.

[3] ابن الكندي : فضائل مصر ٧.

[4] القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٨١- ٢٨٢.

قال ابنُ عَبْد الحكم، وأبو سعيد عبد الرَّحْمَن بن أحمد بن يُونُس[1] وغيرهما، عن أبي رَهْم السَّماعي، أنّه قال في قَوْله تعالىٰ : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِى﴾ قال : ولم يكن يومئذٍ في الأرض مُلْكٌ أَعْظم من مُلْك مصر، وكان جميعُ أَهْل الأَرَضين يَحْتاجون إلى مِصر. وأمَّا الأَنْهَارُ فكانت قَناطِرَ وجُسورًا بتقديرٍ وتَدْبير، حتى إن الماءَ يَجْري من تحت مَنازِلها وأَفْنِيتها فيَحْبِسونَه كيف شاءُوا[2].

فهذا ما ذَكَرَه الله سُبْحَانه في مصر من آي الكِتاب العَزيز بصَريح الذِّكْر.

وأمَّا ما وَقَعَت إليها الإشارة فيه من الآيات فعِدَّة.

قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [الآية ٩٣ سورة يونس]؛ وقال تعالىٰ : ﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [الآية ٥٠ سورة المؤمنون]، قال ابنُ عَبَّاس وسَعيد بن المُسَيِّب ووَهْب بن مُنَبِّه : هي مِصْر، وقال عبدُ الرَّحْمَن بن زَيْد بن أَسْلَم، عن أَبيه : هي الإسْكَنْدَرية.

وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الآيتان ٥٧، ٥٨ سورة الشعراء]؛ وقال تعالىٰ : ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾ [الآيات ٢٥ - ٢٧ سورة الدخان]. قال ابنُ يُونُس : وفي قَوْل الله سبحانه : ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيون * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال أبو رَهْم : كانت الجنَّاتُ بحافتي النِّيل من أوَّله إلى آخره من الجانبين، ما بين أُسْوان إلى رَشيد، وسَبْعة خُلُج : خَليجُ الإسْكَنْدَرية، وخَليجُ سَخَا، وخَليجُ دِمْياط، وخَليجُ سَرْدُوس، وخَليجُ مَنْف، وخَليجُ الفَيُّوم وخَليجُ المَنْهَى [جَنَّاتٌ][a] مُتَّصِلَة لا يَنْقَطِع منها شيءٌ عن شيءٍ، وزُروع ما بين الجَبَلَيْن كلّه من أوَّل مصر إلى آخرها مما

a) زيادة من ابن عبد الحكم.

[1] أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصُّدَفي المتوفى سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م محدث حافظ ثبت، قال الصفدي: «كان إمامًا في فن التاريخ، روى عن ابن مَنْدَه وأبي محمد بن النحّاس وعبد الواحد بن محمد البلخي وجماعة من الرحالة والمغاربة، وله كلام في الجرح والتعديل يدل على بصره بالرجال ومعرفته بالعلل» (الصفدي الوافي بالوفيات ١٨:١٠٨-١٠٩). أَلَّف في تاريخ مصر كتابين أحدهما «تاريخ مصر» وهو الأكبر يختص بالمصريين؛ والآخر «كتاب الغُرَباء» وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين عليها. ومَيَّز ابن حجر العسقلاني بين الكتابين وذكر أنه إذا قيل «تاريخ ابن يونس» فالمقصود «تاريخ مصر». (انظر المقدمة).

[2] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٦؛ ابن الزيات: الكواكب السيارة ٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ١:٥-٦.

يَبْلغه الماءُ. وكان جميعُ أرض مصر كلّها تُرْوَى يومئذٍ من ستة عشر ذراعًا، لما قد دَبَّروا من قَناطِرِها وجُسورِها[1]. قال: والمَقَام الكريم: المنابِر. كان بها ألفُ منبر.

وقال مُجاهِد وسَعيد بن جُبَيْر: المَقَام الكريم: المَنَابِر. وقال قَتادَة: (ومَقامٍ كَريم)، أي حَسَن. (ونِعْمَة كانوا فيها فاكِهين) /، ناعِمين؛ قال: أي والله أَخْرَجه الله من جَنَّاته وعُيونه وزُروعه حتى وَرَّطَه في البحر.

وقال سَعيدُ بن كَثير بن عُفَيْر: كُنَّا بقُبَّة الهَوَاء عند المأمُون لمَّا قَدِمَ مصر، فقال لنا: ما أَدْري ما أَعْجَب فِرْعَون مِن مصر حيث يقول: ﴿أَلَيْس لى مُلْكُ مِصْر﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف]؟ فقلت: أَقُولُ يا أمير المؤمنين؟ فقال: قُل يا سَعيد، فقلت: إنَّ الذي تَرى بقيَّة مُدَمَّر، لأنَّ الله عَزَّ وجَلّ يقول: ﴿ودَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَونُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الآية ١٣٧ سورة الأعراف]؛ قال: صَدَقْتَ، ثم أَمْسَك[2].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [الآيتان ٥، ٦ سورة القصص].

وَقَالَ تَعالَىٰ مُخْبِرًا عن فِرْعَوْن أنّه قال: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَـٰهِرِينَ في الأَرْضِ﴾ [الآية ٢٩ سورة غافر].

وقالَ تَعالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنى إِسْرَٰءِيل بما صَبَرُوا، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْن وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الآية ١٣٧ سورة الأعراف].

وقال تعالىٰ مُخْبِرًا عن قَوْم فِرْعَوْن: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ﴾ [الآية ١٢٧ سورة الأعراف]، يَعْني أرْض مصر.

وقَالَ تَعالَىٰ حِكَايةً عن يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ أنه قال: ﴿اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية ٥٥ سورة يوسف]؛ رَوَى ابنُ يُونُس عن أبي بَصْرَة الغِفاري ـ رضي الله عنه ـ قال: مِصر خَزائِنُ الأَرْض كلّها، وسُلْطانُها سُلْطان الأرض كلِّها، أَلا تَرَى إلى قَوْل يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ لمَلِك مصر: ﴿اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ [الآية ٥٥ سورة يوسف]،

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٦، نفسه ٤٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ١٩.

[2] ابن زولاق: فضائل مصر ٥٤؛ النويري: نهاية الأرب ١: ٣٥٤-٣٥٥؛ ابن الزيات: الكواكب السيارة ٤٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٢٣-٢٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ١١١.

ففعَل، فأُغيثَ بمصر وخَزائِنها يومئذٍ كلُّ حاضِرٍ وبادٍ من جميع الأرض [1].

وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [الآية ٥٦ سورة يوسف]، فكان ليُوسُف بسُلْطانِه بمصر جَميع سُلْطان الأَرض كلها، لحاجتهم إليه وإلى ما تَحْت يَدَيْه.

وقالَ تَعالَىٰ مُخْبِرًا عن موسىٰ ـ عليه السَّلام ـ أنَّه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الآية ٨٨ سورة يونس].

وقالَ تعالَىٰ: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ، فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية ١٢٩ سورة الأعراف].

وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ، إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [الآية ٢٦، سورة غافر]، يعني أرْض مصر.

وقَالَ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٤ سورة القصص] يَعْني أرْض مصر.

وقَالَ تَعالَىٰ حكايةً عن بَعْض إخْوَة يُوسُف عليه السَّلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [الآية ٨٠ سورة يوسف]، يَعْني أرْض مصر.

وقالَ تعالَىٰ: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ١٩ سورة القصص]، يعنى أرْض مصر.

قَالَ ابنُ عَبَّاس رضي الله عنهما: سُمِّيت مصر بالأرض كلِّها في عشرة مَواضِع من القُرآن.

فهَذا ما يَحْضُرُني مِمَّا ذُكِرَت فيه مصر من آي كِتابِ الله العَزيز.

وقد جَاءَ في فَضْل مصر أحَادِيثُ:

رَوَىٰ عبدُ الله بن لَهِيعَة من حَديث عَمْرو بن العَاص أنَّه قال: حَدَّثني عُمَر أميرُ المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «إذا فَتَح الله عليكم بَعْدي مِصْرَ فاتَّخِذوا فيها جُنْدًا كَثيفًا، فذلك الجُنْدُ خَير أَجْناد الأرض»؛ قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ولِمَ ذلك يا رَسول الله؟ قال: «لأنَّهم في رِباطٍ إلى يَوْمِ القِيامَة» [2].

---

[1] انظر فيما تقدم ٥٨. الزيات: الكواكب السيارة ٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى

[2] انظر كذلك، ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٤١؛ ابن ٣: ٢٧٩؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٢٩؛ السيوطي:

الكندي: فضائل مصر ١١؛ ابن زولاق: فضائل مصر ١٦؛ ابن حسن المحاضرة ١: ١٤- ١٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور =

وعن عَمْرو بن الحَمِق أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال : «تكونُ فِتْنَةٌ أَسْلَم النَّاس فيها (أو خَيْر النَّاس فيها) الجُنْد الغربي» ؛ قال : «فلذلك قُدِّمْتَ عليكم مِصْر» .

وعن تُبَيْع بن عامِر الكَلاعي قال : أَقْبَلْتُ من الصَّائِفة فلقيت أبا مُوسَىٰ الأَشْعَري ـ رضي الله عنه ـ فقال لي : منْ أين أنت ؟ فقلت : من أَهْل مصر ؛ قال : من الجُنْد الغربي ؛ فقلت : نَعَم ؛ قال : الجُنْد الضَّعيف ؛ قلت : أَهُوَ الضَّعيف ؟ قال : نَعَم ؛ قال : أمَّا أنَّه ما كادَهم أَحَدٌ إلَّا كفاهُم الله مَؤونَته ، اذْهَب إلى مُعاذ بن جَبَل حتى يُحَدِّثك .

قال : فذَهَبْتُ إلى مُعاذ بن جَبَل فقال لي : ما قال لك الشَّيْخُ ؟ فأَخْبَرْته ، فقال لي : وأيُّ شيءٍ تَذْهَب به إلى بلادك أَحْسَن من هذا الحَديث في[a] أَسْفَل أَلْواحك : فلمَّا رَجَعْتُ إلى مُعاذ أخبرني أنَّ بذلك أَخْبَره رَسولُ الله ﷺ[1] .

ورَوَىٰ ابنُ وَهْبٍ من حَديث صَفْوان بن عَسَّال قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول : «فَتَح الله بابًا للتوْبَة في الغرب عَرْضه سبعون عامًا ، لا يُغْلَق حتى تَطْلُع الشَّمْسُ من نَحْوه» .

ورَوَىٰ ابنُ لَهيعَة من حَديث عَمْرو بن العَاص : حَدَّثني عُمَر أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يقول : «إنَّ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ سيَفْتَح عليكم بَعْدي مصر ، فاسْتَوْصُوا بقِبْطِها خَيْرًا ، فإنَّ لهم منكم صِهْرًا وذِمَّة»[2] .

ورَوَىٰ ابنُ وَهْب قال : أَخْبَرَني حَرْمَلَة بن عِمْران التُّجيبي ، عن عبد الرَّحْمَن بن شَمَّاسَة المَهْري ، قال : سَمِعْت أبا ذَرّ ـ رضي الله عنه ـ يقول : سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يقول : «إنَّكم ستَفْتَحُون أَرْضًا يُذْكَرُ فيها القِيراطُ ، فاسْتَوْصُوا بأَهْلها خيرًا فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِمًا ، فإذا رأيتم رَجُلَيْن يَقْتَتلان في مَوْضِع لَبِنَة فاخْرُج[b] منها» ؛ قال : فمَرَّ برَبيعَة وعبد الرَّحْمَـٰن ابنيْ شُرَحْبيل يَتَنازَعان في مَوْضِع لَبِنَة ، فخَرَجَ منها . وفي رواية : « ستَفْتَحون مصر ، وهي أرض يُسَمَّى فيها القِيراطُ ، فإذا فَتَحْتُموها فأَحْسِنوا إلى أَهْلِها فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِما (أو قال : ذِمَّةً وصِهْرا)... » الحَديث . ورَوَاه مالِكٌ واللَّيْثُ وزاد « فاسْتَوْصُوا بالقِبْط خَيْرًا» .

---

a) الأصل : أحسن من هذا كنت ، بولاق : الحديث أكتبت في . b) بولاق : فاخرجوا .

= ١/١: ٧؛ وفيما يلي ٢: ٢٦٠.

[1] قارن مع السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٦، ٢٢.

[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ١٢.

أَخْرَجه مُسْلِمٍ في الصَّحيح عن أَبي الطاهِر عن ابن وَهْب [١].

قال ابنُ شِهاب [٢]، وكان يُقالُ إنَّ أُمَّ إسماعيلُ منهم. قال اللَّيْثُ بن سَعْد : / قُلْت لابن شِهاب : ما رَحِمهم ؟

قال : إنَّ أُمَّ إسْماعيل بن إبراهيم، صلوات الله عليهم، منهم. وقال محمد بن إسْحاق : قُلْت للزُّهْرِيّ : ما الرَّحِم التي ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ ؟ قال : كانت هاجَرُ أمّ إسْماعيل منهم [٣].

ورَوَى ابنُ لَهيعَة، من حَديث أَبي سالِم الجَيْشاني، أنَّ بعضَ أَصْحاب رَسُول الله ﷺ أَخْبَرَه أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يقول : «إنَّكم ستكونون أجْنادًا، وإن خَيْرَ أجْنادِكم أهل الغَرْب منكم، فاتَّقُوا الله في القِبْط : لا تَأْكلوهم أكْلَ الخُضَر» [٤]. وعن مُسْلِم بن يَسَار أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال : «اسْتَوْصُوا بالقِبْط خَيْرًا، فإنَّكم ستَجِدُونهم نِعْم الأعْوان على قِتال العَدُوّ» [٥].

وعن يَزيد بن أَبي حَبيب أنَّ أبا سَلَمَة بن عبد الرَّحْمَن حَدَّثَه أنَّ رَسولَ الله ﷺ أَوْصَى عند وَفاتِه أن تَخْرُج اليَهودُ من جَزيرَة العرب، وقال : «الله الله في قِبْط مصر؛ فإنَّكم ستَظْهَرُون عليهم، ويكُونون لكم عُدَّة وأعْوانًا في سَبيل الله» [٦].

ورَوَى ابنُ وَهْب، عن موسَىٰ بن أَيُّوب الغَافِقِي، عن رجل من الزَّبَد[a]، أن رسولَ الله ﷺ مَرِضَ فأُغْمي عليه، ثم أفاقَ فقال : «اسْتَوْصُوا بالأُدْم الجُعْد» ثم أُغْمي عليه الثانية، ثم أفاقَ فقال مثل ذلك، ثم أُغْمي عليه الثالثة فقال مِثْل ذلك؛ فقال القَوْمُ : لو سَأَلْنا رَسولَ الله ﷺ مَن الأُدْم الجُعْد ؟ فأفاقَ فسألوه، فقال : «قِبْطُ مصر، فإنَّهم أخْوالٌ وأصْهارٌ، وهم أعْوانُكم على عَدُوِّكم،

---

a) بولاق : الرند .

---

[١] مسلم : صحيح مسلم، القاهرة - عيسى الحلبي د.ت، ٤ : ١٩٧٠؛ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣؛ ابن زولاق : فضائل مصر ٦؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٢٧٩؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٢؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٢؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٦.

[٢] أي ابن شهاب الزُّهري، الحافظ أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي المتوفى سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م (الذهبي : تذكرة الحفاظ ١ : ١٠٨ - ١١٣، سير أعلام النبلاء ٥ : ٣٢٦-٣٥٠).

[٣] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢-٣؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٣؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١١.

[٤] نفسه ٣؛ ابن الكندي : فضائل مصر ١٠؛ ابن زولاق : فضائل مصر ٧؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٢.

[٥] السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٣.

[٦] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٢.

وأعْوَانُكم على دِينكم» : قالوا : كيف يكونون أَعْوانَنا على دِينِنا يا رَسول الله ؟ قال : «يَكْفُونكم أعْمال الدنيا ، وتتفرَّغون للعبادة : فالرَّاضِي بما يُؤْتى إليهم كالفاعِل بهم ، والكارِه لما يُؤْتى إليهم من الظُّلْم كالمُتَنَزِّه عنهم»[1].

وعن عَمْرو بن حُريث وأبي عبد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ[a]، أنَّ رَسولَ الله ﷺ قال : «إنَّكم ستقْدَمون على قَوْمٍ جُعْدٍ رؤوسهم ، فاسْتَوْصُوا بهم خَيْرًا ، فإنَّهم قُوَّةٌ لكم ، وبَلاغٌ إلى عَدُوِّكم بإذن الله» ، يعني قِبْط مصر[2].

وعن ابن لَهِيعَة ، حَدَّثني مَوْلَى غُفْرَة[b] أنَّ رَسولَ الله ﷺ قال : «الله الله في أهل المَدَرَة السَّوْداء ، السُّحْم الجِعاد ، فإنَّ لهم نَسَبًا وصِهْرًا » ؛ قال عَمْرو مَوْلَى غُفْرَة[b]: صِهْرهم أنَّ رَسُولَ الله ﷺ تَسَرَّى فيهم ، ونَسَبُهم أنَّ أمَّ إسْماعيل ـ عليه السَّلام ـ منهم ؛ قال ابنُ وَهْب : فأَخْبَرني ابنُ لَهِيعَة أنَّ أمَّ إسماعيل هاجَر أم العرب من قرية[c] كانت أمام الفَرَمَا من مصر[3].

قال مَرْوان القَصَّاص : صاهَرَ إلى القِبْط من الأنبياء ثلاثة : إبراهيم خَليل الرَّحْمن ـ عليه السَّلام ـ تَسَرَّر[d] هاجَر ، ويُوسُف تَزَوَّج بنت صَاحِب عَيْنِ شَمْس ، ورَسُول الله ﷺ تَسَرَّر[d] مارِيَة ؛ وقال يَزِيدُ بن أبي حَبيب : قَرْيَةُ هاجَر ياقُ التي عند[e] أمِّ دُنَيْن[4].

وقال هِشام : العَرَبُ تقول : هاجَر وآجَر ، فيبدلون من الهاء الألف ، كما قالوا : هَراق الماءَ وأَراقَ الماءَ ونحوه[5].

وعن عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال : الأَمْصَار سبعة : فالمَدِينَة مِصر ، والشَّأم مصر ، ومصر ، والجَزِيرة ، والبَحْرَيْن ، والبَصْرَة ، والكُوفَة .

وقال مَكْحُول : أوَّل الأَرْض خَرابًا أرمينية ، ثم مصر[6].

---

a) بولاق : الحلبي . b) بولاق : عفرة . c) الأصل وبولاق : هاجر من أم العرب قرية ... والتصويب من ابن سعد وابن عبد الحكم وابن الكندي . d) بولاق : تسري . e) بولاق : عندها .

---

[1] السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٣.

[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣- ٤.

[3] نفسه ٥؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٣.

[4] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤٤؛ ابن الكندي : فضائل مصر ١٠؛ ابن زولاق : فضائل مصر ٨؛ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٠؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٣؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٤.

[5] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤.

[6] انظر فيما يلي ٨١، ١ : ٣٣٤.

وقال عبدُ الله بن عَمْرٍو : قِبْطُ مصر أَكْرَمُ الأعاجِم كلِّها ، وأَسْمَحُهم يدًا ، وأَفْضَلُهم عُنْصُرًا ، وأَقْرَبُهم رَحِمًا بالعَرب عامَّةً وبقُرَيْش خاصَّة ، ومن أراد أن يَذْكُر الفِرْدَوْس أو يَنْظُر إلى مثلها في الدنيا ، فلينظُر إلى أرْض مصر حين تَخْضَرُ زُرُوعُها [a]، وتُنَوِّر ثِمارُها .

وقال كَعْبُ الأَحْبَار : من أراد أن يَنْظُر إلى شَبَه الجَنَّة ، فلْيَنْظُر إلى مصر إذا أَخْرَفَت ، (وفي رواية إذا أَزْهَرت) [1].

ومن فضـائِل مصـر

أنَّه كان من أهْلها السَّحَرَة وقد آمَنوا جَميعًا في ساعَةٍ واحِدة ، ولا يُعْلَم جَماعَةٌ أسْلَمَت في ساعَةٍ واحِدةٍ أكثر من جَماعَة القِبْط ؛ وكانوا - في قوْل يَزيد بن أبي حَبيب وغيره - اثني عَشْر ساحِرًا رُؤساء ، تحت يد كلِّ ساحِرٍ منهم عشرون عَريفًا ، تحت يد كلِّ عَريفٍ منهم ألف من السَّحَرَة ، فكان جَميعُ السَّحَرَة مائتي ألف وأربعين ألفا ومائتين واثنين وخمسين إنسانًا بالرُّؤساء والعُرَفاء . فلمَّا عَايَنُوا ما عايَنُوا أيْقَنوا أنَّ ذلك من السَّماء ، وأنَّ السِّحْرَ لا يقوم لأمر الله ، فخَرَّ الرُّؤساءُ الاثنا عشر عند ذلك سُجَّدًا ، فاتَّبعهم العُرَفاءُ ، واتَّبَع العُرَفاءُ من بقي ، و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ سورة الأعراف]؛ قال تُبَيْع : كانوا من أصْحاب مُوسَىٰ - عليه السَّلام - ولم يَفْتَتِن منهم أَحَدٌ مع من افْتَتَن من بني إسْرائيل في عِبادَة العِجْل . قال تُبَيْع : ما آمَن جَماعَةٌ قَطّ في ساعَة واحِدَة مثل جماعَة القِبْط [2].

وقال كَعْبُ الأَحْبَار : مَثَلُ قِبْط مصر كالغَيْضَة كلما قُطِعَت نَبَتَت ، حتى يُخْرِب الله - عَزَّ وجَلَّ - بهم وبصِناعَتهم جَزائِر الرُّوم [3].

وقال عبدُ الله بن عَمْرو : خُلِقَت الدُّنْيا على خَمْس صُوَرٍ ، على صُورة الطَّيْر برأسه وصَدْره وجَناحَيْه وذَنَبه ؛ فالرأسُ مَكَّة والمَدينَة واليَمَن ، والصَّدْرُ الشَّام ومِصْر ، والجَناحُ الأيمن العِراق ، وخَلْف العِراق أُمَّة يُقال لها وَاق ، وخَلْف وَاق أُمَّة يقال لها وَاق وَاق ، وخَلْف ذلك من الأُمَم ما لا يَعْلَمه إلَّا الله عَزّ وجَل ؛ والجناحُ الأَيْسَرَ السِّنْد ، وخَلْف السِّنْد الهِنْد ، وخلف أُمَّة الهِنْد أُمَّة يُقال

a) بولاق : يُحضر زرعها .

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٥؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣١.

[2] النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٤٩.

[3] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٥.

لها ناسِك ، وخَلْف ناسِك أُمّة يُقال لها مَنْسَك ، وخَلْف ذلك من الأُمَم ما لا يَعْلَمه إلّا الله عَزّ وجَلّ ؛ والذَّنَب من ذات الحُمام إلى مغرب الشَّمْس ، وشَرُّ ما في الطَّيْر الذَّنَب [1].

وقال الجاحِظ : الأَمْصارُ عشرة : الصِّناعَةُ بالبَصْرَة ، والفَصَاحَةُ بالكُوفَة /، والتخنيث ببغداد ، والعِيّ بالرَّيّ ، والجَفَاء بنَيْسابور ، والحُسْنُ بهَرَاة ، والطُّرْمَذَةُ بسَمَرْقَنْد ، والمُروءَةُ ببَلْخ ، والتِّجارَةُ بمصر ، والبُخْلُ بمَرْو . (الطُّرْمَذة الدَّوْلَة ، كلامٌ[a] ليس له فِعل) [2].

وعن بُجَيْر[b] بن داخِر العافِري أنّه سَمِعَ عَمْرو بن العَاص يقول في خُطْبته : واعْلَمُوا أنّكم في رِباطٍ إلى يوم القِيامَة ، لِكُثْ الأَعْداء حَوْلكم ، ولإشْراف قُلوبهم إليكم وإلى داركم مَعْدِن الزَّرْع والمال والخَيْر الواسِع والبَرَكَة النامية .

وعن عبد الرَّحْمَن بن غَنْم الأَشْعَري أنّه قَدِمَ من الشَّأم إلى عبد الله بن عَمْرو بن العَاص ، فقال : ما أَقْدَمَك إلى بلادنا ؟ قال : كنت تُحَدِّثني أنَّ مصرَ أَسْرَع الأرض خَرابًا ، ثم أراكَ قد اتَّخَذْت منها وبَنَيْت فيها القُصور واطمأننت فيها ؛ قال : إنَّ مصَر قد أَوْفَت خَرابَها ، حَطَّمَها البُخْت نَصَّر فلم يَدَع فيها إلّا السِّباع والضِّباع ، فهي اليوم أَطْيَب الأرضين تُرابًا ، وأبعدها خَرابًا ، ولا يزالُ فيها بَرَكَة ما دام في شيءٍ من الأرض بَرَكَة [3].

ويُقالُ : مصر مُتَوَسِّطة الدُّنْيا ، قد سَلِمَت من حَرِّ الإقليم الأوَّل والثاني ، ومن بَرْد الإقليم السّادِس والسّابع ، ووَقَعَت في الإقليم الثّالِث فطابَ هَواؤها ، وضَعُفَ حَرُّها ، وخَفَّ بَرْدُها . وسَلِمَ أهلُها من مَشاتِي الأَهْواز ، ومَصايِف عُمَان ، وصَواعِق تِهامَة ، ودَماميل الجَزيرَة ، وجَرَب اليمن ، وطَواعين الشَّأم ، وبِرْسام العِراق ، وعَقارِب عَسْكَر مُكْرَم ، وطَحال البَحْرَيْن ، وحُمَّى خَيْبَر وأَمِنوا من غارات التُّرْك ، وجُيوش الرُّوم ، وهُجوم العَرَب ، ومَكايِد الدَّيْلَم ، وسَرايا القَرامِطَة ، ونَزْف الأنهار ، وقَحْط الأمْطار .

---

a) بولاق : الطرمذة كلام . b) بولاق : يحيى .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١ ، وهذا النص موجود روايةً عن ابن عبد الحكم عند المسعودي : أخبار الزمان ١٨ ؛ وانظر أيضًا ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣١ - ٣٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٨.

[2] ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٨ ؛ وهذا النص نقلا عن كتاب «البلدان» للجاحظ وهو من مؤلفاته المفقودة ، وانظر فيما يلي ٨١-٨٢.

[3] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣٢.

وبها ثمانون كُورَة ، ما فيها كُورَة إلّا وبها طَرائِف وعَجائِب من أنْواع البَرّ والأبْنِية والطَّعام والشَّراب والفاكِهة ، وسائِر ما تَنْتَفِع به النَّاسُ وتَدَّخره الملوك ، يُعْرَف بكل كُورَة وجِهاتها ، ويُنْسَب كلُّ لَوْن إلى كُورَة :

فصَعيدُها أرْض حِجازية ، حَرُّه حَرُّ العِراق ، ويُنْبِت النَّخْل والأَراك والقَرْظ والدُّوم والعشر .

وأَسْفَلُ أرْضها شامي يُمْطِر مَطَر الشَّأم ، ويُنْبِت ثِمار الشَّأم من الكُرُوم والزَّيْتون واللَّوْز والتِّين والجُوز وسائِر الفواكِه والبُقُول والرَّياحين ، ويَقَع به الثَّلج والبَرَد .

وكُورَة الإسْكَنْدَرية ولُوبية ومَرَاقِية بَراري وجِبال وغِياض تُنْبِت الزَّيْتون والأَعْناب ، وهي بِلاد إبِل وماشِية وعَسَل ولَبَن .

وفي كلِّ كُورَة من كُوَر مصر مَدينَة ، في كلِّ مَدينَة منها آثار، كريمة من الأبْنِية والصُّخور والرُّخام والعَجائِب .

وفي نِيلها السُّفُن التي تَحْمل السَّفينَة الواحِدَة منها ما يحمله خمس مائة بَعير .

وكلُّ قَرْيَة من قُرى مصر تَصْلُح أن تكونَ مَدينَةً ، يؤيِّد ذلك قولُ الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الآية ٣٦ سورة الشعراء] [1].

ويُعْمَل بمصر مَعامِل كالتَّنانير ، يُعْمَل بها البَيْض بِصَنْعَة ، يُوقَد عليه فيُحاكي نار الطَّبيعة في حَضانَة الدَّجاجَة لبَيْضها ، ويخرج من تلك المعامِل الفَراريج ، وهي مُعْظَم دَجاجُ مصر ، ولا يَتِمّ عَمَل هذا بغير مصر [2].

وقال عَمْرُو[a] بن مَيْمُون : خَرَجَ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ ببني إسْرائيل ، فلمَّا أَصْبَح فِرْعَونُ أَمَرَ بشَاةٍ فأُتِيَ بها ، فأَمَر بها أن تُذْبَح ثم قال : لا يُفْرَغ من سَلْخها حتى يَجْتمع عندي خمس مائة ألف من القِبْط ؛ فاجْتَمَعوا إليه فقال لهم فِرْعَوْنُ : إنَّ هؤلاء لشِرْذِمَة قَلِيلون . وكان أصحابُ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ ستّ مائة ألف وسبعين ألفًا .

---

a) بولاق : عمر .

---

[1] المسعودي : أخبار الزمان ١٠٢.

[2] انظر عن معامل الفراريج بمصر، عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٣٥؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١٨؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٣٣٣.

ووَصَفَ بعضُهم مصر فقال: ثَلاثَة أَشْهُر لُؤْلُؤَةٌ بَيْضَاء، وثلاثة أشهر مِسْكَةٌ سَوْدَاء، وثلاثة أشهر زُمُرُّدَةٌ خَضْراء، وثلاثة أشهر سَبيكَةُ ذَهَب حَمْراء. فأَمَّا اللُّؤْلُؤَةُ البَيْضَاء، فإنَّ مصر في أشهر أَبيب ومِسْرَى ونُوت يركبها الماءُ فتَرَى الدنيا بَيْضاء، وضِياعها على رَوابٍ وتِلالٍ مثل الكَواكِب قد أُحيطَت بها المياه من كل وَجْه، فلا سَبيلَ إلى قَرْيَة من قُراها إلَّا في الزَّوارِق؛ وأمَّا المِسْكَةُ السَّوْدَاء، فإنَّ في أشهر بابَه وهاتُور وكِيَهك يَنْكَشِف الماءُ عن الأرض فتصير أرضًا سَوْدَاء، وفي هذه الأشهر تَقَعُ الزِّراعات. وأمَّا الزُّمُرُّدَةُ الخَضْراء، فإنَّ في أشهر طُوبَة وأَمْشير وبَرَمْهات يكثُر نَباتُ الأرض ورَبيعُها فتصير خَضْراء كأنها زُمُرُّدَة. وأما السَّبيكَةُ الحَمْراء فإنَّ في أشهر بَرَمُودَة وبَشَنْش وبَؤُونة يتورَّد العُشْب ويبلُغ الزَّرْع الحَصاد، فيكون كالسَّبيكَة التي من الذَّهَب مَنْظَرًا ومَنْفَعَة[1].

وسأل بعضُ الخُلَفاء اللَّيْثَ بن سَعْد عن الوَقْت الذي تَطيبُ فيه مصر، فقال: إذا غاضَ ماؤُها، وارْتَفَعَ وَباها، وجَفَّ ثَراها، وأمكنَ مَرْعَاها.

وقال آخَرُ: نيلُها عَجَبٌ، وأَرْضُها ذَهَبٌ، وخَيْرها جَلَبٌ، ومُلْكها سَلَبٌ، ومالُها رَغَبٌ، وفي أهلها صَخَبٌ، وطاعَتهم رَهب، وسلامُهم شغب، وحَربهم حَرَبٌ، وهي لمن غَلَب.

وقال آخَرُ: مِصْرُ من سادَات القُرَى ورُؤَساء المُدُن. وقال زَيْدُ بن أَسْلَمَ في قَوْله تعالىٰ: ﴿فإنْ لَمْ يُصِبْها وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [الآية ٢٦٥ سورة البقرة]: هي مصر، إن لم يُصِبْها مَطَرٌ أزْكَتْ، وإن أصابَها مَطَرٌ ضَعُفَتْ، قاله المَسْعودي في «تاريخه»[2].

ويُقالُ لمَّا خَلَق الله آدم ـ عليه السَّلام ـ مَثَّلَ له الدُّنْيا شَرْقَها وغَرْبها، وسَهْلَها وجَبَلَها، وأنهارَها وبِحارَها، وبناءَها وخَرابَها، ومن يسكنها من الأُمَم، ومن يَملكها من المُلوك؛ فلمَّا رأى مصر أرضًا سَهْلة، ذات نَهْر جارٍ مادته من الجنَّة تَنْحَدِر فيه البَرَكَة، ورأى جَبَلًا من جِبالها مكسوًّا نُورًا، لا يخلو من نَظَر الرَّبّ إليه بالرَّحْمَة، في سَفْحه أشجارٌ مُثْمِرة، وفُروعها في الجنَّة تُسْقَى بماءِ الرَّحْمَة؛ فدَعا آدَمُ ـ عليه السَّلام ـ في النِّيل / بالبَرَكَة، ودَعَا في أرض مصر بالرَّحْمَة والبِرّ والتَّقْوَى، وبارَك في نيلها وجَبَلِها سَبْع مرَّات، قال: «يا أيها الجَبل المَرْحوم، سَفْحُك جَنَّة،

---

[1] نقلًا عن المسعودي: مروج الذهب ٢: ٦٥- ٦٦؛ وقارن مع المسعودي: التنبيه والإشراف ٢١؛ النويري: نهاية الأرب ١: ٣٥٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٨١؛ أبي المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣٤- ٣٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٣٨.

[2] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٦٦- ٦٨.

وتُرْبَتُكِ مِسْكَة، يُدْفَن فيها غِراس الجنَّة، أرضٌ حافِظَة مُطبقة[a] رَحيمَة، لا خَلَتْكِ يا مصر بَرَكَة، ولا زالَ منكِ حِفْظ[b]، ولا زال منكِ مُلْك وعِزّ. يا أرض مصر، فيكِ الخَبَايا والكُنُوز، ولكِ البِرّ والثَّرْوَة، وسالَ نهرُكِ عَسَلًا. كَثَّرَ الله زَرْعكِ، ودَرَّ ضَرْعكِ، وزَكَّى نَباتكِ، وعَظُمَت بَرَكَتكِ، وخَصُبَت، ولازال فيكِ خَيْرٌ ما لم تَتَجَبَّري وتَتَكَبَّري أو تَخوني، فإذا فَعلْتِ ذلك عَداكِ شَرّ، ثم يَغُور خَيْرُكِ». فكان آدَمُ أوَّلَ من دَعا لها بالرَّحْمَة والخِصْب والرَّأْفَة والبَرَكَة [1].

وعن ابن عَبَّاس أنَّ نُوحًا ـ عليه السَّلام ـ دَعَا لمصر بن بَيْصَر بن حام فقال: «اللَّهم إنَّه قد أجابَ دَعْوَتي فبارِكْ فيه وفي ذُرِّيته، وأَسْكِنه الأرْضَ المُبارَكَة التي هي أمّ البلاد وغَوْث العِباد، التي نَهْرها أَفْضَل أَنْهار الدُّنْيا، واجْعَل فيها أَفْضَل البَرَكات، وسَخِّر له ولوَلَده الأرْض، وذَلِّلها لهم، وقَوِّهم عليها».

وقال كَعْبُ الأحْبَار: لولا رَغْبَتي في بَيْت المَقْدس، لما سَكَنْت إلَّا مصر؛ فقيل له: لم؟ فقال: لأنَّها بَلَدٌ مُعافاةٌ من الفِتَن، ومَنْ أرادَها بسُوءٍ كَبَّه الله[c] على وَجْهِه، وهو بَلَدٌ مُبارَكٌ لأهله فيه [2].

وقال ابنُ وَهْب: أَخْبَرني يحيى بن أيُّوب، عن خالِد بن يَزيد، عن ابن أبي هِلال، أنَّ كَعْبَ الأَحْبَار كان يقول: إنِّي لأحِبّ مصر وأهْلها، لأنَّ مصرَ بَلَدٌ مُعافاة، وأَهْلُها أصحاب عافِية، وهم بذلك مُصانون[d].

ويُقال إنَّ في بعض الكُتُب الإلهِيَّة: «مِصْرُ خَزائِن الأرْض كلّها، فمَن أرادَها بسُوءٍ قَصَمَه الله تعالى» [3].

وقال عَمْرو بن العَاص: وِلايَةُ مصر جامِعَة تَعْدِل الخِلافَةُ، يَعْني إذا جُمِعَ الخَرَاجُ مع الإمارَة [4].

---

a) بولاق: مطيعة. b) بولاق: بك حفظه. c) الأصل وبولاق: أكبه الله بالهمز، والمشهور: كبّ بدون همز وهو المتعدي (النجوم الزاهرة ١: ٣١هـ[1]). d) بولاق: مفارقون.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١: ٣٤٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣٠.

[2] نفسه ١: ٣٤٨؛ نفسه ١: ٣٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٨٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٩.

[3] القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٧٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣١.

[4] مجهول المؤلف: الاستبصار ٤٩؛ النويري: نهاية الأرب ١: ٣٤٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٧٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣١، وفيما يلي ٤٥٥.

وقال أحمد بن مُدَبِّر : تَحْتاج مصر إلى ثمانية وعشرين ألف ألف فَدَّان ، وإنَّما يُعْمَر منها ألف ألف فَدَّان . وقد كَشَفْت أرْضَ مصر فوَجدت غامِرَها أضْعاف عامِرِها ، ولو اشْتَغَل السُّلْطانُ بعِمارَتها لوَفَّت له بخَراج الدُّنْيا [1].

وقال بعضُهم : إنَّ خَراجَ العِراق لم يكن قَطّ أوْفَر منه في أيام عُمَر بن عبد العَزيز ، فإنَّه بَلَغَ ألف ألف درهم وسبعة عشر ألف ألف دِرْهَم . ولم تكُن مصرُ قط أقَلّ من خَراجِها في أيَّام عَمْرو بن العَاص ، وأنَّه بَلَغَ اثني عشر ألف ألف دينار . وكانت الشَّاماتُ بأربعة عشر ألف ألف سوى الثُّغور .

ومن فَضائِل مصر أنَّه وُلِدَ بها من الأنْبياء مُوسَىٰ وهارُون ويُوشَع عليهم السَّلام .

ويُقالُ إنَّ عيسَىٰ بن مَرْيَم ـ صَلَوات الله عليه ـ أخَذَ على سَفْح الجَبَلِ المُقَطَّم وهو سائِر إلى الشَّام ، فالْتَفَت إلى أُمِّه وقال : يا أُمَّاه ، هذه مَقْبَرَةُ أُمَّة محمد ﷺ [2].

ويُذْكَر أنَّه وُلِدَ في قرية أهْناس من نَواحي صَعيد مصر ، وأنَّه كانت به نَخْلَة يُقالُ إنَّها النَّخْلَة المذكورة في القرآن بقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وهُزِّي إلَيْكِ بِجَذْعِ النَّخْلَة﴾ [الآية ٢٥ سورة مريم] . وهذا القَوْلُ وهم ، فإنَّه لا خِلافَ بين عُلَماء الأخْبار من أهْل الكِتاب ومن يُعْتَمَدُ عليه من عُلَماء المسلمين أنَّ عِيسَىٰ ـ صلوات الله عليه ـ وُلِدَ بقَرْيَة بَيْت لَحْم من بَيْت المَقْدِس [3].

ودَخَلَ مصر من الأنْبياء إبراهيمُ خَليلُ الرَّحْمَن ، وقد ذُكِرَ خَبَرُ ذلك عند ذِكْر خَليج القاهِرَة من هذا الكتاب [4]. ودَخَلَها أيضًا يَعْقُوبُ ويُوسُف والأسْبَاط ، وقد ذُكِر ذلك في خَبَر الفَيُّوم . ودَخَلَها أرْميا ، وكان من أهْلها مُؤْمِنُ آل فِرْعَون الذي أثْنَى عليه الله جَلَّ جَلاله في القرآن ، ويُقالُ إنَّه ابن فِرْعَون لصُلْبِه ، وأظُنّه أنه غير صَحيح [5].

وكان منها جُلَساءُ فِرْعَون الذين أبَان الله فَضِيلَة عَقْلهم بحُسْن مَشورَتهم في أمْر مُوسَىٰ وهارون ـ عليهم السَّلام ـ لمَّا اسْتَشَارَهم فِرْعَوْن في أمْرِهما فقال تعالىٰ : ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۞ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ، وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الآيات ٣٤-٣٧ سورة الشعراء] .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٤٨؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٢.

[2] نفسه : ٣٤٩.

[3] انظر فيما يلي ٢٩٦.

[4] انظر فيما يلي ١٩١، ٢ : ٢٤١؛ وقارن الكندي : فضائل مصر ٢٠؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٥٢- ١٥٧ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٩- ٣١.

[5] النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٤٩؛ وفيما يلي ٣١١.

وأَيْنَ هذا من قَوْل أُصْحاب النَّمْرود في إبراهيم ـ صَلَوات الله عليه ـ حيث أَشَارُوا بقَتْلِه ، قالَ تعالَىٰ حِكايَةً عنهم : ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ [الآية ٦٨ سورة الأنبياء] .

ومن أَهْل مصر امْرَأَةُ فِرْعَوْن التي مَدَحَها الله تعالَىٰ في كِتابِه العَزيز بقَوْله : ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْن إِذْ قَالَت رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فى الجَنَّة ونَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ القَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ﴾ [الآية ١١ سورة التحريم] .

ومن أَهْلها ماشِطَة بِنْت فِرْعَوْن ، وآمَنَت بمُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ فمَشَّطَها فِرْعَون بأَمْشَاط الحَديد كما يُمَشَّط الكَتّان ، وهِي ثابتة على إيمانها بالله [١] .

وقال صاعِدُ اللُّغَوي [٢] في كِتاب «طَبَقات الأُمَم» : إنَّ جَميعَ العُلوم التي ظَهَرَت قَبْل الطُّوفان إنَّما صَدَرَت عن هِرْمِس الأَوَّل الساكِن بصَعيد مصر الأَعْلى ، وهو أَوَّلُ من تَكَلَّم في الجَواهِر العُلْوية ، والحَرَكات النُّجومِيَّة ، وهو أَوَّل من ابْتَنَى الهَياكِل ومَجَّدَ الله فيها ، وأَوَّلُ من نَظَر في عِلْم الطِّبّ ، وأَلَّفَ لأَهْل زَمانِه قَصائِدَ مَوْزونَة في الأَشْياء الأَرْضِيَّة والسَّماوية . وقالوا : إنّه أَوَّلُ من أَنْذَر بالطُّوفان ، ورأى أنَّ آفَةً سماوية تُصيب الأَرض من الماء أو النَّار ، فخافَ ذَهاب العِلْم ودُروس[a] الصَّنائِع ، فبَنَى الأَهْرام والبَرابِي التي في صَعيد مصر الأَعْلَى ، وصَوَّرَ فيها جَميع الصَّنائِع والآلات ، ورَسَم فيها صِفات العُلوم ، حِرْصًا على تَخْليدها لمن بعده ، وخيفةً أن يَذْهَب رَسْمُها من العالَم [٣]؛ وهِرْمِس هذا هو إدْريس عليه السَّلام .

وقال أبو محمد الحَسَن بن إسماعيل/ بن الضَّرَّاب[b] [٤] في «أَخْبار مصر» : إنَّ الخَضِرَ جازَ البحر مع مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ وكان مُقَدَّمًا عنده ، وكان بمِصْر من الحكماء جَماعَةٌ ممن عَمَّرَت الدنيا

a) بولاق : اندراس . b) بولاق : ابن الفرات .

[١] النويري : نهاية الأرب ١: ٣٥٠.

[٢] أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن صاعد التغلبي قاضي طليطلة وبها توفي سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٢م ، اشتهر بكتابه «طبقات الأمم» أو «التعريف بطبقات الأمم» وهو من الكتب العربية القليلة التي تعرضت لوصف العلوم عند الأمم السابقة (ابن بشكوال : كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، عني بنشره عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٥ ، ٢٣٢؛ Martinez-Gros, G., EI[2] art. Sâ'id al-Andalusi VIII, p. 889) .

[٣] صاعد الأندلسي : التعريف بطبقات الأمم ١٩٦-١٩٧؛ وانظر عن هرمس فيما يلي ١: ١١٨.

[٤] الضَّرَّاب أو ابن الضَّرَّاب ، أبو محمد الحسن بن إسماعيل بن محمد المصري ، مؤرخ ومحدث ولد في مصر سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م وتوفي بها سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م ، ويعدّ الدارقطني من رواته مع أنه كان أسَنّ منه ، واعتمد على كتابه في التاريخ – الذي ينقل عنه المقريزي – الشريف الإدريسي =

بكلامِهم وحِكَمِهم وتَدْبيرهم، وكان من عُلومِهم عِلْم الطِّبّ، وعِلْم النُّجُوم، وعِلْم المِساحَة، وعِلْم الهَنْدَسَة، وعِلْم الكِيمْيَاء، وعِلْم الطِّلَّسْمَات. ويُقالُ: كانت مصر في الزَّمَن الأَوَّل يَسير إليها طُلَّابُ العُلوم لتَزْكُو عُقُولُهم وتَجُودَ أَذْهانُهم، ويَتَمَيَّز عندهم الذَّكاء، وتَدُقّ الفِطْنَة.

ومن فَضائِل مِصْر أنَّها تَمير أَهْلَ الحَرَمَيْن، وتُوَسِّع عليهم.

ومِصْرُ فُرْضَة الدُّنْيا، يُحْمَل خَيْرُها إلى ما سِواها: فساحِلُها بَمدينَة القُلْزُم يُحْمَل منه إلى الحَرَمَيْن واليَمَن والهِنْد والصِّين وعُمَان والسِّنْد والشِّحر، وساحِلُها من جِهَة تِنِّيس ودِمْياط والفَرَما فُرْضَة بلاد الرُّوم والإفْرِنْج وسَواحِل الشَّام والثُّغور إلى حُدود العِراق، وثَغْرُ إسْكَنْدَرية فُرْضَة أَقْرِيطش وصِقِلِّيَّة وبلاد المغرب، ومن جِهَة الصَّعيد يُحْمَل إلى بلاد العرب والنُّوبَة والبُجَة والحَبَشَة والحِجاز واليَمَن.

وبمِصْر عِدَّةٌ من الثُّغور المُعَدَّة للرِّباط في سَبيل الله تعالى، وهي البُرُلُّس ورَشِيد والإسْكَنْدَرية وذات الحَمَام والبُحَيْرَة وإخْنا ودِمْياط وشَطَا وتِنِّيس والأُشْتُوم والفَرَما والوَرَّادَة والعَريش وأُسْوان وقُوص والوَاحَات؛ فيُغْزى من هذه الثُّغور الرُّوم والفِرَنْج والبَرْبَر والنُّوبَة والحَبَشة والسُّودان.

وبمِصْر عِدَّةُ مَشاهِد وكَثيرٌ من المَساجِد، وبها النِّيل والأَهْرام والبَرَابي والأَدْيار والكَنائِس. وأَهْلُها يَسْتَغْنون بها عن كلِّ بلد، حتى إنَّه لو ضُرِبَ بينها وبين بلاد الدنيا بسُور لاسْتَغْنَى أهلُها بما فيها عن جَميع البلاد[1].

وبمِصْر دُهْنُ البَلَسان الذي عَظُمَت مَنْفَعَتُه، وصارَت مُلوكُ الأرض تَطْلُبه من مصر وتَعْتَني به، ومُلُوك النَّصْرانية تَترَامَى على طَلَبِه، والنَّصَارَىٰ كافَّة تَعْتَقِد تَعْظيمه، وتَرَى أنَّه لا يَتِمّ تَنْصير نَصْراني إلَّا بوَضْع شيء من دُهْن البَلَسان في ماءِ المَعْمُودية عند تَغْطيسه فيها[2].

وبها السَّقَنْقور ومَنافِعه لا تُنْكَر، وبها النِّمْس والعِرْس ولهما في أَكْل الثَّعابين فَضيلَة لا تُنْكَر، فقد قيل: لَوْلا العِرْس والنِّمْس لما سُكِنَت مصر من كَثْرَة الثَّعابين، وبها السَّمَكَة الرَّعَّادَة ونَفْعها في البُرْء من الحُمَّى إذا عُلِّقَت على المَحْموم عَجيب[3].

= صاحب «تاريخ الأهرام» ونقل عنه في مواضع متعدّدة (أسرار علوي الأجرام ١٣، ٩٠، ٩٨). (انظر أخباره عند، المقريزي: المقفى الكبير ٥: ٢٠٨، ٤٥٢؛ ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان ٢: ٩٦٧؛ Sezgin, F., *GAS I*, p. 213).

[1] النويري: نهاية الأرب ١: ٣٥٤.

[2] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٨٣؛ وفيما يلي ١: ٢٣٠.

[3] النويري: نهاية الأرب ١: ٣٥٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٣؛ وفيما يلي ١: ٦٦.

وبِمِصْر حَطَبُ السَّنْط ، ولا نَظيرَ له في معناه ، فلو وُقِدَ منه تحت قِدْرٍ يومًا كامِلًا لما بقي منه رَمادٌ . وهو مع ذلك صُلْب الكَسْر ، سريع الاشْتِعال ، بَطيء الخُمُود . ويُقالُ إنَّه أَبَنُوس غَيَّرته بُقْعَة مصر فصارَ أحمر [١].

وبها الأَفْيونُ عُصارَة الخُشْخَاش ، ولا يَجْهَل مَنافِعَه إلَّا جاهِل . وبها اللَّبَخ ، وهو ثَمَرٌ قَدْر اللَّوْز الأَخْضَر ، كان من مَحاسِن مصر إلَّا أنَّه انْقَطَعَ قبل سنة سبع مائة من الهجرة [٢].

وبها الأُتْرُجُّ ، قال أَبو دَاوُد صاحِب «السُّنَن»[a] في كتاب الزَّكاة : شَبَّرْتُ قِثَّاءَة بمصر ثلاثة عشر شِبْرًا ، ورأيت أُتْرُجَّة على بَعير بقطعتين [قُطِعت][b] وصُيِّرَت مثل عَدْلَيْن [٣].

قال المَسْعُوديُّ في «التاريخ» : والأُتْرُجُّ المُدَوَّر حُمِل من أرض الهِنْد بعد الثلاث مائة من سني الهجرة ، وزُرِع بعُمان ، ثم نُقِلَ منها إلى البَصْرَة والعِراق والشَّام ، حتى كَثُر في دُور الناس بطَرَسُوس وغيرها من الثُّغور الشَّامية وفي أَنْطاكية وسَواحِل الشَّام وفِلَسْطين ومصر ، وما كان يُعْهَد ولا يُعْرَف ، فعُدِمَت منه الأَراهِج الحَمْراء الطَّيبة ، واللَّوْن الحَسَن الذي كان فيه بأَرْض الهِنْد لعَدَم ذلك الهَوَاء والتُّرْبَة وخاصِّيَّة البَلَد [٤].

وفي مَصْر مَعْدِنُ الزُّمُرُّد ، ومَعْدِنُ النِّفْط ، والشَّبّ ، والبِرام ، ومقاطِع الرُّخام . ويُقالُ كان بمصر من المَعَادِن ثلاثون مَعْدِنًا [٥].

وأَهْلُ مِصْر يأكلون صَيْدَ بَحْر الرُّوم وصَيْدَ بَحْر اليمن طَرِيًّا ؛ لأنَّ بين البَحْرَيْن مسافَة ما بين مَدينَة القُلْزُم والفَرَما ، وذلك يوم وليلة ، وهو الحاجِزُ المذكور في القرآن ، قال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [الآية ٦١ سورة النمل] ، وقيل هما بَحْرُ الرُّوم وبَحْرُ القُلْزُم ، وقال تعالىٰ : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ﴾ [الآيتان ١٩ و٢٠ سورة الرحمن] ، قال بعضُ المُفَسِّرين : البَرْزَخُ ما بين القُلْزُم والفَرَما [٦].

---

a) بولاق : السير . b) زيارة من سنن أبي داود .

---

[١] النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٥.

[٢] يؤكد ذلك ما ذكره النويري قال : المأكول منه الظاهر ، ورأيته أنا بها وأكلت منه سنة ثلاث وتسعين وست مائة (نهاية الأرب ١ : ٣٥٦).

[٣] أبو داود : صحيح سنن المصطفى ، القاهرة – المطبعة التازية ١٣٤٨هـ ، ١ : ٢٥٣؛ وفيما يلي ١ : ٣٣٤.

[٤] غير موجود في مروج الذهب أو التنبيه أو أخبار الزمان .

[٥] النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٦؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣.

[٦] قارن مع أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣.

ومن مَحاسِن مِصْر أنَّهُ يوجَد بها في كلِّ شهر من شهور السنة القِبْطيَّة صِنْفٌ من المأكول [والمشروب][a] والمَشْمُوم دون ما عَداه من بقيَّة الشُّهور، فيُقالُ: رُطَبُ تُوت، ورُمَّانُ بابَه، ومَوْزُ هاتُور، وسَمَكُ كِيَهْك، وماءُ طُوبَة، وخَروفُ أَمْشير، ولَبَنُ بَرَمْهات، ووَرْدُ بَرَمودة، ونَبْق بَشَنْس، وتينُ بَؤُونَة، وعَسَلُ أَبيب، وعِنَبُ مِسْرَى.

ومنها أنَّ صَيْفَها خَريفٌ لكثرة فَواكِهِه، وشِتاءَها رَبيعٌ لما يكون بمصر حينئذٍ من القُرْط والكَتَّان.

ومن مَحاسِنِها أنَّ الذي يَنْقَطِع من الفَواكِه في سائِر البُلْدان أيَّام الشِّتاء، يوجَد حينئذٍ بمصر.

ومنها أنَّ أَهْلَ مِصْر لا يَحْتاجون في حَرِّ الصَّيْف إلى استعمال الخَيْش، والدُّخول في جَوْف الأرض كما يُعانيه أَهْلُ بَغْداد، ولا يَحْتاجون في بَرْد الشِّتاء إلى لِبْس الفَرْو والاصْطِلاء بالنار الذي لا يَسْتَغْني عنه أهل الشَّام. كما أنَّهم أيضًا في الصَّيْف غير مُحتاجين إلى استعمال الثَّلْج[1].

ويُقالُ: زَبَرْجَدُ مصر، وقَباطِي مصر، وحَميرُ مصر، وثَعابينُ مصر، ومَنافِعُها في الدِّرْياق جَليلَة.

ومن فَضائِل مِصْر أنَّ الرُّخامَة التي في الحِجْر من الكَعْبَة من مصر، بَعَثَ بها محمد بن طَريف مَوْلَى العَبَّاس بن محمد في سنة إحدى وأربعين ومائتين مع رُخامَة أخرى خَضْراء هدية للحِجْر. فجُعِلَت إحْدى الرُّخامتين على سَطْح جِذْر الكَعْبَة، وهما من أحْسَن الرُّخام في المَسْجد خُضْرَة، وكان الـمُتَوَلِّي/ عليها عبد الله بن محمد بن دَاود، ذَرْعها ذِراع وثلاث أصابع؛ قاله الفَاكِهِيُّ[2] في «أخبار مَكَّة»[3].

ومن فَضائِل مِصْر أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسَرَّى من أهلها، ووُلِدَ له ﷺ من نِساء مصر، ولم يُولَد له وَلَدٌ من غير نِساء العرب إلَّا من نِسَاء مصر.

---

a) زيادة من النويري.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١: ٣٥٦.

[2] أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي مؤلف «أخبار مكة»، أهمل أصحاب التراجم والطبقات الترجمة له هو وسلفه الأزرقي، وتعجب الفاسي من ذلك، وتوفي بعد سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م (الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ١: ٤١٠- ٤١١؛ Rosenthal, F., *EI*[2] art. *al-Fâkihî* II, p. 775).

[3] انظر الأزرقي: كتاب أخبار مكة (نشرة وستنفلد) ٢٢٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى ٢: ٣٢١؛ حسين بن عبد الله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، جدة ١٩٨٢، ١٧٠- ١٧٢.

قال ابنُ عَبْد الحكَم : لـمَّا كانت سنة ستٍّ من مُهاجر رَسُول الله ﷺ ، ورَجَعَ رَسولُ الله ﷺ من الحُدَيْبِيَة ، بَعَثَ إلى المُلوك . فمَضَى حاطِبُ بن أبي بَلْتَعَة بكِتاب رَسُول الله ﷺ ، فلمَّا انتهى إلى الإسْكَنْدَرية وَجَدَ الـمُقَوْقِس في مَجْلِس مُشْرِف على البحر ، فرَكِبَ البحر ، فلمَّا حاذَى مجلسَه أشارَ بكِتاب رَسُول الله ﷺ بين أصْبعَيْه ، فلمَّا رآه أَمَر بالكتاب فقُبِضَ ، وأَمَر به فأُوْصِلَ إليه .

فلمَّا قَرَأَ الكِتابَ قال : ما مَنَعَه إن كان نَبِيًّا أن يَدْعو عليَّ فيُسلَّط عليَّ ؟ فقال له حاطِبُ : ما مَنَعَ عيسى بن مَرْيَم أن يَدْعو على مَنْ أَبَى عليه أن يُفْعَل به ويُفْعَل . فوَجِمَ ساعةً ثم استعادَها ، فأعادَها عليه حاطِب ، فسَكَت . فقال له حاطِبٌ : إنَّه قد كان قَبْلَكَ رجلٌ زَعَم أنَّه الرَّبُّ الأعلى ، فانْتَقَم الله به ثم انْتَقَم منه ، فاعْتَبِر بغيرك ولا تَعْتَبِر بك ، وإنَّ لك دِينًا لن تَدَعه إلَّا لما هو خَيْرٌ منه وهو الإسْلام الكافي الله به فَقْد ما سِواه ، وما بِشارَة مُوسَىٰ بعيسَىٰ إلَّا كبِشارَة عيسَىٰ بمُحَمَّد ، وما دُعاؤنا إيَّاك إلى القُرآن إلَّا كدُعائِك أهْل التَّوْراة إلى الإنْجيل ، ولَسْنَا نَنْهاك عن دِين الـمَسيح ، ولكِنَّا نَأْمُرك به .

ثم قَرَأَ الكتابَ فإذا فيه :

«بِسْم الله الرَّحْمَٰن الرَّحيم ، من مُحَمَّد رَسُول الله إلى الـمُقَوْقِس عَظيم القِبْط ، سَلامٌ على من اتَّبع الهُدَى .

أمَّا بَعْدُ ، فإنِّي أَدْعوكَ بدِعايَة الإسْلام ، فأَسْلم تَسْلَم ، يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مرَّتين . ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [الآية ٦٤ سورة آل عمران]» .

فلمَّا قَرَأَه أَخَذَه فجَعَلَه في حُقٍّ من عاجٍ وخَتَم عليه .

عن أبان بن صَالِح قال : أَرْسَلَ الـمُقَوْقِسُ إلى حاطِب لَيْلَةً وليس عنده أَحَدٌ إلَّا التَّرْجُمان فقال له : أَلَا تُخْبِرني عن أمورٍ أسْألك عنها فإنِّي أَعْلَم أن صاحِبَك قد تَخَيَّرَك حين بَعَثَك ؟ قلت : لا تَسْألني عن شيءٍ إلَّا صَدَقْتُك . قال : إلامَ يَدْعُو محمد ؟ قال : إلى أن تَعْبُد الله ولا تُشْرِك به شيئًا ، وتَخْلَع ما سِواه ، ويأمُر بالصَّلاة ؛ قال : فكم تُصَلُّون ؟ قال : خَمْس صَلوات في اليوم واللَّيْلَة ، وصِيام شَهْرِ رَمَضان ، وحَجّ البَيْت ، والوَفاء بالعَهْد ، ويَنْهَى عن أَكْل الـمَيْتَة والدَّم ؛ قال : مَن أَتْباعُه ؟ قال : الفِتْيان من قَوْمه وغيرهم ، قال : وهل يُقْبَل قَوْلُه ؟ قال : نعم ؛ قال : صِفْه لي ؛

قال : فوَصَفْتُه بصِفَةٍ من صِفَتِه ولم آت عليها . قال : قد بَقِيَتْ أشياءُ لم أرَكَ ذَكَرْتها : في عينيه حُمْرَة قَلَّ ما تُفارِقه ، وبين كَتِفَيْه خاتَم النُّبُوَّة ، يركب الحِمار ، ويَلْبَس الشَّمْلَة ، ويجتزي بالتَّمَرات والكِسَر ، لا يُبالي من لاقى من عَمّ ولا ابن عم ؛ قلت : هذه صِفَتُه ؛ قال : قد كنت أَعْلَم أنَّ نَبِيًّا بقي ، وقد كُنْت أَظُنّ أنَّ مَخْرَجَه الشَّام ، وهناك كانت تَخْرُج الأَنْبياءُ من قَبْله ، فأراه قد خَرَج في أرْضِ العرب ، في أرْض جَهْدٍ وبُؤْس ، والقِبْطُ لا تُطاوِعُني في اتِّباعه ، ولا أُحِبّ أن تَعْلَم بمُحاوَرَتي إيّاك ، وسَيَظْهر على البلاد ، ويَنْزِل أصْحابُه من بعده بساحَتِنا هذه حتى يَظْهَرُوا على ما هٰهُنا ، وأنا لا أذكر للقِبْط من هذا حَرْفًا ، فارْجع إلى صاحِبك .

قال : ثم دَعا كاتِبًا يكتُب بالعربية فكَتَبَ :

«لمُحَمَّد بن عَبْد الله من المُقَوقِس عَظيم القِبْط ، سلامٌ .

أمَّا بَعْدُ ، فقد قَرَأتُ كِتابَك ، وفَهِمْتُ ما ذَكَرْت وما تَدْعو إليه ، وقد عَلِمْت أنَّ نَبِيًّا قد بَقِي ، وقد كُنْتُ أَظُنّ أنَّ نَبِيًّا يَخْرُج بالشَّام ، وقد أكْرَمْتُ رَسُولَك ، وبَعَثْتُ إليك بجارِيَتَيْن لهما مكان في القِبْط عَظيم ، وبكِسْوَة ، وأَهْدَيْت إليك بَغْلَةً لتَرْكَبها ، والسَّلام» .

وعن عبد الرَّحمٰن بن عَبْدٍ القاري قال : لمَّا مَضَى حاطِبٌ بكِتاب رَسُول الله ﷺ ، قَبِلَ المُقَوْقِسُ الكِتابَ ، وأكْرَم حاطِبًا ، وأَحْسَنَ نُزُله ، ثم سَرَّحه إلى رَسُول الله ﷺ ، وأَهْدَى له كُسْوَة وبَغْلَة بسَرْجِها ، وجاريتين : إحداهما أمّ إبراهيم ، ووَهَب الأخرى لجَهْم بن قَيْس العَبْدَري ، فهي أمّ زَكرياء ابن جَهْم الذي كان خَليفَة عَمْرو بن العَاص على مصر ، ويُقالُ : بل وَهَبَها رَسُولُ الله ﷺ لمُحَمَّد بن مَسْلَمَة الأَنْصاري ، ويُقالُ : بل لدِحْيَة بن خَليفَة الكَلْبي ، وقيل : بل لحَسَّان بن ثابِت [1] .

وعن يَزيد بن أبي حَبيب أنَّ المُقَوْقِسَ لمَّا أتاه كِتابُ رَسُول الله ﷺ ضَمَّه إلى صَدْره وقال : هذا زَمانٌ يخرج فيه النَّبيُّ الذي نَجِدُ نَعْتَه وصِفَتَه في كِتاب الله تعالى ، وإنَّا لَنجد صِفَتَه أنَّه لا يَجْمَع بين أُخْتَيْن في مِلْك يَمِين ولا نِكاح ، وأنَّه يَقْبَل الهَدِيَّة ولا يَقْبَل الصَّدَقَة ، وأنَّ جُلَساءَه المساكين ، وأنَّ خاتَمَ النُّبُوَّة بين كَتِفَيْه .

ثم دَعَا رَجُلًا عاقِلًا ، ثم لم يَدَعْ بمصر أَحْسَن ولا أجمل من مارِيَة وأُخْتها ، وهما من أهل حَفْن بفَتْح أوَّله وسُكُون ثانية ثم نون بعده من كُورَة أنْصِنا ، فبَعَثَ بهما إلى رَسُول الله ﷺ ،

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤٥– ٤٧ ؛ وانظر أيضًا ، القلقشندي : صبح الأعشى ٦:٣٧٨ ؛ محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية في العصر النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة ١٩٤١ ، ٥٧– ٦٣.

وأَهْدَى له بَغْلَة شَهْبَاء ، وحِمارًا أَشْهَب ، وثِيابًا من قَباطي مصر ، وعَسَلًا من عَسَل بَنْها ، وبَعَث إليه بمالِ صَدَقَه [١].

ويُقالُ : إنَّ الـمُقَوْقِسَ أَهْدَى إلى رَسُول الله ﷺ أرْبَع جَواري ، وقيل : جاريتين ، وبَغْلَة اسْمها الدُّلْدل ، وحِمارًا اسمه يَعْفور ، وقَباءً ، وألف مِثْقال / ذَهَبًا ، وعشرين ثوبًا من قَباطِي [٢] مصر ، وخَصِيًّا يسمَّى مأبور ، ويُقالُ : إنَّه ابن عَمّ مارية ، وفَرَسًا يُقالُ لها : الكَرّار ، وقَدَحًا من زُجاج ، وعَسَلًا من عَسَل بَنْها ، فأعجب النَّبيّ ﷺ ، ودَعَا فيه بالبَرَكَة ، وقال : «ضَنَّ الخَبيثُ بمُلْكه ، ولا بَقاء لـمُلْكِه» . فإنَّ الـمُقَوْقِسَ قال خَيْرًا ، وأَكْرَم حاطِبَ بن أبي بَلْتَعَة ، وقارَبَ الأَمْرَ ولم يُسْلِم .

قال ابنُ سَعْد [٣]: أَخْبَرَنا محمد بن عُمَر الوَاقِدي ، أنبأنا يَعْقوب بن محمد بن أبي صَعْصَعَة ، عن عبد الله بن عبد الرَّحْمَـٰن بن أبي صَعْصَعة قال : أَهْدَى [a] المُقَوْقِس صاحِب الإسْكَنْدَرية إلى النَّبيّ ﷺ في سنة سبع من الهجرة مارِيَة وأختها سِيرين ، وألف مِثْقال ذَهَبًا ، وعشرين ثَوْبًا ، وبَغْلَته الدُّلْدُل ، وحِماره عُفَيْرًا ، وخَصِيًّا يُقالُ له مأبور . فعَرَض حاطِبٌ على مارِيَة الإسْلام فأَسْلَمَت هي وأُخْتَها ، ثم أَسْلَم الخَصِيّ بَعْد [٤]. وكان الذي بَعَثَه المُقَوْقِسُ مع مارِيَة اسمه جَبْر [b] بن عبد الله القِبْطى ، مَوْلى بني غِفار .

قال ابنُ عَبْد الحَكَم : وَأَمَر رَسُولَه أن ينظر مَنْ جُلساؤه ، وينظر إلى ظَهْره هل يَرَى شامَةً كبيرةً ذات شَعْر ، فَفَعَلَ ذلكَ الرَّسول ، فلمَّا قَدِمَ على رَسول الله ﷺ ، قَدَّمَ إليه الأُخْتَيْن والدَّابَّتَيْن والعَسَل والثِّياب ، وأَعْلَمَه أنَّ ذلك كلَّه هَدِيَّة . فقَبِلَ رَسولُ الله ﷺ الهَدِيَّة ، وكان لا يَرُدّها من أحَدٍ من الناس .

---

a) ابن سعد : بعث . b) بولاق : جبير .

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤٨.

[٢] القباطي . نسبة إلى أقباط مصر ، نوع من النسيج يمتاز بأن زخارفه تتكون من لحمات غير ممتدة في عرض المنسوج وغير منقطعة ويعرف أيضًا بـ«التبستري Tapestry» (أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٧٣).

[٣] أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الهاشمي ، كاتب الواقدي . محدِّث مشهور ولد في البصرة نحو سنة ١٦٨هـ/٧٨٤م وتوفي ببغداد سنة ٢٣٠هـ/٨٤٥م . ويدين ابن سعد بشهرته إلى كتابه «الطبقات الكبرى» الذي ترجم فيه لطبقات العلماء والمحدِّثين من الصحابة والتابعين حتى عصره وجعلهم «طبقات» ، وهو بذلك من أوائل المؤلفات العربية التي اتَّبعت نظام الترتيب على الطبقات (ابن النديم : الفهرست ١١١– ١١٢؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٥: ٣٢١– ٣٢٢؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤: ٣٥١– ٣٥٢؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠: ٦٦٤– ٦٦٧؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٣: ٨٨؛ Fück, J. W., EI² art. Ibn Saᶜd III pp. 946-47.

[٤] ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨: ٢١٢.

قالَ: فلمَّا نَظَر إلى مارِيَة وأختها أعْجَبَتاه وكَرِهَ أن يَجْمَع بينهما، وكانت إحْداهما تُشْبه الأخرى، فقال: «اللَّهُم اخْتَر لنبيِّك». فاخْتار الله له مارِيَة. وذلك أنَّه لمَّا قال لهما: «اشْهَدا أن لا إلـه إلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسُولُه». فبادَرَت مارِيَةُ فشَهِدَت وآمَنَت قبل أُخْتها، ومَكَثت أخْتُها ساعَةً ثم تَشَهَّدَت وآمَنَت، فوَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ أُخْتها لمحمد بن مَسْلَمَة الأنْصاري، وقال بعضُهم: بل وَهَبَها لدِحْيَة بن خَليفَة الكَلْبِي[1].

وعن يَزيد بن أبي حَبيب عن عبد الرَّحْمَـٰن بن شُماسَة المهري، عن عبد الله بن عمر قال: دَخَل رَسُولُ الله ﷺ على أمِّ إبراهيم أمّ ولده القِبْطِيَّة، فوَجَدَ عندها نَسيبًا لها كان قَدِمَ معها من مصر، وكان كثيرًا ما يَدْخُل عليها، فوَقَع في نفسه شيءٌ فرَجعَ، فلقيه عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضِي الله عنه ـ فعَرفَ ذلك في وَجْهِه، فسألَه فأَخْبَرَه، فأَخَذَ عُمَرُ السَّيْف ثم دَخَلَ على مارِيَة وقَريبُها عندها، فأَهْوَى إليه بالسَّيْف، فلمَّا رأى ذلك كَشَفَ عن نَفْسه وكان مَجْبوبًا ليس بين رِجْلَيْه شيءٌ، فلمَّا رآه عُمَر رَجَعَ إلى رَسُول الله ﷺ فأَخْبَرَه، فقال رَسولُ الله ﷺ: «إنَّ جِبْريلَ أتاني فأَخْبَرَني أنَّ الله ـ عزَّ وجَلّ ـ قد بَرَّأَها وقَريبَها، وأنَّ في بَطْنِها غُلامًا مِنِّي، وأنَّه أَشْبَهُ الخَلْق بي، وأَمَرَني أن أُسَمِّيه إبراهيم، وكَنَّاني بأبي إبراهيم».

وقال الزُّهْريُّ عن أَنَس: لمَّا وَلَدت أمُّ إبراهيم إبراهيمَ كأنَّه وَقَعَ في نَفْس النَّبِيّ ﷺ منه شيءٌ، حتى جاءَه جِبريلُ فقال: «السَّلامُ عليك يا أبا إبراهيم»؛ ويُقالُ: إنَّ المُقَوْقِس بَعَثَ معها بخَصِيٍّ كان يأوي إليها[2]. وقيل: إنَّ المُقَوْقِسَ أهْدَى لرَسُولِ الله ﷺ جوارٍ[a] منهن أمّ إبراهيم، وواحِدَةٌ وَهَبَها رَسُولُ الله ﷺ لأبي جَهْم بن حُذَيْفَة العَبْدَري[b]، وواحِدَة وَهَبَها لحَسَّان بن ثابِت. فوَلَدَت مارِيَةُ لرَسُول الله ﷺ إبراهيم، وكان أَحَبَّ الناسِ إليه حتى ماتَ فوَجَد به، وكان سِنُّه يوم ماتَ ستة عشر شهرًا[3].

وكانت البَغْلَةُ والحِمار أَحَبَّ دَوابِّه إليه، وسَمَّى البغلة الدُّلْدُل، وسمَّى الحِمار يَعْفورًا، وأَعْجَبَه العَسَلُ، فدَعَا في عَسل بَنْها بالبَرَكَة، وبقيت تلك الثِّياب حتى كُفِّن في بَعْضها ﷺ[4].

---

a) بولاق: جواري. b) إضافة من فتوح مصر.

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٤٨ - ٤٩.
[2] نفسه ٤٩.
[3] نفسه ٥٠.
[4] نفسه ٥٢.

وكان اسمُ أُخت مارِيَة قَيْصَر، وقيل: بل كان اسْمُها شيرين، وقيل: حَنَّة [a].

وكَلَّمَ الحَسَنُ بن عليّ مُعاوِيَة بن أبي سُفْيان في أن يَضَعَ الجِزْيَة عن جَميع قرية أمّ إبراهيم لحُرْمَتِها، فَفَعَل ووَضَعَ الخَرَاج عنهم. فلم يَكُن على أَحَدٍ منهم خَرَاجٌ، وكان جميعُ أهل القَرْيَة من أهْلِها وأقْرِبائها فانْقَطَعُوا.

ويُرْوَى عن رَسول الله ﷺ أنّه قال: «لو بَقِيَ إبراهيمُ ما تَرَكْتُ قِبْطِيًّا إلّا وَضَعْتُ عنه الجِزْيَة». وماتَتْ مارِيَةُ في مُحَرَّم سنة خمس عشرة بالمَدِينَة [1].

وقال ابنُ وَهْب: أَخْبَرَني يحيى بن أيُّوب وابنُ لَهيعَة، عن عَقيل، عن الزُّهْرِيّ، عن يَعْقوب ابن عبد الله بن المُغيرَة بن الأَخْفَش، عن ابن عُمَر، أنَّ النَّبِيّ ﷺ قال: «دَخَلَ إبْليسُ العِراقَ فَقَضى حاجَته منها، ثم دَخَلَ الشَّامَ فَطَرَدُوه حتى دَخَل جَبل شاف، ثم دَخَل مصر فباضَ فيها وفَرَّخ وبَسَط عبقريه»؛ حَديثٌ صَحِيحٌ غَريب.

وقد عابَ بَعْضُهم مصر فقال: مَحاسِنُها مَجْلوبَة إليها، حتى العَناصِر الأربعة: الماءُ، وهو في النِّيل مَجْلوب من الجَنوب، والتُّرابُ مَجْلوب في حَمْل الماءِ، وإلَّا فهي رَمْلٌ مَحْض لا تُنْبِت الزَّرْع، والنَّارُ لا يُوجَد بها شَجَرُها، والهَواءُ لا يَهبّ بها إلَّا من أحَد البَحْرَيْن؛ إما من الرُّوميّ وإمَّا من القُلْزُم؛ وقد زادَ هذا في تحامله.

وقال كَعْبُ الأحْبار: الجَزيرَةُ آمِنَة من الخَراب حتى تَخْرب أرْمينية، ومصر آمِنَة من الخَرابِ حتى تَخْرب الجزيرَة، والكُوفَة آمِنَة من الخَراب حتى تكون المَلْحَمَة [2].

ذِكْرُ العجائِب التي كانت بمِصْر من الطِّلَّسمات والبَرابي ونَحْو ذلك

ذَكَرَ في كتاب «عَجائِب الحَرَكات [b]» وغَرائِب الماجَرِيات» أنّه كان بمصر حَجَرٌ من جَمَعَ كَفَّيْه عليه تَقَيَّأ جَميع ما في جَوْفِه.

/قال القُضاعِيّ: ذَكَرَ الجاحِظُ [3] وغيره أنَّ عَجائِبَ الدُّنْيا ثلاثون أُعْجوبَة: منها بسائِر الدُّنْيا عشر أُعْجوبات، وهي: مَسْجِدُ دِمَشْق، وكَنيسَةُ الرُّها، وقَنْطَرَةُ سِنْجِر [c]، وقَصْرُ غُمْدان،

a) بولاق: حمنة. b) بولاق: الحكايات. c) الإدريسي: طنجة.

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٥٢–٥٣.
[2] فيما يلي ١: ٣٣٤.
[3] أورد الإدريسي في كتاب «أنوار علوي الأجرام» ١٦ هذا النص ونَصَّ على النقل من كتاب البلدان للجاحظ.

وكَنيسَةُ رُومِيَّة، وصَنَمُ الزَّيْتون، وإيوانُ كِسْرَى بالمَدائِن، وبَيْتُ الرِّيح بتَدْمُر، والخَوَرْنَقُ والسَّديرُ بالحيرَة، والثلاثةُ الأحجار ببَعْلَبَك، وذَكَر أنَّها بَيْت المُشْتَري والزُّهَرَة، وأنَّه كان لكلِّ كَوْكَب من السبعة بَيْتٌ فيها فتهدَّمَت [1].

ومنها بمصر عِشْرون أُعْجُوبة: فمن ذلك «الهَرَمان»، وهما أَطْوَلُ بناءٍ وأَعْجَبه، ليس على وَجْه الدُّنْيا بِناءٌ باليد حَجَر على حَجر أطْوَل منهما، وإذا رأيتهما ظَنَنْتَ أنهما جَبلان مَوْضوعان، ولذلك قال بعضُ من رآهما: لَيْسَ من شيءٍ إلَّا وأنا أَرْحَمَه من الدَّهْر إلَّا الهَرَمَيْن، فإنّي لأَرْحم الدَّهْرَ منهما [2].

ومن ذلك «صَنَمُ الهَرَمَيْن»، وهو «بَلْهوبَه»، ويُقال: «بُلْهَيْب»، ويُقالُ: إنَّه طِلَّسْم للرَّمْل لئلَّا يَغْلب على إبْليز الجيزَة [3].

ومن ذلك «بِرْبا سَمَنُّود»، وهو من أعاجِيبها. وذُكِرَ عن أبي عُمَر الكِنْدي أنَّه قال: رأيتُه وقد خَزَّنَ فيه بعض عُمَّالِها قُرْطًا، فرأيت الجَمَلَ إذا دَنا من بابه بحَمْله وأراد أن يَدْخله سَقَطَ كلُّ ديب في القُرْظ لم يدخل منه شيءٌ إلى البِرْبا، ثم خَرِبَ عند الخمسين والثلاث مائة.

ومن ذلك «بِرْبَا إخْميم» عَجَبٌ من العَجَب بما فيه من الصُّوَر والعجائب وصُوَر الملوك الذين يَمْلُكون مصر، وكان ذو النُّون الإخميمي يقرأ البَرابي، فرأى فيها حِكَمًا عَظيمَةً فأَفْسَدَ أكثرها.

ومن ذلك «بِرْبَا دَنْدَرَة» وهو بِرْبا عَجيب فيه ثمانون ومائةَ كُوَّة تَدْخُل الشَّمْسُ كلَّ يوم من كُوَّة منها، ثم الثانية حتى تنتهي إلى آخرها، ثم تَكُرُّ راجعةً إلى مَوْضِع بَدائِها.

ومن ذلك «حَائِطُ العَجُوز» من العَريش إلى أُشْوان، يُحيطُ بأرض مصر شرقًا وغربًا [4].

ومن ذلك «الإسْكَنْدَرية» وما فيها من العَجائِب، فمن عَجائِبها المَنارةَ والسَّواري والمَلْعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السَّنَة ثم يَرْمُون بكُرَةٍ فلا تَقَع في حِجْرِ أَحَدٍ إلَّا ملك مصر. وحَضَر عيدًا من أعْيادهم عَمْرو بن العَاص، فوَقَعَت الكُرَة في حِجْره، فمَلَكَ البَلَدَ بعد ذلك في الإسْلام. ثم يحضُر هذا الملعب ألف ألف من الناس، فلا يكُون فيهم أَحَدٌ إلَّا وهو ينظر في وَجْه

---

[1] انظر أيضًا فيما تقدم ٦٨.

[2] انظر فيما يلي ٣٢١.

[3] انظر فيما يلي ٣٣١.

[4] الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٦–١٧ ومصدره كتاب البلدان للجاحظ؛ وانظر فيما يلي ٥٤١.

صاحِبه . ثم إن قُرِئَ كتابٌ سمعوه جميعًا أو لُعِبَ نوع من أنْواع اللَّعب رَأَوْه عن آخرهم ، لا يَتَطاوَلون فيه بأكثر من المرَاتِب العلية والسفلية [١] .

ومن عَجائِبها «المَسَلَّتان» ، وهما جَبَلان قائِمان على سَرَطانات نُحاس في أرْكانِها ، كلّ رُكْن على سَرطان . فلو أراد مُريدٌ أن يُدْخِلَ تحتها شيئًا حتى يُعبِّره من جانِبه الآخر لفَعَل [٢] .

ومن عَجائِبها «عَمودَا الإعْياء» ، وهما عَمودان مُلْقَيان ، وراء كل عَمود منهما جَبل حَصْبَا كصُبْر الجِمار بِمِنَى ، يقبل المُعَنَّى التَّعِب النَّصب بسَبْع حَصَيات حتى يلتقي على أَحَدِهما ، ثم يرمي وراءَه السَّبْع ، ويقوم ولا يَلْتَفِت ، ويَمْضِي لطيّته ، فكأنَّما يحمل حَمْلًا لا يحس بشيءٍ من تَعَبِه .

ومن عَجائِبها «القُبَّةُ الخَضْرَاء» ، وهي أَعْجَبُ قُبّة مُلَبَّسَة نُحاسًا كأنّه الذَّهب الإبْريز ، لا يُبْليه القِدَمُ ، ولا يُخْلقه الدَّهرُ .

ومن عَجائِبها «مُنْيَةُ عُقْبَة» ، و«قَصْر فارِس» ، و«كَنِيسَة أَسْفَلِ الأرْض» ، ثم هي مَدينَة على مَدينَة ، ليس على وَجْه الأرض مَدينَة بهذه الصِّفَة سواها . ويُقالُ : إنَّها إرَمُ ذات العِماد ، سُمِّيت بذلك ؛ لأنَّ عُمُدَها ورُخامَها من البَدْنْجَنا والأَصْطفِينْدس المخَطَّط طُولًا وعَرْضًا .

ومن عَجائِب مصر أيضًا «الجِبالُ التي هي بصَعيدها على نِيلها» ، وهي ثلاثة أَجْبُل : فمنها جَبَلُ الكَهْف ، ويقال : الكَفّ ، ومنها الطَّيلَمُون ، ومنها جَبل زَماخير[a] السَّاحِرة ، يُقالُ : إنَّ فيه خلْقَة من الجبل ظاهرة مُشْرِفَة على النِّيل ، لا يَصل إليها أَحَدٌ ، يلُوح فيها خَطٌّ مخلوق باسْمِكَ اللّهم .

ومن عَجائِبها «شِعْبُ البوقيرات» بناحية أُشْمون من أرض الصَّعيد ، وهو شِعْبٌ [٣] في جَبَل فيه صَدْع ، تأتيه البُوقِيرات في يومٍ من السَّنَة كان معروفًا ، فتَعْرِض أنفسها على الصَّدْع ، فكلَّما أَدْخل بُوقير منها مِنْقارَه في الصَّدْع مَضَى لسبيله ، فلا يزال يَفْعَل ذلك حتى يلتقي الصَّدْع على بُوقير منها فيَحْبِسه ، وتَمْضي كلُّها ولا يزال ذلك الذي يحبسه متعلّقًا حتى يتَساقَط ويتلاشَى [٤] .

---

a) بولاق : زماجير .

---

[١] انظر فيما يلي ٤٢٩ - ٤٣٢.

[٢] انظر فيما يلي ٦٢١.

[٣] الشِّعْبُ الوادي الصغير أو الطريق يخترق الجبال (ياقوت : معجم البلدان ٣:٢٩٦) .

[٤] انظر ابن رستة : الأعلاق النفيسة ٨٢.

ومن عَجائِبِها «عَيْنُ شَمْس» ، وهي هَيْكَلُ الشَّمْس ، وبها العَمودان اللَّذان لم يُرَ أَعْجَب منهما ولا من شأنهما ، طولُهما في السَّماء نحو من خمسين ذراعًا ، وهما محمولان على وَجْه الأرض ، وفيهما صورة إنْسان على دابّة ، وعلى رأسهما شِبْه الصَّوْمَعَتَيْن من نُحاس ، فإذا جاءَ النِّيلُ قَطَرَ من رأسهما ماءٌ ، وتستبينه وتَراه منهما واضِحًا يَنْبُع حتى يجري في أسفلهما فيُنْبِت في أصْلهما العَوْسَج وغيره . وإذا حَلَّت الشَّمْسُ دقيقة من الجَدْي ، وهو أَقْصَر يوم في السنة ، انتهت إلى الجنوبي منهما فطَلَعَت عليه قِمَّة رأسه ، وهي مُنْتَهَى الميلين ، وخَطُّ الاسْتِواء في الواسِطة منهما ، ثم خَطَرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السَّنة ؛ كذا يقول أَهْلُ العلم بذلك [1].

ومن عجائِبِها «مَنْف» وعَجائِبها وأَصْنامها وأَبْنِيتُها ودَفائِنها وكُنوزها ، وما يُذْكَر فيها أكثر من أن يُحْصَى من آثار الملوك والحُكَماء والأنبياء ، لا يدفع ذلك [2].

ومن عَجائِبها «الفَرَما» ، وهي أكثر عَجائِب وأكثر آثارًا [3].

ومن عَجائِبِها «الفَيُّوم» [4]. ومن عَجائِبها «نِيلُها» . ومن عَجائِبِها الحَجَرُ المعروف بحَجَر الخَلّ ، يَطْفُو على الخَلّ ويَسْبَح فيه كأنَّه سَمَكَة .

/وكان يُوجَد بها حَجَرٌ إذا أَمْسَكَه الإنسانُ بكِلتَا يديه تقايأ كلّ شيءٍ في بَطْنه [5]. وكان بها خَرَزَة تجعلها المرأة على حَقْوِها فلا تَحْبَل . وكان بها حَجَرٌ يوضع على حَرف التَّنُّور فيَتَساقَط خُبْزه . وكان يُوجَد بصَعيدها حِجارَة رَخْوَة تُكْسَر فتتَّقِد كالمصابيح .

ومن عَجائِبها حَوْضٌ كان بدولاب مُدَوَّر[a] من حجارة ، يَرْكَب فيها الواحد والأربعة ويُحَرِّكون الماء بشيءٍ ، فيَعْبُرون من جانِبٍ إلى جانِب ، لا يُعْلَم من عمله ، فأَخذَه كافُور الإخْشيدي إلى مصر ، فنَظَرَ إليه ثم أُخْرِجَ من الماء فأُلْقِي في البر ، وكان في أسْفَله كِتابة لا يُدْرَى ما هي ، ثم بَطُل .

ومن عَجائِبها أنَّ بصَعيدها ضَيْعَة تُعْرَف بدِشْنَا ، فيها سَنْطَة إذا تَهَدَّدَت بالقَطْع تَذْبُل وتجتمع وتَضْمُر ، فيُقالُ لها : قد عَفَوْنا عنك وتركناك فتتراجع ، والمشهورُ وهو الموجود الآن سَنْطة في

---

a) بولاق : بدلّالات تُدَوَّر .

---

[1] انظر فيما يلي ٦٢٢ ومصدره فيه القضاعي .

[2] فيما يلي ٣٦٤ - ٣٩١.

[3] فيما يلي ٥٢٩.

[4] فيما يلي ٣٠٨ - ٣١٧.

[5] فيما تقدم ٨١.

الصَّعيد، إذا نَزَلَت اليدُ عليها ذَبُلَت، وإذا رُفِعَت عنها تَراجَعَت، وقد حُمِلت إلى مصر وشُوهِدت. وبها نوعٌ من الخَشب يَرْسُب في الماء كالأَبَنُوس، وبها الخَشَب السَّنْط الذي يُوقَد منه القَدْرُ الكثير في الزَّمن الطويل فلا يُوجَد له رَماد.

وذَكَرَ ابنُ نَصْر المِصْري أنَّه كان على باب القصر الكبير، الذي يُقالُ له: باب الرَّيْحان عند الكَنيسَة المُعَلَّقة، صَنَمٌ من نُحاس على خِلْقَة الجَمَل، وعليه رَجُلٌ راكِبٌ عليه عِمامَة، منتكب قَوْسًا عربية، وفي رِجليه نَعْلان، كانت الرُّومُ والقِبطُ وغيرهم إذا تظالموا بينهم، واعتدى بعضُهم على بعض، تَجاروا إليه حتى يَقِفوا بين يديْ ذلك الجَمَل، فيقول المَظْلوم للظَّالِم: «أَنْصِفْني قَبْل أن يَخْرُج هذا الراكِب الجَمَل فيأخُذ الحَقّ لي منك شِئْتَ أم أَبَيْتَ» ـ يعنون بالرَّاكب النَّبِيّ محمدًا ﷺ ـ فلمَّا قَدِم عَمْرو بن العَاص، غَيَّبَت الرُّومُ ذلك الجَمَل لئلّا يكون شاهِدًا عليهم.

قال ابنُ لَهيعَة: بَلَغَني أنَّ تلك الصُّورَة في ذلك المَوْضِع قد أتَى الآن عليها سنينُ لا يُدْرَى من عملها.

قال القُضاعِيُّ: فهذه عشرون أُعْجُوبَة من جُمْلتها ما يتضمَّن عِدَّة عَجائِب، فلو بَسَطْت لجاءَ منها عَدَدٌ كثير[1].

ويُقالُ: ليس من بَلَدٍ فيه شيءٌ غَريب إلَّا وفي مصر مثله أو شَبيهٌ به. ثم تَفْضُل مصر على البُلْدان بعَجائِبِها التي لَيْسَت في بَلَدٍ سِواها.

وفي كِتاب «تُحْفَة الأَلْباب» أنَّه كان بمصر بَيْتٌ تحت الأرض فيه رُهْبان من النَّصارَىٰ، وفي البيت سَريرٌ صغيرٌ من خَشَب، تحته صَبِيٌّ مَيِّت ملفوف في نَطْع قَديم[a] مَشْدودٌ بحَبْل، وعلى السرير مثل الباطية فيها أُنْبوب من نُحاس فيه فَتيل، إذا اشْتَعَل الفَتيلُ بالنَّار وصارَ سِراجًا خَرَجَ من ذلك الأُنْبوب الزَّيْت الصَّافي الحَسَن الفائِق[b]، حتى تمتلئ تلك الباطية وينطفئُ السِّراج بكَثْرَة الزَّيْت، فإذا انْطَفَأَ لم يَخْرُج من الدُّهْنَ شيءٌ، فإذا خَرَجَ الصَّبِيُّ المَيِّت من تحت السَّرير لم يخرج من الزَّيت شيءٌ، والباطية يَرفعها[c] الإنسانُ فلا يَرَى تحتها شيئًا ولا مَوْضِعًا فيه ثُقْب؛ وأُولَئِك الرُّهْبانُ يتعيَّشون من ذلك الزَّيْت يَشْتَريه النَّاسُ منهم فينتفعون به[2].

---

a) بولاق: أديم. b) في تحفة الألباب: الرائق. c) بولاق: يريقها.

---

[1] ينتهي هنا نصُّ القضاعي المنقول عن كتاب «البلدان» للجاحظ، ونقله كذلك ابن إياس: بدائع الزهور ١/١:١٣-١٧ وبقيته «ولا يحصى وليس في بلد شيء عجيب إلّا وفي مصر مثله أو أعجب منه».

[2] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ١٣٣؛ وانظر عن المؤلف فيما يلي ٣١٣.

وقال الأُسْتاذُ إبراهيم بنُ وَصِيف شَاه [١]: عَديمُ الملك ابن قُفْطِريم كان جَبّارًا لا يُطاق، عَظيمَ الخَلْق، فأَمر بقَطع الصُّخور ليعمل هَرَمًا كما عَمل الأَوَّلون، وكان في وَقْته الملكان اللذان أُهْبطا من السَّمَاء، وكانا في بِئْر يُقالُ له: أَفْتاوه، وكانا يُعَلِّمان أَهْل مصر السِّحْر. ويُقالُ: إنَّ الملكَ عَديم بن البودسير اسْتَكْثَرَ من عِلْمهما، ثم انتقلا إلى بابِل.

وأَهْلُ مصر من القِبْط يقولون: إنَّهما شَيْطانان يُقالُ لهما «مُهْلَة» و«مَهالَة»، وليس هما المَلَكَيْن، والمَلَكان ببابِل في بِئْرٍ هناك يَغْشاها السَّحَرَةُ إلى أن تقومَ السَّاعَة، ومن ذلك الوَقْت عُبِدَت الأَصْنامُ [٢].

وقال قَوْمٌ: كان الشَّيْطانُ يَظْهَر ويَنْصِبُها لهم.

وقال قَوْمٌ: أَوَّلُ من نَصَبها تَدُورة، وأَوَّل صَنَم أَقامَه صَنَم الشَّمْس.

وقال آخَرون: بل النَّمْرود الأَوَّل أَمَر الملوك بنَصْبها وعِبادَتها.

وعَديمُ أَوَّل من صَلَب، وذلك أَنَّ امرأَةً زَنَت برَجُلٍ من أَهْل الصِّناعات، وكان لها زَوْجٌ من أَصْحاب الملك، فأَمَر بصَلْبِهما على مَنارَيْن، وجَعَلَ ظَهْر كلٍّ واحِدٍ منهما إلى ظَهْر الآخَر، وزَبَر على المنارَيْن اسْمهما، وما فَعلاه، وتاريخ الوَقْت الذي عُمِلَ ذلك بهما فيه، فانتهى النّاسُ عن الزِّنا [٣].

وبَنى[a] أَرْبَع مَدائِن، وأَوْدَعَها صُنوفًا كثيرة من عَجائِب الأَعْمالِ والطِّلَّسْمات، وكَنَز فيها كُنوزًا كثيرة، وعمل في الشرق[b] منارًا، وأقامَ على رأسه صَنَمًا مُوَجَّهًا إلى الشَّرْق، مادًّا يديه، يَمْنَع دَوابَّ البَحْر والرِّمال أن تتجاوزَ حَدَّه، وَزَبَرَ في صَدْره تاريخ الوَقْت الذي نَصبه فيه؛ ويُقالُ: إنَّ هذا المَنار قائِمٌ إلى وَقْتِنا هذا، ولولا هذا لغَلَب الماءُ المِلْح من البحر الشَّرْقي على أَرْض مصر.

a) الأصل: وهي. b) عند المسعودي: على البحر الشرقي.

[١] إبراهيم بن وصيف شاه مؤلف لا تعرف على وجه الدقة الفترة التي عاش فيها، ويعرف أحيانًا عند المؤلفين الأندلسيين بالوصيفي، اشتهر بكتابه في العجائب الذي تناول فيه تاريخ مصر القديم، ويتفق ما ينسب إلى ابن وصيف شاه مع كتاب «أخبار الزمان» المنسوب إلى المسعودي. واعتمد على كتاب ابن وصيف شاه، «الذي تحتفظ مكتبة سان بطرسبرج تحت رقم ٩٥٩٤ بأقدم نسخة منه بعنوان «كتاب العجائب الكبير» وهي نسخة كتبت في القاهرة سنة ٦٠٧هـ، كلٌّ من النويري في «نهاية الأرب» والمقريزي في «الخطط» (انظر المقدمة).

[٢] المسعودي: أخبار الزمان ١٦١؛ النويري: نهاية الأرب ١٥:٥١-٥٢ نقلًا عن ابن وصيف شاه.

[٣] انظر أيضًا فيما يلي ٣٧٣.

وعَمِلَ على النِّيل قَنْطَرةً في أوَّل بَلَد النُّوبَة، ونَصَبَ عليها أربعة أصْنام مُوَجَّهة إلى أرْبَع جهات الدُّنْيا، في يديْ كلِّ واحِدٍ من الأَصْنام حَرْبَتان يضرب بهما إذا أتاهم آتٍ من تلك الجهة، فلم تزل بحَالِها إلى أن هَدَمَها فِرْعَوْنُ موسَىٰ عليه السَّلام.

وعَمِلَ البِرْبا على باب النُّوبَة، وهو هناك إلى وقتنا هذا.

وعَمِلَ في إحْدى المَداين الأَرْبَع التي ذكرناها حَوْضًا من صَوَّان أسْوَد مملوءًا ماء، لا ينقُص طُول الدَّهْر ولا يتغيَّر ماؤه، لأنَّه اجْتَلَبه إليه من رُطوبَة الهَوَاء. وكان أهلُ تلك الناحية وأَهْلُ تلك المدينَة يَشْرَبون منه ولا يَنْقُص ماؤه وعَمِلَ ذلك [لهم][a] لبُعْدهم عن النِّيل.

وذَكَرَ بعضُ كَهَنَة القِبْط أنَّ ذلك إنَّما تمَّ[b] لقُرْبه من البحر المِلْح، فإنَّ الشَّمْسَ تَرْفَع بحَرِّها بُخارَ البحر فيَنْحَصر/ من ذلك البُخار جُزْءٌ بالهَنْدَسَة أو بالسِّحْر[1]، وتجعله يَنْحَطّ في ذلك المَوْضِع بالجَوْهَر مثل الطَّلّ، وتَمُدُّه بالهَوَاء فلا يَنْقُص بذلك ماؤه على الدَّهْر، ولو شَرِبَ منه العالَم.

وعَمِلَ قَدَحًا لَطيفًا على مثل هذا العمل، وأَهْداه حَوْمَل[c] الملك إلى الإسْكَنْدَر اليوناني.

ومَلَكَهم عَديم مائة وأربعين سنة، وماتَ وهو ابن سبع مائة وثلاثين سنة، ودُفِنَ في إحدى المدائِن ذات العَجائِب[2]، وقيل: في صَحْراء قِفْط[3].

وذَكَرَ بعضُ القِبْط أنَّ ناوُوسَ عَديم عُمِلَ في صَحْراء قِفْط على وَجْه الأرض، تحت قُبَّة عَظيمَة من زُجاج أخضر بَرَّاق، مَعْقُود على رَأْسِها كُرَة من ذَهَب، عليها طائِرٌ من ذَهَب مُوَشَّح بجَوْهَر مَنْشُور الجَناحين يَمْنَع مِن الدُّخول إلى القُبَّة، وكان قُطْرُها مائة ذراع في مثلها، وجُعِلَ جَسَدُه في وَسَطِها على سَريرٍ من ذَهَب مُشَبَّك، وهو مَكْشُوف الوَجْه، وعليه ثِيابٌ مَنْسوجَة بالذهب المَغْروز بالجَوْهَر المنظوم، وطول القُبَّة أربعون ذِراعًا.

وجُعِلَ [معه][a] في القُبَّة مائة وسبعون مُصْحَفًا من مَصاحِف الحِكْمة، وسَبْع مَوائِد بأوانيها، منها مائِدَة من دُرّ رُمَّاني أَحْمَر، وأوانيها منها، ومائِدَة من ذَهَب فلموني أوانيها منها، ومائِدَة من

a) زيادة من المسعودي. b) بولاق: الماء ثم، والتصويب كذلك من المسعودي. c) في الأصل وعند المسعودي: حويل.

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٥٧–٥٨ (نقلًا عن ابن وصيف شاه).

[2] نفسه ١٥: ٥٨.

[3] كل النص المنسوب هنا إلى ابن وصيف شاه وَرَد في كتاب «أخبار الزمان» المنسوب للمسعودي ١٦١–١٦٣، وكذلك النص التالي.

حَجَر الشَّمس المُضيء بآنيتها، وهو الزَّبَرْجَد الذي إذا نَظَرَتْ إليه الأفاعي سالَت أعينُها، ومائِدَة من كِبْريت أَحْمَر مُدَبَّر بآنيتها، ومائِدَة من مِلْح أبيض مُدَبَّر براق بآنيتها، ومائِدة من زِئْبَق معقود.

وجَعَلَ في القُبَّة جَواهِر كثيرة وبَرابي صَنْعَة مُدَبَّرة، وحَوْله سبعة أشياف وأطراس من حديد أبيض مدبر وتماثيل أفْراس من ذَهَب، عليها سُروجٌ من ذَهَب، وسبعة تَوابيت من دَنانير عليها صُورَته. وجَعَلَ معه من أصْناف العَقَاقير والسُّمومات والأدْوية في بَرابي من حجارة.

وقد ذَكَر من رَأَى هذه القُبَّة أنَّهم أقامُوا أيامًا فما قَدَرُوا على الوصُول إليها، وأنَّهم إذا قَصَدُوها وكانوا منها على ثمانية أَذْرُع دارَت القُبَّة عن أَيْمانهم أو عن شَمائِلِهم [من أَزَج] [a]. ومن أَعْجَب ما ذَكَرُوه أنَّهم كانوا يُحاذُون آزاجها أَزَجًا أَزَجا، فلا يَرَوْن [من أَزَج] [a] غير الصُّورَة التي يرونها من الأَزَج الآخَر على معنًى واحد. وذَكَرُوا أنَّهم رَأَوْا وَجْه المَلِك قَدْر ذِراع ونصف بالكبير، ولِحْيَتُه كبيرة مكشوفة، وقدروا طُول بَدَنه عشرة أذرع وزيادة [1].

وذَكَر هؤلاء الذين رَأَوْها أنَّهم خَرَجُوا لحاجَة فوَجَدوها اتِّفاقًا، وأنَّهم سألوا أَهْل قِفْط عنها فلم يَجِدوا أحَدًا يعرفها سوى شَيْخٌ منهم [2].

وأَوْصَى عَديمُ الملك ابنه شَدَّات بن عَديم أن يَنْصِبَ في كلِّ حَيِّز من أحْياز ولايته مَنارًا ويَزْبُرَ عليه اسْمه، فانْحَدَر إلى الأُشْمونَيْن وعَمِلَ مَناراتها، وزَبَر عليها اسْمه، وعمل بها مَلاعب، وعمل في صَحرائِها مَنارًا أقامَ عليه صَنَمًا برأسين، على اسم كَوْكَبَيْن كانا مُقْتَرنين في الوَقْت الذي خَرَج فيه إلى أَتْريب، وبَنَى فيها قُبَّة عَظيمَة مرتفعة على عُمُد وأَساطِين بعضها فَوْق بعض، وعلى رأسِها صَنَمًا صغيرًا من ذَهَب، وعمل هَيْكلًا للكواكِب. ومَضَى إلى حَيِّز صَا، فعَمِلَ فيه مَنارًا على رأسه مرآة من أخْلاط توري الأقاليم، ورَجَع [3].

وعَمِلَ شَدَّات بن عَديم هَيْكَل أَرْمَنْت، وأقامَ فيه أصْنامًا بأسْماء الكَواكِب من جَميع المعادِن، وزَيَّنَه بأحسن الزِّينَة، ونَقَشَه بالجَواهِر والزُّجاج المُلَوَّن، وكَساه الوَشْي والدِّيباج، وعَمل في المدائِن

---

a) زيادة من المسعودي.

---

[1] المسعودي: أخبار الزمان ١٦٣–١٦٤؛ النويري: نهاية الأرب ٥٩:١٥–٦٠ (عن ابن وصيف شاه).

[2] نفسه ١٦٤.

[3] النويري: نهاية الأرب ٦١:١٥ وقارن المسعودي: أخبار الزمان ١٦٥.

الداخلة من أَنْصِنَا هَيْكَلًا ، وأقامَ فيه بأَتْرِيب ، وهيكَلًا شَرْقي الإسْكَنْدَرية .

وأقامَ صَنَمًا من صَوَّان أسود باسم زُحَل على عَبْرَة النِّيل من الجانب الغربي ، وبَنَى في الجانِب الشرقي مَدائن في إحْداها صورة صَنَم قائِم وله إحْليل ، إذا أتاه المَعْقُود والمَسْحُور ومن لا يَنْتَشِر ذَكَرُه فمَسَحَه[a] بكِلْتا يَدَيْه ، انتشر ذَكَرُه وقَوِيَ على البَاه . وفي إحْداها بَقَرة لها ضَرْعان كبيران ، إذا انْعَقَدَ لَبَنُ امْرَأة أتَتْها ومَسَحَتْها بيَدَيْها ، فإنَّه يُدِرّ لَبَنَها [1] .

وجَمَعَ التَّماسيح بطِلَّسْم عمله بناحية أَسْيُوط ، فكانت تَنْصَبُّ من النِّيل إلى إخْميم انْصِبابًا ، فيَقْتُلها ويستعملها جُلودًا في السُّفُن وغيرها [2] .

وعَمِلَ مَنْقاوُس الملك بيتًا تدور به تَماثيل لجَميع العِلَل ، وكَتَب على رأْس كلِّ تِمْثال يَصْلُح [له][b] من العِلاج ، فانْتَفَعَ الناسُ بها زمانًا إلى أن أَفْسَدَها بعضُ الملوك .

وعَمِلَ صُورَةَ امْرَأةٍ مُتَبَسِّمة ، لا يراها مَهْمُومٌ إلَّا زالَ هَمُّه ونَسِيَه ، فكان الناسُ يتناوَبونها ويَطوفُون حَوْلَها ، ثم عَبَدُوها من جُمْلَة ما عَبَدوه بعد ذلك .

وعَمِلَ تِمثالًا من صُفْرٍ مُذَهَّب بجناحَيْن ، لا يمرُّ به زانٍ ولا زَانِيَة إلَّا كَشَفَ عَوْرَتَه بيده . وكان الناس يَمْتَحِنون به الزُّناة ، فامْتَنَعُوا من الزِّنا فَرَقًا منه . فلمَّا مَلَكَ كَلْكَن عَشِقَت حَظِيَّةٌ عنده رَجُلًا مِن خَدَمِه ، وخافَت أن تُمْتَحَن بذلك الصَّنَم ، فَأَخَذت في ذِكْر الزَّواني مع الملك وأكثرت من سَبِّهن وذَمِّهن ، فذَكَر كَلْكَن ذلك الصَّنَم وما فيه من المنافِع ؛ فقالت : صَدَق الملك ، غير أنَّ مَنْقاوش لم يُصِب في أمْره ؛ لأنَّه أتْعَبَ نَفْسه وحُكماءَه فيما جَعَله لإصْلاح العامَّة دون نفسه ، وكان حُكْمُ هذا أن يُنْصَب في دار الملك حيث يكون نِساؤه وجَواريه ، فإن اقْتَرَفَت إحْداهُنَّ ذَنْبًا عَلِمَ بها فيكون رادِعًا لهنّ متى عَرَض بقُلوبهن شيءٌ من الشَّهْوَة . فقال كَلْكَن : صَدَقْت ، وظَنَّ أنَّ هذا منها نُصْح ، فأَمَر بنَزْع الصَّنَم من مَوْضِعه ونَقْلِه إلى داره فبَطُل عَمَلُه ، وعَمِلَت المرْأة ما كانت هَمَّت به .

وبَنَى هَيْكَلًا على جَبَل القُصَيْر للسَّحَرَة ، فكانوا لا يُطْلِقون الرِّياح للمراكب المُقْلِعَة إلَّا/ بضَرِيبَة يأْخُذونها منهم للمَلِك [3] .

---

a) في النويري : فمسه .   b) زيادة من النويري .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٦١-٦٢ وقارن المسعودي : أخبار الزمان ١٦٦-١٦٧ .

[2] نفسه ١٥ : ٦٣ ؛ نفسه ١٦٧ .

[3] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٦٥-٦٦ (عن ابن =

وبَنَى مَناوش بن مَنْقاوش في صَحْراء الغَرْب مَدينَةً بالقُرْبِ من مَدينَة السَّحَرة تُعْرَف بقِمَنْطَر[a] ذات عَجائِب، وجعل بوَسَطِها قُبَّة عليها كالسَّحابة تُمْطر شِتاءً وصَيْفًا مطرًا خَفيفًا، وتحت القُبَّة مَطْهَرَةٌ فيها ماءٌ أخضر يُتَداوَى[b] به من كلِّ داءٍ فيُبْرِئه، وعَمِلَ في شرقيها بَرْبا لطيفًا له أربعة أبواب، لكلِّ بابٍ عِضادتان، في كلِّ عِضادة صورة وَجْه يُخاطب كلُّ واحِد منهما صاحِبَه بما يَحْدُث في يومه. فمن دَخَلَ البِرْبا على غير طَهَارة نَفَخا في وَجْهه فأصابَه رَعْدَةٌ فظيعةٌ لا تُفارِقه حتى يَمُوت.

وكانوا يقولون: إنَّ في وَسَطِه مَهْبَط النُّور في صورة العَمُود، من اعْتَنَقَه لم يَحْتَجِب عن نَظَره عن شيءٌ من الرُّوحانية، وسَمِعَ كلامهم، ورأى ما يَعْمَلون.

وعلى كلِّ بابٍ من أَبْواب هذه المَدينَة صُورَةُ راهِب في يَده مُصْحَف فيه عِلْم من العُلُوم، فمن أحَبَّ مَعْرِفَة ذلك العِلْم، أتَى تلك الصُّورَة فمَسَحَها بيديه وأَمَرَّهُما على صَدْرِه، فيَثْبُت ذلك العِلْم في صَدْره. ويُقال: إنَّ هاتين المَدينتين بُنِيَتا على اسْم هِرْمِس وهو عُطارِد، وأنَّهما بحالِهما.

وحُكِيَ عن رَجُلٍ أنَّه أتَى عبد العَزيز بن مَرْوان، وهو أميرُ مصر، فعَرَّفَه أنَّه تاه في صَحْراء الشَّرْق[c]، فوَقَع على مَدينَة خَراب فيها شَجَرة تحمل كلَّ صِنْف من الفاكِهَة، وأنَّه أَكَلَ منها وتَزَوَّد؛ فقال له رَجُلٌ من القِبْط: هذه إحدى مَدينَتَي هِرْمِس، وفيها كنوزٌ كثيرة؛ فوَجَّه عبدُ العَزيز معه جَماعَةً معهم ماءٌ وزادٌ، فأقامُوا يَطُوفُون تلك الصَّحاري شهرًا فلم يَقِفُوا لها على أَثَر[1].

وعَمِلَت أمُّ بلاطس[d] الملك بِرْكَةً عظيمةً في صَحراء الغربِ، وجَعَلَت في وَسطِها عمودًا طوله ثلاثون ذِراعًا، وفي أعلاه قَصْعَة من حجارة يفور منها الماء فلا يَنْقُص أبدًا. وجَعَلَت حول البِرْكَة أصْنامًا من حجارة مُلَوَّنَة على صُور الحَيَوانات من الوَحْش والطَّير والبهائِم، فكان كل جِنْسٍ يأتي إلى صورته ويألَفها، فيُؤْخَذ باليَد وينتفع به.

وعَمِلَت لابنها مُتَنَزَّهًا لأنَّه كان يحب الصَّيْد، فجَعَلَت فيه مَجالِس مُرَكَّبَة على أساطين من مَرْمَر مُصَفَّح بالذَّهَب مُرَصَّع بالجَوْهَر والزُّجاج الملوَّن، وزَخْرَفَته بالتَّصاوير العجيبة والنُّقوش،

---

a) بولاق: بقنطرة. b) الأصل وبولاق: يداوي والتصويب من النويري. c) عند المسعودي: الغرب. d) الأصل وبولاق: ميلاطس.

= وصيف شاه) وقارن المسعودي: أخبار الزمان ١٦٩ - ١٧١. وقارن المسعودي: أخبار الزمان ١٧٥ - ١٧٦.

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧٠ (عن ابن وصيف شاه)

فكان الماءُ يَطْلَع من فَوَّارات ، ويَنْصَب إلى أَنْهار قد صُفِّحَت بالفِضَّة ، تجري إلى حَدائق فيها بَديع الفُروشات ، وقد أُقيمِ حَوْلَها تَماثيلُ تُصَفِّر بأنواع اللُّغات . وأَرْخَت على المجْلِس سُتورًا من دِيباج ، واخْتارَت لابنها مِن حِسان بنات عَمِّه وبنات المُلوك وأَزْوَجَته ، وحَوَّلَته إلى هذه الجَنَّة ، وبَنَت حول الجَنَّة مَجالِس للوُزراء والكَهَنَة وأَشْراف أَهْل الصِّناعات ، فكانوا يَرْفَعون إليه جميع ما يَعْمَلونه ، فإذا فَرَغُوا من أعْمالِهم ، حُمِلَ إليهم الطَّعامُ والشَّرابُ [1] .

وكان بَلاطس[a] تَقَلَّد المُلْك بعد أبيه مَرْقُورة وهو صَبِيّ ، وكانت أُمُّه مُدَبِّرة المُلْك وهي حازِمَة مُجَرِّبة فأَجْرَت الأمورَ على ما كانت عليه في حَياة أبيه ، وأَحْسَنَت وعَدَلَت في الرَّعِيَّة ، ووَضَعَت عنهم بعض الخَراج [2] .

وكانت أيامُه سعيدة كلّها في الخِصْب الكثير والسَّعة للناس والعَدْل . وكان له يومٌ يَخْرُج فيه إلى الصَّيْد ، ويرجع إلى جَنَّته فيأمُر لكلٍّ من معه بالجَوائِز والأَطْعِمَة ، ويجلس للنَّظَر يومًا في مَصالِح الناس وقَضَاء حَوائِجهم ، ويَخْلو يومًا بِنِسائِه [3] .

وكان مُلْكُه ثلاث عشرة سنة وجُدِر فمات .

وعمل قرسون بن فليمون بن أَتْريب مَنارًا على بَحْر القُلْزُم ، وعلى رأسه مِرْآة [من أخلاط][b] تَجْتَذِب بها المراكِب إلى شاطئ البحر ، فلا يُمْكِنها أن تَبْرَح إلَّا أن تُعَشِّر ، فإذا عُشِّرَت سُتِرَت المرآة حتى تجوز المراكِب .

وأَقَامَ قرسون مائتي سنة وستين سنة ، وعَمِلَ لنفسه ناووسًا خَلْف الجَبَل الأَسْوَد الشَّرقي ، في وَسَطِه قُبَّة حولها اثنا عشر بيتًا ، في كلِّ بَيْت أعجوبة لا تُشْبه الأخرى ، وزَبَرَ عليها اسْمَه ومُدَّه مُلْكه [4] .

وكان مَرْقُونس الملك حَكيمًا مُحِبًّا للنُّجوم والعُلوم والحِكْمَة ، فعَمِلَ في أيَّامه دِرْهَمًا إذا ابْتاعَ به صاحبُه شيئًا اشْتَرط أن يُوزَن[c] له ما يَبْتاعه منه بوَزْن الدِّرْهَم ولا يَطْلُب عليه زيادة ، فيغترّ البائعُ بذلك ، ويَقْبَل الشَّرْط ، فإذا تَمَّ ذلك بينهما وَقَعَ في وَزْن الدِّرهم أرطالٌ كثيرة تُساوي عشرة

---

a) الأصل وبولاق : ميلاطس . b) إضافة من النويري . c) في النسخ : يزن .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ :٧٤- ٧٥.

[2] نفسه ١٥: ٧٤.

[3] نفسه ١٥: ٧٥.

[4] نفسه ١٥: ٨٠.

أضْعافِه. وكان إذا أحَبَّ أن يدخُل في وزنه أضعاف تلك الأرطال دَخَلَ. وقد وُجِدَ هذا الدِّرْهَم في كُنوزهم ثم في خَزائِن بني أُمَيَّة، وكان الناسُ يَتعجَّبون منه.

ووَجَدُوا دَراهم أُخر قيل: إنَّها عُمِلَت في وَقْته أيضًا، فيكون الدِّرْهَم منها في ميزان الرَّجل، فإذا أراد أن يَبْتاع حاجَةً أَخَذَ ذلك الدِّرْهَم وقَبَّلَه وقال: اذْكُر العَهْد، وابْتاع به ما أراد. فإذا أخَذَ السِّلْعَة ومَضَى إلى بيته، وَجَدَ الدِّرْهَمَ قد سَبَقَه إلى منزله، ويجد البائِعُ مَوْضِع ذلك الدرهم وَرَقَة آس أو قِرْطاسًا أو مثل ذلك بدور الدِّرْهَم.

وفي وَقْته عُمِلَت الآنيةُ الزُّجاج التي تُوزن، فإذا مُلِئَت ماءً أو غيره ثم وُزِنَت لم تزد وَزْنَها الأوَّل شيئًا. وعُمِلَ في وَقْته الآنية التي إذا جُعِل الماءُ فيها صارَ خَمْرًا في لَوْنه ورائِحَته وفِعْلِه.

وقد وُجِدَ من هذه الآنية بإطْفيح في إمارة هارون بن خُمارَوَيْه بن أحمد بن طُولون، شَرْبَة جَزْع بعُرْوَةٍ زرقاء ببياض. وكان الذي وَجَدَها أبو الحسن الصَّائِغ الخُراساني هو ونَفَرٌ معه، فأكَلُوا على شاطئ النِّيل وشَرِبوا بها الماءَ فَوَجَدوه خَمْرًا سَكِروا منه، وقاموا ليَرْقُصوا فوَقَعت الشَّرْبَة فانْكَسَرَت عِدَّة قِطع، فاغْتَمّ الرجلُ وجاءَ بها إلى هارون فأَسِفَ عليها وقال: لو كانت صَحيحَةً لاشْتَرَيتها/ ببعض مُلْكي [1].

وأمَّا الآنِيةُ النُّحاسية التي تَجْعَل الماء خَمْرًا، فإنَّها منسوبةٌ إلى قُلوبَطْرة بنت بَطْلَمْيُوس مَلَكَة الإسْكَنْدَرية، فكثيرة.

وفي وَقْته عُمِلَت الصُّور الحَيْتَمِيَّة من الضَّفادِع والخَنافِس والذُّباب والعَقارِب وسائِر الحَشَرات، وكانت إذا جُعِلَت في مَوْضِع اجتمَع إليها ذلك الجِنْس، ولا يَقْدِر على مُفارقَة تلك الصُّورَة حتى يُقْتَل [2]؛ وكأنَّه يعمل أعماله كلّها بصُور دَرَج الفَلَك وأسْمائها وطَوالعها، فيتم له من ذلك ما يُريده.

وعَمِلَ في صَحْراء الغرب مَلْعَبًا من زُجاج مُلوَّن في وَسَطِه قُبَّة من زُجاج أَخْضَر صافي اللَّوْن، فإذا طَلَعَت عليها الشَّمْسُ ألْقَت شُعاعَها على مَواضِع بعيدة، وعَمِلَ في جَوانِبه الأربعة أربعة مَجالِس عالية من زُجاج، كلُّ مَجْلِسٍ لَوْن، ونَقَشَ عليها بغير لوْنها طِلَّسْمات عَجيبة، ونُقوشات غريبة وصُورًا بديعَة، كلّ ذلك من زُجاج مُطْلق يَشِفّ. وكان يقيم في هذا الملعب الأيام، وعَمِلَ

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٨٢ – ٨٣.

[2] نفسه ١٥: ٨٣.

له ثلاثة أعْياد في كلِّ سنة ، فكان الناسُ يَحُجُّون إليه في كلِّ عيد ، ويَذْبَحون له ويُقيمون فيه سبعة أيام . ولم يزل هذا الملعبُ تَقْصِده الأُمَمُ ، فإنَّه لم يكُن له نَظير ، ولا عُمِلَ في العالَم مثله ، إلى أن هَدَمَه بعضُ الملوك لعَجْزه عن عَمَل مثله [1] .

وكانت أمُّ مَرْقُونَس ابنة ملك النُّوبَة ، وكان أبوها يعبُد الكَوْكَب الذي يُقالُ له السُّها ، ويسمِّيه إلـهًا ، سألت ابنها أن يَعْمل لها هَيْكَلًا يُفْردها به ، فعَمِله وصَفَّحه بالذَّهَب والفِضَّة ، وأقام فيه صَنمًا ، وأرْخَى عليه السُّتور الحَرير ، فكانت تَدْخُل إليه بجَواريها وحَشَمِها ، وتَسْجُد له في كلِّ يوم ثلاث مَرّات ، وعَمِلَت لكُلِّ شَهْر عيدًا تُقَرِّب له قرابين وتُبَخِّره لَيْله ونَهاره ، ونَصَبت له كاهِنًا من النُّوبَة يقُوم به ويُقَرِّب له ويُبَخِّره ، ولم تَزَل بابْنِها حتى سَجَدَ له ودَعَا الناس[a] إلى عِبادَته .

فلمَّا رأى الكاهِنُ الأَمْرَ في عِبادَة الكَواكِب قد تَمَّ وأُحْكِمَ من جهة المَلِك ، أَحَبَّ أن يكون لكَوْكَب السُّها مِثالٌ في الأرض على صُورةِ حَيوان يُتَعَبَّد له ، فأقامَ يعمل الحيلَة في ذلك ، إلى أن اتَّفَق أنَّ العُقْبان كَثُرَت بمصر وأَضَرَّت بالناس ، فأَحْضَر الملك هذا الكاهِن وسأله عن سَبَب كَثْرَتها ، فقال : إنَّ إلـهَك أرْسَلَها لتعمل لها نظيرًا ليُسْجَد له . فقال مَرْقُونس : إن كان يُرْضيه ذلك فأنَا فاعلُه . فقال : إنَّ ذلك رِضاه . فأَمَرَ بعَمَل عُقاب طُوله ذِراعان في عَرْض ذِراع من ذَهَب مَشبُوك ، وعَمل عَينَيْه من ياقُوتتين ، وعَمِل له وشَاحَيْن من لُؤْلؤ مَنْظوم على أنابيبِ جَوْهر أَخْضَر ، وفي مِنْقاره دُرَّة مُعَلَّقة ، وسَرْوَلَه بالدُّر الأحمر ، وأقامَه على قاعِدَة من فِضَّة منقوشة ، قد رُكِّبَت على قائِمَة زُجاج أزْرَق ، وجَعَله في أَزَج عن يمين الهَيْكل ، وأَلْقَى عليه سُتورَ الحَرير ، وجَعَل له دُخْنَة من جميع الأفاويه والصُّمُوغ ، وقَرَّب له عِجْلًا أسْوَد وبَكارَة الفَراريج وباكورة الفَواكِه والرَّياحين . فلمَّا تَمَّت له سبعة أيام دَعاهم إلى السُّجود إليه فأجابَه الناس ؛ ولم يزَل الكاهِنُ يُجْهِد نفسه في عِبادَة العُقاب وعَمِل له عيدًا . فلمَّا تَمَّ لذلك أربعون يومًا نَطَق الشَّيْطانُ من جَوْفِه ، وكان أوَّلُ ما دعاهم إليه أن يبحر له في أنصاف الشهور بالمَنْدَل ، ويُرَشّ الهَيْكَل بالخَمْر العَتِيقة التي تُؤْخَذ من رُءوس الخَوابي ، وعَرَّفهم أنَّه قد أزال عنهم العُقْبان وضَرَرَها ، وكذلك يَفْعَل في غيرها ممَّا

a) ساقطة من بولاق .

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥:٨٣- ٨٤.

يَخافُون . فسُرَّ الكاهِنُ بذلك وتَوَجَّه إلى أمِّ الملك يُعَرِّفُها ذلك ، فسارَت إلى الهَيْكل وسَمِعَت كلامَ العُقاب ، فسَرَّها ذلك وأعْظَمته . وبَلَغَ الملك فرَكِبَ إلى الهَيْكَل حتى خَاطَبَه وأَمَرَه ونَهَاه . فسَجَدَ له ، وأقامَ له سَدَنَة ، وأَمَرَ أن يُزَيَّن بأصْناف الزِّينَة . وكان مرْقُونس يقوم بهذا الهَيْكَل ، ويَسْجُد لتلك الصُّورَة ، ويسألُها عمَّا يُريد فتُخْبره .

وعَمِلَ من الكِيمْياء ما لم يَعْمَله أَحَدٌ من الملوك ، فيقال : إنَّه دَفَن في صَحْراء الغَرْب خمس مائة دَفين . ويُقالُ : إنَّه عَمِلَ على باب مَدينَة صَا عمودًا عليه صَنَم في صُورةِ امْرَأة جالِسَة وفي يدَها مِرْآة تنظرُ إليها ، وكان العَليلُ يأتي إلى هذه المِرْآة وينظر فيها أو يَنْظُر له أَحَدٌ فيها فإن كان يَمُوت من عِلَّته تلك رُئي مَيِّتًا ، وإن كان يعيش رآه حَيًّا ، وينظر فيها أيضًا للمُسافِر فإن رأوه مُقْبِلًا بوَجْهه عَلِموا أنَّه راجِع ، وإن رأوه مُوَلِّيًا عَلِموا أنَّه يَتَمادَى في سَفَره ، وإن كان مَريضًا أو مَيِّتًا رأوه كذلك في المِرْآة .

وعَمِلَ بالإسْكَنْدَرية صُورَةَ راهِبٍ جالِسٍ على قاعِدَة ، وعلى رأْسه كالبُرْنُس وفي يده كالعُكَّاز ، فإذا مَرَّ به تاجِرٌ جعل بين يديه شيئًا من المال على قَدْر بِضاعَته ، فإن تجاوَزَه ولو عن بُعْد من غير أن يَضَع بين يديه المالَ لم يَقْدر على الجَواز وثَبَت قائِمًا مكانه ، فكان يجْتَمع من ذلك مالٌ عظيمٌ يُفَرَّق في الزَّمْنَى والضُّعَفاء والفُقَراء .

وعَمِل في زَمَنه كلَّ أُعْجوبة ظَرِيفة ، وأَمَرَ أن يُزْبَر اسْمُه عليها وعلى كلِّ عَلَم وكل طِلَّسْم وكلِّ صَنَم . وعَمِلَ لنفسه ناووسًا في داخِل الأرض ، عند جَبَل يُقال له : سُدام ، وعمل تحته أزَجًا يُقال : إنَّ طولَه مائة ذِراع ، وارْتِفاعه ثلاثون ذِراعًا ، وعَرْضُه عشرون ذِراعًا ، وصَفَّحَه بالمَرْمَر والزُّجاج الملوَّن ، وسَقَّفه بالحِجارَة ، وعَمِلَ فيها دائرَة مَساطِب مُبَلَّطَة بزُجاج على كلِّ مَسْطَبَة أُعْجوبَة ، وفي وَسَط الأزَج دكّة من زُجاج ، على كلِّ رُكْن من أرْكانها صورة تَمْنَع الدُّنُوّ إليها ، وبين كلِّ صُورَتَيْن مَنارَة عليها حَجَرٌ مُضيء ، وفي وَسَط الدَّكَّة حَوْضٌ من ذَهَب فيه جَسَدُه بعد ما ضُمِّد بالأدوية الماسِكَة ، ونَقَلَ إليه ذَخائِرَه من الذَّهَب والجَوْهَر وغيره ، وسَدّ باب الأَزَج/ بالصُّخور والرَّصاص ، وهِيل عليها الرمال .

وكان مُلْكُه ثلاثًا وسبعين سنة ، وعُمْره مائتين وأربعين سنة ، وكان جَميلًا ، ذا وَفْرَة حَسَنَة ، فتنسَّكت نِساؤُه ولَزِمْن الهَيْكَل من بعده[1] .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٤- ٨٦.

وَمَلَكَ بعده ابنه أَنْسَاد[a]، ثم صَا بن أَنْساد[a]، وقيل: صَا بن مَرْقُونس أخو أَنْساد، فعَمِلَ مِرْآةً في مَدينَة مَنْف تَرَى الأَوْقات التي تُخْصِب فيها مصر وتُجْدِب، وبَنَى بداخِل الواحات مَدينةً، ونَصَب قُرْب البَحْر أعْلامًا كثيرة.

وعَمِلَ خَلْفَ المُقَطَّم صَنَمًا يُقال له: صَنَم الحِيلَة، فكان كلُّ من تَعَذَّر عليه أمرٌ يأتيه ويُبَخِّره فيَتَيَسَّر ذلك الأمرُ له. وجَعَلَ بحافَة البَحْر المِلْح مَنارًا يَعْلم منه أَمْر البحر وما يَحْدُث فيه من أَقْصَى ما يَصل إليه البَصَر على مَسيرة أيام، وهو أوَّل من اتَّخَذَها. ويُقالُ: إنه بَنَى أكثر مَدينَة مَنْف، وكلّ بُنْيانٍ عظيم بالإسْكَنْدَرية[1].

ولمَّا مَلَكَ تُدارس بن صَا الأَحْياز كلّها بعد أبيه، وصَفَا له مُلْكُ مصر، بَنَى في غربيّ مَدينَة مَنْف بيتًا عَظيمًا لكَوْكَب الزُّهَرَة، وأقامَ فيه صَنَمًا عظيمًا من لازَوَرْد مُذَهَّب، وتَوَّجه بذَهَبٍ يلوح بُرْقَه، سَوَّره بسوارَيْن من زَبَرْجَد أَخضر. وكان الصَّنَمُ في صورة امْرَأةٍ لها ضَفيرَتان من ذَهَب أَسْوَد مُدَبَّر، وفي رجليها خُلْخالان من حَجَر أحمر شَفَّاف، ونَعْلان من ذَهَب، وبيدها قَضيبُ مَرْجان، وهي تُشير بسَبَّابَتِها كأنَّها مُسَلِّمَة على من في الهَيْكل؛ وجَعَلَ بحِذائها تِمْثال بَقَرةٍ ذات قَرْنَيْن وضَرْعَيْن من نُحاس أحمر مُمَوَّه بذَهَب، مُوشحة بحَجَر اللازَوَرْد، ووَجه البَقَرة تجاه وَجْه الزُّهَرَة، وبينهما مَطْهَرةٌ من أَخْلاط الأَجْسَاد، على عَمود رُخام مَجَزَّع، وفي المَطْهَرَة ماءٌ مُدَبَّر يُسْتَشْفَى به من كلِّ داء، وفَرَشَ الهَيْكَل بحشيشَة الزُّهَرَة يُبَدِّلونها في كلِّ سبعة أيام؛ وجَعَلَ في الهَيْكَلِ كراسي للكَهَنَة قد صُفِّحت بالذَهَب والفضَّة، وقَرَّبَ لهذا الصَّنَم ألف رأس من الضَّأْن والمَعز والوَحْش والطَّيْر، وكان يحضر يوم الزُّهَرَة ويَطوف به. وفَرَشَ الهَيْكَل وسَتَرَه، وجَعَلَ فيه تحت قُبَّته صورة رَجُل راكِب على فَرَس، له جَناحان، ومعه حَرْبَة في سِنانِها رأسُ إنْسان مُعَلَّق. ولم يَزَل هذا الهَيْكَلُ إلى أن هَدَمَه بُخْت نَصَّر في أيام ماليق بن تُدارس[2].

وكان مُوَحِّدًا على دين قُبْطيم ومِصْرايم، خَرَجَ في جَيْشٍ عظيم في البرّ والبَحْر فغَزَا البَرْبَر وأرض إفْريقية وبلاد الأَنْدَلُس وأرض الإفْرَنْج إلى البحر، وعَمِلَ في البحر أعلامًا زَبَرَ عليها اسْمه

---

a) الأصل وبولاق: إيساد.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٨٨.

[2] نفسه ١٥:٩٣- ٩٤، وانظر عن تحطيم بخت نصّر الهياكل والطلسمات المصرية فيما تقدم ٦٨.

ومَسِيره ، ورَجَع فهابَه مُلوكُ الأرض [١].

وكان في غربي مصر مَدينَةٌ يُقال لها : قَرْميدَة بها قومٌ قد مَلَّكوا عليهم امْرَأة ساحِرَة [٢] فغَزَاهم فلم يَنَل منهم قَصْدًا ورَجَع ، فأرادَت مَليكَتُهم إفْساد مصر ، فعَمِلَت من سِحْرها وأَمَرَت فأُلْقِي في النِّيل ، ففاضَ الماءُ على المَزارِع حتى أَفْسَدَها ، وكَثُرَت التَّماسيح والضَّفادِع ، وفَشَت الأمْراضُ في الناس ، وانْبَثَّت فيهم الثَّعابِينُ والعَقارِبُ . فأَحْضَر ماليق الكَهَنَة والحُكَماء في دار حِكْمَتهم ، وأَلْزَمَهُم بالنَّظَر لذلك ؛ فنَظَروا في نُجومهم فرأوا أن هذه الآفَة أَتَتْهم من ناحية الغَرْب ، وأنَّ امْرأةً عَمِلَته وأَلْقَته في النِّيل ، فَعلِموا حينئذٍ أنَّه من فِعْل تلك السَّاحِرَة ، واجْتَهَدوا في دَفْع ذلك بما عندهم من العِلْم حتى انكشف عنهم الماءُ الفاسِد وهَلَكت الدَّوابُّ المضرّة . وجَهَّزوا قائِدًا في جَيْشٍ إلى المَدينَة ، فلم يَجِدوا بها غير رجل واحِد ، فأخَذُوا من الأمْوال والجَواهِر والأصْنام ما لا يُحْصَى ؛ فمن ذلك صُورَة كاهِن من زَبَرْجَد أخضر ، على قائِمَة من حَجَر الأسباذشم [a]، وصورة رُوحَانيّ من ذَهَب رأسُه من جَوْهَر أحمر ، وله جَناحان من دُرّ ، وفي يده مُصْحَف فيه كثيرٌ من عُلومِهم في دَفَّتَيْن مُرَصَّعَتَيْن بجَوْهر ، ومَطْهَرة من ياقوت أَزْرَق على قاعِدَة زُجاج أخضر ، فيها ماءٌ لدفع الأسْقام ، وفَرسٌ من فِضَّة ، إذا عَزَّم عليه بعزائِمه ودَخَّن بدُخْنَته ورَكِبَه أحَدٌ طارَ به .

فأَحْضَرَ ذلك وغيره من عَجائِب السَّحَرَة وأصْنامِهم ، والأمْوال والجَواهِر إلى مصر ، ومعهم الرجلُ ، فسأَله الملك عن أَعْجَب أعْمالِهم ، قال : قَصَدَهم بعضُ مُلوك البَرْبَر بجَمْع كثيف وتخَاييل هائِلة ، فأَغْلَق أهلُ مَدينَتنا حِصْنَهم ولجَأوا إلى الأصْنام ، فأتَى الكاهِنُ إلى بِرْكَة عظيمة بعيدة القَعْر كانوا يَشْرَبون منها فجَلَسَ على حافَتِها ، وأحاطَ رُؤساء الكَهَنَة بها ، وأَخَذ يُزَمْزِم على الماء حتى فارَ ، وخَرَج من وَسَطه نارٌ ، في وَسَطها وَجْه كدارة الشَّمْس لها ضَوْءٌ ، فخَرَّ الجماعَةُ لها سُجودًا ، وتلك الصُّورة تَعْظُم حتى صَعِدَت وخَرَقَت القُبَّة وسُمِعَ منها : «قد كُفِيتُم شَرَّ عَدُوِّكم» . فقاموا وإذا بعَدُوّهم قد هَلَك وسائِر مَنْ معه ، وذلك أنَّ صُورَةَ الشَّمس التي ظَهَرَت من الماء مَرَّت فصاحَت عليهم صَيْحَةً هَلَكوا بها [٣].

---

a) بولاق : الأسياديم .

---

[١] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٩٥- ٩٦.

[٢] عند النويري : يقال لها : سطفا .

[٣] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٩٥- ٩٩، ونص المقريزي مختصر عن نص النويري الذي نقل نص ابن وصيف شاه كاملًا.

ولمَّا ملك كَلْكَن مصر بعد أبيه خِرْبِتًا a)، كان النَّمْرود في وَقْتِه، فاتَّصَل بنَمْرود خَبَرُ حِكْمَتِه وسِحْره فاسْتَزاره، ووَجَّه إليه أن يَلْقاه، وكان النَّمْرودُ يَسْكُن سَوادَ العِراق، وغَلَب على كثيرٍ من الأُمَم. فأَقْبَل كَلْكَن على أربعة أفْراس تحمله، لها أجْنِحَة، قد أحاطت به كالنار، وحوله صُوَرٌ هائِلة، فدَخَلَ بها، وهو مُتوشِّح بثُعْبان، ومُحَزَّم ببعضه، وذلك التِّنِّين فاغِرٌ فاه، ومعه قَضيبُ آسٍ أخضر، كلَّما حَرَّك التِّنِّين رَأْسَه ضَرَبَه بالقَضيب. فلمَّا رأى النَّمْرود ذلك هالَه، واعْتَرَف له بجَليل الحِكَم.

وتقول القِبْطُ: إنَّ كَلْكَن كان يَرْتَفع فيجلس على الهَرَم الغربي في قُبَّة تلوح على رأسه، وكان أهل البَلَد إذا دَهَمهم أمْرٌ اجتمعوا حول الهَرم./ ويقولون: إنَّه رُبَّما قامَ على رأس الهَرَم أيامًا لا يأكل ولا يَشْرَب. ثم إنَّه اسْتَتَر مُدَّةً حتى تَوَهَّموا أنَّه هَلَك، فطَمِعَ الملوك في مصر، وقَصَدَها ملكٌ من المغرب يُقال له: «سادوم» في جَيْشٍ عظيم، إلى أن بَلَغَ وادي هَبيب. فأَقْبَل كَلْكَن وجَلَّلهم من سِحْرة بشيءٍ كالغمام شَديد الحَرارَة، وهم تحته أيَّامًا لا يدْرون أين يتوجَّهون، ثم ارْتَفَعَ وصار بمِصْر يعرِّفهم ما عمل، وأَمَرَهُم فخَرَجوا، فإذا بالقَوْم ودَوابِّهم قد ماتوا، فهابَه جميعُ الكَهَنَة، وصَوَّروه في سائِر الهَياكِل. وبَنَى هَيْكَلًا لزُحَل من صَوَّان أَسْود في ناحية الغرب، وجعل له عيدًا [١].

وفي أيَّام دارم بن الرَّيَّان، وهو الفِرْعَوْن الرابع الذي يُقالُ له عند القِبْط دريموس، ظَهَرَ مَعْدِنُ فِضَّة على ثلاثة أيام من النِّيل، أثاروا b) منه شيئًا عظيمًا. وعَمِلَ صَنَمًا على اسْم القَمَر، لأنَّ طالِعَه كان بُرْج السَّرَطان، ونَصَبه على القصر الرُّخام الذي بناه أبوه في شرقي النِّيلِ، ونَصَبَ حَوْلَه أصْنامًا كلّها من الفِضَّة، وألْبَسَها الحرير الأحمر، وعَمِلَ للصَّنَم عيدًا، كلما دَخَل بُرْج السَّرَطان [٢].

ولمَّا وَلِيَ أكسامس المُلْك بعد أبيه معدان ـ أي c) مَعاديوس ـ بن دارِم ـ أي c) دريموس ـ وهو الفِرْعَوْن السَّادِس أقامَ أعْلامًا كثيرةً حول مَنْف، وجَعَلَ عليها أساطين يُمْشَى من بعضها إلى بعض، وعَمِل برَقُودَة وصَا ومَدائِن الصَّعيد وأسفَل الأرض [مُدُنًا كثيرة و] d) أعْلامًا ومَنائِر للوَقود

a) عند المقريزي: حرما. b) النويري: فأبان. c) في جميع النسخ ابن. d) زيادة من النويري.

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٠٢–١٠٣. [٢] نفسه ١٥: ١٢٧.

وطِلَّسْمات كثيرة ، وعَمِلَ كُرَةً[a] من فِضَّة ، ونَقَشَ عليها صورة الكَواكِب ، ودَهَنَها بالدُّهْن الصِّيني ، وأقامَها على مَنار في وَسَط مَنْف ، وعَمِلَ في هَيْكَل أبيه رُوْحانيّ زُحَل من ذَهَبٍ أَسْود مُدَبَّر . وعَمِلَ في وَقْته ميزانًا يَعْتَبِر به الناسُ ، كَفَّتاه من ذَهَب ، وعَلَّاقته من فِضَّة ، وسَلاسِلُه من ذَهَب ، فكان مُعَلَّقًا في هَيْكَل الشَّمْس ، وكُتِبَ على إحدى كَفَّتَيْه «حَقّ» ، والأخرى «باطِل» ، وتحته فُصوصٌ قد نُقِشَ عليها أسماءُ الكَواكِب ، فيَدْخُل الظَّالِم والمَظْلوم يأخذ كلٌّ منهما فَصًّا من تلك الفُصوص ، ويُسَمِّي عليه ما يُريده ، ويجعل أَحَد الفَصَّيْن في كَفَّة ، والآخر في كَفَّة ، فَتَثْقُل كَفَّة الظَّالِم ، وتَرْتَفع كَفَّة المَظْلوم ؛ ومن أرادَ سَفَرًا أَخَذ فَصَّيْن ، وذَكَر على أَحدهما اسم السَّفَر ، وعلى الآخَر الإقامَة ، وجَعَلَ كلَّ واحِدٍ في كَفَّة ، فإن ثَقُلا جميعًا ولم يرتفع أَحَدُهما على الآخر لم يُسافِر ، وإن ارْتَفَعا سافَر ، وإن ارْتَفَعَ أَحَدُهما أَخَّر السَّفَر ثم سافَر . وكذا مَنْ عليه دَيْنٌ ، ومَنْ له غائِب ، أو ينظُر في صَلاح أَمْره وفَسادِه .

ويُقالُ : إنَّ بُخْتَ نَصَّر لمَّا دَخَلَ إلى مصر حَمَلَ هذا الميزان معه فيما حَمَل إلى بابِل ، وجَعَلَه في بَيْتٍ من بُيوت النار .

وعُمِلَ في أيامه أيضًا تَنُّورٌ ، يُشْوَى فيه من غير نار ، وقِدْرٌ[b] يُطْبَخ فيه بغير نار ، وسِكِّينٌ تُنْصَب فإذا رآها شيءٌ من البَهائم أَقْبَل حتى يَذْبَح نفسه بها ، وعَمِلَ ماءً يستحيل نارًا ، وزُجاجًا يستحيل هواءً ، وأشياء من النَّيرنْجيات والنَّواميس[1] .

وأمَّا «البَرابي»[2] فذَكَرَ ابنُ وَصِيف شَاه أنَّ سُوريد الذي بَنَى الأَهْرامَ هو الذي بَنَى البَرابي كلَّها ، وعَمِلَ فيها الكُنوز ، وزَبَرَ عليها عُلومًا ، ووَكَّل بها رُوحانِيَّة تَحْفَظُها ممَّن يَقْصِدُها .

وقال في كِتاب «الفِهْرِست» : وبمصر أَبْنِيةٌ يُقالُ لها : البَرابي من الحِجارَة العظيمة الكِبَر[c] ، وهي على أَشْكالٍ مُخْتَلِفَة ، وفيها مَواضِع للصَّحْن والسَّحْق والحَلّ والعَقْد والتَّقْطير تدلُّ على أنَّها عُمِلَت لصِناعَة الكيمْياء ، وفي هذه الأَبْنية نُقُوشٌ[d] وكتاباتٌ لا يُدْرَى ما هي ، وقد أُصيبَت [خزائن][e] تحت الأَرض فيها هذه العُلوم مكتوبةً في التوز ، وهي صَفائِح الذَّهَب والنُّحاس ، وفي الحِجارَة[3] .

---

a) بولاق : كورة . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : الكبيرة وابن النديم : المفرطة في الكبر . d) بعد ذلك عند ابن النديم : بالكلدانية والقبطية . e) إضافة من ابن النديم .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٣٢–١٣٣. *Barba* I, p. 1070.

[2] انظر عن البرابي ومفردها بربا Wiet, G., *EI*^{2} art.

[3] ابن النديم : الفهرست ٤١٨.

وذَكَرَ الحَسَنُ بن أَحْمَد الهَمْدانيُّ أنَّ بَرابيَ مصر تُنْسَب إلى بَراب بن الدَّرْمَشيل[a] بن محويل[b] ابن خُنُوخ بن قاين[c] بن آدَم عليه السَّلام [1].

وذَكَرَ أبو الرَّيْحان محمد بن أحمد البِيْرُوني في كِتَاب «الآثار الباقية عن القُرُون الخالِيَة» أنَّ كَنيسَةً في بعض قُرَى مصر قد شاهَدَها المَوْثوقُ بقَوْلهم المَأْخوذُ برأْيهم، المَأْمُونُ من جِهتهم التمويهُ عليهم[d]، فيها سِرْدابٌ يُنْزَل إليه بنيِّف وعشرين مَرْقاة، وفيه سَريرٌ تحته رَجُلٌ وصَبيٌّ مَشْدودين في نَطْع، وفوقه ثَوْر رُخام في جَوْفه باطية زُجاج[e]، بداخلها قِنِّينة من نُحاس، في جَوْفها فَتيلَة كَتَّان، تُوقَد فيُصَبّ فيها زَيْت، فلا يَلْبث إلّا أن تمتلئ الباطية الزُّجاج زَيْتًا، وتَفيض إلى الثَّوْر الرُّخام، فيُنفق على تلك الكَنيسَة وقَنادِيلها.

وذَكَر الجيهَاني[f] أنَّه صارَ إليه من وَثِقَ به، ورَفعَ الباطية عن الثَّوْر، وأَفْرَغ الزَّيْت من الباطية والثور جميعًا، وأَطْفَأ النار، وأعادَها جميعًا إلّا الزَّيْت، فإنه صَبَّ زَيْتًا من عنده، وأَبْدَلَه فَتيلَةً أخرى وأَشْعَلَها، فما لَبِث الزَّيْتُ أن فاضَ إلى الباطية الزُّجاج، ثم فاضَ إلى الثَّوْر الرُّخام من غَيْر مَدَد ولا عُنْصُر.

وذَكَر الجيهَاني[f] أنَّه إذا أُخْرِج الميِّت من تحت السَّرير، انْطَفأَت النارُ ولم يَفِض الزَّيْتُ [2].

وذَكَرَ عن أهل القَرْيَة أنَّ المرأةَ المُتَوَهِّمَة في نفسها حَمْلًا، تحمل ذلك الصَّبي وتَضَعه في حِجْرها، فيتحرَّك وَلَدُها في البَطْن إن كان الحَمْلُ حَقيقَةً، أو تيْأَس إن لم تَحِسّ بحَرَكَة.

قال مُؤَلِّفُه وجامعه[g] ـ أَخْبَرَني داوُدُ بن رِزْق الله بن عبد الله ـ وكانت له سِياحاتٌ كثيرة بأَراضي مصر ومَعْرِفة أحْوالها [3] ـ أنَّه عَبَرَ في مَغارَة كبيرة يُقالُ لها: مغارَة شَقَلْقيل بالوَجْه القِبْلي، فإذا فيها كَوْمٌ عظيم من سَنْدَروس، وأنَّه تَخَطَّاه ومَضَى، فإذا شيءٌ كثير إلى الغاية من السَّمَك

a) في الإكليل: الدرمشيك. b) الأصل: فحويل وبولاق: نحويل. c) بولاق: قار. والأصل: فاين. d) بولاق: الرواية عنهم. e) الأصل: زجاج. f) بولاق: الجهاني. g) بولاق: المؤلف.

[1] الهمداني: الإكليل ١: ٤١.

[2] لم أجد هذا النص في كتاب «الآثار الباقية» للبيروني، ولكن نجد نفس النص عند ابن رُسْتَة في الأعلاق النفيسة ٨١- ٨٢، والجيهاني هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني، أحد وزراء السامانيين، ألَّف كتابا في صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأمم ومساكنهم... (المسعودي: التنبيه والإشراف ٧٥، وكذلك كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢٣٦-٢٤٢).

[3] انظر أيضًا فيما يلي ١١١.

وجميعها مَلْفوفَة بثياب كأنَّها قد كُفِّنَت بعد المَوْت. وأنَّه أَخَذَ منها سَمَكَة وفَتَّشَها/ فإذا في فَمِها دينارٌ عليه كِتابَة لا يُحْسن قِراءَتها، وأنَّه صارَ يأْخُذها سَمَكَةً سَمَكَةً ويُخْرِج من فَمِ كلّ واحدة دينارًا، حتى اجْتَمَع له من ذلك عِدَّة دَنانير، وأنَّه أَخَذَ تلك الدَّنانير ورَجَعَ ليخرج حتى جاء إلى الكَوْم السُّنْدُروس وإذا به ارتفع حتى سَدَّ عليه المَوْضِع. فعادَ إلى السَّمك وأعادَ الدنانير إلى مواضِعها وخَرَج، فإذا السُّنْدُروس كما كان أوَّلًا بحيث يَتَجاوَزه ويَخْرُج. فعادَ وأَخَذ الدَّنانير ومَشَى يخرج بها، فإذا السُّنْدُروس قد ارْتَفَع حتى سَدَّ عليه المَوْضع. فعادَ إلى السَّمَك وأعادَ الدَّنانير إلى مَوْضِعها وخَرَج، فإذا السُّنْدُروس على حالِه كما كان أوَّلًا بحيث يتجاوَزه ويَخْرُج. وأنَّه كَرَّرَ أَخْذ الدَّنانير وإعادَتها مِرارًا، والحالُ على ما ذَكَر، حتى خَشِي الهَلاك فتَرَكَها وخَرَجَ.

فلمَّا كان مُدَّةُ سَكَن مَوْضِعها فرأى حَجَرًا في جِدار وقد قُوِّر، ووُضِع حَجَرٌ آخر، فحاول الحَجَر الآخر حتى رَفَعَه، فإذا تحته ستة دَنانير من تلك الدَّنانير التي وَجَدَها في أفْواه السَّمَك، فأَخَذَ منها واحِدًا وتَرَكَ البَقِيَّة في مَوْضِعها، وأعادَ الحَجَر على الحَجَر.

وقَدَّر الله بعد ذلك أنَّه رَكِبَ النِّيل ليَعَدِّي من البَرّ الشرقي إلى البَرّ الغربي؛ قال: فلمَّا تَوَسَّط البحر، وإذا بالأَسْماك تَثِب من الماء وتُلقِي أَنْفسَها في المَرْكب حتى كِدْنا نَغْرق من كَثْرتها، فصاحَ الرُّكّابُ خوفًا من الهَلاك. قال: فتذكَّرت الدِّينار الذي معي، وأنَّ هذا رُبَّما كان بسَبَبِه، فأَخرَجْته من جَيْبي وأَلْقَيْته في الماء، فتَواثَبَت الأسْماكُ من المَرْكب وأَلْقَت نَفْسَها في الماء حتى لم يَبْق منها شيءٌ.

قلت: وأَخْبَرني قَديمًا بعضُ من لا أَتَّهِمه أنَّه ظفر بطِلَّسْم من هذا المعنى، وأنَّه عنده، وأراد أن يُريني السَّمَك يَثِب من الماء فلم يُقَدَّر لي أن أرَى ذلك.

قال ابنُ عَبْد الحَكَم: لمَّا أَغْرَق الله آلَ فِرْعَون، بَقِيَت مصرُ بعد غَرَقِهم ليس فيها من أشْرافِ أَهْلِها أَحَدٌ، ولم يَبْق بها إلَّا العَبيدُ والأُجَراء والنِّساء. فاتَّفق من بمصر من النِّساء أن يُوَلِّين منهم أحَدًا، وأَجْمَع رأيهن أن يولِّين امْرأة منهنّ يُقالُ لها: دَلُوكَة بنت زَبَّاء، وكان لها عقلٌ ومعرفةٌ وتجاربُ، وكانت في شَرَف منهن ومَوْضِع، وهي يومئذٍ بنت مائة وستين سنة، فمَلَّكوها؛ فخافَت أن يتناوَلَها المُلوك، فجَمَعَت نِساءَ الأَشْراف وقالت لهنّ: إنَّ بلادَنا لم يكن يَطْمَع فيها أَحَدٌ، ولا يمدّ عينَه إليها، وقد هَلَكَ أكابِرُنا وأَشْرافُنا، وذَهَبَ السَّحَرَة الذين كُنَّا نَقْوى بهم. وقد رأيت أن أَبْني حِصْنًا أُحْدِق به جميع بلادِنا، فأَضَعَ عليه المحارِس من كلِّ ناحية، فإنَّا لا نأمَن أن يَطْمَع فينا الناس.

فبَنَت جِدارًا أحاطَت به على جَميع أرْض مصر كلّها : المَزارِع ، والمَدائِن ، والقُرَى . وجَعَلَت دُونَه خَليجًا يَجْري فيه الماءُ ، وأقامَت القَناطِر والتُّرَع . وجَعَلَت فيه مَحارِس ومَسالِح على كلّ ثلاثة أميال مَحْرَس ومَسْلَحَة ، وفيما بين ذلك مَحارِس صغار على كلّ ميل ، وجَعَلَت في كل مَحْرَس رجالًا ، وأَجْرَت عليهم الأرْزاق ، وأَمَرَتْهم أن يَحْرُسوا بالأجْراس ، فإذا أتاهُم آتٍ يَخافُونَه ضَرَبَ بعضُهم إلى بعضِ الأجْراسَ فأتاهُم الخَبَر من أيّ وَجْهٍ كان في ساعَةٍ واحِدَةٍ فنَظَروا في ذلك فمَنَعَت بذلك مصر ممن أرادها . وفَرَغَت من بِنائِه في ستة أشهر . وهو الجِدار الذي يُقالُ له «جِدار العَجُوز» بمصر ، وقد بقيت بالصَّعيد منه بقايا كثيرة [1] .

قال المَسْعُودي : وقيل : إنَّما بَنَتْه خَوْفًا على وَلَدِها ، وكان كثيرَ القَنْص ، فخافَت عليه سِباعَ البَرّ والبحر واغْتيال مَنْ جاوَرَ أرْضَهم من الملوك والبَوادي ، فحَوَّطت الحائِط من التماسيح وغيرها . وقد قيل [في ذلك من الوجوه] [a] غير ما وَصَفْنا ؛ فمَلَكَتْهم ثلاثين سنة في قَوْل [2] .

قال كاتِبُه [b]: قد بقي من حائِط العَجُوز هذا في بلاد الصَّعيد بقايا ، أخبرني الشَّيْخُ المُعَمَّر محمد بن السُّعوديّ أنَّه سارَ في بلاد الصَّعيد على حائِط العَجُوز ومعه رِفْقة ، فاقْتَلَع أحَدُهم منها لَبِنَة ، فإذا هي كبيرة جِدًّا تُخالِف المَعْهُود الآن من اللَّبِن في المقدار . فتناوَلها القَوْمُ واحِدًا بعد واحِد يتأمَّلونها ، وبينما هم في رُؤْيتها إذ سَقَطَت إلى الأرض ، فانْفَلَقَت عن حَبَّة فول في غاية الكِبَر الذي يُتَعَجَّب منه لعَدَم مِثْله في زَمانِنا ، فقَشَّروا ما عليها فوَجَدُوها سالِمَةً من السُّوس والعَيْب ، كأنَّها قَريبَة عَهْد بحَصادِها ، لم يتغيَّر فيها شيءٌ ألبتَّة ؛ فأَكَلَها الجماعة قطعةً قطعةً ، وكأنَّها إنَّما خُبِئَت لهم من الزَّمن القَديم والأَعْصُر الخالية ؛ إنَّه لن تَموت نَفْسُ حتى تَسْتَوْفي رِزْقَها .

قال ابنُ عَبْد الحكَم : وكان ثَمَّ عَجُوزٌ ساحِرَة يُقالُ لها : تَدورة [c]، وكانت السَّحَرةُ تُعَظِّمها وتُقَدِّمها في عِلْمهم وسِحْرِهم ، فبَعَثَتْ إليها دَلُوكَة ابنة زَبّاء : إنَّا قد احْتَجْنا إلى سِحْرك ، وفَزِعْنا إليك ، ولا نَأْمَن أن يَطْمَعَ فينا المُلوك ، فاعْمَلي لنا شيئًا نَغْلِب به من حَوْلَنا ، فقد كان فِرْعَوْنُ يحتاج إليك ، فكيف وقد ذَهَبَ أكابِرُنا - يعني في الغَرَق مع فِرْعَون مُوسَىٰ - وبقي أقَلُّنا .

---

a) إضافة من المسعودي . b) بولاق : المؤلف ، وعلى هامش الأصل : في الأصل كاتبه . c) بولاق : بدور .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١: ٢٦-٢٧ وفيما يلي ٥٤١. [2] المسعودي : مروج الذهب ٢: ٨٧.

فعَمِلَت بِرْبا من حِجارَة في وَسَط مَدينَة مَنْف وَجَعَلت لها أربعة أبواب، كلُّ بابٍ منها إلى جِهَّة القِبلَة والبَحْر والغَرْب والشَّرق، وصَوَّرَت فيه صُوَرَ الخَيْل والبِغال والحَمير والسُّفُن والرِّجال، وقالت لهم: قد عَمِلْت لكم عَمَلًا يَهْلِك به كلُّ من أرادَكم من كلِّ جِهَة تؤتون منها بَرًّا أو بَحْرًا، وهذا ما يُغْنيكم عن الحِصْن، ويَقْطَع عنكم مَؤُنَة من أتاكُم من كلِّ جِهَة، فإنهم إن كانوا في البَرّ على خَيْلٍ أو بِغالٍ أو إبِلٍ أو في سُفُنٍ أو رَجّالَة تحرَّكَت هذه الصُّورَ من جِهَتِهم التي يأتُون/ منها، فما فَعَلْتُم بالصُّوَر من شيءٍ أصابَهم ذلك في أنْفُسِهم على ما تَفْعَلون بهم.

فلمَّا بَلَغَ الملوكَ حَوْلَهم أنَّ أمْرَهم قد صاروا إلى ولاية النِّساء، طَمِعوا فيهم، وتَوَجَّهوا إليهم، فلمَّا دَنَوا من عَمَلِ مصر، تحرَّكَت تلك الصُّوَر التي في البِرْبا، فطَفِقُوا لا يُهَيِّجون تلك الصُّوَر بشيءٍ ولا يَفعَلون بها شيئًا، إلَّا أصابَ ذلك الجَيْش الذي كان أَقْبَلَ إليهم مثله: إن كان خَيْلًا، فما فَعَلوا بتلك الخَيْل المصوَّرَة في البِرْبا من قَطْع رُءُوسها أو سُوْقها أو فَقْء عُيونِها أو بَقْر بُطونها، أُثِرَ مثل ذلك بالخَيْل التي أرادَتهم، وإن كانت سُفُنًا أو رَجّالة فمثل ذلك. وكانوا أَعْلَم الناس بالسِّحْر وأَقْواهُم عليه، وانْتَشَرَ ذلك فتَناذَرَهم[a] الناس.

وكان نِساءُ أهْل مصرَ حين غَرِقَ فِرْعَوْنُ وقَوْمُه، ولم يَبْقَ إلَّا العَبيد والأُجَراء، لم يَصْبِرْن عن الرِّجال، فطَفِقَت المرأةُ تُعْتِق عَبْدَها وتَتَزَوَّجه، وتَتَزَوَّج الأخرى أَجيرَها. وشَرَطْن على الرجال ألَّا يفعلوا شيئًا إلَّا بإذنهن، فأجابوهُنّ في ذلك، فكان أمرُ النِّساء على الرِّجال. قال يَزيدُ بن أبي حَبيب: إنَّ القِبْطَ[b] على ذلك إلى اليوم اتِّباعًا لمن مَضَى منهم، لا يَبيعُ أَحَدٌ منهم ولا يَشْتري إلَّا قال: أَسْتَأْمِرُ امْرَأتي[1]!

فمَلَكَتْهم دَلُوكَة بنت زَبّاء عشرين سنة تُدَبِّر أَمْرَهم بمصر، حتى بَلَغَ صَبِيٌّ من أبناء أكابِرهم وأشْرافِهم، يُقال له دَرْكون بن بَلُوطِس، فمَلَّكوه عليهم.

فلم تَزَل مِصْرُ ممتنعة بتدبير تلك العَجوز نحوًا من أربع مائة سنة، وكلَّما انْهَدَم من ذلك البِرْبا الذي صُوِّر فيه الصُّوَر، لم يَقْدر أَحَدٌ على إصْلاحه إلَّا تلك العَجوز ووَلَدُها ووَلَد ولدها، وكانوا أهْلَ بَيْت لا يَعْرف ذلك غيرهم. فانقطع أهْلُ ذلك البَيْت، وانْهَدَم من البِرْبا مَوْضِعٌ في زَمان

---

a) بولاق: فتبادرهم. b) في الأصل وبولاق: نساء القبط. والمثبت من ابن عبد الحكم.

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٢٨؛ وفيما يلي ١٢٩.

لقاس بن مرنيوس ، فلم يَقْدر أحدٌ على إصْلاحِه ومعرفة عِلْمه ، وبقى على حالِه ، وانْقَطَع ما كان يَقْهَرون به الناس ، وبَقُوا كغيرهم . إلَّا أنَّ الجَمْعَ كثير ، والمال عندهم [١].

فلمَّا قَدِمَ بُخْت نَصَّر بَيْت المَقْدِس ، وظَهَرَ على بني إسْرائيل وسَبَاهُم ، وخَرَجَ بهم إلى أرض بابِل ، قَصَدَ مصر ، وخَرَّبَ مَدائِنها وقُراها ، وسَبَى جَميع أَهْلها ، ولم يَتْرُك بها شيئًا ، حتى بقيت مصر أربعين سنةً خَرابًا ليس فيها ساكِنٌ ، يجري نيلها ويَذْهَب لا يُنْتَفعُ به . ثم رَدَّ أهلَ مصر إليها بعد أربعين سنة ، فعَمَّروها ، ولم تَزَل مَقْهورَةً من يومئذٍ [٢].

وقال بعضُ الحكماء : رأيتُ البَرابي وأَخَذْت أتأمَّلها ، فوَجَدْتها مُشْتَمِلَة[a] على جميع أشْكال الفَلَك . والذي ظَهَرَ لي أنَّه لم يَعْملها حَكيمٌ واحِد ، [b]ولا ملك واحد[b] ، بل تولَّى عَمَلَها قَوْمٌ بعد قَوْم ، حتى تكامَلَت في دَوْرٍ كامِل ، وهو ستة وثلاثون ألف سنة شَمْسيةً ؛ لأنَّ مثل هذه الأعْمال لا تُعْمَل إلَّا بالأرْصاد ، ولا يتكامَل رَصْدُ المجموعِ في أقَلّ من هذه المُدَّة المذكورة .

وكانوا يَجْعَلون الكِتابَ حَفْرًا ونَقْرًا في الصُّخور ، ونَقْشًا في الحجارة ، وحَلْقَة مركَّبة في البُنْيان . ورُبَّما كان الكِتاب هو الحَفْرَ إذا كان مُتَضَمِّنًا لأمْر جسيم ، أو عَهْدًا لأمْر عَظيم ، أو مَوْعِظَةً يُرْتَجَى نَفْعُها ، أو إحياء شَرَف يُريدون تَخْليد ذكره .

وقد كَتَبَ غيرُ المصريين كذلك كما كَتَبُوا على قُبَّة غُمْدان ، وعلى باب القَيْرَوان ، وعلى باب سَمَرْقَنْد ، وعلى عمود مَأْرِب ، وعلى رُكْن المُشْتَقَرّ ، وعلى الأَبْلَق المُفْرَد ، وعلى باب الرُّها . وكانوا يَعْمَدون إلى الأماكِن الشَّريفَة والمواضِع المذكورة ، فيَضَعون الخَطّ في أَبْعَد المَواضِع من الدُّثُور ، وأَمْنَعها من الدُّرُوس ، وأَجْدَر أن يَراها من مَرَّ بها ، ولا يَنْسى على طول الدَّهْر .

وقال المَسْعُوديُّ : واتَّخَذَت دَلُوكة بمصر البَرابي والصُّوَر ، وأَحْكَمَت آلات السِّحْر ، وجَعَلَت في البَرابي صُوَر من يَرِد من كُلّ ناحِيَة ودَوابهم إبِلًا كانت أو خَيْلًا ، وصَوَّرَت فيها من يَرِد من البَحْر في المراكِب من بَحْر الغَرْب والشَّام ، وجَمَعت في هذه البَرابي العظيمة المُشَيَّدَة البُنْيان أَسْرار الطبيعة ، وخَواصّ الأحْجار والنَّباتات والحَيَوانات ، وجَعَلَت ذلك في أوْقات فَلَكِيَّة ، واتِّصالِها بالمؤثِّرات العُلْوِيَّة ؛ فكانوا إذا وَرَدَ إليهم جَيْشٌ من نحو الحِجاز واليَمَن ، غُوِّرَت تلك الصُّوَر التي

a) بولاق : مستحكمة . (b-b) ساقطة من بولاق .

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٧-٢٨. [٢] نفسه ٣١-٣٢ بتصرف .

في البِرْبا من الإبِل وغيرها ، فيتَغَوَّر ما في ذلك الجَيْش ، وينقطع عنهم ناسُه وحيوانُه . وإذا كان الجَيْشُ من نَحْو الشَّام ، فُعِل في تلك الصُّوَر التي من تلك الجِهَة التي أَقْبَل منها جَيْشُ الشَّام ما فُعِلَ بما وَصَفْنا ، فيَحْدُث في ذلك الجَيْش من الآفات في ناسِه وحَيوانِه ما صُنِع في تلك الصُّوَر التي من تلك الجِهَة ؛ وكذلك من وَرَدَ من جُيوش الغَرْب ، ومن وَرَدَ في البَحْر من رُومِيَّة والشَّام ، وغير ذلك من المَمالِك ؛ فهابتهم المُلوكُ والأُمَم ، ومَنَعوا ناحيتهم من عَدُوِّهم ، واتَّصَلَ مُلْكُهم بتدبير هذه العَجُوز وإتْقانِها لزِمّ أَقْطار المملكة وإحْكامِها السِّياسة . وقد تَكَلَّم من سَلَف وخَلَف في هذه الخَواصّ ، وأسرار الطَّبيعة التي كانت ببلاد مصر . وهذا الخَبَرُ من فِعْل العَجُوز مُستفيضٌ [عند المصريين][a] لا يَشُكُّون فيه .

والبَرابي بمصر ، من صَعيدِها وغيره ، باقية إلى هذا الوَقْت ، وفيها أنْواعُ الصُّوَر ممَّا إذا صُوِّرت في بعض الأشياء أَحْدَثَت أفعالاً على حَسَب ما رُسمت له وصُنعت من أَجْله ، على حَسَب قولهم في الطَّبائِع ، والله أَعْلَم بكيفية ذلك[1] .

قال : «وأَخْبَرَني غيرُ واحِد من بلاد إخْميم من صَعيد مصر ، عن أبي الفَيْض ذي النُّون بن إبراهيم المصريّ الإخْميمي الزَّاهِد وكان حَكيمًا ، وكانت له طريقةٌ يأْتيها ونِحْلةٌ يقصدها ، وكان ممَّن يُفَسِّر[b] أخْبار هذه البَرابي ، [وزارها][a] وامْتَحَن كثيرًا ممَّا صُوِّرَ فيها/ ورُسِمَ عليها من الكِتابَة والصُّوَر - قال : رأيتُ في بعض البَرابي كِتابًا تَدَبَّرته ، فإذا هو : «احْذر العبيد المُعْتَقِين ، والأحداث [المغترين][a] والجُنْد المتعبِّدين ، والقِبْط[c] المستعربين» . ورأيتُ في بعضها كِتابًا تَدَبَّرته ، فإذا فيه : «يُقَدِّر المُقَدِّر والقَضَاءُ يَضْحَك» ، وفي آخره كتابةٌ تبيَّنَها[d] في ذلك القَلَم فوَجَدها[e]:

[الوافر]

تُدَبِّر بالنُّجوم ولَسْت تَدْري ورَبُّ النَّجْم يَفْعَل ما يُريد

قال : وكانت هذه الأُمَّةُ ، التي اتَّخَذَت هذه البَرابي ، لَهِجَةً بالنَّظَر في أَحْكام النُّجوم ، من المُواظِبين على مَعْرِفَة أَسْرار الطَّبيعة . وكان عندها ممَّا دلَّت عليه أحكامُ النُّجوم أنَّ طوفانًا سيكون

---

a) زيادة من مروج الذهب . b) الأصل وبولاق : ممن يقر على ، والتصويب من مروج الذهب . c) بولاق : النبط . d) بولاق : تثبتها . e) الأصل وبولاق : العلم فوجدتها .

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٨٧ - ٨٨.

في الأرض ، ولم تقطع على ذلك الطُّوفان ما هو : أنارٌ تأتي على الأرض فتَحْرِق ما عليها ، أو ماءٌ يُغْرِقُها ، أو سَيْفٌ يُبيد أَهْلَها .

فخَافَت [على][a] دُثور العُلوم وفنائها بفَناء أهْلِها ، فاتَّخَذَت هذه البَرابي ، ورَسَمَت فيها عُلومَها من الصُّوَر والتَّماثيل والكِتابَة ، وجَعَلَت بُنْيانَها نوعَيْن : طِينًا ، وحِجارَة ، وفَرَزَت ما بني بالطِّين ممَّا بُني بالحِجارَة ، وقالت : إن كان هذا الطُّوفان نارًا اسْتَحْجَر ما بُنِيَ بالطِّين ، وإن كان الطُّوفانُ الوَارِد ماءً أذهب ما بَنَيْنا بالطِّين ويُبْقى ما بُنيَ بالحِجارَة ، وإن كان الطُّوفانُ سَيْفًا بَقِيَ كلُّ من النَّوْعَيْن ، ممَّا هو من الطِّين ، وما هو من الحَجَر .

وهذا ما قيل والله أعلم إنَّه كان قَبْل الطُّوفان ، وإنَّ الطُّوفانَ الذي كانوا يَرْقُبونه ، ولم يُعَيِّنوه أنارٌ هو أم ماءٌ أم سَيْف ، كان سيفًا أتَى على جميع أهل مصر من أُمَّةٍ غَشِيتها ، ومَلِك نَزَلَ عليها فأبادَ أهْلَها .

ومنهم من رأى أنَّ ذلك الطُّوفان كان وَباءً عَمَّ أهلَها . ومصداقُ ذلك ما يُوجَد ببلاد تِنِّيس من التِّلال المُنَضَّدَة[b] من الناس ، من صغيرٍ وكبيرٍ وذَكَرٍ وأنْثَى ، كالجِبال العِظام ، وهي المعروفة ببلاد تِنِّيس من أرض مصر بذات الكُوم ، وما يُوجَد ببلاد مصر وصَعيدها من الناس المُدَرَّسين[c] بعضُهم على بعضٍ في الكُهُوف والغِيران والنَّواويس ، ومَواضِع كثيرة من الأرض ، لا يُدْرَى من أيِّ الأُمَم هم ، فلا النَّصارَىٰ تُخْبِر عنهم أنَّهم من أسْلافِهم ، ولا اليَهودُ تقول إنَّهم من أوائِلهم ، ولا المُسْلِمون يَدْرون مَنْ هؤلاء ، ولا تاريخٌ يُنبئ عن حالِهم ، وعليهم أثْوابهم ، وكثيرًا ما يُوجَد في تلك الرَّوابي[d] والجِبال من حليتهم .

والبَرابي ببلاد مصر بُنْيانٌ قائمٌ عَجيب كالبِرْبا التي [ببلاد أنْصِنا من صعيد مصر ، والبِرْبا التي][e] بإخْميم ، والتي بسَمَنُّود وغير ذلك[1] .

---

a) زيادة من مروج الذهب . b) بولاق : المتقذرة . c) الأصل وبولاق : المنكسين . d) بولاق : البرابي .
e) زيادة من مروج الذهب .

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٨٨– ٩٠ .

ذكر الدفائن والكنوز التي تسميها أهل مصر المطالب

الأَصْلُ في جَوَاز تَتَبُّع الدَّفائن ما رواهُ أبو عُمر بن عبد البَرّ [a]والبَيْهَقي في «الدَّلائل»[a] من حَديث ابن عَبَّاس، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ لمَّا انْصَرفَ من الطَّائف، مَرَّ بقَبْر أبي رِغال فقال: «هذا قَبْرُ أبي رِغال، وهو أبو ثقيف، كان إذا هَلَكَ قومٌ صاحَ في الحَرَم فَمَنَعَه الله، فلمَّا خَرَجَ من الحَرَم رَماهُ بقارِعَة، وآيَةُ ذلك أنَّه دُفِنَ معه عَمُودٌ من ذَهَب»، فابْتَدَرَ المسلمون قَبْرَه فَنَبَشُوه واسْتَخْرَجوا العَمودَ منه.

ومن حَديث عبد الله بن عُمَر: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول، حين خَرَجْنا معه إلى الطَّائِف فمَرَرْنا بقَبْرٍ، فقال: «هذا قَبْرُ أبي رِغال، وكان بهذا الحَرَم يَدْفَع عنه، فلمَّا خَرَجَ أصابَته النِّقْمَة التي أصابَت قَوْمَه بهذا المكان، فدُفِنَ فيه، وآية ذلك دُفِنَ معه عَصًا من ذَهَب، إن نَبَشْتُم عليه أَصَبتُموه معه»، فابْتَدَرَه الناسُ فأَخْرَجوا العَصَا الذي كان معه[1].

وبمصر كُنوزُ يوسُف عليه السَّلام وكُنوزُ المُلوك من قَبْله والملوكِ من بَعْده؛ لأنَّه كان يَكْنز ما يَفْضُل عن النَّفَقات والمؤَن لنَوَائِب الدَّهْرِ، وهو قَوْل الله عَزَّ وجَلّ: ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ﴾ [الآية ٥٧ سورة الشعراء].

ويُقالُ: إنَّ عِلْمَ الكُنوز في كَنِيسَة القُسْطَنْطينِيَّة نُقِلَت إليها من طُلَيْطِلَة.

ويُقالُ: إنَّ الرُّومَ لمَّا خَرجَت من الشَّام ومصر، اكْتَنَزَت كثيرًا من أموالِها في مَواضِع أَعَدَّتها لذلك، وكَتَبت كُتبًا بإعْلام مَواضِعها، وطُرُق الوصول إليها، وأَوْدَعت هذه الكُتُب قُسْطَنْطينِيَّة، ومنها يُسْتَفاد مَعْرِفَةُ ذلك.

وقيل: إنَّ الرُّومَ لم تَكْتُب، وإنَّما ظَفِرَت بكُتُب مَعالم كُنوز مَن مَلَكَ قَبْلَها من اليونانيين والكِلْدانيين والقِبْط. فلمَّا خَرَجُوا من مصر والشَّام، حَملوا تلك الكُتُب معهم وجعلوها في الكَنِيسَة.

وقيل: إنَّه لا يُعْطَي من ذلك أَحَدٌ حتى يَخْدِم الكَنِيسَة مُدَّة فيدفع إليه وَرَقَة تكون حَظَّه.

(a - a) ساقطة من الأصل.

[1] البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، خَرَّج أحاديثه وعلّق عليه عبد المعطي قلعجي، القاهرة ١٩٨٨، ٦: ٢٩٧.

قال المَسْعُوديُّ[1] : ولمصر أَخْبارٌ عجيبةٌ من الدَّفائِن والبُنْيان ، وما يُوجَد في الدَّفائِن من ذَخائر المُلُوك التي اسْتَوْدَعوها الأرْض ، وغيرهم من الأُمَم مِمَّن سَكَنَ تلك الأرض ، وتُدْعَى بالمَطالِب إلى هذه الغاية . وقد أَتَيْنا على جميع ذلك فيما سَلَفَ من كُتُبنا .

فمن أَخْبارِها ما ذَكَره يحيى بن بُكَيْر قال : كان عبدُ العزيز بن مَرْوان عامِلًا على مصر لأخيه عبد الملكَ بن مَرْوان ، فأتاه رجلٌ مُتَنَصِّح فسأله عن نُصْحه ، فقال : بالقُبَّة الفُلانية كَنْزٌ عظيم . قال عبدُ العزيز : وما مِصْداقُ ذلك ؟ قال : هو أن يَظْهَر لنا بَلاطٌ من المَرْمَر والرُّخام عند يسير من الحَفْر ، ثم ينتهي بنا الحَفْرُ إلى بابٍ من الصُّفْر ، تحته عمودٌ من الذَّهَب ، على أعْلاه ديك عَيْناه ياقُوتتان تُساويان مُلْك الدُّنْيا ، وجَناحاه مُضَرَّجان بالياقوت والزُّمُرُّد ، ورأسُه[a] على صَفائح من الذَّهَب على أعلى ذلك العَمُود . فأَمرَ له عبدُ العَزيز بنَفَقَة لأُجْرَة من يَحْفُر من الرِّجال/ في ذلك ويَعْمَل فيه .

وكان هناك تَلٌّ عظيم ، فاحْتَفَروا حَفيرَةً عظيمةً في الأَرْض ، والدَّلائِل المُقَدَّم ذكرها من الرُّخام والمَرْمَر تَظْهَر . فازْداد عبدُ العزيز حِرْصًا على ذلك ، وأَوْسَع في النَّفَقَة ، وأكثر من الرجَّالة . ثم انْتَهَوْا في حَفْرهم إلى ظُهُور رأس الدِّيك ، فبَرَق عند ظُهوره لَمَعانٌ عظيمٌ لما في عينيه من الياقوت ، ثم بانَ جَناحه ثم بانَت قَوائمُه ، وظَهَرَ حَوْل العَمُود عمودٌ من البُنْيان . بأنواعِ الحجارةِ والرُّخام ، وقَناطِر مُقَنْطرَة وطاقات على أبْواب مَعْقودَة ، ولاحَت منها تماثيلُ وصُوَرُ أشخاص من أنْواع الصُّوَر الذَّهَب ، وأَجْرِنَه من الأَحْجار قد أُطْبِق عليها أَغْطِيتها وشُبِّكَت ، فرَكِبَ عبدُ العزيز ابن مَرْوان حتى أَشْرَفَ على المَوْضِع ، فنَظَرَ إلى ما ظَهَرَ من ذلك ، فأَسْرَع بعضُهم ووَضَع قَدَمه على دَرَجَة من نُحاس ينتهِي إلى ما هناك . فلمَّا استقرَّت قَدَماه على المِرْقاة ، ظَهَرَ سَيْفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالْتَقَيا على الرَّجُل فلم يُدْرِك حتى جَزَّآه قِطَعًا وهَوَى جِسْمُه سَفْلًا . فلمَّا استقرَّ جِسْمُه على بعض الدَّرج ، اهتزَّ العَمُود ، وصَفَّر الدِّيكُ صَفيرًا عَجيبًا أسمع من كان بالبُعْد من هناك ، وحَرَّك جَناحَيْه وظَهَرَت من تحته أصواتٌ عجيبة قد عُمِلَت بالكَواكِب والحَرَكات ، إذا مالَ وَقَع على بعض تلك الدَّرَج شيءٌ أو ماسَّها شيءٌ انْقَلَبت ، فتهاوَى مَنْ هناك

---

a) مروج الذهب : وبراثنه .

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٩٥.

من الرِّجال إلى أسْفَل تلك الحُفْرَة ، وكان فيها ممَّن يَحْفُر ويعمل ويَنْقل التراب وينظُر ويُحَوِّل ويأْمُر ويَنْهى نحو ألف رجل ، فهَلكُوا جميعًا .

فخَرَج عبدُ العزيز وقال : هذا رَدْمٌ عجيبُ الأَمْر ممنوع النَّيْل ، نَعُوذ بالله منه . وأَمَرَ جماعةً من الناس فطَرَحُوا ما أُخْرِج من هناك من التُّراب على من هَلَكَ من الناس ، فكان المَوْضِعُ قَبْرًا لهم[1] .

قال المَسْعُوديُّ[2] : وقد كان جَماعَةٌ من أَهْل الدَّفائن والمَطالِب ، ومن قد اعْتَنى وأُغْري بحَفر الحَفائِر وطَلَب الكُنوز وذَخائر المُلوك والأُمَم السَّالِفَة المُسْتَوْدَعَة بَطْن الأرض ببلاد مصر ، قد وَقَعَ إليهم كِتابٌ ببعض الأَقْلام السَّالِفَة ، فيه وَصْفُ مَوْضِع ببلاد مصر على أَذْرُع يسيرة من بعض الأَهْرام ، بأنَّ فيه مَطْلَبًا عَجيبًا . فأَخْبَروا الإخْشيد محمد بن طُغْج بذلك ، فأمَرَهم بحَفْره ، وأباحَهم اسْتِعْمال الحِيلَة في إخْراجه ؛ فحَفَروا حَفْرًا عَظيمًا إلى أن انْتَهَوْا إلى أَزَجٍ وأَقْباء وحِجارَة مجوَّفة في صخرة ، منقورٌ فيها تماثيل قائِمَة على أَرْجُلها من الخَشَب ، قد طُلي بالأَطْلِيَة المانِعَة من سُرْعَة البَلاء وتَفَرُّق الأجْزاء ، والصُّوَر مختلفة فيها صُوَر شُيوخ وشُبَّان ونِساء وأَطْفال ، أَعْيُنُهم من أَنْواع الجَواهِر كالياقوت والزُّمُرُّد والزَّبَرْجَد والفَيْرُوزَج ، ومنها ما وُجُوهها ذَهَبٌ وفِضَّة ؛ فكَسِرَ بعضُ تلك التَّماثيل فوَجَدوا في أَجْوافها رِمَمًا بالية وأجسامًا فانِيَة ، وإلى جانِب كلِّ تِمْثال منها نوْعٌ من الآنية[a] كالبَراني[b] وغيرها [من الآلات][c] من المَرْمَر والرُّخام ، وفيه نوْعٌ من الطِّلاء الذي قد طُلِيَ منه ذلك الميت الموضوع في التِّمْثال[d] الخَشَب[e] ، والطِّلاءُ دَواءٌ مَسْحوق وأَخْلاطٌ معمولة لا رائِحَة لها ، فجُعِل منه على النار شيءٌ ، ففاحَ منه رَيْحٌ طيبة مختلفة لا تُعْرف في نوعٍ من أنواع الطيب .

وقد جُعِلَ كلُّ تمثال من الخَشَب على صُورَة ما فيه من الناس على اخْتِلاف أَسْنانِهم ومَقادير أعْمارِهم وتَبايُن صُوَرِهم ، وبإزاء كلِّ تِمْثال تِمْثالٌ من الحَجَر المَرْمَر أو من الرُّخام الأَخْضَر ، على هيئة الصَّنَم على حَسَب عِبادَتِهم للتماثيل والصُّوَر عليها أنواعٌ من الكتابات لم يقف على استخراجها أحدٌ من أَهْل المِلَل . وزَعَم قومٌ من أهل الدِّراية أن لذلك القَلَم ، منذ فُقِدَ من أرْض مصر ، أربعة آلاف سنة . وفيما ذَكَرْناه دَلالَة على أنَّ هَؤلاء لَيْسُوا بيهود ولا نَصارىٰ ، ولم يُؤَدِّهم

---

a) بولاق : الأبنية . b) بولاق : البرابي . c) زيادة من مروج الذهب . d) بولاق : التماثيل . e) بعد ذلك في مروج الذهب : وما بقي من الطلاء متروك في ذلك الإناء .

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢: ٩٥- ٩٧. [2] نفسه ٢: ٩٧.

الحَفْرُ إلَّا لما ذكرناه من هذه التَّماثِيل ، وكان ذلك في سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مائة .

وقد كان مَنْ سَلَف وخَلَف من وُلاة مصر ، من أَحْمَد بن طُولون وغيره ، إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة[١] ـ لهم أخبارٌ عجيبةٌ فيما اسْتُخْرِج في أيَّامهم من الدَّفائِن والأَمْوال والجَواهِر ، وما أُصيب في هذه القُبور من المطالِب والخزائن[a]، وقد أتينا على ذِكْرِها فيما تقدَّم من تصنيفنا[٢].

ورَكِبَ أحمد بن طُولون يومًا إلى الأَهْرام ، فأتاه الحُجَّاب بقَوْمٍ عليهم ثياب صُوف ، ومعهم المَساحي والمَعَاوِل ، فسألهم عمَّا يُعانونه[b]، فقالوا : نحن قَوْمٌ نَطْلُب المطالِب . فقال لهم : لا تَخْرُجوا بعدها إلَّا بمَنْشور[c] أو رَجل من قِبَلي . وأخبروه أنَّ في سَمْت الأَهْرام مَطْلَبًا قد عَجَزوا عنه ، فضَمَّ إليهم الرَّافِقي ، وتقدَّم إلى عامِل [قعونة][d] الجيزَة في إعانتهم بالرِّجال والنَّفَقات ، وانْصَرَف . فأقاموا مُدَّةً يَعْمَلون حتى ظَهَر لهم .

فَرَكِبَ أحمد بن طُولون إليهم وهم يَحْفُرون ، فكَشَفُوا عن حَوْضٍ مملوءٍ دَنانير ، وعليه غِطاءٌ مكتوبٌ عليه بالبَرْبَطيَّة ، فأَحْضَرَ مَنْ قَرأَه فإذا فيه :

«أنا فُلان بن فُلان ، الملك الذي مَيَّزَ الذَّهَب من غِشِّه ودَنَسه ، فمن أراد أن يَعْلَم فَضْل مُلْكي على مُلْكه ، فلينْظُر إلى فَضْل عِيار ديناري على عِيار ديناره ، فإنَّ مُخَلِّص الذَّهب من الغش مُخْلِص في حياته وبعد وَفاتِه» .

فقال أحمد بن طُولون : الحَمْدُ لله ، إنَّ ما نَبَّهَتْني عليه هذه الكتابة أَحَبُّ إليَّ من المال .

ثم أَمَرَ لكلٍّ من القَوْم المَطالِبية بمائتيْ دينار منه ، ولكلٍّ من الصُّنَّاع بخمسة دنانير بعد تَوْفية أُجْرَة عمله ، وللرَّافِقي بثلاث مائة دينار ، ولنَسيم الخادِم بألف/ دينار ، وحمل باقي الدنانير فوَجَدَها أَجْود من كلِّ عِيار . وشَدَّد من حينئذٍ في العِيار بمصرٍ حتى صارَ عِيارُ دِيناره ، الذي عُرِفَ بالأَحْمَدي ، أَجْوَد عِيار وكان لا يُطْلَي إلَّا به[٣].

---

a) بولاق : وما أُصيب في هذه المطالب من القبور ، والمثبت من مروج الذهب . b) بولاق : يعملون ، والمثبت من ابن الداية . c) بولاق : بمشورتي . d) زيادة من ابن الداية .

---

[١] هذا التاريخ الذي دوّن فيه المسعودي كتابه وهي النسخة الأولى (التنبيه والإشراف ٩٧) .

[٢] المسعودي : مروج الذهب ٢:٩٧– ٩٨.

[٣] البلوي : سيرة أحمد بن طولون ١٩٤– ١٩٦؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ٩٨–٩٩ (نقلًا عن سيرة ابن طولون لابن الداية) .

ذِكْرُ هَلاكِ أَمْوالِ أَهْلِ مِصْرَ

قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ۝ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [الآيتان ٨٨، ٨٩ سورة يونس] . هذا دُعَاءٌ من مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ على فِرْعَوْن وقَوْمه من أَهْل مصر لكُفْرهم ، أن يُهْلِكَ الله أَمْوالَهُم . قال الزَّجَّاجُ : طَمْسُ الشَّيْء إذْهابُه عن صُورَته .

عن عبد الله بن عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ وعن محمد بن كَعْب القُرَظي ، أنَّهما قالا : صارَت أموالُ أهلِ مصر ودَراهِمهُم حِجارَةً مَنْقُوشَة كهيئتِها ، صِحاحًا وأَثْلاثًا وأَنْصافًا ، فلم يَبْقَ مَعْدِنٌ إلَّا طَمَسَ الله عليه ، فلم يَنْتَفِع به أَحَدٌ بعدهم .

وقال قَتادَة : بَلَغَنا أنَّ أموالَهم وزُروعَهم صارَت حِجارَة .

وقال مُجاهِد وعَطِيَّة : أَهْلَكَها الله تعالى حتى لا تُرَى ، يُقالُ : عين مطموسة أي ذاهِبَة ، وطَمَسَ الموضع إذا عَفَا ودَرَس .

وقال ابنُ زَيْد : صارَت دَنانيرهُم ودَراهِمُهُم وفَرْشُهُم وكلُّ شيءٍ لهم حِجارَة .

وقال مُحمد بن كَعْب : وكان الرجلُ منهم يكون مع أَهْله وفِراشه وقد صارا حَجَرَيْن . قال : وقد سألني عمر بن عبد العزيز ، فذَكَرْتُ ذلك ، فدَعَا بخَريطَة أُصيبت بمصر ، فأَخْرَجَ منها الفَواكِه والدَّراهم والدنانير وإنَّها لحجارة .

وقال مُحَمَّد بن شِهاب الزُّهْريّ : دَخَلْتُ على عُمَر بن عبد العزيز ، فقال : يا غُلام ، ائْتِني بالخَريطَة ؛ فجاءَ بخَريطةٍ نَثَرَ ما فيها ، فإذا فيهم دَراهم ودَنانير وتَمْر وجَوْز وعَدَس وفُول ، فقال : كُل يا ابن شِهاب ؛ فأَهْوَيْت إليه[a] ، فإذا هو حِجارَة ، فقلت : ما هذا يا أَمير المؤمنين؟ قال : هذا مِمَّا أصابَ عبد العزيز بن مَرْوان في مصر إذْ كان عليها والِيًا ، وهو مِمَّا طَمَسَ الله عليه من أَمْوالِهم .

وقال المُضارِبُ بن عبد الله الشَّامي : أخبرني من رأَى النَّخْلَة بمصر مَصْروعَة وإنَّها لحَجَر ولقد رأيت ناسًا كثيرًا قيامًا وقُعودًا في أعمالهم ، لو رأيتهم ما شَكَكْت فيهم قبل أن تَدْنُو منهم أنَّهم أُناس ، وإنَّهم لحِجارَة . ولقد رأيتُ الرجلَ من رَقيقهم وإنَّه لحارِث على ثَوْرَيْن وإنَّه وثَوْرَيْه لحِجارَة .

---

a) ساقطة من بولاق .

ونَقَلَ وَثيمَة بن مُوسَىٰ في «قَصَص الأَنْبياء»[1] أنَّ فِرْعَوْن لمَّا هَلَكَ وقَوْمه، وأَمِنَت بنو إسرائيل غائِلته، نَدَب مُوسَىٰ - عليه السَّلام - من نُقبائِه الاثنى عشر نَقيبَيْن: أَحَدُهما كالِب بن يوقنا[b]، والآخر يوشَع بن نون، مع كلِّ واحِدٍ من سِبْطِه اثنا عشر ألفًا، وأرسلهما إلى مصر وقد خلَت من حامية[c] لغَرَق أهْلِها مع فِرْعَوْن فأخَذُوا ذَخائِر فِرْعَوْن وكُنوزه، وعادوا إلى مُوسَىٰ.

فذَلِكَ تَوْرِيثهم أرْضَ مصر، يَعْني قَوْل الله - عَزَّ وجَلَّ[d] - عن قَوْم فِرْعَوْن: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ • وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء الآيتان ٥٦، ٥٧]، ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[2] [الدخان الآية ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [آل عمران الآية ١٣٧]، يعني أرض مصر، أَوْرَثها[e] بني إسْرائيلُ، لأنَّهم هم المُسْتَضْعَفُون الذين كانوا فيها، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ • وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الآيتان ٤، ٥ سورة القصص].

قال جامِعُه ومؤَلِّفُه: أَخْبَرَني داود بن رِزْق الله[f] بن عبد الله - وكانت له سياحاتٌ كثيرةٌ بأرض مصر[3] - أنَّه عَبَرَ إلى وادٍ بالقُرْب من القَلَمُون بالوَجْه القِبْلي، فرأَى فيه مقات كثيرة، ما بين بِطِّيخ وقِثَّاء وتُفَّاح، وكلُّها حجارة.

وكان قد أخبرني قديمًا بعضُ أعيان الناس[g] أنَّه شاهَدَ، في سَفَره إلى بعضِ[h] البلاد من أرض مصر، بِطِّيخًا كثيرًا كلّه حِجارة، وذلك البِطِّيخ من الصِّنْف الذي يُقال له «عَبْدَلي».

---

a) بولاق: وسمه. b) بولاق: موقيا. c) بولاق: حاميها. d) الأصل: تعالى. e) بولاق: أورثناها. f) بولاق: بن رزق. g) بولاق: الأعيان. h) ساقطة من بولاق.

---

[1] أبو يزيد وَثِيمَة بن موسى بن الفرات الفارسي الوَشَّاء، مؤرِّخ ومحدِّث ولد في فَسَا - مدينة بفارس بينها وبين شيراز أربع مراحل - كان يتَّجر في الوَشْي (نوع من الثياب) فسافر إلى البصرة ثم إلى مصر ومنها إلى الأندلس ثم عاد إلى مصر وعاش بها حتى توفي سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م، ألَّف كتابًا في قصص الأنبياء في مجلدين (ياقوت: معجم الأدباء ١٩:٢٤٧-٢٤٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦:١٢-٢١؛ روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين ٥٣٩ (٣٣١)؛ Sezgin, F., *GAS* I, p. 315).

[2] خَلَطَ المقريزي هنا بين سورتين، الآيات ٢٥-٢٨ سورة الدخان والآيات ٥٧-٥٩ سورة الشعراء.

[3] انظر فيما تقدم ٩٩.

ذِكْرُ أخلاقِ أَهْلِ مِصْرَ وَطَبائِعِهِم وأَمْزِجَتِهِم

قال أبو الحَسَن عليُّ بن رِضْوان الطَّبيب [1]: مصر اسم فيما نقلت الرُّواة يدلُّ على أَحَد بني[a] أوْلاد نُوح النَّبِيّ ـ عليه السّلام ـ فإنَّهم ذَكَرُوا أنَّ مِصْرَ هذا نَزَل بهذه الأرض فأنْسَل فيها وعَمَرَها فسُمِّيت باسمه [2].

والذي يَدُلُّ عليه هذا الاسْم اليوم هو الأرضُ التي يَفيض عليها النِّيلُ ويُحيطُ بها حُدودٌ أربعة، وهي أنَّ الشَّمْسَ تُشْرق على أَقْصَى العِمارَة بالمَشْرق قبل [b)شروقها على هذه الأرض بثماني ساعات وثلاث وتغيب عنها قبل(b] أن تَغيب عن آخِر العِمارَة بالمغرب بثلاث ساعات وثُلُثَيْ ساعَة، فيجب من ذلك أن تكونَ هذه الأرضُ في النصف الغربي من الرُّبع العامِر.

والنِّصْفُ الغربي من الرُّبع العامِر على ما قال أَبُقْراط وبَطْلَمْيوس أقلّ حرارَة وأكثر رُطوبَة من النِّصف الشرقي، لأنَّه [في][c] قِسْم كَوْكَب القَمَر، والنِّصف الشَّرقي في قِسْم كَوْكَب الشَّمْس. وذلك أنَّ الشَّمْسَ تُشْرِق على النصف الشرقي قبل شُروقها على النِّصْف الغَربي، والقَمَرُ يُهِلّ على النِّصْف الغربي قبل النِّصْف الشَّرْقي.

وقد زَعَمَ قَوْمٌ من القُدَماء أنَّ أرضَ مصر في وَسَط الرُّبْع المعمور من الأرض بالطَّبْع، فأمَّا بالقِياس فعلى ما ذَكَرْنا من أنَّها في النصف الغَرْبي.

---

a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. c) زيادة من ابن رضوان.

---

[1] هنا ينقل المقريزي نصًّا مطوّلًا عن كتاب «دَفْع مضار الأبدان» لعليّ بن رضوان الطبيب يمتد حتى صفحة ١٢٥ فيما يلي ؛ وهو أبو الحسن عليّ بن رضوان بن عليّ بن جعفر رئيس أطباء مصر المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م، من أوائل الأطباء الذين اهتموا بدراسة الأمراض المتوطنة وعلى الأخص في كتاب «دفع مضار الأبدان بأرض مصر» الذي نقله المقريزي كاملًا موزّعًا على صفحات كتاب «المواعظ والاعتبار» (القفطي : تاريخ الحكماء ٤٤٣- ٤٤٤؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢:٩٩- ١٠٥؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨: ١٠٥- ١٠٦؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٢١: ١٠٦- ١١٠؛ سلمان قطاية : الطبيب العربي علي بن رضوان رئيس أطباء مصر، تونس - الأليكسو ١٩٨٤؛ «دراسة ماكس مايرهوف عن كتاب دفع مضار الأبدان Meyerhof, M., «Limate and Health in Old Cairo according to [c]Ali Ibn Ridwân (XI century A. D.)» in *Congrès International de médecine tropicale et Hygienne-Comptes reudues, Historie de la medecine,* Le Caire 1929, pp. 211-35; Schacht, J., *EI*[2] art. *Ibn Ridwan* III, p. 930-31.

[2] انظر فيما تقدم ٤٦.

والحَدُّ الثالث هو أنَّ أوَّلَ بُعْد هذه الأرض عن خَطِّ الاسْتِواء/ في جهة الجنوب أُسْوان ، وبُعْدُها عن خَطِّ الاسْتواء اثنان وعشرون دَرَجَة ونصف . فالشَّمْسُ تُسامِتُ رؤوسَ أهلها مَرّتين في السنة : عند كَوْنها في آخر الجَوْزاء ، وفي أوَّل السَّرَطان ، وفي هذين الوَقْتَيْن لا يكون للقائِم بأُسْوان نصف النهار ظِلٌّ أصْلًا ، فالحَرارَة واليُبْسُ والاحْتراقُ غالِبٌ على مِزاجها لأنَّ الشَّمْسَ تُنَشِّف رُطوباتها ، ولذلك صارت ألوانُهم سَوْداء وشُعورُهم جَعْدَة لاحتراق أرْضهم .

والحَدُّ الرابع هو أنَّ آخر بُعْد أرض مصر عن خَط الاسْتِواء في جِهَة الشَّمال طَرَف بَحْر الرُّوم ، وعليه من أرض مصر بُلْدان كثيرة كالإسْكَنْدَرية ورَشيد ودِمْياط وتِنِّيس والفَرَمَا . وبُعْد دِمْياط عن خَطِّ الاسْتِواء في الشَّمال أحد وثلاثون جزءًا[a] وثلث ، وهذا البُعْدُ هو آخر الإقْليم الثالث وأوَّل الإقْليم الرَّابِع ، فالشَّمْسُ لا تَبْعُد عنهم كلَّ البُعْد ولا تَقْرُب منهم كلَّ القُرْب ، فالغالِبُ عليهم الاعْتِدال مع مَيْلٍ يسيرٍ إلى الحَرارَة ، فإنَّ المَوْضِعَ المُعْتَدل على الصِّحَّة من البُلْدان العامِرَة ، هو وَسَط[b] الإقليم الرَّابع . وأيضًا فمُجاوَرَةُ دِمْياط للبَحْر وإحاطَته بها ، تَجْعَلُها مُعْتَدِلَة بين الحَرِّ والبَرْد ، خارِجَةً عن الاعْتدال إلى الرُّطوبَة ، فيكون الغالبُ عليها المِزاج الرَّطب الذي ليس بحار ولا بارِد ، ولذلك صارَت ألوانُهم سُمْرًا وأخلاقهم سهلة[c] ، وشُعورُهم سَبْطَة .

وإذا كان أوَّلُ مصر من جِهَة الجَنوب الغالِب عليه الاحْتراق ، وآخِرها من جِهَة الشَّمال الغالِب عليها الاعْتِدال مع مَيْلٍ يسير نحو الحَرارَة ، فما بين هذين المَوْضِعَيْن من أُرض مصر الغالِب عليه الحَرارَة ، وتكون قُوَّةُ حَرارَته بقدر بُعْده عن أُسْوان وقُرْبه من بَحْر الرُّوم . ومن أجْل هذا قال أَبُقْراط وجَالينُوس : «إن المِزاجَ الغالِبَ على أرْض مصر الحَرارَة»[١] .

قالَ : وجَبَل لُوقَا[d] في مَشْرق هذه الأرض[٢] يُعَوِّق عنها ريحَ الصَّبَا ، فإنَّه لم يرَ أحَدٌ[e] بفُسْطاط مصر صَبًا خالصةً ، لكن متى هَبَّتْ الصَّبَا عندهم ، هَبَّت نَكْبَا بين الشَّرْق والشَّمال أو المَشْرق والجَنُوب . وهذه الرِّياحُ يابِسَة مانِعَة من العَفَن ، فقد عَدِمت أرض[f] مصر هذه الفضيلة ، ومن أجل ذلك صارَت المَواضِعُ التي تَهُبُّ فيها ريحُ الصَّبَا من أرض مصر أحْسَنَ حالًا من غيرها ، كالإسْكَنْدَرية وتِنِّيس [ودِمْياط][g] .

---

a) عند ابن رضوان : درجة . b) بولاق : وهو أول وسط . c) عند ابن رضوان : وأحداقهم شهلة . d) في إحدى نسخ دفع مضار الأبدان : وجبل المقطم . وانظر فيما يلي ١ : ١٢٣ . e) بولاق : يوجد . f) بولاق : أهل . g) زيادة من ابن رضوان .

---

[١] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٠٧ - ١١٠ .

[٢] انظر فيما يلي ٣٣٤ .

ويُعَوِّق أيضًا هذا الجَبَلُ إشْراقَ الشَّمْس على أرض مصر، إذا كانت على الأُفُق فيكون زَمانُ لَبْث الشُّعاع على هذه الأرض أَقَلَّ من الطَّبيعي، ومثل هذه الحال سَبَبٌ لرُكود الهَواء وغِلَظه.

وأرضُ مصر أرْضٌ كثيرةُ الحَيَوان والنَّبات جِدًّا، لا تكاد تجد فيها مَوْضِعًا خُلُوًّا من الحَيَوان والنَّبات وهي أرضٌ مُتَخَلْخِلَة، فإنَّك تراها عند انْصِراف النِّيل بمنزلة الحَمأَة، فإذا حَلَّلَتَ الحَرارةُ ما فيها من الرُّطوبة تَشَقَّقَت شُقوقًا عِظامًا، والمَواضِعُ الكثيرة من الحَيَوان والنَّبات أرض كثيرة العُفُونَة.

وقد اجْتَمَعَ على أرض مصر حَرارَةُ مِزاجها وسخافتها [a]، وكَثْرَةُ ما فيها من الحَيَوان والنَّبات، فأَوْجَبَ ذلك احْتِراقها وسَواد طِينِها، وصارَت أرْضًا سَوْداء، وما قَرُبَ منها من الجبل سَبْخٌ إمَّا بُورقِيٌّ أو مالِح، ويظهر من أرض مصر بالعَشِيّات بُخارٌ أسود أو أَغْبَر، وخاصَّة في أيام الصَّيْف.

وأرْضُ مصر ذات أجْزاء كثيرة، ويختصّ كلُّ جُزْءٍ منها بشيءٍ دون غيره. وعلَّة ذلك ضيق عَرْضها، واشْتِمال طولها على عَرْض الإقليم الثاني والثالث، فإنَّ الصَّعيدَ فيه من النَّخْل والسَّنْط وآجام القَصَب والبَرْدي، ومَواضِع إحْراق الفَحْم وغير ذلك شيءٌ كثير، والفَيُّوم فيه من النَّقايع وآجام القَصَب ومَواضِع تَعْطين الكَتَّان شيءٌ كثير، وأَسْفَلُ أرض مصر فيه من النَّبات أنواعٌ كثيرة كالقُلْقَاس والمَوْز وغير ذلك. وبالجملة فكُلُّ بُقْعَة من أرض مصر لها أشياءُ تَخْتَصُّ بها وتَتَفَضَّلُ عن غيرها [1].

قالَ: والنِّيلُ يُرَطِّب يَبْس الصَّيْف والخَريف، فقد اسْتَبان أنَّ المِزاجَ الغالِب على أرض مصر الحَرارَة والرُّطوبَة الفَضْلية، وأنَّها ذات أَجْزاءٍ كثيرة، وأن هَواءَها وماءَها رَديئان، وقد بَيَّنَ الأوائلُ أنَّ المَواضِعَ الكثيرة العَفَن يتحَلَّل منها في الهَواء فُضُولٌ كثيرة لا تَدَعه يستقرُّ على حالٍ لاختلاف تَصَعُّدها.

وقد كان اسْتَبانَ أنَّ هَواءَ أرض مصر يُسْرِع إليه التَّغَيُّر، لأنَّ الشَّمْسَ لا يَثْبُت على أرض مصر شُعاعُها المُدَّة الطبيعية، فمن أجل هذين كَثُر اخْتِلاف هَواء أرض مصر، فصارَ يُوجَد في اليوم الواحِد على حالات مُخْتَلِفَة: مَرَّة حَرّ، ومَرَّة بَرْد، ومَرَّة يابِس، وأُخْرَى رَطْب، ومَرَّة متحرِّك،

---

a) ساقطة من بولاق.

---

[1] ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١١١- ١١٤.

وأخرى ساكِن، ومَرَّة الشَّمْس صاحِيَة، ومَرَّة قد سَتَرها الغَيْمُ. وبالجملة هواءُ مصر كَثيرُ الاخْتلاف، غير لازم لطَريقَة واحِدَة، فيصير من أَجْل ذلك ما في الأوعية والعُروق من أخْلاط البَدَن، لا يلزم حَدًّا واحِدًا.

وأيضًا فإنَّ ما يتحلَّل كلّ يوم من البُخار الرَّطْب بأرض مصر، يُعَوِّقه اختلافُ الهَواء وقِلَّة سُمْك الجبال وكَثْرة حَرارَة الأرض عن الاجْتماع في الجوّ، فإذا بَرَدَ الهَواءُ ببَرْدِ الليل انْحَدَرَ هذا البُخار على وَجْه الأرض، فيتولَّد عنه الضَّبابُ الذي يَحْدُث عنه الطَّلّ والنَّدَى، وربما تحلَّلَ هذا البُخار بالتحلّل الخَفيّ، فإذا يتحلَّل كلّ يوم ما كان اجتمع من البُخار في اليوم الذي قَبْله، فمن أَجْل هذا لا يَجْتَمِع الغَيْمُ المُمْطِر بأرض مصر/ إلَّا في النُّدْرَة، وظاهِرٌ أيضًا أن أرض مصر يترطَّب هَواؤها في كلِّ يومٍ بما يترقَّى إليه من البُخار الرَّطْب وما يتحلَّل.

وقد قال بعضُ النَّاس: إنَّ الضَّبابَ يتكوَّن من اسْتِحالَة الهَواء إلى طبيعة الماء، فإذا انْضافَ هذا إلى ما قُلْناه، كان أَزْيَد في بَيان سُرْعَة تَغَيُّر الهَوَاء بأرض مصر وكَثْرَة العُفُونَة فيها، وقد اسْتَبان أنَّ أرْضَ مصر كثيرة الاخْتِلاف، كَثيرة الرُّطوبَة الفَضْلية التي يُسْرع إليها العَفَن.

والعِلَّةُ القُصْوَى في جميع ذلك، هو أنَّ أَخصَّ الأوْقات بالجَفاف في الأرض كلّها تكثر فيه بمصر الرُّطوبَة، لأنَّها تَتَرطَّب في الصَّيْف والخَريف بمَدّ النيل وفَيْضِه، وهذا خِلاف ما عليه البُلْدان الأُخَر.

وقد أعْلَمَنا[a] أبُقْراط أنَّ رُطوبَة الصَّيْف والخَريف فَضْلِيَّة أعني خارجة عن المَجْري الطَّبيعي كرُطوبَة المَطَر الحادِث في الصَّيْف. ومن أجل هذا قُلْنا إنَّ رُطوبة [أرض][b] مصر فَضْلِيَّة، وذلك أنَّ الحَرارَة واليُبْس هو بالحقيقَة مِزاجُ مصر الطَّبيعي، وإنَّما عَرَضَ له ما أَخْرَجَه عن اليُبْس إلى الرُّطوبَة الفَضْلِيَّة مَدُّ النِّيل في الصَّيْف والخَريف، ولذلك كَثُرَت العُفُونات بهذه الأرض.

فهذا هو السَّبَبُ الأوَّل[c] الأعْظَم في أن صارَت أَرْضُ مصر على ما هي عليه من سَخافَة الأرض وكَثْرَة العَفَن وَرَداءَة الماء والهَوَاء؛ إلَّا أنَّ هذه الأشْياء لا تُحْدِث في أَبْدان المصريين اسْتِحالَةً مَحْسوسَةً إذا جَرَت على عادَتها، من أجل إلْف المصريين لهذه الحال ومُشاكَلَه أبْدانِهم لها، فإنَّ كُلَّ ما يَتَوَلَّد بأرض مصر من الحيَوان والنَّبات مُشابِه لما عليه مصر في سَخافَة الأَبْدان[d] وضَعْف القُوَى وكَثْرَة التغَيُّر وسُرْعَة الوُقوع في الأمْراض وقِصَر المُدَّة، كالحِنْطة بمصر فإنَّها وَشيكَة الزَّوال، سَريعٌ إليها العَفَنُ في المُدَّة اليسيرة.

---

a) بولاق: علمنا. b) إضافة من ابن رضوان. c) ساقطة من بولاق. d) الأصل: الأجسام.

ولا تظن[a] أنَّ أَبْدانَ الناس وغيرهم تُخالِف ما عليه الحِنْطَة من سُرْعَة الاسْتِحالَة ؛ وكيف لا يكون الأَمْرُ كذلك وأبْدانُهم مَبْنِيَّةٌ من هذه الأشْياء. فحالُ ما يَتَولَّد بأرِض مصر من النَّبات والحَيوان، في السَّخافَة وكَثْرَة الفُضُول والعَفَن وسُرْعَة الوُقوع في الأمْراض، كحال سَخافَة أرْضِها وعَفَنِها وفُضُولِها وسُرْعَة اسْتِحالَتِها، لأنَّ النِّسْبة واحِدَة، ولذلك أَمْكن حياةُ الحَيَوان فيها ونَبات النَّبات بها، فإنَّ هذه الأشياء من حيث ناسَبَتْها ولم تَبْعُد عن مُشاكَلَتها أَمْكَن حياتها. فأمَّا الأشياءُ الغَريبَة فإنَّها إذا دَخَلَت إلى مصر تَغَيَّرَت في أوَّل لِقائِها لهذا الهَوَاء، حتى إذا استقرَّت وأَلِفَت الهَواءَ واستمرَّت عليه، صَحَّت صِحَّتُه[b] مُشاكَلَةً لأرض مصر[1].

قال: وأمَّا جِنْسُ ما يُؤْكَل ويُشْرَب بأرْض مصر، فإنَّ الغَلَّات سريعة التَّغَيُّر، سَخِيفَة مُتَخَلْخِلَة، تَفْسَد في الزَّمان اليسير، كالحِنْطَة والشَّعير والعَدَس والحِمَّص والباقِلَّاء والجُلَّبان، فإنَّ هذه تُسَوِّس في المُدَّة القليلة، ليس لشيءٍ من الأغذية التي تُعْمَل منها لَذاذَة ما لنَظيره في البُلْدان الأُخَر، وذلك أنَّ الخُبْزَ المعمول من الحِنْطَة بمصر متى لَبِثَ يومًا واحِدًا بليلته لا يُؤْكَل، وإن أُكِلَ لم يُوجَد له لَذاذَة ولا تماسُك لبَعْضه ببَعْض، ولا يُوجَد فيه عُلُوكَة، ولكنه يتكرَّج في الزمان اليسير، وكذلك الدَّقيق، وهذا خِلاف أخْبار البُلْدان الأُخَر.

وكذلك الحالُ في جَميع غَلَّات مصر وفَواكِهها وما يُعْمَل منها[c]، فإنَّها وَشيكَة الزَّوال، سريعة الاسْتِحالَة والتَّغَيُّر. فأمَّا ما يُحْمَل من هذه إلى مصر، فظاهِرٌ أنَّ مِزاجَها يَتَبَدَّل باختلاف الهَواء عليها، ويَسْتحيل عمَّا كانت عليه إلى مُشاكَلَة أرض مصر، إلَّا أنَّ ما كان حَدِيثًا قَريب العَهْد بالسَّفَر، فقد بقيت فيه من جَوْدَته بقايا صَالِحَة ؛ فهذا حالُ الغَلَّات.

وأمَّا الحَيَوانُ الذي يأكُلُه الناس، فالبَلَدِيُّ منه مِزاجُه مُشاكِلٌ لِمزاج النَّاس بهذه الأراضي في السَّخافَة وسُرْعَة الاسْتِحالَة، فهو على هذا مُلائِمٌ لطَبائِعِهم، والمَجْلوب كالكِباش البَرْقِيَّة فالسَّفَر يُحْدِث في أَبْدانها قَحْلًا ويُبْسًا وأَخْلاطًا لا تُشاكِل مِزاج[d] المصريين، ولهذا إذا دَخَلت مصر مَرِضَ أكْثَرُها، فإذا استقرَّت زَمانًا صالحًا تبدَّل مِزاجُها ووافَقَ مزاجَ المصريين.

---

a) بولاق: ولا مطعن. b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: فيها. d) بولاق: أخلاط.

---

[1] ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١١٩- ١٢٢.

وأَهْلُ مصر يَشْرَبُ الجُمْهور منهم من ماءِ النِّيل ، وقد قُلْنا في ماءِ النِّيل ما فيه كِفايَة ، وبعضُهم يشرب مِياه الآبار ، وهي قَريبَة من مُشاكَلَتهم ، والمياهُ المَخْزونَة فقَلَّ من يَشْرَبها بأَرضِ مصر . وأَجْوَدُ الأَشْرِبَة عندهم الشَّمْسي ، لأنَّ العَسَلَ الذي فيه يَحْفَظ قُوَّتَه ولا يَدَعه يَتَغَيَّر بسرعة ، والزَّمانُ الذي يعمل فيه خالص الحرّ فهو يُنْضِجه ، والزَّبيب الذي يُعْمل منه مَجْلوبٌ من بِلادٍ أَجْوَد هَواء .

وأمَّا الخَمْرُ فقَلَّ من يَعْتَصِرها إلَّا ويَلْقَى معها عَسَلًا ، وهي مُعْتَصَرَة من كُرومِهم فتكون مُشاكِلَةً لهم ، ولهذا صاروا يَخْتارون الشَّمْسي عليها ، وما عَدَا الشَّمْسي والخَمْر من الشَّراب بأَرض مصر ، فرديء لا خَيْرَ فيه لسُرْعَة اسْتِحالَته من فَسادِ مادَّته كالنَّبيذ التمري والمَطْبُوخ والمِزْرُ المعمول من الحِنْطَة .

وأَغْذِيَةُ أهل مصر مختلفة : فإنَّ أَهْلَ الصَّعيد يَغْتَذُون كثيرًا بتَمْر النَّخْل والحَلاوة المعمولة من قَصَب السكر ، ويَحْمِلونها إلى الفُسْطاط وغيرها ، فتُباع هناك وتُؤكَل . وأَهْلُ أَسْفَل الأرض يَغْتَذون كثيرًا بالقُلْقاس والجُلّبان ، ويحملون ذلك إلى مَدينة الفُسطاط وغيرها ، فتُباعُ هناك وتُؤكل ، وكثيرٌ من أهل مصر يُكْثِرون أكل/ السَّمَك طَرِيًّا ومالِحًا . وكثيرٌ يكثرون أكل الأَلْبان وما يُعْمَل منها ، وعند فَلاحيهم نوعٌ من الخُبْز يُدْعَى كَعْكًا ، يُعمل من جريش الحِنْطَة ويُجَفَّف ، وهو أكثر أَكْلهم السَّنَة كلّها .

وبالجُمْلَةِ فكلُّ قَوْمٍ منهم قد نَبَتت[a] أَبْدانُهم من أشياء بأعيانِها وأَلِفَتْها ونشأتْ عليها ، إلَّا أنَّ الغالِبَ على أهل مصر الأَغْذِيَة الرَّديئَة ، وليست تُغَيِّر مِزاجَهم ما دامَت جارية على العادَة ، وهذا أيضًا ممَّا يؤكِّد أَمْرَهم في السَّخافَة وسُرْعَة الوُقوع في الأمراض .

وأَهْل الرِّيف أكثر حَرَكة ورياضَة من أهل المُدُن ، ولذلك هم أَصَحُّ أَبْدانًا ؛ لأنَّ الرِّياضَة تُصلِّب أعْضاءَهم وتُقَوِّيها .

وأَهْلُ الصَّعيد أخلاطهم أَرَقّ وأكثر دُخانية وتَخَلْخلًا وسَخافَة ، لشِدَّة حَرارَة أَرْضهم من أهل[b] أَسْفَل الأرض . وأَهْلُ أَسْفَل الأَرْضِ بمصر أكثر اسْتِفْراغ فُضُولهم بالبُراز والبَوْل ، لفُتور حَرارَة أرْضِهم ، واسْتِعْمالهم للأشياء البارِدَة والغَليظَة كالقُلْقاس .

وأمَّا أَخْلاقُ[c] المصريين فبَعْضُها شبيهٌ ببعض ، لأنَّ قُوَى النَّفْس تابعة لمِزاج البَدَن ، وأبْدانُهم سَخيفَة سريعة التَّغيُّر قَليلَة الصَّبْر والجَلَد ، وكذلك أخلاقُهم يَغْلُب عليها الاسْتِحالَة ، والتَّنَقُّل من

a) بولاق : ابتنت . ابن رضوان : أنبتت . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : أخلاط .

شيءٍ إلى شيءٍ، والدَّعة والجُبْن والقُنُوط والشُّحّ وقِلَّة الصَّبْر، والرَّغْبَة في العِلْم، وسُرْعَة الخَوْف، والحَسَد والنَّميمَة والكَذِب والسَّعْي إلى السُّلْطان وذَمّ الناس.

وبالجُمْلَةِ فيغلب عليهم الشُّرورُ الدَّنيئة التي تكون من دَناءَة النَّفْس [a]، وليس هذه الشُّرور عامَّة فيهم، ولكنَّها مَوْجودَةٌ في أكْثَرهم، ومنهم من خَصَّه الله بالفَضْل وحُسْن الخُلُق، وبَرَّأه من الشُّرور.

ومن أجل تَوْليد أرْض مصر الجُبْن والشُّرور الدَّنيئة في النَّفْس لم يَسْكُنها الأُسْد، وإذا دَخَلَت ذَلَّت ولم تَتَناسَل، وكِلابُها أَقَلُّ جَراءَة[b] من كِلاب غيرها من البُلْدان، وكذلك سائِر ما فيها أَضْعَف من نَظيره في البُلْدان الأُخَر، ما خَلا ما كان منها في طبعه مُلائمًا لهذه الحال كالحِمار والأَرْنَب [1].

قال: إنَّ جَالِينُوسَ يَرَى أنَّ فَصْلَ الرَّبيع طبيعته الاعْتِدال، ويُناقِضُ [في كتابه في المزاج][c] من ظَنَّ أنَّه حارٌّ رَطْب. ومن شأن هذا الفَصْل أن تَصِحَّ فيه الأبْدان ويجُود هَضْمُها، وتنتشر الحَرارَةُ الغَريزية فيه، ويَصْفُو الرُّوح الحَيواني، لاعْتِدال الهَوَاء وصَفائِه، ومُساواة ليله لنهَارِه، وغَلَبَة الدَّم. والهَوَاءُ المُعْتَدل هو الذي لا يُحَسُّ فيه ببَرْد ظاهِرٍ ولا حَرٍّ ولا رُطوبَة ولا يُبْسٍ، ويكون في نفسه نَقِيًّا صافيًا، فيَقْوى فيه الرُّوح الحَيواني لهذا السَّبَب، وتَصِحُّ الأَبْدانُ ويكثُر نَشاطُ الحَيَوان، وتَنْمُو الأشياء وتَزيد وتَتَوَلَّد [d].

وإذا طَلَبْنا بأرض مصر مثل هذا الهَوَاء لم نَجِده في وَقْتٍ من السَّنَة، إلَّا في أَمْشير وبَرَمْهات وبَرَمُودَة وبَشَنْس، عندما تكون الشَّمْسُ في النصف الأخير من الدَّلْو والحُوت والحَمَل والثَّوْر، فإنَّا نجدُ بمصر في هذا الزَّمان أيَّامًا مُعْتَدِلَة نَقِيَّة صافِيةً، لا يُحَسُّ فيها بحرٍّ ظاهِرٍ ولا بَرْدٍ ولا رُطُوبَة ولا يُبُوسَة، وتكون الشَّمْسُ فيها نَقِيَّة من الغُيوم، والهَواءُ ساكِنًا لا يتحرَّك، إلَّا أن يكون ذلك في بَرَمودَة وبَشَنْس، فإنَّه يحتاج إلى أن تَهُبَّ رِيحُ الشَّمال ليَعْتَدِل ببَرْدِها حَرُّ الشَّمْس.

وفي هذا الزَّمان تكثرُ حَرَكَةُ الحَيَوان وسَفادُه، وتَحْسُن أصْواتُه، وتُورِقُ الأشجارُ، ويَنْعَقد الزَّهْر، وتَقْوَى القُوَّة المولِّدَة، ويَغْلب كَيموس الدم [3]. وفي هذا الفَصْلُ في أرض مصر يتقدَّم زَمانُه

a) بولاق: الأنفس. b) ابن رضوان: أقل حِدَّة. c) إضافة من ابن رضوان. d) بولاق: تتوالد.

[1] ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٢٦- ١٣١.

[2] نفسه ١٣٥.

[3] لفظ سرياني معرب بمعنى الخلاصة الغذائية.

الطَّبيعي بِمِقْدار ما يَنْقُص عن آخره . وعِلَّة ذلك قُوَّة حَرارَة هذه الأرض . وقد يعرض في أوَّلِ هذا الفَصْل أيامٌ شَديدةٌ البَرْد ، وذلك في أَمْشير ، إذا هَبَّت ريحُ الشَّمال ، وكانت الشَّمْسُ غير نَقِيَّة من الغُيوم . وعِلَّة ذلك دُخول فَصْل الرَّبيع في فَصْل الشِّتاء ، فإذا هَبَّت ريحُ الشَّمال بَرَّدَ ببَرْدِها الهَواءُ ، فأعادَته بعد الاعتدال إلى البَرْد .

ولكثرة ما يَصْعَد من الأرض في هذا الزمان من البُخار الرَّطْب ، يَرْطَب الهَوَاءُ ويَعُود إلى حالِه في فَصْل الشِّتاء ، ورُبَّما بَرَدَ الهَواءُ من هُبوب رياح أُخَر ، فإنَّ ريحَ الجَنُوب ، التي هي أَشَدُّ الرياح حَرارَة ، إذا هَبَّت في هذا الزَّمان اكتسبت بُرودَةً من الأرض والماء اللذين قد بَرَّدَهما هَواءُ الشِّتاء ، فإذا مَرَّت بشيءٍ بَرَّدَته ببُرودَتها العرضية ، حتى إذا دامَ هُبُوبُها أيَّامًا كثيرة مُتوالية عادَت إلى حَرارَتِها ، وأسْخَنَت الهَواءَ وأَحْدَثَت فيه يُبْسًا .

والدليلُ على أنَّ بَرْدَ رِياح الجَنوب ، التي تَعْرِفها المصريون بالمَريسي ، يتولَّد من بَرْد مياه مصر وأرضها لا من شيءٍ طبيعي لها ، أنَّه لا يجتمع في الجَوّ ، في أيام هُبُوبها ، الضَّبابُ الذي يجتمع من تَحْليل الحَرارَة للبُخار الرَّطْب بالنهار وجَمْع البُرودَة له باللَّيل ، فحَرارةُ ريح الجَنُوب تعوق[a] البرودة عن جمعه وتُبَدِّده في الهَواء ، وإذا دامَ هُبوبُ هذه الرِّيح أَسْخَنَت الماءَ والأرضَ ، وعادَت إلى طبيعتها في الحَرارَة .

وإذا كان فَصْلُ الرَّبيع يَتَقَدَّم زمانُه الطَّبيعي ، ويختلف هذا الاخْتلاف والهَواءُ بمصر في الأصْل يَخْتَلف بكَثْرَة اسْتِحالَته وما يَرْقَى إليه من البُخار فما ظَنُّك بغيره من الفُصُول ؟ ولذلك كَثُرَت فيه الرِّياحُ ، وأَخَّرَ الأطِبَّاءُ فيه سَقْي الأدوية المُسْهِلة إلى أن يستقرَّ أَمْرُه في شَمْس الحَمَل مع الثَّوْر .

ثم يدخُل فَصْلُ الصَّيْف من[b] آخِر بَشَنْس وبَئُونَة وأَبيب وبعض مِسْرَى ، عندما تكون الشَّمْسُ في الجَوْزَاء والسَّرَطان والأَسَد وبعضُ السُّنْبُلَة ، فيشتدّ الحَرّ واليُبس في هذا الزمان ، وتجفُّ الغَلّات وتَنْضج الثِّمارُ ، ويجتمعُ من أكْلِها في الأبْدان كيموسات كثيرة[c] رَديئة .

وإذا نَزَلَت الشَّمْسُ السَّرَطانَ/ أَخَذَ النِّيلُ في الزيادة والفَيْض على أَرض مصر ، فيتغيَّر مزاجُ الصَّيْف الطَّبيعي بكثرة ما يَتَرَاقى إلى[d] الهَواء من بُخار الماء .

ويُوجَد في أوَّل هذا الفَصْل عندما تكون الشَّمْسُ في الجَوْزاء أيَّام يُشاكِل هَواؤها هَواء الرَّبيع ، عندما تكون الشَّمْسُ مستورة بالغُيوم ، أو تكون ريحُ الشَّمال هابَّة . ولهذا يَغْلَط كثيرٌ من الأطِبَّاء

---

a) بولاق : تفرق . b) بولاق : في . c) ساقطة من بولاق . d) بولاق : يترقى إلى ، ابن رضوان : ما يتولد في .

ويُسْقي الأَدْوية المُسْهِلَة في هذا الزّمان، لظَنّه أنّ فَصْلَ الرَّبيع لم يَخْرُج؛ إلّا أنّ[a] من كان منهم أَحْذَق، فهو يختار ما كان في هذه الأيام أَسْكَن حَرارَة، والأكثر لا يَشْعُرون ألبتّة بهذه الحال.

وفي آخر الصَّيْف يكون [b] فَيْضُ النّيل، وظاهِرٌ أنّ هذا الفَصْلَ يتقدّم دُخولُه الزّمان الطّبيعي بقدر ما يتقدَّم آخره، وأنّه كثيرُ الاضْطِراب بكَثْرَة ما يَرْقَى إليه من بُخار الماء[c]. فلولا اسْتِمْرار أبْدانِهم على هذا الاختلاف، ومُشاكلَتُهم لهذه الحال، لحَدَثَت فيهم الأمْراضُ التي ذَكَرَ أبُقْراط أنّها تَحْدُث إذا كان الصَّيْفُ رَطْبًا.

ثم يَدْخُل فَصْلُ الخَريف وطبيعتُه يابِسَة، من النّصف الأخير من مِسْرَى ثم تُوت وبابَة وبعض أيام هاتُور، وتكون الشَّمْسُ في آخر السُّنْبُلَة والمِيزان والعَقْرَب، فتَكْمُل زيادَةُ النّيل في أوّل هذا الفَصْل، ويُطْلَق على الأرضين[d]، فيُطْبِق أرضَ مصر، ويَرْتَفِعُ منه في الجَوّ بُخارٌ كثير، فينتقل مِزاجُ الخَرِيف عن اليُبْس إلى الرُّطوبَة، حتى إنّه ربّما وَقَع فيه الأمطارُ وكثرة الغَيْم في الجَوّ.

ويوجَد في هذا الفَصْل أيّامٌ شديدةُ الحَرّ لأنّها على الحَقيقة صيفية، فإذا نَقِيَ الجوُّ من البُخار الرَّطْب عادَت إلى طبيعتها من الحَرارَة. وفيه أيضًا أيّامٌ شديدةُ الشَّبَه بأيّام الرَّبيع، تكون عندما يُساوي اللّيْلُ النّهار ويُرَطِّب الماءُ يُبْسَ الهَواء. ويشتد في هذا الفَصْل اضْطرابُ الهَواء بكثرة ما يَرْتَقي إليه من البُخار الرَّطْب، فيكون مَرّةً حارًّا، وأخرى باردًا، ومرّةً يابِسًا، وأكثر أوْقاتِه يَغْلُب[e] عليه الرُّطوبَة، فلا يزالُ كذلك يتَمَرّج حتى يَغْلُب عليه رُطوبَةُ الماء في آخر الأمر.

ويُصادُ في أيّام الخَريف من النّيل أَسْماكٌ كثيرةٌ جدًّا، يُولِّد أَكْلُها في الأَبْدان أَخْلاطًا لَزِجَة، وكثيرًا ما يَسْتَحيل إلى الصَّفْراء إذا صادَفَت في البَدَن خَلْطًا صَفْراويًا، فمن أجل ذلك تَضْطَرب ما في الأَبْدان من الرُّوح الحَيواني، وتَهِيجُ الأخلاطُ، ويَفْسُد الهَضْمُ في البُطون والأَوْعية والعُرُوق، ويتولَّد من ذلك كيموسات رَدِيئة كثيرة الاختلاف[f]: بعضُها مِرّةٌ صَفْراء، وبعضُها مِرّةٌ سَوْداء، وبعضُها بَلْغَم لَزِج، وبعضُها خَلْطٌ خام، وبعضُها مِرّةٌ مُحْتَرِقة، وكثيرٌ منها يتركَّب من هذه الأشياء فتُثيرُ الأَمْراضَ؛ حتى إذا انْصَرَف النّيلُ في آخر الخَريف، وانْكَشَفت الأرضُ، وبَرُد الهَواءُ، وكَثُرَت الأسْماكُ، واحْتَقَن البُخارُ، وكَثُرَ ما يَرْتَفِع من الأرض من العُفُونَة، واسْتَحْكَم عند ذلك وُجودُ العَفَن، تَزايدَت الأَمْراضُ. ولولا إلْف أهل أرض[a] مصر لهذه الأشْياء، لكان ما يَحْدُث فيهم من الأَمْراض أكثَر من ذلك.

---

a) ساقطة من بولاق. b) ابن رضوان: يكثر. c) بولاق: الأرض. d) بولاق: الأرض. e) الأصل: يكثر. f) بولاق: الأخلاط.

ثم يَدْخُل فَصْلُ الشِّتاء وطَبيعتُه بارِدَةٌ رَطْبَة ، من النّصف الآخير من هاتُور ثم كِيَهك وطُوبَة ، وذلك عندما تكون الشَّمْسُ في القَوْس والجَدْي وبعض الدَّلْو ، وذلك أقَلّ من ثلاثة أشهر ، والعِلّة في ذلك قُوَّةُ حَرارةَ أرض مصر ، وكَوْن الأبْدان مُضْطَربة . وتَنْكَشِف الأرْضُ في أوَّل هذا الفَصْل ، وتُحْرَث وتُعَفَّن بالجملة ، لكَثْرَة ما يُلْقَى فيها من البُزُور ، وما فيها من أزْبال الحَيَوان وفُضُولها ، ولأنّها سَخيفَة ، وهي كالحَمْأة في هذا الزّمان ، فيتولَّد فيها من أنْواع الفَأْر والدُّود والنَّبات والعُشْب وغير ذلك ما لا يُحْصَى كَثْرَةً ، ويَنْحَلّ منها في الجَوّ أبْخِرَة كثيرة ، حتى يَصير الضَّبابُ بالغَدَوات ساتِرًا للأبْصار عن الألْوان القَريبَة .

ويُصادُ أيضًا من الأسْماك المحبوسة في المِياه المَخْزُونَة شيءٌ كثير ، وقد داخَلَها العَفَنُ لِقِلَّة حَرَكَتِها ، فيُوَلِّد أكْلُها في الأبْدان فضولًا كثيرة لَزِجَة شديدة الاسْتِعْداد للعَفَن ، فتَقْوَى الأمراضُ في أوَّل هذا الفَصْل . حتى إذا اشْتَدَّ البَرْدُ ، وقَوِيَ الهَضْمُ في الأبْدان ، واسْتَقَرَّ الهَواءُ على شيءٍ واحِد ، وعادَت الحَرارَةُ الغَريزية إلى داخِل ، وتَطَبَّقت الأرضُ بالنَّبات ، وسَكَنَت عُفُونَتُها ، صَحَّت عند ذلك الأبْدانُ ، وهذا يكون في آخر كِيَهك أو في طُوبَة .

فقد استبانَ أنَّ الفُصُولَ بأرْض مصر كثيرةُ الاخْتِلاف ، وأنَّ أرْدَأ أوْقات السَّنَة عندهم وأكْثَرها أمْراضًا ، هي[a] الخَريف وأوَّل الشِّتاء ، وذلك في شَهْري هاتُور وكِيَهك ، فإذا اخْتِلافُ الفُصول مُشاكِلٌ لما عليه أرْضهم من الرَّداءَة ، فمَضَرَّةُ الفُصُول إذًا بالأبْدان في أرْضِ مصر أقَلّ منها في البُلْدان الأُخَر إذا اخْتَلَفت هذا الاخْتِلاف .

واسْتَبانَ أيضًا أنَّ السَّبَبَ الأوَّل في ذلك ، هو مَدُّ النِّيل في أيّام الصَّيْف ، وتَطْبيقه الأرْضَ في أيّام الخَريف ، بخلاف ما عليه مياهُ الأنْهار في العِمارَة كلّها ، فإنّها إنّما تَمْتَدُّ في أخَصّ الأوْقات بالرُّطوبَة ، وهو الشِّتاءُ والرَّبيعُ[1] .

قالَ : وقد اسْتبانَ مِمّا تَقَدَّم أنَّ الرُّطُوبَةَ الفَضْلِيَّة بأرْض مصر كثيرة . وظاهِرٌ أنَّ أمْراضَهم البَلَدِيَّة تكون من نَوْع هذه الرُّطوبَة ، فإنّي أنا قَلَّما رأيتُ أمراضَهم البَلدِيَّة تكون نَوْع هذه كلّها ، لا يَشُوبها في أوَّل أمْرِها البَلْغَم والخَلْط الخام ، والأمراضُ كلُّها تَحْدُث عندهم في الأوْقات كلِّها كما

a) بولاق : هو .

[1] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٣٥ - ١٤٢ .

قال أبُقْراط ، وأكثر أمْراضِهم هي الفَضْلية ، أعْني العَفَنة من أخْلاط صَفْراوية وبَلْغَمية ، على ما يُشاكِل مِزاجَ/ أرْضِهم [١].

قال[a]: وما ذَكَرْناه فيما تقدَّم يُوجب حُدُوث الأمْراض كثيرًا ، إلّا أنَّ مُشاكَلَة هذه بعضها بعضًا ، واتِّفاقَها في سَنَة واحِدَة ، تمْنَع من أن تكونَ في أنْفُسها مُمْرِضَة حتى لَزِمَت العادة ، فأمّا إذا خَرَجَت عن عادَتها ، فهي تُحْدِث مَرَضًا ، وخُروجها عن عادَتها بمصر هو الذي أعُدُّه اخْتلافًا مُمْرِضًا ، لا الاخْتلاف المَوْجُود فيها على الدَّائِم .

والنِّيلُ ليس يُحْدث في الأبْدان كلَّ سنة مَرَضًا ، ولكنَّه إذا أفْرَطَت زيادَتُه ، ودامَ مُدَّةً تَزيد على العادَة ، كان ذلك سَبَبًا لحُدُوث المَرَض الوافِد .

فإن قيل : إذا كانت أبْدانُ الناس بأرْض مصر من السَّخَافَة ـ على ما ذَكَرْتَ ـ فلعلَّها في مَرَضٍ دائِم ؛ فالجَوابُ : لَسْنَا نُبالي في هذا[b] كَيْفَ كان ؛ لأنَّ المَرَضَ هو ما يَضُرّ بالفِعْل ضَرَرًا مَحْسوسًا من غير تَوَسُّط ، فمن أجْل ذلك ليست[c] أبْدانُ المصريين في مَرَضٍ دائِم ، ولكنَّها كثيرةُ الاسْتِعْداد نَحْو الأمْراض [٢].

قال [٣]: أمَّا أمْراضُ مصر البَلَدِيَّة فقد ذَكَرْنا من أمْرها ما فيه كِفايَة ، وظَهَرَ أنَّ أكْثَرَها الأمْراض الفَضْلية التي يشوبُها صَفْراء وخام ، على أنَّ باقي الأمْراض تحدث عندهم بسرعة وقرب ، وخاصَّةً في آخر الخَريف وأوَّل الشِّتاء .

وأمَّا الأمْراضُ الوافدَة ومَعْنَى المَرَض الوافِد هنا[a]، هو ما يَعُمّ خَلْقًا كثيرًا في بَلَدٍ واحِد وزَمانٍ واحِد ، ومنه نَوْعٌ يقال له : المَوْتان ، وهو الذي يَكْثُر معه المَوْتُ . وحُدُوث الأمْراض الوافِدَة يكون عن أسْباب كثيرة تجتمع في أجْناس أربعة ، وهي : تَغَيُّر كَيْفيَّة الهَوَاء ، وتَغَيُّر كَيْفيَّة الماء ، وتَغَيُّر كَيْفيَّة الأغْذِيَة ، وتَغَيُّر كَيْفيَّة الأحْداث النَّفْسانية .

والهَواءُ[d] تَتَغَيَّر كَيْفيَّتُه على ضَرْبَيْن : أحَدُهما تَغَيُّره الذي جَرَت به العادَةُ ، وهذا لا يُحْدِثُ مَرَضًا وافِدًا ، وليس تَغَيُّرًا مُمْرِضًا . والثاني التَّغَيُّر الخارِج عن مَجْرَى العادَة ، وهذا هو الذي يُحْدث

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : بهذا . c) الأصل وبولاق : ليس والتصويب من ابن رضوان .
d) بولاق : فالهواء .

---

[١] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٤٧ .
[٢] نفسه ١٥٠ - ١٥١ .
[٣] نفسه ١٧١ .

المَرَض الوَافِد، وكذلك الحالُ في الأجْناس الباقية. وخُروجُ تَغَيُّر الهواء عن عادَته يكونُ إمَّا بأن يَسْخَن أكثر أو يَبْرُد أو يَرْطُب أو يَجفّ أو يُخالِطه حالٌ عَفَنِيّة[a]. والحالَةُ العَفَنية[a] إمَّا أن تكون قريبَة أو بعيدة، فإنَّ أَبُقْراط وجالينوس يقولان: إنَّه ليس يَمْنَع مانِعٌ من أن يَحْدُث ببلد اليُونانِيِّين مَرَضٌ وافِدٌ عن عُفونَة اجْتَمَعت في بلاد الحَبَشَة، وتَراقَت إلى الجَوّ وانْحَدَرَت على اليُونانيين، فأَحْدَثَت فيهم المَرَض الوافِد.

وقد يَتَغَيَّر أيضًا مِزاجُ الهَوَاء عن العادَة، بأن يَصِل وَفْدٌ كثيرٌ قد أَنْهَكَ أبْدانَهم طولُ السَّفَر وساءَت أخلاطُهم، فيُخالط الهَواءُ منها شيءٌ كثيرٌ، ويَقَع الإعْدَاءُ في الناس، ويَظْهَر المَرَض الوَافِد.

والماءُ أيضًا قد يُحْدِث المَرَضَ الوافِد، إمَّا بأن يُفْرِط مقداره في الزِّيادَة أو النُّقْصان، أو يُخالِطه حالٌ عَفَنية، ويُضْطَرّ الناسُ إلى شُرْبه، ويَعْفَن به أيضًا الهَوَاءُ المحيط بأبْدانِهم، وهذه الحالُ تُخالِطُه إمَّا قريبًا أو بعيدًا، بمنزلة ما يَمُرّ في جَرَيانه بمَوْضِع جِرْب[b] قد اجْتَمَع فيه من جِيَف المَوْتَى شيءٌ كثيرٌ، أو بمياه نَقَائِع[c] عَفِنَة فَيَحْدرها معه ويُخالط جِسْمه.

والأَغْذيَةُ تُحْدِثُ المَرَض الوافِد، إمَّا إذا لحِقَها اليَرَقان وارْتَفَعَت أسعارُها واضْطُرّ الناسُ إلى أَكْلِها، وإمَّا إذا أَكْثَرَ الناسُ منها في وَقْتٍ واحِدٍ كالذي يكون في الأَعْياد فيكثر فيهم التُّخَم، ويَمْرَضُون مَرَضًا مُتَشابِهًا، وإمَّا من قِبَل فَساد مَرْعَى الحَيَوان الذي يُؤْكَل، أو فَساد الماء الذي يُشْرَب.

والأَحْداثُ النَّفْسانية تُحْدِثُ المَرَضَ الوافِد مَتَى حَدَث في النَّاس خَوْفٌ عام من بعض المُلُوك، فيطول صَبرُهم[d] وتَفَكُّرهم في الخَلاصِ منه وفي وُقُوع البَلاء، فيسُوء هَضْمُ أجوافهم[e] وتتَغَيَّر حَرارَتُهم الغَرِيزية، ورُبَّما اضْطُرُّوا إلى حَرَكَة عَنِيفَة في هذه الحال، أو يتوقَّعون قَحْطَ بعض السِّنين، فيُكْثِرون الحَرَكَة والاجْتِهاد في ادِّخار الأشياء، ويَشْتَدُّ غَمُّهُم بما سيحدُث.

فجَميعُ هذه الأَشْياء تُحْدث في أَبْدان الناس المَرَضَ الوافِد، مَتَى كان المتعرِّض لها خلقٌ كثيرٌ في بَلَدٍ واحِدٍ ووَقْتٍ واحِدٍ. وظاهِرٌ أنَّه إذا كَثُرَ في وَقْتٍ واحِدٍ المَرْضَى بمدينَة واحِدَة، ارْتَفَعَ من أَبْدانِهم بُخارٌ كثيرٌ فَيَتَغَيَّر مِزاجُ الهَوَاء، فإذا صادَفَ بَدَنًا مستعدًّا أَمْرَضَه، وإن كان صاحِبُه لم يتعرَّض لما يتعرَّض إليه الناسُ.

---

a) بولاق: عفنة. b) بولاق: ضرب. c) بولاق: تقاطع. d) بولاق: سفرهم. e) بولاق: هضمهم.

فالأَمْراضُ الوافِدَة بمصر تَحْدُثُ إمَّا عن فَسَادٍ لم تَجْرِ به العادَةُ يَعْرِض للهَواء سواء كان مادَّة فَسادِهِ من أَرْض مصر، أو من البِلاد التي تُجاوِرُها كالسُّودان والحِجَاز والشَّام وبَرْقَة، أو يَعْرِض للنِّيل أن[a] تُفْرِط زيادتُه فتكثرُ زيادَةُ الرُّطوبَة والعَفَن، أو تَقِلّ زيادَتُه جدًّا فيجِفّ الهَواءُ عن مِقْدار العادَة ويُضْطَر الناسُ إلى شُرْب مِياهٍ رَديئةٍ، أو يُخالِطه عُفُونَة تَحْدُث عن حَرْبٍ يكون بأَرض مصر أو ببلاد السُّودان أو غيرها يَمُوت فيها خَلْقٌ كثيرٌ ويَرْتَفع بُخارُ جِيَفِهم في الهَواء فيُعَفِّنه ويتَّصل عَفَنُه إليهم، أو يَسيلُ الماءُ ويَحْمل معه العَفَن، أو يَغْلو السِّعْر، أو يَلْحق الغَلَّات آفَةٌ، أو يَدْخُل على الكِباش ونَحْوها مَضَرَّة أو يَلْحَق الناس خوفٌ عام أو قُنوط، وكلُّ واحِدٍ من هذه الأَسْباب يُحْدِث في أرض مصر مَرَضًا وافِدًا يكون قُوَّتُه بمِقْدار قُوَّة السَّبَب المُحْدِث له، وإن كان أَكْثَرَ من سَبَبٍ واحِدٍ كان ذلك المَرَضُ أَشَدَّ وأَقْوَى وأَسْرَعَ في القَتْل[1].

قال: فمِزاجُ أَرْض مصر حارٌّ رَطْب بالرُّطوبَة الفَضْلية. وما قَرُبَ من الجَنُوب بأَرْض مصر كان أَسْخَن وأَقَلّ عُفُونة[b] في ماء النِّيل/ بما كان منها في الشَّمال، ولا سيَّما من كان في شَمال الفُسْطاط مثل أَهْل البَشْمُور[2]، فإنَّ طِباعَهم أَغْلَظ، والبَلَه عليهم أَغْلَب، وذلك أَنَّهم يسْتَعْمِلون أَغْذِيَةً غليظةً جدًّا، ويَشْرَبون من الماء الرَّديء. وأمَّا الإسْكَنْدَرية[c] وتِنِّيس وأَمثال هذه، فقُرْبُها من البَحْر وسُكُون الحَرارَة والبَرْد عندهم[d] وظُهور الصَّبَا فيهم، ممَّا يُصْلح أَمْرَهم[e] ويُرِقّ طباعَهم ويرفَعُ هِمَمَهُم، ولا يَعْرِض لهم ما يَعْرِض لأَهل البَشْمور من غِلَظ الطَّبْع والحَمارية. وإحاطَةُ البَحْر بمَدينَة تِنِّيس، يُوجب غَلَبَة الرُّطوبَة عليها، وتأَيُّس أَخْلاق أهلها[3].

قال: إنَّه لمَّا كانت أَرْضُ مصر وجَميع ما فيها، سَخيفَةَ الأَجْسام سَريعًا إليها التَغَيُّر والتَّعَفُّن، وَجَبَ على الطبيب أن يَخْتار من الأَغْذِيَة والأَدْوية ما كان قَريبَ العَهْد حَديثًا، لأَنَّ قُوَّته بعد باقية

---

a) بولاق: بأن. b) بولاق: عفنا. c) الأصل وبولاق: سكندرية. d) بولاق: عنهم. e) بولاق: أمورهم.

---

[1] ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٧١- ١٧٥.

[2] البَشْمور، من البلاد المندرسة، وهو اسم كان يطلق قديمًا على إقليم من أخصب أقاليم شرقي الدلتا، ذكر ياقوت أنها كورة قرب دمياط (معجم البلدان ١:٤٢٨) بينما ذكر ابن دقماق (الانتصار ٥:٦٩)، والزبيدي (تاج العروس، مادة: ب ش م ر) أنَّها من نواحي الدقهلية. وحدد محمد رمزي موقع إقليم البَشْمور بأنه كان يشمل منطقة الأراضي الزراعية التي تقع اليوم بين فرع دمياط والبحر الصغير بمحافظة الدقهلية: وقد أضيف زمام هذه المنطقة إلى أراضي ناحية دِكِرْنِس بمحافظة الدقهلية (محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ١:٣١-٣٢).

[3] ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٧٩- ١٨٠.

عليه لم تَتَغَيَّر كلَّ التَّغَيُّر ، وأن يجعل عِلاجَه ملائِمًا لما عليه الأبْدان بأرض مصر ، ويجتهد في أن يَجْعَل ذلك إلى الجِهَة المضادَّة أَمْيَل قليلًا ، ويتجنَّب الأَدْوية القَوِيَّة الإسْهال وكلَّ ما له قُوَّة مُفْرِطَة . فإنَّ نِكاية هذه الأَبْدان سريعة ، سَيَّما وأبْدانُ المصريين سَريعَة الوُقوع في النِّكايات .

ويَخْتار ما يكون من الأَدْوية المُسَهِّلَة وغَيْرها أَلْيَنَ قُوَّة ، حتى لا يكون على طَبيعَة المصريين منها كُلْفَة ، ولا يَلْحَق أبدانَهم مَضَرَّة ، ولا يُقْدِم على الأَدْوية الموجودة في كُتُب أطِبَّاء اليُونانيين والفُرْس ، فإنَّ أَكْثَرَها عُمِلَت لأبْدانٍ قويَّة البِنْيَة عظيمَة الأَخْلاط ، وهذه الأشياءُ قلَّما تُوجَد بمصر ، فلذلك يجب على الطَّبيب أن يتوقَّف في إعْطاء هذه الأدْوية للمَرْضَى ، ويختار أَلْيَنَها ، ويُنْقص من مِقْدار شَرْباتها ، ويُبَدِّل كثيرًا منها بما يقوم مَقامَه ويكون أَلْيَنَ منه ، فَيَتَّخِذ السَّكَنْجبين السُّكَّري في مَقام العَسَلي ، والجُلَّاب بَدَلًا من ماءِ العَسَل .

واعْلَم أنَّ هَواءَ مصر يُعْمِل في المَعْجونات وسائِر الأدْوية ضَعْفًا في قُوَّتها ، فأعْمارُ الأدْوية المُفْرَدَة والمُرَكَّبة المَعْجون منها وغير المَعْجون بمصر أَقْصَر من أعْمارِها في غير مصر ، فيَحْتاج الطَّبيبُ بمصر إلى تَقْدير ذلك وتَمْييزه حتى لا يَشْتَبه عليه شيءٌ ممَّا يحتاج إليه . وإذا لم يَكْتَفِ في تَنْقيَة البَدَن بالدَّواء المُسَهِّل دَفْعَة واحِدَةً ، فلا بأس بإعادَته بعد أيَّام ، فإنَّ ذلك أَحْمَد من إيراد الدَّواء الشَّديد القُوَّة في دَفْعة واحِدَة[١] .

قالَ : ولكَون أرْض مصر تُوَلِّد في الأجْسام سَخافَةً وسُرْعَةَ قَبولٍ للمَرَضِ ، وَجَبَ أن تكون الأبْدانُ على الهَيْئَة الفاضِلَة بأرض مصر قليلة جدًّا ، فأمَّا الأبْدانُ الباقية فكثيرة ، وأن تكون الصِّحَّةُ التامَّة عندهم على الأَمْر الأكثر في القريبة من الهَيْئَة الفاضِلَة .

والطَّريقُ الأُولى التي تُدَبَّر بها الأبْدان في الهَيْئَة الفاضِلَة يُحْتاج فيها بأرْض مصر إلى أن يُدَبَّر الهَوَاءُ والغِذاءُ والماءُ وسائِرُ الأَشْياءِ تَدْبيرًا يصير به في غايَة الاعْتِدال ، ولأنَّ الهَضْمَ كثيرًا ما يَسُوء بأرْض مصر وكذلك الرُّوح الحَيَواني ، فيجب صَرْف العِنايَة إلى مُراعاة أَمْر القَلْب والدِّماغ والكَبِد والمِعْدَة والعُروق والأَوْراد[a] وسائِر الأَعْضاء الباطِنَة ، في تَجْويد الهَضْم وإصْلاح أَمْر الرُّوح الحَيَواني وتَنْظيف الأَوْساخ اللاحِجَة[٢] .

---

a) ساقطة من بولاق .

---

[١] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٩٩- ٢٠٠. [٢] نفسه ٢٠٣- ٢٠٤.

وقال في «شَرْح كتاب الأرْبَع لبَطْلَمْيُوس»[١] : وأمَّا سائِرُ أجْزاء الرُّبْع الذي يميل[a] وَسَط جميع الأرض المسكونة أعْني بلاد بَرْقَة ، وسَواحِل البحر من مَرْيوط إلى الإسْكَنْدَرية ورَشيد ودِمْياط وتِنِّيس والفَرَما ، وأسْفَل الأَرْض بمصر ، ونواحي مَدينَة مَنْف ومَدينَة الفُسْطاط ، وما يلي شَرْقي النِّيل من صَعيد مصر والفَيُّوم إلى أعْلَى الصَّعيد ممَّا في غرب النِّيل ، وأرض الوَاحَات وأرْض النُّوبَة والبُجَة ، والأرض التي على البحر في شَرْقي بلاد النُّوبَة والحَبَشة فإنَّ هذه البلاد موضوعة في الزاوية التي تُؤَثِّر في جميع الرُّبْع الموضوع فيما بين الدَّبُّور والجنوب . وهي من جملة النِّصْف الغربي من الرُّبْع المعمور ، والكَواكِب الخمسة المُتَحَيِّرة تشترك في تدبيرها . فصارَ أهلُها محبين لله ، ويُعَظِّمون الجِنّ ، ويُحِبُّون النَّوْح ، ويَدْفِنون مَوْتاهم في الأرض ويُخْفُونهم ، ويستعملون سُنَنًا مختلفة وعادات وآرَاء شَتَّى لمَيْلهم إلى الأسْرار التي تَدْعو كلَّ طائِفَة منهم إلى أَمْرٍ من الأمُور الخَفِيَّة فيعتقده ويُوافقه عليه[b] جماعَةٌ .

ومن أَجْل هذه الأسْرار ، كان المُسْتَخْرِج للعُلوم الدقيقة كالهَنْدَسَة والنُّجُوم وغيرها في الزَّمان الأوَّل ، أهْل مصر ومنهم تَفَرَّقت في العالم . وإذا ساسَهُم غيرهم كانوا أذِلَّاء ، والغالِبُ عليهم الجُبْن والاسْتِحْذاء في الكَلام . وإذا ساسُوا غيرهم كانت أنْفُسهم طَيِّبَة وهِمَمُهم كثيرة .

ورِجالُهم يتَّخِذون نَساءً كثيرة ، وكذلك نِساؤهم يتَّخذن عِدَّة رجال ، وهم مُنْهَمِكون في الجِماع ، ورَجالُهم كَثيرو النَّسْل ، ونساؤهم سَريعات الحَمْل ، وكثيرٌ من ذُكْرانِهم تكون أنفسهم ضعيفة مُؤَنَّثَة .

قال أبو الصَّلْت : وأمَّا سُكَّانُ أرْض مصر فأخْلاطٌ من النَّاس مُخْتَلِفو الأصْناف والأجْناس ، من قِبْطٍ ورُوم وعَرَب وأكْرَاد ودَيْلم وحُبْشَان [وأرْمَن][c] وغير ذلك من الأصْناف ، إلَّا أنَّ جُمْهورَهم قِبْط . قالوا : والسَّبَبُ في اخْتِلاطهم تداولُ المالِكين لها والمتغلِّبين عليها ، من العَمالِقَة واليُونانيين والرُّوم وغيرهم ، فلهذا اخْتَلَطَت أنْسابُهم ، واقْتَصَروا من التَّعْريف بأنفسهم على الإشارَة إلى مَواضِعِهم والانْتِماء إلى مَساقِطِهم فيها .

---

a) بولاق : يميل إلى .   b) ساقطة من بولاق .   c) زيادة من الرسالة المصرية .

---

[١] هو شرح على كتاب *Quadripartitum de Ptolémée*، أو «المقالات الأربع لبطلميوس» الذي وصل إلينا في ترجمة لاتينية نشرت في البندقية ضمن أوائل المطبوعات العربية ثم نشرت بعد ذلك أكثر من مرة . (Schacht, J., *EI*² art. *Ibn Ridwân* III, p. 931) .

وحُكِيَ أنَّهم كانوا في الزَّمن السَّالِف عُبَّادَ أصْنامٍ ومُدَبِّري هَياكِل /، إلى أن ظَهَر دينُ النَّصْرَانِيَّة وغَلَبَ على أرْض مصر، فتَنَصَّرُوا وبَقُوا على ذلك إلى أن فَتَحَها المُسْلِمون، فأَسْلَم بعضُهم، وبقي بعضُهم على دِين النَّصْرانِيَّة [a].

وأمَّا أخلاقُهم فالغالِبُ عليها اتِّباع الشَّهَوات والانْهِماك في اللَّذَّات، والاشْتِغال بالتُّرَّهات، والتَّصْديق بالمُحالات، وضَعْف المَرائِر والعَزَمات [1]. ولهم خِبْرة بالكَيْد والمَكْر، وفيهم بالفِطْرَة قُوَّة عليه وتَلَطُّف فيه وهِدايَة إليه، لما في أخلاقِهم من المَلَق والبَشاشَة التي أرْبوا فيها على من تقدَّم وتأخَّر، وخُصُّوا بالإفراط فيها دون جَميع الأُمَم، حتى صارَ أمْرُهم في ذلك مَشْهورًا، والمَثَلُ بهم مَضْروبًا.

وفي خُبْثِهم ومَكْرِهم يقُولُ أبو نُوَاس [2]:

[الطويل]

مَنَحْتُكُمُ [b] يا أهْلَ مصر نَصيحَتي ... ألَا فخُذوا من ناصِحٍ بنَصيبِ
رَماكُمْ أميرُ المُؤْمنين بحَيَّةٍ ... أكُولٍ لحَيّاتِ البِلادِ شَرُوبِ
فإن يَكُ باقٍ إفْكُ فِرْعَوْن فيكُمْ ... فإنَّ عَصا مُوسَىٰ بكَفِّ خَصيبِ

قال مُؤَلِّفُه: وقد مَرَّ بي [c] قَديمًا أنَّ مَنْطِقَة الجَوْزَاء تُسامِت رؤوس أهل مصر، فلذلك يَتَحدثون بالأشياء قبل كَوْنها، ويُخْبِرون بما يكون، ويُنْذِرون بالأمور المُسْتَقْبَلَة، ولهم في هذا الباب أخبارٌ مشهورة.

قال ابنُ الطُّوَيْر [3]، وقد ذَكَرَ اسْتيلاءَ الفِرَنْج على مَدينَة صُور، فعادَ الحِفْظُ والحِراسَة على مَدينَة عَسْقَلان، فما زَالَت محمية بالأبْدَال المجرَّدَة إليها من العساكِر والأساطيل، والدولة تَضْعُف أوَّلًا

a) بعد ذلك في الرسالة المصرية: ومذهبهم مذهب اليعاقبة. b) الأصل وبولاق: محضتكم والتصويب من الديوان. c) بولاق: لي.

[1] أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٣-٢٤.

[2] نفسه ٣٠-٣١، والأبيات في ديوان أبي نواس، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، القاهرة ١٩٥٣، ٤٨٤ يمدح بها الخصيب أمير مصر.

[3] القاضي المرتضى أبو محمد عبد السلام بن الحسن بن عبد السلام بن عليّ بن أحمد الفهري القَيْسراني الأصل المصري المولد والدار والوفاة. ينتمي إلى نفس طبقة المؤلفين الإداريين الذين أوكلت إليهم وظائف الإشراف العليا على الدواوين الإدارية في مصر أيام الفاطميين والأيوبيين. وهو مؤلف كتاب «نزهة المقلتين في أخبار الدولتين» الذي نقل عنه المقريزي وتوفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م (انظر دراسة المصادر في مقدمة الكتاب).

فأوَّلًا باخْتِلاف الآراء، فثَقُلَت على الأجْناد، وكَبُر أمْرُها عندهم، واشْتَغَلوا عنها، فضايَقَها الفِرِنْجُ حتى أخَذوها في سنة ثمان وأربعين وخمس مائة. ولقد سَمِعْتُ رَجُلًا قبل ذلك بسنين يُحَدِّث بهذه الأُمور، ويقول: «في سنة ثمانٍ تُؤْخَذ عَسْقَلان بالأَمان»[1].

ومن هذا الباب واقِعَةُ الكَنائس التي للنَّصارَىٰ؛ وذلك أنَّه لمَّا كان يومُ الجُمُعَة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسبع مائة، والناسُ في صَلاةِ الجُمُعَة، كأنَّما نُودِيَ في إقليم مصر كلِّه من قُوص إلى الإسْكَنْدَرية بهَدْم الكَنائِس، فهُدِمَ في تلك السَّاعَة بهذه المسافَة الكبيرة عَدَدٌ كبيرٌ من الكَنائِس، كما ذُكِرَ في مَوْضِعه من هذا الكتاب عند ذِكْر كَنائس النَّصارَىٰ[2].

ومن هذا الباب واقِعَةُ أَلْدَمُر، وذلك أنَّه خَرَجَ الأميرُ أَلْدَمُر أمير جَنْدار يُريدُ الحَجّ من القاهِرَة في سنة ثلاثين وسبع مائة، وكانت فِتْنَةٌ بمَكَّة قُتِلَ فيها أَلْدَمُر يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة، فأُشيعَ في هذا اليوم بعَيْنه في القاهِرَة ومصر وقَلْعَة الجَبَل، بأنَّ وَقْعَةً كانت بمَكَّة قُتِلَ فيها أَلْدَمُر، فطارَ هذا الخَبَرُ في ريف مصر واشْتُهِر، فلم يَكْتَرِث الملكُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون بهذا الخبر. فلمَّا قَدِمَ المُبَشِّرون على العادَة، أَخْبَروا بالواقِعَة وقَتْل الأمير سَيْف الدين أَلْدَمُر في ذلك اليوم الذي كانت الإشاعَةُ فيه بالقاهِرَة[3].

قال جامِعُ «السِّيرَة النَّاصِريَّة»[4]: كنتُ مع الأَمير عَلَم الدين الخازِن في الغربية وقد خَرَجَ إليها كاشِفًا فلمَّا صَلَّيْت أنا وهو صَلاة الجُمُعَة وعُدْنا إلى البيت، قَدِمَ بعضُ غِلْمانه من القاهِرَة فأَخْبَرَنا أنَّه أُشيع بأنَّ فِتْنَةً كانت بمَكَّة قُتِلَ فيها جَماعَةٌ من الأَجْناد، وقُتِلَ فيها الأمير أَلْدَمُر أمير جَنْدار. فقال له الأميرُ عَلَم الدين: هل حَضَرَ أَحَدٌ من الحِجاز بهذا الخَبَر؟ قال: لا. فقال: وَيْحَكَ، الناسُ ما تَحْضُر من مِنىً بمَكَّة إلَّا ثالِث يوم بعد عيد النَّحْر، فكيف سَمِعْتُم هذا الخَبَر الذي لا يَسْمَعه عاقِلٌ؟ فقال: قد اسْتُفيض ذلك. وكان الأَمْرُ كما أُشيع.

---

[1] ابن الطوير: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين ٥، وقارن ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١١٧؛ ابن الأثير: الكامل ١١: ١٨٨؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٤٦؛ النويري: نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٢؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٢٠٤.

[2] فيما يلي ٢: ٥١٢- ٥١٣.

[3] فيما يلي ٢: ٣٨- ٣٩.

[4] يقصد المقريزي بهذا العنوان كتاب «نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر» لموسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المتوفى سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٨م، والذي اكتشفه بين أجزاء نسخة آياصوفيا من كتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري دونالد ليتل، انظر Little, D., «The Recovery of a Lost Source for Bahri Mamluk History: al-Yusufi's *Nuzhat al-Nâzir fî Sîrat al-Malik al-Nâsir*», *JAOS* 94 (1974), pp. 42-54، ثم نشره أحمد حطيط في بيروت وصدر عن عالم الكتب سنة ١٩٨٦،=

ووَقَعَ لي في شهر رمضان من شهور سنة إحدى وتسعين وسبع مائة ، أنّي مَرَرْتُ في الشّارِع بَيْن القصرين بالقاهِرَة بعد العَتْمَة ، فإذا العامّة تَتَحدَّث بأنَّ الملكَ الظَّاهِرَ بَرْقوق خَرَجَ من سِجْنِه بالكَرَك واجتمع عليه الناسُ ؛ فضَبَطْتُ ذلك ، فكان اليومُ الذي خَرَج فيه من السِّجْن . وفي هذا الباب من هذا كثير .

ومن أَخْلاق أهْل مصر قِلَّة الغَيْرَة ؛ وكَفاكَ ما قَصّة الله سبحانَه وتعالى من خَبَرِ يُوسُف ـ عليه السّلام ـ ومُراوَدَة امرأة العَزيز له عن نَفْسه ، وشَهادَة شاهِدٍ من أهْلها عليها بما بَيَّنَ لزَوْجها منها السُّوء ، فلم يُعاقِبْها على ذلك بسِوى قَوْله لها [a]: ﴿اسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [الآية ٢٩ سورة يوسف] .

[b)]قال ابنُ عَبْد الحكَم : وكان نِساءُ أهْل مصر حين غَرِقَ مَنْ غَرِق منهم مع فِرْعَوْن ولم يَبْقَ إلّا العَبيدُ والأُجَراء لم يَصْبِرْن عن الرِّجال ، فطَفِقَت المرأةُ تُعْتِق عَبْدَها وتَتَزَوَّجه ، وتَتَزَوَّج الأخرى أَجيرَها . وشَرَطْنَ على الرِّجال ألَّا يفعلوا شيئًا إلّا بإذنهن ، فأجابوهُنّ إلى ذلك ، فكان أمْرُ النِّساء على الرِّجال . فحَدثني ابنُ لَهيعَة ، عن يَزيد بن أبي حَبيب ، أنَّ نِساءَ القِبْط على ذلك إلى اليوم اتّباعًا لمن مَضَى منهم ، لا يَبيعُ أحَدُهم ولا يَشْتَري إلّا قال : أَسْتَأْمِر امْرَأتي [١] .

وقال : إنَّ فِرْعَوْنَ لما غَرِقَ ومعه أشْرافُ مصر ، لم يَبْقَ من الرِّجال من يَصْلُح للمملكة ، قَعَد النّاسُ في مَراتِبهم : بِنْتُ الملك مَلِكَة ، وبِنْتُ الوَزير وَزيرَة ، وبنتُ الوالي وبِنْت الحاكِم على هذا الحُكْم ، وكذلك بَناتُ القُوّاد والأجْناد . فاسْتَوْلَت النِّساءُ على المملكة مُدَّة سنين ، وتَزَوَّجْن بالعَبيد ، واشْتَرَطْن عليهم أنَّ الحُكْمَ والتَّصَرُّف لهنّ ، فاستمرَّ ذلك مُدَّةً من الزَّمان . ولهذا صارَت ألوانُ أهْل مصر سُمْرًا من أجل أنّهم أوْلادُ العَبيد السُّود الذين نَكَحُوا نِساءَ القِبْط بعد الغَرَق واسْتَوْلَدوهن[b)] [٢] .

---

a) ساقطة من بولاق . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من كثير من مخطوطات الخطط ومن بينها الأصل .

---

* والجزء المكتشف يشتمل فقط على حوادث السنوات من ٧٣٣ إلى ٧٣٨هـ .

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٨ وفيما تقدم ١٠٢ .

[٢] لم أجد هذه الرواية في فتوح مصر ، وكل النص المنقول عن ابن عبد الحكم ساقط من الأصل ومن أغلب مخطوطات الخطط المعتمدة على نسخ المقريزي ، وقد سبق للمقريزي ذكر أول هذا الخبر فيما تقدم ١٠٢ .

/وأَخْبَرَني الأَميرُ الفاضِل الثِّقَة ناصِرُ الدين محمد بن محمد بن الغَرابيلي الكَرَكي[1] ـ رحمه الله تعالى ـ أنَّه منذ سَكَنَ مصر يجد من نَفْسه رياضَةً في أخْلاقه ، وتَرَخُّصًا لأَهْله ، وليِنًا ورِقَّة طَبْع من قِلَّة الغَيْرَة .

ومِمَّا لم نزل نَسْمَعَه داعيًا[a] بين النَّاس أنَّ شُرْبَ ماءِ النِّيل يُنْسي الغَريبَ وَطَنه .

ومن أخْلاق أهْل مصر الإعْراض عن النَّظَر في العَواقِب ، فلا تَجِدُهم يدَّخرون عندهم زادًا كما هي عادَةُ غيرهم من سُكَّان البُلْدان ، بل يتناولون أغذية كلَّ يوم من الأسْواق بكرةً وعَشِيًّا . ومن أخْلاقِهم الانْهِماك في الشَّهَوات ، والإمْعان في المَلاذ ، وكَثْرة الاسْتِهْتار ، وعَدَم المُبالاة .

قال لي شَيْخُنا الأستاذ أبو زَيْد عبد الرَّحْمَن بن خلدون ، رحمه الله : أَهْلُ مصر كأنَّما فَرَغوا من الحِساب[2] .

وقد رُوِي عن عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سأَلَ كَعْبَ الأَحْبار عن طَبائِع البُلْدان وأخْلاق سُكَّانِها ، فقال : إنَّ الله تعالى لمَّا خَلَقَ الأَشْياءَ جَعَلَ كلَّ شيءٍ لشيءٍ ؛ فقال العَقْلُ : أنا لاحِقٌ بالشَّام ، فقالت الفِتْنَةُ : وأنا معك ! وقال الخِصْبُ : أنا لاحِقٌ بمصر ، فقال الذُّلُّ : وأنا معك ! وقال الشَّقاءُ : أنا لاحِقٌ بالبادِيَة ، فقالت الصِّحَّةُ : وأنا معك !

ويُقالُ : لمَّا خَلَقَ الله الخَلْقَ خَلَقَ معهم عشرة أخْلاق : الإيمان والحَياء والنَّجْدَة والفِتْنَة والكِبْر والنِّفَاق والغِنَى والفَقْر والذُّلّ والشَّقَاء . فقال الإيمانُ : أنا لاحِقٌ باليَمَن ، فقال الحَياءُ : وأنا معك ! وقالت النَّجْدَة : أنا لاحِقَة بالشَّام ، فقالت الفِتْنَة : وأنا معك ! وقال الكِبْرُ : أنا لاحِقٌ بالعِراق ، فقال النِّفاقُ : وأنا معك ! وقال الغِنَى : أنا لاحِقٌ بمصر ، فقال الذُّلّ : وأنا معك ! وقال الفَقْرُ : أنا لاحِقٌ بالبادِية ، فقال الشَّقَاءُ : وأنا معك[3] !

---

a) بولاق : دائمًا .

---

[1] الحافظ تاج الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد بن محمد بن مُسَلَّم الكركي المعروف بابن الغرابيلي المتوفى في جمادى الآخرة سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣١م . ودفن في تربة سعيد السعداء ، كانت جنازته مشهودة حضرها ابن الديري والمحب بن نصر الله والمقريزي ، وهو من تلاميذ ابن حجر العسقلاني . قال السخاوي : وهو في عقود المقريزي (ابن حجر : إنباء الغمر ٣:٤٨٨- ٤٨٩؛ السخاوي : الضوء اللامع ٩:٣٠٦-٣٠٨) .

[2] هذه أحد المرات القليلة التي يروي فيها المقريزي عن شيخه وأستاذه ابن خلدون .

[3] قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢:١٨٣- ١٨٤؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٥١.

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما : المكْرُ عشرة أجزاء : تسعة منها في القِبْط ، وواحِدٌ في سائِر النَّاس [١] .

ويُقالُ : أربعةٌ لا تُعْرَف في أربعة : السَّخَاءُ في الرُّوم ، والوَفاءُ في التُّرْك ، والشَّجَاعَة في القِبْط ، والغَمُّ[a] في الزَّنْج .

ووَصَفَ ابنُ القِرِّيَّة[b] أَهْلَ مصر فقال : عَبيدٌ لمن غَلَب ، أَكْيَسُ الناس صِغارًا ، وأَجْهَلُهم كِبارًا .

وقال المَسْعوديُّ : لمَّا فَتَحَ عُمَر بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - البلادَ على المسلمين من العِراق والشَّام ومصر وغير ذلك ، كَتَب إلى حَكيم من حُكماءِ العَصْر : «إنَّا أُناسٌ عَرَبٌ قد فَتَح الله علينا البلاد ، ونُريد أن نَتَبَوَّأ الأَرْضَ ونَسْكُن البِلاد والأَمْصَار ، فصِف لي المُدُن وأَهْوِيتها ومَساكِنها ، وما تُؤَثِّره الترب والأَهْوية في سُكَّانها» ؛ فكَتَبَ إليه : « . . . وأَمَّا أَرْضُ مصر فأَرْضٌ قَوْرَاء غَوْرَاء ، دِيارُ الفَراعِنَة ومَساكِن الجَبابِرَة ، ذَمُّها أكثر من مَدْحها ، هَواؤُها كَدِر ، وحَرُّها زائِد ، وسِرُّها بائِد[c] ، تُكَدِّر الأَلْوان والفِطَن ، وتركب الإِحَن . وهي مَعْدن الذَّهب والجَوْهَر ومَغارِس الغَلَّات ، غير أنَّها تُسَمِّن الأَبْدان وتُسَوِّد الأَبْشار[d] ، وتَنْمو فيها الأَعْمار . وفي أَهْلها مَكْرٌ ورِياء وخُبْثٌ ودَهاء وخَديعَة . وهي بَلْدَة مَكْسَب ليست بَلْدَة مَسْكَن ، لتَرادُف فِتَنِها واتِّصال شُرُورِها [٢] .

وقال عُمَرُ بن شَبَّة [٣] بنُ عُبَيْدَة[e] في كتاب «أَخْبار البَصْرَة» عن كَعْب الأحبار : خَيْرُ نِساءٍ على وَجْه الأرض نِساءُ أَهْل البَصْرَة ، إلَّا ما ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ من نِساءِ قُرَيْش ، وشَرُّ نِساءٍ على وَجْه الأَرض نِساءُ أَهل مصر .

وقال عبدُ الله بن عُمَر : ولمَّا أُهْبِطَ إبْليس ، وَضَعَ قَدَمَه بالبَصْرَة ، وفَرَّخ بمصر .

وقال كَعْبُ الأَحْبار : ومصر أرْضٌ نَجِسَة كالمرأة العاذِل ، يُطَهِّرها النِّيلُ كلَّ عام .

---

a) بولاق : العمر . b) بولاق : العربية . c) بولاق : وشرها مائد . d) بولاق : الإنسان . e) بولاق : وذكر ابن عبيدة .

---

[١] أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥١ .

[٢] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٧٩ ، ١٨٠ .

[٣] أبو زَيْد عمر بن شبَّة النميري مؤرخ ومحدّث من أهل العراق توفي في سامرّاء سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م . وكتابه «أخبار أهل البصرة» الذي يشير إليه المقريزي لم يصل إلينا إلَّا في روايات أوردها الطبري في تاريخه (انظر ابن النديم : الفهرست ١٢٥ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١١ : ٢٠٨ - ٢١٠ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ : ٦٠ - ٦٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ : ٤٤٠ ؛ الصفدي : الوافي ٢٢ : ٤٨٨ - ٤٨٩ ، Sezgin, F., *GAS* I, 345) .

وقال مُعاوية بن أبي سُفْيان : وَجَدْتُ أَهْلَ مصر ثلاثة أصْناف : فثُلُثٌ ناس ، وثُلُثٌ أشْبَه الناس بالناس [a]، وثُلُثٌ لا ناس . فأمَّا الثُّلُثُ الذين هم الناس فالعَرَب ، والثُّلُثُ الذين يُشْبِهون الناس فالمَوالي ، والثُّلُثُ الذين لا ناسَ المَسالِمَة ، يعني القِبْط .

ذِكْرُ شيءٍ من فَضَائِل النِّيل [١]

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ من حَديث أَنَس - رضي الله عنه - في حَديث المِعْراج ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «ثم رُفِعَت لي سِدْرَة المُنْتَهى ، فإذا نَبْقَها مثل قِلال هَجَر ، وإذا وَرَقُها مثل آذان الفِيَلَة . قلت : ما هذا يا جِبْريل ؟ قال : هذه سِدْرَة المُنْتَهى . وإذا أربعة أنْهار : نَهْران باطِنان ، ونَهْران ظاهِران . فقلت : ما هذا يا جِبْريل ؟ قال : أمَّا الباطِنان فنَهْران في الجَنَّة ، وأمَّا الظَّاهِران فالنِّيل والفُرات» [٢].

وفي التَّوْراة : وخَلَقَ فِرْدَوْسًا في عَدْن ، وجَعَل الإنسانَ فيه ، وأَخْرَج منه نَهْران فقَسَّمَهما أربعة أجزاء : جَيْحون المُحيط بأرض حويلا ، وسَيْحون المحيط بأرض كُوش وهو نيل مصر ، ودِجْلَة الآخِذ إلى العراق ، والفُرات [٣].

---

a) بولاق : يشبه الناس .

---

[١] احتلَّ نهر النِّيل مكانةً كبيرةً في المكتبة العربية ، وشُغِلَ الجغرافيون العرب بمعرفة متابعه ومسلكه حتى مصبه في البحر المتوسط ، وأفردوا له مؤلَّفات خاصة . ولكن الاكتشاف الحقيقي لأعالي النِّيل ومتابعة تمَّ في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي على أيدي الرحالة الأوربيين الذين اكتشفوا البحيرات العظمى وحدَّدوا سلسلة جبال Ruwenzovi مع جبل القَمَر ، كما يرجع الفضل في اكتشاف جزء كبير من النِّيل الشرقي إلى الحملة العسكرية المصرية سنة ١٨٢٠-١٨٢٢م حيث أسِّست مدينة الخرطوم (راجع ، محمد عوض محمد : نهر النيل ، القاهرة ١٩٦٥؛ محمد حمدي المناوي : نهر النيل في المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦، استقصى فيه ما ورد في المصادر الجغرافية والتاريخية ؛ Kramers, J.H., EI^2 art. *al-Nil* VIII, pp. 38-43; Omar Toussoun, *Mémoire sur l'histoire du Nil*, I-III, *MSAA* le Caire 1925; Guest, R., «The Delta in the Middle Ages», *JRAS* (1912), 941- ; Mazuel, J., «A la recherche des sources du Nil», *BFA-Cairo University* III (May 1935), pp. 8-18; Youssouf Kemal, *Monumenta Cartogrophica Africae et Aegypti*؛ إبراهيم أحمد رزقانه : «نهر النيل كما ورد في مخطوط معزو إلى ابن سرابيون» ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٢ (مايو ١٩٥٠) ، ١٨٧-٢٠٤؛ Abdul-ᶜAziz Kamil, «Al-Maqrizi and the Nile Flood, an Analytic and Comparative Study», *BSGE* 39 (1966), pp. 5-24 يشير فيه إلى ما ذكره المقريزي عن النيل في الخطط مقارنا بما أورده عنه في «إغاثة الأمة» ؛ وانظر كذلك قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٨؛ عبد الله يوسف الغنيم : المخطوطات الجغرافية العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج ، الكويت ١٩٩٩، ٧٥-٨٢؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 215; Kramers, J. H., EI^2 art. *al-Nil* VIII, pp. 38-43.

[٢] مسلم : الجامع الصحيح .

[٣] في جميع النسخ وردت جيحون ... وسيحون =

ورَوَى ابنُ عَبْد الحَكَم ، عن عَبْد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال : نِيلُ مصر سَيِّدُ الأَنْهار ، سَخَّرَ الله له كلَّ نَهْر بين المَشْرِق والمَغْرب . فإذا أرادَ الله أن يُجْري نِيلَ مصر أَمَرَ كلَّ نَهر أن يُمِدَّه ، فتُمِدّه الأَنْهارُ بمائِها ، وفَجَّر الله له الأَرْضَ عُيونًا فأَجْرَته إلى ما أراد الله عَزّ وجَلّ ، فإذا انتهت جَرْيَتُه أَوْحَى إلى كلِّ ماءٍ أن يَرْجع إلى عُنْصُره .

وعن يَزيد بن أبي حَبيب أنَّ مُعاويَةَ بن أبي سُفْيان ـ رضي الله عنه ـ سَأَلَ كَعْبَ الأَحْبار : هل تَجِد لهذا النِّيل في كِتاب الله خَبَرًا ؟ قال : إي والذي فَلَقَ البَحْرَ لموسَىٰ ، إنِّي لأَجده في كِتابِ الله أنَّ الله يُوحي إليه في كلِّ عامٍ مرّتين : يُوحي إليه عند جَرْيتِه : إنَّ الله يَأْمُرك أن تَجْري ، فيَجْري ما كَتَبَ الله له ، ثم يُوحي إليه بعد ذلك : يا نِيلُ ، عُد حَميدًا .

وعن كَعْب الأَحْبار أنَّه قال : أَرْبَعَةُ أنهار من الجَنَّة وَضَعَها اللّه/ في الدُّنْيا : النِّيلُ نَهْرُ العَسَل في الجَنَّة ، والفُراتُ نَهْرُ الخَمْر في الجَنَّة ، وسَيْحان نَهْرُ الماءِ في الجَنَّة ، وجَيْحان نَهْرُ اللَّبَن في الجَنَّة [1] . ٥ب

وقال المَسْعودي : نَهْرُ النِّيل من سادات الأَنْهار وأَشْراف البِحار ، لأنَّه يخرج من الجَنَّة على ما وَرَدَ به خَبَرُ الشَّريعَة .

وقد قالت : إنَّ النِّيلَ إذا زادَ غاضَت له الأَنْهارُ والأَعْيِنُ والآبار ، وإذا غاضَ زادَت ؛ فزيادتُه من غيضها ، وغَيْضُه من زيادتها وليس في أنهار الدُّنْيا نَهْرٌ يسمَّى بَحْرًا [ويَمًّا][a] غير نِيل مصر لِكبَرِه واسْتِبحاره [2] .

وقال ابنُ قُتَيْبَة في كِتاب «غَريب الحَديث» : وفي حَديثه عليه السَّلام : «نَهْران مُؤْمنان ونَهْران كافِران ، أمَّا المُؤْمِنان فالنِّيلُ والفُراتُ ، وأمَّا الكافِران فدِجلَة ونَهْر بَلْخ» ، إنَّما جَعَل النِّيلَ والفُراتَ مؤمنَيْن على التَّشْبيه لأنهما يَفيضان على الأَرض ، ويَسْقِيان الحَرْث والشَّجَر ، بلا تَعَبٍ في ذلك ولا مَئُونَة ، وجَعَلَ دِجْلَة ونَهْر بَلْخ كافرين لأنهما لا يَفيضان على الأَرْض ، ولا يَسْقيان إلَّا شَيْئًا قليلًا ، وذلك القَليل بتعبٍ ومَئُونَة ، فهذان في الخَيْر والنَّفْع كالمؤمنين ، وهَذان في قِلَّة الخَيْر والنَّفْع كالكافرين [3] .

---

a) زيادة من المسعودي .

= وأثبت Wiet اعتمادًا على سفر التكوين أن النهرين هما : فيسون وجيحون (نشرة ڤييت ١: ٢١٦ هـ٦، ٨) .

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٤٩ - ١٥٠، وقارن أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣٤؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٣٤٠.

[2] المسعودي : مروج الذهب ٢: ٦٦، ٦٧.

[3] لم أجد هذا الخبر في نشرة غريب الحديث لابن قتيبة ؛ وقارن المسعودي ، مروج الذهب ١: ١١٢.

ذِكْرُ مَخْرَجِ النِّيلِ وانْبِعَاثِه

اعْلَمْ أنَّ البَحْرَ المُحيط بالمَعْمور إذا خَرَج منه نَهْرُ الهِنْد، افْتَرَقَ قِطعًا كما تقدَّم، وكان منه قِطعَة تُسَمَّى بَحْرُ الزَّنْج، وهي ممَّا يلي بلاد اليَمَن وبَحْر بَرْبَر. وفي هذه القِطْعَة عِدَّةُ جَزائِر منها جَزيرة القُمْر (بضَمّ القاف وإسْكان الميم وراء مهملة)[1]. ويُقالُ لهذه الجَزيرةِ أيضًا جَزيرة ملاي، وطولها أربعة أشهر، في عَرْض عشرين يومًا إلى أَقَلّ من ذلك. وهذه الجَزيرة تُحاذي جَزيَرة سَرَنْديب، وفيها عِدَّةُ بلاد كثيرة، منها قَمَرية، وإليها يُنْسَب الطائر القَمَريّ.

ويُقال: إنَّ بهذه الجَزيرة خَشَبًا يُنْحَت من الخَشَبَة ساقٌ طوله ستون ذِراعًا يَحْذف على ظَهْره مائة وستون رجلًا، وإنَّ هذه الجَزيرَة ضاقَت بأَهْلِها، فبَنَوا على السَّاحِل محلَّات يَسْكُنونها في سَفْح جَبَلٍ يُعْرَف بهم يُقالُ له جَبَل القَمَر.

واعْلَم أنَّ الجِبالَ كلَّها مَتَشعِّبَة من الجَبَل المُسْتَدير بغالِب مَعْمُور الأرْض، وهو المسمَّى بـ« جَبَل قاف »، وهو أمّ الجِبال كلِّها، تَتَشعَّب منه فيَتَّصل في مَوْضِع ويَنْقَطِع في آخَر، وهو كالدَّائِرَة لا يُعْرَف له أوَّل إذ كان كالحَلْقَة المستديرة لا يُعْرَف طَرَفاها، وإن لم يكن اسْتِدارَة كُرِيَّة ولكنَّها اسْتدارَة إحاطَة.

وزَعَم قومٌ أنَّ أُمَّهات الجِبال جَبَلان: خَرَجَ أحَدُهما من البَحْر المُحيط في المغرب آخِذًا جَنوبًا، وخَرَجَ الآخر من البَحْر الرُّومي آخِذًا شَمالًا، حتى تَلاقَيا عند السَّدّ، وسَمُّوا الجَنوبي «قاف»، وسمُّوا الشَّمالي «قاقُونا». والأَظْهَر أنَّه جَبَلٌ واحِدٌ ومُحيط بغالِب بَسيط المَعْمور، وأنَّه هو الذي يسمَّى بجَبَل قاف، فيُعْرَف بذلك في الجَنُوب ويعرف في الشَّمال بجبل قاقونا.

ومَبْدأُ هذا الجَبَل المحيط في كَتِف السَّدّ آخِذًا من وَراء صَنَم الخَطا المَحْجوج[a] إلى شُعْبَته الخارِجة منه المَعْمُول بها باب الصِّين آخِذًا على غربي صين الصِّين، ثم يَنْعَطِف على جَنوبه مُسْتَقيمًا في نهاية الشَّرْق على جانِب البَحْر المُحيط مع الفُرْجَة المُنْفَرِجة بينه وبين البَحْر الهِنْدي الداخِلَة، ثم

---

a) بولاق: الخط المشجوج.

---

[1] ضبطت بعض المصادر جبل القُمْر حيث منابع النيل أيضًا بضم القاف وإسكان الميم، ولكنني آثرت ضبط الجزيرة فقط بهذا الضبط وأبقيت على ذكر الجبل باسم القَمَر وضبطه المعروف.

يَنْقَطع عند مَخْرَج البحر الهِنْدي المُحيط مع خَطّ الاسْتِواء، حيث الطُّول مائة وسبعون دَرَجَة، ثم يتَّصِل من شُعْبَة البَحْر الهِنْدي الملاقي لشُعْبَة المُحيط الخارِجَة إلى بَحْر الظُّلُمات من الشَّرْق بجَنُوب كثير من وَراء مَخْرَج البَحْر الهِنْدِي في الجَنُوب. وتَبْقَى الظُّلُماتُ من هاتين الشُّعْبَتَيْن: شُعْبَة المُحيط الجاثِيَة على جُنُوب الظُّلُمات شَرْقًا بغرب [a]، ومَخْرَجُ البَحْر الهِنْدي الجاثية على الظُّلُمات، حتى تَتَلاقَى الشُّعْبتان عند مَخْرج هذا الجَبَل كتفصيل السَّراويل، ثم يَنْفَرِج برأْس البَحْرَيْن شُعْبَتان على مَبْدأ هذا الجَبَلَ، ويبقى الجَبَلُ بينهما كأنَّه خارِجٌ من نفْس الماء.

ومَبْدَأُ هذا الجَبَل هنا وَراءَ قُبَّة أَرْين عن شَرْقيها، وبُعْدُه منها خمس عشرة دَرَجَة. ويُقالُ لهذا الجَبَل في أوَّله المُجَرَّد، ثم يمتدّ حتى ينْتَهي في القِسْم الغربي إلى طوله إلى خمس وستين دَرَجَة من أوَّل المغرب. وهناك يَتَشعَّب من الجَبَل المذكور جَبَل القَمَر، ويَنْصَبّ منه النِّيل. وبه أَحْجارٌ بَرَّاقة كالفِضَّة تتلألأ تُسَمَّى صَنْجة الباهِب [b]، كلُّ من نَظَرَها ضَحِكَ والْتَصَق بها حتى يموت، ويسمَّى مَغْناطيس الناس، ويتشعَّب منه شِعْبٌ يسمَّى أَسيفي، أَهْلُه كالوُحُوش، ثم يَنْفَرِج منه فُرْجَةٌ، ويمرُّ منه شِعْبٌ إلى نهاية المغرب في البَحْر المُحيط يُسَمَّى جَبل وَحْشية، به سِباعٌ لها قُرون طِوال لا تُطاق، ويَنْعطف دون تلك الفُرْجة من جبل قاف شِعابٌ، منها شُعبتان إلى خَطّ الاسْتواء يكْتنفان مَجْرَى النِّيل من الشَّرْق والغَرْب، فالشَّرْقي يُعْرَف بجَبَل فاقُولا [c]، ويَنْقَطع عند خطِّ الاسْتِواء، والغَرْبي يعرف بأَدَمَدْمَة [d] يجْري عليه نِيلُ السُّودان المسمَّى ببحر الدَّمادِم، ويَنْقَطع تِلْقاء مَجالات الحَبَشة ما بين مَدينَة سَمْغَرَة وجيمي وراء هذه الشُّعْبَة، يمتدّ منه شُعْبَة هي الأمّ من الموضع المعروف فيه الجَبَل بأسيفي المذكور إلى خَطّ الاسْتِواء، حيث الطُّول هناك عشرون درجة، ويُعْرَف هناك بجبل كوسقانة [e]، وبه وُحوش ضارية.

ثم ينتهي إلى البحر المُحيط وينقطع دونه بفُرْجَة، وذلك وراء التَّكْرور عند مَدينَة قَلَنْبو [f]. ووَراء هذا الجَبَل سُودانٌ يُقالُ لهم نَمْنَم يأكلون الناس. ثم تتَّصل الأم من ساحل/ البحر الشَّامي في شماله شرقيّ رومية الكبرى مُسامِتًا للشُّعْبة المسماة أَدَمَدْمَة المنقطعة بين سَمْغَرة وجيمي، لا يكاد يَخْطوها حيث الطول خمس وثلاثون دَرَجة. ويَقَعُ منشأُ اتِّصال هذه الأم على عَرْض خمسين دَرَجة، وكذلك تقع شُعَبها الآخِذَة في الجَنُوب على عرض خمسين دَرَجة عند آخرها، ما بين سِرْدانية [g] وبَلَنْسِيَة.

---

a) بولاق: مغربا. b) ضحكة الباهت. c) بولاق: قاقول. d) بولاق: بأدمريه. e) بولاق: كرسقابة. f) بولاق: قلمتبورا. g) بولاق: سردانة.

وتتناهى وَصْلَة هذه الأمم إلى البحر المُحيط في نهاية الشَّمال قُبالَة جَزيرة برطانية[a]، وتبقى سوسية داخل الجَبَل. ثم تمدُّ هذه الأمم بعد انقطاع لطيف، وتَنْعَطف مع انْعِطاف خَرْجَة البحر المحيط في الغرب بشمال على الصَّقْلب المسمَّاة بِبَحْر الأنقليشين ممتدًا إلى غاية المَشْرق، ويسمَّى هناك بجبل قاقونا، ويبقى وراءَه بالبحرة الجامِدة[b] لشدَّة البرد، ثم ينعطف من الشَّمال إلى المَشْرق جَنوبًا بتَغْريب إلى كَتِف السَّدّ الشَّمالي، فيتلاقى هناك الطَّرَفان، وبينهما في الفُرْجَة المنفرجة ساوى[c] ذو القرنين بين الصَّدَفَيْن.

وفي جَزيرَة القُمْر ثَلاثَة أنْهَار: أَحَدُها في شَرْقيها من قَنْطُورا ومَعْلا، وثانيها في غربيها ينصب من جبل قَدَم آدَم على مَدينَة سَبَأ، ويأخذ مارًّا على مَدينَة فزدرا، وينجر هناك بُحَيْرَة في جنوبها مَدينَة كيماما[d] حيث محلّ السُّودان الذين يأكلون الناس، وثالثها في غربيها أيضًا. ويخرج من الجَبَل المُشْبِه بياء مخْذوف[e] الذيل، يطوف بمَدينة دَهْمي، فتبقى مَدينَة دَهْمي [f]بينه وبين البحر الهندي[f] في جَزيرَة بينهما يكون هو مُحيطًا بها شرقًا وجنوبًا وغربًا، وتصير لذلك كالجَزيرَة، ويتَّصل شمالُها بالبحر الهندي، وتقع مَدينة فورانة[g] في غَرْبية حيث يصبّ في البحر الهِنْدي.

ومن جَبَل القَمَر يَخْرُج نَهْرُ النِّيل، وقد كان يَتَبَدَّد على وَجْه الأرض. فلمَّا قَدِمَ نَقْراوس الجَبَّار ابن مصرايم الأوَّل بن مركائيل بن دوابيل بن غرياب بن آدَم ـ عليه السَّلام ـ إلى أرض مصر ومعه عِدَّة من بني غرياب، واسْتَوْطَنوها، وبنوا بها مَدينَة أمسوس وغيرها من المدائن، حَفَروا النِّيل حتى أَجْرَوا ماءَه إليهم؛ ولم يكُن قَبْل ذلك مُعْتَدل الجَرْي، بل يَنْبَطِح ويَتَفَرَّق في الأرض، حتى وَجَّه إلى النُّوبَة الملك نقراوش [جماعةً][h] فهَنْدَسوه، وساقُوا منه أنهارًا إلى مواضِع كثيرة من مُدُنِهم التي بنوها، وساقُوا منه نهرًا إلى مَدينَة أَمْسُوس[1].

ثم لمَّا خَرِبَت أرْضُ مصر بالطُّوفان كانت أيَّام البودسير بن قِفْط بن مصر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح ـ عليه السَّلام ـ عَدَّل جانبيّ النِّيل تَعْديلًا ثانيًا بعد ما أَتْلَفه الطُّوفانُ.

قال الأسْتاذُ إبراهيم بنُ وَصِيف شَاه: فمَلَكَ البُودسير وتَجَبَّر، وهو أوَّلُ من تَكَهَّنَ وعَمِلَ بالسِّحر واحْتَجَب عن العُيون. وقد كانت أعْمامُه أُشْمُن وأَتْريب وصَا مُلوكًا على أحْيازِهم، إلَّا

a) بولاق: بركانية. b) بولاق: البحر جامدًا. c) بولاق: سوى. d) بولاق: كيما. e) بولاق: ماء محدودب. (f-f) ساقطة من بولاق. g) بولاق: قواره. h) إضافة مما تقدم ١: ١٩.

[1] فيما تقدم ٤٧.

أنّه قَهَرَهُم بجَبَروته وقُوَّته فكان الذِّكْرُ له، كما تَجَبَّر عليهم[a] أبوه من قَبْلِه لأنَّه كان أكْبَرَهم، ولذلك أغْضَوا عنه.

فيُقالُ إنّه أَرْسَلَ هِرْمِس الكاهِن المِصْري إلى جَبَل القَمَر الذي يَخْرج النِّيلُ من تحته حتى عَمِل هناك هيكل[a] التَّماثيل النُّحاس، وعَدَل البَطِيحة التي يَنْصَبُّ إليها ماءُ النِّيل. ويُقالُ إنَّه الذي عَدَّل جانبي النِّيل، وقد كان يفيض، وربَّما انْقَطَع في مواضِع[1].

وهذا القَصْرُ الذي فيه تَماثيل النُّحاس يشتمل على خمس وثمانين صُورَة، جَعَلَها هِرْمِس جامِعَةً لما يَخْرُج من ماء النِّيل بمَعاقِد ومَصاب مُدَبَّرَة[b]، وقَنَوات يَجْري فيها الماءُ، ويَنْصَبّ إليها إذا خَرَج من تحت جَبَل القَمَر، حتى يدخل من تلك الصُّوَر ويخرج من حُلوقها وجَعَل لها قِياسًا[c] مَعْلومًا بمَقاطِع وأذْرُع مُقَدَّرَة، وجَعَلَ ما يَخْرُج من هذه الصُّوَر من الماء يَنْصَبّ إلى الأنْهار، ثم يَصيرُ منها إلى بَطِيحَتَيْن، ويَخْرُج منهما حتى ينتهي إلى البَطيحَة الجامِعَة للماء الذي يخرج منه تحت الجَبَل.

وعملَ لتلك الصُّوَر مَقادير من الماء الذي يكون معه الصَّلاح بأرْض مصر وينتفع به أهلُها دون الفَساد، وذلك الانْتِهاء المُصْلح ثمانية عشر ذِراعًا بالذِّراعِ الذي مقداره اثنان وثلاثون أُصْبُعًا، وما فَضُل عن ذلك عُدِلَ [به][d] عن يمين تلك الصُّور وشِمالها إلى مَسارِب يخرج ويَصُبّ في رِمال وغِياضٍ لا يُنْتَفع بها من خَلْف خَطِّ الاسْتِواء، ولولا ذلك لغَرَّقَ ماءُ النِّيل البُلْدان التي يمرُّ عليها[2].

قال: وكان الوَليدُ بن دَوْمَع العَمْليقي قد خَرَجَ في جَيْشٍ كَثيف يَتَنَقَّل في البُلْدان ويَقْهَر مُلوكها ليَسْكُن ما يُوافِقه منها، فلمَّا صارَ إلى الشَّام انتهى إليه خَبَرُ مِصْر وعِظَم قَدْرها، وأنَّ أَمْرَها قد صارَ إلى النِّساء وبادَ مُلوكُها، فوَجَّه غُلامًا له يُقالُ له عَوْن إلى مصر، وسار إليها بعده واسْتَباح أهْلَها، وأَخَذَ الأمْوالَ، وقَتَلَ جماعَةً من كَهَنَتِها.

ثم سَنَحَ له أن يَخْرُج ليقف على مَصَبّ النِّيل فيَعْرِف ما بناحيته[e] من الأُمَم، فأقامَ ثلاث سنين يستعد لخُروجه، وخَرَجَ في جَيْشٍ كثيف[f]، فلم يَمُرّ بأمَّة إلا أبادَها، ومَرَّ على أُمَم السُّودان

---

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: مدورة. c) بولاق: قماشا. d) إضافة من المسعودي. e) بولاق: بحافتيه. f) بولاق: عظيم.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٩؛ وقارن مع المسعودي: أخبار الزمان ١٠٦-١٠٧.

[2] هذا النص موجود عند المسعودي: أخبار الزمان ٢١٣-٢١٤.

وجاوَزَهم، ومَرَّ على أَرْض الذَّهَب فرأى فيها قُضْبانًا نابِتَة من ذَهَب.

ولم يَزَل يَسير حتى بَلَغَ البَطيحَة التي يَنْصَبُّ ماءُ النِّيل فيها من الأَنْهار التي تَخْرُج من تحت جَبَل القَمَر، وسارَ حتى بَلَغَ هَيْكَلَ الشَّمْس وتجاوَزَه حتى بَلَغَ جَبلَ القَمَر، وهو جَبَلٌ عالٍ، وإنَّما سُمِّيَ جَبَل القَمَر لأنَّ القَمَر لا يَطْلَع عليه لأنَّه خارِجٌ من تحت خَطِّ الاسْتِواء[1].

ونَظَرَ إلى النِّيل يَخْرُج من تحته فيَمُرُّ في طَرائِق كأنَّها رِقاق[a] حتى ينتهي إلى حَظيرتَيْن، ثم يَخْرُج منهما في نَهْرَيْن حتى ينتهي إلى حَظيرة أخرى، فإذا جازَ[b] خَطَّ الاسْتِوَاء أَمَدَّتْه/ عَيْنٌ تخرج من ناحية نَهْر مَهْران[c] بالهِنْد، وتلك العَيْن أيضًا تَخْرُج من تحت جَبَل القَمَر إلى ذلك الوَجْه. ويُقَالُ إنَّ نَهْرَ مَهْران[c] مثل النِّيل يزيد ويَنْقُص، وفيه التَّماسيح والأَسْماك التي مثل أَسْماك النِّيل. ووَجَدَ الوَليدُ بن دَوْمَغ القصر الذي فيه التَّماثيل النُّحاس التي عَمِلَها هِرْمِس الأَوَّل في وَقْت البُوْدسير بن قُفْطريم بن قُبْطيم بن مِصْرايم[2].

وقد ذَكَرَ قَوْمٌ من أَهْل الأَثَر أنَّ الأَنْهارَ الأربعة تَخْرُج من أَصْلٍ واحِد من قُبَّة في أَرْض الذَّهَب التي من وَرَاء البَحْر المُظْلِم، وهي سَيْحُون وجَيْحُون والفُرات والنِّيل، وأنَّ تلك الأَرْض من أَرْض الجَنَّة، وأنَّ تلك القُبَّة من زَبَرْجَد، وأنَّها قَبْل أن تَسْلُك البَحْر المُظْلِم أَحْلى من العَسَل وأطيب رائِحَةً من الكافُور؛ ومِمَّن جاءَ بهذا رَجُلٌ من وَلَد العِيص بن إسْحاق بن إبراهيم عليهما السَّلام وَصَلَ إلى تلك القُبَّة، وقَطَع البَحْر المُظْلِم، وكان يُقالُ له حائِد[3].

وقال آخرون: تَنْقَسم هذه الأَنْهارُ على اثنين وسبعين قِسْمًا حِذاء اثنين وسبعين لِسانًا للأُمَم؛ وقال آخرون: هذه الأَنْهارُ من ثُلُوج تتكاثَف، ويُذيبها الحَرُّ فتَسيل إلى هذه الأَنْهار، وتَسْقي من عليها، لِمَا يُريدُ الله عَزَّ وجَلَّ من تَدْبير خَلْقِه؛ قالوا: ولَمَّا بَلَغ الوَليدُ جَبَل القَمَر، رأى جَبَلًا عالِيًا فعَمِلَ حيلةً إلى أن صَعِدَ إليه لِيَرى ما خَلْفَه، فأَشْرَف على البَحْر الأَسْوَد الزِّفْتِيّ المُنْتِن، ونَظَرَ إلى النِّيل يَجْري عليه كالأنهار الرِّقاق، فأَتَتْه من ذلك البَحْر رَوائِحُ مُنْتِنَة هَلَكَ كثيرٌ من أَصْحابه من

---

a) بولاق: وأنهار دقاق. b) بولاق: جاوز. c) في جميع النسخ مكران وصوبها فييت إلى مهران.

---

[1] يتفق النص مع ما نقله النويري عن ابن وصيف شاه في نهاية الأرب ١٥: ١١٤، وقارن كذلك مع المسعودي: أخبار الزمان ١١٢-١١٣.

[2] المسعودي: أخبار الزمان ١١٣ وقارن مع النويري: نهاية الأرب ١٥: ١١٥.

[3] يوجد هذا النص عند المسعودي: أخبار الزمان ٢١٤.

أَجلها، فأَسْرَع النُّزُول بعد أن كادَ يَهْلِك. وذَكَرَ قَوْمٌ أَنَّهم لم يَرَوْا هناك شَمْسًا ولا قَمَرًا، إلَّا نُورًا أحمر كنُور الشَّمْس عند غِيابها [1].

وأَمَّا ما ذُكِرَ عن حائِد وقَطْعِه البَحْر المُظْلِم ماشِيًا عليه لا يَلْصق بقَدَمه منه شيءٌ وكان فيما يُذْكَر نَبِيًّا، وأُوتِيَ حِكْمَةً، وأَنَّه سَأَل الله تعالى أن يُريه مُنْتَهى النِّيل فأَعْطَاه قُوَّةً على ذلك فيُقال إنَّه أقامَ يَمْشي عليه ثلاثين سنة في عُمْران، وعشرين سنة في خَراب [2].

قالوا: وأَقامَ الوَليدُ في غَيْبَته أربعين سنة [3]، وعادَ ودَخَل مَنْف، فأقامَ بمصر فاسْتَعْبَد أَهْلَها، واسْتَباحَ حَرِيمَهم وأَمْوالَهم، ومَلَكَهم مائة وعشرين سنة فأَبْغَضُوه وسَئِموه، إلى أن رَكِبَ في بعض أَيَّامه مُتَصَيِّدًا، فأَلْقاه فَرَسُه في وَهْدَة فَقَتَله، واسْتَراحَ النّاسُ منه [4].

وقال [5] قُدامَة بن جَعفَر في كتاب «الخَراج»: انْبِعاثُ النِّيل من جَبل القَمَر وراء خَطِّ الاستواء من عَيْنٍ تجري منها عشرة أنْهار، كلّ خمسة منها تَصُبّ إلى بَطيحَة، ثم يَخْرُج من كلِّ بَطيحَة نَهْران، وتَجْري الأَنْهارُ الأربعة إلى بَطيحَة كبيرة في الإقْليم الأوَّل، ومن هذه البَطيحَة يَخْرُج نَهْرُ النِّيل.

وقال في كِتاب «نُزْهَة المُشْتاق في اخْتِراق الآفاق[a]»: إنَّ هذه البُحَيْرَة تُسَمَّى بُحَيْرَة كُوري مَنْسوبَة لطائِفَة من السُّودان يَسْكُنُون حَوْلَها مُتَوَحِّشين يأْكُلون مَنْ وَقَعَ إليهم من النَّاس. ومن هذه البُحَيْرَة يَخْرُج لهم نَهْرُ غانَة وبَحْر الحَبَشَة، فإذا خَرَجَ النِّيلُ منها يَشُقّ بِلاد كوري وبلاد ينه، وهم طائِفَة من السُّودان بين كانِم والنُّوبَة. فإذا بَلَغَ دُمْقُلَة مَدينَة النُّوبَة عَطَفَ من غَرْبِيها وانْحَدَرَ إلى الإقْليم الثّاني، فيكون على شَطَّيْه عِمارَة النُّوبَة، وفيه هناك جَزائِر مُتَّسِعَة عامِرَة بالمُدُن والقُرَى، ثم يشرق إلى الجَنادِل [6].

وقال المَسْعُودِيُّ رَحِمَه الله تعالى: رَأَيْتُ في كِتاب «جُغرافيا النِّيل» مُصَوَّرًا ظاهِرًا من تحت جَبَل القَمَر، ومَنْبَعه ومبدأ ظُهوره من اثنتي عشرة عَيْنًا، فتَصُبُّ تلك المياه إلى بُحَيْرَتَيْن هنالك

---

a) الأصل: إلى اختراع، بولاق: إلى اختراق.

---

[1] يتفق النص مع المسعودي: أخبار الزمان ٢١٨ وقارن مع النويري: نهاية الأرب ١٥:١١٥ ومصدره فيه ابن وصيف شاه؛ مجهول المؤلف: الاستبصار ٤٥، ٧٣.

[2] تلخيص لما ورد عند المسعودي: أخبار الزمان ٢١٤-٢١٧.

[3] المسعودي: أخبار الزمان ٢١٨.

[4] المسعودي: أخبار الزمان ٢٢٣؛ النويري: نهاية الأرب ١٥:١١٩ نقلًا عن ابن وصيف شاه.

[5] من هنا يتفق المقريزي مع النويري: نهاية الأرب ١: ٢٦٢؛ وكتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي المتوفى سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م نشر قسم منه نشره دي خويه De Goege في القسم السادس من المكتبة الجغرافية ليدن ١٨٩٢.

[6] النويري: نهاية الأرب ١: ٢٦٢، ولا يوجد هذا =

كالبَطائِح ، ثم يجتمع الماءُ منها جاريًا فيمر برمالٍ هنالك وجبال ، ويخرق أرض السُّودان فيما يلي بلاد الزَّنْج ، فيتشعَّب منه خَليجٌ يصبّ في بَحْر الزَّنْج ويَجْري على وَجْه الأرض تسع مائة فَرْسَخ وقيل ألف فَرْسَخ في عامرٍ وغامرٍ من عُمران وخَراب ، حتى يأتي أُسْوان من صَعيد مصر[1].

وقال في كتاب هُرُوشيُوش : نَهْرُ النِّيل مَخْرَجه من رِيف بَحْر القُلْزُم ، ثم يَميل إلى ناحِية الغَرْب ، فيَصير في وَسَطه جَزيرة ، وآخر ذلك يَميل إلى ناحية الشَّمال فيَسْقي أرْض مصر . وقيل إنَّ مَخْرَجه من عَيْنٍ فيما يُجاوز الجبَل ، ثم يَغيب في الرِّمال ، ثم يَخْرُج غير بعيد فيَصير له مَحْبَس عَظيم ، ثم يُساير البَحْر المُحيط على قِفَار الحَبَشَة ، ثم يَميل على اليَسَار إلى أرْض مصر ، فيحق ما يُظَنّ بهذا النَّهْر أنَّه عَظيم ، إذْ كان مَجْراه على ما حَكَيْناه .

قال : ونَهْرُ النِّيل وهو الذي يُسَمَّى بأُون[a] مَخْرَجُه خَفيٌّ ، ولكن ظاهِرَ إقْباله من أرْض الحَبَشَة ، ويَصير له هُناك مَحْبَس عَظيم مَجْراه إليه مائتا ميل . وذَكَر مَخْرَجه حتى يَنْتَهي إلى البحر .

قال : وكثيرًا ما يُوجد في نَهْر النِّيل التَّماسيحُ ، وإقْبالُ النِّيل من أرْض الحَبَشَة ليس يَخْتَلِف فيه أحَدٌ ، وعِدَّةُ أمْياله من مَخْرَجِه المعروف إلى مَوْقِفِه مائة ألف وتسعون ألفًا وتسع مائة وثلاثون ميلًا . وماءُ النِّيل عَكِرٌ مُرَمَّل عَذْبٌ دَفِئٌ[2]. انتهى .

والنِّيلُ إذا وَصَلَ إلى الجَنادِل كان عند انْتِهاء مَراكِب النُّوبة انْحِدارًا ، ومَراكِب الصَّعيد إقْلاعًا . وهناك حِجارَةٌ مُضَرَّسَة لا مُرور للمَراكِب عليها إلَّا في أيَّام زيادة النِّيل ، ثم يأْخُذ على الشَّمال فيكون على شَرْقيه أُسْوان من الصَّعيد الأعْلَى ، ويَمُرُّ بين جَبَلَيْن يَكْتَنِفان أعْمال مصر : أحَدُهُما شَرْقي ، والآخَر غَرْبي ، حتى يأتي مَدينَة فُسْطاط مصر فيكون في بَرِّه الشَّرْقي . فإذا تَجاوَز فُسْطاطَ مصر بَمسافَة يوم ، صار فُرْقَتَيْن : فُرْقَة تَمُرّ/ حتى تَصُبّ في بحر الرُّوم عند دِمْياط ، وتُسَمَّى هذه

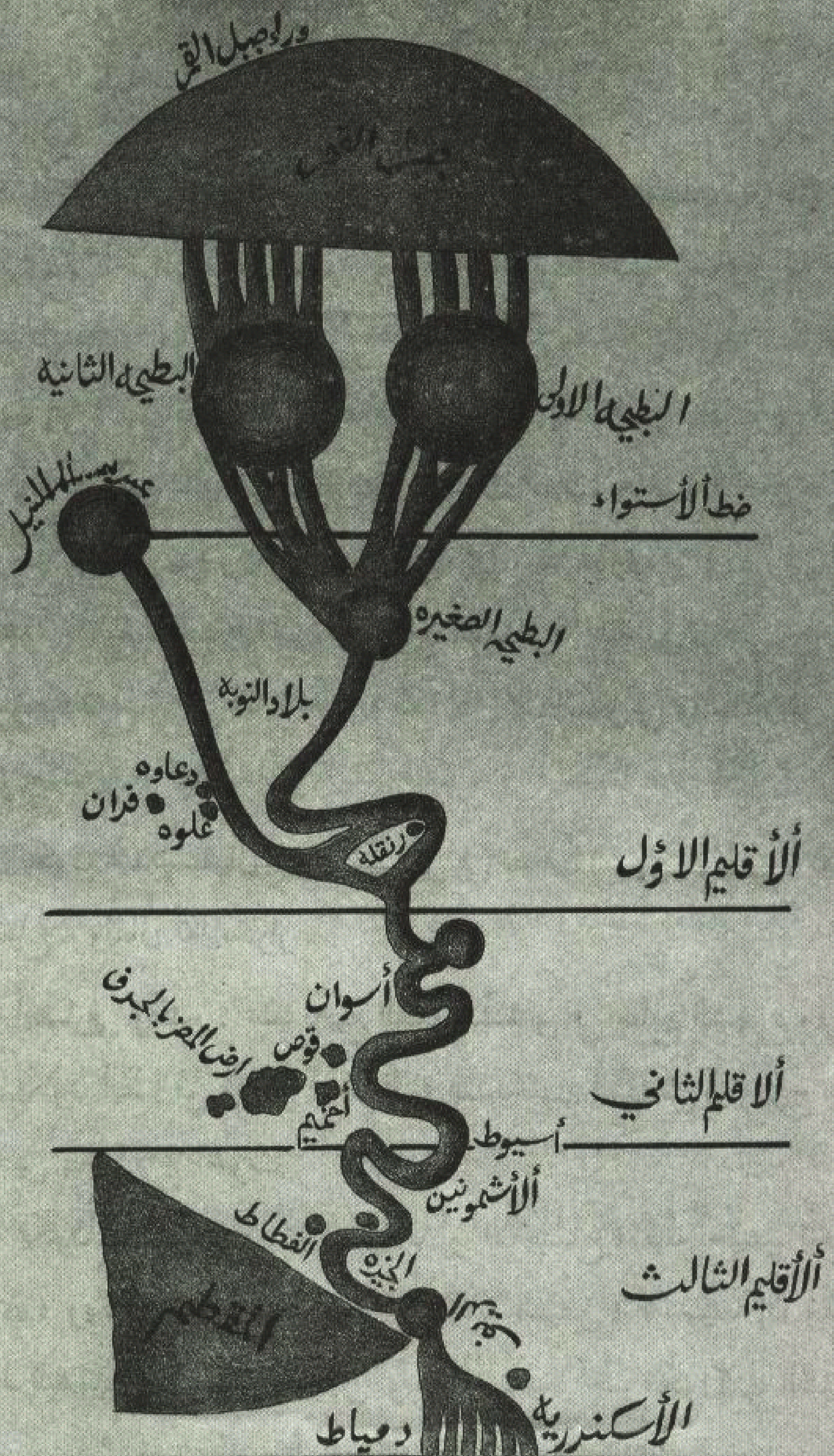
---

a) الأصل : بارون .

= النص فيما وصل إلينا من كتاب «نزهة المشتاق» للإدريسي ، فلم يرجع المقريزي مباشرةً إلى كتاب «نزهة المشتاق» وإنما اقتبس ما نقله النويري في نهاية الأرب!، وانظر كذلك نفس النص عند السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٣٤٦-٣٤٧ (نقلًا عن مباهج الفكر للوطواط الكتبي) .

[1] المسعودي : مروج الذهب ١: ١١٢، ١١٤.

[2] أوروسيوس : تاريخ العالم ٦١- ٦٢، ٧٩-٨١ ومقدمة عبد الرحمن بدوي ٢٨-٢٩ حيث قارن بين نص المقريزي والأصل اللاتيني لبيان دقة الترجمة وصحة النقل .



شكل ١ - خريطة مَجْرَى النِّيل للخُوارَزْمي (عن عُمَر طوسون)

الفُرقة بَحْر الشَّرق ، والفُرْقَة الأُخْرى هي عَمُود النِّيل ومعظمه ، يُقالُ لها بَحْر الغَرْب ، تَمُرُّ حتى تَصُبّ في بحر الرُّوم أيضًا عند رَشيد ، وكانت مَدينَة كبيرةً في قَديم الزَّمان .

ويُقالُ : إنَّ مَسافَة النِّيل من مَنْبَعه إلى أن يَصُبّ في البَحْر عند رَشيد سبع مائة وثمانية وأربعون فَرْسَخًا ، وإنَّه يَجْري في الخَراب أربعة أشهر ، وفي بلاد السُّودان شهرين ، وفي بلاد الإسْلام مَسافَة شهر .

وذَهَبَ بعضُهم إلى أنَّ زِيادَة ماء النِّيل إنَّما تكون بسَبَب المَدّ الذي يكون في البَحْر ، فإذا فاضَ ماؤه تراجَع النِّيلُ وفاضَ على الأراضي ، ووُضِعَ في ذلك كتابٌ حاصِله أنَّ حَرَكَة البحر التي يُقالُ لها المَدُّ والجَزْرُ تُوجَد في كلّ يَوْم ولَيْلَة مرَّتين ، وفي كلّ شهر قَمَري مرَّتين ، وفي كلّ سنة مرَّتين.

فالمَدُّ والجَزْرُ اليوميّ تابعٌ لقُرْص القَمَر ، ومَخْرَج الشُّعاعي[a] عنه من جَنْبَتي جَرْم الماء ، فإذا كان القَمَرُ وَسَط السَّماء كان البَحْرُ في غايَة المَدّ ، وكذا إذا كان القَمَرُ في وَتَد الأرْض ، فإذا بَزَغَ القَمَرُ طالِعًا من الشَّرْق أو غَرَبَ ، كان الجَزْر .

والمَدُّ الشَّهْريّ يكون عند اسْتِقْبال القَمَر للشَّمْس في نصف الشهر ، ويُقالُ له الامْتِلاء ويكون[b] أيضًا عند الاجْتِماع ، ويُقالُ له السِّرار .

والجَزْرُ يكون أيضًا في وَقْتَيْن : عند تَرْبيع القَمَر للشَّمْس في سابع الشهر ، وفي ثاني عشريه .

والمَدُّ السَّنَويُّ يكون أيضًا في وَقْتَيْن : أحَدُهُما عند حُلول الشَّمْس آخِر بُرْج السُّنْبُلة ، والآخَر عند حُلول الشَّمْس بآخِر بُرْج الحُوت .

فإن اتَّفَق أن يكون ذلك في وقت الامْتِلاء أو الاجْتِماع ، فإنَّه حينئذٍ يَجْتَمِع الامْتلاءان الشَّهْري والسَّنويّ ، ويكون عند ذلك البَحْر في غاية الفَيْض ، لا سِيَّما إن وَقَع الاجْتماع أو الامْتِلاء في وَسَط السَّماء ، ووَقَع مع النَّيِّرَيْن أو مع أحَدِهما أحَدُ الكَواكِب السَّيَّارَة ، فإنَّه يَعْظُم الفَيْضُ . فإن وَقَعَ كَوْكَبٌ فصاعِدًا مع أحد النَّيِّرَيْن تَزايَد عِظَم الفَيْض ، وكانت زيادة النِّيل تلك السَّنَة عَظيمة جدًّا ، وزادَ أيضًا نَهْر مهران .

فإن كان الاجْتِماعُ أو الامْتِلاءُ زائِلًا عن وَسَط السَّماء ، وليس مع أحَد النَّيِّرَيْن كَوْكَبٌ ، فإنَّ النِّيل ونَهْر مهران لا يَبْلُغان غاية زيادتهما لعَدَم الأنْوار التي تُثير المياه ، ويكون بمصر في تلك[b] السَّنَة الغَلاء .

---

a) بولاق : ويخرج الشعاع . b) ساقط من بولاق .

والجَزْرُ السَّنَوي يكون عند[a] حُلول الشَّمْس برأسي الجَدْي والسَّرَطان .

فأمَّا الـمَدُّ اليَوْمي الدَّافِع من البَحْر المُحيط ، فإنَّه لا ينتهي في البحر الخارِج من المُحيط أكثر من دَرَجَة واحِدَة فلكية ، ومِساحَتُها من الأَرْض نحو من ستين ميلًا ثم يَنْصَرِف ، وانْصِرافه هو الجَزْر . وكذلك الأَوْدية إذا كانت الأَرْضُ وَهْدَة .

والمَدُّ الشَّهْرِيُّ ينتهي إلى أقاصِي البِحار ، وهو يُمْسِكُها حتى لا تَنْصَبّ في البَحْر المُحيط ، وحيث ينتهي المَدُّ الشَّهْرِي فهناك مُنْتَهى ذلك البَحْر وطَرَفه .

وأمَّا المَدُّ السَّنَويّ فإنَّه يَزيد في البحار الخارِجة عن البحر المحيط زيادة بيِّنَة ، ومن هذه الزِّيادَة تكون زِيادَةُ النِّيل وامْتِلاؤه وامْتِلاءُ نَهْر مَهْران والديتلو الذي ببلاد السِّنْد .

قال : ولمَّا جاءَ أرِسْطُو إلى مصر مع الإسْكَنْدَر ، ورأَى مَصَبَّ النِّيل ، وعَلِمَ أنَّه[b] من المُحال أن يكون النِّيلُ في أُسْوان وادٍ من الأَوْدية ، وما[c] أَسْحَل اتَّسَع حتى إنَّ عَرْضَه في أَسْفَل ديار مصر لينتهي إلى مائة ميل عند غاية الفَيْض ، وله أفْواهٌ كثيرةٌ شارِعَةٌ في البحر تَسَع كلَّ ما يهبط من الميزان في ذلك الصُّنْع ، فرأى مُحالًا أن يكون الوادي بحيث يَضيق أسْفَلُه عن حَمْل ما يأتي به أعْلاه ، مع ضيق أعْلاه وسَعَه أسْفَلِه . فلمَّا رأَى ذلك قال : إنَّ رِياحًا[d] تَسْتَقْبل جَرْية الماء وتَرْدَعه فيَفيض لذلك .

وقال الإسْكَنْدَر الأفروديسي[e] : إنَّ من المُحال أن يكون الرِّيحُ يَرْدَع الماءَ السَّائل في الوادي حتى يَفيضَ أكثر من مائة ميل ، ولو كانت الرِّيحُ تَفْعَل ذلك لكان الماءُ يَنْفَلِت من أسْفَل الوادي ويَسيل إلى البَحْر ، لأنَّ البَحْرَ لا يَمْسك إلَّا أعْلاه ، ولكن الرِّياحَ تَقْذف الرَّمْلَ في أفْواه تلك الشَّوارِع التي تُفْضي إلى البَحْر ، فيَعْتَريها شِبْه الرَّدْم ، فيَفيض .

قال : وأغفل أنَّ الرَّمْلَ جِسْمٌ مُتَخَلْخِل فالماء يَتَخَلَّله ويُنْفِذه سائِلًا إلى البحر ، مع أنَّ الرَّمْلَ لم يَمْتَلِ امْتِلاءً يظهر للحِسّ ، والماءُ سائلٌ في كلِّ حين على حَلْق تِنِّيس ودِمْياط وحَلْق رَشيد وحَلْق الإسْكَنْدَرية ، ففَطِنُوا لاسْتِحالَة كَوْنه سائِلًا عن سَيْلٍ حامِلٍ ، ونَسَبُوا تَوَقُّفَه إلى الرِّيح والرَّمْل . وهم اسْتَقْصَوا الهَواءَ واسْتَقْصَوا الأرض ، وأَغْفَلُوا الاسْتِقْصاء الثَّالِث الذي هو الماء ، لأنَّهم لم يَعْرِفوا حَرَكَة البَحْر السَّنَوِيَّة لأنَّها لا تَبْلُغ الغاية إلَّا في ثلاثة أشْهُر ، فلا يَظْهَر مِقْدارُ صُعودِها في كلِّ يوم للحِسّ ، ولذلك وَضَعَ أَميرُ مصر المِقْيَاس بدِيار مصر .

---

a) ساقطة من الأصل . b) بولاق : أن . c) بولاق : وكلما . d) الأصل : رباط . e) ساقطة من الأصل .

قال: والمَدُّ كلُّه واحِد، وهو أنَّ القَمَر يُقابِل الماءَ كما تُقابِل الشَّمْسُ الأرْض. فنُورُ القَمَر إذا قابَل كُرَة الأرْض سَخَّنَها، كما تُسَخِّن الشَّمْسُ الهَواءَ المُحِيط، فيَعْتَري الهَواءَ المُحِيط بالماء بعضُ تَسْخين يُذيب الماءَ، فيَفيض ويَنْمَى بخاصَّته، كالمِرْآة المُحَرِّقَة المُلْهِبَة للجَوّ حتى تَحْرِق القُطْنة الموضوعَة بين المِرْآة والشَّمْس؛ فهذا مِثالُه في المُقابَلَة.

ومِثالُه في المسرار كَوْن الزُّجاجَة المَمْلوءَة ماءً يُلْقَى الشُّعاعُ إلى حَلْقها فتَحْتَرِق القُطْنَة أيضًا، فالقَمَرُ جِسمٌ نُورِيٌّ باكْتِسابه ذلك من الشَّمْس، فإذا حالَ بين الشَّمْس والأرْض خَرَج عن جانِبَي الماء شُعاعٌ نافِذٌ يمرُّ مع جَنْبي الماء فيُسَخِّن ما قابَلَهُ فيَنْمو، والماءُ جِسْمٌ شَفَّاف عن جانِبَيْه/ يَخْرُج الشُّعاعُ كما يَخْرُج عن جانبي الزُّجاجَة، فيَحْدُث لها نورٌ يُسَخِّن الهواءَ الذي يُحيط بالزُّجاجَة أو بالأرْض، فيَعْتَري الماءُ شِبْه تَسْخين يَنْمَى به ويَزيد، وذلك قُبالَة القُرْص، وقُبالَة مَخْرَج الشُّعاع من قُبالَة وَتَد القَمَر. فهذا هو المَدُّ دائمًا، ويَسْتَدير باسْتِدارَة الفَلَك وتَدْويره لفَلَك القَمَر، وتَدْوير فَلَك القَمَر للقَمَر.

والمَدُّ الشَّهْري هو أن يُقابِل القَمَرُ الشَّمْسَ أو يَسْتَتِر تَحْتَها، لأنَّه ليس إلَّا كَوْن القَمَر قُبالَة الشَّمْس، لكَوْنه في تَرْبيع الشَّمْس أضْعَف، وفي المُقابَلَة أقْوَى. وكذلك إذا قابَلَها على وَسَط كُرَة الأرض، بحيث تكون الحَرَكَة أشَدّ، والاكْتِناف للماء والأرْض أعَمّ، فذلك هو المَدُّ السَّنَوي.

فَصْلٌ في الرَّدّ على مَنْ اعْتَقَد أنَّ النِّيل من سَيْلٍ يَفيضُ

أمَّا العامَّةُ فليس عندهم ما يجيء على وَجْه الأرض أنَّه سَيْلٌ، ومن تَفَطَّن إلى عِظَمِه واتِّساعِه في أسْفَلِه وضِيقِه في أعْلاه، ولم ينظر إلى ماءٍ ولا أرْض ولا هَوَاء، نَسَبَ ذلك إلى الخَيال المَحْض، كما فَعَلَ صاحِبُ كتاب «المَسالِك والمَمالِك»[1] الذي زَعَمَ أنَّ الماءَ يُسافِر من كلِّ أرْض ومَوْطِنٍ إلى النِّيل تحت الأرض فيمدّه، لأنَّ النِّيلَ إنَّما يَفيضُ في الخَرِيف، والعُيون والآبار في ذلك الوَقْت يَقِلّ ماؤها، والنِّيلُ يَكْثُر، فرأَوْا كَثْرَةً وقِلَّةً فأضافُوا أحَدَهما إلى الآخر بالخَيال.

---

[1] لم يحدد المقريزي هنا مؤلف كتاب «المسالك والممالك» المقصود، ولم أجد بدوري هذا النص وما ينقله منه بعد ذلك في كتب المسالك والممالك التي وصلت إلينا، سواء للإصطخري أو ابن خرداذبة أو ابن حوقل أو البكري!

[a]وقال آخر: إنَّما ذلك مَلَكٌ يضع رِجْلَه في الماء فيكثر ويزيله من الماء فيقلّ[a].

ومِمَّا يدلُّك على أنَّه ليس عن سَيْل يَفيض أنَّ السَّيْلَ يكون في غير وَقْت فَيْض البَحْر، ولا يَفيضُ النِّيلُ لكَوْن البحر في الجزْر، فيَصل السَّيْلُ ويمرُّ نحو البَحْر فلا يَرْدَعه رادِعٌ.

ومنها أنَّ فَيْضَ النِّيل على تَدْريج مُدَّةِ ثلاثة أشهر من حُلول الشَّمْس رَأْس السَّرَطان إلى حُلولها بآخر بُرْج السُّنْبُلَة، والناسُ يحسبون به قبل فَيْضه بمُدَّة شهرين. ولعامِل مصر في وَسَط النِّيل مِقْياسٌ مَوْضُوعٌ، وهو سارِيَة فيها خُطوط يُسَمُّونها أَذْرُعًا يُعْلم بها مِقْدار صُعوده في كلِّ يوم.

ومنها أنَّ فَيْضَه أَبَدًا في وَقْتٍ واحِد، فلو كان بالسَّيل لاخْتَلَف بعض الاخْتِلاف.

ومنها أنَّه قد يَجِيءُ السَّيْلُ في غير هذا الوَقْت فلا يَفيض.

ومنها أنَّ الحُذَّاقَ بمصر إذا رَأَوْا الحَرَّ يَزيد، عَلِمُوا أن النِّيلَ يزيد[b]، لأنَّ شِدَّةَ الحَرِّ تُذيبُ الهَواء فيَذوب الماءُ، ولا يكون إلَّا عن زِيادَة كَوْكَب ودُنُوّ نُورٍ.

ومنها أنَّ مَوْضِعَ مَصَبِّه من أُسْوان إنَّما هو وادٍ من الأَوْدية، وما أَسْحَلَ اتَّسَعَ حتى يكون عَرْضُ اتِّساعِه نحوًا من مائة ميل، وأُسْوان هو منتهى بُلوغ الرَّدْع، فما ظَنُّك بسَيْلٍ مسيره نصف شهر، لا نِسْبَة بين مَصَبِّ أعلاه وأسْفله، كيف كان يكون أعلاه لو كان امْتِلاء أسْفَله عن السَّيْل؟

ومنها أنَّ أَهْلَ أُسْوان إنَّما يَرْقُبون بُلوغَ الرَّدْع إليهم مُراقَبَة، ويُحافِظون عليه بالنهار مُحافَظَةً، فإذا جَنَّ اللَّيْلُ أَخَذُوا حُقَّة خَزَف فوَضَعُوا فيها مِصْباحًا، ثم وَضَعوه[c] على حجر مُعَدّ عندهم لذلك وجَعَلُوا يَرْقُبُونه، فإذا طَفِيءَ[d] حَجَرِ المِصْباحُ بطَفْو الماء عليه، عَلِموا أنَّ الرَّدْعَ قد وَصَلَ غايته المعهودة عندهم بأَخْذه في الجزْر، فكتبُوا[e] بذلك إلى أمير مصر يُعْلِمونه أنَّ الرَّدْعَ قد وَصَلَ غايته المعهودة عندهم، وأنَّهم قد أَخذوا بقِسْطهم من الشُّرْب. فحينئذٍ يأْمُر بكَسْر الأَسْداد التي على أَفْواه فُرَض[f] المشارِب، فيَفيضُ الماءُ على أرض مصر دَفْعَةً واحِدَةً.

ومنها أنَّ جَميعَ تلك المَشارِب تُسَدُّ عند ابْتِداء صعود[g] النِّيل بالخَشَب والتُّراب، ليَجْتَمِع ما يَسيل من الماءِ العَذْب في النِّيل، ويَكْثُر فيَعُمّ[h] جَميع أرْضهم، ويَمْنَع بجملته دُخول الماءِ المِلْح عليه، فلو كان سَيْلًا ما احتاج إلى ذلك، ولفُتِحَت له أَفْواهُ فُرَض[i] المَشارِب عند ابْتِداء ظُهوره.

(a-a) هذه العبارة ساقطة من بولاق. b) بولاق: سيزيد. c) بولاق: يضعونه. d) بولاق: أطفئ. e) بولاق: فيكتبون. f) بولاق: قرص. g) ساقطة من بولاق. h) بولاق: ويعم. i) بولاق: قرص.

ومنها أنَّ الخُلْجانَ إذا سُدَّت ولم يكن لها وادِعٌ من البحر، كان السَّيْلُ يَمُدُّ[a] من جَنْبه إلى البحر، إذ أسْفَل النّيل أوْسَعُ وأخْفَضُ من أعلاه.

ومنها أنَّ ماءَ البحر يَصْعد أكثر من عشرين ميلًا في حَلْق رَشيد وتِنّيس ودِمْياط، كما يَفْعَل في سائر الأدوية التي يَدْخُلها[b] المَدّ والجزْر، فلو كان النّيلُ خاليًا من الماء العَذْب، وَصَلَ البحرُ من أُسْوان إلى مُنتَهى بُلُوغ الرَّدْع، لأنَّ الماءَ يَطْلُب بطَبْعِه ما انْخَفَضَ من الأرض، وأن تكون صَفْحَته[c] كُرَةً مستوية الخُطوط الخارِجَة من النُّقْطَة إلى المحيط مُتساوية.

ومنها أنَّها إذا فُتِحَت تلك الأَسْداد، وكُسِرَت الخُلُج، وفاضَ النّيلُ على بَطائِح أرض مصر، شَعَر بذلك أهْلُ أُسْوان للحين، وقالوا: في هذه السَّاعَة كُسِرَت الخُلُج وفاضَ ماءُ النّيل على أرض مصر، لأنَّ ذلك يتبيَّن لهم بتحوُّل الماء دَفْعَة. فلو كان سَيْلًا، وهم على أعْلى المَصَبّ، لقالوا: قد ارْتَفَع المَطَرُ عن الأرض التي يَسيلُ منها السَّيْل.

ومنها أنَّ قَسيمَه الذي يمرُّ ببلاد الحَبَشَة، المُنْبَعِث وإيّاه من جَبَل القَمَر، لا يفيض كمُدَّة فَيْض النّيل ثلاثة أشهر، ولا يُقيم على وَجْه الأرض مُدَّةَ مقامه، لكنَّه إذا كَثُرَ فيه السَّيْلُ غَمَرَ جوانِبه على قَدْر انْبِساطها، فإذا انْصَبَّت[d] مادَّتُه أُزْرِع[e] عليه، فلو كان فَيْضُ النّيل عن السَّيْل، وهما من شِعْبٍ واحِد، لكان شأنهما واحِدًا.

ولا نقول إنَّ فَيْضَ النّيل بسبب فَيْض البَحْر فقط، إذ لولا كَوْنه سَيْلَ ماء لما دَخَلَ رَدْعُ البحر إليه، ولكان شاطئ ديار مصر كسائِر السَّواحِل المُجاوِرَة له، ولولا السَّيْلُ السَّائِل فيه لَرَدَمَه البَحْر، إذ عادَة البَحْر رَدْم السَّواحِل. وإنَّما دَخَلَ/ الشَّكُّ على أهْل مصر في أيّام النّيل لأنَّهم لم يُشاهِدوا مَنْشَأه، ولا عايَنُوا مَبْدأه من جَبَل القَمَر، لأنَّه في مَوْضِع لا ساكِن عليه، ولم يَحَقَّقوا[f] المَدَّ السَّنَوي الرادِع له، فلم يتحقَّقوا شيئًا من أمْره لأنَّه بعيدٌ من أذْهان العامَّة أن يَعْلَموا أنَّ ماءَ البحر يَعْظُم في أيّام الصَّيْف، لأنَّ المعهودَ عندهم في البحر أن يَعْظُمَ في أيّام الشِّتاء. وطَمُوُ البحر في الشِّتاء إنَّما[g] يكون عن الرِّياح الهابَّة عليه من أحد جانِبَيْه، فيفيض ويَخْرُج إلى الجانِب الآخَر، إلَّا ما كان من البَحْر المُحيط فإنَّه يتحرَّك أبَدًا من داخِل البحر إلى البَرّ، وهو أنَّ المحيطَ يطلب بطَبْعِه أن يكون على وَجْه الأرض، والأرضُ ليست بَسْطَةً فهي تُمانِعُه بما فيها من التركيب، فهو يَطْلُب أبَدًا أن يَعْلوها وتركيبها يبرزها[h].

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: تدخل. c) بولاق: يكون في صفحة. d) بولاق: وإذا نضبت.
e) بولاق: أردع. f) بولاق: ولا تحققوا. g) بولاق: إنّما. h) بولاق: ويركبها يبردها.

قالَ : والسَّبَبُ في عِظَم الـمَدّ والجزْر كَثْرَةُ الأَشِعَّة ، فإذا زاحَمَت الشَّمْسُ والقَمَرُ الكواكِبَ السَّيَّارة ، عَظُمَ فَيْضُ البحر ، وإذا عَظُمَ فَيْضُ البحر فاضَت الأَنْهارُ ، وكذلك إذا نَهَضَ القَمَرُ لمقابَلَة أَحَد السَّيَّارَة ارْتَفَعَ البُخار ، وصَعِد إلى كُرَة[a] الزَّمْهَرير ، ونَزَل المَطَرُ . فإذا فارَق القَمَرُ الكَوْكَبَ ارْتَفَع المَطَرُ لكثرة التحليل ، كما يكون في نصف النَّهار عند تَوَسُّط الشَّمْس لرؤوس الخَلْق ، وكما يكون عند حُلول الكَواكِب الكثيرة[b] على وَسَط خَطّ أرين ، والله تعالى أَعْلَم بالصَّواب .

قال كاتِبُه[c]: الذي يَحْصُلُ من هذا القَوْل أنَّ النِّيلَ مَخْرَجُه من جَبَل القَمَر ، وأنَّ زيادَته إنَّما هي من فَيْض البَحْر عند الـمَدّ . فأمّا كَوْنُ مَخْرجه من جَبَل القَمَر فمُسَلَّم إذ لا نِزاع في ذلك ، وأمَّا أنَّ[d] زيادته لا تكون إلَّا من رَدْع البحر له بما حَصَل فيه من الـمَدّ ، فليس كذلك . نَعَم تَوالي هُبُوب الرِّياح الشَّمالية معينة[e] على وُفُور الزِّيادَة ورَدْع البحر له إعانَة على الزِّيادة .

ومن تأمَّل النِّيل عَلِمَ أنَّ سَيْلًا سالَ فيه ولا بُد ، فإنَّه لا يَزالُ أيَّام الشِّتاء وأوائِل فَصْل الرَّبيع ماؤُه صَافيًا من الكَدَرَة ، فإذا فَرَغَت أيَّامُ زيادته وكان في غاية نَقْصه تَغَيَّر طَعْمُه ، ومالَ لَوْنُه إلى الخُضْرَة ، وصارَ بحيث إذا وُضِعَ في إناء يَرْسُب منه شَبْه أجزاء صغيرة من طَحْلَب . وسَبَبُ ذلك أن البَطِيحَة التي في أعالي الجَنُوب تَرِدُها الفِيَلة ونَحْوَها من الوُحوش حتَّى يتغيَّر ماؤها ، فإذا كَثُرَت أمْطارُ الجَنُوب في فَصْل الصَّيْف ، وعَظُمَت السُّيولُ الهابطَة في هذه البَطيحَة ، فاضَ منها ما تَغَيَّر من الماء ، وجَرَى إلى أرْض مصر ، فيُقالُ عند ذلك تَوَحُّم النِّيلُ[1] .

ولا يزالُ الماءُ كذلك حتى يَعْقُبه ماءٌ مُتَغَيِّر ، ويُزاد عَكَره بزيادة الماء ، فإذا وُضِعَ منه أيَّام الزيادة شيءٌ في إناء رَسَبَ بأسْفَله طين لم يُعْهَد فيه قَبْل أيَّام الزيادة ، وهذا الطِّينُ هو الذي تَحْمِله السُّيولُ التي تَنْصَبّ في النِّيل حتى تكون زيادَتُه منها ، وفيه يكون الزَّرْعُ بعد هُبُوط النِّيل ، وإلَّا فأرْضُ مصر سَبِخَة لا تُنْبِت ولا يَنْبُت منها إلَّا ما مَرَّ عليه ماءُ النِّيل ، ورَكَدَ منه هذا الطِّين .

وقولُه[2]: «إنَّ السَّيْلَ يكون في غير وَقْت فَيْض البحر ، ولا يَفيضُ النِّيلُ لكَوْن البحر في الجزْر ، فيصل السَّيْلُ ويمرُّ نحو البحر فلا يَرْدَعُه رادِعٌ» غير مُسَلَّم ، وإن العادَة أنَّ السُّيولَ التي عليها زيادَةُ

---

a) بولاق : كورة . b) بولاق : الكبيرة . c) بهامش نسخة الأصل : في الأصل كاتبه واستعاض عنها في النص بكلمة مؤلفه . d) بولاق : كون . e) ساقطة من بولاق .

---

[1] انظر فيما يلي ١٦٢.

[2] واضح أن المقريزي يستمر في النقل عن صاحب كتاب «المسالك والممالك» الذي لم يُعَيِّنه .

ماء النِّيل لا تكون إلَّا عن غَزارَة الأمْطار ببلاد الجَنُوب، وأمْطار الجَنوب لا تكون إلَّا في الصَّيْف[a]، ولم يَعْهَد قَطّ زيادَةُ النِّيل في الشِّتاء.

وأوَّلُ دَليلٍ على أنَّ كَوْنَ زِيادَته عن سَيْلٍ يَسيل فيه إنَّما يَزيد بتَدْريج على قَدْر ما يَهْبط فيه من السُّيول.

وأمَّا اسْتِدْلاله بضيق مصَبّ[b] النِّيل في أُسْوان واتِّساعِه أَسْفَلَ الأرْض، فإنَّما ذلك لأنَّه يصبّ من عُلُوّ في مُنْخَرَق بين جَبَلَين، يُقالُ لهما الجَنادِل، ويَنْبَطِح في الأرْض حتى يَصُبّ في البَحْر، فاتِّساعه حيث لا يَجد حاجِزًا يحجزه عن الانْبساط.

وأمَّا قَوْله: «إنَّ الأَسْداد إذا كَثُرَت فاضَ الماءُ على الأرْض دَفْعَةً» فليس كذلك، بل يَصيرُ الماءُ عند كَسْر كلِّ سَدٍّ من الأَسْداد في خَليج، ثم تُفْتَح تُرَع من الخَليج إلى الخَليج إلى ما على جانبيه من الأراضي حتى يُرْوى. فمن تلك الأراضي ما يُرْوَى سَريعًا، ومنها ما يُرْوَى بعد أيَّام، ومنها ما لا يُروى لعُلُوِّه.

وأمَّا قَوْله: «إنَّ جَميعَ تلك المَشارِب تُسَدّ[c] عند ابتداء صُعود النِّيل، ليجتمع ما يَسيل من الماء في النِّيل ويَكْثُر، فيعمّ جميع أَرْضهم، ويَمْنَع بجملته دُخول الماء المِلْح عليه» فغَيْر مُسَلَّم أن تكون السُّدود[d] كما ذَكَرَ، بل أراضي مصر أقسامٌ كثيرة: منها عالٍ لا يَصل إليه الماءُ إلَّا من زِيادَة كثيرة، ومنها مُنْخَفِض يُرْوَى من يَسير الزِّيادَة[1]. والأراضي مُتفَاوِتَة في الارْتِفاع والانْخِفاض تفاوُتًا كثيرًا، ولذلك احْتيجَ في بِلاد الصَّعِيد إلى حَفْر التُّرع، وفي أسْفل الأرض إلى عَمَل الجُسُور حتى يُحْبَس الماءُ ليَتَصرَّف فيه[e] أهْل النَّواحي على قَدْر حاجَتِهم إليه عند الاحْتياج، وإلَّا فهو يَزيدُ أوَّلًا في غير وَقْت[f] سَقْى الأراضي، حتى إذا اجْتَمَع من زيادته المِقْدارُ الذي هو كفاية الأراضي في وَقْت خُلُوّ الأراضي من الغِلال وذلك غالبًا في أثناء شَهْر مِسْرَى، فُتِحَ حينئذٍ[g] الخَليج حتى يَجْري فيه الماءُ إلى حَدٍّ مَعْلوم، ووَقَفَ حتى يَرْوي ما تحت ذلك الحَدّ الذي وَقَف عنده الماءُ من الأرْض، ثم فُتِحَ ذلك الحَدُّ في يوم النَّوْروز[h] حتى يَجْري الماء[f] إلى حَدٍّ آخَر، ويَقِف عنده حتى يَرْوي ما

---

a) بولاق: أيام الصيف. b) بولاق: استدلاله بصب. c) بولاق: تستد. d) بولاق: السداد. e) بولاق: ليروي. f) ساقطة من بولاق. g) بولاق: سد. h) بولاق: النيروز.

---

[1] انظر فيما يلي ٢٧٠- ٢٧٣.

تحت هذا الحَدِّ الثاني من الأراضي ، ثم يُفْتَح هذا الحَدُّ في يوم عيد الصَّليب[١] بعد النَّوْروز بتسعة[a] عشر يومًا حتى يَجْري الماءُ ويَقِف على حَدٍّ ثالِث حتى يَرْوِي ما تَحْت هذا الحَدّ من الأراضي /، ثم يُفْتَح هذا الحَدُّ فيَجْري الماءُ ويَرْوِي ما هنالِك من الأراضي ، ويَصُبُّ في البَحْر المِلْح ؛ هذا هو الحالُ في سُدود أراضي مصر .

وقَوْلُه : «إنَّ ماءَ البَحْر يَصْعَد أكثر من عشرين ميلًا في حَلْق رَشيد وتِنِّيس ودِمْياط ، فلو كان النِّيل[b] خاليًا من الماءِ العَذْب لوَصَل البَحْرُ من أُسْوان إلى مُنْتَهَى بُلوغ الرَّدْع» ، فنقول : هذا قَوْلُ من لم يَعْرِف أرْض مصر ، فإنَّ النِّيلَ عند مَصَبِّه بأعالي أُسْوان يكون أعْلَى منه عند كونه أسْفَل الأرض بقامات عديدة ، فإذا فاضَ ماءُ البَحْر حَسْبُه أن يَتَدافَع هو وماءُ النِّيل . ورُبّما غلب ماءُ البَحْر ماء النِّيل في أيَّام نُقْصان النِّيل حتى يَمْلَح ماءُ النِّيل فيما بين دِمْياط وفارَسْكُورَ . وأمَّا في أيَّام زيادة النِّيل فإنِّي شاهَدْتُ مَصَبَّ النِّيل في البَحْر من دِمْياط ، وكلٌّ منهما يُدافِع الآخر فَلا يُطيقُه ، حتى صارا مُتمانعَيْن [c]وفي منظرهما حينئذٍ[c] عِبْرَةٌ لمن اعْتَبَر !

قَوْلُه : «إنَّ الأَسْدادَ إذا فُتِحت عَلِمَ أهلُ أُسْوان بذلك في الحال» غير مُسَلّم ، بل لم نَزَل نُشاهِد النِّيل في الأعْوامِ الكثيرة إذا فُتِحَ منه خَليجٌ أو انْقَطَع مَقْطَع فأَغْرَق ماؤه أراضي كثيرة ، لا يَظْهَر النَّقْصُ فيه إلَّا فيما قَرُبَ من ذلك المَوْضِع ، وما بَرِح المُفَرِّد يخرج من قُوص ببِشارَة وَفاء النِّيل ، وقد أَوْفَى عندهم ستة عشر ذِراعًا ، فلا يُوفِّي ذلك المِقْياس بمصر إلَّا بعد ثلاثة أيَّام ونحوها .

وأمَّا قَوْلُه : «إنَّ ما كان من النِّيل يَمُرّ ببلاد الحَبَشة يُخالِفُه» فليس كذلك ، بل الزِّيادةَ في النِّيل أيَّام زيادته تكون ببلاد النُّوبَة وما وَراءها في الجنوب كما تكون في أرْض مصر ، ولا فَرْق بينهما إلَّا في شَيْئَيْن : أَحَدُهُما أنَّه في أرْض مصر يجري في حُدود ، وهناك يَتَبَدَّد على الأراضي . والثاني أنَّ زِيادَته تُعْتَبَر بالقِياس في أرض مصر وهناك لا يُمْكن قِياسُه لتَبَدُّده . ومن عَرَفَ أخْبارَ مصر عَلِمَ أنَّ زِيادَة ماءِ النِّيل تكون من أمْطار الجَنُوب .

ويُقالُ : إنَّ النِّيل يَنْصَبُّ من عشرة أنْهار من جَبل القَمَر المتقدِّم ذكره ، كلُّ خمسة أنْهار من شُعْبَة ، ثم تَتَبَحّر تلك الأنْهار العَشْرَة في بُحَيرتين[d] كلّ خمسة أنْهار تَتَبَحّر بُحَيْرَة بذاتِها ، ثم

a) بولاق : بسبعة . b) ساقطة من بولاق . (c-c) ساقطة من بولاق . d) بولاق : بحرين .

[١] عن عيد الصليب انظر فيما يلي ٣٧٤.

يَخْرُج من البُحَيْرَة الشَّرْقِيَّة بَحْرٌ لطِيف يأْخُذ شَرْقًا على جَبَل قاقُول، ويمتدّ إلى مُدُنٍ هناك، ثم يَصُبّ في البحر الهِنْدي، ويَخْرُج من البُحَيْرَتَيْن ستة أَنْهُر، عن كلِّ بُحَيْرة ثلاثة أَنْهار. وتَجْتَمع الأَنْهارُ الستة في بُحَيْرة مُتَّسِعَة تُسَمَّى البَطيحَة، وفيها تضريسة[a] جَبَلٍ يَفْرق الماء نِصْفَيْن: يخرجُ أحَدُهما من غَرْب البَطيحَة وهو نِيلُ السُّودان ويصير نَهْرًا يسمَّى بَحْر الدَّمادِم، ويأخذُ مُغَرِّبًا ما بين سَمْغَرة وغانَة على جَنوبي سَمْغَرَة وشمالي غانَة، ثم يَنْعَطِف هناك منه فُرْقَة تَرْجع جنُوبًا إلى غانة، ثم تمرُّ على مَدينَة بَرِيسَة، وتأْخُذ تحت جَبَل في جنوبها خارِج خَطّ الاسْتِواء إلى رُفَيْلَة، ثم تتبحَّر في بُحَيْرَة هناك، وتستمرّ الفُرْقَة الثانية مُغَرِّبَة إلى بلاد مالي والتَّكْرور حتى تَنْصَبّ في البحر المُحِيط شمالي مدينة قَلْنبو.

ويَخْرُج النِّصْفُ الآخَر مُتشامِلًا آخِذًا على الشَّمال إلى شَرْقي مَدينَة جيمي[b]. ثم يتَشَعَّب منه هناك شُعْبَة تأْخُذ شَرْقًا إلى مَدينَة سَحَرْت، ثم تَرْجع جَنُوبًا، ثم تَعْطف شَرْقًا بجنوب إلى مدينة سَحَرْته، ثم إلى مَدينَة مَرْكَة، وينتهي إلى خَطّ الاستواء حيث الطُّول خمس وستون دَرَجة، ويَتَبَحَّر هناك بُحَيْرَة، ويُسَمَّى عَمُود النِّيل، من قُبالَة تلك الشُّعْبَة شرقي مَدينة شيمي مُتَشامِلًا آخِذًا على أَطْراف بِلاد الحَبَشة، ثم يَتَشامَل على بلاد السُّودان إلى مَدينَة دُمْقُلة حتى يرمي على الجَنادِل إلى أُسْوان، ويَنْحَدر وهو يَشُقّ بلاد الصَّعيد إلى مَدينَة فُسْطاط مصر، ويَمُرّ حتى يَصُبّ في البحر الشَّامي.

وقد اسْتُفيض ببلاد السُّودان أنَّ النِّيل في أصْله[a] يَنْحَدِر من جِبال سُود تَبين على بُعْد كأنَّ عليها الغَمام، ثم يَتَفَرَّق نَهْرَيْن: يَصُبُّ أحَدُهما في البَحْر المُحِيط إلى جِهَة بَحْر الظُّلْمَة الجَنوبي، والآخَر يتَّصل إلى مصر حتى يَصُبُّ في البَحْر الشَّامي. ويُقالُ: إنَّه في الجَنُوب يَتَفَرَّق سبعةُ أَنْهار تَدْخُل في صَحْراء مُنْقَطِعَة، ثم تَجْتَمع الأَنْهارُ السبعة وتَخْرُج من تلك الصَّحْراء نَهْرًا واحِدًا في بِلاد السُّودان.

ذِكْرُ مَقاييس النِّيل وزيادته

قال ابنُ عَبْد الحَكَم: أوَّلُ من قَاسَ النِّيل بمصر يُوسُف عليه السلام وَضَعَ مِقْياسًا بمَنْف، ثم وَضَعَت العَجوز دَلُوكَة ابنة زَبَّاء وهي صاحِبَة حائِط العَجُوز بأَنْصِنا وهو صغير الذرع، ومِقْياسًا

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: حاما.

بإخْميم ، ووَضَع عبدُ العَزيز ابن مَرْوان مِقْياسًا بحُلْوان ، وهو صغير ، ووَضَع أُسامَة بن زَيْد التَّنُوخي في خِلافَة الوَليد مِقْياسًا بالجزيرَة ، وهو أكبرُها . قال يحيى بن بُكَير : أَدْرَكْتُ القَيَّاسَ يَقيسُ في مِقْياس مَنْف ، ويَدْخُل بزيادته إلى الفُسْطاط [١] .

وقال القُضاعِيُّ : كان أوَّلُ من قاسَ النِّيل بمصر يُوسُف النَّبيّ[a] ـ عليه السَّلام ـ وبَنَى مِقْياسًا بمَنْف ، وهو أوَّل مِقْياسٍ وَضَعَه عليه السَّلام .

وقيل : إنَّ النِّيلَ كان يُقاسُ[b] بأرْض عَلْوَة إلى أن بُنِيَ مِقْياسُ مَنْف ، وإنَّ القِبْطَ كانت تَقيس عليه إلى أن بَطُلَ .

ومن بعده دَلُوكة العَجوز بَنَت مِقْياسًا بأَنْصِنَا ، وهو صغير الذَّرْع ، ومِقْياسًا[a] آخر بإخْميم وهي التي بَنَت الحائِط المحيط بمصر .

وقيل إنَّهم كانوا يَقيسُون الماءَ ـ قبل أن يُوضَع المِقْياس ـ بالرصاصة ، فلم يَزَل القِياسُ فيما مَضَى قبل الفَتْح بقَيْسارِيَّة الأَكْسِيَة/، ومَعالِمه هناك ، إلى أن ابْتَنَى المسلمون بين الحِصْن والبَحْر ٥٨ أبْنِيَتَهم الباقية الآن .

وكان للرُّوم أيضًا مِقْياسٌ بالقصر خَلْف الباب يَمْنَة من دَخَلَ منه في داخِل الزُّقاق ، أَثَرُه قائِمٌ إلى اليوم ، وقد بُنِيَ عليه وحَوالَيْه .

ثم بَنَى عَمْرو بن العَاص عند فَتْحه مصر مِقْياسًا بأَسْوان ، ثم بَنَى بمَوْضِعٍ يُقالُ له دَنْدَرَة .

ثم بُنِيَ في أيام مُعاوية مِقياسٌ بأَنْصِنا ، فلم يَزَل يُقاسُ عليه إلى أن بَنَى عبد العزيز بن مَرْوان مِقْياسًا بحُلْوان ـ وكانت مَنْزله ـ وكان هذا المِقياسُ صغير الذِّراع .

فأمَّا المِقْياسُ القَديم الذي بُنِيَ في الجَزيرة ، فالذي وَضَعَه أُسامَة بن زَيْد ، وقيل إنَّه كَسَرَ فيه ألفي أوقية[c]، وهو الذي بَنَى بيت المال بمصر . وبنى «أبو فتحة» [d]. ثم كَتَب أُسامَة بن زَيْد التَّنُوخي عامِل خَراج مصر لسُلَيْمان بن عبد الملك ببُطْلانه ، فكَتَب إليه سُلَيْمانُ بأن يَبْني مِقْياسًا في الجَزيرَة ، فبَنَاه في سنة سبع وتسعين [٢] .

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : كان يقاس بمصر . c) الأصل : القرافتين ! d) ساقطة من بولاق ، والكلمة غير واضحة في الأصل .

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١١٦؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٣٧٤.

[٢] نفسه ١١٦؛ المسعودي : مروج الذهب ٢: ٧١؛ ابن خلكان : وفيات ٣: ١١٦؛ Van Berchem, M., *CIA* Egypte I, pp. 18-19; Wiet, G. *RCEA* I, n°22.

ثم بَنَى المُتَوَكِّلُ فيها مِقْياسًا في أوّل سنة سبع وأربعين ومائتين في ولاية يَزيد بن عبد الله التركي على مصر، وهو المِقْياسُ الكبير المعروف بالجَديد، وأَمَر بأن يُعْزَل النَّصارَىٰ عن قِياسِه. فجَعَل يَزيدُ بن عبد الله على المِقْياس أبا الرَّدَّاد المُعَلِّم، واسمه عبد الله بن عبد السّلام بن عبد الله بن أبي الرَّدَّاد المُؤَذِّن [1]، كان يقول العَمّي: أَصْلُه من[a] البَصْرَة، قَدِمَ مصر، وحَدَّثَ بها، وجُعِلَ على قِياس النِّيل، وأَجْرَى عليه سُلَيْمانُ[b] بن وَهْب ـ صاحِب خَراج مصر يومئذٍ ـ سبعة دنانير في كلّ شهر. فلم يَزَل المِقْياسُ من ذلك الوَقْت في يد أبي الرَّدَّاد ووَلَده إلى اليوم. وتوفّي أبو الرَّدَّاد سنة ستّ وستين ومائتين [2].

ثم رَكِبَ أحمدُ بن طُولون سنة تسع وخمسين ومائتين، ومعه أبو أَيُّوب صاحِب خَراجِه، وبَكّار بن قُتَيْبَة القاضي، فنَظَرَ إلى المِقْياس وأمر بإصْلاحِه، وقَدَّرَ له ألف دينار، فعُمِّر [3].

وبَنَى الخازِنُ[c] في الصِّناعَة مِقْياسًا، وأَثَرُه باقٍ لا يُعْتَمَد عليه.

وقال ابنُ عَبْد الحَكَم: فلمّا فَتَحَ عَمْرو بن العَاص مصر أَتَى أَهْلُها إلى عَمْرو، حين دَخَلَ بؤُونَة من أشهر العَجَم[d]، فقالوا له: أيُّها الأمير، إنَّ لِنيلِنا هذا سُنَّةً لا يجري إلَّا بها؛ فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنّه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عَمَدْنا إلى جارِيَة بِكْر من أَبَوَيْها،

---

a) ساقطة من بولاق. b) الأصل: سليم. c) بولاق: الحارث. d) في النجوم الزاهرة: أشهر القبط.

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٩٣- ٢٩٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢: ٣٠٩- ٣١١؛ السيوطي: حسن المحاضرة ٢: ٣٧٤- ٣٧٦.

[2] انظر ترجمة ابن أبي الرّدّاد عند، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١١٢- ١١٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧: ٢٥٦- ٢٥٧، ويقدم لنا ابن خلكان في نهاية ترجمة ابن أبي الرّدّاد نصّ الكتابات الأربعة المنقوشة على الرخام في جوانب المقياس وقت بنائه الذي أمر به المتوكل على الله العباسي، وكلها مازال موجودًا حتى الآن ونص أحدها «... أمر ببنائه عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين، أطال الله بقاءهُ وأدام عزّه وتأييده، على يدي أحمد بن محمد الحاسب سنة سبع وأربعين ومائتين» (وفيات الأعيان ٣: ١١٣- ١١٤)؛ وانظر أيضًا Wiet, G., «Une restauration de Nilomètre de l'île de Rawda sous Mutawakkil (247/861)», *CR. de l'Académie des inscriptions et belles-lettres* (1924), pp. 202-203; id., *RCEA* II, n°460, 61, 72, 76؛ وفيما يلي ١: ٤٧١، ٢: ١٨٥.

[3] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢: ٣١١، وعن تاريخ المقياس راجع Marcel, J.I., «Mémoire sur le Meqyâs de l'île de Roudah», *Description de l'Égypte,* Etat Moderne, XV Paris 1826; Creswell, K.A.C., *EMA* II, pp. 290-307; Ghaleb, K.O., *Le Mikyâs ou Nilomètre de l'île de Rodah,* MIE t. LIV, Le Caire 1951; Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Égypte jusqu'à l'époque fatimide,* pp. 80-82.

شكل ٢ ـ مِقْياسُ النِّيل بالرَّوْضَة (عن Creswell)

فأرْضَيْنا أبَوَيْها ، وجَعَلْنا عليها من الحُلِيّ والثِّياب أفْضَل ما يكون ، ثم ألْقَيْناها في هذا[a] النِّيل؛ فقال لهم عَمْرو : إنَّ هذا لا يكون في الإسلام ، وإنَّ الإسْلامَ يَهْدِم ما قَبْلَه . فأقاموا بَؤُونَة وأبِيب ومِسْرى ، وهو لا يَجْري قَليلًا ولا كثيرًا ، حتى هَمُّوا بالجَلاء . فلمَّا رأى عَمْرو ذلك كَتَبَ إلى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ بذلك ، فكتَبَ إليه عُمَر أن قد أصَبْتَ ، إنَّ الإسْلامَ يَهْدِم ما كان قَبْلَه ، وقد بَعَثْتُ إليك بِطاقَةِ فألْقِها في داخِل النِّيل إذا أتاكَ كتابي .

فلمَّا قَدِمَ الكِتابُ إلى عَمْرو فَتَحَ البِطاقَة فإذا فيها :

«مِنْ عبد الله أمير المؤمنين ، إلى نِيل مصر . أمَّا بَعْدُ ، فإن كُنْتَ إنَّما[a]
تَجْري من قِبَلِك فلا تَجْرِ ، وإن كان الله الواحِدُ القَهَّارُ هو الذي يُجْريك ،
فنَسْألُ الله الواحِدَ القَهَّار أن يُجْريك » .

فألْقَى عَمْرو البِطاقَة في النِّيل قبل يوم الصَّليب بيوم ، وقد تَهَيَّأ أهْلَ مصر للجَلاءِ والخُروج منها ، لأنَّه لا يَقُوم بمَصْلَحَتهم فيها إلَّا النِّيل ، وأصْبَحوا يوم الصَّليب وقد أجْراه الله تعالى ستة عشر ذِراعًا في ليلة ، وقَطَعَ تلك السُّنَّة السُّوء عن أهْلِ مصر[1] .

وذَكَرَ بعضُهم أنَّ جاجِلًا الصَّدَفي هو الذي قرأ بِطاقَة عُمَر ـ رضي الله عنه ـ إلى النِّيل على النِّيل[a] حين تَوَقَّفَ ، فَجَرَى بإذن الله تعالى .

وقال يَزِيدُ بن أبي حَبيب : إنَّ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ دَعَا على آل فِرْعَوْن فحَبَسَ الله عنهم النِّيل حتى أرادوا الجَلاء ، فَطَلَبُوا إلى مُوسَىٰ أن يَدْعُو الله ، فَدَعَا الله رَجاءَ أن يُؤْمِنوا ـ وذلك ليلة الصَّليب ـ فأصْبَحوا وقد أجْراه الله في تلك السَّاعَة ستة عشر ذِراعًا . فاستجابَ الله بتطَوُّله لعُمَر ابن الخَطَّاب كما اسْتَجاب لنَبِيِّه مُوسَىٰ عليه السَّلام[2] .

قال القُضَاعِيّ : ووَجَدْتُ في رِسالَة مَنْسوبَة إلى الحَسَن بن محمد بن عبد المنعم قال : لمَّا فَتَحَت العَرَبُ مصر ، عَرَفَ عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ ما يَلْقَى أهْلُها من الغَلاء عند وُقُوف النِّيل عن حَدِّه في مِقْياسٍ لهم ، فَضْلًا عن تَقاصُره ، وأنَّ فَرْطَ الاسْتِشْعار يَدْعُوهم إلى

a) ساقطة من بولاق .

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٠- ١٥١؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١:٣٥- ٣٦؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢:٣٥٣- ٣٥٤.

[2] نفسه ١٥١.

الاحْتِكار، ويَدْعو الاحْتِكارَ إلى تَصاعُد الأَسْعار بغير قَحْط. فكَتَبَ عُمَر إلى عَمْرو يسأله عن شَرْحِ الحال فأجابَه: إنِّي وَجَدتُ ما تُرْوَى به مصر حتى لا يَقْحَط أَهْلُها أربعة عشر ذِراعًا، والحَدُّ الذي يُرْوَى منه سائِرُها حتى يَفْضُل عن حاجتهم ويُبْقي عندهم قُوتَ سنة أخرى سِتَّة عشر ذِراعًا، والنِّهايتان المَخُوفَتَان في الزيادة والنُّقْصان، وهما الظَّمأ والاسْتِبْحار، اثنا عشر ذِراعًا في النُّقْصان، وثمانية عشر ذِراعًا في الزِّيادَة.

هذا، والبَلَدُ في ذلك الوَقْت مَحْفُورُ الأنهار، مَعْقودُ الجُسُور، عندما تَسَلَّموه من القِبْط، وخَمِيرَة العِمارَة فيه.

فاسْتَشار أميرُ المؤمنين عُمَر - رضي الله عنه - عَلِيًّا - رضي الله عنه - في ذلك، فأَمَرَه أن يَكْتُبَ إليه أن يَبْني مِقْياسًا، وأن يُنْقص ذِراعَيْنِ من اثني عَشْر ذِراعًا، وأن يُقِرَّ ما بَعْدَها على الأَصْل، وأن يُنْقِص من كلِّ ذِراع بعد الستة عشر ذِراعًا أُصْبُعَيْنِ. ففعل ذلك، وبَنَاه بحُلْوان، فاجْتَمَع له بذلك كلُّ ما أراد من حَلِّ الإرْجاف وزَوال ما مِنْه كان يَخاف، بأن جَعَلَ الاثنى عَشْر ذِراعًا أربع عشرة، لأنَّ كلَّ ذِراع أربع وعشرون أُصْبُعًا، فجَعَلَها ثمانيًا وعشرين من أَوَّلها إلى الاثني عَشَر / ذِراعًا يكون مبلغ الزيادة على الاثني عَشْر ثَمانيًا وأربعين أُصْبُعًا، وهي الذِّراعان، وجَعَل الأَرْبَع عشرة ستّ عشرة والستّ عشرة ثماني عشرة والثماني عشرة عشرين[1].

قال القُضَاعِيُّ: وفي هذا الباب[a] نَظَرٌ في وَقْتنا لزيادة فَسَاد الأنهار وانْتِقاض الأحوال. وشاهِدُ ذلك أنَّ المَقايِيسَ القَديمة[b] الصَّعيدِيَّة من أَوَّلها إلى آخِرها أَرْبَع وعشرون أُصْبُعًا كلّ ذِراع، والمَقايِيس الإسْلامية على ما ذُكِر، منها المِقْياسُ الذى بَناهُ أُسامَة بن زَيْد التَّنُوخي بالجَزيرَة، وهو الذي هَدَمَه الماءُ. وبَنَى المَأْمُونُ آخَر بأَسْفَل الأَرض بالبَشْرودات، وبَنَى المُتَوَكِّلُ آخَر بالجَزيرَة، وهو الذي يُقاسُ عليه الماءُ الآن، وقد تَقَدَّم ذكره.

قال ابنُ عُفَيْر عن القِبْط المُتَقَدِّمين: إذا كان الماءُ في اثني عشر يومًا من مِسْرى اثنتي عشرة ذراعًا، فهي سَنَةُ ماء، وإلَّا فالماءُ ناقِصٌ، وإذا تَمَّ ستّ عشرة ذِراعًا قبل النَّوْروز فالماءُ يتمّ، فاعْلَم ذلك.

a) بولاق: الحساب. b) في الأصل: القائمة.

[1] السيوطي: حسن المحاضرة ٢: ٣٧٤-٣٧٥ نقلًا عن ابن حبيب.

وقال أبو الصَّلْت : وأمَّا النِّيلُ ويَنْبوعه ، فهو من وَراءِ خَطِّ الاسْتِواء من جَبَل هناك يُعْرَف بجَبَل القَمَر ، فإنَّه يَبْتَدئ في التزايد في شهر أَبيب[a]. والمصريون يقولون : «إذا دَخَلَ أَبيب كان للماء دَبيب» . وعند ابْتِدائِه في التَّزايُد تَتَغَيَّر جميعُ كَيْفياته وتَفْسُد ، والسَّبَبُ في ذلك مُرورُه بنَقائِع مِياهٍ آجِنَة يُخالِطُها فيجتلبها [ويستخرجها][b] معه [ويَسْتَصْحِبها][b]، إلى غير ذلك ممَّا يحتمله[1].

فإذا بَلَغَ الماءُ خمسة عَشْرَ ذِراعًا ، وزادَ من السادس عشر أصْبُعًا واحِدًا ، كُسِرَ الخَليج . ولكَسْره يومٌ معدود ، ومَقامٌ مَشْهُود ، ومُجتمع غاصّ ، يحضره العامّ والخاصّ . فإذا كُسِرَ فُتِحَت التُّرَع ـ وهي فُوْهات الخُلْجان ـ ففاضَ الماءُ وساحَ ، وغَمَرَ القِيعان والبِطاح ، وانْضَمَّ الناسُ إلى أعالي مَساكنهم من الضِّياع والمَنازِل ، وهي على آكام ورُبًى لا ينتهي الماءُ إليها ، ولا يَتَسلَّط السَّيْلُ عليها ، فتَعودُ أرضُ مصر بأسْرِها عند ذلك بَحْرًا غامِرًا لما بين جَبَلَيها ، رَيْثما يبلُغ الحَدّ المحدود في مَشيئة الله ـ عزَّ وجَلّ ـ له ، وأكثر ذلك يَحُوم حول ثماني عشرة ذِراعًا .

ثم يأخذ عائِدًا في صَبِّه إلى مَجْرَى النِّيل ومَسْرَبه ، فيَنْضُب أوَّلًا عمَّا كان من الأرض عالِيًا ، ويصير فيما كان منها مُتطامِنًا ، فيترك كلَّ قَرارَة كالدرهم ، ويُغادِر كلَّ تَلْعَة كالبُرْد المسهَّم[2].

وقال القاضي ، أبو الحَسَن عليّ بن محمد الماوَرْدي[3] في كتاب «الأَحْكام السُّلْطانِيَّة» : وأمَّا الذِّراعُ السَّوْداء فهي أَطْول من ذِراع الدُّور بأَصْبُع وثُلُثي أَصْبُع ، وأَوَّل مَنْ وَضَعَها أميرُ المؤمنين

---

a) بعد ذلك في الرسالة المصرية : الذي هو بالرومية يولية . b) إضافة من الرسالة المصرية . c) في الرسالة المصرية : وعم الغيطان والبطاح .

---

[1] أمية بن عبد العزيز : الرسالة المصرية ١٧.

[2] نفسه ١٩- ٢٠.

[3] القاضي أبو الحسن عليّ بن محمد بن حبيب الماوردي ، فقيه شافعي ولد بالبصرة سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م ، وتوفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م . تولى القضاء أكثر من مرة وفي سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م منح لقب «أقضى القضاة» وأرسله الخليفة العباسي القائم بأمر الله في سفارات متعددة . وضع الماوردي العديد من المؤلفات في الأدب والتفسير والأحكام الشرعية . والكتاب الذي اعتمد عليه المقريزي هنا هو كتابه الشهير «الأحكام السلطانية» وبفضل هذا الكتاب الذي يقنن لأحكام الدولة الإسلامية تعرّف الاستشراق على الماوردي ونقل كتابه إلى اللغات الأوروبية أكثر من مرة (الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٢ :١٠٢- ١٠٣؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٥ :٥٢- ٥٥؛ ابن خلكان : وفيات ٣ :٢٨٢- ٢٨٤؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨ :٦٤- ٦٨؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٥ :٢٦٧- ٢٨٥؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٢١ :٤٥١- ٤٥٣؛ Brockelmann, C., *EI²* art. *al-Māwardi* VI, pp. 859-60).

هارُون الرَّشيد ، قَدَّرَها بذِراع خادِمٍ أَسْود كان على رَأْسه قائِمًا ، وهي التي تَتعامَل الناسُ بها في ذَرْع البَزّ والتجارة والأَبْنِيَة وقِياس نِيل مصر [١].

وأكثر ما وُجِدَ في القِياس من النُّقْصان سنة سبع وتسعين ومائة ، وُجِدَ في المِقْياس تسعة أَذْرُع وأَحَد وعشرون أَصْبُعًا . وأقلّ ما وُجِدَ منه سنة خمس وستين ومائة ، فإنّه وُجِدَ فيه ذراعٌ واحد وعشر أصابع . وأَكْثَرُ ما بَلَغَ في الزِّيادة سنة تسع وتسعين ومائة ، فإنّه بَلَغَ ثمانية عَشْر ذِراعًا وتسعة عَشَر أَصْبُعًا . وأقلّ ما كان في سنة ستٍّ وخمسين وثلاث مائة الهلالية ، فإنّه بَلَغ اثني عشر ذِراعًا وتسع عشرة أَصْبُعًا ، وهي أَيّامُ كافُور الإخْشيدي .

والمِقْياسُ عَمُودُ رُخام أبيض مُثَمَّن ، في مَوْضع يَنْحَصِر فيه الماءُ عند انْسِيابه إليه ، وهذا العمودُ مُفَصَّل على اثنين وعشرين ذِراعًا كلّ ذِراع مُفَصَّل على أربعة وعشرين قِسْمًا مُتساوية تُعْرَف بالأَصابع ، ما عَدَا الاثني عشر ذِراعًا الأُولى فإنّها مُفَصَّلة على ثمانٍ وعشرين أَصْبُعًا كلّ ذِراع .

وقال المَسْعُوديّ : قالت الهِنْدُ : زيادَةُ النّيل ونُقْصانه بالسُّيول ، ونحن نعرف ذلك بتَوالي الأَنْواء وكَثْرَة الأَمْطار [ورُكود السَّحاب] [a]؛ وقالَت الرُّومُ : لم يزد قطُّ ولم يَنْقُص ، وإنّما زيادته ونُقْصانه من عيون كَثُرَت واتَّصلَت . وقالت القِبْطُ : زيادتُه ونُقْصانه من عُيونٍ في شاطِئه يَراها من سافَر ولَحِق بأعاليه . وقيل لم يزد قط ، وإنّما زيادته بريح الشَّمال ، إذا كَثُرَت واتَّصلَت تَحْبِسه ، فيفيض على وَجْه الأرض [٢].

وقال قَوْمٌ : سَبَبُ زيادته هُبوب ريح تُسَمَّى ريح المُلْتِين [b]، وذلك أنّها تَحْمِل السحابَ الماطِر من خَلْف خَطِّ الاسْتِواء ، فيُمْطِر بِلاد السُّودان والحَبَشَة والنُّوبَة ، فيأتي مَدَدُه إلى أَرْض مصر بزيادة النِّيل . ومع ذلك فإنَّ البَحْرَ المِلْح يقف ماؤُه على وَجْه النِّيل ، فيتوقَّف حتى يَرْوي البلاد .

وفي ذلك يقول :

[المجتث]

فاشْفَع فللشَّافِع [c] أَعْلى يَدًا عندي وأَسْمَى من يَدِ المُحْسِنِ

---

a) زيادة من مروج الذهب . b) بولاق : الملتن . c) بولاق وسائر المخطوطات : فاسمع فالسامع والتصويب من حسن المحاضرة .

---

[١] الماوردي : الأحكام السلطانية ١٣٧. [٢] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٦٧.

فالنِّيلُ ذو فَضْلٍ ولكنَّه   الشُّكْر في ذلك للمُلْثِن[a][1]

ويبتدئُ النِّيلُ بالتنفُّسِ والزيادة بقيَّة بَؤُونَة ـ وهو حُزَيْران ـ وأَبِيب ـ وهو تَمّوز ـ ومِسْرى ـ وهو آب ـ فإذا كان الماءُ زائِدًا زادَ شهر تُوت كلّه ـ وهو أَيْلُول ـ إلى انْقِضائه ، فإذا انتهت الزيادة إلى الذِّراع الثامن عشر ففيه تَمام الخَراج ، وخِصْب الأرض ، وهو ضَارٌّ بالبَهائِم لِعَدَم الرَّعْي والكَلأ .

وأَتَمُّ الزِّيادات كلِّها ، العامّة النَّفْع[b] للبلد كلّه سبعة عشر ذِراعًا ، وفي ذلك كِفايتها ورَيّ جميع أرْضِها . وإذا زادَ على ذلك وبَلَغَ ثمانية عشر ذِراعًا وغَلَّقها ، اسْتَبْحَر من أرض مصر الرُّبْع ، وفي ذلك ضَرَرٌ لبعضِ الضِّياع لما ذَكَرْنا من الاسْتِبْحار . وإذا كانت الزيادةُ على ثمانية عشر ذِراعًا ، كانت العاقِبَةُ في انْصِرافِه حُدوثُ وَباء . وأكثر الزيادات ثمان عشرة ذِراعًا .

وقد بَلَغَ في خِلافَة عُمَر بن عبد العَزيز/ تسع عشرة[c] ذِراعًا ، ومِساحَةُ الذِّراع إلى أن تبلُغ اثنتي عشرة ذِراعًا ثمان وعشرون أصْبُعًا ، ومن اثنتي عشرة ذِراعًا إلى ما فوق ذلك يكون الذِّراعُ أربعًا وعشرين أصْبُعًا . وأقلُّ ما يَبْقَى في قاع المِقْياس من الماء ثلاثة أَذْرُع ، وفي تلك السنة يكون الماءُ قليلًا .

والأَذْرُعُ التي يُسْتَسْقَى عليها بمصر هي ذِراعان تسمَّيان مُنْكرًا ونَكيرًا ، وهي الذِّراع الثالث عشر والذراع الرابع عشر ؛ فإذا انصرف الماءُ عن هذين الذِّراعين وزيادة نصف ذِراع من الخمس عشرة ، اسْتَسْقَى الناسُ بمصر ، فكان الضَّرَرُ الشَّامِل لكلِّ البُلْدان ؛ وإذا تمَّ خمس عشرة ودَخَلَ في ستّ عشرة ذِراعًا كان فيه صَلاحٌ لبعض الناس ، ولا يُسْتَسْقَى فيه ، وكان ذلك نَقْصًا من خَراج السُّلْطان[2] .

والنَّبيذُ يُتَّخَذُ بمصر من ماء طُوبة ـ وهو كانون الثاني ـ بعد الغِطاس ، وهو لعشرة تَمْضي من طُوبَة ، وأَصْفَى ما يكون ماءُ النِّيل في ذلك الوقت . وأَهْلُ مصر يَفْتَخِرون بصَفَاء ماء النِّيل في هذا الوَقْت ، وفيه يُخَزِّن الماءَ أهلُ تِنِّيس ودِمْياط وتُونَة وسائِر قرايا[d] البُحَيْرَة .

وقد كانت مصرُ كلُّها تُرْوى من ستّ عشرة ذِراعًا ، غامِرها وعامِرها ، لِما أَحْكَمُوا من جُسورها ، وبناء قَناطِرِها ، وتَنْقِيَة خُلْجانِها . وكان الماءُ إذا بَلَغَ في زيادته تسع أَذْرُع دَخَلَ

---

a) بولاق : الملتن . b) في المروج : النافعة . c) بولاق : اثنتي عشر . d) بولاق : قرى .

---

[1] السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٣٥١ ومصدره فيه : التيفاشي . [2] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٦٨ - ٦٩ .

خَليج المَنْهَىٰ وخَليج الفَيُّوم وخَليج سَرْدوس وخَليج سَخَا[١].

قالَ: والمعمولُ عليه في وَقْتِنا هذا ـ وهو سنة خمس وأربعين وثلاث مائة ـ أنَّه إن زَادَ على الستّ عشرة ذِراعًا أو نَقَصَ عنها، نَقَصَ من خَراج السُّلْطان[٢].

وقد تَغَيَّرَ في زَمانِنا هذا عامَّة ما تَقَدَّم ذِكْره، لفَسادِ حال الجُسور والتُّرَع والخُلْجان؛ وقانُونُه اليوم أنَّه يزيد في القَيْظ إذا حَلَّت الشَّمْسُ بُرْجَ السَّرطان والأَسَد والسُّنْبُلَة حين تنقُص عامَّة الأنهار التي في المعمور، ولذلك قيل إنَّ الأنْهار تَمُدّه بمائِها عند غَيْضها فتكون زيادته.

وتبتدئ الزِّيادَةُ من خامِس بَؤُونَة، وتَظْهَر في ثاني عشره، وأوَّلُ دَفْعه في الثاني من أَبيب، وتنتهي زيادتُه في ثامِن بابَة، ويأخُذ في النُّقْصان من العشرين منه، فتكون مُدَّةُ زيادته ـ من ابْتدائِها إلى أن يَنْقُص ـ ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يومًا، وهي أَبيب ومِسْرى وتُوت وعشرون يومًا من بابَة، ومُدَّةُ مكْثه بعد انتهاء زيادته اثنا عشر يومًا، ثم يأخذ في النُّقْصان.

ومن العادَة أن يُنادَى عليه دائِمًا في اليوم السابع والعشرين من بَؤُونَة بعدما يُؤْخَذ قاعُه، وهو ما بقي من الماء القَديم، في ثالث عشر بَؤُونة، ويُفْتَح الخَليجُ الكبير إذا أَكْمَل الماءُ ستةَ عشر ذِراعًا.

وأَدْرَكْتُ الناسَ يقولون: نَعُوذُ بالله من أَصْبُع من عشرين. وكُنَّا نَعْهَد الماء إذا بَلَغَ أصابع من عشرين ذِراعًا، فاضَ ماءُ النِّيل، وغَرَّقَ الضِّياع والبَساتِين، وفارَت البَلاليع. وها نحن في زَمَن، منذ كانت الحَوادِثُ بعد سنة ستٍّ وثمانِ مائة، إذا بَلَغَ الماءُ في سنة أَصبُعًا من عشرين لا يعمّ الأرض كلَّها لما قد فَسَد من الجُسُور، وكان إلى ما بعد الخمس مائة من الهجرة قانونُ النِّيل ستة عشر ذِراعًا في مِقْياس الجَزيرَة، وهي في الحقيقة ثمانية عشر ذِراعًا.

وكانوا يقولون: إذا زَادَ على ذلك ذِراعًا واحِدةً زادَ خَراجُ مصر مائة أَلف دينار لما يَرْوي من الأَراضي العالية، فإن بَلَغَ ثمانية عشر ذِراعًا كانت الغاية القُصْوَى، فإنَّ الثمانية عشر ذِراعًا في مِقْياس الجَزيرَة اثنان وعشرون ذِراعًا في الصَّعيد الأعلى، فإن زادَ على الثمانية عشر ذِراعًا واحِدًا، نَقَصَ من الخَراج مائة أَلف دينار، لما يُسْتَبْحَر من الأرض المنخفضة.

قال ابنُ مُيَسَّر[٣] في حَوادِث سنة ثلاثٍ وأربعين وخمس مائة: وفيها بَلَغَت زِيادَةُ ماءِ النِّيل تسعة عشر ذِراعًا وأربعة أصابع، وبَلَغَ الماءُ البابَ الجَديد أوَّل الشَّارِع خارج القاهِرَة، وكان الناسُ

---

[١] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧١.

[٢] المسعودي: التنبيه والإشراف ٢٢.

[٣] تاج الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن يوسف بن جلب راغب المعروف بابن مُيَسَّر، مؤرخ مصري عاش =

يتوجّهون إلى القاهِرَة من مصر من ناحية المَقابِر. فلمّا بَلَغَ الخَليفَةَ الحافِظَ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن محمد أنَّ الماءَ وَصَلَ إلى الباب الجَديد، أَظْهَر الحُزْنَ والانْقِطاع. فَدَخَلَ إليه بعضُ خَواصِّه وسَأَله عن السَّبَب، فأَخْرَج له كِتابًا فإذا فيه «إذا وَصَلَ الماءُ البابَ الجَديد انتقل الإمامُ عَبْد المجيد» ثم قال: هذا الكِتابُ الذي نَعْلَمُ منه أَحْوالَنا وأَحْوالَ دَوْلَتِنا وما يأتي بعدها. فمَرِضَ الحافِظُ في آخر هذه السنة، وماتَ في[a] سنة أربع وأربعين وخمس مائة[1].

وقال القاضي الفاضِلُ[2] في «مُتَجَدِّدات» سنة ستّ وسبعين وخمس مائة: وفي يوم الاثنين السادِس والعشرين من شهر ربيع الأوَّل، وهو السادس عشر من مِسْرَى، وَفَّى النِّيلُ[b] على ستة

---

a) بولاق: في أول. b) الأصل: صار النيل.

= في صدر الدولة المملوكية وتوفّي سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م، ومعلوماتنا عنه قليلة، وترجع شهرته إلى كتابه في التاريخ الذي ذَيَّل به على كتاب «أخبار مصر» للمُسَبِّحي والذي يعد أهم مصادر تاريخ الفاطميين المتأخرين. وصل إلينا في شكل انتقاء قام به مؤرخنا المقريزي سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م. كما استفاد منه - قبل المقريزي - شهاب الدين النويري صاحب «نهاية الأرب». ووضع ابن مُيَسَّر كتابًا آخر في «قضاة مصر» اعتمد عليه كثيرًا ابن حجر العسقلاني في كتابه «رَفْع الإصر» (النويري: نهاية الأرب ٣٠: ٣٩١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٤: ١٨٨؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ٧: ١٢٧؛ المقريزي: المقفى الكبير ٦: ٣٩٥؛ Cahen, Cl., *EI*[2] art. *Ibn Muyassar* III, p. 918؛ مقدمة أيمن فؤاد للمنتقى من أخبار مصر، القاهرة ١٩٨١).

[1] ابن ميسر: أخبار مصر ١٣٩- ١٤٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ١٨٦- ١٨٧.

[2] القاضي الفاضل محيي الدين أبو عليّ عبد الرحيم بن عليّ بن الحسن البَيْساني، كاتب صلاح الدين ورئيس ديوان الإنشاء في عهده، كان قد التحق بديوان الإنشاء الفاطمي في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، واشتهر بطريقة مميزة في الكتابة الإنشائية، وإليه نسبت. صحب السلطان صلاح الدين في حملاته في الشام، وأقام في مصر بين سنتي ٥٨٥-٥٨٦هـ/ ١١٨٩-١١٩٠م ليشرف على الديوان وإعادة تنظيم الجيش والأسطول. وفي أعقاب وفاة صلاح الدين والخلاف بين أخيه العادل وأولاده، استقر القاضي الفاضل في مصر حتى وفاته سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م. كتب القاضي الفاضل العديد من الرسائل الديوانية وصلت إلينا مجاميع منها سواء في نسخ مستقلة أو مُضَمَّنَة في مصادر عصر صلاح الدين. أما كتابه الذي ينقل عنه المقريزي وسمّاه «المتجدّدات» أو «المياوامات» وسمّاه ابن العَديم «الماجريات» فلا نعرفه إلّا من خلال النقول المطولة التي حفظها منه المؤرخون المتأخرون (أخباره كثيرة في مصادر عصر صلاح الدين وانظر كذلك، العماد الكاتب: خريدة القصر (قسم مصر) ١: ٣٥- ٥٤؛ ابن خلكان، وفيات ٣: ١٥٨- ١٦٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١: ٣٣٨- ٣٤٤؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧: ١٦٦- ١٦٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٨: ٣٣٥- ٣٧٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٦: ١٥٦- ١٥٨؛ ولأحمد أحمد بدوي: القاضي الفاضل - دراسة ونماذج، القاهرة د.ت؛ Cahen, Cl., *EI*[2] art. *al-Kâdî al-Fâdil* IV, pp. 392-99؛ وانظر فيما يلي ٢: ٣٦٦-٣٦٧).

عشر ذِراعًا ، وهو الوَفَاءُ ، ولا يُعْرَف وَفاؤُه بهذا التاريخ في زمنٍ مُتَقَدِّم [١] . وهذا أيضًا ممَّا تَغَيَّر فيه قانونُ النِّيل في زَمانِنا ، فإنَّه صارَ يُوفِّي في أوائِل مِسْرَى ، ولقد كان الوَفاءُ في سنة اثنتي عشرة وثمان مائة في اليوم التاسع والعشرين من أَبِيب قبل مِسْرَى بيوم / وهذا من أَعْجَب ما يُؤَرَّخ في زيادات النِّيل .

واتَّفَق وَفاءُ النِّيل[a] أنَّ حادي عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبع مائة ، وَفَّى النِّيلُ ، وكان ذلك في اليوم التاسع عشر من بابَة بعد النَّوْروز بتسعة وأربعين يومًا [٢] .

قال : وفي تاسع عشره ـ يعني شَوَّال سنة اثنتين وتسعين وخمس مائة ـ كُسِرَ بَحْر أبي المُنَجَّا ، وباشَرَ الملكُ العَزيزُ عُثْمان كَسْرَه ، وزادَ النِّيلُ فيه أُصْبُعًا ، وهي الأَصْبُع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذِراعًا ، وهذا الحَدُّ يُسَمَّى عند أهل / مصر اللُّجَّة الكُبْرَى [٣] . ٦١

فانظر كيف يُسَمِّي القاضي الفاضِلُ هذا القَدْر اللُّجَّة الكبرىٰ ، وإنَّه ـ والعِياذُ بالله ـ لو بَلَغَ ماءُ النِّيل في سنة هذا القَدْر فقط لحَلَّ بالبلاد غَلاءٌ يُخاف منه أن يَهْلِك فيه الناس ، وما ذاكَ إلا لما أُهْمِل من عَمَل الجُسُور .

ويَحْصُل لأَهْل مصر بوَفَاء النِّيل ستّ عشرة ذِراعًا فَرَحٌ عظيمٌ ، فإنَّ ذلك كان قانونُ الرِّيّ في القديم واستمرَّ ذلك إلى يومنا هذا . ويُتَّخَذ ذلك اليوم عِيدًا يركب فيه السُّلْطانُ بعساكِره ، ويَنْزِل في المَراكِب لتَخْليق المِقْياس .

وقد ذَكَرْنا ما كان في الدَّوْلَة الفاطِمية ، من الاهتمام بفَتْح الخَليج ، عند ذِكْر مَناظِر اللُّؤْلؤة [٤] .

وقال بَعْضُ المُفَسِّرين : إنَّ يومَ الوَفاء هو اليوم الذي وَعَدَ فِرْعَون مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ بالاجتماع في قَوْله تعالىٰ : ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [الآية ٥٩ سورة طه] ، وقد جَرَت العادَةُ أنَّ اجْتماعَ الناس للتَّخْليق يكون في هذا الوَقْت .

ومن أَحْسَن السِّياسات في أمْر النِّداء على النِّيل ما حَكاه الفَقيهُ ابنُ زُولاق [٥] ، في «سِيرَة المُعِزّ لدين الله» ، قال : وفي هذا الشهر ـ يعني شَوَّال سنة اثنتين وستين وثلاث مائة ـ مَنَعَ المُعِزُّ لدين الله

---

a) ساقطة من بولاق .

---

[١] المقريزي : السلوك ١ : ٧١.

[٢] نفسه ٢ : ٥٥ وانظر كذلك أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ : ٢٤٤.

[٣] نفسه ١ : ١٣٨، وفيما يلي ١ : ٤٨٨ .

[٤] انظر فيما يلي ١ : ٤٧٠ - ٤٧٩.

[٥] أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين اللَّيْثي =

من النِّدَاء بزيادة النِّيل ، وألَّا يُكْتَب بذلك إلَّا إليه وإلى القائِد جَوْهَر ، فلمَّا تَمَّ أباحَ النِّداء - يعني لمَّا تَمَّ ستَّ عشرة ذِراعًا - وكُسِرَ الخَليجُ[١].

فتأمَّل ما أَبْدَع هذه السِّياسَة ، فإنَّ الناسَ دائِمًا إذا تَوَقَّف النِّيلُ في أيام زيادته أو زادَ قليلًا يَقْلَقون وتَتَحدَّث[a] أنفسُهم بعَدَم طُلوع النِّيل ، فيَقْبِضون أيديهم على الغِلال ، ويَمْتَنِعون من بَيْعِها رَجاءَ ارْتِفاع السِّعْر ، ويَجْتَهِد من عنده مالٌ في اخْتِزان الغِلال[b]، إمَّا لطَلَب السِّعْر ، أو لطَلَب إدِّخار قُوت عيالِه ، فيَحْدُث بهذا الغَلاء ، فإن زادَ الماءُ انْحَلَّ السِّعرُ ، وإلَّا كان الجَدْبُ والقَحْط . ففي كِتْمان الزِّيادة عن العامَّة أعْظَم فائِدَة وأَجَلُّ عائِدَة .

وقال المُسَبِّحيُّ[٢] في «تاريخ مِصْر» : وخَرَجَ أَمْرُ صاحِب القصر إلى ابن خَيْران بتَحْرير ما يَسْتَفْتِح به القَيَّاسون كلَامَهم إذا نادوا على النِّيل ، فقال : « نِعَمٌ لا تُحْصَى ، من خَزائِن الله لا تَفْنَى ، زادَ الله في النِّيل المبارَك كذا » .

ومن عادَة نِيل مصر إذا كان عند ابْتِداء زِيادَته اخْضَرَّ ماؤه ، فتقول عامَّةُ أهل مصر : قد تَوَحَّم النِّيل . ويَرَوْن أنَّ الشُّرْبَ منه حينئذٍ مُضِر . ويُقالُ في سَبَب اخْضِراره أنَّ الوُحوش - سيَّما الفِيَلة - تَرِد البَطيحَات التي في أعالي النِّيل ، وتَسْتَنْقِع فيها مع كثرة عَدَدها لشِدَّة الحَرِّ هناك ، فيتغيَّر ماءُ تلك البَطيحات . فإذا وَقَعَ المَطَرُ في الجهة الجنوبية في أوْقاته عندهم ، تَكاثَرَت السُّيول حينئذٍ في

---

a) بولاق : يحدثون .   b) بولاق : خزن الغلة .

= المعروف بابن زولاق ، مؤرخ مصري عاصر فتح الفاطميين لمصر وتوفي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م . يعد خير من تكلّم عن فترة حكم الفاطميين الأوائل في مصر ، وألّف عدة كتب في تاريخ مصر وخططها وسير حكامها ، منها «تتمة كتاب أمراء مصر للكندي» ، و«سيرة جوهر القائد» و«تاريخ أسرة الماذرائين» و«سيرة محمد بن طغج الإخشيد» و«سيرة المعز لدين الله» التي وقف عليها المقريزي بخطه ونقل عنها نقولًا مطولة في «الخطط» و«اتعاظ الحنفا» (راجع ، ياقوت : معجم الأدباء ٧:٢٥٥- ٢٣٠؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢:٩١- ٩٢؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١١:٣٧٠؛ المقريزي: المقفى الكبير ٣:٢٨٤- ٢٨٦؛ Gottheil, R., «Al-Hasan ibn Ibrâhîm ibn Zûlâq», *JAOS* 28 (1907), pp. 254-70; *EI*[2] art. *Ibn Zûlâq* III, p. 1003).

[١] المخزومي : المنهاج في أُحكام الخراج – خ ٤٧ظ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٠؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ : ١٣٨؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٧.

[٢] الأمير المختار عِزّ المُلْك محمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد العزيز المُسَبِّحي ، مؤرخ مصري توفي سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، اشتهر بكتابه «أخبار مصر» الذي اشتمل على حوليات للخمسين عامًا الأولى من حكم الفاطميين في مصر . وهي مذكرات يومية للفترة التي عاصرها ، لم يصل=

البَطيحات ، فخَرَجَ ما كان فيها من الماء الذي قد تَغَيَّر ومَرَّ إلى مصر ، وجاءَ عَقِيبَه الماءُ الجَديد ، وهو الزيادةُ بمصر ، وحينئذٍ يكون الماءُ مُحْمَرًّا لما يُخالِطُه من الطِّين الحُرِّ الذي تأتي به السُّيولُ [١] .

فإذا تَناهَت زِيادَتُه غَشِي أرض مصر ، فتَصير القُرَى التي في الأقاليم فوق التِّلال[a] والرَّوابي وقد أحاطَ بها الماءُ ، فلا يُتَوَصَّل إليها إلَّا في المراكِب ، أو من فَوْق الجُسور الممتدَّة التي يُصْرَفُ عليها ـ إذا عُمِلَت كما يَنْبَغي ـ رُبْعُ الخَراج ، ليُحْفَظ عند ذلك ماءُ النِّيل حتى ينتهي رَيّ كلِّ مكان إلى الحَدِّ المحتاج إليه .

فإذا تكامَل رَيُّ ناحية من النَّواحي ، قَطَعَ أهلُها الجُسور المحيطة بها من أَمْكِنَة مَعْروفَة عند خَوَلَة البلاد ومَشايِخها في أوْقاتٍ محدودة لا تَتَقَدَّم ولا تتأخَّر عن أوْقاتِها المعتادة ، على حَسَبَ ما يشهد به قَوانين كلِّ ناحية من النَّواحي ، فتُرْوى كلُّ جِهَة ممَّا يليها ، مع ما يَجْتَمع فيها من الماء المُخْتَصّ . ولوْلا إتْقانُ ما هنالك من الجُسور وحَفْر التُّرَع والخُلْجان ، لقلَّ الانتفاع بماءِ النِّيل ، كما قد جَرَى في زَمانِنا هذا .

وقد حُكِيَ أنَّه كان يُرْصَد لعِمارَة جُسُور أراضي مصر في كلِّ سنة ثُلُث الخَراج ، لعنايتهم في القَديم بها من أجل أنَّه يترتَّب على عَمَلها رَيُّ البلاد الذي به مَصالِحُ العِباد . وستقف ـ إن شاءَ الله تعالى ـ عن قَريب على ما كان من أعْمال القُدَماء ومَنْ بعدهم في ذلك .

وكان للمِقْياس في الدُّول المُعاصِرَة[b] رُسُومٌ لكَنْس مَجاري الماء ، خمسون دينارًا في كلِّ سنة ، تُطْلَقُ لابن أبي الرَّدَّاد .

ذِكْرُ الجِسْر الذي كان يُعْبَرُ عليه في النِّيل

اعْلَم أنَّه كان في النِّيل جِسْرٌ من سُفُن فيما بين الفُسْطاط والجَزيرة التي تُعْرَف اليوم بالرَّوْضَة ، وكان فيما بين الجَزيرة والجِيزَة أيضًا جِسْرٌ ، في كلِّ جِسْر منهما ثلاثون سَفينَة [٢] .

---

a) الأصل : البلاد . b) بولاق : الدولة الفاطمية .

= إلينا منها سوى الجزء الأربعين من الكتاب بالإضافة إلى نقول مطولة أوردها المقريزي وعددٌ آخر من المؤرخين (انظر المقدمة) .

[١] انظر فيما تقدم ١٤٧ .

[٢] Fu'âd Sayyid A., *La capitale de l'Égypte*, pp. 75-77، وفيما يلي ٣٤٢:١ و١٧٠:٢ .

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي مَاءِ النِّيلِ مِن مَدْحٍ وَذَمّ

قال الرّئيسُ أبو عليّ بن سِينَا[1] عَفَا الله عنه: وقَوْمٌ يُفْرِطون في مَدْحِ النِّيل إفْراطا شَديدًا، ويَجْمَعون مَحامِدَه في أربعة: بُعْد مَنْبَعه، وطيب مَسْلكه، وغُمُورَته، وأَخْذِه إلى الشَّمال عن الجَنُوب؛ فأَخْذه إلى الشَّمال عن الجَنوب مُلَطِّفٌ لما يَجْري فيه من المياه، وأمَّا غُمُورَتُه فيُشارِكه فيها غيره[2].

قَالَ: فأَفْضَل المياه مِياه العُيون، ولا كُلّ العُيون، ولكن مِياه العُيون الحُرَّة الأرض، التي لا يَغْلب على تُرْبَتها شيءٌ من الأحْوال والكَيْفيّات الغَريبة، أو تكون حَجَرِيَّة / فتكون أَوْلى بألَّا تَعْفَن العُفُونَة الأرضية، لكن التي هي من طِينَة حُرَّة خيرٌ من الحَجَرِيَّة ولا كلُّ عَيْنٍ حُرَّة، بل التي هي مع ذلك جارِية، ولا كلُّ جارِيَة، بل الجارِيَة المَكْشُوفَة للشَّمْس والرِّياح، وأنَّ هذا ممَّا يُكْسِب الجارِيَة فَضيلَة، وأمَّا الرَّاكِدَة فرُبَّما اكْتَسَبَت بالكَشْف رَداءَةً لا تَكْسَبها بالغَوْر والسَّتْر.

واعْلَم أنَّ المياهَ التي تكون طِينِيَّة المَسيل خَيْرٌ من التي تَجْري على الأَحْجار، فإنَّ الطِّينَ يُنَقِّي الماءَ ويأْخُذ منه المَمْزوجات الغَريبَة ويُرَوِّقه، والحِجَارةُ لا تَفْعَل ذلك، لكنَّه يجب أن يكون طِينُ مَسيله حُرًّا، لا حَمْأَة ولا سَبْخَة، ولا غير ذلك. فإن اتَّفَقَ أن كان هذا الماءُ غَمْرًا شَديدَ الجَرْيَة، تَحَيَّل بكثرة ما يُخالِطه إلى طَبيعَته، فإن كان يأْخُذ إلى الشَّمْس في جَرَيانه فيَجْري إلى المَشْرق وخُصوصًا إلى الصَّيْفِي منه، فهو أَفْضَل، لاسيَّما إذا بَعُد جِدًّا من مَبْدئه[a]. ثم ماءٌ يَتَوَجَّه إلى الشَّمال، والمتَوَجِّه إلى المَغْرب والجَنُوب رديء، خُصوصًا عند هُبوب رِيح الجَنُوب. والذي

---

a) بولاق: ميدانه.

---

[1] الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن عليّ بن سينا، من أكبر علماء العرب والإسلام. كان طبيبًا وفيلسوفًا ومنطقيًا، عرفه الأوربيون باسم Avicenne. وكانت مؤلفاته - وعلى الأخص «القانون في الطب» - من أوائل الكتب التي طبعت في أوربا، وتوفي سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م. (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢:٢- ٢٠؛ ابن خلكان: وفيات ٢:١٥٧- ١٦٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧:٥٣١- ١٥٣٧ الصفدي: الوافي ١٢:٣٩١- ٤١٢؛ وبمناسبة الاحتفال بألفية ابن سينا ظهرت العديد من الدراسات عن حياته ومؤلفاته، انظر على الأخص جورج شحاتة قنواتي: مؤلفات ابن سينا، القاهرة ١٩٥٠ ومقال جواشون Goichon, A., M., *EI*² art. *Ibn Sinâ* (III, pp. 965-72).

[2] ابن سينا: القانون في الطب، تحقيق إدوارد القش، بيروت، مؤسسة عز الدين ١: ١٣٤.

يَنْحدر من مَواضِع عالية مع سائِر الفَضْل أَفْضل ، وما كان بهذه الصِّفَة كان عَذْبًا يُخَيَّل أنّه حُلْو ، ولا يَحْتَمل الخَمْر إذا مُزِج به منه إلَّا قَلِيلًا ، وكان خَفيفَ الوَزْن سَريع البَرْد والتَّسْخين لتَخَلْخُله ، بارِدًا في الشِّتاء ، حارًّا في الصَّيْف ، لا يَغْلب عليه طَعْمٌ ألبتَّة ولا رائِحَة ، ويكون سَريعَ الانْحِدار من الشَّراسيف [1] ، سَريعًا لهَرْي ما يُهْرى فيه ، وطَبْخ ما يُطْبَخ فيه [2] .

قال الرَّئيسُ عَلاءُ الدين عليّ بن أبي الحَرَم بن نَفِيس [3] في «شَرْح القَانون» : هذه المَحامِد التي ذَكَرَها ليست عَلامات للحَمْد ، بل هي من الأشْياء المُوجِبَة لكَوْنه مَحْمودًا . وأَحَدُ هذه الأربعة بُعْد مَنْبعه ، وقد بيَّنا أنَّ ذلك يُوجِب لطافَةَ الماء بسَبَب كثرة حَرَكته [4] .

واعْلَم أنَّ مَنْبَعَ النِّيل من جَبَلَ يُقالُ له جَبَلُ القَمَرِ ، وهذا الجَبَل وَراء خَطِّ الاسْتِواء بإحدى عشرة دَرَجَة وثلاثين دَقيقَة ممَّا به أعْظَم دائِرة في الأرض بثلاث مائة دَرَجَة وستين . وابتداءُ هذا الجَبَل من السادسة والأربعين دَرَجَة وثلاثين دَقيقَة من أوَّل العِمارة من جهة المغرب ، وآخِره عند آخِر إحدى وستين دَرَجَة وخمسين دَقيقَة ، فيكون امتدادُ هذا الجَبَل مِقْدار خمس عشرة دَرَجَة وعشرين دَقيقَة ممَّا به أعْظَم دائرة في الأرض ثلاث مائة وستون دَرَجَة .

ويَخْرُجُ من هذا الجَبَل عشرة أنْهار من أَعْيُن فيه ، تَرْمي كلّ خمسة منها إلى بُحَيْرَة عظيمة مُدَوَّرَة ؛ وإحدى هاتين البُحَيْرَتَيْن مركزها ، حيث البُعْد من ابتداء العِمارَة بالمغرب ، خمسون دَرَجَة ، والبُعْد من خَطِّ الاسْتِواء في الجَنوب سبع دَرَج وإحدى وثلاثون دَقيقَة . ومركزُ الثانية حيث البُعْد عن أوَّل العِمارة بالمغرب سبع وخمسون دَرَجَة ، وحيث البُعْد من خَطّ الاسْتِواء في الجَنوب سَبْع دَرَج وإحدى وثلاثون دَقيقَة .

---

[1] شرسوف جـ. شراسيف : غضروف معلّق بكل ضلع أو مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن .

[2] ابن سينا : القانون في الطب ١ : ١٣٣ .

[3] علاء الدين عليّ بن أبي الحَرَم القَرَشي الدمشقي الشافعي المعروف بابن النَّفيس رئيس أطباء مصر ، لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم ، مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وصاحب المؤلفات الطبية الهامة ومنها : الشامل في الطب وشرح القانون لابن سينا وشرح فصول أبقراط وغيرها ، ونظرًا لأنه لم يتزوّج فقد وقف داره وأملاكه ومكتبته على البيمارستان المنصوري بالقاهرة التي توفى بها سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٩م (راجع ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨ : ٣٠٥- ٣٠٦ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ٢٤٩ ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٧ ؛ أحمد عيسى : معجم الأطباء ٢٩٢- ٢٩٦ ؛ مقدمات يوسف زيدان لمؤلفات ابن النفيس وعلى الأخص المختصر في علم أصول الحديث ورسالة الأعضاء (القاهرة ١٩٩١) ؛ (Schacht, J., *EI*² art. *Ibn al-Nafis* III pp. 921-22 .

[4] لم ينشر «شرح القانون» لابن النفيس ، وما نشر كتاب «شرح تشريح القانون» بتحقيق سليمان قطاية ، القاهرة ١٩٨٨ .

وهاتان البُحَيْرَتان مُتساويتان ، وقُطْرُ كلٍّ واحدة منهما مِقْدار خمس دَرَج ، ويخرج من كلِّ واحدة من البُحَيْرَتَيْنِ أرْبَعة أنهار ، تَرْمي إلى بُحَيْرَة صغيرة مُدَوَّرَة في الإقليم الأوَّل ، بُعْد مَرْكَزها عن أوَّل العمارة بالمغرب ثلاث وخمسون دَرَجَة وثلاثون دقيقة ، وعن خَطِّ الاسْتِواء من الشَّمال دَرَجَتان من الإقْليم الأوَّل ، ومِقْدار قُطْرِها دَرَجَتان .

ويصبُّ كلُّ واحِدٍ من الأنهار الثمانية في هذه البُحَيْرَة نَهْرًا واحِدًا منها[a] وهو نيلُ مصر ، ويمرُّ ببلاد النُّوبَة [b]ويصبُّ إليه[b] نَهْرٌ آخر ، ابْتِداؤه من غير مَرْكَزها على خَطِّ الاسْتِواء كبيرة مستديرة ، مِقْدار قُطْرها ثلاث دَرَج ، وبُعْد مَرْكَزها من أوَّل العِمارة بالمغرب إحدى وسبعون دَرَجَة . ويلقي نهر هذه العَيْن لنهر النِّيل حيث البُعْد من أوَّل العِمارَة بالمغرب ثلاث وأربعون [b]دَرَجَة وأربعون[b] دَقيقَة .

وإذا تعدَّى النِّيلُ مَدينَةَ مصر إلى بَلَدٍ يُقال له شَطْنُوف [1] ، يُفَرَّق هناك إلى نَهْرَيْن يَرْميان إلى البحر المالِح : أحَدُهما يُعْرف ببحر رَشيد ، ومنه يكون خَليجُ الإسْكَنْدَرية . وثانيهما يُعْرَف ببحر دِمْياط ، وهذا البحرُ إذا وَصَلَ إلى المَنْصورَة تَفَرَّع منه نَهْرٌ يُعْرف ببحر أُشْمون يَرْمي إلى بُحَيْرة هناك ، وباقيه يَرْمي إلى البحر المالح عند دِمْياط [2].

وزيادةُ ماء[a] النِّيل هي من أمْطار كثيرة ببلاد الحَبَشَة ، والله أعْلَم .

واعْلَم أنَّ الوَزْن من الدُّسْتورات المُنَجَّحه [c]من حال الماء ، فإنَّ الأخَفَّ في أكثر الأحْوال أفْضَل . فهذا ما ذَكَرَه الرَّئيسُ ابنُ سِينَا من صِفات المياه الفاضِلَة ، واعْتَبِر ما قالَه تجد ذلك قد اجْتَمَع في ماءِ النِّيل .

---

a) ساقطة من بولاق . (b-b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : المنتخبه .

---

[1] شَطْنوف (أو شَطانُوف) . من القرى القديمة كانت تقع في العصر الإسلامي المبكر على رأس الدلتا ، يقول الإدريسي في حديثه عن قرية زفيتة : «وهذه القرية تعاقب مدينة شطنوف التي على رأس الخليج الذي ينزل إلى تنيس ودمياط . وفي أعلى شطنوف ينقسم النيل على قسمين ينزلان إلى أسفل ويتصلان بالبحر (نزهة المشتاق ٣٣٠-٣٣١ وانظر كذلك ياقوت : معجم البلدان ٣: ٣٤٤-٣٤٥ وفيما يلي ١: ٢١٥) .

وهي الآن إحدى قرى مركز أشمون بمحافظة المنوفية ، كانت رأس الدلتا تنتهي عندها إلى منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وبعد ذلك اتصلت جزيرة دَرْوَة بأرض شطنوف فأصبح رأس الدلتا عند القناطر الخيرية الواقعة في الجهة الجنوبية من أراضي ناحية دَرْوَة ، وفي سنة ١٩١٠ اتصلت جزيرة الشعير - الواقعة وسط النيل - من جهتها البحرية بأراضي دَرْوَة فأصبح رأس الدلتا واقعًا جنوبي القناطر الخيرية وعلى بعد كيلومترين منها (محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ٢/٢: ١٦٢-١٦٣) .

[2] السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٣٥٢.

فأوَّلُه أنَّ ماءَ النّيل عَيْن تمرُّ على أراضي حُرَّة ، ولا يَغْلب على تُرْبَة ما يمرُّ به شيءٌ من الأحْوال والكَيْفيات الرديَّة ، كمَعادِن النَّفْط والشَّبّ والأمْلاح والكَباريت ونحوها ، بل يمرُّ على الأراضي التي تُنْبت الذَّهَب ، بدليل ما يظهر في الشُّطوط من قُراضات الذَّهَب . وقد عانَى جَماعَةُ تَصْويل الذَّهب من الرَّمْل المأخوذ من شُطُوط النّيل ، فرَبحوا منه مالًا . وفَضيلَة كَوْن الذَّهَب في الماء لا تُنْكَر . الثّاني : أنَّ النّيلَ في جَرَيانه أبدًا مَكْشوفٌ للشَّمْس والرِّياح . الثّالِثُ : أنَّ طِينَه من طِين مَسيل من مياه مجتمعة من أمْطار تمرُّ على أراض حُرَّة ، ويظهر ذلك من عِطْرِيَّة رَوائح الطِّين إذا نَدَّيْته بماء . الرّابعُ : غمورة ماءِ النِّيل وشِدَّة جَرْيَته التي تكاد تَقْصف العُمُد إذا اعْتَرَضَتْها ، وتَدْفَع الأثْقال العَظيمَة إذا عارَضَتْها . الخَامِسُ : بُعْد مَبْدأ خُروجه من مَصَبِّه في البَحْر المالِح ، وقد تقدَّم / من طول مَسافته ما لا نجده في نَهْر غيره من أنْهار المعمور . السّادِسُ : انْحِداره من عُلُوٍّ ، فإنَّ الجَنوبَ مُرْتَفع عن الشَّمال ، لاسيَّما إذا صارَ إلى الجَنادِل انْحَطَّ من أعْلى جَبَل مُرْتَفع إلى وادي مصر .

وذَكَرَ ابنُ قُتَيْبَة في كتاب «غَريب الحَديث» من حَديث جَرير بن عبد الله البَجَلي ، حين سأَلَه رَسُولُ الله ﷺ عن مَنْزِلِه ببيشَة[a][1] ، فذَكره إلى أن قال : ومَاؤُنا يَميع[b] ، أي يجري من عُلُوٍّ[c] ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «خَيرُ الماء السَّنِم» أي ما كان ظاهِرًا على وَجْه الأرْض . والسَّنِمُ الماءُ على وَجْه الأرض ، وكلُّ شيءٍ عَلا شيئًا فقد تَسَنَّمَه ، مأخُوذٌ من سَنام البَعير لعُلُوِّه . وقال بَعْضُ المُفَسِّرين في قَوْله تعالى : ﴿ومِزَاجُه مِن تَسْنِيم﴾ [الآية ٢٧ سورة المطففين] : أي يُمْزَج بما يَنْزل من عُلُوٍّ[2] .

السّابعُ : أنَّه يَمُرّ من الجَنوب إلى الشَّمال ، فتَسْتَقْبله رِيحُ الشَّمال الطَّيِّبة دائمًا . الثّامِنُ : خِفَّته في الوَزْن ، وقد اعْتُبر ذلك غير مَرَّة مع غيره من المياه فخَفَّ عنها في الوزن .

التّاسِعُ : عُذُوبَة طَعْمِه ، وحُسْن أثَره في هَضْم الغِذاء ، وإحْداره عن المَعِدَة ، بحيث إنَّه يُحْدِث بعد شُرْبه جُشاء .

وهذه صِفاتٌ ، إن كنت ممَّن مارَس العِلْمَ الطَّبيعي وعَرَف الطِّبَّ ، فإنَّه يَعْظُم عندك قَدْرُ ماء النِّيل ، وتَبَيَّنُ لك غَزارَة نَفْعِه وكَثْرَة مَحاسِنِه .

---

a) هذه الفقرة وردت في بولاق في غير موضعها بسبب عدم دقة نقل الطيارات التي أضافها المقريزي في مواضعها الصحيحة . b) بولاق : بيلنسية . c) بولاق : يمتنع . d) في غريب الحديث : أي يسيل من علو .

---

[1] بيشة قرية باليمن بينها وبين تبالة أُربع وعشرون ميلًا وهي في وادي يصب سيله من حجاز الطائف (ياقوت : معجم البلدان ١:٥٢٩) .

[2] ابن قتيبة : غريب الحديث ١:٥٤٢، ٥٤٣.

ويُقالُ : إنَّ ذا القَرْنَيْنِ كَتَبَ كِتابًا فيه ما شاهَدَه من عَجائِب الدُّنْيا ، فضَمَّنَه كلَّ أُعْجُوبَة ، ثم قال في آخره : «ولَيْس ذلك بعَجَب ، بل العَجَب نِيلُ مِصْر» .

وقال بَعْضُ الحُكَماء : لَوْلا ما جَعَل الله في نِيل مصر من حِكْمَة الزيادة في زَمَن الصَّيْف على التَّدْريج ، حتى يتكامَل رَيُّ البلاد وهُبُوط الماء عنها عند بدْء الزِّراعَة ، لفَسَدَ إقْليمُ مصر وتَعَذَّر سُكْناه ، لأنَّه ليس فيه أمْطارٌ كافية ، ولا عُيونٌ جارية تَعُمّ أرضه ، إلَّا بعض إقْليم الفَيُّوم .

ولله دَرُّ القائِل :

[الكامل]

واهًا لهذا النِّيل أيُّ عَجيبَةٍ ... بِكْر بمِثْل حَديثِها لا يُسْمَعُ
يَلْقى الثَّرى في العام وهو مُسَلِّمٌ ... حتَّى إذا ما مَلَّ عادَ يُوَدِّعُ
مستقبلٌ مثل الهِلال فدَهْرُه ... أبدًا يَزِيد كما يُرِيد ويَرْجِعُ

وقال آخَر :

[الوافر]

كأنَّ النِّيلَ ذو فَهْم ولُبٍّ ... لما يَبْدو لعَيْنِ النَّاس مِنْه
فيَأْتِي حين حاجَتِهم إليه ... ويَمْضي حين يَسْتَغْنُون عَنْه

وقال تَميمُ بن المُعِزّ[1] :

[الكامل]

يَوْمٌ لَنَا بالنِّيل مُخْتَصَرٌ ... ولكلِّ يوم مَسَرَّة قِصَرُ
والسُّفْنُ تَجْري كالخُيول بِنَا ... صُعُدًا وَجَيْشُ الماء مُنْحَدِرُ
فكأنَّما أمْواجُه عُكَنٌ ... وكأنَّما داراتُه سُرَرُ

وقال أيضًا[2] :

[المجتث]

أَمَا تَرَى الرَّعْدَ بَكَى واشْتَكَى ... والبَرْقُ قد أَوْمَضَ واسْتَضْحَكا
فاشْرَب على غَيْم كَصِبغ الدُّجى ... أضحك وَجْهَ الأَرْض لمَّا بَكَى
وانْظُر لماءِ النِّيلِ في مَدِّه ... كأنَّما صُنْدِل أو مُسْكَا

وقال آخَر :

[الطويل]

والله مُجْري النِّيلَ منه إذا الصَّبَا ... أَرَتْنا به من بَرِّها عَسْكَرًا بحرا

---

[1] ديوان تميم بن المعز ٢٤١ .

[2] نفسه ٣٠٤ .

فشَطُّ نَهْر السَّمْهرية ذبلًا ومَوج نهر البيض هندية بترا
إذا مَرَّ حاكى الوَرْد غَضًّا وإن صَفَا حَكى ماءه لونا ولو بعده مَرًّا

وقال أبو الحَسَن محمد بن الوَزير في تَدْريج زِيادَة النّيل وعِظَم مَنْفَعَته :

[الوافر]

أرَى أبدًا كَثيرًا من قَليل وبَدْرًا في الحَقيقَة من هِلال
فَلَا تَعْجَب فكُلّ خَليجِ ماءٍ بِمِصْرَ مسيب بخَليج مَال
زِيادَةُ أَصْبُع في كلّ يَوْمٍ زِيادَة أَذْرُع في حُسْن حَال

وقال الشّهابُ أحمد بن علي بن فَضْل الله العُمَريّ [1]:

[الرجز]

لِمِصْرَ فَضْلٌ باهِرٌ لعَيْشِها الرَّغْدِ النَّضِرِ
في سَفْح رَوْضٍ يَلْتَقِي ماءُ الحَيَاة والخَضِرِ

٦ /وقال ابنُ قَلاقِس [2]:

[البسيط]

انْظُرْ إلى الشَّمْس فَوْق النّيل غارِبَةً وانْظُر [a]لما بَعْدَها من حُمْرَة الشَّفَقِ
غابَتْ وأَلْقَت شُعَاعًا منه يَخْلُفُها كأنّما [b] احْتَرَقَتْ بالماءِ في الغَرَقِ
وللهِلالِ فَهَا [c] وافَى ليُنْقِذَها في إثْرِها زَوْرَقٌ قد صِيغَ مِنْ وَرِقِ

وقال نَشوُ [d] المُلك ابن المُنَجِّم :

[البسيط]

يارُبّ سامية في الجَوّ قُمْت بِها أَمدّ طَرْفي في أرْضٍ من الأُفُق
حَيْثُ العَشِيّة في التّمْثيل معترك إذا رآها جَبَانٌ ماتَ للفَرَق
للشَّمْس غارِبَة ، للغَرْب ذاهِبَة ، بالنّيل مُصْفَرّة ، من هَجْمَة الغَسَق
وللهِلال انْعِطافٌ كالسّنان بَدَا من سورة الطَّعْن مُلْقًى في دَم الشَّفَق

قال القاضي الفاضِلُ : وأمّا النّيلُ فقد مَلأَ البِقاعَ ، وانْتَقَلَ من الأَصْبُع إلى الذّراع ، فكأنّما غارَ على الأرض فغَطّاها ، وأغارَ عليها فاسْتَقْعَدها وما تخطّاها ، فما يُوجَد بمصر

a) الديوان والصفدي : واعجب . b) الديوان والصفدي : كأنها . c) الديوان : فهل . d) بولاق : بشر .

[1] ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٩٦؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥٢، وفيما يلي ١ : ٣٧٠.

[1] ديوان ابن قلاقس ٤٧٧؛ الصفدي : الوافي =

قاطِعُ طَرِيق سواه ، ولا مَرْغُوب مَرْهُوب إلَّا إيَّاه .

ونيلُ مصر مُخالِفٌ في جَرْيه لغالِب الأنْهار ، فإنَّه يجري من الجَنُوب إلى الشَّمال ، وغيره لَيْس كذلك ، إلَّا نَهْران فإنَّهما يَجْريان كما يَجْري النِّيل ، وهما نَهْر مَهْران بالسِّنْد ، ونَهْر الأَرْبَط - وهو الذي يُعْرف اليوم بنَهْر العاصي - في حَمَاة ؛ إحدى مَدائِن الشَّام .

وقد عابَ ماءَ النِّيل قومٌ ، قال أبو بكر بن وَحْشِيَّة[1] في كِتاب «الفِلاحَة النَّبَطِيَّة» : وأمَّا ماءُ النِّيل ، فمَخْرَجه من جِبالٍ وَرَاءَ بلاد السُّودان يُقال لها جِبال القَمَر ؛ وحَلاوَته وزيادَته يَدُلَّان على مَوْقِعه من الشَّمْس أنَّها أَحْرَقَتْه لا كلّ الإحْراق ، بل أَسْخَنَتْه إسْخانًا طَويلًا لَيِّنًا ، لا تُزْعِجه الحَرَارَة ولا تَقْوى عليه ، بحيث تُبَرِّد أجزاءَه الرَّطبة وتُبْقي أَجْزاءَه الرَّاسِخَة ، بل يعتدل عليه ؛ فصار ماؤُه لذلك حُلوًا جِدًّا ، وصارَ كثرة شُرْبه يُعْفن البَدَن ويُحْدث البُثُور والدَّماميل والقُروح ، وصارَ أهلُ مصر الشَّارِبون منه دَمَوِيّين مُحْتاجين إلى اسْتِفْراغ الدَّم عن أبْدانِهم في كلِّ مُدَّة قصيرة . فمن كان عالِمًا منهم بالطَّبيعة ، فهو يُحْسن مُداوَاة نفسه حتى يَدْفَع عن جِسْمه ضَرَر ماء النِّيل ، وإلَّا فهو يَقَع فيما ذَكَرْنا من العُفُونات وانْتِشار البُثُر والدَّماميل [على البَدَن][a] . وذلك أن هذا الماءَ ناقِص البرد عن سائر المياه ، قد صَيَّر له الطَّبْخ قوامًا هو أَثْخَن من قَوام الماء ، فصارَ إذا خالَطَ الطَّعامَ في الأَبْدان كَثَّرَ فيها الفُضُول الرَّدِيَّة العَفِنَة ، فيَحْدُثُ من ذلك ما ذَكَرْناه .

ودَوَاءُ أَهْل مصر الذي يَدْفَع عنهم ضَرَرَ ماءِ النِّيل إدْمان شُرْب رُبوب الفاكِهَة الحامِضَة القابِضَة ، وأَخْذ الأدوية المُسْتَفْرِغَة للفُضُول . ولو زادَت حَرارَةُ الشَّمْس على ماءِ النِّيل وطالَ طَبْخُها له لصارَ مالِحًا بمنزلة ماء البِحار الراكِدَة التي لا حَرَكَة لها إلَّا وَقْت جَزْر البَحْر وهُبوب الرِّياح . وهو أَوْفَقُ للزُّروع والمَنابِت من الحَيَوان[2] .

---

a) زيادة من ابن وحشية .

= بالوفيات ٢٧ : ٣١ .

[1] أبو بكر أحمد بن علي بن قَيْس الكَسْداني المعروف بابن وَحْشِيَّة ، ومعلوماتنا عنه قليلة جدًّا ، أملى أغلب مؤلفاته على كاتبه أبي طالب أحمد بن الحسين بن عليّ بن أحمد بن محمد بن عبد الملك الزَّيَّات أحد أحفاد الوزير العباسي المعروف المتوفى نحو سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م . وأهم مؤلَّفات ابن وحشية كتابه «الفِلاحَة النَّبَطية» الذي ينقل عنه المقريزي هنا وفي مواضع أخرى قادمة (Fahd, T., *EI* [2] art. *Ibn Wahshiyya* III, pp. 988-90) .

[2] ابن وحشية : الفلاحة النبطية ١٠٤ - ١٠٥ .

وقال ابنُ رِضْوان : والنِّيلُ يمرُّ بأُمَمٍ كثيرة من السُّودان ، ثم يَصير إلى أرض مصر وقد غَسَلَ ما في بِلاد السُّودان من العُفُونات والأَوْساخ ، ويَشُقُّ مارًّا بوَسَط أرض مصر من الجَنوب إلى الشَّمال ، إلى أن يَصُبَّ في بحر الرُّوم . ومبدأُ زيادة هذا النهر[a] في فَصْل الصَّيْف ، وتنتهي زيادته في فصل الخريف ويرتقي في الجو منه في أوْقات مَدِّه رُطوبات كثيرة بالتحلُّل الخفيّ ، فيرطِّب ذلك يُبْس الصَّيْف والخَريف .

وإذا مَدَّ النهرُ فاضَ على أرْض مصر فغَسَلَ ما فيها من الأَوْساخ ـ نحو جِيَف الحَيَوانات وأَزْبالِها ، وفُضُول الآجام والنَّبات ومِياه النَّقائع[b] ـ وأَحْدَرَ جميعَ ذلك معه ، وخالَطَه من تُراب هذه الأرض وطِينها مِقْدارٌ كثير من أجْل سَخافَتِها ، وباضَ فيه من السَّمَك الذي تربَّى فيه وفي مِياه النَّقائِع .

ومن قِبَل ذلك تراه في أوَّل مَدِّه يخضرُّ لونُه بكثرة ما يُخالِطه من مياه النقائِع العَفِنَة التي قد اجتمع فيها العَرْمَض والطُّحْلَب ، واخْضَرَّ لونُها من عَفَنِها ، ثم يتعكَّر حتى يصير آخر أَمْره مثل الحَمْأة ، وإذا صَفَا اجْتَمَعَ منه في الإناء طينٌ كثيرٌ ورُطوبَة لَزِجَة لها سُهوكَة ورائِحَة مُنْكَرَة ، وهذا من أوْكَد الأشياء في ظُهور رَداءَة هذا الماء وعَفَنه . وقد بيَّنَ أبُقْراط وجَالِينوس أنَّ أَسْرَعَ المياه إلى العَفَن ما لَطَّفَتْه الشَّمْسُ بمِياه الأمْطار .

ومن شأن هذا الماء أن يَصِلَ إلى أرْض مصر وهو في الغاية من اللَّطافَة من شِدَّة حَرارَة بلاد السُّودان ، فإذا اخْتلَطَ به عُفُوناتُ أرض مصر زادَ ذلك في اسْتِحالَته ، ولذلك يتولَّد فيه من أنْواع السَّمَك شيءٌ كثيرٌ جِدًّا ، فإنَّ فُضُولَ الحَيَوانات والنَّبات وعُفُونَة هذا الماء وبَيْضَ السَّمَك يصير جميعها مَواد في تَكَوُّن هذه الأسْماك كما قال أَرِسْطاطاليس في كتاب «الحَيَوان» .

وذلك شيءٌ ظاهِرٌ للحِسّ ، فإنَّ كلَّ شيءٍ يَتَعَفَّن يَتَوَلَّد من عُفُونَته الحَيوان ، ولهذا صارَ ما يَتَوَلَّد من الدُّود والفأر والثَّعابين والعَقارِب والزَّنابير والذُّباب وغيرها بأرْض مصر كثيرًا . فقد اسْتبان أنَّ المِزاجَ الغالِب على أرْض مصر الحَرارَة / والرُّطوبَة الفَضْلِيَّة ، وأنَّها ذات أجْزاء كثيرة ، وأنَّ هَواءَها وماءَها رَديئان [1] .

a) بولاق : زيادته .　b) الأصل وبولاق : النقاع والتصويب من ابن رضوان .

[1] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١١٤ - ١١٦ .

ورُبَّما انْقَطَع النِّيلُ في آخر الرَّبيع وأوَّل الصَّيْف من جِهَة الفُسْطاط، فيَعْفَن بكثرة ما يُلْقَى فيه إلى أن يبْلُغ عَفَنُه إلى أن يصير له رائحة منكرَة مَحْسوسَة. وظاهِرٌ أنَّ هذا الماء إذا صارَ على هذه الحالَة غيَّرَ مِزاج الناس تغَيُّرًا مَحْسوسًا.

وينبغي أن يُسْتَقى ماءُ النِّيلَ من المَوْضِع الذي فيه جَرْيُه أَشَدّ والعُفونَة فيه أقَلّ [1]. ويُصَفِّي كلُّ إنْسان هذا الماء بحَسَب ما يُوافِق مِزاجَه: أما المحْرُورون في أيام الصيف فبالطَّباشير والطِّين الأرْمَنيّ والمَغْرَة والنَّبق المَرْضوض والزُّعْرور المَرْضوض والخَلّ، وأما المبْرُودون في أيام الشِّتاء فباللَّوْز المُرّ وداخِل نَوَى المشمش والصَّعْتَر والشَّب.

وينبغي أن يُقْطَف[a] ما يروِّق ويُشْرَب، وإن شِئْت أن تُصَفِّيه بأن تجعله في آنية الخزَف والفخّار والجُلود و[تأخذ][b] ما يَمْصُل من ذلك بالرَّشْح، وإن شِئْت طبختَه بالنار وجَعَلْته في هَوَاء الليل حتى يَروق، ثم قَطَفْت[c] منه ما يُرَوّق واسْتَعْمَلته. وإذا ظَهَرت فيه كَيْفيات رَديئات فاطْبُخه بالنار، ثم بَرِّده تحت السَّماء في بُرودَة الليل، وصَفِّه بأخْلاط الأدْوِية التي ذَكَرْتها.

وأَجْوَدُ ما اتُّخذ هذا الماء أن يُصفَّى مِرارًا، وذلك بأن تُسَخِّنه أو تَطْبُخه، ثم تُبَرِّده في هَواء الليل، وتقطفُ ما يروق منه، فتُصَفِّيه أيضًا ببعضِ الأدوية، ثم تَأْخُذ ما يُرَوِّق فتجعله في آنية تَمْصُلُ في بَرْد الليل، وتَأْخُذ الرَّشح فتَشْرَبَه.

واجعل آنِية هذا الماء في الصَّيْف الخزَف والفَخّار المعمولين في طُوبَة، والظُّروف الحجرية والقِرَب ونَحْوها ممَّا يُبَرِّد، وفي الشِّتاء الآنية الزُّجاج والمَدْهون وما يُعْمَل في الصَّيْف من الفخّار والخزَف. ويكون مَوْضعه في الصَّيْف تحت الأَسْراب وفي مَخاريق ريح الشَّمال، وفي الشِّتاء بالمواضِع الحارَّة.

ويُبَرِّد في الصيف بأن يُخْلَط معه ماءُ الوَرْد، وتُؤْخذ خِرْقَة نظيفة، ويُشَدّ فيها طَباشير أو بَزْر[d] رِجْلة أو خُشْخاش أبيض أو طِين أَرْمَنيّ أو مَغْرَة، ويلقى فيه كيما يأْخُذ من بَرْدها ولا يُخالِطه جسمها، وتُغْسَل ظروفُه[e] في الصيف بالخزَف المَدْقوق وبدَقيق الشَّعير والباقِلّاء والصَّنْدَل، وفي الشِّتاء بالأُشْنان والسُّعْد، ويُبَخَّر بالمُصْطَكى والعُود.

---

a) الأصل وبولاق: ينطف، والمثبت من ابن رضوان. b) زيادة من ابن رضوان. c) بولاق: نطفت. d) الأصل وبولاق: وبزر والتصويب من ابن رضوان. e) ابن رضوان: أوعيته.

---

[1] ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ٢١٤.

وأرْدأ ما يكون ماءُ النّيل بمصر عند فَيْضِه ، وعند وُقُوف حَرَكته ، فعند ذلك يَنْبَغي أن يُطْبَخ ويُبالَغ في تَصْفيته بقُلوب نَوَى المشمش ، وسائِر ما يَقْطَع لُزُوجَته .

وأجْوَد ما يكون في طُوبَة عند تَكامل البَرْد ، ومن أجل هذا عَرَفَ[a] المصريون بالتَّجْرِبَة أنَّ ماءَ طُوبَة أَجْود المياه ، حتى صارَ كثيرٌ منهم يُخَزِّنه في القَوارير الزُّجاج والصِّيني ، ويَشْرَبه السَّنَة كلها ، ويَزْعُم أنَّه لا يَتَغَيَّر ، وصاروا أيضًا لا يُصَفُّونه في هذا الزمان لظَنِّهم أنَّه على غايَةِ الخَلاص . وأمَّا أنت فلا تَسْكُن إلى ذلك ، وصَفِّه على أي حالةٍ كان ، فالماءُ المخزون لابد أن يَتَغَيَّر[1] .

فهذا ما عِنْدي من ذَمِّ ماء النّيل ، وحاصِله أنَّ الماءَ تَتَغَيَّر كَيْفيته بما يَمُرُّ عليه لا أنَّ ذاته رَدِيَّة . فلا يَهُولَنَّك ما تَسْمَع ، فما الأَمْرُ إلَّا ما قُلْتُ لك . وإذا كان الضَّرَرُ بحسب ما تَغَيَّر من كيفيته لا من كميته ، فقد عَرَفْت ما تُعالِجه به كي يزول ما يُخالِطه من الكَيْفيات الرَّدِيَّة . والله المُوَفِّق بمَنّه وكَرَمِه .

ذِكرُ عَجائِبِ النّيل

/[b]قال المَسْعُودِيُّ : وفي نِيل مِصْرَ وأرْضِها عَجائِبُ كثيرة من الحَيَوانات ، فمن ذلك السَّمَك المعروف بالرَّعَّادُ ، والواحِدَة نحو الذِّراع ، إذا وَقَعَت في شَبَكَة الصَّيَّاد ارتعدت يده وعضده فيَعْلَم بوُقوعها ، فيُبادِر إلى أَخْذِها وإخراجِها من شَبَكَته ، ولو أَمْسَكَها بخَشَب أو قَصَب فَعَلَت ذلك ؛ وقد ذَكَرَها جالِينُوس ، وأنَّها إن جُعِلَت على رأس مَنْ به صُداع شَديد أو شَقيقَة ـ وهي في الحياة ـ هَدَأ من ساعَته[2] .

قال ابنُ البيطار[3] عن جالِينُوس : هو الحَيَوانُ البَحْري الذي يُحْدِث الخدر ؛ وزَعَم[c] قومٌ أنَّه إذا أُدْني من رأْس من يَشْتَكي الصُّداع سَكَنَ صُداعُه ، وإن أُدْني من مَقْعَدَة من انقلبت مَقْعَدته

---

a) بولاق : عرفت . b) انظر فيما يلي ٧٦. c) ابن البيطار : وقد ذكر .

---

[1] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ٢١٤-٢١٧ .

[2] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٨٤؛ وقارن الاصطخري : مسالك الممالك ٥٠؛ ابن حوقل : صورة الأرض ١٤٨، وهو السمك المعروف الآن بالقرموط جـ. قراميط .

[3] ابن البيطار ، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن محمد العَبْدَري المالقي النَّباتي العَشّاب المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م . عالم في النبات من خلال رحلاته =

أَصْلَحَتها . ولكنني أنا جَرَّبْت الأَمْرَيْن جميعًا فلم أَجده يَفْعَل ولا واحِدًا منهما ، ففَكَّرْت أني أُدْنيه من رأْس صاحِب الصُّداع[a] والحَيوان و[b]هو حيّ ، لأنَّني ظَنَنْتُ أنَّه على هذه الحال يكون دَواء يمكن أن يُسْكِّن الصُّداع بمنزلة الأَدْوية الأخر[c] [التي تخدر الحُمَّى][d]، فوَجَدته يَنْفَع ما دام حَيًّا . قال دِيُسْقُوريدس[1] : هو سَمَكَة بحرية مُخَدِّرة إذا وُضِعَت على الرأس الذي عَرَضَ له الصُّداع المُزْمن سَكَّن شِدَّة وَجَعه ، وإذا احْتَمَله ذو المَقْعَدَة التي تَبْرُز إلى خارج أَصْلَحَها . وقال يُونُس[e]: الزَّيْتُ الذي يُطْبَخ فيه يُسَكِّن أَوْجاع المَفاصِل الحَرِيفَة إذا دُهِنَت به . قال ابنُ البَيطار : رأيتُ بسَاحِل مَدينَة مَالَقَة من بلاد الأَنْدَلُس سَمَكَةً عَرِيضَةً ، لَوْن ظاهِرها لون رَعَّاد مصر سَواء ، وباطِنها أبيض ، وفِعْلها في تَخْدير ماسِكها كفِعْل رَعَّاد مصر أو أَشَدّ ، إلَّا إنَّها لا تُؤْكَل أَلبتَّة[2] .

---

a) بولاق : المصدوع . b) بولاق : ما . c) ساقطة من بولاق . d) إضافة من ابن البيطار . e) ابن البيطار : بولس .

= في الأندلس ودراسته لمؤلفات ديسقوريدس وجالينوس . رحل في طلب العلم في رحلة طويلة زار خلالها كلًّا من الشمال الإفريقي واليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس والعراق والشام ومصر حيث حظي بمنزلة عظيمة عند سلطانها الملك الكامل محمد الأيوبي الذي ألحقه بخدمته وجعله في الديار المصرية رئيسًا على سائر العشّابين وأصحاب البسطات» (ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢: ١٣٣) ، كما اتصل بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب . وتوفي في دمشق فجأة في شعبان سنة ٦٤٦هـ/ نوفمبر ١٢٤٨م . وأهم مؤلفاته كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» و«المغني في الأدوية المفردة» و«تفسير كتاب دياسقوريدس في الأدوية المفردة» . (راجع ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢: ١٣٣؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٣: ٢٥٦-٢٥٧؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٧: ٥١-٥٢؛ المقري : نفح الطيب ٢: ٦٩١-٦٩٢؛ Brockelmann, C., *GAL* I, pp. 647-48; *S* I, pp. 896-97; Vernet, J., *EI*[2] art. *Ibn al-Bâtîr* III, pp. 759-60؛ ومقدمة إبراهيم بن مراد لكتاب تفسير كتاب دياسقوريدوس في الأدوية المفردة لابن البيطار ، تونس - بيت الحكمة ١٩٩٠، ١٧-٤١) .

[1] دِيُسقوريدس العين زَرْبي طبيب يوناني أعلم من تكلَّم في أصل علاج الطب ، وهو العلم في العقاقير المفردة ، صاحب كتاب «الحشائش» أو «الأدوية المفردة» ؛ تُرْجِم هذا الكتاب في بغداد في أيام الخليفة المتوكل ، نقله إصطَفَن بن بسيل الترجمان من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي ، وتصفّح هذه الترجمة حنين بن إسحاق فصححها وأجازها . (ابن النديم : الفهرست ٣٥١؛ ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ٢١ - ٢٣؛ Dubler, C.E., *EI*[2] art. *Diyuskurides* II, p. 359; Sezgin, F., *GAS* III, pp. 58-60) .

نشر الكتاب سيزر دبلر وإلياس تلير في برشلونة سنة ١٩٥٧ بعنوان «المقالات السبع من كتاب دياسقوريدس» ، ونشر صلاح الدين المنجد مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس بترجمة مهران بن منصور بن مهران في دمشق - المجمع العلمي العربي سنة ١٩٦٥ ، كما نشره في تونس إبراهيم ابن مراد وصدر عن بيت الحكمة سنة ١٩٩١ .

[2] ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، بولاق ١٢٩١هـ ، ٢: ١٤١ .

وقال بعضُهُم : إذا عَلَّقت المرأةُ شيئًا من الرَّعَّاد عليها ، لم يَطق زَوْجُها البُعْد عنها ، وكذلك إن عَلَّق منها الرجلُ عليه لم تَكَد المرأةُ أن تُفارِقه .

والسَّقَنْقُور وهو صِنْفٌ يَتوالَد من السَّمَك والتِّمْساح ، فلا يُشاكِل السَّمَك لأنَّ له يَدَيْن ورِجْلَيْن ، ولا يُشاكِل التِّمْساح لأنَّ ذَنَبَه أَجْرَد أَمْلس عَريض غير مُضَرَّس ، وذَنَبُ التِّمْساح مُسَيَّف مُضَرَّس ؛ ويُتَعالَج بشَحْم السَّقَنْقُور للجِماع . ولا يكون بمكانٍ إلَّا في النِّيل وفي نَهْر مَهْران من أرْض الهِنْد . ولقد بَلَغَني أنَّ أقْوامًا شَوَوها وأَكَلُوا منها فماتُوا كلُّهم في ساعَةٍ واحِدة [1] .

والسَّقَنْقُور ، قال ابنُ سِينَا : هو وَرَلٌ مائي[a] يُصادُ من نيل مصر ، يقولون إنَّه من نَسْل التِّمساح ، وأَجْوَدُ ما يُصْطاد في الرَّبيع [2] . وقال آخَر : إنَّه فَرْخُ التِّمْساح ، فإذا خَرَجَ من البَيْض : فما قَصَد الماءَ صارَ تِمْساحًا ، وما قَصَد الرَّمْلَ صار سَقَنْقُورًا .

وقال ابنُ البيطار : هو جِنْسٌ من الحَرَاذين[b] يُجفَّف في الخَريف ، إذا شُرِب منه وَزْن درهمين من المَوْضع الذي يلي كُلاه بشَراب أَنْهَضَ شَهْوَة[a] الجِماع ؛ وهو شَديد الشَّبه بالوَرَل يُوجَد بالرِّمال التي تلي نيل مصر في نَواحي صَعيدها ، وهو مِمَّا يَسْعَى في البَرِّ ويَدْخُل في الماءِ ـ يعني النِّيل ـ ولهذا قيل له الوَرَل المائي لشَبَهه به ولدُخوله في الماء . وهو يَتَوَلَّد من ذَكَرٍ وأُنْثَى ، ويُوجَد للذَّكَر خِصْيَتان كخِصْيَتي الدِّيك في خِلْقَتِهما ومَوْضِعهما ، وإناثُه تَبيض فوق العشرين بَيْضَة وتَدْفنها في الرمل ؛ وللذَّكَر من السَّقَنْقُور إحْليلان ، وللأُنْثَى فَرْجان .

والسَّقَنْقُور يَعَضُّ الإنسان ويَطْلُب الماء ، فإن وَجَدَه دَخَلَ فيه وإن لم يَجده بالَ وتَمَرَّغَ في بَوْله ، فإذا فَعَلَ ذلك ماتَ المَعْضُوض لوَقْته وسَلِم السَّقَنْقُور ، فإن اتَّفَقَ أن سَبَقَ المعضوض إلى الماء ، فدَخَلَه قَبْل دُخُول السَّقَنْقُور الماءَ وتَمَرُّغه في بَوْله ، ماتَ السَّقَنْقُور لوَقْته وسَلِم المَعْضوض . والأَفْضَلُ الذَّكَر منه ، والأَبْلَغ في نَفْع الباه ، بل هو المَخْصوص بذلك دون الأُنْثَى . والمُخْتار من أعْضائِه ما يلي [متنه و][c] أَصْل ذَنَبه ومُحاذي سُرَّته .

والوَقْتُ الذي يُصاد فيه الرَّبيع ، فإنَّه يكون فيه هائِجًا للسِّفاد فيكون في هذا الوَقْت أَبْلَغَ نَفْعًا ، فإذا أُخِذ ذُكِيَ في يوم صَيْده ، فإنَّه إن تُرِكَ حَيًّا زالَ شَحْمُه وهَزُلَ لَحْمُه وضَعُفَ فعْله ، ثم يُقْطَع

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : الجراد . c) زيادة من ابن البيطار .

---

[1] انظر كذلك الأدفوي : الطالع السعيد ٢٥ .

[2] ابن سينا : القانون في الطب ١ : ٤٠٣ .

رأسُه وطَرَفُ ذَنَبه من غير اسْتِئْصال، ويُشَقّ جَوْفُه طولًا، ويُلْقَى ما فيه إلّا كُلَاه وكِيسُه. فإذا نُظِّف حُشِيَ مِلْحًا، وخِيط الشَّقّ، وعُلِّق مَنْكوسًا في ظِلّ معتدل الهَواء حتى يَجِفّ ويُؤْمَن فَسادُه، ثم يُرْفَع في إناء مُتَخَرِّق للهواء كالسِّلال المَضْفورة من قُضْبان شَجَر الصَّفْصاف والخُوص ونحوه إلى وَقْت الحاجة.

ولَحْمُه ـ طَرِيًّا ـ حار رَطْب، والمُجَفَّف أَشَدّ حَرارَة وأقلّ رُطوبة، ولا يُوافِق استعماله مَنْ مِزاجُه حار يابِس، وإنَّما يوافِق ذَوي الأَمْزِجَة الباردة الرَّطْبة. وخاصَّةُ لَحْمِه وشَحْمِه إنْهاض شَهْوَة الجِماع، ويُهَيِّج الشَّبَق، ويُقَوِّي الإنْعاظ، ويَنْفَع أمْراض العَصَب الباردة، وخاصَّة ما يلي سُرَّته ويُحاذي ذَنَبه.

ويَنْفَع مُفْرَدًا ومُرَكَّبًا، واسْتِعْماله مفردًا أَبْلَغ؛ والمقدارُ منه بعد تَجْفيفه من مِثْقال إلى ثلاثة مَثاقيل ـ بحَسَب السِّنّ والمِزاج والبَلَد والوَقْت الحاضِر ـ يُسْحَق ويُذاب بشَرابٍ أو ماءِ العَسَل أو نَقيع الزَّبيب، أو يُذَرّ على صُفْرَة بَيْض الدَّجاج النيمرِشْت ويُحْتَسَى، وكذلك يُفْعَل بلَحْمِه إذا أُخِذ منه من دِرْهَم إلى دِرْهَمَيْن وذُرّ على صُفْرَة البَيْض بمفرده أو مع مثله بَزْر جَرْجير مَسْحوق.

ولا يوجد السَّقَنْقُور إلّا في بلاد الفَيُّوم خاصَّةً، وأكثر صَيْده في الأرْبعينات إذا اشتدّ البَرْد وخَرَج / من الماء إلى البر، فحينئذٍ يُصاد[1].

[2]ومن عَجائِب النِّيل فَرَسُ البَحْر[3]، قال عبدُ الله بن أحمد بن سُلَيْم الأُسْواني في كتاب «أخْبار النُّوبَة»[4]: ومَسافَةُ ما بين دُنْقُلَة إلى أَوَّل بلدِ عَلْوَة أكثر ممَّا بين دُنْقُلَة وأُسْوان، وفي ذلك من القُرَى والضِّياع والجَزائِر والمَواشِي والنَّخْل والشَّجَر والمُقْل والزَّرْع والكَرْم أضْعاف ما في الجانِب الذي يلي أرض الإسْلام.

وفي هذه الأماكِن جَزائِرُ عِظام مَسيرة أيَّام، فيها الحَيَّات والوُحُوش والسِّباع، ومَفاوِز يُخاف فيها العَطَش. وماءُ النِّيل يَنْعَطِف من هذه النَّواحي إلى مَطْلَع الشَّمْس وإلى مَغْرِبها مَسافَة أيَّام،

---

[1] ابن البيطار: الجامع ٣: ٢٠- ٢٢.

[2] هذه الفقرة وردت في بولاق بعد العنوان وموضعها هنا، ونتج ذلك عن إساءة نقل النساخ للطيارات التي كان يضيفها المقريزي وعدم معرفتهم لموضعها الصحيح.

[3] انظر المسبحي: أخبار مصر ٥٧؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٠- ٤١.

[4] عن ابن سليم الأسواني. انظر فيما يلي ٥١٧.

حتى يَصير المُصْعَد[a] كالمُنْحَدِر ، وهي الناحية التي تَبْلُغ العُطوف من النِّيل إلى المَعْدِن المعروف بالشُّنْكَة ، وهي بَلَد معروف بشَنْقير ، ومنه يخرج القَمْري ، وفَرَسُ البَحْر يَكْثُر في هذا المَوْضِع .

وحدَّثني سيمون ، صاحِب عَهْد عَلْوَة ، أنَّه أَحْصَى في جَزيرة سبعين دابَّة منها ، وهي من دواب الشُّطوط : في خَلْق الفَرَس ، في غِلَظ الجاموس ، قَصيرة القَوائِم ، لها خُفّ ، وهي في ألوان الخَيْل بأعْراف وآذان صِغار كآذان الخَيْل ، وأعْناقها كذلك ، وأذْنابها مثل أذْناب الجَواميس ، ولها خَطْم[b] عَريض ، يَظُنّ النَّاظِر إليها أنَّ عليها مخلاة لها صَهيل وأَنْياب ، لا يقوم حذاءَها تِمْساح ، وتَعْترض المراكِب عند الغَضَب فتُغْرِقها ، ورَعْيها في البَرّ العُشْب ، وجِلْدَها فيه مَتانَة عظيمة ، يُتَّخَذَ منه دَبابيس . انتهى .

وهو كفَرَس البَرّ إلَّا أنَّه أكبر عُرفا وذَنَبًا ، وأَحْسَنُ لونًا ، وحافِره مَشْقوق كحافِر البَقَر ، وجُثَّته أكْبَر من الحِمار بقليل ، وهو يأكُل التِّمْساح أكلًا ذَريعًا ، ويَقْوى عليه قُوَّةً ظاهِرة ، ورُبَّما خَرَجَ من الماء ونَزا على فَرَسِ البَرّ فيَتَوَلَّد بينهما فَرَسٌ في غاية الحُسْن .

واتَّفق أنَّ بعضَ الناس نَزَلَ على طَرَف النِّيل ومعه حِجْر [1] ، فخَرَجَ من الماء فَرَسٌ أدْهَم عليه نُقَط بيض ، فنَزَا على الحِجْر[c] فحَمَلَت منه ووَلَدَت مُهْرًا عَجيب الصورة ؛ فطَمَع في مُهْرٍ آخر ، فجاءَ بالحِجْر والمُهْر إلى ذلك المَوْضِع ، فخَرَج الفَرَسُ من الماء وشَمّ المُهْر ساعَةً ، ثم وَثَبَ إلى الماء ومعه المُهْر ؛ فصارَ الرجلُ يتَعَهَّد ذلك المَوْضع كثيرًا ، فلم يَعُد الفَرَسُ ولا المُهْر إليه .

وقال المَسْعُودي : والفَرَسُ الذي يكون في نِيل مصر إذا خَرَجَ من الماءِ وانْتَهَى وَطْؤه إلى بَعْض المَواضِع من الأرْض ، عَلِمَ أهلُ مصر أنَّ النِّيلَ يَزيد إلى ذلك الموضِع بعينه غير زائِد عليه ولا مقصِّر عنه ، لا يخْتلف ذلك عندهم لطُول العادات والتَّجارِب ؛ وفي ظُهُوره من الماءِ ضَرَرٌ بأرْباب الأرض والغَلَّات لرَعْيه الزَّرْع ، وذلك أنَّه يَظْهَر من الماء في اللَّيْل فينتهي إلى مَوْضِع من الزَّرْع ، ثم يُوَلِّي عائِدًا إلى الماء فيَرْعَى في حال رُجوعِه من المَوْضِع الذي انتهى إليه مسيره ، ولا يرعَى من ذلك الذي قد رَعاه شيئًا في ممرّه ، وإذا رَعَى وَرَدَ الماءَ وشَرب ، ثم قَذَفَ ما في جَوْفه في مواضِع شَتَّى ، فيَنْبُت ذلك مرَّةً ثانية ؛ وإذا كَثُرَ ذلك من فِعْله واتَّصَلَ ضَرَرُه بأرباب الضِّياع ، طَرَحوا له من

---

a) بولاق : الصعيد.   b) بولاق : خرطوم.   c) بولاق : الحجرة.

---

[1] الحِجْر : الأنثى من الخيل.

التِّرمِس في المَوْضِع الذي يُعْرف خُروجُه منه ، مكاكي[a] كثيرة ، مبذَّرا مَبسوطًا ، فيأكُلُه ثم يَعود إلى الماء ، فإذا شَرِبَ منه ربَا التِّرمس في جَوْفِه وانتفخ ، فيَنْشَقّ جَوْفُه منه ويموت ، ويَطْفُو على الماء ويَقْذِف به إلى السَّاحِل ؛ والمَوْضِعُ الذي يُرَى فيه لا يُرَى به تِمْساحٌ وهو على صورة الفَرَس إلَّا أن حَوافِرَه وذَنَبَه بخِلاف ذلك ، وجَبْهَتُه واسِعَة [١].

وقال المُسَبِّحيّ : إنَّ الصِّنْفَ المعروف بالبُلْطي من أصْناف السَّمَك أوَّل ما عُرِفَ بنيل مصر في أيام الخَلِيفَة العَزيز بالله نِزار بن المُعِزّ لدين الله ، ولم يكُن يُعْرَف قَبْله في النِّيل . وظَهَرَ في أيَّامِه أيضًا سَمَكٌ يُعْرَف باللَّبيس ، وإنَّما سُمِّي باللَّبيس لأنَّه يُشْبه البُوري الذي بالبَحْر المِلْح فالتبس به ، وغالِب الظَّنّ أنَّها من أسْماك البحر المِلْح دخلت في الحلو [٢].

ومن حَيَوان البحر التِّمْساح ، قال ابنُ البِيطار : التِّمْساحُ حَيَوانٌ معروفٌ يكون في الأنْهار الكِبار ، وفي النِّيل كثيرًا ، ويُوجَد في نَهْر مَهْران ، وقد يُوجَد في بلاد السُّودان ، وهو الوَرَل النِّيلي . وقال ابنُ زُهْر [٣]: إنَّ كلَّ حَيَوان يُحَرِّكُ فَكَّه الأسْفَل إذا أَكَل ، ما خَلا التِّمْساح ، فإنَّه يحرِّكُ فَكَّه الأَعْلى دون الأسْفَل .

وشَحْمُ التِّمْساح إذا عُجِنَ بالسَّمْن وجُعِلَ فيه فَتيلَة وأُسْرِج في نَهْر أو أَجَمَة ، لم تنقّ[b] ضَفادِعها ما دامَت تَقِد ، وإن طِيف بجِلد تِمْساح حَوْل قرية ، ثم عُلِّق على سَطْح دِهْليز لم يَقَع البردُ في تلك القَرية .

وإذا عَضَّ التِّمْساحُ إنسانًا ، فوَضَعَ على العَضَّة شَحْمَ التِّمْساح ، برِئَ من ساعَته ؛ وإن لُطِّخ بشَحْمه جَبْهة كَبْش نَطَّاح ، نَفَرَ كلُّ كَبْش يُناطِحه وهَرَبَ منه . ومَرارَته يُكْتَحل بها للبَياض في العين فتُذْهبه . وكَبِدُه يُبَخَّر بها المجنون فيَبْرَأ .

---

a) المسعودي : مكاكيك . b) بولاق : تنعق وابن البيطار : تصح .

---

[١] المسعودي : مروج الذهب ٢: ٨٤– ٨٥.

[٢] ابن إياس : بدائع الزهور ١/١: ١٩٥.

[٣] ابن زُهر ، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زُهْر الإيادي المتوفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م طبيب أندلسي من أهل إشبيلية ، لم يكن في عصره من يماثله في صناعته واتصل بعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وصنف كتبا منها «التفسير في المداواة والتدبير» و«الأغذية» و«الجامع» في الأشربة والمعجونات (راجع ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢: ٦٦– ٦٧؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩: ١١٦٢؛ Arnaldez, R., *EI*[2] atr. *Ibn Zuhr* III, p. 1001)، ونص ابن زهر هنا مضمن في نص ابن البيطار.

وزَبْل التِّمْساح يُزيل البَياض من العَيْنِ الحَديث والقَديم، وإن قُلِعَت عَيْناه وهو حيّ وعُلِّقَت على مَنْ به جُذام أَوْقَفَه، ولم يَزد عليه شيءٌ. وإن عُلِّق شيءٌ من [أسنانه][a] التي بالجانِب الأيمن على رَجُل زادَ في جِماعِه، وعَيْنُه اليُمْنَى لمن يَشْتَكي عَيْنه اليُمْنَى، وعَيْنُه اليُسْرَى لمن يشتكي عَيْنه اليُسْرَى. وشَحْمُه إذا أُذيب بدُهْن وَرْد نَفَع من وَجَع القَلْب[b] والكُلْيَتين، وزادَ في البَاه.

وإذا أُخِذَ دَمُ التِّمْساح وخُلِط به هليلج وأُمْلح وطُلِيَ به على الوَضَح[1] أَذْهَبَه وغَيَّر لَوْنَه، وإذا طُلِيَ به على الجَبْهَة والصُّدْغَيْن نفع من وَجَع الشَّقيقَة. وإذا أُكِل لحمه أسْفيذْباجا سَمَّن البَدَن النَّحيف، وشَحْمُه إذا قُطِّر بعد أن يُذاب في الأُذُن الوَجِعَة نَفَعها، وإن أُدْمِن تَقْطيره في الأُذن نَفَعَ من الصَّمَم، وإذا دَهَن به صاحِبُ حُمّى الرِّبْع سَكَنَت عنه؛ ولَحْمُه رديءِ الكيموس[2].

وقال المَسْعُودي: وكذلك التِّمْساحُ آفَتُه من دُوَيْبَّة تكون في سَواحِل النِّيل وجَزائِره، وهو أَنَّ التِّمْساح لا دُبُر له وما يأْكُلُه يتكوَّن في بَطْنه دُودًا، فإذا آذاه ذلك خَرَج إلى البَرّ فاسْتَلْقَى على قَفاه فاغِرًا فاهُ، فيَنْقَضّ إليه طَيْرُ الماء ـ وقد اعْتاد منه ذلك ـ فيأْكُل ما يَظْهَر من جَوْفه من ذلك الدُّود العَظيم، وتكون تلك الدويبَّة قد كَمُنَت في الرَّمْل، فتَثِب إلى حَلْقه وتصير إلى جَوْفِه، وتَخْرُج فيخبط بنَفْسه إلى الأرض، ويَطْلُب قَعْر النِّيل، حتى تأتي الدويبَّة على حِشْوَة جَوْفه ثم تخرق جَوْفه وتَخْرُج. وربَّما قَتَلَ نفسه قبل أن تَخْرج فتَخْرُج بعد مَوْته [من جَوْفه][c]؛ وهذه الدويبَّة تكون نحو الذِّراع، على صورة ابن عِرْس، ذات قَوائِم شَتَّى ومَخالِب[3].

ويُقالُ كان بجبال فُسْطاط مصر طِلَّسْم معمولٌ بها، وكان التِّمْساحُ لا يستطيع الإضْرار[d] حَوْله، بل كان إذا بَلَغ حُدودَه انقلَب واسْتَلْقَى على ظَهرِه فيَعْبَث به الصِّبْيانُ إلى أن يُجاوِز نهاية المَدينة، ثم يعود مُسْتَوِيًا ويعود إلى طِباعِه، ثم إنَّ هذا الطِّلَّسْم كُسِرَ فبَطَلَ فِعْلُه.

ويُقالُ إنَّ التِّمْساحَ يَبِيضُ كبَيْضِ الإوَزّ، وربَّما تَوَلَّد فيه جَرادين صِغار، ثم تَكْبَر حتى يبلغ طولها عشرة أَذْرُع، وتَزْداد طولاً كلَّما عُمِّرَت. والتِّمْساحُ يجامع[e] ستين مَرَّة في حَرَكَة واحِدَة ومَحَلٍّ واحِد، وسِنُّه اليسرى نافِعَة للنافِض.

---

a) إضافة من ابن البيطار. b) الأصل وبولاق: الصلب، والمثبت من ابن البيطار. c) زيادة من المسعودي.
d) بولاق: القرب. e) بولاق: يرتعش.

---

[1] الوَضَح هو البَرَص.
[2] ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية ١: ١٤١، وانظر عن الكيموس فيما تقدم ١١٨ هـ[3].
[3] المسعودي: مروج الذهب ١: ١٢٧.

ذكر طرف من تقدمة المعرفة بحال النيل في كل سنة

قال ابنُ رِضْوان في شَرْح الأَرْبَع [1] : وقد يحتاج أَمْرُ النِّيل إلى شُروط : منها أن تَكُونَ الأمطارُ مُتوالية في نواحي الجنُوب قَبْل مَدِّه وفي وَقْت مَدِّه ، ولذلك وَجَب أن يكون النِّيلُ ـ متى كانت الزُّهَرَة وعُطارِد مقترنين في مَدْخل الصَّيْف ـ كثير الزِّيادَة لرُطوبَة الهَوَاء ، ومتى كان المِرِّيخُ أو بعضُ المنازِل في ناحية الجنُوب في مَدْخَل الرَّبيع / أو الصَّيْف ، كان قليلاً لِقِلَّة الأمطار في تلك الناحية .

ومنها أن تكونَ الرِّياحُ شمالية لتُوقِف جَرْيه ، فأمَّا الجَنوبية فإنَّها تُسرع انْحِداره ولا تَدَعه يَلْبَث . فإذا عَلِمْت ما يكون في ناحية الجَنُوب من كَثْرَة الأمْطار أو قِلَّتها ، وفي ناحية مصر من هُبوب الرِّياح في فَصْلَي الرَّبيع والصَّيف ، فقد عَلِمْت حالَ النِّيل كيفَ يكون ، وتَعْلَم من حالِه ما يَعْرِض بمصر من الخِصْب والقَحْط [a].

وقال ابن يُونُس المُنَجِّم [2] عن بَطْلَميوس : إذا أردت أن تَعْلَم مِقْدار النِّيل في الزيادة والنُّقْصان ، فانْظُر حين تَحِلّ الشَّمْسُ بُرْجَ السَّرطان إلى الزُّهَرَة وعُطارِد والقَمَر : فإن كانت أحْوالُها جَيِّدَة وهي برية من النُّحوس ، فالنِّيل يمتدُّ وتَبْلُغ الحاجَة به ؛ وإن كانت أحوالُها بخِلاف ذلك وهي ضَعيفَة ، فانكس القول ، فإن ضَعُفَ بَعْضُها وصَلُح البعض ، تَوَسَّط الحالُ في النِّيل . والضابِطُ أنَّ قُوَّةَ الثلاثة تَدُلُّ على تَمام النِّيل ، وضَعْفَها على توسُّطه ، وانتحاسَها أو احتراقَها أو وقوعَها في بُعْدها الأَبْعَد من الأرض على النَّقْص وأنَّه قليلٌ جدًّا ، إلَّا أنَّ احتراق الزُّهَرَة في برج الأَسَد يستنزلُ الماءَ من الجَنُوب .

وقال أبو مَعْشَر [3]: يُنْظَر عند انْتِقال الشَّمْس إلى بُرْج السَّرَطان للزُّهَرَة وعُطارد والقَمَر : فإن كانت في سَيْرِها الأكبر فإنَّ زيادة النِّيل عظيمة ، وإن كانت في سَيْرِها الأَوْسَط فاعْرِف كم أكثر

a) بولاق : الجدب .

[1] عن هذا الكتاب انظر فيما تقدم ١٢٦.

[2] ابن يونس المنجم ، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن ابن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري المتوفى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م ، ألف للحاكم بأمر الله الفاطمي كتاب «الزيج الحاكمي» الذي اشتهر به (صاعد الأندلسي : التعريف بطبقات الأمم ٢٣١؛ ابن خلكان :وفيات الأعيان ٣:٤٢٩-٤٣١؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٧:١٠٩-١١٠؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩: ٢٢٦؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي ١٢٢- ١٢٤؛ Goltstein, B. R., .EI² art. *Ibn Yûnus* III pp. 969-70

[3] أبو مَعْشَر جعفر بن محمد بن عمر البَلْخي ، أحد المنجمين العرب ، عرفه الغربيون في العصور الوسطى باسم =

مَسيرِها وكم أَقَلُّه وانْسِبه بحَسَب ما تراه ، وإن كانت بَطيئَةَ السَّيْر فزيادة النِّيل قليلة ، وإن اخْتَلَف مَسيرُ هذه الثلاثة فكان بعضُها في مَسيره الأَكْبَر وبَعْضُها بطيء السَّيْر فَغَلِّب أَقْواها وامْزِج الدِّلالة ، وقُل بحَسَب ذلك .

وقالَت القِبْطُ : يُنْظر أوَّل يوم من شهر بَرَمودَة ، ما الذي يوافقه من أيام الشَّهْر العَرَبي ، فما كان من الأيامِ ، فزِدْ عليه خمسة وثمانين ، فما بَلَغَ خُذْ سُدُسَه فإنَّه يكون عَدَدَ مبلغ النِّيل من الأَذْرُع في تلك السنة .

قالوا : ومن المُعْتَبَر أيضًا في أَمْر النِّيل أن تَنْظُر اليوم الذي تُفْطِر فيه النَّصارَىٰ اليعاقِبَة بمصر ، وما بَقِي من الشَّهر العَرَبي فزِدْ عليها أربعًا وثلاثين ، فما بَلَغَ أَسْقطه اثني عشر ، فإن بقي بعد ذلك الإسْقاط من العَدَد زيادةٌ على اثني عشر فهو زيادة النِّيل من الأَذْرُع في تلك السنة مع الاثْنى عشر ، وإن بَقِيَ اثنا عشر فهي سَنَةٌ رديئة . قالوا : وإذا كان العاشِرُ من الشهر العَرَبي مُوافِقًا لشهر أَبيب ، والقَمَرُ في بُرْج العَقْرَب ، فإن كان مُقارِنًا لقلب العَقْرَب كان النِّيلُ مُقَصِّرًا وإلَّا فهو جَيِّد . قالوا : ويُنْظَر أوَّل يوم من بَؤُونَة ، فإن هَبَّت الرِّيحُ شَمالاً في بكْرَة النَّهار كانَ النِّيلُ عاليًا ، وإن هَبَّت وَسَط النَّهار فإنَّه مُتَوَسِّط ، وإن هَبَّت آخِر النَّهار كان نِيلًا قاصِرًا ، وإن لم تَهب لم يَطْلَع تلك السَّنة . وقيل يُعْتَبَر هكذا أوَّل خَميس من بَؤُونَة .

ومن المُعْتَبَر الذي جَرَّبْته أنا سنين ، وأَخْبَرني بعضُ شُيوخِنا أنَّه جَرَّبَه وأَخْبَرَه به من جَرَّبه فصَحَّ ، أن يُنْظَر أوَّل يومِ من مِسْرَى كم مبلغ النِّيل ، فزِد عليه ثمانية أَذْرُع ، فمَا بَلَغَ فهو زيادةُ النِّيل في تلك السَّنَة .

وممَّا اشْتَهَر عند أهلَ مصر ـ وجَرَّبْتُه أيضًا فصَحَّ ـ أن يُؤْخَذ قبل عِيد مِيكائيل بيومٍ في وَقْت الظُّهْر من الطِّين الذين مَرَّ عليه ماءُ النِّيل قِطْعَةً زنتها ستة عشر دِرْهَمًا سواء ، وتُرْفَع في إناءٍ مُغَطًّى

= «ألبماسر Albumasar» . بدأ حياته بدراسة الحديث ولم يدرس علم النجوم إلَّا عندما بلغ السابعة والأربعين من عمره ؛ واتُّهمه مصنفو العرب بانتحال مؤلَّفات غيره ، وتوفي سنة ٢٧٢هـ/٨٨٦م ، ومن مؤلَّفاته كتاب «تحاويل سني العالم» و«كتاب الألوف» أو «كتاب الألوف في بيوت العبادات» ، ولم يحدِّد المقريزي عنوان الكتاب الذي اعتمد عليه هنا أو فيما يلي من صفحات الكتاب (انظر ابن النديم : الفهرست ٣٣٥- ٣٣٦؛ صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ٢٢٧- ٢٢٨؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ١:٣٥٨- ٣٥٩؛ نلينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ٨٧- ٩٠، ١١٨، ١٨١- ١٨٣، ١٨٧- ١٨٨، ٢٠١، ٢١٧، ٢١٨؛ فؤاد سيد : مقدمة طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل صفحة كو- كط ؛ Brockelmann, C., *GAL* I, 221-22, S I, 394-98; Sezgin F., *GAS* VI, 156-57, VII, 143-51; Millâs, J.M., *EI*[2] art. *Abu Ma*[c]*shar* I, pp. 143-44) ؛ ونشر كبحي يماموتو «كتاب الملل والدول» لأبي معشر بعنوان Yamamoto, K., *Abu Ma*[c]*shar on Historical Astrology - The Book of Religions and Dynasties (On the Great Conjunctions)*, Leiden-Brill 2000.

إلى بُكْرَة يوم عيد مِيكائيل ، وتُوزَن ، فما زادَ على وَزْنِها من الخَراريب كان مبلغَ النِّيل في تلك السنة بقَدْر عَدَد تلك الخَراريب ، لكلِّ خَرُوبَة ذِراع ؛ ومع ذلك فلابد من[a] أَخْذ شيءٍ من دَقيق القَمْح وعَجْنه بماء النِّيل في إناءٍ فَخَّار ، وقد عُمِلَ من طين مرَّ عليه النِّيل ، وتَركه مُغَطًّى طول ليلة عيد مِيكائيل ، فإذا وُجِدَ بُكْرَة يوم العيد قد اخْتَمَر بنفسه كان النِّيلُ تامًّا وافيًا ، وإن وُجِدَ لم يَخْتَمِر دلّ على قُصور هذا النِّيل .

ثم يَنْظُرون مع ذلك بُكْرَة يوم عيد مِيكائيلُ إلى الهَوَاء ، فإن هَبَّت طِيابًا فهو نِيلٌ كبيرٌ ، وإن هَبَّت غير طِياب فهو نيلٌ مُقَصِّر ، لاسيَّما إنْ هَبَّت مَريسيًّا فإنَّه يكون نِيلًا غير كاف . والشأنُ عندهم إنَّما هو في دَلالة العَلامات الثَّلاث على شيءٍ واحِد ، فأمَّا إذا اخْتَلَف فالحُكْم لا يكاد يَصِح .

وقال أبو الرَّيْحان محمد بن أحمد البِيروني في كتاب «الآثار الباقِيَة عن القُرون الخالِيَة» : وذَكَرَ أَصْحابُ التَّجارِب أنَّه إذا تُقُدِّم فعُمِدَ إلى لَوْح ، وزُرِعَ عليه من كلِّ زَرْع ونَباتٍ ، حتى إذا كانت الليلة الخامسة والعشرون من شهر تَمُّوز ـ أَحَد شهور الرُّوم وهي آخر أيام الباحُور ـ ثم وُضع اللَّوحُ بارِزًا لطُلُوع الكَواكِب وغُروبها ، [بحيث][b] لا يَحُول بينه وبين السَّماء شيءٌ ، فإنَّ كلَّ ما يَزْكو[c] في تلك السَّنَة من الزُّروع يُصْبح أَصْفَر ، وما لا يَصْلُح[d] رَيْعُه منها يَبْقى أَخْضَر ، وكذلك كانت القِبْطُ تَفْعَلُ ذلك [1].

وقد جَرَّبْت أنا ـ على ما أفادَنيه بعضُ الكُتَّاب ـ أنَّه إذا حَصُلَ مَطَرٌ ، ولو قَلَّ ، في شهر بابَة ، يُنْظَر ما ذلك اليوم من الشهر القِبْطي ، فإنَّه يَبْلُغ سعر الوَيْبَة القَمْح تلك السَّنَة من الدَّراهِم بعَدَد ما مَضَى من أيام شهر بابَة . وأوَّلُ ما جَرَّبْت هذا أنَّه وَقَعَ مَطَرٌ في بابَة يوم الخميس الخامس عشر منها ، فبيعت الوَيْبَة تلك السنة بخمسة عشر دِرْهَمًا .

---

a) بولاق : ومن ذلك . b) زيادة من البيروني . c) الأصل وبولاق : ما لا يزكو . d) الأصل وبولاق : وما يصلح والتصويب من البيروني .

---

[1] البيروني : الآثار الباقية ٢٦٨- ٢٦٩.

ذِكْرُ عِيدُ الشَّهيد

ومِمَّا كان يُعْمَلُ بمصر عيدُ الشَّهيد، وكان من أنْزَه فُرَج أهل[a] مصر، وهو اليوم الثامن من
بَشَنْس ـ أحَد شهور القِبْط ـ/، ويَزْعُمون أنَّ النِّيلَ بمصر لا يزيدُ في كلِّ سنةٍ حتى يُلْقي النَّصارَىٰ ٦
فيه تابوتًا من خَشَب، فيه أَصْبُع من أصابع كُبَرائهم[b]، ويكونُ ذلك اليوم عيدًا تَرْحَل إليه
النَّصارَىٰ من جميع القُرَى، ويركبون فيه الخَيْل ويلْعبون عليها.

ويَخْرُج كافَّةُ[c] أهل القاهِرَة ومصر على اخْتِلاف طَبقاتِهم، ويَنْصُبون الخِيَم الكبيرة[d] على شُطوط النِّيل وفي الجَزائِر، ولا يبقَى مُغَنٍّ ولا مُغَنِّية ولا صاحِب لَهْو ولا رَبّ مَلْعوب ولا بَغِيّ ولا مُخَنَّث ولا ماجِن ولا خَليع ولا فاتِك ولا فاسِق، إلَّا ويَخْرُج لهذا العيد. فيجتمع عالَمٌ عظيمٌ[e] لا يُحصيهم إلَّا خالِقُهم، وتُصْرَف أموالٌ لا تُحْصَر[f]، ويَتَجاهَرُ الناس من القبح[g] بما لا يُحْتَمَل من المعاصي والفُسُوق، وتَثُور فِتَنٌ، ويُقْتَل أُناسٌ، ويُباعُ من الخَمْر خاصَّةً في ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فِضَّة عنها خمسة آلاف دينار ذهبًا، وباعَ نَصْرانيٌّ في يوم واحِد باثني عشر ألف دِرْهَم فِضَّة من الخَمْر. وكان اجتماعُ النَّاس لعيد الشَّهيد دائِمًا بناحية شُبْرا من ضَواحي القاهِرَة، وكان اعْتِمادُ فَلَّاحي شُبْرا دائِمًا في وَفَاء الخَراج على ما يَبيعونَه من الخَمْر في عيد الشَّهيد.

ولم يَزَلْ الحالُ على ما ذُكِرَ من الاجْتِماع كذلك إلى أن كانت سنة اثنتين وسبع مائة ـ والسُّلْطانُ يومئذٍ بديار مصر الملكُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون، والقائِمُ بتَدْبير الدولة الأميرُ رُكْنُ الدين بَيْبَرْس الجاشَنْكير، وهو يومئذٍ أَسْتادّار السُّلْطان، والأمير سَيْفُ الدين سَلار نائِب السَّلْطَنة بديار مصر ـ فقامَ الأميرُ بَيْبَرْس في إبطال ذلك قِيامًا عَظيمًا، وكان إليه أمورُ ديار مصر هو والأمير سَلار، والنَّاصِرُ تحت حَجْرهما لا يقدر على شَبَع بَطْنه إلَّا من تحت أيديهما. فتقدَّم أَمْرُ الأمير بَيْبَرس ألَّا يُرْمَى أَصْبُع في النِّيل، ولا يُعْمَل له عِيد، ونَدَبَ الحُجَّاب ووالي القاهِرَة لمَنْع النَّاس من الاجْتماع بشُبْرَا على عادَتهم. وخَرَجَ البَريدُ إلى سائِر أعْمال مصر ومعهم الكُتُب إلى الوُلاة بإجْهار النِّداء وإعْلانه في الأقاليم بألَّا يَخْرُج أَحَدٌ من النَّصارَى، ولا يَحْضَر لعَمَل عيد الشَّهيد. فشَقَّ ذلك على أقْباط مصر كلِّهم، مَنْ أظْهَر الإسْلام منهم وزَعَم أنَّه مُسْلم، ومَنْ هو باقٍ على

a) ساقطة من الأصل وبولاق ومثبتة من مسودة الخطط. b) الأصل: سلفهم الموتى، بولاق: أسلافهم الموتى، والمثبت من مسودة الخطط. c) الأصل وبولاق: عامة. d) من مسودة الخطط. e) ساقطة من الأصل. f) الأصل وبولاق: لا تنحصر. g) الأصل: من هنا، بولاق: هناك.

نَصْرانيته ، ومَشَى بعضُهم إلى بعض . وكان منهم رجلٌ يُعْرَف بالتّاج بن سعيد الدَّوْلَة[1] يُعاني الكِتابَة ، وهو يومئذٍ في خِدْمَة الأمير بَيْبَرْس ، وقد احتوى على عَقْله ، واستوْلَى على جميع أُمُوره ، كما هي عادَةُ مُلوك مصر وأُمَرائها من الأتْراك في الانْقياد لكُتّابهم من القِبْط ، سواءٌ منهم من أَسَرَّ الكُفْر ومن جَهَرَ به .

ومازال الأَقْباطُ بالتّاج إلى أن تَحَدَّث مع مَخْدومه الأمير بَيْبَرْس في ذلك ، وخَيَّلَ له من تَلَف مال الخَراج إذا بَطُلَ هذا العيد ، فإنَّ أكثر خَراج شُبْرًا إنَّما يَحْصُل من ذلك ، وقال له : متى لم يُعْمَل العيد لم يَطْلَع النِّيل أبدًا ، ويَخْرَب إقليم مصر لعَدَم طُلوع النِّيل ونحو ذلك من هَتْف القَوْل ، وتَنْميق المَكْر . فثَبَّت الله الأمير بَيْبَرْس وقَوّاه حتى أَعْرَض عن جميع ما زَخْرَفَه من القَوْل ، واسْتَمَرَّ على مَنْع عَمَل العيد وقال للتاج : إن كان النِّيلُ لا يَطْلَع إلّا بهذا الأصْبُع فلا يَطْلَع ، وإن كان الله سبحانه هو المُتَصَرِّف فيه ، فنُكَذِّب النَّصارَىٰ . فبَطُلَ العيدُ من تلك السَّنَة ، ولم يَزَل مُنْقَطِعًا إلى سنة ثمانٍ وثلاثين وسبع مائة[2] .

وعَمَّر الملكُ النّاصِرُ محمد بن قَلاوون الجِسْر في بحر النِّيل ، ليرمي قُوَّة التَّيّار عن بَرِّ القاهِرَة إلى ناحية الجِيزَة[a]، كما ذُكِرَ في مَوْضِعه من هذا الكتاب[3] . فطَلَبَ الأميرُ يَلْبُغا اليَحْياوي والأمير أَلْطُنْبُغا الماردِيني من السُّلْطان أن يَخْرُجا إلى الصَّيْد ويَغيبا مُدَّةً ، فلم تَطِب نفسُه بذلك لشِدَّة غَرامِه بهما وتهتُّكه في مَحَبَّتهما ، وأراد صَرْفهما عن السَّفَر فقال لهما : نحن نُعيد عمل عيد الشَّهيد فيكون تَفَرُّجكما عليه أَنْزَه من خُروجِكما إلى الصَّيْد ـ وكان قد قَرُبَ أوانُ وَقْتِ عيد الشَّهيد ـ فرَضِيا منه بذلك ، وأُشيع في الإقْليم إعادَة عَمَل عيد الشَّهيد . فلمّا كان اليومُ الذي كانت العادَةُ بعَمَلِه فيه ، رَكِبَ الأُمَراءُ النِّيلَ في الشَّخاتير[4] بغير حَراريق ، واجتمع الناسُ من كلِّ

---

a) في مسودة الخطط : ليحدف قوة الماء ، عن ناحية بولاق إلى أنبوبة ، وبولاق التكرور .

---

[1] الوزير التاج أبو الفرج بن سعيد الدولة كاتب بيبرس الجاشنكير ، وقرّره عند سلطنته مُشيرًا ، توفي في شهر رجب سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م (بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ٣٨٨ ، ٤٠٧؛ المقريزي : السلوك ٢: ٨٥-٨٦؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٨: ٢٧٩- ٢٨٠.

[2] انظر أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٨: ٢٠٢- ٢٠٣.

[3] انظر فيما يلي ٢: ١٦٥- ١٧١.

[4] شَخْتُور ، شَخْتُورة جـ. شَخاتير. من المراكب النيلية التي كانت تستخدم لتعدية الناس في النيل في إبان زيادته من مصر إلى الجيزة ومن الجيزة إليها (النخيلي : السفن الإسلامية ٧٤-٧٥).

جهة ، وبَرَزَ أَرْبابُ الغِناء وأَصْحابُ اللَّهْو والخَلاعَة فركبوا النِّيل ، وتَجاهَروا بما كانت عادَتهم المُجاهَرَة به من أَنْواع المُنْكَرات ، وتَوَسَّع الأُمَرَاءُ في تَنَوُّع الأَطعمة والحَلاوات وغيرها توسُّعًا خَرَجوا فيه عن الحَدّ في الكثرة البالِغَة ، وعَمَّ الناسَ منهم ما لا يمكن وَصْفُه لكثرته ، واستمرُّوا على ذلك ثلاثة أيام .

وكانت مُدَّةُ انْقِطاع عَمَل عيد الشَّهيد منذ أبطله الأمير بَيْبَرْس إلى أن أعادَه الملكُ النَّاصِرُ سِتًّا وثلاثين سنة . واستمرَّ عَمَلُه في كلِّ سنة بعد ذلك إلى أن كانت سنة خمس وخمسين وسبع مائة[1] تَحَرَّكَ المسلمون على النَّصارَىٰ ، وعُمِلَت أوراقٌ بما قد وُقِفَ من أراضي مصر على كَنائِس النَّصارَىٰ ودِياراتهم ، وأُلْزِم كُتَّاب الأُمراء بتَحرير ذلك وحَمْل الأوْراق إلى ديوان الأحباس . فلمَّا تَحَرَّرَت الأَوْراقُ ، اشتملت على خمسة وعشرين ألف فَدَّان كلها مَوْقُوفة على الدِّيارات والكَنائِس ، فعُرِضَت على أُمَرَاء الدَّوْلة القائِمين بتَدْبير الدولة في أَيَّام الملك الصَّالِح صَالح بن محمد بن قَلاوون ـ وهم الأمير شَيْخو العُمَري ، والأمير صَرْغَتْمُش ، والأمير طَاز ـ فتقرَّر الحالُ على أن يُنْعَم بذلك على الأُمَراء زيادةً على إقْطاعاتهم ، وأُلْزِم النَّصارَىٰ بما يَلْزَمهم من الصَّغار ، وهُدِمَت لهم عِدَّةُ كَنائِس ، كما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب / عند ذكر ٧٠ الكَنائِسَ[2] .

فلمَّا كان العَشْرُ الأخير من شهر رَجَب من السنة المذكورة ، خَرَج الحاجِبُ والأَمِيرُ عَلاءُ الدين عَليُّ بن الكُوراني والي القاهِرَة إلى ناحية شَبْرا الخِيام من ضَواحي مصر ، فهُدِمَت كَنيسةُ النَّصارَىٰ ، وأُخِذ منها أَصْبُع الشَّهيد في صُنْدوق وأُحضر إلى الملك الصَّالِح ، وأُحْرِق بين يَدَيْه في المَيْدان ، وذُرِّي رَمادُه في البحر حتى لا يأْخُذه النَّصارَىٰ ، فبَطُلَ عيدُ الشَّهيد من يومئذٍ إلى هذا الشَّهْر[a]، ولله الحَمْدُ[b][3] .

---

a) بولاق : العهد . b) بولاق : الحمد والمنة .

---

[1] آخر الموجود في مسودة الخطط ١٧٨و .

[2] فيما يلي ٢:٥١٢- ٥١٧ .

[3] نشر هذا الفصل عبد المجيد دياب في كتاب تاريخ الأقباط للمقريزي ٢٥٠- ٢٥١ .

ذِكْرُ الخُلْجَانِ التي شُقَّت من النِّيل

اعْلَم أنَّ النِّيلَ إذا انْتَهَت زيادتُه فُتِحَت منه خُلْجان وتُرَع يتخرَّق الماءُ فيها يمينًا وشِمالًا إلى البلاد البعيدة عن مَجْرى النِّيل. وأكثرُ الخُلْجان والتُّرع والجُسور والأَخْوار بالوَجْه البحري، وأمَّا الوَجْهُ القِبْلي ـ وهو بلادُ الصَّعيد ـ فإنَّ ذلك قَليلٌ فيه، وقد ذَهَبَت معالمُه ودُرِسَت رُسُومُه من هناك[a] [1].

والمشهور من الخُلْجان: خَليجُ سَخا[b]، وخَليجُ مَنْف، وخَليجُ المَنْهَى، وخَليجُ أُشْموم طَناح، وخَليجُ سَرْدوس، وخَليجُ الإسْكَنْدَرية، وخَليجُ دِمْياط، وخَليجُ القاهرة، وبَحْر أبي المُنَجَّا، والخَليجُ النَّاصِري ظاهِر القاهِرَة [2].

قال ابنُ عَبْد الحَكَم، عن أبي رُهْم السَّمَاعيّ، قال: كانت مصر ذاتَ قَناطِر وجُسُور بتَقْدير وتَدْبير، حتى إنَّ الماءَ ليجري تحت مَنازِلها وأَفْنيتها فيَحْبِسونه كيف شاءوا ويُرْسلونه كيف شاءوا، فذلك قَوْلُه تعالىٰ عما حَكَى عن قَوْل فِرْعَوْن: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف]. ولم يكن يومئذٍ في الأرض مُلْكٌ أعظم من مُلْك مصر، وكانت الجَنَّاتُ بحافَتَي النِّيل من أوَّله إلى آخره في الجانِبَيْن معًا جميعًا ـ ما بين أَسْوان إلى رَشيد، وسَبْع خُلُج: خَليجُ الإسْكَنْدَرية، وخَليجُ سَخَا، وخَليجُ دِمْياط، وخَليجُ مَنْف، وخَليجُ الفَيُّوم، وخَليجُ المَنْهَىٰ، وخَليجُ سَرْدُوس ـ جَنَّاتٌ مُتَّصِلَة لا يَنْقَطِعُ منها شيءٌ عن شيءٍ، والزَّرْعُ ما بين الجَبَلَيْن من أوَّل مصر إلى آخِرِها ممَّا يبلُغُه الماءُ.

وكان جميعُ أرْضِ مصر كلها تُرْوَى من ستة عشر ذِراعًا، لما قَدَّروا ودَبَّروا من قَناطِرها وخُلُجِها وجُسُورها، فذلك قولُه تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الآيتان ٢٥، ٢٦ سورة الدخان]. قال: والمَقامُ الكَريم: المَنابِر، كان بها ألف مِنْبَر [3].

---

a) بولاق: هنالك. b) بولاق: منجا.

---

[1] اقتباسًا من ابن مماتي: قوانين الدواوين ٢٠٦.

[2] قارن ابن زولاق: فضائل مصر ٥٤؛ ابن مماتي: قوانين الدواوين ٢٠٥–٢٠٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٩٧–٣٠٢؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ١١٢؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٥٦.

[3] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٦.

خليـــج سـَخا

وخَليجُ سَخا حَفَرَه تُدارُس بن صَا بن قُبْطيم بن مِصْرايم بن بَيْصَر بن حام بن نُوح ، وهو أَحَدُ مُلوك القِبْطِ القُدَماء الذين مَلَكُوا مصر في الدَّهْر الأوَّل . قال ابنُ وَصِيف شاه : تُدارُس الملك أوَّل من مَلَكَ الأَحْياز كلّها بعد أَبيه صَا ، وصَفَا له مُلْكُ مصر . وكان تُدارُس محنَّكًا مُجَرِّبًا ، ذا أَيْدٍ وقُوَّة ومَعْرِفَة بالأُمور ، فأَظْهَرَ العَدْل ، وأقامَ الهَياكِل وأَهَّلَها قِيامًا حَسَنًا ، ودَبَّر جَميعَ الأَحْياز . ويُقالُ إنَّه الذي حَفَرَ خَليجَ سَخا ، وارْتَفَعَ مالُ البَلَد على يده مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار [1] . وقَصَدَه بعضُ عَمالِقَة الشَّام ، فخَرَج إليه واسْتباحَه ، ودَخَلَ فِلَسْطِين وقَتَلَ بها خَلْقًا ، وسَبَى بعض حُكمائِها وأَسْكَنَهُم مصر ، وهابَتْهُ الملُوكُ .

وعلى رأس ثلاثين من مُلْكه طَمِعَ السُّودانُ من الزَّنْج والنُّوبَة في أرْضه ، وعاثُوا وأَفْسَدُوا . فجَمَعَ الجُيُوشَ من أَعْمال مصر وأَعَدَّ المَراكِب ، ووَجَّه قائِدًا يُقالُ له بلوطس[a] في ثلاث مائة ألف ، وقائِدًا آخَر في مِثْلها ، ووَجَّه في النِّيل ثلاث مائة سَفينَة في كلِّ سَفينَة كاهِن يعمل أُعْجوبَة من العَجائِب . ثم خَرَجَ في جُيوشٍ كثيرة فلَقَى جَمْع السُّودان ـ وكانوا في زهاء ألف ألف ـ فهَزَمَهم وقَتَلَ أَكْثَرَهُم أبرح قَتْل ، وأَسَرَ منهم خَلْقًا ، وتَبِعتهم جُيوشُه حتى وَصَلُوا إلى أرْض الفِيَلَة من بلاد الزَّنْج ، فأَخَذُوا منها عِدَّة ومن النُّمُور والوُحُوش ، وساقُوها إلى مصر فذلَّلها . وعَمِلَ على حُدود بَلَده مَنارًا وزَبَرَ عليه مَسيرَه وظَفَره والوَقْت الذي سارَ فيه .

وماتَ بمصر ، فدُفِنَ في ناووس نَقَلَ إليه شيئًا كثيرًا من أَصْنام الكَواكِب ، ومن الذَّهَب والجَوْهَر والصَّنْعَة[b] والتَّماثيل ، وزَبَر عليه اسْمَه وتاريخ هَلاكِه ، وجَعَلَ عليه طِلَّسْمات تَمْنَع منه ، وعَهِدَ إلى ابنه ماليق بن تُدارُس [2] .

---

a) بولاق : فلوطس . b) بولاق : الصيغة .

---

[1] فيما يلي ٢٠١.

[2] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٩٣-٩٤ عن ابن وصيف شاه؛ المسعودي : أخبار الزمان ١٨٥-١٨٧ وبه بعض إضافات لم ترد عند ابن وصيف شاه .

خَليجُ سَرْدُوس

حَفَرَه هامان ، قال ابنُ وَصِيف شاه : طَلْما بن قُومَس الملك جَلَسَ على سَرير المُلْك ، وحازَ جَميع ما كان في خَزائِنهم ، وهو الذي تَذْكُر القِبْط أنَّه فِرْعَوْن مُوسَىٰ ، فأمَّا أهلُ الأَثَر فيَزْعُمون أنَّه الوَليد بن مُصْعَب ، وأنَّه من العَمَالِقَة ، وذَكَرُوا أنَّ الفَراعِنَة سَبْعَة . وكان طَلْما ـ فيما حُكِيَ عنه ـ قَصيرًا ، طَويلَ اللِّحية ، أَشْهَل العَيْنَيْن ، صَغيرَ العَيْنِ اليُسْرَى ، في جَبينِه شامَة ، وكان أَعْرَج . وزَعَمَ قَوْمٌ أنَّه من القِبْط ، ونَسَبُ أهْل بَيْته مَشْهورٌ عندهم [١] .

وذَكَرَ آخرون أنَّه دَخَلَ مَنْف على أَتان عليها نَطْرُون جاءَ ليبيعه ، وكانُوا قد اضطَربوا في تَوْلية الملك ، فرَضُوا أن يُمَلِّكوا عليهم أوَّلَ من يَطْرأ من الناس ، فلمَّا رَأَوْه مَلَّكوه عليهم [٢] .

ولمَّا جَلَسَ في المُلْك بَذَلَ الأَمْوالَ وقَرَّب[a] من أطاعه ، وقَتَلَ من خالَفَه ، فاعْتَدَلَ أَمْرُه . واسْتَخْلَف هامان ، وكان يَقْرُب منه في نَسَبه ، وأثار بعض الكنوز وصَرَفَها في بِناء المَدائِن والعمارات ، وحَفَر خُلْجانًا كثيرة ، ويُقالُ إنَّه الذي حَفَرَ خليج سَرْدُوس ، وكان كُلَّما عَرَّجَه إلى قَرْيَة من قُرَى الحَوْف حَمَل إليه أَهْلُها مالاً ، حتى اجْتَمَعَ من ذلك مالٌ كثير ، فأَمَرَ بردِّه على أهْلِه [٣] .

وقال ابنُ عبد الحَكَم / عن عبد الله بن عَمْرو بن العَاص رضي الله عنهما : إنَّ فِرْعَوْنَ استعمل هامان على حَفْر خَليج سَرْدوس ، فلمَّا ابتدأ حَفْرَه أتاه أهلُ كلِّ قَرْيَة يَسْألونه أن يُجْريَ الخَليجَ تحت قريتهم ويُعطونَه مالًا .

قال : وكان يَذْهَبُ به إلى هذه القَرْيَة من نحو المَشْرِق [b]، ثم يردّه إلى قرية من نحو دُبُر القِبْلَة ، ثم يردّه إلى قَرْيَة في الغرب ، ثم يردُّه إلى أهل قرية في القِبْلَة ، ويأْخُذ من أهل كلِّ قَرْيَة مالًا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار ، فأَتَى بذلك يحمله إلى فِرْعَوْن ، فسَأَلَه عن ذلك فأَخْبَرَه بما

a) الأصل : أرغب . b) بولاق : الشرق .

[١] النويري : نهاية الأرب ١٥: ١٣٥–١٣٦؛ ولم يحدد المقريزي مصدرها . المسعودي : أخبار الزمان ٢٤٢– ٢٤٣.

[٢] لم ترد هذه الفقرة سواء عند النويري أو المسعودي ،

[٣] النويري : نهاية الأرب ١٥: ١٣٦ عن ابن وصيف شاه؛ المسعودي : أخبار الزمان ٢٤٣.

فَعَل في حَفْره فقال له فِرْعَوْنُ : وَيْحَك ، إنَّه يَنْبَغي للسيِّد أن يَعْطِفَ على عِباده ، ويُفيضُ عليهم ، ولا يَرْغب فيما بأيديهم ، رُدّ على أهْل كلِّ قَرْيَة ما أخَذْت منهم ؛ فردّه كلّه على أهْله .

قال : فلا يُعْلَم بمصر خَليجٌ أكثر انْعِطافًا منه ، لما فَعَلَ هامان في حَفْره ، وكان هامانُ نَبَطِيًّا[a] [١] .

خَليـــجُ الإسْـــكَنْدَرِيَّة

قال ابنُ عبد الحكَم : ويُقالُ إنَّ الذي بَنَى مَنارَةَ الإسْكَنْدَرية قِلُبَطْرَة الملكة ، وهي التي ساقَت خَليجَها حتى أدْخَلَته الإسْكَنْدَرية ، ولم يكن يدخُلها الماءُ ، كان يَعْدل من يُقالُ لها كِسًا قُبالَة الكِرْيُون ، فحَفَرته حتى أدْخَلته الإسْكَنْدَرية ، وهي التي بَلَّطَت قاعَه [٢] .

وقال الكِنْدِيُّ : إنَّ الحارثَ بن مِسْكين قاضي مصر حَفر خَليجَ الإسْكَنْدَرية [٣] .

وقال الأَسْعَدُ بن مَمَّاتي [٤] في كتاب «قَوانين الدَّواوين» : خَليجُ الإسْكَنْدَرية عليه عِدَّة تُرَع ، وطوله من فُمّ الخَليج ثلاثون ألف قَصَبَة وستّ مائة قَصَبَة ، وعَرْضُه من قَصَبَتَيْن ونصف إلى ثلاث قَصَبات ونصف . ومُقام الماء فيه بالنسبَة إلى النِّيل : فإن كان مقصرًا قصرت مُدَّة إقامته فيه ، وإن كان عاليًا أقامَ فيه ما يَزيد على شهرين .

ورأيتُ جَماعَةً من أهل الخِبْرَة وذَوي المعرفة يقولون : إنَّه إذا عُمِلَت من قُبالَة مُنْيَة نتيج إلى نتيج زَلَّاقَة ، استقرَّ الماءُ فيه صيفًا وشتاءً . ورويت[b] البُحَيْرَة جميعها وحَوْف رَمْسيس والكُفُور الشَّاسِعَة ، وزُرِعَ[c] عليه القَصَب والقُلْقاس والنِّيلَة وأنواع زراعَة الصَّيْفي ، وجرى مجرى بحر

a) الأصل : قبطيا والمثبت من ابن عبد الحكم . b) بولاق : رأيت . c) بولاق : وقد زرعت .

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٦-٧ ؛ وقارن المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٧١-٧٢ ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥٦ .

[٢] نفسه ٤١ .

[٣] الكندي : الولاة والقضاة (نشرة جست) ٤٦٩ ؛ ابن حجر : رفع الإصر ١١٩ ؛ وانظر عن الكندي فيما يلي ٢١٢ .

[٤] الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مُهَذَّب ابن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح مَمَّاتي المصري الكاتب ، المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م . كان وأبوه من أقباط مصر وأسلما في صدر الدولة الأيوبية ، وتولَّى الأسعد ابن مماتي ديوان الجيش للناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وديوان الإقطاعات ثم أصبح ناظرًا للدواوين بالديار المصرية . له مصنَّفاتٌ عديدة أهمها كتاب «قوانين الدواوين» الذي اعتمد عليه المقريزي في مواضع كثيرة من الخطط ، والكتاب في أصله في أربعة أجزاء ولكن المتداول منه نسخة مختصرة =

الشرق والمَحَلّة ، وتضاعَفَت عليه البِلاد ، وعَظُم ارْتِفاعها . وإقامَةُ هذه الزَّلَّاقة مُمْكِنَة لوُجود الحِجارَة في رَبْوة ، والطُّوب في البُحَيْرَة ، وأنَّهم قَدَّروا ما يُحْتاج إليه فوَجَدوه يُناهِز عشرة آلاف دينار [1] .

ويُقالُ إنَّه كان الماءُ فيه جاريًا طول السنة ، وكان السَّمَكُ فيه غاية من الكَثْرَة بحيث تَصيدُه الأطفالُ بالخِرَق ، فضَمِنَه بعضُ الوُلاة بمالٍ ، ومَنَعَ الناسَ من صَيْده ، فعُدِمَ منه السَّمَك ، ولم يُرَ بعد ذلك فيه سَمَكَة ، فصارَ يَخْرُج بالشِّباك .

خَليجُ الفَيُّوم والمَنْهَى

مِمَّا حَفَرَهُ نَبِيُّ الله يُوسُف الصِّدِّيق ـ عليه السَّلام ـ عندما عَمَّرَ الفَيُّوم ، كما هو مذكور في خَبَر الفَيُّوم من هذا الكتاب [2] . وهو مُشْتَقٌّ من النِّيل ، لا ينقطع جَرْيُه أبدًا ، وإذا قابَلَ النِّيلَ ناحية دَرْوَة سَرَبام التي تُعْرَف اليوم بدَرْوَة الشَّريف ـ يعني ابن يغلن النَّائِب في الأيام الظَّاهِرِيَّة بَيْبَرْس ـ تَشَعَّبَت منه في غَرْبِيه شُعْبَة تُسَمَّى المَنْهَى ، تستقبل[a] نَهْرًا يصل إلى الفَيُّوم ، وهو الآن يُعْرَف[b] ببَحْر يُوسُف ، وهو نَهْرٌ لا ينقطع جَرَيانُه في جميع السنة ، فيَسْقي الفَيُّوم عامَّة سَقْيًا دائِمًا ، ثم يحر فاضِل مائِه في بحيرة هناك . ومن العَجَب أنَّه يَنْقَطِع ماؤه من فَوْهَته ، ثم يكون له بَلَلٌ دون المكان المُنْدَّى ، ثم يجري جَرْيًا ضَعيفًا دون مكان البَلَل ، ثم يستقلّ نهرًا جاريًا ، لا يُقْطَع إلَّا بالسُّفُن ، ويَتَشَعَّب منه أنهار ، ويَنْقَسم قِسْمًا يعمّ الفَيُّوم يَسْقي قُراه ومَزارِعه وبَساتينه وعامَّة مساكِنه[c] [2] . والله أَعْلَم .

خَليجُ القَاهِرَة

هذا الخَليجُ بظاهِر القَاهِرَة من جانِبها الغَرْبِيّ ، فيما بينها وبين المَقْس ، عُرِفَ في أوَّل الإسْلام بخَليج أَمير المؤمنين ، وتُسَمِّيه العامَّةُ اليوم الخَليج الحَاكِمي ، وبخَليج اللُّؤْلُؤة . وهو خَليجٌ قَديمٌ ،

---

a) بولاق : تستقل . b) بولاق : عرف . c) بولاق : أماكنه .

= لم يعلم مختصرها (فيما يلي ٢: ١٦٠) (راجع ، ياقوت : معجم الأدباء ٦: ١٠٠- ١٢٦؛ القفطي : إنباه الرواة ١: ٢٣١- ٢٣٤؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ١: ٢١٠- ٢١٣؛ الصفدي : الوافي ٩: ١٩- ٢٧؛ المقريزي : المقفى الكبير ٢: ٨٣- ٨٧؛ وفيما يلي ٢: ١٦٠- ١٦١؛ Atiya, (A.S., *EI*² art. *Ibn Mammātī* III, pp. 886-87.

[1] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٢٢١- ٢٢٢؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٢٩٧- ٢٩٨.

[2] فيما يلي ٣٢١؛ وانظر المسعودي : مروج الذهب ٢: ٧٢.

أوَّلُ من حَفَرَه طوطيس بن ماليا ، أَحَدُ مُلوك مصر الذين سَكَنُوا مَدينَة مَنْف ، وهو الذي قَدِمَ إبراهيمُ الخَليل ـ صَلَواتُ الله عليه ـ في أيَّامِه إلى مصر ، وأَخَذَ منه امْرَأته سارَة وأَخْدَمَها هاجَر أمّ إسْماعيل صلوات الله عليهما ؛ فلمَّا أَخْرَجَها إبراهيمُ هي وابنها إسْماعيل إلى مَكَّة ، بَعَثَت إلى طوطيس تُعَرِّفه أنَّها بمكانٍ جَدْب وتَسْتَغيثه ، فأَمَر بحَفْر هذا الخَليج ، وبَعَثَ إليها فيه بالسُّفُن تحمل الحِنْطَة وغيرها إلى جَدَّة ، فأحْيا بَلَد الحِجاز .

ثم إنَّ أندرومانوس الذي يعرف بإيلْيا ، أَحَد مُلوك الرُّوم بعد الإسْكَنْدَر بن فِلِبُس المَجدوني ، جَدَّد حَفْر هذا الخَليج ، وسارَت فيه السُّفُنُ وذلك قبل الهِجْرَة النبوية بنَيِّف وأربع مائة سنة .

ثم إنَّ عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ جَدَّدَ حَفْرَه لمَّا فَتَحَ مصر ، وأقامَ في حَفْره ستة أشهر ، وجَرَت فيه السُّفُنُ بحَمْل المِيرَة إلى الحِجَاز ، فسُمِّيَ خَليجَ أَمير المؤمنين ـ يعني عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ فإنَّه هو الذي أشارَ بحَفْره .

ولم تَزَل تَجْري فيه السُّفُن من فُسطاط مصر إلى مَدينَة القُلْزُم التي كانت على حافَّة البَحْر الشَّرْقي ، حيث المَوْضِع الذي يُعْرَف اليوم على البَحْر بالسُّوَيْس ، وكان يَصُبّ ماءَ النِّيل في البحر من عند مَدينَة القُلْزُم ، إلى أن أَمَرَ الخَليفَةُ أبو جَعْفَر المَنْصور بَطمِّه في سنة خمسين ومائة فطُم ، وبقي منه ما هو مَوْجُودٌ الآن . وسيأتي الكلامُ عليه مَبْسوطًا ، إن شاءَ الله تعالى ، عند ذِكْر ظَواهِر القاهِرَة من هذا الكتاب [1] .

بَحْـرُ أبي المُنَـجَّا

٧٢ هذا الخَليجُ تُسَمِّيه العامَّةُ بَحْر أبي المُنَجَّا الذي حَفَرَه الأَفْضَلُ بن أَمير الجُيوش / في سنة ستٍّ وخمس مائة . وكان على حَفْره أبو المُنَجَّا بن شِعْيا اليَهودي ، فعُرِفَ به . وقد ذُكِرَ خَبَرُ هذا الخَليج عند ذِكْر مَناظِر الخُلَفَاء ومَواضِع نُزَهِهم من هذا الكتاب [2] .

الخَليـجُ النَّاصِـرِيُّ

هذا الخَليجُ في ظاهِر المَقْس ، حَفَرَه الملك[a] النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون في سنة خمس

---

a) ساقطة من بولاق .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٣:٢٩٨-٢٩٩ ، وانظر فيما يلي ٢:١٣٩- ١٤٤.

[2] فيما يلي ١:٤٨٧- ٤٨٨.

وعشرين وسبع مائة، وقد ذُكِرَ في مَوْضِعه من هذا الكتاب[١].

ذِكْرُ ما كانت عليه أرضُ مصر في الزَّمن الأوَّل

قال المَسْعُوديُّ: وقد كانت أرضُ مصر - على ما زَعَم أهْلُ الخِبْرَة والعِناية بأَخْبار شأن العالَم - يركب أرضَها ماءُ النِّيل، ويَنْبَسِط على بلاد الصَّعيد إلى أَسْفَل الأرض، ومَوْضِع الفُسْطاط في وَقْتِنا هذا. وكان بدءُ ذلك من مَوْضِع يُعْرَف بالجَنادِل بين أُسْوان والنُّوبَة، إلى أن عَرَض لذلك مَوانِعُ من انْتِقال الماء وجَرَيانه، وما يَنقل من البريّة بتيّاره[a] من مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ، فنَضَبَ الماءُ عن بعض المواضِع من بلاد مصر، وسَكَنَ الناسُ بلاد مصر، ولم يَزَل الماءُ يَنْضُب عن أرْضِها قليلًا قليلًا، حتى امتلأت أرضُ مصر من المُدُن والعَمائِر، وطَرَقوا للماء وحَفَروا له الخُلْجان، وعَقَدوا في وَجْهه المُسَنّيات[b]، إلى أن خَفِيَ ذلك على ساكِنيها، لأنَّ طولَ الزَّمان ذَهَب بمَعْرِفَة أوَّل سُكْناهم كيف كان[٢]. انتهى.

قُلْتُ: ومِمَّا ذَكَرَ أَرِسْطاطاليس في كتاب «الآثار العُلْوية» أنَّ أرْضَ مصر كان النِّيلُ يَنْبَسِط عليها فيطبقها كأنَّها بحر، ولم يَزَل الماءُ يَنْضُب عنها، ويُيَبِّس ما عَلا منها أوّلًا فأوّلًا ويَسْكُن، إلى أن امتلأت بالمُدُن والقُرَى والناس.

ويُقالُ إنَّ الناسَ كانوا قَبْل سُكْنَى مَدينَة مَنْف يَسْكُنون بسَفْح الجَبَل المُقَطَّم في مَنازِل كثيرة نَقَروها، وهي المَغاير التي في الجَبَل المُقابِل لمَنَف من قِبْلي المُقَطَّم، في الجَبَل المُتَّصِل بدير القُصَيْر الذي يُعْرَف بدَيْر البغل، المُطِلّ على ناحية طُرا. ومَنْ وَقَفَ عند أهْرام نَهْيا، رأى المَغايِر في الجَبَل[c] الشرقي وبينهما النِّيل، ومن صَعِدَ من طُرا إلى الجَبَل وسارَ فيه دَخَلَها؛ وهي مَغايِر مُتَّسِعَة، وفيها مَغايِر تُنْفِذ إلى القُلْزُم تَسَعَ المَغارَة منها أهل مَدينَة، وإذا دَخَلَها أَحَدٌ ولم يَهْتَد على ما يَدُلّه على المَخرج هَلَكَ في تَحَيُّره.

ويُقالُ كانت مصر جَرْداءَ لا نَباتَ بها، فأَقْطَعَها مُتَوَشْلخ بن خَنوخ بن يَرَد بن مهلاييل بن قَيْنان بن أنوش بن شيث بن آدم لطائِفَةٍ من أولاده. فلمَّا نَزَلُوها وَجَدُوا نِيلَها قد سَدَّ ما بين

---

a) بولاق: وما يتصل من النوبة بتياره. b) بولاق: المسببات. c) ساقطة من بولاق.

---

[١] فيما يلي ٢: ١٤٥.

[٢] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧٣.

الجبَلَيْنْ ، فنَضُبَ الماءُ عن أرض زُروعِها ، فأَخْرَجت الأرضُ بَرَكاتها . ثم بعد زَمانٍ أَخَذَها عنقام الأوَّل بن غرياب بن آدَم بالغَلَبَة ، ونَسَلَ بها خَلْقًا عظيمًا ، وجَهَّزَ لقِتال أوْلاد يرد سبعين ألف مُقاتِل ، وحَفَر من البحر إلى الجبَل نهرًا عَرْضُه أربعون قَصَبَة ليمنع من يأتيه ، فأتاه بنو يَرَد فلم يَجِدُوا إليه سَبيلًا ، ففَزِعُوا إلى الله تعالى ، فبَعَثَ على أرض مصر نارًا .

ذِكْرُ أَعْمَالِ الدِّيارِ المِصْرِيَّة وكُوَرِها[1]

اعْلَم أنَّ أرْضَ مصر كانت في الزَّمَن الغابِر[a] مائة وثلاثًا وخمسين كُورَة ، في كلِّ كُورَة مَدينَة وثلاث مائة وخَمْس وستون قَرْيَة . فلمَّا عُمِّرَت أرضُ مصر بعد بُخْت نَصَّر ، صارَت على خمس وثمانين كُورَة ، ثم تناقَصَت حتى جاءَ الإسلامُ وفيها أربعون عامِرَة بجميع قُراها لا تنقص شيئًا .

استقرَّت مصرُ كلُّها في الجُمْلَة على قِسْمَيْن : «الوَجْهُ القِبْلِيّ» ، وهو ما كان في جِهَة الجَنُوب من مَدينَة مصر ، و«الوَجْهُ البَحْرِيُّ» وهو ما كان في شَمال مَدينَة مصر . وقد قُسِّمَت الأرضُ جميعها - قِبْلِيُّها وبَحْرِيُّها - على ستة وعشرين عَمَلًا ، وهي : الشَّرْقِيَّة ، والمِرْتاحِيَّة ، والدَّقَهْلِيَّة ، والإبوانية ، وثَغْر دِمْياط .

---

a) بولاق : الأول الغابر .

---

[1] حول التقسيم الإداري وأسماء الكُوَر والمُدُن والقُرَى المصرية راجع ، أبا عبيد البكري : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك ، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت ١٩٨٠؛ عبد العال عبد المنعم الشامي : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي ، الكويت ١٩٨١؛ الوطواط الكتبي : من مباهج الفِكَر ومناهج العبر - صفحات من جغرافية مصر ، دراسة وتحقيق عبد العال عبد المنعم الشامي ، الكويت ١٩٨١؛ ابن مماتي : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٤؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ، ٧٩-١٠٢؛ ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٣: ٣٧٥-٤٠٦؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة الأجزاء ٨-٢٠؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ ، ١-٦ ، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٨؛ أمين محمود عبد الله : تطور الوحدات الإدارية في مصر العليا منذ العهد العربي ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٦٣؛ عبد العال عبد المنعم الشامي : مدن الدلتا في العصر العربي ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٧؛ Maury, R., «Les Kuras d'Egypte dans le *Mabâhig* de Watwât. Essai de chronologie des listes de Kuras», *An. Isl.* 22 (1986), pp. 155-73; Halm, H., *Agypten nach den mamlukischen Lehensregistern,* I-II, Wiesbaden 1979, 82.

الوَجْهُ البَحْرِيُّ : جَزيرَة قُويسنا ، والغَرْبية ، والسَّمَنُّودية ، والدَّنْجاوية ، والمُنُوفِيَّة ، والنَّسْتَراوية ، وفُوَّه والمُزاحِمِيَّتِين ، وجَزيرَة بني نَصْر ، والبُحَيْرَة ، وإسْكَنْدَرية وضَواحيها ، وحَوْف رَمْسِيس[1].

والوَجْهُ القِبْلِيُّ : الجِيزية ، والإطْفيحِيَّة ، والبُوصيرِيَّة ، والفَيُّومِيَّة ، والبَهْنَساوية ، والأُشْمونَيْن ، والمَنْفَلُوطية ، والأَسْيوطِيَّة ، والإخْميمِيَّة ، والقُوصِيَّة[2].

وهي أيضًا ثلاثون كُورَة ، وهي :

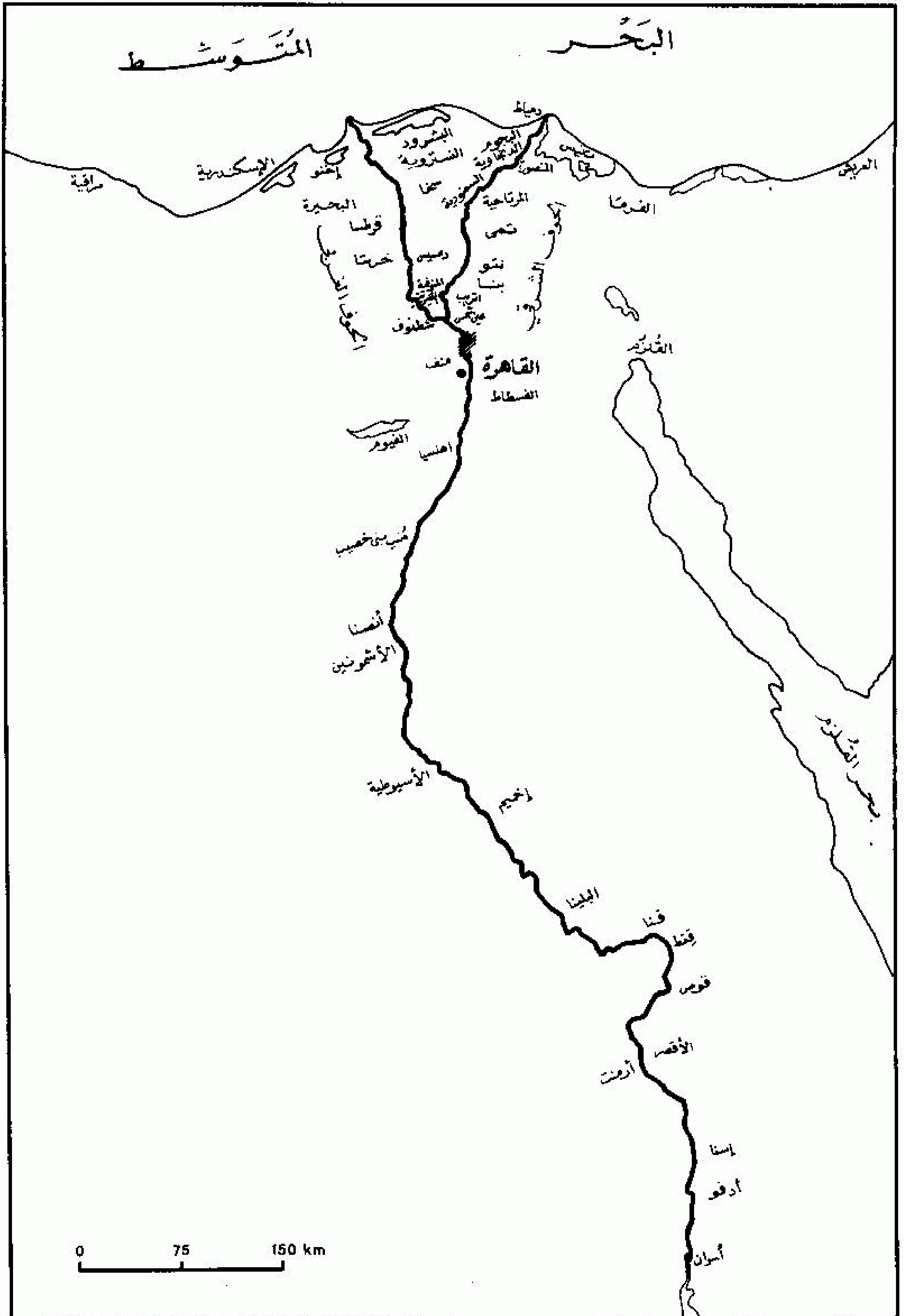
كُورَةُ الفَيُّوم : وفيها مائة وستّ وخمسون قَرْيَة ، ويُقَال إنَّها كانت ثلاث مائة وستين قَرْيَة. وكُورَة مَنْف ووُسيم : خمس وخمسون قَرْيَة . وكُورَة الشَّرْقِيَّة ، وتُعْرَف بالإطْفِيحِيَّة : سبع عشرة قَرْيَة ، وقُرَى أَهْنَاس ومنها فِمَن ثماني قُرى . وكُورتا دَلاص وبُوصير ستّ قُرى . وكُورَة أَهْناس خمس وتسعون قَرْيَة ، سوى الكُفُور . وكُورَة البَهْنَسا مائة وعشرون قَرْيَة . وكُورَة القَشْن سبع وثلاثون قَرْيَة . وكُورَة طَحَا سبع وثلاثون قَرْيَة . وحَيِّز[a] شنودة ثمان قُرَى . وكورة الأُشْمُونَيْن مائة وثلاث وثلاثون قَرْيَة . وكُورَة أَسْفَل أَنْصِنَا إحدى عشرة قَرْيَة . وكُورَة سُيُوط سبع وثلاثون قَرْيَة . وكُورَة شَطْب ثمان قُرَى . وكُورَة أَعْلى أَنْصِنا اثنتا عشرة قَرْيَة . وكُورة قَهْقَوَه سبع وثلاثون قَرْيَة . وكورة إخْميم والدَّيْر[b] ثلاث وستون قَرْيَة . وكُورَة إبْشاية[c] والوَاحَات ثلاث وستون قَرية ، سوى الكُفُور . وكُورَة هو عشرون قَرْيَة . وكُورَة فاو ثَمان قُرَى . وكُورَة قِنَا سَبْع قُرَى . وكُورَة دَنْدَرَة عشر قُرَى . وكُورَة قِفْط ثنتان وعشرون قَرْيَة . وكُورَة الأُقْصُر خَمْس قُرَى . وكُورَة إسْنَا خَمْس قُرَى . وكُورَة أَرْمَنْت سَبْع قُرَى . وكُورَة / أُسْوان سَبْع قُرَى . فجميع قُرَى الصَّعيد ألف وثلاث وأربعون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور في ثلاثين كُورَة .

كُوَر[d] أَسْفَل الأَرْض (الحَوْف الشَّرْقي) : خمس وستون قرية . كُورَة أَتْريب مائة وثمان قُرَى ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة نتو[e]: سَبْع وثمانون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة تُمَيّ[f] مائة وخمسون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة بَسْطَة تِسْع وثلاثون قَرْيَة . كُورَة طَرابِيَة ثمان وعشرون قَرية ، منها السَّدير والهامة وفاقوس . كُورَة قُرْبَيْط[g] ثمان عشرة قَرْيَة ، سوى المُنَى

a) بولاق : حوز. b) بولاق : الدوير. c) بولاق : السبابه. d) بولاق : كورة. e) بولاق : بنو.
f) بولاق : تمى. g) بولاق : هربيط.

[1] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٨٣- ٩٩. كل عمل على حروف المعجم حتى صفحة ٢٠٠.

[2] نفسه ٩٩-١٠٩ ولم يذكر المنفلوطية ثم ذكر كور



شكل ٣ ـ أَعْمَالُ الدِّيار المِصْرِيَّة وكُوَرُها

والكُفُور . كُورَتا صان وإبليل ست وأربعون قَرْيَة ، منها سَنْهُور والفَرَما والعَرِيش . مجتمع[a] قُرَى الحَوْف الشَّرْقي خمس مائة وتسع وعشرون قَرْيَة ، سوى المُنَى في تسع[b] كُوَر .

بَطْنُ الرِّيف : كورتا دَمْسيس[c] ومُنُوف مائة وأربع قُرَى ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَتا طورة ومُنُوف : اثنتان وسبعون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة سَخَا مائة وخمس عشرة قَرْيَة . كُورَة تيدة والأفْراحون ثلاث وعشرون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة البَشْرود أربع وعشرون قَرْيَة . كُورَة نقيرة اثنتا عشرة قَرْيَة ، سوى المُنَى . كُورَتا نَبا وبوصير ثمان وثمانون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة سَمَنُّود مائة وثمان وعشرون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة نُوسَا إحدى وعشرون قَرْيَة ، سوى المُنَى . كُورَة الأُوسِيَّة أربعون قَرْيَة ، سوى المُنَى . كُورَة البُجوم أربعون قَرْيَة ، سوى المُنَى . تِنِّيس ودِمْياط ثلاث عشرة قرية ، سوى المُنَى ، وهي شيءٌ كثير .

الإسْكَنْدَرية الحَوْف الغَرْبي : كورَة صَا ثلاث وسبعون قرية ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة شباس اثنان وعشرون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة البَدْقون ثلاث وأربعون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . حَيِّز البَدْقون تسع وعشرون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . الشَّراك : تسع قُرَى . كورَة تَرْنُوط ثمان قُرَى . كُورَة خِرْبِتًّا اثنان وستون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة قَرْطَسا اثنان وعشرون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَتا مَصيل والمليدس تسع وأربعون قَرْيَة ، سوى المُنَى . كُورَتا إخْنو ورَشيد سبع عشرة قَرْيَة . ومَرْيُوط ومَدينَة الإسْكَنْدَرية ولُوبْية ومَراقية : مائة وأربع وعشرون قرية ، سوى المُنَى . فالحَوْف الغربي أربع مائة وتسع وأربعون قَرْيَة ، سوى المُنَى في ثلاث عشرة كُورَة .

قال المُسَبِّحِيُّ في «تاريخه» : تَصير قُرَى مصر أَسْفَل الأَرْض ألفًا وأربع مائة وتسعًا وثلاثين قَرْيَة ، ويكون جميعُ ذلك بالصَّعيد وأَسْفَل الأَرض ألفين وثلاث مائة وخمسًا وتسعين قَرْيَة .

البُحَيْرة والحصص بالإسْكَنْدَرية ، والكرومات والبَغْل .

وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن سَلامَة القُضَاعِيُّ : أَرْضُ مصر قِسْمَيْن ، فمن ذلك صَعِيدُها ، وهو ما يلي مَهَبّ الجَنوب منها ، وأَسْفَلُ أرْضها ، وهو ما يلي مَهَبّ الشَّمال منها . فقِسْم الصَّعيد على ثمانٍ وعشرين كُورَة . فمن ذلك : كُورَة الفَيُّوم كلها ، وكُورَتا مَنْف ووسيم ، وكُورَة الشَّرْقِيَّة ، وكُورَتا دِلاص وبُوصير ، وكُورَة أهْناس ، وكُورَة القَيْس والبَهْنَسا ، وكُورَة

---

a) بولاق : فجميع . b) بولاق : سبع . c) الأصل : دسنيس .

طَحَا ، وحَيِّز شنُودَة ، وكُورَة بُوَيْط ، وكُورَتا الأُشْمونَيْنْ وأَسْفَل أَنْصِنا وأعْلاها ، وشطب وقُوص قام ، وكُورَة سُيُوط ، وكُورَة قَهْقَوَه ، وكُورَتا إخْميم والدَّيْر وأبْشاية ، وكُورَة هو وإقْنَا وفاو ودَنْدَرَة ، وكُورَة قِفْط والأُقْصُر ، وكُورَة إسْنَا وأَرْمَنْت ، وكُورَة أُسْوان ؛ فهذه كُوَرَ الصَّعيد .

ومن ذلك كُوَر أَسْفَل الأَرْض ، وهي خمس وعشرون كُورَة (وفي نُسْخَة ثلاث وثلاثون كُورَة ، وفي نُسْخَة ثمان وثلاثون كُورَة) . فمنها[a] كُوَرُ الحَوْف الشَّرْقي : كُورَتا أَتْريب وعَيْن شَمْس ، وكُورَتا بنا وتَمّي ، وكُورَتا بَسْطَة وطَرابْية ، وكورَة قربيط ، وكُورَة صَان وإبْليل ، وكُورَة الفَرَما والعَريش والجِفَار .

ومن ذلك كُورُ بَطْن الرِّيف من أَسْفَل الأرْض : كُورَة بَنَا وبُوصير ، وكُورَتا سَمَنُّود ونوسا ، وكُورَتا الأُوسِيَّة والبُجوم ، وكُورَة دَقْهَلَة ، وكُورَتا تِنِّيس ودِمْياط . ومنها كُورَة الجَزيرَة من أَسْفَل الأرْض ، وكُورة رمْسيس ومُنُوف ، وكُورَة طُوَّه ومُنُوف ، وكُورَة سَخَا وتيدة والأَفْراحون ، وكُورَة نقيزة وديصا ، وكُورَة البَشْرُود .

ومن ذلك كُوَرَ الحَوْف الغربي : كُورَة صَا وكُورة شباس ، وكُورَة البَذْقون وحَيِّزها ، وكُورَة الخَيْس والشُّراك ، وكُورَة خِرْبِتَّا ، وكُورَة قَرْطَسَا ومَصيل والمليدس ، وكُورَتا إخْنا والبُحَيْرَة ورَشيد ، وكُورَة الإسْكَنْدَرية ، وكُورَة مَرْيُوط ، وكُورَة لُوبْيَة ومَراقِيَة .

ومن كُوَر القِبْلَة قُرَى الحِجاز ، وهي كُورَة الطُّور وفاران ، وكُورَة راية والقُلْزُم ، وكُورَة أَيْلَة وحَيِّزها ، ومَدْيَن وحَيِّزها ، والعُونيد[b] ، والحَوْراء وحَيِّزهما ، ثم كُورَة بدا وشَغْب .

وذَكَرَ مَنْ له مَعْرِفَة بالخَراج وأَمْر الدِّيوان أنَّه وَقَفَ على جَريدَة عَتيقَة بخطِّ أبي[c] عيسَى بُقْطُر ابن نَقا[d] ـ الكاتِب القِبْطي المعروف بالبُولُس ، مُتَوَلِّي خَراج مصر للدَّوْلة الإخْشيدية ـ يَشْتَمِل على ذِكْر كُوَر مصر وقُراها إلى سنة خمس وأربعين وثلاث مائة : أنَّ قُرَى مصر بالصَّعيدين وأَسْفَل الأرض ألفان وثلاث مائة وخمس وتسعون قَرْيَة ، منها بالصَّعيد تسع مائة وست وخمسون قَرْيَة ، وبأَسْفَل الأرض ألف وأربع مائة وتسع وثلاثون قَرْيَة ، وهذا عَدَدُها في الوَقْت الذي حُرِّرَت[e] فيه الجَرايد المذكورة ، وقد تَغَيَّرت بعد ذلك بخَراب ما خَربَ منها .

٧٤أ وقال /ابنُ عَبْد الحَكَم ، عن اللَّيْث بن سَعْد رضي الله عنه : لمَّا وَلِيَ الوَليدُ بن رِفاعَة مصر ، خَرَجَ ليُحْصي عِدَّة أَهْلها وينظُر في تَعْديل الخَراج عليهم ، فأقامَ في ذلك ستة أشهر بالصَّعيد ،

---

a) بولاق : فمن ذلك . b) بولاق : العوينذ . c) بولاق : ابن . d) بولاق : شغا . e) بولاق : جردت .

حتى بَلَغَ أُسْوان ومعه جَماعَةٌ من الكُتَّاب والأَعْوان يَكْفُونه ذلك بجِدٍّ وتَشْمير، وثلاثة أشهر بأَسْفَل الأَرْض. وأَحْصَوا من القُرَى أكثر من عشرة آلاف قرية، فلم يُحْص[a] في أصغر قَرْيَة منها أقلَّ من خمس مائة جُمْجُمَة من الرجال الذين تُفرَضُ عليهم الجِزْيَة، يكون جُمْلَة ذلك خمسة آلاف ألف رجل[١].

والذي استقرّ الحالُ عليه في الرَّوْك النَّاصِري[b] محمد بن قَلاوون أنَّ الوَجْهَ القِبْليّ تسعة أعمال، وهي: عَمل قُوص ـ وهو أَجَلُّها، ومنه أُسْوان وغَرْب قَمُولَة، وعَمَلُ إخْميم، وعَمَلُ سُيوط، وعمل مَنْفَلُوط، وعَمَلُ الأُشْمُونَيْن ـ وبها الطَّحاوِيَّة ـ وعَمَلُ البَهْنَسَا ومنه الغرابيّ، وهو عِبارَةٌ عن قُرَى على غَرْبيّ المَنْهَى الماد إلى الفَيُّوم، وعَمَل الفَيُّوم، وعَمل إطْفيح، وعَمَل الجيزَة.

والوَجْهُ البَحْرِيّ ستّةُ أعمال: عَمَلُ البُحَيْرَة ـ وهو مُتَّصل البَرّ بالإسْكَنْدَرية وبَرْقَة ـ، وعَمَلُ الغَرْبِيَّة جَزيرَةٌ واحِدَةٌ يشتمل عليها ما بين البَحْرَيْن، وهما: البَحْر الماد و[c]مَسْكَبُه عند دِمْياط ويُسَمَّى الشَّرقي، والبحر الثاني مَسْكَبُه عند رَشيد ويُسَمَّى الغربي؛ والمُنوفِيَّة، ومنها إبْيار، وجَزيرَة بني نَصْر. وعَمَل قَلْيُوب، وعَمَل الشَّرْقِيَّة، وعَمَل أُشْمُوم طَناح، ومنها الدَّقَهْلِيَّة والمِزْتاحِيَّة، وهناك مَوْقِعُ ثَغْر البُرُلُّس وثَغْر رَشيد والمَنْصورَة، وفي هذا الوَجْه الإسْكَنْدَرية ودِمْياط، ولا عَمَلَ لهما[٢].

وأمَّا الوَاحاتُ فمُنْقَطِعَة وَرَاء الوَجْه القِبْلي، مغاربة لم تُعَدّ في الولايات ولا في الأَعْمال، ولا يَحْكُم عليها والي السُّلْطان، وإنَّما يَحْكُم عليها من قِبَل مُقْطِعِها[٢].

---

a) بولاق: يحصر. b) بولاق: والذي استقر عليه الحال في دولة الناصر. c) ساقطة من بولاق.

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٥٦.

[٢] نقل المقريزي هذا النصّ عن ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٩٧-١٠٠، حيث اطلع على النسخة المحفوظة الآن في مكتبة آياصوفيا باستانبول رقم ٣٤١٦ وكتب على ظهرية أجزائها بخطه «انتقاه داعيًا لمعيره أحمد بن عليّ المقريزي ٨٣١هـ» وأحد أجزاء هذه النسخة وهو الجزء العشرون اطلع عليه أيضًا المقريزي في نفس السنة وسجل عليه نفس العبارة وهو محفوظ الآن في مكتبة جون ريلاندز John Rylands بمانشستر برقم ٣٤٤ - وسجل بخطه على ما يقابل هذه المعلومات في نسخة آياصوفيا تصويبات وشروح على ما أورده العمري حول مدينة منف وعلى جزيرة بني نصر؛ وانظر فيما تقدم ١٩٣-١٩٦.

ذِكْرُ ما كان يُعْمَل في أَراضي مصر من حَفْر التُّرَع

وعِمارَة الجُسُور ونَحْو ذلك من أَجْل ضَبط ماءِ النِّيل وتَصْرِيفه في أَوْقاتِه

قال ابنُ عَبْد الحكَم، عن يَزِيد بن أبي حَبيب: وكانت فَرِيضَةُ مصر ـ بحَفْر خُلُجِها، وإقامَة جُسورِها، وبناء قَناطِرها، وقَطْع جَزائِرها ـ مائة ألف وعشرين ألفا معهم المَساحي والطوريات والأداة، يَعْتَقبون ذلك، لا يَدَعُونه شتاءً ولا صيفًا.

وعن أبي قَبيل[1] قال: زَعَمَ بعضُ مَشايخ أهل مصر أنَّ الذي كان يُعْمَل به بمصر على عَهْد مُلوكِها أنَّهم كانوا يُقِرُّون القُرَى في أيدي أَهْلِها، كلّ قرية بكِرَاءٍ معلوم لا ينقض عنهم إلَّا في كلّ أَرْبع سنين من أجل الظَّمأ وتَنَقُّل اليَسار. فإذا مَضَت أربعُ سنين نُقِضَ ذلك، وعُدِّلَ تعديلًا جديدًا، فيُرْفَق بمن اسْتَحَقَّ الرِّفق، ويُزادُ على من احْتَمَل الزِّيادَةَ، ولا يُحْمَل عليهم من ذلك ما يَشُق عليهم. فإذا جُبِيَ الخَراجُ وجُمِعَ، كان للمَلك من ذلك الرُّبْع خالِصًا لنفسه، يَصْنَع به ما يُريد. والرُّبع الثاني لجُنْده، ومن تَقَوَّى به على حَرْبه وجِبايَة خَراجِه ودَفْع عَدُوِّه. والرُّبْعُ الثالِث في مَصْلَحَة الأرض، وما تَحتاج إليه من جُسورِها وحَفْر خُلُجِها وبناء قَناطِرها، والقُوَّة للمزارعين على زَرْعِهم، وعِمارَة أَرْضهم. والرُّبْع الرَّابع يخرج منه رُبْع ما يُصيب كلَّ قَرْيَة من خَراجِها، فيدفن ذلك لنائِبَة تَنْزل أو جائحة بأهل القرية، فكانوا على ذلك. والذي يُدْفَن في كلِّ قرية من خَراجِها هي كُنوزُ فِرْعَوْن التي يتحدَّث النّاسُ بها أنَّها سَتُظْهر، فيَطْلُبها الذين يَتَتَبَّعون الكُنُوز[2].

وذُكِرَ أنَّ بَعْض فَراعِنَة مصر جَبَى خَراجَ مصر اثنين وسبعين ألف ألف دينار، وأنَّ من عمارته أنَّه أرسل وَيْبَة قَمْح إلى أَسْفَل الأَرْض وإلى الصَّعيد في وَقْت تَنْظيف الأَرْض والتُّرَع من العِمارة، فلم يُوجَد لها أرض فارِغة تُزْرَع فيها. وذُكِرَ أنَّه كان عند تَناهي العِمارَة يُرْسِل بأربع وَيْبات بَرْسِيم إلى الصَّعيد وإلى أَسْفَل الأرض، وإلى أيّ كُورَة، فإن وُجِدَ لها موضعًا خاليًا فزُرِعَت فيه، ضَرَبَ عُنُق صاحِب الكُورَة. وكانت مصرُ يومئذٍ عِمارَتها مُتَّصلة أربعين فَرْسَخًا في مثلها، والفَرْسَخُ ثلاثة أميال، والبَرِيدُ أربعة فَراسِخ، فتكون عشرة بُرُد في مثلها. ولم تزل الفَراعِنَةُ تَسْلُك هذا

---

[1] أبو قبيل حيّ بن هانئ بن ناصر المعافري، يماني قدم واستوطن مصر وروى عن عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وشُفَيّ بن ماتع، وتوفي سنة ١٢٨هـ/٧٤٦م عن عمر يناهز المائة (ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٢: ٥١٢؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥: ٢١٤-٢١٥).

[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣٢- ٣٣.

المَسْلَك إلى أيام فِرْعَون مُوسَى ، فإنَّه عَمَّرَها عَدْلًا وَسَماحَة ، وتتابَع الظَّمَأ ثلاث سنين في أيَّامِه فَتَرَكَ لأهل مصر خَراجَ ثلاث سنين ، وأَنْفَقَ على نفسه ثم على عساكِره[a] من خَزائِنه ، ولمَّا كان في السنة الرابعة أَضْعَف الخَراج ، واستمرَّ فاعْتاض ما أَنْفَقَ .

قال[b]: وكَتَبَ عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ إلى عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه : أنِ اسأل المُقَوْقِس عن مصر ، من أين تأتي عِمارَتُها وخَرابُها ؟ فسَأَلَه عَمْرو ، فقال له المُقَوْقِسُ: عِمارَتُها وخَرابُها من وُجوهٍ خمسة : أن يُسْتَخْرَج خَراجُها في إبَّان واحِد عند فَراغ أَهْلها من زُرُوعِهم ، ويُرْفَع خَراجُها في إبَّانٍ واحِد عند فَراغ أَهْلِها من عَصْر كُرومِهم ، وتُحْفَر في كلّ سنة خُلْجانُها ، وتُسدَّ تُرَعُها وجُسورُها ، ولا يُقْبَل مَحْلُ[c] أهلها ، يريد البَغْيَ ؛ فإذا فُعِلَ هذا فيها عَمُرت ، وإن عُمِل فيها بخِلافِه خَرِبَت .

وعن زَيْد بن أَسْلَم عن أبيه قال : لمَّا اسْتَبْطَا عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ في الخَراج ، كَتَبَ إليه أن ابْعَث إليَّ رَجُلًا من أهل مصر . فبَعَثَ إليه رَجُلًا قَديمًا من القِبْط ، فاسْتَخْبَره عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ عن / مصر وخَراجِها قَبْلَ الإسْلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كان لا يُؤْخَذ منها شيءٌ إلَّا بعد عِمارَتها ، وعامِلُك لا يَنْظُر إلى العِمارَة ، وإنَّما يأْخُذ ما ظَهَرَ له كأنَّه لا يُريدُها إلَّا لعامٍ واحِدٍ ؛ فعَرَف عُمَر ـ رضي الله عنه ـ ما قال ، وقَبِلَ من عَمْرو ما كان يَعْتَذِر به [1].

وقال عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ للمُقَوْقِس : أنت وَلِيتَ مصر ، فبِم تكون عِمارَتُها ؟ فقال : بخِصالٍ : أن تَحْفُر[d] خُلْجانَها ، وتَسُدّ جُسورَها وتُرَعَها ، ولا تأْخُذ[e] خَراجَها إلَّا من غَلَّتها ، ولا تَقْبَل مَطْل أهله ، وتُوَفّي لهم بالشُّروط ، وتَدُر الأرزاق على العُمَّال لئلا يَرْتَشوا ، وتَرْتَفع عن أهْله المَعاون والهَدايا ليكون قُوَّة لهم ، فبذلك تَعْمُر ويُرْجَى خَراجُها .

ويُقالُ إنَّ مُلوكَ مصر من القِبْط كانوا يَقْسِمون الخَراجَ أربعة أقْسام : قِسْم لخاصَّة الملك ، وقِسْم لأرْزاق الجُنْد ، وقِسْم لمصالِح الأرْض ، وقَسْم يُدَّخر لحادِثَة تَحْدُث فيُنْفَق فيها .

---

a) بولاق : وعساكره . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : مطل . d) بولاق : تحفروا . e) بولاق : يؤخذ .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٦١.

ولمَّا وَلِيَ عُبيد الله بن الحَبْحاب خَراجَ مصر لِهشام بن عبد الملك، خَرَجَ بنفسه فمَسَحَ أرض مصر كلَّها ـ عامِرها وغامِرها، ممَّا يركبه النِّيل ـ فوَجَدَ فيها مائة ألف ألف فَدَّان، [a]ويقال إن أحمد بن مُدَبِّر اعْتَبَر ما يَصْلحُ للزراعة بأرض مصر فوجده أربعة وعشرين ألف ألف فدان[a]، والباقي اسْتَبْحَر وتَلف؛ واعْتَبَرَ مُدَّة الحَرْث فوَجَدَها ستين يومًا، والحَرَّاثُ يَحْرث خمسين فَدَّانًا، فكانت[b] مُحتاجَةً إلى أربع مائة ألف وثمانين ألف حَرَّاث.

ذِكْرُ مِقْدارِ خَراجِ مِصْر في الزَّمَن الأَوَّل

قال ابنُ وَصِيف شَاه: وكان مَنْقاوس قَسَم خَراج البلاد أرْباعًا: فرُبْعٌ للمَلك خاصَّة يعَمْل فيه ما يُريد، ورُبْعٌ يُنْفَق في مَصالِح الأَرْض وما تَحْتاج إليه من عَمَل الجُسُور وحَفْر الخُلْج وتَقْوية أَهْلها على العِمارَة، ورُبْعٌ يُدْفَن لحادِثَة تَحْدُث أو نازِلَة تَنْزل، ورُبْعٌ للجُنْد. وكان خَراجُ البَلَد ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف ألف دينار، وقَسَمَها على مائة وثلاث كُوَر بعدة الآلاف[1] ـ ويُقالُ إنَّ كلَّ دينار عشرة مَثاقيل من مَثاقيلنا الإسْلامية ـ وهي اليوم خمس وثمانون كُورَة: أَسْفَل الأَرْض خمس وأربعون كُورَة، والصَّعيد أَرْبَعون كُورَة. وفي كلِّ كُورَة كاهِنٌ يُدبِّرها، وصاحِبُ حَرْب[2].

وارْتَفَعَ مالُ البَلَد على يد تُدارُس بن صَا مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار، وفي أيام كَلْكُن بن خِرِبْتًا بن ماليق بن تُدارُس مائة ألف ألف دينار وبضعة عشر ألف ألف دينار[3].

ولمَّا زالَت دَوْلَةُ القِبْط الأُولى من مصر، ومَلَكَها العَمالِقَة، اخْتَلّ أمرُها. وكان فِرْعَونُ الأَوَّل يجبيها تسعين ألف ألف دينار، يُخْرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لمصالِح البلد، وعشرة آلاف ألف دينار لمَصالِح النَّاس ـ من أوْلاد المُلوك، وأهل التَّعَفُّف ـ وعشرة آلاف ألف دينار لأَوْلياء الأَمْر والجُنْد والكُتَّاب، وعشرة آلاف ألف دينار لمَصالِح فِرْعَوْن، ويَكْنِزون لفِرْعَوْن خمسين ألف ألف دينار.

(a-a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: وكانت.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ٥: ٦٦ عن ابن وصيف شاه.

[2] كلّ النص المنسوب إلى ابن وصيف شاه موجود عند المسعودي: أخبار الزمان ١٧١ - ١٧٢.

[3] المسعودي: أخبار الزمان ١٨٦؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٩٤ عن ابن وصيف شاه، وفيما تقدم ١٨٧.

وبَلَغَ خَراجُ مصر في أيَّام الرَّيَّان بن الوَليد ـ وهو فِرْعَون يُوسُف عليه السَّلام ـ سبعة وتسعين ألف ألف دينار، فأَحَبَّ أن يُتِمَّه مائة ألف ألف دينار، فأَمَر بوُجوه العِمارات، وإصْلاح جُسُور البَلَد، والزيادة في اسْتِنْباط الأَرْض، حتى بَلَغَ ذلك وزادَ عليه[1].

وقال ابنُ دِحْيَة: وجُبِيَت مصر في أيَّام الفَراعِنَة فبَلَغَت تسعين ألف ألف دينارٍ بالدينار الفِرْعَوْني، وهو ثلاثة مَثاقيل من مِثْقالِنا المعروف الآن بمصر، الذي هو أربعة وعشرون قِيراطًا، كلّ قِيراط ثلاث حَبَّات من قَمْح، فيكون بحِساب ذلك مائتي ألف ألف وسبعين ألف ألف دِينار مصرية[2].

وذَكَرَ الشَّريفُ الجَوَّانيُّ[3] أنَّه وُجِدَ في بعض البَرابي بالصَّعيد مَكْتوبًا باللغة الصَّعيدية ممَّا نُقِلَ بالعربية: مَبْلَغ ما كان يُسْتَخْرَج لفِرْعَوْن يُوسُف عليه السَّلام ـ وهو الرَّيَّانُ بن الوَليد ـ من أَمْوال مصر بحَقّ الخَراج ممَّا يوجبه الخَراجُ وسائِرُ وُجوه الجِبايات لسنة واحِدَة على العَدْل والإنْصاف والرُّسُوم الجارية، من غير تَأْويل ولا اضْطهاد ولا مُشاحَّة على عظيم فَضْل كان في يد المُؤَدِّي لرَسْمه، وبعد وَضْع ما يَجِب وَضْعُه لحَوادِث الزَّمان نَظَرًا للعامِلين وتَقْوِيةً لحالِهم: من العَيْن أربعة وعشرون ألف ألف دينارٍ وأربع مائة ألف دينار[4]. وذَكَرَ باقيه[a] كما في خَبَر الحَسَن بن عليّ الأَسَديّ.

وقال الحَسَن بن عليّ الأَسَديّ: أَخْبَرَني أبي، قال: وَجَدْتُ في كتابٍ قِبْطي باللغة الصَّعيدية ـ ممَّا نُقِلَ إلى اللغة العربية ـ أنَّ مَبْلَغ ما كان يُسْتَخْرَج لفِرْعَون مصر بحَقّ الخَراج الذي يُوَجد، وسائِر وُجوه الجِبايات لسَنَة كامِلَة على العَدْل والإنْصاف والرُّسُوم الجارِية من غَيْر اضطهاد ولا مُناقَشَة على عَظيم فَضْلٍ كان في يد المؤدِّي لرَسْمه، وبعد وَضْع ما يجب وَضْعُه لحَوادِث الزَّمان رِفْقًا

---

a) بولاق: ما فيه.

---

[1] قارن مع المسعودي: أخبار الزمان ٢٢٤؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٢٠.

[2] لم أقف على هذا النص فيما وصل إلينا من مؤلَّفات ابن دِحْيَة.

[3] الشريف النسابة أبو عبد الله محمد بن أسعد بن عليّ ابن الحسين المازندراني المعروف بالشريف الجَوَّاني المتوفى سنة ٥٨٨هـ/١٠٩٢م نقيب الأشراف بمصر ومؤلف العديد من المصنَّفات وخاصَّةً في النسب. والكتاب الذي ينقل منه المقريزي هنا هو كتاب «النُّقَط لعجم ما أشكل من الخطط» وهو أحد أهم مصادر المقريزي فيما يخص خطط الفسطاط في العصر الفاطمي المتأخر (انظر دراسة المصادر في المقدمة).

[4] يوجد هذا النص في الكراسة التي بخط المقريزي المحفوظة في مكتبة Liège.

بالعامِلِين وتقوية لهم : من العَيْنُ أربعة وعشرين ألف ألف دينار وأربع مائة ألف دينار من جِهات مصر ، وذلك ما يُصْرَف في عِمارَة البلاد لحفْر الخُلُج وإتْقان الجُسُور[a] وسَدّ التُّراع وإصْلاح السُّبل والسَّانية[b]، ثم في تقوية من يَحتاج التقوية من غير رُجُوع عليه بها ، لإقامَة العَوامِل ، والتَّوْسِعَة في البِذارِ ، وغير ذلك . ومن الآلات ، وأُجْرَة مَنْ يُسْتَعان به من الأُجَراء لحَمْل الأَصْناف وسائِر نَفَقات تَطْريق أراضيهم : من العَيْنُ ثمان مائة ألف دينار . ولما يُصْرَف في أَرْزاق الأَوْلياء المَوْسُومِين بالسِّلاح وحَمَلَته ، والغِلْمان وأَشْياعِهم ، مع ألف كاتِبٍ مَوْسومين / بالدَّواوين ، سوى أتْباعهم من الخُزَّان ، ومَنْ يَجْري مَجْراهم ـ وعِدّتهم مائة ألف وأَحَد عشر ألف رجل ـ من العَيْنُ ثمانية آلاف دينار . ولما يُصْرَف في الأَرامِل والأَيْتام فَرْضًا لهم من بَيْت المال ، وإن كانوا غير مُحتاجين إليه ، حتى لا تَخْلو آمالُهم من بِرٍّ يصل إليهم : من العَيْنُ أربع مائة ألف دينار . ولما يُصْرَف في كَهَنَة بَرابِيهم وأَئِمّتهم ، وسائِر بُيوت صَلَواتهم : من العَيْنُ مائة ألف دينار . ولما يُصْرَف في الصَّدَقات ـ ويُنادَى في الناس : بَرِئَت الذِّمّة من رَجُل كَشَفَ وَجْهَه لفاقَة ولم يحضر[c]، فلا يُرَدّ عند ذلك أَحَدٌ ، والأُمَناء جُلوس ، فإذا رُئي رَجُلٌ لم تَجْرِ عادَته بذلك أُفْرِد بعد قَبْض ما يَقْبِضه ، حتى إذا فُرِّقَ المالُ واجتمع من هذه الطائِفة عِدَّة ، دَخَلَ أُمَناء فِرْعَون إليه وهَنَّوه بتفَرقَة المال ، ودَعَوا له بالبَقاء والسَّلامَة ، وأَنْهَوا حال الطائِفة المذكورة ، فيأْمُرُ بتَغْيير شَعَثِها بالحَمَّام واللِّباس ، وتُمَدُّ الأَسْمِطَة ، ويأكلون ويَشْربون ، ثم يَسْتَعْلِم من كلٍّ واحِد سبب فاقَته ، فإن كان من آفَة الزَّمان رَدَّ عليه مثل ما كان وأكثر ، وإن كان عن سُوء رأْيٍ وضَعْف تَدْبير ، ضَمَّه إلى من يُشْرِف عليه ويَقُوم بالأَمْر الذي يَصْلُح له ـ من العَيْنُ مائتا ألف دينار .

فذلك جُمْلَة ما تَبَيَّنَ وفُصِّل في هذه الجِهات المذكورة : من العَين تسعة آلاف ألف وثمان مائة ألف دينار ؛ ويَحْصُل بعد ذلك ما يَتَسلَّمه فِرْعَون في بُيوت أمواله عِدَّة لنَوائِب الدَّهْر وحادِثات الزَّمان : من العَيْنُ أربعة عشر ألف ألف دينار وست مائة ألف دينار [1] .

وقيل لبَعْضِهم : متى عَقَدَت مصر تسعين ألف ألف دينار ؟ قال : في الوَقْت الذي أَرْسَلَ فِرْعَون بوَيْبَة قَمْح إلى أَسْفَل الأرض وإلى الصَّعيد ، فلم يَجد لها مَوْضِعًا تُبْذَر فيه لشَغْل جميع البلاد بالعِمارَة .

---

a) في سراج الملوك : والإبقاء على الجسور . b) بولاق : السبل والسياسة . c) الأصل وبولاق : فليحضر .

---

[1] ورد هذا النّصّ عند أبي بكر الطُّرطوشي في كتاب سراج الملوك ٥٠٧ - ٥٠٩ .

ذِكْرُ ما عَمِلَهُ المُسْلِمُونَ عِنْدَ فَتْحِ مِصْر

في الخَراج وما كان من أَمْر مِصْر في ذلك مع القِبْط

قال زُهَيْر بن مُعاوِيَة : حَدَّثَنا سُهَيْل ، عن أَبيه ، عن أَبي هُرَيْرَة قال : قال رَسولُ الله ﷺ : «مَنَعَت العراقُ دِرْهَمَها وقَفيزَها ، ومَنَعَت الشَّامُ مُدَّها ودينارَها ، ومَنَعَت مصر أَرْدَبَّها ، وعُدْتُم من حيث بَدَأْتُم » .

قال أبو عُبَيْد : قد أَخْبَرَ ﷺ بما لم يَكُن ، وهو في عِلْم الله كائِن ، فَخَرَجَ لَفْظُه على لَفْظ الماضي لأَنّه ماضٍ في علم الله . وفي إعْلامه بهذا قبل وُقوعِه ، ما دَلَّ على إثْبات نُبُوَّتِه ، ودَلَّ على رِضاه من عُمَر - رضي الله عنه - ما وَظَّفَه على الكَفَرَة من الخَراج في الأَمْصَار .

وفي تَفْسير المَنْع وَجْهان : أَحَدُهُما أنّه عَلِمَ أَنَّهم سيُسْلمون ويَسْقُط عنهم ما وُظِّفَ عليهم ، فصارُوا مانِعين بإسْلامِهم ما وُظِّف عليهم ، يدلُّ عليه قولُه «وعُدْتُم من حَيْث بَدَأْتُم» . وقيل معناه أَنّهم يَرْجعون عن الطَّاعَة ، والأَوّل أحسن .

وقال ابنُ عَبْد الحَكَم ، عن عبد الله بن لَهيعَة : لمَّا فَتَحَ عَمْرو بن العَاص مصر ، صُولِحَ على جَميع من فيها من الرِّجال من القِبْط - ممَّن راهَقَ الحُلْم إلى ما فَوْق ذلك ، ليس فيهم امْرَأَة ولا صَبِي ولا شَيْخ - على دينارَيْن دينارَيْن ، فَأُحْصُوا لذلك[a] فبَلَغَت عِدَّتهم ثمانية آلاف ألف .

وعن هِشام بن أبي رُقَيَّة اللَّخْمي أَنَّ عَمْرو بن العَاص لمَّا فَتَحَ مصر قال لِقِبْط مصر : إنَّ من كَتَمَني كَنْزًا عنده فقَدَرْتُ عليه قَتَلْتُه . وأَنَّ قِبْطيًا من أَهْل[b] الصَّعيد يُقالُ له بُطْرُس ذَكَر لعَمْرو أَنَّ عنده كنزًا ، فأَرْسَلَ إليه فسَأَلَه فأَنْكَرَ وجَحَدَ ، فحَبَسَه في السِّجْن وعَمْرو يسأل عنه : هل تَسْمَعُونه يسأل عن أَحَد ؟ فقالوا : لا ، إنَّما سَمِعْناه يسأل عن راهِب في الطُّور . فأَرْسَل عَمْرو إلى بُطْرُس فنَزَعَ خاتَمَه ، ثم كَتَبَ إلى ذلك الرَّاهِب أن ابْعَثْ إليَّ بما عندك ، وخَتَمَه بخاتَمِه . فجاءَ الرَّسُولُ بقُلَّة شامِيَّة مَخْتُومَة بالرَّصاص ، ففَتَحَها عَمْرو فوَجَدَ فيها صَحيفَة مكتوب فيها «مالُكُم تحت الفَسْقِيَّة الكَبيرَة» . فأَرْسَلَ عَمْرو إلى الفَسْقِيَّة فحَبَسَ عنها الماء ، ثم قَلَعَ البَلاط الذي تحتها فوَجَدَ فيها اثنين وخمسين أردبًّا ذَهَبًا مصريًّا مضروبة . فضَرَبَ عَمْرو رَأْسَه عند باب المَسْجد ، فأَخْرَج القِبْطُ كُنوزَهم شَفَقًا أن يُبْغَى على أَحَدٍ منهم فيُقْتَلَ كما قُتِلَ بُطْرُس .

---

a) بولاق : فأحصوا ذلك . b) بولاق : أرض .

وعن يَزيد بن أبي حَبيب أنَّ عَمْرو بن العَاص اسْتَحَلَّ مالَ قِبْطي من قِبْط مصر ، لأنَّه اسْتَقَرَّ عنده أنَّه يُظْهِر الرُّوم على عَوْرات المسلمين ، ويَكْتُب إليهم بذلك ، فاسْتَخْرَج منه بِضْعًا وخمسين أرْدَبًّا دنانير [١].

قال ابنُ عَبْد الحَكَم : وكان عَمْرو بن العَاص - رضي الله عنه - يَبْعَث إلى عُمر بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - بالجِزْيَة بعد حَبْس ما كان يَحْتاج إليه . وكانت فَريضَةُ مصر لحفْر خُلُجها ، وإقامَة جُسورِها ، وبِنَاء قَناطِرِها ، وقَطْع جَزائِرِها ، مائة ألف وعشرين ألفا ، معهم الطُّور والمَساحي والأَداة ، يَعْتَقِبون ذلك ، لا يَدَعون ذلك صَيْفًا ولا شِتاءً .

ثم كَتَب إليه عُمَر بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - أن تَخْتِم في رِقاب أهْل الذِّمَّة بالرَّصاص ، ويُظْهِروا مَناطِقَهم ، ويَجُزّوا نَواصيَهم ، ويركبوا على الأُكُف عَرْضًا ، ولا يَضْربوا الجِزْيَة إلَّا على من جَرَت عليه المواسي [a]، ولا يَضْرِبوا على النِّساء ولا على الوِلْدان ، ولا تَدَعْهم يَتَشَبَّهون بالمسلمين في مَلْبوسهم .

وعن زَيْد[b] بن أَسْلَم أنَّ عُمَرَ بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - كَتَب إلى أُمَراء الأَجْناد ألَّا يَضْرِبوا الجِزْيَة إلَّا على من جَرَت عليه المواسي [a]. وجِزْيَتُهم أربعون دِرْهَمًا على أهل الوَرِق ، وأربعة دنانير على أهْل الذَّهب ، وعليهم من أرْزاقِ المسلمين من الحِنْطَة والزَّيْت مُدَّان من حِنْطة ، وثلاثة / ٧٢ أَقْساط من زَيْت في كلِّ شهرٍ لكلِّ إنْسان من أهل الشَّام والجَزيرَة ، ووَدْكٌ ، وعَسَلٌ لا أدري كم هو : ومَنْ كان من أهل مصر فأرْدَبٌ في كلِّ شهر لكلِّ إنسان ، ولا أَدْري كم الوَدْك والعَسَل ، وعليهم من البَزّ والكُسْوَة التي يكسوها أمير المؤمنين النَّاس ، ويُضَيِّفون من نَزَلَ بهم من أهْل الإسلام ثلاثة أيَّام ، وعلى أهْل العِراق خمسة عشر صاعًا لكلِّ إنسان ، ولا أَدْري كم لهم من الوَدْك . وكان لا يَضْرِب الجِزْيَة على النِّساء والصِبْيان ، وكان يَخْتِم في أعْناق رِجال أهْل الجِزْيَة ، وكانت وَيْبَة عمر في ولاية عَمْرو بن العَاص ستة أمْداد [٢].

قال : وكان عَمْرو بن العَاص لمَّا اسْتَوْثَق له الأَمْرُ ، أَقَرَّ قِبْطها على جِبايَة الرُّوم ، فكانت جبايتُهم بالتَّعْديل : إذا عُمرت القَرْيَة وكَثُر أهْلُها يزيد عليهم ، وإن قلَّ أهْلُها وخَرِبَت نَقِصوا ؛ فيَجْتَمع

---

a) بولاق : الموسى . b) في النسخ يزيد والصواب ما أثبته .

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨٧.

[٢] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥١- ١٥٢.

عَرّافو كلِّ قَرْيَة وأُمَراؤها ورُؤَساء أهْلها ، فيتناظَرون في العِمارَة والخَراب ، حتى إذا أقَرُّوا من القسم بالزيادة انْصَرَفوا بتلك القِسْمة إلى الكُوَر ، ثم اجْتَمَعوا هم ورُؤساء القُرَى فوَزَّعوا ذلك على احْتِمال القُرَى وسَعَة المزارع .

ثم تَرْجِعُ كلُّ قَرْيَة بقِسْمتهم فيجمعون قسمهم وخَراج كلِّ قَرْيَة وما فيها من الأرض العامِرَة ، فيبتدئون ويُخْرِجون من الأرض فَدادين لكَنائِسِهم وحَمّاماتِهم ومَعَدِّياتهم من جُمْلَة الأرض ، ثم يخرج منها عَدَد الضِّيافَة للمسلمين ونُزول السُّلْطان . فإذا فَرَغُوا نَظَروا لما في كلِّ قَرْيَة من الصُّنّاع والأُجَراء ، فقَسَّمَوا عليهم بقَدْر احْتِمالهم ، فإن كانت فيهم جالية قَسَمُوا عليها بقَدْر احتمالِها ، وقَلَّما كانت تكون إلَّا للرجل الشّاب أو المتزوِّج ؛ ثم يَنْظرون ما بَقِيَ من الخَرَاج فيُقَسِّمونه بينهم على عَدَد الأرض ، ثم يَقْسِمون ذلك بين من يُريد الزَّرْع منهم على قَدْرَ طاقتهم : فإن عَجَز أحَدٌ منهم وشَكَا ضَعْفًا عن زَرْع أرْضِه ، وزَّعُوا ما عَجَز عنه على ذَوِي الاحْتِمال ، وإن كان منهم من يُريد الزِّيادَة أُعْطِي ما عَجَزَ عنه أهْلُ الضَّعْف ، فإن تَشاحُوا قَسَموا ذلك على عِدَّتهم .

وكانت قِسْمَتُهم على قَراريط الدَّنانير أربعة وعشرين قيراطًا ، يَقْسِمون الأرض على ذلك ، ولذلك رُوي عن النَّبِيّ ﷺ : «إنَّكم ستَفْتَحون أرْضًا يُذْكَر فيها القِيراط ، فاسْتَوْصُوا بأهْلها خَيْرًا» ، وجَعَلَ لكلِّ فَدّان عليهم نصف أرْدَبّ قَمْح ووَيْبَتَيْن من شَعير ، إلَّا القُرْط فلم يكن عليه ضَريبَة ، والوَيْبَة ستة أمْداد .

وكان عُمر بن الخَطّاب ـ رضي الله عنه ـ يأخُذ ممَّن صالَحَه من المعاهَدِين ما سَمَّى على نَفْسه ، لا يَضَع من ذلك شيئًا ولا يَزيد عليه . ومن نَزَل منهم على الجِزْيَة ولم يُسَم شيئًا يؤدِّيه ، نَظَر عُمَر في أمْره ، فإذا احْتاجوا خَفَّف عنهم ، وإن اسْتَغْنوا زادَ عليهم بقَدْر اسْتِغْنائهم[1] .

وقال هشام بن أبي رُقَيَّة اللَّخْمي : قَدِمَ صاحِبُ إخْنَا على عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ فقال له : أخْبِرْنا ما عَلَى أحدِنا من الجِزْيَة فنَصْبِر لها ؛ فقال عَمْرو وهو يُشير إلى رُكْن كَنيسَة : لو أعْطَيْتني من الأرْض إلى السَّقْف ما أخْبَرْتك ما عليك ، إنَّما أنتم خزانَةٌ لنا : إن كَثُرَ علينا كَثَّرنا عليكم ، وإن خُفِّفَ عنَّا خَفَّفْنا عنكم[2] .

---

a) بولاق : تجتمع .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٢ - ٣٥٣.
[2] نفسه ١٥٤، ١٧٦.

ومن ذَهَب إلى هذا الحَديث ، ذَهَب إلى أنَّ مِصْرَ فُتِحَت عَنْوَة .

وعن يَزيد بن أبي حَبيب قال : قال عُمَر بن عبد العَزيز : أيُّما ذِمِّي أَسْلَم فإنَّ إسْلامَه يُحْرِز له نفسه وماله ، وما كان من أرْضٍ فإنَّها من فَيْءِ الله على المسْلمين ؛ وأيُّما قَوْمٍ صالَحوا على جِزْيَة يُعْطونها ، فمن أَسْلَم منهم كانت دارُه وأرضُه لبَقِيَّتِهم .

وقال اللَّيْثُ : كَتَب إليَّ يحيى بن سعيد أنَّ ما باعَ القِبْطُ في جِزْيَتِهم ، وما يُؤْخَذون به من الحَقّ الذي عليهم ـ من عَبْدٍ ، أو وَليدَة ، أو بَعير ، أو بَقَرَة ، أو دَابَّة ـ فإنَّ ذلك جائِزٌ عليهم . فمن ابْتاعَه منهم ، فهو غير مَرْدُود عليهم إن أيْسَروا ، وما أكْرَوْا من أرْضِهم فجائِزٌ كِراؤُه ، إلَّا أن يكون يَضُرُّ بالجِزْيَة التي عليهم ، فلعَلَّ الأرضَ أن تُرَدَّ عليهم إن أَضَرَّت بجِزْيَتِهم ، وإن كان فَضْلًا بعد الجِزْيَة فإنَّا نَرَى كِراءَها جائِزًا لمن كَراها[a] منهم[1].

قال يحيى : فنحن نقول : الجِزْيَةُ جِزْيَتان : جِزْيَةٌ على رُؤُوس الرِّجال ، وجِزْيَةُ جُمْلَةٍ تكون على أَهْل القَرْيَة يُؤْخَذ بها أهلُ القَرْيَة . فمن هَلَكَ من أهْل القَرْيَة التي عليهم جِزْيَة مُسَمَّاة على القَرْيَة ليست على رُؤُوس الرِّجال ، فإنَّا نَرَى أنَّ من هَلَكَ من أهْل القَرْيَة ممَّن لا وَلَدَ له ولا وَارِث أنَّ أرْضَه تَرْجع إلى قريته في جُمْلة ما عليهم من الجِزْيَة ، ومَنْ هَلَكَ ممَّن جِزْيَتُه على رؤُوس الرِّجال ، ولم يَدَع وارِثًا ، فإنَّ أَرْضَه للمسلمين .

وقال اللَّيْثُ عن عُمَر بن عبد العَزيز : الجِزْيَةُ على الرُّؤُوس ولَيْسَت على الأَرْضين ، يُريدُ أهْلَ الذِّمَّة .

---

a) بولاق : تكراها .

---

[1] الجزية ، ويُطْلَق عليها في مصر أيضًا الجالية جـ. الجوالي ، الضريبة الموضوعة على الرءوس على الذِّمِّيين ، تؤخذ طالما ظلَّ الكتابيُّ على عقيدته وتسقط بدخوله الإسلام . وهي واجبة على أهل الذِّمَّة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين ، وكانت تجبى متى بلغ الصبي سن التاسعة . وكانت الجزية في العصر الفاطمي على ثلاث طبقات : من الغني أربع دنانير وسدس ، ومن المتوسط ديناران وقيراطان ، ومن الفقير دينار واحد وثلث وربع وحبتان أي دينار و $\frac{٥}{٨}$. والجزية تجب بحلول الحَوْل ، أي أنها تستأدى مسانهة بعد انقضاء السنة بالشهور الهلالية ، وتستخرج عادة في مصر في شهر المحرم . (راجع ، المخزومي : المنهاج ٣٤، ٣٥؛ ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣١٧؛ النويري : نهاية الأرب ٨: ٢٣٤– ٢٤٥؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٤٥٨؛ Cahen, Cl., *EI*^{2} art. *Djawâlî* II, 1. p. 502; id., *EI*^{2} art. *Djizia* II, pp. 573-76؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٢٢– ٥٢٧؛ وانظر فيما يلي ٢٨٨، ٢: ٤٩٢– ٤٩٣) .

وقيل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطَّاب أجلاهم عن جزيرة العرب فسمُّوا جالية ، ولزمهم هذا الاسم أين حلُّوا ، ثم لزم من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد وإن لم يجلوا عن أوطانهم (ابن منظور : لسان العرب ١٨: ١٦٢) .

وكَتَبَ عُمَرُ بن عبد العَزيز إلى حَيَّان بن شُرَيْح أن يجعل جِزْيَةَ مَوْتَى القِبْط على أحْيائِهم. وهذا يدلُّ على أنَّ عُمَر كان يَرَى أنَّ أرْضَ مصر فُتِحَت عَنْوَة، وأنَّ الجِزْيَة إنَّما هي على القُرَى، فمن ماتَ من أهل القُرَى كانت تلك الجِزْيَة ثابِتَة عليهم، وأنَّ مَوْتَ من ماتَ منهم لا يَضَع عنهم من الجِزْيَة شيئًا. قال: ويُحْتَمَل أن تكون مصر فُتِحَت بصُلْح، فذلك الصُّلْحُ ثابِتٌ على من بقي منهم، وأنَّ مَوْتَ من ماتَ منهم لا يَضَع عنهم ممَّا صالَحوا عليه شيئًا[1].

قال اللَّيْثُ: وَضَعَ عُمَر بن عبد العَزيز الجِزْيَةَ على من أسْلَم من أهل الذِّمَّة من أهل مصر، وأَلْحَق في الدِّيوان صُلْح من أَسْلَم منهم في عَشائِر من أَسْلَموا على يديه، وكانت تُؤْخَذ قبل ذلك ممَّن أَسْلَم. وأوَّلُ من أَخَذَ الجِزْيَة ممَّن أَسْلَم من أهل الذِّمَّة الحَجَّاجُ بن يُوسُف.

ثم كَتَب عبد الملك بن مَرْوان إلى / عبد العَزيز بن مَرْوان أن يَضَعَ الجِزْيَةَ على من أَسْلَم من أهل الذِّمَّة، فكلَّمه ابن حُجَيْرَة في ذلك قال: أُعيذك بالله أيُّها الأمير أن تكون أوَّل من سَنَّ ذلك بمصر، فوالله إنَّ أَهْلَ الذِّمَّة ليتحمَّلون جِزْيَة مِن تَرَهَّب منهم، فكيف تَضَعُها على من أَسْلَم منهم؟ فتَرَكَهُم عند ذلك.

وكَتَبَ عُمَر بن عبد العَزيز إلى حَيَّان بن شُرَيْح: أن تَضَعَ الجِزْيَة عمَّن أَسْلَم من أَهْل الذِّمَّة، فإنَّ الله تبارَك وتعالى قال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية ٥ سورة التوبة]، وقال: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [الآية ٢٩ سورة التوبة][2].

وكَتَب حَيَّان بن شُرَيْح إلى عُمَر بن عبد العَزيز:

«أمَّا بَعْدُ، فإنَّ الإسْلامَ قد أَضَرَّ بالجِزْيَة حتى سَلَفْتُ من الحارِث بن ثابِتَة عشرين ألف دينار أَتْمَمْتُ بها عَطَاءَ أَهْل الدِّيوان، فإن رَأَى أميرُ المؤمنين أن يَأْمُر بقَضَائِها فَعَل».

فكَتَب إليه عُمَر:

«أمَّا بَعْدُ، فقد بَلَغَني كِتابُك، وقد وَلَّيْتُك جُنْدَ مصر، وأنا عارِفٌ بضَعْفِك، وقد أَمَرْتُ رَسُولي بضَرْبِك على رَأْسِك عشرين سَوْطًا، فضَع

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٥٤- ١٥٥.

[2] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٥٥- ١٥٦.

الجِزْيَةَ عمَّن أَسْلَمَ ، قَبَّحَ الله رَأْيَك ، فإنَّ الله إنَّما بَعَثَ محمدًا ﷺ هادِيًا ولم يَبْعَثْه جابِيًا ، ولَعَمْري لعُمَرُ أَشْقَى من أن يَدْخُلَ النَّاسُ كُلُّهم الإسلامَ على يَدَيْه»[١].

قال : ولمَّا اسْتَبْطأَ عُمَرَ بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ الخَرَاجَ من قِبَل عَمْرو بن العَاص ، كَتَبَ إليه :

«بِسْمِ الله الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيم ، من عبد الله عُمَر أمير المؤْمنين إلى عَمْرو بن العَاص ، سَلامُ الله عليك ، فإنِّي أَحْمَدُ إليك الله الذي لا إله إلَّا هو .

أمَّا بَعْدُ ، فإنِّي فَكَّرت في أَمْرِك والذي أنت عليه ، فإذا أَرْضُك أرْضٌ واسِعة عريضَة رَفيعَة ، وقد أَعْطَى الله أَهْلَها عُدَدًا وجَلَدًا وقُوَّة في بَرٍّ وبَحْرٍ ، وإنَّها قد عالَجَتْها الفَراعِنَةُ ، وعَمِلوا فيها عَمَلًا مُحْكَمًا ، مع شِدَّة عُتُوِّهم وكُفْرِهم ، فعَجِبْت من ذلك ، وأَعجبُ مِمَّا عجبت أنَّها لا تُؤَدِّي نِصف ما كانت تُؤَدِّيه من الخَراج قَبْل ذلك ، على غير قُحُوط ولا جُدُوب[a]. ولقد أكثرت في مُكاتَبتك في الذي على أرْضِك من الخَراج ، وظَنَنْت أنَّ ذلك سيأتينا على غَيْر نَزْر ، ورَجَوْتَ أن تُفيق فتَرْفَع إليَّ ذلك ، فإذا أنت تأتيني بمَعاريض تَعْبَأ بها لا تُوافق الذي في نفسي ، ولَسْت قابِلًا منك دون الذي كانت تُؤْخَذ به من الخَراج قبل ذلك ، ولَستُ أَدْري مع ذلك ما الذي نَفَّرَك من كتابي وقَبَضَك ، فلئن كنت مُجْزِئًا كافِئًا صَحيحًا ، إنَّ البَرَاءَة لنافِعَة ، وإن كنت مُضيعًا نَطِفًا ، إنَّ الأَمرَ لعلى غير ما تُحَدِّث به نَفْسَك . وقد تَرَكت أن أَبْتلي ذلك منك في العام الماضي رجاءَ أن تَفيق فتَرْفَع إليَّ ذلك . وقد عَلِمْت أنَّه لم يَمْنَعْك من ذلك إلَّا عُمَّالُك عُمَّال السُّوْء ، وما توالِس عليه[b] وتُلَفِّف ، اتَّخذوك كَهْفًا ، وعندي بإذن الله دَواء فيه شِفاء عمَّا أسألك عنه[c]. فلا تَجْزَع أبا عبد الله أن يُؤْخذ منك الحَقّ وتُعْطاه ، فإنَّ النَّهْرَ يُخرج الدُّرّ ، والحَقُّ أَبْلَج ، ودَعْني وما عنه تَلَجْلَج ، فإنَّه قد بَرِحَ الخَفاءُ . والسَّلامُ»[٢].

---

a) بولاق : جدب . b) بولاق : عليك . c) بولاق : فيه .

---

[١] قارن مع ابن سعد : الطبقات الكبرى ٥ : ٣٨٤.

[٢] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٨- ١٥٩.

فكَتَب إليه عَمْرو بن العَاص:

«بِسْم الله الرَّحْمَٰن الرَّحيم، لعَبْد الله عُمَر أمير المؤمنين، من عَمْرو بن العَاص، سَلامُ الله عليك، فإنّي أَحْمَدُ إليك الله الذي لا إله إلّا هو.

أمَّا بَعْدُ، فقد بَلَغَني كتابُ أَمير المؤمنين في الذي اسْتَبْطَأني فيه من الخَراج، والذي ذَكَرَ فيها من عَمَلِ الفَراعِنَة قَبْلي، وإعْجابه من خَراجِها على أيْديهم، ونَقْص ذلك منها مُذْ كان الإسْلام. ولعَمْري للخَراج يومئذٍ أَوْفَر وأَكْثَر والأَرْضُ أَعْمَر، لأنّهم كانوا على كُفْرِهم وعُتُوّهم أَرْغَب في عِمارَة أَرْضِهم منّا مذ كان الإسْلامُ، وذَكَرتَ أنَّ النَّهَرَ يُخْرِج الدُّرّ فحَلَبْتُها حَلْبًا قطع دُرُّها. وأكثرت في كِتابِك وأَنَّبْت وعَرَّضْت وثَرَّبت، وعَلِمْت أنَّ ذلك عن شيءٍ تُخْفيه على غير خَبر، فجئْت لعَمْري بالمُقْطعات المُقْذِعات، ولقد كان لك فيه من الصَّوَاب من القَوْل رَصِينٌ صارِم بَليغٌ صادِق. ولقد عَمِلْنا لرَسُول الله ﷺ ولمن بَعْده، فكُنَّا ـ بحَمْد الله ـ مُؤَدِّين لأماناتِنا، حافِظين لما عَظَّمَ الله من حَقّ أئِمَّتنا، نَرَى غير ذلك قَبيحًا، والعمل به سَيِّئًا. فيُعْرَف ذلك لنا، ويُصَدَّق فيه قيلُنا. مَعَاذَ الله من تلك الطُّعَم، ومن شَرّ الشِّيم، والاجْتِراء على كلّ مَأْثَم. فأَقبض عملك، فإنَّ الله قد نَزَّهَني عن تلك الطُّعَم الدَّنِيَّة والرَّغْبَة فيها بعد كتابِك الذي لم تَسْتَبق فيه عَرْضًا، ولم تكرم فيه أخًا، والله يا ابن الخَطَّاب لأنا حين يُراد ذلك مِنّي أَشَد لنَفْسِي غَضَبًا، ولها إنْزاهًا وإكْرامًا، وما عَمِلْت من عَمَلٍ أَرَى عَلَيَّ فيه متعلَّقًا، ولكنّي حَفِظت ما لم تَحْفَظ، ولو كنت من يَهُود يَثْرِب ما زِدْتَ ـ يَغْفر الله لك ولَنَا ـ وسَكَتُّ عن أشياءِ كنت بها عالِمًا، وكان اللِّسانُ بها مِنّي ذَلولًا، ولكنَّ الله عَظَّمَ من حَقِّك ما لا يُجْهَل»[1].

فكَتَبَ إليه عُمَر بن الخَطَّاب، رضي الله عنه:

«من عُمَر بن الخطَّاب إلى عَمْرو بن العَاص، سلامٌ عليك، فإنّي أَحْمَدُ إليك الله الذي لا إله إلّا هو.

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٥٩ - ١٦٠.

أمَّا بَعْدَ ، فإنِّي قد عَجِبْت من كَثْرَة كَتْبي إليك في إبْطائِك بالخَراج ، وكتابُك إلى سيّآت[a] الطُّرُق ، وقد عَلِمْتَ أنّي لَسْتُ أرْضَى منك إلَّا بالحَقّ البَيِّن ، ولم أُقْدِمْك إلى مصر أجْعَلَها لك طُعْمَةً ولا لقَوْمِك ، ولكني وَجَّهْتُك لما رَجَوْت من تَوْفيرك الخَراج وحُسْن سياسَتك . فإذا أتاكَ كتابي هذا ، فاحْمِل الخَراجَ فإنَّما هو فَيْءُ المسلمين ، وعندي من قد تَعْلَم قَوْمٌ مَحْصرون . والسَّلام» .

٧٩ /فكَتَب إليه عَمْرو بن العَاص :

«بِسْم الله الرَّحْمَٰن الرَّحيم ، لعُمَر بن الخَطَّاب ، من عَمْرو بن العَاص ، سلامٌ عليك ، فإنِّي أَحْمَدُ إليك الله الذي لا إله إلَّا هو .

أمَّا بَعْدُ ، فقد أتاني كتابُ أمير المؤمنين يَسْتَبْطِئُني في الخَرَاج ، ويَزْعُم أنّي أَعْنِد[b] عن الحَقّ ، وأنْكُب عن الطَّريق ، وإنّي والله ما أرْغَبُ عن صالِح ما تَعْلَم ، ولكن أهلَ الأرْض اسْتَنْظَروني إلى أن تُدْرَك غَلَّتُهم ، فنَظَرْتُ للمسلمين فكان الرِّفْقُ بهم خَيْرًا من أن يُخْرَق بهم فيَصيروا إلى بَيْع ما لا غِنَى بهم عنه . والسَّلام»[1] .

وقال اللَّيْثُ بن سَعْد ـ رضي الله عنه ـ : جَباهَا عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ اثني عشر ألف ألف دينار ، وجَباها المُقَوْقِسُ قَبْلَه بسنة عشرين ألف ألف دينار ، فعند ذلك كَتَب إليه عُمَر بن الخَطَّاب بما كَتَب به . وجَباها عبدُ الله بن سَعْد بن أبي سَرْح ، حين استعمله عُثْمان ـ رضي الله عنه ـ على مِصْر ، أربعة عشر ألف ألف دينار ، فقال عُثْمان لعَمْرو بن العَاص بعدما عَزَلَه عن مصر : يا أبا عبد الله ، دَرَّت اللِّقْحَةُ بأكثر من دَرِّها الأوَّل . قال : أضْرَرْتم بوَلَدها . فقال : ذلك إن لم يَمت الفَصيل[2] .

وكَتَب مُعاوِيَةُ بن أبي سُفْيان إلى وَرْدان ـ وكان قد وَلي خَراجَ مصر ـ أن زِدْ على كلِّ رَجُلٍ من القِبْط قِيراطًا . فكَتَبَ إليه وَرْدان : كيف نَزيد عليهم وفي عَهْدهم ألَّا يُزاد عليهم شيءٌ ؟ فعَزَلَه مُعاوِيَة ، وقيل في عَزْل وَرْدان غير ذلك .

---

a) بولاق : بينيات .   b) بولاق : أحيد .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٦٠ - ١٦١ .   [2] نفسه ١٦١ .

وقال ابنُ لَهيعَة : كان الدِّيوانُ في زَمان مُعاوِيَة أربعين أَلْفًا ، وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين ، فأعطى مَسْلَمَة بن مَخْلَد أهل الدِّيوان أُعْطياتهم وأُعْطَيات عِيالهم وأَرْزَاقهم ونَوائِب البلاد من الجُسُور وأرْزاق الكَتَبَة وحُمْلان القَمْح إلى الحِجاز ، ثم بَعَث إلى مُعاوِيَة بستّ مائة أَلف دينار فَضْلًا [1] . وقال ابن عُفَيْر : فلمَّا نَهَضت الإبلُ لَقِيَهُم برْح بن حُشكُل[a] المُهْري ، فقال : ما هذا ؟ ما بالُ مالِنا يَخْرُج من بلادنا ؟ رُدُّوه ؛ فرَدُّوه حتى وَقَف على باب المَسْجِد فقال : أَخَذْتُم أُعْطياتَكم وأَرْزاقكم وعَطاءَ عِيالكم ونَوائِبَكم ؟ قالوا : نعم ؛ قال : لا بارَكَ الله لهم فيه ، خُذُوه فسارُوا به [2] .

وقال بعضُهم : جَبَى عَمْرو بن العَاص عشرة آلاف ألف دينار ، فكَتَب إليه عُمَر بن الخَطَّاب بعَجْزه ويقول له : جِبايَةُ الرُّوم عشرون ألف ألف دينار ؛ فلمَّا كان العامُ المُقْبِل جَباه عَمْرو اثني عشر ألف ألف دينار . وقال ابنُ لَهيعَة : جَبى عَمْرو بن العَاص الإسْكَنْدَرية الجِزْيَة ستَّ مائة ألف دينار ، لأنَّه وَجَدَ فيها ثلاث مائة ألف من أَهْل الذِّمَّة فَرَضَ عليهم دينارَيْن دينارَيْن [3] .

ذِكْرُ انْتِقاض القِبْط وَمَا كانَ من الأحداث في ذلك

خَرَّجَ الإمامُ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخَارِيُّ ، من حَديث أبي هُرَيْرَة - رضي الله عنه - قال : «كَيْفَ أَنْتُم إذا لم تُجْبُوا دينارًا ولا دِرْهَمًا ؟ » قالوا : وكَيْف نَرَى ذلك كائِنًا يا أبا هُرَيْرَة ؟ » قال : أيْ والذي نَفْسُ أبي هُرَيْرَة بيده عن قَوْل الصَّادِق المَصْدُوق ؛ قالوا : عم ذلك ؟ قال : تُنْتَهك ذِمَّتُه وذِمَّة رَسُوله فيَشُدّ الله عَزّ وجل قُلوبَ أَهْل الذِّمَّة فيَمْنَعون ما في أيْديهم» [4] .

قال أبو عُمَر محمد بن يُوسُف الكِنْديّ [5] في كِتاب «أُمَراء مِصْر» : وفي إمْرَة الحُرّ بن يُوسُف أَمير مصر كَتَبَ عبيد الله بن الحَبْحاب ، صاحِب خَراجِها ، إلى هِشام بن عبد الملك بأن أَرْضَ مصر تحتمل الزيادة ، فزادَ على كلِّ دينار قيراطًا ، فانْتَقَضَت كورة نتو[b] وتُمَيّ وقُرْبَيْط وطُرابِيَة

a) بولاق : كسحل . b) بولاق : بنو .

[1] فيما يلي ٢٥٢.
[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٠٢.
[3] فيما يلي ٤٥١.
[4] البخاري : الجامع الصحيح ، باب الجزية ١٧.
[5] أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص التجيبي الكِنْدي مؤرخ مصري توفي بعد سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦٢م ، يُعَد - مع ابن عبد الحكم - المصدر الرئيسي لفترة الولاة في مصر الإسلامية ، ولم يصل إلينا من مؤلفاته الكثيرة سوى كتاب «ولاة مصر» - الذي يسميه المقريزي «أمراء مصر» و«كتاب قضاة مصر» . أما سائر مؤلفاته والتي اعتمد =

وعامَّة الحَوْف الشرقي ، فبَعَثَ إليهم الحُرُّ بأهل الديوان ، فحاربوهم فقُتِلَ منهم بَشَرٌ كثير ، وذلك أوَّل انتِقاض القبط بمصر . وكان انتقاضُهم في سنة سبع ومائة ، ورَابَطَ الحُرُّ بن يُوسُف بدِمْياط ثلاثة أشهر ، ثم انتقَض أهل الصَّعيد [١] .

وحارَبَ القِبْطُ عُمَّالَهم في سنة إحدى وعشرين ومائة ، فبَعَثَ إليهم حَنْظَلَة بن صَفْوان أميرُ مصر ، أَهْلَ الديوان فَقَتَلوا من القِبْط ناسًا كثيرًا وظَفِرَ بهم [٢] .

وخَرَجَ يُحَنِّس[a] ـ رَجُلٌ من القِبْط ـ في سَمَنُّود ، فبَعَثَ إليه عبد الملك بن مَرْوان مُوسَىٰ بن نُصَيْر أمير مصر ، فقَتَل يُحَنِّس[a] في كثير من أصْحابِه [٣] ، وذلك في سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وخالَفَت القِبْطُ برَشِيد ، فبَعَثَ إليهم مَرْوان بن محمد الجَعْدي ـ لمَّا دَخَلَ مصر فارًّا من بني العَبَّاس ـ بعُثْمان بن أبي نِسْعَة[b] ، فهَزَمَهم [٤] .

وخَرَجَ القِبْطُ على يَزيد بن حاتم بن قَبِيصَة بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة أمير مصر ، بناحية سَخَا ، ونابَذوا العُمَّال وأخرجوهم ، وذلك في سنة خمسين ومائة ، وصاروا إلى شَبْرَا سُنْباط ، وانضمَّ إليهم أَهْلُ البَشْرود والأوسِيَّة والبُجُوم ، فأَتى الخَبَرُ يزيدَ بن حاتِم ، فعَقَدَ لنَصْر بن حَبيب المُهَلَّبي على أهل الديوان ووُجوه مصر ، فخَرَجوا إليهم ، فبَيَّتَهم القِبْط وقَتَلوا من المسلمين ، فألقى المسلمون النار في عَسْكَر القِبْط ، وانْصَرَفَ المسلمون إلى مصر مُنْهَزمين [٥] .

وفي وِلايَة مُوسَى بن عليّ بن رَباح على مصر ، خَرَجَ القِبْطُ بِبَلْهِيب في سنة ستٍّ وخمسين ومائة ، فخَرَجَ إليهم عَسْكَرٌ فهَزَمَهُم [٦] .

ثم انْتَقَضُوا مع من انْتَقَضَ في سنة ستّ عشرة ومائتين ، فأَوْقَعَ بهم الأَفْشين في ناحية البَشْرود ، حتى نَزَلوا على حُكْم أمير المؤمنين عبد الله المَأْمُون ، فحَكَمَ عليهم بقَتْل الرِّجال وبَيْع النِّساء والأَطْفال ، فبِيعُوا وسُبِيَ أكثرهم [٧] .

---

a) بولاق : يخنس . b) بولاق : قسعة .

= عليها المقريزي ومعاصره ابن دقماق ، فلم تصل إلينا . وقد نقل المقريزي تقريبًا نص كتاب «ولاة مصر» للكندي موزَّعًا على صفحات كتاب الخطط ، تمامًا مثلما فعل مع مصادر أخرى مثل ابن عبد الحكم وابن رضوان وابن المأمون وابن الطوير وابن عبد الظاهر ... (انظر المقدمة) .

[١] الكندي : ولاة مصر ٩٥؛ وفيما يلي ٢: ٢٦١.

[٢] نفسه ١٠٣.

[٣] نفسه ١١٦. [٤] نفسه ١١٨.

[٥] نفسه ١٣٧ - ١٣٨. [٦] نفسه ١٤١.

[٧] نفسه ٢١٥، ٢١٦.

ومن حينئذٍ أَذَلَّ الله القِبْطَ في جميع أرض مصر ، وخَذَلَ شَوْكَتَهم فلم / يقدر أَحَدٌ منهم على الخُروج ولا القيام على السُّلْطان ، وغَلَبَ المسلمون على القُرَى ، فعادَ القِبْطُ من بعد ذلك إلى كَيْد الإسلام وأَهْله بإعْمال الحيلَة واستعمال المكْر ، وتَمَكَّنُوا من النِّكايَة بوَضْع أَيْديهم في كتاب الخَراج . وكان للمُسْلمين فيهم وَقائعُ يأْتي خَبَرُها في مَوْضِعه من هذا الكتاب إن شاءَ الله تعالى .

ذِكْرُ نُزُول العَرَب بريف مصر

واتِّخاذِهم الزَّرْع مَعاشًا وما كان في نُزُولهم من الأَحْداث

قال الكِنْدِيُّ ، في وِلايَة الوَليد بن رِفاعَة الفَهْمي على مصر : نُقِلَت قَيْسُ إلى مصر في سنة تسع ومائة ، ولم يكن بها أَحَدٌ منهم قبل ذلك إلَّا ما كان من فَهْم وعَدْوان ، فوَفَدَ ابنُ الحَبْحاب على هِشام بن عبد الملك ، فسأله أن يَنْقل إلى مصر منهم أبياتًا ، فأَذِنَ له هِشام في إلْحاق ثلاثة آلاف منهم ، وتَحويل ديوانهم إلى مصر على ألا يُنْزِلهم بالفُسْطاط ، ففَرَض[a] لهم ابن الحَبْحاب ، وقَدِمَ بهم ، فأَنْزَلَهم الحَوْف الشَّرْقي وفَرَّقَهم فيه .

ويُقالُ إنَّ عُبَيْدَ الله بن الحَبْحاب ، لمَّا وَلَّاه هِشام بن عبد الملك مصر ، قال : ما أَرَى لقَيْسٍ فيها حَظًّا إلَّا لناسٍ من جُدَيْلَة وهم فَهْم وعَدْوان ؛ فكَتَبَ إلى هِشام : «إنَّ أَميرَ المُؤْمنين ـ أطالَ الله بقاءَه ـ قد شَرَّفَ هذا الحَيَّ من قَيْس ، ونَعَشَهم ورَفَعَ من ذِكْرهم ، وإنِّي قَدِمْتُ مصر ولم أَرَ لهم حَظًّا إلَّا أبياتًا من فَهْم ، وفيها كُوَرٌ ليس فيها أَحَدٌ ، وليس يضرّ بأهلها نُزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خَراجًا ، وهي بِلْبَيْس ، فإن رأَى أميرُ المؤمنين أن يُنْزِلها هذا الحَيّ من قَيْس فليَفْعَل» . فكَتَبَ إليه هِشامُ : أنت وذاك . فبَعَثَ إلى البادية ، فقَدِمَ عليه مائة أهل بَيْت من بني نَصْر[b] ، ومائة أهل بَيْت من بني سُلَيْم ، فأنزلهم بِلْبَيْس ، وأَمَرَهم بالزَّرْع . ونَظَرَ إلى الصَّدَقَة من العُشُور فصَرَفَها إليهم فاشْتَروا إبلاً ، فكانوا يَحْملون الطَّعامَ إلى القُلْزُم ، وكان الرجلُ يُصيب في الشهر العشرة دَنانير وأكثر . ثم أَمَرَهُم باشْتراء الخُيول ، فجَعَلَ الرجلُ يشتري المُهْر فلا يَمْكُث إلَّا شهرًا حتى يُرْكَب ، وليس عليهم مَئونَة في إعْلاف[c] إبِلهم ولا خَيْلِهم لجَوْدَة مَرْعاهُم .

---

a) بولاق : ففرض . b) بولاق : نضر . c) بولاق : علف .

فلمَّا بَلَغَ ذلك عامَّة قَوْمهم تَحمَّلوا إليهم، فوَصَلَ إليهم خمس مائة أهل بَيْت من البادية، فكانوا على مِثْل ذلك، فأقاموا سنة، فأتاهم نحو من خمس مائة أهل بَيْت، فصار بِبِلْبَيْس ألف وخمس مائة أهل بيت من قَيْس.

حتى إذا كان زَمَنُ مَرْوان بن محمد، ووَلِيَ الحَوْثَرَة بن سُهَيْل الباهِلي مصر، مالَت إليه قَيْس، فماتَ مَرْوان وبها ثلاثة آلاف أهل بَيْت، ثم تَوالَدوا وقَدِمَ عليهم من البادية من قَدِمَ [1].

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة كَشَفَ إسحاق بن سُلَيْمان بن عليّ بن عبد الله بن عَبَّاس أمير مصر أَمْرَ الخَراج، وزادَ على المُزارعين زيادة أَجْحَفَت بهم، فخَرَجَ عليه أهل الحَوْف وعَسْكَروا، فبَعَثَ إليهم الجُيُوش وحارَبَهم، فقُتِلَ من الجَيْش جماعَة، فكَتَب إلى أمير المؤمنين هارون الرَّشيد يُخْبره بذلك، فعَقَدَ لهَرْثَمَة بن أَعْيَن في جيشٍ عظيم وبَعَثَ به إلى مصر، فنزل الحَوْف، وتلقَّاه أهلُه بالطَّاعَة وأَذْعَنوا بأداء الخَراج، فقَبِلَ هَرْثَمَة منهم واستخرج خَراجَه كله [2].

ثم إنَّ أَهْلَ الحَوْف خَرَجُوا على اللَّيْث بن الفَضْل البيوَرْدي أمير مصر، وذلك أنَّه بَعَثَ بمُسَّاحٍ يَمْسَحون عليهم أراضي زَرْعهم، فانْتَقَصُوا من القَصَبَة أصابع، فتظلَّم الناسُ إلى اللَّيْث فلم يَسْمَع منهم، فعَسْكَروا وساروا إلى الفُسْطاط؛ فخَرَجَ إليهم اللَّيْثُ في أربعة آلاف من جُنْد مصر، في شعبان سنة ستٍّ وثمانين ومائة، فالتقى معهم في رَمَضَان، فانْهَزَمَ عنه الجُنْد في ثاني عشره، وبقي في نحو المائتين، فحَمَلَ بمن معه على أهل الحَوْف فهَزَمَهم حتى بَلَغَ بهم غِيفَا [3]، وكان التقاؤهم على أرض جُبّ عُمَيْرَة، وبعث اللَّيث إلى الفُسْطاط بثمانين رأسًا من رؤوس القَيْسِيَّة ورَجَعَ إلى الفُسْطاط.

وعادَ أَهْلُ الحَوْف إلى مَنازِلهم ومَنَعُوا الخَراج، فخَرَجَ لَيْثُ إلى أمير المؤمنين هارون الرَّشيد في محرم سنة سبع وثمانين ومائة، وسأله أن يبعث معه بالجُيُوش فإنَّه لا يَقْدِر على استخراج الخَراج من أهل الأحْواف[a] إلَّا بجَيْشٍ يَبْعَث به معه. وكان مَحْفوظُ بن سليم[b] بباب الرَّشيد، فرَفَعَ مَحْفوظ إلى الرَّشيد يَضْمَن له خَراجَ مصر عن آخره بلا سَوْط ولا عَصَا، فوَلَّاه الخَراج، وصَرَفَ لَيْث بن الفَضْل عن صِلات مصر وخَراجِها [4].

---

a) بولاق: الحوف. b) الكندي: سليمان.

---

[1] الكندي: ولاة مصر ٩٨–٩٩.

[2] نفسه ١٦٠–١٦١.

[3] غيفا: ضيعة تقارب بلبيس. (انظر فيما يلي ٤٩٧).

[4] الكندي: ولاة مصر ١٦٦–١٦٧.

وفي ولاية الحُسَيْن بن جَميل امتنع أَهْلُ الحَوْف من أداء الخَراج [1]، فبَعَثَ أميرُ المؤمنين هارون الرَّشيد يحيى بن مُعاذ في أَمْرِهم، فنَزَلَ بِلْبَيْس في شَوَّال سنة إحدى وتسعين ومائة. وصُرِفَ الحُسَيْنُ بن جَميل عن إمارة مصر في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة [2]، ووَلي مالِكُ بن دَلْهَم.

وفَرَغَ يحيى بن مُعاذ من أَمْر الحَوْف، وقَدِمَ الفُسْطاط في جمادى الآخرة، فَوَرَدَ عليه كِتابُ الرَّشيد يأمره بالخُروج إليه. فكَتَبَ إلى أهل الحَوْف أن أَقْدِموا حتى أُوصي بكم مالِكَ بن دَلْهَم، وأُدْخِل بينكم وبينه في أَمْر خَراجِكم، فدَخَلَ كلُّ رئيسٍ منهم من اليَمانية والقَيْسية ـ وقد أَعَدَّ لهم القُيود ـ فأَمَر بالأبواب فأُخِذَت، ثم دَعا بالحَديد فقَيَّدَهم، وتوجَّه بهم للنصف من رجب منها [3].

وفي إمارَة عِيسَى بن يَزيد الجَلودي على مصر، ظَلَمَ صالِحُ بن شِيْرزاد عامِل الخَراج النَّاسَ وزادَ عليهم في خَراجِهم، فانتقض أهل أَسْفَل الأرض، وعَسْكَروا فَبَعَثَ / عيسىٰ بابنه محمد في جَيْش لِقتالِهم، فنَزَلَ بِلْبَيْس وحارَبَهم، فنَجا من المعركة بنفسه ولم يَنْج أَحَدٌ من أصحابه، وذلك في صفر سنة أربع عشرة ومائتين [4].

فعُزِلَ عيسىٰ عن مصر ووَليَ عُمَيْر بن الوَليد التَّميمي، فاسْتَعَدَّ لحَرْب أهل الحَوْف، وسارَ في جُيوشه في ربيع الآخر، فزَحَفُوا عليه واقتتلوا، فقُتِلَ من أهل الحَوْف جمعٌ وانهزموا، فتَبعهم عُمَيْر في طائِفَةٍ من أصحابه، فعَطَفَ عليه كَمينٌ لأهل الحَوْف فقتَلُوه لستّ عشرة ليلة خَلَت من ربيع الآخر [5].

فوَليَ عيسىٰ الجَلودي ثانيًا، وسارَ إليهم فلقيهم بمُنْيَة مَطَر، فكانت بينهم وَقْعَةٌ آلَت إلى أن انهزم منهم إلى الفُسْطاط، وأَحْرَقَ ما ثَقُلَ عليه من رَحْله، وخَنْدَقَ على الفُسْطاط، وذلك في رجب [سنة أربع عشرة](a) [6].

وقَدِمَ أبو إسحاق بن الرَّشيد من العراق، فنَزَلَ الحَوْف وأَرْسَل إلى أهله، فامتنعوا من طاعَته، فقاتَلَهم في شعبان ودَخَل ـ وقد ظفر بعِدَّة من وُجوههم ـ إلى الفُسْطاط في شَوَّال، ثم عادَ إلى العراق في المحرم سنة خمس عشرة ومائتين بجَمْعٍ من الأسارى [7].

---

a) زيادة من الكندي.

---

[1] الكندي: ولاة مصر ١٦٩. [2] نفسه ١٧٠. [3] نفسه ١٧١، ١٧٢. [4] نفسه ٢٠٨. [5] نفسه ٢٠٩-٢١٠.
[6] نفسه ٢١١. [7] نفسه ٢١٢-٢١٣.

فلمَّا كان في جمادى الأولى سنة ستّ عشرة ومائتين، انتقض أَسْفَلُ الأرض بأَسْره ـ عَرَبُ البلاد وقِبْطُها ـ وأُخرجوا العُمَّال، وخَلَعُوا الطَّاعَة لسُوء سيرة عُمَّال السُّلْطان فيهم. فكانت بينهم وبينَ عساكِر الفُسْطاط حُروبٌ امتدت إلى أن قَدِمَ الخَليفَةُ عبدُ الله أُمير المؤمنين المأْمُون إلى مصر، لعشر خلون من المحرَّم سنة سبع عشرة ومائتين، فسَخَطَ على عيسَى بن مَنْصُور الرَّافِقِي ـ وكان على إمارَة مصر ـ وأَمَرَ بحَلِّ لِوائِه وأَخْذه بلِباس البَيَاض عُقوبَةً له، وقال: «لم يَكُن هذا الحَدَثُ العظيمُ إلَّا عن فِعْلِك وفِعْل عُمَّالِك، حَمَّلْتُم الناسَ ما لا يُطيقون، وكَتَمْتَني الخَبَرَ حتى تفاقَم الأَمْرُ، واضْطَرَب البَلَدُ»[1].

ثم عَقَدَ المأْمُون[2] على جَيْشٍ بَعَثَ به إلى الصَّعيد، وارْتَحَلَ هو إلى سَخَا، وبَعَثَ بالأَفْشين إلى القِبْط ـ وقد خَلَعُوا الطَّاعَة ـ فأَوْقَعَ بهم في ناحية البَشَرود، وحَصَرهُم حتى نَزَلُوا على حُكْم أمير المؤمنين، فحَكَمَ فيهم المأْمُون بقَتْل الرِّجال وبَيْع النِّساء والأطفال، فسُبيَ أَكْثَرُهُم. وتتبَّع المأْمُونُ كلَّ من يُومَأ[a] إليه بخِلاف، فقَتَلَ ناسًا كثيرًا، ورَجَعَ إلى الفُسْطاط في صفر، ومَضَى إلى حُلْوان، وعادَ فارْتَحَلَ لثمان عشرة خلت من صفر. وكان مُقامُه بالفُسْطاط وسَخَا وحُلْوان تسعة وأربعين يومًا[3].

وكان خَراجُ مصر قد بَلَغَ في أيَّام المأْمُون ـ على حُكْم الإنْصاف في الجِبايَة ـ أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينار. ويُقالُ إنَّ المأْمُونَ لمَّا سارَ في قُرَى مصر، كان يُبْنَى له بكلِّ قَرْيَة دِكَّةٌ يُضْرَب عليها سُرادِقُه والعساكِر من حَوْله. وكان يُقيمُ في القَرْيَة يومًا وليلة، فمَرَّ بقَرْيَة يُقال لها «طاء النَّمْل» فلم يَدْخلها لحَقَارَتها. فلمَّا تجاوَزَها خَرَجَت إليه عَجُوزٌ ـ تُعْرَف بمارِيَة القِبْطية صاحِبَة القَرْيَة ـ وهي تَصيح، فظَنَّها المأْمُون مُستغيثةً مُتظلِّمَةً، فوَقَفَ لها ـ وكان لا يَمْشي أبدًا إلَّا والتراجِمَة بين يديه من كل جِنْس فذَكَروا له أنَّ القِبْطيَة قالت: يا أَمير المؤمنين، نَزَلَت في كُلِّ ضَيْعَة وتجاوَزْت ضَيْعَتي، والقِبْطُ تُعَيِّرُني بذلك، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يُشَرِّفَني بحُلوله في ضَيْعَتي ليكون لي الشَّرفُ والعُقْبَى، ولا تَشْمَت بي الأعداء، وبَكَت بُكاءً كثيرًا. فرَقَّ لها المأْمُون، وثَنَى عِنانَ فَرَسه إليها ونَزَل. فجاءَ وَلَدُها إلى صاحِب المَطْبَخ وسأله: كم تحتاج من الغَنَم والدَّجاج والفِراخ والسَّمَك والتَّوابِل والسُّكَّر والعَسَل والطِّيب والشَّمْع

a) الأصل وبولاق: يومي.

[1] الكندي: ولاة مصر ٢١٦.

[2] لأبي مغيث موسى بن إبراهيم.

[3] الكندي: ولاة مصر ٢١٦.

والفاكِهَة والغَلوفَة وغير ذلك ممّا جَرَت به عادَته ؟ فأَحْضَر جميع ذلك إليه بزيادة .

وكان مع المأمُون أخوه المُعْتَصِم ، وابنُه العَبّاس ، وأولادُ أخيه الواثِق والمُتَوَكِّل ، ويحيى بن أكْثَم والقاضي أحمد بن داود ، فأَحْضَرَت لكلِّ واحِدٍ منهم ما يَخُصُّه على انْفِراده ، ولم تكل أحَدًا منهم ولا من القُوّاد إلى غيره ، ثم أَحْضَرَت للمأمون من فاخِر الطَّعام ولذيذه شيئًا كثيرًا حتى إنَّه اسْتَعْظَم ذلك . فلمّا أَصْبَحَ - وقَد عَزَمَ على الرَّحيل - حَضَرَت إليه ، ومعها عَشَر وَصائِف مع كلِّ وَصيفَة طَبَق ، فلما عايَنَها المأْمُون من بُعْد قال لمن حَضَر : قد جاءَتكم القِبْطِيَّة بهَدِيَّة الرِّيف : الكامَخ ، والصَّحْناة ، والصَّبْر .

فلمّا وَضَعَت ذلك بين يدَيْه إذا في كلِّ طَبَقَ كيسٌ من ذَهَب ، فاسْتَحْسَن ذلك وأَمَرَها بإعادته ، فقالت : لا ، والله لا أَفْعَل . فتأمَّل الذَّهَب فإذا به ضَرْبُ عامٍ واحِدٍ كلّه ، فقال : هذا والله أَعْجَب ، ربّما يَعْجِز بيتُ مالِنا عن مِثْل ذلك ! فقالت : يا أمير المؤمنين ، لا تَكْسِر قُلوبَنا ولا تَحْتَقِر بنا ؛ فقال : إنَّ في بعض ما صَنَعْت لكفاية ، ولا نُحِبّ التَّثْقيل عليك ، فرُدِّي مالَك بارَكَ الله فيك . فَأَخَذَت قِطْعَةً من الأرض وقالت : يا أميرَ المؤمنين ، هذا - وأشارت إلى الذَّهب - من هذا - وأشارَت إلى الطِّينَة التي تَناوَلَتها من الأَرْض - ثم من عَدْلِك يا أَمير المؤمنين ، وعنْدي من هذا شيءٌ كثير . فأَمَر به فأُخِذَ منها ، وأَقْطَعَها عِدَّة ضِياع ، وأعْطاها من قريتها «طَاء النَّمْل» مائتي فَدّان بغير خَراج ، وانْصَرَف مُتَعَجِّبًا من كِبَر مُروءَتها وسَعَة حالِها [١] .

ذِكْرُ قَبالات أَراضي مِصْر بَعدَ ما فشا الإسْلامُ في القِبْط،

ونَزَلَت [a] العَرَبُ في القُرَىٰ ، وما كانَ مِن ذلك إلى الرَّوْكِ الأخير النّاصِرِيّ

١ / وكان من خَبَر أَراضي مصر - بعد نُزُول العَرَب بأَرْيافِها واسْتيطانِهم وأهاليهم فيها ، واتِّخاذِهم الزَّرْع مَعاشًا وكَسْبًا ، وانْقِياد جمهور القِبْط إلى إظْهار

a) بولاق : نزول .

[١] إلى هنا ينتهي الجزء الأوّل من نشرة Gaston Wiet.

[٢] عن القَبالَة وهو عملٌ ماليّ بحت ، الغرض منه تسهيل جباية الخراج ، بما أنّ أرض مصر كانت كلّها منذ الفتح أرضًا خراجية ، ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقًا راجع ، Cahen, Cl., *EI*[2] art. *Iktâ*ʿ III, p. 1116; id., *EI*[2] art. *Kabâla* IV, pp. 337-38؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥١٨- ٥٢١، ٧٢٣- ٧٢٤.

الإسْلام [١]، واختِلاط أَنسابِهِم بأَنْساب المسلمين لِنكاحِهِم المُسْلِمات ـ أنَّ متولِّي خَراج مصر كان يَجْلِس في جامِع عَمْرو بن العَاص من الفُسْطاط في الوَقْت الذي تتهيَّأ فيه قَبالَة الأَراضي، وقد اجْتَمَعَ الناسُ من القُرَى والمُدُن، فيقُوم رَجُلٌ يُنادي على البِلاد صَفَقَات صَفَقَات، وكُتَّابُ الخَراج بين يدي مُتَوَلِّي الخَرَاج يَكْتُبون ما ينتهي إليه مَبالِغ الكُوَر والصَّفَقات على من يَتَقَبَّلها من الناس، وكانت البلادُ يَتَقَبَّلَها مُتَقَبِّلوها لأربع[a] سنين لأجْل الظَّمأ والاسْتِبْحار وغير ذلك.

فإذا انْقَضَى هذا الأمْرُ، خَرَجَ كلُّ من[b] تَقَبَّل أرْضًا وضَمِنَها إلى ناحِيته، فتَوَلَّى[c] زِراعَتَها وإصْلاح جُسورِها وسائِر وُجوه أعْمالِها بنفسه وأهْله ومن يَنْتَدِبه لذلك، ويَحْمِل ما عليه من الخَراج في إبانه على أقْساط، ويُحْسَب له من مبلغ قَبالَته وضَمَانِه لتلك الأراضي ما يُنْفِقُه على عِمارَة جُسُورِها وسَدّ تُرَاعِها وحَفْر خُلُجِها، بضَرائِب مُقَدَّرَة في دِيوان الخَرَاج [٢].

ويتأخَّرُ من مَبْلَغ الخَرَاج في كلِّ سنةٍ شيءٌ[d] في جِهات الضُّمَّان والمُتَقَبِّلين، ويُقَالُ لما تأخَّر من مال الخَراج «البَواقي». وكانت الوُلاةُ تُشَدِّد في طَلَب ذلك مَرَّةً وتُسامِح به مَرَّةً. فإذا مَضَى من الزَّمان ثلاثون سنة حَوَّلُوا السَّنَة، وراكُوا البِلاد كلّها وعَدَّلوها تَعْديلًا جَديدًا، فزِيد فيما يَحْتَمِل الزِّيادة من غير ضَمان البلادَ، ونُقِصَ فيما يَحْتاج إلى التَّنْقيص منها.

وكان[e] ذلك يُعْمَل في جامِع عَمْرو بن العَاص إلى أن عَمَّرَ أحمد بن طُولون جامِعَه، وصارَ العَسْكَرُ مَنْزِلًا لأُمَراء مصر، فنُقِلَ الدِّيوانُ إلى جامِعِ أحمد بن طُولون. ثم نُقِلَ

a) بولاق: بالأربع. b) بولاق: من كان. c) بولاق: فيتولى. d) ساقطة من بولاق. e) بولاق: ولم يزل.

[١] حول تعريب وأسلمة مصر راجع، Anawati, G.C., «Factors and Effects of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria», in Vryonis, In. (ed.), *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Wiesbaden 1975, pp. 17-41; Décobert, Chr., «Sur l'arabisation et l'islamisation de l'Égypte médiévale», dans Décobert, Chr. (ed.), *Itinéraires d'Égypte*, Le Caire 1992, pp. 273-300؛ أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية في مصر، القاهرة ١٩٧٠، ١٩-١٦٧؛ Gladys Frantz-Murphy, *CE* art., *Copts under the Umayyads*, 7, pp. 2286-89.

[٢] عن خراج الأرض الزراعية راجع، ضياء الدين الرَّيِّس: الخراج في الدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥٧؛ Cahen, Cl., EI^2 art. *Kharâdj* IV pp. 1062-66؛ وعن الخراج في مصر بصفة خاصة راجع، Cooper, R.S., «The Assessment and collection of Kharâj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1976), pp. 365-82; Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 504-741/A.D. 1169-1341*, pp. 73-79; Franz-Murphy, G., *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans*, *SAI* Cahier n°9 Le Caire 1986.

في[a] أيّام العَزيز بالله نِزار إلى دار الوَزير يَعْقُوب بن كِلّس ، فلمّا ماتَ الوَزيرُ نُقِلَ الدِّيوانُ إلى القَصْر بالقاهِرَة ، فاستمرَّ[b] به مُدَّةَ الدولة الفاطِمية ، ثم نُقِلَ منه بَعْدَها . [c]وسأتلو عليك من نَبأ ذلك ما يَتَّضِحُ به ما ذَكَرْت[c].

قال ابنُ زُولاق في كتاب «أخْبار الماذَرَائيين»[1] كُتّاب مصر : وحَضَرَ أبو الحَسَن وَهْبُ بن إسماعيل مَجْلِس أبي بَكْر محمد[a] بن عليّ الماذَرائي في المَسْجِد الجامِع ، وهو يَعْقد الضِّياع ، فقال له أبو بكر : السَّاعَةَ آمُر بالنِّداء على صَفْقَة ، فخُذْها شَرِكَة بيني وبَيْنك . فنُودِيَ على صَفْقَة ، فقال أبو بَكْر : اعْقِدوها على أبي الحَسَن ، فعُقِدَت عليه وعَمِلَها[d] ، فأَفْضَلَت له أربعين ألف دينار ، فاسْتَنَضَّ عشرين ألف دينار ولم يَدْرِ ما يَعْمَل فيها إلى أن اجْتَمَع مع أبي يَعْقوب - كاتِب أبي بَكْر - لِيَتَحَدَّثا ، فقال أبو يَعْقُوب : رَأَيْتُ الشَّيْخَ - يعني أبا بَكْر الماذَرائي - في اليوم مَشْغول القَلْب ، أرادَ جَمْع مالٍ وقد عَجَزَ عنه ، فقال له أبو الحَسَن : عندي نحو عشرين ألف دينار ، فقال : جِئْني بها ، فأَنْفِذْها إليه وجاءَه خَطُّه بالمبلغ .

فاتَّفَقَ أن مَضَى أبو الحَسَن إلى أبي بَكْر الماذَرائيّ ، فقال له : تِلك الصَّفْقَة قد غلقت ما عليها وفَضَل أربعون ألف دينار ، وقد حَصَل عندي عشرون ألف دِينار حَمَلْتها إلى أبي يعقوب ، وأَرسَلْت في اسْتِخْراج الباقي وأَحْمِله[e] . فقال الماذَرائي : ما هذا العَجز ؟ إنَّما قلت لك تكون بيني وبينك خَوْفًا من تَفْريطك ، وإنَّما أَرَدْت حِفْظَ المال عليك . ثم أَمَر أبا يَعْقُوب أن يَرُدَّ عليه ما دَفَعَه إليه ، وقال لأبي الحَسَن : رُدّ عليه خَطَّه . فقَبَضَ ما دَفَعَه إلى أبي يَعْقُوب .

وبَلَغَ خَراجُ مصر ، في السَّنَة التي دَخَلَ فيها جَوْهَرُ القائِد : ثلاثة آلاف ألف دينار وأربع مائة ألف دينار ونَيِّفًا .

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : واستمر . (c-c) ساقطة من الأصل . d) بولاق : تحملها . e) بولاق : فاحمله .

---

[1] الماذَرائيون . نسبة إلى ماذَرايا - قرية فوق واسط بالعراق من أعمال فم الصلح مقابل نهر سابُس (معجم البلدان ٣٤:٥) - اسم لأسرة من أصول عراقية تولّى أفرادُها مناصب إدارية ومالية هامة في مصر والشام بين سنتي ٢٦٦-٣٣٥هـ/ ٨٧٩-٩٤٦م ، أشهرهم أبو بكر أحمد بن إبراهيم الماذرائي وابنه عليّ بن أحمد وأبو علي الحسين بن أحمد أبو زنبور ثم أبو بكر محمد بن علي بن أحمد والذي انتهت بوفاته سنة ٣٤٥هـ تواجد هذه الأسرة في الإدارة المصرية (راجع ، ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) ٣٥٠-٣٥٣؛ المقريزي : المقفى الكبير ١: ٣٣، ٣٤٣-٣٤٤، ٣:٤٦٦-٤٨١، ٦:٢٣٤-٢٤٧، Gottschalk, A.L., *Die Madarâ'ijjûn*, Berlin-Leipzig 1931, id., *EI*[2] art., *Madharâ'î* V, p. 957؛ سيدة إسماعيل كاشف : مصر في عصر الإخشيديين ٣٩-٥٥ ، وانظر فيما يلي ٢:١٥٥-١٥٧ .

وقال[١] في كِتابِ «سِيرَةِ المُعِزّ لدين الله مَعَدّ» : ولستّ عشرة بقيت من المحرّم سنة ثلاث وستين وثلاث مائة ، قَلَّدَ المُعِزُّ لدين الله الخَراجَ ووُجوه الأَمْوال وغير ذلك ، يَعْقُوبَ بن كِلِّس وعُسْلوج ابن الحَسَن ، وجَلَسا غَد[a] هذا اليوم في دار الإمارَة في جامِع ابن طُولون للنِّدَاء على الضِّياع وسَائِر وُجوه الأَمْوال ، وحَضَرَ الناسُ للقَبالات ، وطَلَبُوا البَقايا من الأَمْوال ممّا على المالِكين والمُتَقَبِّلين والعُمَّال [٢].

وقال جامِعُ «سِيرَة الوَزير النَّاصِر للدين الحَسَن بن عليّ اليازوري» [٣]: وأرادَ أن يَعْرِفَ قَدْر ارْتِفاع الدولة [٤]، وما عليها من النَّفَقات ، ليُقايِسَ بينهما ، فتَقَدَّم إلى أصْحاب الدَّواوين بأن يَعْمَل كلٌّ منهم ارْتِفاع ما يَجْري في دِيوانه ، وما عليه من النَّفَقات ، فعُمِلَ ذلك وسَلَّمه إلى مُتَولِّي ديوان المَجْلِس ـ وهو زِمام الدَّواوين ـ فنَظَمَ عليه عَمَلًا جامِعًا وأَحْضَرَه إيَّاه . فرأَى ارْتِفاعَ الدَّوْلَة أَلْفي أَلف دينار : منها الشَّام ألف ألف دينار ، و[b]نَفَقَاتِه بإزاء ارتفاعه ، ومنها الرِّيف وباقي الدَّوْلَة أَلف ألف دينار[b] [٥]، يَقِفُ منها عن مَغْلول ومُنْكَسِر عن مَوْتى وهُرَّاب ومَفْقود مائتا ألف دينار ، ويَبْقَى ثمان مائة ألف دينار يُصْرَف منها للرجال عن واجِباتهم وكَساويهم ثلاث مائة ألف دينار ، وعن ثمن

---

a) بولاق : في . (b-b) ساقطة من الأصل انتقال نظر .

---

[١] أي ابن زولاق .

[٢] ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٣؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ١٤٤:١– ١٤٥؛ وفيما يلي ٢:٥– ٦، ٢٦٩.

[٣] انظر دراسة المصادر في المقدمة ، وعن الوزير الفاطمي أبي محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري الذي تولى رتبة الوزارة وكذلك رتبتي قاضي القضاة وداعي الدعاة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٤٢–٤٥٠هـ/ ١٠٥٠–١٠٥٨م) راجع ، ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ٧٣– ٨١؛ ابن ميسر : أخبار مصر ١٦– ١٨؛ النويري : نهاية الأرب ٢٢١:٢٨– ٢٢٤؛ المقريزي : المقفى الكبير ٣٦٦:٣–٤٠٨ (ترجمة مفصلة) ، اتعاظ الحنفا ٢: ١٩٧؛ ابن حجر : رفع الإصر ١٢٩– ١٣٤؛ Wiet, G., *RCEA* n° 2610-12 ؛ وعن ملابسات مقتل الوزير اليازوري راجع ، Brett, M. «The Execution of al-Yâzûrî» in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Era* (edited by Vermulen & De Smet), Peeters-Leuven 1995, II, pp. 15-27، وورد اسم هذا الوزير في كل المواضع في طبعة بولاق : البازوري بالباء وصواب ضبط اسمه اليازُوري نسبة إلى قرية يازور من أعمال الرَّمْلَة بفلسطين .

[٤] الارتفاع . هو الضريبة الأساسية (الخراج) فيما يتعلّق بالأراضي الزراعية ، وينقسم الارتفاع – في طريقة الدفع – إلى نوعين : «المستخرج عينًا» و«المتحصِّل غِلالًا» . ويسمى المتحصِّل غلالًا عادة «خَراج المناجزة» وأحيانًا «خَراج المُشاطَرَة» ؛ أمّا ما يُدْفَع عينًا فينقسم إلى ثلاثة أنواع : المال الهلالي والمراعي والمال الخراجي (النابلسي : تاريخ الفيوم وبلاده ١١٦–١١٧؛ Cahen, Cl., «Le régime des impôts dans le Fayyum Ayyubide», *Arabica* III (1956), pp. 13-17 ؛ وانظر فيما يلي ٢٧٨) .

[٥] فيما يلي ٢٦٨.

غَلَّة للقصور مائة ألف دينار، وعن نَفَقات القُصور مائتا ألف دينار، وعن عَمائِر وما يُقامُ للضُّيوف الواصِلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار، ويَبْقَى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصِلَة يَحْمِلها كلّ سنة إلى بيت المال المَصُون، فحَظِيَ بذلك عند سُلْطانِه وخَفَّ على قلبه.

قال: وانتهى ارتفاعُ الأرض السُّفْلَى إلى ما لا نِسْبَة له من ارْتِفاعِها الأوَّل ـ يعني بعد مَوْت اليازوري وحُدوث الفِتَن ـ وهو قَبْل سِني الفِتَن. يعني في أيَّام اليازوري ـ ستّ مائة ألف دينار / كانت تُحْمَل في دَفعتين في السنة: في مستهلّ رجب ثلاث مائة ألف دينار، وفي مستهلّ المحرم ثلاث مائة ألف دينار، فاتَّضَعَ الارْتفاعُ وعَظُمَت الواجبات[١].

وقال ابنُ مُيَسَّر: وأَمَرَ الأَفْضَلُ بن أمير الجُيُوش بعَمَل تَقْدير ارْتِفاع ديار مصر، فجاءَ خمسة آلاف ألف دينار، وكان مُتَحَصَّل الأَهْرَاء ألف ألف أردبّ[٢].

وقال الأميرُ جَمالُ المُلْك مُوسَى بنُ المأْمُون البطائِحي، في «تَاريخِه» من حَوادِث سنة إحدى وخمس مائة: ثم رَأَى القائِدُ أبو عبد الله محمد بن فاتِك البَطائِحي من [a]اخْتلال أحْوال الرِّجال العَسْكَرية والمُقْطَعين، وتَضَرُّرهم من كَوْن إقْطاعاتهم قد خَسَّ ارْتِفاعُها، وساءَت أَحْوالُهم لقِلَّة المُتَحَصَّل منها، وأنَّ إقْطاعاتَ الأُمَرَاء، قد تَضاعَفَ ارْتِفاعُها وازْدادَت عن عِبَرِها[٣] [b]، وأنَّ في كلّ ناحِيَة من الفَواضِل للديوان جُمْلَةً تَجيءُ بالعَسْف وبتَرَدُّد الرُّسُل من الديوان بسَبَبِها[a] [٤].

فخاطَبَ الأَفْضَلَ بن أمير الجُيُوش في أن يَحِلَّ الإقْطاعات جَميعها ويَرُوكَها[c]، وعَرَّفَه أنَّ المَصْلَحَة تعودُ في ذلك على المُقْطَعين والدِّيوان، لأنَّ الدِّيوان يَتَحَصَّل له من هذه الفَواضِل جملةٌ

---

a-a) النص في كراسة Liège ١٥٧، وكان قد اختل حال الرجال العسكرية والمقطعين من خسة ارتفاع الإقطاعات وقلة متحصلها وتضاعف ارتفاعات إقطاع الأمراء وزيادتها عن عبرها وتوفر في كل ناحية جملة للديوان صارت تجبى بالعسف من تردد الرسل من الديوان بسببها. b) بولاق: غيرها. c) كراسة Liège: فأمر الأفضل بن أمير الجيوش بحل جميع الإقطاعات وراكها.

---

[١] فيما يلي ٢٦٨.

[٢] ابن ميسر: أخبار مصر ٨٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣:٧٢ وفيما يلي ٢٦٩–٢٧٠.

[٣] العِبْرَة: كلمة اصطلاحية تعني مقدار المربوط من الضريبة المالية على كلّ إقْطَاع من الأرض وما يُتَحَصَّل من كلّ قرية من عيْن وغَلَّة وصنف ويكون حسابها بحيث يعتبر ارتفاع السنة التي هي أقل ريعًا والسنة التي هي أكثر ريعًا ويجمعان ويؤخذ نصفهما فتلك العبرة بعد أن تعتبر الأسعار وسائر العوارض الواقعة (الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٤٠ ابن مماتي: قوانين الدواوين ٣٣٦؛ Cahen, Cl., *op. cit.* pp. 12-13. وفيما يلي ٢٣٣–٢٣٤).

[٤] انظر فيما يلي ٢٢٨.

يَحْصُلُ بها بلادٌ مُقَوَّرَة [1]. فأجابَ إلى ذلك، وحَلَّ جميعَ الإقْطاعات وراكَها [2]. وأَخَذَ كلٌّ من الأقوياء والمُمَيَّزين يتضرَّرون، ويذكُرون أنَّ لهم بَساتينَ وأَمْلاكًا ومَعاصِرَ في نَواحيهم، فقال له: من كان له مِلْكٌ فهو باقٍ عليه لا يدخُل في الإقْطاع، وهو محكَّم: إن شاءَ باعَه وإن شاءَ آجَرَه.

فلمَّا حُلَّت الإقْطاعاتُ أَمَرَ الضُّعَفاءَ من الأَجْناد أن يَتزايَدوا فيها، فوَقَعَت الزيادةُ في إقْطاعات الأَقْوياء إلى أن انْتَهَت إلى مبلغٍ مَعْلوم، وكُتِبَت السِّجِلَّات بأنَّها باقية في أيديهم إلى مُدَّة ثلاثين سنة لا يُقْبَل عليهم فيها زائِدٌ. وأَحْضَرَ الأَقْوياءَ وقال لهم: ما تَكْرَهون من الإقْطاعات التي كانت بيد الأَجْناد؟ قالوا: كَثْرَة عِبْرَتها وقِلَّة مُتَحَصَّلها، وخَرابها وقِلَّة السَّاكِن بها؛ فقال لهم: ابْذُلُوا في كلِّ ناحيةٍ ما تحتمله وتُقَوِّي رَغْبَتَكم فيه، ولا تَنْظُروا في العِبْرَة الأولى.

فعند ذلك طابَت نُفوسُهم، وتَزايَدوا فيها إلى أن بَلَغَت إلى الحدِّ الذي رَغِبَ كلٌّ منهم فيه، فأُقْطِعُوا به، وكَتَبَ لهم السِّجِلّاتَ على الحُكْم المتقدِّم.

فشَمِلَت المَصْلَحَة الفريقَيْنِ وطابَت نُفُوسُهُم. وحَصلَ للديوان بلادٌ مُقَوَّرَة، بما كان مُفَرَّقًا في الإقْطاعات، بما مَبْلَغُه خمسون ألف دينار [3].

وقال في حَوادِث سنة خمس عشرة وخمس مائة: وكان قد تَقَدَّمَ أَمْرُ الأَجَلِّ المَأْمُون بعَمَل حِساب الدَّوْلة من الهِلاليّ والخَراجيّ، وجَعْل نَظْمِه على جُمْلَتَيْنِ: إحْداهما إلى سنة عَشْر وخمس مائة الهِلالية الخَراجية، والجُمْلَة الثانية إلى آخِر سنة خمس عشرة وخمس مائة هِلالي وما يُوافِقُها من الخَراجية؛ فانْعَقَدَت على جُمْلَة كبيرة من العَيْنِ والأَصْناف، وشُرِحَت بأسماء أَرْبابِها وتَعْيين بلادِها، فلمَّا أُحْضِرَت أَمَرَ بكَتْب سِجِلٍّ يتضمَّن المُسامَحَة بالبَواقي إلى آخِر سنة عشر وخمس مائة، ونُسْخَتُه بعد التَّصْدير:

«ولمَّا انْتَهَى إلينا حالُ المُعامِلِين والضُّمَنَاء والمُتَصَرِّفين وما في جِهاتِهم من بَقايَا مُعاملاتِهم، أَنْعَمْنا بما تَضَمَّنه هذا السِّجِلّ من المُسامَحَة، قَصْدًا في اسْتِخْلاص ضامِنٍ طالَت غَفْلَتُه وخَرِبَت ذِمَّتُه، وإنْقاذ عامِلٍ أَجْحَفَ به من الدِّيوان طلبته، وتَوْفير الرَّغْبة على عمارَتها، وجَرْيِها فيها على قَديم عادَتها.

---

[1] البلاد المُقَوَّرَة. يقصد بها الأماكن والأراضي المتسعة التي لا نبات بها (إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨، ٥٠٥)، وفيما يلي ١: ٤٠١.

[2] عن الروك انظر فيما يلي ٢٣٥- ٢٣٦.

[3] ابن المأمون: أخبار مصر ٩- ١٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٤٠.

ولمّا كان ذلك من جَميل الأُحْدوثَة التي لم تُسْبَق إليها ولا شارَكَنا مَلِكٌ فيها ، اقْتَضَت الحالُ إيرادها في هذا الكِتاب وإيداعها هذا الباب ، لما اطَّلَعْنا عليه ممّا انتهت إليه أحوالُ الضُّمَناء والمُعامَلين بالمملكة ، من الاخْتِلال وتجَمُّد البَقايا في جِهاتِهم والأَمْوال ، عَطَفْنا عليهم برَأْفَة ورَحْمَة ، وطالَعْنا المَقام الأَشْرَف النَّبَوي بالتَّفْصيل من أُمورهم والجُمْلَة ، واسْتَخْرَجْنا الأَمْرَ العالي بوَضْع ذلك في الحال . وإنْشاء السِّجلّات الكَريمَة مَقْصورَة على ذِكْر هذا الإحْسان وتَنْفيذها إلى جَميع البُلْدان ليُقرأ على رؤوس الأَشهاد بسائِر البلاد .

ومَبْلَغُ ما انتهت إليه هذه المُسامَحَة ، إلى حين خَتْم هذا السِّجِلّ : من العَيْنِ ألفا ألف وسبع مائة ألف وعشرون ألفًا وسبع مائة وسبعة وستون دينارًا ونصف وثلث وثلثان ورُبْع قيراط ، ومن الفِضَّة النُّقْرَة[1] أربعة دَراهِم ، ومن الوَرِق سبعة وستون ألفًا وخمسة دَراهِم ونصف وسُدْس دِرْهَم . ومن الغَلَّة ثلاثة آلاف ألف وثمان مائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون أرْدَبًّا وثُمْن ونِصْف وسُدْس وثُلُثي قيراط . ومن العِنّاب رُبْع أَرْدَبّ ، ومن وَرَق الصَّباغ ألفان وأربع مائة وثلاثة أرادِبّ ونصف ، ومن زَريعَة الوَسْمَة عشرة أرادِب ورُبْع ، ومن الصَّباغ ألف وأربع مائة وثمانون قِنْطارًا ورِطْل ونصف ، ومن الفُوّه أربع مائة وسبعون رِطْلًا ، ومن الشَّبّ تسع مائة وثلاثة عشر قِنْطارًا ونصف ، ومن الحَديد خمس مائة رطلٍ وأَحد وثلاثون رِطْلًا ، ومن الزِّفْتِ ألف وثلاث مائة وثلاثة أرْطال ورُبْع وسُدْس ، ومن القَطْران تسعة عشر رِطْلًا وثُلُث .

ومن الثِّياب الحَلَبي ثلاثة أثْواب ، ومن المآزِر مائة مِئْزَر صُوف ، ومن الغَرابيل مائة وسبعون غُرْبالًا . ومن الأغْنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفًا وثلاث مائة وخمسة أرْؤُس . ومن البُسْر ثلاث مائة وثلاثة عَشَر قِنْطارًا وثمانية وثلاثون رِطْلًا ، ومن السّحيل ثلاث مائة ألف / وخمسة وسبعون ألفًا وخمس مائة وخمسون باعًا ، ومن الجَريد أربع مائة ألف وثمانية وثلاثون ألفًا وسبع مائة وثلاثة وخمسون جَريدَة ، ومن السَّلْب ألف وأربع مائة وثلاثة وعشرون سَلَبَة . ومن الأَطْراف ستة آلاف وسبع مائة وثلاثة

---

[1] الفضة النُّقْرَه هي التي عيارها الثلثان من فضة والثلث من نحاس. (القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٤٣٩، ٤٦٢-٤٦٣).

أطراف ، ومن المِلْح ألفان وسبع مائة وثلاثة وتسعون إِرْدَبًّا وثُلث ، ومن الأَشْنان أحد عشر إِرْدَبًّا ، ومن الرُّمَّان ألفا حَبَّة . ومن العَسَلَ النَّحْل خمس مائةَ وأَحد وأربعون قِنطارًا وسُدْس ، ومن الشَّهْد اثنان وثلاثون زِيرًا وقادُوسًا واحِدًا ، ومن الشَّمْع أربع مائة وأربعون رِطْلًا ، ومن الخَلَايا ثلاثة آلاف وأربع مائة وخَلِيَّتان ، ومن عَسل القَصَب مائة وثمانية وثمانون قِسطًا[a].

ومن الأَبْقار اثنان وعشرون ألفًا ومائة وأربعة وستون رأْسًا ، ومن الدَّواب أربعة وسبعون رَأْسًا . ومن السَّمْن ألفان وتسع مائة وستة وتسعون مَطْرًا وسُدْس وثُمْن ، ومن الجُبْن ثلاث مائة وعشرون رَطْلًا . ومن الصُّوف أربعة آلاف ومائة وثلاثة وعشرون جَزَّة ، ومن الشَّعْر ستة آلاف وخمسون رَطلًا ورُبْع ، ومن بُيوت الشَّعر بَيْتان » .

وفَصَّل ذلك بجِهاتِه ومُعامليه .

قالَ[1] : ولمَّا انْتَهَى إلى المأمون ما يُعْتَمَد في الدَّواوين ، من قَبول الزِّيادات وفَسْخ عُقود الضَّمانات وانْتِزاعِها ممَّن كابَد فيها المَشَقَّة والتَّعَب ، وتَسْليمها إلى باذِل الزِّيادَة من غير كُلْفَة ولا نَصَب ، أَنْكَرَ ذلك ومَنَعَ من ارْتِكابِه ، ونَهَى عن الوُلوج في بابِه ، وخَرَجَ أَمْرُه بإعْفاء الكافَّة أجمعين والضُّمَناء والمُعاملين من قَبول الزيادة فيما يتصرَّفون فيه ويَسْتَوْلون عليه ، ما دامُوا مغلقين وبأَقْساطهم قائِمين . وتَضَمَّن ذلك مَنْشورٌ قُرِئَ في الجامِعَيْن الأَزْهَر بالقاهِرَة والعَتيق بِمِصْر وديوانَي المجْلس والخاصّ الآمِرَيْن السَّعيدَيْن ؛ ونُسْخَتُه بعد التَّصْدير :

«ولمَّا انْتَهَى إلى حَضْرَتِنا ما يُعْتَمَد في الدَّواوين ، ويَقْصده جَماعَةٌ من المُتَصَرِّفين والمُسْتَخْدمين ، من تَضْمين الأَبْواب والرِّباع والبَساتين والحَمَّامات والقَياسِر والمَساكِن وغير ذلك من الضَّمانات ، للرَّاغِبين فيها ممَّن تستمر مُعامَلَتُه ولا تُنْكَر طَرِيقَتُه . فما هو إلَّا أن يَحْضُر من يُزيد عليه في ضَمانِه ، حتى قد نَقَض عليه حُكْم الضَّمان ، وقَبل ما يَبْذُل من الزيادة كائِنًا من

---

a) بولاق : ثمانية وثلاثون قنطارًا .

---

[1] أي ابن المأمون .

كان ، وقُبِضَت يَدُ الضَّامِنِ الأوَّل عن التَّصَرُّف ، وتَمَكَّن الضَّامِنُ الثاني من التَّصَرُّف من غير رِعايَةٍ للعَقْد على الضَّامِن الأوَّل ، ولا تَحَرُّز في فَسْخِه الذي لا يُبيحه الشَّرْعُ ولا يُتأوَّل ؛ أنْكَرْنا ذلك على مُعْتَمِديه ، وذَمَمْناه من غَيْر[a] قَصْد فاعِليه ومُرْتَكبيه ، إذْ كان للحَقّ مُجانِبًا ، وعن مَذْهَب الصَّواب ذَاهِبًا ، وعَرَضْنا ذلك بالمَواقِف المُقَدَّسَة المُطَهَّرة ـ ضاعَفَ الله أنْوارَها وأعْلى أبَدًا مَنارَها ـ واسْتَخْرَجْنا الأوامِرَ المُطاعَة في كَتْب هذا المَنْشُور إلى سائِر الأعْمال ، بأنَّه أي أحَد من الناس ضَمِنَ ضَمانًا من بابٍ أو رَبْعٍ أو بُسْتانٍ أو ناحِيَةٍ أو كَفْرٍ ـ وكان لأقْساطِ ضَمانِه مُؤَدِّيًا ، ولما يَلْزَمه من ذلك مُبْدِيًا ، وللحَقّ مُتَّبِعًا ـ فإنَّ ضَمانَه باقٍ في يَدِه لا تُقْبَل زِيادَةٌ عليه مُدَّة ضَمانِه على العَقْد المَعْقود ، عَمَلًا بالوَاجِب والنِّظام المَحْمُود ، واتِّباعًا لما أمَرَ الله تعالى في كِتابه المَجيد ، إذ يقول جَلَّ من قائِل : ﴿ يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقُودِ﴾ [الآية ١ سورة المائدة] ، إلى أن تَنْقَضي مُدَّةُ الضَّمان ويَزولَ حُكْمُها ويَذْهَب وَضْعُها ورَسْمُها ، حَمْلًا على قَضِيَّة الواجِب وسُنَنِها ، واعْتِمادًا على حُكْم الشَّريعَة التي ما ضَلَّ من اهْتَدى بفَرائِضِها وسُنَنِها .

فأمَّا من ضَمِنَ ضَمانًا ولم يَقُم بما يَجب عليه فيه ، وأَصَرَّ على المُدافَعة والمُغالَطَة التي لا يَعْتَمِدها إلَّا كلّ ذَميم الطِّباع سَفيه ، فذلك الذي فَسَخَ حُكْمَ ضَمانِه بنَقْضِه الشُّروط المَشْروطَة عليه ، وحُكْمُه حُكْم من إذا زِيدَ عليه في ضَمانِه نُقِلَ عنه وأُخْرِج من يَدَيْه ، لأنَّه الذي بَدَأ بالفَسْخ وأَوْجَد السَّبيلَ إليه .

فلْيَعْتَمد كافَّةُ أرْباب الدَّواوين ، وجَميعُ المُتَصَرِّفين والمُسْتَخْدَمين العَمَل بما تَضَمَّنَه هذا المَنْشُور ، وامْتِثال المأمور ، وحَمْل هَؤُلاء الضُّمَناء والمُعامِلين على ما نُصّ فيه ، والحَذَرَ من تَجاوُزِه وتَعَدِّيه بَعْد ثُبُوته في ديواني المَجْلِس والخاصّ الآمِرَيْن السَّعيدَيْن ، وبحيث يَثْبُت مثلُه إن شاءَ الله تعالى» .

قال : ووَصَلَت المُكاتَبَةُ من الوالي والمُشارِف ، ومَنْ كان نُدِبَ صُحْبَته لكَشْف الأراضي

---

a) ساقطة من الأصل .

والسَّواقي ومِساحَتها ، متضمِّنَةً ما أَظْهَرَه الكَشْفُ وأَوْضَحَتْه المِساحَةُ على من بيده السَّواقي - وهم عِدَّةٌ كثيرة - من جملتها ساقِيَة مساحَتها ثلاث مائة وستون فَدَّانًا تشتمل على النَّخْل والكَرْم وقَصَبَ السُّكَّر بمَدينة إسْنا خَراجُها في السنة عشرة دنانير ، وما يجري في الأَعْمال هذا المَجْرَى .

وأَنَّهم وَضَعُوا يد الدِّيوان على جَميعها ، وطَلَبوا من أَرْباب السَّواقي ما يدلّ على ما بأيْديهم ؛ فذَكَرُوا أَنَّهم انْتَقَلَت إليهم ، ولم يُظْهِروا ما يَدُلّ عليهم وقد سَيَّرُوا مُلَّاكها إلى الباب تحت الحَوْطَة ليخرج الأَمْرُ بما يُعْتَمَد عليه في أَمْرهم . وعند وُصولهم أُوْقِع التَّرْسيم بهم إلى أن يَقُوموا بما يَجب من الخَراج عن هذه السَّواقي ، فإنَّ الأَمْلاكَ بجُمْلَتها لا تَقُوم بما يجبُ عليها . فوَقَفَ المذكورون للمَأمون في يوم جُلوسِه للمَظالِم ، فأَمَر بحُضورِهم بين يَدَيْه ، وتقدَّم إلى القاضي جَلال المُلْك أبو الحَجَّاج يوسُف بن أَيُّوب المَغْرِبي[1] - وهو يومئذٍ قاضي القُضاة - لمُحاكَمتهم ، فجَرَى له معهم / مُفاوَضَةٌ أَوْجَبَت الحقَّ عليهم ، وأَلْزَمَهُم بالقيام بما يستغرق أَحْوالَهم وأَمْلاكَهم . ٨٥:١

فحَصَلَ من تَضَرُّرهم[a] ما أَوْجَب العاطِفَة عليهم ، وأَخْذهم بالخَراج من بَعْد ، وأن يَضْرِب عمَّا تقدَّم صَفْحًا ، وكُتِبَ مَنْشورٌ نُسْخَتُه .

«قد عُلِمَ كافَّةُ[b] ما تَراه من إفاضَة سُحُب العَدْل عليهم والإحْسان والنَّظَر في مَصالِح كلِّ قاصٍ منهم ودان ، وأَنَّنا لا نَدَع ضَرَرًا يَتَوَجَّه إلى أَحَدٍ من الرَّعِيَّة إلا حَسَمْناه ، ولا نَعْلَم صَلاحًا يعودُ نَفْعُه عليه إلَّا قَوَّيْنا سَبَبَه ووَصَلْناه ، حَسْب ما يتعيَّن على رُعاة الأُمَم ، وعَمَلًا بالواجِب في البَعيد والأَمَم ، وسُلوكًا لِمَحجَّة الدَّوْلَة الفاطِمِيَّة - خَلَّد اللَّه مُلْكَها - القَويمة ، واسْتِمْرارًا على قضاياها وسجاياها الكَريمَة .

ولمَّا كنَّا نرى النَّظَر في مَصالح الرَّعِيَّة[a] أَمْرًا واجِبًا ، ونَصْرِف إلى

---

a) بولاق : تضورهم . b) بولاق : الكافة .

---

[1] قرَّره الوزير المأمون البطائحي في رتبة القضاء في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمس مائة ، عوضًا عن القاضي ثقة الملك مُسْلم بن علي بن الرَّسْعني ، ولُقِّب «جلال المُلْك تاج الأحكام» واشتمل سجلّه على توليته القضاء والخطابة والصلاة وديوان الأحباس ودار الضَّرْب ، واستمرّ إلى أن توفّي في شوال سنة ٥٢١هـ (ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤، ١٠٦، ١١٢؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣: ٩٣، ١١٩؛ ابن حجر : رفع الإصر ٤٧٣- ٤٧٤؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ١٥٢) .

فعلى ذلك يكون هذا المنشور قد صَدَرَ بعد شهر ذي القعدة سنة ٥١٦هـ .

ولمَّا كنَّا نرى النَّظَر في مَصالح الرَّعيَّة[a] أَمْرًا واجِبًا، ونَصْرف إلى سِياسَتهم عَزْمًا ماضِيًا ورأيًا ثاقبًا، كذلك نَرى النَّظَر في أُمور الدَّواوين واسْتيفاء حُقُوقِها الـمَصْروفَة إلى حِمايَة البَيْضَة، والمُحاماة عن الدِّين، وجِهاد الكَفَرة والـمُلْحِدين، ليكون ما نُراعيه ونَنْظُر فيه جارِيًا على سَنَن الواجِب، مَحْروسًا من الخَلَل ـ بإذن الله تعالى ـ من جَميع الجَوانِب.

ومن الله نَسْتَمِدّ مَواد التَّوفيق في الحَلّ والعَقْد، ونَسْأَله الإرْشاد إلى سَواء السَّبيل والقَصْد، وما تَوْفيقُنا إلَّا بالله، عليه نَتَوَكَّل، وَهُوَ حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكِيل».

وكان القاضي الرَّشيدُ بن الزُّبَيْر[1] ـ أيَّام مُشارَفَته الصَّعيد الأعْلَى ـ قد طالَع المَجْلِس الأَفْضَليّ بحالِ أرْباب الأَمْلاك هناك، وأنَّهم قد اسْتضافوا إلى أماكِنهم من أَمْلاك الدَّواوين أراضي اغْتَصَبوها، ومواضِعَ مُجاوِرَة لأمْلاكِهم تَعَدَّوا عليها وخَلَطوها بها وحازُوها. ورُسِمَ له كَشْفُها ونَظْم المَشاريح بها وارْتِجاعها للديوان، وأن يَعْتَمِد في ذلك ما يُوجِبُه حُكْمُ العَدْل المُثْبوت[b] في كلّ قُطْرٍ ومَكان؛ وبآخِر ذلك:

«سَيَّرْنا من الباب من يَكْشف ذلك على حقيقَته وإنْهائِه على طَيِّه، فاعْتَمَدوا ما أُمِروا به من الكَشْف في هذه الأَمْلاك؛ ووَرَدت المُطالَعَةُ منهم بأنَّهم الْتَمَسوا ممَّن بيده مِلْكٌ أو ساقِيَة، ما يَشْهَد بصِحَّة مِلْكِه ومَبْلغ فَدْنه وذِكْر حُدوده، فلم يُحْضِر أحَدٌ منهم كِتابًا، ولا أَوْضَح جَوابًا. وأَصْدَروا إلى الدِّيوان المَشاريح بما كَشَفوه وأَوْضَحوه، فوُجِد[c] التَّعَدِّي فيه ظاهِرًا، وباب الحَيْف والظُّلْم غير مُتَقاصِر، والشَّرْع يُوجِب وَضْع اليَد على ما هذه

a) بولاق: الرعايا. b) بولاق: المثبت. c) بولاق: وجدوا.

[1] القاضي الرَّشيد أبو الحسن أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزُّبير الأُسْواني المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، لم تُشر المصادر إلى مشارفته للصعيد الأعلى، وإنما تشير إلى ولايته نظر الإسكندرية سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م بغير اختياره، فتكون إشارة ابن المأمون هنا ذات أهمية كبيرة (راجع، العماد الأصفهاني: خريدة القصر (قسم مصر) ١:٢٠٠-٢٠٢؛ ياقوت: معجم الأدباء ٤:٥١-٦٦؛ ابن خلكان: وفيات ١:١٦٠-١٦٤؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٣٥، ١٥٣؛ الصفدي: الوافي ٧:٢٢٠-٢٢٥؛ الأدفوي: الطالع السعيد ٩٨-١٠٢؛ المقريزي: المقفى الكبير ١:٥٣٣-٥٣٦).

بِصِحَّة المِلْك رأسًا ، ولا يَسْتَنِد في ذلك إلى حُجَّة ادَّخَرَها احْتِرازًا ممَّا هذه[a] سبيله واحْتِراسا ؛ لكن بحُكْم ما نَراه من المَصْلَحة للرَّعية والعَدْل الذي أَقَمْنا منارَه ، وأَحْيَيْنا مَعالِمه وآثارَه ، مع الرَّغْبَة في عِمارَة البلاد ومَصالِح أحْوالِها ، واسْتِنْباط الأرَضين الدَّاثِرة ، وإنْشاء الغُروس وإقامة السَّواقي بها ؛ أَمَرْنا بكَتْب هذا المَنْشُور وتِلاوته بأعْمال الصَّعيد الأَعْلى ، بإقرار جَميع الأمْلاك والأرَضين والسَّواقي بأَيْدِي أرْبابِها الآن ، من غير انْتِزاع شيءٍ منها ولا ارْتِجاعِه ، وأن يُقَرَّر عليها من الخَراج ما يَجب تَقْريره ، ويَشْهد الدِّيوانُ على أمْثالِهم بِمِثْله ، إحْسانًا إليهم لم نَزَل نُتابع مثله ونُواليه ، وإنْعامًا ما بَرِحْنا نُعيده عليهم ونُبْديه .

وقد أَنْعَمْنا وتَجاوَزْنا عمَّا سَلَف ، ونَهَيْنا عمَّن يَسْتَأْنِف ، وسامَحْنا من خَرَج إلى التَّعَدّي عن المألوف[b]، وجَرَيْنا على سُنَنِنا في العَفْو المعْروف ، وجَعَلْناها تَوْبَةً مقبولةً من الجماعةِ الجانين ، ومن عادَ من الكافَّة أَجْمَعين فلْيَنْتَقِم الله منه ، وطُولِب بمُسْتَأْنفه وأَمْسه ، وبَرِئَت الذِّمَّةُ من مالِه ونَفْسه ، وتَضاعَفَت عليه الغَرامَةُ والعُقوبَةُ ، وسُدَّت في وَجْهه أبْوابُ الشَّفاعة والسَّلامَة .

وقد فَسَحْنا ـ مع ذلك ـ لكلِّ من يَرْغَب في عِمارَة أرْض خَلْفاء داثِرة وإدارَة بئْر مهجورة مُعَطَّلة ، في أن يُسَلّم إليه ذلك ويُقاس عليه ، ولا يُؤخذ منه خَراجٌ إلَّا في السَّنَة الرابعة من تَسْليمه إيَّاه ، وأن يكون المُقَرَّرُ على كلِّ فَدَّان ما تُوجِبه زِراعته لِمِثْله خَراجًا مُؤَبَّدًا وأَمْرًا مُؤَكَّدًا .

فليَعْتَمد ذلك النُّوابُ وحُكَّامُ البِلاد ، ومن جَرَت العادَةُ بحُضوره عَقْد مَجْلس ، وإحْضار جَميع أرْباب الأمْلاك والسَّواقي ، وإشْعارهم ما شَمِلَهم من هذا الإحْسان الذي تَجاوَز آمالَهم في إجابتهم إلى ما كانوا يَسْأَلون فيه ، وتَقْرير ما يَجب على الأمْلاك المذكورة من الخَراج على الوَضْع الذي مَثَّلْناه ، ويُجيز الدِّيوانُ تَقْريرَه ويَرْضاه ، مع تَضْمين الأراضي الدَّاثِرة والآبار المُعَطَّلَة لمن يَرْغَب في ضَمانِها ، ونَظْم المَشارِيح بذلك وإصْدارِها إلى الدِّيون ،

---

a) بولاق : عن مجاهدة .   b) بولاق : من التعدي إلى المألوف .

ليُخَلَّد فيه على حُكْم أَمْثالها بعد ثُبوت هذا المَنْشور بحَيْث يَثْبُت مِثله».

قال: ولما سَرَت هذه المَصالِح إلى جَميع أَهْل هذه الأَعْمال، حَصَلَ الاجْتهادُ في تَحْصيل مالِ الدِّيوان وعِمارَة البِلاد[1].

واعْلَم أنَّه لم يَكُن في الدَّوْلَة الفاطِمية بديار مصر، ولا فيما مَضَى قَبْلَها من دُول أُمَراء مصر، لعَساكِر البلاد إقطاعاتٌ بمَعْنَى ما عليه الحالُ اليوم في أَجْناد الدَّوْلَة التُّرْكية[2]، وإنَّما كانت البلادُ تُضَمَّن بقَبالات مَعْروفَة لمن شاءَ من الأُمَراء والأَجْناد والوُجوه وأَهْل النَّواحي من العَرَب والقِبْط وغيرهم[3]، لا تُعْرَف هذه الآبِدَة التي يقال لها اليوم الفِلاحَة، ويُسَمَّى المُزارِعُ المُقيم بالبلد «فلَاحًا قرارًا»، فيَصير عَبْدًا قِنًّا لمن أُقْطِع تلك الناحية، إلَّا أنَّه لا يَرْجُو قَطّ أن يُباع ولا يُعْتَق، بل هو قِنٌّ ما بقيَ ومَنْ وُلِدَ له كذلك، بل كان من اخْتار زِراعَة أرض يُقَبِّلُها كما تقدَّم، وحَمَلَ ما عليه لبيت المال؛ فإذا صارَ مالُ/ الخَراج بالدِّيوان، أُنْفِق في طوائِف العَسْكر من الخَزائِن.

وكان مع ذلك إذا انْحَطَّ ماءُ النِّيل عن الأراضي، وتعلَّقَت نَواحي مصر بأصناف الزِّراعات، نُدِبَ من الحَضْرَة مَنْ فيه نَباهَة، وخَرَجَ معه عُدول يوثَق بهم وكانت لهم معرفةٌ بعِلْم الخَراج، وكثيرًا ما كان هذا الكاتِب من النَّصارَىٰ الأَقْباط. ويَخْرُجُ إلى كلِّ ناحِية مَنْ ذَكَرْنا، فيُحَرِّرون مِساحَةَ ما شمله الرَّيّ من الأَراضي مِمَّا لعله بارَ أو شَرَق، ويُكْتَب بذلك مُكَلَّفات[4] واضِحَة بالفَدْن والقَطائِع على جميع الأصناف المزروعة، ويُحْضَر إلى دواوين الباب.

فإذا مَضَى من السَّنَة القِبْطِيَّة أربعة أشهر، نُدِبَ من الأَجْناد من يُعرَف بالحَماسَة وقُوَّة البَطْش، وعُيِّنَ معه من الكُتَّاب العُدول من قد اشتهر بالأَمانَة، وكاتِبٌ من نَصارَى القِبْط غير من خَرَجَ عند المِساحَة، وساروا إلى كلِّ ناحية كذلك، فاستخرج مُباشِرو كلّ بَلَد ثلث ما وَجَب من مالِ الخَراج على ما شَهِدَت به المُكَلَّفات، فإذا أحضر هذا الثُّلْث صُرِفَ في واجبات العساكِر معه، وهكذا العَمَلُ في اسْتِخْراج كلِّ قِسْطٍ طول الزَّمان من كلِّ سنة[1]. وكانت تَبْقَى في جهات

---

[1] ابن المأمون: أخبار مصر ٢٨- ٣٤.

[2] عن الإقطاع في العصر الفاطمي وإجراءات الوزير الأفضل شاهنشاه راجع، أيمن فؤاد سيد: «طبيعة الإقطاع الفاطمي»، حوليات إسلامية ٣٣ (١٩٩٩)، ١- ١٦؛ الدولة الفاطمية في مصر ٧٠٥- ٧١٧؛ وفيما يلي ١: ٤٠٥.

[3] انظر أيضًا فيما يلي ٢٦١.

[4] المكلَّفة جـ. المكلَّفات. الأوراق التي تُوضِّح لكلّ مزارع ما يجب عليه من خراج. (المخزومي: المنهاج ٥٩، ٦٠).

الضُّمَّان والمُتَقَبِّلين جُمْلَة بَواقٍ .

وكانت بلادُ مصر ، إذْ ذاك ، تُقَبَّل بعَيْنٍ وغَلَّة وأَصْناف ، وقد عُرِفَ ذلك من نُسْخَة المَسْموح الذي تَضَمَّن تَرْكَ البَواقي في أيَّام الخَليفَة الآمِر بأحْكام الله ووَزارَة الـمَأْمون البَطائِحي .

ورأيتُ بخَطِّ الأَسْعَد بن مُهَذَّب بن زكريَّا بن مَمَّاتي الكاتِب المِصْري : سأَلْتُ القاضي الفاضِل عبد الرَّحيم : كَمْ كانت عِدَّةُ العَسْكَر[a] في عَرْضِ ديوان الجَيْش ، لمَّا كان سَيِّدُنا يتولَّى ذلك في أيام رُزِّيك بن الصَّالِح ؟ فقال : أربعون ألف فارس ونيفًا ، وثلاثين ألف راجِل من السُّودان [٢].

وقال أبو عَمرو عُثْمان النَّابُلُسي في كتاب «حُسْن السَّريرَة في اتِّخاذ الحِصْن بالجَزيرَة» [٣]: إنَّ ضِرْغامًا لمَّا ثارَ على شاوَر ، وفَرَّ شاوَرُ إلى السُّلْطان نُور الدين محمود بن زَنْكي بدِمَشْق يَسْتَنْجِد به على ضِرْغام ويعده بأنَّه يكون نائِبًا عنه بمصر ويَحْمِل إليه الخَراج ، أَنْشَأ لنُور الدين عَزْمًا لم يكن . فجَهَّز ألف فارس ، وقَدَّم عليهم أَسَدَ الدين شِيرْكوه ، وأَمَرَه بالتوجُّه ، فأَبَى وقال : لا أَمْضي أبَدًا ، فإنَّ هَلاكي ومن معي وسوء سُمْعَة[b] السُّلْطان مَعْلوم من هنا ، وكيف أَمْضي بألف فارس إلى إقْليم فيه عشرة آلاف فارِس ، ومائة شيني[c] فيها عشرة آلاف مُقاتِل وأربعون ألف عَبْد وقَوْم مُسْتَوْطنون في أوطانهم ، قريب خَزائنهم[a] ـ ونحن نأْتيهم من تَعَب السَّفَر ـ بهذه العُدَّة القليلة ؟

---

a) بولاق : العساكر . b) بولاق : ما سمعه . c) بولاق : شهيد .

---

[١] فيما يلي ١ : ٤٠٥ .

[٢] فيما يلي ٢٥٤ .

[٣] علاء الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم بن خالد بن محمد القرشي المعروف بالنابلسي المتوفى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م ، شغل وظيفة قاضٍ لبعض الوقت ، ثم تولى في عهد السلطان الملك الكامل محمد وظائف إدارية عُلْيا مكنته من تأليف مجموعة من الكتب الهامة حول التاريخ الاقتصادي والتنظيم الإداري والزراعي لمصر وأحوال أهل الذمة بها ، هي : «إظهار صنعة الحيّ القيُّوم في ترتيب بلاد الفيوم» المعروف بـ«تاريخ الفيوم وبلاده» ، و«لمع القوانين المضيّة» و«تجريد سيف الهمّة لاستخراج ما في ذِمّة أهل الذِّمّة» ، وقد نشرت جميعها بعناية موريتز وبيكر وكاهن ، ولم يصل إلينا من مؤلفاته كتاب «حُسْن السلوك في فضل ملك مصر على سائر الملوك» وكتاب «حُسْن السريرة في اتّخاذ الحصن بالجزيرة» – الذي يشير إليه المقريزي – والمقصود به القلعة التي بناها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في جزيرة مصر المعروفة بالروضة . (لم يترجم أحدٌ للنابلسي سوى شرف الدين الدمياطي في معجم شيوخه ولخّص هذه الترجمة اليونيني في ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٠٤، وانظر كذلك Cahen, Cl., «Kitâb luma' al-qawânîn al-mudiyya...», *BEO* XVI (1958-60), pp. 119-23، ورغم أن كتاب «حسن السريرة» أشار إليه ابن دقماق والمقريزي فلم يصل إلينا منه أي نسخة ، على العكس تمامًا من كتاب «لمع القوانين المضية» الذي وصل إلينا في عدة نسخ رغم أنه لم يثر اهتمام المؤرخين القدماء !) .

قال : ثمّ أجابَه بعد ذلك .

هذا ـ أَعَزَّكَ اللّه ـ بعد ما كانَت عَساكِرُ أحمد بن طُولون ، ما ستَراه في ذِكْر القَطائِع إن شاءَ الله تعالى ، ثم ما كان من عَساكِر الأمير أبي بكر محمد بن طُغْج الإخْشيد ، وهي ـ على ما حَكاه غيرُ واحِدٍ ، منهم ابنُ خَلِّكان ـ أنَّها كانت أربع مائة ألف [1] .

ولمَّا انْقضَت دَوْلَة الفاطِميين بدُخول الغُزِّ من بلاد الشَّام ، واستولى صَلاحُ الدين يُوسُف بن أَيُّوب على مَمْلَكَةِ مصر ، تَغَيَّرَ الحالُ في ذلك كُلِّه [b].

قال القاضي الفاضِلُ في «مُتَجَدِّدات» سنة سبعٍ وستين وخمس مائة : في ثامن المحرَّم خَرَجَت الأَوامِرُ الصَّلاحية برُكُوب العساكِر قَديمِها وجَديدِها ، بعد أن أُنْذِر حاضِرُها وغائِبُها ، وتوافَى وُصولُها وتكامَل سِلاحُها وخيولُها ، فحَضَر في هذا اليوم جُموع ، شهد كلُّ من عَلا سنُّه وقَرْطَس ظنُّه أنَّ مَلِكًا من مُلوك الإسلام لم يَحز مِثْلَها ، وشاهَدَت رُسُلُ الرُّوم والفِرنْج ما أرْغَم أُنوفَ الكَفَرَة .

ولم يتكامَل اجْتيازُ العساكِر مَوْكِبًا بعد مَوْكِب ، وطُلْبًا بعد طُلْب (والطُّلْبُ ـ بلغة الغُزِّ ـ هو الأمير المُقَدَّم الذي له عَلَمٌ مَعْقود وبُوقٌ مَضْروب ، وعِدَّةٌ من مائتيْ فارِس إلى مائة فارِس إلى سبعين فارسًا) إلى أن انقضى النَّهارُ ، ودَخَل الليلُ وعادَ ولم يَكْمُل عرضُهم . وكانت العِدَّةُ الحاضِرَةُ مائة وسبعة وأربعين طُلْبًا ، والغائِب منها عشرون طُلْبًا ، وتَقْدير العِدَّة يناهِز أربعة عشر ألف فارس [2] ، أكثرها طَوَاشِية [3] ـ والطَّواشي مَنْ رِزْقُه من سبع مائة إلى الف إلى مائة وعشرين وما بين ذلك ، وله برك [1] من عشرة رؤوس إلى ما دُونها ما بين فَرَس وبِرْذَون وبَغْل وجَمَل ، وله غُلامٌ

a) بولاق : فرأيت حرابتهم . b) بولاق : بعض التغير لا كله .

[1] ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ : ٥٩ نقلًا عن التاريخ الصغير المعروف بـ«عيون السيرة» لمحمد بن عبد الملك الهمداني .

[2] المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣ : ٣٢٧؛ وانظر Dozy, R., *Suppl. Dict. Ar.* II, 51.

[3] يرى جب Gibb, H. أنّ مصطلح «طَواشي» في هذه الفترة كان يدل على الجندي الذي ينتمي إلى الطبقة الأعلى من طبقة العسكر النظامي ، أمّا الطبقة الأدنى فكانت تعرف بالقراغلامية (انظر الهامش التالي) . يؤيد ذلك الوصف الذي قدمه غليوم أسقف صور لجيش صلاح الدين في حملة سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م ويقول فيه : «وكان من بين هؤلاء ثمانية آلاف من الجند العظام الذين يسمونهم في لغتهم بـ«الطواشية» أما الثمانية عشرة آلاف الآخرون فكانوا من الفرسان العادين المعروفين باسم «قراغلامية» » (الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، ٤ : ٢١٩) ، وقد كان صلاح الدين يخاطب به سنقر الخلاطي أخصّ مماليكه وأخلصهم الذي =

يَحْمِل سِلاحَه ـ وقَرَا غُلامِيَّة[٢] تتمَّة الجملة .

قَالَ : وفي هذه السَّفْرَة عَرَضَ العُرْبانَ الخَدَّامين ، فكانَت عِدَّتُهم سبعة آلاف فارِس ، واستقرَّت عِدَّتُهم على ألف وثلث مائة فارِس لا غير ، وأَخذ بها الحُكْم عُشْر الواجِبِ ، وكان أَصْلُه ألف ألف دينار ، على حُكْم الاعْتِداد الذي يتأصَّل ولا يَتَحَصَّل ، وكلف الثَّعالِبَة ذلك فامْتَعَضُوا ولَوَّحُوا بالتَّحيز إلى الفِرِنْج .

وقَالَ في «مُتَجَدِّدات» شهر رجب سنة سبعٍ وسبعين وخمس مائة : استمرَّ انْتِصابُ السُّلْطان صَلاح الدين في هذه السنة للنَّظَر في أُمور الإقْطاعات ومَعْرِفَة عِبَرِها ، والنَّقْص منها والزيادة فيها ، وإثْبات المَحْروم وزيادة المَشْكور ، إلى أن استقرَّت العِدَّةُ على ثمانية آلاف وستّ مائة وأربعين فارِسًا : أُمَراء مائة وأَحَد عشر أميرًا ، طَواشِية ستة آلاف وتسع مائة وستة وسبعون ، قَرا غُلامِيَّة ألف وخمس مائة وثلاثة وخمسون . والمُسْتَقِرّ لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستّ مائة ألف وسبعون ألفًا وخمس مائة دينار ، وذلك خارِجٌ عن المَحْلولين من الأَجْناد المَوْسومين بالحِوالة على العُشْر ، وعن عِدَّة العُرْبان المُقْطَعين بالشَّرْقيَّة والبُحَيْرَة ، وعن الكنانِيين والمُضَرِيين[a] والفُقَهاء/ والقُضَاة والصُّوفِيَّة ، وعمَّا يَجْري بالديوان ولا يَقْصُر عن ألف ألف دينار[٣]. ٨٧

وقَالَ في «مُتَجَدِّدات» سنة خمسٍ وثمانين وخمس مائة : أَوْراقٌ بما استقرَّ عليه عِبَرُ البلاد من إسْكَندرية إلى عَيْذاب ، إلى آخر الرابع والعشرين من شَعْبان سنة خمسٍ وثمانين وخمس مائة ، خارِجًا عن الثُّغور وأَبْواب الأَمْوال الدِّيوانية والأَحْكار والحَبْس ومَنْفَلوط ومَنْقَباط وعِدَّة نواحٍ

---

a) بولاق : الكاتبين والمصريين .

= قدمه على مماليكه (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ١٢) ، بكلمتي «يا طواشي» (جب ، هـ.: «جيوش صلاح الدين» في كتاب دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم ومحمود زايد ، بيروت - دار العلم للملايين ١٩٧٩، ١١٥) وأطلق على بهاء الدين قراقوش كذلك لقب طواشي (فيما يلي ١ : ٤٩٦، ٢ : ٢٠١) . وانظر كذلك Richard, D.S., «A Report on an Order of ‹Qarâqûsh», *Arabica* XXXVI (1989), pp. 237-41 وهو نشر لأمر لقراقوش وجد بين أوراق الجنيزة المحفوظة في كامبردج وردت فيه ألقابه : «المولا الطواشي الإسفهسلار الكبير بهاء الدين قراقوش المنصوري الأفضلي» .

[١] انظر حول هذا اللفظ فيما يلي ٣٧٥.

[٢] القراغلامية . مصطلح كان يطلق - فيما يبدو - إما على مماليك من درجة دنيا أو - كما نستدل من الأعداد المذكورة هنا - على خيَّالَة من غير المماليك . ويجب أن لا يخلط بين كلمة قراغلام والاصطلاح المغولي قراغول (جب ، هـ.: المرجع السابق ١١٥-١١٦) ، وانظر معنى الطواشي في العصر المملوكي فيما يلي ٢ : ٣٨٠.

[٣] المقريزي : السلوك ١ : ٧٥.

أُورِدَت أسماؤها ولم يُعَيَّن لها في الدِّيوان عِبْرَة ، من جملة أربعة آلاف ألف وستّ مائة ألف وثلاثة وخمسين ألفًا وتسعة عشر دينارًا ، بعد ما يجري في الدِّيوان العادِلي السَّعيد وغيره عن الشَّرْقِيَّة والمِزْتاحِيَّة والدَّقَهْلِيَّة وبُوش وغير ذلك ، وهو ألف ألف ومائة ألف وتسعون ألفًا وتسع مائة وثلاثة وعشرون دينارًا ، تَفْصيلُ ذلك :

الدِّيوانُ العادِليّ : سبع مائة ألف وثمانية وعشرون ألفًا ومائتان وثمانية وأربعون دينارًا . الأُمَراءُ والأَجْناد المَرْسُوم بإبْقاء إقْطاعاتهم بالأعمال المذكورة : مائة ألف وثمانية وخمسون ألفًا ومائتان وثلاثة دَنانير . ديوانُ السُّور المُبارَك والأَشْراف : ثلاثة عشر ألفًا وثمان مائة وأربعة دَنانير . العُرْبان : مائتا ألف وأربعة وثلاثون ألفًا ومائتان وستة وتسعون دينارًا . الكِنانِيَّة : خمسة وعشرون ألفًا وأربع مائة واثنا عشر دينارًا . القُضَاةُ والشُّيوخُ : سبعة آلاف وأربع مائة وثلاثة دَنانير . القَيْمازِيَّة والصَّالِحِيَّة والأَجْناد المِصْريون : اثنا عشر ألفًا وخمس مائة وأربعة دنانير . الغُزَاة والعَساقِلَة المُرَكَّزَة بدِمْياط وتِنِّيس وغيرهم : عشرة آلاف وسبع مائة وخمسة وعشرون دينارًا . البارِز : ثلاثة آلاف ألف وأربع مائة ألف واثنان وستون ألفًا وخمسة وتسعون دينارًا .

الوَجْهُ البَحْريّ : ألف ألف ومائة ألف وأحد وخمسون ألفًا وستّ مائة وثلاثة وخمسون دينارًا ، تفصيله : ضَواحِي ثَغْر الإسْكَنْدَرية : ثمان مائة ألف ومائة وثمانية وثلاثون دينارًا . ثَغْر رَشيد : ألفا دينار . البُحَيْرة : مائة ألف وخمسة عشر ألفًا وخمس مائة وستة وسبعون دينارًا . حَوْف رَمْسيس : اثنان وتسعون ألفًا وأربع مائة وثلاثة دنانير . فُوَّه والمُزاحِمَتان : عشرة آلاف ومائة وخمسة وعشرون دينارًا . النَّسْتَراوية : خمسة عشر ألفًا وثلاث مائة وخمسة دنانير . جَزيرَة بني نَصْر : مائة ألف واثنا عشر ألفًا وست مائة وستة وأربعون دينارًا . جزيرة قُوِسْنِيا : مائة ألف وثلاثون ألفًا وخمس مائة واثنان وتسعون دينارًا . الغَرْبِيَّة : ستّ مائة ألف وأربعة وسبعون ألفًا وستّ مائة وخمسة دَنانير . السَّمَنُّودِيَّة : مائتا ألف وخمسة وأربعون ألفًا وأربع مائة وتسعة وسبعون دينارًا . الدِّنْجاوِيَّة : ستة وأربعون ألفًا ومائتان وأربعة وسبعون دينارًا . المُنُوفِيَّة : مائة ألف وثمانية وأربعون ألفًا وثلاث مائة وسبعة وأربعون دينارًا .

الوَجْهُ القِبْليّ : ألف ألفٍ وستّ مائة ألف وعشرة آلاف وأربع مائة وأحد وأربعون دينارًا ، تفصيل ذلك : الجِيزَة : مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفًا ومائتان وأربعة دنانير . الإطْفِيحِيَّة : تسعة وخمسون ألفًا وسبع مائة وثمانية وعشرون دينارًا . البُوصيرِيَّة : ستون ألفًا وأربع مائة وستة وستون دينارًا . الفَيُّومِيَّة : مائة ألف واثنان وخمسون ألفًا وستّ مائة وأربعة وثلاثون دينارًا . البَهْنَساوِيَّة :

ثلاث مائة ألف واثنان وخمسون ألفًا وست مائة وأربعة وثلاثون دينارًا. الواحات الدَّاخِلَة والخارِجَتَيْن وواح البَهْنَسا: خمسة وعشرون ألف دينار. الأُشْمونَيْن: مائة ألف وسبعة وأربعون ألفًا وسبع مائة واثنان وثلاثون دينارًا. السُّيوطية خارِجًا عن مَنْفَلوط ومَنْقَباط: اثنان وسبعون ألفًا وخمس مائة وأربعة دنانير. الإخْميمية: مائة ألف وثمانية آلاف وثمان مائة واثنا عشر دينارًا. الأعْمَالُ القُوصِيَّة: ثلاث مائة ألف واثنان وستون ألفًا وخمس مائة دينار. ثَغْرُ أُسْوان: خمسة وعشرون ألف دينار. ثَغْرُ عَيْذاب يَجْري في غير هذا الدِّيوان.

وقال في «مُتَجَدِّدات» سنة ثمان وثمانين وخمس مائة: والذي انْعَقَدَ عليه ارْتِفاعُ الدِّيوان السُّلْطاني ثلاث مائة ألف وأربعة وخمسون ألفًا وأربعة وأربعون دينارًا[1]. والذي يُمَيِّز زائِد الارْتِفاع، لسنة سبع وثمانين وخمس مائة على ارْتِفاع سنة ستّ وثمانين، اثْنان وعشرون ألفًا وأربع مائة وخمسة وأربعون دينارًا. والذي انْساقَ من البَواقي للسَّنَة المذكورة أَحَد وثلاثون ألفًا وستّ مائة واثنان وعشرون دينارًا. والذي اشْتَمَل عليه مُتَحَصَّل ديوان الخاصّ المَلكي النَّاصِري بالديارِ المصرية لسنة سبع وثمانين وخمس مائة: ثلاث مائة ألف وأربعة وخمسون ألفًا وأربع مائة وأربعة وخمسون دينارًا ونصف وثُلْث وثُمْن[2].

ذِكْرُ الرَّوْكِ[3] الأخيرِ النَّاصِرِيّ

وكان الجُنْديّ إقْطاعه بمُفْرَده وله تَبَعٌ واحِد، من عشرين ألف دِرْهَم إلى ثلاثين، وفيهم مَن إقْطاعُه خمسة عشر ألفًا، وأَقَلّهم عشرة آلاف، وذلك سِوَى الضِّيافَة، وبَلَغَ خمسة آلاف درهم في الإقْطاع الثَّقيل. وكان الجُنْديّ يخرج إلى البيكار بطوالَة خَيْل، ويخرج مُقَدَّم الحَلْقَة كأَمير عشرة، وتكون مُضافَتُه إذا نَزَلَ حوله، وأكثرهم يأكل على سِماطِه /. ولا يُمَكِّن الأَميرُ أن يأْكُل إلّا وجميع أَجْناده معه، ويأْخُذ غِلْمان أجناده كلّ يومِ الطَّعام من مَطْبَخه، وإذا رأَى نارًا تُوقَد

[1] المقريزي: السلوك ١: ١١١.

[2] انظر كذلك فيما يلي ٣٢٨.

[3] الرَّوْك. كلمة قبطية اشتُقَّ منها الفعل العربي راك – يروك، تعني في مصر إجراءً زراعيًا يتم خلاله القيام بعملية قياس الأرض وحصرها في سجلات وتثمينها، والغرض من هذا الإجراء هو تعديل ما هو مفروض على البلاد من الأموال الخراجية نتيجة لما يطرأ على حال الأرض من تغيير بنقص أو زيادة في مساحتها بين وقت وآخر. ويؤكد المقريزي أنه في بداية الفترة الإسلامية كان الرَّوْكُ يتم كلّ ثلاثين سنة من أجل التوفيق بين السنة الهلالية والسنة الخراجية (فيما تقدم ٢٢٣)؛ وواضح أنّ ما ذكره المقريزي لا يعكس إلّا واقعًا نظريًّا، ففي واقع الأمر أنّه طوال تسعة قرون تفصل الفتح =

إلّا وجميع أَجْناده معه ، ويَأْخُذ غِلْمان أجناده كلّ يومٍ الطَّعام من مَطْبَخه ، وإذا رأى نارًا تُوقَد سأل عنها فيُقال : إنَّ فُلانًا اشتهى كذا ، فيَغْضَب ممَّن لا يأكل عنده ؛ ومع ذلك كانت أشكالُهم شَنيعَة ، وملابِسُهم غير طائِلَة .

فلمَّا أَفْضَت السَّلْطَنَةُ إلى المَنْصور لاجِين ، رَاكَ البِلادَ ؛ وذلك أنَّ أَرْضَ مصر كانت أربعة وعشرين قيراطًا : فيختَصُّ السُّلْطانُ منها بأربعة قَراريط ، ويختصُّ الأَجْنادُ بعشرة قَراريط ، ويختصُّ الأُمَرَاءُ بعَشْرَة قَراريط . وكان الأُمَرَاءُ يأْخُذون كثيرًا من إقْطاعات الأَجْناد فلا يَصلُ إلى الأَجْناد منها شيءٌ . ويصير ذلك الإقْطاع في دَواوين الأُمَرَاء ، ويحتمي بها قُطَّاعُ الطريق ، وتَثُور بها الفِتَنُ ويَقُوم بها الهَوْشات ، ويُمْنَع منها الحُقوق والمُقَرَّرات الدِّيوانية ، وتَصير مَأْكَلَةً لأعْوان الأُمَرَاء ومُسْتَخْدميهم ومَضَرَّةً على أهل البلاد التي تُجاوِرها .

فَأَبْطَلَ السُّلْطان ذلك ، ورَدَّ تلك الإقْطاعات على أرْبابِها ، وأَخْرَجَها بأَسْرِها من دَواوين الأُمَرَاء ؛ وأوَّلُ ما بدأ به ديوان الأَمير سَيْف الدين مَنْكُوتَمُر نائِب السَّلْطَنة [1] ، فَأَخْرَج منه ما كان فيه من هذه الإقْطاعات ، وكان يَتَحَصَّل له منها مائة ألف أردب غَلَّة في كلّ سَنَة ، واقْتَدَى به جميعُ الأُمَرَاء ، وأَخْرَجوا ما في إقْطاعاتِهم من ذلك ، فبَطُلَت الحِمايات [2] .

وجَعَل السُّلْطانُ في هذا الرَّوْك للأُمَرَاء والأَجْناد أَحَدَ عَشْر قيراطًا ، وأَفْرَد تسعة قَراريط لِيَخْدم بها عَسْكَرًا ويُقْطِعهم إيّاها ، ثم رَتَّبَ أوْراقا بتكفية الأُمَرَاء والأَجْناد بعشرة قَراريط ، ووفَّر قيراطًا

= العربي عن الفتح العثماني لمصر لا تَذْكُر المصادر سوى ست مرّات تمّت فيها عملية «الرَّوْك» .(Halm, H., *EI*[2] art. *Rawk* VII, pp. 483-84; Rabie, H., *The Financial System of Egypt*, pp. 50-56; Halm, H., *Ägypten nach den mamlukischen Lehensregistern*, I-II, Wiesbaden 1979-82؛ المقريزي : السلوك ١:٨٤١هـ [3]؛ أبو المحاسن : النجوم ٨:٨٧) .

واستغل سلاطينُ المماليك عملية الرَّوْك – التي تمَّت مرتين في عصرهما (٦٩٧، ٧١٥هـ) – من أجل إجراء تغيير شامل في توزيع الإقطاعات ، ومن أجل التقليل من نفوذ كبار الأمراء المماليك ، أو توزيع إقطاعات بعض الأمراء في أماكن متباعدة إضعافًا لهم ، وليستأثر سلاطينُ المماليك لأنفسهم ولمؤيّديهم بأجود الأراضي وأفضل المواقع (فيما يلي ٢٤١–٢٤٢) .

ونجد في بداية الكراسة التي بخط المقريزي والمحفوظة في مكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٢١٢٥د ، وهي تشبه الكراسة المحفوظة في مكتبة Liège بيلجيكا ، ما كتبه المقريزي حول الروك الناصري . وبدأها بقوله : «... فقد برز الأمر العالي – أعلاه الله تعالى – بكتابة ما كان من خبر الروك الحسامي والروك الناصري ، فنقول : نحتاج قبل ذكر ذلك إلى [بيان] ما كانت عليه الحال قبل الروك ليعرف به كيف كان سبب عمل الروك ، والله أسأل التوفيق والإعانة بمنه وكرمه . فصل مما كان يعمل في أراضي مصر قبل الإسلام... وختم الحديث بقوله : وقد ذكرتها في كتابي المسمى كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» .

[1] انظر فيما يلي ٢: ٣٨٧.

[2] عن الرَّوْك الحُسَامي الذي عمله السُّلْطان حُسَام الدين =

وأَفْرَد للنَّائِب مَنْكوتَمُر [a]إقْطاعًا جليلًا ، فانتهى عملُ ذلك في ثامن شهر رجب سنة سبع وتسعين وستّ مائة وجلس النائب مَنْكوتَمُر[a] لتفْرِقَة المِثالات[١] في تاسعه [b]. فتَنَكَّرَت قُلوب الأُمَراء ، حتى كان من قَتْل[c] المَنْصور لاجين ونائِبه مَنْكوتَمُر ما كان .

فلمَّا كانت الأَيَّامُ النَّاصِرِيَّة محمَّد [c]، رَاكَ[d] البلاد ؛ قال جامِعُ «السِّيرة النَّاصِرِيَّة» [٢]: وفي سنة خمس عشرة وسبع مائة ، اخْتار السُّلْطانُ الملكُ النَّاصِر محمد بن قَلاوون أن يَروكَ الديار المصرية ، وأن يُبْطِلَ منها مُكوسًا كثيرة ، ويَفْضُل لخاصِّ مَمْلَكَتِه شيئًا كثيرًا من أراضي مصر . وكان سَبَبُ ذلك أنَّه اعْتَبَرَ كثيرًا من أَخْباز[٣] المماليك والحاشِيَة الذين كانوا للمَلِك المُظَفَّر رُكْن الدين بَيْبَرْس الجاشَنْكير والأَمير سَلار وسائِر المماليك البُرْجِيَّة ، فإذا هي ما بَيْن ألف دينار إلى ثمان مائة دينار ، وخَشِيَ من قَطْع أَخْباز المذكورين ، فوَلَّدَ له الرأي مع القاضي فَخْر الدين محمد بن فَضْل الله ناظِر الجَيْش ، أن يَرُوكَ ديار مصر ، ويُقرِّر إقْطاعات مِمَّا يختار ، ويكتب بها مِثالات سُلْطانية . فتَقَدَّمَ الفَخْرُ ناظِرُ الجَيْش فعَمِلَ أَوْراقًا بما عليه عِبَر النَّواحي ومِساحَتها . وعَيَّن السُّلْطانُ لكلِّ إقليمٍ من أُقاليم ديار مصر أُناسًا ، وكَتَب مَرْسومًا للأمير بَدْر الدين جَنْكَلي بن البابا أن يَخْرُج لناحِية الغربية ومعه آقول الحاجِب ، ومن الكُتَّاب المكين بن قَزْوِينَة . وأنْ يَخْرُج الأَمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الخَطيري إلى ناحية الشَّرْقية ومعه الأمير أَيْتِمِش المُحَمَّدي ومن الكُتَّاب أَمين الدين قَرْموط . وأن يَخْرُج الأميرُ بَلَبان الصَّرْخَدي و[طُرُنْطاي][c] القَلَنْجَقي و[محمد][c] بن طُرُنْطاي وبَيْبَرْس الجَمَدار إلى ناحية المُنوفية والبُحَيْرَة . وأن يخرج [أَيْدَغْدي] [a] التُّليلي و[مُغْلطاي][a] المرتيني إلى

a-a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : تابعيه . c) ساقطة من بولاق . d) بعد ذلك في بولاق : الناصر محمد .

= لاجين في جمادى الأولى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م انظر ، بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ٣٢٠-٣٢١ (وفيه أن المنصور لاجين قام بعمل الروك الحسامي لأن النواحي آلت إلى الخراب وعجز الفلاحون عن الخراج وصارت الأراضي تبور وتغرق لضعف المزارعين مع زيادة الشكوى من المقطعين) ؛ النويري : نهاية الأرب ٣١: ٣٤٥- ٣٤٨؛ المقريزي : السلوك ١: ٨٤١- ٨٤٦؛ العيني : عقد الجمان ٣: ٣٩٤- ٣٩٧؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٨: ٩٠- ٩٥؛ Poliak, A.N., «Some Notes on the Feudal System of the Mamluks», *JRAS* (1937), pp. 97-107; Rabie, H., *The Financial System* pp. 52-53; Holt, P.M., «The Sultanate of al-Mansur Lâchin (696-8/1296-9)», *BSOAS* 36 (1973), pp. 521-32; Halm, H., *Ägypten nach den mamlukischen Lehensregistern*, I, pp. 17-24; Tsugitaka, S., *State and Rural Society in Medieval Islam-Sultans, Muqta[c]s and Fallâhûn*, pp. 124-34.

[١] المِثال جـ. مِثالات ، انظر فيما يلي ٢: ٢١٧.

[٢] انظر فيما تقدم ١٢٨ .

[٣] خبز جـ. أخباز ، انظر فيما يلي ٢: ٢١٧.

الوَجْه القِبْلي .

ونَدَبَ معهم كُتَّابًا ومُسْتَوْفين وقَيَّاسين ، فسَارُوا إلى حَيْث ذَكَر . فكان كلٌّ منهم إذا نَزَلَ بأوَّل عَمِله ، طَلَبَ مَشايِخَ كلّ بَلَدٍ ودُلَّلاءَها وعُدولَها وقُضاتِها وسِجِلَّاتها التي بأَيْدي مُقْطَعيها ، وفَحَصَ عن مُتَحَصَّلها من عَيْن وغَلَّة وأَصْناف ، ومِقْدار ما تَحْتَوي عليه من الفُدْن ، ومَزْروعها وبُورها وما فيها من بَرايِب وبَاقٍ وخَرْس[b] ومُسْتَبْحر ، وعِبْرَة الناحية وما عليها لمُقْطَعِيها من غَلَّة ودَجاج وخِراف وبَرْسيم وكِشْك وكَعْك وغير ذلك من الضِّيافَة . فإذا حَرَّرَ ذلك كلّه ، ابتدأ بقِياسِ تلك النَّاحية ، وضَبَط بالعُدول والقَيَّاسين وقاضي العَمَل ما يَظْهَر بالقياس الصَّحيح ، وطَلَب مُكَلَّفات تلك القَرْيَة وقُنْداقَها[c] وفَضْل ما فيها [d]من الخاصّ السُّلْطاني وبلاد الأُمَراء وإقْطاعات[d] الأَجْناد والرِّزَق ، حتى ينتهي إلى آخِر عمله [1] . ثم حَضَروا بعد خمسة وسبعين يومًا ، وقد تَحَرَّر في الأوراق المحْضَرة حالُ جميع ضِياع أرْضِ مصر ومِساحَتُها وعِبْرَة أراضيها ، وما يُتَحَصَّل عن كلّ قرية من عَيْنٍ وغَلَّة وصِنْف .

فَطَلَب السُّلْطانُ الفَخْرَ ناظِرَ الجَيْش والتَّقِيّ الأَسْعَد بن أمين المُلْك المعروف بكاتِب بُرْلُغي[e] وسائِر مُسْتَوْفي الدَّوْلَة ، وألْزَمَهم بعَمَل أوْراقٍ تشتمل على بلاد الخاصّ السُّلْطاني التي عَيَّنَها لهم وعلى إقْطاعات الأُمَراء ، وأضافَ على عِبْرَة كلّ بَلَد ما كان على فَلَّاحيها من ضِيافَة لمُقْطَعيها ، وأضافَ إلى العِبْرَة ما في الإقْطاع من الجَوالي ، وكَتَب مِثالات للأَجْناد بإقْطاعات على هذا

a) ما بين المعقوفتين من السلوك والنجوم الزاهرة . b) بولاق : ترايب وبواق وغرس . c) بولاق : غنداقها .
(d-d) ساقطة من بولاق . e) بولاق : سرلغي .

[1] عن الرَّوْك الناصري الذي عمله السلطان الناصر محمد ابن قلاوون سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م انظر ، النويري : نهاية الأرب ٣٢:٢٠٥-٢٠٦، ٢٢٥-٢٢٧؛ ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر ٩:٢٨٦-٢٨٧؛ المقريزي : السلوك ٢:١٤٦-١٤٧؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٤٣٢؛ ١٣:١٨١-١٨٢؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩:٤٢-٤٥؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١: ٤٤٦؛ Poliak, A.N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 1250-1900*, London 1939, pp. 36-39; Rabie, H., *op.cit.*, pp. 52-56; Halm, H., *op.cit.*, I, pp. 24-34; Levanoni, A., *A Turning Point in Mamluk History. The Third Reign of al-Nâsir Muhammad Ibn Qalâwûn (1310-1341)*, Leiden-Brill 1995, pp. 142-48; Tsugitake, S., *op.cit.*, pp. 135-61; id., «The Proposers and Supervisors of *al-Rawk al-Nâsirî* in Mamluk Egypt», *Mamluk Studies Review* II (1998), pp. 73-92؛ إبراهيم علي طرخان : النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨، ٩١-١١٤.

الحُكْم، فاعتدَّ منها بما كان يُصْرَف في كُلَف حَمْل الغِلال من النَّواحي إلى ساحِل القاهِرَة وما كان عليها من المَكْس[١].

وأَبْطَلَ السُّلْطانُ عِدَّةَ مُكوسٍ[٢] منها «مَكْسُ سَاحِل الغَلَّة»، وكان جُلّ مُتَحَصَّل الدِّيوان، وعليه إقْطاعات الأُمَراء والأَجْناد، ويُتَحَصَّل منه في السنة أربعة آلاف ألف وستّ مائة ألف دِرْهَم، وعليه أربع مائة مُقْطَع لكلٍّ منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف، ولكلٍّ من الأُمَراء من أربعين ألفًا إلى عشرة آلاف. وكانت جِهَةً عظيمةً لها مُتَحَصَّلٌ كثيرٌ جدًّا، وينال القِبْطُ/ منها مَنافِعَ كثيرة لا تُحْصَى، ويحلُّ بالناس من ذلك بَلاءٌ شَديدٌ وتعبٌ عظيمٌ من المغارِمِ والظُّلْم، فإنَّ ٨٩: مَظالِمَها كانت تتعدَّد ما بين نُواتِيّة تَسْرق وكَيَّالين تَبْخس وشادّين وكُتّاب يُريد كلٌّ منهم شيئًا، وكان مُقَرَّر الأَرْدَبّ دِرْهَمين للسُّلْطان ويَلْحَقُه نصف دِرْهَم، غير ما يُنْهَب ويُسْرَق. وكان لهذه الجِهَة مكانٌ يُعْرَف بـ «خُصّ الكَيَّالَة» في ساحِل بُولاق، يجلس فيه شادٌّ وستون متعَمِّمًا ما بين كُتّاب ومُسْتَوْفين وناظِر ومُغْنَى[a]) وثلاثون جنديًّا مباشِرون، ولا يُمْكِن أحدًا من الناس أن يبيع قَدَحًا من غَلَّة في سائر النَّواحي، بل تُحْمَل الغَلّاتُ حتى تُباع في خُصِّ الكَيَّالَة ببُولاق.

ومِمَّا أَبْطَلَ أيضًا «نِصْف السَّمْسَرَة»: وهو عبارَة عن أن مَنْ باعَ شيئًا من الأشياء فإنَّه يُعْطي أُجْرَة الدَّلّال - على ما تَقَرَّر من قَديم - عن كلِّ مائة دِرْهَم دِرْهَمين، فلمَّا وَلِيَ ناصِرُ الدين الشَّيْخي الوَزارَة قَرَّر على كلِّ دَلّال من دَلالته دِرْهمًا من كلِّ دِرْهمين، فصارَ الدَّلّالُ يعمل مُعَدّله ويجتهد حتى ينال عادَته وتصير الغَرامَة على البائِع، فتَضَرَّر الناسُ من ذلك وأُوذُوا فلم يُغاثُوا حتى أَبْطَلَ ذلك السُّلْطانُ.

ومِمَّا أَبْطَلَ «رُسُوم الوِلاية» وكانت جِهَةً تتعلَّق بالوُلاة والمقدَّمين فيَجْبيها المذكورون من عُرَفاء الأسْواق وبُيوت الفَواحِش، ولهذه الجِهَة ضامِنٌ وتحت يده عِدَّة صِبْيان وعليها جُنْدٌ مُسْتَقْطَعون وأُمَراء وغيرهم، وكانت تشتمل على ظُلْمٍ شَنيع وفَسادٍ قَبيح وهَتْكِ قَوْمٍ مستورين وهَجْم بُيوت أكثر الناس.

ومِمَّا أَبْطَلَ «مُقَرَّر الحَوائِص والنِّعال[a]» من المَدينة وسائِر أعْمال مصر كلِّها من الوَجْه القِبْلي

---

a) ساقط من بولاق.

---

[١] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٩:٤٣-٤٤.

[٢] عن المكوس التي أبطلها الملك الناصر محمد بن قلاوون انظر كذلك النويري: نهاية الأرب ٣٢:٢٢٧-٢٢٩؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه ٢: ٦٩؛ المقريزي: السلوك ٢:١٥٠-١٥٤؛ أبا المحاسن، النجوم الزاهرة ٩:٤٥-٤٨.

والبَحْري ، فكان على كلِّ من الوُلاة والمُقَدَّمين مُقَرَّر يُحْمَل في كلِّ قِسْطٍ من أقْساط السَّنَة إلى بَيْت المال ، عن ثمن حِياصَة ثلاث مائة دِرْهَم ، وعن ثمن نَعْل[b] خمس مائة دِرْهَم ، وعلى هذه الجِهَة عِدَّة مُقْطَعين ويَفْضُل منها ما يُحْمَل . وكان يُصيب الناسُ من هذه الجِهَة ما لا يُوصَف ، ويحلّ بهم من عَسْف الرَّقاصين ما يَهُونُ معه الموتُ .

ومن ذلك «مُقَرَّر السُّجون»[c] وهو عبارة عمَّا يُؤْخَذ من كلِّ مَنْ يُسْجَن ، فللسَّجَّان على حُكْم المُقَرَّر ستة دَراهِم سوى كُلَفٍ أخرى ، وعلى هذه الجِهَة عِدَّةُ مُقْطَعين ، ويرغب فيها الضُّمَّان ويتزايدون في مَبْلغ ضَمانِها لكَثْرَة ما يَتَحَصَّل منها ، فإنَّه لو كان تخاصَم رجلٌ مع امْرأته أو ابنه رَفَعَه الوالي إلى السِّجْن ، فبمجرَّد ما يَدْخُل السِّجْن ـ ولو لم يُقِم به إلَّا لحظةً واحِدةً ـ أُخِذَ منه المُقَرَّر ، وكذلك كان على سِجْن القُضَاة أيضًا .

ومن ذلك «مُقَرَّر طَرْح الفَراريج» ولها ضُمَّانٌ عدَّة ، في سائر نواحي أرض مصر ، يَطْرَحون على الناس الفَراريج ، فيمرّ بضُعَفاء الناس من ذلك بلاءٌ عظيم ، وتُقاسي الأرامِلُ من العَسْف والظُّلْم شيئًا نُكْرًا[d] . وكان على هذه الجهة عِدَّةُ مُقْطَعين ، ولا يُمَكَّن أحدٌ من الناس في جميع الأقاليم أن يشتري فَرُّوجًا فما فَوْقَه إلَّا من الضَّامِن ، ومن عُثِرَ عليه أنَّه اشْتَرَى أو باع فَرُّوجًا من سوى الضَّامِن جاءَه الموتُ من كلِّ مكان وما هو بمَيِّت .

ومن ذلك «مُقَرَّر الفُرْسان» وهو عبارة عَمَّا يَجْبيه وُلاةُ النَّواحي من سائرِ البلاد ، فلا يُؤْخَذ دِرْهَم مُقَرَّر حتى يَغْرَم عليه صاحِبُه درهمين ، ويُقاسي الناسُ فيه أهْوالًا صَعْبَة .

ومن ذلك «مُقَرَّر الأَقْصاب والمَعاصِر» وهو ما يُجْبَى من مُزارعي قَصَب السُّكَّر ومن المَعاصِر ورِجال المَعاصِر .

ومن ذلك «مُقَرَّر رُسُوم الأفْراح» ويُجْبَى من سائِر النَّواحي ، ولهذه الجِهَة عِدَّةُ ضُمَّان ، ولا يُعْرَف لهذه الجِهَة أصلٌ ألبتَّة ، وإنَّما يُجْبَى بضَرائِبِ ينالُ الناسَ فيها مع المُقَرَّر غَراماتٌ ورَوْعاتٌ .

ومن ذلك «حِمايَةُ المَراكِب» ، وهي عبارة عمَّا يُؤْخَذ من كلِّ مركب بتقرير مُعَيَّنٍ يُعْرَف بـ «مُقَرَّر الحِمايَة» ، وكانت هذه الجِهَة أَشَدّ ما ظُلِمَ به الناسُ ، فيُؤْخَذ من كلِّ من رَكِبَ البحر للسَّفَر ، حتى من السُّؤَّال والمُكَدِّين .

ومن ذلك «حُقُوق القَيْنات» ، وهو عبارة عمَّا يُجْمَع من الفَواحِش والمُنْكَرات ، فيَجْبيه مِهْتار

---

a) بولاق : البغال . b) بولاق : بغل . c) الأصل : مقرر الموت ! d) بولاق : كثيرا .

الطُّشْتخاناه السُّلْطانية من أوْباش الناس .

ومن ذلك «شَدُّ الزُّعَماء» وهي جِهَة مُفْرَدَة ، وحُقُوق السُّودان وكَشْف المراكِب ، ومُقَرَّر ما على كلِّ جارِيَةٍ أو عبْدٍ حين نُزولهم بالخانات لعَمَل الفاحِشَة ، فيُؤْخَذ من كلِّ ذَكَرٍ وأُنْثَى مُقَرَّرٌ مُعَيَّن .

و«مُتَوفَّر الجَراريف» ، وهو ما يُجْبَى من سائِر النَّواحي ، فيَحْمِل ذلك مُهَنْدِسو البلاد إلى بيت المال بإعانَة الوُلاة لهم في تحصيل ذلك . وعلى هذه الجِهَة عِدَّة مُقْطَعين من الجُنْد .

و«مُقَرَّر المَشَاعِلِيَّة» وهو عبارة عمَّا يُؤْخَذ عن كَشح الأَقْنية وحَمْل ما يَخْرُج منها من الوَسَخ إلى الكيمان ، فكان إذا امتلأ سَرَبُ [a]حَمَّام أو مَسْمَط أو[a] جامِع أو مَدْرَسَة أو تُرْبَة أو مَنْزل من مَنازِل سائِر النَّاس ، لا يُمْكِنُه ـ ولو بَلَغَ من العَظَمَة ما عَسَى أن يَبْلُغ ـ التعرُّض لذلك حتى يأْتيه ضامِنُ الجِهَة ويُقاوِلُه على كَسْح ذلك بما يُريد . وكان من عادَة الضَّامِن الإشْطاط في السَّوْم ، وطَلَب أَضْعاف القيمة ، فإن لم يَرْضَ رَبُّ المنزل بما طلَب الضَّامِنُ وإلَّا تَرَكَه وانْصَرَف ، فلا يَقْدر على مُقاساة تَرْك الوَسَخ ويُضْطَرّ إلى سؤاله ثانيًا ، فيَعْظُم تحكُّمه ويشتدُّ بأسُه إلى أن يُرْضيه بما يختار حتى يتمكَّن من كَشح قناته[b] ورَفْع ما هنالِك من الأَقْذار[1] .

ومن ذلك «إبْطال المُباشرين من النَّواحِي» وكانت بلادُ مصر كلّها ، من الوَجْهَيْن القِبْلي/ والبَحْري ، ما من بَلَدٍ صَغير وكَبير إلَّا وفيه عِدَّةٌ من كُتَّاب وشادٌّ ونَحْو ذلك ، فأَبْطَلَ السُّلْطانُ المُباشرين ، وتقدَّم بمنعهم من مُباشَرَة النَّواحي إلَّا من بَلَد فيها مالٌ للسُّلْطان فقط ، فأراحَ الله سبحانه الخَلْقَ بإبْطال هذه الجِهَات من بَلاءٍ لا يُقَدَّر قَدْرُه ولا يُمْكن وَصْفُه[2] . ٩٠

ولمَّا أَبْطَلَ السُّلْطانُ هذه الجِهات ، وفَرَغَ من تَعْيين إقْطاعات الأُمَراء وأخباز الأَجْناد[c]، أَفْرَزَ لخاصّ السُّلْطان من بلاد أَرْض مصر عِدَّة نواحٍ ممَّا كان في إقْطاعات البُرْجِيَّة ، وهي الجيزَة وأعْمالِها وهُو والكُوم الأحمر ومَنْفَلوط والمَرْج والخُصوص ، وغير ذلك ممَّا بَلَغَ عشرة قَراريط من الإقليم ، وصارَ لإقْطاعات الأُمَرَاء والأَجْناد وغيرهم أربعة عشر قيراطًا .

ومَكَرَ الأَقْباطُ فيما أمكنهم المكْر فيه ، فبدأوا بأن أَضْعَفُوا عَسْكَر مصر ، ففَرَّقُوا الإقْطاع الواحِد

(a-a) ساقط من بولاق . b) بولاق : فنائه . c) بولاق : الإقطاعات للأمراء والأجناد .

[1] المقريزي : مسودة المواعظ ٣٢٩- ٣٣٠ .

[2] النويري : نهاية الأرب ٣٢: ٢٢٧- ٢٢٩؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢: ١٦٩؛ المقريزي : السلوك ٢: ١٥٠- ١٥٤؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩: ٤٥- ٤٨.

في عِدَّة جهات، فصارَ بعضُ الجَبْي في الصَّعيد، وبعضه في الشَّرْقِيَّة، وبعضه في الغَرْبِيَّة، إتْعابًا للجُنْدِي وتكثيرًا للكُلْفَة. وأفْرَدوا جَوالي الذِّمَّة من الخاصّ، وفَرَّقوها في البلاد التي أُقْطِعَت للأُمَرَاء والأجْناد، فإنَّ النَّصارَى كانوا مجتمعين في ديوانٍ واحِد ـ كما ستقف عليه إن شاءَ الله تعالى ـ فصارَ نَصارَىٰ كلّ بَلَدٍ يدفعون جَاليتهم إلى مُقْطَع تلك الضَّيْعَة. فاتَّسَعَ مَجالُ النَّصارَى، وصاروا يَتَنَقَّلون في القُرَى ولا يدفعون من جِزْيَتهم إلَّا ما يُريدون، فَقَلَّ مُتَحَصَّل هذه بعد كثرته، وأفْرَدوا ما بَقِيَ من جهات المُكُوس برَسْم الحَوائِجخاناه التي تُصْرَف للسِّماط، ليتناولوا ذلك ويُوردوا منه ما شاءوا، ثم يتولَّوا صَرْف ما يُحَصَّل منه في جِهات تُستَهْلَك بالأكل. وصارَت جِهاتُ المُكُوس ممَّا يَتَحَدَّث فيه الوَزيرُ وشادُّ الدَّواوين.

ثم نَظَرَ السُّلْطانُ فيما كان بيد الأميرين بَيْبَرس الجاشَنْكيز وسَلار نائِب السَّلْطَنَة من البِلاد، فأَخَذَ ما كان باسم كلٍّ منهما وباسْم حَواشيه، ولم يَدَع من ذلك شيئًا ممَّا كانوا قد وَقَفُوه حتى حَلَّه، وجَعَل الجميع إقْطاعات، واعتدَّ في سائِرِ الإقْطاعات بما كان يَسْتَهْديه المُقْطَع من فَلَّاحِه، فحَسَبَ ذلك وأقامَه من جملة عِبَرِ الإقْطاع، وأَبْطَل الهَدِيَّة، فلم يتهيَّأ له الفَراغُ من ذلك إلى آخر السَّنَة.

فلمَّا أَهَلَّ المحرَّم من سنة ستّ عشرة وسبع مائة، وقد نُظِمَت الحُسْبانات على ثُلُث مُغِلّ سنة خمس عشرة، جَلَسَ السُّلْطانُ في الإيوان الذي استجدَّه بقَلْعَة الجَبَل[1]، وقد تقدَّم لسائِرِ نُقَباء الأَجْناد على لِسان نَقيب الجَيْش بالحُضور بأَجْنادهم، وجَعَلَ للعرض في كلِّ يوم أميرين من الأُمَرَاء المقدَّمين بمُضافَيْهِما. فكان الأميرُ مُقَدَّم الأَلْف يقف ومعه مُضافوه، وناظِرُ الجَيْش يستدعيهم من تَقْدِمَة ذلك الأَمير بأسْمائِهم على قَدْر مَنازِلهم، فيُقَدِّم نقيبُ الجَيْش الواحِد من يد نَقيبه إلى ما بين يديّ السُّلْطان، فإذا مَثُل بحضرته سأله السُّلْطانُ بنفسه من غير واسِطَة عن اسمه وأَصْله وجِنْسه ووَقْت حُضوره إلى ديار مصر، ومع مَنْ قَدِمَ، وإلى مَنْ صارَ من الأُمَرَاء وغيرهم، وعن مَشاهِده التي حَضَرَها في الغَزْو، وعمَّا يعرفه من صِناعَة الحرب وغير ذلك من الاسْتِقْصاء. فإذا انتهى اسْتِفهامه إيَّاه ناوَلَه بيده مِثالًا من غير تأمُّل بحَسَب ما قَسَمَ الله له، فلم يمرّ به في مُدَّة العَرْض أَحَدٌ إلَّا وقد عَرَفَه، وأشارَ إلى الأُمَرَاء بذكر شيءٍ من خبره.

هذا، وقد تَقَدَّم إلى سائِر الأُمَرَاء بأَسْرهم بأن يحضروا إلى الإيوان عند العَرْض، ولا يُعارِض أَحَدٌ منهم السُّلْطان في شيءٍ يفعله، فكانوا يحضرون وهم سُكُوت لا يتكلَّم أَحَدٌ منهم خوفًا من مُخالَفَة السُّلْطان لما يقوله. وأَخَذَ السُّلْطانُ في مَوارَبَة الأُمَرَاء، فما أَثْنوا على أَحَد في مَجْلس

[1] فيما يلي: ٢: ٢٠٦ – ٢٠٧.

العَرْض إلّا وأَعْطاه السُّلْطان مِثالًا بإقطاع رديء. فلمّا علموا ذلك أمْسَكوا عن الكلام معه جملةً. وانْفَرَدَ بالاستبداد بأُموره دُونهم، فما عُرِفَ منه أنّه قَدِمَ إليه أحَدٌ إلّا وسأله: إن كان مَمْلوكًا عمَّن أقْدَمَه من التُّجّار وسائِر ما تَقَدَّم، وإن كان شَيْخًا فعن أصْلِه وسِنِّه وكم مَصافٍّ حَضَرَها، حتى أتَى على الجميع. وأفرد المَشايخَ العاجِزين فلم يُعْطهم إقْطاعات، وجَعَلَ لكلٍّ منهم مُرَتَّبًا يقوم به، فانتهى العَرْضُ في طُول المحرَّم، وتوفَّر كثيرٌ من مِثالات الأجْناد فَبَلَغَ عِدَّة مائتي مِثال.

ثم أخَذ في عَرْض أطْباق المماليك السُّلْطانية، ووَفَّرَ من جَوامِكهم كثيرًا، وقَطَع عِدَّة رَواتِب من رَواتِبِهم، وعَوَّضَهم عن ذلك إقْطاعات، وجَعَلَ جِهَة مَكْس قَطْيا[1] لضُعَفاء الأجْناد ممَّن قِطعَ خُبْزُه، فجَعَلَ لكلٍّ منهم في السَّنَة ثلاث آلاف درهم. وكان لبَيْبَرس وسَلار الجوكَنْدار تَعَلُّقات كثيرة في بَيْت المال، وفي الأعمال كالجيزَة والإسْكَنْدَرية، من مَتْجَر وحِمايات، فارْتَجَعَ ذلك وأبْطَلَه وما شابَهَه، وأضافَ ما لم يُقْطِعه إلى ديوان الخاصّ.

وممّا أَمَر به في مُدَّة العَرْض ألّا يَرُدّ أحَدٌ مِثالًا أخَذَه من السُّلْطان ولو استقلّه، ولا يُشَفِّع أميرٌ في جُنْدي، وأن مَنْ خالَف ذلك ضُرِبَ وحُبِسَ ونُفِيَ وقُطِعَ خُبْزُه، فَعَظُمَت مَهابَةُ السُّلْطان وقَوِيَت حُرْمَتُه، ولم يَجْسُر أحَدٌ أن يرد عليه مِثالًا أُخِذَ من السُّلْطان، ولا استطاعَ أميرٌ أن يتكلَّم لأحَدٍ. وصارَ كثيرٌ ممَّن كان إقطاعُه مثلًا ألف دينار إلى إقْطاع مائتي دينار ونَحْوها، وكثيرٌ ممَّن كان إقطاعُه قليلًا إلى إقْطاع مُعْتَبَر، فإنَّه كان يُعْطي المِثالَ/ من غير تأمُّل كيفما وَقَعت يدُه عليه.

٩١ وقَدَّرَ الله سبحانه وتعالى أنَّ السُّلْطانَ كان من جملة صِبيان مَطْبَخه رجلٌ مُضْحِك يَهْزَل بحَضْرَته، فيَضْحَك منه ويُعْجَب به ولا يعترض فيما يقول من السُّخْف. فجَلَسَ السُّلْطانُ في بعض أيّام العَرْض في البُسْتان بقَلْعَة الجبَل وعنده الخاصَّة من الأُمَراء، فدَخَلَ هذا المُضْحِك وأَخَذَ في السُّخْرِيَّة على عادَته ليُضْحِك السُّلْطان، إلى أن قال: وَجَدْت بعضَ أجْناد الرَّوْك النّاصِري وهو راكِب الإكْديش وخُرْجُه خلفه ورُمْحُه فوْق كتفه، يقصد بهذا السُّخْرية والطَّنْز[a]؛ فغَضِبَ السُّلْطانُ غَضَبًا شَديدًا، وصاحَ: خُذوه وعَرُّوه ثيابَه؛ فتبادَرَه الأعوانُ، وجَرُّوه برجله ونَزَعُوا

---

a) بولاق: الطعن.

---

[1] انظر حول مدينة قَطْيا والمكس المحصل بها مقال عادل عبد الحافظ حمزة: «قطية جمرك مصر الشرقي في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ٣٧ (١٩٩٠)، ٤٥-٧٠.

ثِيابَه، ورَبَطوه في السَّاقِيَة مع القَواديس، وأكثروا من ضَرْب الأَبْقار حتى أَسْرَعَت بدَوَران السَّاقِيَة؛ فصارَ المسكينُ يَنْقَلب مع القَواديس، ويَغْطُس في الماء تارةً ويَرْقَى أخرى، ثم يَنْتَكِس والماء يمرُّ عليه مِقْدار ساعَة، إلى أن انْقَطَع حِسُّه وأَشْرَف على الهَلاك؛ واشتدَّ رُعْبُ الأُمَرَاء لما رأوه من قُوَّة غَضَب السُّلْطان.

ثم تقدَّم الأَمير طُغَاي الدَّوادار في طائِفَة من الأُمَرَاء الخاصَّكية، واعْتَذَروا عن هذا المِسْكين بأنَّه لم يُرِد إلَّا يُضْحِك السُّلْطان من كلامِه، ولم يَقْصد عَيْب الأَجْناد ولا انتقاصِهم، ونحو هذا من القَوْل إلى أن أَمَر بحَلِّه، فإذا ليس فيه حَرَكة فسُحِب، ورَسَمَ السُّلْطانُ بأنَّه إن كان حَيًّا لا يَبِيتُ بدِيار مصر؛ فأُخْرِج من وَقْته مَنْفِيًّا. وحَمَدَ الله كلٌّ من الأُمَرَاء على ما وَفَّقَه من السُّكوت عن الكَلام في حال العَرْض.

وما زالَ الأَمْرُ بمصر على ما رَسَمَه الملكُ النَّاصِر في هذا الرَّوْك، إلى أن زالَت دَوْلَةُ بني قَلاوون بالملك الظَّاهِر بَرْقوق في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبع مائة، فأبقى الأَمْرَ على ذلك إلَّا أنَّ أشياءَ منه أَخَذَت تتلاشَى قليلًا قليلًا إلى أن كانت الحَوادِثُ والمِحَنُ في سنة ستّ وثمان مائة حيث حَدَثَ من أَنْواع التَّغْييرات وتَنَوُّع الظُّلْم ما لم يَخْطُر ببالِ أَحَدٍ. وسَيَمُرُّ بك جُمَلٌ من ذلك عند ذِكْر أَسْباب خَراب إقْليم مصر إن شاءَ اللّٰه تعالى.

وكانت لأراضي مِصر تَقَاوي مُخَلَّدَة في نَواحِيها وهي على قسمين: تَقاوي سُلْطانيَّة، وتقاوي بَلَدِيَّة، فالتَّقاوي السُّلْطانيَّة وَضَعَها المُلوكُ في النَّواحي؛ وكان الأَميرُ أو الجُنْديُّ عندما يستقرّ على الإقْطاع يَقْبض ما لَه من التَّقاوي السُّلْطانية، فإذا خَرَج عنه طُولِب بها. فلمَّا كان الرَّوْكُ النَّاصِري خُلِّدَت تَقاوي كلّ ناحية بها، وضُبِطَت في الدِّيوان السُّلْطاني، فبَلَغَت جملتها مائة ألف وستين ألف أرْدب سوى التَّقاوي البَلَدِيَّة.

ذِكْرُ الدِّيوان[1]

قال أَقْضَى القُضَاة أبو الحَسَن المَاوَرْدي: الدِّيوانُ مَحْفُوظٌ بحِفْظ ما تَعَلَّق بحُقوق السُّلْطَنَة من الأَعْمال والأَمْوال، ومَن يقوم بها من الجُيوش والعُمَّال.

وفي تَسْمِيته دِيوانًا وَجْهان: أَحَدُهُما أنَّ كِسْرَى اطَّلَع ذات يوم على كُتَّاب ديوانه فرآهُم

[1] عن الدواوين في مصر الإسلامية انظر كذلك فيما يلي ١: ٣٩٧؛ ٢: ٢١٥؛ Gottschalk, H.L., *EI²* art. *Dîwân* II, pp. 336-41؛ واعتمد المقريزي في هذا الفصل بالإضافة إلى الماوردي على الجزء الثامن من «نهاية الأرب» للنويري.

يَحْسبون مع أنفسهم، فقال: «دِيْوانَه»، أي مَجانِين[١]، فسُمِّيَ مَوْضعُهم بهذا الاسم، ثم حُذِفَت الهاء عند كَثْرَة الاستعمال تخفيفًا للاسْم فقيل ديوان. والثَّاني: أنَّ الدِّيوانَ اسم بالفارسية للشَّياطِين، فسُمِّي الكُتَّاب باسْمِهم لحِذْقهم بالأُمور، ووقُوفِهم على الجَلِيِّ والخَفِيِّ، وجمعهم لِما شَذّ وتَفَرَّق، واطِّلاعهم على ما قَرُبَ وبَعُدَ. ثم سُمِّيَ مكانُ جُلوسِهم باسْمِهم فقيل ديوان[٢]. انتهى.

واعْلَم أنَّ كِتابَة الدِّيوان على ثلاثة أقْسام: كِتابَة الجيُوش، وكِتابَة الخَرَاج، وكِتابَة الإنْشاء والمُكاتَبات. ولا بُدّ لكلِّ دولة من استِعمال هذه الأقسام الثَّلاثَة. وقد أَفْرَد العُلماءُ في كِتابَة الخَراج وفي كتابة الإنْشاءات عِدَّة مُصَنَّفات[٣]، ولم أَرَ أَحَدًا جَمَعَ شَيْئًا في كِتابَة الجيُوش والعَساكِر.

وكانت كِتابَةُ الدَّواوين في صَدْر الإسلام أن يُجْعَل ما يُكْتَب فيه صُحُفًا مُدْرَجَة؛ فلمَّا انْقَضَت أيَّام بني أُمَيَّة، وقامَ عبدُ الله بن محمد أبو العَبَّاس السَّفَّاح، اسْتَوْزَرَ خالِدَ بن بَرْمَك بعد أبي سَلَمَة حَفْص بن سُلَيْمان الخَلَّال، فجَعَل الدَّفاتِرَ في الدَّواوين من الجُلود، وكَتَبَ فيها وتَرَك الدُّرُوج إلى أن تَصَرَّفَ جَعْفَرُ بن يحيى بن خالِد بن بَرْمَك في الأُمور أيَّام الرَّشيد، فاتَّخَذَ الكاغَد، وتَداولَه الناسُ من بعده إلى اليوم[٤].

وذَكَرَ أبو النَّمْر الوَرَّاق قال: حَدَّثني أبو حازِم القاضي قال: قال لي أبو الحَسَن بن المُدَبِّر: لو عَمُرَت مصر كلّها لوَفَّت بأعْمال الدُّنْيا. وقال: إنَّ أَرْضَ مصر مساحتها للزِّراعة ثمانية وعشرون ألفَ ألف فَدَّان، وإنَّما يُعَمَّر[a] منها ألف ألف فَدَّان. قال: وقال لي ابن المُدَبِّر: إنَّه كان متعمِّلًا بالعراق[b] ديوانَ المَشْرِق وديوان المَغْرب، قال: ولم أَبِت قَطّ ليلة من اللَّيالي وعليَّ عملٌ أو بقيّة منه[c]، وتَقَلَّدتُ مصر فكُنْت رُبَّما نِمْت وقد بَقِي عليَّ شيءٌ من العَمَل فأَسْتَتِمّه إذا أَصْبَحت.

---

a) بولاق: المعمر. b) بولاق: يتقلد. c) موضع ذلك في بولاق: حتى أنهيه ولا بقية.

---

[١] في «المُعَرَّب» للجواليقي: «ديبان» و«ديوان» أي الشياطين، و«الدِّيو» هو الشيطان (المعرب ١٥٤).

[٢] الماوردي: الأحكام السلطانية ١٧٥؛ النويري: نهاية الأرب ٨: ١٩٥.

[٣] أهمها مؤلّفات ابن الفقيه وقُدامَة بن جعفر وعليّ بن خَلَف وتاج الرئاسة ابن الصَّيْرَفي وابن شيث القرشي وابن فَضْل الله العمري والقلقشندي.

[٤] حول استخدام حوامل الكتابة المختلفة حتى ظهور الكاغَد الذي دخل إلى سمرقند عن طريق بعض الأسرى الصينيين سباهم زياد بن صالح، ثم نشؤ أوّل معمل=

ذِكْرُ دِيوان العساكر والجُيُوش

يُقالُ : إنَّ أوَّلَ من وَضَعَ ديوانَ الجُنْد بخَيْلِهِم كَيْلُهْراسْف أحَدُ ملوك الطبقة الثانية من الفُرْس، وإنَّ كَيْقَباذ قبله/ كان قد أخَذَ العُشْر من الغَلَّات وصَرَفَه في أرْزاق جُنْده . وأمَّا في الإسْلام فما خَرَّجَه البُخارِيُّ ومُسْلِم، من حَديث حُذَيْفَة - رضي الله عنه - قال : قال النَّبِيُّ ﷺ : «اكْتُبُوا إليَّ مَنْ تَلَفَّظ بالإسلام من الناس»، فكَتَبْنا له ألف وخمس مائة رجل ... الحَديث، ذَكَرَه البُخارِيُّ في باب كِتابَة الإمام الناس .

وللبُخارِيّ من حَديث عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال : جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيّ ﷺ فقال : يا رَسول الله، إنِّي اكْتُتِبْت في غَزْوَة كذا وكذا وامْرَأتي حاجَّة، قال : «ارْجَع فاحْجُج مع امْرَأتك»[1].

وقال عمر بن شَبَّة[a] عن مَعْمَر عن قَتادَة قال : آخِر مال أُتِيَ به النَّبيُّ ﷺ ثمان مائة ألف دِرْهَم من البَحْرَيْن، فما قامَ من مَجْلِسِه حتى أمْضاه . ولم يكن للنَّبيّ ﷺ بَيْتُ مالٍ ولا لأبي بكر، وأوَّلُ من اتَّخَذَ بيتَ مالٍ عُمَرُ بن الخَطَّاب رضي الله عنه . فقال ابنُ شِهاب : عُمَر أوَّلُ من دَوَّنَ الدَّواوين[2].

ورَوَى ابنُ سَعْد، عن عائِشَة - رضي الله عنها - قالت : قَسَمَ أبي الفَيْءَ عام أوَّل، فأعْطَى الحُرَّ عَشَرَة، والمَمْلوك عَشَرَة، والمَرْأة عشرة، وأمَتَها عشرة؛ ثم قَسَم العام الثاني، فأعْطاهم عشرين عشرين .

فقيل : إنَّ سَبَبَه أنَّ أبا هُرَيْرَة - رضي الله عنه - قَدِمَ على عُمَر - رضي الله عنه - بمالٍ من البَحْرَيْن، فقال له عمر : ماذا جِئْت به؟ فقال : خمس مائة ألف درهم؛ فاسْتَكْثَرَه عمر وقال : أتَدْري ما تَقُول؟ قال : نعم! مائةُ ألفٍ خَمْسَ مَرَّات؛ فقال عمر : أطَيِّبٌ هو؟ قال : لا أدْري .

---

a) بولاق : عمرو بن منبه .

= لصنع الورق في بغداد بفضل الفضل بن يحيى البرمكي ثم إخلال أخيه جعفر بن يحيى - الذي أعقبه في دست الوزارة - الورق محل الرق في دواوين الدولة (راجع، أيمن فؤاد : الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ٢٣-٣١) .

[1] النويري : نهاية الأرب ٨: ١٩٦.

[2] انظر عن ديوان عمر بن الخطاب Moosa, M.I., «The Dîwân of ʿUmar Ibn al-Khattab», *Studies in Islam* II (1965), pp. 67-71.

فصَعِد عمرُ المِنْبَرَ فحَمَدَ الله وأَثْنى عليه ، ثم قال : أيُّها الناسُ قد جاءَنا مالٌ كثيرٌ ، فإن شِئْتُم كِلْنا لكم كَيْلًا ، وإن شِئْتُم عَدَدْنا لكم عَدًّا . فقامَ إليه رجلٌ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد رأيت الأعاجِمَ يُدَوِّنون دِيوانًا لهم ، فدَوِّن أنت دِيوانًا ، فدَوَّن عمر [١].

وقيل : بل سَبَبُه أنَّ عمر بَعَثَ بَعْثًا وعنده الهُرْمُزَان ، فقال لعمر : هذا بَعْثٌ قد أَعْطَيْتَ أَهْلَه الأموال ، فإن تَخلَّفَ منهم رجلٌ من أين يَعْلَم صاحِبُك به ؟ فأَثْبِتْ لهم دِيوانًا ؛ فسأله عن الدِّيوان حتى فَسَّرَه له . فاسْتَشار المُسْلمين في تَدْوين الدَّواوين ، فقال له عليُّ بن أبي طالِب : تَقْسم كلَّ سنة ما اجْتَمَعَ عندك من المال ، ولا تُمْسِك منه شيئًا . وقال عُثْمان ، رضي الله عنه : أرَى مالًا كثيرًا يَسَع الناس ، فإن لم يُحْصَوا حتى يُعْرَف من أَخَذَ مِمَّن لم يأْخُذ خَشِيت أن يَنْتَشِر الأَمْرُ . وقال خالِدُ بن الوَليد ، رضي الله عنه : قد كُنْتُ بالشَّام فرأيتُ مُلوكَها دَوَّنُوا دِيوانًا وجَنَّدوا جُنودًا ، فدَوِّن دِيوانًا وجَنِّد جُنودًا ؛ فأَخَذَ بقَوْله ودَعا عَقيل بن أبي طالِب ومَخْرَمَة بن نَوْفَل وجُبَيْر ابن مُطْعِم - وكانوا كُتَّابَ قُرَيْش - فقال : اكْتُبوا الناسَ على منازِلِهم ، فبدءوا ببني هاشِم وكَتَبُوهم ، ثم أَتْبَعُوهم أَوْلاد أبي بَكْر وقَوْمَه ، ثم عَمَر وقَوْمَه ، وكَتَبُوا القَبائِل ووَضَعُوها على الخِلافَة ، ثم رَفَعُوا ذلك إلى عُمَر - رضي الله عنه - فلمَّا نَظَرَ فيه قال : لا ! ولكن ابْدَأوا بقَرابَة رَسُولِ الله ﷺ ، الأَقْرَبَ فالأَقْرَب ، حتى تَضَعُوا عُمَر حيثُ وَضَعَه الله . فشَكَرَه العَبَّاسُ - رضي الله عنه - على ذلك ، وقال : وَصِلَتْك رَحِمٌ [a] [٢].

وقد اخْتُلِفَ في السَّنَة التي فَرَضَ فيها عمر - رضي الله عنه - الأُعْطِيَة ودَوَّنَ الدَّواوين ، فقال الكَلْبي : في سنة خمس عشرة . وحَكَى ابنُ سَعْد عن عمر الواقِدي أنَّه جَعَلَ ذلك في سنة عشرين . قال الزُّهْريُّ : وكان ذلك في المحرَّم سنة عشرين من الهجرة .

وقيل : لمَّا فَتَح الله على المُسْلمين القادِسِيَّة ، وقَدِمَت على عُمَر - رضي الله عنه - الفُتُوح من الشَّام ، جَمَعَ المسلمين وقال : ما يَحِلُّ للوالي من هذا المال ؟ فقالوا جَميعًا : أمَّا لخاصَّته [b] فقُوتُه وقُوت عِياله لا وَكْسَ ولا شَطَط ، وكُسْوَتُه وكُسْوَتُهم للشِّتاء والصَّيْف ، ودابَّتان إلى جهادِه وحَوائِجِه وحُمْلانه إلى حَجِّه [c] وعُمْرَته ، والقَسْم بالسَّوِيَّة ، وأن يُعْطَى أهل البَلاء على قَدْر

---

a) بولاق : وصلت رحمك . b) بولاق : الخاصة . c) بولاق : حجته .

---

[١] ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ : ٣٠٠؛ النويري : نهاية ٨ : ١٩٧؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ١٠٦.

[٢] النويري : نهاية ٨ : ١٩٧ - ١٩٨؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ١٠٦ - ١٠٧.

بلائِهم ، ويَرُمُّ أمور الناس بعد ، ويتعاهَدَهم في الشَّدائد والنَّوازل حتى تَنْكَشِف ، ويبدأ بأهْل الفَيْءِ ثم يجوزهم إلى كلّ مَغْلوب ما بَلَغَ الفَيْء [1].

وقال الضَّحَّاكُ عن ابن عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ : لمَّا افْتُتِحَت القادِسِيَّة وصالَح مَنْ صالَح من أهل السَّواد ، وافْتُتِحَت دِمَشْق وصالَح أهل الشَّام ، قال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ للناس : اجْتمِعوا فأَحْضَروني علمكم فيما أفاءَ الله على أهْل القادِسِيَّة وأهْل الشَّام . فاجْتَمَع رَأْيُ عليّ وعُمَر ـ رضي الله عنهما أن يأْخُذوه من قِبَل القرآن ، فقالوا : ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ ـ يعني من الخُمْس ـ ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يعني من الله الأَمْر وعلى الرّسول القَسْم ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ؛ ثم فَسَّروا ذلك بالآية الأُخْرَى التي تليها ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ . . . ﴾ الآية ، فأَخَذُوا الأربعة أخْماس على ما قُسِمَ عليه الخُمْس فيمن بُدِئَ به وثُنّي وثُلّث ، وأربعة أخْماس لمن أفاءَ الله عليه المَغْنَم . ثم اسْتَشْهَدوا على ذلك بقَوْله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الآية ٤١ سورة الأنفال] من تلك الطَّبَقات الثَّلاث ، وأَرْبَعَة أخْماس لمن أفاءَ الله عليه ، فقَسَمَ الأخْماسَ على ذلك . فاجْتَمَعَ على ذلك عُمَر وعليّ ، وعَمِلَ به المسلمون بعد ذلك ، فبَدَأ بالمهاجِرين ثم بالأَنْصار ثم التَّابِعين الذين شَهِدوا معهم وأعانُوهم ، ثم فَرَضَ الأَعْطية من الجَزاء على من صالَح أو دَعا إلى الصُّلْح من جَزائِه [a]، فرَدَّه عليهم بالمعروف . وليس في الجَزاء أخْماس ، والجَزاء لمن مَنَع الذِّمَّة . ووَفَّى لهم ممَّن وَلِيَ ذلك منهم ، ولمن لَحِقَ بهم/ فأعانَهم بأُسْوَة ، إلَّا أن يُؤاسُوا بفَضْله عن طِيب أَنْفُس منهم مَنْ لم يَنَل مثل الذي نالُوا [2].

وعن أبي سَلَمَة بن عبد الرَّحْمَن بن عَوْف ، قال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ : إنِّي مُجَنِّد المسلمين على الأُعْطية ، ومُدَوِّنهم ومُتَحَرِّي الحَقّ . فقال عبد الرَّحْمَن بن عَوْف وعُثْمان وعليٌّ رضي الله عنهم : ابْدَأ بنفسك . قال : لا أَبْدَأ إلَّا بِعَمِّ رَسُول الله ﷺ ، ثم الأَقْرَب فالأَقْرَب منهم من رَسُول الله ؛ فَفَرَضَ للعَبَّاس وبَدَأ به ، ثم فَرَضَ لأهل بَدْرٍ خمسة آلاف ، ثم فَرَضَ لمن بَعْد بَدْرٍ إلى الحُدَيْبِيَة أربعة آلاف ، ثم فَرَضَ لمن بعد الحُدَيْبِيَة إلى أن أَقْلَعَ أبو بكر ـ رضي

---

a) بولاق : حرابه .

---

[1] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣:٦١٦ وإسناده فيه : «كتب إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد ؛ قالوا» .

[2] نفسه ٣:٦١٧-٦١٨.

الله عنه ـ عن أهْل الرِّدَّة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ؛ ودَخَلَ في ذلك من شَهِدَ الفَتْح وقاتَلَ عن أبي بكر ومن وَلِيَ الأيَّام قبل القادِسِيَّة ، كلّ هؤلاء على ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف . ثمَّ فَرَضَ لأهْل القادِسِيَّة وأهْل الشَّام أصْحاب اليَرْمُوك ألفين ألفين ، وفَرَضَ لأهْل البَلاء البارِع[a] منهم ألفين وخمس مائة ألفين وخمس مائة ؛ فقيل له : لو ألْحَقْتَ أهْلَ القادِسِيَّة بأهْل الأيَّام! فقال : لم أكن لأُلْحِقَهم بدَرَجَةِ مَنْ لم يُدْرِكوا ، لاها الله إذًا . وقيل له : قد سَوَّيْتهم ـ على بُعْد دارهم ـ بمن قد قَرُبَت دارُه وقاتَلَهم[b] عن فنائه ؛ فقال : هم كانوا أحَقّ بالزيادة لأنَّهم كانوا ردءًا للُحوق وشَجًى للعدو ، وأَيْم الله ما سَوَّيْتهم حتى استَطْبتهم ، فهَلاَّ قال المهاجِرون مثل قَوْلهم حين سَوَّيْنا بين السَّابِقين من المُهاجِرين وبين الأنْصار ، وقد كانت نُصْرَةُ الأنصار بفنائهم ، وهاجَر إليهم المُهاجِرون من بَعْدُ .

وفَرَضَ للرَّوادِف ـ الذين رَدَفُوا بعد افْتتاح القادِسِيَّة واليَرْمُوك بعد الفَتْح ـ [المثنى خمس مائة خمس مائة ، ثم للرَّوادف الثَّليث بعدهم][c] ـ ثلاث مائة ثلاث مائة ، سَوَّى كلَّ طَبَقة في العَطاء ليس بينهم تَفاضُل ، قَوِيُّهم وضَعيفَهم ، عَرَبيهم وأعْجَميُّهم في طَبقاتِهم سَوَاء . حتى إذا حَوَى أهْل الأمْصار من حَووا من سَباياهم ، ورَدَفَت المرْبَع من الرَّوادِف ، فَرَضَ لهم على خمسين ومائتين ، وفَرَضَ لمن رَدَفَ من الرَّوادِف الخُمْس على مائتين . فكان آخر من فَرَضَ له عُمَر ـ رضي الله عنه ـ أهْل هَجَر على مائتين . وماتَ عُمَر على ذلك ، وأَدْخَلَ في أهْل بَدْر أربعة من غير أهل بَدْر ، الحَسَن والحُسَيْن وأبا ذَرّ وسَلْمان .

وقال أبو سَلَمَة : فَرَضَ عُمَر للعَبَّاس على خمس وعشرين ألفًا ، وقال الزُّهْرِيُّ : على اثنى عشر ألفًا[1] .

وجَعَلَ نِساءَ أهْلَ بَدْر [في خمس مائة خمس مائة ، ونساء مَنْ بعدهم] [c] إلى الحُدَيْبِيَة على أربع مائة أربع مائة ، ونِساء مَنْ بعد ذلك إلى الأيَّام قبل القادِسِيَّة على ثلاث مائة ثلاث مائة ، ثم نِساء أهل القادِسِيَّة على مائتين مائتين ، ثم سَوَّى بين النِّسَاء بعد ذلك . وجَعَلَ للصِّبْيان من أهل

a) بولاق : النازح . b) بولاق : وقاتل . c) زيادة من الطبري .

[1] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣ : ٦١٤-٦١٥ (وهو ساقط من مخطوطات تاريخ الطبري وتم استدراكه من ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ : ٥٠٢-٥٠٣) .

بَدْر وغيرهم مائة مائة، ثم دَعَا ستين مِسْكينًا فأَطْعَمَهُم خُبْزًا بِمِلْح، فأَحْصَوا ما أكلوه فوَجَدُوه يخرج من جريبَيْن [a]، فَفَرَضَ لكلّ إنْسان يقوم بالأَمْر له ولِعيالِه جريبَيْن جريبَيْن [a] في كلّ شهر، مُسْلِمهم وكافِرُهم [1].

وفَرَضَ لأَزْواج النَّبِيّ ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف، إلّا مَنْ جَرَى عليه البَيْع، فقالَت أُمَّهاتُ المؤمنين: ما كان رَسُولُ الله ﷺ يُفَضِّلنا عليهن في القِسْمَة ولكن كان يُسَوِّي بيننا فسَوِّ بيننا؛ فجَعَلَهُن على عشرة آلاف عشرة آلاف، وفَضَّلَ عائشة - رضي الله عنها - بألفين، فأَبَت، فقال: لفَضْلِ مَنْزِلَتِك عند رَسُول الله ﷺ، فإذا أَخَذْتِها فشَأْنُك [2].

وكان الناسُ أعْشارًا، فكانَت العُرَفاءُ ثلاثة آلاف عَرِيفٍ، كلّ عَرِيف على عشرة، ورِزْق الخَيْل على أعْرافِها [3]. فما زالوا كذلك حتى اخْتُطَّت الكُوفَة والبَصْرَة، فغُيِّرَت العُرَفاءُ والأَعْشار، وجُعِلَت أسْباعًا، وجُعِل مائة عَرِيف، على كلّ مائة ألف درهم عَرِيف. وكانت كلّ عَرافَة من القادِسيَّة خاصَّةً، ثلاثة وأربعين رَجُلًا وثلاثًا وأربعين امْرَأةً وخمسين من العِيال، لهم مائة ألف درهم. وكلّ عَرافَة من أهْل الأَيَّام عشرين رَجُلًا على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة، ولكل عَيِّل مائة على مائة ألف درهم. وكلّ عَرافَة من الرَّوادِفَة الأولى ستين رجلًا وستين امرأةً وأربعين من العِيال، ممَّن كان رِجالُهُم أُلْحِقُوا على ألف وخمس مائة، على مائة ألف درهم. وكان العَطَاء يُدْفَع إلى أُمَراء الأَسْباع وأَصْحاب الرَّايات - والرَّايات على أيادي العَرَبَ - فيدفعونه إلى العُرَفَاء والنُّقَبَاء والأُمَنَاء، فيَدْفَعونه إلى أَهْله في دُورهم [3]. فماتَ عُمَرَ - رضي الله عنه - والأَمْرُ على ذلك.

وقد عَزَمَ قَبْل مَوْته أن يجعل العَطَاء أربعة آلاف أربعة آلاف، وقال: لقد هَمَمْتُ أن أَجْعَل العَطَاء أربعة آلاف أربعة آلاف: ألف يُخَلِّفها الرجلُ في أهله، وألف يَتَزَوَّدها معه في سَفَرِه، وألف

---

a) بولاق: جزيتين.

---

[1] الطبري: تاريخ ٣: ٦١٥؛ ابن الأثير: الكامل ٢: ٥٠٤.

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢: ٥٠٣- ٥٠٤.

[3] الطبري: تاريخ ٤: ٤٩؛ وانظر عن تقسيم الأعشار والعرفاء بالبصرة والكوفة، صالح أحمد العلي: خطط البصرة ومنطقتها - دراسة في أحوالها العمرانية والمالية في العهود الإسلامية الأولى، بغداد ١٩٨٦، ٥١- ٥٢؛ هشام جعيط: الكوفة - نشأة المدينة العربية الإسلامية، الكويت ١٩٨٦، ١٧١- ١٨١؛ وكذلك مادة عريف في دائرة المعارف الإسلامية Salih A. el. Ali & Cl. Cahen, *EI*² art. ʿ*Arīf* I, pp. 649-51.

يَتَجَهَّز بها ، وألف يَتَرَفَّق بها ، فماتَ وهو في ارْتياد ذلك قبل أن يَفْعَلَ [١].

وكان يُقْري البُعُوثَ على قَدْر المسافَة : إن كان بعيدًا فسَنَة ، وإن كان دون ذلك فستة أَشْهُر ؛ فإذا أَخَلّ الرجلُ بثَغْره ، نُزِعَت عِمامَتُه وأُقِيمَ في مسْجِد حَيِّه ، فقيل : هذا فُلانٌ قد أَخَلّ .

وقال سَيْفُ بن عُمَر [٢]: أَوَّلُ عَطاءٍ أُخِذَ سنة خمس عشرة .

وكان عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ يَبْعَثُ من مصر إلى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ بالجِزْيَة بعد حَبْس ما كان يَحْتاجُ إليه .

فلمَّا اسْتُخْلف عُثْمان ـ رضي الله عنه ـ لثلاثٍ مضين من المحرَّم سنة أربع وعشرين ، زادَ النّاسَ مائة ؛ وكان أوَّلُ من زادَ ورَفَد أهل الأَمْصار ، وهو أوَّلُ من رَفَدَهم وصَنَعَ فيهم الصَّنائِع ، فاسْتَنّ به الخُلَفاءُ في الزِّيادَة .

٩٤ وكان عُمَرُ قد فَرَضَ لكلِّ نفسٍ منفوسة من أهل الفَيْءِ في رمضان/ دِرْهَمًا في كلِّ يوم ، وفَرَضَ لأُمَّهات المؤمنين دِرْهَمَين ، فقيل له : لو صَنَعْتَ لهم به طَعامًا فجمعتهم عليه ؟

فقال : أَشْبِعوا الناسَ في بُيوتِهم .

فأَقَرَّ عثمانُ ـ رضي الله عنه ـ ذلك ، وزادَ فوَضَعَ لهم طَعامَ رمضان ، وقال : هو للمُتَعَبِّد الذي يتخلَّف في المَسْجِد ، ولابن السَّبيل ، وللمُغْترين بالناس في رمضان ، فاقْتَدى به الخَلَفُ[a] من بعده .

---

a) بولاق : الخلفاء .

---

[١] الطبري : تاريخ ٣ : ٦١٥؛ ابن الأثير : الكامل ٢ : ٥٠٤؛ وانظر عن العطاء فيما يلي ١ : ٩٥.

[٢] سَيْف بن عمر الأسدي التميمي المتوفى في خلافة هارون الرشيد ، هكذا أورد اسمه ابن النديم في الترجمة القصيرة التي خصَّصها له ، وذكر له من الكتب : «كتاب الفتوح الكبير والرِّدَّة» و«كتاب الجمل ومسير عائشة وعلي» (الفهرست ١٠٦) . واعتمد على مؤلفات سيف كثير من المؤلفين ، سواء كانوا من المؤرخين أو أصحاب الرجال وحتى أصحاب الحديث . واعتمد الطبري اعتمادًا كبيرًا على مؤلفات سَيْف بن عمر ، فأورد رواياته في حديثه عن الرِّدَّة وفتوح الشَّام والعراق ومصر وفارس ووقعة الجمل وأخبار الخلفاء الراشدين ؛ وما جرى في أيامهم من الأحداث ، ولكن دون أن يذكر أي عنوان لكتب سَيْف ، فاعتمد من جاء بعده من المؤرخين على رواياته عن سَيْف بن عمر مثلما فعل المقريزي هنا (راجع ، الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ : ٢٥٥؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٦ : ٦٦؛ جواد علي : «موارد تاريخ الطبري» ، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢ (١٩٥١) ، ١٦٣ - ١٦٦؛ (Sezgin, F., *GAS* I, pp. 311-12). ونشر قاسم السامرائي قطعة من كتاب الرِّدَّة والفتوح وكتاب الجَمَل ومسير عائشة وعلي ، لايدن ١٩٩٥، وانظر مقدمته .

وكان ديوان[a] مصر، في خِلافَة مُعاوِيَة بن أبي سُفْيان، أربعون ألفًا؛ وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين. وكان إنَّما يُحْمَل إلى مُعاوية ستّ مائة ألف دينار عن فَضْل أُعْطيات الجُنْد وما يُصْرَف إلى الناس[1].

وكان مُعاوِيَة قد جَعَلَ على كلّ قبيلة من قَبائِل العَرَب بمصر رَجُلًا يصبح كلّ يوم، فيَدُور على المَجالِس فيقول: هل وُلِدَ الليلة فيكم مَوْلود؟ وهل نَزَلَ بكم نازِل؟ فيُقال: وُلِدَ لفُلانٍ غُلامٌ ولفُلانٍ جارِيَة، فيَكْتُب أسماءَهم، ويُقال: نَزَلَ بهم رَجُلٌ من أهْل كذا بعياله، فيُسَمِّيه وعِياله. فإذا فَرَغَ من القبيل[b]، أَتَى الدِّيوانَ حتى يُثْبِت ذلك.

وأَعْطَى مَسْلَمَة بن مَخْلد الأَنْصاري، أمير مصر، أهْلَ الدِّيوان أُعْطياتهم وأُعْطيات عِيالِهم وأَرْزاقِهم ونَوائِبهم ونَوائِب البلاد من الجُسُور، وأَرْزاق الكَتَبَة وحِمْلان القَمْح إلى الحِجاز، وبَعَثَ إلى معاوية ستّ مائة ألف دينار فَضْلًا.

وأَوَّلُ تَدْوين كان بمصر على يَدِ عَمْرو بن العَاص - رضي الله عنه، ثم دَوَّنَ عبد العزيز بن مَرْوان تَدْوينًا ثانيًا، ودَوَّن قُرَّةُ بن شَريك التَّدْوين الثَّالِث، ثم دَوَّن بِشْر بن صَفْوان تَدْوينًا رابعًا، ثم لم يكن بعد تَدْوين بِشْر شيءٌ له ذِكْرٌ، إلَّا ما كان من إلْحاق قَيْس بالدِّيوان في خِلافَة هِشام بن عبد الملك بن مَرْوان[2].

فلمَّا انقرضَت دَوْلَة بني أُمَيَّة، وغَلَبَت المُسَوِّدَة بنو العَبَّاس، أَحْدَثُوا أشْياءَ حتى إذا ماتَ عبد الله المأْمون بن هارون الرَّشيد لسبع خَلَوْن من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين، وبُويعَ أخُوه المُعْتَصِم أبو إسْحاق محمد بن هارون الرَّشيد[c]، كَتَبَ إلى كَيْدَر[d] بن نَصْر الصُّغْدي[e] أمير مصر، يأْمُرُه بإسْقاط من في ديوان مصر من العَرَب وقَطْع العَطَاء عنهم، ففَعَلَ ذلك.

وكان مَرْوانُ بن محمد الجَعْدي، آخِر خَلائِف بني أُمَيَّة، قَطَعَ عن أهل مصر العَطَاء سنة، ثم كَتَبَ إليهم كِتابًا يعتذر [إليهم][f] فيه: «إنّي إنَّما حَبَسْتُ عنكم العَطَاءَ في السنة الماضية لعَدُوٍّ

---

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: القيل. c) ساقطة من بولاق. d) بولاق: كندر. e) بولاق: الصفدي.
f) إضافة من الكندي.

---

[1] فيما تقدم ٢١٢.

[2] انظر دراسة موريموتو Morimoto, K., «The Dîwâns as Registers of the Arab Stipendiaries in Early Islamic Egypt» in Itinéraires d'Orient-Hommages à Claude Cahen, *Res Orientales* VI (1994), pp. 353-65.

حَضَرَني فاحْتَجْت [فيه][a] إلى المال ، وقد وَجَّهْت إليكم بعَطاء السنة الماضية وعَطَاء هذه السنة فكُلُوه هنيئًا مريئًا ، وأَعُوذُ بالله أن أكون أنا الذي يُجْرِي الله قَطْعَ العَطاءِ على يَدَيْه» .

ولمَّا قَطَعَ كَيْدَر[b] عَطاءَ أَهْل مصر ، خَرَجَ يحيى بن الوَزير الجَرَوِيّ في جَمْعٍ من لَخْم وجُذام ، وقال له : هذا أَمْرٌ لا يقوم فينا أَفْضَل منه لأنّا مُنِعْنا حَقَّنا وفَيْئَنا ، فاجتمع إليه نحو خمس مائة رجل .

وماتَ كَيْدَرُ[b] في ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين ؛ ووَلِيَ ابنُه المُظَفَّر مصر من بعده ، فسارَ إلى يحيى وقاتَلَه في بُحَيْرَة تِنِّيس وأَخَذَه أَسيرًا [1] .

فانْقَرَضَت دَوْلَةُ العَرب من مصر ، وصارَ جُنْدُها العَجَم والمَوالي من عَهْد المُعْتَصِم إلى أن وَلِيَ الأَمير أبو العَبَّاس أحمد بن طُولون مصر ، فاسْتَكْثَر من العَبيد ، وبَلَغَت عِدَّتُهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غُلام تركي وأربعين ألف أَسْوَد وسبعة آلاف حُرٍّ مُرْتَزِق . ثم استجدَّ ابنه الأمير أبو الجَيْش خُمارَوَيْه بعده عِدَّة من شَنابِرَة حُوف مصر .

فلمَّا كانت إمارَةُ الأمير أبي بكر محمد بن طُغْج الإخْشيد على مصر ، بَلَغَت عِدَّةُ عَساكِرِ بمصر والشَّام أربع مائة ألف ، تشتمل على عِدَّة طوائِف . ثم إنَّ الأستاذَ أبا المِسْك كافورًا الإخْشيدي استجدَّ عِدَّة من السُّودان في أيام تَحَكُّمه بمصر .

فلمَّا تَغَلَّب الإمامُ المُعِزُّ لدين الله أبو تَميم مَعَدّ الفاطِميّ على مصر ، صارَت عَساكِرُها ما بين كُتامَة وزَوِيلَة ونَحْوها من طَوائِف البَرْبَر ، وفيهم الرُّوم الصَّقالِبَة وهم في العَدَد كما قيل : «ومنهم مَعَدُّ ، ولم تكن جُيوشُه تُعَدّ ، ولا لما أوتيه كان حد ، من كلٍّ ما يَسْعَد فيه جد» . وحتى قيل : إنَّه لم يَطَأ الأَرْضَ ـ جَيْش الإسْكَنْدَر بن فيلبُش المَقْدونيّ ـ أكثر عددًا من جُيوش المُعِزّ .

فلمَّا قامَ في الخِلافَة بمصر من بعده ابنُه العَزيزُ بالله أبو مَنْصور نِزار ، اسْتَخْدَم الدَّيْلَم والأَتْراك ، واخْتَصّ بهم [2] . وذَكَرَ الأَميرُ المُخْتَار عِزُّ الملك[c] المُسَبِّحي في «تاريخه» : أنَّ خِزانَةَ الخاصّ حَمَلَها ـ لمَّا خَرَجَ العَزيزُ إلى الشَّام ـ عشرون ألف جمل ، خارِجًا عن خَزائِن القُوَّاد وأكابِر الدَّوْلة .

---

a) إضافة من الكندي. b) بولاق : كندر . c) بولاق : عبد الملك وفي الأصل بياض .

---

[1] الكندي : ولاة مصر ٢١٧ – ٢١٨.

[2] راجع أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٦٦٢– ٦٦٨ وما ذكر من مراجع .

وذَكَرَ ابنُ مُيَسَّر في «تاريخه» : أنَّ عَبيدَ السَّيِّدَة أم المُسْتَنْصِر بالله أبي تَميم مَعَدّ بن الظَّاهِر لإعْزاز دين الله أبي الحَسَن عليّ بن الحاكِم بأمر الله أبي عليّ مَنْصور بن العَزيز بالله خاصَّةً، كانت عِدَّتُهم خمسين ألف عبد سوى طَوائِف العَسْكَر[1].

ورأيتُ بخَطِّ الأَسْعَد بن مَمَّاتي : أنَّ عِدَّةَ الجُيوش بمصر، في أيام رُزِّيك بن الصَّالِح طَلائِع بن رُزِّيك، كانت أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل[2]. وزادَ غيرُه «وعَشْرة شَواني بَحْرية فيها عَشَرَة آلاف مُقاتِل»، وهذا عند انْقِراض الدولة الفاطِمية.

فلمَّا زالَت دَوْلَتُهم علي يَد السُّلْطان الملك النَّاصِر صَلاح الدين يُوسُف بن أَيُّوب، أزالَ جُنْدَ مصر من العَبيد السُّود والأُمَرَاء المِصْريين والعُرْبان والأَرْمَن وغيرهم، واسْتَجَدَّ عَسْكَرًا من الأَكْراد والأَتْراك خاصَّةً، وبَلَغَت عِدَّةُ عَساكِره بمصر إلى[a] اثني عشر ألف فارِس لا غير. فلمَّا ماتَ افْتَرَقَت من بعده، ولم يَبْق بمصر مع ابنه الملك/ العَزيز عُثْمان سِوَى ثمانية آلاف فارِس وخمس مائة فارِس، إلَّا أنَّ فيهم مَنْ له عشرة أَتْباع، وفيهم من له عشرون، وفيهم من له أَكْثَر من ذلك إلى مائة تَبَع لرَجُل واحِدٍ من الجُنْد، فكانُوا إذا رَكِبُوا ظاهِرَ القاهِرَة يَزيدون على مائتيْ ألف.

ثم لم يزالوا في افْتراقٍ واخْتلافٍ حتى زالَت دَوْلَتُهم بقيام عَبيدِهم المَماليك الأَتْراك، فحَذَوا حَذْو مَواليهم بني أَيُّوب، واقْتَصَروا على الأَتْراك وشيءٍ من الأَكْراد، واستجدُّوا من المَماليك التي تُجْلَب من بلاد التُّرْك شيئًا كثيرًا، حتى يُقالُ : إنَّ عِدَّةَ مَماليك الملك المَنْصور قَلاوون كانت سبعة آلاف مَمْلوك، ويُقال : اثنيْ عشر ألفًا. وكانت عِدَّةُ مَماليك وَلَدِه الأَشْرَف خَليل بن قَلاوون اثنيْ عشر ألف مَمْلوك. ثم لم تَبْلُغ بعد ذلك قريبًا من هذا، إلى أن زالَت دَوْلَةُ بني قَلاوون، في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبع مائة، بالملك الظَّاهِر بَرْقُوق، فأَخَذَ في مَحْو المَماليك الأَشْرَفِيَّة، وأَنْشَأ لنفسه دَوْلَةً من المَماليك الجَرْكَسِيَّة بَلَغَت عِدَّتُهم ـ ما بين مُشْتَرَى ومُسْتَخْدَم ـ أربعة آلاف

a) ساقطة من بولاق.

[1] انظر فيما يلي ١: ٣٣٥.

[2] انظر فيما تقدم ٢٣١؛ وانظر كذلك عن ديوان الجيش الفاطمي المخزومي: المنهاج ٦٤– ٧٢؛ ابن الطوير: نزهة المقلتين ٨٢–٨٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣:٤٨٨– ٨٩، ٥٢١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣:٣٣٩– ٣٤٢ وفيما يلي ١:٤٠١؛ وأيضًا Cahen, Cl., «L'Administration financière de l'armée fatimide d'après al-Makhzûmî», *JESHO* XV (1979), pp. 163-82؛ أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٧٢٠- ٧٢٤.

أو تَزيد قَليلًا . فلمَّا قامَ من بعده ابنُه[a] النَّاصِرُ فَرَج افْتَرَقوا واخْتَلَفوا ، فلم يُقْتَل حتى هَلَكَ كثيرٌ منهم بالقَتْل وغيره [1] .

وعَساكِرُ مصر في الدولة التُّرْكية على قِسْمَيْن : أَجْنادُ الحَلْقَة ، والمَماليكُ السُّلْطانِيَّة [2] . وأكثرُ ما كانت أَجْنادُ الحَلْقَة في أيَّام النَّاصِر محمد بن قَلاوون ، فإنَّها بَلَغَت ـ على ما رأيته في جَرائِد ديوانِ الجَيْش بأوْراق الرَّوْك النَّاصِري ـ أربعة وعشرين ألف فارس ؛ ثم ما زَالَت تَنْقُص حتى صارَت اليوم ـ مع قِلَّة عِدَّتها ـ سواء منها الأَلْف والواحِد ، فإنَّها لا تَنفَع ولا تَدفَع .

وأمَّا المَماليكُ فإنَّها اليوم قَليلٌ عَدَدُها ، بحيث لو جُمِعَتْ أَجْنادُ الحَلْقَة مع المَماليك السُّلْطانية ، لا تكادُ أن تَبْلُغ خمسة آلاف فارِس ، يصلُح منها لأن يُباشِر القِتال ألف أو دونها .

وهي اليوم قِسْمان : أَجْنادُ الحَلْقَة ، والمَماليكُ السُّلْطانِيَّة . والمَماليكُ السُّلْطانِيَّة ثلاثَةُ أقسام : ظَاهِرِيَّة ، ونَاصِرِيَّة ، ومُؤَيَّدِيَّة . والمُؤَيَّدِيَّة ما بين حَكَمِيَّة ونَوْروزية ومَنْ اسْتجدَّه المُؤَيَّد .

[b]وإنَّ خَوْفي لَيَكْثُر أن يكون الحالُ بعد الملك المُؤَيَّد أبي النَّصْر شَيْخ ـ خَلَّد الله مُلْكَه [3] ـ يتلاشَى ، إلى أن يُؤَيِّد الله المُلْك بابنه الأمير صارِم الدين إبراهيم ـ شَدَّ الله به أَزْره ـ فإنَّه فَتَحَ من البلاد الرُّومية ما لا مَلَكَه أَحَدٌ من مُلوك مصر في الدولة الإسلامية قبله .

«والشِّبْل في المَخْبَر مثل الأَسَد» .

«وابن السري إذا سرى أسرا هما» .

«ولا غَرْو أن يَحْذو الفَتى حَذْوَ والِدِه» .

بأَبِه اقْتَدَى عَدِيٌّ في الكَرَمْ ومَنْ يُشابِه أَبَه فمَا ظَلَم

«إنَّ الأُصُولَ عليها يَنْبُت الشَّجَر»[b]

a) زيادة من بولاق . b-b) ساقط من الأصل ولا توجد إلَّا في نسختي Paris 1731، Paris 1737 وهما يتفقان مع الأصل الذي اعتمدت عليه نشرة بولاق .

[1] عن دولة المماليك الجركسية (الجراكسة) انظر فيما يلي ٢: ٢٤١.

[2] انظر تفصيل ذلك فيما يلي ٢: ٢١٥- ٢١٩.

[3] واضح أن المقريزي كتب هذا القسم من «الخطط» في عهد السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودي ، ثم أضاف في فترة لاحقة ما ذكره عن طوائف المماليك في عهد السلطان الملك الأشرف برسباي ، وعدم وجود هذه الفقرة في بعض نسخ الخطط راجع إلى أن المقريزي كان يكتب في طيارات ، فكان النساخ ينسون نقل بعضها أو يضعونه في غير موضعه .

ثم لمَّا مَلَكَ الأَشْرَفُ بَرْسَبای ، صارَت المماليكُ سَبْع طوائِف : ظاهِرية ، وناصِريَّة ، ومُؤَيَّدِيَّة ، ونَوْرُوزِيَّة ، وحَكَمِيَّة ، وطَطَرِيَّة ، وأَشْرَفِيَّة ، كلُّ طائِفَةٍ منها مُباينَة لجَمعيها ، فلذلك اضْمَحَلَّت شَوْكَتُهم وانْكَسَرَت حِدَّتُهم ، وأُمنت على السُّلْطان غائِلَتُهم ، ولم يَخَف ثَوْرَتَهم لتفرُّقهم وإن كانوا مُجتمعين ، وتَبايُنهم وإن كانوا في الظاهِر مُتَّفِقين .

واعْلَم أنَّه كانت عادَةُ الخُلَفاء من بني أُمَيَّة وبني العَبَّاس والفاطِميين ، من لدن أمير المؤمنين عُمَر ابن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أن تُجْبَى أَمْوالُ الخَراج ، ثم تُفَرَّق من الدِّيوان في الأُمَرَاء أو العُمّال والأَجْناد على قَدْر رُتَبِهم وبحَسَب مَقادِيرهم . وكان يُقالُ لذلك في صَدر الإسلام «العَطَاء»[1] .

وما زالَ الأَمْرُ على ذلك إلى أن كانت دَوْلَةُ العَجَم ، فغُيِّرَ هذا الرَّسْم ، وفُرِّقَت الأَراضي إقْطاعات على الجُنْد . وأوَّلُ من عُرِفَ أنَّه فَرَّقَ الإقْطاعات على الجُنْد ، نِظامُ المُلْك أبو عليّ الحَسَن ابن عليّ بن إسْحاق بن العَبَّاس الطُّوسي ، وَزير أَلْب أَرْسَلان بن دَاود بن مِيكال بن سَلْجوق ، ثم وَزير ابنه مَلِكْشاه بن أَلْب أَرْسَلان[2] . وذلك أنَّ مَمْلكته اتَّسعت فرأى أن يُسَلِّم إلى كلِّ مُقْطَع قَرْيَة أو أكثر أو أقَلّ على قَدْر إقْطاعه ، لأنَّه رأَى أنَّ في تَسْليم الأراضي إلى المُقْطَعين عِمارتها لاعْتِناء مُقْطعيها بأمْرِها بخِلاف ما إذا شَمِلَ جميع أعمال المملكة ديوانٌ واحِد ، فإنَّ الخَرْقَ يَتَّسِعُ ويَدْخُل الخَلَلُ في البلاد[3] فَفَعَلَ نظامُ المُلْك ذلك ، وعَمُرَت به البلاد وكَثُرَت الغَلَّات . واقْتَدَى بفِعْله من جاءَ بعده من المُلوك ، من أَعْوام بضع وثمانين وأربع مائة إلى يومنا هذا .

---

[1] العَطَاء . المصطلح الأكثر شيوعًا في الصدر الأول للإسلام للتدليل على أعطيات المسلمين اللازمة للإعاشة ، وفي فترة لاحقة للتدليل على رواتب الفرق . فلم يكن للمسلمين الأوائل سوى الحصول على نصيبهم في الغنائم الناتجة عن الغزوات ، ونظَّم الفقهاء بعد ذلك طريقة توزيع الفيء . (راجع ، الطبرى : تاريخ ٣:٦١٣- ٦١٨؛ الماوردي : الأحكام السلطانية ١٨٠- ١٨١؛ Tritton, A.S., «Notes on the Muslim System of Pension», *BSOAS* XVI (1954), pp. 170-72; Cahen, Cl., *EI*[2] (art. ᶜ*Atâ'* I, pp. 751-52).

[2] نظام المُلْك أبو عليّ الحسن بن عليّ بن إسحاق الطُّوسي (٤٠٨-٤٨٥هـ/ ١٠١٨-١٠٩٢م) الوزير الشهير للسلطان السلجوقي ألب أرسلان وولده ملكشاه ، راجع أخباره في كتب التاريخ العامة وكذلك ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢:١٢٨- ١٣١؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٩:٩٤- ٩٦؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٢:١٢٣- ١٢٧؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٤:٣٠٩- ٣٢٨؛ عبد الهادي رضا محبوبة : نظام المُلْك كبير الوزراء في الأمة الإسلامية – دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استيزاره ، القاهرة – الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٨؛ Bosworth, C.E., *EI*[2] art. *Nizâm al-Mulk* VIII, pp. 71-74.

[3] البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة – مطبعة الموسوعات ١٩٠٠، ٥٥.

وكانت الخُلَفاءُ تُرْزَق من بَيْت المال ، فذَكَرَ عَطَاءُ بن السَّائِب في حَدِيثٍ ، أنَّ أبا بكر - رضي الله عنه - لمَّا اسْتُخْلف ، فُرِضَ له كلَّ يَوْم شَطْر شاة وما تكسوه في الرأس والبَطْن . وذُكِرَ عن حُمَيْد بن هِلال ، أنَّه فُرِضَ له بُرْدان إذا أَخْلَقَهما وَضَعَهما وأَخَذَ مِثْلهما ، وظهره إذا سافر ، ونَفَقَته على أهله كما كان يُنْفِق قبل أن يُسْتَخْلَف .

وذَكَرَ ابنُ الأثير في «تاريخه» أنَّ الذي فَرَضُوا له ستة آلاف درهم في السَّنَة . وفُرِضَ لعُمَر بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - لمَّا اسْتُخْلِف ، ما يُصْلحه ويُصْلح عِيالَه بالمعروف ، وقاله له عليٌّ - رضي الله عنه - : ليس لك غيره ، فقال القَوْمُ : القَوْلُ ما قال عليّ ، يأْخُذُ قُوتَه . وفَرَضَ عُمَر لمُعاوية ابن أبي سُفْيان ، على عَمَله في الشَّام ، عشرة آلاف دينار في السَّنَة ، وقيل : بل رَزَقَه ألف دينار ، وهو أشْبَه .

ذِكْرُ القَطَائِع وَالإِقْطَاعَاتِ

يُقالُ : اقْتَطع طائِفَةً من الشيء : أَخَذَها . والقَطِيعَةُ : ما اقْتَطَعَه منه ، وأَقْطَعَني إيَّاها : أَذِنَ لي في اقْتِطاعها ، واسْتَقْطَعَه إيَّاها /: سأله أن يُقْطِعه إيَّاها ، وأَقْطَعه نَهْرًا وأرْضًا : أباحَ له ذلك . ٩٦

وقد أَقْطَعَ رَسُولُ الله ﷺ ، وتألَّفَ على الإسْلام قَوْمًا ؛ وأَقْطَع الخُلَفاءُ من بعده من رأوا في إقْطاعه صَلاحًا .

روَى ابن أبي نَجِيح ، عن عَمْرو بن شُعَيْب عن أبيه ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَقْطَعَ أُناسًا من مُزَيْنة (أو جُهَيْنَة) أرْضًا فلم يُعَمِّروها ، فجاءَ قومٌ فعَمَّروها . فخاصَمَهُم الجُهَيْنيون (أو المُزَيْنيون) إلى عُمَر ابن الخَطَّاب - رضي الله عنه - فقال عُمَر : لو كانت مِنِّي أو من أبي بكر لرَدَدْتُها ، ولكنَّها قطيعةٌ من رَسول الله ﷺ . ثم قال : مَنْ كانت له أرْضٌ ثم تَرَكَها ثلاث سنين لا يُعَمِّرها ، فعَمَّرها قومٌ آخرون فهم أَحَقُّ بها .

وقال هِشامُ بن عُرْوَة عن أبيه : أَقْطَعَ رَسولُ الله ﷺ الزُّبَيْر أَرْضًا فيها نَخْل من أَمْوال بني النَّضير ، وذَكَر أنَّها أَرْضٌ يُقالُ لها : الجُرُف . وذَكَرَ أنَّ عُمَرَ بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - أَقطع العَقيقَ أَجْمَعَ الناس حتى جازَت قَطِيعَة عُروة ، فقال ابنُ الزُّبَيْر : المُسْتَقْطِعون منذ اليوم ، فإن يَكُ فيه خَيْرٌ فتحت قَدَمي ، قال خَوَّات بن جُبَيْر : أَقْطِعْنيه . فأَقْطَعَه إيَّاه .

وقال سُفْيان بن عُيَيْنَة ، عن عَمْرو بن دينار ، قال : لمَّا قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ المَدِينَة أَقْطَعَ أبا بكر وأَقْطَعَ عُمَر بن الخَطَّاب - رضي الله عنهما .

وقال أَشْعَثُ بن سَوَّار ، عن حَبِيب بن أبي ثابِت ، عن صَلْت المكي ، عن أبي رافِع قال : أعطى

النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا أرضًا فعَجَزوا عن عِمارتها فباعُوها في زَمَن عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ بثمانية آلاف دينار، أو بثمانية آلاف درهم، فوَضَعوا أموالَهم عند عليّ بن أبي طالِب ـ رضي الله عنه ـ فلمَّا أَخَذوها وَجَدوها ناقِصَة، فقالوا: هذا ناقِص، قال: احْسِبوا زَكاتَه؛ قال: فحَسَبوا زَكاتَه، فوَجَدوه وافيًا، فقال: أَحَسِبْتُم أن أُمْسِك مالًا ولا أُزَكِّيه.

وقد سَأَلَ تَميمُ الدَّاري رَسُولَ الله ﷺ، أن يُقْطِعَه عَيْنُونَ[a] البَلَد الذي كان منه بالشَّام قَبْل فَتْحه، فَفَعل[١]. وسأله أبو ثَعْلَبَة الخُشَني، أن يُقْطِعُه أرْضًا كانت بيد الرُّوم، فأَعْجَبه ذلك وقال: ألا تَسْمَعون ما يقول؟ فقال: والذي بَعَثَكَ بالحَقّ ليُفْتَحَنّ عليك، فكَتَبَ له بذلك كِتابًا[٢].

وقال ثابِتُ بن سَعْد، عن أبيه عن جَدِّه: إنَّ الأبيضَ بن حَمّال اسْتَقْطَع رَسُول الله ﷺ، مِلْح مَأْرب، فأقْطَعَه؛ فقال الأَقْرَعُ بن حابِس التَّميمي: يا رَسُول الله، إنِّي وَرَدْت هذا المِلْح في الجاهلية، وهو بأرْضٍ ليس فيها مِلْح من وَرَدَه أَخَذَه، وهو مثل الماء العَدّ[b][٣] بالأرض، فاستقال الأَبْيَض، فقال: قد أَقَلْتُك على أن تجعله مِنِّي صَدَقَة. فقال النَّبيُّ ﷺ: «هو منك صَدَقَة، وهو مثل الماء العَدّ[b] مَنْ وَرَدَه أَخَذَه».

وقال كُثَيِّر بن عبد الله بن عَوْف المُزَني، عن أبيه عن جَدِّه: أَقْطَعَ رَسُولُ الله ﷺ بِلال بن الحارث المعادِن القِبْلية خليسها وغوريها[٤].

وقال مالِكُ، عن رَبيعَة، عن قَوْمٍ من عُلَمائهم: إنَّ رَسولَ الله ﷺ أَقْطَعَ بِلالَ بن الحارِث المُزَني مَعادِن بناحية الفُرْع.

---

a) بولاق: عيون. b) بولاق: العذب.

---

[١] انظر نص نسخة كتاب النبيّ ﷺ للداريين الذي وَهَبهم فيه بيت عَيْنُون وحَبْرون وبيت إبراهيم، وكذلك تجديد أبي بكر الصديق بذلك لهم عند، القلقشندي: صبح الأعشى ١٣: ١١٩–١٢٠ وأضاف القلقشندي: «وهذه الرُّقْعَةُ التي كَتَبَ بها النَّبيُّ ﷺ [وهي جلد من أَدَم] موجودةٌ بأيدي التميميين خُدَّام حَرَم الخليل–عليه السَّلام– إلى الآن، وكُلَّما نازعهم أحَدٌ أتَوْا بها إلى السلطان بالديار المصرية ليقف عليها ويَكُفَّ عنهم من يظْلمهم. وقد أخبرني برؤيتها غيرُ واحِد، والأديمُ التي هي فيه قد خُلِقَ لطول الأَمَد».

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى ١٣: ١٠٥ وفيما يلي ١: ٩٧.

[٣] جاء على هامش الأصل: الماء العَدّ هو الذي له مواد تمدّ كالعيون والآبار، وقيل الماء المجتمع.

[٤] هنا على هامش الأصل: الخليسي والغوري أعلاها وأسفلها، وقيل الخليسي بلاد نجد والغوري بلاد تهامة.

وعن رَبيعَة ، عن الحارِث بن بِلال ، عن أبيه بِلال بن الحارِث ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَقْطَعَه العَقيق أَجْمَع .

وعن حَمَّاد بن سَلَمَة ، عن أبي مَكين ، عن أبي عِكْرِمَة مَوْلَى بِلال بن الحارِث ، قال : أَقْطَعَ رَسُولُ الله ﷺ بِلالًا أَرْضًا فيها جَبَل مَعْدِن ، فباعَ بنو بِلال عُمَرَ بن عبد العزيز أَرْضًا منها ، فظَهَر فيها مَعْدن (أو قال : مَعْدِنان) ، فقالوا : إنَّما بِعْناك أَرْضَ حَرْث ولم نبعك المعادِن ، وجاءُوا بكتابِ النَّبِيّ ﷺ لهم في جَريدَة . فقَبَّلَها عُمَر وفَتَحَ ومَسَحَ بها عَيْنَيْه ، وقال لقَيِّمِه : انظر ما خَرَجَ منها وما أَنْفَقْت ، فقاصَّهم بالنَّفَقَة ، ورُدّ عليهم الفَضْل .

واصْطَفَى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ من أَرْض السَّواد أَمْوالَ كِسْرَى وأَهْل بيته ، وما هَرَبَ عنه أربابُه أو هَلَكُوا ، فكان مَبْلَغ غَلَّته تسعة آلاف درهم ، كان يَصْرِفها في مَصالِح المُسْلمين ولم يُقْطِع شيئًا منها .

ثم إنَّ عُثْمانَ ـ رضي الله عنه أَقْطَعَها ـ لأنَّه رأى إقْطاعَها أَوْفَر لغَلَّتها من تَعْطيلها ، وشَرَط على من أُقْطِعها أن يَأْخُذ منه حَقّ الفَيْء ، فكان مبلغ غَلَّته خمسين ألف ألف درهم ، كان منها صِلاتُه وعَطاياه ؛ ثم تَناقَلَها الخُلَفاءُ بعده .

فلمَّا كان عامُ الجَماجِم سنة اثنتين وثمانين ، في فِتْنَة عبد الرَّحمن بن الأَشْعَث ، أُحْرِق الدِّيوان ، وأَخَذَ كلُّ قَوْم ما يليهم .

. وأَقْطَعَ عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ ابن سَنْدَر مُنْيَة الأَصْبَغ ، فحازَ منها لنفسه ألف فَدَّان .

وقال وَكيعُ ، عن سُفيان ، عن جابر الجُعْفي ، عن عامِر : لم يُقْطِع أبو بكر ولا عُمَر ولا عليّ ـ رضي الله عنهم ـ وأوَّلُ من أَقْطع القَطائِع عُثْمانُ ـ رضي الله عنه ـ وبيعت الأَرْضون في خلافَة عُثْمان . قال اللَّيْثُ بن سَعْد : ولم يَبْلُغنا أنَّ عُمَرَ بن الخَطَّاب أَقْطَعَ أَحَدًا من الناس شيئًا من أرض مصر إلَّا ابن سَنْدَر ، فإنَّه أَقْطَعَه أرض مُنْيَة الأَصْبَغ ، فلم تزَل له حتى ماتَ ، فاشْتراها الأَصْبَغُ بن عبد العزيز بن مَرْوان من وَرَثَته فليس بمصر قَطيعَةٌ أَقْدمُ منها ولا أَفْضَل[1].

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٣٧ وفيما يلي ٢ : ١٣٦ .

وقال الأَعْمَشُ، عن إبراهيم بن المُهاجِر، عن موسَى بن طَلْحَة، قال: أَقْطَعَ عُثْمانُ - رضي الله عنه - عبد الله بن مَسْعود في[a] النَّهْرَيْن، وعَمَّار بن ياسِر إستنيا[b]، وأَقْطَعَ خَبَّابًا صَعْنَبا[c]، وأَقْطَعَ سَعْد بن أبي وَقّاص قرية هُرْمُز[1]، وكان عبد الله بن مَسْعود وسَعْد يُعطِيان أَرْضَهُما بالثُّلث والرُّبْع.

وقال سَيْفُ بن عُمَر، عن عَمْرو بن محمَّد، عن عامر/ قال: أُقْطِعَ الزُّبَيْرُ وخَبَّاب وعبد الله بن مَسْعود وعَمَّار بن ياسِر وابن هَبَّار أَزْمان عثمان؛ فإن يَكُن عُثْمان أخطأ، فالذين قَبِلُوا منه الخطأ أَخْطأ[d]، وهم الذين أَخَذْنا عنهم دينَنا. وأَقْطَعَ عُمَر بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - طَلْحَة وجَرير ابن عبد الله والرُّبَيْل بن عَمْرو، وأَقْطَعَ أبا مُفَرِّز دار النَّيل في عِدَّة مِمَّن أَخَذْنا عنه، وإنَّما القَطائِع على وَجْه النَّفْل من خُمْس ما أَفاءَ الله.

وكَتَبَ عُمَر - رضي الله عنه - إلى عُثْمان بن حُنَيْف، مع جَرير بن عبد الله البَجَلي: «أمَّا بَعْدُ، فأَقْطِع جَرير بن عبد الله قَدْر ما يُقَوِّته، لا وَكْسَ ولا شَطَط»، فكَتَبَ عُثْمان إلى عُمَر: «إنَّ جَريرًا قَدِمَ عليَّ بكتابٍ منك تُقْطِعُه ما يُقَوِّتُه، فكَرِهْت أن أُمْضي ذلك حتى أُراجِعك فيه». فكَتَبَ إليه: «[أن قد][e] صَدَقَ جَرير، فأَنْفِذ ذلك، وقد أَحْسَنْت في مؤامَرتي».

وأَقْطِع أبا مُوسَى الأَشْعَري، وأَقْطَع عليّ بن أبي طالِب رَحْبَة كَرْدوس بن هانِئ[f]، وأَقْطَعَ سُوَيْد بن غَفْلة الجُعْفي.

قال سَيْفٌ، عن ثابِت بن هُرَيْم[g]، عن سُوَيْد بن غَفْلَة، قال: اسْتَقْطَعْتُ عليًّا، فقال: اكْتُب «هذا ما أَقْطَعَ عليٌّ سُوَيْدًا: أَرْضًا لذاوذَوَيْه[h] ما بين كذا إلى كذا وما شاءَ الله»[2].

وذَكَرَ أبو القاسم عبد الرَّحْمَن بن عبد الله بن عبد الحَكَم ما أَقْطَعَه مُعاوية بن أبي سُفْيان ومَنْ بعده من الخُلَفاء، من دور مصر، فأَوْرَدَ شيئًا كثيرًا.

---

a) ساقطة من بولاق وعند البلاذري: أرضًا بالنهرين. b) الأصل وبولاق: اسبتنا والتصويب من البلاذري. c) الأصل وبولاق: خبابًا وصهيبا والتصويب من البلاذري. d) بولاق: أخطاؤا. e) إضافة من الطبري. f) بعد ذلك عند الطبري: الكردوسية. g) المخطوطات: هرثمة والتصويب من الطبري. h) المخطوطات: لدوابه والمثبت من الطبري.

---

[1] البلاذري: فتوح البلدان ٣٣٥ حيث أورد الخبر بنفس الإسناد.

[2] الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣: ٥٨٩، فالطبري هو الذي يروي عن سيف بن عمر.

وقد كانت خَلائف[a] بني أُمَيَّة، وخُلَفاءُ بني العَبَّاس، يُقْطِعون الأراضي من أرض مصر، النَّفَرَ من خَواصِّهم، لا كما هو الحالُ اليوم، بل يكون مالُ خَراج أرض مصر، يُصْرَف منه أُعْطِيَة الجُنْد وسائِرِ الكُلَف، ويُحْمَل ما يَفْضُل إلى بَيْت المال. وما أُقْطِعَ من الأراضي فإنَّه بيد من أُقْطِعَه [1].

وأمَّا منذ كانت أيَّامُ السُّلْطان صَلاحِ الدين يوسُف بن أيُّوب إلى يومنا هذا، فإنَّ أراضيَ مصر كلّها صارَت تُقْطَعُ للسُّلْطان وأُمرائه وأجْنادِه [2].

وأَرْضُ مصر اليوم على سَبْعَة أقسام:

قِسْمٌ يجري في ديوان السُّلْطان، وهذا القِسْمُ ثلاثة أقْسام: منه ما يَجْري في ديوان [b)]الوَزارة ومنه ما يجري في ديوان[b)] الخاصّ، ومنه ما يجري في الدِّيوان المُفْرَد.

وقِسْمٌ من أراضي مصر قد أُقْطِعَ للأُمَرَاء والأَجْناد، وقد ذُكِرَ تَفْصيل ذلك عند ذِكْر الرَّوْك النَّاصِريّ [3].

وقِسْمٌ ثالِث جُعِلَ وَقْفًا مُحَبَّسًا على الجوامِع والمَدارِس والخَوانِك، وعلى جِهات البِرّ، وعلى ذَراري واقِفي تلك الأراضي وعُتقائِهم.

وقِسْمٌ رابع يُقالُ له الأَحْباس، ويجري فيه أراضٍ بأيدي قَوْم يأكُلونها، إمَّا عن قِيامِهم بمَصالح مَسْجِد أو جامِع، وإمَّا يكون لهم لا في مُقابَلة عَمَلٍ.

وقِسْمٌ خامِس قد صارَ مِلْكًا يُباعُ ويُشْتَرى ويُوَرَّث ويُوهَب، لكَوْنه اشْتُرِيَ من بَيْت المال.

وقِسْمٌ سادِس لا يُزْرَع للعَجْز عن زِراعَتِه، فترْعاه المَواشي أو يُنْبِت الحَطَب ونَحْوه.

وقِسْمٌ سابِع لا يَشْمَلُه ماءُ النِّيل فهو قَفْر: وهذا القِسم منه ما لم يَزَل كذلك منذ عُرِفَت أحْوالُ الخَليقَة، ومنه[c)] ما كان عامِرًا في الدَّهْر الأوَّل ثم خَرِبَ.

---

a) بولاق: كان خلفاء. (b-b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: منه.

---

[1] حول الإقطاع المبكر انظر، عبد العزيز الدوري: «نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية»، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٠ (١٩٧٠)، ٣-٤٢، وعن تطور نظام الإقطاع بعد دخول البويهيين إلى السلطة انظر مقال كاهن Cahen, Cl., «L'évolution de *l'iqtâ'* de IX° au XIII° siècle. Contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales», *Annales ESC* (1953), pp. 25-52؛ وفيما يلي ٢: ٢١٧-٢١٩.

[2] انظر كذلك فيما تقدم ٢٣٠؛ و Rabie, H., *The Financial System of Egypt*, pp. 26-68.

[3] انظر فيما تقدم ٢٣٦-٢٣٩.

وسائِرُ هذه الأَقْسام مَذْكورَةٌ أخبارُها في هذا الكِتاب ، تَجِدُها إن أَنْت تأمَّلْته إن شاءَ الله تعالى .

وقال أبو عُبَيْد القاسِم بن سَلّام[1] في كتاب «الأَمْوال» ، في الكلام على حَديث مَعْمَر عن عبد الله بن طَاووس عن أبيه طَاووس ، قال : قال رَسُولُ الله ﷺ : «عاديُّ الأَرْض لله ولرَسُوله ، ثم هي لَكُم» . فإن[a] قلت : ما يعني ذلك ؟ قال : «يكون إقْطاعًا» ، هذا الخَبَرُ أَصْلٌ في الإقْطاع . والعاديُّ : كلُّ أرْض كان لها سُكّان فانْقَرَضُوا ، أي فصارَت خَرابًا ، فإنَّ حُكْمَها إلى الإمام .

قال : وأمَّا الأَرْضُ التي جَعَلَها النَّبيُّ ﷺ لبَعْض الناس ـ وهي عامِرَة لها أَهْل ـ فإعْطاءُ الإمام يكون على وَجْه النَّفْل .

ومن ذلك ما أَعْطاه رَسُولُ الله ﷺ تَميمًا الدَّاري ، فإنَّه أَعْطاه أرْضًا بالشَّام من قَبْل أن تُفْتَح الشَّام وقَبْل أن يَمْلِكها المُسْلمون ، فجَعَلَها له نَفْلًا من أموال أهل الحَرْب إذا ظَهَرَ عليهم ، كما فَعَل بابنة بُقَيْلة[b] لمَّا وَهَبَها الشَّيْباني قَبْل افتتاح الحِيرَة ، فأَمْضاها له خَالِد بن الوَليد رضي الله عنه .

وكذلك أَمْضَى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ لتَميم الدَّاري ، لمَّا افْتُتِحَت فلَسْطين ، ما كان النَّبيُّ ﷺ نَفَلَه[2] ، انتهى .

وقد خرَّج أبو عُبَيْد[c] هذه العَطِيَّة المعلَّقة مَخْرَج النَّفْل الذي يَنْفله الإمامُ بعض المُقاتِلَة .

وقال أبو الحَسَن عليّ بن محمد بن حَبيب[d] الماوَرْدي في «الأَحْكام السُّلْطانية» : والإقْطاعُ ضَرْبان : إقْطاعُ اسْتِغْلال ، وإقْطاع تَمْليك . والثاني يَنْقَسم إلى مَوَات وعامِر ، والثاني ضَرْبان :

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : نائبه نفيلة . c) بولاق : أبو عبد الله . d) محمد بن حبيب ساقطة من الأصل .

---

[1] أبو عُبَيْد القاسم بن سَلَّام بن عبد الله ، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه . ولد بهراة وتعلَّم بها ، ورحل إلى بغداد وإلى مصر وحجَّ فتوفي بمكة سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م . ألَّف العديد من الكتب في غريب الحديث واللغة والنحو والقراءات . وكتاب «الأموال» الذي ينقل عنه المقريزي أحد الأصول في موضوعه . (ابن النديم : الفهرست ٧٨؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٢: ٤٠٣- ٤١٦؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٦: ٢٥٤- ٢٦١؛ القفطي : إنباه الرواة ٣: ١٢- ٢٣؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤: ٦٠- ٦٣؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠: ٤٩٠- ٥٠٩؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٤: ١٢٣- ١٢٥؛ Gottschalk, H.L., *EI*² art. *Abû ᶜUbayd al-Qâsim b. Sallâm* I, pp. 161-62؛ ومقدمة رمضان عبد التواب لكتاب «الغريب المصنف» لأبي عبيد ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٩ ، ٩- ٦٤) .

[2] ابن سلام : كتاب الأموال ، صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي ، القاهرة ١٣٣٥هـ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ وقارن مع القلقشندي : صبح الأعشى ١٣: ١٠٤ .

أَحَدُهما ما يَتَعَيَّنُ مالِكُه ولا نَظَرَ للسُّلْطان فيه، إلَّا ما يتعلَّق بتلك الأَرْض في حَقٍّ لبَيْت المال إذا كانت في دار الإسْلام. فإن كانت في دار الحَرْب، حيث لم يَثْبُت للمُسْلمين عليها يَدٌ، فأراد الإمامُ أن يُقْطِعَها ليَمْلِكها المُقْطَعَ عند الظَّفْر بها، فإنَّه يَجُوز. فقد سَأَلَ تَمِيمٌ الدَّاري رَسولَ الله ﷺ أن يُقْطعَه عَيْنُونِ[a] البَلَد الذيْ كان منه قَبْل أن يُفْتَح الشَّامُ، فَفَعَل. وسأله أبو ثَعْلَبة الخُشَني أن يُقْطِعَه أَرْضًا كانت بيد الرُّوم، فأَعْجَبَه ذلك، وقال: «أَلَا تَسْمَعُون ما يَقُول هذا؟»[1]. فقال: والذي بَعَثَك بالحَقِّ ليَفْتحَنَّ عليك وكَتَب له بذلك كِتابًا.

قال الماوَرْدي: وهكذا لو اسْتَوْهَب أَحَدٌ من الإمام مالًا في دار الحَرْب وهو على ملك أَهْلِها، أو اسْتَوْهَبَه شيئًا من سَبْيِها أو ذَراريها ليكون أَحَقّ به إذا فُتِحَت، جازَ وصحَّت العَطِيَّة منه - مع الجَهالَة بها - لتعَلُّقِها بالأُمور العامَّة.

٩٨ وقد رَوَى الشَّعْبي أنَّ خُرَيْم[b] بن أَوْس الطَّائي قال للنَّبيّ صَلَّى الله عَلَيْه/ وسَلَّم: إن فَتَحَ الله عليك الحيرَة فأَعْطِني بنْت نُفَيْلة. فلمَّا أرادَ خالِدُ صُلْحَ أَهْل الحيرَة، قال له خُرَيْم[b]: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ أعطاني بنت نُفَيْلَة، فلا تُدْخِلْها في صُلْحِك، فشَهِدَ له بِشْر بن سَعْد ومحمد بن مَسْلَمَة، فاسْتَثْناها من الصُّلْح ودَفَعها إلى خُرَيْم[b]؛ فاشْتُرِيَت بأَلْف درهم - وكانت عَجَزَت وحالَت عمَّا عُهِدَ منها - فقيل له: قد أَرْخَصتَها، وكان أهلُها يَدْفعون لك أُضْعافَ ما سألت بها. فقال: ما كنتُ أظُنُّ أنَّ عَدَدًا يكون أكثر من ألف[2].

قال الماوَرْدي: وإذا صَحَّ الإقْطاعُ والتَّمْليكُ على هذا الوَجْه، نُظِرَ حالُ الفَتْح: فإن كان صُلْحًا، خَلُصَت الأرض لمُقْطعها، وكانت خارِجَة عن حُكْم الصُّلْح بالإقْطاع السَّابِق. وإن كان الفَتْحُ عَنْوَة، كان المُقْطَعُ والمُسْتوهَب أَحَقّ بما اسْتَقْطَعه واسْتَوْهَبَه من الغانِمين، ونُظِرَ في الغانِمين: فإن كانوا عَلِمُوا بالإقْطاع أو الهِبَة قبل الفتح، فليس لهم المُطالَبَة بعِوَض [ما اسْتُقِطع ووُهِب][c]. وإن لم يَعْلَموا حتى فَتَحُوا، عاوَضَهم الإمامُ بما يَسْتطيب به نفوسهم كما يستطيب نُفُوسَهم من غير ذلك من الغَنائِم.

---

a) بولاق: بمعطيه عيون. b) بولاق: خزيمة. c) إضافة من الماوردي.

---

[1] فيما تقدم ٢٥٨؛ والمقريزي: ضوء الساري في خبر تميم الداري ٦٣- ٦٤؛ وجاء بهامش الأصل: قصة أبي ثعلبة أخرجها الإمام أحمد والترمذي.

[2] الماوردي: الأحكام السلطانية ١٦٩- ١٧٠.

وقالَ أبو حَنيفَة رحمه الله تعالى : لا يَلْزَم الإمام اسْتِطابَة نُفُوسهم منه ولا من غَيْره من الغَنائِم، إذا رَأى المَصْلَحَة في ذلك [١].

ذِكْرُ ديوان الخَـراج والأَمْوال

يُقالُ لِكِتابَة الخَراج : قَلَمُ التَّصْريف ، وأَوَّلُ ما دُوِّنَ هذا الدِّيوان في الإسلام بدِمَشْق والعِراق على ما كان عليه قَبْل الإسْلام .

وكان دِيوانُ الشَّامِ بالرُّوميَّة ، وديوانُ العِراق بالفارِسِيَّة ، وديوانُ مِصْر بالقِبْطِيَّة ، فنُقِلَت دَواوينُ هذه الأَمْصار إلى العربية .

والذي نَقَلَ ديوانَ مصر من القِبْطِيَّة إلى العَرَبِيَّة عبد الله بن عبد الملك بن مَرْوان أمير مصر ، في خِلافَة الوَليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين ، ونَسَخها بالعربية ، وصَرَفَ أثيناس عن الدِّيوان ، وجَعَلَ عليه [a]مولى لبني سَعْد ثم لبني الذيال ـ بطن منهم عمرو بن حَزْمُوز[a] ـ بن يُرْبوع الفَزاري من أهل حِمْص [٢].

وأَوَّلُ من نَقَلَ الدَّواوين من الفارِسِيَّة إلى العربية الوَليدُ بن هِشام بن قُحْزُم[b] بن سُلَيْمان بن ذَكْوان ، وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

والأَكْثَرون على أنَّ الذي نَقَلَ ديوان العراق إلى العربية صالِح بن عبد الرَّحْمَن كاتِب الحَجَّاج ، وكان مَوْلَى لبني سَعْد ، وهو يومئذٍ صاحِبُ دَواوين العِراق ، وذلك بعد سنة ثمانين . وسَبَبُ ذلك أنَّ صالِحَ بن عبد الرَّحْمَن هذا كان أبُوه من سَبْي سِجِسْتان ، ومَهَرَ صالِحُ في الكتابة ، وكَتَبَ لزادان فَرُّوخ كاتِب الحَجَّاج بن يوسُف الثَّقَفي ، وخَطَّ بين يديه بالفارِسِيَّة والعربية ؛ فخَفَّ على قَلْب الحَجَّاج ، فخافَ من زادان وقال له : أَنْتَ الذي رَقَّيْتَني حتى وَصَلْت إلى الأَمير ، وأَراه قد اسْتَخَفَّني ولا آمَن أن يُقَدِّمني عليك فتَسْقُط مَنْزِلَتُك ؛ فقال زَادان : لا تَظُنّ ذلك ، هو أَحْوَجُ إليَّ منيّ إليه ، لأنَّه لا يَجد من يَكْفيه حِسابه غيري . فقال صالِحُ : والله لو شِئْت أن أُحَوِّلَ الحِسابَ إلى العربية لحَوَّلْتُه ، قال : فحَوِّل منه أَسْطُرًا حتى

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : مخزوم .

[١] الماوردي : الأحكام السلطانية ١٧٠. الكندي : ولاة مصر ٨٠ (مصدر هذا الخبر)؛ وانظر كذلك

[٢] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٢٢ س ٧-٨؛ النويري : نهاية الأرب ٨:١٩٨-٢٠٠.

أَرَى ، فَفَعَلَ . فقال له : تَمارَض فتمارَض ، فبعَثَ إليه الحَجَّاج بطَبيبه ، فشَقَّ ذلك على زادان ، وأَمَرَه أَلَّا يَظْهَر للحَجَّاج [١].

فاتَّفَق عَقيبَ ذلك أَنَّ زادان قُتِلَ في فِتْنَة عبد الرَّحْمَن بن محمد بن الأَشْعَث ، وهو خارج من مَوْضِع كان فيه إلى منزله ، فاسْتَكْتَب الحَجَّاجُ بعده صالحًا ، فأعْلم الحَجَّاجَ بما جَرَى له مع زادان في نَقْل الدِّيوان ، فأَعْجَبَه ذلك وعَزَمَ عليه في إمْضائِه ، فنقَلَه من الفارِسيَّة إلى العربية . وشَقَّ ذلك على الفُرْس ، وبَذَلُوا له مائة ألف درهم على أَلَّا يُظْهِر النَّقْل ، فأَبَى عليهم ، فقال له مَرْوان شاه بن زادان فَرُّوخ : قَطَعَ الله أَصْلَكَ من الدنيا كمَا قَطَعْتَ أَصْل الفارِسيَّة .

وكان عبدُ الحميد بن يحيى يقول : لله دَرُّ صالِح ، ما أَعْظَمَ مِنَّته على الكُتَّاب .

وأمَّا ديوانُ الشَّام فإنَّ الذي نَقَلَه من الرُّوميَّة إلى العَرَبيَّة أبو ثابِت سُلَيْمان بن سَعْد كاتِب الرَّسائِل ؛ واخْتُلِف في وَقْت نَقْله ، فقيل : نُقِلَ في خِلافَة عبد الملك بن مَرْوان ، وقيل : في خِلافَة هِشام بن عبد الملك [٢].

وكان الذي يَكْتُب على ديوان الشَّام سِرْجون بن منصور النَّصْراني في أيَّام مُعاوية بن أبي سُفْيان ، ثم كَتَبَ بعده ابنُه مَنْصور بن سِرْجون .

ذِكْرُ خَراج مِصْر في الإسْلام

أوَّلُ من جَبَى خَراج مصر [٣] في الإسْلام عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ فكانَت جِبايَتُه اثني عشر ألف ألف دينار ، بفَريضَة دينارين دينارين من كلِّ رجل . ثم جَبَى عبدُ الله بن سَعْد بن أبي سَرْح مصر أربعة عشر ألف ألف دينار ؛ فقال عُثْمانُ بن عَفَّان ـ رضي الله عنه ـ لعَمْرو بن العَاص : يا أبا عبد الله ، دَرَّت اللِّقْحة بأكثر من دَرِّها الأوَّل ؛ فقال : أَضْرَرْتُم بوَلَدِها .

---

[١] الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ٣٨.

[٢] البلاذري : فتوح البلدان ٢٣٠؛ الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ٤٠ ؛ وانظر عن تعريب الدواوين مقال عبد العزيز الدوري Dûrî, A.A., *EI*[2] art. *Dîwân* II, p. 333.

[٣] الخَرَاجُ هو ضريبة الأرض الزراعية ، وكانت تُفْرَض أصلًا على كلِّ أراضي سكان البلاد الأصليين غير المسلمين المفتوحة صُلْحًا . وعندما خُشي مع الوقت أن يؤدي تحوّل عدد كبير من سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام إلى تقليل موارد بيت المال ، رئي أن لا تتأثَّر ضريبة الأرض بتغيير اعتقاد مالكها ، أي أن دخول الإسلام كان يعفي من الجزْيَة ولكنه لا يعفي من الخراج . وبذلك أصبح الخراج من وجهة نظر الفقه الإسلامي إيجارًا دائمًا للأرض لمصلحة الأمة المالك الأعلى لها بوصفها فيئًا ، بينما كان من وجهة نظر السكان المحليين مجرد استمرار لضريبة الأرض الزراعية التي كان معمولًا =

وهذا الذي جَباه عَمْرو ثم عبد الله، إنَّما هو من الجَماجِم خاصَّةً دون الخَرَاج.

وانْحَطَّ خَراجُ مصر بعدهما، لنُمُوّ الفَساد مع الزَّمان وسَرَيان الخَراب في أكثر الأرض ووُقُوع الحُرُوب، فلم يَجْبها بنو أُمَيَّة وخُلَفَاء بني العَبَّاس إلَّا دون الثلاثة آلاف ألف، ما خلا أيام هشام بن عبد الملك، فإنَّه وَصَّى عبد الله بن الحَبْحاب عامِل مصر بالعِمارَة. /فيُقال: إنَّه لم يَظْهَر من خَراج مصر، بعد تَناقُصه، كثرة إلَّا في وَقْتَيْن:

أحَدُهُما في خِلافَة هِشام بن عبد الملك، عندما وَلِيَ الخَرَاج عُبَيْد الله بن الحَبْحاب، فَخَرَج بنفسه ومَسَحَ العامِر من أراضي مصر والغامِر ممَّا يركبه ماءُ النِّيل، فوَجَدَ قانون ذلك ثلاثين ألف ألف فَدَّان سوى ارْتفاع الجُرُف ووَسَخ الأرض، فراكَها[1] كلَّها وعَدَّلَها غاية التعديل، فعَقَدَت معه أربعة آلاف ألف دينار، هذا والسِّعْر راخٍ والبَلَدُ بغير مَكْس ولا ضَريبَة.

وفي سنة سبع ومائة لأوَّل أيَّام هِشام بن عبد الملك، وَصَّفَ ابن الحَبْحاب بمصر طَبَقات معلومة مَنْسوبه في الدَّواوين، ولم تَزَل إلى ما بعد ذِهاب بني أُمَيَّة، ومبلغها ألف ألف دينار وسبع مائة ألف دينار وثمان مائة وسبعة وثلاثون دينارًا، منها على كُوَر الصَّعيد ألف ألف وأربع مائة دينار وعشرون دينارًا ونصف، والباقي على كُوَر أَسْفَل الأرض. ويُقالُ: إنَّ أُسامةَ بن زَيْد جَباها في خِلافَة سُلَيْمان بن عبد الملك مَبْلَغ اثْني عشر ألف ألف دينار.

والوَقْتُ الثاني في إمارَة أحمد بن طُولون، لمَّا تَسَلَّم أرْضَ مصر من أحمد بن محمد بن مُدَبِّر، وقد خَرَّب[a] أرْضَ مصر حتى بَقِيَ خَراجُها ثمان مائة ألف ألف دينار، فاسْتَقْصَى أحمد بن

---

a) بولاق: خربت.

= بها قبل الإسلام. وعلى خلاف السائد في بقية العالم الإسلامي لم توجد في مصر أراضي عُشريَّة بل كانت كلها أرضًا خراجية (راجع، الماوردي: الأحكام السلطانية ١٢٧، ١٣١–١٣٢، ١٣٧؛ الخوارزمي، مفاتيح العلوم ٣٩؛ النويري: نهاية الأرب ٨:٢٤٦–٢٤٧؛ محمد ضياء الدين الريِّس: الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥٩؛ Lambtom, A.K.S., *EI*² art. *Kharâdj* IV, pp. 1062-85; Cooper, R.S., «The Assessment and Collection of Kharâj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1974), pp. 365-82; Morimoto, K., *The Fiscal Administration of Egypt in the Early Islamic Period,* Kyoto 1981 (Asian Historical Monograph I); Frantz-Murphy, *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans,* Suppl, An. Isl. Cahier n°10, le Caire-IFAO 1986؛ وعن المقارنة بين نظام الضرائب في مصر قبل الإسلام وبعده انظر مقال جاسكو Gascou, J., «De Byzance à l'Islam, les impôts en Égypte après la conquête arabe», *JESHO* 26 (1983), pp. 97-109.

[1] انظر عن عملية الروك فيما تقدم ٢٣٥–٢٣٩.

طُولون في العِمارَة وبالغَ فيها ، فعَقَدَت معه أربعة آلاف ألف دينار وثلاث مائة ألف دينار . وجَبَاها ابنُه الأمير أبو الجَيْش خُمارَوَيْه بن أحمد أربعة آلاف ألف دينارٍ مع رَخاءِ الأسعار أيامَئذٍ ، فإنَّه رُبَّمَا أُبيع في الأيام الطُّولونية القَمْحُ : كلّ عشرة أرادِب بدينار .

وذَكَرَ ابنُ خُرْداذَبَة أنَّ خَراجَ مصر في أيام فِرْعَون ، كان ستة وتسعين ألف ألف دينار ، وأنَّ ابن الحَبْحاب جَباها [في أيّام بني أُمَيَّة][a] ألفيْ ألف وسبع مائة ألف وثلاثة وعشرين ألفًا وثمان مائة وتسعة وثلاثين دينارًا [1] .

وهذا وَهْمٌ منه ، فإنَّ هذا القَدْر هو ما حَمَله إلى بَيْت المال بدِمَشْق بعد أُعْطِيَة أهل مصر وكُلَفها .

قال : وحَمَلَ منها مُوسَىٰ بن عيسَىٰ الهاشِمي [في دولة بني العَبَّاس][a] ألفيْ ألف ومائة ألف وثمانين ألف دينار [2] ، يَعْني بعد العَطاء والمُؤَن وسائِر الكُلَف .

قال : وكان خَراجُ مصر ، إذا بَلَغَ النِّيلُ سبع عشرة ذِراعًا وعشر أصابع ، أربعة آلاف ألف دينار ومائتيْ ألف وسبعة وخمسين ألف دينار ، والمَقْبوض عن الفَدَّان دينارين في خِلافَة المَأْمُون وغيره .

وبَلَغَ خَراجُ مصر ، في أيَّام الأمير أبي بَكْر محمد بن طُغْج الإخْشيد ، ألفيْ ألف دينار سوى ضِياعه التي كانت مِلْكًا له . والإخْشيدُ أوَّلُ من عَمِلَ الرَّواتِب بمصر .

وكان كاتِبُه ابن كَلا قد عَمِلَ تقديرًا عَجَزَ فيه المُرَتَّب عن الارْتفاع مائتي ألف دينار ، فقال له الإخْشيدُ : كيف نَعْمَل؟ قال : نحُطّ من الجِرايات والأرْزاق ، فلَيْس هؤلاء أوْلى من الواجِب ؛ فقال : غدًا تجيئني ونُدَبِّر هذا . فلمَّا أتاه من الغَد ، قال له الإخْشيدُ : قد فَكَّرت فيما قُلْت ، فإذا أصْحابُ الرَّواتِب ضُعَفاء وفيهم المَسْتورون وأبْنَاء النِّعَم ، ولَسْت آخُذ هذا النَّقْص إلَّا منك ؛ فقال ابن كَلا : سُبْحان الله! فقال : تَسْبيحًا! وما زال به الإخْشيدُ حتى أَخَذَ خَطَّه بالقيام بذلك .

فعُوتِبَ على ما صَنَعَه ، فقال : يا قَوْم اسْمَعوا إيش كان يعمل جاه أحمد بن محمد بن المَاذَرائي ، فقال له : ما بيني وبين السُّلْطان مُعامَلَة ، ولا للإخْشيد عليَّ طريق ، وهذه هَدِيَّة عشرة

---

a) زيادة من ابن خرداذبة .

---

[1] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ٨٣.

[2] نفسه ٨٤.

آلاف دينار للإخْشيد، وألف دينار لك. فجاءَني وقال: لك قِبَل ابن الماذَرائي مُطالَبة؟ فقلت: لا، فقال: هذه ألف دينار قد جاءَتك على وَجْه الماء، فأعْطاني ألفًا وأخَذَ عشرة آلاف دينار.

وأَهْدَى إليَّ محمد بن علي الماذَرائي في وَقْتٍ عشرين ألف دينار على يده، فاسْتقللتها. فلمَّا اجتمعنا عاتَبته، فقال لي: أَرْسَلْتُ إليك مائة ألف دينار، ولابن كَلا كاتِبك عشرين ألف دينار، فأَخذَ المائة وأعْطاني العشرين ألفًا. فَذَكَرت قَوْلَ محمد بن عليّ له، فقال: ما أَبْرَدَ هذا! حَفِظْت لك المائة ألف لوَقْتِ حاجَتِك، تُريدها؟ خُذْها وأنا أَعْلَم أنَّك تُتْلِفها! وبَلَغَت الرَّواتِبُ في أيَّام كافور الإخْشيدي خمس مائة ألف دينار في السنة لأرباب النِّعم والمَسْتورين وأجْناس الناس، ليس فيهم أَحَدٌ من الجَيْش ولا من الحاشِية ولا من المُتَصَرِّفين في الأعمال، فحَسَّن له عليُّ بن صالح الرّوذَباري الكاتِب أن يُوَفِّر من مالِ الرَّواتِب شيئًا ينتقصه من أرْزاق الناس. فساعَة جَلَس يعمل ذلك، حَكَّه جَبينُه فحَكَّه بقَلَمه، والحِكاكُ يزيد به، إلى أن قَطَعَ العَمَل وقامَ لما به، فعولِج حينئذٍ بالحَديد حتى ماتَ في رَمَضان سنة تسع[a] وأربعين وثلاث مائة.

وهذه مَوْعظةٌ من الله لمن تَوَسَّط للناس بالسُّوء، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [الآية ٤٣ سورة فاطر].

ولمَّا ماتَ كافُور، نَزَلَت مِحَنٌ شديدةٌ كثيرةٌ بمصر من الغَلاء والفَناء والفِتَن، فاتَّضَعَ خَراجُها إلى أن قَدِمَ جَوْهَرُ القائِد من بلاد المغرب بعساكِر مَوْلاه المُعِزّ لدين الله أبي تَميم مَعَدّ، فجَبَى الخَراجَ لسنة ثمان وخمسين وثلاث مائة: ثلاثة آلاف ألف دينار [b](ومائتي ألف دينار جباها في سنة تسع وخمسين وثلاث مائة ثلاثة آلاف ألف[b]) وأربع مائة ألف دينار ونيفًا.

وأَمَرَ الوزيرُ النَّاصِرُ للدين أبو [محمد][c] الحَسَن [بن عليّ بن][c] عبد الرَّحْمَن اليازوريّ، وَزير مصر في خِلافَة المُسْتَنْصِر بالله بن الظَّاهِر، أن يُعْمَل قَدْر ارْتفاع الدَّوْلة وما عليها من النَّفَقات، فعمل أرْباب كلّ ديوان ارْتفاعه وما عليه، وسَلَّم الجَميع لمتولّي ديوان المَجْلِس وهو زِمام الدَّواوين، فنَظَم عليه عَمَلًا جامِعًا وأتاه به، فوَجَدَ ارْتِفاع/ الدَّوْلة ألفَيْ ألف دينار: منها الشَّام ألف ألف دينار، ونَفَقاته بإزاء ارْتِفاعه والرِّيف وباقي الدَّوْلة ألف ألف دينار[1].

---

a) بولاق: سبع. (b-b) ساقطة من بولاق. c) زيادة اقتضاها السياق.

---

[1] فيما تقدم ٢٢١.

وقال القاضي أبو الحسَن[١] في كِتاب «المِنْهاج في عِلْم الخَراج» : وَقَفْتُ على مُقايَسَةٍ عُمِلَت لأَمير الجُيوش بَدْر الجَمالي ، حين قَدِمَ مصر في أيَّام الخَليفَة المُسْتَنْصر وغَلَبَ على أَمْرِها وَقَهَرَ مَنْ كان بها من المُفْسدين ، شَرَحَ فيها أنَّ الذي اشْتَمل عليه الارْتِفاع في الهِلالي لسنة ثلاث وثمانين وأربع مائة ، وفي الخَراجي على ما يَقْتَضيه الدِّيوان فيه ـ ممَّا كان جارِيًا في الأعمال المصرية من الخَراج وما يجري معه ، والمَضْمون والمُقْطَع والمُوَرَّد بغيره ، والمَحْلول بالقاهِرَة ومصر وضَواحيهما وناحِيَتَيْ الشَّرْقِيَّة والغَرْبِيَّة ، من أَسْفَل الأرض وأَعْمالها وتِنِّيس ودِمْياط وأَعْمالهما والإسْكَنْدَرية والبُحَيْرَة والأعمال الصَّعيدية العالية والدَّانية ووَاحَات وعَيْذاب ، لسنة ثمانين وأربع مائة الخَراجية على الرُّسوم المصرية ، وما كان من الأَعْمال الشَّامية التي أَوَّلُها من حَدِّ الشَّجَرَتَيْن وهو أَوَّل الأعمال الفِلَسطينية والأعمال الطَّرابُلُسية ، ولسنة ثمانٍ وسبعين وأربع مائة الخَراجِيَّة ـ على ما اسْتَقَرَّت عليه الجملة : عَيْنًا ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار ؛ وأنَّ الذي استقرَّت عليه جملة ما كان يُسْتأدَى في سنة ستٍّ وستين وأربع مائة الهلالية ، قبل نَظَر أمير الجُيوش ، المُوافِقَة لسنة ثلاث وستين وأربع مائة الخَراجية ، فكان مَبْلَغُها ألفيْ ألف وثمان مائة ألف دينار ، وكان الزَّائِدُ للسنة الجُيُوشية عَمَّا قَبْلَها ثلاث مائة ألف دينار ، ممَّا أُعرب عنه حُسْن العِمارة وشُمول العَدْل وكان نَظْمُ هذه المُقايَسَة في ذي الحجة[a] سنة ثلاث وثمانين وأربع مائة[٢].

وذَكَرَ ابنُ مُيَسَّر أنَّ الأَفْضَلَ بن أمير الجُيوش أَمَر بعَمَل تَقْدير ارْتِفاع ديار مصر ، فجاءَ خمسة آلاف ألف دينار[٣] ، ثم تَقاصَرَت إلى أن جَباها القاضي المُوَفَّقُ أبو الكَرَم [محمَّد][b] بن مَعْصوم العاصِمي التِّنِّيسي[٤] : عَيْنًا خالِصًا إلى بَيْت المال ، بعد المُؤَن والكُلَف ، ألف ألف دينار ومائتي ألف

---

a) ساقطة من بولاق . b) زيادة اقتضاها السياق .

---

[١] القاضي السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسن علي بن القاضي المؤتمن ثقة الدولة أبو عمرو عثمان بن يوسف القرشي الشافعي المصري (٥١٢-٥٨٥هـ/ ١١١٨-١١٨٩م) صاحب النظر في ديوان مصر وصاحب كتاب «المنهاج في علم الخراج» أو «المنهاج في أحكام خراج مصر» ، وصفه المقريزي بأنه كتاب جليل الفائدة ، وموضوعه وصف النظام المالي في مصر في آخر أيام الفاطميين وبداية الدولة الأيوبية وعلى الأخص المكوس التي كانت تحصل في الموانئ والخراج . (انظر دراسة المصادر في المقدمة) .

[٢] المخزومي : المنهاج في أحكام الخراج ـ خ ٥٦و .

[٣] ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ٧٢:٣ وفيما تقدم ٢٢٢.

[٤] القاضي المُوَفَّق أبو الكَرَم محمد بن مَعْصُوم التنيسي ناظر الدواوين في نهاية الدولة الفاطمية ، تولاها في سنة ٥٤٠هـ ، وتوفي مقتولًا في شوال سنة ٥٤٤هـ (ابن ميسر :=

دينار إلى آخر سنة أربعين وخمس مائة . ثم بعده لم يَجْبها هذه الجِباية أَحَدٌ حتى انْقَرَضَت الدَّوْلَةُ الفاطِمية[١] .

وذَكَرَ القاضي الفاضِلُ في «مُياوَماتِه» : أنَّ عِبَرَ البلاد من إسْكَنْدَرية إلى عيْذاب لسنة خمسٍ وثمانين وخمس مائة ، خارِجًا عن الثُّغور وأرْباب الأمْوال الديوانية وعِدَّة نَواحٍ ، أربعة آلاف ألف وست مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفًا وتسعة عشر[a] دينارًا .

وسَبَبُ اتِّضاع خَراج مصر ـ بعد ما بَلَغَ مع الرُّوم في آخر سنة مَلَكوا قبل فَتْح مصر عشرين ألف ألف دينار ـ أنَّ الملوكَ لم تَسْمَح نُفُوسُهم بما كان يُنْفَقَ في كُلف عِمارَة الأرض ، فإنَّها تَحْتاج أن يُنْفَقَ عليها ما بين رُبْع مُتَحَصَّلها إلى ثُلُثه .

وآخر ما اعْتُبر حالُ أرض مصر ، فوُجِدَ مُدَّة حَرْثها ستين يومًا ، ومِساحَة أرْضها مائة ألف ألف وثمانين ألف ألف فدَّان ، يزرع منها في مُباشَرَة ابن مُدَبِّر أربعة وعشرون ألف ألف فدّان ، وأنَّه لا يتم خَراجُها حتى يكون فيها أربع مائة ألف وثمانون ألف حَرَّاث يَلْزَمون العَمل فيها دائِمًا . فإذا أُقيم بها هذا القَدْر من العُمَّال في الأرض ، تَمَّت عِمارَتُها ، وكَمُل خَراجُها .

وآخِر ما كان بها مائة ألف وعشرون ألف مُزارِع : في الصَّعيد سبعون ألفًا ، وفي أَسْفَل الأرْض خمسون ألفًا . وقد تَغَيَّرَ الآن جميعُ ما كان بها من الأوْضاع القَديمَة ، واختلَّت اخْتِلالًا فاضِحًا .

ذِكْرُ أَصْناف أَراضي مِصْر وأقْسام زِراعَتِها[٢]

اعْلَم أنَّ أراضي مِصْر عِدَّةُ أصْناف : أعْلاها قِيمَةً وأوْفاها سِعْرًا وأغْلاها قَطِيعَةً ، «الباق» : وهو أَثَر القَرَظ [والقطاني][b] والمقاثي ، فإنَّه يَصْلُح لزراعة القَمْح .

---

a) بولاق : وعشرين. b) إضافة من ابن مماتي .

= أخبار مصر ١٤٣؛ المقريزي : المقفى الكبير ٧: ٢٧٦-٢٧٧، اتعاظ الحنفا ٣: ١٩٩-٢٠٠) .

[١] هذه الفقرة وردت في بولاق بعد الفقرة التالية .

[٢] المصدر الذي اعتمد عليه المقريزي في هذا الفصل هو «قوانين الدواوين» لابن مماتي الذي خصَّص الباب الرابع من كتابه لأحكام الأرضين وتفاوت قيمتها ... وتعيين جيِّدها من رديئها ٢٠١-٢٠٤، واعتمد عليه أيضًا القلقشندي في صبح الأعشى ٣: ٤٤٦-٤٤٨؛ وانظر كذلك المخزومي : المنهاج في علم خراج مصر ١-٤٦؛ النويري : نهاية الأرب ٨: ٢٤٦-٢٥٣.

وبعد الباق «رَيّ الشَّراقي» : وهو الأَرْضُ التي ظَمِئَت في الخالية ، فلمَّا رُوِيَت في الآتية وصارَت مُسْتريحة من الزَّرْع وزُرِعَت ، أَنْجَب زَرْعُها .

و«البَرَايِب» [١]: وهو أَثَر القَمْح والشَّعير ، وسعرها دون الباقي لضَعْف الأرض بزراعة هذين الصِّنْفَيْن ، فمتى زُرِعَت على أَثَر أحَدهما لم يَنْجُب كنَجابَة الباقِ . والبَرايِب صالِح لزِراعَة القُرْط والقَطَاني والمقاتي ، فإنَّ الأرضَ تستريح بزراعَة هذه الأصْناف ، وتَصيرُ في القابل أرْض باق .

و«البُقْماهَة» [٢] أثَر الكَتَّان ، فإن زُرِعَت قَمْحًا حَسُنَ .

و«الشَّتونِيَّة» [٣] أَثَر ما رُوي وبارَ في السنة الماضية ، وهو دون الشَّراقي .

و«السَّلايح» [٤]: ما رُوِيَ وبارَ فحُرِثَ وتَعَطَّل ، وهو مثل رَيّ الشَّراقي ، فإنَّ زَرْعَه يكون ناجِبًا .

و«النَّقَا» [٥] : كلُّ أرْض خَلَت من أَثَر ما زُرِعَ فيها ، ولم يَبْقَ بها شاغِلٌ عن قَبول ما يُزْرَع فيها من أَصْناف الزِّراعات .

و«الوُسَّخ» [٦] كلُّ أرْض اسْتَحْكَم وُسَّخُها ، ولم يَقْدر الزَّارِعون على إزاحَتِه كلّه منها ، بل حَرَثُوا وزَرَعُوا فيها فجاءَ زَرْعُها مُخْتَلِطًا بالحَلْفاء ونحوها .

و«الغالِبُ» [٧] : كلُّ أرْض حَصَل فيها نَباتٌ شَغَلَها عن قَبول الزِّراعَة ، ومَنَع كَثْرَته من زِراعَتِها وصارَت مَراعي .

و«الخَرْس» : كلُّ أرْض فَسَدَت بما اسْتَحْكَم فيها من موانِع قَبول الزَّرْع وكانت بها مَراعٍ ، وهو أَشَدّ من الوُسَّخ الغالِب ، وإذا أُدْمِن على إزالة ما فيها من الموانِع تَهَيَّأ صَلاحُها .

و«الشَّراقيّ» : كلُّ أرْض لم يَصل إليها الماءُ ، إما لقُصُورِ ماء النّيل أو عُلُوّ الأرض ، أو سَدّ طريق الماء عنها أو غير ذلك .

---

[١] عند المخزومي وابن مماتي والقلقشندي : البروبية وأضاف القلقشندي : «وأهل زماننا يقولون البرايب» وهو المصطلح الذي استخدمه المقريزي .

[٢] كذا ضبطها القلقشندي : بضم الباء الموحدة وسكون القاف .

[٣] أضاف القلقشندي : وأهل زماننا يقولون الشتاني ، وكذا ذكره المخزومي .

[٤] عند المخزومي وابن مماتي والقلقشندي : شق شمس السلايح .

[٥] عند ابن مماتي والقلقشندي : البرش النقا .

[٦] عند ابن مماتي والقلقشندي : الوسخ المزدرع (المزروع) .

[٧] عند ابن مماتي والقلقشندي : الوسخ الغالب .

/و«المُسْتَبْحِر» : كلُّ أرْض وَطيئَة حَصَلَ بها الماءُ ولم يَجد مَصْرَفًا ، حتى فاتَ أوانُ الزَّرْع وهو باقٍ في الأرض.

و«السِّباخ» : كلُّ أرض غَلَبَ عليها المِلْح حتى صَلَحت ولم يُنْتَفَع بها في زِراعَة الحُبوب ، وربَّما زُرِعَت - ما لم يَسْتَحْكم السِّباخ فيها - غير الحبوب كالهِلْيَوْن والباذِنْجان ، ويُزْرَع فيها القَصَبُ الفارسي .

ومِمَّا لا غِنَى لأراضي مصر عنه «الجُسُور» ، وهي على قِسْمَيْن : سُلْطانِيَّة ، وبَلَدِيَّة ، ف «الجُسور السُّلْطانية» هي لعامَّة النَّفْع في حِفْظ النِّيل على البلاد كافَّة إلى حين يُسْتَغْنَى عنه ، ولها رُسُومٌ مُوَظَّفَة على الأعْمال الشرقية والأعمال الغربية ، وكانت في القَديم تُعْمَل من أموال النَّواحي ، ويتولَّى عَمَلها مُسْتَقْبِلو الأراضي ، ويُعْتَد لهم بما صُرِفَ عليها مِمَّا عليهم من قَبالات الأراضي ، ثم صارَ بعد ذلك يُسْتَخْرَج ، برَسْم عملها من هذين العملين ، مالٌ بأيدي المُسْتَخْدَمين من الدِّيوان ويُصْرَف عليها ، ويَفْضُل من المال بَقِيَّة تحمل إلى بيت المال [1]. ثم صار يتولَّى ذلك أَعْيانُ أُمَراء الدَّوْلَة إلى أن حَدَثَت الحَوادِثُ في أيَّام النَّاصِر فَرَج ، فصارَ يُجْبَى من البلاد مالٌ عظيمٌ ولا يُصْرَف منه شيءٌ ألبتَّة ، بل يُرْفَع إلى السُّلْطان ، ويَتَفَرَّق كثيرٌ منه بأيدي الأعْوان ، ويُسَخَّر أهلُ البلاد في عمل الجُسُور ، فيجيء الخَلَل كما ستَقِف عليه إن شاءَ الله تعالى عند ذِكْر أَسباب الخَراب .

وأمَّا «الجُسُورُ البَلَدِيَّة» فإنَّها عِبارَة عمَّا يَخُص نفعها ناحية دون ناحية ، ويتولَّى إقامَتَها المُقْطَعون والفَلَّاحون من أصْل مالِ الناحية .

ومحلّ الجُسُور السُّلْطانية من القُرى محلّ سُور المَدينَة الذي يَتَعَيَّن على السُّلْطان الاهْتمام بعِمارَته وكِفاية الرَّعِيَّة أَمْرَه. ومحل الجُسُور البَلَديَّة مَحَل الدُّور التي من داخِل السُّور ، فيلزم صاحِبُ كلّ دار أن يُصْلِحها ويُزيل ضَرَرَها .

ومن العادَة أنَّ المُقْطَعَ إذا انْفَصَل - وكان قد أَنْفَقَ شيئًا من مالِ إقْطاعه في إقامة جِسْرٍ لأَجْل عِمارَة السَّنَة التي انْتَقَل الإقْطاعُ عنه فيها - فإنَّ له أن يَسْتَعيد من المُقْطَعِ الثاني نَظير ما أَنْفَقَه من مالِ سَنَته في عِمارَة سنة غيره [2].

وأَصْلَح ما زُرِعَ «القَمْحُ» في أَثَر الباق والشَّراقِي ، وكان يُزْرَع بالصَّعيد القَمْحُ على أَثَر القَمْح لكثرة الطَّرْح ، وربَّما زُرِعَ هناك على أَثَر الكتَّان والشَّعير . ويُزْرَع القَمْحُ من نصف شهر بابَة إلى

---

[1] نقلًا عن ابن مَمَّاتي : قوانين الدواوين ٢٣٢.

[2] نقلًا عن ابن مماتي : قوانين الدواوين ٢٣٢- ٢٣٣.

آخر هاتور، وهذا في العَوالي من الأرض التي تَخْرُج بَدْرِيًا، وأمّا البَحائِر المتأخِّرَة فيمتد وَقْتُ الزَّرْع فيها إلى آخر شهر[a] كِيَهك.

ومِقْدارُ ما يَحْتاجُ إليه الفَدَّانُ الواحِد من بَذْر القَمْح يختلف بحَسَب قُوَّة الأرض وضَعْفِها ورِقَّتها وتَوَسُّطها، وما يُزْرَع في التَّلْويق[b] وما يُزرع في الحَرْث، وأكثر البَذْر من أرْدَبٌ إلى خمس وَيْبات وأربع وَيْبات أيضًا، ويوجد في الصَّعيد أراضٍ تحتمل دون هذا، وفي حَوْف رَمْسيس أراضٍ يَكْفى الفَدَّان منها نحو الوَيْبَتَيْن.

ويُدْرَك الزَّرْعُ بمصر في بَشَنْس (وهو نِيسان). ويختلف ما يَخْرُج عن فَدَّان القَمْح بحسب الأراضي، فيرمي من إردَبَّيْن إلى عشرين إرْدَبًّا [١].

وقال أبو بكر بن وَحْشيَة في كتاب «الفِلاحَة النَّبَطِيَّة»: وذَكر أنَّ في مصر إذا زَرَعُوا يَخْرُج من المُدِّ ثلاث مائة مُدٍّ. والعِلَّة في ذلك حَرارَة هَواء بلادِهم، مع سَمْن أرضهم وكثرة لُدودَة[c] ماء النِّيل [٢].

ولمَّا كان في سنة ستٍّ وثمان مائة، انْحَسَرَ الماءُ عن قِطْعَة أرضٍ من بِرْكَة الفَيُّوم التي يُقال لها اليوم: بَحْر يُوسُف، فزُرِعَت وجاءَ زَرْعُها عجيبًا رَمَى الفَدَّانُ منها أحدًا وسبعين أرْدبًّا من شعير بكَيْل الفَيُّوم، وأرْدَبُّها تسع وَيْبات.

وكانت قَطيعَةُ الفَدَّان القَمْح ببلاد الصَّعيد، في الأيَّام الفاطِمِيَّة، ثلاثة أرادِبّ، فلمَّا مُسِحَت البِلاد، في سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة، تقرَّر على كلِّ فَدَّان إرْدبَّان ونصف، ثم صار يُؤْخَذ إرْدبَّان عن الفَدَّان. وأمَّا أراضي أسْفَل الأرض فيُؤْخَذ عنها عَيْن لا غَلَّة.

ويُزْرَعُ «الشَّعيرُ» في أَثَرِ القَمْح وغيره في الأرْض التي غرقت وهي رَطِبَة، وتتقدَّم زراعتُه على زِراعَة القَمْح بأيام، وكذلك حَصادُه فإنَّه يُحْصَد قبل القَمْح. ويحتاج الفَدَّانُ منه أن يُبْذَر فيه بحسب الأرض، ويخرج أكثر من القَمْح، ويكون إدْراكه في بَرْمودَة (وهو آذار ونيسان) [٣].

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: اللوق. c) بولاق: كدورة.

[١] ابن مماتي: قوانين الدواوين ٢٥٨-٢٥٩؛ وقارن المخزومي: المنهاج ٢.

[٢] ابن وحشية: الفلاحة النبطية ١: ٢١٨.

[٣] نقلًا عن ابن مماتي: قوانين ٢٥٩؛ وقارن المخزومي: المنهاج ٢.

ويُزْرَعُ «الفُول» في الحَرْث إثر البَرايِب من أوَّل شهر بابَة ، ويؤكل وهو أَخْضَر في شهر كِيَهْك . ويحتاج الفَدَّانُ من البَذْرُ منه إلى ثلاث وَيْبات ونحوها ، ويُدْرَك في بَرَمُودَة ، ويُتَحَصَّلَ من فَدَّانه ما بين عشرين إرْدبًا إلى ما دون ذلك [1].

ويُزْرَع «العَدَسْ» و«الحِمَّص» من شهر هَاتور إلى كِيَهك . و«الجُلْبان» لا يُزْرَع إلَّا في أرَقّ الأراضي حَرْثًا من الأرض العالية ، ويُزْرَع تَلْويقًا في الأراضي الخَرْس . ويُبْذَر في كلِّ فَدَّان من الحِمَّص مِن أرْدَبّ إلى ثمان وَيْبات ، ومن الجُلْبان من أَرْدَبّ إلى أَرْبع وَيْبات ، ومن العَدَس من وَيْبَتين إلى ما دُونهما . وتُدْرَك هذه الأصناف في بَرَمُودَة . ويُتَحَصَّل من فَدَّان الحُمُّص من أربعة أرادِب إلى عشرة ، ومن الجُلْبَان من عشرة أرادبّ إلى ما دونها ، والعَدَسُ من عشرين إرْدَبًّا إلى ما دونها [2].

وأَنْجَبَ ما يكون «الكَتَّانُ» إذا زُرِعَ في البَرْش [3]، ويَحْتاج أن يُسَبَّخ بتُراب سَبْخ ، وهو إذا طال رَقَدَ ، ويُقَلع قُضْبانًا ويُسَمَّى حينئذٍ أسْلاقًا ، ويُنْشَر في مَوْضِعه حتى يَجِفّ ، فإذا جَفَّ حُمِلَ وهُدِر وعُزِلَ جَوْزُه ، فيخرج منه بَزْر الكَتان ، ويُسْتَخْرَج منه الزَّيْت/ الحار . ويُزْرَعُ الكَتَّان في شهر هاتُور ، ويَحْتاج الفَدَّانُ أن يُبْذَر فيه من البَزْر ما بين أَرْدَبّ وثُلْث إلى ما دون ذلك ، ويُدْرَك في شهر بَرَمُودَة ، ويَخْرُج من الفَدَّان ما بين ثلاثين شَدَّة إلى ما دون ذلك ، ومن البَزْر من ستة أَرادبّ إلى ما دُونها . وكانت قَطيعَةُ الفَدَّان منه في القَديم : بأرْض الصَّعيد من خمسة دنانير إلى ثلاثة ، وفي دِلاص ثلاثة عشر دينارًا ، وفيما عَدَا ذلك ثلاثة دنانير [4].

ويُزْرَع «القُرْط» عند أَخْذ ماء النِّيل في النُّقْصان ، ولا يَنْبَغي تأخير زَرْعه إلى أَوان هُبُوب الرِّيح الجنوبية التي يُقالُ لها : المَرِيسِيَّة ، وأوَّل ما يُبْذَر في شهر بَابَة ، ورُبَّما زُرِع بعد النَّوْروز . والحَراثي منه يُزْرَع في كِيَهْك وطُوبَة ، ويُزرع أحْيانًا في هاتور ، ويُبْذَر في كلِّ فَدَّان من وَيْبَتَيْن ونصف إلى ما حَوْلها ، ويُدْرَك الأَخْضَر منه في آخِر شهر كِيَهْك ، ويُدْرَك الحَراثي في طُوبة وأَمْشير ، ويُتَحَصَّل من الفَدَّان الحَراثي ما بين أرْدَبَّيْن إلى أرْبع وَيْبَات [5].

---

[1] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٢٦٠؛ وقارن المخزومي : المنهاج ٢.

[2] ابن ممّاتي : قوانين ٢٦٠- ٢٦١؛ وقارن المخزومي : المنهاج ٢- ٣.

[3] البرش هو أثر المقات والسمسم والقطن . (المخزومي : المنهاج ١).

[4] ابن ممّاتي : قوانين ٢٦١- ٢٦٢؛ وقارن المخزومي : المنهاج ٣.

[5] نفسه ٢٦٢- ٢٦٣؛ وقارن المخزومي : المنهاج ٢- ٣.

ويُزْرَع «البَصَل والثُّوم» من شهر هاتور إلى نصف كِيَهْك . ويُبْذَر في فَدَّان البَصَل من نِصف ورُبع وَيْبَة إلى وَيْبَة ، والثُّومُ من مائة حِزْمَة إلى مائة وخمسين حِزْمَة ، ويُدْرَك ذلك في بَرَمُودَة . والبَصَلُ الذي يُخْرَج ليُزْرَع زَريعَة ، فإنَّه يُزْرَع من أوَّل كِيَهْك إلى العاشِر من طُوبَة ، ويَخْرُج من زَريعَته عشرة أرادِب من الفَدَّان ، ويُدْرَك في بَشَنْس [1].

ويُزْرَع «التُّرْمس» في طُوبَة ، وزَريعَته لكلِّ فَدَّان أرْدَبّ ، ويُدْرَك في بَرَمُودَة ، ويُتَحَصَّل من الفَدَّان ما بين عشرين أرْدبًّا إلى ما دونها [2].

وأمَّا الأصْناف الصَّيْفِيَّة : فإنَّ البِطِّيخَ واللُّوْبيا يُزْرَعان من نِصْف بَرَمهات إلى نِصف بَرَمُودَة ، ويُزْرَع في الفَدَّان قَدَحان ، ويُدْرك في بَشَنْس [3].

ويُزْرَع السُّمْسِم في بَرَمُودَة ، وزَريعَته رُبْع وَيْبَة للفَدَّان ، ويُدْرَك في أَبيب ومِسْرَى ، ويُتَحَصَّل من الفَدَّان ما بين أرْدَبّ إلى ستة أرادِب [4].

ويُزْرَع القُطْن في بَرَمُودَة ، وزَريعَته أرْبَع وَيْبات حَبّ للفَدَّان ، ويُدْرك في تُوت ، فيَخْرُج من الفَدَّان من ثمانية قناطير بالجَرَوي إلى ما دُونها [5].

ويُزْرَع قَصَبُ السُّكَّر من نصف بَرَمْهَات في أَثَر الباق والبَرْش ، وتُبْرَش أرْضُه سَبْع سِكَك [حَرْثًا وتثنية وتثليثًا وتوريبًا وتعديلًا وتخطيطًا وتقطيعًا] [a]، وأَنْجَبه ما تكامَل له ثلاث عَزْقات قبل انْقضاء شهر بَشَنْس ، ومِقْدار زَريعَته ثُمْن فَدَّان وما حَوْله لكلِّ فَدَّان [6] . ويَحْتاجُ القَصَب إلى أرْض جَيِّدَة دَمِثَة ، قد شَمِلها الرَّيّ وعَلاها ماءُ النِّيل ، وقُلِعَ ما بها من الحَلْفاء ونُظِّفَت ، ثم بُرِشَت بالمُقَلْقَلات (وهي مَحاريث كِبار) ستة وجوه وتُجَرَّف حتى تَتَمَهَّد ، ثم تُبْرَش ستة وجوه أخرى وتُجَرَّف . ومعنى البَرْش : الحَرْث .

فإذا صَلُحَت الأَرْض وطابَت ونَعِمَت وصارَت تُرابًا ناعِمًا وتَساوَت بالتَّجْريف ، شُقَّت حينئذٍ بالمُقَلْقَلات ، ويُرْمَى فيها القَصَبُ قطعتَيْن : قِطْعَة مُثَنَّاة وقِطْعَة مُفْرَدَة ، بعد أن تُجْعَل الأَرْضُ

a) إضافة من المخزومي وابن مماتي .

[1] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٢٦٣.
[2] نفسه ٢٦٤.
[3] نفسه ٢٦٥.
[4] نفسه ٢٦٥.
[5] نفسه ٢٦٥- ٢٦٦.
[6] نفسه ٢٦٦؛ وقارن المخزومي : المنهاج ٤؛ وانظر فيما يلي الشهور القبطية ٧٣٠- ٧٣٩.

أحْواضًا وتُفْرَز لها جَداول يصل الماءُ منها إلى الأَحْواض ، ويكون طولُ كلِّ قِطْعَة من القَصَب ثلاثة أنابيب كَوامِل وبعض أُنْبوبه من أَعْلى القِطْعَة وبعض أُخرى من أَسْفَلِها ، ويُخْتَار ما قَصُرَت أنابيبُه وكَثُرت كُعوبُه من القَصَب ، ويُقالُ لهذا الفعل : النَّصْب .

فإذا كَمُلَ نَصْبُ القَصَب أُعيد التُّرابُ عليه ، ولا بُدّ في النَّصب أن تكون القِطْعَة مُلْقَاة لا قائِمَة ، ثم يُسْقَى ـ من حين نَصْبه في أوَّل فَصْل الرَّبيع ـ لكلِّ سبعة أيَّام مرة .

فإذا نَبَت القَصَبُ وصارَ أوْراقًا ظاهِرَة ، نَبَتَت معه الحَلْفَاء والبَقْلَة الحَمْقَاء التي يُسَمِّيها أهْلُ مصر الرِّجْلَة ، فعند ذلك تُعْزَق أَرْضُه (ومعنى العِزاق أن تُنْكَش أرْضُ القَصَب) ويُنَظَّف ما نَبَتَ مع القَصَب .

ولا يزالُ يُتعاهَد ذلك حتى يَغْزُو القَصَبُ ويَقْوَى وَيَتكاثَف ، فيُقالُ عند ذلك : طَرَد القَصَبُ عِزاقَه ، فإنَّه لا يمكن عِزاقُ الأَرْض ولا يكون هذا ، حتى يَبْرُز الأُنْبوبُ منه .

ومَجْموعُ ما يُسْقَى بالقَادُوس ثمانية وعشرون ماءً . والعادَةُ أنَّ الذي يُنْصَب من الأَقْصاب على كلِّ مَجال بَحْراني ، أي مُجاوِر للبَحر ـ إذا كانَت مزاحة الغَلَّة بالأَبْقار الجِياد مع قُرْب رَشَاء الآبار ـ ثمانية أَفْدِنَة ، ويَحْتاج إلى ثمانية أرْؤُس بَقَر ، فإن كانت الآبارُ بعيدةً عن مَجْرَى النِّيل لا يُمْكِن حينئذٍ أن يَقُومَ المجالُ بأكثر من ستة أَفْدِنَة إلى أربعة .

فإذا طَلَعَ النِّيلُ وارْتَفَع ، سَقَى القَصَب عند ذلك ماءُ الرَّاحَة ؛ وصِفَة ذلك أن يُقْطَع عليه من جانِب جِسْرٍ يكون قد أُدير عليه ليَقيه من الغَرَق عند ارْتِفاعِ النِّيل بالزِّيادَة ، فيَدْخُل الماءُ من ثُلْمَة في ذلك الجِسْر حتى يَعْلو على أرْض القَصَب نحو شِبْر ، ثم يُسَدّ عنه الماءُ حتى لا يَصِل إليه ، ويُتْرَك الماءُ فَوْق الأرض قَدْر ساعتين أو ثلاث إلى أن يسجن ، ثم يُصْرف من جانِب آخر حتى يَنْضُب كلُّه ، ويُجَدَّد عليه ماءٌ آخر كذلك ، فيتعاهَد ما ذَكَرْنا مِرارًا في أيَّام مُتَفَرِّقَة بقَدْر مَعْلوم ، ثم يُفْطَم بعد ذلك .

فإذا عُمِلَ ما قُلْناه وَفَّى القَصَبُ حَقَّه ، فإن نَقَصَ عن ذلك حَصَل فيه الخَلَل . ولا بُدّ للقَصَب من القَطْران قبل أن يَحْلو حتى لا يُسَوِّس . ويُكْسَر القَصَبُ في كِيَهْك . ولا بد من حَرْق آثار القَصَب بالنَّار ، ثم سَقْيه وعَزْقِه كما تقدَّم ، فيُنْبِت قَصَبًا يُقالُ له : الخِلْفَة ، ويُسَمَّى الأوَّل الرَّأْس ، وقنود الخِلْفَة أَجْوَد غالبًا من قُنود الرَّأْس . ووَقْتُ إدْراك الرأس في طوبة ، والخِلْفَة في نصف هاتور .

وغاية إدارة مَعاصر القَصَب إلى النَّوْروز . ويَحْصُل من الفَدَّان ما بين/ أربعين أَبْلُوجَة قند إلى ثمانين أَبْلوجَة ، والأَبْلوجَة تَسَعُ قِنْطارًا فما حَوْلَه .

ويُزْرَع القُلْقاس مع القَصَب ، ولكلِّ فَدَّانٍ عشرة قَناطِير قُلْقاس جَرَوِيَّة . ويُدْرَك في هاتور [1] . ويُزْرَع الباذِنْجَان في بَرَمْهات وبَرْمُودَة وبَشَنْس وبَؤُونَة ، ويُدْرك من بَؤُونة إلى مِسْرَى [2] . وتُزْرَع النِّيلَة من بَشَنْس ، والزَّرِيعَة للفَدَّان وَيْبَة ، ويُدْرَك من أَبيب [3] . ويُزْرَع الفِجْلُ طول السَّنَة ، وزَرِيعَة الفَدَّان من قَدَح واحِد إلى قَدَحَيْن [4] . ويُزْرَع اللِّفْتُ في أَبيب ، وزَرِيعَة الفَدَّان قَدَح واحِد ، ويُدْرَك بعد أربعين يومًا [5] . ويُزْرَع الخَسُّ في طُوبَة شتلًا ، ويُؤْكل بعد شهرين [6] . ويُزْرَع الكُرُنْبُ في تُوت شتلًا ، ويُدْرَك في هاتور [7] . ويُغْرَس الكَرْمُ في أَمْشير ، نَقْلًا وتَحْويلًا . ويُغْرَس التِّينُ والتُّفَّاحُ في أَمْشير . ويُقَلَّم التُّوتُ في بَرَمْهات ويُغْرَس . ويُبَلُّ اللَّوْزُ والخُوخ والمِشْمِش في ماء طُوبَة ثلاثة أيام ـ وهي قُضْبان ـ ثم يُغْرَس ، ويُحَوَّل شَجَرُها في طُوبَة . ويُزْرَع نَوَى التَّمْر ، ثم يَتَحَوَّل وَدْيًا ، فيُنْقَل . ويُدْفَن بَصَلُ النَّرْجِس في مِسْرَى . ويُزْرَع الياسَمين في أيَّام النَّسيء وفي أَمْشير . ويُزْرَع المَرْسين في طُوبَة وأَمْشير ، غَرْسًا . ويُزْرَع الرَّيْحان في بَرَمُودَة . ويُزْرَع حَبُّ المَنْثور في أيَّام النِّيل . ويُزْرَع المَوْزُ الشَّتْوِي في طُوبَة ، والصَّيْفِي في أَمْشير . ويُحَوَّل الخِيارُ شَنْبَر في بَرَمْهات . وتُقَلَّم الكُرومُ [في أمشير][a] على رِيح الشَّمال ، إلى لَيالٍ من بَرَمْهات ، حتى تَخْرُج العَيْنُ منها . وتُقَلَّم الأَشْجارُ في طُوبَة وأَمْشير ، إلَّا السِّدْر ـ وهو شَجَر النَّبْق ـ فإنَّه يُقَلَّم في بَرَمُودَة [8] .

وتُسْقَى الأَشْجارُ في طُوبَة ماءً واحِدًا ، ويُسَمُّونه ماء الحَيَاة . وتُسْقَى في أَمْشير ثانيًا عند خروج الزَّهْر . وتُسْقَى في بَرَمْهات ماءَيْن آخرَيْن إلى أن يَنْعَقِد التَّمْر . وتُسْقَى في بَشَنْس ثلاث مياه . وتُسْقَى في بَؤُونَة وأَبيب ومِسْرَى ماءً في كلِّ سبعة أيام . وتُسْقَى في تُوت وبابَة مَرَّةً واحِدَةً تَغْريقًا من ماءِ النِّيل . وتُسْقَى في هاتور من ماء النِّيل بتَغْريق المَساطب . ويُسْقَى البَعْل من الكُروم في هاتور من ماءِ النِّيل مَرَّةً واحِدَةً تَغْريقًا [9] .

وجَميعُ أراضي مِصْر تُقاسُ بالفَدَّان ، وهو عبارَة عن أربع مائة قَصَبَة حاكِمِيَّة طولًا في عَرْض قَصَبَة واحِدَة ؛ والقَصَبَة ستة أُذْرُع وثُلُثا ذِراع بذِراع القُماش ، وخمسة أَذْرُع بذِراع النَّجَّار تقريبًا [10] .

---

a) زيادة من ابن مماتي .

---

[1] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٢٦٧. [2] نفسه ٢٦٧– ٢٦٨. [3] نفسه ٢٦٨. [4] نفسه ٢٦٩. [5] نفسه ٢٦٩. [6] نفسه ٢٦٩– ٢٧٠. [7] نفسه ٢٧١. [8] نفسه ٢٧١– ٢٧٣. [9] نفسه ٢٧٣. [10] النويري : نهاية ٨: ٢٤٩.

وقال القاضي أبو الحَسَن في كِتاب «المِنْهَاج» : خَراجُ مصر قد ضُرِبَ على قَصَبَةٍ في المِساحَة اصْطُلِحَ عليها ، زَرَعَ المُزارِع على حُكْمِها . وتَكْسير الفَدَّان أربع مائة قَصَبة ، لأنَّه عشرون قَصَبَة طولًا في عشرين قَصَبَة عَرْضًا . وقَصَبَةُ المِساحَة تُعْرَف بالحاكِمِيَّة ، وهي تُقارِب خمسة أَذْرُع بالنَّجّاري [1] .

ذِكْرُ أَقْسَامِ مَالِ مِصْرَ

اعْلَم أنَّ مالَ مصر في زَمَنِنا ينقسم قسمين : أَحَدُهُما يُقالُ له : «خَراجي» ، والآخَر يُقالُ له : «هِلالي» . فـ «المالُ الخَراجيُّ» ما يُؤْخَذ مُسانَهَةً من الأَراضي التي تُزْرَع حُبوبًا ونَخْلًا وعِنَبًا وفاكِهَةً ، وما يُؤْخَذ من الفَلَّاحين هديةً مِثْل الغَنَم والدَّجاج والكَشْك وغيره من طُرَف الرِّيف . و«المالُ الهِلاليُّ» عِدَّةُ أبواب ، كلُّها أَحْدَثَها وُلاةُ السُّوء شيئًا بعد شيء .

وأَصْلُ ذلك في الإسلام أنَّ أَميرَ المؤمنين عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ بلَغَه أنَّ تُجَّارًا من المسلمين يأتون بأَرْض الهِنْد[a] فيأخُذون منهم العُشْر ، فكَتَب إلى أبي مُوسَىٰ الأَشْعَري وهو على البَصْرَة : أن خُذْ من كلِّ تاجِر يمرّ بك من المسلمين من كلِّ مائتي درهم خمسة دَراهِم ، وخُذْ من كلِّ تاجِر من تُجَّار العَهْد ـ يعني أهل الذِّمَّة ـ من كلِّ عشرين دِرْهَمًا دِرْهَمًا ، ومن تُجَّار الحَرْب من كلِّ عشرة دَراهِم دِرْهَمًا .

وقيل لابن عُمَر : كان عُمَرُ يَأْخُذ من المسلمين العُشْر ؟ قال : لا . ونَهَى عُمَر بن عبد العزيز عن ذلك ، وكَتَبَ : ضَعُوا عن الناس هذه المُكوس ، فليس بالمَكْس ولكنَّه النَّجْسُ . ورُوي أنَّ عُمَرَ بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أتاهُ ناسٌ من أَهْل الشَّام ، فقالوا : أَصَبْنا دَوَابًّا وأَمْوالًا فخُذ منها صَدَقَةً تُطَهِّرُنا بها ؛ فقال : كيف أَفْعَلُ ما لم يَفْعَل مَنْ كان قبلي ؟ وشاوَر ؛ فقال عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه : لا بَأْس به إن لم يَأْخُذه من بعدك . فأَخَذَ عن العَبْد عَشَرَة دَراهِم وكذلك عن الفَرَس ، وعن الهَجين ثمانية ، وعن البِرْذون والبَغْل خمسة .

وأَوَّلُ من وَضَعَ على الحَوانيت الخَراج في الإسلام أميرُ المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي جَعْفَر المَنْصور في سنة سبع وستين ومائة ، ووَلِيَ ذلك سعيدٌ الحَرَشي .

---

a) بولاق : أرض الجند .

---

[1] قارن مع ابن مَمّاتي : قوانين ٢٧٩، وهذه الفقرة موجودة في بولاق وغير موجودة في النسخ التي اطَّلَعتُ عليها .

وَأوّل من أَحْدَثَ مالًا سِوى مال الخَراج بمصر ، أَحْمَد بن محمد بن مُدَبِّر ـ لمّا وَلِيَ خَراجَ مصر بعد سنة خمسين ومائتين ـ فإنَّه كان من دُهاة الناس وشَيَاطين الكُتَّاب ؛ فابْتَدَعَ في مصر بِدَعًا صارَت مستمِرّةً من بعده لا تُنْقَض ، فأحاطَ بالنَّطْرون وحَجَر عليه بعد ما كان مُباحًا لجميع الناس ، وقرَّرَ على الكَلأ الذي تَرْعاه البَهائِم مالًا سَمّاه «المَراعِي» ، وقرَّرَ على ما يُطْعِم الله من البَحْر مالًا وسَمّاه «المَصايِد» ، إلى غير ذلك . فانْقَسم من حينئذٍ مالُ مصر إلى «خَراجي» و«هِلاليّ» ، وعُرِفَ المالُ الهلالي لعَهْدئذٍ بـ «المَرافِق والمَعاوِن» [a] [1] .

فلمّا وَلِيَ الأمير أبو العَبّاس أحمد بن طُولون إمارَة مصر ، وأَضَافَ إليه أميرُ المؤمنين المُعْتَمِد على الله/ الخَراجَ والثُّغور الشّامِيّة ، رَغِبَ وتَنَزَّه على أدْناس المَعاوِن والمَرافِق ، وكَتَبَ بإسْقاطِها في ١٠٤
جميع أعْماله ، وكانت تَبْلُغ بمصر خاصَّةً مائة ألف دينار في كلّ سنة ؛ وله في ذلك خَبَرٌ فيه أكبر مُعْتَبَر ، قد ذَكَرْته عند ذِكْر أخْبار الجامِع الطُّولوني من هذا الكتاب [2] .

ثم أُعيدت الأموالُ الهِلاليةُ في أثناء الدَّوْلَة الفاطِمية عندما ضَعُفَت ، وصارَت تُعْرف بـ «المُكُوس» واحدها مَكْس .

فلمّا استَبَدَّ السُّلْطانُ النّاصِرُ صَلاحُ الدين أبو المُظَفَّر يُوسفُ بن أيُّوب بمُلْك مصر ، أمَرَ بإسْقاط مُكُوس مصر والقاهِرَة ، فكَتَبَ عنه القاضي الفاضِلُ مَرْسومًا بذلك ؛ وكان لجُمْلَةُ ذلك في كلّ سنة مائة ألف دينار ، تَفْصيلها : مَكْسُ البُهار وعِمالَته : ثلاثة وثلاثون ألفًا وستّ مائة[b] وأربعة وستون دينارًا . مَكْس البَضائِع والقَوافِل وعِمالَتها : تسعة آلاف وثلاث مائة وخمسون دينارًا . مُنْقَلَت الصِّناعَة ، عن مَكْس البَزّ الوارِد إليها والنُّحاس والقَصْدير والمَرْجان والمفاضلات : خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون دينارًا . الصّادِر عن الصِّناعَة بمصر : ستة آلاف وستّ مائة وستة وستون دينارًا . سَمْسَرَة التَّمْر : ثلاث مائة دينار . الفُنْدُق بالمُنْيَة عن مَكْس البَضائع : ثمان مائة دينار وستة وخمسون دينارًا . رُسُومُ دار القَنْد [3] : ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير . رُسُومُ الخَشَب الطُّويل والمِلْح : ستّ مائة وستة وسبعون دينارًا . رُسُومُ الفلت [كذا] المنسوبة إلى بِلْبَيْس

---

a) بولاق : وكان الهلالي يعرف في زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون . b) بولاق : ثلاث مائة .

---

[1] انظر ، البلوي : سيرة أحمد بن طولون ٧٤- ٧٦؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ٨٥- ٨٦؛ وفيما يلي ٢٨٩.

[2] فيما يلي ٢: ٢٦٦- ٢٦٧.

[3] انظر عن دار القند ، ابن دقماق : الانتصار ٤ : ٦.

والبُوري : مائة دينار . رُسُومُ التَّفْتيش بالصِّناعَة عن البَهار وغيره : مائتان وسبعة عشر دينارًا . خَيْمَة أَرْمَنْت عن الوارِد إليها : سبعة وستون دينارًا . فُنْدُق القُطْن : ألفا دينار . سُوقُ الغَنَم بالقاهِرَة ومصر والسَّمْسَرَة وعُبورُ الأغْنام بالجِيزَة : ثلاثة آلاف وثلاث مائة وأحد عشر دينارًا .

عُبور الأَغْنَام والكَتَّان والأَبْقار بباب القَنْطَرَة : ألف ومائتا دينار . واجِبُ ما يَرِد[a] من الكَتَّان الحَطَب إلى الصِّناعَة : مائتا دينار . رُسُومُ واجِب الغَلَّات ، كالحُبُوب الوارِدَة إلى الصِّناعَة والمَقْس والمُنْيَة والجِسْر والتَّبَّانين ومَفالِت جَزيرَة الذَّهَب وطَمُّوه وسر الدَّرَج : ستة آلاف دينار . مَكْس ما يَرِد إلى الصِّناعَة من الأَغْنام : ستة وثلاثون دينارًا . الأَغْنَام البيتوتيَّة : اثنا عشر دينارًا . العَرْصَة والسَّرْسَناوي بالجِيزة ، ومَكْس الأَغْنام : مائة وتسعون دينارًا . مُنْفَلت الفَيُّوم عمَّا يرد من الكَتَّان من القِبْلَة ومن البَضَائِع الوارِدَة من الفَيُّوم وغيره : أربعة آلاف ومائة وستون دينارًا . مَكْس الوَرْف[b] المجلوب إلى الصِّناعَة ورَسْم التَّفْتيش : مائتا دينار . الجِفْنَة[c] بسَاحِل الغَلَّة والأَقْوات والرَّسائِل : سبع مائة وثمانية وستون دينارًا . [d]فلت العريف بالصِّناعَة الصادرة مائتا دينار[d] دارُ التُّفَّاح والرُّطب بمصر والعَرْصَة بالقاهِرَة : ألف وسبع مائة دينار . رَسْمُ ابن المَلِيجي : مائتا دينار . دارُ الجُبْن : ألف دينار . مُشارَفَة الجَزَّارين[e]: مائتان وأربعون دينارًا . واجِب الحُلِيّ الوَارِد من الوَجْه البَحْري والقُطْن : ألف وعشرون دينارًا .

رَسْمُ سَمْسَرَة الصُّفَا : ألف ومائتا دينار . مُنْفَلت الصَّعيد : مائة وأَحد وستون دينارًا . خاتَم الشَّرْب والدَّبيقي : ألف وخمس مائة دينار . مَكْس الصُّوف : مائتا دينار . نصف المَوْرَدة بسَاحِل المَقْس : أربعة عشر دينارًا دِكَّة السَّمْسار : ثلاث مائة وخمسون دينارًا . فلت التعريف[f] بالصِّناعَة وحَمْلة البَهار والبَضائع : مائتان وستة عشر دينارًا . الحَلْفَاء الوارِدَة من القِبْلَة : مائة وخمسة وثلاثون دينارًا . الوَتَد[g] والشرقية والطُّعْم بدار التُّفَّاح ومُنْفَلت القِبْلَة بالتَّبَّانين والجِسْر : خمسة وثلاثون دينارًا . رُسُومُ الصُّفا والحَمْرَاء ورُسُومُ دار الكَتَّان : ستون دينارًا . حِمايَة الغَلَّات بالمَقْس ودار الجُبْن : مائة وأربعون دينارًا . الحَلْفَاء الوارِدَة على الجسْر ومَعَدِّيَّة المِقْياس[h]: مائة دينار . خُمْس البُّونية بالجِيزَة : عشرون دينارًا . تَلّ التَّعريف بالصِّناعَة : ثمانية وعشرون دينارًا . مُنْفَلت الغَلَّات بمَعَدِّية جَزيرَة الذَّهَب : عشرة دنانير .

---

a) بولاق : ما ورد . b) بولاق : الورق . c) بولاق : الحصة . (d-d) ساقطة من بولاق . e) بولاق : الخزائن . f) بولاق : نفلت العريف . g) بولاق : الوقد والشرفين . h) الأصل : أنفاس .

رُسوم الحَمَام بساحِل الغَلَّة : خمس مائة وأربعة وثلاثون دينارًا . واجِب الحِنَّاء الوارِد في البر ، ثمان مائة دينار . واجِب الحَلْفاء والقُضَاب . ثلاثة وستون دينارًا . مَكْس ما يَرِد من البَضَائِع إلى المُنْيَة : مائة وأربعة وثمانون دينارًا . مَسْلَخَة شَطَنُوف البَرَّانِيَّة : مائتا دينار . سوق السُّكَّرِيين : خمسون دينارًا . رُسومُ سيمة[a] الجملي بالشَّارع وسُوق وَرْدان : تسعة عشر دينارًا . واجِبُ الفَحْم الوارِد إلى القاهِرَة : عشرة دنانير . مَعَدِّيَة الجِسْر بالجيزَة : مائة وعشرون دينارًا . سيمة[a] البقري : أربعون دينارًا السنيمة[a] بدار الدِّباغَة : تسعة عشر دينارًا . سَمْسَرَةُ الحَبْس الجُيُوشي : ثلاث مائة واثنا عشر دينارًا . دُكَّانُ الدُّهْن ومَعْصَرَة السِّيرج والخَلّ بالقاهِرَة : خمس مائة دينار . الخَلُّ الحامِض وما معه أربع مائة وخمسة دنانير . بُيوتُ الغَزْل والمَصْطَبَة : ثلاث مائة وخمسون دينارًا . ذَبائح الأبْقار : ألف دينار . سُوقُ السَّمك بالقاهِرَة ومصر : ألف ومائتا دينار . رُسوم الدِّلالَة : ثلاث مائة دينار . سَمْسَرة الكَتَّان ثلاث مائة دينار . رُسُومُ حِمايَةِ الصِّناعَتَيْن : أربع مائة دينار . مُرَبَّعة العَسَل : مائتان واثنان وثلاثون دينارًا . مَعادِي جَزيرَة الذَّهَب وغيرها : ثلاث مائة دينار . خاتَم الشَّمْع بالقاهِرَة : ثلاثة وستون دينارًا . زَرِيَّة الذَّبيحَة : سبع مائة دينار . مَعَدِّيتا المِقْياس وإمْبابَة : مائتا دينار . حُمُولة السَّلْجَم : ثلاث مائة وثلاثون دينارًا . مَكْس دِكَّة الدَّبَّاغ : ثمان مائة دينار . سُوقُ الرَّقيق : خمس مائة دينار . مَعْمل الطَّبَري /: مائتان وأربعون دينارًا . سُوقُ مَنْبُوبة : مائة وأربعة وستون دينارًا . ذَبائح الضَّأْن بالجيزَة ورُسُومُ ساحِل السَّنْطَة : عشرة دنانير . نَخُّ السَّمَك . خمسة دنانير . تَنُّور الشَّوْي : مائة دينار . نِصْف الرَّطْل من مَطابخ السُّكَّر : مائة وخمسة وثلاثون دينارًا . [b]خاتَم الحِلِّي : مائة وعشرون دينارًا[b] سُوقُ الدَّواب بالقاهِرَة ومصر : أربع مائة دينار . سُوقُ الجِمال : مائتان وخمسون دينارًا . قَبّان الحَنّاء : ثلاثون دينارًا . واجِبُ طاقات الأَدَم : ستة وثلاثون دينارًا . مُنْفَلَت الخام بالقَشَّاشين : ثلاثة وثلاثون دينارًا . أَنْوِلَة القَصَّار : أربعون دينارًا . [b]أعْوان المراكب المنشأة والخضر والحَلْفاء : ستّة وثلاثون دينارًا[b] . بُيوتُ الفَرُّوج : ثلاثون دينارًا . الشَّعْر والطَّارات : أربعة دنانير . رُسُومُ الصَّبْغ والحَرير : ثلاث مائة وأربعة وثلاثون دينارًا . وَزْنُ الطَّفْل : مائة وأربعون دينارًا . مَعْمل المِزْز : أربعة وثمانون دينارًا . الفاخوريات[c] بمصر والقاهِرَة : مائتان وستة وثلاثون دينارًا .

---

a) بولاق : خيمة . (b-b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : الفاخور .

وذَكَرَ ابنُ أبي طَيّ[١] أنَّ الذي أَسْقَطَه السُّلْطانُ صَلاحُ الدين والذي سامَحَ به لِعِدَّة سنين آخِرها سنة أربع وستين وخمس مائة، مَبْلَغُه عن نَيِّف ألف ألف دينار وألفي ألف أرْدَبّ، سامَحَ بذلك وأبْطَلَه من الدَّواوين وأَسْقَطَه عن المُعاملين؛ فلمَّا وَلِيَ السُّلْطانُ الملكُ العَزيزُ عُثْمان بن صَلاح الدين يُوسُف، أعادَ المُكوسَ وزَادَ في شَناعَتِها.

قال القاضي الفاضِلُ في «مُتَجَدِّدات» سنة [أربع و][a] تسعين وخمس مائة: وكان قد تَتابَع في شعبان أَهْلُ مصر والقاهِرَة في إظْهار المُنْكَرَات وتَرْك الإنْكار لها، وإباحَة أَهْل الأَمْر والنَّهْي لَها[b]، وتَفاحَشَ الأَمْرُ فيها، إلى أن غَلا سِعْر العِنَب لكَثْرَة من يَعْصُره، وأُقيمَت طاحُون بحارَة المَحْمودِيَّة لطَحْن حَشيش المِزْر وأُفْرِدَت بِرَسْمِه.

وحُمِّيَت بُيوت المِزْر، وأُقيمت عليها الضَّرائِبُ الثَّقيلَة، فمنها ما انتهى أَمْرُه في كلّ يوم إلى ستة عشر دينارًا، ومُنِعَ المِزْر البُيوتي ليتوفَّر الشِّراء من البُيوت المَحْمِيَّة، وحُمِلَت أواني الخَمْر على رُؤوس الأشْهاد وفي الأسْواق من غير مُنْكِر، وظَهَرَ من عاجل عُقوبَة الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وُقوف زيادة النِّيل عن معتادِها، وزيادَة سِعْر الغَلَّة في وَقْت مَيْسورِها[٢].

---

a) إضافة مما يلي ٢: ٥. b) بولاق: فعلها.

---

[١] يحيى بن حميد بن ظافر بن النَّجَّار بن عليّ بن عبد الله الحلبي المعروف بابن أبي طَيّ، مؤرِّخ شيعي، كان يتعيَّش من نَسْخ الكتب، وعلى ذلك فإنَّ كثيرًا من الكتب التي تنسب إليه من الصعب تحقيق نسبتها، كما أن عناوينها لا تتفق دائمًا مع ما ينقله عنه المتأخرون، توفي نحو سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م. كانت مؤلفاته مصدرًا هامًّا لأبي شامة وابن خلكان وابن الفرات والمقريزي، ولا تعيننا النقول الكثيرة الموجودة عندهم على تحديد عناوين كتبه التي نقلوا عنها، ورغم أنّ الصفدي نسب إليه كتابًا في «تاريخ مصر»، إلّا أنّ النقول التي عند ابن خلكان والمقريزي الخاصة بمصر لا تحدد على الإطلاق عنوان كتابه؛ بينما كان ابن الفرات هو الوحيد الذي سَجَّلَ عنوان كتابه وهو «معادن الذهب في ذكر الملوك والخلفاء وذوي الرُّتَب»، وهو يوحي بأنَّه من ناحية تاريخ عام للعالم الإسلامي، ومن ناحية أخرى حوليات محلية لمدينة حلب مسقط رأسه (الصفدي: الوافي بالوفيات (مخ. السليمانية رقم ٨٤٢) ورقة ٣٠و؛ ابن شاكر: فوات الوفيات ٤: ٢٦٩-٢٧١؛ وراجع كذلك Cahen, Cl., «Une chronique chiʿite au temps des Croisades» dans *Comptes-Rendues des Scéances de l'Académie des Inscriptions*, 1935, pp. 258-69; id., *La Syrie du Nord au temps des Croisades*, Damas 1940, p. 55; id., *EI*[2] art. *Ibn Abi Tayyi* III, p. 715؛ السيد الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٠، ٢٣٤-٢٣٦؛ محمد حلمي محمد أحمد: مقدمة الروضتين لأبي شامة ١: ٣٠-٣١).

[٢] انظر فيما يلي ٢: ٥.

وقال في «مُتَجَدِّدات» سنة اثنتين وتسعين وخمس مائة : وآلَ الأَمْرُ إلى وُقوف وَظيفَة الدار العَزيزية من خُبْز ولَحْم إلى أن يَتَحمَّل في بعض الأوقات لا كلّها لبعض ما يُتَبَلَّغ به من خُبْز ، وكَثُرَ ضَجيجُهم وشَكْواهم فلم يسمع ووَقَفَ الحالُ فيما يُنْفَق في دار السُّلْطان ، وفيما يُصْرف إلى عيالِه ، وفيما يَقْتات به أولادُه ، وما يُغْصَب من أربابه ، وأَفْضَى هذا إلى غَلاءِ الأسعار ، فإنَّ المُتَعَيِّشين من أَرْباب الدَّكاكين يَزيدون في أسعار المأْكُولات العامَّة مِقْدار[a] ما يُؤْخَذ منهم للدار السُّلْطانيَّة ، فأَفْضَى ذلك إلى النَّظَر في المكاسب الخَبيثَة .

وضُمِنَ باب[b] المِزْر والخَمْر باثني عشر ألف دينار ، وفُسِحَ في إظْهار مُنْكره والإعلان به والبَيْع له في القاعات والحَوانيت مع قُرْب اسْتِهلال رَجَب ، وما اسْتَطاع أحَدٌ من العامَّة الإنْكار لا باليد ولا باللِّسان ، وصارَ هذا السُّحْت ممَّا ينفرد السُّلْطانُ به لنَفَقَته وطَعامِه ، وانتقلَ مالُ الثُّغور ومالُ الجَوالي الحَلّ الطَّيب ، إلى أن يَصير حُوالات لمن لا يُبالي من أيْن أَخَذَ المال ، ولا يُفَرِّق بين الحَرام والحَلال [1] .

وفي شَهْر رَمَضان غَلَا سِعْرُ الأَعْناب لكَثْرَة العَصير منها ، وتَظاهَر به أَرْبابُه لتَحْكير تَضْمينه السُّلْطاني ، واسْتِيفاء رَسْمه بأيْدي مُسْتَخْدميه . وبَلَغَ ضَمانُه سبعة عشر ألف دينار ، وحَصَلَ منه شيءٌ حُمِلَ إليه . فبَلَغني أنَّه صَنَعَ به آلات الشَّراب ذَهبيَّات وفِضِّيَّات .

وكَثُرَ اجْتِماعُ النِّساء والرِّجال في شهر رَمَضان ـ لا سيما على الخَليج لمَّا فُتِح ، وعلى مصر لمَّا زادَ الماءُ ، وتلقى فيه النِّيل بمَعاصٍ نَسْأل الله ألَّا يُؤاخِذنا بها ، وألَّا يُعاقبنا عليها بجَراءَة أَهْلها [2] .

وقال جامِعُ «السِّيرَة التُّرْكِيَّة» : ولمَّا استقلَّ الملكُ المُعِزُّ عِزُّ الدين أَيْبَك التُّرْكُماني الصَّالِحي بمملكة مصر في سنة خمسين وستّ مائة ـ بعد انْقِراض دَوْلَة بني أَيُّوب ـ اسْتَوْزَر شَخْصًا من نُظَّار الدَّواوين يُعْرَف بشَرَف الدين هِبَة الله بن صاعِد الفائِزي ، أَحَد كُتَّاب الأَقْباط ـ وكان قد أَظْهَرَ الإسْلام من أيَّام الملك الكامِل وتَرَقَّى في خِدْمَة الكِتابَة ـ فقَرَّر في وَزارَته أَمْوالًا على التُّجَّار وذَوي اليَسار وأَرْباب العَقار ، ورَتَّبَ مُكوسًا وضمانات سَمَّوها «حُقوقًا ومُعامَلات» [3] .

---

a) بولاق : بمقدار . b) ساقطة من بولاق .

---

[1] المقريزي : السلوك ١: ١٣٤ .

[2] نفسه ١: ١٣٦ .

[3] جامع «السيرة التركية» هو الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدَّوادار ، والنّص موجود في كتابه «زُبْدَة الفِكْرَة =

ولمَّا وَلِيَ الملك المُظَفَّر سَيْفُ الدين قُطُز مملكة مصر، بعد خَلْعِه الملك المَنْصور عليّ بن المُعِز أَيْبَك، أَحْدَثَ عند سَفَره الذي قُتِلَ فيه مَظالِمَ كثيرة لأَجْل جَمْع المال وصَرْفِه في الحركة لِقتال جُموع التَّتَر، منها «تَصْقيع الأَمْلاك وتَقْويمها وزَكاتها»، وأَحْدَث على كلِّ إنْسان دينارًا يُؤْخَذ منه، وأَخَذَ ثُلُث التَّرِكات الأهلية»، فبَلَغَ ذلك ستّ مائة ألف دينار في كلِّ سنة [1].

فلمَّا قُتِلَ قُطُز، وجَلَس الملكُ الظَّاهِرُ رُكْنُ الدين بَيْبَرْس بعده على سَرير المُلْك بقَلْعَة الجَبَل، أَبْطَلَ ذلك جميعه وكَتَبَ به مَسامِيح قُرِئَت على المنابر، ثم أَبْطَل ضَمان المِزْر وجِهاته في سنة اثنتين وستين وستّ مائة، وكَتَبَ وهو بالشَّام إلى الأمير عِزّ الدين الحِلِّي ـ نائِب السَّلْطَنة بمصر ـ أن يُبْطِلَ بُيوت المِزْر، ويُعَفِّي آثارَه، ويَخْرب بُيوته، ويَكْسر مَواعِينه، ويُسْقِط ارْتِفاعه من الدِّيوان، فإنَّ بعضَ الصَّالِحين تَحَدَّث معي في ذلك وقال: القَمْحُ الذي جَعَلَه الله تعالى قُوتًا للعالَم يُداسُ بالأَرْجُل، وقد تَقَرَّبْت إلى الله تعالى بإبْطاله، ومَنْ تَرَكَ شيئًا لله عَوَّضَه/ خَيْرًا منه، ومَنْ كان له على هذه الجِهَة شيءٌ يُعَوِّضُه الله من المالِ الحَلال. فأَبْطَل الحِلِّي ذلك، وعَوَّضَ المُقْطَعين عليه بَدَلَه. ١:

وفي سنة ثلاثٍ وستين أُبْطِل حِراسَة النُّهَار بالقاهرة ومصر ـ وكانت جملةً مُسْتَكْثَرَةً ـ وكُتِبَ بذلك تَوْقيعًا، وأُبْطِل من أعمال الدَّقَهْلِيَّة والمِرْتاحِيَّة عن رُسُوم الوِلاية أربعة وعشرين ألف دينار [2].

وفي خامِس عشري شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستّ مائة، قُرِئَ بجامِع مصر مَكْتوبٌ بإبْطال ما قُرِّرَ على رُسُوم وِلايَة مصر من الرُّسُوم، وهي مائة ألف درهم وأربعة آلاف درهم معبرة، فبَطُل ذلك [3].

وأُبْطِلَ ضَمانُ الحَشيش من ديار مصر كلِّها في سنة خمس وستين وستّ مائة، وأَمِرَ بإراقَة الخُمور، وإبْطال المُنْكَرات، وتَعْفِيَة بُيوت المُسْكِرات، ومَنْع الخانات والخواطئ بجَميع أقْطار مملكة مصر والشَّام، فطَهُرَت من ذلك البِقاع.

= في تاريخ الهجرة»، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، بيروت - المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ١٩٩٨، ٦؛ المقريزي: السلوك ١: ٣٨٤؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٧٢- ٧٣؛ وانظر فيما يلي ٢: ١٢٣، ٢٣٧ «الحقوق والمعاملات».

[1] المقريزي: السلوك ١: ٤٣٧- ٤٣٨. والتصقيع هو أخذ أجرة شهرين من الأملاك في كل سنة، والتقويم هو أن تقوّم الدار فيؤخذ عن كل دينار درهم ورقا (Rabie, H., *The Financial System of Egypt* pp. 107-8) وانظر فيما يلي ٢: ٩٠.

[2] نفسه ١: ٥٣٧- ٥٣٨.

[3] نفسه ١: ٥١٤.

ولمَّا وَرَدَت المَراسيمُ بذلك على القاضي ناصِر الدين أحمد بن المُنَيِّر[١] قال:

[منسرح]

لَيس لإبْليس عندَنا أَرَبُ غير بِلاد الأمير مَأْوَاه
حَرَمْتَه الخَمْرَ والحَشيشَ معًا حَرَمْتَه ماؤه ومَرْعَاه

وقال الأديبُ الفاضِل أبو الحُسَيْن الجَزَّار[٢]:

[منسرح]

قد عُطِّلَ الكُوبُ من حَبَابِه وأُخْلِيَ الثَّغْرُ من رُضَابِه
وأَصْبَحَ الشَّيْخُ وهو يَبْكي على الذي فَاتَ من شَبابِه[٣]

وفي تاسِع جُمادَى الآخرة سنة ستّ وستين وستّ مائة، أَمَرَ الملكُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس بإراقَة الخُمور، وإبْطال الفَساد، ومَنْع النِّساء الخواطئ من التَّعَرُّض للبِغَاء من جميع القاهِرَة ومصر وسائِر الأعمال المصرية. فَتَطَهَّرَت أَرْضُ مصر من هذا المُنْكَر، ونُهِبَت الخانات التي كانت مُعَدَّة لذلك، وسُلِبَ أَهْلُها جميع ما كان لهم، ونُفِيَ بعضهم، وحُبِسَت النِّساءُ حتى يَتَزَوَّجن. وكُتِبَ إلى جميع البلاد بمِثْل ذلك، وحُطَّ المالُ المُقَرَّر على البَغَايا من الدِّيوان، وعُوِّضَ الحاشِيَة من جِهات حلّ بنظيره.

وفي سابع عشر ذي الحجة سنة تسعٍ وستين وستّ مائة، أُرِيقَت الخُمور، وأُبْطِل ضَمانُها ـ وكان كلَّ يوم ألف دينار ـ وكُتِبَ تَوْقيعٌ بذلك قُرِئَ على المنابِر[٤]. وافتتح سنة سبعين بإراقَة الخُمور، والتَّشَدُّدُ في إزالة المُنْكَرات، وكان يومًا مَشْهودًا بالقاهِرَة[٥]. وبَلَغَه في سنة أربع وسبعين

---

[١] القاضي ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر بن قاسم بن مختار بن المنير قاضي الإسكندرية المتوفى سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م (المقريزي: السلوك ١: ٥٥٣، المقفى الكبير ١: ٦٥٣- ٦٥٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٨: ١٢٨- ١٣٠).

[٢] الجمال أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزّار الشاعر المتوفى سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، كان أبوه وأقاربه جزّارين بالفسطاط، قال ابن سعيد: «دكاكينهم بها إلى الآن قد عاينتها وأبصرته معهم بها» واجتمع به غير مرة أثناء زيارته للفسطاط، وأورد مختارات من شعره بلغت نحو خمسين صفحة من نشرة الكتاب. وهو أحد الشعراء المصريين المهمين في القرن السابع الهجري اشتهر بتفننه في استخدام ألوان البديع وخاصةً التورية، ويغلب على شعره الفكاهة والميل إلى المزاح والدعابة (ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) ١: ٢٩٦- ٣٤٨؛ ابن شاكر: فوات الوفيات ٤: ٢٧٧- ٢٩٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٣٤٥).

[٣] المقريزي: السلوك ١: ٥٥٣- ٥٥٤ (في حوادث سنة ٦٦٤هـ).

[٤] نفسه ١: ٥٩٥.

[٥] نفسه ١: ٥٩٧.

عن الطّواشي شُجاع الدين عَنْبَر المعروف بصَدْر الباز ـ وكان قد تمكّن منه تمكّنًا كثيرًا ـ أنّه يَشْرَب الخَمْر، فشَنَقَه تحت قلعة الجَبَل [١].

ولمّا وَلِيَ الملكُ المَنصورُ سَيْفُ الدين قَلاوون الألْفي مملكة مصر أَبْطَلَ «زَكاةَ الدَّوْلَبَة» [٢][a]، وهو ما كان يُؤْخَذ من الرَّجُل عن زَكاة مالِه أبَدًا ولو عُدِم منه، وإذا ماتَ يُؤْخَذ من وَرَثَته، وأبْطَل ما كان يُجْبَى من أهل إقليم مصر كلّه، إذا حَضَر مُبَشِّر بفَتْح حِصْن أو نَحْوه، فيُؤْخَذ من الناس بالقاهِرَة ومصر وعلى قَدْر طَبَقاتِهم، ويجتمع من ذلك مالٌ كثيرٌ. وأبْطَلَ ما كان يُجْبَى من أهل الذِّمَّة، وهو دِينارٌ سوى الجالية، برَسْم نَفَقَة الأَجْنادِ في كلّ سنة. وأبْطَلَ مُقَرَّر جِباية الدِّينار من التُّجّار عند سَفَر العَسْكَر والغُزاة، وكان يُؤْخَذ من جميع تُجّار القاهرة ومصر: من كلّ تاجِر دينارٌ. وأَبْطَلَ ما كان يُجْبَى عند وَفَاء النِّيل ممّا يُعْمَل به شَوْي وحَلْوى وفاكِهَة في المِقْياس، وجَعَل مَصْرِفَ ذلك من بَيْت المال، وأَبْطَلَ أَشْياءَ كثيرة من هذا النَّمَط.

وأَبْطَلَ الملكُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون عِدَّةَ جِهات قد ذُكِرَت في الرَّوْك النَّاصِري [٣]. وآخِر ما أَدْرَكْنا إبْطالَه ضَمَانُ المغاني[b] وضَمَانُ القَراريط، في سنة ثمانٍ وسبعين وسبع مائة، على يد الملك الأَشْرَف شَعْبان بن حسين بن محمد بن قَلاوون.

فأمّا «ضَمَانُ المغاني»[b] فكان بَلاءً عَظيمًا، وهو عِبارَة عن أَخْذ مالٍ من النِّساء البَغايا، فلو خَرَجت أَجَلّ امْرأةٍ في مصر تريد البِغاء نَزَّلَت اسمها عند الضَّامِنَة، وقامَت بما يَلْزَمها، لما قَدَر أكبرُ أهل مصر على مَنْعها من عَمَل الفاحِشَة. وكان على النِّساء إذا انْتَفَسْنَ، أو عَرَّسْن امرأةً، أو خَضَّبت امرأةٌ يَدَيها بحنّاء، أو أرادَ أَحَدٌ أن يَعْمَل فَرَحًا، لا بد من مال[c] بتقرير تأْخُذه الضَّامِنَة، ومن فَعَلَ فَرَحًا بأغانٍ، أو نَفَّس امرأته من غير إذن الضَّامِنَة، حَلَّ به بَلاءٌ لا يُوصَف [٤].

---

a) بولاق: زكاة الدولة. b) بولاق: الأغاني. c) هذه الكلمات الثلاث ساقطة من الأصل.

---

[١] المقريزي: السلوك ١: ٦٢٣.

[٢] نفسه ١: ٦٦٤؛ النويري: نهاية الأرب ٣١: ٩؛ بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة ١٧٨؛ العيني: عقد الجمان ٢: ٢٣٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٣٦٣.

وزكاة الدَّوْلَبَة هي مال كان يؤخذ من أصحاب الأموال ولو عُدِمَ المال، وإن مات عن فقر أُخذ ذلك من ورثته، وكانت تفرض على كل مستخدم للدواليب – أي الآلات أو العجلات – في الري أو الغزل أو صناعة السكر، وعلى هذا الغرض تكون هذه الزكاة ضريبة على الآلات المستعملة في الصناعة (المقريزي: السلوك ١: ٦٦٤ هـ [١]؛ وانظر فيما يلي ٢: ٤٠٥).

[٣] فيما تقدم ٢٣٥– ٢٤١.

[٤] المقريزي: السلوك ٣: ٢٦٦؛ ابن إياس: بدائع =

وأمَّا «ضَمَانُ القَرارِيط» ، فإنَّه كان يُؤْخَذ من كلِّ من باعَ مِلْكًا عن كلِّ ألف درهم عشرون دِرْهَمًا [١]. وكان مُتَحصَّل هاتين الجِهَتَيْن مالًا كثيرًا جِدًّا.

وأَبْطَلَ الملكُ الظَّاهِرُ بَرْقوق ما كان يُؤْخَذ من أهل البُرُلُّس وشُورَى وبَلْطيم ، شِبْه الجَالِيَة ، في كلِّ سنة ستين ألف درهم . وأَبْطَلَ ما كان على القَمْح من مَكْس يُؤْخَذ من الفُقَراء بثَغْر دِمْياط ممَّن يَبْتاع من إِرْدَبَّيْن فما دونهما . وأَبْطَلَ ما كان يُؤْخَذ مَكْسًا من مَعْمَل الفَرُّوج بالنَّحْريرية والأعمال الغَرْبية . وأَبْطَلَ ما كان يُؤْخَذ تَقْدِمَةً لمن يَسْرَح إلى العَبَّاسَة من الخَيْل والجِمال والغَنَم وغير ذلك . وأَبْطَلَ ما كان يُؤْخَذ على الدَّريس والحَلْفاء بباب النَّصْر خارج القاهِرَة . وأَبْطَلَ ضَمَانَ المغاني[a] بمُنْيَة بني خَصيب[b] بأعْمَال الأُشْمونَيْن ، وبزِفْتا بالأعمال الغربية ./ وأَبْطَلَ الأبْقار التي كانت تُرْمَى بالوَجْه البحري عند فَراغ الجُسُور .

وأَبْطَلَ الأميرُ يَلْبُغا السَّالِمِي ـ لمَّا وَلِيَ أُسْتادّار السُّلْطان الملك النَّاصِر فَرَج بن بَرْقوق في سنة إحدى وثمان مائة ـ تعريف الغِلال بمُنْيَة بني خَصيب[b]، وضَمَان العَرْصَة بها ، وأَخْصاص الغَسَّالين وكانت من المَظالِم القَبيحَة . وأَبْطَلَ من القاهِرَة ضَمان بُحَيْرَة البَقَر ، ثم أعادَه القِبْطُ من بعده . وقد بَقِيَت إلى الآن من المُكُوس بقايا .

أَخْبَرني الأميرُ الوَزير المُشير الأُسْتادَّار يَلْبُغا السَّالِمِي [٢] ـ رحمه الله[c] ـ في أيام وَزارَته ، أنَّ جِهاتِ المُكُوس بديار مصر تَبْلُغ في كلِّ يوم بِضْعًا وسبعين ألف درهم ، وأنَّه اعْتَبَرَها فلم يَجِدها تُصْرَف في شيءٍ من مَصالِح الدَّوْلَة ، بل إنَّما هي مَنافِع للقِبْط وحَواشِيهم . وكان قد عزم على إبْطال المُكُوس فلم يُمْهَل .

و«المالُ الهِلالِيُّ» عبارة عمَّا يُسْتأدَى مُشاهَرَةً ، كأَجْر الأَمْلاك المُسَقَّفَة من الآدُر ، والحَوانيت ، والحَمَّامات ، والأَفْران ، والطَّواحين ، وعِداد الغَنَم ، والجِهَة الهَوائية المَضْمونة والمَحْلولة . وعَدَّ بعضُ الكُتَّاب أَحْكارَ البُيوت ، وريع البَساتين التي يُسْتَخْرَج أجْرُها مُشاهَرَةً ، ومَصايِد السَّمَك ، ومَعاصِر الشَّيْرَج والزَّيْت ، في المال الهِلالي [٣].

---

a) بولاق : الأغاني . b) بولاق : ابن خصيب . c) ساقطة من بولاق .

= الزهور ١/٢: ١٦٦- ١٦٧.

[١] المقريزي : السلوك ٣: ٢٦٧؛ نفسه ١/٢: ١٦٧.

[٢] اعتمد المقريزي في مواضع كثيرة عمَّا أخبره به يلبغا السالمي الذي كان يكن له تقديرًا خاصًّا، وانظر فيما يلي ٢: ٢٩٠- ٢٩٢.

[٣] النويري : نهاية الأرب ٨: ٢٢٨.

ومن اصْطِلاح كُتَّاب مصر القُدَماء أن تُورَد جِزْيَةُ أَهْل الذِّمَّة من اليهود والنَّصارىٰ قَلَمًا واحِدًا مستقلًّا بذاته، بعد الهِلالي وقَبْل الخَراجي، وذلك أنَّها تُستَأْدَى مُسانَهَةً، وكانوا يَرَوْن وُجوبها مُشاهَرَةً. وفائِدته فيمن أَسْلَمَ أو ماتَ في أَثْناء الحَوْل، فإنَّهم كانوا يُلْزِمُونَه بقَدْر ما مَضَى من السَّنَة قبل إسْلامِه أو وَفاتِه، فلذلك أُورِدَت فيما بين الهِلاليّ والخَراجيّ[1].

وكانوا في الإقْطاعات الجَيْشِيَّة، يُجْرونها مَجْرى مال الهِلالي عند خُروج إقْطاع من يُقْطَع، ودُخول آخر على ذلك الإقْطاع، فإنَّها كانت تُسْتَخْرَج على حُكْم الشُّهور الهِلاليَّة لا الشَّمْسِيَّة بحيث لو تَعَجَّلَها مُقْطَع في غُرَّة السنة على العادة في ذلك، وخَرَجَ الإقْطاعُ عنه في أثناء السَّنَة بوَفاة أو نَقْلِه إلى غيره، اسْتَحَقّ منها نَظير ما مَضَى من شُهور السنة إلى حين انتقال الإقْطاع عنه، لا على حُكْم ما استحق من المُغَلّ. ويستحق المُتَّصل من اسْتِقبال تاريخ مَنْشُوره، كعادة النُّقود والمُتَخَلِّل بينهما من المُدَّة مُسْتَحَقّ ذلك الديوان، فيرد من جملة المَحْلولات من الإقْطاعات.

وكان من أبواب الهِلالي جِهات تُسَمَّى «المُعامَلات»، وهي: الزَّكاة، والمَواريث، والثُّغور، والمَتْجَر، والشَّبّ، والنَّطْرون، والحَبْس الجُيوشي، ودار الضَّرْب، ودار العِيار، والجامُوس، وأَبْقار الخَيْس، والأَغْنام، والغُروس والبساتين، والأَحْكار والرِّباع، والمَراكِب، وما يُسْتأْدَى من الذِّمَّة غير الجَوالي، وساحِل السَّنْط، والحَرَاج[a]، والقَرَظ، ومُقَرَّر الجُسُور، ومُوَظَّف الأَتْبان، ومُقَرَّر القَصَب، ومُقَرَّر البَريد، ومُقَرَّر البسط[b]، وعُشْر العَرَق، وغير ذلك من جِهات المكوس.

فأمَّا الجِزْيَةُ - وتُعْرَف في زَمَننا بالجَوالي - فإنَّها تُسْتَخْرَج سَلَفًا وتَعْجيلًا في غُرَّة السَّنَة، وكان يَتَحَصَّل منها مالٌ كثيرٌ فيما مَضَى.

قال القاضي الفاضِلُ في «مُتَجَدِّدات الحَوادِث»: الذي انعقَد عليه ارْتِفاعُ الجَوالي لسنة سبع وثمانين وخمس مائة: مائة ألف وثلاثون ألف دينار. وأمَّا في وَقْتِنا هذا، فإنَّ الجَوالي قَلَّت جدًّا لكَثْرة إظْهار النَّصارىٰ للإسلام في الحَوادِث التي مَرَّت بهم.

ولمَّا استبدَّ السُّلْطانُ الملكُ المُؤَيَّد شَيْخ بمُلْك مصر، بعد الخَليفَة العَبَّاس بن محمد أمير المؤْمنين المُسْتَعين بالله، وَلَّى رَجُلًا جِبايَة الجَوالي، فكَثُرَ الاسْتِقْصاء عن الذِّمَّة والكَدّ في الاسْتِخْراج منهم،

a) الأصل وبولاق: الخراج. b) الأصل: النبط.

[1] النويري: نهاية الأرب ٨:٢٤١ وانظر أيضًا Cahen, Cl., *EI*² art. *Djawālī* II, p. 502؛ وفيما تقدم ٢٠٧.

فَبلَغت الجَوالي في سنة ستّ عشرة وثمان مائة : أَحَدَ عشر ألف دينار وأربع مائة دينار ، سِوى ما غَرِم للأعْوان ، وهو قَدْرٌ كثير.

وأمَّا «المَراعِـي» ـ وهو الكَلأُ المُطْلَق المُباح الذي أَنْبَتَه الله تعالى لرَعْي دَوابِّ بني آدَم ـ فأوّل من أَدْخَلَها الدِّيوان بمصر أحمد بن مُدَبِّر ، لمَّا وَلِيَ الخَرَاج ، وصَيَّرَ لذلك دِيوانًا وعامِلًا جَلدًا يحظر على الناس أن يَتبايَعوا المَراعي أو يَشْتَروها إلّا من جِهَته .

وأدْرَكْنا المَراعي ببلاد الصَّعيد ممَّا يُضاف إلى الإقْطاعات ، فيأْخُذ الأميرُ ممَّن يَرْعَى دَوابُّه في أرْض بَلدِه الكُتَّيح[١] في كلِّ سنة مالًا عن كلّ رأس ، فيجبى من صَاحِب الماشية بعدد أنْعامه ؛ فلمَّا اختلّ أَمْرُ الصَّعيد في الحوادث الكائنة منذ سنة ستّ وثمان مائة ، تلاشَى الأَمْرُ في ذلك . وكانت العادَةُ القَديمَة أن يُنْدَب للمَراعي مُشِدّ وشُهُود وكاتِب ، فيَعدّون المواشي ، ويَسْتَخْرجون من أرْبابِها عن كلِّ رأسٍ شيئًا ، ولا يكون ذلك إلّا بعد هُبوط النّيل ونَبات الكَلأ واسْتِهْلاكه للمَرْعَى .

وأمَّا «المَصَـايدُ» فهي ما أَطْعَمَ الله سبحانه وتعالى من صَيْد البَحْر ؛ وأوّلُ من أَدْخلَها الدِّيوان أيضًا ابنُ مُدَبِّر ، وصَيَّرَ لها ديوانًا ، واحْتَشَمَ من ذكر المَصايِد وشَناعَة القَوْل فيها ، فأَمَرَ أن يُكْتَب في الديوان خَراجُ مَضارِب الأوْتاد ومَغارِس الشِّباك ، فاستمرّ ذلك .

وكان يُنْدَب لمُباشَرَتها مُشدّ وشُهود وكاتِب إلى عِدَّة جهات ، مثل خَليج الإسْكَنْدَرية ، وبُحَيْرَة الإسْكَنْدَرية ، وبُحَيْرَة نَسْتَرو ، وثَغْر دِمْياط ، وجَنادِل ثَغْر أُسْوان ، وغير ذلك من البِرَك والبُحَيْرات ، فيَخْرُجون عند هُبوط النّيل ورُجوع الماء من المَزارِع إلى بَحْر النّيل بعد ما تكون أفْواهُ

١٠٠ التُّرَع قد سُكِّرَت ، وأبوابُ القَناطِر قد سُدَّت عند انتهاء زيادة النّيل ، كيما يتراجعَ/ الماءُ ويتكاثَف ممَّا يلي المَزارِع .

ثم تُنْصَب شِباكٌ وتُصْرف المياه ، فيأتي السَّمَكُ وقد انْدَفَعَ مع الماء الجاري ، فتَصُدّه الشِّباكُ عن الانْحِدار مع الماء ويجتمع فيها ليخرج إلى البَرّ ويوضع على أنْخاخ ، ويُمَلَّح ويُوضَع في الأمطار ، فإذا استوى أُبيعَ وقيل له «المُلُوحَة والصِّير» ، ولا يكونُ ذلك إلّا فيما كان من السَّمَك في قَدْر الأُصْبُع فما دونه ، ويُسَمُّون هذا الصِّنْف إذا كان طَرِيًّا «إبْسارية» فتُؤْكَل مَشْوِيَّة ومَقْلُوَّة .

ويُصادُ من بُحَيْرَة نَسْتَرو وبُحَيْرَة تِنِّيس وبُحَيْرة الإسْكَنْدَرية أسْماكٌ تُعْرَف بالبُوري : وقيل لها ذلك لأنَّها كانت تُصاد عند قرية من قُرَى تِنِّيس يُقالُ لها بُورَة ، وقد خَرِبَت ، والنِّسْبَة إليها

---

[١] نباتٌ تستغني به الخَيْل والدَّواب والماشية عن البرسيم (النويري : نهاية الأرب ٨:٢٤٧) .

البُوري، ونُسِبَ إليها جماعَةٌ من النَّاس منهم بَنُو البُوري. وقيل لهذا السَّمَك البُورِي إضافَةً إلى القرية المذكورة[1].

وقد بَطَلَ في زَمَنِنا اليوم أَمْرُ هذه المَصَايد، إلَّا من بُحَيْرَة نَسْتَرو بالبُرُلُّس، وبُحَيْرَة تِنِّيس بدِمْياط فقط. وهاتان البُحَيْرتان تجريان في ديوان الخاصّ، وهما مُضَمَّنَتان، وما يَخْرُج منهما من البُوري وغيره من أَنْواع السَّمَك فللسُّلْطان، لا يَقْدر أَحَدٌ أن يتعرَّض لصَيْدِ شيءٍ منه إلَّا أن يكون من صَيَّاديهما القائِمين بالضَّمَان. وما عَدَا هاتين البُحَيْرتَيْن من البِرَك والأَمْلاق والخُلْجان فليست للسُّلْطان. وأمَّا بُحَيْرَة إسْكَنْدَرية فقد جَفَّت، وثَغْرُ أُسْوان فقد خرج عن يد السَّلْطَنة، وتَغَلَّب عليه أولادُ الكَنْز[a].

وثَمَّ بِرَك بأَيْدي أَقْوام، كبِرْكَة الفيل بيد أَوْلاد الملك الظَّاهِر بَيْبَرس، وبِرْكَة الرَّطْلي بيد أَوْلاد الأَمير بَكْتَمُر الحاجِب، وغير ذلك، فإنَّ أَسْماكَها مُضَمَّنَة لهم يَبيعونَها، ومع ذلك لا يُمْنَع أَحَدٌ الصَّيْدَ منهما.

وأمَّا بَحْرُ النِّيل فما صِيدَ منه يُحْمَل إلى دار السَّمَك بالقاهِرَة، فيُباع ويُؤْخَذ منه مَكْس السُّلْطان، إلَّا أنَّ الأمير جَمال الدين يُوسفُ الأُستادَّار زاد فيما كان يُؤْخَذ من الصَّيَّادين مَكْسًا، ومن حينئذٍ قَلَّ السَّمَكُ بالقاهِرَة وغَلا سِعْرُه.

وقال أبو سَعيد عبد الرَّحْمَن بن أحمد بن يُونُس في «تاريخ مِصْر»: إنَّ صَنَمًا كان بالإسْكَنْدَرية يُقال له شُرَاحيل، على حَشَفَة من حِشاف البحر، مستقبلًا بأَصْبُع من كَفِّه قُسْطَنْطِينيَّة، لا يُدْرَى أكان ممَّا عَمِلَه سُلَيْمان النَّبيّ، أم عَمِله الإسْكَنْدَر؟ فكانت الحيتانُ يدُورون[b] بالإسْكَنْدَرية وتُصاد عندها فيما زَعَمُوا.

قال زَيْدُ بن عبد الرَّحْمَن بن زَيْد بن أَسْلَم: أَخْبَرني أبي عن أبيه أنَّه انْبَطَحَ على بَطْنِه ومَدَّ يَدَيْه ورِجْلَيْه، فكان طُولُه طول قَدَم الصَّنَم. فكَتَبَ رجلٌ يُقال له أُسامَة بن زَيْد، كان عامِلًا على مصر للوَليد بن عبد الملك أَمير المؤمنين: أنَّ عندنا بالإسكَنْدَرية صَنَمًا، يُقالُ له شُراحيل، من نُحاس، وقد غَلَت علينا الفُلوس، فإن رَأَى أميرُ المؤمنين أن يُنْزله ونَضْربه فُلوسًا فَعَل، وإن رأَى غير ذلك

a) بولاق: الكفرة. b) بولاق: تدور.

[1] النويري: نهاية الأرب ٨: ٢٦٢- ٢٦٤؛ وانظر فيما يلي ٤٩٢.

فليَكْتُب إلى مَنْ أَمَرَه . فكَتَبَ إليه : لا تُنْزِله حتى أَبْعَثَ إليك ضُمَناء يُحْضِرونه . فبَعَثَ إليه رجالًا أُمَنَاءَ حتى أُنْزِل من الحَشْفَة ، فوَجَدوا عينيه ياقوتتين حَمْراوين ليس لهما قيمة ، فضَرَبه فُلوسًا ، فانْطَلَقَت الحيتان فلم تَرْجع إلى ما هنالك .

وأمَّا «الزَّكَـاةُ»[1] فإن السُّلْطانَ صَلاحَ الدين يُوسُف بن أيُّوب أوَّل من جَباها بمصر ، قال القاضي الفاضِلُ في «مُتَجَدِّدات» سنة سبعٍ وستين وخمس مائة : ثالث عشر رَبيع الآخر فُرِّقَت الزَّكوات ، بعد ما جُمِعَت ، على الفُقَراء والمساكين وأبناء السَّبيل والغارِمين ، بعد أن رُفِع إلى بيت المال السِّهام الأربعة ، وهي : سِهامُ العامِلِين ، والـمُؤَلَّفَة وفي سَبيل الله وفي الرِّقاب ، وقُرِّرَت لهم فَريضَة ، واسْتُؤدي على الأَمْوال والبَضائِع ، وعلى ما يَتَقَرَّر عليه من المَواشِي والنَّخْل والخَضْراوات .

قال : والذي انْعَقَدَ عليه ارْتفاعُ الجَوالي لسنة سبعٍ وثمانين وخمس مائة : [مائة ألف و][a] ثلاثون ألف دينار . والزَّائِد في مُعامَلة الزَّكاة ودار الضَّرْب لسنتي ستٍّ وسبع وثمانين وخمس مائة : أَحَد وعشرون ألف دينار وثمان مائة وأَحَد وستون دينارًا .

وقال في سنة ثمانٍ وثمانين : واسْتُخْدِم ابنُ حَمْدان في ديوان الزَّكاة ، وكَتَبَ خَطَّه بما مَبْلَغه اثنان وخمسون ألف دينار لسنة واحدة من مال الزَّكاة ، وجَعَلَ الطَّواشي[2] قَراغِش الشَّاد في هذا المال وألَّا يَتَصَرَّف فيه ، بل يكون في صَنْدوق مُودَعًا للمهمَّات التي يُؤْمَر بها .

---

a) زيادة من السلوك .

---

[1] الزَّكاة هي الصَّدَقَة التي لا يجب على المسلم في ماله حقٌّ سواها ، وهي تجب في الأموال المرصدة للنماء والتي حال عليها الحَوْل . وينقسم هذا المال من وجهة نظر الفِقْه الإسلامي إلى : مال ظاهر يشمل الزروع والثمار والمواشي ، ومال باطن يشمل الذهب والفضة وعروض التجارة ؛ ويختص نظر والي الصَّدَقات فقط بزكاة الأموال الظاهرة ، أمَّا زكاة المال الباطن فأربابه أحق بزكاته (الماوردي : الأحكام السلطانية ٩٨-١٠١) . وحدَّد المخزومي وابن مَمَّاتي في جدول جامع ما تجب فيه الزكاة ومصارفها وما لا تجب فيه (المنهاج ٤٢-٤٣؛ قوانين الدواوين ٣٠٨-٣١٦)، مع ملاحظة أن مصرف الزَّكاة منصوص عليه [الآية ٦٠ سورة التوبة] وليس للأئمة اجتهادٌ فيه .

وأصدر السلطان صلاح الدين سجلًا في ربيع الأول سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م بإبطال جميع المكوس من الديار المصرية ، أمر فيه بأن تستأدى الزكاة على الوجه الشرعي المأمور به من الله عزّ وجلّ (ساويرس بن المقفع :تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣ : ٦٩؛ وانظر نص السجل بإسقاط المكوس وتاريخه صفر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م عند أبي شامة : الروضتين ١/ ٢ : ٤٤٣، ٥٢٢-٥٢٣) .

[2] عن معنى الطواشي انظر فيما تقدم ٢٣٢.

ولـمَّا قَدِمَ ابنُ عُنَيْن الشَّاعِر[1] من عند الملك العَزيز سَيْف الإسْلام طُغْتُكين بن نَجْم الدين أيُّوب ابن شاذي ملك اليمن إلى مصر ـ وقد أَجْزَل صلَتَه عندما وَفَدَ عليه وفارَقَه ، وقد أَثْرى ثَراءً كثيرًا ـ قَبَضَ أربابُ ديوان الزَّكاة بمصر على ما قَدِمَ به من الـمَتْجَر ، وطالَبُوه بزَكَاة ما مَعَه ، وكان ذلك في أيَّام الملك العَزيز عُثْمان بن صَلاح الدين يُوسُف بن أَيُّوب بن شاذي ، فقال [2]:

[البسيط]

ما كُلُّ من يَتَسَمَّى بالعَزيز لها أَهْلٌ ، ولا كُلُّ بَرْق سُحْبُه غَدِقَهْ
بين العَزيزَيْن بَوْنٌ[a] في فِعالِهما : هَذاك يُعْطي ، وهذا يَأْخُذُ الصَّدَقَهْ

ثم إنَّ العَزيزَ كَشَفَ عَمَّا يُسْتَأْدَى من الزَّكاة ، فإنَّه انْتَهَى إليه فيها أَقْوالٌ شَنيعَة ، منها أنَّه أُخِذَ من رَجُل فَقير يَبيع الـمِلْح في قُفَّة على رأسه زكاةٌ عَمَّا في القُفَّةِ ، وأنَّه بيع جَمَلٌ بخمسة دنانير ذَهب فأخذ زَكاتَها خمسة دراهم . فَأَمَرَ بتَفْويض/ أَمْرِها إلى أَرْباب الأمْوال ، ومَنْ وَجَب عليه حَقّ فيها وحَمَلَه إلى ديوان الزَّكاة قُبِلَ منه ، ومَنْ لم يَحْمل لا يُتَعَرَّض إليه . فبَخِلَ الأَغْنياءُ بزَكاةِ أَمْوالِهِم حتى تَضَرَّرَ الفُقَراءُ والـمَساكينُ ، وأَخَذَ السُّعاة يَبْذُلون في ضَمانِها الأَمْوال لتَعود إلى ما كانَت عليه . فولِيَ النَّظَر في ديوان الزَّكاة القاضي الأَسْعَدُ شَرَفُ الدين أبو المكارِم أَسْعَد بن مُهَذب بن مَمَّاتي ، فاسْتَخْرَج الزَّكاة من أَرْبابِها ، ثم ضُمِنَت بمالٍ كثير ، وعادَ الأَمْرُ فيها إلى ما كانت عليه من العَسْف والجَوْر .

وكانت أعْوانُ مُتَوَلِّي الزَّكاة تَخْرُج إلى مُنْيَة بني[b] خَصيب وإخْميم وقُوص ، لكَشْف أَحْوال الـمُسافِرين من التُّجّار والحُجَّاج وغيرهم ، فيَبْحَثُون عن جَميع ما مَعَهم ، ويُدْخِلون أيديهم أوْساط الرجال خَشْيَة أن يكون معهم مالٌ ، ويُحَلِّفون الجميع بالأَيْمان الحَرِجَة على ما بأَيْديهم وما عِنْدهم غير ما وَجَدُوه .

---

a) بولاق : فرق . b) بولاق : ابن .

---

[1] شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن مكارم ابن الحسن الزرعي الحوراني المشهور بابن عُنَيْن الأنصاري الدمشقي الشاعر ، المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م (ياقوت : معجم الأدباء ١٩: ٨١- ٩٢؛ المنذري : التكملة لوفيات النقلة ٣: ٣٣٦- ٣٣٧؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢: ٣٦٣؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٥: ١٢٢- ١٢٧؛ *EI*[2] art. *Ibn* ʿ*Unayn* III, pp. 986-87) .

[2] الأبيات في ديوان ابن عُنَيْن ، تحقيق خليل مردم . دمشق ١٩٤٦م ، ٢٢٣ .

وتقومُ طائِفَةٌ من مَرَدَة هذه الأَعْوان ، وبأيديهم المَسالُّ الطوال ذوات الأَنْصِبَة ، فيَصْعَدون إلى المَراكِب ، وينخسون بمَسالِّهم جَميع ما فيها من الأَحْمال والغَرائِر ، مَخافَة أن يكون فيها شيءٌ من بِضاعَةٍ أو مال ، فيُبالِغون في البَحْث والاسْتِقْصاء ، بحيث يَقْبُح ويُسْتَشْنَع فعلهم . ويقف الحُجّاجُ بين يديْ هؤلاء الأَعْوان مَواقِف خِزْي ومَهانَة ، لما يَصْدرُ منهم عند تَفْتيش أَوْساطِهم وغَرائِر أَزْوادِهم ، ويحل بهم من العَسْف وسُوء المُعامَلَة ما لا يُوصَف ، وكذلك يُفْعَل في جميع أرضِ مصر منذ عَهْد السُّلْطان صَلاح الدين يُوسُف[a] بن أَيُّوب[1] .

ثم لمَّا كانت سَلْطَنَةُ الملك الكامِل ناصِرُ الدِّين محمد بن العادِل أبي بكر بن أَيُّوب بن شاذي[a]، أَخْرَج من زَكاة الأموال التي كانت تُجْبَى من الناس سَهْمَي الفُقَراء والمساكين وأَمَر بصَرْفِهما في مَصارِفِهما الشَّرْعية ، ورَتَّبَ من جملة هذين السَّهْمَيْن مَعاليمَ للفُقَهاء والصُّلَحاء وأَهْل الخَيْر تُجْرى عليهم ، فاسْتُحْسن ذلك مِنْ فِعْلِه[2] .

وأمَّا الثُّغُور : فهي دِمْياط ، وتِنِّيس ، ورَشيد ، وعَيْذاب ، وأُسْوان ، والإسْكَنْدَرية - وهي أعظمها قَدْرًا - فإنَّه كان فيها عِدَّةُ جِهات منها «الخُمْس» و«المَتْجَر»[3] .

فـ «الخُمْسُ» ما يُسْتَأْدَى من تُجَّار الرُّوم الوارِدين في البَحْر عمَّا مَعَهم من البَضائِع للمَتْجَر بمُقْتَضى ما صُولِحوا عليه ، ورُبَّما بَلَغَ ما يُسْتَخْرَج منهم عما قيمته مائة دينار ما يُناهز[b] خمسة وثلاثون دينارًا ، ورُبَّما انْحَطَّ عن عشرين دينارًا . ويُسَمَّى كِلاهما «خُمْسًا» . ومن أجْناس الرُّوم من يُؤْخَذ منهم العُشْر ، ولذلك ضَرائِبُ مُقَرَّرَة[4] .

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق مائتان .

---

[1] هذا وصف ابن جبير لما كان يتم في ميناء الإسكندرية مع الحُجّاج والتُّجار على السواء (الرحلة ١٣- ١٤، ٣٩) .

[2] واضح أن هذا الخبر كان في طيّارة بين نسخة المقريزي ونقلها بعض النُّسّاخ دون أن يعرف مكانها فجاءت في النسخ التي اعتمدت عليها نشرة بولاق في وسط الخبر المنسوب إلى الملك العزيز عثمان في الصفحة السابقة سطر ١٠ .

[3] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٢٥ .

[4] كانت العادة أن يجبى من التجار غير المسلمين الوافدين إلى دار الإسلام «العُشْر» من قيمة بضائعهم ، وأباح الإمامُ الشافعي للحاكم أن يزيد هذه النسبة إلى الخُمْس أو ينقصها إلى نصف العشر أو يزيلها نهائيًا (القلقشندي : صبح الأعشى ٣:٤٥٩) ؛ وعن ما يستأدى من تجار الروم أو الخُمْس الرومي راجع ، المخزومي : المنهاج ٢٢- ٢٩، ٤٥- ٤٦، ٤٤٩؛ ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٢٦، النويري : نهاية=

وقال القاضي الفاضِلُ : والحاصِلُ من «خُمْس الإسْكَنْدَرية» في سنة سبعٍ وثمانين وخمس مائة ثمانية وعشرون ألف دينار وستّ مائة وثلاثة عشر دينارًا .

و«المَتْجَـرُ» عبارة عَمَّا يُبْتاع للديوان من بضَائع [التُّجّار الواردين ممّا][a] تَدْعو إليها الحاجَة ويَقْتَضيه طَلَبُ الفائِدَة . قال جامعُ «سِيرَة الوزير اليَازوري» : وقَصَّرَ النِّيلُ بمصر في سنة أربعٍ وأربعين وأربع مائة ، ولم يكن في مَخازِن الغلّات شيءٌ ، فاشتدَّت المَسْغَبَة بمصر ، وكان خُلُوّ المَخازِن سَبَبٌ أَوْجَب ذلك ، وهو أنَّ الوزَيرَ النَّاصِرَ للدين لمَّا أُضيفَ إليه القَضَاءُ في أيَّام أبي البَرَكات الوَزيرِ كان يَبْتاع للسُّلْطان في كلِّ سنة غَلَّة بمائة ألف درهم ، وتُجْعَل مَتْجَرًا[1] .

فمَثُلَ القاضي بحَضْرَة الخَليفَة المُسْتَنْصِر[b] بالله ، وعَرَّفَه أنَّ المَتْجَرَ الذي يُقامُ بالغَلَّة فيه أَوْفَى مَضَرَّة على المسلمين ، ورُبَّما انحطَّ السِّعْرُ عن مُشْتَراها فلا يُمْكن بيعها ، فتَتَعَفَّن في المَخازِن وتَتْلَف ، وأنَّه يُقيم مَتْجَرًا لا كُلْفَة فيه على الناس ، ويُفيد أَضْعاف فائِدَة الغَلَّة ، ولا يُخْشَى عليه من تَغَيُّره في المَخازِن ولا انْحِطاط سِعْره ، وهو الخَشَب والصَّابون والحَديد والرَّصَاص والعَسَل وما أَشْبَه ذلك ؛ فأَمْضَى السُّلْطانُ له ما رآه .

واستمرَّ ذلك ، ودام الرَّخاءُ على النَّاس ، فوَسَّعوا فيه مُدَّة سنين ثم عَمِلَ الملوكُ بعد ذلك دِيوانًا للمَتْجَر ، وآخِر من عَمِله الظَّاهر بَرْقُوق .

وأمَّا «الشَّـبُّ» فإنَّ مَعادِنَه بالصَّعيد ، وكانت عادَةُ الديوان الإنْفاق في تَحْصيل القِنْطار منه باللَّيْثي مَبْلَغ[c] ثلاثين دِرْهَمًا ، وكانت العُرْبانُ تُحْضِره من معادِنِه إلى ساحِل إخْميم وسُيوط والبَهْنَسا ليُحْمَل إلى الإسْكَنْدَرية أيَّام النِّيل في الخَليج ، ويُشْتَرَى بالقِنْطار اللَّيْثي ، ويُبَاعُ بالقِنْطار الجَرْوي : فيُباعُ منه على تُجَّار الرُّوم قدر اثني عشر ألف قِنْطار بالجَرْوي ، بسعر أربعة دنانير كلُّ قِنْطار إلى ستة دنانير ، ويُباعُ منه بمصر على اللُّبوديين والصَّبَّاغين نحو الثمانين قِنْطارًا بالجَرْوي ،

---

a) زيادة من ابن مماتي مصدر النقل. b) بولاق : المستعين . c) بولاق : يبلغ .

= الأرب ٢٨: ٣٣٦- ٣٣٧؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٤٥٩- ٤٦٠؛ Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564-641/A.D. 1169-1341*, pp. 90-91; Cahen, Cl., *Makhzûmiyyât* pp. 84, 88-89؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٣١- ٥٣٧.

[1] عن المَتْجَر انظر المخزومي : المنهاج ٩، ٤٨، ٥٧؛ ابن مماتي : قوانين ٣٢٧ - ٣٢٩؛ المقريزي : إغاثة الأمة ٢٠، اتعاظ الحنفا ٢: ٢٢٥؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٩٤- ٤٩٥؛ وفيما يلي ١: ٤٦٥.

سعر ستة دنانير ونصف القِنْطار . ولا يَقْدر أَحَدٌ على ابْتياعه مِن العُرْبان ولا غيرهم ، فإن عُثِرَ على أحَدٍ أنَّه اشْتَرى منه شيئًا أو باعَه سوى الدِّيوان ، نُكِّلَ به ، واسْتُهْلِكَ ما وُجِدَ معه منه . وقد بَطَلَ اليوم[a] هذا [1] .

وأمَّا «النَّطْــــرُون» فيُوجَد في البَرِّ الغربيّ من أرض مصر بناحية الطَّرَّانَة [2] ، وهو أحمر وأَخْضَر ، ويُوجَد منه بالفَاقُوسِيَّة شيءٌ دون ما يُوجد في الطَّرَّانَة . وهو أيضًا ممَّا حَظَر عليه ابن مُدَبِّر من الأشْياء التي كانت مُباحَة ، وجَعَلَه في ديوان السُّلْطان ، وكان من بعده على ذلك إلى اليوم . وقد كان الرَّسْمُ فيه بالدِّيون أن يُحْمَل منه في كلِّ سنة عشرة آلاف قِنْطار ، ويُعْطَى الضُّمَّانُ منها في كلِّ سنة قدر ثلاثين قِنْطارًا يتسلَّمونها من الطَّرَّانَة فيُباعُ في مصر بالقِنْطار المصري ، وفي بحر الشَّرْق والصَّعيد بالجَرْوِي ، وفي دِمْياط باللَّيْثِي [3] .

قال القاضي الفاضِلُ : وبابُ النَّطْرُون كان مَضْمُونًا إلى آخر سنة/ خمسٍ وثمانين وخمس مائة ١١٠ بمبلغ خمسة عشر ألفًا وخمس مائة دينار ، وحَصَل منه في سنة ستٍّ وثمانين مَبْلَغ سبعة آلاف وثمان مائة دينار . وأَدْرَكْنا النَّطْرُون إقطاعًا لعِدَّة أجْناد . فلمَّا تَوَلَّى الأمير محمود بن علي الأُسْتادّارية وصارَ مُدَبِّر الدَّوْلة في الأيام الظَّاهرية بَرْقوق ، حازَ النَّطْرُون ، وجَعَلَ له مكانًا لا يُباع في غيره ، وهو إلى الآن على ذلك .

وأمَّا «الحَبْسُ الجُيُوشي» فكان في البَرَّيْن الشَّرْقي والغَرْبي : ففي الشَّرْقي بَهْتيت والأَمِيرية والمُنْيَة ، وكانت تُسجَّل هذه النَّواحي بعَيْن[b] ، وفي الغَرْبي سَفْط ونَهْيا ووُسيم . وهذه النَّواحي حَبَسَها أميرُ الجُيوش بَدْرُ الجَمالي على عَقِبه ، هي والبَساتين ظاهِر باب الفُتُوح ، فلمَّا

---

a) ساقطة من بولاق . b) ابن مماتي : مفادنة بالعين .

---

[1] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٢٨- ٣٢٩؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٥٥؛ ومما تقدم ١ : ٨٣.

[2] الطَّرَّانَة . من القرى القديمة ، وردت في كتب الجغرافية العربية التي كتبت قبل منتصف القرن السادس الهجري باسم «ترنوط» وهي تقع على الشاطئ الغربي لفرع النيل الغربي (فَرْع رشيد) ، ذكر الإدريسي أنها مدينة صغيرة متحضرة يجلب منها النَّطرون الجيِّد إلى جميع البلاد (نزهة المشتاق ٣٤١) ، وأضاف ياقوت أن بها معاصر للسكر وبساتين ، وأن أكثر فواكه الإسكندرية منها (معجم البلدان ٢ :٢٧) ، ثم ورد اسمها في الرَّوْك الصَّلاحي باسم الطَّرَّانة ، وهي اليوم إحدى قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٢ :٣٣١-٣٣٢) .

[3] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٣٤- ٣٣٦.

ماتَ وطالَ العَهْدُ، اسْتَأْجَرها الوُزَراءُ بأُجْرة يسيرة طَلَبًا للفائِدة، ثم أُدْخِلَت في الدِّيوان [1].

قال ابن المَأْمُون في «تاريخه»: وجَميعُ البَساتين المُخْتَصَّة بالوَرَثَة الجُيُوشِيَّة [2]، مع البلاد التي لهم، لم تزل في مُدَّة أيَّام الوَزير المَأْمُون البَطائِحي بأيديهم، لم تَخْرُج عنهم بضَمان ولا بغيره. فلمَّا تُوُفِّي الخَليفَةُ الآمِر بأحكام الله، وجَلَسَ أبو عليّ بن الأَفْضل بن أَمير الجُيُوش في الوَزارَة، أعادَ الجَميع إلى المُلَّاك لكَوْن نصيبه في ذلك الأَوْفَر. فلمَّا قُتِلَ واسْتَبَدَّ الخَليفَةُ الحافِظُ لدين الله، أَمَر بالقَبْض على جميع الأَمْلاك، وحلَّ الأَحْباس المختصَّة بأمير الجُيُوش. فلم يَزَل يانِسُ به ـ لأنَّه غُلام الأَفْضَل والوَزير في ذلك الوَقْت ـ وعِزّ المُلْك غُلام الأَوْحَد بن أمير الجُيُوش، يتلطَّفان ويُراجعان الخَليفَة، مع الكُتُب التي أَظْهَرها الوَرَثَة وعليها خُطوط الخُلَفاء، إلى أن أَبْقاها عليهم ولم يخرجها عنهم. ثم ارْتَفَعَت الحَوْطَةُ عنها في سنة سبعٍ وعشرين وخمس مائة للديوان الحافِظي.

ولـمَّا خَدَمَ الخَطير والمُرْتَضَى في سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة، في وَزارَة رِضْوان بن وَلَخْشي، أعادَ البَساتين خاصَّةً، دون البلاد، على الوَرَثَة بحُكْم مآلِ أمرِها إليه من الاخْتلال ونَقْص الارْتِفاع. ولمَّا انْقَرَضَ عَقِبُ أَمير الجُيُوش، ولم يبق منه سِوَى امْرَأَة كبيرة، أَفْتَى فُقَهاءُ ذلك العَصْر ببُطْلان الحَبْس. فقُبِضَت النَّواحي، وصارَت من جملة الأَموال السُّلْطانية: فمنها ما هو اليوم في الدِّيوان السُّلْطاني، ومنها ما صارَ وَقْفًا ورِزَقًا أَحْباسِيَّة، وغير ذلك [3].

وأمَّا «دارُ الضَّـــرْب»، فكان بالقاهِرَة دارُ الضَّرْب، وبالإسْكَنْدَرية دارُ الضَّرْب، وبقُوص دارُ الضَّرْب. ولا يتَوَلَّى عِيار دار الضَّرْب إلَّا قاضي القُضَاة أو من يَسْتَخْلِفه [4]، ثم رَذُلَت في زَمَننا حتى صار يليها مَسالِمَة فَسَقَة اليَهُود المُصِرِّين على الفِسْق مع ادِّعائهم الإسلام. وكان يُجْتَهدُ في خَلاص الذَّهَب وتحرير عِياره، إلى أن أَفْسَد النَّاصِرُ فَرَج ذلك بعمل الدَّنانير النَّاصِرِيَّة فجاءَت غير خالِصَة [5].

---

[1] قارن ابن مَمّاتي: قوانين الدواوين ٣٣٦-٣٣٩؛ المقريزي: مسودة المواعظ ٣٨٩-٣٩٠، وفيما يلي ١: ٤٨٧. وأورد المقريزي في الكراسة المحفوظة في مكتبة Liège ذِكْرَ أبواب المال الهلالي ولكن ليس بنفس الصيغة ورقة ٩٦- ٩٨.

[2] انظر فيما يلي ٢: ١٢٩- ١٣٠.

[3] ابن المأمون: أخبار مصر ١٠٥.

[4] انظر فيما يلي ١: ٤٤٥، وقارن ابن مَمّاتي: قوانين الدواوين ٣٣١- ٣٣٣.

[5] الدينار الناصري ضربه السلطان الناصر فرج سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م كمحاولة منه للتصدي لمنافسة الدوكات (Ducat) البندقية، وكان التعامل بها يتم بالعَدّ لا بالوزن (Bacharach, J.L., «The Dinar versus the Ducat», *IJMES* IV (1973), pp. 86-87؛ رأفت النبراوي: النقود الإسلامية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٩٦، ٦١-٦٦).

وكانت بمصر المُعامَلَة بالوَرِق ، فأَبطَلَها الملكُ الكامِل محمد بن أبي بكر بن أيّوب في سنة بضع وعشرين ، وضَرَبَ الدِّرْهَم المُدَوَّر الذي يُقال له الكامِلي ، وجَعَلَ فيه من النُّحاس قَدْر الثُّلُث ، ومن الفِضَّة الثُّلُثين[1] . ولم يَزَل يُضْرَب بالقاهِرَة إلى أن أكْثَرَ الأميرُ محمود الأسْتادّار من ضَرْب الفُلُوس بالقاهِرَة والإسْكَنْدَرية ، فبَطُلَت الدَّراهِم من مصر ، وصارَت مُعامَلَة أهْلها إلى اليوم بالفُلُوس ، وبها يُقَوَّم الذَّهَب وسائِر المبيعات . وسيأتي ذِكْرُ ذلك إن شاءَ الله تعالى عند ذكر أسْباب خَراب مصر .

وكانت دارُ الضَّرْب يَحْصُل منها للسُّلْطان مالٌ كثيرٌ ، فقلَّ في زَمانِنا لقِلَّة الأموال ؛ ودارُ الضَّرْب اليوم جارِية في ديوان الخاصّ .

وأمّا «دارُ العِيار» ، فكانت مَكانًا يُحْتاط فيه للرَّعِيَّة ، وتُصْلَح موازينُهم ومَكاييلُهم به ، ويَحْصُل منها للسُّلْطان مالٌ[2] . وجَعَلَها السُّلْطانُ صَلاحُ الدين من جُمْلَة أوْقاف سُور القاهِرَة ، وقد ذُكِرَت في خِطَط القاهِرَة من هذا الكتاب[3] .

وأمّا «الأحْكارُ» ، فإنّها أُجَر مُقَرَّرَة على ساحاتٍ بمِصْر والقاهِرَة ، فمنها ما صار دُورًا للسُّكْنَى ، ومنها ما أُنْشِئ بَساتين . وكانت تلك الأُجَر من جملة الأموال السُّلْطانية . وقد بَطُلَ ذلك من ديوان السُّلْطان ، وصارَت أحْكارُ مصر والقاهِرَة وما بينهما أوْقافًا على جِهات مُتَعَدِّدَة[4] .

وأمّا «الغُروسُ» ، فكانت في الغَرْبية فَقَط ، عِدَّةُ أراضٍ يُؤْخَذ منها شِبْه الحِكْر عن كلّ فَدّان مُقَرَّر مَعْلُوم ، وقد بَطُلَ ذلك من الدّيوان[5] .

وأمّا «مُقَرَّر الجُسُور» ، فكان على كلّ ناحية تَقْرير بعِدَّة قِطَع معلومة يُجْبَى منها عن كلّ قِطْعَة عشرة دنانير ، لتُصْرَف في عمل الجُسُور ، فيفضل منها مالٌ كثير يُحْمَل إلى بيت المال[6] . وقد بَطُل هذا أيضًا . وجَدَّدَ النّاصِرُ فَرَج على الجُسُور حَوادِث قد ذُكِرت في أسباب الخَراب .

---

[1] ابن بَعْرَة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمي ، القاهرة ١٩٦٦ ، ٤٩- ٥٠.

[2] انظر المخزومي : المنهاج ٣١؛ ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٣٣- ٣٣٤، ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية ٦١؛ النابلسي : لمع القوانين المضية ٤٥؛ وانظر كذلك أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٤٨- ٥٤٩.

[3] انظر فيما يلي ١: ٤٦٤ ومسودة المواعظ ٣٢١- ٣٢٣.

[4] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٤٢.

[5] نفسه ٣٤٢ وفيه الغروس أماكن في نواحي الإقطاعات لمّا لم يطلعها الماء رغب قوم في تَقَبُّلها بشيءٍ معلوم عن كل فدان بشرط المساحة ، ومهما زاد عن المتقبل استؤدي منه ما يجب بالنسبة .

[6] نفسه ٣٤٢- ٣٤٤.

وأمَّا «مُوَظَّفُ الأَتْبان» ، فكان جَميعُ تِبْنِ أرض مصر على ثلاثة أقسام : قِسْم للديوان ، وقِسْم للمُقْطَع ، وقِسْم للفَلَّاحين [a]. فيُجْبَى التِّبْنُ على هذا الحكم من سائِر الأقاليم ، ويُؤْخَذ في التِّبْن عن كلِّ مائة حمل أربعة دنانير وسُدس دينار ، فيَحْصُل من ذلك مالٌ كثير [1] . وقد بَطُلَ هذا أيضًا من الدِّيوان .

وأمَّا «الحَــراجُ» [b]، فإنَّه كان في البَهْنَساوية في سَفْط رَشين [ومِتْبال وسطال] [c] والأُشْمونَيْن والأَسْيوطية والإخْمِيمية والقُوصِيَّة أشجارٌ لا تُحْصَى من سَنْط ، لها حُرَّاس يَحْمُونَها حتى يُعْمَل منها مراكِب الأُسْطوال ، فلا يُقْطَع منها إلَّا ما تَدْعو الحاجَة إليه ، وكان بالبهنسا من العيدان ما يساوى العُودُ منها مائة دينار . وكان يُسْتَخْرَج من هذه النَّواحي مالٌ يُقالُ له «رَسْمُ / الحَراج[b]» ، ويُحْتَجُّ في جِبايَته بأنَّه نَظير ما تَقْطَعه أهل النَّواحي ، وتَنْتَفع به من أَخْشَاب السَّنْط في عَمائرها ، ومقرَّر آخر كان يُجْبَى منهم يُعْرَف بـ «مُقَرَّر السَّنْط» ، فيُصْرَف من هذا الـمُقَرَّر أُجْرَة قَطْع الخَشَب وحَزّه بضريبة عن كلِّ مائة حمل دينار ، وعلى المُستخدمين في ذلك ألَّا يَقْطَعوا من السَّنْط ما يَصْلُح لعَمَل مَراكِب الأُسْطُول ، لكنهم إنَّما يَقْطَعون الأَطْراف التي يُنْتَفَع بها في الوَقود فقط . ويُقالُ لهذا الذي يُقْطَع «حَطَبُ النَّار» ، فيُباع على التجَّار منه كلُّ مائة حمل بأربعة دَنانير ، ويُكْتَب على أيديهم زِنَة ما بِيعَ عليهم ، فإذا وَرَدَت المراكِبُ بالحَطَب إلى ساحِل مصر اعْتبِرت عليهم ، وقُوبل ما فيها بما عُيِّن في الرِّسالَة الوارِدَة ، واسْتُخْرِج الثَّمَن على ما في الرِّسالَة . وكانت العادَةُ أنَّه لا يُباعُ ممَّا في البَهْنَسا إلَّا ما فَضَل عن احْتياج المصالِح السُّلْطانية . وقد بَطَلَ هذا جميعُه ، واسْتَوْلَت الأيدي على تلك الأَشْجار فلم يَبْقَ منها شيءٌ ألبتَّة ، ونُسِيَ هذا من الدِّيوان [2] .

وأمَّا «القَــرَظُ» ، فإنَّه ثَمَرُ شجرِ السَّنْط ، وكان لا يَتَصَرَّف فيه إلَّا الدِّيوان ، ومَتَى وُجِدَ منه مع أَحَدٍ شيءٌ اشتراه من غير الدِّيوان نُكِّل به ، واسْتُهْلِك ما وُجِدَ معه منه . فإذا اجتمع مالُ القَرَظ أُقيم منه مَراكِب تُباع ، ويُؤْخَذ من ثَمَنها الرُّبْع عند ما تصل إلى ساحِل مصر بعدم ما تُقَوم أو يُنادَى عليها ، وكان فيها حَيْفٌ كبير ؛ وقد بَطُلَ ذلك [3].

وأمَّا «ما يُسْتَأْدَى من أَهْل الذِّمَّة» ، فإنَّه كان يُؤْخَذ منهم عمَّا يرد ويَصْدُر معهم من البَضائِع ، في مصر والإسْكَنْدَرية وإخْميم خاصَّةً دون بقيَّة البلاد ، ضَرائِب تَتَقرَّر في الدِّيوان . وقد بَطَل ذلك أيضًا [4].

---

a) بولاق : للفلاح وابن مماتي : للمزارع . b) الأصل وبولاق : الخراج . c) زيادة من ابن مماتي .

---

[1] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٤٤.

[2] قارن ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٤٤- ٣٤٦.

[3] نفسه ٣٤٧.

[4] نفسه ٣٤٩.

وأمَّا «مُقَرَّر الجَامُوس» و«مُقَرَّر بَقَر الخَيْس» و«مُقَرَّر الأَغْنام» ، فإنَّه كان للسُّلْطان من هذه الأَصْنافِ شيءٌ كثيرٌ جِدًّا ، فيُؤْخَذ من الجامُوس للدِّيوان على كلِّ رأسٍ من الرَّاتِب في نظير ما يُتَحصَّل منه في كلِّ سنة من خمسة دنانير إلى ثلاثة دنانير ، ومن اللَّاحِق بحَقّ النِّصف من الرَّاتب ، وأقلّ ما تنتج كلّ مائة رأس خمسون رأسًا[a] إلى غير ذلك من ضَرائِب مُقَرَّرَة على الجَامُوسِ وعلى أبْقار الخَيْس وعلى الغَنَم البياض والغَنَم الشَّعاري وعلى النَّحْل [١]. وقد بَطَلَ ذلك جميعُه لقِلَّة مال السُّلْطان ، وإعْراضِه عن العِمارَة وأسْبابِها ، وتعاطي أسباب الخَراب .

وأمَّا «المَوارِيثُ» ، فإنَّها في الدَّوْلَة الفاطِمية لم تَكُن كما هي اليوم ، من أَجْل أنَّ مَذْهَبَهم تَوْريث ذَوي الأَرْحام ، وأنَّ البِنْتَ إذا انْفَرَدَت اسْتَحَقَّت المالَ بأجمعه [٢]. فلمَّا انْقَضَت أيَّامُهم واستولت الدولة[a] الأَيُّوبية ثم الدَّوْلَة التُّرْكية ، صارَ من جُمْلَة أمْوال السُّلطان مالُ المَوارِيث الحَشْرِيَّة ، وهي التي يَسْتَحِقّها بَيْتُ المال عند عَدَم الوارِث ، فتَعْدل فيها الوزَراء مَرَّة ، وتَظْلِم أُخْرى [٣].

وأمَّا «المُكُوسُ» ، فقد تَقَدَّم حُدوثُها ، وما كان من المُلوك فيها ، والذي بَقِيَ منها إلى الآن بديار مصر يلي أَمْرَه الوَزيرُ . وفي الحقيقة إنَّما هو نَفْعٌ للأَقْباط يَتَخَوَّلون فيه بغير حَقّ . وقد تضاعَفَت المُكُوسُ في زَمنِنا عَمَّا كنَّا نعهده منذ عَهْد تَحَدُّث الأمير جَمال الدين يُوسُف الأُسْتادّار في الأَمْوال السُّلْطانية ، كما ذُكِرَ في أَسْباب الخَرَاب .

وأمَّا «البَراطيلُ» ، وهي الأَموالُ التي تُؤْخَذ من وُلاة البِلاد ومُحْتَسِبيها وقُضَاتِها وعُمَّالِها ، فأَوَّلُ من عَمِلَ ذلك بمصر الصَّالح بن رُزِّيك [٤] في وُلاة النَّواحِي فقط ، ثم بَطَل . وعُمِلَ في أيَّام العَزيز بن صَلاح الدين أَحْيانًا ، وعَمِلَه الأميرُ شَيْخُون في الوُلاة فَقَط ، ثم أَفْحَشَ فيه الظَّاهِرُ بَرْقُوق ، كما ذُكِر[b] في أَسْباب الخَرَاب .

وأمَّا «الحِماياتُ والمُسْتأْجَراتُ» ، فشيءٌ حَدَثَ في أيَّام النَّاصِر فَرَج ، وصارَ لذلك ديوانٌ ومُباشِرون ، وعَمِلَ مثل ذلك الأُمَرَاءُ . وهو من أَعْظَم أَسْباب الخَرَاب كما يُذْكَر في موضعه .

---

a) ساقطة من الأصل. b) بولاق : يأتي .

---

[١] ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٥٠- ٣٥٢.

[٢] انظر حول هذا الموضوع ، أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٣٩- ٥٤٣.

[٣] قارن ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣١٩- ٣٢٥.

[٤] راجع ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ١١١؛ ابن خلكان : وفيان ٣: ١١١؛ النويري : نهاية ٢٨: ٣٢٥؛=

ذكر الأهرام

اعْلَم أنَّ الأَهْرمات[a][1] بمصر كانت كَثيرةً[b] جِدًّا، منها بناحِيَة بُوصِير شيءٌ كثيرٌ، بَعْضُها كِبار، وبَعْضُها صِغارٌ، وبَعْضُها طِينٌ ولَبِن، وأكثرُها حَجَر، وبَعْضُها مُدَرَّجٌ، وأكثرها مَخْروطٌ أَمْلَس. وقد كان منها بالجِيزَة تجاه مَدينَة مصر عِدَّةٌ كثيرةٌ كلُّها صِغار، هُدِمَت في أيَّام السُّلطان صَلاح الدين يُوسُف بن أيُّوب على يد قَراقُوش، وبَنَى بها قَلْعَة الجَبَل، والسُّور المُحيط بالقاهِرَة ومصر والقَناطر التي بالجِيزَة[2].

---

a) بولاق: الأهرام. b) بولاق: كانت بأرض مصر كثيرة.

= المقريزي: اتعاظ ٣: ٢٢٢، ٢٤٤؛ أبا المحاسن: النجوم ٥: ٣٣٩.

[1] لَفَتَت أهرامُ مصر انتباه المؤرخين والجغرافيين والرحّالة الذين زاروا مصر في العصور القديمة أو في العصر الإسلامي، واحتلّ وصفها والحديث عنها مكانة بارزة في مؤلّفاتهم. وجَمَعَ المقريزي في الفصل الذي خَصَّصَه هنا لذكر الأهرام أهم ما جاء في هذه الأوصاف والذي اعتمد فيه على أكثر من عشرين مصدرًا، أهمها مؤلّفات المسعودي وابن وصيف شاه وابن النديم وأبي حامد الغرناطي والقضاعي وعبد اللطيف البغدادي وأمية بن عبد العزيز وابن عبد الحكم والهَمْداني وعليّ بن رضوان الطبيب. ومن الغريب أنّ المقريزي لم يشر إلى أهم كتاب خُصِّص للحديث عن الأهرام وهو كتاب «أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام»، للشريف أبي جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي المتوفى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م – رغم أنه ترجم له في الكراسة الموجودة بخطه في مكتبة Liège – وإن اتّفقت العديدُ من نصوصه مع ما وَرَدَ في كتاب الإدريسي!

(راجع حول هذا الموضوع، أحمد أحمد بدوي: الآثار المصرية في الأدب العربي (المكتبة الثقافية ١٢٤)، القاهرة ١٩٦٥؛ مصطفى جواد: «مؤرخ الأهرام وأبي الهول: جمال الدين أبو جعفر الإدريسي»، مجلة الكتاب (أبريل ١٩٤٧)، ٨٥٨–٨٦٨؛ Fodor, A., «Haram and Hermes : Origin of the Arabic Word *Haram* meaning pyramid», *Studia Aegyptiaca* 2 (1976), pp. 157-67; id., «The Origins of the Arabic Legends of the Pyramids», *Acta Orientalia Hungarica* 23 (1970), pp. 335-63; Plessner, M., *EI*² art. *Haram* III, p. 117; Haarmann, U., *EI*² art. *al-Idrîsî* Supplement I, pp. 407-408; id., «In Quest of the Spectacular : Noble and Learned Visitors to the Pyramids around 1200 A.D.», in *Islamic Studies Presented to Charles Adams,* Leiden - Brill 1992, pp. 57-67; id., «Regional Sentiment in Medieval Islamic Egypt», *BSOAS* 43 (1980), pp. 57-66.

ونشر إريك جراف الفصل الذي عقده المقريزي عن الأهرام في سنة ١٩١١. Graef, E., *Das Pyramidenkapitel in al-Maqrîzî's «Hitat»*, Leipziger Semitistische Studien Y/5, Leipzig 1911 وأعيد نشره أيضًا في ليبتسج سنة ١٩٦٨.

[2] عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٤؛ =

وأَعْظَمُ الأهرام الأهْرامات[a] الثَّلاثَة التي هي اليوم قائِمَة تجاه مصر، وقد اخْتَلَفَ الناسُ في وَقْت بنائِها واسْم بانيها والسَّبَب في بنائِها، وقالوا في ذلك أقوالًا مُتباينَة أَكْثَرُها غير صَحيح. وسأُقُصّ عليك من نَبَأ ذلك ما يَشْفي ويَكْفي إن شاءَ الله تعالى[1].

قال الأُسْتاذُ إبراهيمُ بن وَصِيف شَاه الكاتِب في «أَخْبار مِصْر وعَجائِبِها» في أخبار سُوريد بن سُهْلوق بن سرياق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال، أَحَدُ ملوك مصر قبل الطُّوفان الذين كانوا يَسْكُنُون في مَدينَة أَمْسوس الآتي ذِكْرها عند ذِكْرها مَدائِن مصر من هذا الكتاب[2]: وهو الذي بَنَى الهَرَمَيْن العظيمين بمصر المَنْسوبَيْن إلى شَدَّاد بن عاد، والقِبْطُ تُنْكِر أن تكون العادِيَة دَخَلَت بلادَهم لقُوَّة سِحْرهم[3].

١١٢:١ وسَبَبُ بناءِ الهَرَمَيْن[4] أنَّه كان قَبْل الطُّوفان بثلاث مائة سنة قد رأى سُوريد في مَنامِه / كأنَّ الأرْضَ انْقَلَبَت بأهْلِها، وكأنَّ الناسَ قد هَرَبوا على وُجوهِهم، وكأنَّ الكواكِبَ تَتَساقَط ويَصْدِم بعضُها بعضًا بأصْوات هائِلة، فغَمَّه ذلك، ولم يَذْكُرْه لأحَدٍ، وعَلِمَ أنَّه سيحدُث في العالَم أمْرٌ عظيمٌ. ثم رَأَى بعد ذلك بأيَّامٍ كأنَّ الكَواكِبَ الثابِتَة نَزَلَت إلى الأرض في صُوَر طُيور بيض، وكأنَّها تَخْتَطِف الناسَ وتُلْقيهم بين جَبَلَيْن عظيمين، وكأنَّ الجَبَلَيْن قد انْطَبَقَا عليهم، وكأنَّ الكَواكِبَ المُنيرَة مُظْلِمَة مَكْسوفَة؛ فانْتَبَه مَرْعوبًا[b] مَذْعورًا، ودَخَلَ إلى هَيْكَل الشَّمْس، وتَضَرَّع ومَرَّغ خَدَّيْه على التُّراب وبَكَى. فلمَّا أَصْبَحَ، جَمَع رُؤَساءَ الكَهَنَة من جَميع أعمال مصر ـ وكانوا مائة وثلاثين كاهِنًا ـ فخَلَا بهم، وحكى لهم[c] ما رآه أوَّلًا وآخرًا، فأوَّلوه بأَمْرٍ عظيم

---

a) ساقطة من بولاق. b) ساقطة من الأصل. c) بولاق: وحدثهم.

= الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ٣٩، وانظر فيما يلي ٣٢٥ (نقلًا عن كتاب عجائب البلدان)، ٢: ١٥١، ٢٠٣.

[1] انظر فيما يلي ٣٢٥– ٣٢٧.

[2] فيما يلي ٣٥٠– ٣٦٣.

[3] المسعودي: أخبار الزمان ١٣٢.

[4] ناقش الأستاذ فودور A.Fodor أصول الروايات العربية الثلاثة الخاصة ببناء أهرام مصر وهي: أسطورة هرمس التي ترى أن اثنين من الأهرام أحدهما قبر لهرمس والآخر قبر لأغاثديمون، ومصدر هذه الرواية أبو معشر البلخي، ثم أسطورة حلم الملك سوريد ومصدرها ابن وصيف شاه والقضاعي، وأخيرًا رواية المسعودي عن أن شداد بن عاد أحد ملوك العمالقة هو الذي بنى الأهرام، وقد أورد المقريزي هنا الروايات الثلاثة. Fodor, A.., «The Origins of the Arabic Legends of the Pyramids», *Acta Orientalia* XXIII (1970), pp. 334-63.

يَحْدُث في العالَم. فقال عَظيمُ الكُهَّان، ويُقالُ له فلْيمون: إنَّ أحْلامَ المُلوك لا تَجْري على مُحال لعِظَم [أخْطارِهم وكِبَر[a] أقْدارِهم، وأنا أُخْبر الملك برُؤْيَا رأيْتها منذ سنة، ولم أَذْكُرْها لأحَدٍ من الناس. رأيتُ كأنّي قاعدٌ مع الملك على وَسَط المَنار الذي بأَمْسُوس، وكأنَّ الفَلَكَ قد انْحطَّ من مَوْضعه حتى قارَب [سَمْت] رُؤُوسِنَا، وكان علينا كالقُبّة المحيطة بنا، وكأنَّ الملكَ قد رَفَعَ يَدَيْه نحو السَّماء وكَواكِبُها قد خالَطَتْها في صُوَرٍ شتَّى مختلفة الأشكال، وكأنَّ النَّاسَ قد جَفَلوا إلى قَصْر الملك وهم يَسْتَغيثون به، وكأنَّ الملكَ قد رَفَعَ يدَيْه حتى بَلَغَتا رأسه وأمَرني أن أَفْعَل كما فَعَل ونحن على وَجَلٍ شَديد، إذْ رأينا منها مَوْضِعًا قد انْفَتَحَ وخَرَجَ منه نورٌ مُضيء، وطَلَعَت علينا منه الشَّمْسُ، وكأنَّا اسْتَغَثْنا بالشَّمْس فخاطَبَتْنا أنَّ الفَلَكَ سيعود [b]إلى موضعه إذا مَضَت ثلاث مائة دَوْرَة، وكأنَّ الفَلَكَ لَصِق بالأَرْض ثم عادَ[b] إلى مَوْضعه، فانتبهت مَرْعوبًا.

[c]ثم نِمْت فرأيتُ كأنَّ مَدينَة أَمْسوس قد انْقَلَبَت بأهْلِها، والأَصْنام تَهْوي على رُؤوسِها، وكأن أُناسًا نَزَلوا من السَّماء بأيديهم مَقامِع من حَديد يَضْرِبون النّاسَ بها، فقُلْت لهم: ولم تَفْعَلون بالناس كذا؟ قالوا: لأنّهم كَفَروا بإلَهِهم؛ فقلت: فما بَقي لهم من خَلاص؟ قالوا: نَعَم، مَنْ أراد الخَلاص فلْيَلْحَق بصاحِب السَّفينَة. فانْتَبَهْتُ مَرْعوبًا[c].

فقال الملكُ: خُذوا الارْتِفاع للكَواكِب[d]، وانْظُروا هل من حادِث؟ فبَلَغُوا غايَتَهم في اسْتِقْصاء ذلك، وأَخْبَروا بأَمْر الطُّوفان وبَعْده بالنار التي تَخْرج من بُرْج الأَسَد تَحْرق العالَم[1]. فقال الملكُ: انْظُروا، هل تَلْحَق هذه الآفَة بلادَنا؟ فقالوا: نعم، تأتي في الطُّوفان على أكثره، ويَلْحَقُه خَرابٌ يُقيم عِدَّة سنين. قال: فانْظُروا هل يَعود عامِرًا كما كان، أو يَبْقى مَغْمورًا بالماء دائمًا. قالوا: بل تعودُ البِلادُ كما كانت وتُعْمَر، قال: ثم ماذا؟ قالوا: يَقْصِدها مَلكٌ يَقْتُلُ أهْلَهَا ويَغْنَم

---

a) زيادة من الإدريسي. (b-b) إضافة من الإدريسي والنويري. (c-c) هذه الفقرة ساقطة من الإدريسي والنويري. d) الإدريسي والنويري: ارتفاع الكواكب.

---

[1] الإدريسي: أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام ١١٩–١٢١ (نقلًا عن ما وجده بخط الأسعد بن مماتي وهو خال والد الإدريسي، وله في الأهرام تصنيف لطيف يحتوي على عشرين ورقة، كان صنَّفه للملك العزيز عثمان عندما عزم على هدمها (أنوار علوي الأجرام ٣٠)، وأشار عباس العزّاوي في تعليقه على كتاب النبراس لابن دحية ٦٠ هـ[1] أن بحوزته نسخة من كتاب «المقصد المرام في عجائب الأهرام» للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي النحوي صححه ونقحه من أصله الأسعد بن مماتي)؛ النويري: نهاية الأرب ١: ٣٨٨، ١٥: ٢٢–٢٣ ومصدره إبراهيم بن وصيف شاه وهو أيضًا مصدر المقريزي؛ المسعودي: أخبار الزمان ١٠٨–١١٠).

مالَها. قال: ثم ماذا؟ قالوا: يَقْصِدُها قَوْمٌ مُشَوَّهون من ناحِية جَبَل النيل، ويَمْلكون أكثرها، قال: ثم ماذا؟ قالوا: يَنْقَطع نِيلُها، وتَخْلو من أهْلِها.

فأَمَرَ عند ذلك بعَمَل الأَهْرام، وأن يُعْمَل لها مَسارِب يَدْخُل منها النِّيلُ إلى مكانٍ بعينه، ثم يَفيضُ إلى مَواضِع من أرْض المَغْرِب وأرْض الصَّعيد، ومَلأها طِلَسْمات وعَجائب وأمْوالًا وأصْنامًا وأجْسادَ مُلوكِهم، وأمَرَ الكُهَّان فَزَبَرُوا عليها جميع ما قالَته الحُكماءُ، وزُبِرَ فيها وفي سُقُوفها وحيطانِها وأُسْطُواناتِها جميعُ العُلوم الغامِضَة التي يَدَّعيها أهلُ مصر، وصُوِّر فيها صُوَر الكَواكِب كلّها، وزُبِر عليها أسْماء العَقاقير ومنافِعها ومَضارّها، وعِلْم الطِّلَّسْمات وعِلْم الحِساب والهَنْدَسَة وجميع عُلومهم مُفَسَّرًا لمن يَعْرِف كِتابتهم ولُغَتَهم.

ولـمَّا شَرَعَ في بِنائِها أَمَرَ بقَطْع الأُسْطُوانات العَظيمَة، ونَشْر البَلاطات الهائِلة[a]، واسْتِخْراج الرَّصاص من أرض المَغْرب، وإحْضار الصُّخُور من ناحية أُسْوان. فبَنَى بها أساسَ الأَهْرام الثلاثة الشَّرْقي والغَرْبي والمُلَوَّن، وكانت لهم صَحائفُ وعليها كِتابة، إذا قُطِعَ الحَجَر وتَمَّ إحْكامُه، وَضَعُوا عليه تلك الصَّحائِف وضَرَبُوه، فيَبْعُد بتلك الضَّرْبَة قدر مائة سَهْم، ثم يُعاوِدون ذلك حتى يصل الحَجَر إلى الأهْرام. وكانوا يُمِدُّون البَلاطَة ويجعلون في ثُقْب بوَسَطِها قُطْبًا من حَديد قائمًا، ثم يُرَكِّبون عليها بَلاطَة أخرى مَثْقوبَة الوَسَط ويُدْخِلون القُطْب فيها، ثم يُذاب الرَّصاص ويُصَبّ في القُطْب حَوْل البَلاطَة بهِنْدام وإتْقان إلى أن كَمُلَت[1].

وجَعَل لها أَبْوابًا تحت الأرض بأربعين ذِراعًا[2]: فأمَّا بابُ الهَرَم الشَّرقي، فإنَّه من الناحية الشَّرْقية على مِقْدار مائة ذِراع من وَسَط حائطِ الهَرَم. وأمَّا بابُ الهَرَم الغربي، فإنَّه من الناحية الغَرْبية على مِقْدار مائة ذِراع من وَسَط الحائِط. وأمَّا بابُ الهَرم المُلَوَّن، فإنَّه من الناحية الجَنُوبية على مِقْدار مائة ذِراع من وَسَط الحائِط. فإذا حُفِرَ بعد هذا القِياس، وُصِلَ إلى باب الأَزَج المبني، ويُدْخَل إلى باب الهَرَم.

---

a) بولاق: البلاط الهائل.

---

[1] الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٢١؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٢٤ وقارن أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣٨- ٣٩.

[2] هنا فقرة عن أبواب الأهرام عند الإدريسي والنويري، نقلها المقريزي فيما يلي ٣١٧.

وجُعِلَ ارْتِفاعُ كلِّ واحِدٍ من الأهْرام في الهَواء مائة ذراع بالذراع الملكي، وهو بذِراعهم خمس مائة ذِراع بذِراعنا الآن، وجَعَل طول كلِّ واحِدٍ من جَميع جِهاته مائة ذِراع بذِراعهم، ثم هَنْدَمَها[a] من كلِّ جانِب حتى تحَدَّدَت أعاليها من آخر طُولِها على ثمانية أذْرُع بذِراعِنا[b].

وكان ابتداءُ بنائِها في طالِعٍ سَعيد اجتمعوا عليه وتخَيَّروه. فلمَّا فَرَغَت، كَساهَا ديباجًا مُلَوَّنًا من فوقها إلى أَسْفَلِها، وعَمِل لها عِيدًا حَضَرَه أهْلُ مملكته بأجْمَعِهم[c]. ثم عَمِلَ في الهَرَم الغربي ثلاثين مخْزَنًا[d] من حِجارة صَوَّان مُلَوَّن، ومُلِئَت بالأمْوال الجَمَّة والآلات والتَّماثِيل المَعْمولة من/ الجَواهِر النَّفيسة وآلات الحَديد الفاخِر من السِّلاح الذي لا يَصْدَأُ، والزُّجاج الذي يَنْطَوي ولا يَنْكَسِر، والطِّلَّسْمات الغريبة، وأَصْناف العَقاقير المُفْرَدَة والمُؤَلَّفة، والسُّمُوم القَاتِلَة.

وعَمِلَ في الهَرَم الشَّرْقي أَصْناف القِباب الفَلَكِيَّة والكَواكِب، وما عَمِله أجْدَادُه من التَّماثِيل والدُّخَن التي يُتَقَرَّب بها إلى الكَواكِب ومَصاحِفها، وكَوْن الكَواكِب الثابِتَة وما يَحْدُث في أدْوارِها وَقْتًا وَقْتًا، وما عُمِلَ لها من التواريخ والحَوادِث التي مَضَت، والأوقات التي يُنْتَظَر فيها ما يَحْدُث، وكلّ من يَلِي مصر إلى آخِر الزَّمان، وجَعل فيها المَطاهِر التي فيها المياه المُدَبَّرَة، وما أَشْبَه ذلك.

وجَعَلَ في الهَرَم المُلَوَّن أَجْسادَ[e] الكَهَنَة في تَوابِيت من صَوَّان أسود، ومع كلِّ كاهِن مُصْحَف فيه عَجائِب صِناعاتِه وأَعْمالِه وسيرته، وما عُمِلَ في وَقْته، وما كان وما يكون من أَوَّل الزمان إلى آخره، وجَعَلَ في الحيطان من كلِّ جانِب أَصْنامًا تَعْمَل بأيديها جَميع الصِّناعات[f] على مَراتِبها وأَقْدارها، وصِفَة كلِّ صَنْعَة وعِلاجِها وما يَصْلُح لها. ولم يَتْرُك عِلْمًا من العُلوم حتى زَبَرَه ورَسَمَه. وجَعَلَ فيها أَمْوال الكَواكِب التي أُهْدِيت إلى الكَواكب، وأَمْوال الكَهَنَة، وهو شيءٌ عَظيم لا يُحْصَى[1].

---

a) بولاق: هندسها. b) النص عن النويري: نهاية ١٥: ٢٤-٢٥. وجعل طول كل واحد منها أربع مائة ذراع بالملكي يكون خمس مائة بذراعنا. وجعل تربيع كل واحد أربع مائة ذراع؛ وبناها في الاستواء إلى أربعين ذراعًا، ثم هرّمتها. c) بولاق بأجمعها. d) الأصل وبولاق: مخزنا والتصويب من الإدريسي والنويري. e) الأصل: أخبار. f) بولاق: الصنائع.

---

[1] الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٢١-١٢٣؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٢٤-٢٥.

وجَعَلَ لكلِّ هَرَمٍ منها خازنًا[a]: فخازنُ[b] الهَرَم الغَربي صَنَمٌ من حجارة صَوّان مُجَزَّع، وهو واقِفٌ ومعه شِبْه حَرْبَة، وعلى رأسه حَيَّة قد تَطَوَّق بها: مَن قَرُبَ منه وَثَبَتْ إليه وطَوَّقت على عُنُقه وَقَتَلَتْه، ثم تعود إلى مكانها. وجَعَل خازن[b] الهَرَم الشَّرْقي صَنَمًا من جِزْع أَسْود مُجَزَّع بأَسْوَد وأَبْيَض، له عَيْنان مفتوحتان بَرّاقتان وهو جالِسٌ على كرسي ومعه حَرْبَة: إذا نَظَرَ أَحَدٌ إليه سَمِعَ من جهته صَوْتًا يَفْزَع منه فيَخِرّ على وَجْهه، ولا يَبْرَح حتى يَمُوت. وجَعَلَ خازِن[b] الهَرَم المُلَوَّن صَنَمًا من حَجَر البَهْت على قاعِدَة منه: من نَظَرَ إليه، جَذَبَه حتى يَلْتَصِق به فلا يُفارِقه حتى يموت [1].

فلمَّا فَرَغَ من ذلك، حَصَّنَ الأَهْرَامَ بالأرْواح الرّوحانية، وذَبَح لها الذَّبائح لتَمْنَع عن أَنْفُسِها من أرادَها، إلَّا من عَمِل لها أَعْمالَ الوُصُول إليها [2].

وذَكَرَ القِبْطُ في كُتُبِهم أنّ عليها كتابًا[c] مَنْقوشًا تَفْسيره بالعربية: «أنا سُوريد الملك، بَنَيْتُ هذه الأهْرامِ في وَقْت كذا وكذا، وأَتْمَمْت بناءَها في ستِّ سنين. فمن أَتَى بَعْدي، وزَعَم أنَّه مَلكٌ مثلي، فليَهْدِمها في ستّ مائة سنة، وقد عَلِمَ أنَّ الهَدْمَ أَيْسَر من البُنْيان. وإنِّي كَسَوْتها عند فَراغِها بالدِّيباج، فليَكْسُها بالحُصُر» [3]. فنَظَروا فوَجَدوا أنَّه لا يَقُوم بهَدْمِها شيءٌ في[d] الأَزْمان الطِّوال.

وحَكَى القِبْطُ في كُتُبِهم أنَّ رُوحانية الهَرَم الشَّمالي غُلامٌ أَمْرَد، أصفر اللون[e]، عُرْيان، في فَمِه أنيابٌ كِبار. وروحانية الهرم الجَنوبي امْرأة عُرْيانة، بادية الفَرْج حَسْناء، في فَمِها أَنْيابٌ كِبار، تَشْتهوي الإنسان إذا رأته، وتَضْحك له حتى يَدْنُو منها فتَسْلُبُه عَقْلَه. ورُوحانية الهَرَم المُلَوَّن شَيْخٌ في يده مِجْمَرَة من مَجامِر الكَنائِس يَتَبَخَّر بها. وقد رأى غيرُ واحِدٍ من الناس هذه الرُّوحانيات مِرارًا وهي تَطُوف حَوْل الأَهْرام وَقْت القائِلَة وعند غُرُوب الشَّمْس [4].

---

a) بولاق: خادما. b) بولاق: فخادم. c) ساقطة من بولاق. d) بولاق: من. e) زيادة من بولاق.

---

[1] الإدريسي: أنوار علوي ١٢٧؛ المقريزي: نهاية الأرب ١٥: ٢٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٧٠- ٧٢.

[2] نفسه ١٢٨؛ نفسه ١٥: ٢٦- ٢٧.

[3] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٢٧؛ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٧٢.

[4] الإدريسي: أنوار ١٣٣؛ النويري: نهاية ١٥: ٣٢.

قال: ولمَّا ماتَ سُوريد، دُفِنَ في الهَرَم ومعه أمْوالُه وكُنوزُه؛ وقالت القِبْطُ: إنَّ سُورِيدَ هو الذي بَنَى البَرابي، وأَوْدَعَ فيها كُنوزًا، وزَبَرَ عليها عُلومًا، ووَكَّل بها رُوحانيات تَحْفَظها مِمَّن يَقْصِدها.

قال: وأمَّا الأَهْرامُ الدَّهْشورية، فيُقالُ إنَّ شَدَّات بن عَديم هو الذي بَناها من الحِجارة التي كانت قد قُطِعَت في زَمَن أبيه. وشَدَّات هذا يَزْعُم بعضُ الناس أنَّه شَدَّاد بن عادٍ. وقال من أَنْكَرَ أن يكون العادِية دَخَلت مصر: إنَّما غَلِطوا باسم شَدَّات بن عَديم، فقالوا شَدَّاد بن عاد، لكَثْرَة ما يَجْري على أَلْسِنَتهم شَدَّاد بن عاد، وقِلَّةِ ما يَجري على أَلْسِنَتهم شَدَّات بن عَديم، وإلَّا فما قَدَر أحَدٌ من الملوك يَدْخُل مصر ولا قَوِيَ على أَهْلها، غير بُخْت نَصَّر[1]. والله أَعْلَم.

وذَكَرَ أبو الحَسَن المَسْعُودي في كتابِه «أَخْبار الزَّمان ومَنْ أَبادَه الحَدَثان» أنَّ الخَليفَةَ عبد الله المأْمُون بن هارون الرَّشيد، لمَّا قَدِمَ مصر وأتَى على الأَهْرام، أَحَبَّ أن يَهْدِم أَحَدَها ليَعْلَم ما فيها، فقيل له: إنَّك لا تَقْدِر على ذلك، فقال: لا بُدَّ من فَتْح شيءٍ منه[2]. ففُتِحَت له الثُّلْمةُ المفتوحة الآن بنارٍ تُوقَد، وخَلٍّ يُرَشّ، ومَعاوِل وحَدَّادين يعملون فيها، حتى أَنْفَقَ عليها أمْوالًا عظيمة، فوَجَدُوا عَرْض الحائِط قَريبًا من عشرين ذِراعًا. فلمَّا انتهوا إلى آخِر الحائِط، وَجَدُوا خَلْف النَّقْب مَطْهَرَةً خَضْراء فيها ذَهَب مَضْروب، وَزْن كل دينار أُوقية، وكان عَدَدُها ألف دينار. فجَعَلَ المأمونُ يَتَعَجَّب من ذلك الذَّهب ومن جَوْدَته، ثم أَمَرَ بجُمْلَة ما أُنْفِق على الثُّلْمَة فوَجَدوا الذَّهب الذي أَصابوه لا يَزيد على ما أَنْفَقوه ولا يَنْقُص، فعَجِب من مَعْرِفتهم بمِقْدار ما يُنْفَق عليه، ومن تَرْكهم ما يُوازيه في المَوْضع، عَجَبًا عَظيمًا[2]. وقيل إنَّ المَطْهَرَة التي وُجِدَ فيها الذَّهب كانت من زَبَرْجَد، فأَمَرَ المأْمُون بحَمْلها إلى خِزانَته. وكان آخِرُ ما حُمِلَ[a] من عَجائِب مصر[3].

---

a) بولاق: آخر ما عمل، الإدريسي: آخر ما حمله.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦١.

[2] وذلك في سنة ستّ عشرة ومائتين (أنوار علوي الأجرام ٣١؛ صبح الأعشى ٣: ٣٢٥).

[3] قارن أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٧؛ الإدريسي: أنوار علوي ٣٥؛ مجهول: الاستبصار ٥٦– ٥٧؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٢٧– ٢٨؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٥– ٢٣٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٧٢؛ وفيما يلي ٣٠٨، ٣٢١– ٣٢٢؛ وانظر كذلك Van Reeth, J., «Caliph al-Ma'mûn and the Treasure of the Pyramids», *OLP* 25 (1994), pp. 221-36.

وأقامَ الناسُ سنين يَقْصِدونه، وينزلون في الزَّلاَّقَة التي فيه: فمنهم من يَسْلَم، ومنهم من يَهْلِك.

فاتَّفَقَ عشرون من الأحْداث على دُخُوله، وأعَدُّوا لذلك ما يُحْتاج إليه[a] من طَعام وشَراب وحِبال وشَمْع ونَحْوه، ونَزَلُوا في الزَّلاقَة، فَرَأَوْا فيها من الخُفَّاش ما يكون كالعُقْبان تَضْرب وُجوهَهم، ثم إنَّهم أَدْلَوا أَحَدهم بالحِبال فانْطَبق عليه المكان، وحاوَلُوا جَذْبه حتى أَعْياهم، فسَمِعوا صَوْتًا/ أرْعَبهم فغُشِيَ عليهم، ثم قامُوا وخَرَجوا من الهَرَم. فبينما هم جُلوس يَتَعَجَّبون مِمَّا ١١٤ وَقَع لهم؛ إذ أَخْرَجَت الأرضُ صاحِبَهم حَيًّا من بين أَيْديهم يتكَلَّم بكلامٍ لم يَعْرفوه، ثم سَقَطَ مَيِّتًا، فحَمَلوه ومَضَوْا به. فأَخَذَهم الخُفَراءُ وأتوا بهم إلى الوالي فحَدَّثوه خَبَرَهم، ثم سألُوا عن الكَلام الذي قال صاحِبُهم قبل مَوْته، فقيل لهم: معناه، «هذا جَزاءُ من طَلَبَ ما لَيْسَ له». وكان الذي فَسَّرَ لهم مَعْناه بعضُ أهل الصَّعيد[1].

وقال عليُّ بن رِضْوان الطَّبيب: فَكَّرْت في بِناءِ الأهْرام، فأَوْجَب عِلْمُ الهَنْدَسة العملية، ورَفْعُ الثَّقيل إلى فَوْق، أن يكون القَوْمُ هَنْدسوا سَطْحًا مُرَبَّعًا، ونَحَتُوا الحِجارَة ذَكَرًا وأُنْثَى، ورَصُّوها بالجِبْس البَحْري إلى أن ارْتَفَع البناءُ مِقْدار ما يُمْكن رَفْع الثَّقيل، وكانوا كُلَّما صَعِدوا ضَمُّوا البِناء حتى يكون السَّطحُ المُوازي للمُرَبَّع الأَسْفَل مُرَبَّعًا أصغر من المُرَبَّع السُّفْلاني، ثم عَمِلوا في السَّطْح المُرَبَّع الفَوْقاني مُرَبَّعًا أَصْغَر بمِقْدار ما بقي في الحاشِيَة ما يُمَكِّن رَفْع الثَّقيل إليه. وكُلَّما رَفَعُوا حَجَرًا مُهَنْدَمًا رَصُّوه إليه ذَكَرًا وأُنْثى، إلى أن ارْتَفَعَ مِقْدارٌ مِثْل المقدار الأَوَّل. ولم يَزالوا يَفعلون ذلك إلى أن بَلَغُوا غايةً لا يُمْكِنهم بَعْدَها أن يَفعلوا ذلك، فقَطَعُوا الارْتفاع ونَحَتوا الجَوانِب البارِزَة التي فَرَضُوها لرَفْع الثَّقيل، ونَزَلوا في النَّحْت من فَوْق إلى أسْفَل، وصار الجَميعُ هَرَمًا واحِدًا.

وقِياسُ الهَرَم الأَوَّل بالذِّراع التي تُقاسُ بها اليوم الأَبْنية بمصر، كلّ حاشِيَة منه أربع مائة ذِراع، يكون بالذِّراع السَّوْداء[2] ـ التي طُول كلِّ ذِراع منها أربعة وعشرين أَصْبُعًا ـ خمس مائة ذِراع.

---

a) بولاق: يحتاجون من.

---

[1] المسعودي: أخبار الزمان ١٣٨-١٤٠؛ وانظر كذلك الإدريسي: أنوار علوي ١٢٨-١٣٠؛ النويري: نهاية ١٥: ٢٨-٢٩.

[2] عن الذراع السوداء انظر فيما تقدم ١٥٦-١٥٧.

وذلك أنَّ قاعِدَتَه مُرَبَّع مُتساوي الأَضْلاع والزَّوايا : ضِلْعان منهما على خَطِّ نصف النَّهار، وضِلْعان على خَطِّ المَشْرِق والمَغْرب ، وكلُّ ضِلْع بالذِّراع السَّوْداء خمس مائة ذِراع . والخَطُّ المُنْحَدِر على اسْتِقامَة من رأس الهَرَم إلى نَصْف ضِلْع المُرَبَّع أربع مائة وسبعون ذِراعًا ، يكون إذا تُمِّم أيضًا خمس مائة ذِراع .

وأُحيط بالهَرَم أربعة مُثَلَّثات ومُرَبَّع ، كلّ مُثَلَّث منها مُتساوي الساقَيْن ، كلّ ساق منه إذا تُمِّم خمس مائة وستون ذِراعًا . والمُثَلَّثاتُ الأربعة تجتمع رُؤُوسُها عند نقطة واحِدَة وهي رأْس الهَرَم إذا تُمِّم ، فيلزم أن يكون عَمودُه أربع مائة وثلاثين ذِراعًا . وعلى هذا العَمُود مَراكِز أثْقاله ، ويكون تَكْسيرُ كلِّ مُثَلَّث من مُثَلَّثاته [a]أربع مائة ألف[a] مائة وخمسة وعشرين ألْف ذِراع ، إذا اجْتَمَع تَكاسِيرها كان مَبْلَغُ تَكْسير سَطْح هذا الهَرَم خمس مائة ألف ذِراع بالسَّوْدَاء . وما أَحْسَبُ على وَجْه الأرض بِناءً أعظم منه ، ولا أَحْسَن هَنْدَسَةً ، ولا أَطْول ، والله أعلم .

وقد فَتَح المأمون نَقْبًا من هذا الهَرَم فوَجَد فيه زَلَّاقة تَصْعَد إلى بَيْتٍ مُرَبَّع مُكَعَّب ، ووَجَدَ في وَسَطِه[b] قَبْرَ رُخام ، وهو باقٍ فيه إلى اليوم ، ولم يَقْدر أَحَدٌ يخطه .

وبذلك أَخْبَر جالينوس أنَّها قُبورٌ ، فقال في آخر الخامسة من «تَدْبير الصِّحَّة»[1] بهذا اللَّفْظ : «وهم يُسَمُّون مَنْ كان في هذا السِّن الهَرِم ، وهو اسْمٌ مُشْتَقٌّ من الأَهْرام التي هم إليها صائِرون عن قريب» .

وقال الحَوْقَلي في «صِفَة مصر» : وبها الهَرَمان اللَّذان ليس على وَجْه الأرض لهما نَظيرٌ في مُلْكِ مُسْلم ولا كافِر ، ولا عُمِلَ ولا يُعْمل كهما[2] .

وقرأ بعضُ بني العَبَّاس على أَحَدِهما : إنِّي قد بَنَيْتُهما ، فمن كان يَدَّعي قُوَّةً في مُلْكه فلْيَهْدِمْهُما ، فالهَدْمُ أَيْسَرُ من البُنْيان[3] . فهَمَّ بذلك ، وأَظُنُّه الـمَأْمون أو المُعْتَصم ، فإذا خَراجُ مصر لا يَقُوم به يومئذٍ . وكان خَراجُها على عَهْده ، بالإنْصاف في الجِبايَة وتَوَخِّي الرِّفْق بالرَّعِيَّة

(a-a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : سطحه .

---

[1] «تدبير الصحة» ويعرف أيضًا بـ«تدبير الأصحاء» لجالينوس ، نقله إلى العربية حنين بن إسحاق (Sezgin, F., GAS III, p. 253) .

[2] ابن حوقل : صورة الأرض ٨٨.

[3] أمية ابن عبد العزيز : الرسالة المصرية ٢٨.

والمَعْدِلَة ، إذا بَلَغَ النِّيلُ سبع عشرة ذِراعًا وعشر أصابع : أربعة آلاف ألف ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألْف دينار ، والمَقْبوض على الفَدَّان ديناران . فأَعْرَضَ عن ذلك ولم يَعُد فيه شيئًا [١] .

وفي حَدِّ الفُسطاط في غَرْبي النِّيل أَبْنِيَة عِظام يَكْثُر عَدَدُها ، مُفْتَرِشة في سائِر الصَّعيد ، تُدْعَى الأَهْرام ، وليست كالهَرَمَيْنِ اللذين تِجاه الفُسْطاط ، وعلى فَرْسَخَيْن منها ، ارْتِفاعُ كلّ واحِدٍ منهما أربع مِائة ذِراع ، وعَرْضُه كارتفاعه مَبْنِيّ بحِجارَة الكَدّان التي سُمْك الحَجَر وطوله وعَرْضه من العَشْر أَذْرُع إلى الثمان ، بحَسَب ما دَعَت الحاجَةُ إلى وَضْعه في زيادته ونَقْصه ، وأَوْجَبَته الهَنْدَسَة عندهم ، لأنَّهما كُلَّما ارْتَفَعا في البنَاء ضاقا حتى يَصير أعْلاهُما من كلّ واحِدٍ منهما مثل مَبْرَك جَمَل ، وقد مُلِئَت حِيطانُهما بالكتابة اليُونانية .

وقد ذَكَرَ قَوْمٌ أنَّهما قَبْران ، وليس كذلك ، وإنَّما حَدا[a] صاحِبَهما في[b] عَمَلهما أنَّه قَضَى بالطُّوفان أنَّه يَهْلك جَميع ما على وَجْه الأرض إلَّا ما حُصِّن في مِثْلهما ، فخَزَن ذَخائِرَه وأَمْواله فيهما ؛ وأَتَى الطُّوفانُ ثم نَضُب ، فصارَ ما كان فيهما إلى بَيْصَر [c]بن مَصْرايِم بن حام[c] بن نُوح . وقد خَزَن فيهما بعض الملوك المتأخِّرين ، وجَعَلها أَهْراءَه ، والله أَعْلَم [٢] .

وقال أبو يعقوب محمد بن إسحاق النَّديم الوَرَّاق في كتاب «الفِهْرِسْت» ، وقد ذَكَرَ هِرْمِس البابِلِيّ : قد اخْتُلِفَ في أَمْره ، فقيل إنَّه كان أَحَدَ السَّبْعَة السَّدَنَة الذين رَتَّبوا لحِفْظ البُيوت السَّبْعَة ، وإنَّه كان لترتيب[d] عُطارِد ، وباسمه سُمِّيَ ، فإنَّ عُطارِدَ باللغة الطُّرْدانية[e] هِرْمِس . وقيل إنَّه انتقل إلى أَرْض مصر بأسبابٍ ، وإنَّه مَلَكَها ، وكان له أَوْلادٌ منهم طا وصا وأَشْمن وأَتْريب وقِفْط ، وإنَّه كان حَكيمَ زَمانِه ، وإنَّه لمَّا توفِّيَ دُفِنَ في البناء الذي يُعْرَف بمَدينَة مصر بأبي هرميس ، ويَعْرِفه العَامَّةُ بالهَرَمَيْنِ ، فإنَّ أَحَدَهُما قَبْرُه ، والآخر قَبْر زَوْجَته ، وقيل قَبْرُ ابنه الذي خَلَفَه بعد مَوْته [٣] .

---

a) بولاق : حمل . b) بولاق : على . (c-c) ساقطة من ابن حوقل . d) الفهرست : إليه بيت . e) بولاق : الكلدانية .

---

[١] ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٥- ١٣٦.

[٢] نفســه ١٥١- ١٥٢.

[٣] أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق النَّديم الوَرَّاق البغدادي المعروف بـ[ابن] النديم وبابن أبي يعقوب الوَرَّاق ، لا نكاد نعلم عن حياته شيئًا كثيرًا سوى أنَّه كان وَرَّاقًا يبيع الكتب ببغداد وألَّف نحو سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م كتابه «الفهرست» أو «الفهرست في أخبار الأدباء» . وترجع مكانة ابن النديم إلى أنه أوّل من ألَّف تاريخًا للتراث العربي – قد يكون وحيدًا في بابه – سيظل على الدوام المصدر الرئيسي لمعرفة مصادر الأدب والعلم في القرون الأربعة الأولى للإسلام . ولا نعرف على التحقيق السنة التي توفي فيها [ابن] النديم ، ولكن ما ذكره في كتابه يدل على أنَّه كان موجودًا =

/وهذه البِنْيَة ـ يعني الأَهْرام ـ طُولُها بالذِّراع الهاشِمي أربع مائة ذِراع وثمانون ذراعًا، على مِساحَة أربع مائة وثمانين ذِراعًا؛ ثم يَنْخَرِط البِناءُ، فإذا حَصَل الإنسانُ في رأسه، كان مِقْدارُ سَطْحه أربعين ذراعًا في أربعين ذِراعًا، هذا بالهَنْدَسَة.

وفي وَسَط هذا السطْح قُبَّةٌ لطيفة في وَسَطها شَبيهٌ بالمَقْبَرَة، وعند رأس ذلك القَبْر صَخْرَتان في نهاية النَّظافة والحُسْن وكَثْرَة التَّلَوّنِ، وعلى كلِّ واحِدَة منهما شَخْصٌ[a] من حِجارَة صُورَة ذَكَر وأُنْثَى، وقد تقابلا[b] بوَجْهَيْهما، وبيد الذَّكر لَوْحٌ من حجارة فيه كِتابَة، وبيد الأُنْثَى مِرْآة، والرَّفُّ ذَهَبٌ نَقَشَه المِنْقاش[c].

وبين الصَّخْرتين بَرْنِيَّة من حجارة على رَأْسها غِطاءُ ذَهَب، فلمَّا قُلِعَ فإذا فيها شَبيه بالقار بغير رائحته[d] قد يَبِس. وفيها حُقَّة ذَهَب، فنَزَعَ رأسها، فإذا فيها دَمٌ عَبيط، ساعَة قَرَعَهُ الهواءُ جَمُد كما يَجْمُد الدَّم وجَفّ. وعلى القُبُور أَغْطية حِجارَة، فلمَّا قُلِعَت إذا رَجُلٌ نائِمٌ على قَفَاه على نِهاية الصِّحَّة والجَفاف، بيِّن الخِلْقَة، ظاهِر الشُّعُور، وإلى جَنْبه امرأةٌ على هَيْئَته[1].

قال: وذلك السَّطْحُ مُقَعَّر نحو قامة، وكما يدور مثل المِسْمار جانت[e] أزاج من حِجارَة، فيها صُوَر وتَماثيل مَطْروحَة وقائِمَة، وغير ذلك من الآلَة[f] التي لا تُعْرف أشكالُها[2].

وقال العَلَّامَةُ مُوَفَّقُ الدين عبد اللَّطيف بن أبي العِزّ يُوسُف بن أبي البَرَكات محمد بن عليّ بن أبي سَعيد البَغْدادي المعروف بابن المُطَجِّن[g] في سيرته: وجاءَ رَجُلٌ جاهِلٌ عَجَمِيٌّ، فخَيَّلَ إلى الملك العَزيز عُثْمان بن صَلاح الدين يُوسُف أنَّ الهَرَمَ الصغير تحته مَطْلَبٌ، فأَخْرَجَ إليه الحَجَّارين

---

a) بولاق: شخصان. b) بولاق: تلاقيا. c) بولاق: النقاش. d) الأصل وبولاق: رائحة، والتصويب من ابن النديم. e) بولاق: المسمار ذات وساقطة من ابن النديم. f) في الفهرست: الآلهة. g) بولاق: المطحن.

= حتى سنة ٤١٢هـ/١٠٥١م (ياقوت: معجم الأدباء ١٨: ١٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٢: ١٩٧؛ Sezgin, F., *GAS* I, pp. 386-87; Fuck, J.W., EI^2 art. *Ibn al-Nadīm* III, pp. 919-20).

ووصلت إلينا نسخة «الفهرست» التي اعتمد عليها المقريزي وهو ينقل عن ابن النديم وهي موزعة الآن بين مكتبتي شيستربتي بدبلن وفيض الله باستانبول، سجل المقريزي على ظهريتها ترجمة بخطه لابن النديم وإلى جوارها العبارة التالية «استفاد منه داعيًا لمعيره أحمد بن علي المقريزي ٨١٣».

[1] ابن النديم: الفهرست ٤١٧-٤١٨ وقارن الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ٢٢-٢٣.

[2] ابن النديم: الفهرست ٤١٨؛ الإدريسي: أنوار علوي ١٣٧-١٣٨.

وأكثر العَسْكَر ، وأخذوا في هَدْمه ، وأقاموا على ذلك شُهورًا ، ثم تَرَكوه عن عَجْزٍ وخُسْران مُبين في المال والعَقْل . ومن يَرَى حِجارَة الهَرَم يقول : إنَّه قد اسْتَوْصل الهَرَم ، ومن يرى الهَرَمَ لا يَجد به إلَّا تَشْعيثًا يَسيرًا . وقد أَشْرَفْتُ على الحَجَّارين فقلت لمُقَدَّمهم : هل تَقْدِرون على إعادتَه ؟ فقال : لو بَذَلَ لنا السُّلْطانُ عن كلِّ حَجَرٍ ألف دينار لم يُمْكِنَّا ذلك [١].

وقال أبو الحَسَن المَسْعودي في كتاب «مُروج الذَّهَب» : وأمَّا الأَهْرامُ ، فطُولُها عَظيمٌ وبُنْيانُها عَجيبٌ ، عليها أَنْواعٌ من الكتابات بأَقْلام الأُمَم السَّالِفَة والمَمَالِك الدَّاثِرَة ، لا يُدْرَى ما تلك الكِتابَة ولا المُراد بها . وقد قال من عُنيَ بتقْدير ذَرْعها : إنَّ مِقْدارَ ارْتِفاع الهَرَم الكبير ، ذَهابًا في الجو ، نحو أربع مائة ذِراع أو أكثر ، وكلَّما غلا به الصُّعَداء[a] دَقَّ ذلك ، والعَرْض نحو ما وَصَفْنا . وعليها من الرُّسوم عُلومٌ وخواصٌّ وسِحْرٌ وأَسْرارُ الطبيعة ، وإنَّ من تلك الكتابة مكتوب[b]: «إنَّا بَنَيْناها ، فمَنْ يَدَّعي موازاتَنا في المُلْك وبلوغنا في القُدْرَة وانتهاء أَمْر السُّلْطان[c]، فلْيَهْدِمها ولْيُزِلْ رَسْمَها ، فإنَّ الهَدْمَ أَيْسَر من البِناء ، والتفريق أسهل[d] من التأليف» . وقد ذُكِرَ أنَّ بعض مُلوك الإسلام شَرعَ في هَدْم بعضِها ، فإذا خَراجُ مصر [وغيرها من الأرض][e] لا يفي بقَلْعها ، وهي من الحَجر والرُّخام [٢].

وأنَّها قبور الملوك ، وكان المَلكُ منهم إذا مات وُضِعَ في حَوْض من حجارة ـ ويُسَمَّى بمصر والشَّام الجرون[f]ـ وأُطْبق عليه ، ثم يُبْنَى من الهَرَم على مِقْدار ما يُريدون من ارْتِفاع الأساس ، ثم يُحْمَل الحَوْض ويُوضَع وَسَط الهَرَم ، ثم يُقَنْطَر عليه البُنْيان والأَقْباء[g]، ثمَّ يَرْفَعون البِناء على هذا المِقْدار الذي يَرَوْنَه ، ويُجْعَل بابُ الهَرَم تحت الهَرَم ، ثم يُحْفَر له طَريقٌ في الأرض ، ويُعْقَد أَزَج طوله تحت الأرض مائة ذِراع أو أكثر . ولكلِّ هَرَمٍ من هذه الأَهْرام بابٌ مدخلُه على ما وَصَفْت .

قال : وكان القَوْمُ يَبْنُون الهَرَم من هذه الأَهْرام مُدَرَّجًا ذا مَراقٍ كالدَّرَج ، فإذا فَرَغوا نَحَتوه من فوق إلى أَسْفَل ، فهذه كانت حيلتهم . وكانوا مع ذلك لهم قُوَّة وصَبْر وطاعة [٣].

---

a) بولاق : صعد . b) بولاق : مكتوبًا . c) في مروج الذهب : وبلوغنا في ... وانتهاءنا من السلطان . d) مروج : أيسر . e) زيادة من مروج الذهب . f) مروج : الجرُن . g) ساقطة من بولاق .

---

[١] عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٨- ٤٩؛ الإدريسي : أنوار علوي ٤٠-٤١ سماعًا عن عبد اللطيف البغدادي ؛ وفيما يلي ٣٢٧-٣٢٨ .

[٢] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٩٠- ٩١.

[٣] نفسه ٢ : ٧٧؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤١.

وقال في كِتاب «التَّنْبيه والإشْراف» : والهَرَمان اللذان في الجانِب الغربي من فُسْطاط مصر هما من عَجائِب بُنْيان[a] العالم ، كلٌّ واحِدٍ منهما أربع مائة ذراع في سُمْك مثل ذلك ، مَبْنيان بالحَجَر العظيم على الرِّياح الأربع ، كلُّ ركن من أرْكانِهما يُقابِل رِيحًا منها ، فأعْظَمُها فيهما تأثيرًا رِيح الجَنوب ، وهي المَرِيسي .

وأَحدُ هذين الهَرَمَيْن قَبْر أغاثديمون[b]، والآخر قَبْر هِرْمِس ، وبينهما نحو ألف سنة وأغاثديمون[b] المتقدِّم[1] .

وكان سُكَّانُ مصر - وهم الأَقْباط - يعتقدون نُبُوَّتهما قبل ظُهور النَّصْرانية فيهم ، على ما يُوجِبُه رَأْيُ الصَّابئين في النُّبُوَّات ، لا على طَريق الوَحْي ، بل هم عندهم نفوسٌ طاهِرة صَفَت وتَهَذَّبَت من أَدْناس هذا العالم ، فاتَّحَدَت بهم مواد عُلْوية ، فأَخْبَروا عن الكائِنات قَبْل كَوْنها ، وعن سَرائِر العالَم ، وغير ذلك .

وفي العَرَب من اليَمانِية من يَرى أنَّهما قَبْرُ شَدَّاد بن عاد وغيره من مُلوكِهم السَّالِفَة الذين غَلَبوا على بلاد مصر في قَديم الدَّهْر ، وهم العَرَب العارِبَة من العَماليق وغيرهم . وهي عند من ذَكَرْنا من الصَّابِئين قُبورُ أجْسادٍ طاهِرَة[2] .

وذَكَر أبو زَيْد البَلْخي[3] أنَّه وَجَدَ مَكْتوبًا على الأهْرام بكتابَتِهم خَطٌّ ، فعُرِّب فإذا هو «بُنِيَ هذان الهَرَمان والنَّسْر الواقِع في السَّرَطان» . فحَسَبُوا من ذلك الوَقْت إلى الهِجْرَة النَّبوية ، فإذا هو ستٌّ وثلاثون ألف سنة شَمْسية مرَّتين ، يكون اثنتين وسبعين ألف سنة شَمْسية[4] .

وقال الهَمْداني في كتاب «الإكْليل» : لم يُوجَد مِمَّا كان تحت الماء وَقْت الغَرَقِ من القُرَى قريةٌ فيها بَقيَّة سوى نَهاوَنْد ترجمتها[c] وُجِدَت كما هي اليوم لم تَتَغَيَّر ، وأَهْرامُ الصَّعيد من أرْض مصر[5] .

---

a) الأصل : برهان . b) بولاق : أعاديمون . c) ساقطة من بولاق .

---

[1] قارن مع المسعودي : التنبيه والإشراف ١٩- ٢٠؛ عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٨، وفيما يلي ٣٢٧.

[2] المسعودي : التنبيه والإشراف ١٩- ٢٠.

[3] أبو زَيْد أحمد بن سَهْل البَلْخي (انظر فيما تقدم ٢٤) نقل عنه الشريف أبو جعفر الإدريسي صاحب كتاب «أنوار علوي الأجرام» في مواضع كثيرة من كتابه ، سواء عن كتاب «صفة الأرض والأقاليم» أو «تاريخه المختص بأخبار مصر وعجائبها ودفائنها وفراعنتها» (أنوار علوي : الأجرام ٦٠، ٨٨) .

[4] السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٧٣.

[5] لم أقف على هذا النص فيما وصل إلينا من كتاب =

١١٦: وذَكَرَ أبو عبد الله محمد بن عبد الرَّحيم القَيْسِي[١] / في كتاب «تُحْفَة الألْباب» أنَّ الأهْرامَ مُربَّعة الجملة، مُثَلَّثة الوُجوه، وعَدَدُها ثمانية عشر هَرَمًا، في مُقابلَة مصر الفُسْطاط ثلاثة أهْرام، أكبرها دَوْره ألفا ذِراع، في كلِّ وَجْه خمس مائة ذِراع، وعُلُوّه خمس مائة ذِراع، وكلّ حَجر من حِجارَتها ثلاثون ذِراعًا في غِلَظ عشرة أذْرُع، قد أُحْكم إلْصاقُه ونَحْتُه[٢].

ومنها عند مَدينَة فِرْعَون يُوسُف أهْرامٌ أعظم وأكْبَر، دَوْرُهُ ثلاثة آلاف ذِراع، وعُلُوُّه سبع مائة، من حِجارَة كلُّ حَجَر خمسون ذِراعًا.

وعند مَدينَة فِرْعَون مُوسَىٰ أهْرامٌ [أُخر] [a] أكْبَر وأعْظَم، وهَرَمٌ آخَر يُعْرَف بهَرَم مَيْدوم[b] كأنَّه جَبلٌ، وهو خمس طَبَقات[٣].

وفَتَحَ المأمونُ الهَرَم الكَبير الذي تجاه الفُسْطاط. قال: وقد دَخَلْتُ في داخِله، فرأيتُ قُبَّةً مُربَّعةَ الأسْفَل، مُدَوَّرَة الأعلى، كبيرة في وَسَطها بِئْر عُمْقها عشرة أذرع، وهي مُربَّعَة ينزل الإنسانُ فيها فيجد في كلِّ وَجْهٍ من تَرْبيع البِئْر بابًا يُفْضي إلى دارٍ كبيرة، فيها مَوْتَى كثيرة[c] من بني آدَم عليهم أكْفانٌ كثيرة، أكثرُ من مائة ثَوْب على كلِّ واحِدٍ، قد بَلِيَتْ بطُول الزمان واسْوَدَّت؛ وأجسامُهُم مِثْلنا لَيْسُوا طِوالًا، ولم يَسْقُط من أجْسامِهم ولا من شُعورهم شيءٌ، وليس فيهم شَيْخٌ ولا من شَعْره أبْيض، وأجْسادُهم قَوِيَّة لا يَقْدر الإنسانُ أن يُزيل عُضْوًا من أعضائِهم ألبتَّة، ولكنهم خَفُّوا

a) زيادة من الإدريسي. b) بولاق: مدون. c) ساقطة من بولاق.

= الإكليل، وانظر فيما يلي ٣١٩.

[١] أبو حامد الغرناطي، ويكنى كذلك أبو عبد الله، محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القَيْسي. ولد في غرناطة سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨١م وغادر الأندلس إلى غير رجعة حوالي سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م. وطاف بشمال إفريقيا ودخل الإسكندرية سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٥م وسمع بها وبمصر سنة ٥١١هـ/ ١١١٨م، وحدَّث بدمشق وسمع بها أيضًا وببغداد التي قدمها سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٣م، ودخل خراسان وأقام بها مُدَّة، ثم رجع إلى الشام وأقام بحلب سنين، وانتهى به المطاف في دمشق حيث توفي سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م في الثانية والتسعين من عمره. ولم يصل إلينا من مؤلفاته إلا كتابان «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» - الذي ينقل عنه المقريزي - و«المعرب عن بعض عجائب المغرب». (راجع، الصفدي: الوافي بالوفيات ٣: ٢٤٥- ٢٤٦؛ المقري: نفح الطيب ٢: ٢٣٥- ٢٣٦؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٣٢٦- ٣٣٠؛ حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٣٠٣-٣٥٧).

[٢] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ٧٤- ٧٥؛ وفيما يلي ٣٢٤.

[٣] نفسه ٧٥.

حتى صاروا كالغُثَاء لطول الزَّمان ، وفي تلك البِئر أربعةٌ من الدُّور ممْلوءةٌ بأجساد المَوْتَى ، وفيها خُفَّاشٌ كثير ، وكانوا يَدْفنون أيضًا جميع الحَيوان في الرِّمال .

ولقد وَجَدْتُ يومًا[a] ثيابًا مَلْفوفَة كثيرًا ، حِزْمَةً[a] مقدار أكثر من ذِرَاع ، وقد احْتَرَقَت تلك الثِّياب من القِدَم ، فأَزَلْتُ الثِّيابَ إلى أن ظَهَرَت خِرَق صِحاح قويَّة بِيض من كَتَّان أمثال العَصائِب ، فيها أعلامٌ من الحَرير الأحمر ، وفي داخِلها هُدْهُد مَيِّت لم يَتَناثَر من ريشه ولا من جَسَدِه شيءٌ ، كأنَّه قد مات الآن .

وفي القُبَّة التي في الهَرَم بابٌ يُفْضي إلى عُلوِّ الهَرَم ، وليس فيه دَرَجٌ ، عَرْضُه نحو خمسة أشْبار ، يُقال إنَّه صُعِدَ فيها في زمان المَأْمون فأفْضَوا إلى قُبَّة صغيرة فيها صُورَة آدَمي من حَجَر أَخْضَر كالدَّهْنج ، فأُخْرِجَت إلى المَأْمون ، فإذا هي مُطبقةٌ [كالدَّواة][b]، فلمَّا فُتِحَت وُجِدَ فيها جَسَدُ آدَمي عليه دِرْعٌ من ذَهَب مُزَيَّن بأنْواع الجَواهِر ، وعلى صَدْره نَصْلُ سَيْف لا قيمة له ، وعند رأْسِه حَجَرُ ياقوت أحمر كبَيْضَة الدَّجاجَة ، يُضيء كلَهَب النار[c]، فأَخَذَه المَأْمُون .

وقد رَأَيْتُ الصَّنَمَ الذي أُخْرِج منه ذلك المَيِّت مُلْقًى عند باب دار المُلْك بمصر في سنة إحدى عشرة وخمس مائة [1] .

وقال القاضي الجَليل أبو عبدُ الله محمد بن سَلامَة القُضَاعِيّ [2] : رَوَى عليُّ بن الحَسَن بن خَلَف ابن قُدَيْد ، عن يحيى بن عُثْمان بن صالِح ، عن محمد بن عليّ بن صَخْر التَّميمي ، قال : حَدَّثني رَجُلٌ من عَجَم مصر ، من قرية من قُراهَا تُدْعَى قِفْط [3] ـ وكان عالِمًا بأمور مصر وأَحْوالِها ، وطالِبًا لكُتُبها القَديمة ومعادِنِها ـ قال : وَجَدْنا في كُتُبِنَا القَديمَة ، قال : وأمَّا الأَهْرامُ فإنَّ قَوْمًا احْتَفَروا قَبْرًا

---

a) ساقطة من بولاق . b) زيادة من تحفة الألباب . c) التحفة : كالمصباح أو لهب النار .

---

[1] أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٥-٧٧ وانظر فيما يلي ٣٢٤.

[2] أورد الإدريسي كذلك رواية القضاعي مسندةً وسندُها : «أخبرنا القاضي العدل أمين الدين أبو محمد الحسن ابن محمد بن الحسن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن مروان القرشي الأُموي مُناوَلةً ، قال : أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد المنعم بن موهوب القاري قراءةً عليه وأنا أسمع ، قال : أخبرنا الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن بركات السعيدي النحوي قراءةً عليه ، قال : أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد ابن سلامة القضاعي سماعًا عليه قال : ...» (أنوار علوي الأجرام ١٠٠)، وأوردها كذلك ياقوت الحموي : معجم البلدان ٥:٣٩٩ نقلًا عن كتابه «خطط مصر».

[3] عن مدينة قفط انظر فيما يلي ٦٢٩- ٦٣٣.

في دَيْر أبي هِرْميس، فوَجَدُوا فيه مَيِّتًا في أكْفانِه، وعلى صَدْرِه قِرْطاسٌ مَلْفوفٌ في خِرَقٍ[1]، فاسْتَخْرَجوه من الخِرَق فرَأَوا كِتابًا لا يعرفُونه، وكان الكِتابُ بالقِبْطية الأولى، فطَلَبُوا مَنْ يَقْرأه لهم فلم يَقْدِرُوا عليه، فقيل لهم: إنَّ بدَيْر القَلَمُون من أرْض الفَيُّوم راهِبًا يقرأه، فخَرَجوا إليه، وقد ظَنُّوا أنَّه في الصَّنْعَة، فقَرَأه لهم وكان فيه.

«كُتِبَ هذا الكتابُ في أوَّل سنة من مُلْك دِيقْلطْيانس الملك، وإنَّا اسْتَنْسَخْناه من كِتابٍ نُسِخ في أوَّل سنة من مُلْك فيلبش الملك، وأنَّ فيلبس اسْتَنْسَخَه من صَحيفَةٍ من ذَهَب خَرَق كتابتها حَرْفًا حَرْفًا، وكان من الكتاب الأوَّل تَرْجَمَه له أخَوان من القِبْط يُقالُ لأحَدِهما أيْلو والآخر برثا.

وإنَّ المَلك فِيلبش سألهما عن سَبَب مَعْرفَتهما بما جَهِلَه الناسُ من قِراءَته، فذَكَرا أنَّهما من وَلَد رَجُل من أهْل مصر الأوائِل، لم يَنْج من الطُّوفانِ من أهل مصر أحَدٌ غيره، وكان سَبَبُ نَجاته أنَّه أتَى نُوحًا ـ عليه السَّلام ـ فآمَن به، ولم يأْتِه من أهل مصر غيره، فحَمَلَه معه في السَّفينة، فلمَّا نَضُبَ ماءُ الطُّوفان أتَى مصر ومعه نفَرٌ من وَلَد حَام بن نُوح، وكان بها حتى هَلَك، فوَرَّثَ وَلَدَه عِلْمَ كِتاب أهْل مصر الأُوَل، فوَرِثْناه عنه كابِرًا عن كابِر».

وكان تاريخُه الذي مَضَى إلى أن اسْتَنْسَخَه فيلبش ألفًا وثلاث مائة واثنتين وسبعين سنة، وأنَّ الذي اسْتَنْسَخه في صَحيفَة من ذَهَب خَرَق كتابتها حَرْفًا حَرْفًا على ما وَجَدَه فيلبُش، وإنَّ تاريخَه إلى أن اسْتَنْسَخَه ألف وسبع مائة سنة وخمس وثمانون سنة.

وكان الكِتابُ المُنْسوخ:

«إنَّا نَظَرْنا فيما تدُلّ عيه النُّجوم فرأينا أنَّ آفَةً نازِلَةً من السَّماء وخارِجَة من الأرض. فلمَّا بانَ لنا الكَوْنُ نَظَرنا ما هو، فوَجَدْناه ماءً مُفْسِدًا للأرض وحَيوانِها ونَباتِها. فلمَّا تَمَّ اليَقينُ من ذلك عندنا قُلْنا لِمَلِكِنا شوريد بن سُهْلوق: مُرْ ببناء أَفْروشْنات وقَبْر لك وقَبْر لأهل بيتك! فبَنَى لهم الهَرَم الشرقي[2]، وبَنَى لأخيه هرجيب الهَرم الغربي، وبنى لابن هَرْجيب الهَرَم

---

[1] هذا النص أحد الروايات القليلة التي تعتمد على ما جاء في القراطيس (البَرْدي Papyrus) القديمة (راجع مناقشة ذلك عند Fodor, A., *op. cit*, pp. 347-62).

[2] الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٠٠– ١٠٢.

المُؤَزِّر[a]، وبُنِيت أفروسْنَات في أسْفَل مصر وأعْلاها . فكَتَبْنا في حيطانها عِلْمَ غامِضِ أُمور النُّجوم وعِلَلِها ، والصَّنْعَة والهَنْدَسَة والطِّبّ ، وغير ذلك ممَّا يَنْفَع ويَضُرّ ، مُلَخَّصًا مُفَسَّرًا لمن عَرَف كلامَنا وكتابَتَنا .

فإنَّ[b] هذه الآفَة نازِلَة بأقْطار العالم ، وذلك عند نُزُول قَلْب الأَسَد في أوَّل دقيقةٍ من رأس السَّرَطان ، وتكون الكواكِبُ عند نُزُوله إيَّاها في هذه المواضِع من الفَلَك : الشَّمْسُ والقَمَرُ في أوَّل/ دقيقة من رأس الحَمَل وقُرونس في دَرَجة وثمان وعشرين دقيقة ، ورَاويس في الحُوت في تسعِ وعشرين درجة وثمان وعشرين دقيقة ، وآرين في الحُوت في تسعِ وعشرين درجة وثلاث دقائق ، وأفْروديطي[c] في الحُوت في ثمان وعشرين درجة ودقائق ، وهِرْمس في الحُوت في سبعِ وعشرين درجة ودقائق ، والجَوْزَهْر في الـمِيزان ، وأَوْج القَمَر في الأَسَد في خمس درجات ودقائق .

ثم نَظَرْنا هل يكونُ بعد هذه الآفَة كَوْنٌ مُضِرٌّ بالعالَم ، فأَصَبْنا الكواكِب تَدُلُّ على أنَّ آفَةً نازِلَةً من السَّماء إلى الأرض ، وأنَّها ضِدّ الآفَة الأُولَى ، وهي نارٌ محرِقةٌ أقْطار العالَم . ثم نَظَرْنا متى يكونُ هذا الكَوْنُ المُضِرّ ، فَرأَيْناه يكونُ عند حُلول قَلْب الأَسَد في آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشرة من الأَسَد ، ويكون إيليس معه في دقيقة واحدة مُتَّصِلَة بقرونس من تَثْليث الرَّامي ، ويكون راويس مُشْتَري في أوَّل الأَسَد في آخر احْتراقه ومعه . آرين في دقيقة ، ويكون سليس في الدَّلْو مُقابِلًا لإيليس ومعه الذَّنَب في اثنتين وعشرين ، ويكون كُسُوفٌ شديدٌ له مُكْث يُوازي القَمَر ، ويكون هِرْمِس في بُعْده الأَبْعَد أمامَها مُقْبلين ، أمَّا أفْروديطي[c] فللاسْتقامة ، وأمَّا هِرْمِس فللرَّجْعَة .

قال الملكُ : فهل عِندكم من خَبَرٍ تُوقِفُونا عليه غير هاتين الآفَتَيْن ؟ قالوا : إذا قَطَعَ قَلْبُ الأَسَد ثُلُثَيْ سُدس أدْواره ، لم يَبْق من حَيَوان الأَرض مُتَحرِّك إلَّا تلِف ، فإذا اسْتَتَمّ أدْواره تَحَلَّلَت عُقَد الفلك ، وسَقَطَ على الأرض . قال

---

a) بولاق : الملون . b) بولاق : وإن . c) بولاق : أفردوبطن .

لهم : وأيُّ يومٍ فيه انْحِلال الفَلَك ؟ قالوا : اليوم الثاني من بُدُوّ حركة الفَلَك» .

فهذا ما كان في[a] القِرْطاسِ .

فلمَّا ماتَ الملك سُوريد بن سُهْلوق ، دُفِنَ في الهَرَم الشَّرْقي ، ودُفِن هرجيب في الهَرَم الغَرْبي ، ودُفِن كرورس في الهَرَم الذي أَسْفَلَه من حجارة أُسْوان وأَعْلاه كِذَّان .

ولهذه الأَهْرام أبوابٌ في آزاج تحت الأَرْض ، طول كلّ أزَج مائة وخمسون ذِراعًا ، فأمَّا بابُ الهَرَم الشَّرقي فمن الناحية البَحْرية ، وأمَّا بابُ أَزَج الهَرَم [b]الغربي فمن النَّاحية الغربية ، وأمَّا بابُ أَزَج الهرم[b] المـُؤَزَّر فمن الناحية القِبْلية . وفي الأَهْرام من الذَّهب وحِجارَة الزُّمُرُّد ما لا يحتمله الوَصْف .

وإنَّ مُتَرْجِم هذا الكِتاب من القِبْطي إلى العَرَبي[c] أجْمَل التَّارِنْجات[d] إلى أوَّل يوم من تُوت ـ وهو يوم الأَحد طُلوع شَمْسه سنة خمس وعشرين ومائتين من سني العرب ـ فبَلَغَت أربعة آلاف وثلاث مائة وإحدى وعشرين سنة لسنتي الشَّمْس .

ثم نَظَرَ كمْ مَضَى للطُّوفان إلى يَوْمِه هذا فوَجَده ألفا وسبع مائة وإحدى وأربعين سنة وتسعة وخمسين يومًا وثلاث عشرة ساعَة وأربعة أخماس ساعَة وتسعة وخمسين جزءًا من أربع مائة جُزْء من ساعَة ، [e]فألْقاها من الجُمْلَة فبَقي معه ثلاث مائة وتسع وتسعونَ سنة ومائتان وخمسة أيَّام وعشر سَاعات وأحد وعشرون جزءًا من أربع مائة جُزْء من ساعة[e]. فعَلِمَ أنَّ هذا الكتاب المؤَرَّخ كُتِبَ قَبْل الطُّوفان بهذه السِّنين والأَيام والسَّاعات والكَسْر من السَّاعَة [1] .

وأمَّا الهَرَمُ الذي بدَيْر أبي هِرْميس ، فإنَّه قَبْرُ قِرْياس ، وكان فارِس أهل مصر ، وكان يُعَدُّ بألف فارِس ، فإذا لَقِيَهم لم يَقُومُوا به وانْهَزَمُوا ؛ وإنَّه ماتَ فجَزِعَ المَلِكُ عليه جَزَعًا بَلَغَ منه ، واكْتَأَبَت لموته الرَّعِيَّة ، فدَفَنُوه بدَيْر [أبي] هِرميس ، وبنوا عليه الهَرَم مُدَرَّجًا [2] . وكان طينُه الذي بُني به مع

---

a) ساقطة من بولاق . (b-b) ساقطة من بولاق . c) الأصل من القبلي إلى الغربي . d) بولاق : التاريخين . (e-e) ساقطة من الإدريسي . نتيجة انتقال نظر .

---

[1] آخر ما أورده ياقوت الحموي من نص القضاعي (معجم البلدان ٥:٣٩٩-٤٠٠) .

[2] المقصود به الهرم المدرّج ، ودير هرميس أو أبو هرميس هو الموضع المعروف الآن بـ«سَقَّارَة» في الجيزة =

الحِجَارة من الفَيُّوم ، وهذا معروفٌ إذا نُظِرَ إلى طِينِه لم يُعْرَف له مَعْدِنٌ إلَّا بالفَيُّوم ، وليس بمَنْف ووُسِيم له شِبْه من الطِّين [1].

وأمَّا قَبْرُ الملك - صاحِب قِرْياس هذا - فإنَّه الهَرَمُ الكبير من الأهْرام التي في بَحْريّ دَيْر أبي هِرْميس ، وعلى بابه لَوْحُ كِذَّان مكتوبٌ فيه باللَّازَوَرْد ، طول اللَّوْح ذِراعان في ذِراع ، وكلّه مملوء كتابًا مثل كتابة البَرَابي ، يُصَّعَد إلى باب الهَرَم بدَرَج بعضها صَحيح لم يَنْخَرم . وفي هذا الهَرَم ذَخائِرُ صاحِبه من الذَّهب وحجارة الزُّمُرُّد ، وإنَّما سَدَّ بابه حِجارةٌ سَقَطَت من أعاليه ، ومَنْ وَقَف عليه رآه بيِّنًا [2].

وقال ابنُ عُفَيْر عن أشْياخِه : إنَّ جِيادَ بن مَياد بن شَمَّر بن شَدَّاد بن عاد بن عُوص بن إرَم بن سَام بن نُوح - عليه السَّلام - ملك الإسْكَنْدَرية ، وكانت تسمَّى إرم ذاتَ العِمَاد ، فطالَ مُلْكُه وبَلَغَ ثلاث مائة سنة ، وهو الذي سارَ وبَنَى الأَهْرام وزَبَرَ فيها :

«أنا جِياد بن مَياد بن شَمَّر بن شَدَّاد ، الشاد بزراعَة الواد ، المُؤَيِّد الأوْتاد ،
الجامِع الصَّخْر في البلاد ، المُجَنِّد الأَجْناد ، الناصِب العِماد ، الكَنَد الكِناد ،
تُخْرِجُه أُمَّةٌ اسْم نَبِيِّها حَمَّاد ، آية ذلك إذا غَشَى بلد البلاد ، سبعة مُلوك
أجْناس السَّواد . تاريخُ هذا الزَّبْر ألف سنة وأربع مائة سنة عِداد» .

وقال ابنُ عُفَيْر وابنُ عَبْد الحكَم : وفي زَمان شَدَّاد بن عاد بُنِيَت الأَهْرام ، فيما ذَكَرَ بعضُ المُحَدِّثين . ولم نَجِد عند أَحَدٍ من أهْل العِلْم من أهْل مصر معرفَةً في الأَهْرام ولا خَبَر يَثْبُت[a] [3].

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحَكَم : ما أَحْسَبُ الأهْرامَ بُنِيتَ إلَّا قبل الطُّوفان ، لأنَّها لو بُنِيَت بعده لكان عِلْمُها عند الناس [4].

---

a) بولاق : ثبت .

= (راجع Haarmann, U., *EI*² art. *Sakkārā* VIII, pp. 925-26) .

[1] ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠١ .

[2] الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١١٥-١١٩ وهو آخر ما نقله ممّا قصّه القضاعي عن خبر الأهرام على ما وجد في الصحيفة المترجمة .

[3] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤٣ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠١ ؛ وانظر المسعودي : التنبيه والإشراف ٢٠ ومقال فودور Fodor, A., *op.cit.*, pp. 362-63.

[4] ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠١ .

وقال عَبيدُ بن شَـرِيَّة[a] الجُرْهُمِي : لمَّا نَزَلَت العَماليقُ أرْضَ مصر حين أَخْرَجَها جُرْهُم من مَكَّة ، بَنَت الأهْرام ، واتَّخَذَت لها المَصانِع ، وبَنَت فيها العَجائِب ، ولم تَزَل بمصر حتى أَخْرَجَها مالِكُ بن دعر الخُزاعِيّ [١].

وقال محمد بن عبد الحَكَم : كان من وَراءِ الأهْرام إلى المغرب أربع مائة مَدينَة سوى القُرَى ١١٨ من مصر إلى/ المغرب في غربي الأهْرام [٢].

وقال ابن عُفَيْر : ولم يَزَل مشايخُنا من أهل مصر يقولون الأَهْرامُ بَنَاها شَدَّاد بن عاد ، وهو الذي بَنَى المَغَار ، وجَنَّد الأَجْناد ؛ فالمَغارُ والأَجْنادُ هي الدَّفائِن . وكانوا يَقُولون بالرَّجْعَة ، وإذا ماتَ أَحَدُهُم دُفِنَ معه مالُه كائنًا ما كان ، وإن كان صانِعًا دُفِنَ معه آلة صَنْعَته ، وكانت الصَّابِئَة تَحِجّ إلى الأَهْرام [٣].

وقال أبو الرَّيْحان البِيروني في كتاب «الآثار الباقِيَة عن القُرون الخالِيَة» : والفُرْسُ وعامَّةُ[b] المَجُوس تُنْكِرُ الطُّوفان ، وأَقَرَّ به بعضُ الفُرْس لكنَّهم قالوا : كان بالشَّام والمغرب منه شيءٌ في زمان طمهورث ، ولكنَّه لم يَعُمّ العُمْران كلَّه ، ولم يتجاوَز عَقَبَة حُلْوان ، ولم يَبْلُغ ممالِكَ المشْرِق ، وإنَّ أهلَ المَغْرب لمَّا أَنْذَر به حُكَماؤُهم بَنَوا أَبْنِيَةً ـ كالهَرَمَيْن بمصر ـ ليَدْخُلُوها عند الآفَة ، وإنَّ آثارَ ماء الطُّوفان وتأْثيرات الأَمْواج كانت بَيِّنَةً على أَنْصاف الهَرَمَيْن لم تتجاوزهما [٤]. انتهى .

ويُقالُ : إنَّه لمَّا نَضَبَ ماءُ الطُّوفان[c] لم يُوجَد تحت الماء قَرْيَة سِوى نَهاوَنْد ـ وُجِدَت كما هي ـ وأَهْرامُ مصر وبَرابِيها ، وهي التي بَنَاها هِرْمِس الأَوَّل الذي تُسَمِّيه العرب إدْرِيس [٥]. وكان قد

a) في جميع النسخ : عبد الله بن شبرمة والصواب ما أثبته . b) إضافة من البيروني . c) بولاق : إن الطوفان لما نضب ماؤه .

[١] لم أقف على هذا الخبر فيما وصل إلينا من أخبار عبيد ابن شرية الجرهمي .

[٢] السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٧٧.

[٣] ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠١.

[٤] البيروني : الآثار الباقية ٢٣- ٢٤.

[٥] الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ٢٢؛ وفيما تقدم ٣١٢ نقلًا عن الهمداني .

وهرميس أو هرمس المثلث الحكمة انتقل إلى الحضارة الإسلامية بحالتين : الحالة الإلهية وهو الاسم اليوناني للإله المصري تحوت Thot، ويظهر في المؤلفات الفلسفية والعلمية والسحرية كبطل من العصور القديمة . وينسب إلى أبي معشر البلخي في كتاب «الألوف» أن الهرامسة ثلاثة : الأوّل هرمس الذي كان قبل الطوفان وهو أوّل من تكلّم في الأشياء العلـوية ، والذي يُعْرَف عنـد الرومان باسم =

أَلْهَمَه الله عِلْمَ النُّجوم، فدَلَّته على أنَّه سَيَنْزل بالأَرض آفَة، وأنَّه سيَبْقى بقيَّة من العالَم يَحْتاجون فيها إلى عِلْم، فبَنَى هو وأَهْل عَصْره الأَهْرام والبَرابي، وكَتَب عِلْمَه فيها.

وقال أبو الصَّلْت الأَنْدَلُسي في «رسالَتِه»، وقد ذَكَرَ أَخْلاقَ أهْل مِصْر: إلَّا أنَّه يَظْهَر من أَمْرهم أنَّه كان فيهم طائِفَةٌ من ذَوِي المَعارِف والعُلُوم، وخُصوصًا علم الهَنْدَسَة والنُّجوم، ويدلُّ على ذلك ما خَلَّفوه من الصَّنائِع البَديعَة المُعْجِزَة، كالأَهْرام والبَرابي، فإنَّها من الآثار التي حَيَّرَت الأَذْهان الثَّاقِبَة، واسْتَعْجَزَت الأَفْكار الرَّاجِحَة، وتَرَكَت لها شُغْلًا بالتَّعَجُّب منها والتَّفَكُّر فيها [١].

وفي مثلها يقول أبو العَلاء أحمد بن سُلَيْمان المَعَرِّي من قَصيدَته التي يَرْثي بها أَباه [٢]:

[الطويل]

تَضِلُّ العُقولُ الْهِزْبَرِيَّاتُ رُشْدَها ... ولا يَسْلَمُ الرَّأْيُ القَويمُ من الأَفْنِ
وقد كان أَرْبابُ الفَصاحَةِ كُلَّما ... رَأَوْا حَسَنًا عَدُّوه من صَنْعَة الجِنِّ

وأيُّ شيءٍ أَعْجَب وأَغْرَب، بعد مَقْدورات الله - عزَّ وجلَّ - ومَصْنوعاته، من القُدْرَة على بناء جِسم جَسيم، من أَعْظَم الحِجارَة، مُرَبَّعُ القاعِدَة، مَخْروط الشَّكْل، ارْتِفاع عَمُوده ثلاث مائة ذراع وتسعة عشر ذِراعًا، يُحيط به أربعة سُطوح مثلَّثات مُتَساويات الأَضْلاع، طولُ كلِّ ضِلع منها أربع مائة ذِراع وستون، وهو مع العِظَم من إحْكام الصَّنْعَة وإتْقان الهِنْدام وحُسْن التَّقْدير، بحيث لم يتأثَّر إلى هلمّ جَرًّا بعَصْف الرِّياح وهَطْل السَّحاب وزَعْزَعَة الزَّلازِل. وهذه صِفَةُ كلِّ واحِدٍ من الهَرَمَيْن المُحاذِيَيْن للفُسْطاط من الجانِب الغَرْبي على ما شاهَدْناه منهما [٣].

= Mercurius وهو «عُطارد» عند العرب، والذي يزعم المصريون القدماء أنه نفس الإله تحوت Thot، ويطلق عليه أيضًا «إدريس» و«أخنوخ أو خنوخ». والثاني هرمس البابلي الذي عاش في بابل مع الكلدانيين بعد الطوفان وأحيا دراسة العلوم. والثالث سكن في مصر بعد الطوفان أيضًا وكان فيلسوفًا طبيبًا وبرع في علم الكيمياء وكان من أنبغ تلاميذه اسقلابيوس (راجع، ابن النديم: الفهرست ٣٢٧، ٤١٧–٤١٨؛ ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ٥–١٠؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١:١٦–٢١؛ المبشر بن فاتك: مختار الحكم ٧–٢٧؛ الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ٩٦–٩٧؛ Sezgin, F., *GAS* IV, pp. 31-44, VII, pp. 50-58; Plessner, M., *EI*² art. *Hirmis* III, pp. 479-81, Vajda, G., *EI*² art. *Idrīs* III, pp. 1056-57؛ وحلل بلسنر رواية أبي معشر في مقاله Plessner, M., «Hermes Trismegistus and Arab Science», *SI* II (1954), pp. 53؛ وانظر كذلك Fodor, A., The Origin of the Arabic Legendems of the Pyramides, pp. 335-46.

[١] الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٧.

[٢] انظر أبيات أبي العلاء المعري في سقط الزند ١: ١١٩٦؛ الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٧.

[٣] الإدريسي: أنوار علوي ١٧–١٨؛ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٤٠١–٤٠٢.

و[1]قد ذَكَرْتُ عَجائب مصر، وأنَّ ما على وَجْه الأرض بِنْيَة إلّا وأنا أَرْثي لها من اللَّيْل والنَّهار إلّا الهَرَمان، فأنا أَرْثي اللَّيْل والنَّهار منهما[2]، وهذان الهَرَمان لهما إشْرافٌ على أرْض مصر، وإطْلالٌ على بَطائِحِها، وإصْعادٌ في جَوِّها[a]. وهما اللَّذان أرادَ أبو الطَّيِّب المُتَنَبِّي بقَوْله[3]:

[الكامل]

أَيْنَ الذي الهَرَمانِ مِنْ بُنْيانه؟ ما قَوْمُه؟ ما يَوْمُه؟ ما المَصْرَعُ؟
تَتَخَلَّفُ الآثارُ عن سُكّانِها حينًا، ويُدْرِكُها الفَنَاءُ فتَتْبَعُ

واتَّفق يومًا أنَّا خَرَجْنا إليهما، فلمَّا طُفْنَا بهما واستدرنا حَوْلَهما، كَثُرَ التَّعَجُّب منهما، فقال بعضُنا[4]:

[الطويل]

بعَيْنَيْك[b] هل أَبْصَرْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرًا على طولِ ما أَبْصَرْتَ من هَرَمَيْ مصرِ؟
أنافا بأعنان السَّماء وأَشْرَفَا على الجَوِّ إشْرافَ السِّماكِ أو النَّسْرِ
وقد وافَيَا نَشْزًا من الأَرْض عالِيًا كأنَّهُما نَهْدانِ قَامَا على صَدْرِ

وزَعَم قَوْمٌ أنَّ الأَهْرَام قُبُور مُلوك عِظام آثَروا أن يَتميَّزوا بها على سائِر المُلُوك بعد مَماتِهم، كما تَمَيَّزوا عنهم في حَياتِهم، وتَوَخَّوا أن يبقى ذكرُهم بسَبَبِها على تَطاوُل الدُّهور وتَراخي العُصور[5].

ولمَّا وَصَلَ الخَليفَةُ المَأْمُونَ إلى مصر أَمَرَ بنَقْبها، فنُقِبَ أَحَدُ الهَرَمَيْن المُحاذِيَيْن للفُسْطاط بعد جُهْد شَديد وعَناءٍ طَويل، فوَجَدوا داخِلَه مَهاوي ومَراقي يَهول أَمْرُها ويَعْسُر السُّلوك فيها، ووَجَدوا في أَعْلاها بَيْتًا مُكَعَّبًا طول كلِّ ضِلْع من أَضْلاعِه نحو من ثمانية أذرع، وفي وَسَطِه حَوْضٌ رُخام مُطْبَق، فلمَّا كُشِفَ غِطاؤه لم يَجِدُوا فيه غَيْر رِمَّة بالية قد أَتَت عليها العُصور

---

a) في الرسالة المصرية: على ذراها، وبولاق: جوفها. b) بولاق: بعيشك.

---

[1] من هنا ينقل المقريزي عن «الرسالة المصرية» لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز ٢٦.

[2] أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٦؛ وانظر فيما تقدم ٨٢ وفيما يلي ٣٢٩.

[3] الأبيات في ديوان المتنبي بشرح العكبري ١: ٤٠٥؛ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٦؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٧؛ وقارن الإدريسي: أنوار علوي ١١.

[4] الأبيات عند ابن ظافر: بدائع البدائه ١: ٢٤٣؛ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٤٠٢ وفيه يعني نفسه؛ الإدريسي: أنوار علوي ١٤٥؛ النويري: نهاية الأرب ١: ٣٩١؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٧؛ المقري: نفح الطيب ١: ٤٩٨، ٣: ٣٣٢ وهي فيه منسوبة إلى أمية بن عبد العزيز.

[5] الإدريسي: أنوار علوي ١٤٧؛ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٤٠٢.

الخالِيَة . فعند ذلك أَمَرَ المأْمُون بالكَفّ عن نَقْب ما سِواه . ويُقالُ إنَّ النَّفَقَة على نَقْبِه كانت عَظِيمَةً والـمَؤُنَة شَدِيدَة[١] .

ومن النَّاس مَنْ زَعم أنَّ هِرْمِسَ الأوَّل المدعو بالـمُثَلَّث بالنُّبُوَّة والـمُلْك والحِكْمَة ، وهو الذي تُسَمِّيه العِبْرانيون خَنُوخ بن يرد بن مَهلائيل بن فتيان بن أنوش بن شِيث بن آدَم عليه السَّلام ، وهو إدريس ـ عليه السَّلام ـ استدلّ من أحْوال الكواكِب على كَوْن الطُّوفان يَعُمّ الأَرْضَ ، فأمر ببُنْيان[a] الأهْرام وإيداعها الأَمْوال ، وصَحائف العُلُوم ، وما يُشْفَقُ عليه من/ الذَّهاب والدُّروس ، حِفْظًا لها واحْتياطًا عليها[٢] . ٩:١

ويُقالُ إنَّ الذي بناها مَلِكٌ اسمه سُوريد بن سَهْلوق بن سرياق[٣] ، وقال آخرون : إنَّ الذي بَنَى الهَرَمَيْن المُحاذيين للفُسْطاط شَدَّاد بن عاد لرُؤْيا رآها .

والقِبْطُ تُنْكِر دُخول العَمالِقَة بَلَد مصر ، وتحقِّق أنَّ بانيها سُوريد لرُؤْيا رآها وهي أنَّ آفَةً تَنْزل من السَّماء ، وهي الطُّوفان . وقالوا إنَّه بَناهُما في مُدَّة ستة أشهر ، وغَشَّاهُما بالدِّيباج المُلَوَّنّ ، وكَتَب عليهما : «قد بَنَيْناهما في ستة أشهر ، قُل لمن يأتي من بَعْدنا يَهْدِمُهَا في ستّ مائة سنة ، فالهَدْم أَيْسَرُ من البُنْيان ، وكَسَوْناهما الدِّيباج المُلَوَّن ، فليكسهما حُصْرًا ، فالحُصْر أهْوَن من الدِّيباج» .

ورأينا سُطوحَ كلِّ واحِدٍ من هذين الهَرَمَيْن مَخْطوطة من أعلاها إلى أَسْفَلِها بسُطورٍ مُتضايقة مُتوازِيَة من كِتابَة بانِيها ، لا تُعْرَف اليومُ أَحْرُفُها ، ولا تُفْهَم مَعانِيها .

وبالجملة ، الأَمْرُ فيها عَجيب ، حتى إنَّ غاية الوَصْف لها ، والإغْراق في العبارة عنها ، وعن حَقيقَة المَوْصوف منها ، بخِلاف ما قالَه عليُّ بن العَبَّاس الرُّوميُّ ، وإن تَبَاعَد المَوْصوفان ، وتَبَايَن المَقْصودان ، إذْ يقول[٤] :

[المتقارب]

إذا مـا وَصَـفْـتَ أَمْـرًا لامْـرِئٍ فـلا تَـغْـلُ في وَصْـفِه واقْـصِـدِ

a) بولاق : فأكثر من بنيان .

[١] الإدريسي : أنوار علوي ١٣٤؛ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠٢؛ وانظر فيما تقدم ٣٠٦.

[٢] أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٩.

[٣] ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠٢ ومصدره أبو الصلت أمية بن عبد العزيز .

[٤] الأبيات في ديوان ابن الرومي ٢ : ٦٨٨؛ الإدريسي : أنوار علوي ١٤٦.

فإنَّك إن تَغْلُ تُبْد الظُّنو ... ن فيه إلى الغَرَضِ الأَبْعَدِ
فيَصْغُرُ من حيث عَظَّمْتُه ... لفَضْل المغيب على المَشْهَدِ[١]

ويُقال : إنَّ المأمون أمَرَ من صَعِد الهَرَم الكبير أن يُدْلي حَبْلًا ، فكان طُولُه ألف ذراع بالذِّراع الملكي ـ وهو ذراع وخُمسان ـ وتَرْبِيعُه أربع مائة ذِراع في مِثْلها ، وكان صُعودُه في ثلاث ساعات من النَّهار ، وأنَّه وَجَد مِقْدار رَأْس الهَرَم قَدْر مَبْرَك ثمانية جِمال[٢] .

ويُقالُ : إنَّه وُجِدَ على الشخص[a] المقبور في الهَرَم حُلَّة قد بَلِيَت ولم يَبْق منها سوى سُلوكُها من الذَّهَب ، وأنَّ ثَخانَةَ الطِّلاء الذي عليه قَدْر شِبر من مُرٍّ وصَبْر .

ويُقالُ : إنَّه وُجِدَ في مَوْضِع من هذا الهَرَم إيوانٌ ، في صَدْره ثلاثة أبواب على ثلاثة بُيوت ، طول كلِّ باب منها عشرة أَذْرُع في عَرْض خمسة أذرع من رُخام مَنحوت مُحْكَم الهِنْدام ، وعلى صَفَحاته خَطٌّ أزرق لم يُحْسِنُوا قِراءَتَه ؛ وأنَّهم أقاموا ثلاثة أيام يَعْمَلون الحيلَة في فَتْح هذه الأَبْواب ، إلى أن رَأَوا أمامَها على عشرة أذرع منها ثلاثة أَعْمِدَة من مَرْمَر ، وفي كلِّ عَمُود خِرَق في طُوله ، وفي وَسَط الخِرَق صُورة طائِر ؛ ففي الأَوَّل من هذه العُمُد صُورَة حَمَام من حَجر أخضر ، وفي الأَوْسط صورة بازي من حَجر أصفر ، وفي العَمُود الثالث صورة ديك من حَجَر أحمر . فحَرَّكوا البازي فتَحَرَّك البابُ الأوَّل الذي في مُقابَلَته ، فرَفَعوا البازِي قليلًا فارْتَفَع البابُ ، وكان بحيث لا يَرْفعه مائة رجل من عِظَمه ، فرَفَعُوا التِّمْثالَيْن الآخرين ، فارْتَفَع البابان الآخران ؛ فدَخَلوا إلى البَيْت الأَوْسَط ، فوَجَدوا فيه ثلاثة سُرُر من حِجارَة شَفَّافة مُضيئَة ، وعليها ثلاثة من الأَمْوات ، على كلِّ مَيِّت ثلاث حُلَل ، وعند رأْسه مُصْحَف بخَطٍّ مَجْهول .

ووَجَدوا في البَيْت الآخر عِدَّة رُفُوف من حِجارَة ، عليها أسفاط من حجارة فيها أَوَانٍ من الذَّهب عَجيبة الصَّنْعَة ، مُرَصَّعَة بأصناف[b] الجَواهِر . ووَجَدوا في البَيْت الثالِث عِدَّة رُفُوف من حِجارة ، عليها أسْفاط من حِجارَة فيها آلات الحَرْب وعُدَد السِّلاح ؛ فقِيس منها سَيفٌ فكان طولُه سبعة أشبار ، وكلُّ دِرْع من تلك الدُّروع اثنا عشر شبرًا ، [c]ويدخل في البيضة رأسان من رؤوس الناس[c] ؛ فأَمَرَ المَأْمُونُ بحَمْل ما وُجِد في البُيوت ، وأَمَر فحُطَّت العُمُد فانْطَبَقت الأبوابُ كما كانت .

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : بأنواع . (c-c) ساقطة من بولاق .

---

[١] نهاية النص المنقول عن أمية بن عبد العزيز : الرسالة المصرية ٢٤ - ٢٨.

[٢] ابن النديم : الفهرست ٤١٨ وهو تتمة النص الذي نقله فيما سبق ٣٠٩ - ٣١٠.

ويُقالُ كانت عِدَّةُ الأهْرام ثمانية عشر هَرَمًا منها تجاه مَدينَة الفُسْطاط ثلاثة ، أكْبَرُها دَوْرُه ألفا ذِراع ، وهو مُرَبَّع ، في كلِّ وَجْهٍ من وُجوهه الأربعة خمس مائة ذِراع [1] .

ويُقالُ إنَّ المأمون لمَّا فَتَحَه وَجَدَ فيه حَوْضًا من حَجَر مُغَطًّى بلَوْح من رُخام وهو مَمْلوءٌ بالذَّهب ، وعلى اللَّوْح مَكْتُوبٌ بقلم عُرِّبَ فكان : «إنَّا عَمَّرنا هذا الهَرَم في ألْف يوم ، وأبَحْنا لمن يَهْدِمه في ألف يوم [a]، والهَدْمُ أسْهَلُ من العِمارة . وكَسَوْناه جَميعَه بالدِّيباج ، وأبَحْنا لمن يَكْسوه الحُصْر ، والحُصْر أيْسَرُ من الدِّيباج . وجَعَلْنا في كلِّ جِهَة من جِهاتِه مالًا بقَدْر ما يُصْرَف على الوُصول إليه» [2] .

فأمَرَ المأمُون أن يُحْسَب ما صُرِفَ على النَّقْب ، فبَلَغَ قَدْرَ ما وُجِدَ في الحَوْض من غير زيادة ولا نَقْص [3] .

ويُقالُ : إنَّه وُجِدَ فيه صُورَة آدَمي من حَجَر أخْضَر كالدَّهْنج ، مُطْبقة [b] كالدَّواة ، ففُتِحَ فإذا فيه جَسَدُ إنسان [c] عليه دِرْعٌ من ذَهَب [d]مُزَيَّن بأنْواع الجَواهِر ، وعلى صَدْره نَصْلُ سَيْفٍ لا قيمةَ له ، وعند رأسِه حَجَر [d] من ياقُوت أحمر في قَدْر بَيْضة الدَّجاجة . فأخَذَه المأمُون وقال : هذا خَيْرٌ من خَراج الدنيا [e].

وذَكَرَ بعضُ مُؤرِّخي مصر أنَّ هذا الصَّنَم الأخْضر الذي وُجِدَت الرِّمَّة فيه لم يَزَل مُشلقًا [f] عند دار المُلْك بمَدينَة مصر إلى سنة إحدى عشرة وخمس مائة [g] من سني الهجرة [4] .

وكان عند مَدينَة فِرْعون يوسف هرمان ، وعند مَيْدوم هَرَم ، وهذا آخِرها .

وفي سنة تسعٍ وسبعين وخمس مائة من سني الهِجْرة ظَهَرَ بتُرْبَة بُوصير من ناحِية الجِيزَة بَيْتُ هِرمِيس ، فَفَتَحه القاضي ابن الشَّهْرَزوري/ وأخَذَ منه أشياءَ من جملتها كِباش وقُرود وضَفادِع من حَجَر بازَهْر ، وقَواريرَ من دَهْج ، وأصْنام من نُحاس .

---

a) بولاق : سنة . b) بولاق : فيها طبق . c) بولاق : آدمي . (d-d) ساقطة من الأصل . e) بولاق : الذهب . f) بولاق : معلقًا . g) بولاق : وست مائة ، وانظر فيما تقدم ٣١٤.

---

[1] أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٧ وفيما تقدم ٣١٣.

[2] هذا النص موجود في الكراسة التي بخط المقريزي المحفوظة في مكتبة Liège.

[3] انظر فيما تقدم ٣٠٦.

[4] انظر فيما تقدم ٣١٤.

وقال ابنُ خُرْداذْبَه [١]: من عَجِيب البُنْيان أنَّ الهَرَمَيْن بمصر سُمْك كلِّ واحِدٍ منهما أربع مائة ذِراع، وكلَّما ارْتفع دَقّ، وهما من رُخامٍ ومَرْمَر، والطُّول أربع مائة ذِراع في عَرْض أربع مائة ذِراع، مكتوبٌ عليها بالمُسْنَد[a] كل سِحْرٍ وكلّ عَجيب من الطِّبّ، ومَكْتُوبٌ عليهما: إنّي بَنَيْتُهما، فمَن يَدَّعي قُوَّةً في مُلْكِهُ فليَهْدِمهما، فإنَّ الهَدْمَ أَيْسَرَ من البِناء. فاعْتَبر ذلك، فإذا خَراجُ الدُّنْيا لا يفي بهَدْمِها.

وقال في كتاب «عَجائِب البُنْيان» [٢] عن الأهْرام: قد انْفَرَدَت مصرُ بهذه الأشْكال، فلَيس لها نظير من مثال[b]، يَظُنُّها النَّاظِرُ للديار المصرية نَهْدَيْن، ويَحْسَبُهُما المتأمِّلُ[c] أنَّ مَكارِمَ أهْلها قد أَعَدَّتها للتكرُّم أَبْلُوجين، تراهما العَيْنُ على بُعْد المسافَة، وإذا حَدَّثْت عن عَجائِبهما يُظَنّ أنّه حديثُ خُرافَة.

وقد أَكْثَرَ الناسُ في ذِكْر الأَهْرام ووَصْفِها ومِساحَتِها، وهي كثيرة العَدَد جِدًّا، وكلّها ببَرِّ الجيزَة على سَمْت مصر القَديمَة، تَمْتَدُّ نحوًا من مَسافَة ثلاثة أيام. وفي بُوصير منها شيءٌ كثيرٌ. وبعضُها كِبار وبعضها صِغار، وبعضُها طِين وبعضُها لَبِن، وأَكْثَرُها حَجَر، وبعضُها مُدَرَّج، وأكثرها مَخْروطٌ أَمْلَس.

وقد كان منها بالـجيزَة عَدَدٌ كثيرٌ كُلُّها صِغار، هُدِمَت في زَمَن السُّلْطان صَلاح الدين يُوسُف ابن أيُّوب على يد الطُّواشي بَهاء الدِّين قَراقُوش، أَخَذَ حِجارَتها وبَنى بها القَناطِر في الـجيزَة، وقد بَقِيَ من هذه الأَهْرام الـمَهْدومَة تَلُّها [٣].

وأمّا [٤] الأهرامُ المُتَحدَّث عنها، فهي ثلاثة أَهْرام، مَوْضوعَة على خَطٍّ مستقيم بالـجيزَة قُبالَة الفُسْطاط، وبينها مَسافاتٌ كثيرة وزَوايَا مُتَقابِلَة نحو الشَّرْق. واثنان عَظيمان جِدًّا في قَدْر واحِد،

---

a) بولاق: باليد. b) بولاق: بغيرها تمثال. c) بولاق: القابل.

---

[١] ابن خرداذبه: المسالك والممالك ٥٩.

[٢] هذا الكتاب نسبه المقريزي (فيما يلي ٦٢١، ٢: ٢٠٤) إلى المؤرخ ناصر الدين شافع بن عليّ بن عباس سبط القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، المتوفى سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، الذي يبدو أنه اعتمد في وصف المنشآت والآثار القديمة على كتاب «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف بن يوسف البغدادي، فما يُنتسب إليه يوجد نصًّا في كتاب «الإفادة والاعتبار».

[٣] انظر فيما تقدم ٣٠٠ وفيما يلي ٢: ١٥١.

[٤] من هنا يتفق نص «عجائب البنيان» مع نص «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادي.

وهما مُتقارِبان ومَبْنيان بالحِجَارة البِيض، وأمَّا الثالِثُ فينقص[a] عنها نَحْو الربع، لكنَّه مَبْني بحِجارَة الصَّوَّان الأحمر المُنَقَّط الشديد القُوَّة والصَّلابَة، ولا يَكاد يُؤَثِّر فيه الحَديد إلَّا في الزَّمان الطَّويل، وتجَده صَغيرًا بالقياس إلى ذَيْنِك، فإذا أَتَيتَ إليه وأَفْرَدْته بالنَّظَر هالَك مَرْآه، وحَيَّرَ النَّظَر[b] في تَأَمُّله.

وقد سُلِكَ في بِناء الأهْرام طَريقٌ عجيبٌ من الشَّكْل والإتْقان، ولذلك صَبَرَت على مَمَرِّ الأيام لا، بل على مَمَرِّها صَبَرَ الزَّمانُ. فإنَّك إذا تَأَمَّلْتَها وَجَدْتَ الأَذْهان الشَّريفَة قد استُهْلِكَت فيها والعُقولَ الصَّافية قد أَفْرَغَت عليها مجهودَها، والأَنْفُس النَّيِّرَة قد أفاضَت عليها أَشْرَف ما عِنْدها، والمَلَكات الهَنْدَسِيَّة قد أَخْرَجَتْها إلى الفِعْل مِثالًا في غاية إمْكانِها، حتى إنَّها تَكادُ تُحَدِّث عن قَوْمِها[c]، وتُخْبِر عن سِيرَتهم، وتَنْطِق عن عُلومِهم وأَذْهانِهم، وتُتَرْجِم عن سِيَرهم وأَخْبارهم.

وذلك أنَّ وَضْعَها على شَكْل مَخْروط، ويبتدئ من قاعِدَةٍ مُرَبَّعة ويَنْتَهي إلى نُقْطَة. ومن خواصّ الشَّكْل المَخْروط أنَّ مَرْكَزَ ثِقَلِه في وَسَطه، يَتَسانَد على نَفْسه، ويَتَواقَع على ذَاتِه، ويَتَحامَل بعضُه على بَعْض، وليس له جِهَة أُخْرى يتَساقَط عليها.

ومن عَجيب وَضْعه أنَّه شَكْلٌ مُرَبَّع قد قُوبِل بزَواياه مَهاب الرِّياح الأَرْبع، فإنَّ الرِّيح تَنْكَسِر سورتها عند مُسامَتتها الزَّاوية، وليست كذلك عندما تَلْقَى السَّطْح.

وذَكَرَ المُسَّاحُ أنَّ قاعِدَة كلٍّ من الهَرَمَيْن العَظيمين أربع مائة ذِراع بالذِّراع السَّوْداء[1]، ويَنْقطع المَخْروط في أَعْلاه عند سَطْح مِساحَته عشرة أَذْرُع في مِثْلها. وذُكِرَ أنَّ بَعْضَ الرُّماة رَمَى سَهْمًا في قُطْر أَحَدِهما وفي سُمْكه، فسَقَط السَّهْمُ دون نصف المَسافَة. وذكر أنَّ ذَرْع سَطْحِها أَحَد عشر ذِراعًا بذِراع اليد.

وفي أَحَد هذين الهَرَمَيْن مَدْخَلٌ يَلِجه الناسُ، يُفْضي بهم إلى مَسالِك ضَيِّقة وأَسْراب مُتنافِذة وآبارٍ ومَهالِك، وغير ذلك على ما يَحْكيه من يَلِجه. وأنَّ أُناسًا كثيرين لهم غَرامٌ به وتَخَيُّل فيه، فيَتَوَغَّلون في أَعْماقِه، ولا بد أن يَنْتَهوا إلى ما يَعْجِزون عن سُلوكِه.

---

a) بولاق: فصغير. b) الأصل: وحسن الناظر. c) بولاق: عن قوة قومها.

---

[1] عن الذراع السوداء انظر فيما تقدم ١٥٦ – ١٥٧.

وأمَّا المسلوكُ المَطْروق كثيرًا ، فزَلَّاقة تُفْضي إلى أَعْلاه ، فيُوجَد فيه بيتٌ مُرَبَّع فيه ناووس من حَجَر ، وهذا المَدْخَلُ ليس هو البابُ في أَصْل البِناء ، وإنَّما هو مَنْقوبٌ نَقْبًا صادَف اتِّفاقًا ، وذُكِرَ أنَّ المأمونَ [هو الذي]a) فَتَحه [١].

وحَكَى مَنْ دَخلَه وصَعِدَ إلى البَيْت الذي في أعلاه ، فلمَّا نَزَلوا حَدَّثوا بعَظيم ما شاهَدُوه ، وأنَّه مَمْلوءٌ بالخَفَافيش وأبوالِها ، وتَعْظُم فيه حتى تكون قَدْر الحَمَام ، وفيه طاقات ورَوازن نَحْو أَعْلاه ، كأنَّها جُعِلَت مَسالِكَ للرِّيح ومَنَافِذ للضَّوْء [وهذه الأهرام مُبْنِيَّة]a) بحِجارَة جافية ، طُول الحَجَر منها من عشرة أَذْرُع إلى عشرين ذِراعًا وسُمْكه من ذِراعَيْن إلى ثلاثة أَذْرُع ، وعَرْضُه نحو ذلك .

والعَجَبُ كلُّ العَجَب من وَضْع الحَجَر على الحَجَر بهِنْدامٍ ليس في الإمكان أَصَحُّ منه ، بحيث لا تجد بينهما مَدْخَل إبْرَة ولا خَلَل شَعْرَة ، وبينهما طِينٌ لونه الزُّرْقَة لا يُدْرَى ما هو ولا صِفَته ، وعلى تلك الحِجارَة كِتاباتٌ بالقَلَم القَديم المَجْهول الذي لم يُوجَد بديار مصر من يَزْعُم أنَّه سَمِعَ من يَعْرِفه ، وهذه الكتاباتُ كثيرةٌ جِدًّا حتى لو نُقِلَ ما عليها إلى صُحُفٍ لكانت قَدْر عشرة آلاف صَحيفَة .

وقَرَأْتُ في بَعْض كُتُب الصَّابِئة القَديمَة [٢] أنَّ أَحَد هَذَيْن الهَرَمَيْن قَبْر أغاثديمون ، والآخر قَبْر هِرْمِس ، ويَزْعُمون أنَّهما نَبِيَّان عَظيمان ، وأنَّ أغاثديمون أَقْدَم وأَعْظَم ، وأنَّه كان يَحُجّ إليهما ، ويَهْدي إليهما من أقطار البلاد [٣].

وكان/ الملكُ العَزيزُ عُثْمان بن صَلاح الدين يُوسُف بن أيُّوب لمَّا استقلَّ بالمُلْك بعد أبيه ، سَوَّلَ ١٢١ له جَهَلَةُ أصْحابه أن يَهْدِم هذه الأَهْرام ، فبدأ بالصَّغير الأحمر ، فأَخْرَجَ إليه النَّقَّابين والحَجَّارين وجَماعَةً من أُمَراء دَوْلَته وعُظَمَاءِ مَمْلَكَتِه ، وأَمَرَهُم بهَدْمِه ، فخَيَّمُوا عنده ، وحَشَروا الرِّجال والصُّنَّاع ، ووَفَّروا عليهم النَّفَقات ، وأقامُوا نحو ثمانية أشهر ، بخَيْلهم ورَجْلهم ، يَهْدِمون كلَّ يوم ـ بعد بَذْل الجُهد ، واسْتِفْراغ الوِسع ـ الحَجَر والحَجَرْين ، فقومٌ من فوق يَدْفَعونه بالأسافين والأنحال b)، وقَوْمٌ من أَسْفَل يَجْذِبونه بالقلوس والأَشْطان ، فإذا سَقَطَ سُمِعَ له وَجْبَة عظيمة من

---

a) زيادة مما تقدم . b) بولاق : الحجر والحجرين يدفعونه بالأسافين .

---

[١] انظر فيما تقدم ٣٠٨ وأبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٠.

[٢] هذا قول عبد اللطيف البغدادي .

[٣] انظر فيما تقدم ٣١٢.

مَسافَة بعيدة ، حتى تَرْجُف الجِبالُ وتُزَلْزَل الأرض ، ويَغُوص في الرمل فيتعبُون تَعَبًا آخر حتى يُخْرجوه ، ويَضْربون فيه بالأسافِين بعد ما يَنْقبون لها مَوْضعًا ويُثْبتونها فيه فيتقطع قِطَعًا ، وتُسْحَب كلُّ قِطْعَة على العَجَل حتى يُلْقَى في ذَيْل الجَبَل ، وهي مَسافَة قريبة . فلمَّا طالَ ثواؤهم ، ونَفِدَت نَفَقَاتُهم ، وتَضاعَفَ نَصَبُهم ، ووَهَت عَزائمُهم ، [وخارت قُواهُم] [a] كَفُّوا مَحسورين لم ينالوا بُغْيَةً ، بل شَوَّهُوا الهَرَم ، وأبانُوا عن عَجْزٍ وفَشَلٍ . وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة ، ومع ذلك فإنَّ الرَّائي لِحِجارَة الهَرَم يَظُنُّ أنَّه قد اسْتُؤْصِل ، فإذا عايَن الهَرَمَ ظَنَّ أنَّه لم يُهْدَم منه شيءٌ ، وإنَّما سَقَطَ بعضُ جانِبٍ منه .

وحينما شُوهِدَت المَشَقَّة التي يَجِدُونها في هَدْم كلِّ حَجَر ، سُئِل [1] مُقَدَّم الحَجَّارين فقيل له : لو بَذَلَ لكم السُّلْطانُ ألف دينار على أن تَرُدُّوا حَجَرًا واحِدًا إلى مكانه وهِنْدامه ، هل كان يُمْكنكم ؟ فأَقْسَمَ بالله تعالى أنَّهم ليَعْجِزون عنه ولو بُذلَ لهم أضعافُ ذلك .

وبإزاء الأَهْرام من الضِّفَّة الشرقية مَغاير كثيرة العَدَد ، كبيرة المِقْدار ، عَميقَة الأغْوار ، لعلَّ الفارِسَ يدْخُلها برُمْحة ويتخلَّلها يومًا أَجْمَع ولا يُنْهيها لكِبَرها وسِعَتها وبُعْدها ، ويَظْهَر من حالِها أنَّها مَقاطِع حِجارَة الأَهْرام . وأمَّا مَقاطِع حِجارَة الأَهْرام الصَّوَّان [b] الأَحْمَر ، فيُقال إنَّها بالقُلْزم وبأُسْوان .

وعند هذه الأَهرام آثارُ أَبْنِيَة جَبَّارة ، ومَغاير كثيرة مُتْقَنَة [c] ، وقَلَّما ترى من ذلك شيئًا إلَّا وترى عليه كِتاباتٌ بهذا القَلَم المَجْهول [2] .

ولله دَرُّ الفَقيه عُمارَة اليَمَنيّ حيث يقول [3] :

[الطويل]

خَليلَيَّ ما تحت السَّماكَيْن [d] بِنْيَةٌ تُماثِلُ في إتْقانِها هَرَمَيْ مِصْرِ
بِناءٌ يَخافُ الدَّهْرُ منه ، وكلُّ ما على ظاهِرِ الدُّنْيا يَخافُ من الدَّهْرِ

---

a) زيادة من الإفادة والاعتبار . b) بولاق : حجارة الهرم . c) بولاق : منقبة . d) بولاق : السماء .

---

[1] العبارة عند البغدادي : وحينما شاهدت ... سألت ...

[2] عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٨- ٤٩؛ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ٤٠- ٤١؛ وفيما تقدم ٣١٠-٣١١.

[3] الأبيات عند عمارة اليمني : النكت العصرية ٢٧٩؛ الإدريسي : أنوار علوي ١٤٧؛ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٠؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٢؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٨٠.

تَنَزَّهَ طَرْفِي في بَديع[a] بنائِها ولم يَتَنَزَّه في المُراد بها فِكْري

أَخَذَ هذا من قَوْل بَعْض الحُكماء : كلُّ شيء يُخْشَى عليه من الدَّهر إلَّا الأَهْرام ، فإنَّه يُخْشَى على الدَّهْر منها[١] .

وقال عبدُ الوهَّاب بن حَسَن بن جَعْفَر بن الحاجِب ، وماتَ في سنة سبعٍ وثمانين وثلاث مائة :

[الكامل]

أُنْظُر إلى الهَرَمَيْن إذْ بَرَزا لِلعَين في عُلُو وفي صُعُدِ
وكَأنَّما الأرضُ العَريضَةُ إذ[b] ظَمِئتْ لطول حَرارَة الكَبِد
حَسَرَتْ عن الثَّدْيين بارِزَةً تَدْعو الإلهَ لِفُرْقَة الوَلَدِ
فأجابَها بالنِّيل يُشْبِعها رِيًّا ويُنْقِذها من الكَمَد
لِكَرامَة المَوْلَى المُقيم بها خَيْر الأنام مُقَوِّم الأَوَد

وقال سَيْفُ الدِّين بن جُبارَة :

[الكامل]

لله أيُّ غَريبَةٍ وعَجيبَةٍ في صَنْعَة الأَهْرام لِلأَلْباب
أَخفَت عن الأَسْماعِ قِصَّةَ أَهْلِها ونَضَت عن الإبْداعِ كُلَّ نِقابِ
فكأنَّما هي كالخِيام مُقامَةٌ من غير ما عَمَدٍ ولا أَطْنابِ
مثل العرائس حدود أثوابها عنها ولم تنطق من الإعجاب[c]

وقال آخَرُ :

[الكامل]

انْظُر إلى الهَرَمَيْن واسْمَع مِنْهُما ما يَرْوِيان عَن الزَّمانِ الغَابِر
وانْظُر إلى سِرِّ اللَّيالي فِيهما نَظَرًا بعَيْنِ القَلْب لا بالنَّاظِر
لو يَنْطِقان لخَبَّرانا بالذي فَعَل الزَّمانُ بأَوَّلٍ وبآخِرِ
وإذا هُما بَدَيا لعَيْنَيْ نَاظِرٍ وَصَفَا له أذني جواد عاير

وقال الإمامُ أبو العَبَّاس أحمد بن يُوسُف التِّيفاشِي[٢] :

---

a) الإدريسي : عجيب . b) بولاق : قد . c) هذا البيت ساقط من بولاق .

---

[١] فيما تقدم ٨٢، ٣٢١.

[٢] شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون القيسي التيفاشي نسبة إلى تيفاش من قرى قَفْصَة بإفريقية (تونس الحالية)، عالم جيولوجي =

[الطويل]

أَلَسْتَ تَرَى الأَهْرامَ دَامَ بِناؤُها ... ويَفْنَى لدُنْيا العالم الإنْس والجنّ
كأنَّ رَحَى الأَفْلاك أكْوارها على ... قَواعِدِها الأَهْرام والعالم الطُّحْن

وقال [1]:

[الرجز]

/قد كان للماضِين من ... سُكَّان مصر هِمَمُ ١
فالفَضْلُ عَنْهُم فَضْلةٌ ... والعِلْمُ فيهم عَلَمُ
ثم انْقَضَت أعْلامُهُم ... وعِلْمُهم واخْتَطَمُوا
وانْظُر تَراها ظاهِرًا ... بادَ عليها الهَرَمُ

وقال:

[الطويل]

خَليليَّ لا باق على الحَدَثان ... من الأَوَّل الباقي فيحدث ثاني
إلى هَرَمَيْ مصر تَناهَت قُوَى الوَرَى ... وقد هَرِمَت في دَهْرِها الهَرَمان
فلا تَعْجَبَا أَنْ قد هَرِمْت فإنَّما ... زَماني بفُقْدان الشَّباب زَماني
وعُوجَا بقرطاجَنَّةٍ فانْظُرا بها ... جَنابَتَي العادين تَنْتَحِبان
وإيوان كِسْرَى فانْظُراه فإنَّه ... يُخْبِرُكما بالصِّدْق كلّ أَوَانِ
فلا تَحْسَبَا أنَّ الفَناءَ يَخُصُّني ... أَلَا كلُّ ما فَوْقَ البَسيطَة فَانِ

ووَجَدْتُ بخَطِّ الشَّيْخ شِهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حَجْلَة التِلْمِسانيّ [2]: أَنْشَدَني القاضي فَخْرُ الدين عبد الوهَّاب المصري لنفسه في الأَهْرام، سنة خمسٍ وخمسين وسبع مائة، وأجاد:

[الكامل]

أَمَبانيَ الأَهْرام كَمْ من واعِظٍ ... صَدَعَ القُلوبَ ولم يَفُه بِلِسانِه
أذكرنني قَوْلًا تقادَمَ عَهْدُه ... «أين الَّذي الهَرَمان من بُنْيانِه»

= اشتهر بكتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» كما له دراية واسعة بالشعر والأدب، أقام بمصر وتوفي بالقاهرة سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م (الصفدي: الوافي بالوفيات ٨: ٢٨٨-٢٩١؛ المقريزي: المقفى الكبير ١: ٧٣٨-٧٤٢).

[1] الأبيات عند الصفدي: الوافي بالوفيات ٨: ٢٩٠.

[2] شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حَجْلَة التلمساني المتوفى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م (ابن حجر: الدرر الكامنة ١: ٣٥٠، إنباء الغمر ١: ٨١؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي ٢: ٢٥٩-٢٦١، النجوم الزاهرة ١١: ١٣١).

هُنَّ الجِبَالُ الشَّامِخات تَكادُ أن … تَمْتَدّ فَوْق الأَرْض عن كِيوانه
لو أنَّ كِسْرَى جالِسٌ في سَفْحِها … لأجل مَجْلِسه على إيوانه
ثَبَتَت على حَرِّ الزَّمان وبَرْدِه … مَدَدًا ولم تَأْسَف على حَدَثانِه
والشَّمْسُ في إحْراقِها والرِّيحُ عنـ … ـد هُبوبِها والسَّيْلُ في جَرَيانِه
هل عابِدٌ قد خَصَّها بعِبادَةٍ … فمَبانِيَ الأَهْرام من أوْثانِه
أو قائِلٌ يَقْضي برُجْعَى نَفْسه … من بعد فُرْقَتِه إلى جُثْمانِه
فاخْتارَها لكُنُوزِه ولجِسْمِه … قَبْرًا ليَأْمَن من أذَى طُوفانِه
أو أنَّها للسَّائِرات مَراصِدُ … يَخْتار راصِدها أعَز مكانِه
أو أنَّها وَصَفَت شُئُونَ كَواكِبِ … أَحْكَام فُرْس الدَّهْر أو يُونانِه
أو أنَّهم نَقَشُوا على حِيطانِها … عِلْمًا يَحارُ الفِكْرُ في تِبْيانِه
في قَلْب رائِيها ليَعْلَم نَقْشَها … فِكْرٌ يَعُضّ عليه طَرْفَ بَنَانِه

ذِكْرُ الصَّنَم الذي يُقالُ لَهُ أبو الهَوْل

هذا الصَّنَمُ[1] بين الهَرَمَيْن عُرِفَ أوَّلًا ببَلْهَيب، وتقول أهلُ مصر اليوم أبو الهَوْل[2].

قال القُضَاعِيُّ: صَنَمُ الهَرَمَيْنْ، وهو «بَلْهُوبَه»، صَنَمٌ كبيرٌ من حِجارَة فيما بين الهَرَمَيْن، لا يَظْهَر منه سوى رأسُه فقط، تُسَمِّيه العامَّةُ بـ«أبي الهَوْل»، ويُقالُ بَلْهَيْب، ويُقالُ إنَّه طِلَّسْم للرَّمْل لئلّا يَغْلب على إبْليز الجِيزَة.

وقال في كِتاب «عَجائِب البُنْيان»[3]: وعند الأهْرام رأسٌ وعُنُقٌ بارِزَة من الأرض في غاية العِظَم تُسَمِّيه الناس «أبا الهَوْل»، ويَزْعُمون أنَّ جُثَّته مَدْفُونة تحت الأرض. ويَقْتَضِي القِياس [أن تكون

---

[1] كان أبو الهول (Sphinx) طوال العصر الإسلامي لا يظهر منه إلّا رأسه وعنقه ولم يكشف عن كامل هيئته إلّا في القرن العشرين، هكذا عاينه عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٩ وغيره من الرحالة (راجع، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١:٢٣٨ ومقالي بيكر وهارمان Becker, C.H., *EI*[2] art. *Abu al-Hawl* I, p. 129; Haarmann, U., «Die Sphinx Synkretistisische Volkareligiositat in Spatmittelatterlichen Islamischen Agypten», *Saeculum* XXIX (1978), .pp. 367-84

[2] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١:٤٢ وبلهيب هو الاسم القبطي لأبي الهول.

[3] هذا النص المنسوب إلى كتاب «عجائب البنيان» منقول من كتاب «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادي. (انظر فيما تقدم ٣٠٠، ٣٢٥).

جثته] [a]بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سَبْعين ذِراعًا فصاعِدًا ، وفي وَجْهه حُمْرَة ودهان يَلْمَعُ عليه رَوْنق الطَّراوة ، وهو حَسَن الصُّورَة مَقْبولها ، عليه مِسْحَة بَهاء وجَمال ، كأنَّه يَضْحَك تَبَسُّمًا .

وسُئِل بَعْضُ الفُضَلاء عن عَجِيب ما رأى فقال : تَنَاسُب وَجْه أبي الهَوْل ، فإنَّ أَعْضاءَ وَجْهه ـ كالأَنْف والعَيْن والأُذُن ـ مُتناسِبَة كما تَصْنع الطَّبيعَة الصُّوَر مُتناسِبَة ، فإنَّ أَنْف الطِّفْل مَثَلًا مُناسِبٌ له ، وهو حَسَنٌ به ، حتى لو كان ذلك الأنْف لرَجُلٍ كان مُشَوَّهًا . وكذلك أَنْفُ الرَّجُل لو كان لصَبِي لتَشَوَّهَت صُورَتُه . وعلى هذا سائِر الأَعْضاء ، فكلُّ عُضْوٍ يَنْبغي أن يكونَ على مِقْدار ماهيته بالقِياس إلى تلك الصُّورَة ، وعلى نِسْبتها . والعَجَبُ من مُصَوِّره ، كيف قَدَرَ أن يَحْفَظ التَّناسُب للأَعْضاء مع عِظَمِها . وأنَّه ليس في أَعْمال الطَّبيعَة ما يُحاكِيه [1].

ويُقابِلُه في بَرِّ مصر ، قَريبًا من دار المُلْك ، صَنَمٌ عظيم الخِلْقَة والهيئة ، مُتَناسِبُ الأَعْضاء كما وُصِف ، وفي حِجْره مَوْلُود وعلى رأسه ماجُور ، الجميع صَوَّان مانِع . يَزْعُم النَّاسُ أنَّه امْرَأة ، وأنَّها سَرِيَّة أبي الهَوْل المذكور ، وهي بدَرْبٍ مَنْسوب إليها . ويُقالُ لو وُضِعَ على رأس أبي الهَوْل خَيْطٌ ومُدَّ إلى سَرِيَّته لكان على رَأْسِها مُسْتَقيمًا . ويُقالُ إنَّ أبا الهَوْل طِلَّسْمُ الرَّمل يَمْنَعه عن/ النِّيل ، وإنَّ السَّرِيَّة طِلَّسْمُ الماء يَمْنَعه عن مصر [2].

وقال ابنُ المُتَوَّج : زُقاقُ الصَّنَم هو الزُّقاق الشَّارِع ، أوَّله بأوَّل السُّوق الكبير ، بجوار دَرْب عَمَّار ، ويُعْرَف الصَّنَم بسَرِيَّة فِرْعَوْن . وذكر أنَّه طِلَّسْمُ النِّيل لئلا يَغْلب على البلد . وقيل إنَّ بُلْهَيْب الذي عند الأَهْرام يُقابِله ، وإنَّ ظَهْرَ بُلْهَيْب إلى الرَّمْل ، وظَهْرَ هذا إلى النِّيل ، وكلٌّ منهما مُسْتَقْبِل المَشْرِق .

وقد نَزَلَ في سنة إحدى عشرة وسبع مائة أَميرٌ يعرف ببَلاط ، في نَفَرٍ من الحَجَّارين والقَطَّاعين ، وكَسَروا الصَّنَمَ المعروف بالسَّرِيَّة ، وقَطَعوه أعْتابًا وقَواعِد ، ظَنًّا أن يكون تحته مالٌ ، فلم يُوجَد سوى أَعْتابٌ من حَجَر عَظيمَة ، فحُفِرَ تَحْتَها إلى الماء فلم يُوجَد شيءٌ وجُعِلَ من حَجَره قَواعِدُ تحتانية للعُمد الصَّوَّان التي بالجامع المُسْتَجَدّ بظاهِر مصر ، المعروف بالجامع الجَديد النَّاصِرِيّ [3]،

---

a) زيادة من الإفادة والاعتبار .

---

[1] عبد اللطيف البغدادي :الإفادة والاعتبار ٤٩- ٥٠؛ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١٥٠.

[2] انظر فيما يلي ٢: ١٧٧.

[3] انظر فيما يلي ٢: ٣٠٤.

وأُزيل عَيْنُ هذا الصَّنَم من مَكانه ، واللهُ أَعْلَم .

وفي زَمَنِنا كان شَخْصٌ يُعْرَف بالشَّيْخ محمد صَائِم الدَّهْر من جُمْلَة صُوفِيَّة الخَانْقَاه الصَّلاحِية سَعيد السُّعَدَاء ، قامَ في نحو من سنة ثمانين وسبع مائة ، لتغيير أَشْياءٍ من المُنْكَرات ، وسارَ إلى الأَهْرام ، وشَوَّهَ وَجْهَ أبي الهَوْل وشَعَّثَه ، فهو على ذلك إلى اليوم [1] . ومن حينئذٍ غَلَبَ الرَّمْلُ على أراضٍ كثيرة من الجِيزَة . وأَهْلُ تلك النَّواحي يَرَوْن أنَّ سَبَب غَلَبَة الرَّمْل على الأَراضي فَسادُ وَجْه أبي الهَوْل ، ولله عاقِبَةُ الأُمُور .

وما أَحْسَنَ قَوْل ظافِر الحَدَّاد [2] :

[الوافر]

تَأَمَّل حكمَةَ الأهرام (a) واعْجَب — وبينهما أبو الهَوْل العَجيبُ
كعَمَّارِيَّتين [3] على رَحيل — لمَحْبوبَيْن بينهما رَقيبُ
وماءُ النِّيلِ تحتهما (b) دُمُوعٌ — وصَوْتُ الرِّيح عندهما نَحيبُ
وظَاهِرُ سِجْن يُوسُف مَثْل صَبٍّ — تَخَلَّف فهْو مَحْزونٌ كَئِيبُ

ويُقالُ إنَّ أَتْريبَ بن قِبْط بن مِصْر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح أَوْصَى أَخَاه صَا عند مَوْتِه أن يَحْمِلَه في سَفِينَة ويَدْفِنه بجَزيرَة وَسَطَ البحر ، فلمَّا ماتَ فَعَلَ ذلك من غير أن

---

a) بولاق : هيئة الهرمين . b) عند ابن فضل الله العمري : وفيض البحر عندهما .

---

[1] انظر فيما يلي ٢: ١٤٧، ١٧٧.

[2] أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الجزامي الإسكندراني المعروف بالحدَّاد ، شاعر مُفْلِق من العصر الفاطمي توفي سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م (انظر ترجمته ونماذج من شعره عند ، السِّلَفي : معجم السفر ١٢٣- ١٢٤؛ ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ٩٥؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢: ٥٤٠- ٥٤٣؛ ابن ميسر : أخبار مصر ١٢٣؛ العماد الأصفهاني : خريدة القصر (قسم مصر) ٢: ١- ١٧؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ١٢: ٢٧- ٣٣؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٦: ٥٢١- ٥٢٢؛ المقريزي : المقفى الكبير ٤: ٣٩- ٤١؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ٥: ٢٧٦- ٣٧٨؛ وانظر كذلك محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ٢٢٤- ٢٢٨؛ وللدكتور حسين نصار : ظافر الحداد ، شاعر مصري من العهد الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٥، ونشر ديوان شعره بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ومعظمه في مدح وزراء الدولتين الآمرية والحافظية وأعيان مصر .

وانظر الأبيات في الديوان ٤ وعند الإدريسي : أنوار علوي ١٤٩؛ ياقوت : معجم البلدان ٥: ٤٠٢؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١: ٢٣٨؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٨١.

[3] العمَّارية هنا الهودج .

يُعْلِم به أهلَ مصر، فاتَّهَمَه الناسُ بقَتْل أَتْرِيب وحارَبوه تسع سنين. فلمَّا مَضَى من حَرْبهم خمسُ سنين مَضَى بهم حتى أَوْقَفَهم على قَبْر أَتْرِيب، فحَفَروه فلم يَجِدوا به شيئًا، وقد نَقَلتْه الشَّيَاطِينُ إلى مَوْضِع أبي الهَوْل، ودَفَنَتْه هناك بجانِب قَبْر أبيه وجَدِّه بَيْصَر.

فازْدادوا له تُهَمَةً، وعادُوا إلى مَدينَة مَنف وتَحارَبوا، فأتاهُم إبْليسُ فدَلَّهم على قَبْر أَتْرِيب حيث نَقَلَه، فأخْرَجوه من قَبْره ووَضَعُوه على سَرير، فتَكَلَّم لهم الشَّيْطانُ على لِسانِه حتى افْتَتَنوا به وسَجَدوا له، وعَبَدوه فيما عَبَدوا من الأَصْنام.

وقَتَلوا صَا ودَفَنُوه على شاطئ النِّيل، فكانَ النِّيلُ إذا زادَ لا يَعْلو قَبْرَه فافْتَتَن به طائِفَةٌ وقالوا: قد قُتِلَ صا ظُلْمًا، وصارُوا يَسْجدون لقَبْره كما يَسْجُد أُولئِك لأَتْرِيب. فعَمَد آخَرُون إلى حَجَرٍ فنَحَتُوه على صُورَة أُشْمُوم، وكان يُقال له أبو الهَوْل، ونَصَبُوه بين الهَرَمَيْن وجَعَلُوا يَسْجُدون له، فصارَ أهلُ مصر ثلاثَ فِرَقٍ.

ولم تَزَل الصَّابِئَةُ تُعَظِّم أبا الهَوْل، وتُقَرِّب له الدِّيَكَة البيض، وتُبَخِّره بالصَّنْدَرُوس.

ذِكْرُ الجِبَالِ[1]

اعْلَم أنَّ أرْضَ مصر بأَسْرِها مَحْصُورَةٌ بين جَبَلَين آخِذَيْن من الجَنُوب إلى الشَّمال، قليلي الارتفاع، وأَحَدُهُما أَعْظَم من الآخَر، والأَعْظَمُ منهما هو الجَبَل الشَّرْقِيّ المعروف بجَبَلِ لُوقَا، والغَرْبِيّ جَبَلٌ صغير وبعضُه غير مُتَّصل ببعض، والمسافَة بينهما تَضيقُ في بعض المَواضِع وتَتَّسع في بَعْضها، وأَوْسَع ما يكون بأَسْفَل أَرْضِ مصر.

وهذان الجَبَلان أَقْرَعان لا يَنْبُت فيهما نَباتٌ، كما يكون في جبال البُلْدان الأُخَر؛ وعِلَّة ذلك أنَّهما بورقيان مالِحان، لأنَّ قُوَّةَ طِين مصر تَجْذب منهما الرُّطوبات المُوافِقَة في التكوين، ولأنَّ قُوَّة الحَرارَة تُحَلِّل منهما الجَوْهَر اللَّطيف العَذْب، وكذلك مياه الآبار منهما مالِحَة.

وهذان الجَبَلان يُجَفِّفان ما يُدْفَن فيهما، فإنَّ أَرْضَ مصر بالطَّبْع قليلة الأَمْطار.

وجَبَلُ لُوقَا في مَشْرق أَرْض مصر يَعُوق عنها ريح الصَّبا، فعُدِمَت مصرُ هذا الرِّيح، ويَعوق أيضًا إشْرَاقَ الشَّمْس على أَرْض مصر إذا كانت على الأُفُق.

---

[1] انظر كذلك القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٠٥ - ٣٠٧.

وتَتَعَدَّد أسْماءُ هذين الجَبَلَيْن بحَسَب مواضِعِهما من الإقْليم ، فيطل على الفُسْطاط وعلى القاهِرَة الجَبَلُ المُقَطَّم .

ذِكْرُ جَبَلِ المُقَطَّم[1]

اعْلَم أنَّ الجَبَلَ المُقَطَّم أوّله من الشَّرْق من الصِّين حيث البحر المُحيط ، ويمرُّ على بلاد الطَّطَر حتى يأتي فَرْغانَة إلى جِبال اليتم الممتدّ بها نَهْر السُّغد إلى أن يَصِل الجَبَل إلى جَيْحون ، فيَقْطَعه ويَمْضي في وَسَطه بين شُعْبَتَيْن منه وكأنَّه قُطِع ثَمّ في وَسَطه ، ويستمر الجَبَل إلى الجَوْزَجان ، ويأْخُذ على الطَّالْقان إلى أعْمال مَرْو الرُّوذ إلى طُوس ، فيكون جميع مُدُن طُوس فيه ، ويتَّصل به جِبالُ أَصْبَهان وشِيراز إلى أن يَصل إلى البَحْر الهِنْدي ، ويَنْعَطف هذا الجَبَل ويَمْتَدُّ إلى شَهْرَزور فيمرّ على / الدِّجْلَة ، ويتَّصل بجَبَل الجُوديّ ، مَوْقف سَفينَة نُوح ـ عليه السَّلام ـ في الطُّوفان . ١٢

ولايزالُ هذا الجَبَل مستمرًا من أعمال آمِد ومَيافارقين حتى يَمُرّ بثُغور حَلَب فيُسَمَّى هناك جَبَل اللُّكام ، إلى أن يُعَدّي الثُّغُور فيُسَمَّى نهرًا ، حتى يُجاوز حِمْص فيُسَمّى لُبْنان ، ثم يمتدّ على الشّام حتى ينتهي إلى بَحْر القُلْزُم من جِهَة ، ويتَّصل من الجِهَة الأخرى ويُسَمَّى المُقَطَّم ، ثم يتَشَعَّب ويتَّصل أواخِر شِعْبه بنهاية الغرب . ويُقالُ إنَّه عُرِف بمُقَطَّم بن مِصْر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح عليه السَّلام .

وجَبَلُ المُقَطَّم يمرُّ على جانبي النِّيل إلى النُّوبَة ، ويَعْبُر من فوق الفَيُّوم فيتَّصل بالغرب إلى أرض مَقْراوة ، ويَمْضي مُغَرِّبًا إلى سِجِلْماسَة ، ومنها إلى البحر المُحيط مَسيرَة خمسة أشهر .

وقال إبراهيمُ بن وَصِيف شَاه ، وذَكَرَ مَجيء مِصْرايم بن بَيْصَر بن حَام بن نُوح إلى أرض مصر : وكَشَفَ أَصْحابُ فَليمون الكاهِن عن كُنُوز مصر وعُلُومهم ، التي هيَ بخَطِّ البَرابِي ، وآثارَ لهم المَعادِن[a] من الذَّهب والزَّبَرْجَد والفَيْروزَج والأُسبادَنم[b] وغير ذلك ، ووَصَفوا لهم عَمَل

a) بولاق : وآثارهم والمعادن . b) ساقطة من بولاق .

[1] المُقَطَّم بضم أوّله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها وميم ، هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة ، وهو جبل ممتد من الجنوب إلى الشمال وله في كلِّ موضع اسم يختص به ، وعرف في هذا الموضع بالمُقَطَّم لأنه قُطِم في هذا الموضع – أي قُطِعَ – عن الجبال فليس بحده إلّا الفضاء . (ياقوت : معجم البلدان ٥:١٧٦–١٧٧ ، وانظر Behrens - Abouseif, D., *EI* [2] art. *al-Mukattam* VII, pp. 509-11; Ragib, Y., «Le site de Muqattam», *An. Isl.* 33 (1999), pp. 159-84 .

الصَّنْعَة ـ يعني الكِيمْياء ـ فجَعَلَ مِصْرايِم أَمْرَها إلى رَجُل من أهل بيته يُقالُ له مُقَيْطام الحكيم، كان يَعْمل فيه الكِيمْياء، واخْتُصر من اسْمه وبقيَ ما يَدُلُّ عليه فقيل له «جَبَل المُقَطَّم»، يعني جَبَل مُقَيْطام الحكيم[1].

وقال البَكْرِيّ: المُقَطَّم ـ بضَمّ أَوَّله وفَتْح ثانيه وتَشْديد الطَّاء المهملة وفَتْحها ـ جَبَلٌ مُتَّصلٌ بمصر يُوَارُون فيه مَوْتاهم[2].

وقال القُضاعِيُّ: المُقَطَّم، ذَكَرَ أبو عبد الله اليَمَني أنَّ هذا الجبَل نُسِبَ إلى المُقَطَّم بن مصر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح، وكان عَبْدًا صالحًا، فانْفَرَدَ بعِبادَة الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ فيه، فسُمِّيَ الجبَلُ باسْمِه[3].

وليس هذا بصَحيح، لأنَّه لا يُعْرَف لمصر وَلَدٌ اسمه المُقَطَّم؛ والذي ذَكَرَه العُلَماءُ أنَّ المُقَطَّمَ مَأْخوذٌ من القَطْم، وهو القَطْع، فكأنَّه لمَّا كان مُنْقَطِع الشَّجَر والنَّبات سُمِّيَ مُقَطَّمًا، ذَكَرَ ذلك عليُّ بن الحَسَن الهُنائي الدَّوْسي، المنبوذ بكُراع، وغيره[4].

ورَوَى عبدُ الرَّحْمَن بن عَبْد الله بنُ عبد الحَكَم، عن اللَّيْث بن سَعْد ـ رضي الله عنه ـ قال: سأَلَ المُقَوْقِسُ عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ أن يَبيعَه سَفْحَ الجَبَلِ المُقَطَّم بسبعين ألف دينار (وفي نُسْخَة بعشرين ألف دينار)، فعَجِب عَمْرو من ذلك وقال: أَكْتُب بذلك إلى أمير المُؤْمنين؛ فكَتَب بذلك إلى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ فكَتَبَ إليه عمر: سَلْه ولِمَ أعطاك به ما أعْطاك، وهي لا تُزْرَعُ ولا يُسْتَنْبَط بها ماءٌ [ولا يُنْتَفَع بها][a]؟

فسأَلَه فقال: إنَّا لنَجِد صِفَتَها في الكُتُب أنَّ فِيها غِراسَ الجنَّة. فكَتَبَ بذلك إلى عُمَر فكَتَبَ إليه: «إنَّا لا نَعْلَم غِراسَ الجنَّة إلَّا المُؤْمنين، فاقْبُر فيها منْ ماتَ قِبَلك من المُؤْمنين، ولا تَبِعه بشيءٍ».

فكان أَوَّلُ من قُبِرَ فيها رَجُلٌ من المَعافِر يُقالُ له عامِر، فقِيلَ عُمِرَت؛ فقال المُقَوْقِسُ لعَمْرو: وما ذلك، وما على هذا عاهَدْتَنا. فقَطَعَ لهم الحَدّ الذي بين المَقْبَرَة وبينهم[5].

a) زيادة من فتوح مصر.

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٤؛ المقريزي: المسودة ٣١.

[2] أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ١٢٥١، ١٣١١.

[3] القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٠٦.

[4] ياقوت: معجم البلدان ٥: ١٧٦.

[5] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٥٦، ١٥٧؛ أبو=

وذَكَرَ عُمَرُ بن أبي عُمَر الكِنْدي في «فَضائِل مِصر» أنَّ عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ سارَ في سَفْح الجَبَل المُقَطَّم ومعه المُقَوْقِس، فقال له: ما لجَبَلكم هذا أَقْرَع ليس به نَباتٌ كجِبال الشَّام؟ فلو شَقَقْنا في أَسْفَله نَهْرًا من النِّيل وغَرَسْناه نَخْلًا؟ فقال المُقَوْقِسُ: وَجَدْنا في الكُتب أنَّه كان أكثر الجِبال أشْجارًا ونَباتًا وفاكِهَةً، وكان مَنْزِلَ المُقَطَّم بن مِصْر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح، عليه السَّلام. فلمَّا كانت الليلةُ التي كَلَّمَ الله فيها مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ أَوْحَى الله إلى الجِبال: إنِّي مُكَلِّمٌ نَبِيًّا من أَنْبِيائي على جَبَلٍ منكم، فسَمَت الجِبالُ كلُّها وتَشامَخَت إلَّا جَبَل بَيْت المَقْدِس فإنَّه هَبَط وتَصاغَر، فأَوْحَى الله إليه: لِمَ فَعَلْتَ ذلك؟ ـ وهو به أَخْبَر ـ فقال: إعْظامًا وإجْلالًا لَكَ يارَبِّ. قال: فأَمَرَ الله سُبْحانه الجِبالَ أن يَحْبوه كلُّ جَبَلٍ بما عليه من النَّبْت، فجادَ له المُقَطَّمُ بكلِّ ما عليه من النَّبْت حتى بَقِيَ كما تَرَى، فأَوْحَى الله إليه: إنِّي مُعَوِّضك على فِعْلِك بشَجَر الجَنَّة، أو غِراس الجَنَّة.

فكَتَبَ بذلك عَمْرو بن العَاص إلى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ فكَتَبَ إليه عُمَر بن الخَطَّاب: إنِّي لا أَعْلَم شَجَرَ الجَنَّة غير المُؤْمنين[a]، فاجْعَله لهم مَقْبَرَةً، ففَعَلَ. فغَضِبَ المُقَوْقِسُ من ذلك، وقال لعَمْرو: ما على هذا صالَحْتَني؛ فقَطَعَ له عَمْرو قَطيعًا نحو بِرْكَة[b] الحَبَش تُدْفَن فيه النَّصارَىٰ[1].

قال: ورُوي أنَّ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ سَجَدَ فسَجَدَ معه كلُّ شجرة من المُقَطَّم إلى طُرا[c].

ورُوي أنَّه مكتوب في التَّوْراة[d]: وإذا فُتِحَ مَقْدِسي ـ يُريد وادي مَسْجد موسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ بالمُقَطَّم عند مَقْطَع الحجارة. فإنَّ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ كان يُناجي رَبَّه بذلك الوادي.

ورَوَى أَسَدُ بن مُوسَىٰ قال: شَهِدتُ جَنازَةً مع ابن لَهيعَة: فجَلَسْنا حَوْلَه فرَفَعَ رأسه فنَظَرَ إلى الجَبَل فقال: إنَّ عيسَىٰ بن مَرْيَم ـ عليه السَّلام ـ مَرَّ بسَفْح هذا الجَبَل وعليه جُبَّة صُوف وقد شَدَّ

---

a) عند البكري: المسلمين. b) ساقطة من بولاق. c) عند الكندي: طوى. d) ساقطة من بولاق.

= المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ١٣٧ وانظر فيما يلي ٢: ٤٤٣.

[1] ابن الكندي: فضائل مصر ٤٥-٤٦؛ أبو عبيد البكري: جغرافية مصر ٧٨-٨٠؛ ابن سعيد: المغرب ١١-١٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٠٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ١٣٨.

وَسَطَه بشَريط وأُمّه إلى جانِبه، فالْتَفَتَ إليها وقال: يا أماه، هذه مَقْبَرَةُ أُمَّة محمد ﷺ [1].

ورَوَى عبدُ الله بن لَهيعَة، عن عَيّاش بن عَبّاس، أنَّ كَعْبَ الأَحْبار ـ رضي الله عنه ـ سأل رَجُلًا يُريد إلى[a] مصر فقال له: أَهْدِني تُرْبَةً من سَفْح مُقَطَّمها، فأتاه منه بجِراب، فلمّا حَضَرَت كَعْبًا الوَفاةُ أَمَرَ به فجُعِل في لَحْدِه تحت جَنْبه[b] [2].

ورُوِيَ عن كَعْب أنَّه سُئِلَ عن جَبَلِ مصر فقال: إنَّه لَمُقَدَّس ما بين القُصير إلى/ اليَحْموم. قال ١
ابنُ لهيعَة: والمُقَطَّمُ ما بين القُصَيْر إلى مَقْطَع الحِجارَة، وما بعد ذلك فمن اليَحْموم.

وفي هذا الجَبَل حَجَرٌ من الجماهر[c]، وشيءٌ من البلار[d]، وهو يَمْتَدُّ إلى أقاصي بَلَدِ[e] السُّودان.

الجَبَلُ الأَحْمَر

هذا الجَبَلُ مُطِلٌّ على القاهِرَة من شَرْقيها الشَّمالي، ويُعْرف باليَحْمُوم.

قال القُضَاعِيّ: اليَحَامِيمُ هي الجِبالُ المتفرِّقَة المُطِلَّة على القاهِرَة من جانِبها الشَّرْقي وجَبَّانَتِها. وتنتهي هذه الجبال إلى بعض طَريق الجُبّ. وقيل لها اليَحاميم لاختلاف أَلْوانها. واليَحْمومُ في كلام العرب الأَسْود المُظْلِم [3].

وقال ابنُ عبد الحَكَم، عن شفَيّ بن عُبَيْد: إنَّه لمَّا قَدِمَ مصر وأَهْلُ مصر قد اتَّخَذوا مُصَلًّى بحِذاء ساقِيَة أبي عَوْن التي في العَسْكَر، فقال: ما لَهُم وَضَعوا مُصَلَّاهم في الجَبَل المَلْعون، وتركوا الجَبَلَ المُقَدَّس [4]، يعني المُقَطَّم؟

---

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: جنته. c) بولاق: حجر الجواهر. d) بولاق: الفولاذ. e) بولاق: بلاد.

---

[1] ابن الكندي: فضائل ٤٤–٤٥؛ البكري: جغرافية ٧٨؛ ابن سعيد: المغرب ١١.

[2] أبو عبيد البكري: جغرافية مصر ٨٠.

[3] ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ١٤١ ومصدره القضاعي ولكنه غير بعض الكلمات، ثم نقل المقريزي نص القضاعي في هامش المسودة (٢) ١٤٧ وأضاف إليه: «هذا نص كلام القضاعي فحرّفه ابن عبد الظاهر ونسبه إلى نفسه»؛ وهذا النقد الذي وجهه المقريزي إلى ابن عبد الظاهر نستطيع أن نوجهه أيضا إلى المقريزي في أماكن كثيرة من كتابه؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٠٧.

[4] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٥٨؛ الكندي: ولاة مصر ٣٧، وفيما يلي ٢: ٤٥٤–٤٥٥.

وقال ابنُ عبد الظَّاهِر : الجبَلُ الأَحْمَرُ ، ذَكَر القُضاعِيُّ أنَّ اليَحْموم هو الجبَلُ المُطِلُّ على القاهِرَة ، ولا أرَى جَبَلًا يُطلُّ على القاهِرَة غيره [1] .

وقال البَكْرِيُّ : اليَحْمُومُ ـ بفَتْح أوَّله وإسكان ثانيه ـ ، قال الحَرْبِيُّ : اليَحْمُومُ جَبَلٌ بمصر . ورَوَى من طريق أبي قُبَيْل عن عبد الله بن عَمْرو : أنَّه سَأَلَ كَعْبًا عن المُقَطَّم : أَمَلْعون هو [a]؟ قال : ليس بمَلْعُونٍ ، ولكنَّه مُقَدَّس من القُصَيْر إلى اليَحْموم [2] .

وذَكَرَ البَكْرِيُّ أيضًا أنَّ عابِدًا ، بالباء الموحَّدة والدال المهملة على وَزْن فاعِل ؛ جَبَلٌ بمصر قِبَل المُقَطَّم [3] .

جَبَلُ يَشْكُر

هذا الجبَلُ فيما بين القاهِرَة ومصر عليه الجامِعُ الطُّولونيّ .

قال القُضاعِيُّ : جَبَلُ يَشْكُر ، هو يَشْكُر بن جُدَيْلَة من لَخْم ، وهو الذي عليه جامِعُ ابن طُولون . ويَشْكُر بن جُدَيْلة قَبيلَة من قَبائِل العَرَب اختَطَّت عند الفَتْح بهذا الجبَل ، فعُرِفَ بجَبَل يَشْكُر لذلك .

قال ابنُ عبد الظَّاهِر : وجامِعُ ابن طُولون على جَبَل يَشْكُر ، وهو مَكانٌ مشهورٌ بإجابَةِ الدُّعاء ومكانٌ مُبارَك . وقيل إنَّ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ ناجى رَبَّه عليه[b] [4] .

وكان هذا الجبَلُ يُشْرِفُ على النِّيل ، وليس بينه وبين النِّيل شيءٌ ، وكان يُشْرِفُ على البِرْكَتَيْن ـ أعني [c]البِرْكة التي تُعْرَف اليوم[c] بِبرْكَة الفيل والبِرْكَة التي تُعْرَف ببِرْكَة قارون . وعلى هذا الجبَل كانت تُنْصَبُ المجَانِيق التي تجُرَّب قبل إرْسالِها إلى الثُّغور [5] .

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : عليه بكلمات . (c-c) ساقطة من بولاق .

---

[1] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٤١.

[2] أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ١٣٩٠، ١٣٩١.

[3] نفسه ٩٠٩، ١٣١١.

[4] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٨١؛ الموفق بن عثمان : مرشد الزوار ٢٠٢، ٢٠٤؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣٤٠؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٣: ١٢.

[5] راجع أيضًا عن جبل يشكر Salmon, G., *Etudes sur la topographie du Caire - La Kal ʿat al-Kabch et la birkatul fil*, Le Caire - IFAO 1902, pp. 12-27.

الكَبْش

هو جَبَلٌ بجوار جبل[a] يَشْكُر، كان قَديمًا مُشرِفًا[b] على النّيل من غَرْبيه؛ ثم لمَّا اخْتَطَّ المسلمون مَدينَة الفُسْطاط بعد فَتْح أَرْض مصر، صارَ الكَبْشُ من جُمْلَة خِطَّة الحَمْراء القُصْوَىٰ، وسُمِّيَ الكَبْش [1].

الشَّرَف

اسْمٌ لثَلَاثَةِ مَواضِع: فاثْنان منها فيما بين القاهِرَة ومصر، وواحِدٌ فيما بين بِرْكَة الحَبَش وفُسْطاط مصر.

فأمَّا الذي بظاهِر القاهِرَة، فأَحَدُهما عليه الآن قَلْعَةُ الجَبَل، وهو من جملة الجَبَلِ المُقَطَّم؛ والآخَرُ فيما بين الجَامِع الطُّولوني ومصر، فيُشْرِف غربيه على جِهَة الخَليج الكبير، ويَصير فيما بين كُوم الجارِح وخِطِّ الجامِع الطُّولوني، وكان من خِطَّة تُجِيب، ثم صارَ من جُمَلة العَسْكَر؛ وأمَّا الشَّرَفُ الثالِث فيُعْرَف اليوم بالرَّصْد، وهو يُشْرِف على راشِدَة.

وكان يُقالُ للشَّرَف سَنَد، والسَّنَدُ ما قابَلَكَ من الجَبَلِ وعَلا عن السَّفْح، ويُقالُ فُلانٌ سَنَدٌ أي مُعْتَمَد.

ذِكْرُ الرَّصْد

هذا المَكانُ شَرَفٌ يُطِلُّ من غَرْبيه على راشِدَة، ومن قِبْليه على بِرْكَة الحَبَش، فيَحْسَبه من رآه من جِهَة راشِدَة جَبَلًا، وهو من شَرْقيه سَهْل يُتَوَصَّل إليه من القَرافَة بغير ارْتِقاءٍ ولا صُعود. وهو مُحاذٍ للشَّرَف الذي كان من جملة العَسْكر، والشَّرَفُ الذي يُعْرَف اليوم[c] بالكَبْش.

وكان يُقالُ له قَديمًا الجُرْف، ثم عُرِفَ بالرَّصْد من أَجْل أنَّ الأَفْضَلَ أبا القاسِم شاهِنْشاه بن أَمير الجُيُوش بَدْر الجَمالي أقامَ فَوْقَه كُرَةً لرَصْد الكَواكِب، فعُرِفَ من حينئذٍ بالرَّصْد.

قالَ في كتاب «عَمَل الرَّصْد»: وحُمِلَ إلى الأَفْضَل شاهِنْشَاه بن أَمير الجُيُوش بَدْر الجماليّ[a] من الشَّام تَقاويم لما يُسْتَأْنَف من السِّنين لاسْتِقبال سنة خمس مائة من سني الهجرة؛ قيل مائة تَقْويم

---

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: يشرف. c) ساقطة من الأصل.

---

[1] راجع .Salmon, G., *op.cit.*, pp. 77-95

أو نحوها . وكان مُنَجِّمو الحَضْرَة يومئذٍ ـ ابنُ الحَلَبيّ وابْنُ الهَيْثَمي وسَهْلون وغيرهم ـ يُطْلَقُ لهم الجاري في كلِّ شهر والرُّسُوم والكُسْوَة على عَمَل التَّقْويم في كلِّ سنة . وكان كلٌّ منهم يَجْتَهِد في حِسابِه وما تَصِل قُدْرَتُه إليه ، فإذا كان في غُرَّة السَّنَة حَمَلَ كلٌّ منهم تَقْويمَه ، فيُقابل بينها وبين التَّقْويمات المُحْضَرَة من الشَّام فيُوجَد بينها اخْتِلافٌ كثير ، فأُنْكِرَ ذلك .

فلمَّا كان غُرَّة ثلاث عشرة وخمس مائة ـ عند إحْضار التَّقاويم على العادَة ـ جَمَعَ المُنَجِّمين والحُسَّاب وأَهْل العِلْم ، وسأَلَهم عن السَّبَب في الخُلْف بين التَّقاويم ، فقالوا : الشَّاميُّ يُحْسَب ويُعْمَلَ على رأْي الزِّيج المُمْتَحَن[a] المأْموني ، ونحن نعمل على رَأْي الزِّيج الحاكِمي لقُرْب عَهْده ، وبين المُتَقَدِّم والمُتَأَخِّر تَفاوُت وَخُلْف ، وقد أَجْمَع القُدَماءُ أنَّ القَريبَ العَهْد أَصَحُّ من المُتَقَدِّم لتَنَقُّل الكَواكِب وتَغَيُّر الحِساب .

وتَحَدَّثُوا في مَعْنَى ذلك بما هو مَذْكورٌ في مَوْضِعِه ، وأشاروا عليه بعَمَل رَصْدٍ/ مُسْتَجَدّ يُصَحَّح به الحِساب ، ويُخْرِج المعور والتَّفاوُت ، وتَحْصُل به المَنْفَعَة العَظيمَة ، والفائِدَة الجَليلة ، والسُّمْعَة الشَّريفَة ، والذِّكْر الباقي ؛ فقال : مَنْ يَتَوَلَّى ذلك ؟ فقال صاحِبُ دَسْتِه ومُشيرُه ، الشَّيْخُ الأَجَلّ أبو الحَسَن بن أبي أُسامَة : هذا القاضي ابن أَبي العَيْش الطَّرابُلُسيّ المُهَنْدِس العالِم الفاضِل . وكان ابنُ أَبي العَيْش صِهْره زَوْج ابنته ، وهو شَيْخٌ كبيرُ السِّن والقَدْر ، كثيرُ المال . وساعَدَه على ذلك القائِدُ أبو عبد الله الذي تَقَلَّد الوَزارَة بعد الأَفْضَل ، ودُعِيَ بـ«المأْمون بن البَطائِحي» . فاسْتَصْوَب الأَفْضَلُ ذلك وقال : مُرُوه يهتمّ بذلك ، ويَسْتَدْعي ما يَحْتاج إليه . ١٢٦:١

فكانَ أَوَّلُ ما بَدَأَ به لمَّا حَصَلَ ذلك أن مَدَحَ نفسه ـ وكان الأَفْضَلُ غَيُورًا على كلِّ شيءٍ ، أَشَدّ ما عليه من يَفْتَخِر أو يَلْبَس ثِيابًا مذكورة ـ ثم قال : هذه الآلاتُ عَظيمَة ، وخَطَرُها جَسيمٌ ، ولا كلّ أَحَدٍ يُقْدِم عليها ولا يُحْسِنُها . وأَكْثَرَ الكلام والتَّوْسِعَة ، وقال : يحتاج الذي يَتَوَلَّى ذلك يَعْتَمد معه الإنْعام والإكْرام ، لتَطيبَ نَفْسه للمُباشَرَة ، ويَنْشَرِح صَدْرُه ، ويَقْدَح خاطِرُه لما يُعْمَل في حَقِّه .

فضَجِر الأَفْضَلُ من ذلك وقال : لقد أكثر في مَدْح نَفْسه ولَدَده ، وما يُعامِلنا بعد لا حاجَة إلى مُعامَلَته .

فأَشَارَ القائِدُ ابن البَطَائِحي وقال : هنا من يُبْلِغ الغَرَض بأَسْهَل مَأْخَذ ، وأَقْرَب وَقْت وأَسْرَعه ، وأَلْطَف معنى ، أبو سَعيد بن قِرْقَة الطَّبيب ، مُتَوَلِّي خَزَائِن السِّلاح والسُّروج والصِّناعات وغير ذلك .

---

a) بولاق : المهجور .

فأَحْضَره للوَقْت ، فاتَّفَقَ له من الحَديث الحَسَن السَّهْل ، وما سَبَبُ عَمَل الآلات ، ومن ابْتَدأها من الأُوَل ، وذَكَرَ القُدَماءَ في ابتداء العالم[a]، ومَنْ رَصَدَ منهم واحِدًا واحِدًا إلى آخرهم شَرْحًا مُسْتَوْفًى ، كأنَّه يَحْفَظه ظاهِرًا ، أو يَقْرأه من كِتاب[1].

فأَعْجَب الأَفْضَل والحاضِرين ، وقال : أيّ شيءٍ تحتاج ؟ فقال : ما أحْتاج كَبير أَمْرٍ ، والأُمور سَهْلَة ، وكلّ ما أحْتاجه في خَزائِن السُّلْطان ـ خَلَّدَ الله مُلْكَه ـ النُّحاس والرَّصاص والآلات ، وكلُّ ما أحْتاج أسْتَدْعيه أوَّلًا أوَّلًا ، والنَّفَقات وأُجْرَة الصُّنَّاع فيتولَّاها غَيْري . فأُعْجِب به وقال : يُطْلَق له جارٍ لنَفْسه ؛ فقال : أنا مُسْتَخْدَم في عِدَّة خِدَم ، فجَوارِيَ تَكْفيني ، فأنا مَمْلوكُ الدَّوْلَة ما أَحْتاج إلى جارٍ ، وإذا بَلَغْت الغَرَض وأَنْهَيْت الأَشْغال فهو المَقْصود .

وكان قِيل للأَفْضَل : هذا الرَّصْدُ يَحْتاجُ إلى أَمْوالٍ عظيمة ، فقال : كَم تقول يُحْتاج إليه ؟ فقال : ما يُنْفَقَ عليه إلّا مِثْل ما يُنْفَق على مَسْجِدٍ أو مُسْتَنْظَر .

فرَجَع يُكَرِّر عليه القَوْل ، فقال : هاتوا وَرَقَة . فكَتَبَ فيها :

«المَمْلوك يُقَبِّل الأَرْض ويُنْهي : دَعَت الحاجَة إلى خُروج الأَمْر العالي إلى دار الوَكالَة بإطْلاق مائتيْ قِنْطار من النُّحاس الفخر ، وثمانين قِنْطارًا من النُّحاس القَضيب الأَنْدَلُسي ، وأربعين قِنْطارًا من النُّحاس الأَحْمَر ، ومن الرَّصاص ألف قِنْطار ، ومن الحَطَب ومن الحَديد والفُولاذ من الصُّناعَة ما لعلَّه يُحْتاج إليه ، ومن الأَخْشاب ومن النَّفَقَة مائة دينار على يد شَاهِدٍ يُنْفِق عليه ، فإذا فَرَغَت أَسْتَدْعي غيرها ، وأَحْتاج مَوْضِعا يَصْلُح الرَّصْدُ فيه ، ويكون العَمَل والصُّناعَة فيه ، ومُباشَرَة السُّلْطان فيما يتوقَّف عليه ، وما يَسْتَأْمر فيه» .

فاسْتَصْوَب الأَفْضَلُ جَميعَ ذلك ، وأرادَ أن يَخْلَع عليه فقال القائِدُ : هذا فيما بعد إذا شُوهِدَت أَعْمالُه . فخَدَمَ من أوَّل الحال إلى آخِرها ولم يَحْصُل له الدِّرهم الفَرْد ؛ لأنَّه كان يَسْتَحيي أن يَطْلُب وهو مُسْتَخْدَم عندهم ، وكانوا بأَجْمَعِهم يُؤَمِّلون طُول المُدَّة والبَقاء ، فقُتِلَ الأَفْضَلُ ثاني سنَة ، وتَغَيَّرَت الأَحْوالُ .

---

a) بولاق : القدماء في العلم .

---

[1] انظر عن ابن قِرْقَة الطبيب فيما يلي ٢ : ٦٣ .

ثم إنَّهم اختاروا للرَّصْد مَسْجِد التَّنُّور فوق المُقَطَّم ، فوَجَدُوه بعيدًا عن الحَوائِج ، فأَجْمَعُوا على سَطْح الجُوْف بالمَسْجِد المعروف بالفِيَلَة الكَبير ـ وكان قد صُرِفَ على المَسْجِد خاصَّةً ستة آلاف دينار ـ فحَفَرُوا في مَسْجِد الفِيَلَة نَقْرًا في الجَبَل مكان الصُّهْريج الآن ، فعمل فيه قالب الحَلْقَة الكبيرة ـ وقُطْرها عشرة أَذْرُع ودورها ثلاثون ذِراعًا ـ وهَنْدَموه وحَرَّرُوه أيَّامًا وعمل حَوْلَه عشر هِرَج ، على كلّ هِرْجَة مِنْفاخان ، وفي كلّ هِرْجَة أحد عشر قِنْطارًا نُحاسًا وأَقَلّ وأكثر ، والجميع مائة قِنْطار وكَسْر ، قَسَّمُوها على الهِرَج ، وطَرَحَ فيها النار من العَصْر ، ونَفَخوا إلى الثانية من النَّهار .

وحَضَرَ الأَفْضَلُ بُكْرَةً ، وجَلَس على كُرْسيّ ، فلمَّا تَهَيَّأت الهِرَج ودارَت أَمْرَ الأَفْضَلُ بفَتْحِها ـ وقد وَقَفَ على كُلّ هرجة رَجُلٌ ، وأُمِرُوا بفَتْحها في لَحْظَة ـ ففُتِحَت ، وسالَ النُّحاسُ كالماءِ إلى القالَب ، وكان قد بقيَ فيه بعضُ النَّداوَة ، فلمَّا اسْتَقَرَّ به النُّحاس بحَرارَته ، تَقَعْقَعَ المكانُ النَّديّ فلم تَتِم الحَلْقَة . ولمَّا بَرَدَت وكُشِفَ عنها ، إذْ هي تامة ما خَلا المكان النَّدِيّ . فضَجِرَ الأَفْضَلُ وضاقَ صَدْرَه ، ورَمَى الصُّنَّاع بكيس فيه ألف دِرْهَم ، وغَضِبَ ورَكب . فلاطَفَه ابن قِرْقَة وقال : مِثْل هذه الآلَة العظيمة التي ما سُمِعَ قَطّ بمثلها ، لو أُعيد سَبْكُها عشر مَرَّات حتى تَصِحّ ما كان كثيرًا ؛ فقال له الأَفْضَلُ : اهْتَم في إعادتها .

فسُبِكَت وصَحَّت ، ولم يَحْضُر الأَفْضَلُ في المرَّة الثانية ففَرِحَ بصِحَّتِها ، وعُمِلَت ورُفِعَت إلى سَطْح مَسْجِد الفِيَلَة ، وأُحْضِر لها جَميعُ صُنَّاع النُّحاس ، وعُمِلَ لها بُرْكار خَشَب من السَّنْديان ـ وهو بُرْكارٌ عجيب ـ وبُني في وَسَط الحَلْقَة مَسْطَبة حَجارة مُتْقَنَة لرجل البُرْكار ، وهو قائِمٌ مثل عَرُوس الطَّاحُون ، وفيه/ ساعِد مثل ناف الطَّاحون ، وقد لُبِّسَ بالحَديد ، والجميع سِنْديان جَيِّد ، ١٢٧ وطَرَفُ السَّاعِد مُهَيَّأٌ لعِدَّة فُنُون : تارَةً لتَصْحيح وَجْه الحَلْقَة ، وتارَةً لتَعْديل الأَجْناب ، وتارَةً للخُطوط والحُزوز .

وأقامَ في التَّصْحيح فيها وأَخَذ زَوائِدِها بالمبارِد مُدَّةً طويلة ، وجَماعَةُ الصُّنَّاع والمُهَنْدِسين وأَرْباب هذا العِلْم حاضِرون ، واسْتَدْعى لهم خَيْمَة عَظيمَة ضُرِبَت على الجَميع ، وعُقِدَ تحت الحَلْقَة أَقْباءٌ وَثيقَة ، وأرادوا قِيامَها على سَطْح مَسْجِد الفِيَلَة فلم يَتَهَيّأ لهم ، فإنَّهم وَجَدُوا المَشْرق لأوَّل بُروز الشَّمْس مَسْدودًا ، فاتَّفَقوا على نَقْلِها إلى المَسْجِد الجُيُوشي مُجاور الأنطاكي ، المعروف أيضًا بالرَّصْد ، وكان الأَفْضَلُ بَناه أَلْطَف من جامِع الفِيَلَة ولم يَكْمُل ، فلمَّا صارَ برَسْم الرَّصْد كَمُلَ [1] .

---

[1] قارن مع ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤ – ٨٥؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣: ٧٢.

فحَضَرَ الأَفْضَلُ في نَقْل الحَلْقَة من جامِع الفِيَلَة إلى المَسْجِد الجُيُوشي، وقد أُحْضِرَت الصَّواري الطِّوال العِظَام والسُّرْيَاقات والمُنْحاتات من الإسْكَنْدَرية وغيرها، وجُمِعَت الأُسْطُولية ورِجالُ السُّودان وبعضُ أصحاب الرِّكاب والجُنْد حتى أَدَلُّوه، وحَمَلُوه على العَجَل إلى مَسْجِد الرَّصْد الجُيُوشي.

وثاني يوم حَضَروا بأَجْمَعهم حتى رَفَعُوه إلى السَّطْح، وكَمَّلوه، وأقاموا الحَلْقَة، وجَعَلوا تحت أكْتافِها عَمودَيْن من رُخام سَبَكوهما بالرَّصاص من أسْفَلهما وأعْلاهُما حتى لا يَرْتَخِي ثِقَل النُّحاس، وجُعِلَ في الوَسَط عَمودٌ رُخام، وبأعلاه قُطْب العِضادَة مَشبوكٌ بالنُّحاس الكثير لتَدُور عليه العِضادَة[1]. وعُمِلَت من نُحاس فما تمارَسَت ولا دارَت، فعَمِلوها من خَشَب ساج وقُطْبَها وأَطْرافَها من نُحاس صَفائِح ليَخِفَّ الدَّوَران، ثم رَصَدُوا بها الشَّمْس بعد كُلْفَة.

وكانت الحَلْقَةُ تُرْخي الدَّرَجَة والدَّقائق كلَّ وَقْت للثِّقَل، فعُمِلَ عَمودٌ من نُحاس فوق عَمُود الرُّخام ليُمْسِك رَخْوَها. وغُلِبُوا بعد ذلك، فكانت تَخْتَلف لشِدَّة ما كانوا يُحَرِّرونها بالشَّواقيل وعِضادَة الخَشَب.

وتردَّدَ إليها الأَفْضَلُ مع كِبَر سِنِّه وهو يَرْتَعِش[2]، والقائِدُ يحمله إلى فَوْق، ويَقْعُد زَمانًا من التَّعب لا يتكلَّم ويده تَرْتَعش، فرَصَدُوا قُدَّامَه. وفي خِلال ذلك قُتِلَ الأَفْضَلُ لَيْلَةَ عيد الفِطْر سنة خمس عشرة وخمس مائة.

وقيل للأَفْضَل عن ابن قِرْقَة إنَّه أَسْرَف في كِبَر الحَلْقَة وعِظَم مِقْدارِها، فقال له الأَفْضَلُ: لو اخْتَصَرْت منها كان أَهْوَن؛ فقال: وحَقِّ نعمتك، لو أَمْكَنني أن أعمل حَلْقَة تكون رجلها الواحِدة على الأَهْرام والأُخرى على التَّنُّور فَعَلْت، فكلَّما كَبُرَت الآلةُ صَحَّ التَّحْرير. وأين هذا في العالَم العُلْوي؟

ثم أَكْثَروا عليه فعَمِل حَلْقَة دونها في المَوْضِع المُهَنْدَم بالطُّوب الأحمر، تحت المَسْجد الجُيُوشي، كان قَطْرُها أَقَلَّ من سبعة أَذْرُع ودُورُها نحو أَحَد وعشرين ذِراعًا.

فلمَّا كَمُلَت قُتِلَ الأَفْضَلُ، ولم يُنْفِق من مال السُّلْطان في الأُجْرَة والمُؤَن وما لابد منه سوى نحو مائة وستين دينارًا.

---

[1] عِضادَة جـ. عِضادات. الكتف الرأسية لفتحة الباب أو الشُّبَّاك (الحَلْق) (عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت ١٩٨٨، ٢٧٥؛ محمد أمين وليلى إبراهيم: المصطلحات الأثرية في الوثائق المملوكية، القاهرة ١٩٩٠، ٨١).

[2] ذكر المقريزي في حوادث سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م أن يد الأفضل رَعَشت في آخر هذه السنة وصعب عليه إمساك القلم والعلامة على الكتب، فأقرَّ أخاه أبا محمد جعفر المظفر في العلامة، وجعل له خمس مائة دينار في الشهر مضافًا إلى رسمه فعلَّم عنه (اتعاظ الحنفا ٣: ٥٤)، كان سن الأفضل في هذه السنة واحدًا وخمسين عامًا حيث ولد بعكا سنة ٤٥٨هـ.

فلمَّا تَمَّت الوَزارة للمَأمون البَطائِحي ، أَحبَّ أن يُكْمِلها - ويُقالُ له «الرَّصْد المأْمُوني المُصَحَّح» ، كما قيل للأَوَّل «الرَّصْدُ المأْموني المُمْتَحَن» - فأَخْرَج الأَمْرُ بنَقْل الرَّصْد إلى باب النَّصْر بالقاهِرَة ، فنُقِلَ على الطَّرِيقَة الأُولى بالعَتَّالين والأُسْطولية وطَوائِف الرِّجال ، وكان يَدْفَع لهم كلّ يومٍ برَسْم الغَدَاء جُمْلَة دَراهِم .

فلمَّا صارَ فَوْقَ العَجَل مَضَوْا به على الخَنْدَق من وَراء الفَتْح على المَشاهِد إلى مَسْجِد الذَّخيرَة من ظاهِر القاهِرَة [1] ، وتَعِبوا في دخوله من باب النَّصْر تَعَبًا عَظيمًا لخَوْفهم أن يُصْدَم فيَتَغَيَّر ، فنَصَبوا الصَّواري على عَقْد باب النَّصْر من داخِل الباب ، وتَكاثَر الرِّجالُ في جَذْب المياحين من أسْفل ومن فَوْق حتى وَصَلَ إلى السَّطْح الكبير ، ثم نَقَلُوه من السَّطْح الكبير إلى السَّطْح الفَوْقاني ، وأَوْقَفُوا له العُمُد كما تقدَّم ذِكْره ، ورَصَدُوا بالْحَلْقَة الكُبْرى كما رَصَدوا بها على سَطْح الجُرْف ، فصَحَّ لهم ما أرادوا من حالِ الشَّمْس فَقَط .

ثم اهْتَمُّوا بعَمَلِ ذات حِلَقٍ يكون قُطْرُها خمسة أذْرُع ، وسُبِكَت في فُنْدُق بالعُطوفية من القاهِرَة ، وكان الأَمْرُ فيها سَهْلًا عندما لَحِقَهُم من العَنَاء العظيم في الحَلْقَة الكبيرة والحَلْقَة الوُسْطَى . وتَجَرَّد المأْمُونُ لعَمَلِها والحَثّ فيها ، وكان ابنُ قِرْقَة يَحْضُر كلَّ يوم دَفْعَتَيْن ، ويَحْضُر أبو جَعْفَر بن حَسْدَاي ، وأبو البَرَكات بن أبي اللَّيْث صاحِب الدِّيوان وبيدِه الحَلّ والعَقْد ؛ فقال له المأْمُون : اطْلَع إليهم كلَّ يَوْم وأي شيءٍ طَلَبوه وَقِّع لهم به من غير مُؤامَرَة [2] .

وكان قَصْدُه ما أَطْمَعوه فيه من أن يُقالَ «الرَّصْدُ المأْموني المُصَحَّح» ، فلو أرادَ الله أن يَبْقَى المأمونُ قليلًا كان كَمُل رَصْد جَمِيعِ الكَواكِب ، لكنَّه قُبِضَ عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمس مائة ، وكان من جُمْلَة ما عُدِّد من ذُنوبه عَمَلُ الرَّصْد المذكور والاجتهاد فيه ، وقيل : أَطْمَعَتْهُ نَفْسُه في الخِلافَة بكَوْنه سَمَّاه «الرَّصْد المأْموني» ونَسَبه إلى نفسه ولم يَنْسبه إلى الخَليفَة الآمِر بأحْكام الله .

وأمَّا العامَّةُ والغَوْغَاءُ فكانوا يقُولون : أرادوا أن يُخاطِبُوا زُحَل ، وأرادوا أن يَعْلَموا الغَيْب . وقال آخَرُون منهم : عُمِلَ هذا للسِّحْر ونحو ذلك كم من الشَّناعات .

فلمَّا قُبِضَ على المأْمون بَطُلَ ، وأَنْكَر الخَليفَةُ على عَمَله ، فلم يَجْسُر أَحَدٌ أن يذكره . وأَمَرَ فكُسِرَ وحُمِلَ إلى المُناخات ، وهَرَبَ المُسْتَخْدمون ومن كان فيه من الخاصّ .

---

[1] عن الفتح والمشاهد ومسجد الذخيرة انظر فيما يلي ١: ٤٣٢، ٢: ٢٦٤، ٤١١، ٤٣٦– ٤٤٢.

[2] المؤامرة. عَمَلٌ تُجْمَع فيه الأوامر الخارجة في مُدَّة أيام الطَّمَع ، ويُوَقِّع السلطانُ في آخره بإجازة ذلك ، وقد تُعْمَل المؤامرة في كلِّ ديوان تُجْمَع جميع ما يحتاج إليه من استثمار واستدعاء وتوقيع . (الخوارزمي : مفاتيح العلوم ٣٨) .

وكان فيه من المُهَنْدِسين / برَسْم خِدْمَتِه ومُلازمته في كلّ يوم بحيث لا يتأخَّر منهم أَحَد: الشَّيخُ أبو جَعْفَر بن حَسدَاي، والقاضي بن أبي العَيْش، والخَطيب أبو الحَسَن عليُّ بن سُلَيْمان بن البَوّاب [١]، والشَّيخ أبو المُنَجَّا بن سَنَد السّاعاتي الإسْكَنْدَراني المُهَنْدِس، وأبو محمد عبد الكريم الصِّقِليُّ المُهَندس، وغيرهم من الحُسَّاب والمُنَجِّمين كابن الحَلَبي وابن الهَيْثَمي وأبي نَصْر تلميذ سَهْلون، وابن دِياب، والقَلْعي، وجماعَةٌ يحضرون كلّ يوم إلى ضَحْوَة النَّهار، فيَحْضُر صاحِبُ الدِّيوان ابن أبي اللَّيْث، وكان ابن حَسدَاي رُبَّما تأخَّر في بعض الأَيّام، فإنَّه كان امرأ عظيمًا صاحِبَ كِبْرياء وهَيْبَة. وفي كلّ يوم يَبْعَث المأمُون من يَتَفَقَّد الجَماعَة ويُطالِعه بمن كانَ[a] منهم، لأنَّه كان كثير التَّفَقُّد للأُمور كلّها، وله غمّازون وأَصْحاب أَخْبار لا تَنام، ولا يَكادُ يَفوتُه شيءٌ من أَحْوال الخاصَّة والعامَّة بمصر والقاهِرَة ومن يَتَحَدَّث، وجَعَل في كلّ بَلَد من الأعمال من يأْتيه بسائِر أَخْبارها. ١:

وأنا أَدْرَكْتُ هذا المَوْضِع الذي يُعْرَف اليوم بالرَّصْد ـ حيث جامِع الفِيَلَة ـ عامِرًا، فيه عِدَّةُ مَساكِن ومَساجِد، وبه أُناسٌ مُقيمون دائِمًا، وقد خَرِبَ ما هناك وصار لا أَنيسَ به.

وكان المَلِكُ النّاصِرُ محمد بن قَلاوون قد أَنْشَأَ فيه سَواقِيَ لنَقْل الماء من أماكِن قد حُفِرَ لها خَليج من البَحْر بجوار رِباط الآثار النَّبَوِيَّة، فإذا صارَ الماءُ في سَفْح هذا الجُرْف المُسَمَّى بالرَّصْد نُقِلَ بسَواقٍ هناك قد أُنْشِئَت، إلى أن يصير إلى القَلْعَة. فماتَ ولم يُكْمِل ما أرادَه من ذلك، كما ذُكِرَ في أَخْبار قَلْعَة الجَبَل من هذا الكتاب. ومازالَ مَوْضِعُ هذا الرَّصْد مُتَنَزَّهًا لأَهْل مصر، ويُقال إنَّ المُعِزّ لدين الله مَعَدًّا لمَّا قَدِمَ من بلاد المغرب إلى القاهِرَة، لم يُعْجِبه مَكانُها، وقال للقائِدِ جَوْهَر: فاتَكَ بِناء القاهِرَة على النِّيل، فهلَّا كنت بَنَيْتَها على الجُرْف، يعني هذا المكان [٢].

ويُقالُ إنَّ اللَّحْمَ عُلِّق بالقاهِرَة فتَغَيَّر بعد يَوْمٍ ولَيْلَة، وعُلِّقَ بقَلْعَة الجَبَل فتَغَيَّر بعد يومين وليلتين، وعُلِّقَ في مَوْضِع الرَّصْد فلم يَتَغَيَّر ثلاثة أيام ولياليها، لِطِيب هَوائِه. ولله دَرُّ القائِل:

[السريع]

يالَيْلَةً عاشَ سُروري بِها ... وماتَ من يَحْسِدُنا بالكَمَدِ
وبِتُّ بالمَعْشُوقِ في المُشْتَهى ... وباتَ مَنْ يَرْقُبُنا بالرَّصَدِ

a) بولاق: غاب.

[١] ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٢٠؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣٦؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣٥١، ٣٦٧؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ١: ١١٣؛ وفيما يلي ١: ٣٧٧.

[٢] إلى هنا ينتهي الجزء الثاني من طبعة ڤييت Wiet.

ذِكْرُ مَدائِنِ أرضِ مِصْرَ

قال ابنُ سِيدَة [١] : مَدَنَ بالمكانِ أَقَام ، والمَدِينَةُ : الحِصْنُ يُبْنَى في أُصْطُمَّة[a] الأَرْض ، مُشْتَقٌّ من ذلك ، والجَمْعُ مَدائِنُ ومُدُنٌ . ومن هنا حَكَمَ أبو الحَسَنِ ـ فيما حَكَى الفارِسيُّ عنه ـ أنَّ مَدِينَةً : «فَعِيلَة» [٢] .

وقال العَلَّامَةُ أَثيرُ الدين أبو حَيَّان [٣] : المَدِينَةُ معروفة مُشْتَقَّة من مَدَن ، فهى «فَعِيلَة» ، ومَنْ ذَهَبَ إلى أنَّها «مَفْعَلَة» ، من دان ـ فقوله ضَعيف لإجماع العرب على الهَمْز في جمعها ، فإنَّهم قالوا مَدائِن بالهمز ، ولا يُحْفَظ مَداين بالياء . ولا ضَرورَة تَدْعو إلى أنَّها «مَفْعَلَة» من دان ، ويقطع بأنَّها «فَعِيلَة» جمعُهم لها على «فُعُل» ، فإنَّهم قالوا مُدُن ، كما قالوا صُحُف في صَحِيفَة .

واعْلَم أنَّ مَدائِنَ مصر كثيرة ، منها ما دَثَرَ وجُهِلَ اسْمُه ورَسْمُه ، ومنها ما عُرِفَ اسْمُه وبقي رَسْمُه ، ومنها ما هو عامِرٌ .

وأوَّلُ مَدينَةٍ عُرِفَ اسْمُها في أَرْض مصر مَدينَة «أَمْسُوس» . وقد مَحَا الطُّوفانُ رَسْمَها ، ولها أخبارٌ معروفة ، وبها كان مُلْك مصر قبل الطُّوفان ، ثم صارَت مَدينَةَ مصر بعد الطُّوفان مَدينَةَ مَنْف ، وكان بها مُلْك القِبْط والفَراعِنَة إلى أن خَرَّبها بُخْت نَصَّر [٤] .

---

a) بولاق : أسطحة .

---

[١] أبو الحسن عليّ بن إسماعيل (بن أحمد) بن سِيدَة المُرسيّ ، عالم لغوي أندلسي ضرير ، الأمر الذي لم يعقه عن الاندماج في الحياة العلمية في الأندلس . وتوفي سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م . عَدَّه صاعدُ الأندلسي «أعْلَم أهل الأندلس قاطبةً بالنحو واللغة والأشعار» . وندين له بمعجمين لغويين هامين ، الأول : «المُخَصَّص» في سبعة عشر مجلدًا ، وهو من أثمن معاجم العربية ، والثاني «المُحْكَم والمُحيط الأعظم» في اثني عشر مجلدًا . واعتمد المقريزي في نقله عن ابن سيدَة على هذا الكتاب الأخير . (صاعد الأندلسي : التعريف بطبقات الأمم ٢٥٩-٢٦٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ : ٣٣٠-٣٣١؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٢ : ٢٣١- ٢٣٥؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨ : ١٤٤-١٤٦؛ الصفدي : نكت الهميان ٢٠٤- ٢٠٥، Talbî, M., *EI*[2] art. *Ibn Sîda* (III, pp. 964-65) .

[٢] ابن سيدة : المحكم والمحيط الأعظم ١٠ : ٧١.

[٣] أثير الدين أبو حَيَّان محمد بن يوسف بن عليّ بن يوسف الأندلسي النَّفْزي ، من كبار علماء اللغة والتفسير والحديث والتراجم . ولد بغرناطة بالأندلس وتَنَقَّل بين العديد من البلاد إلى أن استقرَّ بالقاهرة وتوفيّ بها سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م (الصفدي : الوافي بالوفيات ٥ : ٢٦٧- ٢٨٣. والكتاب الذي ينقل عنه المقريزي ربما كان «ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب» .

[٤] انظر فيما يلي ٣٩٢ .

فلمَّا قَدِمَ الإسْكَنْدَرُ بن فِيلبُش المَقْدُوني من مملكة الرُّوم، عمَّر مَدينَة «الإسْكَنْدَرية» عِمارَةً جديدةً، وصارَت دارَ المملكة بمصر، إلى أن قَدِمَ عَمْرو بن العَاص بجُيوشِ المسلمين وفَتَحَ أَرْضَ مصر، فاخْتَطَّ «فُسْطاطَ مصر»، وصارَت مَدينَة مصر إلى أن قَدِمَ جَوْهَرٌ القائِد من المَغْرِب[a] بعساكِر المُعِزّ لدين الله أبي تَميم مَعَدّ، ومَلَكَ مصر واخْتَطَّ «القاهِرَة»، فصارَت دارَ المملكة بمصر إلى أن زالَت الدَّوْلَةُ الفاطِمية على يد السُّلْطان صَلاح الدين يُوسُف بن أَيُّوب، فَبَنَى «قَلْعَةَ الجَبَل» وصارَت القاهِرَةُ مَدينَةَ مصر إلى يومنا هذا[1].

وفي أَرْض مصر عِدَّةُ مَدائِن ليست دار مُلْك، وهي: مَدينَةُ الفَيُّوم ومَدينَةُ دِلاص ومدينةُ أَهْناس ومَدينَةُ البَهْنَسَا ومَدينَةُ القَيْس ومَدينَةُ طَلْخَا ومَدينَةُ الأُشْمونَيْن ومَدينَةُ أَنْصِنَا ومَدينَةُ قُوص ومَدينَةُ سُيوط ومَدينَةُ فَاو ومَدينَةُ إخْميم ومَدينَةُ البَلْيَنا ومَدينَةُ هُو ومَدينَةُ قِنا ومَدِينَةُ دَنْدَرَة ومَدينَةُ قِفْط ومَدينَةُ الأُقْصُر ومَدينَةُ إسْنَا ومَدينَةُ أَرْمَنْت ومَدينَةُ أُدْفو وثَغْرُ أُسْوان، وأَدْرَكناه مَدينَةً؛ هذه مَدائِنُ الوَجْه القِبْلي. وكان أهلُ مصر يُسَمُّون من سَكَنَ من القِبْط بالصَّعيد «المَرِيس»، ومَنْ سَكَن منهم أَسْفَل الأرض يسمُّونه «البِيمَا».

وفي الوَجْه البَحْري مَدينَةُ نُوب من الحَوْف الشَّرْقي بأَسْفَل الأَرْض، ومَدينَةُ عَيْنِ شَمْس ومَدينَةُ أَتْريب ومَدينَةُ نتو[b]، ومن قُراها ناحية زَنْكَلُون، ومَدينَةُ تمِيّ[c]، ومَدينَةُ بَسْطَة ويُعْرَف اليوم مَوْضعها بتَلّ بَسْطَة، ومَدينَةُ فَرْبيط[d] ومَدينَةُ البَتْنُون ومَدينَةُ مُنُوف ومَدينَةُ طُوَة ومَدينَةُ مُنُوف / ١ أيضًا ومَدينَةُ سَخَا ومَدينَةُ الأُوسِيَّة وهي دَميرَة، ومَدينَةُ تِنْدَة ومَدينَةُ الأَفْراجون، ومن جملة قُراها نَشَا، ومَدينَةُ نَفيرَة[e] ومَدينَةُ بنا ومَدينَةُ شَبْراشُنْباط[f] ومَدينَةُ سَمَنُّود ومَدينَةُ نُوسا ومَدينَةُ سبتي (كذا) ومَدينَةُ البُجُوم[g] ـ وقد غَلَبَت على كورة[h] البُجُوم الرِّمال والسِّباخ، ويُعْرَف اليوم منها قَرية إدْكو على ساحِل البحر بين إسْكَنْدَرية ورَشيد ـ ومَدينَةُ تِنِّيس ومَدينَةُ دِمْياط ومَدينَةُ الفَرَما ومَدينَةُ العَرِيش ومَدينَةُ صَا ومَدينَةُ تَرْنُوط[i] ومَدينَةُ قرطسا ومَدينَةُ أخنو ومَدينَةُ رَشيد ومَدينَةُ مَرْيُوط ومَدينَةُ لُوبْيَة ومَراقِيَة، وليس بعد لُوبْيَة ومَراقِيَة إلَّا أَرض أنطابُلُس وهي بَرْقَة[j].

---

a) بولاق: الغرب. b) بولاق: تنوا. c) بولاق: نمى. d) بولاق: قربيط. e) بولاق: بقيرة. f) بولاق: شبراساط. g) بولاق: النجوم. h) بولاق: غلب على مدينة. i) بولاق: برنوط. j) بولاق: برية.

---

[1] فيما يلي ٣٩٣، ١: ٢٨٦.

وفي كُوَر القِبْلَة مَدينَةُ فاران ومَدينَةُ القُلْزُم ومَدينَةُ رَايَة ومَدينَة أَيْلَة ومَدينَةُ مَدْيَن ؛ وأكثرُ هذه المَدائِن قد خَرِبَ ، ومنها ما له أخبارٌ معروفَة .

وقد استُحْدِث في الإسلام بعضُ مَدائِن ، وسيأتي من أخْبار ذلك إن شاءَ الله ما يَكْفي .

ودِيارُ مصر اليوم وَجْهان : قِبْلِيٌّ وبَحْرِيٌّ ، جملتهما خَمْس عشرة وِلايَة ؛ فالوَجْهُ القِبْليُّ أكبرهما ، وهو تسعة أعمال :

عَمَلُ قُوص ، وهو أَجَلُّها ، ومنه أُسْوان وعزب[a] قَمُولَة ، وأُسْوان [نهاية][b] حَدُّ المملكة من الجَنوب . وعَمَلُ إخْميم . وعَمَلُ سُيوط . وعَمَلُ مَنْفَلُوط . وعَمَلُ الأُشْمُونَيْن ، وبها الطَّحاوِيَّة . وعَمَلُ البَهْنَسا . وعَمَلُ الفَيُّوم . وعَمَلُ إطْفيح . وعَمَلُ الجيزَة .

والوَجْهُ البَحْري سِتَّةُ أعْمال :

عَمَلُ البُحَيْرَة ، وهو مُتَّصل البَرّ بالإسْكَنْدَرية وبَرْقَة . وعَمَلُ الغَرْبِيَّة ، وهي جَزيرَةٌ واحِدَةٌ يشتمل عليها ما بَيْنَ البَحْرَيْن : بَحْر دِمْياط وبَحْر رَشيد . والمُنُوفِيَّة ، ومنها إبْيار التي تُسَمَّى جَزيرَة بَني نَصْر . وعَمَلُ قَلْيُوب . وعَمَلُ الشَّرْقِيَّة . وعَمَل أُشْمُوم طَنَاح ، ومنها الدَّقَهْلِيَّة والمُرْتاحِيَّة ، وهنا مَوْقع[c] ثَغْر البُرُلُّس وثَغْر رَشِيد والمنصورة[d] [المبنية زمان حصار دِمياط][b] [1].

وفي هذا الوَجْه الإسْكَنْدَرية ودِمْياط وهما مَدينَتَان لا عَمَلَ لهما .

وذَكَرَ أبو الحَسَن المَسْعُودي في كتاب «أَخْبار الزَّمان» أنَّ الكُوكَة ـ وهي أُمَّة من أهل أَيْلَة ـ مَلَكوا الأرضَ وقَسَمُوا الصَّعيدَ على ثمانين كُورَة ، وجَعَلُوه أربعة أقسام [2]. وكان عَدَدُ مُدُن مصر الدَّاخِلَة في كُوَرِها ثلاثين مَدينَة ، فيها جَميعُ العَجائِب والكُوَر مثل إخْميم وقِفْط وقُوص والفَيُّوم .

ويُقالُ إنَّ مصر بن بَيْصَر قَسَمَ الأرض بين أَوْلاده ، فأَعْطَى وَلَدَه أُشْمون من حَدّ بَلَده إلى رأس البحر إلى دِمْياط ، وأعطى وَلَدَه أَنْصِنَا من حَدّ أَنْصِنَا إلى الجَنادِل ، وأعطى لولده صَا من صَا أَسْفَل الأرض إلى الإسْكَنْدَرية ، وأعطى لولده مُنُوف وَسَط الأَرض السُّفْلَى مَنْف وما حَوْلَها ، وأعطى لوَلَده قِفْط غربي الصَّعيد إلى الجَنادِل ، وأعطى لولده أَتْريب شَرْقِيّ الأرض إلى البَرِّيَّة ـ بَرِّيَة فاران ـ

a) بولاق : غرب . b) زيادة من مسالك الأبصار . c) بولاق : موضع . d) بولاق : بالمنصورة .

[1] نقلًا عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٩٧– ١٠٠، وفيما تقدم ١: ٧٤.

[2] المسعودي : أخبار الزمان ٦٧– ٦٨؛ وانظر فيما يلي ٣٩٣، ٥٠٤.

وأعطى لبناته الثَّلاث، وهن الفَرَمَا وسريام وبُدُورَة، بِقاعًا من أرض مصر مُحَدَّدَةً فيما بين إخْوَتهن.

ذِكْرُ مَدينَةِ أمْسُوسَ وعَجائِبِها وَمُلوكِها

قال الأُسْتاذُ إبراهيمُ بن وَصِيف شَاه[a] الكاتِب في كِتاب «أَخْبار مِصْر وعَجائِبِها»: وكانت مصرُ القَديمَة اسْمها أَمْسُوسْ؛ وأوَّلُ من مَلَك أرض مصر نَقْرَاوُش - ومعنى نَقْراوُش: مَلِكُ قَوْمِه - الجَبَّار بن مِصْرايِم الأوَّل بن مركائيل بن دوائيل بن عرياب[b] بن آدَم - عليه السَّلام - ركب في نَيِّف وسبعين راكِبًا من بني عرياب[b] جبابِرَة، كلهم يَطْلُبون مَوْضِعًا يَقْطُنُون فيه، فِرارًا من بني أبيهم عندما بَغَى بعضُهم على بعض وتحاسَدوا، وبَغَى عليهم بنو قابيل بن آدمَ. فلم يزالوا يَمْشُون حتى وَصَلُوا إلى النِّيل، فلمَّا رأَوْا سَعَة البلد فيه وحُسْنه، أعجبهم فأقامُوا فيه، وبَنَوا الأَبْنِيَة المُحْكَمَة. وبَنَى نَقْراوُش مصر وسَمَّاها باسم أبيه مِصْرايم، ثم تَرَكَها وأَمَرَ ببناء مَدينَة سمَّاها أَمْسُوس[٢].

وقال ابنُ وَصِيف شَاه: وكان قد وَقَعَ إليه عِلْمُ ذلك من العُلوم التي تَعَلَّمَها دَوابِيل من آدَم عليه السَّلام، فبَنَى الأعْلام، وأقامَ الأساطِين، وعَمِلَ المَصانِع، واسْتَخْرَج المعادِن، ووَضَع الطِّلَّسْمات، وشَقَّ الأَنْهار، وبَنَى المَدائِن؛ فكلُّ عِلْم جَليل كان في أيْدي المصريين إنَّما هو من فَضْل عِلْم نَقْراوُش وأصْحابه، كان ذلك مَرْمُوزًا على الحِجارة، ففَسَّره فَليمون الكاهِن الذي رَكِبَ مع نُوح - عليه السَّلام - في السَّفينَة[٣].

a) الأصل: إبراهيم بن وصيف الكاتب. b) الأصل: عرباق.

[١] كانت هذه المدينة تقع غربي النيل في المنطقة التي أنشئت فيها فيما بعد مدينة منف بعد الطوفان. (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ١٣١؛ Maspero & Wiet, *Matériaux, p. 25*).

[٢] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤؛ المسعودي: أخبار الزمان ١١٠- ١١١؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣١٣، ٣١٥، ٤٠٧- ٤٠٨؛ وفيما تقدم ٤٧-٤٨.

[٣] نفسه ١٥: ٢.

ومصدر المعلومات عن ملوك مصر قبل الطوفان وبعده عند المقريزي ومعاصريه: كتاب «أخبار الزمان» المنسوب للمسعودي، وكتاب «أخبار مصر وعجائبها» لإبراهيم بن وصيف شاه، واعتمد المقريزي - بناء على نقوله - على المسعودي وابن وصيف شاه مباشرةً، بينما نقل النويري أخبار هؤلاء الملوك من كتاب «مختصر كتاب العجائب» الذي اختصره إبراهيم بن القاسم الكاتب من كتاب إبراهيم ابن وصيف شاه. (النويري: نهاية الأرب ١٥: ١)، وانظر =

ونَقْرَاوُش هو الذي بَنَى مَدينَة أَمْسُوس وعمل بها عَجائِبَ كثيرة : منها طائِر يُصَفِّر كلّ يوم عند طُلوع الشَّمْس مرَّتين وعند غُروبها مرَّتين ، فيَسْتَدِلّون بصَفيره على ما يكون من الحَوادِث حتى يتهيَّأوا لها . ومنها صَنَمٌ من حَجَرٍ أَسْود في وَسَط المَدينَة ، تجاهه صَنَمٌ مثله ، إذا دَخَلَ إلى المَدينَة سارِقٌ لا يَقْدر أن يَزُول حتى يَسْلُك بينهما ، فإذا دَخَلَ بينهما أَطْبَقا عليه فيُؤْخَذ .

وعَمِلَ صُورَةً من نُحاس على مَنارٍ عالٍ ، لا يزال عليها سِحابٌ يَطْلَع ، فكلٌّ من اسْتَمْطَرَها أَمْطَرَت عليه ما شاءَ . وعَمِلَ على حَدِّ البلاد أصْنامًا من نُحاس مُجَوَّفَة ، وملأها كبريتًا ، ووَكَّل بها رُوحانية النار ، فكانت إذا قَصَدَهم قاصِدٌ أَرْسَلَت تلك الأَصْنام من أفْواهها نارًا أَحْرَقَتْه . وعَمِلَ فوق جَبَل بُطْرُس مَنارًا يفور بالماء ، ويسقي ما حوله من المزارِع [١] ، ولم تزل هذه الآثارُ حتى أزالها الطُّوفان .

ويُقالُ إنَّه هو الذي أَصْلَحَ مَجْرَى النِّيل ، وكان قبْلَه يتفرَّق بين الجَبَلَيْن ، وإنَّه وَجَّه إلى بلاد النُّوبَة جماعَةً هندسوه/ ١٣٠ ، وشَقُّوا نَهْرًا عظيمًا منه بنوا عليه المُدُن وغَرَسُوا الغُروس . وأَحَبَّ أن يعرف مَخْرَج النِّيل فسارَ حتى بَلَغَ خَلْف خَطِّ الاسْتواء ، ووَقَفَ على البحر الأَسْوَد الزِّفْتي ، ورَأَى النِّيلَ يَجْري على البحر مثل الخُيوط حتى يَدْخُل تحت جَبَلَ القَمَر ويخرج منه إلى بَطائِح [٢] ؛ ويُقال إنَّه هو الذي عَمِلَ التَّماثيل التي هُناك .

وعادَ إلى أَمْسُوس وقَسَمَ البلاد بين أوْلادِه : فجعل لابنه الأكبر ـ واسمه نقارش[a] ـ الجانِب الغربي ، ولابنه شورب الجانِب الشَّرْقي ، وبنى لابنه الأَصْغَر ـ واسمه مِصْرايم ـ مَدينَة برسان وأَسْكَنَه فيها [٣] .

---

a) بولاق : نقاوش والأصل والنويري : نقارش .

= دراسة مصادر المقريزي في المقدمة .

ولم تتَّفق الكتب على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الآخر في طريقة رسمها وكتابتها ، خاصَّةً مع فَقْد المصدر الأصلي لها وتصحيفات النُّسَّاخ التي تسرَّبَت إلى النُّسَخ التي وصلت إلينا ، وقد بَذَلْتُ جهدًا كبيرًا في توحيدها مقارنة بكافة المصادر والمواضع التي ورد ذكرها فيها . (وانظر فيما يلي ١٣٥:١) .

وقد تنبَّه إلى ذلك أبو الريحان البيروني حيث يقول : «ولم يُساعد الزمان على تصحيح أسماء الملوك بالسَّماع ، فليبالغ في تصحيحها وإصلاحها مَنْ عَنتى وقف عليها طالبًا ما طلبته من تسهيل الأمر على المرتاد وإزالة مؤونة الطلب عنه ، ولا ينسختها وما في سائر الجداول إلَّا مَنْ له معرفةٌ بحروف الجُمَّل وعنايةٌ صادقة بتصحيحها فإنها تفْسَد بنقْل الورَّاقين إذا تداوَلوها ولا يمكن إصلاحُها إلَّا في سنين كثيرة» (الآثار الباقية ٨٤) .

[١] المسعودي : أخبار الزمان ١١٢ - ١١٣ .

[٢] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٢ - ٣ ؛ وفيما تقدم ١٣٧ .

[٣] نفسه ١٥ : ٣ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٣١٥ وأضاف : «ولم أقف على مكانها» .

وأقامَ مَلِكًا على مصر مائة وثمانين سنة ؛ ولمَّا ماتَ لُطِّخَ جَسَدُه بأَدْوِيَة ماسِكَة ، وجُعِل في تابوت من ذهب ، وعُمِلَ له ناووس[a] مُصَفَّح بالذهب ، ووُضِعَ فيه ومعه كُنوزٌ وإكْسير وأَوانٍ من ذَهَب لا يُحْصَى ذلك لكثرته[b]، وزَبَرُوا على الناووس تاريخ مَوْته ، وأقامُوا عليه طِلَّسْمًا يمنعه من الحَشَرات المفسدة [1] .

ومَلَكَ بعده[c] ابنُه نَقــارِش[d] بن نَقْراوُش ، وكان كأبيه في عِلْم الكهانة والطِّلَّسْمات ، وهو أوَّل من عَمِل بمصر هَيْكلًا ، وجعل فيه صُوَر الكَواكِب السَّبْعَة ، وكَتَب على هَيْكَل كلِّ كَوْكَب مَنافِعَه ومَضارَّه ، وأَلْبَسَها كلّها الثِّياب الفاخِرَة ، وأقامَ لها خَدَمَةً وسَدَنَة . وخَرَجَ من أَمْسُوس مُغَرِّبًا حتى بَلَغَ البحر المحيط ، وأقامَ عليه أَساطين على رُؤوسها أَصْنام تُشرِجُ عُيونُها [كالمصابيح][e] في اللَّيْل ؛ ومَضَى على بلاد السُّودان إلى النِّيل ، وأَمَرَ ببِناء حائِط على جَنْب النِّيل ، وعَمِلَ له أبوابًا يخرُج منها الماءُ . وبَنَى في صَحْراء الغَرْب خَلْف الوَاحات ثلاث مُدُن على أساطِين مُشْرِفات من حجارة ملوَّنة شَفَّافة ، وفي كلِّ مَدينَة عِدَّةُ خَزائِن من الحِكْمَة . وفي إحْداها صَنَمٌ للشَّمْس على صورة إنْسان وجَسَدِ طائِرٍ من ذَهَب ، وعَيْناه من جَوْهَر أصفر ، وهو جالِسٌ على سَريرٍ من مَغْناطيس ، وفي يَدِه مُصْحَف العُلُوم . وفي إحْداها صَنَمٌ رأسه رَأْس إنْسان بجَسَد طائِر ، ومعه صورة امْرَأة جالِسَة قد عُملَت من زِئْبَق معقود ، لها ذُؤابتان ، في يدها مِرْآة ، وعلى رأسها صورة كَوْكَب ، وقد رَفَعَت المِرْآة بيديها إلى وَجْهِها . وفي إحداها مَطْهَرَة فيها سبعة أَلْوان من سائِل يَرِدُ إليها ولا يُغَيِّر بعضُها لَوْنَ بعض .

وفي بعضها صورَةُ شَيْخ جالِسٍ قد عُمِلَ من الفَيْرُوزَج ، وبين يديه صِبْيَةٌ جُلوس كلُّهم من عَقيق . وفي بعضها صُورة هِرْمِس ـ يعني عُطَارِد ـ وهو يَنْظُر إلى مائِدَة بين يديه من نُوشَادِر ، على قَوائِم من كِبْريت أحمر ، وفي وَسَطِها صَحْفَة من جَوْهَر ، وجَعَلَ فيها صورَة عُقاب من زَبَرْجَد أخضر ، وعَيْناه من ياقُوت أصفر ، وبين يديه حَيَّة زَرْقاء من فضَّة ، قد لَوَت ذَنَبَها على رجليه ، ورَفَعَت رأْسَها كأنَّها تَنْفُخ عليه ، وجَعَلَ فيها صِفَة المرِّيخ وهو راكِب على فَرَس ، وفي يده سَيْفٌ مَسْلول من حَديد أخضر ، وجَعَلَ فيها عَمودًا من جَوْهَر أخْضَر[f]، وعليه قُبَّة من ذَهَب فيها صُورَة

a) بولاق : تابوت . b) بولاق : كثرة . c) ساقطة من الأصل . d) بولاق : نقاوش ، والأصل والنويري : نقارش . e) زيادة من أخبار الزمان . f) بولاق : أحمر .

[1] المسعودي : أخبار الزمان ١١٣.

المُشْتَري ، وجَعَل فيها قُبَّة من آنِك على أربعة أَعْمِدَة من جِزْعٍ أزرق ، وفي سَقْفِها صورة الشَّمْس والقَمَر مُتحاذِيَيْن في صورة رَجُل وامْرَأة يتحادَثان ، وجَعَلَ فيها قُبَّة من كِبْريت أحمر فيها صورة الزُّهَرَة على هَيْئة امْرَأة مُمْسِكَة بضَفائِرِها ، وتحتها رَجُلٌ من زَبَرْجَد أخضر في يده كِتابٌ فيه عِلْمٌ من عُلومِهم كأنَّه يَقْرَأ فيه عليها .

وجَعَلَ في بَقِيَّة الخزائِن من كُنوز الأموال والجَواهِر والحُلِيّ وإكْسير الصَّنْعَة وصُنُوف الأَدْوِية والسُّموم القاتِلة ما لا يُحْصَى كَثْرَة . وجَعَلَ على باب كلِّ مَدينَة طِلَّسْمًا يَمْنَعَ من دُخولها ، وأَنْفَذ لها مَسارِب تحت الأرض يُنْفِذ بعضُها إلى بعض ، طول كلِّ سَرَب ثلاثة أميال [1] .

وبَنَى أيضًا مَدينَةً بأرْض مصر اسمها حَلْجَة [a]، وعمل فيها جَنَّةً صَفَّح حيطانَها بالجَواهِر الملوَّنَة بالذهب ، وغَرَسَ فيها أصْناف الأشْجار ، وأَجْرَى تحتها الأنهار ، وغَرَسَ فيها شَجَرَةً مُوَلَّدَة تُطْعم سائِر الفَواكِه ، وعَمِلَ فيها قُبَّةً من رُخام أحمر على رأسها صَنَمٌ يدور مع الشَّمْس ، ووَكَّلَ بها شَياطِينَ إذا خَرَجَ أَحَدٌ من بيته في اللَّيْل هَلَكَ ، وأقامَ بها أساطِينَ زَبَرَ عليها جميع العُلُوم وصُوَر العَقاقير ومَنافِعِها ومَضارِّها .

وجَعَلَ لهذه المَدينَة مَسارِب تَتَّصل بمَسارِب تلك المُدُن الثلاث ، بين كلِّ سَرَب منها وبين هذه المَدينَة عشرون ميلًا . فلم تَزَلْ هذه المَدائِنُ حتى أَفْسَدَها الطُّوفانُ . ولمَّا مات بعد مائة وتسع سنين من مُلْكه على مصر ، جُعِلَ [b] في ناووس مُطَلْسَم ودُفِنَ فيه [2] .

ومَلَكَ بعده أَخوه مِصْـرام [c] بن نَقْراوُش الجَبَّار ابن مِصْرايم - ويُقالُ به سُمِّيَت مصر - وكان حَكيمًا ، فعمل هيكلًا للشَّمْس من مَرْمَر مُمَوَّه بذهب أحمر ، وفي وَسَطِه فَرَسٌ من جَوْهَر أزرق عليه صورة الشَّمْسِ من ذهب أحمر ، وعلى رأسه قِنْديل من الزُّجاج فيه حَجَرٌ مُدَبَّر يُضيء أكثر من السِّراج .

ثم إنَّه ذَلَّل الأُسْد ورَكِبَها ، وسارَ إلى البَحْر المُحيط ، وجَعَلَ في وَسَطِه قَلْعَة بَيْضاء عليها صَنَمٌ للشَّمْس ، وزَبَرَ عليه اسمه وصِفَته ، وعمل صَنَمًا من نُحاس زَبَرَ عليه : «أنا مِصْرام الجَبَّار ، كاشِف

---

a) بولاق : حلجمة وWiet جلجله ، والنويري : خَلْجَة . b) الأصل : عمل . c) ساقطة من الأصل .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٥-٦ (عن ابن وصيف شاه) ؛ المسعودي : أخبار الزمان ١١٣- ١١٥.

[2] نفسه ١٥ : ٧ وأيضًا المسعودي : أخبار ١١٣- ١١٤.

الأَشْرار، الغالِب القَهّار، وَضَعْتُ[a] الطِّلَّسْمات الصادِقَة، وأَقَمْتُ الصُّوَرَ الناطِقَة، ونَصَبْتُ الأَعْلام الهائِلَة على البحار السائِلَة، ليَعْلم مَنْ بَعْدى أنَّه لا يَمْلِك أَحَدٌ أَشَدّ من أيدي[b]» [١].

وعادَ إلى أَمْسُوس، واحْتَجب عن النّاس ثلاثين سنة، واسْتَخْلَف رَجُلًا يُقال له عِيقام من وَلَد عرياب[c] بن/ آدم، وكان كاهِنًا ساحِرًا؛ فلمّا مَضَت المُدَّةُ أَحَبَّ أَهْلُ مصر أن يَرَوْه، فَجَمَعَهم ١:
عَنْقام[d] بعدما أَعْلَم مِصْرام، فظَهَر لهم في أعْلَى مَجْلِس مُزَيَّن بأَصْناف الزِّينَة، في صُورَة هائِلَة مَلأَت قُلوبَهم رُعْبًا، فخَرُّوا له ساجدين، ودَعَوْا له. ثم أَحْضَرَ إليهم الطَّعامَ فأَكَلوا وشَرِبوا، وأَمَرَهُم بالرُّجوع إلى مَواضِعِهم، ولم يَروه بعدها [٢].

فمَلَك بَعْدَه خَليفَتُه عنقـــام[d]، وقد حَكَى عنه أهلُ مصر حِكايات لا تُصَدِّقها العُقُول. ويُقالُ إنَّ إدْريسَ ـ عليه السَّلام ـ رُفِعَ في أيَّامِه، وإنَّه رأَى في عِلْمه كَوْن الطُّوفان، فبَنَى خَلْف خَطِّ الاسْتِواء في سَفْح جَبل القَمَر قصرًا من نُحاس، وجَعَلَ فيه خمسة وثمانين تِمْثالًا من نُحاس يَخْرُج ماءُ النِّيل من حُلوقِها ويَصُبّ في بَطْحَاء تنتهي إلى مصر.

وسارَ إليه من أَمْسُوس، فشاهَدَ حِكْمَة بُنْيانه، وزَخْرَفَة حِيطانه وما فيها من النُّقُوش من صُوَر الأَفْلاك وغيرها. وكان قَصْرًا تُسْرَجُ فيه المَصابيحُ، وتُنْصَبُ فيه المَوائِد وعليها من كلِّ الأَطْعِمَةَ الفاخِرَة في الأَواني النَّفيسَة ما لو أَكَل منها عَسْكَرٌ لما نَقصت ذَرَّة، ولا يُعْرف من عَمِلَها ولا من وَضَعَها، وفي وَسَط القَصْر بِرْكَة من ماءٍ جامِد الظَّاهر، وترى حَرَكَتُه من وَراءِ ما جَمُدَ منه؛ فأُعْجِب بما رأَى، وعادَ إلى أَمْسُوس، واسْتَخْلَف ابْنَه عرياق[e]، وقَلَّده المُلْك وأَوْصاه، وعادَ إلى ذلك القَصْر وأقامَ به حتى هَلَك.

وإلى عنقام[d] هذا يُعْزَى مُصْحَف القِبْط الذي فيه تواريخُهم، وجَميعُ ما يَجْري في آخر الدَّهْر[f] [٣].

فقامَ من بَعْده ابنُه عريـــاق[e] ـ [g]ويُقال أرياق بن عنقام[d]، ويُقالُ له الأَثيم[g] ـ فعَمِل أَعْمالًا عَجيبة: منها شَجَرَة صَفْراء لها أَغْصان من حديد بخَطاطيف، إذا قَرُبَ الظَّالِمُ منها

---

a) النويري: صنعت. b) النويري: ملكي. c) Wiet: عرباق. d) بولاق: عيقام. e) في بعض النسخ غرياق، عرباق!! f) بولاق: الزمان. (g-g) ساقطة من الأصل.

---

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧-٨ وقارن المسعودي: أخبار ١١٦، ١١٧.

[٢] نفسه ١٥: ٨؛ وقارن المسعودي: أخبار ١١٧.

[٣] نفسه ١٥: ٨- ٩.

أَخَذَتْه تلك الخَطاطيف ولا تُفارِقُه حتى يُقِرّ بظُلْمِه، ويَخْرُج منه لخَصْمِه.

ومنها صَنَمٌ من كِذّان أسود سَمَّاه عَبْد زُحَل، كانوا يتحاكَمون إليه: فمَن زاغَ عن الحَقّ ثَبَتَ في مكانِه، ولم يَقْدِر على الخُروج منه حتى يُنْصِف خَصْمَه من نَفْسه، ولو أقامَ سنة. ومن كانت له حاجَةٌ قامَ ليلًا ونَظَر إلى الكَوكَب[a] وتَضَرَّع وذَكَر اسم عرياق، فإذا أَصْبَح وَجَد حاجَتَه على بابِه.

وعَمِلَ شَجَرَةً من حديد ذات أغْصان، ولَطَّخَها بدَواء مُدَبَّر، فكانت تَجْلِب كلَّ صِنْف من الدَّواب والسِّباع والوُحُوش إليها حتى يتمكَّن من صَيْدها.

وكان إذا غَضِبَ على أَهْل إقْليم سَلَّطَ عليهم الوُحُوش والسِّباعَ، وتارَةً يَجْعَل ماءَهم من الإيداق.

ويُقالُ إنَّ هارُوت ومارُوت كانا في زَمانِه، وإنَّه بَنَى جَنَّةً عَظيمةً، واغْتَصَب النِّساءَ الحِسان وأَسْكَنهنَ فيها، فعَمِلَت عليه امْرَأةٌ منهن وسَمَّته فهَلَكَ[1].

ومَلَكَ بعده لُوجيم بن نقارش، ويُقالُ بل هو من بني نَقْراوُش الجَبّار ويُعْرَف بلُوجيم الفَتَى، وهو الذي أَخَذ المُلْكَ من عرياق بن عَنْقام الكاهِن ورَدَّه لبني نَقْراوُش بعدما خَرَجَ عنهم بلا حَرْب ولا قَتْلَ؛ وكان عالِمًا بالكَهانة والطِّلَّسْمات فعَمِلَ أعْمالًا عَجيبةً منها أنَّ الغداف والغُراب[b] كَثُرَ في أيَّامِه وأَتْلَف الزَّرْع، فعَمِلَ أَرْبَع مَنارات في جَوانِب مَدينَة أَمْسُوس الأَرْبَعَة، وعلى كلِّ مَنارَة صُورَة غُراب في فَمِه حَيَّة قد الْتَوَت عليه، فَنَفَرَت عنهم الطُّيور المُضِرَّة من حينئذٍ، ولم تَقْرَبهم حتى زالَت المَنارات بالطُّوفان[2].

وكان حَسَنَ السِّيرَة، مُنْصِفًا للرَّعِيَّة، عادِلًا، مُقَرِّبًا للكَهَنَة، ولمَّا ماتَ دُفِن في ناوُوس ومعه كُنوزُه، وعُمِل عليه طِلَّسْم يَمْنَعَه.

ومَلَكَ بعده ابنه حَصْليم[c]، وكان فاضِلًا عالِمًا كاهِنًا، فعَمِلَ أعْمالًا عَجيبَةً، وهو أوَّل من عَمِلَ مِقْياسًا لزيادة ماءِ النِّيل بأن جَمَعَ أَرْبابَ العُلوم والهَنْدَسَة فقَدَّروا بَيْتًا من رُخام على حافَة

---

a) بولاق: الكواكب. b) عند النويري: الغرانيق وهي الذكور من الطير، وعند المسعودي: الغربان والغرانيق.
c) بولاق: خصليم.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٩-١٠؛ وقارن المسعودي: أخبار ١١٨.
[2] نفسه ١٥: ١٠؛ المسعودي: أخبار الزمان ١١٨.

النِّيل ، وفي وَسَطِه بِرْكَة صَغيرة من نُحاس فيها ماءٌ مَوْزون ، وعليها من جانبَيْها عُقابان من نُحاس أَحَدُهما ذَكَرٌ والآخَر أنْثى . فإذا كان أوَّلُ الشَّهر الذي يَزيد فيه النِّيل فُتِحَ هذا البَيْت ، وجُمِعَ الكُهَّان فيه بين يَدَيْه ، وزَمْزَم الكُهَّان بكَلامِهم حتى يُصَفِّر أَحَدُ العُقابَيْن : فإن صَفَّر الذَّكَرُ كان الماءُ تامًّا ، وإن صَفَّرت الأُنْثى كان الماءُ ناقِصًا ، فيستعدُّون عند ذلك لغَلاء الأَسْعار بما يُصْلِحون به شَأْنَهم . وهو الذي بَنَى القَنْطَرَة ببلاد النُّوَبة على النِّيل[١] .

ولمَّا ماتَ عُمِلَ[a] في ناووس ومعه كُنوزُه ، وعُمِلَ عليه طِلَّسْم .

وملك بعده ابنه هوصَال ، ويُقال هرصَال ومعناه خادِم الزُّهَرَة ، ويُقال سوصال بن لُوجيم الملك النَّقْراوشِي من بني نَقْراوُش الجَبَّار . ويُقالُ إنَّ نوحًا ـ عليه السَّلام ـ وُلِدَ في أيَّامِه .

وكان فاضِلًا كاهِنًا عالِمًا بالسِّحْر والطِّلَّسْمات فعَمِل عَجائِبَ ، منها أنَّه بَنَى مَدينَةً عَمِلَ في وَسَطِها صَنَمًا للشَّمْس يَدُور بدَوَرانِها ، ويَبِيت مُغْرِبًا ، ويُصْبِح مُشْرِقًا . وعَمِل سَرَبًا تحت النِّيل ، يَشُقُّ[b] الأرض وخرج منه مُتَنَكِّرًا حتى بَلَغَ مَدينَة بابِل ، وكَشَفَ أعْمالَ المُلُوك .

وكان نُوحُ ـ عليه السَّلام ـ في زَمانِه ؛ ووُلِدَ له عشرون وَلَدًا ، فجَعَلَ مع كلِّ وَلَدٍ[c] منهم قاطِرًا[d]، وهو رأس الكَهَنَة . وأقامَ في المُلْك مائة وسبع عشرة سنة ، ثم لَزِمَ الهَياكِل وأقامَ أوْلادَه على حالِهم ، كلٌّ منهم في قِسْمِه الذي أعْطاه إيَّاه أبوه مُدَّة سبْع سنين[٢] .

ثم اجْتَمَعُوا على واحِدٍ منهم ومَلَّكوه عليهم ، وكان اسْمُه بردشال ، وقيل تَدْرسان[e]، فلمَّا مَلَكَ نَفَى جميعَ إخْوَته إلى المَدائِن الدَّاخِلَة في الغَرْب ، واقْتَصَرَ على امْرَأة من بَنَات عَمِّه ، وكانت ساحِرَة . وعَمِلَ له قَصْرًا من خَشَب مَنْقوشًا فيه صُورَةُ الكَواكِب ، وبَسَطَه بأَحْسَن الفَرْش ، وحَمَلَه على الماءِ ، وصارَ/ يجلس فيه ؛ فبينما هو فيه ذاتَ يومٍ إذْ هَبَّت رِيحٌ شديدةٌ اضْطَرَب منها ١: الماءُ ، فانْقَلَب القَصْرُ وتَكَسَّرَ ، فغَرِق هو ومن كان معه في القَصْر[٣] .

---

a) بولاق : جعل . b) بولاق : فشق . c) الأصل : واحد . d) بولاق : قطرا ، Wiet: ناظرًا . e) بولاق : تدرشان ، النويري : ندسان .

---

[١] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١١؛ المسعودي : أخبار الزمان ١١٩ – ١٢٠.

[٢] نفسه ١٥ : ١١ – ١٢؛ نفسه ١٢٠ – ١٢١، والقاطر هو الكاهن الذي يتعبّد للكواكب السبعة المدبرة ، لكل كوكب سبع سنين ، فإذا بلغ هذه الرتبة سمّي قاطِرًا ، وكان يجلس مع الملك في المرتبة ويصدُر الملك عن رأيه ، وإذا رآه قامَ له (النويري : نهاية ١٥ : ٤٠) .

[٣] نفسه ١٥ : ١٢ – ١٣؛ وقارن المسعودي : أخبار ١٢١.

ومَلَكَ بَعْدَه أخوه نمْرود الجَبّار، ويُقال شَمْرود بن هوْصال، فأَحْسَنَ السِّيرة وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة وبَسَطَ العَدْلَ، وجَمَعَ إخْوتَه وفَرَّق عليهم كنوزَ أَخيهم، فسُرَّ النّاسُ به؛ وطَلَب امْرأَةَ أخيه السّاحِرَة ففَرَّت[a] بابنها إلى مَدينَة ببلاد الصَّعيد، وامْتَنَعَت عليه بسِحْرِها، وأقامَت مُدَّةً، فاجتمع[b] السَّحَرَةُ إلى ابنْها ـ وكان اسمه توميدون[١] ـ وحَمَلوه على طَلَب المُلْك، فسارَ وخَرَج إليه شَمْرود وإخوته، فاقْتَتلوا قِتالًا عَظيمًا كان فيه الظَّفَرُ لتوميدون فَقَتَله، ومَلَكَ من بَعْده[٢].

فقامَ توميدون بن تدرسان بالمُلْك في مَدينَة أَمْسُوس، وكان عالِمًا فاضِلًا، فتقَوّى بسِحْر أُمِّه، وعَمِلَت له أعْمالًا عَجيبَة، منها قُبَّة من زُجاج على هَيْئَة الكُرَة، تَدُورُ بدَوْران الفَلَكِ، وصَوَّرَت فيها صُوَر الكَواكِب، فكانوا يَعْرِفون بها أَسْرارَ الطَّبائِع وعُلوم العالَم.

فلمّا ماتَت أمُّه السّاحِرَة بعد ستين سنَة من مُلْكِه، طَلَى جَسَدَها بما يَدْفَع عنه النَّتَن والحَشَرات، ودُفِنَت تحت صَنَم القَمَر. ويُقالُ إنَّها كانت بعد مَوْتها يُسْمَع من عِنْدِها صَوْتُ بعض الأَرْواح، وتُخْبِرهم بعَجائِب، وتُجيب عمَّا تُسْأل عنه.

ولمَّا ماتَ توميدون بعد مائة سنة من مُلْكه، عُمِلَ له صُورَةٌ من زُجاج مَقْسومَة نصفين، وأُدْخل فيها بعدما طُلِيَ بالأَدْوية المانِعَة من النَّتَن، وأُطْبِقَت الصُّورَة عليه حتى الْتَحَمَت، وأُقيمَ في هَيْكل الأَصْنام، ودُفِنَت كُنوزُه عنده، وصارَ يُعْمَلُ له في كلِّ سَنَةٍ عيد[٣].

ومَلَكَ بعد ابنه شرياق، ويُقالُ له شرناق، وكان كأبيه في عِلْم الكَهانَة والسِّحْر والطِّلَّسْمات، فعَمل أعْمالًا عَجيبة، منها على باب مَدينَة أَمْسُوس هَيْئَة بَطَّة من نُحاس قائِمَة على أُسْطوانَة إذا دَخَلَ غَريبٌ من ناحية من النَّواحي صَفَّقَت بجَناحَيْها وصَرَخَت، فيُؤْخَذ ذلك الغَريب ويُكْشف أَمْرُه حتى يُعْرَف فيما قَدِمَ. وشَقَّ من النِّيل نَهْرًا يمرُّ إلى مَدائِن الغَرْب، وبنَى عليه أعْلامًا ومُدُنًا ومُتَنَزَّهات[٤].

وسارَ ملكٌ من بني مَراشي[c] بن آدَم، ويُقالُ من بني صَواثيني بن آدَم، خَرَجَ من ناحِيَة العِراق في أيّامه، وغَلَب على بلاد الشّام، وقَصَدَ مصر ليَأْخُذ مُلْكَها فقيل له إنَّك لا تَقْدِر عليها لسِحْر

---

a) بولاق: ففرت منه. b) بولاق: واجتمع. c) بولاق: فراشي.

---

[١] اقترح ڤيت أن صحة اسمه: بوسيدون.

[٢] النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٣؛ المسعودي: أخبار ١٢٢-١٢٣.

[٣] نفسه ١٥: ١٣-١٤؛ وقارن المسعودي: أخبار الزمان ١٢٢؛ القلقشندي: صبح ٣: ٤٠٧.

[٤] نفسه ١٥: ١٥، ١٦؛ المسعودي: أخبار ١٢٣، ١٢٥.

أهْلِها . فتنَكَّر ودَخَلَ في جَماعَة من خَواصِّه ليَكْشِف حالَ أهْل مصر ، فلمَّا وَصَلَ إلى أوَّل حَدّ مصر حَبَسَه المُوكَّلون بذلك الحدّ هو ومن معه حتى يَأْمُر المَلِكُ فيهم بأمْرِه ، وبَعَثُوا إليه بصِفَتِهم ؛ وكان قد رَأَى في مَنامِه كأنَّه على مَنَار عالٍ ، وكأنَّ طَائِرًا عَظِيمًا انْقَضَّ عليه ليَخْطفه فحادَ عنه حتى كادَ يَسْقُط من المَنَار ، فجَاوَزَه الطائِرُ وسَلِمَ منه ؛ فانْتَبَه مَذْعورًا وقَصَّ رُؤْياه على كبير الكَهَنَة ، فقال : يَطْلُبُك مَلِكٌ ولا يَقْدر عليك . ونَظَرَ في نُجومِه فرَأَى المَلِك الذي يَطْلُب مُلْكَه قد دَخَلَ إلى مصر ، وكان ذلك هو الوَقْتُ الذي قَدِمَ عليه فيه الرُّسُلُ بصِفات الذين وَصَلُوا إلى حَدّ مصر ، فأَمَرَ بإحْضارِهِم إليه بعدما يُطافُ بهم على عَجائِب مصر كلِّها ليَرَوْها ؛ فأَوْثَقوهم وساروا بهم ، وأَوْقَفُوهم على عَجائب أرْض مصر وما فيها من الطِّلَّسْمات ، حتى بَلَغُوا إلى الإسْكَنْدَرية ، ثم إلى أَمُسْوس ، ثم إلى الجَنَّة التي عَمِلَها مِصْرام - وكان المَلِكُ شرياق مُقيمًا بها - فعندما وَصَلُوا إليها أَظْهَرَت السَّحَرَةُ التَّماثيلَ العَجيبة ، فدَخَلوا عليه وحَوْلَه الكَهَنَة وبين يَدَيْه نارٌ ، لا يَصِلُ إليه أَحَدٌ حتى يَخُوضها ، فمن كان بَرِيئًا لم تَضُرّه ، ومن كان يُريد بالمَلِك سُوءًا أو أَضْمَرَ له مَكْروهًا أَخَذَتْه النارُ .

فشَقَّ القومُ في وَسَط النَّار واحِدًا بعد واحِد من غير أن تَضُرّهم ، حتى انْتَهَى الأَمرُ إلى مَلِك العِراق ، فعندما دَنَا من النَّار أَخَذَتْه بحَرِّها فوَلَّى هارِبًا ، فاتَّبعوه حتى أَخَذوه وأَوْقَفوه بين يدَيْ شرياق ، فلم يَزَل به حتى اعْتَرَف ، فأَمَرَ بصَلْبِه ، فصُلِبَ على الحِصْن الذي أُخِذَ منه ، ونُودِي عليه : «هذا جَزَاءُ مَنْ طَلَبَ ما لا يَصِلُ إليه» ، وعَفَا عن الباقين فسَارُوا من مِصْر وتَحَدَّثوا بما رَأَوْه من العَجائِب ، فانْقَطَع طَمَعُ مُلوك الأَرْض عن طَلَب مُلْك مصر [1].

وماتَ شرياق بعدما مَلَكَ مصر مائة سنة وثلاث سنين [a]، فجُعل في ناوُوس ومَعَه أمواله وطِلَّسْم يَحْفَظه مِمَّن يَقْصِدُه .

ومَلَكَ بعده ابنه شُهْلوق ، فكان عالِمًا بالكَهانَة والطِّلَّسْمات ، فقَسم ماءَ النِّيل مَوْزونًا يَنْصَرِف إلى كلّ ناحية قِسْطُها ، ورَتَّبَ الدولة ، وعَمِلَ بَيْتَ نارٍ ، وهو أوَّل من عَبَدَ النَّار ، وعَمِلَ

---

a) بولاق : مائة وثلاثين سنة .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥:١٥– ١٦.

بِأَمْسُوس عَجائِبَ ، منها شَجَرَة على أَعْلى الجِبال تُقْسم بها الرِّياح التي تَمْنَع من أرادَ مصر بأَذًى أو فَسادٍ من جِنّي أو إنْسي أو سَبُع أو طائِر .

وعَمِلَ بالمَدِينة قُبَّةً مُرَكَّبة على سبعة أرْكان ، ولها سبعة أبْواب على كلِّ رُكْنٍ باب ، وفي وَسَط القُبَّة قُبَّة من صُفْر ، وفي أعْلاها صُوَر الكَواكِب السَّبْعَة ، وتَحْتَ القُبَّة قُبَّة أخرى مُعَلَّقَة على سَبْع أساطِين ؛ وعلى الباب الأوَّل من القُبَّة [صورة][a] أَسَدٌ ولَبُؤة من صُفْر وهما رابِضَان ، كان يَذْبَح لهما جَرْوًا أَسْود ويُبَخِّرهما بشَعْره . وعلى الباب الثاني ثَوْرٌ وبَقَرَة يَذْبَح لهما عِجْلًا ويُبَخِّرُهما بشَعْره . وعلى الباب الثَّالث خِنْزيرٌ وخِنْزيرَة يَذْبَحُ لهما خِنُوصًا ويُبَخِّرُهما بشَعْره . وعلى الباب الرَّابع كَبْشٌ وشاةٌ يَذْبَح لهما سَخْلَة ويُبَخِّرُهما بشَعْرِها . وعلى الباب الخامِس ثَعْلَبٌ وثَعْلَبَة يَذْبَح لهما فَرْخَ/ ثَعْلَب ويُبَخِّرهما بشَعْره . وعلى الباب السَّادِس عُقاب وأُنْثاه يَذْبَح لهما فَرْخَ عُقاب ١٣٣: ويُبَخِّرُهما بريشه . وعلى الباب السَّابع نَسْرٌ وأُنْثاه يَذْبَح لهما فَرْخَ نَسْر ويُبَخِّرهما بريشه ويُلَطِّخ كُلًّا منهما بدَم ما ذُبِحَ له ، وتُحْرَق سائِرُ القَرابين ، ويُوضَع رَمادُها تحت عَتَبات أبْواب القُبَّة ، وجَعَلَ لهذه القُبَّة سَدَنَة يُشْعِلون المَصابِيحَ لَيْلًا ونَهارًا [1] .

وقَسَمَ الناسَ بمصر سَبْعَ مَراتِب ، لكُلِّ مَرْتَبَةٍ منهم بابٌ من أبْواب تلك القُبَّة ، فكان الخَصْمُ إذا تَقَدَّم إلى شيءٍ من تلك الصُّور ، وكان ظالِمًا ، فإنَّه يَلْتَصِق بها ولا يَتَخَلَّص منها حتى يَخْرُج من الحَقِّ الذي عليه : الذَّكَرُ للذَّكرِ ، والأُنْثَى للأُنْثَى ، فيَعرِفون بذلك الظَّالِمَ من المَظْلوم . ولم تَزَل هذه القُبَّة بأَمْسُوس حتى أزالَها الطُّوفانُ [2] .

ويُقالُ إنَّه رأَى أَباه في النَّوْم وهو يَأْمُرُه أن يَنْطَلِق إلى جَبَلٍ وَصَفَه له من جِبال مصر ، فإنَّ فيه كُوَّةً صِفَتُها كذا ، على بابِها أَفْعَى لها رأْسان ، إذا أَقْبَلَ إليها كَشَّرت في وَجْهِه . فخُذ مَعَك طائِرَيْن صغيرَيْن ذَكَرًا وأُنْثَى فاذْبَحْهما لها ، وأَلْقِمها إيَّاهُما ، فإنَّها تَأْخُذ برأْسَيْهما وتَنْتَحي بهما إلى سَرَب . فإذا غابَت ادْخُل الكُوَّة تَجد فيها امْرأةً عَظيمَةً من نُورٍ حارٍّ يابِس ، فإنَّها تَسْطَع لك وتُحِسُّ بحَرارتها فلا تَدْنُ منها تَحْتَرِق ، ولكن اقْعُد حِذاءَها ، وسَلِّم عليها ، فإنَّها تُخاطِبُك فافْهَم ما تَقُول لك واعْمَل به ، فإنَّك تَشْرُف بذلك ، وتَدُلُّك على كُنُوز جَدِّك مِصْرام ، فإنَّها حافِظَةٌ لها .

---

a) زيادة من النويري .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٩ ؛ وقارن المسعودي : أخبار الزمان ١٢٦ - ١٣٠ .

[2] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٩ - ٢٠ .

فلمَّا انْتَبه عَمِلَ ما أَمَرَه أبوه ، فلمَّا قَعَدَ بجانِب المَرْأَة وسَلَّم ، قالَت له : أَتَعْرِفُني ؟ قال : لا ؛ قالت : أنا صُورَةُ النَّار المَعْبُودَة في الأُمَم الخالِية ، وقد أَرَدْت أن تُحْيِي ذِكْري ، وتُجَدِّد لي بيتًا تَقِد لي فيه نارًا دائِمَة بقَدْر واحِد ، وتَتَّخِذ لها عِيدًا في كلِّ سَنَة تَحْضُره أنت وقَوْمَك ، فإنَّك تَتَّخذ بذلك عندي يدًا أُنيلك بها شَرَفًا إلى شَرَفِك [a]، ومُلْكًا إلى مُلْكِك ، وأَمْنَع عنك من يَطْلُبك بسوءٍ ، وأَدُلُّك على كُنوز جَدِّكَ مِصْرام .

فضَمِن لها أن يَفْعل كلَّ ما أَمَرته به ، فدَلَّته على الكُنوز التي تحت المَدائن المُعَلَّقة ،وعَلَّمَتْه كيف يَصير إليها وكَيْف يَحْتَرِس من الأَرْواح المُوكَّلَة بها وما يُنْجِيه منها . ثم قال لها : كَيْفَ لي بأن أراكِ في وَقْتٍ آخَر ؟ قالت : لا تَعُد ، فإنَّ الأَفْعَى لا تُمَكِّنك ، ولكن بَخِّر في بَيْتك بكَذا فإنِّي آتيك ؛ فسُرَّ بذلك ، وغابَت عنه ، وخَرَج ، ففَعَل ما أَمَرَتْه به من عَمَلِ بَيْت النار ، وأَخَذَ كُنوزَ مِصْرام [1].

ولمَّا ماتَ جُعِلَ في ناوُوس ومعه سائِرُ أَمْواله[a] وكُنوزِه ، وجُعِلَ عليه طِلَّسْم يَحْفَظه ممَّن يَقْصُدُه .

ومَلَكَ بعده ابنُه سُــوريد ، وكان حَكيمًا فاضِلًا ، وهو أوَّل من جَبَى الخَراجَ بمصر ، وأوَّل من أَمَرَ بالإنْفاق على المَرْضَى والزَّمْنَى من خَزائِنِه ، وأوَّل من سَنَّ رُقْعَة الصَّبَاح ؛ وعَمِل أعْمالًا عَجيبَة ، منها مِرْآة من أَخْلاط كان يَنْظُر فيها إلى الأَقاليم فيَعْرِف فيها ما حَدَث من الحَوادِث ، وما يَخْصُب منها وما يَجْدُب . وأقامَ هذه المرآة في وَسَط مَدينَة أَمْسُوس ، وكانت من نُحاس [2].

وعَمِلَ في أَمْسُوس صُورَةَ امْرأةٍ جالِسَة في حِجْرها صَبِيّ تُرْضِعُه ، وكانت المرأةُ من نِساء مِصْر إذا أَصابَتْها عِلَّة في مَوْضِعٍ مِن جِسْمِها أَتَتْ هذه الصُّورَة ومَسَحت ذلك المَوْضِع من جَسَدِها بمثل ذلك المَوْضِع من الصُّورَة فتَزُول عنها العِلَّة ، وإن قَلَّ لَبَنُها مَسَحت ثَدْيَها بثَدْي الصُّورَة فيَغْزُر لَبَنُها ، وإن قَلَّ حَيْضُها مَسَحت فَرْجَها بفَرْج الصُّورة فيَكْثُر حَيْضُها ، وإن كَثُرَ دَمُها مَسَحت أَسْفَل رُكَبِها بمثل ذلك من الصُّورَة ، وإن عَسُرَت وِلادَةُ امْرأةٍ مَسَحت رَأْس الصَّبي الذي في حِجْر الصُّورَة فَتَضَع حَمْلَها ، وإن أرادَت التَّحَبُّب إلى زَوْجها مَسَحت وَجْهَها وتَقُول افْعَلي كذا وكذا ،

---

a) ساقطة من الأصل .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ :١٧ – ١٨.

[2] نفسه ١٥ :٢٠ – ٢١.

فإذا وَضَعَت الزّانِيَة يَدَها عليها ارْتَعَدَت حتى تَتُوب . ولم تَزَلْ هذه الصُّورَة إلى أن أزالَها الطُّوفان ، وفي كُتُب القِبْط أنّها وُجِدَت بعد الطُّوفان ، وأنَّ أكْثَرَ الناس عَبدُوها [١] .

وعَمِل سُوريد صَنَمًا من أخْلاطٍ كثيرة ، فكان من أَصابَتْه عِلَّة في مَوْضِع مِن جَسَدِه غَسَلَ ذلك المَوْضِع من الصَّنَم بماءٍ وشَرِب الماءَ فإنَّه يَبْرَأ .

وسُوريدُ هذا هو الذي بَنَى الهَرَمَيْن العَظيمَيْن بمصر المنسوبَيْن إلى شَدَّاد بن عاد ، والقِبْطُ تُنْكِر أن تكونَ العادِيَّة دَخَلَت بلادَهم لقُوَّة سِحْرهم [٢] . ولمَّا ماتَ سُوريد دُفِنَ في الهَرَم ومعه كُنوزُه ؛ ويُقالُ إنَّه كان قَبْل الطُّوفان بثلاث مائة سنة ، وإنَّه مَلَكَ مائة سنة وتسعين سنة .

فمَلَكَ بعده ابنه هَـرْجيب ، وكان كأبيه حَكيمًا فاضِلًا في عِلْم السِّحر والطِّلَّسْمات ، فعَمِلَ أعمالًا عَجيبَةً ، واسْتَخْرَج مَعادِنَ كثيرة ، وأَظْهَر عِلْمَ الكيمياء ، وبَنَى أهْرَامَ دَهْشُور[a] وحَمَلَ إليها أَمْوالًا عَظيمَةً وجَواهِرَ نَفيسَة وعَقاقير وسُمُومات ، وجَعَل عليها رُوحانيات تَحْفَظها .

وشَجَّ رَجُلٌ رَجُلًا فأَمَر بقَطْع أصابِعِه ، وسَرَقَ رَجُلٌ مالًا فمَلَكَ المسروق له رِقَّ السّارِق . ولما ماتَ دُفِنَ في الهَرَم ومَعَه جَميعُ أمْوالِه وذَخائِرِه [٣] .

ومَلَكَ بعده ابنه مَنـاوس ، ويُقال مَنْقـاوس ، وكان كأَبيه في الحِكْمَة ، إلَّا أنَّه كان جَبّارًا فاسِقًا سَفّاكًا للدماء ، ينتزع النِّساءَ من أزْواجِهِن ويُبيح ذلك لخَواصِّه .

وعَمِلَ أعمالًا عَجيبَة ، واسْتَخْرَج كُنوزًا ، وبَنَى قُصورًا من ذَهَب وفِضَّة ، وأَجْرَى فيها الأنْهار ، وجَعَلَ حَصْباءَها من أَصْناف الجَواهِر النَّفيسَة ، وسَلَّط رَجُلًا جَبّارًا اسمه قِرْناس على النّاس ، ووَجَّهه لمُحارَبَة الأُمَم الغريبة ، فقَتَلَ منهم خَلائِق [٤] .

ولمَّا ماتَ دُفِنَ في بعض قُصورِه ومعه أَمْوالُه ، وعُمِلَ عليه طِلَّسْم يَحْفَظه ويَمْنَعه من كلِّ طالِب .

/ومَلَكَ بعده ابنه أَفْـروسُ ، وكان كأَبيه في العِلْم والحِكْمَة ، ولمَّا مَلَكَ أظْهَرَ العَدْلَ وأَحْسَنَ ١٣٤:ب
السِّيرَة ، ورَدَّ النِّساءَ اللاتي غُصِبْنَ في أيّام أبيه على أزْواجِهِنّ .

---

a) الأصل : دهشون .

---

[١] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٢٠ - ٢١.

[٢] فيما تقدم ١ : ١١١.

[٣] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٣٤.

[٤] نفسه ١٥ : ٣٤ - ٣٥.

وعَمِلَ قُبَّة[a] طُولها خمسون ذراعًا في عَرْض مائة ذِراع ، ورَكَّب في جَوانِبِها طُيورًا من صُفْر تُصَفِّر بأَصْوات مُطْرِبَة مُخْتَلِفَة لا تَفْتُر ساعَةً . وعَمِلَ في وَسَط مَدينَة أَمْسُوس منارًا عليه رأسُ إنْسان من صُفْر ، كلَّما مَضَى من النَّهار أو اللَّيْل ساعَةٌ صاحَ صَيْحَةً يَعْلَم من سَمِعَها بمُضِيّ ساعَة . وعَمِلَ مَنارًا عليه قُبَّة من صُفْر مُذَهَّب ولَطَّخَها بلطُوخات ، فإذا غَرُبَت الشَّمْسُ [b]في كلِّ ليلة[b] اشْتَعَلَت القُبَّة نورًا تُضيء له مَدينَةُ أَمْسُوس طولَ اللَّيْل حتى يصير مثل النَّهار ، لا تُطْفِئها الرِّياحُ ولا الأَمطارُ ، فإذا طَلَعَ النَّهارُ خُمِدَ ضوءُها .

وأَهْدَى لبعض مُلوك بابِل مَدْهَنًا من زَبَرْجَدَ قُطْرُه خمسة أَشْبارٍ ، ويُقالُ إنَّه وُجِدَ بعد الطُّوفان .

وعَمِلَ في الجَبَل الشَّرْقي صَنَمًا عَظيمًا قائِمًا على قاعِدَة ، وهو مَصْبُوغ مُصَفَّر بالذَّهَب ، ووَجْهُه إلى الشَّمْس يَدُور معها حتى تَغْرُب ، ثم يَدُور لَيْلًا حتى يُحاذي المَشْرِق مع الفَجْر ، فإذا أَشْرَقَت الشَّمْسُ اسْتَقْبَلَها بوَجْهه .

وبَنَى بصَحْراء الغَرْب مُدُنًا كثيرةً ، وأَوْدَعَها كنوزًا عَظيمَةً ، ونَكَحَ ثلاث مائة امْرأة ، ولم يُولَد له وَلَد ، فإنَّ الله تعالى كان قد أَعْقَمَ الأَرْحامَ لما يُريد من إهْلاك العالَم بالطُّوفان ، ووَقَع المَوْتُ في النَّاسِ والبَهائِم[1] .

ولمَّا ماتَ وُضِعَ في ناوُوس بالجَبَل الشَّرْقي ومعه أموالُه ، وطَلَّسْمٌ عليه .

ومَلَكَ بعده أَرْمالينوس ، فعَمِلَ أعْمالًا عَجيبَةً ، وبَنَى مُدُنًا ومَصانِع ، وجَدَّدَ الطِّلَّسْمات . وكان له ابنُ عَمٍّ يسمَّى فِرْعان ، وكان جَبَّارًا ، فأَبْعَدَه وجَعَلَه على جَيْشٍ سارَ به عنه ، فقَهَرَ مُلوكًا وقَتَلَ أُمَمًا عَظيمَةً ، وغَنِمَ أَمْوالًا كثيرة وعادَ ، فشُغِفَت به امْرَأَةٌ من نِساء الملك ، ومازالَت به حتى اجْتَمَع بها وتآلَفَا وأقامَا على ذلك مُدَّة ، فخافَا الملكَ أن يَفْطِنَ بهما ، فعَمِلَت المرأةُ لأَرْمالينوس سُمًّا في شَرابِه هَلَكَ منه[2] .

ومَلَكَ بعده ابنُ عَمِّه فِـرْعان بن مسـور ، فلم يُنازِعه أَحَدٌ لشجاعَتِه وسياسَته ، ولم تَطُل أعوامُه حتى رَأَى فليمون الكاهِن كأنَّ طُيورًا بيضًا قد نَزَلَت من السَّماء وهي تقول : «من أرادَ النَّجاة فليَلْحَق بصاحِب السَّفينَة» .

---

a) النويري : فوارة . (b-b) ساقط من الأصل .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٣٥- ٣٦.

[2] نفسه ١٥: ٣٨- ٣٩.

وكان عندهم عِلْمٌ بحُدوث الطُّوفان من أيّام سُوريد وبنائِه الأهْرام لأَجْل ذلك، واتَّخَذَ النّاسُ سَراديب تحت الأَرْض مُصَفَّحَة بالزُّجاج قد حُبِسَت الرِّياحُ فيها بتَدْبير، وعَمِلَ منها فِرْعان لنَفْسه ولأهْله عِدَّة [1]. فما كَذَّب أن جَمَعَ أهْلَه ووَلَدَه وتلاميذَه، ولَحِق بنُوح ـ عليه السَّلام ـ وآمَن به، وأقامَ معه حتى رَكِبَ في السَّفينَة.

وجاءَ الطُّوفانُ في أيَّام فِرْعان فأَغْرَقَ أرض مصر كلّها، وخَرَّبَ عَمائِرها، وأزالَ تلك المَعالِم كلّها، وأقامَ الماءُ عليها ستة أشهر، ووَصَلَ إلى أنْصاف الهَرَمَيْن العظيمين. وسيأتي خَبَرُ ذلك إن شاءَ الله تعالى عند ذِكْر مِحَن مِصْر من هذا الكتاب.

ويُقالُ إنَّ فِرْعان كان عاتِيًا مُتَجَرِّءًا[a] يَغْصِب الأَمْوالَ والنِّساءَ، وإنَّه كَتَبَ إلى الدَّرْمَسْتيل بن محويل ببابِل يُشير عليه بقَتْل نُوح ـ عليه السَّلام ـ وأنَّه اسْتَخَفَّ بالكَهَنة والهَياكِل. ففَسَدَت في أيّامِه أَرْضُ مصر، ونَقَص الزَّرْعُ، وأَجْدَبَت النَّواحي، لانْهماكِه في ضَلالِه وظُلْمه، وإقْبالِه على لَهْوه ولَعِبِه. وأنَّ النّاسَ اقْتَدَوا به ففَشَا ظُلْمُ بعضهم لبَعْض. وأنَّه لمَّا أَقْبَلَ الطُّوفانُ وسَحَّت الأَمْطارُ، قامَ سَكْرانَ يُريد الهَرَب إلى الهَرَم، فتخَلْخَلَت الأَرْضُ به، وطَلَبَ الأبوابَ فخانَتْه رِجْلاه، وسَقَطَ يخور حتى هَلَكَ، وهَلَكَ مَنْ دَخَلَ الأَسْرابَ بالغَمّ [2]، والله تعالى أَعْلَم.

---

a) بولاق: متجبرًا.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٣٩-٤٠، وفيه أنّه أوّل فرعون تسمى بهذا الاسم ومن سُمّيَ بعده سمّيَ تشبُّهًا به (نفسه ١٥: ٣٨)؛ وقارن المسعودي: مروج الذهب ٢: ٩٥ وفيه: «سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير فِرْعون، فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصَّل في لغتهم؛ فيمكن – والله أعلم – أن هذا الاسم كان سمةً لملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيَّرت كتغيُّر الفهلوية – وهي الفارسية الأولى – إلى الفارسية الثانية ...»؛ وانظر أيضًا فيما يلي ٣٨٢.

واستخدم لقب «فرعون» في المصادر العربية للتدليل على ملوك مصر القدماء في مقابل لقب «كِسْرَى» لملوك فارس و«قَيْصَر» لملوك بيزنطة، وعرف العرب هذا اللقب من الاستخدام القرآني له في قصة مُوسى (راجع، Vajda, G., *EI*[2] art. *Firʿawn* II, pp. 938-39). أما أصل كلمة فرعون كما دلّ عليها كشف اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) فهو «پرعا» per-ʿâ بمعنى «البيت الكبير» والذي كان يعني في الأصل القصر كمؤسسة، ثم أصبح يُطْلق على شخص الملك اعتبارًا من الدولة الحديثة (Vernus, P., & Yoyotte, J., *Dictionnaire des Pharaons*, Editions Noesis 1996, pp. 116-20).

[2] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٣٩.

ذِكرُ مَدينَة مَنْف ومُلوكِهـا

هذه المَدينَةُ كانت في غَرْبي النِّيل على مَسافَة اثني عشر ميلًا من مَدينَة فُسْطاط مصر، وهي أوَّل مَدينَة عَمُرت بأرض مصر بعد الطُّوفان، وصارَت دارَ المملكة بعد مَدينَة أَمْسُوس التي تقدَّم ذكرها، إلى أن أَخْرَبَها بُخْت نَصَّر[1].

وقد ذَكَـرَها الله تعالى في كتابِه العَزيز بقَوْله تعالى: ﴿وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّن أَهْلِهَا﴾ [الآية ١٥ سورة القصص]، قال الإمامُ أبو جَعْفَر محمد بن جَرير الطَّبَري في كتاب «جامِع البَيَان في تَفْسير القُرْآن»: عن السُّدِّيّ أنَّه قال: كان مُوسَىٰ - عليه السَّلام - حين كَبُرَ يركب كمَراكِب فِرْعَون ويَلْبَس مثل ما يَلْبس، وكان إنَّما يُدْعَى [مُوسَىٰ][a] بن فِرْعَوْن. ثم إنَّ فِرْعَوْنَ رَكِبَ مَرْكبًا وليس عنده مُوسَىٰ، فلمَّا جاءَ مُوسَىٰ - عليه السَّلام - قيل له إنَّ فِرْعَوْنَ قد رَكِبَ، فرَكِبَ في أثَرِه، فأدْرَكه المَقِيلُ في أرضٍ يُقالُ لها مَنْف، فدَخَلَها نصف النَّهار وقد تَغَلَّقَت أسْواقُها وليس في طُرُقِها أَحَدٌ، وهي التي يقول الله جَلَّ ذكره: ﴿وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّن أَهْلِهَا﴾[2].

وقال ابنُ عبد الحَكَم، عن عبد الله بن لَهيعَة: أَوَّلُ من سَكَنَ بمصر بعد أن أَغْرَقَ[b] الله قَوْمَ نُوح - عليه السَّلام - بَيْصَر بن حام بن نُوح فسَكَنَ مَنْف - وهي أوَّل مَدينَة عُمِّرَت بعد الغَرَق[c] - هو ووَلَده، وهم ثلاثون نَفْسًا، منهم أربعة أولاد قد بَلَغُوا وتَزَوَّجوا، وهم: مصر وفارِق وماج وياج بنو بَيْصَر، وكان مصرُ أكبرهم، فبذلك سُمِّيَت مافه (ومافه بلسان القِبْط: ثلاثون). وكانت إقامَتُهم قبل ذلك بسَفْح المُقَطَّم، ونَقَرُوا هناك مَنازِل كثيرة[3].

---

a) زيادة من الطبري. b) فتوح مصر: غَرَّق. c) بولاق: الطوفان.

---

[1] كانت مدينة منف تقع في أوَّل الصعيد غربي النيل، وهي تعادل الآن قرية ميت رَهينة التابعة للبدرشين في سفح هضبة سقَّارَة، (راجع، البكري: جغرافية مصر ٦٩- ٧٠؛ مجهول المؤلف: الاستبصار ٨٣؛ ياقوت: معجم البلدان ٥:٢١٣- ٢١٤؛ ابن دقماق: الانتصار ٤: ٩٢؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣١٦؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٦:٢- ٤٧؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٤٢٢؛ Zivie, C,. M., *Lexikon des Agyptologie* art. *Memphis* IV, pp. 23-44; Haarmann, U., *EI*² art. *Manf* VI, pp. 395-99).

[2] الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن (المطبعة الميمنية ١٩٠٣)، ٢٠: ٢٨.

[3] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٩؛ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٨٥ وأخبار الزمان ١٥٣.

وقال ابنُ خُرْداذَبَه في كتاب «المَسالِك والمَمالِك» : ومَدينَةُ مَنْف هي مَدينَة فِرْعَوْن التي كان ينزلها ، واتَّخَذَ لها/سبعين بابًا من حَديد ، وجَعَلَ حيطانَ المَدينَة من الحَديد والصُّفْر . وفيها كانت ١٣٥ظ الأنهارُ تجري من تحت سَريرِه ، وهي أربعة[1] .

ويُرْوَى أنَّ مَدينَة مَنْف كانت قَناطِرَ وجُسورًا بتَدْبيرِ وتَقْديرِ ، حتى إنَّ الماءَ ليجري تحت منازِلها وأَفْنِيَتِها فيَحْبسونه كيف شاءُوا ويُرْسِلُونَه كيف شاءُوا ، فذلك قولُه تعالى حكايةً عن فِرْعَوْن ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْـهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف] .

وكان بها كثيرٌ من الأَصْنام لم تَزَل قائمةً إلى أن سَقَطَت فيما سَقَطَ من الأَصْنام في السَّاعة التي أشارَ فيها النَّبيُّ ﷺ إلى الأَصْنام يوم فَتْح مَكَّة ، بقَضيبٍ في يَدِه ، وهو يطوفُ حَوْلَها ويقول : «جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ ، إنَّ الباطِلَ كان زَهُوقًا» ، فما أشارَ إلى صَنَمٍ منها في وَجْهِه إلَّا وَقَعَ لقَفاه ، ولا أشارَ لقَفاه إلَّا وَقَعَ لوَجْهِه ، حتى ما بَقِيَ منها صَنَمٌ إلَّا وَقَعَ .

وفي تلك السَّاعَة سَقَطَت أَصْنامُ الأرض من الشَّرْق إلى الغَرْب ، وبقي أصحابُها مُتَعَجِّبين لا يَعْلَمون لها سَبَبًا أَوْجَب سُقوطَها ، وبَقِيَت أَصْنامُ مَدينَة مَنْف ساقِطَة من ساعته ، وفيها الصَّنَمان الكبيران المُجاوِران للبيت الأَخْضَر الذي كان به صَنَمُ العَزيز ، وكان من ذَهَب وعَيْناه ياقُوتتان لا يُقْدَر على مثلهما . ثم قُطِعَت الأَصْنامُ والبيتُ الأَخْضَر من بعد سنة ستّ مائة .

ويُقالُ كانت مَدينَة[a] مَنْفُ ثلاثين ميلًا طولًا في عشرين ميلًا عرضًا ، وإنَّ بعضَ بني يافِث بن نُوح عَمِلَ في أيَّام مِصْرايِم آلَةً تَحْمِلُ الماءَ حتى تُلْقيه على أَعْلَى سُور مَدينَة مَنْف . وذلك أنَّه جَعَلَها دَرَجًا مُجَوَّفَةً كلَّما وَصَلَ الماءُ إلى دَرَجَة امتلأَت الأُخْرى ، حتى يَصْعَد الماءُ إلى أعلى السُّور ، ثم يَنْحَطّ فيَدْخَل جميع بُيوت المَدينَة ، ثم يَخْرُج من مَوْضِع إلى خارج المَدينَة .

وكان بمَنْف بَيْتٌ من الصَّوَّان الأخضر الماتِع الذي لا يَعْمَل فيه الحَديد قِطْعَةً واحدةً ، وفيه صُوَرٌ مَنْقوشَة وكِتابَةٌ ، وعلى وَجْه بابه صُوَر حَيَّات ناشِرة صُدُورها لو اجتمع أُلوفٌ من النَّاس على تَحْريكه ما قَدَرُوا لعِظَمِه وثِقَلِه . والصَّابِئَة تقول إنَّه بَيْتُ القَمَر ؛ وكان هذا البيتُ من جُمْلَة سبعة بُيوت كانت بمَنْف للكَواكِب السَّبْعَة .

---

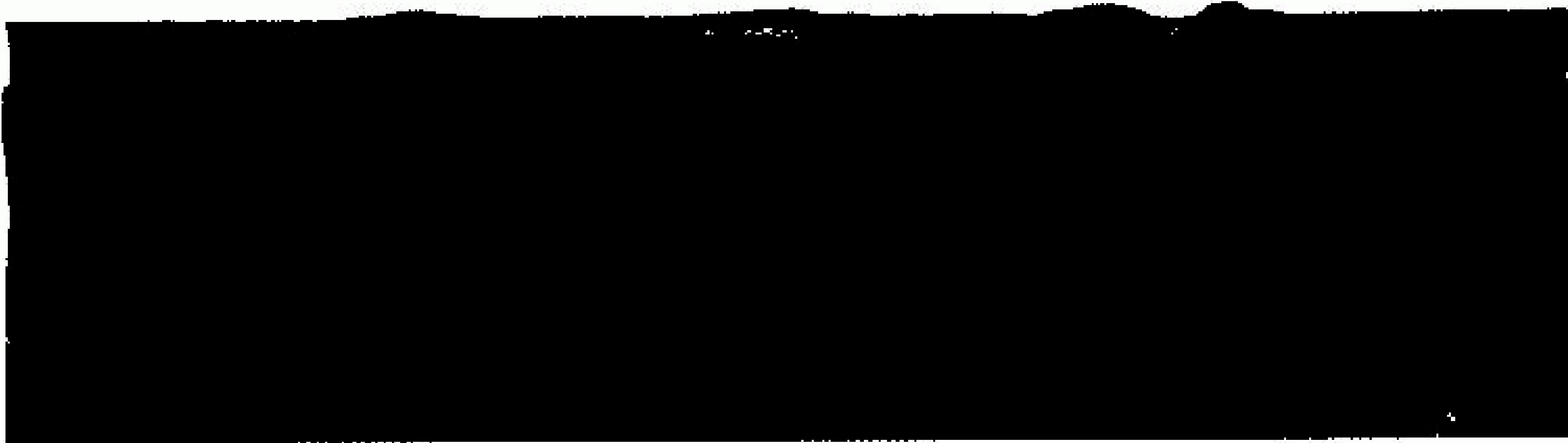
a) ساقطة من بولاق .

---

[1] ابن خرداذبه : المسالك والممالك ١٦١؛ وقارن ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٦، وأورد المقريزي هذا النص فيما تقدم ١ : ٢٣، ٧٠.

وهذا البَيْتُ الأَخْضُر هَدَمَه الأميرُ سَيْفُ الدِّين شَيْخُو[a] العُمَري بعد سنة خمسين وسبع مائة، ومنه شيءٌ في خانِقاهِه وجامِعِه الذي بخُطِّ الصَّليبَة خارِج القاهِرَة [1].





لوحة ١ ـ المَدْخَل الرئيس لجامع شَيْخو وبأَسْكُفَّته الحجر الفرعوني المستخدم

---

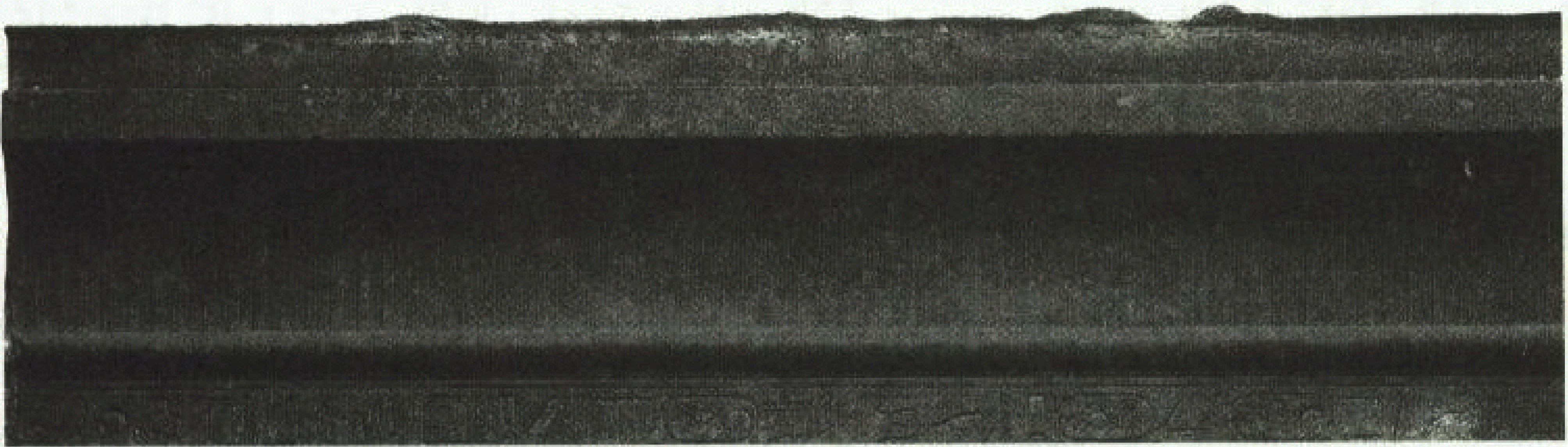
a) بولاق: شيخون.

---

[1] انظر فيما يلي ٢: ٣١٣، ٤٢١ واللوحة رقم ١

وهذا البَيْتُ الأَخْضُر هَدَمَه الأميرُ سَيْفُ الدِّين شَيْخُو[a] العُمَري بعد سنة خمسين وسبع مائة، ومنه شيءٌ في خانِقاهِه وجامِعِه الذي بخُطِّ الصَّلِيبَة خارِجَ القاهِرَة[1].





لوحة ١ ـ المَدْخَل الرئيس لجامع شَيْخو وبأسْكُفَّته الحجر الفرعوني المستخدم

---

a) بولاق: شيخون.

---

[1] انظر فيما يلي ٢: ٣١٣، ٤٢١ واللوحة رقم ١

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الرَّحْمَٰن القَيْسي في كِتابِه «تُحْفَة الأَلْباب»: ورأيتُ في قَصْر فِرْعَون مُوسىٰ بيتًا كبيرًا من صَخْرَة واحِدَة، أخضر كالآس، فيه صُورَةُ الأفْلاك والنُّجُوم، لم نَرَ عَجَبًا أَحْسَنَ منه [1].

وقال أبو الصَّلْت أُمَيَّة بن عبد العَزيز الأَنْدَلُسي: وكانت دارُ المُلْك بمصر في قَديم الدَّهْر مَدينَة مَنْف، وهي في غَربيّ النِّيل على مَسافَة اثني عَشْر ميلًا من الفُسْطاط. فلمَّا بَنَى الإسْكَنْدَرُ مَدينَة الإسْكَنْدَرية رَغِبَ الناسُ في عِمارَتها، فكانت دارَ العِلْم ومَقَرَّ الحِكْمَة إلى أن فَتَحها المسلمون في أيَّام عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ واخْتَطَّ عَمْرو بن العَاص مَدينَتَه المعروفة بالفُسْطاط، فانْتَشَرَ أهلُ مصر وغَيْرهم من العَرَب والعَجَم إلى سُكْناها، فصارَت قاعِدَةَ ديارِ مصر ومَرْكَزَها إلى وَقْتِنا هذا [2].

وقال الأُستاذُ إبراهيمُ بن وَصيف شَاه الكاتِب، وقد ذَكَرَ أخبارَ مَدينَة أَمُسُوس وخَراب عَمائِر أرْض مصر بطُوفان نُوح ـ عليه السَّلام ـ: ولمَّا نَزَلَ الماءُ كان أوَّلَ من مَلَك مصر [3] بعد الطُّوفان بَيْصَرُ بن حام بن نُوح، وكان معه ثلاثون من الجَبَابِرَة من أَهْله ووَلَدِه، فاجْتَمَعُوا وبَنَوا مَدينَة مَنْف ونَزَلُوا بها. وكان فليمون الكاهِن الذي تقدَّم ذكره في خَبَر مَدينَة أَمُسُوس من جُمْلَتهم، وكان قد زَوَّجَ ابنته بِبَيْصَر المذكور، وجاءَت معه إلى مصر،

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ٧٨.

[2] أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٩.

[3] لا نعرف على وجه الدقة المصادر الحقيقية التي استمدّ منها المؤلّفون العرب المواد التي اعتمدوا عليها في ذكر أسماء الملوك المصريين القدماء – فيما عدا أسماء ملوك الأسرات التسعة الأخيرة (انظر فيما يلي ٣٨٩–٣٩١) – وجميع هذه الأسماء محرّفة ولا تتّفق بالطبع مع ما ورد على الآثار وكشفت عنه الدراسات الحديثة. ووصلت هذه الأسماء إلى المؤلفين العرب عن طريق مؤلّفات وسيطة، سواء مؤلّفات يونانية روت التاريخ الأسطوري لمصر، أو ترجمات سريانية وقبطية لكتب يونانية مليئة بأخبار العجائب والمعجزات. والمصدر الرئيسي لهذه المعلومات – كما وردت عند المؤرّخين المتأخّرين – هو كتاب «أخبار مصر وعجائبها» لإبراهيم بن وصيف شاه (انظر فيما تقدم ٣٥٠). وقد حاول العالم المصري أحمد كمال باشا تصويب هذه الأسماء في مقال قديم Ahmad Kamal, «Notes sur la rectification des moms arabes des antiens rois d'Ègypte», *BIE* 4° série-n°4 (1903), pp. 89-424؛ وعن المصادر المختلفة لهذه المعلومات انظر مقدمة جاستون ڤييت لكتاب Wiet, G., *L'Égypte de Murtadi fils de Gaphiph*- Introduction, traduction et notes, Paris 1953, pp. 1-47؛ ودراسة مايكل كوك Cook, M., «Pharaonic History in Medieaval Egypt», *SI* 57 (1983), pp. 67-103.

ووَلَدَت منه وَلَدًا سمَّاه مِصْرايم [١].

فلمَّا ماتَ بَيْصَر دُفِنَ في مَوْضِع دَيْر أبي هِرْميس، ويُقال دَيْر أبي هِرْميس غَرْبي الأهْرام [٢]، ويُقـالُ إنَّها أوَّل مَقْبَرَة دُفِنَ بها بأرْض مصر. وكان موتُه بعد ألف وثمان مائة وستّ سنين مَضَت من وَقْت الطُّوفان [٣].

وقال غيرُه: ثم بَنَى مِصْرايم مَدينَةً سَمَّاها باسْمه، فجاءَه رَجُلٌ من بني يافِث فعَمِلَ له سُورًا قائِمًا، وصَنَعَ له دَرَجًا، وأجرى الماءَ إلى أن بقي يَصْعَد إلى أعْلَى السُّور بحِكْمَة أتْقَنَها، ثم يَنْزِل ذلك الماء من أعْلى السُّور إلى المَدينَة فيَنْتَفِع به فيها بغير مشقَّة ولا كُلْفَة، ثم يَخْرُج من ناحيةٍ أخرى؛ وكَتَبَ على السُّور: هذه صَنْعَةُ من يَمُوت لا صَنْعَة من يَدُوم.

ومَلَكَ بعد بَيْصر ابنُه مِصْرايم بن بَيْصر، فأظْهَرَه فليمون الكاهِنِ على كُنُوز مصر وعَلَّمَه قِراءَة خَطِّهم، وأطْلَعَه على حِكَمِهم. وبَنَى مِصْرايم المُدُن، وشَقَّ الأنهار، وغَرَسَ الأشْجار، وبَنَى مَدينَةً عظيمةً سَمَّاها دَرْسان، وهي العَريش، ونَكَحَ امرأةً من أولاد الكَهَنَة فوَلَدَت له وَلَدًا[a] سمَّاه قُفْطيم، وبَنَى مَدينَة رَقُودة مكان الإسْكَنْدَرية [٤].

ولمَّا ماتَ مِصْرايم جُعِلَ له سَرَبٌ طوله مائة وخمسون ذراعًا وبُسِطَ بالمرمر الأبيض، وعُمِلَ في وَسَطِه مَجْلِسٌ مُصَفَّح بصَفائِح الذَّهَب، وله أربعة أبواب على كلِّ بابٍ تِمْثال من ذَهَب على رأسه تاج من ذَهَب، وهو جالِس على كُرْسي من ذهب قوائِمه من زَبَرْجَد، ونَقَشَ في صَدْر كلِّ تِمْثال آيات مانِعَة. وحَبَسُوا جَسَدَه في جَسَدٍ من زَبَرْجَد أخضر، شِبْه تابُوت، طوله أربعون ١ ذِراعًا، دُفِنَ فيه ومعه جميعُ ما كان في خَزائِنِه من ذَهَب وفِضَّة وجَوْهَر/، منها ألف قطعة من زَبَرْجَد مَخْروط، وألف تِمْثال من جَوْهَر نَفيس، وألف بَرْنِيَّة من ذَهَب مملوءَةً دُرًّا نَفيسًا، وألف

a) بولاق: ابنًا.

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٣، ٤٤.

[٢] دير أبي هرميس هو الموضع المعروف الآن بسقّارة (انظر فيما تقدم ٣١٧).

[٣] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨؛ وفيما تقدم ٥٤.

[٤] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٥-٤٦، وفيما يلي ٥٧٣.

آنِيَة من ذَهَب، وعِدَّة سَبائك من فضَّة [١]. وعَمِلَ عليه طِلَّسْم مانِع من الوُصول إليه، وزَبَرُوا عليه:

«ماتَ مِصْرايِم بن بَيْصَر بن حام بن نُوح بعد ألفين وستّ مائة عام ـ وقيل بعد سبع مائة سنة ـ مَضَت من الطُّوفان، ولم يَعْبُد الأَصْنام، فصارَ إلى جَنَّة لا هِرَم فيها ولا سِقَم، ولا هَمّ ولا حَزَن. وكُتِبَ اسْمُ الله الأَعْظَم عليه حتى لا يصل إليه أَحَدٌ إلَّا ملكٌ يأتي في آخر الزمان، يَدين بدين الملك الدَّيَّان، ويُؤْمن بالبَعْث والفُرْقان، والنَّبِيّ الدَّاعي إلى الإيمان في آخِر الزمان».

وسَقَّفُوا فوق السَّرَب بالصُّخُور العِظام، وهالوا عليه الرِّمال حتى سَدُّوا بين جبلين مُتقابلين.

ويُقالُ كان مِصْرُ بن بَيْصَر مع جَدِّ أبيه نُوح ـ عليه السَّلام ـ في السَّفينَة، فدَعا له أن يُسْكِنَه الله الأرضَ الطَّيِّبَة المبارَكة التي هي أمّ البلاد وغَوْث العِباد ونَهْرها أفضَل الأنهار، ويَجْعَل له فيها أَفْضَل البَرَكات، ويُسَخِّر له الأَرْضَ ولوَلَدِه ويَذَلِّلَها ويُقَوِّيهم عليها، فسأَلَه عنها فوَصَفَها له وأَخْبَرَه بها [٢].

وكان بَيْصَرُ بن حام قد كَبُرَ وضَعُفَ، فساقَه وَلَدُه مِصْرايِم وجميع إخوته إلى مصر فنَزَلُوها، وبذلك سُمِّيَت مِصْر [٣].

ومَلَكَ بعده ابنه قُبْطيم، وهو أَوَّل من عَمِلَ العَجائِب بعد الطُّوفان، فاسْتَخْرَجَ المَعادِن، وشَقَّ الأنهار، ونَصَبَ الأَعْلام والمنارات، وعَمِلَ الطِّلَّسْمات [٤].

ويُقالُ إنَّ مِصْرايِم لمَّا ماتَ اخْتَلَفَ أولادُه من بعده، وكان قِبْطُ [a] أصغرهم، فاجْتَمَعُوا عند الأَهْرام ورَضَوْا بأَنَّ من غَلَبَ منهم أخاه أَخَذَ المُلْك. فتحارَبَ أُشْموم وأَتْريب فغلب أَتْريب، ثم تَحارَب صَا هو وأُشْموم فغلب أُشْموم، ثم تحارَب قِبْط [a] وصَا فغلب قِبط [a]. فَأَخَذَ قِبْطُ [a] المُلْك بعد أبيه، وأطاعَه إخْوَتُه، وسَكَنَ مَدينَة مَنْف دارَ مملكة أبيه، وتَزَوَّج امرأةً وَلَدَت له

---

a) بولاق: قفط.

---

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٤-٤٥.

[٢] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨.

[٣] نفسه ٩.

[٤] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٦.

أربعة أولاد هم: قُفْطَرِيم وأُشْمُون وأَتْرِيب وصَا، فتناسَلوا وكَثُروا وعَمَّروا البلاد.

ثم إنَّه قَسَمَ الأَرْضَ بين أولاده الأربعة عند وَفاته: فجَعَلَ لوَلَده قُفْطَرِيم من أُسْوان إلى قِفْط، وجَعَلَ لولده أُشْمون من مَدينَة قِفْط إلى مَدينَة مَنْف، وجَعَلَ لولده أَتْرِيب الحَوْف[a] كلّه، وجَعَلَ لوَلَده صَا من ناحية البُحَيْرَة إلى الغَرْب. وجَعَلَ أَمْرَهُم إلى قُفْطرِيم وأَمَرَ كلَّ واحِدٍ منهم أن يَبْني لنفسه مَدينَة في حَيِّزه[١].

وجَعَلَ لنفسه سَرَبًا تحت الجَبَل الكبير وصَفَّحه بالمَرْمَر، وعَمِلَ فيه منافِذَ للريح، فصارَت تَنْخَرِق فيه بدَوِيٍّ عظيم، وأقامَ في السَّرَب رؤوسًا من نُحاس مُطْلِيَة تُضيء كالسُّرُج ليلًا ونهارًا.

ولمَّا ماتَ وُضِعَ جَسَدُه بهذا السَّرَب في جُرْن من ذَهَب، بعدما أُلْبِس ثِيابًا مَنْسُوجة بالدرّ والمَرْجان، وأُقيم عند رأسه عَمُود من مَرْمَر عليه جَوْهَرَة تُضيء، وعُمِلَ حول الجُرْن تَوابيت من حجارة مُلَوَّنَة حَوْلَها مَصاحِف الحِكْمَة، وعملت[b] عنده أموالُه وكُنوزُه وذَخائِرُه، وزَبَرُوا عليه كما زَبَرُوا على أبيه. وانتقل كلٌّ من أولاده إلى حَيِّزه، فانتقل صَا بأهله وأولاده وسَكَنَ مَدينَة صَا الآتي ذِكْرُها[٢].

ويُقالُ كانت البَلْبَلَة في أيام قِبْط[c]، وأنَّه أَلْهَمَه الله تعالى اللُّغَة القِبْطيَّة، وأنَّه أقامَ مَلِكًا أربع مائة وثمانين سنة وماتَ، فدُفِنَ بأرض الواحات.

ومَلَكَ بعده أَخُوه أُشْمُن بن مصر[٣]. وقيل بل أَشْكَن في حياته ابنه قُفْطرِيم في حَيِّزه، فشَرَعَ في العمارة، وكان جَبَّارًا عَظيمَ الخِلْقَة، فأثارَ من المَعادِن ما لم يُثِرْه أَحَدٌ قبْلَه، وبَنَى مَدينَة دَنْدَرَة، وعَمِلَ في جبل قِفْط منارًا عاليًا يُرَى منه البحر الشَّرْقي، ووَجَد هناك معادِن من الزِّئْبَق، وعَمِلَ البِرْكَة التي سمَّاها صَيَّادَة الطَّيْر[٤].

وأقام مَلِكًا أربع مائة وثمانين سنةً ومات[٥]. وهَلَكَ عادُ بالرِّيح في آخر أيَّامه؛ وفي أيَّامه أثارَت الشَّياطينُ الأَصْنامَ التي أَغْرَقَها الطُّوفان فعُبِدَت.

---

a) بولاق: الجرف. b) بولاق: وضعت. c) بولاق: قفط.

---

[١] انظر فيما تقدم ٤٩ وفيما يلي ٥١٤.

[٢] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٦ وفيما يلي ٥١٤.

[٣] نفسه ١٥: ٤٦.

[٤] فيما يلي ٦٣٣.

[٥] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٦-٤٨ بتصرف.

وذَكَرَ ابنُ عَبْد الحكَم : بَعْد مصر بن بَيْصَر قُفْط بن مصر ، وأنَّ الذي مَلَكَ بعد قُفْط أخوه أُشْمُن ، ثم أَتْريب بن مِصْر ، ثم صا بن مِصْر ، ثم ابنه تِدارِس بن صَا ، ثم ابنه ماليق بن تِدارس ، ثم ابنه خَرْبِتَا[a] بن ماليق ، ثم ابنه كلكن[b] بن خَرْبِتَا[a] [1].

ويُقالُ إنَّ أُشْمُن لمَّا مَلَكَ بعد أخيه ، سارَ إليه شَدَّاد بن هَدَّاد بن شَدَّاد بن عاد وملك أرْض مصر وهَدَمَ مَبانيها ، وبَنَى أهْرامًا [2]، ومَضَى إلى مَوْضِع الإسْكَنْدَرية فبَنَاها ، وأقامَ دَهْرًا ثم خَرَجَت العادِيَةُ من أرْض مصر ، فعادَ أُشْمُن إلى مُلْكه ، وأنَّه مَلَكَ بعده أخوه صَا ، ثم مَلَكَ بعد صَا ابنه تدارس[c]، وفي أيامه بَعَثَ الله صالحًا إلى ثَمُود [3].

وماتَ ، فمَلَكَ ابنه ماليق البودسير ، وكان من الجَبَابِرَة العِظام ، عَمِلَ أَعْمالًا عظيمة ، منها مَنَار فَوْقَه قُبَّة لها أربعة أرْكان ، في كلِّ رُكْنٍ كُوَّة يخرج منها في يومٍ مَعْلوم عندهم من كلِّ سنة دُخَانٌ ملتف في ألْوان شَتَّى ، يستدلُّون بكلِّ لَوْنٍ على شيء : فإن خَرَجَ الدُّخَانُ أخضر دَلَّ على العِمارَة والخِصْب في تلك السَّنَة ، وإن خَرَجَ أبيض دَلَّ على الجَدْب وقِلَّة الخَيْر ، وإن خَرَجَ أَحْمَرَ دَلَّ على الحُروب وقَصْد الأَعْداء ، وإن خَرَجَ أصفر دَلَّ على النِّيران وآفات تَحْدُث مِن الملك ، وإن خَرَجَ أسود دَلَّ على الأَمْطار والسُّيول وفَساد بعض الأرض ، وإن خَرَجَ مُخْتَلِطًا دَلَّ على كثرة الظُّلْم وبَغْي الناس بعضهم على بعض .

وعَمِلَ شجرةً من نُحاسٍ تَجْذِب سَائِر الوُحُوش حتى تَصل إليها ، فلا تَسْتَطِيع الحَرَكَة إلى أن تُؤْخذ ، فشَبِعَ أهلُ مصر من لُحوم الوُحُوش .

١٣٧ وٱتَّفَق أنَّ غُرابًا نَقَرَ عَيْنَ صَبِيٍّ / من أولاد الكَهَنَة فقَلَعَها ، فعَمِلَ شَجَرَةً من نُحاس عليها غُرابٌ مَنْشورِ الجَناحَيْن ، وفي مِنْقارِه حَيَّة ، وعلى ظَهْره أَسْطُر ، فكانت الغِرْبانُ تَقَعُ على هذه الشَّجَرَة ولا تَبْرَح حتى تَمُوت .

وكانت الرِّمالُ قد كَثُرَت في أيَّامه على أرض مصر من ناحِيَة الغَرْب ، فعَمِل صَنَمًا من صَوَّانٍ أسود على قاعِدَةٍ منه ، وفوق كَتِفِه قُفَّة فيها مسحاة ، ونَقَشَ على وَجْهه وصَدْره وذِراعَيْه كِتابَةً ،

---

a) بولاق : خرابا. b) كلكي. c) بولاق : تدراس.

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٩-١٠.

[2] قارن مع ابن عبد الحكم : فتوح ٤٣.

[3] انظر فيما يلي ٣٧٩.

وجَعَلَ وَجْهَه إلى الغَرْب، فانْكَشَفَت الرِّمالُ، ورَجَعَت بها الرِّياحُ إلى وَرَائِها وصارَت تلالًا عالية [1].

وبَعَثَ بهِرْمِس الحَكيم إلى جَبَل القَمَر الذي يخرج منه النِّيل، فعمل تماثيل النُّحاس، وعَدَل جانِبَي النِّيل ـ وكان قبله يَفيضُ في مواضِع ويتقطَّع في مواضع ـ وسارَ مُغَرِّبًا لينظر ما وَرَاءَ ذلك، فوَقَعَ على أرضٍ واسِعَةٍ يَنْخَرِق فيها الماءُ والأشجارُ، فبَنَى فيها متنزَّهات وأقامَ بها وحَوَّل إليها عِدَّة من أهله، فعَمَّروا تلك النَّواحي حتى صارَت أرْضُ الغَرْب كلُّها مَعْمورة. ثم خالَطَتْهُم البَرْبَرُ، وجَرَت بينهم حُروبٌ كثير أَفْنَتْهُم، فخَرِبَت تلك البِلاد ولم يَبْقَ منها إلَّا الواحات [2].

ثم إنَّ البودسير احْتَجَب عن الناس، وصارَ يُبْرِز وَجْهَه من مَقْعَدِه في النَّادر، وربَّما خاطَبَهُم من حيث لا يَرَوْنَه [3].

وذَكَرَ أبو الحَسَنِ المَسْعودي في كِتاب «أخْبار الزَّمان» أنَّ أوَّلَ من تَحَقَّق بالكَهانَة وغَيَّرَ الدين وعَبَدَ الكَواكِب: البودسير. وتَزْعُم القِبْطُ أنَّ الكَواكِبَ كانت تُخاطِبُه، وأنَّ له عَجائِبَ كثيرة، منها أنَّه اسْتَتَرَ عن الناس عِدَّةَ سنين من مُلْكِه، وكان يَظْهَر لهم وَقْتًا بعد وَقْت مَرَّةً في كلِّ سنة، وهو وَقْت[a] حُلول الشَّمْس بُرْج الحَمَل، ويَدْخُل الناسُ إليه فيُخاطِبهم وهم يَرَوْنَه، فيَأْمُرُهم ويَنْهاهُم ويُحذِّرهم مُخالَفَةَ أَمْره، [b]وكان يجلس في بعض أوقات السَّنَة فيخاطبهم من حيث لا يرونه[b] ثم بُنِيَت له قُبَّةٌ من فضة مَطْلية بذَهَب، فصارَ يجلس في أعْلاها وله وَجْهٌ عظيمٌ، فيُخاطِبُهم. [b]وكان يجلس في السَّحاب بوجه آخر في صورة إنسان فأقام كذلك مُدَّةً ثم غاب عنهم فلم يروه، وأقاموا برهةً بغير ملك، ثم رأوا صورته في هيكل الشَّمْس عند حلولها برج الحَمَلَ فأمَرَهم أن يُقلِّدوا الملك عديم بن قُفطيم وأعلمهم بأنَّه لا يعود إليهم ففعلوا ذلك[b].

فلمَّا ماتَ مَلَكَ بعده ابنه أَرْقَليمون، وكان كاهِنًا ساحِرًا، فعَمِلَ أعْمالًا عجيبة[c]، منها أنَّه كان يَجْلِس في السَّحاب فيرونه في صورةِ إنْسانٍ عظيمٍ، وأقامَ مُدَّةً على ذلك.

---

a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: عظيمة

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٩– ٥١.
[2] نفسه ١٥: ٤٩.
[3] نفسه ١٥: ٥١.

ثم إنَّه غابَ عن أهْل مصر وصارُوا بغير مَلِك ، ثم رَأَوْا صُورَةً بحِذَاء جَرْم الشَّمْسِ عند حُلولِها أوَّل بُرْج الحَمَل ، فأَمَرَهم أن يُقَلِّدوا الملك عَديم بن قُفْطيم ، وأَعْلَمَهُم أنَّه ما بقي يعود إليهم [1] .

فوَلَّوْا عليهم (aمُلْك مصر a)عَديم بن قُفْطيم ، وكان جَبَّارًا عظيمًا ، وهو أوَّل من صَلَب بمصر ، وذلك أنَّ امرأةً ورَجُلًا زَنَيَا فصَلَبَهُما ، وجَعَلَ ظَهْرَ كلٍّ منهما لظَهْر الآخر [2] .

وبَنَى أرْبَعَ مَدائِن أَوْدَعَها كُنوزًا عظيمةً ، وجَعَلَ عليها طِلَّمْسات وعِدَّة عَجائِب ، وعَمِلَ مَنارًا على البحر الشَّرْقي وعليه صَنَمٌ إلى المَشْرِق حتى لا يَغْلِب البحرُ على أرْض مصر ، وعَمِلَ قَنْطَرَةً على النِّيل في أرض النُّوبَة [3] . وأقامَ مَلِكًا مائة وأربعين سنة ، وماتَ وعمره سبع مائة وثلاثون سنة .

ومَلَكَ بعده ابنُه شَدَّات بن عَديم ـ وهو الذي تُسَمِّيه العامَّة شَدَّاد بن عاد ـ وكان عالِمًا كاهِنًا ساحِرًا ، ويُقالُ إنَّه هو الذي بَنَى الأهْرام الدَّهْشوريَّة ، وعَمِلَ أعمالًا عظيمةً وطِلَّسْمات عَجيبة ، وبَنَى في الجانِب الشرقي مَدائِن ، وفي أيَّامِه بُنِيَت قُوص ، وغَزَا الحَبَشَةَ وسَباهُم ، وأقامَ مَلِكًا تسعين سنة [4] .

وهو أوَّلُ من اتَّخذَ الجَوارِح وصادَ بها ، ووَلَّد الكِلابَ السُّلوقِيَّة ، وعَمِلَ في بِرْكَة شيوط تَماسيح مَنْصوبَة تَنْصَبُّ إليها التَّماسيحُ من النِّيل انصبابًا فيقتلها ويُعَلِّق جُلودَها في السُّفُن [5] . واتَّفَقَ أنَّه طَرَدَ صَيْدًا فكَبَا به فَرَسُه في وَهْدَةٍ فَهَلَكَ . وكان قد غَضِبَ على بعض خَدَمِه فرَماه من جَبَلٍ عالٍ فتَقَطَّع ، فرأَى أنَّه يُصيبه مثْل ذلك .

ولمَّا هَلَكَ وُضِعَ في ناووس ودُفِنَت معه أمْوالُه ، وعُمِلَ عليه طِلَّسْم يمنعه ممَّن يقصده ، وكُتِبَ عليه : «لا يَنْبَغي لذي القُدْرَة أن يَخْرُج عن الواجِب ، ولا يَفْعَل ما لا يَجُوزُ له فِعْلُه ، فيُجازَى بعمله ، هذا ناوُوس ابن شَدَّات بن عَديم ، فَعَلَ ما لا يَحِلّ له فِعْلُه ، فكُوفِئ عليه بمثله» [6] .

ومَلَكَ بعده ابنُه مَنْقَاوُش ، وكان حكيمًا فاضِلًا كاهِنًا ، عَمِلَ أعمالًا عجيبةً ، وبَنَى أشياءَ مُعْجِبَة ، منها أنَّه عَمِلَ هَيْكَلًا لصُوَر الكَواكِب على ثمانية فَراسِخ من مَنْف ، وكَنَزَ من الأمْوال ما لا يُحْصَى ، وفُتِحَ عليه من المَعَادِن ما لم يُفْتَح به على غيره .

---

a-a) ساقطة من بولاق .

---

[1] المسعودي : أخبار الزمان ١٣١ – ١٣٢.

[2] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٥٧ وفيما تقدم ٨٦.

[3] نفسه ١٥: ٥٨.

[4] فيما يلي ٦٤٠.

[5] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٦١، ٦٢ – ٦٣.

[6] نفسه ١٥: ٦٣.

وسارَ في الجَنوب يومًا، ثم سارَ مُغَرِّبًا يومًا وبعض آخر، فانتهى في اليوم الثالث إلى جَبَلٍ أَسْوَد، فعَمِلَ تحته أسْرابًا ومَغايِر، ودَفَنَ فيها أَمْوالَه، وزَبَرَ عليها حتى إنَّه من كَثْرَتها يُقالُ إنَّه دَفَنَ حَمْل اثني عشر ألف عَجَلَة ذَهَبًا وجَواهِر. وأَقامَ أربع سنين يُرْسِل في كلِّ سنة عَجَلًا كثيرة يَدْفنها. وبقيت آثارُ العَجَل تُرَى في ما بين مَنْف والمَغْرب زَمانًا طويلًا [١].

وبَنَى هَيْكَلًا للقَمَر، ويُقالُ إنَّه هو الذي بَنَى مَدينَة مَنْف لِبَنَاتِه، وكُنَّ ثلاثين بنتًا، وإنَّه أَلْزَمَ الناسَ بعَمَلِ الكِيْمِيَاء فكانوا لا يَفْتُرُون عن عَمَلِها ليلًا ولا نَهارًا، حتى اجْتَمَعَ عنده مالٌ عظيمٌ وجَوْهَرٌ كثيرٌ [٢].

وهو الذي بَنَى مَدينَة عَيْن شَمْس، وقَسَّمَ خَراجَ مِصْر أرْباعًا: جَعَلَ الرُّبْعَ للملك، والرُّبْعَ للجُنْد، والرُّبْعَ يُنْفَق في مَصالِح الأرض، والرُّبْع الرَّابع يُدْفَن لحادِثَة تَحْدُث.

وهو الذي قَسَمَ أرْضَ مصر على مائة وثلاثين كُورَة. وأقامَ مَلِكًا إحدى وتسعين[a] سنة ومات [٣].

فمَلَكَ بعده ابنُه عَـديم بن مَنْقـاوُش، وكان جَبَّارًا لا يُطاق، وفي أيَّامه كان نُزُول الملكين اللَّذين يُعَلِّمان الناس السِّحْر، والقِبْطُ تَزْعُم أنَّهما نَزَلا بأرض مصرَ ثم نُقِلا إلى بابِل [٤].

ثم مَلَكَ بعده أخوه مَنـاوش بن مَنْقـاوُش، وكان عالِمًا كاهِنًا/ فاضِلًا كأبيه[b]، بَنَى مَواضِعَ كثيرة في الجبال والصَّحارِي، وكَنَّزَ فيها كُنوزًا عظيمة، وأقامَ عليها أعْلامًا، وبَنَى في صَحْراء الغرب مَدينَةً [يقال لها ديماس][c]، وأقامَ لها مَنارَةً، وكَنَّزَ حولها كنوزًا عظيمةً، وجَعَلَ فيها شَجَرَةً تُطْلع كلَّ لَوْن من الفاكِهَة، وهو أوَّل من عَبَدَ البَقَر بمصر. ١:

وكان يَطْلُب الحِكْمَة ويَسْتَخْرِج كُتُبَها، وكذا كان كلُّ من ملك منهم يَجْتَهِد في أن يعمل له غريبةً من الأعمال لم تُعْمَل لمن كان قَبْلَه، وتُثْبَت في كُتُبِهم، وتُزْبَر على الحِجارَة [٥].

ولمَّا ماتَ مَلَكَ بعده ابنُه هِرْمِيـسُ، وكان قَليلَ الحِكْمَة فلم يَعْمَل شيئًا ممَّا عَمله آباؤه، وماتَ وقد أقامَ إحدى عشرة سنة [٦].

---

a) عند النويري: سبعين. b) ساقطة من بولاق. c) إضافة من النويري.

---

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦٤.
[٢] نفسه ١٥: ٦٤.
[٣] نفسه ١٥:٦٦ وفيما يلي ٦١٩.
[٤] لم يذكره النويري.
[٥] النويري: نهاية الأرب ١٥:٦٧ وفيما يلي ٦٤٥.
[٦] نفسه ١٥: ٦٩.

فمَلَكَ بعده أُشْمُون بن قُبْطيم بن مِصْر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح ، وكان حَيِّزه من أُشْمُون إلى مَنْف في الغرب ، وحَيِّزه في الشرق إلى حَدِّ البحر المِلْح ممَّا يُحاذي بَرْقَة ، وهو آخر حَدّ مصر ، ومن بلاد الصَّعيد إلى حُدود إخْميم ، وكانت منزله مَدينَة الأُشْمُونَيْن ، وكان طولُها اثني عشر ميلًا في مثلها [1] .

وبَنَى في شَرْقِي النِّيل مَدينَة أَنْصِنا ، وبَنَى بها قصرًا عظيمًا ، واتَّخذ بها أَبْنِيَةً ومَلاعِبَ وعجائِبَ كثيرة ، وبنَى مَدينَة طَهْواطيس . وهو أوَّل من لَعِب بالكُرَة والصَّوْلَجان .

ويُقالُ إنَّه بَنَى مُدُنًا كثيرةً عَمِلَ فيها عَجائِبَ ، منها مَدينَة في سَفْح الجَبَل لها أربعة أبْواب من كلِّ ناحية باب : فعَلَى الباب الشَّرْقي صورةُ عُقاب ، وعلى الباب الغَرْبي صُورَةُ ثَوْر ، وعلى الباب الشَّمالي صُورَةُ أَسَد ، وعلى الباب الجنوبي صُورَة كَلْب ؛ وفي هذه الصُّورَة رُوحانيات تَنْطِق ، فإذا قَدِمَ غَريبٌ لا يَقْدِر على الدُّخول إليها إلَّا بإذن المُوَكَّلين بها ، ودَفَنَ تحت كلِّ شَكْل من هذه الأشْكال الأربعة صِنْفًا من الكُنُوز .

وغَرَسَ في هذه المَدينَة شَجَرَةً مُوَلَّدَةً تُثْمِر كلَّ لَوْنٍ من الفاكِهَة ، ونَصَبَ منارًا طوله ثمانون ذِراعًا ، فوقه قُبَّة تَتَلَوَّن كلَّ يوم لَوْنًا ، حتى تَمْضي سبعة أيام ثم تَعُود إلى اللَّوْن الأوَّل ، فكانت تلك المَدينَة تُكْسَى من تلك الألْوان شُعاعًا مثل لَوْنِها .

وأَجْرَى حَوْل المنار ماءً شَقَّه من النِّيلَ ، وجَعَلَ فيه سَمَكًا من كلِّ لَوْن ، وأقامَ حول المَدينَة طِلَّسْمات في هَيْئَة أُناسٍ رؤوسها كالقِرَدَة ، وأَسْكَنَ هذه المَدينَة السَّحَرَة [a]فعُرِفت بمَدينَة السَّحَرَة[a] ، وكانُوا يَعْمَلون فيها أصْناف السِّحْر .

وبنَىَ بالقُرْب منها مَدينَةً عُرِفَت بـ[قِمَنْطَر][b] ذات العَجائِب [2] ، وبَنَى مَجالِسَ مُصَفَّحَة بزُجاج مُلَوَّن في وَسَط النِّيل ، وبَنَى سَرَبًا تحت الأرض من الأُشْمونَيْن إلى أَنْصِنا .

وقيل إنَّه هو الذي بَنَى مَدينَة عَيْن شَمْس ، وإنَّه ملك ثمان مائة سنة ، وإنَّ قَوْمَ عادٍ انْتَزَعُوا منه المُلْكَ بعد ستّ مائة سنة ، وأقامُوا بمصر تسعين سنة ، فأصابَهم وَبَاءٌ خَرَجُوا منه إلى الدَّثِينَة[c] بطَرِيق الحِجَاز إلى وادي القُرَى ، فعادَ أُشْمون بعد خُروج العادية إلى مُلْك مصر [3] .

---

a-a) ساقطة من بولاق . b) زيادة من النويري . c) بولاق : المدينة .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٦٩ – ٧٠ .

[2] نفسه ١٥ : ٧٠ .

[3] نفسه ١٥ : ٧١ وفيما يلي ٦٤٨ .

وهو أوّل من عَمِلَ النَّوْرُوز بمصر، وفي زَمانِه بُنِيَت مَدينَة البَهْنَسَا [١].

ولمَّا ماتَ جُعِلَ له ناووسٌ في آخر حَدِّ الأُشْمُونَيْنِ، ودُفِنَ فيه ومعه كُنوزُه العظيمة وعَجائبُه الكثيرة، منها ألف بَرْنِيَّة من العَقاقير المُدَبَّرَة لفُنُون الأعْمال، وزَبَرُوا على ناوُوسِه اسْمَه ونَسَبَه، وجُعِلَ عليه طِلَّسْمٌ يمنعه ممَّن يَقْصِده [٢].

ومَلَكَ بعده ابنُه صَا، ثم بعد صَا ابنه تدارس.

وقيل مَلَكَ مَنـاقْيوش، وكان شُجاعًا فاضِلًا، فاسْتَأْنَفَ العِمارَة، وبَنَى القُرَى ونَصَبَ الأعْلام، وعَمِلَ العَجائِب الهائِلَة، وبَنَى مَدائِنَ منها مَدينَة إخْميم، وحَوَّلَ الكَهَنَة إليها.

وأقامَ مَلِكًا نَيِّفًا وأربعين سنة، وماتَ فدُفِنَ في الهَرَمِ الشَّرْقي ومعه كنوزه [٣].

ومَلَكَ بعده ابنُـه، وقد اخْتُلِف في اسمه [٤]، وكان فاضِلًا حازِمًا مُعَظَّمًا عند أهل مصر. وهو أوّل من عَمِلَ المارِسْتان، وأوّلَ من عَمِل المَيْدان للرِّياضَة، وفي أيَّامه بُنِيَت مَدينَة سَنْتَرِيَة في صَحْراء الواحات [٥]. ثم إنَّ نَساءَه تَغايَرْن عليه، فَقَتَلَتْه إحْداهُنّ بسِكِّين، فدُفِنَ في ناوُوس ومعه أموالُه، وعُمِلَ عليه طِلَّسم يَحْفَظُه [٦].

ومَلَكَ بعده ابنه مَـرْقُورة، وكان حَكيمًا كاهِنًا، وهو أوّل من ذَلَّلَ السِّباع ورَكِبَها، وبَنَى المُدُن، وعَمَّرَ الهَياكِل، وأقامَ الأَصْنَام.

ولمَّا ماتَ جُعِلَ له ناوُوسٌ في صَحْراء الغَرْب، ودُفِنَ معه مالُه [٧].

ومَلَكَ بعده ابنُه بَـلاطِـس، وكان صَبيًّا، فدَبَّرَت أُمُّه أَمْرَ المُلْك، وكانت حازِمَةً فأَجْرَت الأُمورَ على أحْسَن ما يكون، وأظْهَرَت العَدْل، ووَضَعَت عن الناس الخَراج فأَحَبُّوها. ولمَّا كَبُرَ ابنها أَحَبَّ الصَّيْد، فعَمِلَت له أمُّه أعمالًا عجيبةً، وأقامَ مَلِكًا ثلاثَ عشرة سنة وجُذِرَ فماتَ، وانْتَقَلَ المُلْكُ إلى أعْمامِه [٨].

---

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥:٧١ وفيما يلي ٦٤٥.

[٢] قارن خبر أشمون عند النويري، نهاية الأرب ١٥:٦٩-٧٢ ومصدره مختصر تاريخ ابن وصيف شاه.

[٣] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧٢.

[٤] عند النويري (نهاية ١٥:٧٢): ولم يسمّه إبراهيم. أي إبراهيم بن القاسم الكاتب مختصر كتاب ابن وصيف شاه – مصدر هذه المعلومات.

[٥] فيما يلي ٦٣٧.

[٦] النويري: نهاية الأرب ١٥:٧٣-٧٤.

[٧] نفسه ١٥:٧٤.

[٨] نفسه ١٥:٧٤-٧٥.

فمَلَكَ بعده أَتْريب بن قُبْطيم بن مِصْرايِم ، وهو الثالث عشر من مُلوك مصر بعد الطُّوفان ، وهو الذي بَنَى مَدِينَة أَتْريب [١] ، وعاشَ خمس مائة سنة ، منها مُدَّةُ مُلْكه ثلاث مائة وستون سنة .

ويُقالُ إنَّ النِّيلَ وَقَفَ في أيَّام أَتْريب مائة وأربعين سنة ، حتى أُكِلَت البَهائِم بأرض مصر ولم يَبْق بها بَهيمَة ، ورُئِي أَتْريب ماشِيًا وهو يَبْسُط يَدَيْه ويَقْبِضُهما من الجُوع ، وماتَ عامَّةُ أَهْل مصر جُوعًا ، ثم أُغِيثُوا بعد ذلك وكَثُرَ الرَّخاء ، ودامَ مُدَّة مائتي سنة ، وبيع كلُّ أَرْدَبٍّ بدانِق وأَقَلّ . ولمَّا ماتَ اتُّهِم أَخُوه صَا بقَتْله ، وحارَبَه أَهْلُ مصر تسع سنين وقَتَلُوه [٢] .

فمَلَكَت بعده ابنته تُـدُورة ، وكانت كاهِنَةً ساحِرَةً ، فساسَت المُلْك أَحْسَن سِياسَةٍ ودَبَّرَت المملكة[a] أَجْوَد تَدْبير ، وعَمِلَت طِلَّسْمات عجيبة ، منها طِلَّسْم مَنَع الوَحْش والطَّيْر أن يَشْرَب من النِّيل حتى ماتَ أكثرها عَطَشًا/، ووَقَعَت في زَمانِها صَيْحَةٌ ارْتَجَّت لها الأَرْضُ فهَلَكَت [٣] . ١٣٩:

ومَلَكَ بعدها أَخُوها فليمــون بن أَتْريب ، وكان حَكِيمًا فاضِلًا ، فبَنَى البُنْيان وعَمِلَ الطِّلَّسْمات . وفي أيامه بُنِيَت مَدينَةُ تِنِّيس الأولى ، وبُنِيَت مَدينَة دِمْياط . وأقامَ مَلِكًا تسعين سنةً وماتَ فدُفِنَ في ناوُوس [٤] .

ومَلَكَ بعده ابنه فَرْسُــون ، وكان فاضِلًا كاهِنًا ، بَنَى المَدائِن ، وجَدَّدَ الهَياكِل ؛ وكان حَدَثًا ، فَقَصَدَه بعضُ مُلوك حِمْيَرَ في جُموعٍ عظيمة ، فخَرَجَ إليه[b] ، ولَقِيَه بمَدينَة إيْلَه[c] وقاتَلَه قِتالًا شَديدًا حتى تَفانَى من الفريقين مُعْظَمُهُما ، وأَظْهَر المِصْريون أشياءَ من سِحْرِهِم فانْهَزَم الحِمْيَري في طائِفَةٍ يَسيرة ، وقَتَلَ فَرْسُون عامَّة أَصْحابِه وأَخَذَ ما كان معهم ، وعادَ مُظَفَّرًا إلى مَدينَة مَنْف . وعَمِلَ مَنارًا على بَحْر القُلْزُم في رأسه مِرْآةٌ تَجْذِبِ المراكِب إلى السَّاحِل حتى يُؤْخَذ منها ما هو مُقَرَّر عليها من المال .

وأقامَ مَلِكًا مائتي سنة وستين سنة ، وماتَ فدُفِنَ في ناوُوس خَلْف الجَبَل الأَسْوَد الشَّرْقي ، وعُمِل فيه قُبَّة تحتوى على اثني عشر بيتًا ، في كلِّ بيت أُعْجُوبَة ، ودُفِنَ معه مالُه ، وعمل عليه طِلَّسْم يحفظه [٥] .

---

a) بولاق : الملك . b) بولاق : إليهم . c) بولاق : إيليا .

---

[١] فيما يلي ٤٧٤ .

[٢] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٥ - ٧٧ .

[٣] نفسه ١٥ : ٧٧ .

[٤] نفسه ١٥ : ٧٧ - ٧٨ ؛ وفيما يلي ٤٧٦ .

[٥] نفسه ١٥ : ٧٨ - ٨٠ .

ومَلَكَ بعده نحو أربعة، وصارَ المُلْكُ إلى صَـا بن قُبْـطيم، وكان أصغر وَلَدِ أبيه وأَحَبَّهم إليه [1].

ولمَّا ماتَ مَلَكَت بعده نُـونية الكـاهِنَة، وكانت ساحِرَةً، فكانت تَجْلس على سَريرٍ من نار، فإذا تَحاكَم إليها أحَدٌ وكان صادِقًا شَقَّ تلك النار من غير أن تَضُرَّه، وإن كان كاذِبًا أَخَذَتْه تلك النار، وكانت تَتَصَوَّر كلَّ يومٍ في صُوَرٍ كثيرة الأشْكال.

ثم بَنَتَ قَصْرًا واحْتَجَبَت فيه، وجَعَلَت في سُوره أنابيبَ من نُحاس مُجَوَّفَة، وكَتَبَت على كلِّ أُنْبُوب فنًّا من الفُنُون التي يَتَحاكَم الناسُ بها إليها، فكانَ مَنْ أتاها في مُحاكَمَةٍ وَقَفَ عند الأُنبوب الذي فيه مُحاكَمَتُه، وتَكَلَّم بما يُريده، وسأل عنه بصوتٍ خَفِيٍّ، فإذا فَرَغَ جَعَلَ أُذُنَه في الأُنْبُوب فيأْتيه منه جَوابُ ما سأل. ولم يَزَل هذا القصر والأَنابيب حتى أَتْلَفَه بُخْتَ نَصَّر.

ومَلَكَ بعدها مَـرْقُـونَس، وكان فاضِلًا حَكيمًا، وكانت أُمُّه بنت ملك النُّوبَة، فعَمِلَت عَجائِب، وصُنِعَ في أيَّامه كلُّ غريبة. وملك ثلاثًا وسبعين سنة، وماتَ وعمره مائتان وأربعون سنة.

فمَلَكَ بعده ابنه أنسـاد [a]، وهو ابن خمس وأربعين سنة، وكان جَبَّارًا طَمَّاح العَيْنِ، فانْتَزَى امرأَةَ أَبيه، وانْكَشَفَ أَمْرُه معها، وكان أَكْبَرُ هَمِّه اللَّهْو واللَّعِب، فجَمَعَ كلَّ مِلَّة في مملكته، ورَفَضَ العُلُوم، وأَهْمَلَ أَمْرَ الهَياكِل والكَهَنَة، وتَرَكَ النَّظَرَ في أحْوال الناس، وبَنَى قُصورًا على النِّيل لِيَتَنَزَّه فيها، وأَتْلَفَ أكثر الأمْوال في اللَّعِب؛ فكَرِهَه الناسُ وكَرِهَهُم، إلى أن سَمُّوه فماتَ عن مائة وعشرين سنة [2].

ومَلَكَ بعده ابنه صَـــا، ويُقالُ إنَّ صَا هو بن مَرْقُونَس، وهو أخو أنساد. ولما مَلَكَ سَكَنَ مَنْف، ووَعَدَ الناسَ بخَيْرٍ، ومَلَكَ الأَحْياز كلَّها، وعَمِلَ بها عَجائِب وطِلَّسْمات، ورَدَّ الكَهَنَة إلى مَراتِبِهم، ونَفَى الملهين وأهلَ الشَّر، ونَصَبَ العُقابَ الذي عمله أبوه وشَرَّفَ هَيْكَلَه ودَعَا إليه، وبَنَى بداخل الواحات مَدينَةً، ونَصَبَ قُرْبَ البَحْر أعْلامًا كثيرةً، وجَعَلَ على الأطراف أَصْحابَ أخْبارٍ يَرْفَعُون إليه ما يَجْري في حُدودِهم، وعَمِلَ على حافَتَي النِّيل مَنابِر يُوقَد عليهم إذا حَزَبَهم

a) الأصل وبولاق: إيسار والمثبت من النويري وفييت.

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٨١.
[2] نفسه ١٥: ٨٦ - ٨٨.

أَمْرٌ أو قَصَدَهم أَحَدٌ ، وجَعَلَ بحافَتَي بَحْر المِلْح منارًا يُعْلَم به أَمْرُ البَحْر . ويُقالُ إنَّه بَنَى أكثر مَدينَة مَنْف وكلَّ بُنْيان عَظيم بالإسْكَنْدَرية .

وكان لمَّا مَلَكَ البَلَدَ بأَسْره جَمَعَ الحُكَماء ونَظَرَ في النُّجوم ، وكان بها حاذِقًا ، فرَأَى أنَّ مصرَ لابد أن تَغْرَقَ من نِيلها ، وأنَّها تَخْرُب على يَدِ رَجُلٍ يأتي من ناحيةِ الشَّام ، فجَمَعَ كلَّ فاعِلٍ بمصر ، وبَنَى مَدينَة في الوَاح الأَقْصَى .

وقَصَدَه مَلِكُ الإفْرنْجَة ومَلَكَ منه مَدينَة مَنْف ، وقَدِمَ معه ألفُ مركب ، وهَدَمَ أكثر الإسْكَنْدَرية ، ودَخَل إلى النِّيل من رَشِيد حتى أَخَذَ مَنْف ، وفَرَّ منه صَا إلى المَدائِن الدَّاخِلَة ، وتَحَصَّن بها من عَدُوِّه ، فامْتَنَعَت بالطُّلَّسْمات أيَّامًا كثيرةً ، ثم كانت العاقِبَةُ له ، وعادَ عَدُوُّه مُنْهَزِمًا ، ورَجَعَ إلى مَنْف فتَتَبَّع الكَهَنَة ، وقَتَلَ منهم كثيرًا . وأقامَ مَلِكًا سبعًا وستين سنةً ، وعاشَ مائة وسبعين سنة [١] .

ومَلَكَ ابنه تُـدارُس [a]، واسْتَوْلَى على الأحْياز كلّها ، وصَفَا له مُلْك مصر ، وكان مُحَنَّكًا[b] مُجَرَّبًا ذا أَيْدٍ وقُوَّة ومعرفة بالأُمُور ، فَأَظْهَر العَدْلَ ، وأقامَ الهَياكِلَ وأَهْلَها قِيامًا حَسَنًا ، وبَنَى بيتًا للزُّهَرَة ، وحَفَرَ خَليج سَخَا . وحارَبَ بعض عَمالِقَة الشَّام ، ودَخَلَ إلى فِلَسْطِين ، وقَتَلَ بها خَلْقًا وسَبَى بعضَ أَهْلِهَا إلى مصر ، وغَزَا السُّودانَ من الزَّنْج والحَبَشَة ، ووَجَّه في النِّيل بثلاث مائة سَفينَة فلَقِي السُّودان ـ وكانوا زُهاء ألف ألف ـ فهَزَمَهُم وقَتَلَ أَكْثَرَهُم ، وأَسَرَ منهم خَلْقًا كثيرًا ، وساقَ الفِيَلَة والنُّمُور إلى مصر . وعَمِلَ على حُدود بَلَدِه مَنارَات زَبَرَ عليها اسْمَه ومَسيرَه وَظَفَرَه . وفي أيَّامه بَعَثَ الله نَبيَّه صالحًا إلى ثَمُود [٢] .

ويُقالُ إنَّه هو الذي أَنْزَلَ النُّوبَة حيث هي ، وذلك أنَّه لمَّا أَوْغَلَ في أَرْض الحَبَشَة وقَتَلَ أُمَمَ السُّودان ، وَجَدَ فيهم أُمَّةً تَقْرأ صُحُفَ آدَم وشِيث وإدْرِيس ، فمَنَّ عليها وأَنْزَلَها على نَحْوٍ من شهر من أرض مصر ، فسُمُّوا النُّوبَة ، وماتَ بمَنْف [٣] .

فَمَلَكَ بعده ابنه مـاليق ، وكان عاقِلًا كريمًا حَسَنَ الوَجْه[c] مُجَرِّبًا ، مُخالِفًا لأبيه وأهل مصر في عِبادَة الكَواكِب والبَقَر .

---

a) بولاق : تدراس . b) بولاق : محتكما . c) بولاق : الصورة .

---

[١] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٨ - ٩٣ .

[٢] فيما تقدم ٣٧١ .

[٣] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٩٣ - ٩٤ ، وانظر عن النوبة فيما يلي ٥١٧ - ٥٢٦ .

ويُقالُ إنَّه كان مُوَحِّدًا على دين أَجْداده/ قُبْطِيم ومِصْرايِم ، وكانت القِبْطُ تَذُمُّه لذلك . وأَمَرَ الناسَ باتِّخاذ كلّ فارِه من الخَيْل ، واقْتَنَى السِّلاحَ ، وآلَة[a] الأسْفَار ، وأَنْشَأَ في بَحْر المَغْرِب مائتي سَفِينَة ، وخَرَجَ في جَيْشٍ عَظِيمٍ في البَرِّ والبَحْر ، فلَقِي[b] البَرْبَرَ فهَزَمَهُم واسْتَأْصَلَ أكثرهم . وبَلَغَ إفريقيَّة ، وسارَ إلى الأَنْدَلُس يُرِيدُ الإفْرِنْجَة ، فلم يَمُرّ بأُمَّة إلَّا أبادَها ، فحَشَدَ له مَلِكُ الإفْرِنْجَة وحارَبَه شَهرًا ، ثم طَلَبَ صُلْحَه وأَهْدَى إليه ، فسَارَ عنه ودَوَّخَ الأُمَمَ المتَّصلة بالبَحْر الأَخْضَر . ١:

والقِبْطُ تَذْكُر أنَّه رأَى سبعين أُعْجُوبَة ، وعَمِلَ أعْمالًا على البَحْر وزَبَرَ عليها اسْمَه ومَسيرَه ، وخَرَّبَ مُدَنَ البَرْبَر ، ورَجَعَ فتَلَقَّاه أَهْلُ مصر بأَصْناف الرَّياحين وأَنْواع اللَّهْو ، وفُرِشَت له الطُّرُقات . فهابَهُ المُلُوكُ وحَمَلوا إليه الهَدايا . ومازال مُوَحِّدًا حتى مات[١] .

فمَلَكَ بعده ابنه خَــرْبِتَا[c] ، وكان لَيِّنًا سَهْلَ الخُلُق ، قد عَرَّفَهُ أبوه التَّوْحِيد ونَهَاه عن عِبادَة الأَصْنام ، فرَجَعَ عن ذلك بَعْدَه إلى دينِ قَوْمِه .

وغَزَا الهِنْدَ والسُّودانَ بعد ما عَمَلِ مائة سَفِينَةٍ على عَمِل[d] سُفْن الهِنْد ، وتَجَهَّزَ وحَمِلَ معه امرأتَه ووُجُوه أَصْحابِه ، واسْتَخْلَفَ ابنَه كَلْكَن[e] على مصر ـ وكان صَبِيًّا ـ وجَعَلَ معه وَزيرًا كاهِنًا . فمَرَّ على ساحِل اليَمَن وعاثَ في مَدائِنِه ، وبَلَغَ سَرَنْديب وأَوْقَعَ بأَهْلِها ، وبَلَغَ جَزيرَة بين الهِنْد والصِّين فأَذْعَن له أَهْلُها ، وتَنَقَّل في تلك الجَزائِرِ سنين .

فيُقالُ إنَّه أقامَ في سَفَرِه سبع عشرة سنة ورَجَعَ غانِمًا ، فهابَه المُـلُوك . وبَنَى عِدَّة هَياكِل وأقامَ بها الأَصْنامَ للكَواكِبِ . ثم غَزا نَواحي الشَّام فأطاعَه أَهْلُه ، ورَجَعَ فغَزا النُّوبَة والسُّودان ، وضَرَبَ عليهم خَراجًا يحملونه إليه ، ورَفَعَ أَقْدار الكَهَنَة ومَصَاحِفَهم . وكان يَرَى أنَّ هذا الظَّفَر بمعونة الكَواكِب له ؛ وماتَ وقد مَلَكَ خَمْسًا وسبعين سنةً[٢] .

فقامَ ابنُه كَلْـكَن[e] ، وعُقِدَ له بالإسْكَنْدَرية فأقامَ بها شهرًا ، ثم قَدِمَ إلى مَنْف . وكان أَصْنامِيًّا ، فسُرَّ به أهلُ مصر ، وكان يُحِبُّ الحِكْمَة وإظْهارَ العَجائِب ، ويُقَرِّب أَهْلَهَا ويُجيزُهم ، وعَمِلَ الكِيْمياء ، وخَزَنَ أَمْوالًا عظيمةً بصَحَارَى الغَرْب .

---

a) بولاق : وأكثر . b) بولاق : وأتي . c) بولاق : خرابا . d) بولاق : شكل . e) بولاق : كلكلي .

---

[١] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٩٤- ٩٩.
[٢] نفسه ١٥: ٩٩- ١٠١.

وهو أوَّلُ من أَظْهَر عِلْم الكِيْمياء بمصر، وكان عِلْمُها مَكْتومًا، وكان من تَقَدَّمَه من المُلوك أَمَرُوا بتَرْك صَنْعَتِها، فعَمِلَها كَلْكَن ومَلأ دُور الحِكْمَة منها حتى لم يَكُن الذَّهَبُ في زَمَن بمصر أكثر منه في وَقْتِه، ولا الخَراج، لأنَّه كان مائة ألف ألف وبضعة عشر ألف ألف مِثْقال، فاسْتَغْنَوا عن إثارَة المَعادِن.

وعَمِلَ أيضًا من الحِجارَة المُلَوَّنَة التي تَشِفّ شيئًا كثيرًا، وعَمِلَ من الفَيْرُوزَج وغيره أشياءَ واختَرَعَ أمورًا تَخْرُج عن حَدّ العَقْل حتى سُمِّيَ حَكيمُ المُلوك، وغَلَبَ جَميعَ الكَهَنَة في عُلومِهِم، وكان يُخْبِرُهُم بما يَغِيبُ عنهم.

وكان نَمْرُودُ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في وَقْتِه، فاتَّصَلَ بنَمْرود خَبَرُ حِكْمَتِه وسِحْرِه فاسْتَزَارَه. وكان النَّمْرودُ جَبَّارًا مُشَوَّه الخَلْق، يَسْكُن السَّوَاد من العِراق، وآتاه الله قُوَّةً وقُدْرَةً وبَطْشًا فَغَلَبَ على كثيرٍ من الأُمَم. فتَقولُ القِبْطُ إنَّ النَّمْرودَ لمَّا اسْتَزَارَ كَلْكَن[a]، وَجَّه إليه أن يَلْقاه بمَوْضِع كذا، فسارَ إلى المَوْضِع على أربعة أفْراس تَحْمِله ذَواتُ أَجْنِحَة، وقد أحاط به نورٌ كالنَّار، وحَوْلَه صُورَة هائِلة وقد خُيِلَ بها، وهو مُتَوَشّح بثُعْبان مُتَحَزِّم ببَعْضه، وقد فَغَرَ فاه، وهو يَضْرِبه بقَضيبِ آسٍ أخضر[b]، فلمَّا رآه النَّمْرودُ هالَه، وأَقَرَّ له بجَليل الحِكْمَة، وسَأَلَه أن يكون ظَهيرًا له.

ويُقالُ إنَّه كان يَرْتَفِع ويَجْلس على الهَرَمِ الغَرْبي في قُبَّة تَلوح على رَأْسه، فإذا دَهَمَ أَهْلَ البلد أمْرٌ اجتمعوا حَوْل الهَرَم، فيُقيم أيَّامًا لا يأكل ولا يَشْرَب.

ثم استتر مُدَّةً حتى تَوَهَّمُوا أنَّه هَلَكَ، فطَمِعَ فيه المُلوكُ وقَصَدَه مَلِكٌ من الغَرْبِ في جَيْشٍ عَظِيم حتى قَدِمَ وادي هَبِيب، فأَقْبَلَ حتى جَلَّلَهم من سِحْرِه بشيءٍ كالغَمام شَديد الحَرّ، فأقامُوا تَحْتَه أيَّامًا مُتَحَيِّرين، ثم طارَ إلى مصر وأَمَرَهُم بالخُروج إلى الجَيْش، فوَجَدُوهم قد ماتُوا هم ودَوابُّهم، فهابَه الكَهَنَةُ مَهابَةً لم يَهابُوها أَحَدًا قَبْلَه.

وعُمِّرَ طويلًا، وغابَ فلم يُعْلَم خَبَرُه[1].

وقال ابنُ عبد الحَكَم: إنَّ كَلْكَن[a] بن خَرْبَتَا[c] مَلَكَهم نحو مائة سنة، ثم ماتَ ولا وَلَدَ له، فمَلَكَ أخوه ماليا بن خَرْبَتَا[c][2].

---

a) بولاق: كلكلي. b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: خرابا.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٠١- ١٠٣.
[2] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٠.

قال ابنُ وَصِيف شَاه : وقامَ أخوه مــاليا ، وكان شَرِهًا كثيرَ الأَكْلِ والشُّرْب ، مُنْفَرِدًا بالرَّفاهية ، غير ناظِرٍ في شيءٍ من الحِكْمَة ، وجَعَل أَمْرَ البَلَد إلى وَزيره ، واشْتَغَلَ بالنِّساء ، وكان له من النِّساء ثمانون امرأةً ، فهَجَمَ عليه ابنه طُوطيس ، وهو سَكْران ، فقَتَلَه ، وقَتَلَ امرأةً كانت عنده [١].

ومَلَكَ بعده ابنه طُــوطيس ـ ويُقالُ إنَّه عَمْرو بن امْرئ القَيْس بن بابِلْيون بن حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان ـ ويُقالُ الوَليدُ بن الرَّيَّان ـ وإنَّه أَحَدُ فَراعِنَة مصر من وَلَدِ دان بن فَهلوج بن إمْراز بن أَشْود بن سام بن نُوح ، وقيل فَراعِنَةُ مصر من وَلَدِ عِمْلاق الأوَّل ابن لاوِد بن سَام بن نُوح ـ وكان جَبَّارًا جَرِيئًا شديدَ البَأْس مَهيبًا . والقِبْطُ تَزْعُم أنَّه أوَّل الفَراعِنَة بمصر ، وهو فِرْعَونُ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ويُقالُ إنَّ الفَراعِنَة سبعة هو أوَّلهم [٢].

وحَفَرَ نَهْرًا في شَرْقي مصر بسَفْح الجَبَل ، حتى ينتهي إلى مَرْفأ السُّفُن في البَحْر المِلْح ، وكان يحمل إلى هاجَر ـ أمّ إسْماعيل التي أعْطاها إبراهيم عليه السَّلام ـ الحِنْطَة وأصْناف الغَلَّات ، فتَصِل إلى جُدَّة ، فأُحْيِيَ بَلَدُ الحِجاز مُدَّةً . ويُقالُ إنَّ كلَّ ما حُلِّيَت به الكَعْبَة في ذلك العَصْر مِمَّا أهْداه مَلِكُ مصر ، ولكَثْرَة ما حَمَلَ إلى الحِجَاز سَمَّتْه العَرَبُ من جُرْهُم/ الصَّادوق [٣]. ٤:١

وفي كتاب هُرُوشِيوش أنَّ سُلْطانَ المصريين في زَمَن إبراهيم الخَليل ـ عليه السَّلام ـ كان بأيْدي قَوْمٍ يُدْعَوْن ببني فَاليق بن دَارِش [a]، ودامَ مُلْكُهم بمصر مائة وعشرين سنة [٤].

وقال ابنُ إسْحاق عن بَعْضِهم : إنَّ فَراعِنَةَ مصر من وَلَد دَان بن فَهْلوج بن إمْراز بن أَشْود بن سَام بن نُوح . قَال : والمَشْهُور إنَّهم من العَماليق ، منهم الرَّيَّان بن الوَليد ـ ويُقال الوَليدُ بن الرَّيَّان ـ فِرْعَونُ يُوسُف ، والوَليد بن مُصْعَب فِرْعَون مُوسَىٰ ، ومنهم سِنان بن عُلْوان [٥].

قال ابنُ وَصِيف شَاه : وإنَّما قيل له فِرْعَوْنُ لأنَّه أكْثَرَ القَتْل ، ولم يُرْزَق غير ابنة ، وكانت عاقِلَة ، فخافَت لكثرة قَتْلِه الناس ، فقَتَلَتْه بسُمٍّ ، وله في المُلْك مائة وسبعون سنة [٦].

---

a) في ترجمة هروشيوش : مالي بن دارش .

---

[١] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٠٣؛ وينص المقريزي ابتداء من هذا الخبر على النقل عن ابن وصيف شاه ، رغم أن كل المعلومات المتقدمة – فيما عدا الخبر القصير المنقول عن ابن عبد الحكم – مصدره ابن وصيف شاه .

[٢] نفسه ١٥ : ١٠٤ .

[٣] انظر فيما يلي ٢ : ١٤٠ .

[٤] أوروسيوس : تاريخ العالم ٩٢ .

[٥] انظر فيما يلي ٦٥٥ .

[٦] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٠٦ ، وانظر فيما تقدم ٣٦٣ .

ومَلَكَت بعده حُـورْيا[a]، فوَعَدَت الناسَ بالإحْسان، وجَمَعَت الأَمْوالَ، وقَدَّمَت الكَهَنَة وأَهْلَ الحِكْمَة ورؤساء السَّحَرَة، ورَفَعَت أَقْدارَهُم، وجَدَّدَت الهَياكِل؛ وصارَ من لم يَرْضها إلى مَدينَة أَتْريب، ومَلَّكوا رجلًا من وَلَدِ أَتْريب، وقد تَقَدَّم خبرُه في الإسْكَنْدَرية [1].

وحوريا[a] أوّلُ امرأةٍ مَلَكَت مصر من وَلَد نُوح عليه السَّلام، وماتَت [2]. فَمَلَكَت بَعْدَها ابنة عَمِّها ذلَيْفة[b] بنت مَأْموم، وكانت عَذْراء عاقِلَة، فوَعَدَت الناسَ بالجَميل. وقامَ عليها أَيْمَن[c] الأتريبي، واسْتَنْصَر بمَلِك العمالِقَة، فسيَّر معه قائِدًا، فأَخْرَجَت إليه جيشًا فالْتَقوا بالعَريش واقْتَتَلوا حتى فَنِي منهم كثيرٌ من الناس، ثم انْهَزَم أَصْحابُ ذُلَيْفة[b] إلى مَنْف، وهم في أَقْفِيَتِهم.

فَخَرَجَت ذُلَيْـفَة[b] إلى الصَّعيد، ونَزَلَت الأُشْمُونَيْن، فكان بينها وبين عَساكِر العَمالِقَة حُروبٌ انهزموا فيها، وخَرَجُوا عن مَنْف بعد ما عاثُوا فيها، وعَدَوا إلى الحَوْف فامْتَنَعُوا به، وصارَت مِصْر بينهم نِصْفَيْن.

ثم إنّ ذُلَيْفَة[b] عاوَدَت الحَرْب، فاسْتَمَرَّت ثلاثة أَشْهُر حتى انْهَزَمت إلى قُوص وأَيْمَن خَلْفَها، فلمَّا أَيْقَنَت أنَّها تُؤخَذ سَمَّت نفسها فهَلَكَت [3].

وقال ابنُ عَبْد الحَكَم: ثم توفِّيَ طوطيس بن ماليا، فاسْتُخْلِفَت ابنته حوريا[a] ابنة طوطيس، ولم يكن له وَلَدٌ غيرها، ثم توفِّيت حوريا[a]، فاسْتَخْلَفَت ابنة عمِّها ذُلَيْفَة[b] ابنة مَأْموم بن ماليا، فعُمِّرت دَهْرًا طَويلًا. وكَثُروا ونَموا، ومَلأُوا أَرْض مصر كلّها، فطَمِعَت فيهم العَمالِقَة، فغَزاهم الوَليدُ بن دَوْمَع فقاتَلَهم قِتالًا عظيمًا، ثم رَضَوْا أن يُمَلِّكوه عليهم، فمَلَكَهم نحوًا من مائة سنة، فَطَغَى وتَكَبَّرَ وأَظْهَر الفاحِشَة، فسَلَّطَ الله عليه سَبُعًا فافْتَرَسَه وأَكَل لَحْمَه [4].

والذي مَلَكَ مِصْر من الفَراعِنَة خمسة.

ومَلَكَ أَيْمَـين[d] وتَجَبَّر، وقَتَلَ خَلْقًا مِمَّن حارَبَه. وكان الوليدُ بن دَوْمَغ العَمْليقي قد خَرَجَ في جَيْشٍ كَثيف، فبَعَثَ غُلامًا يُقالُ له فِرْعَوْن إلى مصر ففَتَحَها، ثم قَدِمَ بعده واسْتَباح أَهْلَ مصر وأَخَذَ أَمْوالَهُم، ثم خَرَجَ ليقف على مَصَبِّ النِّيل فرَأَى جَبَلَ القَمَر، وأقامَ في غَيْبَته أربعين سنةً

a) بولاق: جورياق. b) بولاق: زلفي. c) بولاق: مأمون. d) بولاق: أيمن.

[1] سيأتي هذا الخبر فيما يلي ٣٩٦– ٣٩٧.

[2] النويري: نهاية ١٥: ١٠٧؛ ويرى أحمد كمال باشا أن حوريا هذه يقصد بها الملكة المصرية حتشبسوت!

[3] بعد ذلك عند النويري: يطلب بثأر خاله انداخس.

[4] النويري: نهاية ١٥: ١١٣.

ورَجَعَ إلى مصر، وقد خالَفَه فِرْعَون وفَرَّ منه، فاسْتَعْبَد أهْل مصر ومَلَكَهم مائة وعشرين سنة حتى هَلَكَ[١].

ومَلَكَ ابنُه الرَّيَّانُ بن الوَليد بن دَوْمَغ؛ أَحَدُ العَمالِقَة، وكان أَقْوَى أَهْلَ الأَرْض في زَمانِه وأَعْظَمَهم مُلْكًا. والعَمالِقَة وَلَدُ عَمْليق بن لاوِد بن سام بن نُوح، وهو فِرْعَون يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ والقِبْطُ تُسَمِّيه نَهْراوِش[٢].

وقيل فِرْعَونُ يُوسُف اسمه الرَّيَّان بن الوَليد بن لَيْث بن فاران بن عَمْرو بن عَمْليق بن بَلْقَع بن عابِر بن أَشْليخا بن لُوذ بن سَام بن نُوح[٣]. وقيل فِرْعَونُ يُوسُف هو جَدُّ فِرْعَون مُوسَى أبو أبيه، واسمه بَرْخُو[٤]، وكان عَظيمَ الخَلْق جميلَ الوَجْه عاقِلًا، فوَعَدَ الناسَ الجَميلَ، وأَسْقَطَ عنهم الخَرَاجَ لثلاث سنين، وفَرَّق المالَ فيهم.

ومَلَّكَ رَجُلًا من أهل بيته يُقالُ له أَطْفين[٥]، وهو الذي يُقال له العَزيز، وكان عاقِلًا أديبًا مُسْتَعْمِلًا للعَدْل والعِمارَة، فأَمَرَ أن يُنْصَب له سَريرٌ من فِضَّة في قَصْر المُلْك يجلس عليه، ويَخْرُج وجميع الكُتَّاب والوُزَرَاء بين يديه، فكَفَى نَهْراوش ما خَلْف ستره، وقامَ بجميع أُمورِه، وخَلَّاه للذَّاته. فأقامَ على قَصْفه مُدَّةً ـ والبَلَد عامِر ـ فقَصَدَه رَجُلٌ من العَمالِقَة، وسارَ إلى مصر في جُيوشِه، فخَرَجَ إليه وقَاتَلَه وهَزَمَه وسارَ خَلْفَه، ودَخَلَ الشَّامَ وعاثَ هنالك، فهابَتْه الملوكُ ولاطَفَتْه.

وقيل إنَّه بَلَغَ المَوْصِل، وضَرَبَ على أهل الشَّام خراجًا. وخَرَجَ لغَزْو بلاد المَغْرب في تسع مائة ألف، ومَرَّ بأرْض البَرْبَر وجَلَا كثيرًا منهم، ومَرَّ إلى البَحْر الأَخْضَر، وسارَ إلى الجَنُوب فقَدِم النُّوبَة، وعادَ إلى مَدينَة مَنْف[٦]. وكان من خَبَرِ يُوسُف معه ما ذُكِرَ عند ذِكْر الفَيُّوم[٧].

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٢.

[٢] قارن النويري: نهاية ١٥:١١٣–١١٥.

[٣] فيما يلي ٦٥٥.

[٤] عند النويري: والقبط تسميه نهراوش، وفيما يلي ٦٥٥.

[٥] أضاف النويري: وقيل في اسمه قطفير وقيل: قوطيفر، وانظر فيما يلي ٦٥٥.

[٦] النويري: نهاية ١٥: ١٢٠، ١٢١.

[٧] فيما يلي ٦٥٥–٦٦٠.

ومَلَكَ بعده ابنه دريمـوس ، ويُقالُ له دارِم بن الرَّيَّان ، وهو الفِرْعَوْن الرّابع ، فخالَفَ سُنَّةَ أبيه ، وكانَ يُوسُف خَليفَته فيَقْبَلُ منه تارَةً ويُخالِفه تارَةً ، وظَهَرَ في أيَّامِه مَعْدِن فِضَّة فأثار[a] منه شيئًا عظيمًا [١].

وفي أيَّامِه ماتَ يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ فاسْتَوْزَر بعده رَجُلًا حَمَلَه على أَذَى الناس وأَخْذ أَمْوالِهم [٢]، فبَلَغَ ذلك منهم مبلغًا عظيمًا . ثم زادَ في التجرّي حتى اقْتَلَعَ كلَّ امرأةٍ جميلة بمَدينة مَنْف من أَهْلِها ، فكان لا يَسْمَع بامْرَأةٍ حَسْنَاء في مَوْضِعٍ إلَّا وَجَّه إليها فحُمِلَت إليه ؛ فاضْطَرَبَ النّاسُ ، وشَغَبُوا عليه ، وعَطَّلوا الصَّنائِع والأَعْمال والأَسْواق ، فعَدَا عليهم وقَتَلَ منهم مَقْتَلَةً عظيمةً ، وزادَ الأَمْرُ حتى اجْتَمَعُوا على خَلْعِه ، فبَرَزَ لهم وأَسْقَطَ عنهم خَراجَ ثلاث سنين وأَنْفَقَ فيهم مالًا ، فسَكَتُوا [٣].

وفي أيَّامه ثارَ القِبْطُ على بني إسْرائيل ، وطَلَبُوا/ من الوَزير أن يُخْرِجَهُم من مصر ، فما زالَ بهم ١٤٢:
حتى أَمْسَكُوا .

وبَلَغَ الملكُ ذلك ، وكان قد خَرَجَ إلى الصَّعيد ، فتَوَعَّد أَهْلَ مصر ، فشَغَبُوا عليه وحَشَدُوا له ، فحارَبُوه فَقَتَلَ منهم خَلْقًا كثيرًا ، وظَفِرَ بمن بقي فقَتَلَهم وصَلَّبهم على حافَتَي النِّيل ، وعادَ إلى أعظم ما كان عليه من أَخْذ الأَمْوال والنِّساء واسْتِخْدام أَشْراف القِبْط وبني إسْرائيل ، فأَجْمَعَ الكُلُّ على ذَمِّه ، فرَكِبَ النِّيلَ للنُّزْهَةَ وثارَ به ريحٌ عاصِفٌ فغَرِق ، فلم يُوجَد إلَّا ناحية شَطَنُوف ، وقيل فيما بين طُرَا وحُلْوان [٤].

فقَدَّمَ الوزيرُ ابنه مَعـاديوس[b] ـ وكان صَبِيًّا ، ويُقال له مَعْدان ـ فأَسْقَطَ عن الناس ما أَسْقَطَه أَبُوه من الخَراج ، ووَعَدَ بالإحْسان فاسْتَقَامَ له الأَمْرُ ، ورَدَّ نِساءَ النَّاس ؛ وهو خامِس الفَراعِنَة .

وحَدَثَ في زَمانِه طُوفانُ مصر ، وكَثُرَ بنو إسْرائيل وعابُوا الأَصْنَامَ ، فأُفْرِدُوا ناحيةً عن البَلَد بحيث لا يَخْتَلِط بهم غَيْرُهم ، وأُقْطِعُوا مَوْضِعًا في قَبْلي مَنْف فاجْتَمَعُوا فيه وبَنَوا فيه مَعْبَدًا .

وغَلَبَ بعضُ الكَنْعانيين على الشَّام ، ومَنَعَ من الضَّرِيبَة التي كانت على أَهْل الشَّام لملك مصر ،

---

a) النويري : فأبان . b) بولاق : معاويوس .

---

[١] النويري : نهاية ١٥:١٧٢ وفيما يلي ٦٦٢.

[٢] هو بلاطس بن منسا الكاهن (النويري : نهاية ١٥:١٢٨).

[٣] النويري : نهاية ١٥:١٢٨- ١٢٩.

[٤] النويري : نهاية الأرب ١٥:١٢٩- ١٣٠.

فاجْتَمَعَ الناسُ إلى مَعْدان ، وحَثُّوه على المسير لحَرْبه ، فامْتَنَعَ عن المسير ولزم الهَيْكَل . فزَعَمُوا أنَّه قامَ في هَيْكَل زُحَل للعِبادَة ، فتَجَلَّى له زُحَل وخاطَبَه وقال له : قد جَعَلْتُك رَبًّا على أهْل بَلَدِك ، وحَبَوْتُك بالقُدْرَة عليهم وعلى غيرهم ، وسأَرْفَعُك إليَّ فلا تُخِلّ من ذِكْري .

فعَظُمَ عند نَفْسه وتَجَبَّر ، وأَمَرَ الناسَ أن يُسَمُّوه رَبًّا ، وتَرَفَّع عن أن يَنْظُرَ في شيءٍ من أَمْر المُلْك ، وجَعَلَ عليه ابنه أكْسامُس[1] .

فقامَ ابنُه أكْسامُس في المُلْك ـ ويُقال كاسِم بن مَعْدان ـ فرَتَّب الناسَ مَراتِب ، وقَسَّم الكُورَ والأَعْمال ، وأَمَرَ باسْتِنْباط العِمارَات وإظْهار الصُّناعات ، ووَسَّع على النَّاس في أرْزاقِهم ، وأَمَرَ بتَنْظيف الهَياكِل وتَجْديد لِباسِها وأَوَانِيها ، وزادَ في القَرابين ؛ وهو الذي يُقالُ له كاشِم بن مِعْدان ابن دارِم بن الرَّيَّان بن الوَليد بن دَوْمَع العَمْليقي ، وهو سادس الفَراعِنَة ، وسُمُّوا فَراعِنَة بفِرْعان الأوَّل ، فصارَ اسْمًا لكلِّ من تَجَبَّر وعَلَا أَمْرُه[2] .

فطالَ مُلْكُه ، وأقامَ أَعْلامًا كثيرةً حول مَنْف ، وعَمِلَ مُدُنًا كثيرةً ومَنايِرَ للوُقودات وطِلَّسْمات ، وأقامَ سَبْع سنين بأَجْمل أَمْر .

فلمَّا ماتَ وَزيرُ أبيه اسْتَخْلَف رَجُلًا من أهل بيت المملكة يُقالُ له طَلْما بن قُومَس . وكان شُجاعًا ساحِرًا كاهِنًا كاتِبًا حَكيمًا مُتَصَرِّفًا في كلِّ فَنٍّ ، وكانت نفسه تُنازِعُه المُلْك ، فأَصْلَحَ أَمْرَ المُلْك ، وبَنَى مُدُنًا من الجانبين ، ورَأَى في نُجُومِه أنَّه سيكون حَدَثٌ ، فبَنَى بناحية رَقُودَة والصَّعيد مَلاعِب ومَصانِع .

وَشَكَا إليه القِبْطُ من الإسْرائيليين ، فقال : هم عَبيدُكم ، فأَذَلُّوهم من حينئذٍ ؛ وخَرَجَ إلى ناحية البَرْبَر فعاثَ وقَتَلَ وسَبَى . وفي أيَّامه بُنِيَت منارَةُ الإسْكَنْدَرية ، وهاجَ البَحْرُ المِلْح فغَرَّقَ كثيرًا من القُرَى والجِنان والمَصانِع .

وماتَ أكْسامُس ، وكان مُلْكُه إحدى وثلاثين سنة ، منها إحدى عشرة سنة يُدَبِّر أَمْرَهُ طَلْما[a] [3] . فلمَّا ماتَ اضْطَرَبَ الناسُ واتَّهموا طَلْما[a] أنَّه سَمَّه ؛ فقامَ ووَلِّي لاطيس بن أكْسامُيس ، وكان جريئًا مُعْجَبًا صَلِفًا ، فأَمَرَ ونَهَى ، وأَلْزَمَ الناسَ أَعْمالَهم ، وقال : أنا مُسْتَقيم ما اسْتَقمْتُم ،

---

a) بولاق : ظلما .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٣٠ - ١٣٢ .

[2] انظر فيما تقدم ٣٦٣ .

[3] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٣٢ - ١٣٣ .

وإن مِلْتُم عن الواجِب مِلْتُ عنكم. وحَطَّ جماعَةً عن مَراتِبِهم، وصَرَفَ طَلْما[a] عن خِلافَتِه، واسْتَخْلَفَ غيره، وأَنْفَذَ طَلْما[a] إلى الصَّعيد في جماعَةٍ من الإسْرائيليين، وجَدَّدَ بِناءَ الهَياكِل، وبَنَى القُرَى، وأثارَ مَعادِنَ كثيرة، وكَنَّزَ في صَحْراء الشَّرق عِدَّة كُنوز، وكان يُحِبُّ الحِكْمَة.

ثم تَجَبَّرَ وَعَلَا أَمْرُه وأَمَرَ أَلَّا يَجْلس أَحَدٌ في مَجْلِسِه ولا في قصر المُلْك لا كاهِن ولا غيره، بل يَقُومون على أَرْجُلهم حتى يَمْضُوا. وزادَ في أَذَى الناس والعُنْف بهم، ومَنَعَ فُضُول ما بأيديهم وقَصَرَهم على القُوت، وجَمَعَ أموالَهم، وطَلَبَ النِّساء وانْتَزَعَ كثيرًا منهن، وفَعَلَ أكثر مما فَعَلَه من تَقَدَّم قبله، واسْتَعْبَد بني إسْرائيل، وقَتَلَ جماعَةً من الكَهَنَة، فأَبْغَضَه الخاصّ والعامّ.

وثار طَلْما[a] بالصَّعيد وكاتَبَ وُجوه النَّاس، فكَتَبَ لاطيس بصَرْفه عن العَمَل، فامْتَنَعَ وحارَبَ عساكِره، وزَحَفَ حتى دَخَلَ مَنْف[١].

طَلْـما[a] بن قُومس فِرْعَون مُوسَى، يُقالُ إنَّ اسْمَه الوَليدُ بن مُصعَب بن أراهُون بن الهَلوت بن قاران بن عَمرو بن عَمْليق بن بَلْقَع بن عابِر بن أَشْليخا بن لُود بن سَام بن نُوح، وإنَّه من العَمالِقَة. وكان قَصيرًا، طَويلَ اللِّحْيَة، أَشْهَل العَيْنِ اليُمْنَى، صَغير العَيْنِ اليُسْرى، أَعْرَج. وزَعَمَ قومٌ أنَّه من القِبْط، وأنَّ نَسَبَه ونَسَبَ أَهْل بيته مَشْهورٌ عندهم، وقيل غير ذلك[٢].

وكان من خَبَره ما ذَكَرنا في كَنيسَة دموه[٣].

وقال ابنُ عَبْد الحَكَم: ولَمَّا أَغْرَقَ الله فِرْعَوْنَ بقيت مصر بعد غَرَقِه ليس فيها من أَشْراف أَهْلها أَحَدٌ، ولم يَبْقَ إلَّا العَبيدُ والأُجَراءُ والنِّساء، فأَعْظَمَ أَشْرافُ من بمصر من النِّساء أن يُوَلِّين منهم أَحَدًا، وأَجْمَع رأيُهن أن يُوَلِّين امرأةً يُقالُ لها دَلُوكة. فَمَلَكَت دَلُوكـة ابنة زَبَّـاء، ويُقالُ دَلُوكَه بنت زُفان[b] ـ وكان لها عَقْلٌ وتَجارِبٌ ومعرفَة، وكانت في شَرَفٍ منهن، وهي يومئذٍ بنت مائة وستين سنة ـ فبَنَت جِدارًا حَصَّنَت به مصر من الأَعْداء، وكان من حَدِّ زَنْج إلى إفريقية إلى الواحات إلى بلد النُّوبَة، على كلِّ مَوْضِعٍ منه حَرَسٌ قيامٌ لَيْلَهم ونَهارَهم، يَقِدُون النار وَقُودًا لا يُطْفَأ أبدًا، أحاطَت به على جَميع أَرْض مصر كلِّها/ في ستة أشهر، وهو حائِط العَجُوز[٤]. ١٤٣ظ

a) بولاق: ظلما. b) بولاق: فاران.

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٣٣ - ١٣٥.

[٢] نفسه ١٥: ١٣٥ - ١٣٦.

[٣] فيما يلي ٢: ٤٦٤.

[٤] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٢٦ - ٢٧، وقارن المسعودي: مروج الذهب ٢: ٨٧ - ٨٨؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٣٨ - ١٣٩؛ وانظر فيما يلي ٥٤١ - ٥٤٢.

وفي أيَّامِها بَنَت تَدُورَة الساحِرَة البَرابي في وَسَط مَنْف [١].

فمَلَكَتْهم دَلُوكة عشرين سنة، حتى بَلَغَ صَبِيٌّ من أبناء أكابرهم يُقالُ له دَرْكون بن بَلاطِس. ثم ماتَ واستخلف ابنه تودست، ثم توفي تودست بن دَرْكون، فاسْتُخْلف أدقاش، فلم يَمْلك إلَّا ثلاث سنين حتى ماتَ، فاسْتُخْلِف أخوه مَرينَا بن مَرينُوس. ثم توفيِّ فاستخلف استادس بن مرينا، فطَغَى وتَكَبَّرَ وسَفَكَ الدَّم وأَظْهَر الفاحِشَة، فخَلَعُوه وقَتَلُوه، وبايَعوا رَجُلًا من أشْرافهم يُقالُ له بلوطس بن ميناكيل، فمَلَكَهم أربعين سنة. ثم توفي فقام ابنه مالوس. ثم تُوُفيِّ مالُوس فاسْتُخْلِف أخوه ميناكيل بن بَلُوطس بن ميناكيل، فمَلَكهم زَمانًا. ثم تُوفيِّ واسْتُخْلف ابنُه نـوْلة بن ميناكيل، فَمَلَكَهم مائة وعشرين سنة؛ وهو الأَعْرَج الذي سَبَى مَلِك بَيْت المَقْدس وقَدِمَ به إلى مصر، وكان قد تَمكَّن وطَغَى وبَلَغَ مَبْلَغًا لم يَبْلُغه أَحَدٌ ممن قَبْله بعد فِرْعَون، فصَرَعَتْه دابَّته فمات [٢]. وقيل له الأَعْرَجُ لأنَّه لمَّا غَزَا أَهْلَ بَيْت المَقْدس ونَهَبَهم وسَبَى مَلِكَهم يُوشِيا بن أمون بن مَنْشا ابن حِزْقيا، هَمَّ أن يَصْعَدَ على كُرْسي نبيّ الله سُلَيْمان بن دَاود ـ وكان بلَوْلب لا يمكن أَحَدًا أن يَصْعَد عليه إلَّا برجليه جميعًا ـ فصَعِدَ برجلٍ واحدةٍ، وهي اليُمْنى، فدَارَ اللَّوْلَبُ على ساقِه الأخرى فانْدَقَّت، فلم يَزَلْ يَخْمَع بها إلى أن ماتَ، فلذلك سُمّي الأَعْرَج.

فاسْتُخْلِف مرنيـوس بن بوله، فمَلَكَهم زَمانًا ثم توفيِّ، واسْتُخْلف ابنُه قَرْقُـورة فَمَلَكَهُم ستين سنة ثم تُوفيِّ، واسْتُخْلف أخوه لُقَاس بن مرينوس، وانْهَدَم البِرْبَا في زَمَنه فلم يقدر أَحَدٌ على إصْلاحه ثم تُوفيِّ لقاس واسْتُخْلف ابنُه فوميس بن نقاس فملكهم دَهْرًا وحَارَبَه بُخت نَصَّر وقَتَلَه، وخَرَّبَ مَدينَة مَنْف وغيرها من المَدَائِن، وسَبَى أَهْلَ مصر ولم يَتْرُك بها أَحَدًا حتى بقيت أرضُ مصر أربعين سنةً خَرابًا ليس فيها ساكِنٌ.

وذُكِرَ في تَرْجَمَة كتاب هُرُوشِيُوش الأَنْدَلُسي، في وَصْف الدُّوَل والحُروب، أنَّ فيما بين غَرَقِ فِرْعَون مُوسَىٰ إلى مائة وسبع سنين [٣] كان بمصر ملكٌ يسمى بوشردش [Busiridis]، كان يَقْتُل الغُرَبَاء والأَضْياف، ويَذْبَحهُم لأَوْثانِه، ويَجْعَل دِماءَهم قُرْبانًا لها [٤].

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٢٧.

[٢] نفسه ٢٨- ٢٩.

[٣] في الأصل اللاتيني في الموضع الأول: قبل بناء مدينة رومة بسبع مائة سنة وخمس وسبعين سنة، وفي الموضع الثاني: قبل بنيان مدينة رومة بأربع مائة وثمانين سنة، ولاحظ عبد الرحمن بدوي – ناشر الترجمة العربية – أن المقريزي حاول أن يحل تقويمًا دينيًا محل التقويم المستند إلى بناء مدينة روما (مقدمة تاريخ العالم لأوروسيوس ٣٢).

[٤] أوروسيوس: تاريخ العالم ١١٥.

وأنَّ بعد غَرَق فِرْعَون إلى ثلاث مائة وثمان وعشرين سنة كان بمصر ملكٌ يسمَّى بزوبة [Vesozes]، وكان عظيمَ المملكة قَوِيّ السُّلْطان أَخَذَ بالحَرْب أَكْثَرَ نَواحي الجنوب [والجوف][a] بَرًّا وبَحْرًا ؛ وهو أوَّلُ من حارَب الشسيين[b] [Scythis] الذين قيل لهم بعد ذلك القُوط[c]، وكان قد أَرْسَل إليهم يَدْعُوهم إلى طاعَتِه ويُخَوِّفهم حَرْبه ، فأجابُوه : ليس من الرَّأْي المَحْمود للمَلك الغَني مُحارَبة قَوْم فُقَراء لكثرة نَوازِل الحُروب واخْتِلاف حَوادِثها بالظَّفَر والهَلاك ، وإنّا لا نَنْتَظِر مجيئَك ، بل نُسْرِع لغارتك ؛ وأَتْبَعُوا قَوْلَهم عَمَلًا ، وخَرَج فِرْعَونُ إليهم فَخَرَجوا مُسْرِعِين إليه ، وهَزَمُوا جُيوشَه ونَهَبُوا عَساكِرَه وأَمْواله وعُدَده وجَميع ذَخائِره ، ومَضَوا فنَهَبوا أرْضَ مصر حتى كادُوا يَغْلِبون عليها لولا وُحُول[d] عَرَضَتْ لهم مَنَعَتْهم ممَّا خَلْفَها[e]، ثم انْصَرَفُوا إلى بلاد الشَّام[f] بحُروبٍ مُتَّصلة حتى أَذَلُّوا أَهْلَها وجَعَلوهم يؤدُّون إليهم المَغارِم ، وأقامُوا مُحارِبين لمن خَلْفَهُم[g] في غَزْوَتِهم خمس عشرة سنة ، ولم يَنْصَرِفوا إلى بلادِهم حتَّى أَتَتْهم من نِسائِهم من يَقُلْن لهم : إمَّا أن تَنْصَرِفوا ، وإمَّا أن نَتَّخِذَ الأَزْواج ونَطْلُبَ النَّسْل من عند المُجاوِرين لنا . فعند ذلك انْصَرَفوا إلى بلادهم وقد امتلأَت أَيْدِيهم أمْوالًا وأَوْقارًا جَمَّة ، وقد خَلَّفُوا وَراءَهم ذِكْرًا مُفْزِعًا [1].

ويُقالُ إنَّ مُلوكَ مَدْيَنَ مَلَكوا مصر خمس مائة عام بعد غَرَقِ فِرْعَوْن وهَلاك دَلُوكَة حتى أَخْرَجَهم منها نَبِيُّ الله سُلَيْمان بن دَاود ، فعَادَ المُلْكُ بعدهم إلى القِبْط ، وإنَّ جالوتَ بن مالود[h] لمَّا قَتَلَه داود سار ابنه جالوت بن جالوت إلى مصر وبها مُلوك مَدْيَن ، فأَنْزَلَه مَلِكُ مصر بالجانِب الغَرْبي ، فأَقامَ بها مُدَّة ثم سارَ إلى بلاد المَغْرِب [2].

ويُقالُ إنَّ القِبْطَ مَلَكُوا مصر بعد دَلُوكَة وابنها مُدَّة ستّ مائة سنة وعشرين سنة ، وعِدَّتهم سبعة وعشرون مَلِكًا ، هم [3]:

---

a) زيادة من أوروسيوس . b) الأصل وبولاق : الروم والمثبت من ترجمة أوروسيوس . c) بولاق : الغوط . d) أوروسيوس : مروج دجلة . e) بولاق : خلفهم . f) أوروسيوس : بلد أسيه . g) بولاق : خالفهم . h) بولاق : يالوت .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١١٧ - ١١٨.

[2] انظر فيما يلي ٥١٢.

[3] اعتمد المقريزي ابتداءً من هذا المَوْضع على قائمة مانيتون Manetho كما نقلها يوسيبيوس القيصري Eusebius of Caesarea (٢٦٠-٣٤٠م)، وتشتمل على ملوك الأسرات التسعة المصرية الأخيرة وهم أربعة وثلاثون ملكًا أوَّلهم ملوك الأسرة التاسعة عشرة وهم أسرة ديوسبوليس Diospolis، ويبدو أن ما وقع للمقريزي من كتاب يوسيبيوس يشتمل على الكتاب الثالث من كتاب مانيتون الذي يبدأ بالأسرة العشرين. ويتَّفق نصُّ المقريزي =

[الأُسْرَة ٢٠] ديوسفوليطا [Diospolis] ، ومُدَّتُه ثمان وسبعون سنة ، وقيل ثمان وثمانون سنة .

[الأُسْرَة ٢١] ثم مَلَكَ بعده سَمَانادُوس [Smendis] ستًّا وعشرين سنة . وقامَ بَعْدَه سوساناس [Psusenês] مُدَّة مائة وسنة . ثم مَلَكَ نفخراس [Nephercherês] أَرْبَع سنين . ثم مَلَكَ أمانافوتاس [Amenôphthis] تِسْع سنين . ثم أَسْخوريس [Osochôr] سِتّ سنين . ثم فسيناخِس [Psinnachês] تِسْع سنين . ثم فسوسانْس [Psusennês] خَمْسًا وثلاثين سنة .

[الأُسْرَة ٢٢] ثم مَلَكَ سسوناخوسيس [Sesônchôsis] إحدى وعشرين سنة . ثم مَلَكَ أُساراثون [Osorthôn] خَمْس عشرة سنة . ثم طاقالوتيس [Tacelôthis] ثلاث عشرة سنة .

[الأُسْرَة ٢٣] ثم فطافاباسطاس [Petubastis] خمسًا وعشرين سنة . ثم أُساراثون [Osorthôn] تِسْع سنين . ثم مَلَكَ فساموس [Psammus] عَشْر سنين .

[الأُسْرَة ٢٤] ثم أوفانقورس [Bocchoris of Sais] أَرْبَعًا وأربعين سنة .

[الأُسْرَة ٢٥] ثم ساباقون [Sabacon] اثنتي عشرة سنة . ثم سبخس الحَبَشي [Sebichos] اثنتي عشرة سنة . ثم طراخوس الحَبَشي [Saracus (Taracus)] عشرين سنة .

[الأُسْرَة ٢٦] ثم أَمَرْواس الحَبَشي [Ameres the Ethiopian] اثنتي عشرة سنة . ثم اسطافينيتاس

= تمامًا مع نص يوسيبيوس - الذي وصل إلينا الآن في ترجمة أرمنية - ابتداءً من ذكر ملوك الأسرة الحادية والعشرين التي تبدأ بالملك سمانادوس Smendes، فيما عدا ملوك الأسرة ٢٧. ولاشك أن كتاب يوسيبيوس نُقِلَ إلى اللغة السريانية ، وبما أن أغلب الترجمات العربية للنصوص اليونانية تمت عن طريق السريانية ، فمن الممكن أن يكون المؤلفون العرب - الذين اعتمد عليهم المقريزي في نقل هذه الأسماء - قد أخذوها عن نصٍّ سُرياني ، وعرفوا قائمة مانيتون وعلى الأخص البيروني الذي أورد نفس القائمة في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ٩٠-٩١ وبدأها بعبارة : «تسمية ملوك القبط الذين كانوا بمصر وعددهم أربعة وثلاثون سوى الفُرْس وعُدَّتهم مع الفرس ثمان مائة وأربع وتسعون سنة» . وربما كان هو المصدر الذي أخذ عنه المقريزي ؛ فقد اعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا في مواضع كثيرة من كتابه . وانظر نص الترجمة الأرمنية كما نقله يوسيبيوس القيصري عن مانيتون في كتاب Waddell, W. G., *Manetho with an english Translation,* Harvard University Press 1971, pp. 149-87؛ وراجع عن يوسيبيوس القيصري Atiya, A.S., *CE* art. *Eusebius of Caesaria*, pp. 1070-71 ؛ وانظر فيما يلي ١: ٢٦٧.

[Stephinathes] سَبْع سنين . ثم ناخفاسوس [Nechepsos] سِتّ سنين . ثم ناخو [Nechao] ثمان سنين . ثم فساماماطيقوس [Psametichus] أَرْبعًا وأربعين سنة . ثم نخوثان [Nechao II] سِتّ سنين . ثم فساموتاس [Psamuthes II] سَبْع عشرة سنة . ثم وافرس [Uaphres] خَمْسًا وعشرين سنة . ثم أماسيس [Amosis] اثنتين وأربعين سنة [1].

١٤٤: ومَلَكَ بعد هؤلاء/ مصر خَمْسَة مُلُوك من مُلوك بَابِل ، وهم :

[الأُسْرَة ٢٨] أمرطيوس [Amyrtaeus of Saïs] سِتّ سنين .

[الأُسْرَة ٢٩] ثم نافرطاس [Nepheritês] سَبْع سنين ، ثم أوخرس [Achôris] اثْنَتيْ عشرة سنة ، ثم فساموت [Psammuthis] مُدَّة سنتين ، ثم مَلَكَ موتاطوس [Muthes] سَبْع سنين [2].

ثم مَلَكَ ثَلاثَة مُلُوك من أثور ، وهم الجَرامِقَة الذين مَلَكُوا المَوْصِل ونينَوا والجَزِيرَة ، وهم :

[الأُسْرَة ٣٠] ناقاطانبوس [Nectanebês] ثلاث عَشْرَة سنة ، ثم طوس [Teos] سَبْع سنين ، ثم ناقاطانيباس [Nectanebus] ثَمان عشرة سنة [3].

ثم انْتَقَلَ مُلْكُ مصر منهم إلى الإسْكَنْدَر بن فِيلِبُش اليوناني . وهذه أَسْماءٌ رومية ، ولعلَّها أو بَعْضَها مُتَداخِل فيما تَقَدَّم ذِكْرُه مِمَّن مَلَكَ بعد دَلُوكَة .

وبين بُخْت نَصَّر وبين الطُّوفان ألفا سنة وثلاث مائة وستٌّ وخمسون سنة وأشهر ، ويَجْتَمع من حِساب ما وَقَعَ في التَّوْراة أنَّ بين الطُّوفان وبين خَراب بَيْت المَقْدِس على يد بُخْت نَصَّر من السنين ألفًا وست مائة وأربعًا وثمانين سنة . وهذا خِلافُ ما نَقَلَه المَسْعُودي .

[1] لم يذكر المقريزي الأسرة ٢٧ وهي أسرة فارسية مكوّنة من ثمانية ملوك حكمت ١٢٠ سنة وأربعة أشهر ، وهي معروفة لكلٍّ من البيروني والقلقشندي .

[2] أضاف نص يوسيبيوس عن مانيتون بعد ذلك Nepheritês الثاني الذي حكم أربعة أشهر .

[3] الأسرة ٣١ مثل الأسرة ٢٧ مكونه من ملوك فارسيين وينتهي بها كتاب مانيتون .

ذِكْرُ مَدِينَةِ الإسْكَنْدَرِيَّة

هذه المَدِينَةُ من أَعْظَم مَدائِن الدُّنْيا وأَقْدَمها وَضْعًا [1]. وقد بُنِيَت غير مَرَّة: فأَوَّلُ ما بُنِيَت بعد كَوْن الطُّوفان في زَمان مِصْرايِم بن بَيْصَر بن نُوح، وكان يُقالُ لها إذْ ذاك مَدِينَةُ رَقُودَة؛ ثم بُنِيَت بعد ذلك مَرَّتين. فلمَّا كان في أَيَّام اليُونانيين جَدَّدَها الإسْكَنْدَرُ بن فِيلِيبُش المَقْدوني، الذي قَهَرَ دارًا ومَلَكَ مَمالِكَ الفُرْس بعد تَخْريب بُخْت نَصَّر مَدِينَة مَنْف بمائة وعشرين سنة شَمْسية، فعُرِفَت به.

---

[1] أعطى المقريزي للإسكندرية المركز الثالث في الأهمية في كتابه، بعد القاهرة ومصر الفسطاط وخصَّص لها القسم الأكبر في الفصل الذي عقده لذكر مدائن أرض مصر، فقد كانت ولأكثر من ألف عام عاصمة مصر قبل الفتح العربي الإسلامي (راجع كتب المسالك والممالك؛ المسعودي: مروج الذهب ١:١١٤- ١١٥؛ ٢:٧٣، ٩٩- ١٠٩، وذكر في المروج ٢:٧٣ أنه لم يعرض في هذا الكتاب لكثير من أخبار الإسكندرية لأنه أتى على ذلك فى الكتاب الأوسط؛ ياقوت: معجم البلدان ١:١٨٢- ١٨٩؛ ابن جبير: الرحلة ١٤- ١٩؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٨٨- ٩٣)؛ ابن بطوطة: تحفة النظار ١:١٢- ٢٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣:٤٠٣- ٤٠٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١:٨٤- ٨٨؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية المجلد السابع.

وانظر كذلك، «تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور»، مجموعة بحوث نشرتها محافظة الإسكندرية سنة ١٩٦٣؛ زكي علي: «الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالمة»، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ٢ (١٩٤٤)، ١١٧- ١١٨، ٤ (١٩٤٨)، ١٢١- ١٤٠؛ جمال الدين الشيال: «الإسكندرية - طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر»، المجلة التاريخية المصرية ٢ (أكتوبر ١٩٤٩)، ١٩١-٢٧١، وله أيضًا «تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي»، الإسكندرية ١٩٦٧؛ حسن عبد الوهاب: «الإسكندرية في العصر الإسلامي»، مجلة الكتاب (يناير ١٩٤٧)؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية ١٩٦٩، ١٩٨٢؛ Jondet, G., *Atlas historique de la ville et des ports d'Alexandrie*, Le Caire, MSSG 1921; Combe, E., «Alexandrie musulmane: Notes de topographie et d'histoire de la ville depuis la conquête arabe jusqu'â nos jours», *BSRGE* XV (1927), pp. 201-238, XVI (1928), pp. 111-171, 269-292; Haas, Chr., *Alexandria in Late Antiquity. Topography and Social Conflict*, London 1997; *Alexandrie entre deux monde*, ROMM, n°46, Aix-en-Provence 1984; Ilbert, R., *Alexandrie 1830-1930*, 2 vols, Le Caire - IFAO 1996; Bernand, A., *Alexandrie de Ptolémées*, Paris CNRS 1995; Labib, S.Y., EI^2 art. *al-Iskandariyya* IV, pp. 137-43.

ومنذ جَدَّدَها الإسْكَنْدرُ المذكور، انْتَقَلَ تَخْت المملكة من مَدينَة مَنْف إلى الإسْكَنْدَرية، فصارَت دارَ المملكة بديار مصر. ولم تَزَل على ذلك حتَّى ظَهَرَ دينُ الإسْلام، وقَدِمَ عَمْرو ابن العَاص بجُيُوش المُسْلمين وفَتَحَ الحِصْنَ والإسْكَنْدَرية، وصارَت ديارُ مصر أرْضَ إسْلام، فانْتَقَلَ تَخْتُ المُلْك حينئذٍ من الإسْكَنْدَرية إلى فُسْطاط مصر، وصارَ الفُسْطاطُ من بعد الإسْكَنْدَرية دارَ مَمْلَكة ديار مصر. وسأقُصُّ عليك من أخبار الإسْكَنْدَرية ما وَصَلَ إليه عِلْمي إن شاءَ الله تعالى.

ذَكَرَ أبو الحَسَن المَسْعُودي في كتاب «أَخْبَار الزَّمان» أنَّ الكُوكَة ـ وهي أُمَّة في غابِر الدَّهْر من أهْل أَيْلَة ـ مَلَكُوا الأرْضَ وقَسَّمُوها على ثلاثين كُورَة وأربعة أَقْسام، كلّ قِسْم عمل، وبَنَوا في كلِّ عَمَل مَدينَة بها مَلِك يَجْلس على مِنْبَر من ذَهَب، وله بَرْبَا وهي بَيْت الحِكْمَة، وله هَيْكَلٌ على اسم كَوْكَب فيه أصْنام من ذَهَب. وجَعَلُوا الإسْكَنْدَرِيَةَ، واسْمها رَقُودة، خَمْس عشرة كُورَة، وجَعَلُوا فيها كِبار الكَهَنَة، ونَصَبُوا في هياكِلِها من أصْنام الذهب أَكْثَر ممَّا نَصَبُوا في غيْرِها، فكان ما بِها مائَتا صَنَم من ذَهَب. وقَسَّمُوا الصَّعيد ثمانين كُورَة على أربعة أقْسام وثلاثين مَدينَة فيها جَميع العَجائِب[1].

وذَكَرَ بَطْلَميوس في كتاب «الأقاليم ووَصْف الجَزائِر والبِحار والمُدُن» أنَّ مَدينَةَ الإسْكَنْدَرية لبُرْج الأسَد، ودَليلها المَرّيخ، وساعاتُها أرْبَع عشرة ساعَة، وطولُها ستون دَرَجَة ونصف دَرَجَة، يكون ذلك أرْبَع ساعات مُسْتَوِيَة وثلاث عشرة ساعَة.

وقال ابنُ وَصيف شاه في ذِكْر أخْبار مِصْرايِم بن بَيْصَر بن نُوح: وعَلَّمَهُم أيضًا عَمَلَ الطِّلَّسْمات، وكانت تَخْرُج من البحر دَوابُّ تُفْسد زَرْعَهُم وجِنانَهم وبُنْيانَهم، فعَمِلوا لها الطِّلَّسْمات، فغابَت ولم تَعُد. وبَنَوا على عَبْر[a] البحر مُدُنًا، منها مَدينَة رَقُودَة مكان الإسْكَنْدَرية، وجَعَلُوا في وَسَطها قُبَّة على أساطِين من نُحاس مُذَهَّب، والقُبَّة مُذَهَّبَة، ونَصَبُوا فَوْقَها مِرْآة من أخْلاطٍ شَتَّى قُطْرها خمسة أشْبار وارْتِفاع القُبَّة مائة ذِراع؛ فكانوا إذا قَصَدَهم

---

a) بولاق: غير.

---

[1] المسعودي: أخبار الزمان ٦٧–٦٨؛ وانظر فيما تقدم ٣٤٩ وفيما يلي ٥٠٤.

قاصِدٌ من الأُمَم التي حَوْلَهم ، فإن كان ممَّا يهمهم وكان من البَحْر عَمِلُوا لتلك المِرْآة عَمَلًا فألْقَت شُعاعَها على ذلك الشيء فأَحْرَقَتْه ، فلم تَزَل إلى أن غَلَبَ البحرُ عليها ؛ ويُقالُ إنَّ الإسْكَنْدَرَ إنَّما عمل المنارَة تَشَبُّهًا بها [1].

وكان عليها أيضًا مِرْآةٌ يُرَى فيها من يَقْصدهم من بِلاد الرُّوم ، فاحْتال عليهم بعضُ مُلوكهم ووَجَّه إليها ما أزالَها ، وكانت من زُجاج مُدَبَّر .

قالَ : وذَكَرَ بعضُ القِبْط أنَّ رَجُلًا من بني الكَهَنَة الذين قَتَلَهم أَنْسادُ[a] ملك مصر صارَ إلى ملك كان في بلاد الإفْرَنْجَة فذَكَرَ له كثرة كُنُوز مصر وعجائِبها ، وضَمِن له أن يُوَصِّله إلى مُلْكها وأمْوالها ، ويرفع عنه أذَى طِلَّسْماتِها حتى يبلُغ جميع ما يُريد . فلمَّا اتَّصَلَ بصَا بن مَرْقُونس أخي أَنْساد[a] ـ وهو ملك مصر يومئذٍ ـ أنَّ صاحِبَ بلاد الإفْرَنْجَة يتجهَّز إليه ، عَمَد إلى جَبَل بين البحر المِلْح وشَرْقي النِّيل فأَصْعَد إليه أكثر كُنوزه ، وبَنَى عليها قِبابًا مُصَفَّحَة بالرَّصاص . وظَهَر صاحِبُ بلاد الإفْرَنْجَة في ألْف مركب ، فكان لا يمرّ بشيءٍ من أَعْلام مصر ومَنازِلها إلَّا هَدَمَه ، وكَسَرَ الأَصْنام بمعونة ذلك الكاهِن ، حتى أَتَى الإسْكَنْدَرية الأُولى فعاثَ فيها وفيما حَوْلَها ، وهَدَم أكثر مَعالِمِها ، إلى أن دَخَلَ النِّيلَ من ناحية رَشيد وصَعِدَ إلى مَنْف ، وأَهْل النَّواحي يُحاربونه ، وهو يَنْهَب ما مَرَّ به ويَقْتُل ما قَدَر عليه ، إلى أن طَلَبَ المَدائِنَ الدَّاخِلَة/ لأَخْذ ١: كُنُوزها ، فوَجَدَها مُمْتَنِعَة بالطِّلَّسْمات الشِّداد والمياه العَميقَة والخَنادِق والشَّدَّاخات ، فأَقامَ عليها أيَّامًا كثيرة فلم يُمْكِنه الوُصول إليها ، وغَضب على الكاهِن فَقَتَله من أَجْل جماعَةٍ من أَصْحابه هَلَكُوا .

فاجْتَمَعَ أَهْلُ النَّواحي وقَتَلُوا من أصْحابه الذين بالمراكِب خَلْقًا ، وأَحْرَقُوا بعض المَراكِب ، وقامَ أهلُ مصر بسِحْرهم وتَهاويلهم ، فأَتَت رياحٌ أَغْرَقَت أكْثَرَ مَراكِبه حتى نَجَا بنفسه ، وقد خَرَجَ فعادَ الناسُ إلى مَنازِلهم وقُراهم . ورَجَع الملك صَا إلى مَدينَة مَنْف وأَقامَ بها ، وتَجَهَّزَ لغَزْو بُلْدان الرُّوم وبَعَثَ إليها ، وخَرَّب الجَزائِر فهابَتْه المُلوكُ ، وتتبَّع الكَهَنَة فَقَتَلَ منهم خَلْقًا كثيرًا .

---

a) بولاق : إيساد .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ – ٤٥ .

وأقامَ مَلِكًا سبعًا وستين سنة ، وماتَ وعمره مائة وسبعون سنة ، ودُفِنَ بمَنْف في وَسَطِها تحت الأرض ومَعَه الأموالُ والجَواهِرُ والتماثيلُ والطِّلَّسْمات كما فَعَل آباؤه : منها أربعة آلاف مِثْقال[a] ذَهَبًا على صُوَر حَيوانات بَرِّيَّة وبَحْريَّة ، وتِمْثالُ عُقاب من حَجَر أخضر ، وتِمْثالُ تِنِّين من ذَهَب ، وزَبَرُوا عليها اسْمَه وغَلَبَتَه الملوك وسيرتَه ، وعهد إلى ابنه تدارس[b].

قالَ : ولمَّا جَلَسَت حُورْيا[c] ابنة طُوطيس ، أوَّل فَراعِنَة مصر ـ وهو فِرْعَون إبراهيم الخَليل عليه السَّلام ـ على سَرير المُلْك بعد قَتْلها لأبيها ، وعَدَت الناسَ بالإحْسان وأَخَذَت في جَمْع الأموال ، فاجْتَمَعَ لها ما لم يَجْتَمِع لملِكٍ ، وقَدَّمَت الكَهَنَة وأَهْلَ الحِكْمَة ورُؤساء السَّحَرَة ورَفَعت أقْدارَهم ، وأَمَرَت بتَجْديد الهَياكِل . وسارَ[d] مَنْ لم يَرْضَها إلى مَدينَة أَتْريب ، ومَلَّكُوا عليهم رجلًا من وَلَد أَتْريب يُقالُ له أنْداخس ؛ فعَقَدَ على رأسه تاجًا واجْتَمَعَ إليه جَماعَةٌ ، فأَنْفَذَت إليه جَيْشًا فهَزَمُوه وقَتَلُوا أكثرَ أصْحابِه ، فهَرَبَ إلى الشَّام وبها الكَنْعانيون فاسْتَغاثَ بمَلِكِهم ، فجَهَّزَه بجَيْشٍ عظيمٍ . ففَتَحَت حُورْيا[c] الخَزائِن ، وفَرَّقَت الأمْوال ، وقَوَّت السَّحَرَة فعَمِلُوا أعمالَهم .

وتقدَّم أنداخس[e] بجُيُوش الكَنْعانيين وعليها قائِدٌ منهم يُقالُ له جيرون ، فلمَّا نَزلوا أرْضَ مصر بَعَثَت ظِئْرًا لها من عُقَلاء النِّساء إلى القائِد سِرًّا من[f] أنداخِس تُعَرِّفه رَغْبَتَها في تَزَوُّجه ، وأنَّها لا تَخْتار أحَدًا من أهْل بَيْتها ، وأنَّه إن قَتَلَ أنداخس تَزَوَّجَت به وسَلَّمَته مُلْك مصر .

ففَرِحَ بذلك وسَمَّ أنداخس[e] بسُمٍّ أنْفَذَته إليه فقَتَلَه .

وبَعَثَت إليه بعد قَتْل أنداخس[e] أنَّه لا يَجُوز أن أَتَزَوَّجَك حتى يظهر قَوْمُك في بَلَدي وتَبْني لي مَدينَةً عجيبةً ـ وكان افْتِخارُهم حينئذٍ بالبُنْيان وإقامَة الأعْلام وعَمَل العَجائِب ـ وقالت : انْتَقِل من مَوْضِعِك إلى غَرْبي بَلَدي ، فثَمَّ آثارٌ لنا كثيرة ، فاقْتَف تلك الأعْمال وابن عليها ؛ ففعَلَ ، وبَنَى مَدينَةً في صَحْراء الغَرْب يُقالُ لها قَندومَة[g] ، وأَجْرَى إليها من النِّيل نَهْرًا ، وغَرَسَ حَوْلَها غُروسًا كثيرة ، وأقامَ بها مَنارًا عاليًا فَوْقَه مَنْظَرٌ مُصَفَّح بالذَّهَب والفِضَّة والزُّجاج والرُّخام ، وهي تُمِدّه بالأمْوال ، وتُكاتِب صاحِبَه عنه وتُهاديه وهو لا يَعْلَم .

فلمَّا فَرَغَ منها قالت له : إنَّ لنا مَدينَةً أخرى حَصينَةً كانت لأوائِلنا ، وقد خَرِبَت منها أمْكِنَة وتَشَعَّث حِصْنُها ، فامْضِ إليها واعْمَل في إصْلاحِها حتى أَنْتَقِل أنا إلى هذه المَدينَة التي بَنَيْتَها ، فإذا

a) عند النويري : تمثال . b) بولاق : تدراس . c) بولاق : جورياق . d) الأصل وبولاق : صار . e) بولاق : إيداخس . f) بولاق : عن . g) بولاق : قيدومة ، نهاية : تندومة .

فَرَغْت من إصْلاح تلك المَدينَة فأَنْفِذ إليَّ جَيْشَك حتى أَصير إليك وأَبْعُد عن مَدينَتي وأَهْل بيتي، فإنِّي أَكْرَه أن تَدْخُل عليّ بالقُرْب منهم. فمَضَى وجَدَّ في عَمَل الإسْكَنْدَرية الثانية.

وأَهْلُ التاريخ يَذْكُرون[a] أنَّ الذي قَصَدَها الوَليدُ بن دَوْمَغ العَمْليقي ثاني الفَراعِنَة. وكان سَبَبُ قَصْدِها أنَّه كان به عِلَّة فوَجَّه إلى الأقْطار ليُحْمَل إليه من مائِها حتى يَرَى ما يُلائِمه. فوَجَّه إلى مملكة مصر غُلامًا فوَقَفَ على كَثْرَة خَيْراتِها، وحَمَلَ إليه من مائِها وأَلْطافِها، وعادَ إليه فعَرَّفَه حالَ مصر. فسارَ إليها في جَيْشٍ كَثيف، وكاتَبَ الملكة يَخْطِبها لنفسه، فأجابَتْه وشَرَطَت عليه أن يَبْني لها مَدينَةً يظهر فيها أيديه[b] وقُوَّته، ويَجْعَلَها لها مَهْرًا. فأَجابَها وشَقَّ مصر إلى ناحِية الغَرْب، فبَعَثَت إليه أَصْنافَ الرَّياحين والفَواكِه، وخَلَّقَت وُجوه الدَّواب.

فَمَضَى إلى الإسْكَنْدَرية وقد خَرِبَت بعد خُروج العادِيَة منها، فنَقَلَ ما كان من حِجارَتِها ومَعالِمِها وعُمُدِها، ووَضَعَ أَساسَ مَدينَةٍ عظيمَةٍ، وبَعَثَ إليها مائة ألف فاعِل، وأقامَ في بنائِها مُدَّةً، وأَنْفَقَ جميع ما كان معه من المال، وكُلَّما بَنَى شيئًا خَرَجَ من البحر دَوابُّ فتَقْلَعه، فإذا أَصْبَحَ لم يجد من البِناء شيئًا، فاغْتَمَّ[c] لذلك.

وكانت حُوْريا[d] قد أَنْفَذَت إليه ألف رأس من المَعْزِ اللَّبون يَسْتَعْمل أَلْبانَها في مَطْبَخِه، وكانت مع راعٍ تَثِق به يَرْعاها هنالك، فكان إذا أرادَ أن يَنْصَرِف عند المساء خَرَجَت إليه من البَحْر جارية حَسْناء فتَشُوقُ نفسه إليها، فإذا كَلَّمَها شَرَطَت عليه أن تُصارِعَه، فإن صَرَعَها كانت له، وإن صَرَعَتْه أَخَذَت من المَعْزِ رَأْسَيْن.

فكانت طُولَ الأيَّام تَصْرَعه وتَأْخُذُ الغَنَمَ، حتى أَخَذَت أكثر من نِصْفِها، وتَغَيَّر باقيها لشُغْله بحُبِّ الجارِيَة عن رَعْيها، ونَحَلَ جِسْمُه. فمَرّ به صاحِبُه وسأَلَه عن حالِه فأَخْبَرَه الخَبَرَ خوفًا من سَطْوَته، فلَبِس ثِيابَ الرَّاعي، وتولَّى رَعْيَ الغَنَم يومَه إلى المساء.

فخَرَجَت إليه الجارِيَةُ وشَرَطَت عليه الشَّرْطَ فأجابَها، وصارَعَها فصَرَعَها وشَدَّها، فقالت: إنْ كان ولابُدّ من أَخْذِي فسَلِّمْني لصَاحِبي الأوَّل، فإنَّه أَلْطَف بي وقد عَذَّبْته مُدَّة.

فردَّها إليه وقال له: سَلْها عن هذا البُنْيان الذي/ نَبْنيه ويُزالُ من لَيْلَته، من يَفْعَل ذلك؟ وهل في ثَباتِه من حِيلَة؟ ١:

a) بعد ذلك عند النويري: شيئًا من أخبار أنداخس ويذكرونه أنه الذي قصد الوليد. b) الأُصل وبولاق: أيده.
c) الأُصل وبولاق: فاهتم. d) بولاق: جورياق.

فسألَها الرَّاعي عن ذلك ، فقالَت : إنَّ دَوابَّ البَحْر التي تَنْزِعُ بُنْيانَكم ؛ فقال : فهل من حِيلَة ؟ قالت : نَعَم ، تَعْمَلون تَوابيتَ من زُجاج كَثيف بأَغْطِيَة ، وتَجْعَلون فيها أقوامًا يُحْسِنُون التَّصْوير ، ويكون معهم صُحُفٌ وأنْقاشٌ وزادٌ يَكْفيهم أيَّامًا ، وتُحْمَل التَّوابيتُ في المَراكِب بعدما تُشَدّ بالحِبال ، فإذا تَوَسَّطوا الماءَ أَمَرُوا المُصَوِّرين أن يُصَوِّروا جَميعَ ما يَمُرُّ بهم ، ثم تُرْفَع تلك التَّوابيت ، فإذا وَقَفْتُم على تلك الصُّوَر فاعْمَلوا لها أشْباهًا من صُفْر أو حِجارَة أو رَصاص ، وانْصُبوها قُدَّام البُنْيان الذي تَبْنونه من جانب البحر ، فإنَّ تلك الدَّوابَّ إذا خَرَجَت ورأت صُوَرَها هَرَبَت ولم تَعُد ؛ فعَرَّفَ الرَّاعي صاحِبَه ذلك ففَعَلَه ، وتَمّ البُنْيان وبَنَى المَدينَة .

وقال قومٌ : إنَّ صاحِبَ البِناء والغَنَم هو جيرون المؤتفكي [a]، كان قَصَدَهم قبل الوَليد ، وإنَّما أتاهُم الوَليدُ بعد حُوْرِيا [b] وقَهَرَهم ومَلَك مصر .

وذَكَروا أنَّ الأَمْوالَ التي كانت مع جيرون نَفِدَت كلّها في تلك المَدينَة ولم تتمّ ، فأَمَرَ الرَّاعي أن يُخْبِر الجارِيَة فقالت : إنَّ في المَدينَة التي خَرِبَت مَلْعَبًا مُسْتديرًا حَوْله سبعة عُمُد على رؤوسها تَماثيل من صُفْر قِيام ، فقَرِّب لكلِّ تِمْثال منها ثَوْرا سمينًا ، ولَطِّخ العَمُود الذي تحته من دَمِ الثَّوْر وبَخِّره بشَعْر من ذَنَبه وشيءٍ من نُحاتَة قُرونه وأظْلافِه ، وقُلْ له : هذا قُرْبانُك فأَطْلِق لي ما عِنْدك ، ثم قِسْ من كلِّ عَمُود إلى الجِهَة التي يتوجَّه إليها وَجهُ التِّمْثال مائة ذِراع ، واحْفُر عند امْتِلاء القَمَر واسْتِقامَة زُحَل ، فإنَّك تنتهي بعد خمسين ذِراعًا إلى بَلاطَة عَظيمَة ، فلَطِّخْها بمَرارة الثَّوْر وأَقِلْها ، فإنَّك تنزل إلى سَرَبٍ طوله خمسون ذراعًا ، في آخره خِزانَة مُقْفَلَةٌ ، ومفتاحُ القُفْل تحت عَتَبَة الباب فخُذْه ، ولطخ الباب ببقية المرارة ودم الثور ، وبَخِّره بنُحاتَة قُرونه وأظْلافِه وشَعْر ذَنَبه ، وادْخُل فإنَّه يسْتَقْبِلك صَنَمٌ في عُنُقه لَوْحٌ من صُفْر مكتوبٌ فيه جميع ما في الخِزانَة ، فخُذ ما شِئْتَ ولا تَعْتَرِض مَيِّتًا تَجِده ولا ما عليه ؛ وكذلك كلّ عَمُود وتِمْثاله ، فإنَّك تَجد مثل تلك الخِزانَة ، وهذه نَواويس سَبْعة من المُلوك وكُنوزهم .

فلمَّا سَمِعَ ذلك سُرَّ به ، وامْتَثَله فوَجَد ما لا يُدْرَكُ وَصْفُه ، ووَجَد من العجائِب شيئًا كثيرًا ، فتمَّ بناء المَدينَة . وبَلَغَ ذلك حُورِيا [b] فساءَها ، وكانت قد أرادت إتْعابه وهَلاكَه بالحيلة .

ويُقالُ إنّه وَجَدَ فيما وَجد دَرْجًا من ذَهَب مَخْتومًا ، فيه مَكْحُلَه زَبَرْجَد فيها ذَرور أخضر ومعها عرق أحمر ، منْ اكْتَحَلَ من ذلك الذَّرور بالعَرَق وكان أَشْيَب ، عادَ شابًّا واسوَدّ شعرُه وأضاءَ

---

a) ساقطة من بولاق ، وعند ياقوت : جبير المؤتفكي . b) بولاق : جورياق .

بَصَرُه حتى يُدْرِك الرُّوحانيين . ووَجَد تمثالًا من ذَهَب إذا ظَهَرَ غَيَّمَت السَّماء وأَمْطَرَت ، ومِثَال غُراب من حَجَر إذا سُئل عن شيءٍ صَوَّت وأجابَ عنه ، ووَجَدَ في كلّ خِزَانة عشر أُعْجوبات .

فلمَّا فَرَغَ من بِناء المَدينَة وَجَّه إلى حُوزِيا[a] يحثّها على القُدوم إليه ، فحَمَلَت إليه فَرْشًا فاخِرًا ليَبْسطه في المَجْلِس الذي يَجْلس فيه ، وقالت له : اقْسِم جَيْشَك أَثْلاثًا ، فأنفذ إليّ ثلثه ، حتى إذا بلغتَ ثُلثَ الطريق فأَنْفِذ الثُّلُث الآخَر ، فإذا جُزْت نصف الطَّريق فأَنْفِذ الثُّلُث الباقي ليكونوا من وَرائي ، لئلّا يَراني أَحَدٌ إذا دَخَلْت عليك ، ولا يكون عندك إلّا صِبْيَة تَثِق بهم يخْدِمونك ، فإنّي أُوَفّيك في جَوارٍ تَكْفيك الخِدْمَة ولا أَحْتَشِمهن ، ففعَلَ ؛ وأقامَت تَحْمل الجِهاز إليه والأَمْوال حتى عَلِمَ بمسيرها فوَجَّه إليها ثُلُث جَيْشه ، فعَمِلَت لهم الأَطْعِمَة والأَشْرِبَة المَسْمومَة ، وأَنْزَلَهم جَواريها وحَشَمها وقَدَّمُوا إليهم الأَطْعِمَة والأَشْرِبَة والطِّيب وأَنْواع اللَّهْو ، فلم يُصْبح منهم أَحَدٌ حيًّا . وسارَت ، فلَقيها الثُّلُث الآخَر ففعَلَت به مثل ذلك ، وهي تُوَجِّه إليه أنّها أَنْفذَت جَيْشَه إلى قَصْرها ومَملَكَتها يحفظُونَهما .

وسارَت حتى دَخَلت عليه هي وظِئْرها وجَواريها ، فنَفَخَت ظِئْرُها في وَجْهه نَفْخة بُهِتَ إليها ، ورَشَّت عليه ما كان معها فارْتَعَدَت أَعْضاؤه ، وقال : منْ ظَنَّ أَنَّه يَغْلب النِّساء فقد كَذَبَتْه نَفْسُه وغَلَبَتْه النِّساء . ثم إنَّها فَصَدَت عُروقَه وقالت : دِماءُ الملوك شِفاءٌ ، وأَخَذَت رَأْسَه ووَجَّهت به إلى قَصْرها ونَصَبَته عليه ، وحَوَّلَت تلك الأَمْوال إلى مَدينَة مَنْف ، وبَنَت مَنارًا بالإسْكَنْدَرِية وزَبَرَت عليه اسْمَها واسْمَه ، وما فَعَلَت به ، وتاريخ الوَقْت .

فلمَّا بَلَغَ خَبَرُها المُلُوك هابُوها وأَطاعُوها وهادُوها . وعَمِلَت بمصر عَجائِب كثيرة ، وبَنَت على حَدِّ مصر من ناحية النُّوبَة حِصْنًا وقَنْطَرَةً يجْري ماءُ النِّيل من تحْتِها ، واعْتَلَت فقَلَّدت ابْنَة عَمِّها زُلَيْفَة بنت مأموم[b]، وماتَت [١].

وقال ابنُ خُرْداذَبَه : رُوِيَ أَنَّ الإسْكَنْدَرية بُنِيَت في ثلاث مائة سنة ، وأَنَّ أَهْلَها مَكَثوا سبعين سنةً لا يَمْشون فيها بالنَّهار إلَّا بخِرَقٍ سُود مخافَةً على أبْصارِهم من شِدَّة بَياض حِيطانِها ، ومَنارَتها العَجيبَة على سَرَطان زُجاج في البحر ، وأنَّه كان فيها سِوَى أَهْلها ستّ مائة ألف من اليَهود خَوَلٌ لأَهْلِها [٢].

a) بولاق : جورياق . b) بولاق : زلفى بنت مأمون .

[١] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٠٧-١١٢ نقلًا عن ابن وصيف شاه .

[٢] ابن خرداذبه : المسالك والممالك ١٦٠ ؛ ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٨٦ .

وقال ابنُ وَصِيف شَاه : وكانت العِمارَةُ ممتدَّة في رِمال رَشيد والإسكَنْدَرية إلى بَرْقَة ، فكان الرجلُ يَسير في أرْض مصر فلا يَحْتاج إلى زادٍ لكَثْرَة الفَواكِه والخَيْرات ، ولا يَسيرُ إلَّا في ظِلالٍ تَسْتُره من حَرِّ الشَّمْس .

وعَمِلَ الملكُ صَا بن قُبْطيم في تلك الصَّحارَى قُصورًا ، وغَرَس فيها غُروسًا ، وساقَ إليها من النِّيل أنهارًا ، فكان يُسلك من الجانب الغَربي إلى حَدِّ/ الغَرْب في عمارة متَّصلة . ١٤٧

فلمَّا انْقَرض أولئك القَوْم بَقِيَت آثارُهم في تلك الصَّحارَى ، وخَرِبَت تلك المَنازِل وبادَ أهْلُها ، ولا يزالُ من دَخَل تلك الصَّحارَى يَحْكِي ما رآه فيها من الآثار والعَجائِب .

وقال ابنُ عَبْد الحَكَم : وكان الذي بَنَى الإسكَنْدَرية وأسَّس بِناءَها ذو القَرْنَيْن الرُّومي ، واسْمه الإسْكَنْدَر ، وبه سُمِّيَت الإسكَنْدَرية ، وهو أوَّلَ من عَمِل الوَشْيَ ، وكان أبوه أوَّلَ القَياصِرَة .

وقيل إنَّه رَجُلٌ من أهلِ مصر اسمه مَرْزَبا بن مَرْزَبَة اليوناني ، من وَلَد يونان بن يافِث بن نُوح ﷺ . وقيل كان من أهْل لُوبِيَة ، كُورَة من كُوَرِ مصر الغربية . قال ابنُ لَهِيعَة : وأهْلُها رُوم . ويُقالُ هو رَجُلٌ من حِمْيَر ، قال تُبَّع[1] :

[الكامل]

قَدْ كان ذو القَرْنَيْن جَدِّي مُسْلِمًا   ملكًا تَدينُ له المُلوكُ وتَحْشِدِ
بَلَغَ المَغارِبَ والمَشارِقَ يَبْتَغي   أسْبابَ عِلْمٍ من حَكيمٍ مُرْشِدِ
فرَأى مَغيبَ الشَّمْس عند غُروبها   في عَيْنِ ذي خُلْبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ

ويُرْوَى : «قد كان ذو القَرْنَيْن قَبْلي مُسْلِمًا» . وحَدَّثني عُثْمان بن صالِح ، حَدَّثَني عبدُ الله بن وَهْب ، عن عبد الرَّحْمَن بن زِيَاد بن أَنْعَم ، عن سَعْد بن مَسْعود التُّجيبي ، عن شَيْخَيْن من قَوْمه قالا : كُنَّا بالإسْكَنْدرية ، فاسْتَطَلْنا يومًا فقُلْنا : لو انْطَلَقْنا إلى عُقْبَة بن عامِر نتحدَّث عنده ، فانْطَلَقْنا إليه فوَجْدناه جالِسًا في دارِه ، فأَخْبَرْناه أنَّا اسْتَطَلْنا يَوْمَنا ؛ فقال : وأنا مثل ذلك ، إنَّما خَرَجْت حين اسْتَطَلْتُه ؛ ثم أَقْبَل علينا فقال : كُنْتُ عند رَسُول الله ﷺ أَخْدُمه ، فإذا أنا برِجالٍ من أهْل الكِتاب معهم مَصاحِف أو كُتُب ، فقالوا : اسْتَأْذِن لنا على رَسُول الله ﷺ ، فانْصَرَفْت إليه فأَخْبَرْته بمكانِهم فقال رسول الله ﷺ : «مالي ولهم ، يسْألوني عمَّا لا أدْري ، إنَّما أنا عَبْدٌ لا

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣٧– ٣٨؛ وقارن ، البيروني : الآثار الباقية ٤٠– ٤١؛ ابن منظور : لسان العرب ٤: ١٢٥؛ الزبيدي : تاج العروس ٢: ٣٣٥.

عِلْم لي[a] إلَّا ما عَلَّمَني رَبّي» ؛ ثم قال : «أَبْلِغْني وَضوءًا» ، فتَوَضَّأ ثم قامَ إلى مَسْجد بَيْته فرَكَعَ رَكْعَتَيْن ، فلم يَنْصَرف حتى عرفتُ السُّرورَ في وَجْهه والبِشْر ، ثم انْصَرَفَ فقال : «أَدْخِلْهم ، ومن وَجَدْت بالباب من أصْحابي فأَدْخِله» ؛ قال : فأَدْخَلْتهم ، فلمَّا وَقَفُوا إلى رَسُول الله ﷺ قال لهم : «إن شِئْتُم أَخْبَرْتُكم عمَّا أَرَدْتُم أن تَسْألوني قَبْل أن تتكلَّموا ، وإن أَحْبَبْتُم تكلَّمْتم وأَخْبَرْتُكم» ؛ قالوا : بَلَى ، أَخْبِرْنا قبل أن نتكلَّم ؛ قال : «أَحْبَبْتُم أن تَسْألوني عن ذي القَرْنَيْن ، وسأُخْبِرُكُم عَمَّا تَجِدُونه مَكْتوبًا عندكم ، إنَّ أَوَّلَ أَمْرِه أنَّه غُلامٌ من الرُّوم أُعْطِيَ مُلْكًا ، فسارَ حتى أَتَى ساحِلَ البحر من أرض مصر فابْتَنَى عنده مَدينَةً يُقالُ لها الإسْكَنْدَرية .

فلمَّا فَرَغَ من بِنائِها أتاهُ مَلَكٌ فعَرَجَ به حتى اسْتَقَلَّه فرَفَعَه ، فقال : انْظُر ما تَحْتَك ؟ فقال : أَرَى مَدينَتي وأَرَى مَدائِنَ معها . ثم عَرَجَ به فقال : انْظُر . فقال : قد اخْتَلَطَت مَدينتي مع المَدائِن فلا أَعْرِفها . ثم زادَ فقال : انظر . فقال : أَرَى مَدينَتي وَحْدَها ولا أَرَى غيرها . قال له المَلَك : إنَّما تلك الأَرْض كلّها ، والذي تَرَى يُحيط بها هو البحر ، وإنَّما أرادَ رَبُّك أن يُريك الأَرْض ، وقد جَعَلَ لك سُلْطانًا فيها سوف تُعلِّم الجَاهِل وتُثَبِّت[b] العَالِم . فسارَ حتَّى بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْس ، ثم سارَ حتَّى بَلَغَ مَطْلَعَ الشَّمْس ، ثم أَتَى السَّدَّيْن ، وهما جَبَلان لَيِّنان يَزْلَقُ عنهما كلُّ شيءٍ ، فَبَنَى السَّدّ . ثم جازَ يَأْجُوج ومَأْجُوجَ ، فوَجَدَ قومًا وجُوههم وُجُوه الكِلاب يُقاتِلون يَأْجُوج ومَأْجُوج ، ثم قَطَعَهُم فوَجَدَ أُمَّةً قِصارًا يُقاتِلون القَوْمَ الذين وُجوههم وُجُوه الكِلاب ، ووَجَد أُمَّةً من الغَرانيق يُقاتِلون القَوْمَ القِصار ، ثم مَضَى فوَجَدَ أُمَّة من الحَيَّات تَلْتَقِم الحَيَّة منها الصَّخْرَة العَظيمَة ، ثم أَفْضَى إلى البَحْر المُدَبّر بالأَرْض» ؛ فقالوا : نَشْهَد أنَّ أَمْرَه هكذا كما ذَكَرْت ، وَأَنَّا نَجِده هكذا في كِتابِنا .

وعن خالِد بن مَعْدان الكِلاعيّ أنَّ رَسولَ الله ﷺ سُئِلَ عن ذِي القَرْنَيْن فقال : «مَلِكٌ مَسَحَ الأَرْضَ من تَحْتها بالأَسْباب» ؛ قال خالِدٌ : وسَمِعَ عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ رَجُلًا يقول ياذا القَرْنَيْن ، فقال : اللَّهم غُفْرًا ، أما رَضيتُم أن تُسَمُّوا بالأَنْبياء حتى تَسَمَّيْتم بالملائِكَة [1] !

وقال قَتادَةُ عن الحَسَن : كان ذو القَرْنَيْن مَلِكًا ، وكان رَجُلًا صالحًا ؛ قال : وإنَّما سُمِّيَ ذا القَرْنَيْن لأنَّ عَلِيًّا ـ رضي الله عنه ـ سُئِلَ عن ذي القَرْنَيْن فقال : لم يَكُن مَلَكًا ولا نَبِيًّا ، ولكن كان

---

a) بولاق : لا أعلم . b) بولاق : يعلم ... يثبت .

---

[1] انظر فيما يلي ٤١٧ نقلًا عن الحيوان للجاحظ .

عَبْدًا صالحًا أَحَبَّ الله فأَحَبَّه الله ، ونَصَحَ لله فنَصَحَه الله ، بَعَثَه الله - عَزَّ وجَلَّ - إلى قَوْمِه فضَرَبوه على قَرْنِه[a] فماتَ ، [b]فأَحْياه الله ثم بَعَثَه إلى قومه فضَرَبوه على قَرْنِه فمات[b] فسُمِّيَ ذا القَرْنَيْنْ .

ويُقالُ إنَّما سُمِّيَ ذا القَرْنَيْنْ لأنَّه جاوَزَ قَرْنَي الشَّمْس من المَغْرِب والمَشْرِق .

ويُقالُ إنَّما سُمِّيَ ذا القَرْنَيْن لأنَّه كان له غَديرَتان من شَعْر رأْسِه يَطَأ فيهما ، وقيل بل كان له قَرْنانَ صَغيران تُواريهما العِمامَة .

وعن ابن شِهَاب : إنَّما سُمِّيَ ذا القَرْنَيْن لأنَّه بَلَغَ قَرْنَ الشَّمْس من مَغْرِبها وقَرْن الشَّمْس من مَطْلِعها[c] [1] .

وعن عبد الله بن عَمْرو بن العَاص أنَّه قال : كان أَوَّلُ شأْن الإسْكَنْدَرية أنَّ فِرْعَوْنَ اتَّخَذَ بها مَصانِعَ ومَجالِسَ ، وكان أَوَّلُ من عَمَّرَها وبَنَى فيها ، فلم تَزَل على بِنائِه ومَصانِعِه . ثم تَداوَلَها مُلوكُ مصر بعده ، فَبَنَت دَلُوكَة بنت زَبّاء منارَةَ الإسْكَنْدَرية ومنارَة بُوقير بعد فِرْعَوْن . فلمَّا ظَهَرَ سُلَيْمان بن داود - عليهما السَّلام - على الأَرْض اتَّخَذَ بها مَجْلِسًا/ وبَنَى فيها مَسْجِدًا . ثم إنَّ ذا ١٤٨ظ
القَرْنَيْن مَلَكها فهَدَمَ ما كان من بِناء المُلوك والفَراعِنَة وغيرهم ، إلَّا بناءَ سُلَيْمان لم يَهْدِمه ولم يُغَيِّره ، وأَصْلَح ما كان رَثَّ منه ، وأَقَرَّ المنارَة على حالِها ، ثم بَنَى الإسْكَنْدَرِية من أَوَّلِها بناءً يُشْبه بَعْضُه بعضًا . ثم تَداوَلها الملوكُ بعده من الرُّوم وغيرهم ، لَيْس مِنْ مَلِكٍ إلَّا يكون له بها بِناءٌ يَضَعُه بالإسْكَنْدَرية يُعْرَف به ويُنْسَب إليه [2] .

قال ابنُ لَهيعَة : وبَلَغَني أنَّه وُجِدَ بالإسْكَنْدَرية حَجَرٌ مَكْتوبٌ فيه : «أنا شَدَّادُ بن عاد ، وأنا الذي نَصَبَ العِماد ، وَحيد الأَحْياد ، وشَدّ بذِراعه الواد ، بَنَيْتهن إذ لا شَيْبٌ ولا مَوْتٌ ، وإذ الحِجارَة في اللِّين مثل الطِّين» [3] .

وفي رِوايَة : «وكَنَزْتُ في البحرَ كنزًا على اثْني عشر ذراعًا ، لن يُخْرِجه أَحَدٌ حتى تُخْرِجه أُمَّةُ محمدٍ ﷺ» ؛ قال ابنُ لَهيعَة : والأَحْياد كالمَغَار [4] .

وقال أبو عليّ القالي في كتاب «الأمالي» : وأَنْشَدَ ابنُ الأَعْرابي وغيره [5] :

---

a) بولاق : قرنيه . b-b) ساقط من بولاق . c) بولاق : شرقها .

---

[1] قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢:٨ - ٩ .
[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر٣٨ - ٤١ .
[3] نفسه ٤١ .
[4] نفسه ٤١ .
[5] القالي : الأمالي ، القاهرة ١٩٢٦ ، ١:٢٣٤ وقارن أيضًا ، ابن منظور : لسان العرب ١٤:٤٢ - ٤٣ ؛ الزبيدي :=

[الرجز]

تَسْأَلُني عن السِّنين كَمْ لي   فقلت لو عُمِّرْتُ عُمْرَ الحِسْل
أو عُمْرَ نوح زَمَن الفِطَحْل

وفي رواية :

[الرجز]

لو أنّني أوتيت علم الحُكْل   عِلْم سُلَيمان كَلام النَّمْل
وعِشْتُ دَهْرًا زَمَنَ الفِطَحْل   أيام كان الصَّخْرُ مثل الوَحْل
ليت رَهْن هِرَم أو قَتْل[a]

وقال آخرُ : زَمَنُ الفِطَحْل : إذِ السَّلام يُطاب[b]؛ وعندهم أنَّ زَمَنَ الفِطَحْل زَمانٌ كان بعد الطُّوفان عَظُمَ فيه الخِصْبُ وحَسُنَت أحْوالُ أهْله . وقال بعضُهم : زَمَنُ الفِطَحْل زَمَنٌ لم يُخْلَق[c] بعد . وقوله : «علم الحُكْل» ، الحُكْل ما لا يُسْمَعَ صَوْتُه من الحَيَوان .

هذا الرَّجز لرُؤْبَة بن العَجَّاج بن رُؤْبَة بن لَبيد بن صَخْر بن كثيف بن حَيّ بن بَكْر بن رَبيعَة بن سَعْد بن مالِك بن زَيْد مَناة بن تَميم . وذلك أنَّه وَرَد ماءً لعُكْل فرأَى فَتاةً فأَعْجَبَتْه فخَطَبها ، فقالت : أرَى سِنًّا ، فهل من مال ؟ قال : نَعم ، قِطْعَة من إبِل ؛ قالت : فهل من وَرِق ؟ قال : لا ؛ قالت : يا آل عُكْل أكْبِرًا وإمْعارًا ! فقال رُؤْبَة[1] :

[الرجز]

لمَّا ازْدَرَتْ قَدْري وقِلَّةَ إبلي   تألَّقت واتَّصلَت بعُكْلِ
خِطْبي وهَزَّت رَأْسَها تَسْتَبْلي   تَسأَلُني عن السِّنينَ كَمْ لي
فقُلْتُ لو عُمِّرْتُ عُمْرَ الحِسْل   أو عُمْرَ نُوحٍ زَمَن الفِطَحْلِ
والصَّخْرُ مُبْتَل كطِين الوَحْل   صِرْتُ رَهِينَ هَرَمٍ أو قتل

وفي رواية :

[الرجز]

لو أنّني أُوتيت عِلْمَ الحُكْل   عِلْمَ سُلَيمان كلام النَّمل

---

a) ورد هذا الرجز في بولاق بطريقة مشوّهة .   b) بولاق : رطاب .   c) بولاق : يخلف .

= تاج العروس ٨: ٦٤.

[1] مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج ، اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد ، برلين ١٩٠٣، ١٢٨، وهي من أبيات يمدح فيها ابن العمرين .

وسَأَلْتُ أبا بكر بن دُرَيْد عن زَمَنِ الفِطَحْل فقال: تَزْعُم العَرَب أنَّه زَمانٌ كانت فيه الحِجارَةُ رَطْبَة.

قال ابنُ عَبْد الحَكَم: ويُقالُ إنَّ الذي بَنَى الإسْكَنْدَرية شَدَّاد بن عَاد، والله أعْلَم [1].

وكانت الإسْكَنْدَريةُ ثلاثَ مُدُن، بعضُها إلى جنب بعض: مَنَّة [a]، وهي مَوْضِع المنارة وما والاها، والإسْكَنْدَرية ـ وهي مَوْضِع قَصَبَةِ الإسْكَنْدَرية اليوم ـ ونَقِيطَة. وكان على كلّ واحِدَةٍ منهن سُور، وسُورٌ من خَلْف ذلك على الثّلاث مُدُن يُحيط بهنّ جميعًا. وقيل كان على الإسْكَنْدَرية سبعة حُصُون منيعة، وسبعة خَنادِق [1].

قال: وإنَّ ذا القَرْنَيْنِ لمَّا بَنَى الإسْكَنْدَرية رَخَّمَها بالرُّخام الأبيض جُدُرَها وأرْضَها، فكان لِباسُهم فيها السَّواد والحُمْرة، فمن قِبَل ذلك لِبس الرُّهْبان السَّواد من نَصُوع بياض الرُّخام. ولم يكونوا يُسْرِجون فيها باللّيل من بياض الرُّخام، وإذا كان القَمَرُ أُدخل الرجل الذي يَخِيط بالليل في ضَوْء القَمَر مع بياض الرُّخام الخَيْط في ثُقْب الإبْرَة. ويُقالُ بُنِيَتَ الإسْكَنْدَرية في ثلاث مائة سنة، وسُكِنَت ثلاث مائة سنة، وخَرِبَت ثلاث مائة. ولقد مَكَثَت سبعين سنة ما يدخلُها أَحَدٌ إلَّا وعلى بَصَره خِرْقَة سَوْداء من بَياض جَصِّها وبَلاطِها، ولقد مَكَثت سبعين سنة ما يُسْتَسْرَج فيها [2].

قال: وكانت الإسْكَنْدَريةُ بَيْضَاء تُضيء باللَّيْل والنَّهار، وكانوا إذا غَرُبَت الشَّمْسَ لم يَخْرُج أَحَدٌ من بيته، ومن خَرَجَ اخْتُطِف. وكان منهم راعٍ يرعى على شاطئ البحر، فكان يَخْرُج من البحر شيءٌ فيَأْخُذ من غَنَمه، فكَمَنَ له الرَّاعي في مَوْضِع حتى خَرَج، فإذا جارية قد نَفَشَت شَعْرَها، ومانَعَتْه عن نفسها، فقَوِيَ عليها، فذَهَبَ بها إلى منزله فأَنِسَت به، فرَأَتْهُم لا يَخْرُجون بعد غُروب الشَّمْس فسألتهم، فقالوا: مَنْ خَرَج مِنّا اخْتُطِف. فهيَّأت لهم الطِّلَّسْمات، فكانت أوَّلَ من وَضَعَ الطِّلَّسْمات بمصر في الإسْكَنْدَرية. وقيل كان الرُّخامُ قد سُخِّر لهم حتى يكون من بُكْرَة إلى نصف [b] النَّهار كالعَجين، فإذا انتصفَ النَّهارُ اشْتَدَّ [3].

---

a) بولاق: منيعة. b) ساقطة من بولاق.

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٤١.
[2] نفسه ٤٢.
[3] نفسه ٤٢-٤٣.

وقال المَسْعُوديُّ : ذَكَرَ جَماعَةٌ من أهْل العِلْم أنَّ الإسْكَنْدَرَ المَقْدوني لمَّا استقامَ مُلْكُه في بلادِه ، وسارَ حتى يَخْتار أرْضًا صَحيحَة الهَواء والتُّرْبَة والماء ، حتى انتهَى إلى مَوْضِع الإسْكَنْدَرية فأصابَ فيها أثَرَ بُنْيان وعُمُدًا كثيرة من الرُّخام ، وفي وَسَطِها عَمُودٌ عظيمٌ عليه مكتوب بالقَلَم المُسْنَد - وهو القَلَمُ الأوَّل من أقْلام حِمْير ومُلوك عاد - : «أنا شَدَّاد بن عاد ، شَدَدْتُ بساعِدِي الواد[a]، وقَطَعْتُ عَظيم / العِماد وشوامِخَ الجِبال والأطْواد ، وبنيتُ إرَمَ ذات العِماد ، التي لم يُخْلَق مثلُها في البلاد ، وأرَدْتُ أن أبْني هنا مَدينَة كإرَم ، وأنْقِل إليها كلَّ ذي قَدَم وكَرَم ، من جميع العَشائِر والأُمَم ، وذلك إذ لا خَوْف ولا هِرَم ، ولا اهْتمام ولا سِقَم ، فأصابَني ما أعْجَلَني ، وعمَّا أردت قَطَعَني ، ومع وُقُوعه طالَ هَمِّي وشَجَني ، وقَلَّ نَوْمي وسَكَني ، فارْتَحَلْت بالأَمْس عن داري لا لقَهْر مَلِكٍ جَبَّار ، ولا لخَوْف جَيْش جَرَّار ، ولا عن رَغْبَة ولا عن صَغار ، ولكن لتَمام المِقْدار ، وانْقِطاع الآثار ، وسُلْطان العَزيز الجَبَّار . فمَنْ رأى أثَري ، وعَرَفَ خَبَري وطُول عُمْري ونَفَاذ بَصَري وشِدَّة حَذَري ، فلا يَغْتَرَّ بالدُّنْيا بَعْدي ، فإنَّها غَرَّارَة غَدَّارَة ، تأْخُذ منه ما تُعْطي ، وتَسْتَرْجِع منه ما تُؤْتي ...» ، وكلامٌ كثيرٌ يُري فَناء الدُّنْيا ويَمْنَع من الاغْتِرار بها والسُّكون إليها . …:١

فنَزَلَ الإسْكَنْدَرُ مُتفكِّرًا يتدبَّر هذا الكلام ويَعْتَبِره ، ثم بَعَثَ يَحْشُر الصُّنَّاع من البلاد ، وخطَّ الأساس ، وجَعَلَ طولَها وعرَضها أميالًا ، وجَمَعَ إليها العُمُد والرُّخام ، وأتَتْه المراكِب فيها أنْواع الرُّخام وأنْواع المَرْمَر والأحْجار من جَزيرة صِقِلِّيَّة وبلاد إفريقية وإقْريطش وأقاصي بَحْر الرُّوم ممَّا يلي مَصَبّه نحو أقْيانُس ، وحملَ إليه أيضًا من جَزيرَة رُودُس .

وأمَرَ الفَعَلَة والصُّنَّاع أن يدوروا بما رُسِمَ لهم من أساس سُور المَدينَة ؛ وجَعَلَ على كلِّ قِطْعَة من الأرض خَشَبَة قائِمَة ، وجَعَلَ من الخَشَبَة إلى الخَشَبَة حِبالًا مَنوطَة بعضُها ببعض ، وأوْصَلَ جميع ذلك بعَمودٍ من الرُّخام ، وكان أمام مَضْرَبه ، وعَلَّق على العَمُود جَرَسًا عَظيمًا مُصوِّتًا ، وأمَرَ الناسَ والقُوَّام على البَنَّائين والفَعَلَة والصُّنَّاع أنهم إذا سَمِعُوا صوتَ ذلك الجَرَس وتحرَّكَت الحِبالُ ، وقد عَلَّق على كلِّ قطعَةٍ منها جَرَسًا صغيرًا ، حَرِصوا على أن يَضَعوا أساسَ المدينة دَفْعَةً واحِدَةً من سائِر أقْطارِها ، وأحَبَّ الإسْكَنْدَر أن يَجْعَل ذلك في وَقْتٍ يَخْتاره ، وطالِع سَعْد . فحرَّكَ الإسْكَنْدَرُ رأسَه وأخَذَتْه نَعْسَة في حالِ ارْتِقابِه الوَقْت المَحْمُود ، فجاءَ غُرابٌ فجَلَسَ على حَبْل الجَرَس الكبير الذي فَوْقَ العَمُود فحرَّكَه ، وخَرَج صوتُ الجَرَس ، وتحرَّكَت الحِبالُ وخَفَقَ ما عليها

---

a) مروج الذهب : البلاد .

من الأجْراس الصِّغار، وكان ذلك معمولًا بحركاتٍ هندسية وحِيَل حِكْمية. فلمَّا رأى الصُّنَّاعُ تلك الحِبال قد تحرَّكَت، وسَمِعوا الأصْواتَ، وَضَعُوا الأساسَ دَفْعَةً واحِدَةً، وارْتَفَعَ الضَّجيجُ بالتَّحْميد والتَّقْديس. فاسْتَيْقَظَ الإسْكَنْدَر من رَقْدَته، وسأل عن الخَبَر فأُخْبِر بذلك، فأُعْجب وقال: «أَرَدْتُ أمرًا وأرادَ الله غيره، ويأْبَى الله إلَّا ما يُريد؛ أَرَدْتُ طولَ بقائِها، وأرادَ الله سُرْعَة فَنائِها وخَرابِها وتَداوُل الملوك إيَّاها»[1].

وإنَّ الإسْكَنْدَرَ لمَّا أَحْكَمَ بناءَها [a]، وثَبَّتَ أساسَها، وجَنَّ الليلُ عليهم، خَرَجَت دوابُّ البَحْر فأَتَت على جَميع البُنْيان، فقال الإسْكَنْدَر حين أَصْبَح: «هذا بَدْءُ الخَراب في عِمارَتها، وتَحَقُّق مُراد الباري سبحانه من زَوالِها». فتَطَيَّر من فِعْل الدَّواب، فلم تَزَل البُناةُ في كلِّ يومٍ تَبْني وتُحكم ويُوَكِّل من يَمْنَع الدَّواب إذا خَرَجَت من البحر، فيُصْبِحُون وقد خَرَجَت وخَرَّبَت البُنْيان. فقَلِقَ الإسْكَنْدَرُ لذلك وراعَه ما رأى من البَحْر، فأَقْبَل يُفَكِّر ما الذي يَصْنَع، وأيّ حِيلَة تَنْفَع في ذلك، حتى تَدْفَع الأذِيَّة عن المدينة، فسَنَحت له الحِيلَة عند خُلُوِّه بنفسه وإيراده الأُمُور وإصْدارِها. فلمَّا أَصْبَحَ دَعَا الصُّنَّاعَ فاتَّخذوا له تابوتًا من الخَشَب طوله عشرة أَذْرُع في عَرْض خمسة أَذْرُع، وجُعِلَت فيه جامات من الزُّجاج قد أُحاطَ بها خَشَبُ التابُوت باسْتِدارَتِها، وقد أُمْسِكَ ذلك بالقار والزِّفْت وغيره من الأَطْلِيَة الدَّافِعَة للماء حَذَرًا من دُخول الماء إلى التابُوت، وقد جُعِل فيها مواضِعُ للحبال.

ودَخَلَ الإسْكَنْدَرُ في التابُوت ورَجُلان من كُتَّابه مِمَّن له عِلْمٌ بإتْقان التَّصْوير، وأَمَرَ أن تُسَدّ عليه الأبْواب، وأن تُطْلَى بما ذَكَرْنا من الأَطْلِيَة، وأَمَرَ بمَرْكَبَيْن عظيمين فأُخْرِجَا إلى لُجَّة البحر وعُلِّق في التابوت من أَسْفَله مُثْقلات الرَّصاص والحَديد والحِجَارة لتَهْوي بالتابوت سِفْلًا، وجَعَلَ التابوتَ بين المركبين، وأَلْصَقَهما بخَشَب بينهما لئلَّا يَفْتَرِقا، وشَدَّ حِبال التابُوت إلى المركبين وطَوَّل حِبالَه، فغاصَ التابُوت حتى انتهى إلى قَرار البحر؛ فنَظَروا إلى دَواب البَحْر وحَيَوانِه من ذلك الزُّجاج الشَّفَّاف في صَفَاء ماءِ البَحْر، فإذا بصُور الشَّيَاطين على مِثال النَّاس، وفيهم من له مثل رُؤوس السِّبَاع وفي أَيْديهم الفُئُوس مع بَعْضِهم، وفي أيدي بَعْضهم المناشِير والمَقامِع يحكون بذلك صُنَّاع المَدينَة والفَعَلَة وما في أَيْديهم من آلات البِناء؛ فأَثْبَتَ الإسْكَنْدَرُ ومَنْ معه تلك الصُّوَرَ، وحَكَوْها بالتَّصوير في القَراطيس على اخْتِلاف أنْواعِها وتَشَوُّه خِلَقِها وقُدودِها. ثمّ حَرَّكَ

b) في مروج الذهب: وإن الإسكندرية لمّا أحكم بناؤها.

[1] قارن ذلك برواية بناء القاهرة في زمن جوهر القائد (فيما يلي ١: ٣٧٧).

الحِبالَ ، فلمَّا أَحَسَّ بذلك من في المركبين جَذَبُوا الحبال وأَخْرَجوا التابوت . فخَرَجَ الإسْكَنْدَر ، وأَمَرَ صُنَّاع الحَديد والنُّحاس والحِجارَة فعَمِلوا تَماثيلَ تلك الدَّواب على ما صَوَّر ، فلمَّا فَرَغُوا منها وُضِعَت على العُمُد بشاطئ البَحْر ، ثم أَمَرَهم فبَنَوا ؛ فلمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ظَهَرَت الدَّوابُّ والآفات من البَحْر ، فنَظَرَت إلى صُوَرِها على العُمُد مُقابَلَة إلى البحر ، فرَجَعَت ولم تَعُد بعد ذلك ... فبُنِيَت الإسْكَنْدَرية وشُيِّدَت .

وأَمَرَ الإسْكَنْدَرُ أن يُكْتَبَ على أَبْوابِها : «هذه الإسْكَنْدَريَّة ، أَرَدْت أن/ أَبْنِيها على الفَلاح ١:٠ والنَّجاح واليُمْن والسَّعادَة والسُّرور والثَّبات في الدُّهور ، ولم يُرِد الباري ـ عَزَّ وجَلَّ ـ مالِكُ السَّمٰوات والأَرْض ومُفْني الأُمَم أن يبنيها[a] كذلك ، فبَنَيْتُها وأَحْكَمْتُ بُنْيانَها وشَيَّدْتُ سُورَها . وآتاني الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ من كلِّ شيءٍ عِلْمًا وحِكْمَة ، وسَهَّلَ لي وُجوه الأسباب فلم يَتَعَذَّر عليَّ في العالَم شيءٌ مما أَرَدْته ، ولا امْتَنَعَ عنِّي شيءٌ مِمَّا طلبته ، لُطْفًا من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وصُنْعًا لي وصَلاحًا لِعِبادِه من أَهْل عَصْري ، والحمدُ لله رب العالمين ، لا إله إلَّا هُوَ رَبّ كل شيءٍ» . ورَسَمَ بعد هذه الكِتابَة كلَّ ما يَحْدُث ببَلَدِه من الأَحْداث بَعْده في مُسْتَقْبَل الزَّمان من الآفات والعُمْران والخَراب ، وما يَؤُول أَمْرُها إليه إلى وَقْت دُثُور العالَم .

وكان بِناءُ الإسْكَنْدَرية طَبَقات ، وتَحْتَها قَناطِر مُقَنْطَرَة عليها دُور المدينة ، يسير تَحْتَها الفارِسُ وبيده رُمْحٌ لا تَضيق به حتى يَدُور جميع تلك الآزاج والقَناطِر التي تحت المدينة . وقد عَمِلَ لتلك العُقُود والآزاج مَخارِيق ، ومُتَنَفَّسات للضِّياء ، ومَنافِذ للهَوَاء . وقد كانت الإسْكَنْدَريَّةُ تُضيءُ باللَّيْل بغير مِصْبَاح لشِدَّة بَياض الرُّخام والمَرْمَر ، وكانت أَسْواقُها وشَوارِعُها وأَزِقَّتُها مُقَنْطَرَة كلُّها لا يُصيب أَهْلَها شيءٌ من المَطَر . وكان عليها سبعةُ أَسْوار من أَنْواع الحِجارَة المختلفي اللَّوْن[b] ، بينها خَنادِق ، وبين كلِّ خَنْدَق وسُور فضول ، ورُبَّما تعلَّق في المَدينَة شِقاق الحَرير الأَخضر لاخْتِطاف بَياض الرُّخام أَبْصارَ الناس لشِدَّة بَياضِه .

فلمَّا أَحْكَمَ بِناءَها وسَكَنَها أَهْلُها ، كانت آفاتُ البحر وسُكَّانه ـ على ما زَعَم الإخْبارِيون من المصريين والإسْكَنْدَريين ـ تَخْتَطِف باللَّيْل أَهْلَ المدينة ، فيُصْبِحون وقد فُقِد منهم العَدَدُ الكثير ؛ فلمَّا عَلِمَ بذلك الإسْكَنْدَرُ اتَّخَذَ الطِّلَّسْمات على أَعْمِدَة هنالك تُدْعى المَسَالّ ، وهي باقية إلى هذه الغاية ، كلُّ واحِدٍ من هذه الأَعْمِدَة على هيئَة السَّرْوة ، وطولُ كلِّ واحِدٍ منها

---

a) بولاق : يثبتها ، مروج : أبنيها . b) بولاق : المختلفة الألوان .

ثمانون ذِراعًا، على عُمُدٍ من نُحاس، وجَعَلَ تحتها صُوَرًا وأشْكالًا وكِتابَة [١].

قال كاتِبُهُ [a]: فيما تَقَدَّم من حكاية ابن وَصيف شاه ما يَتَبَيَّنُ به وَهْم ما نَقَلَه المَسْعودي من أنَّ الإسْكَنْدَرَ هو الذي عَمِلَ التَّابوت حتى صَوَّر أشْكالَ حيوانات البحر، فإنَّ ابنَ وَصيف شاه أَعْرَفُ بأخبار أهْل مصر. وكذلك ما ذَكَرَه المَسْعُودي من أنَّ المَسالَّ من عَمَل الإسْكَنْدَر وَهْمٌ أيضًا، بل هذه المَسَال هي المَنَايِر التي كان يُنَوَّر عليها، والأعْلام التي كانت مُلوكُ مصر القُدَماء تَنْصِبها. وهي من أعْمال مُلوك القِبْط الأُوَل، ومن أعْمال الفَراعِنَة الذين مَلَكوا مصر من قَديم الزَّمان.

ذِكْرُ الإسْكَنْدَر [٢]

هو الإسْكَنْدَرُ بن فِلِيبُشْ بن آمَنْتَه بن هِرَكْلشْ الجَبَّار الذي هو ابن الإسْكَنْدَر الأَعْظَم. وَلِيَ أبوه فِلِيبُش المُلْك في بَلَد مَجْدونية خَمْسًا وعشرين سنةً، اسْتَنْبَطَ فيها ضُروبًا من المُنْكَر، وابْتَدَع أنْواعًا من الشَّرِّ تَقَدَّم فيها كلَّ من وَلِيَ المُلْك بها قَبْله. وكان في أوَّل أَمْره قد جَعَلَه أخوه الإسْكَنْدَر رَهينَةً عند أَميرٍ من الرُّوم [٣]، فأقامَ عنده ثلاث سنين، وكان فَيْلسوفًا، فتَعَلَّم عنده ضُروبَ الفَلْسَفَة.

فلمَّا قُتِلَ أخوه الإسْكَنْدَر، اجْتَمَعَ الناسُ على تَوْلية فِلِيبُش، فوَلَّوه أميرًا، فقامَ في السُّلْطان مُقامًا عَظيمًا، فحارَب الرُّومَ وغَلَبَ عليهم، ومَضَى إلى البَرِّيَّة فقَتَلَ بها من الناس آلافًا، وغَلَب على مَدائن، فاجْتَمَع له جَمْعٌ لا يُقاد وجَيْشٌ لا يُرام، فأَذَلَّ جَميعَ الرُّوم، وذَهَبَت عينُه في بعض الحُروب. وعَمَّ [b] البُلْدان والمَدائن غارَةً [c] وهَدْمًا وسَبْيًا وانْتِهابًا.

---

a) بولاق: مؤلفه، وعلى هامش الأصل: في الأصل: كاتبه. b) بولاق: غمر. c) بولاق: عمارة.

---

[١] المسعودي: مروج الذهب ٢:٩٩-١٠٤.

[٢] هذا الفصل جميعه نَقَلَه المقريزي ملخَّصًا من الترجمة العربية لكتاب «تاريخ العالم» لباولوس أوروسيوس Paulus Orosius الذي يسميه المؤلفون العرب هروشيوش، وقارن مع المسعودي: مروج الذهب ٢:٨-١٠. وشغل الإسكندر اهتمام الباحثين منذ وفاته وتعدّدت الكتب والدراسات حوله ولكن أحدث ما كتب عنه هو Pseudo-Callisthine, Le *roman d'Alexandre, la vie et les hauts faits d'Alexandre de Macédoine,* Paris 1992; Boyle, J.A., «The Alexander Romance in the East and West», *Bulletin of the John Rylands University Library of Manchester* LX/1 (1977), pp. 13-27; Caratini, R., Alexandre le grand, Paris, 1999; La carrière, J., *La Légende d'Alexandre,* traduit du Grec et commenté par, Paris 2000; Fevre, F., Alexandre le grand, un héros de légende, Paris 1999; Alexandre le grand dans les littératures occidentales et Proche-Orientales, Paris - Université de Paris X-Nanterre 1999; Montgomery Watt, W., *EI*[2] art. *Iskandar* IV, p. 133.

[٣] عند أوروسيوس: أمير الطبانيين واسمه إبا مِنَنْده Epaminondo.

ثم حَشَد جميعَ أهْلِ بَلَدَ الرُّوم ، وعَبّأ عَسْكَرًا فيه مائتا ألف راجل وخمسون ألف فارس ، سوى من كان فيه من أصْحابه المَجْدونيين ومن غيرهم من أجْناس اليُونانيين ، يُريد غَزْوَ الفُرْس .

فبَيْنا هو يَجْمَع هذا الجَمْع نَظَرَ في تَزْويج ابنةٍ له يُقالُ لها قِلُوبَطْرَة من خَتَنِه ، أخي امْرأته وخال وَلَده ؛ الإسْكَنْدَر ، وجَلَسَ قبل العُرْس بيومَيْنْ يُحدِّث قُوَّاده إذ سُئِل عن أي المَوْتات أحَقّ أن يَتَمنَّاها الإنْسانُ ! فقال : الواجِب على الرَّجل القَويّ الظَّافِر المُجَرَّب ـ يُريدُ نَفْسَه ـ ألَّا يَتَمَنَّى المَوْتَ إلَّا بالسَّيْف فجأةً ، لئلَّا يُعَذِّبه المَرَضُ وتَحل قُوَّته الأوْجاعُ . فعُجِّل له ما تَمَنَّى في ذلك العُرْس ، وذلك أنَّه حَضَرَ لَعِبًا كان على الخَيْل بين وَلَدِه الإسْكَنْدَر وَخَتَنه الإسْكَنْدَر ، فبينما هو في ذلك غافَلَه أحَدُ أحْداث الرُّوم بطَعْنَةٍ فقتَلَه بها ثائِرًا بأبيه عندما تَمكَّن منه مُنْفَرِدًا [1] .

فوَلِيَ الإسْكَنْدَر المُلْك بعد أبيه فِلِيبُش ، وكان أوَّلُ شيءٍ أظْهَر فيه قُوَّته وعَزْمَه في بَلَد الرُّوم ، وكانوا قد خَرَجُوا عن طاعَة المَقْدونيين إلى طَاعَة الفُرْس ، فَدَرَسَهم واسْتَأْصَلَهم وخَرَّبَ مُدُنَهم وجَعَلَهم سَبْيًا مَبيعًا ، وجَعَلَ سائِرَ بلادهم وكُوَرَهم تُؤدِّي إليه الخَرَاجِ . ثم قَتَلَ جميع أخْتانِه وأكْثَرَ أقارِبه في وَقْت تَعْبئته لمُحارَبة الفُرْس [2] .

وكان جَميعُ عَسْكَره اثنين وثلاثين[a] ألف فارِس وستين ألف راجل ، وكانت مَراكِبُه خمس مائة مَرْكَب وثمانين مَرْكِبًا . فحَرَّكَ بهذه العِدَّة كِبار مُلوك الدُّنْيا ، وسارَ إلى الإسْكَنْدَرية،/ ودَخَلَ بَيْتَ المَقْدِس وقَرَّب فيه لله تعالى قُرْبانًا [3] .

وخَرَجَ يُريد مُحارَبَة دارًا[b] ، وكان في عَسْكر دارا مَلِكَ الفُرْسِ في أوَّل مُلاقاته إيّاه ستّ مائة ألف مُقاتِل ، فَغَلَبَه الإسْكَنْدَر ، وكانت إذْ ذاك على الفُرْس وَقْعَةً شَنْعاء ونَكْبَةً دَهْياء ، قُتِلَ فيها منهم عَددٌ لا يُحْصَى ، ولم يُقْتَل من عَسْكَر الإسْكَنْدَر إلَّا مائة وعشرون فارِسًا وتسعون راجِلًا .

ومَضَى الإسْكَنْدَرُ ففَتَح مَدائِنَ وانْتَهَب ما فيها ، فبَلَغَه أنَّ دارا قد عَبَّأ وأقْبَلَ نَحْوه بجَمْعٍ عظيم ، فخافَ أن يَلْحَقَه في ضِيق الجِبال التي كان فيها ، فقَطَعَ نَحْوًا من مائة ميل في سرعة

---

a) بولاق : وعشرين . b) في الأصل وعند أوروسيوس في جميع المواضع «داري» ، وقد فضلت رسمها بالألف .

---

[1] أوروسيوس : تاريخ العالم ٢٢٠-٢٢٦ ملخصًا .

[2] نفسه ٢٢٩ .

[3] نفسه ٢٢٩- ٢٣٠ .

عَجيبَة حتى بَلَغَ مَدينَة طَرَسُوس، وكادَ يَهْلِكُ لِفَرْط البَرْد حتى انْقَبَض عَصَبُه، فلاقاه دارا في ثلاث مائة ألف راجِل ومائة ألف فارِس.

فلمَّا الْتَقى الجَمْعان كادَ الإسْكَنْدَر يفزع[a] لكَثْرَة ما كان فيه دارا وقِلَّة ما كان فيه، واستحر[b] القِتالُ بينهما وباشَرَ القُوَّادُ الحَرْبَ بأنْفسهم، وتنازَل الأبْطالُ، واخْتَلَفَ الطَّعْنُ والضَّرْبُ، وضاقَ الفَضاءُ بأهْله، فباشَرَ كِلا الملكين الحَرْب بأنْفُسِهما: دارا والإسْكَنْدَر، وكان الإسْكَنْدَر أكْمَل أهْل زَمانِه فُروسية وأَشْجَعَهم وأقْواهَم جِسْمًا، فباشَرا حتى جُرِحَا جميعًا، وتمادَى الحَرْب بينهما حتى انْهَزَم دارا، ونَزَلَت الوَقيعَةُ بالفُرْس، فقُتِل من راجِلهم نحوٌ من ثمانين ألفًا، ومن فُرْسانهم نحوٌ من عشرة آلاف، وأُسِرَ منهم نحوٌ من أرْبعين ألفًا، ولم يَسْقُط من عَسْكَر الإسْكَنْدَر[c] إلَّا مائتان وثلاثون راجِلًا ومائة وخمسون فارِسًا. فانْتَهَبَ الإسْكَنْدَرُ جَميعَ عَسْكَر الفُرْس، وأصابَ فيه من الذَّهب والفِضَّة والأَمْتِعَة الشَّريفة ما لا يُحْصَى كَثْرَةً، وأُصيبَ من جُمْلَة الأسارَى أمّ دارا وزَوْجَته وأخْته وابْنَتاه، فطَلَب دارا من الإسْكَنْدَر فِدْيَتهن بنصف مُلْكِه فلم يُجِبْه إلى ذلك [1].

فعَبَّأ دارا مَرَّةً ثالثة وحَشَدَ الفُرْس عن آخِرهم، واسْتَجاش بكلِّ من قَدَرَ عليه من الأُمَم، فبَعَثَ الإسْكَنْدَرُ قائِدًا في أُسْطول[2] للغارَة على بَلَد الفُرْس، ومَضَى الإسْكَنْدَرُ إلى الشَّام فتَلَقَّاه هنالك مُلوكُ الدُّنْيا خاضِعين له، فعَفَا عن بعض ونَفَى بعضًا وقَتَلَ بعضًا، ومَضَى إلى أحْواز طَرَسُوس - وكانت مَدينَةً زاهِرَةً قديمَةً عظيمةَ الشَّأنِ، وأهْلها قد وَثَقوا بعَوْن أهْل إفريقية لهم لصِهرٍ كان بينهم - فحاصَرَهم فيها حتى افْتَتَحها، ومَضَى منها إلى رُودَس وإلى مصر فانْتَهَب الجميع، وبَنَى مَدينَة الإسْكَنْدَرية بأرْض مصر، وقال هُروشْيُوش: وله في بُنْيانِها أَخْبارٌ طَويلَة وسياساتٌ كَرِهْنا تَطْويل كِتابِنا بها [3].

ثم إنَّ دارا لمَّا يَئِس من مُصالَحَته أَقْبَل في أربع مائة ألف راجِل ومائة ألف فارِس فتَلَقَّى الإسْكَنْدَر مُقْبِلًا من ناحية مصر، في أعْمال مَدينَة طَرَسُوس، فكانَت بينهما مَعْرَكَةٌ عجيبةٌ شَنيعَةٌ، اجْتِهادًا من الرُّوم على ما كانوا خَبَرُوه واعْتادوه[d] من الغَلَبَة والظَّفَر، واجْتِهادًا من الفُرْس بالتَّوْطين على

---

a) بولاق: يفر. b) بولاق: ووقع. c) عند أوروسيوس: المجدونيين. d) بولاق: واعتادوا.

[1] أوروسيوس: تاريخ العالم ٢٣٠-٢٣١. ابن وب.

[2] عند أوروسيوس: يدعي برمينون Parmenion

[3] أوروسيوس: تاريخ العالم ٢٣١.

الهَلاك وتَفْضيل المَوْت على الرِّق والعُبوديَّة ، فقلَّمَا يُحْكَى عن مَعْرَكَةٍ كان القَتْلُ فيها أكثر منه في تلك المعرَكَة .

فلمَّا نَظَرَ دارا إلى أصْحابِه يُتَغَلَّب عليهم ويُهْزَمون ، عَزم على اسْتِعْجال المَوْت في تلك الحَرْب بالمباشَرَة لها بنفسه والصَّبْر حتى يُقْتَل مُعْتَرِضًا للقَتْل ، فلَطَفَ به بعضُ قُوَّادِه حتى سَلُّوه[a] فانْهَزَم ، وذَهَبَت قُوَّةُ الفُرْس وعزُّهم ، وذلَّ بعدَها سُلْطانُهم ، وصارَ بَلَدُ المَشْرِق كلّه في طاعَة الرُّوم ، وانْقَطَع مُلْك الفُرْس مُدَّة أربع مائة عام وخمسين عامًا .

واشْتَغَل الإسْكَنْدَرُ بتَحْصيل ما أصابَ في عَسْكَر الفُرْس والنَّظَر فيه ، وقِسْمَته على عَسْكَره ثلاثين يومًا .

ثم مَضَى إلى مَدينَة الفُرْس[١] التي كانت رأس مَمْلكتهم[b]، والتي اجْتَمَعَت فيها أموالُ الدُّنْيا ونِعَمُها فهَدَمَهَا ونَهَبَ ما فيها ، فبَلَغَه عن دارا أنَّه صارَ عند قَوْمٍ [من اللجدمونيين][c] مُكَبَّلًا في كُبُول من فِضَّة ، فتهيَّأ وخَرَجَ في ستة آلاف فوَجَدَه بالطَّريق مَجْروحًا جِراحات كثيرة ، فلم يَلْبَث أن هَلَكَ منها . فأَظْهَرَ الإسْكَنْدَرُ الحُزْنَ عليه والمَرْثِيَّة له ، وأَمَرَ بدَفْنِه في مَقابِر الملوك من أهل مَمْلَكته .

وكان في أَمْر هذه الثَّلاث معارك عِبْرَة لمن اعْتَبَر ، ووَعْظٌ لمن اتَّعَظَ ، إذ قُتِلَ فيها من أهْل مَمْلَكَة واحِدةٍ نحو من خمسة عشر ألف ألف[d] بين راكِبٍ وراجِلٍ من أهْل بلد آسْيا ـ وهي العِراق ـ وقد كان قُتِلَ من أهْل تلك المَمْلَكَة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف إلى ألف ألف ما بين راكِب وراجِل ، من أهْل بَلَد العِراق والشَّام وطَرَسُوس ومصر وجَزيرة رُودَس وجَميع البُلْدان الذين دَرَسَهُم الإسْكَنْدَرُ أجْمَعين[٢].

وكان سُلطانُ الدُّنْيا مَقْسومًا بين قُوَّادِه بعد ما زَلْزَل بدَواهيه العَظيمَة العالَم كلّه ، وعَمّ أهْله بعضًا بالمنايا الفظيعة ، وبعضًا بالتَّوْطين عليها والمُباشَرَة لأَهْوالِها . وأَوْصَى عند وَفاتِه أن يُلَقَّب كلُّ قائِمٍ في اليونانيين بعده بـ«بَطْلَمْيوس» تَهْويلًا للأعْداء ، لأنَّ معناه «الحَرْبي»[٣].

---

a) بولاق : سلوه . b) عند أوروسيوس : التي كانت بيضة الفرس . c) زيادة من أوروسيوس . d) صوبه الدكتور بدوي في هامش أوروسيوس إلى : خمسة عشر مائة ألف – أي مليون ونصف – كما في الأصل اللاتيني Quinquiens.

---

[١] هي مدينة Persepolis برسبولس .

[٢] أوروسيوس : تاريخ العالم ٢٢٩ – ٢٣٣.

[٣] قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢: ٣١.

فهذا هو الصَّحيح من خَبَرِ الإسْكَنْدَر، فلا يُلْتَفَت إلى ما خالَفَه.

ويُقالُ إنَّه كان أَشْقَر أَزْرَق، وهو أَوَّلُ من سَمَرَ باللَّيْل، وكان له قَوْمٌ يُضْحِكونَه ويُحْكوا له الخُرافات، يُريد بذلك حِفْظ مُلْكِه وحِراسَة نَفْسه، لا اللَّذَّة. وبه اقْتَدَى المُلوكُ في السَّمر واتّخاذ المُضْحِكِين والمُخَرِّفين [1].

ذِكْرُ تأريخ الإسْكَنْدَر

١٥٢ /قال أبو الرَّيْحان محمد بن أحمد البِيرُوني [2]: تأريخُ الإسْكَنْدَر اليُوناني - الذي يُلَقِّبه بعضُهم بذي القَرْنَيْن - على سِني الرُّوم، وعليه عَمَلُ أَكْثَر الأُمَم، لمَّا خَرَجَ من بِلاد يُونان، وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة لِقِتال دارا مَلِك الفُرْس.

ولمَّا وَرَدَ بَيْتَ المَقْدِس أَمَرَ اليَهود بتَرْك تأريخ دَاود ومُوسَى - عليهما السَّلام - والتَّحَوُّل إلى تأريخه؛ فأَجابُوه وانْتَقلوا إلى تأريخه، واسْتَعْمَلوه فيما يَحْتاجون إليه، بعد أن عَمِلُوه من السَّنة السادسة والعشرين لميلاده - وهو أَوَّل وَقْت تَحَرُّكه - لِيَتِمُّوا ألف سنة من لدن مُوسَى عليه السَّلام؛ وَبَقَوْا مُعْتَصمين بهذا التأريخ ومُسْتَعْمِلين له، وعليه عَمَلُ اليُونانيين، وكانوا قَبْلَه يُؤَرِّخُون بخُروج يونان بن نُورَس عن بابِل إلى المغرب [3].

وأَوَّلُ تأريخ الإسْكَنْدَر يوم الاثنين أَوَّل تشرين الأَوَّل، ومُوافِقه اليوم الرابع من بابَه. ومَبادي الأَيَّام عندهم من وَقْت طُلوع الشَّمْس إلى وَقْت غُروبها، وإلى أن يُصْبح الصَّباح وتَطْلع الشَّمْسُ فقد كَمُل يومٌ بلَيْلَته. ومبادي الشُّهور تَرْجِع إلى عَدَدٍ واحِد له نَظْمٌ يجري عليه دائِمًا، وعَدَدُ شُهور سنَتِهم اثنا عشر شهرًا يُخالِف بعضُها بعضًا في العَدَد.

وهذه أسْماؤُها ([a]وعَدَدُ أيَّام كلِّ شَهْر منها[a]):

تِشْرين الأَوَّل: أَحَدَ وثلاثون يومًا. تِشْرين الثَّاني: ثلاثون يومًا. كانُون الأَوَّل: أَحَدٌ وثلاثون يومًا. كانُون الثّاني: أَحَد وثلاثون يومًا. شُبَاط: ثمانية وعشرون يومًا ورُبْع.

(a-a) ساقطة من الأصل.

---

[1] هذا النص موجود عند ابن النديم: الفهرست ٣٦٣.

[2] اعتمد المقريزي في كلّ ما يخص تواريخ الأمم المختلفة على ما ذكره البيروني. انظر فيما يلي ٣٣٢، ٣٥٤-٣٦٧، ٧٦٤-٧٦٥.

[3] البيروني: الآثار الباقية ٢٨.

آذار : أَحَدٌ وثلاثون يومًا . نِيسان : ثلاثون ثلاثون يومًا . ثلاثون تَمُّوز : أَحَدٌ وثلاثون يومًا . آبُ : يومًا . أَيَار : أحَدٌ وثلاثون يومًا . حُزَيْران : أَحَدٌ وثلاثون يومًا . أَيْلُول : ثلاثون يومًا .

فَسَبْعة أَشْهَر ، كلُّ شهر منها أَحَدٌ وثلاثون يومًا ، وأربعة أشهر كلّ شَهْر منها ثلاثون يومًا ، وشَهْرٌ واحِد ثمانية وعشرون يومًا ورُبْع يوم - وذلك أنّهم جَعَلوا شَبَاط كلّ ثلاث سنين مُتواليات ثمانية وعشرين يومًا ، وجَعَلوه في السَّنَة الرابعة تسعة وعشرين يومًا - فيكون عِدَّةُ أيَّام سَنَتِهم ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا ورُبْع يوم ، ويَجْعَلون السَّنَة الرابعة ثلاث مائة وستة وستين يومًا ويُسَمُّونها السنة الكَبيسَة .

وإنَّما زادوا الرُّبع في كلِّ سَنَة ليَقْرُب عَدَد أيَّام سنتهم من عَدَد أيَّام السَّنَة الشَّمْسية ، حتى تَبْقَى أُمُورُهم على نِظامٍ واحِد ، فتكونُ شُهُور البَرْد وشُهور الحَرّ وأَوان الزَّرْع ولِقاح الشَّجر وجَنْي الثَّمر في وَقْتٍ مَعْلومٍ من السَّنَة ، لا يَتَغَيَّر وَقْتُ شيءٍ من ذلك ألبتّة [1].

وكان ابتداءُ الكَبيس في السَّنة الثَّالِثة من مُلْك الإسْكَنْدَر .

وبين يوم الاثْنين أوَّل يَوْم من تأريخ الإسْكَنْدَر هذا وبين يوم الخَميس أوَّل شَهْر المحَرَّم من السَّنة التي هاجَر نَبيُّنا محمد بن عَبْد الله بن عبد المُطَّلِب رَسُول الله ﷺ من مَكَّة إلى المَدينة تسع مائة سنة وثلاث وثلاثون سنة ومائة وخمسة وخمسون يومًا .

وبينه وبين يوم الجُمُعَة أوَّل يَوْم من الطُّوفان ألفا سنة وسبع مائة سنة واثْنتان وتسعون سنة ومائة وثلاثة وتسعون يومًا .

وبين ابْتِداء مُلْك بُخْت نَصَّر وبين أوَّل تأريخ الإسْكَنْدَر أربع مائة وخمس وثلاثون سنة شَمْسِيَّة ومائتا يوم وثمانية وثلاثون يومًا .

وقال أبو بكر أحمد بن عليّ بن قَيْس بن وَحْشِيَّة في كتاب «الفِلاحَة النَّبَطِيَّة» : الشَّهر المسمَّى تَمُّوز - فيما ذَكَر النَّبطُ[a] بحَسَب ما وَجَدْت في كُتُبِهم - اسمُ رَجُلٍ كانت له قِصَّةٌ عجيبة طويلة ، وهو أنّه دَعا مَلِكًا إلى عِبادَة الكَواكِب السَّبْعَة والبُرُوج الاثْنَى عَشَر ، وأنَّ المَلِك قَتَلَه وعاشَ بَعْد

a) بولاق : القبط .

[1] قارن مع المسعودي : التنبيه والإشراف ٢١٤ ، مروج الذهب ٢ : ٣٣٧ - ٣٤٢ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٩١ - ٣٩٢

القَتْلَة ، ثم قَتَلَه قَتْلات بعد ذلك قَبيحة وفي كلِّها يعيش ، ثم ماتَ في آخِرها . وإنَّ شهورَهُم هذه كلَّ واحِدٍ منها اسْم رَجُل فاضِل عالِم كان في القَديم من النَّبْط الذين كانُوا مكان إقْليم بابِل قبل الكَشدانيين . وذلك أنَّ تَمُّوزَ هذا ليس من الكَشدانيين ولا الكَنْعانيين ولا العَبْرانيين ولا الجَرامِقَة ، وإنَّما هو من الحَنْباسيين[a] الأوَّلين .

وكذلك[b] يَقُولون في كلِّ شهورهم : إنَّها أسْماءُ رِجالٍ مَضَوا ، وإنَّ تِشْرين الأوَّل وتِشْرين الثاني اسْما أخَوَيْن كانا فاضِلَيْن في العُلوم ، وكذلك كان كانُون الأوَّل وكانُون الثَّاني ، وإنَّ شَباط اسْمُ رَجُل نَكَحَ ألْف امْرأة ـ أبْكارًا كلّهن ـ ولم يَنْسل نَسْلًا ولا وَلَدَ وَلَدًا ، فجَعَلُوه في آخر الشُّهور لنُقْصانِه عن النَّسْل ، فصارَ النُّقْصانُ من العَدَد فيه .

والصَّابِئُون من البابِليِّين والحَرْنانيين[c] جَميعًا إلى وَقْتِنا هذا يَنُوحون ويَبْكُون على تَمُّوز في الشهر المُسَمَّى تَمُّوز في عيدٍ لهم فيه مَنسوب إلى تَمُّوز ، ويُعَدِّدون تَعْديدًا عظيمًا ، وخاصَّةً النِّساء ، فإنَّهن يَقُمْن هَهُنا جَميعًا ويَنُحْن ويَبْكين على تَمُّوز ، ويَهْذين في أمْره هَذَيانًا طويلًا ، وليس عندهم عِلْمٌ من أمْره أكثر من أن يَقُولوا هكذا وَجَدْنا أسْلافَنَا يَنُوحون ويَبْكُون على تَمُّوز في هذا العيد المَنْسوب إلى تَمُّوز .

[d]وللنَّصارَى ذكران[e] يَعْملونه لرَجُلٍ يُسَمَّى جُورْجيس ، أحَدُ حَوارِيي عيسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ دَعَا مَلِكًا من المُلُوك إلى دين النَّصْرانية فعَذَّبَه المَلِك بتلك القَتْلات [١].

فلا أدْري وَقَع إلى النَّصارىٰ قِصَّة تَمُّوز فأبْدَلوا مَكانَها اسم جُورْجيس وخالَفُوا الصَّابِئين في الوَقْت ، لأنَّ الصَّابِئين يَعْملون ذِكْران تَمُّوز أوَّل يوم من شهر تَمُّوز ، والنَّصارىٰ يَعْملون لجُورجيس في آخر نِيسان [٢].

---

a) بولاق : الخرناسيين وفييت : الجنبانيين والمثبت من ابن وحشية . b) بولاق والمخطوطات : ولذلك والمثبت من ابن وحشية . c) بولاق : الخرنانيين . (d-d) وردت هذه الفقرة في الأصل في نهاية الفصل . e) بولاق : والنصارى تذكر أنهم .

---

[١] دمج المقريزي نص ابن وحشية بطريقة مخلّة ونصّ ابن وحشية هو : «...جورجيس ، يزعمون أنّه قُتِل قتلات عدّة قبيحة ، ثم يعيش – زعموا – بعقب كل قتلة منها ... ثم إنه مات في آخرها في قصة يطول شرحها ، وهي مدونة في كتاب في أيدي النصارى... لكن النصارى سرقوها من الصابئين وجعلوا جورجيس أحد حواريّ المسيح وأنه دعا ملكا من الملوك إلى دين النصرانية ، فعذّبه ذلك الملك بتلك القتلات التي قتلته» .

[٢] ابن وحشية : الفلاحة النبطية ١: ٢٩٧ – ٢٩٨ ، وختم حديثه بقوله : «والذي عندي أنا ، بمقدار علمي ، أن =

ويُقالُ إنَّ بَعْضَ مُلوكِ رُومية زادَ في شهور الرُّوم كانون الثاني وشَبَاط ، فإنَّ شُهورَهم كانت إلى زَمانه عشرة أشهر كلّ شهر/ ستة وثلاثون يومًا [d].

ويُقالُ إنَّ فُيوفُيوس أوَّل من مَلَكَ مَدينَة رُومية ، وإنَّه أقامَ مَلِكًا ثلاثًا وأربعين سنة ، وزادَ كانون الثاني وشَبَاط في شُهور الرُّوم بحُكْم أنَّها كانت إلى ذلك الزَّمان عشرة أشهر كلّ شهر ستة وثلاثون يومًا.

وكان سَبَبُ نَقْص شَبَاط يومين ، وُقُوع غارَةٍ في أيَّام فِيطَن رَئيس جَيْش الرُّوم مع خُلْف وحُروب بينه وبين فُرْيوريوس آلَت إلى نُصْرَة فِيطَن وأَخْذه مَمْلَكَة الرُّوم ، وأَمَرَ بفُريُوريوس فنُودي عليه : «أَغْبا فُرْديا» [a]، وتَفْسيره : اخْرُج يا شَبَاط ، ثم غَرِقَ في البحر. وسَمَّوا شَهْر شَبَاط فُريوريوس ليكون تِذْكار سوءٍ له ، فإنَّ هذا الفِعْل كان في يومي التاسع والعشرين والثلاثين من شَبَاط ، فنَقَصوهما من شَبَاط وزادوهما في تَمُّوز وكانُون الثاني ، فجَعَلَوا كلَّ شهر منهما أحَدًا وثلاثين يومًا.

ثم بعد زَمانٍ جاءَ مَلِكٌ آخَر فقال : لا يَحْسُن أن يكون شَبَاط في وسط السَّنَة ، فنَقَلَه إلى آخِرها ، ولم تَزل الرُّومُ من ذلك الوَقْت يَتَطَيَّرون من شَبَاط.

ذِكْرُ الفَرْق بَيْنَ الإسْكَنْدَر وذي القَرْنَيْن وأنَّهما رَجُلَان

اعْلَم أنَّ التَّحْقيقَ عند عُلَماء الأَخْبار أنَّ ذا القَرْنَيْن الذي ذَكَرَه الله في كِتابِه العَزيز فقال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ...﴾ [الآيتان ٨٣، ٨٤ سورة الكهف] الآيات ، عَرَبِيٌّ قد كَثُرَ ذِكْرُه في أَشْعَار العَرَب ، وأنَّ اسمُه الصَّعْب بن ذي مَرَاثِد بن الحارِث الرَّائِش بن الهَمَّال ذي شدَّاد بن عاد بن ذي مَنْح بن عامِر المَلْطاط بن سَكْسَك بن وائِل بن حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطَان بن هُود بن عابِر ابن شالِخ بن أَرْفَخْشد بن سَام بن نُوح عليه السَّلام [1] ، وأنَّه مَلِكٌ من مُلوك حِمْيَر وهم العَرَب

---

a) في بولاق والمخطوطات : أغيا مرديا ، والضبط المثبت عن Wiet تبعا للضبط السرياني للفظ.

= القصتين جميعًا كذب ومُحال ولا يجوز أن يكون حقًّا».

[1] الاسم كما ورد في كتاب «التيجان» رواية محمد بن عبد الملك بن هشام، وهو مصدر المقريزي: الصعب بن الحارث الرائش ذي مراثد بن عمرو الهمال ذي مناح بن=

العارِبَة ، ويُقالُ لهم أيضًا العَرَب العَرْبَاء ؛ وكان ذو القَرْنَيْنُ تُبَّعًا مُتَوَّجًا ، ولمَّا وَلِيَ المُلْك تَجَبَّر ، ثم تَواضَعَ لله واجْتَمَعَ بالخِضْر [١].

وقد غَلِطَ من ظَنَّ أنَّ الإسْكَنْدَرَ بن فِلِيبُش هو ذو القَرْنَيْنُ الذي بَنَى السَّدّ ، فإنَّ لَفْظَة «ذو» عربية ، وذو القَرْنَيْنُ من أَلْقاب العَرَب مُلُوك اليَمَن ، وذاكَ رُومي يوناني [٢].

قال أبو جَعْفَر الطَّبَرِيُّ : كان الخِضْرُ في أيام أَفْرِيدون المَلِك بن أثفيان[a][٣] في قَوْلِ عامَّة عُلَماء أَهْل الكِتاب الأُوَل ، وقبل مُوسَى بن عِمْران عليه السَّلام . وقيل إنَّه كان على مُقَدِّمة ذي القَرْنَيْنُ الأكبر الذي كان على أيَّام إبراهيم الخَلِيل ـ عليه السَّلام ـ وأنَّ الخِضْرَ بَلَغ مع ذي القَرْنَيْنُ أيَّام مَسيره في البِلاد نَهْرَ الحَيَاة فشرِبَ من مائِه وهو لا يَعْلَم به ذو القَرْنَيْنُ ولا مَنْ مَعَه ، فخُلِّدَ ، وهو حيٌّ عندهم إلى الآن [٣].

وقال آخَرون : إنَّ ذا القَرْنَيْنُ الذي كان على عَهْد إبراهيم الخَلِيل ـ عليه السَّلام ـ هو أَفْرِيدون ابن أثفيان[a]، وعلى مُقَدِّمته كان الخِضْر [٤].

وقال أبو محمد عبد الملك بن هِشَام في كِتاب «التِّيجَان في مَعْرِفَة مُلوك الأزمان»[b] بعد ما ذَكَرَ نَسَب ذي القَرْنَيْنُ الذي ذَكَرْناه : وكان تُبَّعًا مُتَوَّجًا ، لمَّا وَلِيَ الملك تَجَبَّر ، ثم تَواضَعَ واجتمع بالخِضْر بِبَيْت المَقْدس ، وسارَ معه مَشارِق الأرض ومَغارِبها ، وأُوتي من كلِّ شيءٍ سببًا كما أَخْبَرَ الله تعالى ، وبَنَى السَّدَّ على يأجوج ومأجوج ، وماتَ بالعِراق [٥].

فأمَّا الإسْكَنْدَرُ فإنَّه يُونانيٌّ ، ويُعْرَف بالإسْكَنْدَر المَجْدوني .

---

a) بولاق : الضحاك وهو الاسم العربي له . b) بولاق : الزمان .

= عاد ذي شدد بن عامر بن الملطاط بن سَكْسَك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عامر ابن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح (التيجان ٨١–٨٢) .

[١] عن ابن هشام : التيجان ٨٢ ملخصًا .

[٢] قارن عن ذي القرنين ، المسعودي : مروج الذهب ٢:٨–٩؛ البيروني : الآثار الباقية ٣٦–٤٢؛ الهمداني : الإكليل Montgomery Watt, W., *EI*² art. *Iskandar* IV, p. 133.

[٣] ذكر الطبري أن بيوراسب المعروف بالازدهاق هو الذي تسميه العرب الضَّحَّاك (تاريخ ١:١٩٤) ، وأضاف أن أفريدون تزعم الفرس أن له عشرة آباء كلهم يسمى أثفيان وأنه من ولد جم شاذ الملك الذي قتله الازدهاق (أي الضَّحَّاك) (تاريخ ١:٢١٢) .

[٤] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١: ٣٦٥.

[٥] ابن هشام : التيجان ٨٢–٩٥ رواية طويلة أوجزها المقريزي في هذه العبارة .

سُئِل ابنُ عَبّاس ـ رضي الله عنهما ـ عن ذي القَرْنَيْن : ممَّن كان ؟ فقال : من حِمْيَر ، هو[a] الصَّعْب بن ذي مَراثِد الذي مَكَّنه الله تعالى في الأَرْض ، وآتاه من كلِّ شيءٍ سَبَبًا ، فبَلَغ قَرْنَي الشَّمْس ورأْس الأَرْض ، وبَنَى السَّدّ على يَأْجُوج ومأْجُوج .

قيل له : فالإسْكَنْدَر ؟ قال : كان رَجُلًا صالِحًا رُوميًّا حَكِيمًا ، بَنَى على البَحْر في إفريقية مَنارًا ، وأَخَذَ أرض رُومَة ، وأَتَى بَحْر الغَرْب ، وأَكْثَرَ عَمَل الآثار في الغَرْب من المَصانِع والمُدُن .

وسُئِل كَعْبُ الأَحْبار عن ذي القَرْنَيْن فقال : الصَّحيحُ عندنا من أَخْبارِنا وأَسْلافِنا أنّه من حِمْيَر ، وأنّه الصَّعْبُ بن ذِي مَراثِد ، والإسْكَنْدَرُ كان رَجُلًا من يُونان من وَلَد عيصو بن إسْحاق بن إبراهيم الخَليل ـ صلوات الله وسلامه عليهما[b] . ورِجالُ الإسْكَنْدَر أَدْرَكُوا المَسِيح بن مَرْيَم ، منهم جالينُوس وأَرِسْطاطاليس .

وقال الهَمْدانيّ في كتاب «الأَنْساب» : ووَلَدَ كَهْلان بن سَبَأ زَيْدًا ، فوَلَد زَيْد عَرِيبًا ومَالِكًا وغَالِبًا وعَميكَرِب وقال الهَيْثَمُ : عَميكَرِب بن سَبَأ أَخو حِمْير وكَهْلان ـ فوَلَدَ عَميكَرِب أبا مالِك فدرحا ومهليل ابني عميكرب ، ووَلَدَ غالِب جُنادَة بن غالِب ـ وقد مَلَكَ بعد مهليل بن عَميكرب ابن سَبَأ ـ ووَلَدَ عَريب عَمْرًا ، فوَلَد عَمْرو زَيْدًا والهُمَيْسِع ، ويكنى أبا الصَّعْب ، وهو ذو القَرْنَيْن الأوّل ، وهو المَسّاح والبَنّاء[1] . وفيه يقولُ النُّعْمَانُ بن بَشير[2] رضي الله عنه[c]:

[الطويل]

فمَنْ ذا يُعادِدُنا من النّاس مَعْشَرًا   كِرامًا ، فذو القَرْنَيْن مِنّا وحاتِمُ

وفيه يَقُول الحارِثيّ :

[البسيط]

سَمُّوا لَنَا واحِدًا منكم فنَعْرِفَه   في الجاهِلِيَّة لاسْم المُلْك مُحْتَمِلا
كالتُّبَّعَيْن وذي القَرْنَيْن يَقْبَله   أَهْلُ الحِجَى فأَحَقّ القَوْل ما قَبِلا

وفيه يقول ابن أَبي ذِئْب الخُزاعيّ :

[الطويل]

/ومِنّا الذي بالخافِقَيْن تَغَرَّبا   وأَصْعَدَ في كلِّ البِلاد وصَوَّبا
فقد نالَ قَرْنَ الشَّمْس شَرْقًا ومَغْرِبا   وفي رَدْم يأْجُوجَ بَنَى ثمّ نَصَبَا

a) بولاق : وهو .   b) الأصل : عليه السلام .   c) ساقطة من بولاق .

[1] الهمداني : الإكليل ١٠ :١، ٦.   الإكليل ٢: ٢١٢.

[2] الأصفهاني : الأغاني ١٦: ٤٥، وقارن الهمداني :

وذلك ذُو القَرْنَيْن تَفْخَر حِمْيَرُ   بعَسْكَرِ قيل ليس يُحْصَى فيُحْسَبَا

قال الهَمْدانيُّ : وعُلَماءُ هَمْدان تقول : ذُو القَرْنَيْنِ الصَّعْبُ بن مالِك بن الحارِث الأَعْلَى بن رَبِيعَة بن الجَبّار بن مالِك ، وفي ذي القَرْنَيْن أقاويلُ كثيرة [١].

وقال الإمامُ فَخْرُ الدِّين [a]محمد بن عُمَر[a] الرّازي[٢] في كِتاب «تَفْسِير القُرْآن الكريم» : ومِمّا يُعْتَرَض به على من قال إنَّ الإسْكَنْدَر هو ذو القَرْنَيْن ، أنَّ مُعَلِّم الإسْكَنْدَر كان أرِسْطاطالِيس بأَمْرِه يَأْتَمِر وبنَهْيِه يَنْتَهِي ، واعْتِقادُ أرْسطاطاليس مَشْهُور ، وذو القَرْنَيْن نَبِيٌّ ، فكَيْف يَقْتَدي نَبِيٌّ بأَمْر كافِر ؟ في هذا إشْكال [٣].

وقال الجاحِظُ في كتاب «الحَيَوان» : إنَّ ذا القَرْنَيْن كانت أُمُّه فيرى[b] آدَمِيَّة ، وأبوه عِبْري[b] من الملائِكَة ؛ ولذلك لمّا سَمِعَ عُمَر بن الخَطّاب ـ رضي الله عنه ـ رَجُلًا يُنادي : ياذا القَرْنَيْن ، قال : أَفَرَغْتُم من أسْماء الأَنْبِياء فارْتَفَعْتُم إلى أسْماء الملائِكَة ؟!

ورَوَى المُخْتارُ بن أبي عُبَيْد أنَّ عَلِيًّا ـ رضي الله عنه ـ كان إذا ذَكَرَ ذا القَرْنَيْن قال : ذلك المَلِكُ الأَمْرَط [٤]، والله أعْلَم.

(a-a) ساقطة من بولاق .   b) ساقطة من بولاق .

---

[١] قارن الهمداني : الإكليل ٢ : ١٦٢، ٣١٨- ٣١٩، ١٠ : ٦.

[٢] فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين القُرَشي البكري الطَّبَرستاني ، الأصولي المُفَسِّر المتوفي بهَرَاة يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦هـ/١٢١٠م ، والتي أمضى بها أكبر فترة من حياته . وضع عددًا كبيرًا من المؤلفات ، القسم الأكبر منها في علم الكلام والأصول والتفسير (راجع ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ٢٣- ٣٠؛ القفطي : تاريخ الحكماء ٢٩١- ٢٩٣؛ ابن خلكان : وفيات ٤ : ٢٤٨- ٢٥٨؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢١ : ٥٠٠- ٥٠١؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٤ : ٢٤٨- ٢٥٩؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٥ : ٣٣- ٤٠؛ Anawati, G.C. *EI*[2] art. *Fakhr al-Dîn al-Râzî* II, pp. 770-73).

[٣] الفخر الرازي : مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير ، استانبول ١٣٠٧هـ ، ٥ : ٧٥٢، والنص فيه «... والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر ، فوجب أن يكون المراد بذي القرنين هو هو ، إلّا أن فيه إشكالًا قويًا ، وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إيّاه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حقّ وصدق وذلك ممّا لا سبيل إليه ، والله أعلم» .

[٤] الجاحظ : الحيوان ١ : ١٨٨؛ وفيما تقدم ٤٠٠.

ذِكْرُ مَنْ وَلِي المُلْك بالإسْكَنْدرِيَّة بعد الإسْكَنْدَر[1]

قال في كتاب هُروشيُوش: إنَّ الإسْكَنْدَرَ مَلَكَ الدنيا اثنتي عشرة سنة، فكانت الدُّنْيا مَأْسُورَة بين يَدَيْه طُولَ ولايَته، فلمّا ماتَ تَرَكَها بين يدَيْ قُوَّادِه المُسْتَخْلفين تحته. فكان مَثَلُه معهم كَمَثَلِ الأسَدِ الذي أَلْقَى صَيْدَه بين يديْ أشْبالِه، فتقاتَلَت عليه تلك الأشْبال بعده. وذلك أنَّهم اقْتَسَموا البلاد، فصارَت مصر وإفْريقية كلُّها وبلاد العَرَب[a] إلى قائِده وصاحِب خَيْله الذي وَلِيَ مكانَه وهو بَطْلَمْيُوس بن لاوي، ويُقالُ بَطْلَمْيُوس بن أرْنَبَا[2] المنطقي [Ptolemaeus Lagos].

وذَكَرَ ممَالِك بقيَّة القُوَّاد من أقْصَى بلاد الهِنْد إلى آخِر بلاد المغربِ، ثم قال: فثارَت بينهم حُروبٌ، وسَبَبُها رِسالة كانت خَرَجَت من عند الإسْكَنْدَر بأن يَرْجِع جَميع الغُرَبَاء المَنْفيين إلى بلادِهم، ويُسْقَط عنهم الرِّق والعُبودية. فاسْتَثْقَل ذلك مَلِكُ بلاد الرُّوم، إذْ خافَ أن يكون الغُرَباءُ والمَنْفيون إذا رَجَعوا إلى بُلْدانهم ومَوَاطِنِهم يَطْلُبون النَّقْمَة لأنْفُسهم، فكانَ هذا الأمْرُ سَبَبَ خُروجِهم عن طاعَة سُلْطان المَجْدُونيين[3].

وقال غيرُه: وبَطْلَمْيوس هذا سَبَى بني مَعَدّ بعدما غَزَا فِلَسْطين، ثم أطْلَقَهم وحَبَاهم بآنِية جَوْهَر وُضِعَت في بَيْت المَقْدس، ومَلَك عشرين سنة.

وقال غَيْرُه: وَلِيَ أرْبعين سنة، وقيل ثمانيًا وثلاثين سنة؛ وقيل إنَّ اسمه فِيلَدِلْفُوس [Philadelphos] ـ وهو مُحِبّ الأب ـ وكان مَجْدونيًّا، وهو الذي غَنِم اليَهود وانتَقل كثيرٌ منهم

---

a) بولاق والمخطوطات: بلد الغرب والمثبت من تاريخ أوروسيوس فالكلمة في أصله Arabia.

---

[1] راجع عن تاريخ مصر بعد الإسكندر الأكبر Bell, H.I., *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. A Study in the Diffusion and Decacy of Hellenism*, Oxford 1948 (نقله إلى العربية وأضاف إليه عبد اللطيف أحمد علي، بعنوان: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي – دراسة في انتشار الحضارة الهللينية واضمحلالها، القاهرة ١٩٧٢)؛ وانظر أيضًا مصطفى العبادي: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، القاهرة ١٩٧٥؛ وعن فترة حكم البطالمة انظر دراسة إبراهيم نصحي التي لا غنى عنها: تاريخ مصر في عصر البطالمة، ١-٤، القاهرة ١٩٦٠؛ Fraser, P.M., *Ptolemaic Alexandria*, 2 vols, Oxford 1972; Monica, M., *Les derniers Pharaons les turbulents Ptolèmées d'Alexandre le grand à Cléopatre la grande*, Paris, 1993; Nanoyeke, V., *Les Ptolémées, derniers Pharaons d'Égypte, d'Alexandre à Cléopatre*, Paris 1998؛ وعن الفترة التالية انظر فيما يلي ١: ١٥٥.

[2] ترجمة حرفية لكلمة لاجوس Lagos.

[3] أوروسيوس: تاريخ العالم ٢٤٤-٢٤٦.

إلى مصر . وفي زمانه كان زِينُون [Zenon] الفَيْلَسوف [١]، وكان هذا الملكُ فَيْلَسُوفًا . وأَقْبَل بَرْدِيقًا [Perdicca] أَحَـد قُوَّاد الإسْكَنْدَر إلى مصر بعَسْكَر عَظيمٍ وجَيْشٍ عَرَمْرَم، فتَفَرَّق سُلْطانُ [a]مجدونيه إلى بلد[a] مَجْدونية على قِسْمَيْن .

ثم إنَّ بَطْلَمْيوسَ جَمَعَ عَساكِرَ مصر وإفريقية فلاقى بَرْديقًا فَهَزَمه وأصابَ عَسْكَره، ثم قَتَلَه وأصابَ ما كان معه، وحارَبَ عِدَّةً من قُوَّاد الإسْكَنْدَر [٢].

وقال غَيْرُه : وكان بَطْلَمْيوسُ هذا حَكيمًا عالِمًا سائِسًا[b] مُدَبِّرًا، وهو أَوَّل من اقْتَنَى البُزَاة ولَعِبَ بها وضَرَّاها، وكان من قَبْله من الملوك لا يَلْعَب بها [٣].

ولمَّا ماتَ، مَلَكَ الإسْكَنْدَرية بَعْدَه بَطْلَمْيوس الثاني، واسمه فِلَدِلْفُس [Philadelphus] - ويُقال له : مُحب الأخ - وكانت مُدَّةُ مُلْكه ثمانيًا وثلاثين سنة ؛ وهو الذي أَطْلَق اليَهود الذين كانوا مأْسورين بأرْض مصر، ورَدَّ الأواني المُقَدَّسة على عُزَيْر النَّبي ؛ وهو الذي تَخَيَّر السبعين مُتَرْجِمًا من عُلَماء اليَهود الذين تَرْجَموا كُتُب التَّوْراة والأَنْبياء من اللِّسان العِبْراني إلى اللِّسان الرُّومي اليُوناني واللَّاطيني، وكان فَيْلَسوفًا مُنَجِّمًا .

وماتَ، فوليَ بعده ابنُه بَطْلَمْيُوس أوراجيطس [Euregutus] - المعروف بمُحِبِّ الأب - ستًا وعشرين سنة، ثم وَلِيَ بعده أخوه بَطْلَمْيُوس فيلوبَطور [Philopoter] سبع عشرة سنة، وهو الذي قَتَلَ من اليهود نحوًا من ستين ألفًا وتَغَلَّب عليهم [٤].

ويُقالُ إنَّه صاحِبُ عِلْم الفَلَك والنُّجوم وكِتاب «المَجِسْطي» [٥].

(a-a) ساقطة من بولاق . b) الأصل وبولاق : شابا والتصويب من مروج الذهب .

---

[١] أوروسيوس : تاريخ العالم ٢٤٠.

[٢] نفسه ٢٤٧.

[٣] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٤.

[٤] أوروسيوس : تاريخ العالم ٢٥٧، ٢٧٨، ٢٨٦.

[٥] مؤلف «المَجِسْطي» هو قلاوديوس بطلميوس Claudius Ptolemaeus الذي عرف عند العرب باسم بطلميوس القلوذي، وهو فلكي وجغرافي مصري عاش في الإسكندرية في العصر الروماني ؛ اشتهر بكتابين الأول «المدخل إلى الجغرافيا» المعروف باسم «الجغرافيا»، وكتاب «الجامع» في الفلك والذي أطلق عليه العرب اسم «المَجِسْطي» *al-Madjisti* والذي نُقِلَ إلى العربية في أواخر القرن الثاني الهجري (كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٨٩-٩١ وكتب باول كونيتش دراسة بالألمانية عن الترجمات العربية واللاتينية للمجسطي، انظر Kunitzsch, P. *Der Almagest - Die Syntaxis Mathematica des Claudius Ptolemaüs in arabische - Lateinischer* (*Uberlieferung*, Wiesbaden 1974).

ثم مَلَكَ بعده ابنه بَطْلَمْيوس أبيفانيش [Epiphanes] أرْبعًا وعشرين سنة [١].

ثم وَلِيَ بعده ابنه بَطْلَمْيوس فِلوماطِر [Philometor] - مُحِبُّ الأم[a] - خَمْسًا وثلاثين سنة، وهو الذي غَلَبَ مُلْكَ الشام، وَحَمَّلَ اليهود أنْواعَ البَلاء والعَذاب [٢].

ثم مَلَكَ الإسْكَنْدَرية بعده ابنه بَطْلَمْيوس إيرياطيش [Euergetes] - وهو الإسْكَنْدَراني - تسعًا وعشرين سنة [٣]. وفي زَمانِه غَلَبَ الرُّومانيون على الأَنْدَلُس، واحْتَرَقَت مَدينَةُ قَرْطاجَنَّة بالنَّار، وأقامَت النَّارُ فيها سبعة عشر يومًا، فهُدِمَت وحُوِّلَت أساساتُها حتى صارَ رُخامُ أسْوارِها غُبارًا، وذلك إلى تسع مائة سنة من وقت بُنْيانها، وبِيعَ جميع أهلها رَقيقًا، إلَّا قَليلًا من خِيارِهم وأشْرافِهم، وكان المُتَوَلِّي لتَخْريبها قُوَّادُ رُومَة [٤].

ثم وَلِيَ بَعْده ابنُه بَطْلَمْيُوس سوطار [Soter] - الذي يُقال له الجَديد - سبع عشرة سنة [٥]، وكان قَبيحَ السِّيرَة، تَزَوَّج بأُخْته ثم فارَقَها على أقْبَح حالٍ مِمَّا تَزَوَّجها عليه، في خَبَرٍ له، ثم تَزَوَّج رَبيبَتَه التي كانت بنت/ أُخْته، ثم زَوَّجها من ابنه المَوْلود له من أُخْته، وكَثُرَت فَواحِشُه حتى نَفاهُ أهْلُ الإسْكَنْدَرية، فماتَ مَنْفِيًّا [٦].

ووَلِيَ أخوه بَطْلَمْيُوس الإسْكَنْدَر - وهو الحَوَّال - عشر سنين [٧].

ثم وَلِيَ بعدَه ابنُه بَطْلَمْيُوس دَيُونشيش [Dionysas] ثمانيًا وثلاثين سنة، وفي زَمانِه غَلَبَ قائِدُ الرُّومانيين على بَيْت المَقْدس، وجَعَل اليَهود يُؤَدُّون إليه الجِزْيَة [٨].

وظَهَرَت في ذلك الزَّمان عَلاماتٌ في السَّماء مَهولَة: منها أنَّه ظَهَرَ في السَّماء بناحية مَطْلَع الشَّمْس من مَدينَة رُومَة مِمَّا يلي ناحية الجَنُوب نارٌ مُلْتَهِبَة عظيمَة، وكَسَر قَوْمٌ خُبْزًا في صُنْع لهم فانفَجَرَ من الخُبْز دَمٌ سائِلٌ، ونَزَلَ بمَدينَة رُومَة مُدَّة سبعة أيام متوالية بَرَدٌ كان يُوجَد في داخله حِجارَة وشُقاف، وانْفَتَحَت الأرضُ فصارَ فيها غَوْرٌ عَظيم وخَرَجَ منه لَهَبٌ اشْتَعَلَ حتى ظَنُّوه بَلَغ السَّماء، ونَظَرَ أَهْلُ رُومَة يومئذٍ إلى عَمُودٍ من الأرْض إلى السَّماء لَوْنُه لون الذَّهَب، وكان من

a) بولاق: وهو الصانع وخلط المقريزي بين أبيفانيش وفلوماطر.

[١] أوروسيوس: تاريخ العالم ٢٩١، ٢٩٢.
[٢] نفسه ٣٠٦، ٣٠٧.
[٣] نفسه ٣٠٩، ٣١٠.
[٤] نفسه ٣١٢، ٣١٤-٣١٥.
[٥] نفسه ٣٢٩، ٣٣٠.
[٦] نفسه ٣٣٥.
[٧] نفسه ٣٤١، ٣٤٢.
[٨] نفسه ٣٥٣، ٣٥٤.

عِظَمِه تكادُ الشَّمْسُ أن تَغيبَ منه [١].

ثم وَلِيَ الإسْكَنْدَرية بعده كِلوباطْرَة [Cleopatra] سنتين [٢]، فدامَت مملكة الإسْكَنْدَرية ـ وهي الدَّوْلَة المجْدُونية ـ إلى أوّل مُلوكُ قَيْصَر ـ الذي هو أوّل مُلوك الرُّومانيين ـ مائتين وإحدى وثمانين سنة [٣].

فبَعَثَ قَيْصَرُ قائِدَيْن بعساكِر كثيرة لفَتْح مصر ، فتَزَوَّج أَحَدُهما كِلوبَاطْرَة ابنة ديوشيش المُلَقَّب بَطْلَمْيوس ، وقُتِلَ القائِدُ الآخَر ، وخالَفَ قَيْصَر . فسارَ إليه قَيْصَر بنَفْسه ، وجَرَت أُمورٌ آلَت إلى فَتْح الإسْكَنْدَرية بعد حُروب ، واسْتَوْلى قَيْصَرُ على مَمْلَكَة مصر ، وقَتَلَ كِلوباطْرَة ووَلَدَيْها ، وقَتَلَ القائِدَ الذي تَزَوَّجها ؛ ويُقَالُ بل سَمَّت نَفْسَها عندما تَيَقَّنَت غَلَبَة قَيْصَر لها .

ويُقالُ إنَّها كانت ذاتَ حَزْم وَمَعْرفَة وتَدْبير ، وإنَّها حَفَرَت خَليجَ الإسْكَنْدَرية وأَجْرَت فيه الماءَ من مصر ، وَبَنَت بالإسْكَنْدَرية أَبْنِيَةً عَجيبَةً ، منها هَيْكل زُحَل ، وعَمِلَت فيه صَنَمًا من نُحاس أَسْوَد . وكان أَهلُ مصر والإسْكَنْدَرية يَعْمَلون له عِيدًا في اليوم الثاني والعشرين من هاتُور ، ويَحُجُّ إليه اليُونانيون مِن سائِر الأَقْطار ويَذْبَحُون له ذَبائِح لا تُحْصَى كَثْرَة . فلمّا ظَهَرَت مِلَّةُ النَّصارَىٰ في الإسْكَنْدَرية جَعَلَوا هَيْكَلَ زُحَل كَنيسَةً ، ولم تَزَل إلى أن هَدَمها جُيوش المُعِزّ لدين الله عند قُدومهم من المَغْرب إلى أَرْض مصر في سنة ثمان وخمسين وثلاث مائة من سِني الهجرة النَّبوية .

ويُقالُ إنَّ كِلوباطْرَة هي التي بَنَت حائِط العَجُوز بمصر ، ويُشْبه أن يكونَ هذا غَيْر صَحيح . ويُقالُ إنَّها بَنَت مِقْياسًا بَمدينَة إخْميم ، ومِقْياسًا آخَر بأَنْصِنا . ويُقالُ كانت مُدَّةُ مُلْكِها ثلاثين سنة ، وليس بصَحيح .

وبَمَوْت كِلُوباطْرَة انْقَطَعَت مملَكَةُ مصر ، وصارَت تحت يَد مُلوكِ الرُّوم من أَهْل مَدينَة رُومَة ، ثم تَحْت يَد مُلوك الرُّوم من أَهْل قُسْطَنْطينيّة . فلم تَزَلَ تَحْت أَيْديهم يُوَلّون فيها من قِبَلهم من شاءُوا ، فيَصير إلى الإسْكَنْدَرية ويُقيم بها ، إلى أن قَدِمَ عَمْرو بن العَاص بالمُسْلمين ، وفَتَحَ الله على يَده الحِصْن والإسْكَنْدَرية وجَميع أَرْض مصر [٤]. ويُقالُ مَعْنَى كِلوباطْرَة : الباكِيَة .

---

[١] أوروسيوس : تاريخ العالم ٣٥٤- ٣٥٥.

[٢] نفسه ٣٩٠ ، ٣٩١.

[٣] نفسه ٤١١.

[٤] لم يذكر المقريزي اسم أحد من ولاة مصر في العصرين الروماني والبيزنطي ، باعتبار أنَّ مصادره مثل تاريخ أوروسيوس تذكر فقط أسماء الأباطرة ولا تَعْرِض كثيرًا لأسماء ولاة الأقاليم مثل مصر . وكان كرسي الأباطرة أوّلًا في روما ثم في القسطنطينية . وعن تاريخ مصر في هذه =

فكان جَميعُ المُدَّة التي ما بين ذهاب دَوْلَة البَطالِسَة من الإسْكَنْدَرية وقُدُوم عَمْرو بن العَاص إلى مصر وفَتْحها ستّ مائة سنة وبضعًا وسبعين سنة .

وفي خِلال هذه المدَّة قَوِيَ جانِبُ مُلُوك الفُرْس على القَياصِرَة ، ومَلَكوا منهم بلاد الشَّام ، واسْتَوْلَوْا على أرْض مصر والإسْكَنْدَرية في أيَّام كِسْرَى أَبَرْوِيز بن هُرْمُز ، فبَعَثَ قائِدًا إلى مصر ومَلَكَ الإسْكَنْدَرية وقَتَلَ الرُّوم ، وأقامُوا بالإسْكَنْدَرية مُدَّة عشر سنين .

فلمَّا اسْتَبَدَّ هِرَقْلُ بمَمْلَكَة الرُّوم وخَرَجَ من القُسْطَنْطِينِيَّة لجَمْع الأمْوال من سائِر مملكته أخَذَ حَمَاة ودِمَشْق ، وصارَ إلى بَيْت المَقْدس وقد خَرَّبها الفُرْسُ فأَمَرَ ببنائِها ، وسارَ منها إلى أرْض مصر ، ودَخَلَ الإسْكَنْدَرية وقَتَلَ مَنْ بها من الفُرْس ، وأقامَ بها بَطْرِيقًا ، ثم عادَ إلى قُسْطَنْطِينيَّة ؛ فاسْتَمَرَّت مصر بَعْدَه تحت إيالَة الرُّوم حتى مَلَكَها المُسْلِمون .

ويُقالُ إنَّ كلَّ بِناءٍ بمصر من آجُر فهو للفُرْس ، وما فيها من بناءٍ حَجَر فهو للرُّوم ، والله أَعْلَم .

ذِكْرُ مَنار[a] الإسْكَنْدَرية[1]

قال المَسْعوديُّ : فأمَّا مَنار[a] الإسْكَنْدَرية ، فذَهَب الأكْثَرون من المصريين والإسْكَنْدَرانيين مِمَّن عُني بأخْبَار بَلَدِهم أنَّ الإسْكَنْدَر بن فِيلِيبُش المَقْدوني هو الذي بَنَاها ؛ ومنهم من رَأَى أنَّ دَلُوكَة

a) بولاق : منارة .

= الفترة التي امتدت نحو ستة قرون (٣٠ق م - ٦٤٠م) انظر ، Milne, J.G., *A History of Egypt under Roman Rule,* London 1924; Bagnall, R. & Fries, B. W., *The Demography of Roman Egypt,* Cambridge 1994; id., *The Chronological System of Byzantine Egypt,* Zutphen 1978؛ عبد اللطيف أحمد علي : مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦٧؛ السيد الباز العريني : مصر البيزنطية ، القاهرة د.ت .

[1] عن وصف منار الإسكندرية في المصادر العربية انظر ، المسعودي : مروج الذهب ٢:١٠٤-١٠٨؛ أبا حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٠؛ ابن جبير : الرحلة ١٤- ١٥؛ ياقوت : معجم البلدان ١: ١٨٣؛ الهروي : الإشارات إلى معرفة الزيارات ٤٨، ٤٩؛ مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ٩٦؛ عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ٥٥- ٥٦؛ النويري : نهاية الأرب ١:٣٩٥- ٣٩٨؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١:٢٤٠- ٢٤١؛ ابن بطوطة : الرحلة ١:١٣؛ Tousson, O., «Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur arabe au XII° siècle», *BSRAA* 9 (1936), pp. 49-53; Lévi-Provençal E., «Une description arabe inédite du Phare d'Alexandrie», *Mélanges Maspero* III, pp. 161-71 (وهو نص وترجمة لما أورده عبد المنعم الحميري عن المنار) ؛ السيد عبد العزيز سالم : =

الملكة بَنَتْها وجَعَلَتْها مَرْقَبًا لمن يَرِدُ من العَدُوّ إلى بَلَدهم ؛ ومن النّاس من رَأَى أنَّ العاشِرَ من فَراعِنَة مصر هو الذي بَنَاها ؛ ومنهم من رَأَى أنَّ الذي بَنَى مَدينَة رُومَة هو الذي بَنَى مَدينَة الإسْكَنْدَرية ومَنارَتِها والأهْرام بمصر ، وإنّما أُضيفَت الإسْكَنْدَريةُ إلى الإسْكَنْدَر لشُهْرته باشتيلائه على الأكْثَر من ممَالِك العالَم فشُهِرَت به .

وذَكَروا في ذلك أخبارًا كثيرة يَسْتَدِلُّون بها على ما قالوا ، و[أنَّ][a] الإسْكَنْدَرَ لم يَطْرُقْه في هذا البحر عَدُوٌّ ، ولا هابَ مَلِكًا يَرِد إليه في بَلَدِه ويَغْزوه في دارِه ، فيكون هو الذي جَعَلَها مَرْقَبًا ؛ وأنَّ الذي بَنَاها جَعَلَها على كُرْسي من الزُّجاج على هَيْئَة السَّرَطان في جَوْف البحر ، وعلى طَرَف اللِّسان الذي هو داخِلٌ في البحر من البَرّ ، وجَعَلَ على أعْلاها تماثيل من النُّحاس وغيره ؛ منها
١٥٦ تِمْثالٌ قد أشارَ بسَبَّابته من يده/ اليُمْنَى نحو الشَّمْس أيْنَما كانت من الفَلَك ، وإذا عَلَت في الفَلَك فأصْبَعه يُشير بها نحوها ، فغذا انْخَفَضَت صارَت يَدُه سفلًا تَدُور معها حيث دارَت ؛ ومنها تِمْثالٌ يُشير بيده إلى البَحْر ، إذا صار العَدُوُّ منه على نحو من ليلة ، فإذا دَنا وجازَ أن يُرَى بالبَصَر لقُرْب المسافَة ، سُمِعَ لذلك التِّمْثال صَوتٌ هائِلٌ يُسْمَع من مَسيرَة ميلين أو ثلاثة ، فيَعْلَم أهْل المدينة أن العَدُوَّ قد دَنَا منهم فيَرْمُقونه بأبْصارِهم ؛ ومنها تِمْثالٌ كُلَّما مَضَى من اللَّيْل أو النَّهار ساعَةٌ ، سَمِعُوا له صوتًا بخِلاف ما صَوَّت في الساعَةِ التي قَبْلها ، وصَوْتُه مُطْرِب .

وقد كان مَلِكُ الرُّوم في مُلْك الوَليد بن عبد الملك بن مَرْوان أنْفَذَ خادِمًا من خواصِّ خَدَمِه ذا رَأْيٍ وَدَهاءٍ ، فجاءَ مُسْتأْمِنًا إلى بعض الثُّغور ، فوَرَدَ بآلَةٍ حَسنَة ومعه جماعَة ، فجاءَ إلى الوَليد فأخْبَرَه أنَّه من خَواصّ المَلِك ، وأنّه أرادَ قَتْلَه لمَوْجَدَة وحالٍ بَلَغَته عنه لَم يكُن لها أصْلٌ ، وأنَّه اسْتَوْحَش ورَغِبَ في الإسلام ؛ فأَسْلَم على يد الوَليد ، وتَقَرَّب من قَلْبه ، وتَنَصَّح إليه في دَفائِن اسْتَخْرَجَها له من بلاد دِمَشْق وغيرها من الشّام بكُتُبٍ كانت معه فيها صِفاتُ تلك الدَّفائِن . فلمّا صارَت إلى الوَليد تلك الأمْوال والجَواهِر شَرِهَت نفسُه ، واسْتَحْكَم طَمَعُه ، فقال له الخادِم : «يا أميرَ المؤْمنين ، إنَّ هَهُنا أموالًا وجَوَاهِر ودَفائِن للمُلوك» ؛ فسأَلَه الوَليدُ عن الخَبَر فقال : «تَحْتَ مَنار[b]

---

a) زيادة من المسعودي .   b) بولاق : منارة .

= تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ٢٨-٣٤.

وعن آثار الإسكندرية القديمة في كتابات المؤلفين العرب القدماء ، انظر دراسة صالح حمارنة Hamarneh, S.K., «The Ancient Monuments of Alexandria according to Accounts by Medieval Arab Authors (IX-XV century)», *Folia Orientalia* 13 (1971), pp. 77-110.

الإسْكَنْدَرية أمْوالُ مُلوكِ الأرْض ، وذلك أنَّ الإسْكَنْدَرَ احْتَوَى على الأموال والجَواهِر التي كانت لشَدَّاد بن عاد ومُلوك مصر ، فبَنَى لها الآزاج[a] تحت الأرْض ، وقَنْطَرَ لها الأقْبَاء والقَناطِر والسَّراديب ، وأَوْدَعَها تلك الذَّخائِر من العَيْن والوَرِق والجَوْهَر ، وبَنَى فَوْقَ ذلك هذه المنارة . وكان طُولُها في الهَواء ألف ذراع ، والمِرْآة في عُلُوّه ، والدَّبادِبَة جُلوسٌ حوله ، فإذا نَظَرُوا إلى العَدُو في البحر في ضَوْء تلك المرآة ضَوَّتُوا لمن قَرُبَ منهم ، ونَشَرُوا أعْلامًا فيراها من بَعُد منهم ، فتَحْذَر الناسُ وتُنْذَر البَلَدُ ، فلا يكون للعَدُوّ عليهم سَبيلٌ . فبَعَثَ الوَليدُ مع الخادِم بجَيْشٍ وأُناسٍ من ثِقاتِه وخَواصِّه ، فهَدَمَ نصف المنارَة من أعلاها وأُزِيلَت المِرْآة ، فضَجَّ الناسُ من هذا وعَلِمُوا أنَّها مَكيدَة وحِيلَة في أَمْرِها ؛ فلمَّا عَلِمَ الخادِمُ اسْتِفاضَة ذلك ، وأنَّه سينمّ إلى الوَليد ، وأنَّه قد بَلَغَ ما يَحْتاج إليه ، هَرَبَ في اللَّيْل في مَرْكِب كان قد أَعَدَّه ، ووَاطأ [قومًا][b] على ذلك ، فتمَّت حيلَتُه وبقيت المنارَةُ على ما ذَكَرْناه إلى هذا الوَقْت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة .

وكانت حَوالَي مَنارَة الإسْكَنْدَرية في البَحْر مَغاص يَخْرُجُ منه قِطَعٌ من الجَوْهر يُتَّخَذ منه فُصوصٌ للخَواتِم أنْواعًا من الجَواهِر ، يُقال إنَّ ذلك من آلات اتَّخَذَها الإسْكَنْدَر للشَّراب ، فلمَّا ماتَ كَسَرَتْها أمُّه ورَمَت بها في تلك المَواضِع من البحر ؛ ومنهم من رأى أنَّ الإسْكَنْدَرَ اتَّخَذَ ذلك النَّوْع من الجَواهِر وغَرَّقَه حَوْل المنارَة ، لكيلا تَخْلو من الناس حَوْلَها ، لأن من شأْن الجَوْهَر أن يكون مَطْلوبًا أبدًا في كلِّ عَصْر[1] .

ويُقالُ إنَّ هذه المنارَة إنَّما جُعِلَت المِرآةُ في أعْلاها لأنَّ ملوكَ الرُّوم بعد الإسْكَنْدَر كانَت تُحارِب مُلوكَ مصر والإسْكَنْدَرية ، فجَعَلَ مَنْ كان بالإسْكَنْدَرية من الملوك تلك المِرْآة تَرَى من يَرِد في البحر من عَدُوِّهم . وكان من يَدْخُلها يَتِيهُ فيها ، إلَّا أن يكون عارِفًا بالدُّخُول والخُروج فيها ، لكَثْرَة بُيوتِها وطَبقاتِها ومَمَرَّاتِها . وقد ذُكِرَ أنَّ المغارِبَة ، حين وافَوا في خِلافَة المُقْتَدِر في جَيْش صاحِب المَغْرب ، دَخَلَ جماعَةٌ منهم على خُيولهم إلى المنارَة ، فتاهَوا فيها في طُرُق تؤُول إلى مَهاوٍ تَهْوي إلى سَرَطان الزُّجاج ، وفيه مَخارِيق إلى البَحْر فتهَوَّرَت دَوابُّهم وفُقِدَ منهم عددٌ كثيرٌ ، وعُلِمَ

---

a) بولاق : أزجا . b) زيادة من مروج الذهب .

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢: ١٠٤- ١٠٧.

بهم بعد ذلك وقيل إنَّ تَهَوُّرهم كان على كُرْسي لها قُدَّامها ، وفي المنارَة مَسْجِدٌ في هذا الوقت يُرابِط فيه مُطَّوِّعَة المصريين وغيرهم [1] .

وفي سنة سبعٍ وسبعين وسبع مائة ، سَقَطَ رَأْسُ المنار[a] من زَلْزَلَة . ويُقالُ إنَّ منار[a] الإسْكَنْدَرية كانت مَبْنِيَّةً بحِجارَة مُهَنْدَمة مُضَبَّبَة برَصاص على قَناطِر من الزُّجاج ، وتلك القَناطِر على ظَهْر سَرَطان ، وكان في المنار[a] ثلاث مائة بيت بعضُها فوق بَعْض ، وكانت الدَّابَّة تَصْعَدُ بحَمْلِها إلى سائِر البُيوت من داخِل المنار[a] . ولهذه البُيوت طاقاتٌ تُشْرف على البحر . وكان على الجانِب الشَّرْقي من المنار[a] كِتابَةٌ عُرِّبَت فإذا هي : «بَنَت هذه المَنْظَرَة فَريتا[b] بنت مَرينوس اليُونانية لرَصْد الكَواكِب» .

وقال ابنُ وَصيف شاه ، وقد ذَكَرَ أَخْبارَ مِصْرايِم بن بَيْصَر بن حام بن نُوح : وبَنَوا على عَبْر[c] البحر مُدُنًا منها رَقُودَة مكان الإسْكَنْدَرية ، وجَعَلُوا في وَسَطها قُبَّة على أساطِين من نُحاس مُذَهَّب ، والقُبَّة مُذَهَّبة ، ونَصَبُوا فَوْقَها مَنارَة عليها مِرْآة من أخْلاطٍ شَتَّى ، قُطْرُها خمسة أشْبار ، وكان ارْتِفاعُ القُبَّة مائة ذِراع ، فكانُوا إذا قَصَدَهم قاصِدٌ من الأُمَم التي حَوْلهم ، فإن كان مِمَّا يَهمهم أو من البَحْر ، عَمِلوا لتلك المِرْآة عَمَلًا فألْقَت شُعاعَها على ذلك الشيء فأحْرَقَته . فلم تَزَل على حالِها إلى أن غَلَب عليها البحر فنَسَفَها .

ويُقالُ إنَّ الإسْكَنْدَرَ إنَّما عَمِلَ المنارَ الذي كان تَشْبيهًا بها ، وقد كان أيضًا عليه مِرْآة يُرَى فيها مَن يَقْصِدهم من بلاد الرُّوم ، فاحْتال [عليها][d] بعضُ مُلوك الرُّوم فوَجه [إليها][d] من أزالَها ، وكانت من زُجاج مُدَبَّر [2] .

وقال المَسْعُوديُّ في كتاب «التَّنْبيه والإشْراف» : وقد كان وَزيرُ المتوكِّل عبيد الله بن/ يحيى بن ١٥٧:٢
خاقان ، لمَّا أَمَرَ المُسْتَعِينُ بنَفْيه إلى بَرْقَة في سنة ثمان وأربعين ومائتين ، صارَ إلى الإسْكَنْدَرية من بلاد مصر ، فرَأَى حُمْرَة الشَّمْس على عُلُوّ المنارَة التي بها وَقْت المغيب ، فقَدَّر أنَّه يَلْزَمه ألَّا يُفْطِر إذ كان صائِمًا أو تَغْرُب الشَّمسُ من جميع أقْطار الأرْض ، فأَمَرَ إنسانًا أن يَصْعَد إلى أعْلى منارَة

---

a) بولاق : منارة . b) بولاق : قريبا . c) ساقطة من بولاق . d) زيادة من النويري .

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٠٨ . ونسبه النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ لابن وصيف شاه .

[2] النص عند المسعودي : أخبار الزمان ١٥٣ - ١٥٤ ؛

الإِسْكَنْدَرية ومعه حَجَر، وأن يتأمَّل مَوْضِع سُقُوط [قُرْص][a] الشَّمْس، فإذا سَقَطَت رَمَى بالحَجَر، ففَعَلَ الرَّجُلُ ذلكَ، فوَصَلَ الحَجَرُ إلى قَرار الأَرْض بعد صَلاة العِشاء الآخرة، فجَعَل إفْطارَه بعد صَلاة العِشاء الآخِرة فيما بعد إذا صامَ في مثل ذلك الوَقْت. وكان عند رُجُوعه إلى سُرَّمَنْ رَأَى لا يَفْطِر إلَّا بعد العِشاء الآخِرة، وعنده أنَّ هذا فَرْضَه، وأنَّ الوَقْتَين مُتساويان: وهذا غايَةُ ما يكون من قِلَّة العِلْم بالفَرْض ومجاري الشرق والغرب.

وقد ذَكَرَ أَرِسْطاطاليس في كتاب «الآثار العُلْوِيَّة»[1] أنَّ بناحيَة المشرق الصَّيْفي جَبَلًا شامِخًا جدًّا، وأن من عَلامَة ارْتِفاعه أنَّ الشَّمْسَ لا تَغيبُ عنه إلى ثلاث ساعات من اللَّيْل، وتُشْرق عليه قَبْل الصُّبْح بثلاث ساعات.

ومنارَةُ الإسْكَنْدَرية أَحَدُ بُنْيان العالَم العَجيب، بَناهَا بعضُ البَطالِسَة مُلوك اليُونانيين بعد وَفاة الإسْكَنْدَر بن فيليبش الملك لِما كان بينهم وبين مُلوك رُومَة من الحُرُوب في البَرِّ والبَحْر، فجَعَلُوا هذه المنارَة مَرْقَبًا، في أعاليها مِرْآة عَظيمَة من نَوْع الأحْجار المُشِفَّة ليُشاهَد منها مَراكِب البحر إذا أَقْبَلَت من رُومَة على مَسافَة تَعْجِز الأبْصارُ عن إدْراكِها، فكانوا يُراعون ذلك في تلك المِرْآة، فيَسْتَعِدُّون لهم قَبْل وُرودِهم.

وطولُ المنارَة في هذا الوَقْت على التقريب مائتان وثلاثون ذِراعًا؛ وكان طولُها قديمًا نحوًا من أربع مائة ذِراع، فهُدِمَت على طُول الأزْمان وتَرادُف الزَّلازِل والأَمْطار، لأنَّ بَلَدَ الإسْكَنْدَرية تُمْطِر، وليس سَبيلُها سَبيل فُسْطاط مصر، إذْ كان الأَغْلَبُ عليها أَلَّا تُمْطر إلَّا اليَسير. وبناؤُها ثلاثة أشْكَال: فقَريبٌ من النِّصْف وأكثر من الثُّلُث مُرَبَّع الشَّكْل، بِناؤه بأحْجارٍ بيض، يكون نحوًا من مائة ذِراع وعشرة أَذْرُع على التَّقْريب. ثم من بعد ذلك مُثَمَّن الشَّكْل مبني بالحَجَر والجَصّ نحو من نيف وستين ذِراعًا، وحواليه فَضَاءٌ يدور فيه الإنْسانُ وأعلاها مُدَوَّر. وكان أحمدُ بنُ طُولون رَمَّ شيئًا منها، وجَعَلَ في أعْلاه قُبَّة من الخَشَب ليَصْعَد إليها من داخِلِها، وهي مَبْسوطَة مورَّبة بغير دَرَج. وفي الجِهَة الشمالية من المنارَة كِتابَة برَصاصٍ مَدْفُون بقَلَمٍ يُوناني، طول كل حَرْفٍ ذِراع

a) زيادة من التنبيه.

[1] كتاب «الآثار العلوية» لأرسطاطاليس مصدر المسعودي في التنبيه لا من مصادر المقريزي، فالمقريزي ينقل في مواضع كثيرة النص بما فيه من مصادر المؤلف الأصلي، الأمر الذي يوهم أحيانًا أنّه اطّلع على هذه المصادر.

في عرض شِبْر ، ومِقْدارها على جِهَة الأرض نحو من مائة ذِراع ، وماءُ البحر قد بَلَغَ أَصْلَها . وقد كان تَهَدَّم أَحَدُ أَرْكانِها الغربية ممَّا يلي البَحْر ، فبَنَاها أبو الجَيْش خُمارَوَيْه بن أحمد بن طُولون .

وبينها وبين مَدينَة الإسْكَنْدَرية في هذا الوَقْت نحو من ميل ، وهي على طَرَف لِسانٍ من الأرْض قد رَكِبَ البحر جَنْبَتَيْه . وهي مَبْنية على فَمّ مِيناء الإسْكَنْدَرية ، وليس بالميناء القَديم لأنَّ القَديم في المدينة العَتيقَة لا تَرْسي فيه المراكِب لبُعْده عن العُمْران . والميناء هو المَوْضِع الذي تَرْسي فيه مَراكِب البَحْر .

وأَهْلُ الإسْكَنْدَرية يُخْبرون عن أَسْلافِهم أنَّهم شاهَدُوا بين المنارَة وبين البَحْر نَحْوًا ممَّا بين المَدينَة والمنارَة في هذا الوقت ، فغَلَبَ عليه ماءُ البحر في المُدَّة اليسيرة ، وأنَّ ذلك في زيادة [1] .

قال : وتَهَدَّم في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلاث مائة نحو من ثلاثين ذِراعًا من أعاليها بالزَّلْزَلَة التي كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشَّام والمغرب في ساعَةٍ واحدةٍ ، على ما وَرَدَت به علينا الأَخْبارُ المُتواتِرَة ونحن بفُسْطاط مصر ، وكانت عَظيمَةً جدًّا مَهولَةً فظيعَةً أقامَت نحو نصف ساعة زمانِيَّة ، وذلك لنصف يوم السبت لثمانٍ عشرة ليلة خَلَت من هذا الشهر ، وهو الخامِس من كانون الآخر والتاسع من طُوبَة [2] .

وكان لهذه المَنَارَةِ مَجْمَعٌ في يوم خَميس العَدَس [3] ، يَخْرُج سائِرُ أَهْل الإسْكَنْدَرية إلى المَنارَة من مَساكِنهم بمآكِلهم ـ ولابد أن يكون فيها عَدَس ـ فيُفْتَح بابُ المنار ويَدْخُله الناسُ ، فمنهم من يَذْكُر الله ، ومنهم من يُصَلِّي ، ومنهم من يَلْهو ، ولا يزالُون إلى نصف النَّهار ثم يَنْصَرِفون . ومن ذلك اليوم يُحْتَرَس على البَحْر من هُجوم العَدُوّ .

وكان في المنارَة قومٌ مُرَتَّبون لوَقود النَّار طُول الليل ، فيَقْصِد رُكّابُ السُّفُن تلك النار على بُعْد ، فإذا رأى أهلُ المنار ما يُريبهم أَشْعَلوا النارَ من جهة المَدينَة ، فإذا رآها الحَرَسُ ضَرَبُوا الأَبْواق والأَجْراس ، فيَتَحَرَّك عند ذلك الناسُ لمُحارَبَة العَدُوّ .

ويُقالُ إنَّ المَنَار كان بَعيدًا عن البحر ، فلمَّا كان في أيَّام قُسْطَنْطين بن قُسْطَنْطين هاجَ البَحْرُ وغَرَّق مواضِعَ كثيرة وكَنائِسَ عديدة بمَدينَة الإسْكَنْدَرية ، ولم يزل يَغْلِب عليها بعد ذلك ويأْخُذ منها شيئًا بعد شيء . وذَكَرَ بعضُهم أنَّه قاسَه فكان مائتي ذِراع وثلاثة وثلاثين ذِراعًا ، وهي ثلاث

---

[1] المسعودي : التنبيه والإشراف ٤٦ – ٤٨.

[2] نفسه ٤٨ – ٤٩؛ السيوطي : كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ١٧٤.

[3] عن خميس العدس انظر فيما يلي ١: ٤٥٠، ٤٩٥.

طَبَقات : الطَّبَقة الأولى مُرَبَّعَة ، وهي مائة وإحدى وعشرون ذِراعًا ونصف ذِراع . والطَّبَقَة الثانية مُثَمَّنَة ، وهي إحدى وثمانون ذِراعًا ونصف ذِراع . والطَّبَقَة الثالثة مُدَوَّرَة ، وهي إحدى وثلاثون ذِراعًا ونصف ذِراع [1].

وذَكَرَ ابنُ جُبَيْر في «رِحْلَتِه» أنَّ مَنارَ الإسْكَنْدَرية يَظْهَر على أَزْيَد من سبعين ميلًا ، وأنه ذَرَعَ أَحَد جَوانِبه الأربعة/ في سنة ثمان وسبعين وخمس مائة فأناف على خمسين ذِراعًا ، وأنَّ طُولَ المنار أَزيدُ من مائة وخمسين قامَة ؛ وفي أعْلاه مَسْجِدٌ يَتَبَرَّك الناسُ بالصَّلاة فيه [2].

وقال ابنُ عبد الحَكَم : ويُقال إنَّ الذي بَنَى مَنارَ الإسْكَنْدَرية كِلوباطْرَة الملكة ، وهي التي ساقَت خَليجَها حتى أدخلته الإسْكَنْدَرية ، ولم يكن يبلغها إنَّما كان يَعْدل من قرية يُقالُ لها كِسًّا قُبالَة الكِرْيُون ، فحَفَرَته حتى أدخلته الإسْكَنْدَرية ، وهي التي بَلَّطَت قاعَه [3].

ولمَّا اسْتَوْلَى أحمدُ بن طُولون على الإسْكَنْدَرية بَنَى في أعْلَى المَنَار قُبَّة من خَشَب فأخَذَتْها الرِّياح .

وفي أيَّام الظَّاهِر بَيْبَرْس تَدَاعَى بعضُ أرْكان المَنَار وسَقَط ، فأَمَرَ بِبِنَاء ما انْهَدَم منه في سنة ثلاث وسبعين وستّ مائة ، وبَنَى مكانَ هذه القُبَّة مَسْجِدًا ، وهُدِمَ في ذي الحجة سنة اثنتين وسبع مائة عند حُدُوث الزَّلْزَلَة ، ثم بُنِيَ في شُهور سنة ثلاث وسبع مائة على يد الأمير رُكْن الدين بَيْبَرْس الجاشْنَكير ، وهو باقٍ إلى يومنا هذا .

ولله دَرُّ الوَجيه الذَّرْوي حيث يقول في مَنار الإسْكَنْدَرية [4]:

[الطويل]

وسامِيةِ الأَرْجاءِ تُهْدي أخا السُّرى ... ضِياءً إذا ما حِنْدِسُ اللَّيْلِ أَظْلَمَا
لَبِسْتُ بها بُرْدًا من الأُنْس ضافِيًا ... فكان بتَذْكار الأَحِبَّة مُعْلَمَا
وقد ظَلَّلَتْني من ذُراها بقُبَّةٍ ... أُلاحِظُ فيها من صَحابيَ أَنْجُما
فخيل أنَّ البَحْرَ تحتي غَمَامَةٌ ... وأنِّي قد خَيَّمْتُ في كَبِد السَّمَا!

وقال ابنُ قَلاقِس من أبيات [5]:

---

[1] مصدر هذه الفقرة عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٥٣.

[2] ابن جبير : الرحلة ١٥.

[3] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤١.

[4] الأبيات عند النويري : نهاية الأرب ١: ٣٩٧.

[5] لم ترد الأبيات في ديوان ابن قلاقس الذي نشرته سهام الفريح ، ووردت عند النويري : نهاية ١: ٣٩٨ ، وابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١: ٢٤١.

[البسيط]

ومَـنْـزِلٌ جـاوَزَ الجَوْزَاءَ مُرْتَـقِـيًا كـأنَّمـا فيه لـلـنَّـسْـريـن أوْكـارُ
رَاسي القَرَارَةِ سامي الفَرْعِ في يَدِه لـلـنُّـون والـنُّـور أخْـبَـارٌ وأخْـبَـارُ
أطْلَقْتُ فيه عِنانَ النَّظْم فاطَّرَدَتْ خَيْلٌ لَهَا في بَدِيع الشِّعْرِ مِضْمارُ

وقال الوَزيرُ أبو عبد الله محمد بن الحَسَن بن عَبْدَوَيْه[a] [1]:

[البسيط]

لله دَرُّ مَـنَـار اسْـكَـنْـدَرِيـة كَـمْ يَسْمُو إليه على بُعْد من الحَدَقِ
من شامِخ الأنْف في عرنينه شَمَمُ كـأنَّـه بـاهِـتٌ في دارَة الأُفُـقِ
للمُنْشَآت الجَواري عـنـد رُؤْيَته كمَوْقِع النَّوْم في أجْفَانِ ذي أرَقِ

وقال عُمَرُ بن أبي عُمَر الكِنْدي في «فَضائِل مِصْر» : ذَكَرَ أهْلُ العِلْم أنَّ المَنَارَة كانت في وَسَطِ الإسْكَنْدَرية حتى غَلَب عليها البَحْرُ فصارَت في جَوْفِه ، ألا تَرَى الأبْنِية والأساسات في البَحْر إلى الآن عَيانًا ؟[2]

وقال عبدُ الله بن عَمْرو : عَجائِبُ الدُّنْيا أرْبَعَة : مِرْآةٌ كانت مُعَلَّقَة بمَنارَة الإسْكَنْدَرية ، فكان يَجْلِسُ الجالِس تَحْتَها فيَرَى مَنْ بالقُسْطَنْطِينِيَّة ، وبينهما عَرْضُ البحر ، وذَكَرَ الثَّلاثَة .

ذِكْرُ المَلْعَب الذي كانَ بالإسْكَنْدَرِيَّة وغَيْره من العَجَائِب

قال القُضَاعِيُّ : ومن عَجائِب مصر الإسْكَنْدَرية وما بِها من العَجائِب ، فمن عَجائِبِها المنارَة والسَّواري والمَلْعَب الذي كانوا يَجْتَمِعون فيه في يومٍ من السَّنَة ، ثم يَرْمُون بأُكْرَة فلا تَقَع في حِجْرِ أَحَدٍ إلَّا مَلَكَ مصر .

وحَضَرَ عيدًا من أعْيادِهم عَمْرو بن العَاص ، فوَقَعَت الأُكْرَة في حِجْره فمَلَكَ البَلَدَ بعد ذلك في الإسْلام .

ثم يَحْضُرُ[b] هذا المَلْعَبَ ألف ألف من النَّاس ، فلا يكونُ فيهم أَحَدٌ إلَّا وهو يَنْظُر في وَجْه صاحِبِه ثم إن قُرِئَ كتابٌ سَمِعوه جَميعًا ، أو لُعِبَ لونٌ من اللَّعِب رَأَوْه عن

---

a) في جميع النسخ : عبد ربّه وهو غير صواب . b) بولاق : حضر .

---

[1] أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عَبْدَوَيْه المَهْرُباني ، فقيه أصولي من اليمن توفي سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م (ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧ ، ١٤٤-١٤٩) .

[2] ابن الكندي : فضائل مصر ٣٣ .

آخِرهم، لا يَتظالَمُون فيه بأَكْثَر من مَراتِب العِلّيّة والسُّفْليّة[1].

وقال ابنُ عبد الحَكَم: فلمَّا كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة، وقَدِمَ عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ الجابِيَة، خَلَا به عَمْرو بن العَاص واسْتَأْذَنَه في المَسِير إلى مصر؛ وكان عَمْرو قد دَخَلَ في الجاهِلِيَّة مصر وعَرَفَ طُرُقَها، ورأى كَثْرَة ما فيها. وكان سببُ دُخوله إيَّاها أنَّه قَدِمَ إلى بَيْت المَقْدِس لتجارة في نَفَرٍ من قُرَيْش، فإذا هم بشَمَّاس من شَمامِسَة الرُّوم من أهل الإسْكَنْدَرية قَدِم للصَّلاة في بَيْت المَقْدس فخَرَج في بعضِ جِبالِها يَسبحُ، وكان عَمْرو يَرْعَى إبِله وإبِل أصْحابِه، وكانت رَعْيَة الإبل نُوَبًا بينهم. فبَيْنَا عَمْرو يَرْعَى إبِلَه، إذْ مَرَّ به ذلك الشَّمَّاسُ وقد أصابَه عَطَشٌ شَديدٌ في يومٍ شَديد الحَرّ، فوَقَفَ على عَمْرو فاسْتَسْقاه فسَقَاه عَمْرو من قِرْبَة له، فشَرِبَ حتى رَوِيَ ونامَ الشَّمَّاسُ مَكانَه وكانت إلى جنب الشَّمَّاس حيث نام حُفْرَة، فخَرَجَت منها حَيَّةٌ عظيمة، فبَصُر بها عَمْرو فنَزَعَ لها بسَهْم فقَتَلَها.

فلمَّا اسْتَيْقَظَ الشَّمَّاسُ نَظَرَ إلى حَيَّة عظيمة قد أَنْجاه الله منها، فقال لعَمْرو: ما هذه؟ فأخبره عَمْرو أنَّه رَمَاها فقَتَلَها، فأقبل إلى عَمْرو فقَبَّلَ رأسَه وقال: قد أحْياني الله بك مَرَّتَيْن: مَرَّةً من شِدَّة العَطَش، ومَرَّةً من هذه الحَيَّة، فما أَقْدَمَك هذه البلاد؟ قال: قَدِمْتُ مع أصْحابٍ لي نَطْلُب الفَضْل في تجارَتنا؛ فقال له الشَّمَّاسُ: وكَمْ تَراك تَرْجو أن تُصيب في تجارتك؟ قال: رَجائي أن أُصيبَ ما أَشْتَري به بَعيرًا، فإنِّي لا أَمْلك إلَّا بعيرَيْن، فآمُل أن أُصيب بَعيرًا آخر فتكون ثلاثة أبْعِرَة؛ فقال له الشَّمَّاسُ: أرأيت دِيَّة أحَدكم بينكم كم هي؟ قال: مائة من الإبل؛ فقال له الشَّمَّاسُ: لَسْنَا أصحابَ إبِلٍ، إنَّما نحن أَصْحاب دَنانير؟ قال: تكون ألف دينار؛ فقال له الشَّمَّاسُ: إنِّي رَجُلٌ غَريبٌ في هذه البلاد، وإنَّما قَدِمْتُ أُصَلّي في كَنيسَة بَيْت المَقْدِس وأَسيحُ في هذه الجبال شهرًا، جعلت ذلك نَذْرًا على نفسي، وقد قَضَيْتُ ذلك، وأنا أُريد الرُّجوع إلى بلادي، فهل لك أن تَتْبَعَني إلى بلادي ولك عليَّ عَهْدُ الله ومِيثاقُه أن أُعْطيك دِيَتَين، لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ أحْياني بك مَرَّتَيْنْ؟ فقال له عَمْرو: أين بلادُك؟ قال: مصر، في مَدينَةٍ يُقالُ لها الإسْكَنْدَرية؛ فقال له عَمْرو: لا أَعْرِفُها، ولم أَدْخُلها قط؛ فقال له الشَّمَّاسُ: لو دَخَلْتَها لعَلِمْت أنَّك لم تَدْخُل قَطّ مثلها؛ فقال له عَمْرو: وتَفي لي بما تقول، ولي عليك بذلك العَهْدُ والميثاق؟ فقال له الشَّمَّاسُ: نعم، لك والله عليَّ العَهْد والميثاق أن أَفي لك، وأن أَرُدَّك إلى أصحابِك؛ فقال

[1] النويري: نهاية الأرب ١: ٣٩٨؛ وانظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٤١ - ٢٤٢.

له عَمْرو ـ كم يكون مُكْثي في ذلك ؟ قال : شهرًا ، تنطلق معي ذاهِبًا عشرًا ، وتُقيم عندنا عشرًا ، وترْجع في عَشْر ، ولك عليَّ أن أَحْفَظَك ذاهِبًا ، وأن أَبْعَثَ معك من يَحْفَظك راجِعًا ؛ فقال له عَمْرو : أَنْظِرْني حتى أُشاوِر أَصْحابي في ذلك .

فانْطَلَقَ عَمْرو إلى أَصْحابه فأَخْبَرَهم بما عاهَدَ عليه الشَّمَّاس ، وقال لهم : تُقيمون عليَّ حتى أَرْجِع إليكم ولكم عليَّ العهد أن أُعْطِيكم شَطْر ذلك ، على أن يَصْحَبَني رجلٌ منكم آنَس به ؛ فقالوا : نعم ، وبَعَثُوا معه رجلًا منهم .

فانْطَلَقَ عَمْرو وصاحِبُه مع الشَّمَّاس ، حتى انْتَهَوْا إلى مصر ، فرأى عَمْرو من عِمارَتها وكثرة أَهْلها وما بها من الأموال والخَيْر ما أَعْجَبَه ، فقال عَمْرو للشَّمَّاس : ما رأيتُ مثل ذلك ، [a]فقال الشَّمَّاسُ : ما رأيت مثل عَمْرو[a].

ومَضَى إلى الإسْكَنْدَرية ، فنظَر عَمْرو إلى كَثْرَة ما فيها من الأَمْوال والعِمارَة ، وجَوْدَة بِنائِها وكَثْرَة أَهْلها ، فازْداد عَجَبًا . ووافَقَ دُخُول عَمْرو الإسْكَنْدَرية عيدًا فيها عَظيمًا يجْتَمِع فيه مُلوكُهم وأشْرافُهم ، ولهم كُرَةٌ من ذَهَب مكلَّلَة يَتَرامَى بها مُلوكُهم وهو يَتَلَقَّونها بأَكْمامهم ، وفيما اخْتَبَرُوا من تلك الكرة ـ على ما وَصَفَها من مَضَى منهم ـ أنَّها مَنْ وَقَعَت الكُرَة في كُمِّه واستقرَّت فيه لم يَمُت حتى يَمْلكهم .

فلمَّا قَدِمَ عَمْرو الإسْكَنْدَرية أَكْرَمَه الشَّمَّاسُ الإكرام كلَّه ، وكَساه ثَوْبَ ديباج أَلْبَسَه إيّاه ، وجَلَسَ عَمْرو والشَّمَّاس مع الناس في ذلك المَجْلِس ، حيث يَتَرامُون بالكرة وهم يَتَلَقَّونها بأَكْمامِهم ، فرَمَى بها رَجُلٌ منهم ، فأَقْبَلَت تَهْوِي حتى وَقَعَت في كُمِّ عَمْرو ، فعَجِبُوا من ذلك وقالوا : ما كَذَبَتْنا هذه الكُرَةَ قَطّ إلَّا هذه المرَّة . أَتُرَى هذا الأَعْرابِيَّ يَمْلكنا ؟ هذا ما لا يكونُ أبدًا . وأنَّ ذلك الشَّمَّاس مَشَى في أَهْل الإسْكَنْدَرية ، وأَعْلَمَهم أنَّ عَمْرًا أَحْياه مَرَّتين ، وأنَّه قد ضَمِنَ له أَلفيْ دينار ، وسألهم أن يَجْمَعوا ذلك له فيما بينهم ، ففَعَلُوا ودَفَعُوها إلى عَمْرو .

فانْطَلَقَ عَمْرو وصاحِبُه ، وبَعَثَ معهما الشَّمَّاسُ دَليلًا ورَسُولًا ، وزَوَّدَهُما وأَكْرَمَهُما حتى رَجَعَ هو وصاحِبُه إلى أَصْحابِهما ، فبذلك عَرَفَ عَمْرو مَدْخَلَ مصر ومَخْرَجها ، ورأى منها ما عَلِمَ أنَّها أَفْضَلُ البلاد وأكثرها أَمْوالًا . فلمَّا رَجَعَ عَمْرو إلى أَصْحابِه ، دَفَعَ إليهم فيما بينهم

(a-a) ساقطة من بولاق .

ألف دينار، وأَمْسَكَ لنفسه ألفًا. قال عَمْرو: وكان أَوَّلُ مالٍ اعتقدتُه وتأثَّلْتُه[١].

ذِكْرُ عَمُود السَّواري

هذا العَمُودُ حَجَرٌ أحمر مُنَقَّط، وهو من الصَّوَّان المانِع، كان حَوْلَه نحو أربع مائة عَمُود كَسَرَها قَراجَا - والي الإسْكَنْدَرية في أيَّام السُّلْطان صَلاح الدين يُوسُف بن أيُّوب - ورَماها بشَاطِئ البَحْر ليُوَعِّر على العَدُوّ سُلوكَه إذا قَدِموا.

ويُذْكَر أنَّ هذا العَمُود من جُمْلَة أَعْمِدَة كانت تَحْمِل رواق أَرِسْطاطاليس الذي كان يُدَرِّس به الحِكْمَة، وأنَّه كان دارَ عِلْمٍ، وفيه خِزانَةُ كُتُب أَحْرَقَها عَمْرو بن العَاص بإشارة عُمَر بن الخَطَّاب رضي الله عنه.

ويُقالُ إنَّ ارْتِفاع هذا العَمُود سبعون ذِراعًا، وقُطْرُه خمسة أَذْرُع.

وذَكَرَ بعضُهم أنَّ طُولَه بقاعِدَتَيْه اثنان وستون ذِراعًا وسُدْس ذِراع، وهو على نَشْزٍ طوله ثلاثة وعشرون ذِراعًا ونصف ذِراع، فجملة ذلك خمسة وثمانون ذِراعًا وثُلُثا ذِراع، وطُولُ قاعِدَته السُّفْلَى اثنان عَشَر ذِراعًا، وطول القاعِدَة العُلْيا سبعة أَذْرُع ونصف[٢].

قال المَسْعُوديُّ: وفي الجانِب الشرقي[a] من صَعيد مصر جَبَلُ رُخام عَظيم، كانت الأَوائِلُ تَقْطَع منه العُمُد وغَيْرها، وكانوا يَحْمِلون ما عَمِلوا بعد النَّقْر[b]؛ فأمَّا العُمُد والقَواعِدُ والرُّؤوس التي يُسَمِّيها أَهْلُ مصر الأُسْوانِيَّة - ومنها حِجارَة الطَّواحين - فتلك نَقَرَها الأَوَّلون قَبْل حُدوث النَّصْرانية بمئين من السنين، ومنها العُمُدُ التي بالإسْكَنْدَرية[٣]، والعَمُود بها الضَّخْم الكبير لا يُعْلَم

a) بولاق: الغربي. b) المسعودي: وكانوا يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر، وهو الصواب.

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٥٣- ٥٥.

[٢] مصدر هذا الخبر عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٥١- ٥٣؛ وما ذكره عن إحراق عمرو بن العاص لخزانة كتب دار العلم بإشارة الخليفة عمر بن الخطاب فصَّله فيما بعد أبو الفرج بن العبري الذي اشتمل كتابه «تاريخ مختصر الدول» على أوّل ذكر مفصل لإحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم على يد العرب، وكان الغرض منه هو تبرير ما قام به صلاح الدين من بيع وتشتيت لمكتبة الفاطميين! وقد ناقش هذه الرواية مطوّلًا ودَحَضَها ألفرد بتلر في كتابه: فتح العرب لمصر ٣٤٨- ٣٧٠. وعن تاريخ هذه المكتبة انظر Parsons, E.A., *The Alexandrian Library-Glary of the Hellenic World, its Rise, Antiquities, and Destructions,* London 1952; Macleod, R., *The Library of Alexandria - Centre of Learning in the Ancient World,* London - Tauris 2000.

[٣] فيما يلي ٥٣٨.

بالعالَم عَمُودٌ مثله ؛ وقد رأيتُ في جَبَل أُسْوان أخَا هذا العَمُود وقد هُنْدِس ونُقِر ،ولم يُفْصَل من الجَبَل ، ولم يحمل ما ظَهَرَ منه ، وإنّما كانوا ينتظرون به أن يُفْصَل من الجبَل ، ثم يُحْمَل إلى حيث يُريد القَوْمُ[1]. انتهى .

وكان بالإسكَنْدَرية من العُمُد العِظام ، وأَنْواع الحِجارَة والرُخام الذي لا تُنْقَلُ القِطْعَةُ منه إلّا ١٦٠ظ بألوفٍ من الناس ، وقد عُلِّقَت بين السّماء والأرض على فَوْق/ المائة ذِراع ، وفَوْق رُؤُوس أسَاطين دائِر الأُسْطُوانة ما بين الخمسة عشر ذِراعًا إلى العشرين ذِراعًا ، والحَجَر فَوْقَه عشرة أَذْرُع في عشرة أَذْرُع في سُمْك عشرة أَذْرُع ، بغَرائِب الألْوان .

وكان بالإسكَنْدَرية قَصْرٌ عَظيمٌ لا نَظيرَ له في مَعْمور الأرض ، على رَبْوَة عظيمة بإزاء باب البَلَد ، طوله خمس مائة ذِراع ، وعَرْضُه على النِّصف من ذلك ، وبابُه من أَعْظَم بِناء وأَتْقَنِه ، كل عِضَادَة منه حَجَرٌ واحِد ، وعَتَبَتُه حَجَرٌ واحِد .

وكان فيه نحو مائة أُسْطُوانَة ، وبإزائِه أُسْطُوانَة عظيمة لم يُسْمَع بمِثْلِها ، غِلَظها ستة وثلاثون شبرًا ، وعُلُوّها بحيث لا يُدْرِك أعلاها قاذِفُ حَجَر ، وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنّه كان فَوْق ذلك بِناء ، وتحتها قاعِدَة حجر أحمر مُحْكَم الصّناعَة ، عَرْض كلّ ضِلْع منه عشرون شِبْرًا في ارْتِفاع ثمانية أشْبار .

والأُسْطُوانَة مُنَزَّلَة في عَمُودٍ من حديد قد خُرِقَت به الأَرْض ، فإذا اشتدَّت الرِّياحُ رأيتها تتحرَّك ، ورُبَّما وُضِعَ تحتها الحِجارَة فطَحَنَتْها لشِدَّة حَرَكَتها .

وكانت هذه الأُسْطُوانَةُ إحدى عَجائِب الدُّنْيا ، وقد زَعَمَ قومٌ أنّها ممّا عمله الجِنُّ لسُلَيْمان بن داود عليهما السّلام ، كما هي عادَتهم في نِسْبَة كلّ ما يَسْتَعْظمون عَمَلَه إلى أنّه من صَنيع الجِنّ ، وليس كذلك ، بل كانت ممّا عَمِلَه قُدَماءُ من أهْل مصر .

كان في وَسَطه قُبّة ، ومن حَوْلها أَساطِين ، وعلى الجَميع قُبّة من حِجَر واحِد رُخام أبيض كأَحْسَن ما أنت راءٍ من الصّنائِع .

ويُقالُ إنَّ بَعْضَ مُلُوك مصر دَخَلَ الإسْكَنْدَرية ، فأَعْجَبَه هذا القَصْر وأرادَ أن يَبْني مثله ، فجَمَعَ الصُّنّاع والمَهَنْدِسين ليُقيموا له قصرًا عَظيمًا على هيئته ، فما منهم إلّا من اعْتَرَف بعَجْزه عن مِثْله ، إلّا شَيْخًا منهم فإنّه الْتَزَمَ أن يَصْنَع مثله ؛ فسَرَّ الملكُ ذلك ، وأَذِن له في طَلَب ما يَحْتاج إليه من

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٧٨.

المُؤَن والآلات والرِّجال. فقال: ائْتُوني بِثَوْرَيْن مطيقين، وعَجَلَه كبيرة، فللحالِ أُتي بذلك.

فمَضَى إلى المَقابِر القَديمَة، وحَفَرَ منها قَبْرًا أَخْرَجَ منه جُمْجُمة عَظيمَة، رَفَعها عِدَّةٌ من الرِّجال على العَجَلَة، فما جَرَّها الثَّوْران، مع قُوَّتهما، إلَّا بعد جُهْد وعَناء. فلمَّا وَقَفَ بها بين يديِ الملك، قال: أَصْلَحَ الله سَيِّدنا، إنَّ أَتَيْتَني بقَوْمٍ رُؤوسُهم مثل هذا الرَّأْس، عَمِلْت لك مثل هذا القَصْر. فَتَيَقَّن الملكُ عند ذلك عَجْز أَهْل زَمانِه عن إقامَة مثل ذلك القَصْر.

وقد ذُكِرَ أنَّه كان بالإسْكَنْدَرية ضِرْسُ إنسان عند قَصَّاب يَزِن به اللَّحْم، زِنَتُه ثمانية أرْطال.

ويُقالُ إنَّ عَمُود السَّواري، الموجود الآن خارِج مَدينَة الإسْكَنْدَرية، أَحَدُ سَبْعة أَعْمِدَة أَتَى بأحَدِها البِتون بن مُرَّة العادي، وهو يَحْمِله تحت إبِطه، من جَبَل بريم الأَحْمَر قِبْلي أُسْوان إلى الإسْكَنْدَرية، فانْكَسَرَ ضِلْعُه لأنَّه كان ضَعيفَ القُوَى في قَوْمِه.

فشَقَّ ذلك على يَعْمُر بن شَدَّاد بن عاد، وقال: لَيْتَني فَدَيْتُه بنصف مُلْكي.

وجاء بعَمُودٍ آخَر جَحْدَر بن سِنان الثَّمودي ـ وكان قَوِيًّا ـ فحَمَلَه من أُسْوان تحت إبِطِه وجاءَ بقيَّة رِجالهم، كلُّ رَجُلٍ بعَمُود، فأقامَ العُمُد السَّبْعة الجاورد بن قطن المُؤْتَفِكي ـ وكان بِنَاؤها ـ بعد أن اختاروا لها طالِعًا سعيدًا كما هي عادَتُهم في عامَّة أَعْمالِهم.

وقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ أنَّ الصُّخُور، في القَديم من الدَّهْر، كانت تَلين، فعُمِلَ منها أَعْمِدَة ناعِط ومَأْرِب وبينون ومآثِر اليمن، وأَعْمِدَة دِمَشْق ومصر ومَدْيَن وتَدْمُر، وأنَّ كلَّ شيءٍ كان يتكلَّم.

قال أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت [1]:

[الوافر]

وإذْ هُمْ لا لَبوس لَهم عُراة وإذا صَخْرُ السَّلام لهم رُطاب

وقال قَوْمٌ: عَمُودُ السَّواري من جُمْلة أَعْمِدَة كانت تَحْمل رِواقًا يُقالُ له بَيْتُ الحِكْمَة، وذلك حيث انْتَهَت عُلومُ أَهْل الغَرْب إلى خمس فِرَق، وهم: أَصْحابُ الرِّواق هذا، وأَصْحابُ الأُسْطَوانة وكانوا ببَعْلَبَك، وأَصْحابُ المَظال وهم بأَنْطاكِيَّة، وأَصْحابُ البَرابِي وكانوا بصَعيد مصر، والمَشَّاءُون وكانوا بمَقْدونية.

وكأنِّي بمَنْ قَلَّ عِلْمُه يُنْكِر عليَّ إيراد هذا الفَصْل، ويَراهُ من قَبيل المُحال وممَّا وَضَعَه القُصَّاص ويَجْزِمُ بكَذِبه، فلا يُوحِشَنَّك حِكايَتي له، واسْمَع قَوْلَ الله تعالى عن عادٍ قَوْم هُود: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الآية ٦٩ سورة الأعراف]، أي طُولًا وعِظم جِسْم.

---

[1] انظر عنه فيما تقدم ٤٥٧؛ والبيت في ديوانه.

قال عبدُ الله بن عبَّاس رَضي الله عنهما : كان أطْوَلُهم مائة ذِراع ، وأَقْصَرُهم ستين ذِراعًا . وهذه الزيادة كانت على خَلْق آبائِهم ، وقيل على خَلْق قَوْم نُوح . وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه : كان رأْسُ أَحَدِهم مثل قُبَّة عَظيمَة ، وكانت عَينُ الرَّجُل منهم تُفْرخ فيها السِّباع ، وكذلك مَناخِرهم .

ورَوَى شَهْر بن حَوْشَب ، عن أبي هُرَيْرَة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال : إن كان الرَّجُلُ من قَوْم عاد ليحمل المِصْراعَيْن ، لو اجْتَمَع عليه خمس مائة من هذه الأمَّة لم يُطيقوه ؛ وإن كان أَحَدُهُم ليَغْمِز بقدمه الأرض فيَدْخُل فيها .

ورَوَى عبدُ الله بن لَهيعَة ، عن يَزيد بن عَمْرو المَعافِري ، عن ابن بَجْرَة قال : استظلَّ سبعون رَجُلًا من قَوْم مُوسَى ـ عليه السَّلام ـ في قَحْف رَجُل من العَماليق . وعن زَيْد بن أَسْلم : بَلَغَني أنَّ الضَّبُعَة وأَوْلادها رُبِّين في حِجاج عَينْ رَجُلٍ من العَماليق .

وقال تعـالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الآيات ٥-٧ سورة الفجر] .

قال المُبَرِّد : وَقَوْلُها ـ يعني الخَنْساء ـ : رَفيعُ العِمَاد ، إنَّما تُريدُ الطُّول . يُقالُ رَجُلٌ مُعَمَّد : يُريد طَويلًا ، ومنه قَوْلُه تعالى : ﴿إِرَمَ ذَاتِ/ العِمَادِ﴾ ، أي الطُّوال . ١٦١

وقال البَغَوِيُّ : سُمُّوا ذات العماد ، لأنَّهم كانوا أهْل عُمُد سَيَّارَة ، وهو قَوْلُ قَتادَة ومُجاهِد والكَلْبي ، ورِوايَةُ عَطاءٍ عن ابن عَبَّاس . وقال بعضُهم : سُمُّوا ذات العِماد ، لطُول قاماتِهم ، قال ابنُ عَبَّاس : يَعْني طُولُهم مثل العِمَاد . قال مُقاتِلٌ : كان طُولُ أَحَدِهم اثني عشر ذِراعًا .

وفي «كَشَّاف» الزَّمَخْشَري : ﴿لم يُخْلَق مِثْلُها﴾ : (مِثْلُ عَادٍ) في البلاد عِظَم أَجْرام وقُوَّة ، كان طولُ الرجل منهم أربع مائة ذِراع ، وكان يأتي الصَّخْرَة العَظيمَة فيَحْمِلها فيُلْقيها على الحَيّ فيُهْلِكهم [1] .

وقد ذَكَرَ غيرُ واحِدٍ أنَّه وُجِدَ في خِلافَة المُقْتَدِر بالله أبي الفَضْل جَعْفَر بن المُعْتَضِد ، كَنْزٌ بمصر فيه ضِلْعُ إنْسان طوله أربعة عشر شبرًا في عرض ثلاثة أشْبار .

واعْلَم أنَّ أَعْيُنَ بني آدمَ ضَيِّقَة ، وقد نَشَأَت نفوسُهم في مَحَلٍّ صَغير ، فإذا حَدَّثَ القَوْمُ بما يَتجاوَز مِقْدار عُقولهم أو مَبْلغ أجْسامهم ـ ممَّا ليس له عندهم أصْل يَقيسونَه عليه إلَّا ما يُشاهِدونه أو يأْلَفونه ـ عَجَّلوا إلى الارْتِياب فيه ، وسارَعُوا إلى الشَّكّ في الخَبَرِ عنه ، إلَّا من كان معه عِلْمٌ وفَهْمٌ ، فإنَّه يَفْحَص عمَّا يبلُغه من ذلك حتى يجد دَليلًا على قَبوله أو رَدِّه .

---

[1] الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، القاهرة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥، ٢: ٥٤٢.

وكيف يردُّ مثل هذه الأَخْبَار، وفي الصَّحيح أنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: «خَلَقَ الله آدَم طُوله ستون ذِراعًا في السَّمَاء، ثم لم يَزَل الخَلْقُ يَنْقُص حتى الآن».

وذكرمُحَمد بن عبد الرَّحيم بن سُلَيمان بن رَبيع القَيْسي الغَرْناطي في كتاب «تُحْفَة الأَلْباب» قال: نَقَلَ الشَّعْبي في كتاب «سِيَر المُلوك»، أنَّ الضَّحّاكَ بن عُلْوان لمَّا هَرَبَ منه لام بن عامِر إلى ناحيَة الشَّمال، أَرْسَلَ في طَلَبِه أَميرَيْن، مع كلِّ أَمير طائِفَةٌ من الجَبّارين، خَرَجَ أَحَدُهما قاصِدًا إلى بَلْغار، والآخَر إلى باشْغَرْد[a]، فأقامَ أولئك الجَبّارون في أرْض بَلْغار وفي باشْغَرْد[a].

قال الأُقْليسي: وقد رأيتُ صُوَرَهُم في باشْغَرْدَ، ورأيتُ قُبورَهم بها، فكان ممَّا رأيته ثَنيَّة أَحَدهم طولُها أربعة أَشْبار وعرْضها شِبْران، وقد كان عندي في باشْغَرْد نصف أَصْل الثَّنيّة، أُخْرِجَت لي من فَكِّه الأَسْفَل، فكان عَرْضُها شِبْرًا ووَزْنُها أَلْف مِثْقال ومائتا مِثْقال، أنا وَزَنْتُها بيدي، وهي الآن في داري في باشْغَرْد[a]، وكان دَوْرُ فَكِّ ذلك العادي سبعة عشر ذِراعًا.

وفي بَيْت بعْض أَصْحابي في باشْغَرْد عَضُد أَحَدِهم، طوله ثمانية وعشرون ذِراعًا، وأَضْلاعُه كلُّ ضِلع عَرْضه ثلاثة أَشْبار وأكثر كاللَّوْح الرُّخام، وأُخْرج إليَّ نِصْف رُسْغ يد أَحَدِهم، فكُنْت لا أَقْدِر أن أَرْفَعَه بيد واحِدَة حتى أَرْفَعه بيديَّ جَميعًا.

قال: ولقد رأيتُ في بَلَدِ بَلْغار، سنة ثلاثين وخمس مائة، من نَسْل العاديين رَجُلًا طُوالًا، كان طولُه أكثر من سبعة أذرع، وكان يُسَمَّى دِنْقِي، وكان يأْخُذ الفَرَسَ تَحْت إبطِه كما يأْخُذ الإنسان الطِّفْل الصغير، وكان إذا وَقَعَ القتالُ بتلك الناحية يُقاتل بشَجَرَة من شَجَر البَلُّوط: يُمْسِكها كالعَصَا في يده، لو ضَرَبَ بها الفيل قَتَلَه. وكان خَيِّرًا مُتواضِعًا، كلَّما الْتقاني سَلَّم عليَّ ورَحَّب بي وأَكْرَمَني، وكان رأسي لا يَصَل إلى حقوه.

وكان له أُخت على طُوله، رأَيْتُها في بَلْغار مِرارًا عِدَّة، قال لي القاضي يَعْقوب بن النُّعْمان - يعني قاضي بَلْغار -: إنَّ هذه المرأة الطَّويلة العادية قَتَلَت زَوْجَها، وكان اسمُه آدَم، وكان من أَقْوَى أَهْل بَلْغار، ضَمَّتْه إلى صَدْرِها فكَسَرَت أَضْلاعَه، فماتَ من ساعَته.

---

a) بولاق: باشقرد.

---

[1] أبو عمرو عامر بن شَراحيل الشعبي المتوفى سنة ١٠٣هـ/٧٢١م، محدّث وعالم في الفقه والمغازي، عارف بالشعر راوية له، لم يذكر له فؤاد سزجين بين مؤلفاته كتاب «سير الملوك» فتكون إشارة أبي حامد الغرناطي ذات قيمة خاصة (Sezgin, F., *GAS* I, p. 277).

قال : ولم يَكُن في بَلْغار حَمَّامٌ تَسَعُهم إلَّا حَمَّامٌ واحِدَة واسِعة الأبواب [1]. انتهى .

وقد حَدَّثني الحافظُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الفُرِّياني[a] [2]، عن أبيه ، أنَّه شاهَدَ قَبْرًا احْتُفِر بمَدينَة قَرْطَاجَنَّة من إفْريقية ، فإذا جُثَّة رَجُل قَدْر عِظَم رأسه كَنُّوْرَيْن عظيمين ، ووُجِدَ معه لَوْحٌ مكتوبٌ بالقَلَمِ المُسْنَد ، وهو قَلَمُ عاد وحُروفه مُقَطَّعَة ، ما نَصُّه :

«أنا كُوش بن كَنْعان ابن المُلُوك من آلِ عَاد ، مَلَكْتُ بهذه الأرض أَلْف مَدينَة ، وبَنَيْتُ بها على أَلْف بَكَر ، ورَكِبْت من الخَيْل العِتاق سبعة آلاف حُمْر وصُفْر وشُهْب وبيض ودُهْم ، ثم لم يُغْنِ عنِّي ذلك شيئًا ، وجاءَني صائِحٌ فصَاحَ بي صَيْحَةً أَخْرَجَتْني من الدُّنْيا ، فمن كان عاقِلًا مِمَّن جاءَ بَعْدي فليَعْتَبِر بي ، وأَنْشَدَ :

[الرجــز]

يـــا واقِــفًــا بِرَسْم رَبْع قَد وَهَى
قِــفْ واعْــتَــبِــر إن كنت من أَهْل النُّهَى[b]
بالأَمْس كُنَّا فَوْقَها واليَوْم صِرْنا تَحْتَها
فلِكُلِّ حَدٌّ غايَةٌ ولِكُلِّ أَمْرٍ مُنْتَهَى»

قال : فأَمَرَ السُّلْطَان أبو بكر بن يحيى الحَفْصي صاحِب تُونُس بطَمِّه ، فطُمَّ القَبْر .

قال مُؤَلِّفُه : وأنا أَدْرَكْتُ شيئًا من ذلك ، وهو أنَّه تَرافَعَ في بعض الأيام طائِفَةٌ من الحَجَّارين إلى السُّلطان الملك الظَّاهِر بَرْقُوق أعْوام بضع وتسعين وسبع مائة ، وقد اخْتَلَفُوا على مالٍ وَجَدوه بجبل

---

a) بولاق : الفريابي . b) في بولاق : إضافة شطر غير موجودة في النسخ المخطوطة فخل بوزن الرجز .

---

[1] أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ١٢٤، ١٢٩، ١٣١- ١٣٣.

[2] الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد اللَّخْمي الفُرِّياني – بضم الفاء وراء مشدَّدة مكسورة ثم تحتانية وآخره نون – نسبة لفُرِّيانة إحدى مدائن إفريقية قرب سفاقُس ، مولده بتونس سنة ٧٨٠هـ وارتحل إلى مصر سنة ٨١٢هـ فحج ثم قطن القاهرة ، وتردّد بينها وبين بلاد الشام . قال السخاوي : «وقد كان المقريزي يعظّمه جدًّا ووصفه بالشيخ الحافظ الرَّحَّال ذي الكنيتين ، وأكثر من الاعتماد عليه فيما كان يخبره به ممَّا يتعلّق بالتاريخ ونحوه من غير إفصاح بالنقل عنه على عادته» ، وذكر أنه ترجمه في عقوده باختصار . وكانت وفاته في صفر سنة ٨٦٠هـ (السخاوي : الضوء اللامع ٧:٦٧-٧٠) .

وواضح تحامل السخاوي – كعادته – على المقريزي حيث نسب المقريزي ما أفاده به الحافظ الفُرِّياني إليه ، كما هو واضح بالنص الذي أمامنا ، وانظر كذلك فيما يلي ٥١١، ٦٤٦؛ ٢: ٢٠٩، ٣٠٢.

المُقَطَّم ؛ وهو أنّهم كانوا يَقْطَعون الحِجارَة من مَغار فيما يلي قَلْعَة الجَبَل من بَحْريِّها ، فانْكَشَفَ لهم حَجَرٌ أَسْوَد عليه كِتابَة ، فاجْتَمَعُوا على قَطْع ما بين يديْ هذا الحَجَر طَمَعًا في وُجود مال ، فانْتَهَى بهم القَطْع إلى عَمُودٍ عَظيمٍ قائِم في قَلْب الجَبَل ، فلعَجَلَتهم أقبلوا بمَعاوِلهم عليه حتى
١ تَكَسَّر قِطَعًا ، فإذا/ هو مُجَوَّف وإنسان قائِم على قَدَمَيْه بطوله . وتناثَرَ لهم من جِهَة رأسه دَنانير كثيرة ، فاقْتَسَموها وتنافَسُوا في قِسْمَتِها ، واختلفوا حتى اشْتَهَر أمرُهم وترافعوا إلى السُّلْطان . فبَعَثَ من كَشَفَ المَغار ، فوَجَدَ الحَجَرَ والعَمُود وقد تَكَسَّر ، فأَخَذَ منهم ما وَجَدَ بأيْديهم من الدَّنانير ، ولم يَجِد من يَعْرِف ما قد كُتِبَ على الحَجَر . وتَسامَعَ الناسُ بالخَبَر ، فأقْبَلوا إلى المَغار وعَبَثُوا برِمَّة المَيِّت .

فأَخْبَرَني من شاهَدَ سِنًّا من أَسْنان هذا المَيِّت أنّها سَوْدَاء بقَدْر الباذِنْجانَة ، وأنَّ عَظْمَ ساقِه فيما بين قَدَمه إلى رُكْبَته خمسة أَذْرُع ، فيجيء من هذا حِساب طُوله عشرين ذِراعًا وأَزْيَد ، ودِماغ سِنٍّ واحِدَة من أسْنانِه في قَدْر الباذِنْجانَة ما هو إلّا كالقُبَّة الكبيرة .

وأَخْبَرَني السَّيِّد الشَّريف قاضي القُضَاة بدِمَشْق شِهابُ الدين أحمد بن عليّ بن إبراهيم الحُسَيْني ، المعروف بابن عَدْنان وبابن أبي الجِنّ [١] ، أنّه وَقَفَ في سنة أربع عشرة وثمان مائة ، بمَقْبَرَة باب الصَّغير من دِمَشْق ، على قَبْرٍ ليَدْفِن فيه مَيِّت لهم ، فلمَّا تَهَيَّأ القَبْرُ ولم يَبْق إلّا أن يُدَلّى فيه المَيِّت ، انْخَسَفَ وخَرَجَ من الخَسْف ذُبابٌ كثيرٌ كِبار زُرْق الألْوان حتى كادَت تُظِلّهم . فنَزَل الحَفَّارُ في الخَسْف ، فإذا قَبْرٌ طوله اثنان وعشرون ذِراعًا ، وفيه بطوله مَيِّت قد صارَ كالرَّماد .

وأَخْبَرَني أيضًا أنّه شاهَدَ بهذه المَقْبَرَة ضِرْسَ إنْسان وله ثلاث شعب وقد سَقَطَت منه قِطْعَة ، وهو في قَدْر البِطِّيخَة ، وأنّه وُزِنَ بحَضْرَته فبَلَغَ رِطْلَيْن وتسع أواقي بالرَّطْل الشَّامِي ، وأنَّ القِطْعَة التي انْكَسَرَت منه نحو أُوقيتَين بالشّامي ، فيكون على هذا زِنَة هذا الضِّرْس نحو اثني عَشَر رطلًا بالمصري .

---

[١] شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن إبراهيم بن عدنان بن جعفر بن محمد بن عدنان الحسيني المنقري الدمشقي الشافعي كاتب السر الشريف بديار مصر ، توفي بالطاعون سنة ٨٣٣هـ ، ودفن في تربة الأشرف عند السيد حسن بن عجلان ، بعد الصلاة عليه بباب الوزير في محفل شهده السلطان (ابن حجر : إنباء الغمر ٣: ٤٤١- ٤٤٢؛ أبو المحاسن : المنهل الصافي : ١: ٤٠٦- ٤٠٧؛ النجوم الزاهرة ١٥: ١٦٤؛ السخاوي : الضوء اللامع ٢: ٥-٦) .

ذِكرُ طَرَفٍ مِمَّا قِيلَ في الإسكَنْدَرِيَّة

قال عُمر بن أبي عُمَر[a] الكِنْدي : أَجْمَعَ الناسُ أنَّه ليس في الدُّنيا مَدينَةٌ على مَدينَة[b] ثلاث طَبَقَات غير الإسكَنْدَرية ؛ ولمَّا دَخَلَ عبدُ العَزيز بن مَرْوان الإسكَنْدَرية سأَلَ رَجُلًا من عُلَماء الرُّوم عنها وعن عَدَد أهْلِها ؛ فقال : واللهِ أيُّها الأَمير ما أَدْرَكَ عِلْمَ هذا أَحَدٌ من المُلوك ، والذي أُخْبِرك كم كان فيها من اليَهود ، فإنَّ مَلِكَ الرُّوم أَمَر بإحْصائِهم فكانوا ستّ مائة ألف ؛ قال : فما هذا الخرابُ الذي في أَطْرافِها ؟ قال : بَلَغَني عن بعض مُلوك فارِس ، حين مَلَكُوا مصر ، أنَّه أَمَر بفَرْض دِينار على كلِّ مُحْتَلم لعُمران الإسكَنْدَرية ، فأتاه كُبَراءُ أَهْلِها وعُلماؤهم وقالوا : أيُّها الملك لا تَتْعَب ، فإنَّ الإسكَنْدَرية أقامَ على[c] بِنائِها ثلاث مائة سنة ، وعُمِّرت ثلاث مائة سنة ، وإنَّها لخَراب منذ ثلاث مائة سنة . ولقد أقامَ أَهْلُها سبعين سنة لا يَمْشُون فيها نَهارًا إلَّا بخِرَق سُود في أَبْدانهم[d]، خَوْفًا على أَبْصارِهم من شِدَّة بَياضِها .

ومن فَضَائِلِها ما قالَه بَعْضُ المُفَسِّرين من أَهْل العِلْم إنَّها المَدينَة التي وَصَفَها الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في كِتابه الكريم[e] فقال : ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الآيتان ٦–٧ سورة الفجر] .

وقال أحمدُ بن صَالِح : قال لي سُفْيانُ بن عُيَيْنَة : يا مِصْري أين تَسْكُن ؟ قلت : أَسْكُن الفُسْطَاط ؛ فقال : أتأتي الإسكَنْدَرية ؟ قلت : نَعَم ؛ قال : تلك كِنانَةُ الله ، يجعل فيها خِيارَ سِهامِه .

وقال عبد الله بن مَرْزوق الصَّدَفي : لمَّا نُعِيَ لي ابنُ عمِّي خالِد بن يَزيد ـ وكان قد توفي بالإسكَنْدَرية ـ لَقِيني مُوسَىٰ بن عُلَيّ بن رَبَاح وعبد الله بن لَهيعَة واللَّيْثُ بن سَعْد متفرِّقين ، كلُّهم يقول : أَلَيْس ماتَ بالإسكَنْدَرية ! فأقول : نَعَم ؛ فيقولون هو حَيٌّ عند الله يُرْزَق ، ويُجْرى عليه أَجْر رِباطِه ما قامَت[f] الدنيا ، وله أَجْرُ شَهيد حتى يُحْشَر على ذلك[1] .

---

a) بولاق : أبو عمر . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : خان الإسكندرية أقام الإسكندر على . d) بولاق : أيديهم . e) بولاق : العزيز . f) بولاق : أقامت .

---

[1] ابن الكندي : فضائل مصر ٣١–٣٢؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ١١٦–١١٨؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٦٤.

وقال الذين يَنْظُرون في الأَهْوية والبُلْدان وتُرَب[a] الأقاليم والأَمْصَار : إنَّه لم تَطُل أعمارُ النَّاس في بَلَد من البُلْدان طولها بمَرْيوط من كُورة الإسْكَنْدرية ووادي فَرْغانَة [١] .

وقال الحَسَنُ بن رِضْوان[b]: وأمَّا الإسْكَنْدَريةُ وتِنِّيس وأمْثال هذه[c]: فقُرْبُها من البَحْر، وسُكُون الحَرارَة والبَرْد عندهم، وظُهُور رِيح الصَّبَا فيهم، ممَّا يُصْلِح أَمْرَهم، ويُرِقُّ طِباعَهم، ويَرْفَع هِمَمَهُم[d]، وليس يَعْرِض لهم ما يَعْرض لأهل البَشْمور[e] من غِلَظ الطَّبْع والحمارية .

وقد وُصِفَ أهلُ الإسْكَنْدَرية بالبُخْل؛ قال جَلالُ الدين مُكَرَّم بن أبي الحَسَن بن أَحْمَد بن حَبْقَة[f] الخَزْرَجي مَلِك الحُفَّاظ :

[الوافر]

نَزيلُ سَكَنْدَرِيَّةَ ليس يُقْرى بغَير الماءِ أو نَعْت السَّوَاري

ويُتْحِفُ حين يُكْرِم بالهَواء مَلاثِن والإشارَة للمَنار

وذِكْرِ البَحْر والأمْواج فيه ووَصْفِ مَراكِب الرُّوم الكِبَار

فلا يَطْمَع نَزيلُهم بخُبْز فما فيها لذاك الحَرْف قاري

وقال أَحْمَدُ بن خُرْداذْبَه : من الفُسْطَاط إلى ذَات[g] السَّاحِل أربعة وعشرون ميلًا، ثم إلى تَرْنُوط[i] ثلاثون ميلًا، ثم إلى كُوم شَرِيك[h] اثنان وعشرون ميلًا، ثم إلى الرافِقة أربعة وعشرون ميلًا مع النيلِ، ثم إلى قَرْطسا[i] ثلاثون ميلًا، ثم إلى كِرْيَوْن أربعة وعشرون ميلًا، ثم إلى الإسْكَنْدَرية أربعة وعشرون ميلًا [٢] .

وقال آخرُ : طَريقُ الإسْكَنْدَرية إذا نَضَبَ ماءُ النِّيل يأْخذ بين المَدائِن والضِّياع. وذلك إذا أَخَذْت من شَطَنُوف إلى/ شُبْك العبيد، فهو مَنْزل فيه مُنْيَة لطيفة[j]، وبينهما اثنا عشر سَقْسًا؛ ١:
ومن شُبْك إلى مَدينَة مُنُوف ـ وهي كبيرة فيها حَمَّامات وأَسْواق، وبها قَوْمٌ تُنَّاء[f] فيهم يَسَار ووُجُوهٌ من النَّاس ـ وبينهما ستة عشر سَقْسًا؛ ومن مُنُوف إلى مَحَلَّة صُرَد ـ وفيها مِنْبَرٌ وحَمَّامٌ وفَنادِقُ وسُوقٌ صالِحٌ ـ ستة عشر سَقْسًا؛ ومن مَحَلَّة صُرَد إلى سَخَا ـ وهي مَدينَة كبيرة ذات حَمَّامات وأَسْواق وعَمَلٍ واسِع، وإقْليم جَليل له عامِلٌ بعَسْكَر وجُنْد، وبه الكَتَّان الكثير وزَيْت الفِجْل وقُمُوح عظيمة ـ ستة عشر سَقْسًا؛ ومن سَخَا إلى شَبْرامية ـ وهي مَدينَة كبيرة بها جامع

---

a) بولاق : ترتب . b) بولاق : صفوان . c) بولاق : أمثالهما . d) بولاق : همتهم . e) بولاق : اليشمون . f) ساقطة من بولاق . g) بولاق : ذوات . h) بولاق : مربوط . i-i) ساقطة من بولاق . j) في صورة الأرض : منير لطيف .

---

[١] ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٢٧ (مادة ترنوط) . [٢] ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٨٤.

وأسْواق ـ ستة عشر سَقْسًا ؛ ومن شَبْرامية[a] إلى مَسير ـ وهي مَدينة بها جامع وأسواق ـ ستة عشر سَقْسًا ؛ ومن مَسير إلى سَنْهور ـ وهي مَدينَة ذات إقْليم كبير ، وبها حَمَّامات وأسْواق وعَامِل كبير ـ ستة عشر سَقْسًا ؛ ومن سَنْهور إلى البُجُوم ـ وهي إقليم وبها حَمَّامات وفَنادِق وأسْواق ـ ستة عشر سَقْسًا ؛ ومن البُجُوم إلى نَسْتَرُو ـ وكانت مَدينَةً حَسَنَةً على بُحَيْرَة اليشمون ـ عشرون سَقْسًا ؛ ومن نَسْتَرُو إلى البُرُلُّس ـ وهي مَدينَة كثيرة الصَّيْد من البُحَيْرَة ، وبها حَمَّامات ـ عشر سَقْسات ؛ ومن البُرُلُّس إلى إخْنا ـ وهي حِصْنٌ على شَطّ بحر المِلْح ـ عشر سَقْسات ؛ ومن إخْنا إلى رَشيد ـ وهي مَدينَة على النِّيل ، ومنها يَصُبّ النِّيلُ في البحر من فُوَّهَة تُعْرَف بالأُشْتُوم وهي المَدْخَل ـ ثلاثون سَقْسًا ، وكان بها أسْواقٌ صالِحَة وحَمَّام ، وبها نَخيل وضَريبَة على ما يُحْمَل من الإسْكَنْدَرية . وهذا الطَّريقُ ، الآخِذ من شَطَنُوف إلى رَشيد ، رُبَّما امْتَنَعَ سُلوكُه عند زيادةِ النِّيل [1] .

والثِّيابُ المَنْسوجَة بالإسْكَنْدَرية لا نَظيرَ لها وتُحْمَل إلى أقْطار الأرض ، وفي ثِيابِ الإسْكَنْدَرية ما يُباعُ الكَتَّان منه ، إذا عُمِلَتَ[b] ثِيابًا كلُّ زِنَة دِرْهَم بدِرْهَم فِضَّة ، وما يَدْخَل في الطِّراز فيُباع بنَظير وَزْنه مَرَّات عَدَّة[c] ويُقال لها الشُّرُوب [2] .

ذِكْرُ فَتْح الإسْكَنْدَرِيَّة

قال أبو عُمَر الكِنْديُّ : لمَّا حازَ المسلمون الحِصْن بما فيه ، أَجْمَعَ عَمْرو على المسير إلى الإسْكَنْدَرية ، فسارَ إليها في ربيع الأوَّل سنة عشرين [3] .

وقال غيرُه : بل سارَ في جمادى الآخرة منها .

---

a) النسخ : شيركية والتصويب من ابن حوقل . b) بولاق : عمل . c) بولاق : عديدة .

---

[1] ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٨- ١٣٩.

[2] عن طراز الإسكندرية راجع، ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٣٠- ٣٣١؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١١٩؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١١: ٤٢٥- ٤٢٦؛ Marzouk, M. A., *History of Textile Industry in Alexandria*, Alexandrie 1955; id., «The Tiraz Institutions in Medieaval Egypt», in *Studies in Islamic Arts and Axchitecture in Honour of K.A.C. Creswell*, London 1965, pp. 157-62; Serjeant, R.B., *Islamic Textiles*, Beirut 1972, pp. 147-53.

[3] الكندي : ولاة مصر ٣٢.

وذَكَرَ سَيْفُ بن عُمَر أنَّ عَمْرو بن العَاص بَعَثَ إلى الإسْكَنْدَرية، وهو على عَيْنِ شَمْس، عَوْفَ ابن مالِك، فنَزَلَ عليها وبَعَثَ يقول لأهْلِها: إن شِئْتُم أن تَنزلوا فلَكُم الأمان، فقالوا: نَعَم. فراسَلَهم وتَرَبَّصوا أهْل عَيْنِ شَمْس، وسَبَى[a] المسلمون مَنْ بين ذلك[1].

وقال ابنُ عبد الحَكَم: ويُقال إنَّ المُقَوْقِسَ إنَّما صالَحَ عَمْرو بن العَاص [b]على الرُّوم وهو مُحاصر الإسْكَنْدَرية، قال اللَّيْثُ بن سَعْد: إن عَمْرو بن العَاص[b] لمَّا فَتَحَ الإسْكَنْدَرية حاصَرَ أهْلَها ثلاثَة أشهر، وألَحَّ عليهم فخافُوه، وسألَه المُقَوْقِسُ الصُّلْحَ عنهم كما صالَحَه على القِبْط، على أن يَسْتَنْظِر رَأْي المَلِك. فحَدَّثَنا يَزيدُ بن أبي حَبيب أنَّ المُقَوْقِسَ الرُّومي، الذي كان مَلِكًا على مصر، صالَحَ عَمْرو بن العَاص على أن يَسيرَ من الرُّوم مَنْ أرادَ المَسير، ويَقَرَّ مَنْ أرادَ من الرُّوم على أمْر قد سَمَّاه. فبَلَغَ ذلك هِرَقْل مَلك الرُّوم، فتسَخَّطَ أشَدَّ التَّسَخُّط[c]، وأنْكَرَه أشَدَّ الإنْكار، وبَعَثَ الجُيوشَ فأغْلَقُوا أبوابَ الإسْكَنْدَرية، وآذَنُوا عَمْرًا بالحَرْب؛ فخَرَجَ إليه المُقَوْقِسُ فقال: أسْألُكَ ثَلاثًا؛ قال: ما هُنَّ؟ قال: لا تَبْذُل للرُّوم ما بَذَلْتَ لي، فإنِّي قد نَصَحْتُ لهم فاسْتَغَشُّوني، ولا تَنْقُض بالقِبْط فإنَّ النَّقْضَ لم يأْت من قِبَلِهم، وأن تَأْمُر بي إذا مُتّ فادْفِنِّي في أبي يُحَنِّس؛ فقال عَمْرو: هذه أهْوَنهنّ علينا[2].

قال: فخَرَجَ عَمْرو بالمسلمين حين أمْكَنَهم الخُروج، وخَرَجَ معه جماعَةٌ من رُؤساء القِبْط، وقد أصْلَحوا لهم الطُّرُق، وأقامُوا لهم الجُسُور والأسْواق، وصارَت لهم القِبْطُ أعْوانًا على ما أرادوا من قِتال الرُّوم. وسَمِعَت بذلك الرُّومُ فاسْتَعَدَّت واسْتَجاشَت وقَدِمَت عليهم مَراكِبُ كثيرة من أرْض الرُّوم فيها جَمْعٌ عظيمٌ من الرُّوم بالعُدَّة والسِّلاح، فخَرَجَ إليهم عَمْرو من الفُسْطاط مُتَوَجِّهًا إلى الإسْكَنْدَرية، فلم يَر منهم أحدًا، حتى بَلَغَ تَرْنُوط فلقي بها طائِفَةً من الرُّوم، فقاتَلَهم قِتالًا خَفيفًا فهَزَمَهم الله.

ومَضَى عَمْرو بمَن معه حتى لَقِي جَمْعَ الرُّوم بكُوم شَريك[3]. فاقْتَتَلوا ثلاثَة أيَّام، ثم فَتَحَ الله على المَسْلمين، ووَلَّى الرُّومُ أكتافَهم. ويُقالُ بل أَرْسَلَ عَمْرو بن العَاص شَرِيكَ بن سُمَيّ في

---

a) بولاق: وسار. (b-b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: فسخط أشد السخط.

---

[1] الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤: ١٠٨.

[2] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٧٢- ٧٣.

[3] كوم شريك، انظر فيما يلي ٤٩٦.

آثارهم ، فأَدْرَكَهم عند الكُوم الذي يُقال له كُوم شَرِيك ، فقاتلهم[a] فهَزَمَهم وكان على مُقَدِّمة عَمْرو ـ وعَمْرو بتَرْنُوط[b] ـ فألْجَأوه إلى الكُوم فاعْتَصَم به ، وأحاطَت به الرُّوم .

فلمَّا رأى ذلك شَرِيكُ بن سُمَيّ أَمَرَ أبا ناعِمَة مالِك بن ناعِمَة الصَّدَفي ـ وهو صاحِب الفَرَسِ الأشْقَر الذي يُقالُ له أَشْقَر صَدَف ، وكان لا يُجارَى سُرْعَةً ـ فانْحَطَّ عليهم من الكُوم ، وطَلَبَتْه الرُّومُ فلم تُدْرِكْه ، حتى أَتَى عَمْرًا فأَخْبَرَه .

فأَقْبَل عَمْرو مُتَوَجِّهًا ، وسَمِعَت به الرُّوم فانْصَرَفَت ، ثم التقوا بسُلْطَيْس فاقْتَتَلوا قِتالًا شَديدًا ، ثم هَزَمَهم الله تعالى ، ثم الْتَقَوا بالكِرْيُون فاقْتَتَلوا بها بِضْعَة عشر يومًا ؛ وكان عبدُ الله بن عَمْرو على المُقَدِّمَة ، وحامِل اللِّواء يومئذٍ وَرْدان مَوْلَى عَمْرو ، فأَصابَت عبدَ الله بن عَمْرو جِراحاتٌ كثيرةٌ فقال : يا وَرْدان لو تَقَهْقَرْت قليلًا نُصيب الرَّوح ؛ فقال وَرْدان : الرَّوح تُريد ؟ الرَّوح أمامَكَ
١٦٤:٢ وليس هو[a] خَلْفَكَ ؛ فتقدَّم عبدُ الله ، فجاءَه رَسُولُ أبيه يسأله عن جِراحِه ، فقال/ :

[الوافر]

أَقولُ لها إذا جَشَأَت وجاشَت رُوَيْدَكِ تُحْمَدي أو تَستَريحي[1]

وهذا البيت لعَمْرو بن الإطْنابَة[2] ، وهو أنَّ رَجُلًا من بني النَّجَّار كان مُجاوِرًا لمُعاذ بن النُّعْمان فقُتِل ، فقال مُعاذ : لا أَقْتُل به إلَّا عَمْرًا بن الإطْنابَة ، وهو يومئذٍ أَشْرَفُ الخَزْرَج ، فقال عَمْرو[3] :

[الوافر]

أَلا من مُبْلِغ الأَكْفاءَ عَنِّي وقد تُهْدي النَّصيحَةُ للنَّصيحِ
فإنَّكم وما تُزْجُون شَطْري من القَوْل المُرَغَّي والصَّريحِ
سَيَنْدَم بَعْضُكم عَجِلًا عليه وما أَثَر اللِّسان إلى الجُروحِ

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : بمريوط . c) بولاق : بسلطيس .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٣- ٧٤، والبيت فيه :
أقول إذا ما جاشت النفس اصبري
فعـــن ما قليل تُحْمَدي أو تُلامي

[2] عمرو بن عامِر بن زَيْد مناة بن عامر الأنصاري، والإطْنابَة أمّه وهي بنت شهاب بن زَبّان من بني القَيْن بن جسر، شاعِرٌ قديم من فرسان قومه وسادتهم، ملك الحجاز وكان على قومه في بعض حروبهم مع الأَوْس (أبو الفرج : الأغاني ١١:١٢١- ١٢٤؛ المرزباني : معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة ١٩٦٠، ٨- ٤٩؛ ابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء، تحقيق عبد السلام هارون - نوادر المخطوطات، القاهرة ١٩٥٤، ٢:٩٥).

[3] انظر الأبيات وتخريجها عند البصري : الحماسة البصرية، تحقيق وشرح ودراسة عادل سليمان جمال، القاهرة ١٩٩٩، ١:٧- ٨.

أَبَتْ لي عِفَّتي وأَبَى بَلائي … وأَخْذي الحَمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبيحِ
وإعْطائي على المَكْرُوه مالي … وإقْدامي على البَطَلِ المُشيحِ
وقَوْلِي كُلَّما جَشَأَت وجَاشَت … مَكانَكِ تُحْمَدي أو تَسْتَريحي
لأَدْفَعَ عن مآثِرَ صالِحاتٍ … وأَحْمي بَعْدُ عن عِرْضٍ صَحيحِ
٥ بذي شُطَبٍ كلَوْن المِلْح صافٍ … ونَفْسٍ لم تَقِرّ على القَبيحِ

الشُّطَبُ. سَعْفُ النَّخْل الأَخْضَر، الواحِدَة شُطْبَة؛ وجَشَأَت. ارْتَفَعَت من حُزْنٍ أو فَزَع؛ وجاشَت: دارَت للغَثَيان، وقيل هما بمعنى ارْتَفَع؛ والمُشِيح: المباد والمُتَكَمِش.

فرَجَعَ الرَّسولُ إلى عَمْرو فأَخْبَره بما قال، فقال عَمْرو: هو ابني حَقًّا؛ وصَلَّى عَمْرو يومئذٍ صَلاةَ الخَوْف [1].

ثم فَتَحَ الله للمسلمين، وقَتَلَ منهم المسلمون مَقْتَلَةً عَظيمةً، واتَّبَعُوهم حتى بَلَغُوا الإسْكَنْدَرية. فتَحَصَّن بها الرُّومُ ـ وكان عليها حُصونٌ مَتينَة لا تُرام، حِصْنٌ دون حِصْن ـ فنَزَل المسلمون ومعهم رُؤساءُ القِبْط يُمِدُّونهم بما احْتاجوا إليه من الأطعمة والعُلوفَة [2].

فأقاموا شهرين ثم تَحَوَّل [إلى المَقْس] [a]، فخَرَجَت عليه خَيْلٌ من ناحية البُحَيْرَة مُسْتَتِرَة بالحِصْن، فواقَعُوه، فقُتِل يومئذٍ من المسلمين اثنا عشر رَجُلًا، ورُسُل مَلِك الرُّوم تختلف إلى الإسْكَنْدرية في المراكِب بمادَّة الرُّوم.

وكان مَلِكُ الرُّوم يقول: لئِن ظَهَرَت العَرَبُ على الإسْكَنْدَرية، إنَّ ذلك انْقِطاعُ الرُّوم وهَلاكُهم، لأنَّه ليس للرُّوم كَنائِسُ أعظم من كَنائِس الإسْكَنْدَرية. وإنَّما كان عِيدُ الرُّوم ـ حين غَلَبَت العَرَبَ على الشَّام ـ بالإسْكَنْدَرية. فقال الملك: لَئِن غَلَبُونا على الإسْكَنْدَرية هَلَكَت الرُّوم وانْقَطَع مُلْكُها. فأَمَرَ بجهازه ومَصْلَحته لخُرُوجه إلى الإسْكَنْدَرية حتى يُباشِر قِتالَها بنفسه [c] إعْظامًا لها وأَمَرَ أن لا يتخلَّف أحَدٌ من الروم وقال: ما بقي الرُّوم بعد الإسْكَنْدَرية [c]. فلمَّا فَرَغَ من جِهازِه، صَرَعَه الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ فأماتَه، وكَفَى المسلمين مَؤُونَتَهُ. وكان مَوْتُه في سنة تسع عشرة، فكَسَرَ الله بمَوْتِهِ شَوْكَةَ الرُّوم، فرَجَعَ جَمْعٌ كثيرٌ ممَّن كان قد تَوَجَّه [c] إلى الإسْكَنْدَرية [c] [3].

---

a) زيادة من فتوح مصر. b) بولاق: ففي. (c-c) ساقطة من بولاق.

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح ٧٤.
[2] نفسه ٧٤.
[3] نفسه ٧٥-٧٦.

وقال اللَّيْثُ : ماتَ هِرَقْل في سنة عشرين ، وفيها فُتِحَت قَيْسارِيَّة الشَّام .

قال : واسْتَأْسَدَت العَرَبُ عند ذلك ، وأَلَحَّت بالقِتال على أَهْل الإسْكَنْدَرية ، فقاتَلوهم قِتالًا شَديدًا ، وخَرَجَ طَرَفٌ من الرُّوم من باب حِصْن الإسْكَنْدَرية ، فحَمَلُوا على الناس فقَتلوا رَجُلًا من مَهْرَة ، واحْتَزُّوا رأسَه ومَضَوا به ، فجعل المَهْرِيّون يتَغَضَّبون ويقولون : لا نَدْفِنه إلَّا برَأْسِه . فقال عَمْرو : تَتَغَضَّبون كأنَّكم تتغضَّبون على من يُبالي بغَضَبِكم ، احْمِلوا على القَوْم إذا خَرَجُوا فاقْتُلوا منهم رَجُلًا ، ثم ارْمُوا برَأْسه يرْمُونَكم برَأْس صاحِبِكم . فخَرَجَت الرُّومُ إليهم فاقْتَتَلُوا ، فقُتِلَ من الرُّوم رَجُلٌ من بَطارِقَتِهم ، فاحْتَزُّوا رأسَه ورَمَوْا به الرُّوم ، فرَمَت الرُّومُ برَأْس المَهْري إليهم ، فقال : دونكم الآن فادِفنُوا صاحِبَكم [١].

وكان عَمْرو يقول : ثَلاثُ قَبائِل من مُضَر [a]: أمَّا مُهْرَة فقَوْمٌ يَقْتُلون ولا يُقْتَلون ، وأمَّا غافِق فقوم يُقْتَلُون ولا يَقْتُلون ، وأمَّا بَلِي فأَكْثَرُها رَجُلًا صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ ، وأَفْضَلُها فارِسًا [٢].

وقال رَجُلٌ لعَمْرو : لو جَعَلَت المَنْجَنيق ورَمَيْتَهم به لهَدَم منه [b] حائِطَهُم ؛ فقال عَمْرو : أتَسْتَطيع أن تُنَبِّئ [c] مقامك من الصَّف . وقيل له : إنَّ العَدُوَّ قد غَشَوْك ، ونحن نَخافُ على رائِطَة ـ يُريدون امْرَأَتَه ـ فقال : إذن يَتَّخذوا أرْياطًا كَثيرَة [٣].

ولمَّا اسْتَحَرَّ القِتالُ [بينهم] [d] بارَزَ رَجُلٌ من الرُّوم مَسْلَمَة بن مَخْلَد ، فصَرَعَه الرُّوميُّ وأَلْقَاه عن فَرَسِه ، وهَوَى إليه ليَقْتُله حتى حَماه رَجُلٌ من أصْحابِه ـ وكان مَسْلَمَة لا يُقاوَم لسبيله [b] ولكنها مَقادير ـ ففَرِحَت بذلك الرُّومُ ، وشَقَّ ذلك [b] على المسلمين . وغَضِبَ عَمْرو بن العَاص لذلك ، وكان مَسْلَمَة كثيرَ اللَّحْم ثَقيل البَدَن ، فقال عَمْرو عند ذلك : ما بالُ الرَّجُل المُسْتَه الذي يُشْبه النِّساء ، يَتَعَرَّضُ مَداخِلَ الرِّجال ويَتَشَبَّه بهم . فغَضِبَ من ذلك مَسْلَمة ولم يُراجِعه .

ثم اشْتَدَّ القِتالُ حتى اقْتَحموا حِصْنَ الإسْكَنْدَرية ، فقاتَلَهم العَرَبُ في الحِصْن ، ثم جاشَت عليهم الرُّوم حتى أَخْرَجوهم جَميعًا من الحِصْن ، إلَّا أربعة نَفَر تفَرَّقوا في الحِصْن وأَغْلَقُوا عليهم باب الحِصْنِ ، أَحَدُهم عَمْرو بن العَاص والآخَر مَسْلَمَة ، ولم نَحْفَظ الآخرين ، وحالُوا بينهم وبين

---

a) بولاق : مصر . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : يفتي . d) زيادة من فتوح مصر .

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٦.
[٢] نفسه ٧٦- ٧٧.
[٣] نفسه ٧٧.

أصْحابِهم ، ولا تَدْري الرُّومُ من هم . فلمَّا رأى ذلك عَمْرو بن العَاص وأصْحابُه ، التجأوا إلى دِيماس من حَمَّاماتِهم ، فدَخَلُوا فيه فاحْتَرَزوا به . فأمَرُوا روميًّا أن يُكَلِّمهم بالعَرَبيَّة ، فقال لهم : إنَّكم قد صِرْتُم بأَيْدينا/ أسارَى ، فاسْتَأْسِروا ولا تَقْتُلوا أنفسكم ، فامْتَنِعُوا عليهم . ثم قال لهم : إنَّ في أَيْدِي أصحابِكم مِنَّا رِجالًا أَسَرُوهم ، ونحن نُعْطيكم العُهُود نُفادِي بكم أصْحابَنا ولا نَقْتُلكم ، فأَبَوْا عليهم . فلمَّا رأَى ذلك الرُّومي منهم قال لهم : هل لكُم إلى خَصْلَة وهي نَصَفٌ ، فإن غَلَبَ صاحِبُنا صاحبَكم اسْتَأْسَرْتم لنا وأمْكَنْتُمونا من أنْفُسكم ، وإن غَلَبَ صاحِبُكم صاحِبَنا خَلَّيْنا سَبيلَكم إلى أصْحابِكم . فرَضَوا بذلك ، وتَعَاهَدُوا عليه ، وعَمْرو ومَسْلَمَة وصاحِباهما في الحِصْن في الدِّيماس .

فتَدَاعوا إلى البِراز ، فَبَرَزَ رَجُلٌ من الرُّوم ـ وقد وَثِقت الرُّومُ بنَجْدَته وشِدَّته ـ وقالوا : يَبْرُز رجلٌ منكم لصاحِبِنا . فأرادَ عَمْرو أن يَبْرُز ، فمَنَعَه مَسْلَمة وقال : ما هذا ؟ تُخْطِئ مرَّتين : تَشُذّ من أصحابِك وأنت أَمير ، وإنَّما قِوامُهم بك وقُلوبُهم معلَّقة نَحْوك ، لا يَدْرون ما أَمْرك ولا تَرْضَى حتى تُبارِز وتتعرَّض للقَتْل ، فإن قُتِلْتَ كان ذلك بلاءً على أصْحابِك ، مكانَك وأنا أَكْفيك إن شاءَ الله تعالى . فقال عَمْرو : دونَك فرُبَّما فَرَّجَها الله بك .

فَبرَز مَسْلَمَة والرُّومي ، فتجاوَلا ساعَةً ، ثم أعانَه الله عليه فقتَلَه ؛ فكَرَّ مَسْلَمَةُ وأصحابُه ، ووَفَّى لهم الرُّومُ بما عاهَدُوهم عليه ، فَفَتَحُوا لهم بابَ الحِصْن فخَرَجُوا ، ولا يَدْري الرُّومُ أنَّ أميرَ القَوْم فيهم حتى بَلَغَهم بعد ذلك فأَسِفُوا على ذلك ، وأكَلُوا أيْديهم تَغَيُّظًا على ما فاتَهم . فلمَّا خَرَجُوا اسْتَحْيا عَمْرو ممَّا كان قال لِمَسْلَمَة حين غَضِب ، فقال عَمْرو عند ذلك : اسْتَغْفِر لي ما كُنْتُ قُلْتُ لك ، فاسْتَغْفَرَ له .

وقال عَمْرو : ما أَفْحَشْتُ قَطُّ إلَّا ثلاث مِرار : مرَّتين في الجاهلية ، وهذه الثالثة . وما منهم مرَّة إلَّا وقد نَدِمْتُ ، وما اسْتَحْيَيْت من واحِدَة منهن أَشَدَّ ممَّا اسْتَحْيَيْت ممَّا قُلْت لك . ووالله إنِّي لأَرْجُو أَلَّا أَعودَ إلى الرابعة ما بَقِيت [1] .

قال : وأقامَ عَمْرو مُحاصِرَ الإسْكَنْدَرية أَشْهرًا . فلمَّا بَلَغَ ذلك عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ قال : ما أَبْطَأوا بالفَتْح إلَّا لمَّا أَحْدَثُوا . وكَتَبَ إلى عَمْرو بن العَاص :

«أمَّا بَعْدُ ، فقد عَجِبْتُ لإبْطائِكم عن فَتْح مصر ، إنَّكم تُقاتِلونَهم منذ

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٧– ٧٨.

سنين ، وما ذاكَ إلَّا لما أَحْدَثْتُم وأَحْبَبْتُم من الدنيا ما أَحَبَّ عَدُوُّكم ، فإنَّ الله تَبَارَكَ وتعالى لا يَنْصُر قَوْمًا إلَّا بصِدْق نِيَّاتِهم . وقد كنت وَجَّهْتُ إليك أربعةَ نَفَرٍ ، وأَعْلَمْتُكَ أنَّ الرَّجُلَ منهم مُقاوِمٌ ألف رَجُل على ما كُنْتُ أَعْرِف ، إلَّا أن يكونوا غَيَّرَهُم ما غَيَّرَ غَيْرَهم . فإذا أتاكَ كِتابي هذا ، فاخْطُب النَّاسَ وحُضَّهم على قِتال عَدُوِّهم ، ورَغِّبهم في الصَّبْر والنِّيَّة ، وقَدِّم أولئك الأربعة في صُدُور النَّاس ، ومُرِ النَّاسَ جميعًا أن يكونوا لهم صَدْمَةً كصَدْمَة رَجُلٍ واحِد ، وليكن ذلك عند الزَّوال يوم الجُمُعَة ، فإنَّها ساعَةٌ تَنزل فيها الرَّحْمَةُ ووَقْت الإجابَة . وليَعِجَّ الناسُ إلى الله ، ويسألُوه النَّصْر على عَدُوِّهم» .

فلمَّا أَتَى عَمْرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ الكِتابَ ، جَمَعَ النَّاسَ وقَرَأَ عليهم كِتابَ عُمَر ـ رضي الله عنه . ثم دَعَا أُولئِك النَّفَر فقَدَّمَهُم أمامَ النَّاس ، وأَمَر النَّاسَ أن يَتَطَهَّروا ويُصَلُّوا رَكْعَتَيْن ، ثم يَرْغَبُوا إلى الله ـ جلّ وعزّ[a] ـ ويَسْأَلُوه النَّصْرَ ، ففعلوا ، ففَتَحَ الله عليهم .

ويُقالُ إنَّ عَمْرو بن العَاص اسْتَشَار مَسْلَمَة بن مَخْلَد[b] فقال : أَشِر عليَّ في قِتال هؤلاء ؛ فقال له مَسْلَمَة : أَرَى أن تَنْظُر إلى رَجُل له مَعْرِفَة وتجارِب ، من أَصْحاب رَسُول الله ﷺ ، فتَعْقِد له على النَّاس ، فيكون هو الذي يُباشِر القِتالَ ويَكْفِيكَه ؛ فقال عَمْرو : مَنْ ذَلك ؟ قال : عُبادَةُ بن الصَّامِت .

فدَعا عَمرُو عُبادَة[c] ، فأتاهُ وهو راكِبٌ على فَرَسه ، فلمَّا دَنَا منه أرادَ النُّزول ، فقال له عَمْرو : عَزَمْتُ عليك إن نَزَلْت ، ناوِلْني سِنانَ رُمْحِكَ ، فناوَلَه إيَّاه ؛ فنَزَعَ عَمْرو عِمامَتَه عن رأسه ، وعَقَد له ووَلَّاه قِتالَ الرُّوم . فتَقَدَّم عُبادَة مكانَه ، فصادَفَ الرُّومَ وقاتَلَهم ، ففَتَح الله على يَدَيْه الإسْكَنْدَرية من يَوْمِهم ذلك[1] .

وكان حِصَارُ الإسْكَنْدَرية بعد مَوْت هِرَقْل تسعة أشهر ، وخمسة أشهر قَبْل ذلك . وفُتِحَت يوم الجُمُعَة لمستهلّ المحرَّم سنة إحدى وعشرين[2] .

---

a) بولاق : تعالى . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : فدعاه عمرو .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٨- ٧٩. [2] نفسه ٨٠.

وقال أبو عُمَر الكِنْدِيُّ : وحاصَرَ عَمْرو الإسْكَنْدَرية ثلاثة أشهر ، ثم فَتَحَها عَنْوَة ، وهو الفَتْحُ الأوَّل . ويُقالُ : بل فَتَحَها عَمْرو لمستهل المحرَّم سنة إحدى وعشرين [1] .

قال القُضَاعِيُّ عن اللَّيْث : أقامَ عَمْرو بالإسْكَنْدَرية ، في حِصارِها وفَتْحِها ، ستة أشهر ، ثم قَفَلَ[a] إلى الفُسْطاط فاتَّخَذَها دارًا في ذي القعدة .

وقال ابنُ عبد الحَكَم : فلمَّا هَزَمَ الله تبارَكَ[b] وتعالى الرُّومَ وفَتَحَ الإسْكَنْدَرية ، هَرَبَ الرُّومُ في البَرِّ والبحر ، فخَلَّفَ عَمْرو بالإسْكَنْدَرية ألف رجل من أصْحابِه ، ومَضَى ومن معه في طَلَب من هَرَب من الرُّوم في البَرِّ ، فرَجَعَ من كان هَرَبَ من الرُّوم في البَحْر إلى الإسْكَنْدَرية ، فقَتَلُوا من كان فيها من المُسْلمين إلَّا مَنْ هَرَبَ منهم . وبَلَغَ ذلك عَمْرًا ، فكَرَّ راجِعًا ففَتَحَها وأقامَ بها ، وكَتَبَ إلى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ : «إنَّ الله قد فَتَحَ علينا الإسْكَنْدَرية عَنْوَةً[c] بغير عَقْد ولا عَهْد» ؛ فكَتَبَ إليه عُمَر ـ رضي الله عنه ـ يُقَبِّح رَأْيَه ، ويأمُرُه ألَّا يُجاوِزَها .

قال ابنُ لَهيعَة : وهو فَتْحُ الإسْكَنْدَرية الثاني ، وكان سَبَبُ فَتْحِها هذا أنَّ رَجُلًا يُقالُ له ابن بَسَّامَة كان بَوَّابًا ، فسأَلَ عَمْرًا أن يُؤَمِّنه على نَفْسِه وأرْضِه وأهْل بَيْته ويَفْتَح له الباب . فأَجابَه عَمْرو إلى ذلك ، ففَتَحَ له ابن بَسَّامة الباب ، فدَخَلَ عَمْرو . وقُتِلَ من المُسْلمين ، من حين كان من أمْر الإسْكَنْدَرية ما كان إلى أن فُتِحَت اثنان/ وعشرون رجلًا [2] .

وبَعَثَ عَمْرو بن العَاص مُعاوية بن حُدَيْج ، وافِدًا إلى عُمَر بن الخَطَّاب بَشيرًا له بالفَتْح ، فقال له مُعاوية : ألَّا تَكْتُب مَعي ؟ فقال له عَمْرو : وما أَصْنَع بالكِتابِ ، أَلَسْت رَجُلًا عَرَبِيًّا تُبَلِّغ الرِّسالَة وما رَأَيْتَ وحَضَرَت ؟ فلمَّا قَدِمَ على عُمَر أَخْبَرَه بفَتْح الإسْكَنْدَرية ، فخَرَّ عُمَر ساجِدًا ، وقال : الحَمْدُ لله .

وقال مُعاوِيَة بن حُدَيْج : بَعَثَني عَمْرو بن العَاص إلى عُمَر بن الخَطَّاب[c] ـ رضي الله عنه ـ بفَتْح الإسْكَنْدَرية ، فقَدِمْتُ المَدينَة في الظَّهيرَة ، فأَنَخْتُ راحِلَتي بباب المَسْجِد ، ثم دَخَلْتُ المَسْجِدَ ، فبينا أنا قاعِدٌ فيه ، إذْ خَرَجَت جارِيَةٌ من مَنْزِل عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ فرَأَتْني شاحِبًا عليَّ ثِيابُ السَّفَر ، فأَتَتْني وقالت : مَنْ أنت ؟ فقلت : أنا مُعاوية بن حُدَيْج رَسُول عَمْرو بن

a) بولاق : انتقل . b) تبارك و : ساقطة من بولاق . c) ساقطة من بولاق .

[1] الكندي : ولاة مصر ٣٣.
[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨٠- ٨١.

العَاص ؛ فانْصَرَفَت عَنِّي ، ثم أَقْبَلَت تَشْتَدّ أَسْمَع خَفيف إزارِها على ساقِهَا ، حتى دَنَت مِنِّي ، ثم قالت : قُمْ فأَجِب أَميرَ المُؤمنين يدعوك ، فتَبِعْتُها . فلمَّا دَخَلْت ، فإذا بعُمَر يَتناوَل رِداءَه بإحدى يَدَيْه ويَشُدّ إزارَه بالأخرى ، فقال : ما عِنْدَك ؟ فقلت : خَيْرٌ يا أمير المُؤمنين ، فَتَحَ الله الإسْكَنْدَرية ؛ فخَرَجَ معي إلى المَسْجِد ، فقال للمُؤَذِّن : أَذِّن في النَّاس «الصَّلاةُ جامِعَة» . فاجْتَمَعَ النَاسُ ؛ ثم قال لي : قُمْ فأَخْبِر أَصْحابَك ، فقُمْتُ فأَخْبَرْتهم ؛ ثم صَلَّى ودَخَلَ مَنْزِله ، واسْتَقْبَل القِبْلَة فدَعَا بدَعَوات ، ثم جَلَسَ فقال : يا جارِية ، هل من طَعَام ؟ فأَتَت بخُبْزٍ وزَيْتٍ ، فقال : كُل ، فأَكَلْتُ على[a] حَيَاءٍ . ثم قال : كُل ، فإنَّ المُسافِرَ يُحِبّ الطَّعامَ ، فلو كنت آكِلًا لأَكَلْتُ معك . فأَصَبْت على حَياءٍ . ثم قال : يا جارية ، هل من تَمْر ؟ فأَتَت بتَمْرٍ في طَبَقٍ ، فقال : كُلْ ، فأَكَلْت على حَياءٍ ؛ ثم قال : ماذا قُلْت يا مُعاوية حين أَتَيْتَ المَسْجِدَ ؟ قال : قُلْتُ : أميرُ المؤمنين قائِلٌ ؛ قال : بِئْس ما قُلْت (أو بِئْس ما ظَنَنْت) ، لئن نِمْتُ النَّهارَ لأُضَيِّعَن الرَّعِيَّة ، ولئن نِمْتُ اللَّيلَ لأُضَيِّعَن نَفْسي ، فكيف بالنَّوْم مع هذين يا مُعاوِيَة ؟

ثم كَتَبَ عَمْرو بن العَاص بعد ذلك إلى عُمَر بن الخَطَّاب : «أمَّا بَعْدُ ، فإنِّي فَتَحْت مَدينَةً لا أَصِفُ ما فيها ، غير أنِّي أَصَبْتُ فيها أربعة آلاف مُنْيَة بأربعة آلاف حَمَّام ، وأربعين ألف يَهودي عليهم الجِزْيَة ، وأربع مائة مَلْهَى للمُلوك»[1] .

وعن أبي قَبيل أنَّ عَمْرًا لمَّا فَتَحَ الإسْكَنْدَرية وَجَدَ فيها اثني عشر ألف بَقَّال يبيعون البَقْل الأخْضَر . وتَرَحَّل من الإسْكَنْدَرية ، في الليلة التي دخَلَها عَمْرو ، أو في الليلة التي خافُوا فيها دُخُولَ عَمْرو ، سبعون ألف يَهودي .

وكان بالإسْكَنْدَرية ، فيما أُحْصِيَ من الحَمَّامات ، اثنا عشر ألف دِيماس ، أصْغَر دِيماسٍ منها يَسَع ألف مَجْلِس ، كلُّ مُجْلِس يسع جماعَة نَفَر . وكان عِدَّةُ من بالإسْكَنْدَرية من الرُّوم مائتي ألف من الرجال[b] ، فلَحِق بأرض الرُّوم أَهْلُ القُوَّة ورَكِبوا السُّفُن ؛ وكان بها مائة مَرْكِب من المَراكِب الكِبار ، فحُمِلَ فيها ثلاثون ألفًا مع ما قَدَروا عليه من المال والمتاع والأهْل . وبَقِي من بَقِي من الأسارَى من بَلَغَ الخَرَاج ، فأُحصي يومئذٍ ستّ مائة ألف سوى النِّساء والصِّبيان . فاخْتَلَف

---

a) ساقطة من بولاق .   b) بولاق : رجل .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨١- ٨٢.

النّاسُ على عَمْرو في قَسْمِهم[a]، فكان أكثرُ النّاس يُريدون قَسْمها ؛ فقال عَمْرو : لا أَقْدِر على قَسْمِها حتى أَكْتُب إلى أمير المؤمنين . فكَتَبَ إليه يُعْلِمه بفَتْحها وشَأْنِها ويُعْلِمه أنَّ المسلمينَ طَلَبوا قَسْمَها . فكَتَبَ إليه عُمَر : «لا تَقْسِمْها ، وذَرْها يكون خَراجُها فَيْئًا للمُسْلمين ، وقُوَّةً لهم على جِهاد عَدُوِّهم» .

فأَقَرَّها عَمْرو ، وأَحْصَى أَهْلَها ، وفَرَضَ عليهم الخَراج ، فكانت مصرُ صُلْحًا كلُّها بفَريضَة دِينارَيْن دينارَيْن[b] على كلِّ رَجُل ، لا يُزادُ على أَحَدٍ منهم في جِزْيَة رَأْسه أكثر من دينارين ، إلّا أنَّه يُلْزَم بقَدْر ما يَتَوَسَّع فيه من الأرض والزَّرْع ، إلّا الإسْكَنْدَرية ، فإنَّهم كانوا يُؤَدُّون الخَراجَ والجِزْيَة على قَدْر ما يَرَى مَنْ وَلِيَهُم ، لأنَّ الإسْكَنْدَرية فُتِحَت عَنْوَةً بغير عَهْدٍ ولا عَقْدٍ ، ولم يَكُن لهم صُلْحٌ ولا ذِمَّة[1] .

وقد كانت قُرَى من قُرَى مصر قاتَلَت ، فسَبَوا منها قريةً يُقالُ لها بَلْهِيب ، وقرية يُقالُ لها الخَيْس ، وقريةٌ يُقال لها سُلْطَيْس ، فوَقَعَ سباياهم بالمَدينَة وغيرها ، فرَدَّهم عُمَر بن الخَطّاب إلى قُراهم ، وصَيَّرَهم وجَماعة القِبْط أَهْل ذِمَّة .

وعن يَزيد بن أبي حَبيب أنَّ عَمْرًا سَبَى أَهْلَ بَلْهيب وسُلْطَيْس وقَرْطَسا[c] وسَخا ، فتَفَرَّقوا وبَلَغَ أوَّلهم المَدينَة حين نَقَضُوا . ثم كَتَبَ عُمَرُ بن الخَطّاب ـ رضي الله عنه ـ إلى عَمْرو برَدِّهم ، فرَدَّ مَن وَجَدَ منهم . وفي رواية أنَّ عُمَرَ بن الخَطّاب ـ رضي الله عنه ـ كَتَبَ في أهل سُلْطَيْس خاصَّةً : «مَنْ كان منهم في أَيْديكم فخَيِّروه بين الإسْلام ، فإن أَسْلَم فهو من المُسْلمين ، له ما لَهم وعليه ما عَلَيهم ، وإن اخْتار دِينَه ، فخَلُّوا بينه وبين قَرْيته ، فكان البَلْهيبي خُيِّرَ يومئذٍ فاخْتار الإسْلامَ .

وفي رواية أنَّ أهل سُلْطَيْس ومصيل[d] وبَلْهيب ظاهَروا الرُّومَ على المَسْلمين في جَمْعٍ كان لهم فلمَّا ظَهَرَ عليهم المسلمون ، اسْتَحَلُّوهم وقالوا : هَؤُلاء لنا فَيْءٌ مع الإسْكَنْدَرية . فكَتَبَ عَمْرو إلى عُمَر بن الخَطّاب بذلك .

---

a) بولاق : قسمها . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : قرطيا . d) بولاق : صا .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨٢- ٨٣، ٨٤ ، وأعاد المقريزي ذكر هذا النص فيما يلي ١:٢٩٤ وقارن كذلك مع ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨٨- ٩٠.

فكَتَبَ إليه عُمَر «أن تُجْعَل الإسْكَنْدَرية وهَؤلاء الثَّلاث قُرَيات ذِمَّة للمُسلمين، وتَضْرِبُ عليهم الخَراج، ويكون خَراجُهم وما صالَح عليه القِبْطُ قُوَّةً للمُسلمين على عَدُوِّهم، ولا يُجْعَلون فَيْئًا ولا عَبِيدًا»، ففَعَلَ ذلك. ويُقالُ إنَّما رَدَّهُم عُمَرُ - رضي الله عنه - لعَهْدٍ كان تَقَدَّم لهم [١].

وقال ابنُ لَهيعَة: جَبَى عَمْرو جِزْيَةَ الإسْكَنْدَرية ستّ مائة ألف دينار، لأنَّه وَجَدَ ثلاث مائة
ألف من أهْلِ الذِّمَّة، فقَدَّر عليهم دِينارَيْن دينارَيْن، فبَلَغَت ذلك [٢]. وقيل كانت جِزْيَةُ
الإسْكَنْدَرية/ ثمانية عشر ألف دينار. فلمَّا كانت خِلافَةُ هِشَام بن عبد الملك بَلَغَت ستة وثلاثين ١٦٧
ألف دينار. ويُقالُ إنَّ عَمْرو بن العَاص استَبْقَى أهْلَ الإسْكَنْدَرية، فلم يَقْتُل ولم يَسْب، بل
جَعَلَهم ذِمَّةً كأهْلِ النُّوبَة.

ذِكْرُ ما كان من فِعْلِ المُسْلِمِين بالإسْكَنْدَرِيَّة، وانتِقاض الرُّوم

قال ابنُ عبد الحَكَم: فأمَّا الإسْكَنْدَريةُ فلم يكن بها خِطَطٌ، وإنَّما كانت أخائِذَ، مَنْ أخَذَ مَنْزِلًا نَزَلَ فيه هو وبنو أَبيه. وأنَّ عَمْرو بن العَاص لمَّا فَتَحَ الإسْكَنْدَرية، أقْبَل هو وعُبادَة بن الصَّامِت حتى عَلَوا الكُوم الذي فيه مَسْجد عَمْرو بن العَاص، فقال مُعاوِيَة بن حُدَيْج: نَنْزِل؛ فنَزَل عَمْرو القَصْر، ونَزَل أبو ذَرٍّ مَنْزِلًا كان غربيَّ المُصَلَّى الذي عند مَسْجِد عَمْرو ممَّا يلي البحر وقد انْهَدَم، ونَزَلَ مُعاوِيَة بن حُديج فوق التَّلّ، وضَرَب[a] عُبادَة بن الصَّامِت بناءً[b] فلم يَزَل فيه حتى خَرَجَ من الإسْكَنْدَرية ويُقالُ إنَّ أبا الدَّرْدَاء كان معه، والله أَعْلَم [٣].

قال: فلمَّا استَقَامَت لهم البِلاد قَطَع عَمْرو بن العَاص من أصْحابه لرِباط الإسْكَنْدَرية رُبْعَ النَّاس، ورُبعٌ في السَّواحِل، والنصف مُقيمون معه. وكان يصيِّر بالإسْكَنْدَرية خاصَّةَ الرُّبْع في الصَّيْف بقَدْر ستة أشهر، ويُعْقب بعدهم شَاتِيَة ستة أشهر وكان لكلِّ عَرِيف قَصْر ينزل فيه بمن معه من أصْحابه، واتَّخذوا فيه أخائذ.

---

a) الأصل: صرّف، والمثبت من ابن عبد الحكم. b) بولاق: خباء.

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨٣.
[٢] فيما تقدم ٢١٢.
[٣] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٣٠.

وعن يَزيد بن أبي حَبيب أنَّ المُسْلمين لمَّا سَكَنوا الإسْكَنْدَرية في رِباطِهم، ثم قَفَلوا ثم غَزَوا ابْتَدَروا، فكان الرَّجُلُ يأْتي المنزل الذي كان فيه صاحِبُه قبل ذلك، فيَبْتَدِره فيَسْكُنه. فلمَّا غَزَوا، قال عَمْرو: إنِّي أخافُ أن تَخربوا المنازِلَ إذا كنتم تتعاوَرونَها. فلمَّا كانَ عند الكِرْيون قال لهم: سِيرُوا على بَرَكَة الله، فمَن رَكَّزَ منكم رُمْحَه في دارٍ فهي له ولبَني أبيه[a].

فكان الرَّجُلُ يدْخُل الدَّارَ فيركز رُمْحَه في مَنْزل منها، ثم يأتي الآخر فيَرْكِز رُمْحَه في بعض بُيوت الدَّار، فكانَت الدارُ تكون لقَبيلتَيْن وثلاث وكانوا يَسْكنونها، حتى إذا قَفَلوا سَكَنَها الرُّومُ وعليهم مَرَمَّتها. وكان يَزيدُ بن أبي حَبيب يقول: لا يحلّ من كِرائها شيءٌ ولا بَيْعها، ولا يُورَث منها شيء، إنَّما كانت لهم يَسْكُنونها في رِباطهم[١].

وعن يَزيد بن أبي حَبيب أنَّ عَمْرو بن العَاص لمَّا فَتَحَ الإسْكَنْدَرية، ورَأَى بيوتَها وبناءَها مَفْروغًا منها، هَمَّ أن يَسْكُنها وقال: مَساكِنَ قد كُفِيْناها. فكَتَبَ إلى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ يَسْتَأْذنه في ذلك؛ فسأل عُمَر الرَّسول: هل يَحُولُ بَيْني وبَيْنَ المسلمين ماءٌ؟ قال: نَعَم يا أميرَ المُؤْمنين إذا جَرَى النِّيلُ.

فكَتَبَ عُمَر إلى عَمْرو: «إنِّي لا أُحِبُّ أن تُنْزِل المسلمين مَنْزِلًا يَحولُ الماءُ بَيْني وبَيْنَهم في شِتاءٍ ولا صَيْف[b]»؛ فتَحَوَّلَ عَمْرو بن العَاص من الإسْكَنْدَرية[c] إلى الفُسْطاط.

قال: وكَتَبَ عُمَر بن الخَطَّاب إلى سَعْد بن أبي وَقَّاص وهو نازِلٌ بمَدائِن كِسْرَى، وإلى عامِلِه بالبَصْرَة، وإلى عَمْرو بن العَاص وهو نازِلٌ بالإسْكَنْدَرية: «ألَّا تَجْعَلُوا بَيْني وبَيْنَكم ماءً، متى ما أَرَدْتُ أن أرْكَب إليكم راحِلَتِي حتى أَقْدَم عليكم، قَدِمْت». فتَحَوَّل سَعْدُ بن أبي وَقَّاص من مَدائِن كِسْرَى إلى الكُوفَة، وتَحَوَّل صاحِب البَصْرَة من المكان الذي كان فيه فنزَلَ البَصْرَة، وتَحَوَّل عَمْرو بن العَاص من الإسْكَنْدَرية إلى الفُسْطَاط[٢].

وكان عُمَرُ بن الخَطَّاب يَبْعَثُ في كُلِّ سنة غازِيَة من أَهْل المَدينَة تُرابِطُ بالإسْكَنْدَرية؛ وكان على الوَلاة: لا يُغْفِلُها، وتكثف رابطتها[d]، ولا تأمن الرُّومُ عليها.

---

a) بولاق: بنيه. b) بولاق: شتاءً ولا صيفًا. c) ساقطة من بولاق. d) بولاق: مرابطها.

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٣٠- ١٣١. بلي ١: ٢٩٦.

[٢] نفسه ٩١؛ ابن سعيد: المغرب ٣٩- ٤٠؛ وفيما

وكَتَبَ عُثْمان ـ رضي الله عنه ـ إلى عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح : «قد عَلِمْتَ كيف كان هَمُّ أمير المؤمنين بالإسْكَنْدَرية ، وقد نَقَضَت الرُّومُ مَرَّتين فألْزِم الإسْكَنْدَرية رابطتها[a]، ثم أَجْر عليهم أرْزاقَهم ، وأَعْقِب بينهم في كلِّ ستة أشهر» .

قال : وقد[b] كانت الإسْكَنْدَريةُ انْتَقَضَت ، وجاءَت الرُّومُ ، عليهم مَنْويلُ الخَصِيّ في المراكِب حتى أَرْسوا بالإسْكَنْدَرية ، فأجابَهم من بها من الرُّوم ولم يكُنْ المُقَوْقِسُ تحرَّكَ ولا نَكَث . وقد كان عُثْمانُ ـ رضي الله عنه ـ عَزَلَ عَمْرو بن العَاص ، ووَلَّى عَبْد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح . فلمَّا نَزَلت الرُّومُ سأَلَ أَهْلُ مصر عُثْمان أن يُقِرَّ عَمْرًا حتى يَفْرُغ من قِتال الرُّوم ، فإنَّ له مَعْرِفَةً بالحَرْب وهَيْبَةً[c]، ففَعَل [1] .

وكان على الإسْكَنْدَرية سُورُها ، فحَلَفَ عَمْرو بن العَاص ، لئِن أَظْفَرَه الله عليهم ، ليَهْدِمَنَّ سُورَها حتى تكون مِثْل بيت الزَّانِيَة يُؤْتَي من كلِّ مَكان . فَخَرَجَ إليهم عَمْرو في البَرِّ والبَحْر ، فضَمُّوا إلى المُقَوْقِس من أَطاعَه من القِبْط ، وأمَّا الرُّوم فلم يُطْعه منهم أحَدٌ .

فقال خارِجَةُ بن حُذافَةَ لعَمْرو[d]: ناهِضْهُم قَبْل أن يَكْثُر مَدَدُهم ، فلا آمَن أن تَنْتَقِض مصرُ كلُّها ؛ فقال عَمْرو : لا ، ولكن أَدَعُهم حتى يَسيروا إليَّ ، فإنَّهم يُصيبون من مَرُّوا به فيُخْزي الله بَعْضَهم ببَعْض . فخَرَجُوا من الإسْكَنْدَرية ، ومعهم مَنْ نَقَضَ من أهْل القُرَى ، فجَعَلوا يَنْزِلون القَرْيَة فيَشْرَبون خُمورَها ، ويَأْكُلون أَطْعِمَتَها ، ويَنْتَهِبون ما مَرُّوا به .

فلم يتعرَّض[e] لهم عَمْرو حتى بَلَغُوا نِقْيُوس[f] [2]، فلَقَوْهم في البرِّ والبَحْر فبَدَأَت الرُّومُ القِبْطَ ، فرَمَوا بالنُّشَّاب في الماء رَمْيًا شَديدًا ، حتى أصابَت النُّشَّابُ يومئذٍ[d] فَرَسَ عَمْرو في لُبَّتِه وهو في البحر[g] فعُقِر ، فنَزَل عنه عَمْرو . ثم خَرَجُوا من البَحْر ، فاجْتَمَعُوا هم والذين في البرّ ، فنَفَحوا[h] المسلمين بالنُّشَّاب ، فاسْتَأْخَر المسلمون عنهم/ شيئًا ، وحَمَلوا على المسلمين حَمْلَةً وَلَّى ١٦٨:

a) بولاق : مرابطها . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : وهيبة فى العدو . d) ساقطة من الأصل . e) الأصل : يعرض . f) بولاق : نفيوس . g) بولاق : البر . h) بولاق : فنفخوا .

[1] الكندي : ولاة مصر ٣٥.

[2] نقيوس مدينة قديمة ظن بعض الدارسين أنها البلدة التي تعرف اليوم باسم إبشادي إحدى قرى مركز تلا بمحافظة المنوفية ، ولكن محمد رمزي رجح أنها مدينة أخرى غير إبشادي وأنها قد زالت ومحلها الآن الكوم الأثري الكائن بالجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف ، والتي يطلق عليها الأهالي اسم كوم مانوس أو دقيانوس المحرفين عن نقيوس (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١:٤٦٣-٤٦٤) .

المسلمون منها، وانْهَزَم شَرِيك بن سُمَيّ في خَيْله. وكانت الرُّومُ قد جَعَلَت صُفوفًا خَلْف صُفوف.

وبَرَزَ يومئذٍ بَطْريق - مِمَّن جاء من أرْض الرُّوم - على فَرَسٍ له، عليه سِلاح مُذَهَّب، فدَعا إلى البِراز. فبَرَز إليه رَجُلٌ من زُبَيْد - يُقالُ له حَوْمَل، يكنَى أبا مَذْحج - فاقْتَتَلا طويلًا برُمْحَيْن يتَطارَدان، ثم ألقى البَطْريقُ الرُّمْحَ وأخَذَ السَّيْفَ، فألْقَى حَوْمَل رُمْحه وأخَذَ سَيْفَه، وكان يُعْرَف بالنَّجْدَة، فَجَعَلَ عَمْرو يَصيح: أبا مَذْحج، فيُجيبه: لَبَّيْكَ، والناسُ على شاطئ النِّيل في البَرّ على تَعْبئتهم وصُفُوفهم، فتَجاوَلا ساعةً بالسَّيْف، ثم حَمَل عليه البَطْريق، فاحْتَمَلَه وكان نَحيفًا، فاخْتَرَط حَوْمَل خَنْجَرًا كان في مِنْطَقَته أو في ذِراعِه، فضَرَب به نَحْرَ العِلْج أوْتَرَ قُوَّتَه فأثبته، ووَقَعَ عليه فأخَذَ سَلْبَه. ثم ماتَ حَوْمل بعد ذلك بأيَّام رحِمَهُ الله، فرُئي عَمْرو يَحْمِل سَريرَه بين عمودِيْ نَعْشِه حتى دَفَنه بالمُقَطَّم.

ثم شَدَّ المسلمون عليهم، فكانَت هزيمَتُهم. فطَلَبَهم المسلمون حتى ألْحَقُوهم بالإسْكَنْدَرية، ففَتَحَ الله عليهم، وقُتِلَ مَنْويل الخَصِيّ [1].

وَقَتَلَهم عَمْرو حتى أمْعَن في مَدينَتهم، فكُلِّم في ذلك، فأَمَرَ برَفْع السَّيْف عنهم، وبَنَى في ذلك المَوْضِع الذي رَفَعَ فيه السَّيْف مَسْجِدًا، وهو المَسْجِد الذي بالإسْكَنْدَرية الذي يُقالُ له مَسْجِد الرَّحْمَة، سُمِّيَ بذلك لرَفْع عَمْرو السَّيْفَ هناك، وهَدَمَ سُورَها كلَّه.

وجَمَعَ ما أصابَ منهم فجاءَه أهلُ تلك القُرَى مِمَّن لم يكُن نَقَضَ، فقالوا: قد كُنّا على صُلْحِنا، وقد مَرَّ علينا هؤلاء اللُّصُوص، فأَخَذُوا مَتاعَنا ودَوابَّنا، وهو قائِم في يَدَيْك، فرَدَّ عليهم عَمْرو ما كان لهم من مَتاع عَرَفوه وأقاموا عليه البَيِّنَة. وقال بعضُهم لعَمْرو: ما حَلَّ لك ما صَنَعْت بنا، كان لنا أن تُقاتِل عَنّا لأنّا في ذِمَّتِك ولم نَنْقُض، فأمّا من نَقَضَ فأبْعَدَه الله؛ فنَدِم عَمْرو وقال: يا لَيْتَني كنت لَقِيتُهم حين خَرَجُوا من الإسْكَنْدَرية [2].

وكان سَبَبُ نَقْض الإسْكَنْدَرية هذا، أنَّ طَلْما صاحب إخْنا قَدِم على عَمْرو فقال: أَخْبِرْنا ما على أَحَدِنا من الجِزْيَة فنَصْبِرُ لها؛ فقال عَمْرو، وهو يُشير إلى رُكْن كَنيسَة: لو أعطيتني من الرُّكْن إلى السَّقْف ما أَخْبَرْتك، إنّما أنتم خِزانَةٌ لنا: إن كَثُر علينا كَثَّرْنا عليكم، وإن خُفِّفَ عَنّا خَفَّفْنا عنكم [3].

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٧٥- ١٧٦.

[2] نفسه ١٧٦.

[3] نفسه ١٥٤، ١٧٦؛ وفيما تقدم ٢٠٦.

فغَضِبَ صاحِبُ إخْنا ، وخَرَجَ إلى الرُّوم فقَدِمَ بهم ، فهَزَمَهُم الله تعالى . وأُسِر فأُتِيَ به إلى عَمْرو ، فقال له الناسُ : اقْتُلْه ؛ فقال : لا ، بل انْطَلِق فجِئْنا بَجَيشٍ آخر ، وسَوَّره وتَوَّجَه ، وكَساه بُرْنُس أُرْجُوان ، فرَضِيَ بأداءِ الجِزْيَة ، فقيل له : لو أَتَيْتَ مَلكَ الرُّوم ؟ فقال : لو أَتَيْتُه لَقَتَلَني ، وقال قَتَلْتُ أصحابي[1] .

وعن أبي قَبيلٍ أنَّ عُتْبَةَ بنِ أبي سُفْيان عَقَدَ لَعَلْقَمَة بن يزيدَ[a] الغَطَيْفي[b] على الإسْكَنْدَرية ، وبَعَثَ معه اثني عشر ألفا ، فكَتَبَ عَلْقَمَة إلى مُعاوية بن أبي سُفْيان يَشْكُو عَتْبَة حين غَرَّرَ به وبمن معه . فكَتَبَ إليه مُعاوِيَة : «إنِّي قد أَمْدَدْتك بعشرة آلاف من أهْل الشَّام ، وبخمسة آلاف من أهل المَدينَة» ، فكان في الإسْكَنْدَرية سبعةٌ وعشرون ألفًا .

وفي رِوايَة : أنَّ عَلْقَمَةَ بن يَزيد كان على الإسْكَنْدَرية ومعه اثنَا عشر ألفًا ، فكَتَبَ إلى مُعاوِيَة : «إنَّك خَلَّفْتَني بالإسْكَنْدرية وليس معي إلَّا اثنا عشر ألفًا ، ما يَكادُ بَعْضُنا يَرَى بعضًا من القِلَّة» . فكَتَبَ إليه مُعاوِيَة : «إنِّي قد أَمْدَدْتُك بعَبْد الله بن مُطيع في أربعة آلاف من أهل المَدينَة ، وأَمَرْتُ مَعْن بن يَزيد السُّلَمي أن يكون بالرَّمْلَة في أربعة آلاف مُمْسكين بأعِنَّة خُيولهم ، مَتَى بَلَغَهُم عنك فَزَعٌ يَعْبُروا إليك»[2] . قال ابنُ لَهيعَة : وقد كان عَمْرو بن العَاص يَقُول : «وِلايَةُ مصر جامِعَةٌ تَعْدِل الخِلافَة»[3] .

وكان عَمْرو ، حين تَوَجَّه إلى الإسْكَنْدَرية ، خَرَّبَ القَرْيَة التي تُعْرَف اليوم بخَرِبَة وَرْدَان . واخْتَلَف علينا السَّبَبُ الذي خُرِّبَت له ، فحَدَّثَنا سَعيدُ بن عُفَير أنَّ عَمْرًا لمَّا تَوَجَّه إلى نِقْيُوس لِقتال الرُّوم ، عَدَلَ وَرْدان لقَضاء حاجَتِه عند الصُّبْح ، فاخْتَطَفَه أهْلُ الخَرِبَة فغَيَّبُوه فَقَدَه عَمْرو وسَأَل عنه وَقَفا أَثَرَه ، فوَجَدُوه في بعض دُورهم ، فأَمَرَ بإخْرابِها وإخْراجِهم منها .

وقيل كان أَهْلُ الخَرِبَة رُهْبانًا كلُّهم ، فغَدَروا بقَوْم من ساقَة عَمْرو ، فقَتَلُوهم بعد أن بَلَغَ عَمْرو الكِرْيَوْن ، فأقامَ عَمْرو ، ووَجَّه إليهم وَرْدان فقَتَلَهم وخَرَّبها ، فهي خَرابٌ إلى اليوم .

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : القطيفي .

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٦- ٧٧.

[2] نفسه ١٩٢.

[3] نفسه ١٩٢؛ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٤٨، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٢-٣٣ وفيما تقدم ٧١.

وقيل كان أَهْلُ الخَرِبَةَ أهل تَوَثُّب[a] وخُبث ، فأَرْسَلَ عَمْرو إلى أَرْضِهم فأَخَذَ له منها جِرابٌ فيه تُراب من تُرابِها ، ثم دعاهم[b] فكَلَّمَهم فلم يُجيبوه إلى شيءٍ ، فأَمَرَ بإخْراجِهم ، ثم أَمَرَ بالتُّراب ففُرِشَ تحت مُصَلَّاه ، ثم قَعَدَ عليه ، ثم دَعاهُم فكَلَّمَهم ، فأجابُوه إلى ما أَحَبَّ . ثم أَمَرَ بالتُّراب فرُفِعَ ، ثم دَعاهُم فلم يُجيبوه إلى شيءٍ ، فَعَلَ ذلك مِرارًا . فلمَّا رأى عَمْرو ذلك قال : هذه بَلْدَةٌ لا يَصْلُح إلَّا[b] أن تُوطَأ ، فأَمَرَ بإخْرابِها [١] . فلمَّا هَزَمَ الله الرُّومَ أرادَ عُثْمان ـ رضي الله عنه ـ أن يكون عَمْرو بن العَاص على الحَرْب ، وعبد الله بن سَعْد على الخَرَاج ، فقال عَمْرو : أنا إذن كماسِك البَقَرَة بقَرْنَيْها وآخر يَحْلِبها ، فأَبَى عَمْرو [٢] .

وكان فَتْحُ عَمْرو هذا عَنْوَةً قَسْرًا في خِلافَة عُثْمان سنة خمس وعشرين ، وبينه وبين الفَتْح الأَوَّل أربع سنين . وقال اللَّيْثُ : كان فَتْحُ الإسْكَنْدَرية الأَوَّل سنة اثنتين وعشرين ، وكان فَتْحُها الآخَر سنة خمس وعشرين [٣] . وأقامَت الجَيْشُ من البِيما[c] يُقاتِلون سبع سنين ، بعد أن فُتِحَت مصر ، مِمَّا يَفْتَحون عليهم من تلك المياه والغِيَاض [٤] .

قال : ثم غَزَا / عبدُ الله بن سَعْد بن أبي سَرْح ذا الصَّوارِي [٥] في سنة أربع وثلاثين . وكان من حَديث هذه الغَزْوَة أنَّ عبد الله بن سَعْد ، لمَّا نَزَلَ ذا الصَّواري ، أَنْزَلَ نصف النَّاس مع بُسْر بن أبي[b] أرْطاة في البَرِّ ، فلمَّا مَضَوا أتى آتٍ إلى عبد الله بن سَعْد فقال : ما كُنْتَ فاعِلًا حين ينزل بك ابن هِرَقْل في ألف مَرْكِب ، فافْعَلْه السَّاعَة ؛ وكانت مَرَاكِبُ المسلمين مائتي مَرْكِب ونَيِّفا .

---

a) بولاق : تويث . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : الجيش من السماء .

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٧.

[٢] نفسه ١٧٨.

[٣] نفسه ١٧٨.

[٤] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٨.

[٥] لا نعرف على التدقيق المكان الذي تمت فيه هذه الموقعة التي تعد حدًّا فاصلًا في ميزان القوة بين المسلمين والبيزنطيين في البحر المتوسط ، وانظر لمعلومات أكثر حول هذه المعركة البحرية الهامة ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤:٢٨٨-٢٩٢؛ المسعودي : التنبيه والإشراف ١٥٨؛ حسين مؤنس : «أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر الأبيض المتوسط» ، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥١)، ٩٠-٩٤؛ إبراهيم أحمد العدوي : قوات البحرية العربية ، القاهرة ١٩٦٣، ٤٤-٥٢؛ أحمد مختار العبادي ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت ١٩٧٢، ١:٢٨-٣١؛ Bosworth, C.E., *EI*² art. *Dhât al-Sawârî*, Suppl. pp. 221-22، وانظر فيما يلي ٢:١٩٠.

فقامَ عبدُ الله بن سَعْد بين ظَهْراني النّاس فقال : قد[a] بَلَغَني أنَّ ابنَ هِرَقْل قد أَقْبَل إليكم في ألفِ مركب ، فأَشيروا عليَّ ، فما كَلَّمه رَجُلٌ من المسلمين [1] ؛ فجَلَسَ قَليلًا لترجع إليهم أَفْئِدتُهم ، ثم قامَ الثانية فكَلَّمَهم ، فما كَلَّمه أَحَدٌ ؛ فجَلَسَ ، ثم قامَ الثالثة فقال : إنَّه لم يَبْقَ شيءٌ فأَشيروا عليَّ .

فقامَ رَجُلٌ من أهل المَدينَة ـ كان مُتَطَوِّعًا مع عبد الله بن سَعْد ـ فقال : أيُّها الأَمير إنَّ الله جَلَّ ثناؤه يقول : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الآية ٢٤٩ سورة البقرة] .

فقال عبد الله : ارْكَبُوا [بِسْمِ الله][b]، فرَكِبوا ، وإنَّما في كُلِّ مَرْكَبٍ نصفُ شِحْنَتِه ، لأنَّه قد خَرَجَ النصفُ الآخَر إلى البَرِّ مع بُسْر ، فلَقَوْهُم فاقْتَتَلوا بالنَّبْل والنُّشَّاب . وتأَخَّر ابنُ هِرَقْل لئلَّا تُصيبه الهَزيمَة ، وجَعَلَت القَوارِبُ تختلف إليه بالأَخْبار ، فقال : ما فَعَلَوا ؟ قالوا : قد اقْتَتَلُوا بالنَّبْل والنُّشّاب ؛ فقال : غُلِبَت الرُّوم . ثم أَتَوه ، فقال : ما فَعَلوا ؛ قالوا : قد نَفَد النَّبْلُ والنُّشّاب ، فهم يَرْتَمُون بالحِجارَة ؛ فقال : غُلِبَت الرُّوم ؛ ثم أَتَوْه ، فقال : ما فَعَلوا ؟ قالوا : قد نَفِدَت الحِجارَة ، ورَبَطُوا المَراكِب بَعْضَها بِبَعْض يَقْتَتِلون بالسُّيوف ؛ قال : غُلِبَت الرُّوم .

وكانت السُّفُن إذ ذاك تُقْرَن بالسَّلاسِل عند القِتال . قال : فقُرِنَ مَرْكَبُ عبد الله يومئذٍ ـ وهو الأَميرُ ـ بمَرْكَب من مَراكِب العَدُوّ ، فكان مَرْكِبُ العَدُوّ يَجْتَرّ مَرْكِب عبد الله إليهم ، فقامَ عَلْقَمَةُ ابن يَزيد الغَطيفي[c]، وكان مع عبد الله بن سَعْد في المركب ، فضَرَبَ السِّلْسِلَة بسَيْفه فقَطَعَها . فسَأَلَ عبد الله امرأتَه بعد ذلك بُسَيْسَة ابنة حَمْزَة بن لِيَشْرَح [2] ـ وكانت مع عبد الله يومئذٍ ، وكان النّاسُ يَغْزُون بِنِسائِهم في المَراكِب ـ من رَأَيْتِ أَشَدَّ قِتالًا ؟ قالت : عَلْقَمَةُ صاحِبُ السِّلْسِلَة . وكان عبدُ الله قد خَطَبَ بُسَيْسة إلى أَبِيها فقالَ له : إنَّ عَلْقَمَةَ قد خَطَبها ، وله عليَّ فيها رأْي ،

---

a) ساقطة من بولاق . b) زيادة من ابن عبد الحكم . c) بولاق : القطيفي .

---

[1] خلط المقريزي بين روايتين لابن عبد الحكم الرواية الرئيسة لليث بن سعد ، وفيها أن ملك الروم هو هرقل ، ورواية أخرى لم يحدّد صاحبها تذكر أن ملك الروم «إنما هو ابن هرقل ، لأن هرقل مات في سنة تسع عشرة والمسلمون محاصرون الإسكندرية» . وقد رجح المقريزي الرواية الثانية واعتمد أن ملك الروم هو ابن هرقل .

[2] لِيَشْرَح . اسم مختصر من الاسم الحميري «إليَشْرَح» وهو اسم معروف في النقوش السبئية والمعينية القديمة . (Torrey, *Fûtûh* 57) .

فإن تَرَكَها أَفْعَل. فكَلَّم عبد الله عَلْقَمَة فتَرَكَها، فتَزَوَّجَها عبد الله بن سَعْد، ثم هَلَكَ عنها عبد الله فتَزَوَّجَها بعده عَلْقَمة بن يَزيد، ثم هَلَكَ عنها عَلْقَمَةُ فتَزَوَّجَها بعده كُرَيْب بن أَبْرَهَة وماتَت تحته[١].

وقيل مَشَت الرُّومُ إلى قُسْطَنْطين بن هِرَقْل، في سنة خمسٍ وثلاثين، فقالوا: أَنَتْرُكُ الإسْكَنْدَرية في أَيْدي العَرَب وهي مَدينَتُنا الكُبْرَى؟ فقال: ما أَصْنَع بكم؟ ما تَقْدِرون أن تَمالكوا ساعَةً إذا لَقِيتُم العَرَب؛ قالوا: اخْرُج على أَنّا نَمُوت، فتَبايَعُوا على ذلك. فخَرَجَ في ألف مَرْكِب يُريدُ الإسْكَنْدَرية، فسارَ في أَيّامٍ غالِيَة من الرِّيح[a]، فبَعَثَ الله عليهم رِيحًا فغَرَّقَتْهُم، إلّا قُسْطَنْطين فإنّه نَجَا بمَرْكبه، فأَلْقَتْه الرِّيحُ بصِقِلِّيَة، فسَأَلوه عن أَمْره، فأَخْبَرَهُم؛ فقالوا: شَعَّبْتَ[b] النَّصْرانِيَّة، وأَفْنَيْتَ رِجالَها، لو دَخَلَت العَرَبُ علينا لم نَجِد من يَرُدُّهم؛ فقال: خَرَجْنا مُقْتَدرين فأَصابَنَا هذا. فصَنَعُوا له الحَمّام ودَخَلوا عليه، فقال: وَيْلَكم، يذهب رِجالُكم، وتَقْتُلون مَلِكَكُم؟ قالوا: كأنّه غَرِقَ معهم. ثم قَتَلُوه وخَلَّوا من كان معه في المركب[٢].

قال أبو عُمَر الكِنْدي: وإنَّما سُمِّيت غَزْوَة ذي الصَّواري لكَثْرَة صَواري المَراكِب واجْتِماعِها[٣].

ذِكْرُ بُحَيْرَةِ الإسْكَنْدَرِيَّة

قال ابنُ عبد الحَكَم: كانت بُحَيْرَةُ الإسْكَنْدَرية كُرومًا كلُّها لامْرأة المُقَوْقِس، فكانَت تَأْخُذ خَراجَها منهم الخَمْر بفَريضَة عليهم، فكَثُر الخَمْرُ عليها حتى ضاقَت به ذَرْعًا، فقالت: لا حاجَةَ لي في الخَمْر، أَعْطُوني دَنانير؛ فقالوا: لَيْس عِنْدَنا؛ فأَرْسَلَت إليهم الماءَ فغَرَّقَتها، فصارَت بُحَيْرَة يُصاد فيها الحيتان، حتى اسْتَخْرَجها الخُلَفاءُ من بني العَبّاس، فسَدُّوا جُسُورَها وزَرَعُوها[٤].

---

a) بولاق: غالبة الرياح. b) بولاق: شتت.

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٨٩-١٩١.

[٢] نفسه ١٩١.

[٣] الكندي: ولاة مصر ٣٦-٣٧ وأيضًا المسعودي: التنبيه والإشراف ١٥٨؛ ويبدو أن الصواب غير ذلك من خلال ما ذكره الطبري يقول: «فركب في مركب وحده وما معه إلّا القبط حتى بلغوا ذات الصواري، فلقوا جموع الروم في خمس مائة مركب أو ست مائة» (تاريخ ٤: ٢٩١)، وفي موضع آخر: «وأقام عبد الله بذات الصواري أيامًا بعد هزيمة القوم» (تاريخ ٤: ٢٩٢)، مما يدل على أنها اسم موضع كان مصدرًا لأخشاب تصنع منها الصواري!

[٤] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٧.

ثم صارت بُحَيْرَة طولها إقْلاعُ يَوْم في عَرْض يَوْم، ويَصيرُ إليها الماءُ من أَشْتُوم في البحر الرُّومي، ويَخْرُج منها إلى بُحَيْرَة دونها في خَليجٍ عليه مَدِينتان: إحْداهما الحدبة، والأُخرى إتكو، وهي كثيرة المَقَاتي والنَّخْل، وكلُّها في الرَّمْل.

ويَصُبُّ في هذه البُحَيْرَة خَليجٌ من النِّيل - يُسَمَّى الحافِر - طوله نصف يوم إقْلاعًا، وهو كثير الطَّيْر والسَّمك والعُشْب.

وكان السَّمَكُ، بوُجود هذه البُحَيْرَة في الإسْكَنْدَرية، غاية في الكَثْرَة، يُباعُ بأَقَلِّ القِيَم وأَبْخَس الأَثْمان. ثم انْقَطَعَ الماءُ عن هذه البُحَيْرَة منذ ...[a] [1].

ذِكْر خَليج الإسْكَنْدَرِيَّة[2]

يُقالُ إنَّ كِلوباطْرَة المَلِكَة هي التي ساقَت خَليجَ الإسْكَنْدَرية حتى أَدْخَلَتْه إليها، ولم يَكُن يبلغها الماء، فحَفَرَتْه حتى أَدْخَلَتْه الإسْكَنْدَرية، وبَلَّطَت قاعَه بالرُّخام من أوَّله إلى آخره، ولم يَزَل يُوجَد ذلك فيه [3].

وقال أبو الحَسَن المَخْزُوميّ في كِتاب «المِنْهاج»: أَمَّا خَليجُ الإسْكَنْدَرية فإنَّه من فُوَّهَة الخَليج إلى
١٧٠ تُرعَة بُودَرَّة ليس على شيءٍ منها سَدّ. بومَنْجوج[b]، محلة/ بَتُوك، أسمنية أُورين، مَحَلَّة فُرْنو، مَحَلَّة حَسَن، مُنْيَة طُراد - وتعرف بالقاعَة - مَحَلَّتا نَصْر ومَشروق.

فأمَّا تُرعَة نَقانَة[c] فإنَّها تُفْتَح بعد سبعة أيام من تُوت، والتُّرعَة الجَديدَة تفتح في السادس عشر من تُوت؛ وترعة بُودَرَّة، تُفْتَح بعد سبعة أيام من تُوت؛ وتُرعَة بويَحْيى، وتُرعَة بوالسَّحْماء، وتُرعَة القَهْوَقِيَّة، ليس على شيءٍ من ذلك سَدّ؛ وترعة الشَّراك تُفْتَح بعد سبعة أيام من تُوت؛ وتُرعَة بوخَراشَة، وتُرعَة البَرْبيط، يَشْرَب منها دسيو[d] وسَمَخْراط وسرنبوية[e] ومُنْيَة حَمَّاد

---

a) بياض في النسخ. b) بولاق: بومنحرج. c) بولاق: لقانة. d) بولاق: ديسو. e) بولاق: شيرنوبة.

---

[1] سبق وذكر المقريزي فيما تقدم ٢٩٠ أن بحيرة الإسكندرية قد جفت في وقته.

[2] انظر ابن مماتي: قوانين الدواوين ٢٢١-٢٢٢، القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٠٠ ودراسة عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية، الإسكندرية ١٩٤٢؛ وكذلك أبا المحاسن: النجوم ٧: ١٩٣ هـ°، ١٧٨:٩ هـ¹؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ٢٩٢-٢٩٥.

[3] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٦-٧، وفيما تقدم ١٨٩.

وسنمادة وبعض مَحَلَّه مارِيَة . وترعة فيشة بَلَخَا تُفْتَح في ثاني عشر تُوت ، وجَرَت العادَةُ أن تُفْتَح في النَّوْروز ؛ وتُرْعَة بَيْويط [a]، ومقطع سَمْديسة يُفْتَح في الثاني والعشرين من تُوت ؛ ومَقْطَع ياطِس يُفْتَح في تاسِع عشر تُوت .

ولمَّا سُدَّ المَقْطَع المذكور ، عُمِلَت بعد ذلك تُرْعَة تَرْوي الصَّفْقَة القِبْلِيَّة منها ، فتُفْتَح في يَوْم النَّوْرُوز .

ولمَّا اسْتُجَدَّت[b] تُرْعَة إفْلاقَة ، وخَرَجَت في أرض ياطِس ، جَرَت العادَة إذا رُوِيَت الصَّفْقَة القِبْلِيَّة من إفْلاقَة ، تُطْلَق التُّرْعَة المذكورة على القِسْم البَحْريّ من ياطِس إلى أن يُرْوَى .

وتُرْعَة القارُورة مُحْدَثَة . وترعَة نَقْرَها[c] تُفْتَح في ثاني عشر تُوت . وتُرعة إفْلاقَة تُفْتَح في عاشر تُوت . وتُرْعَة إسْكَنيدَة تُفْتَح في سادس تُوت .

تراع بحر دَمَنْهُور تُفْتَح في العشرين من مِسْرَى إلى سادس تُوت ، ويُرْوَى منها بعض طامُوس ، وبعض كَنيسَة الغِيط ، وبعض قَرْطَسا ودَمَنْهُور .

تُرْعَة القَواديس ، منها تَشْرَب شَبْرَا النَّخْلَة وكُوم التلتون [d]. تُراع شَبْرَا النَّخْلَة تفتح على أعاليها من أوَّل تُوت . وترعة بَنطَرَى تُفْتَح في خامِس عشر مِسْرَى . وترعة مسيد[e] تُفْتَح في ثامن تُوت . وتُرْعَة بَسَنْتَويه تُفْتَح في ثامن عشر تُوت .

وبحر دَمْشَويه يُفْتَح في العشرين من مِسْرَى ، ومنه تَشْرَب مُنْيَة زَرْقُون [f]، وسَفْط كِرْداسَة ، ودَمْشَويه ، ومَحَلَّة الشيخ ومَصيل . وتُرْعَة دَمْشَويه تُفْتَح في تاسع تُوت ، ويُقيم الماء عليها سبعة عشر يومًا ، وتُفْتَح إلى مَحَلَّة الشيخ ، ومَصيل يُقيم الماءُ عليها ثلاثين يومًا ، ويُسَدُّ بعد ذلك على دَمْشَويه سبعة أيام .

وعلى سَفْط ومُنْيَة زَرْقُون[f] تُرْعَة بَرْسيق ، كانت تُفْتَح في أوَّل تُوت .

مَحَلَّة بَرْسيق ليس عليها سَدّ .

مَحَلَّة الكُروم تُفْتَح في ثامن تُوت ، ومنها تَشْرَب عِدَّةُ أماكِن ، وفي مَحَلَّة الكُرُوم وكُفُورها ، وهي دَبيسيَّة وكُوم الوَلائِد وكُوم الصَّخْرَة وديرامِس والصَّفاصِف ، وما يخرج عن كُفُورها وهي تلْمسا والجَلْمُون من حُقوق مَحَلَّة كيل ، ومنها تشرب الجِهَة الغربية .

---

a) بولاق : بويط . b) بولاق : استحدثت . c) بولاق : بغوها . d) بولاق : التلول . e) بولاق : قبيل . f) بولاق : رزفون .

شَبْرابار ليس عليها سَدّ ، (aوالشّراعي ليس عليها سَدّ a). وتُرْعَة قافِلَة كانت تُفْتَح في ثامن تُوت ، وليس عليها الآن سَدّ . وتُرْعَة بَلَقْطَر وكُفُورها ، كانت تُفْتَح في تاسع تُوت ، وليس عليها الآن سَدّ . وتُرْعة الرَّاهِب ليس عليها سَدّ . وترعة دِسُونِس المقاريضي تَسْقي الحَلْفاية ، وتُفْتَح في ثامن تُوت . وكذلك تُرْعَة مَرْجَنّا والملعقية ، وتُرْعَة بيثلامة وبيْشاي b)، وآخر تراع الحجيجية ، وتُرْعَة الكِرْيُون تُفْتَح في ثامن توت . وتُرْعَة البَشلَقون كانت تُفْتَح في تاسع c) تُوت ، وليس عليها الآن سَدّ . وتُرْعة أرمياخ تُفْتَح في ثاني عشر تُوت . وتُرْعَة أبلوق تُفْتَح في سادس تُوت .

وأمَّا حَوْف رَمْسيس فإنَّ بَحْر رَمْسيس كان يَضْرب السَّدّ فيه على تُراع رَمْسيس من أوَّل النّيل إلى سابع عشر تُوت . والذي يَشْرَب على d) السَّد المذكور من النّواحي والكُفُور ، رَمْسيس ومَحَلَّة جَعْفَر وقَليشان وبعض أَبنية النَّقيدي وبعض خِرْبَتّا وبعض البَلَكُوس وبعض بُولين وبعض مَحَلّة واقِد والبَيْضَاء وبعض طُمْلاس e).

ثم يفتح على f) سد دَكْدُوكة ، وهو مُحْدَث يُقيم الماء عليه عشرة أيام ، وتَشْرَب منه دَكْدوكة ومَحَلّة مَعْن ومُنْيَة أبياني وبعض صيفية .

ثم يقطع على f) سد القطامي ، وهو مُحْدَث ، ومنه يَشْرَب بعض جَنْبوية وتِلْبانة d) البَحْرية النّبيرِيّه وأبو حِمار والبُهُوط .

ثم يُقْطَعَ سَدّ دِسُونس وأبو دينار وتُرْعَة طَبْرُنْبَة ، فيَشربُ منه دِنشال ، وطَامُوس يقيم الماء عليها ستة أيام ، ومنه تَشْرَب مُنْيَة عَطِيَّة وسُلْطَيْس .

وأمَّا بحْر دَمَنْهُور فإنَّه يُسَلَّط h) على سُلْطَيْس إلى سابع عشر تُوت ، ومنه تَشْرَب سُلْطَيْس وزُهْرا وبعض طامُوس وبعض قُرْطُسا وبعض كَنيسة الغِيط ودَمَنْهُور . ثم يقطع سد نَديبَة ، وهو مُحْدَث ، فيقيم ثمانية أيام ، ومنه تَشْرب نَديبَة ودَقْرنس والعَميرية والبسرير i). ثم يُفْتَح ويَسدّ على مَحَلّة حُفْص ومَحَلّة كيل ومحلة نُمير . ثم يَقْطَع على f) سد سُلْطَيْس ، وهو مُحْدَث ، فيُقيم عشرة أيام بعد اخْتِلاط الماءَيْن ببحر دَمَنْهُور ورَمْسيس . ثم يقطع على f) جِسْر مَلولَة ، ومنه تَشْرَب تَرُوجَة وأَرْسيس والمراسي وغابة الأغْساس وبعض سَمْرو ومَحَلّه نُمَيْر ، ويبقى هناك إلى انْقِضَاء النّيل .

(a-a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : فيلامة وبيشاي . c) بولاق : سادس . d) بولاق : من . e) بولاق : طيلاس . f) ساقطة من بولاق . g) بولاق : بليانه . h) بولاق : يسد . i) بولاق : النسرين .

وأمَّا ترعة طَبَرْنْبَة فهي مُحْدَثَة ، وإذا رويت طَبَرْنْبَة تُطْلق على دِسونس أم دينار ، ثم تقطع على طامُوس بمقدار رَيِّها ، ثم تُطْلَق في النِّيل العالي على أرض قَراقِس ، ويُطْلَق الماءُ على قُرْطُسا وكَنيسة الغِيْط .

وخَليج الطُّبَرْنْبَة إذا خَرَج الماءُ منه يسقي منه في أوَّل ليل ، وإلى أن يُضْرَب جِسْر شَبْرَا وَسيم ، فيسقي منه شَبْرا وَسيم وبعض البَلَكُوس وحفيرة الزَّعْفَران وبعض بُولين ومَسْجد غانِم والصَّوَّاف وكُوم شَريك ومُنْيَة مغنين وتَل القطامِي ومَحَلّة واقِد .

ثم يُقْطَع جِسْر دِلنْجَة ، ومنه يَشْرب بعض خَرْبتًا وبعض قَليشان وبعض بُولين والبَيْضَا ودِنِست وتِلْبانة الأبْراج وتَلّ بَقَا والحَدَّيْن واليهودية وأبْسوم[a] وأبو صَمادَة والحِصْن/ وقلاوَة بنى عُبَيْد وطُوخ دحَانة ودَرْشا وشَقْرا ودِلِنْجَة ومَحّة وطيبة ، ثم يقطع على مُنْيَة وَرْزافة الحَجَر والمحروق وبعض جَبارِس وأفريم وأبو سِماد وأم الضُّروع .

خَليج ابن زَلُّوم ـ ويُعْرَف بخَليج ابن ظَلُوم وسَدّ مَخْرج النَّقيدي ـ لا يُفْتَح إلى عشرة أيام من تُوت ، ومنه يَشْرب شابُور وكَنيسة مبارك وبعض سَرْسيقَة وبعض دمشويه ومُنْيَة يَزيد وحَوْض الماصِلي وحِصَّة سَلْمُون وبعض سنيت وبعض النَّقيدي وبعض قَليشان ؛ ثم يُفْتَح ، فيَشْرَبُ منه أَمْليط وبعض إيتاي وبعض كَنيسَة عبد الملك وبعض أَرْمِنْيَة ورميشنا وبعض مَحَلّة عُبَيْد وسَفْط خالِد وبرنامة وشَبْرا نُونَة وكيمان شَراس وبعض دمشوه ، وتُقام الحُرّاس على جِسْر سفط [b]خالد إلى أن يتكامل شرب سَفْط خالد فينقطع حينئذٍ جسر سَفْط [b].

ويَشْرَبُ من خَليج الإسْكَنْدَرية وما يَفيضُ منه ، أهْلُ الباطِن وأهْلُ البُحَيْرَة في فِجاجٍ وأوْدِية ، فيكون ذلك الماءُ صِلَة ، وهم قبيل من زَنَاتَة والرَّمْحانة وبني يَزان وقبائِلِ البَرْبَر ، ويَزْرَعون عليه فيُسْتَوفى منهم الخَرَاج .

وبين مَشَارِق الفَرَمَا من ناحية جَرْجير وفاقُوس ، وبين آخِر ما يُشْرَب من خَليج الإسْكَنْدَرية ، مَسيرَة شهر ، كان عامِرًا كلّه ـ في مَحْلول ومَعْقُود ـ إلى بعد الخمسين وثلاث مائة من سِني الهِجْرَة ، وقد خَرِبَ معظم ذلك .

وقال أبو بَكْر الطُّرطُوشي ، عمَّن حَدَّثَه من مَشايخ الثَّغْر[c]، أنّه قال : شاهَدْتُ الإسْكَنْدَرية والصَّيْدَ في الخَليج مُطْلَقٌ للرَّعِيَّة ، والسَّمَكُ فيه يغْلي[d] الماءُ به كثرةً حتى تَصيدَه الأَطفالُ بالخِرَق ،

---

a) بولاق : النسوم. (b-b) ساقط من بولاق . c) بولاق : البحر . d) بولاق : يطفو .

ثم حَجَرَهُ الوالي ومَنَعَ الناسَ من صَيْدِه ، فذَهَبَ حتى كادَ لا يُرَى فيه إلَّا الواحِدَةُ بعد الواحِدَة إلى يومِنا هذا [١].

وقال أبو عُمَر الكِنْدي في كتاب «المَوَالي» عن الحارِث بن مِسْكِين : أنَّه تَقَلَّد قَضَاءَ مصر من قِبَل أمير المؤمنين الواثِق بالله في سنة تسع وثلاثين ومائتين ، فذَكَرَ سِيرَته وقال : وحَفَرَ خَليجَ الإسْكَنْدَرية ، ووَرَد الكِتابُ بصَرْفِه في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين .

وقال جامِعُ «السِّيرَة الطُّولونِيَّة» : وفي رَبيع الأوَّل سنة تسع وخمسين ومائتين ، أَمَرَ أحمدُ بن طُولون بحَفْر خَليج الإسْكَنْدَرية .

وقال المَسْعوديُّ : وقد كان النِّيلُ انْقَطَعَ عن بِلاد الإسْكَنْدَرية قبل سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة .

وقد كان الإسْكَنْدَرُ بَنَى الإسْكَنْدَرية على هذا الخَليج من النِّيل ، وكان عليها عُظْم[a] ماء النِّيل ، فكان يَسْقي الإسْكَنْدَرية وبلاد مَرْيوط ، وكانت بلاد مَرْيوط في نهاية العمارة والجِنَان المتَّصلة بأرْض بَرْقَة ، وكانت السُّفُنُ تَجْري في النِّيل وتتَّصِل بأسْواق الإسْكَنْدَرية . وقد بَلَّطَ أَرْضَ خَليجِها في المَدينَة بالأحْجَار والمَرْمَر ، وانْقَطَع الماءُ عنها لعَوارِضَ سَدَّت خَليجَها ومَنَعَت الناسَ دُخوله ، فصارَ شُرْبهم من الآبار ، وصارَ النِّيلُ على يَوْمٍ منهم [٢].

وذَكَرَ المُسَبِّحيُّ أنَّ الحاكِمَ بأمْر الله ، أبا مَنْصور بن العَزيز ، أطْلَقَ لحَفْر خَليج الإسْكَنْدَرية ، في سنة أربع وأربع مائة ، خمسة عشرة ألف دينار ، فحُفِرَ كلُّه [٣].

وفي سنة اثنتين وستين وستّ مائة بَعَثَ الملكُ الظَّاهِر بَيْبَرْس الأمير عليًّا ، أمير جانْدار ، لحَفْر خَليج الإسْكَنْدَرية ، وقد امْتَلأت فُوَّهَتُه بالطِّين ، وقَلَّ الماءُ في الإسْكَنْدَرية ، فابْتَدَأ الحَفْر من التَّقيدي ، وأنْشَأ هناك مَسْجِدًا . وتولَّى مُباشَرَة هذا الحَفْر المُعَلَّم تعاسِيف ناظِر الدَّواوين [٤].

ثم بَعَثَ السُّلْطانُ ، في سنة أربع وستين وستُّ مائة ، لحَفْر هذا الخَليج الأميرَ عَلَمَ الدين سِنْجر المَسْروري ، ثم سارَ بعامَّة الأُمَراء والأَجْناد وباشَرَ الحَفْرَ بنفسه ، وعَمِلَ فيه الأُمَراءُ وجَميعُ النَّاس

---

a) بولاق : معظم .

---

[١] الطرطوشي : سراج الملوك ١ : ١٩٠- ١٩١.

[٢] المسعودي : مروج الذهب ١ : ١١٤- ١١٥.

[٣] المسبحي : نصوص ضائعة ٣٢.

[٤] المقريزي : السلوك ١ : ٥١٠.

إلى أن زالَت الرِّمال التي كانت على السَّاحِل بين التَّقيدي وفُمّ الخَليج، ثم عَدَّى إلى بارِنْبار[a]، وغَرَّق مَراكِبَ هناك وبنى عليها بالحجارة، فلمَّا تَمَّ الغَرَضُ عادَ إلى قَلْعَة الجَبَل[1].

ثم تَعَطَّل اسْتِمْرارُ جَرَيان الماء فيه بطُول السَّنة، وصارَ يجرّ سَريعًا بعد شهرين أو نحوهما من دُخول الماء إليه، واحْتاجَ أهلُ الإسْكَنْدَرية في طُول السَّنَة إلى الشُّرْب من الصَّهاريج التي يُخَبُّون[b] فيها الماء؛ إلى أن كانت سنة عشر وسبع مائة، فقَدِمَ الأميرُ بَدْر الدين بَكْتُوت الخَزِنْداري[2]، المعروف بأمير شَكار، متولِّي الإسْكَنْدَرية إلى قَلْعَة الجَبَل، وحَسَّن للسُّلْطان الملك النَّاصِر محمد ابن قَلاوون حَفْرَه، وذَكَرَ له ما في ذلك من المَنَافِع.

أوَّلها: حَمْل الغِلال وأصْناف المَتْجَر إلى الإسْكَنْدَرية في المراكِب، وفي ذلك تَوْفير للكُلَف، وزيادة في مال الدِّيوان. وثانيها: عِمارَة ما على حافَتَي الخَليج من الأراضي بإنْشاء الضِّياع والسَّواقي، فينمو الخَرَاجُ بهذا نموًّا كثيرًا. وثالثها: انْتِفاعُ النَّاس به في عِمارَة بَساتينهم، وشُرْب مائِه دائِمًا.

فأعْجَب السُّلْطانَ ذلك، ونَدَبَ الأَمير بَدْر الدين محمد بن كَيْدَغْدي بن الوَزيريّ مع بَكْتوت لعَمَله، وتَقَدَّم إلى جميع أُمَرَاء الدولة بإخْراج مُباشريهم لإحْضار رِجال النَّواحي الجارية في إقْطاعاتهم للعَمَل في الحفير[c]، وكَتَب لوُلاة الأعمال بالوُقوف في العَمَل.

فاجْتَمَع من النَّواحِي نحو الأربعين ألف رجل، جُمِعَت في نحو العشرين يومًا، ووَقَعَ العَمَلُ في شهر رَجَب من السنة المذكورة، وأُفْرِد لكلِّ أهل ناحِيَة قِطْعَة يَحْفُرونها حتى كَمُل، فجاءَ قِياسُ الحفْر من فَمِ بَحْر النِّيل إلى ناحية سِنْبار[d]، ثمانية آلاف قَصَبَة حاكمية، ومن سِنْبار[d] إلى الإسْكَنْدَرية مِثْلها.

وكان الخَليجُ الأَصْلي يَدْخُل الماءُ إليه من حَدِّ سِنْبار[d]، فجُعِل فَمُ هذا البحر يَرْمي إليه[e]، وعمل عمقه ستُّ قَصَبات/ في عرض ثماني قَصَبات. فلمَّا انتهوا إلى حَدّ الخَليج الأوَّل، حُفِرَ أيضًا على نَظير الخَليج المُسْتَجَدّ، فصارَا بحرًا واحدًا، ورُكِّبت عليه السُّدود والقَناطِر.

---

a) في الروض الزاهر: بر أبيار. b) بولاق: يخزن. c) بولاق: للحفير. d) بولاق: شنبار. e) بولاق: عليه.

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٢٤٧. ٨١، السلوك ٢: ١١١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة ٢: ٢٢؛

[2] انظر ترجمته عند المقريزي: المقفى الكبير ٢: ٤٧٩– أبي المحاسن: النجوم الزاهرة ٩: ٢١٧.

ووُجِد في الخَليج الأوَّل عند حَفره، من الرَّصاص المبني تحت الصَّهاريج، شيءٌ كثيرٌ جدًّا، فلم يَتَعرَّض السُّلْطانُ لشيءٍ منه، وأَنْعَمَ به على الأمير بَكْتُوت.

وعَظُمَت المَشَقَّةُ في حَفْر هذا الخَليج، فإنَّ الذي تَجاوَزَ البحر منه غَلَب عليه الماءُ، فصارَت الرِّجالُ تَغْطس فيه وتَرْفَع الطِّين من أسْفَلِه، ثم كَثُرَ الماءُ فرُكِّبت السَّواقي حتى نَزَحَتْه؛ إلَّا أنَّ عَظيم النَّفْع به سَهَّل جميع ذلك، فإنَّ السُّفُنَ جَرَت فيه طُول السنة، واسْتَغْنَى أَهْلُ الإسْكَنْدَرية عن شُرْب ماء الصَّهاريج، وبادَر الناسُ للعِمارَة على جانبي الخَليج، فلم يَمْضِ غيرُ قَليل حتى اسْتُجِدَّ عليه ما يَزِيد على مائة ألف فدَّان، زُرِعَت بعدما كانت سِباخًا، وما يُنيف على ستّ مائة ساقِيَة بِرَسم القُلْقاس والنِّيلَة والسُّمْسِم، وفَوْق الأربعين ضَيْعَة، وأُزْيِد من أَلْف غَيْط بالإسْكَنْدَرية، وعُمِّرَت منه عِدَّةُ بلاد كثيرة، وتَحَوَّل عالَمٌ عَظيمٌ إلى سُكْنَى ما استجدّ عليه، ومنه[a].

ولمَّا فَرَغَ العَمَلُ في الخَليج شَرَع الأميرُ بَكْتُوت في عَمَل جِسْرٍ من ماله، فإنَّ الناسَ كانوا، في وَقْت هَيَجان البحر، يَجِدُون مَشقَّة عَظيمَة لغَلَبَة الماء على أراضي السِّباخ، فأقامَ ثلاثة أشهر حتى بَنَى رَصِيفًا، دَكّ أساسَه بالحَجَر والرَّصاص وأعْلاه بالحَجَر والكَلْس، وعمل فيه ثلاثين قَنْطَرَة.

وأنشأ خانًا ينزله الناسُ، ورَتَّب فيه الخُفَراء، ووَقَفَ على مَصالِحه رِزْقَة، فبَلَغَ مَصْروفُه نحو الستين ألف دينار مصرية، سِوَى ما أُخِذَ من الحِجارَة التي نَقَضَها[b] من قَصْرٍ قَديم كان خارِج الإسْكَنْدَرية، وسِوَى ما وَجَدَه من الرَّصاص في سَرَبٍ بأسْفَل هذا القَصْر ينتهي بمن يَمْشِي فيه إلى قَريب البَحْر، وسِوَى ما أَنْعَمَ به عليه من الرَّصاص الموجود بالخَليج.

ولم يَزَلِ الخَليجُ فيه الماء طول السَّنَة إلى ما بعد سنة سبعين وسبع مائة، فانْقَطَعَ الماءُ منه وصارَ الماءُ لا يَدْخُل إليه إلَّا في أيَّام زِيادَة ماء النِّيل فقط، ثم يَجِفّ عند نَقْصه، فتَلِفَ من أجْل هذا أكثرُ بَساتين الإسْكَنْدَرية وخَرِبَت، وتلاشَى كَثيرٌ من القُرَى التي كانت على هذا الخَليج.

وسَبَبُ انْقِطاع الماء عنه غَلَبَةُ الرَّمل[c] على الأُشْتُوم الذي كان يَعْبُر منه ماءُ بَحْر المِلْح إلى بُحَيْرَة الإسْكَنْدَرية حتى جَفَّت، وصارَ الرَّمْلُ تُلقيه الرِّياحُ في الخَليج، فانْطَمّ فَمُه وعَلا قاعُه[1].

a) بولاق: فيه. b) بولاق: بعضها. c) بولاق: الروم.

[1] المقريزي: السلوك ٢: ١١١–١١٢، ١٢٩، ٥٣٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٩: ٢١٨.

وقَصَد من أدْرَكْناه من مُلوك مصر حَفْر هذا الخَليج غير مرّة ، فلم يتهيّأ ذلك ، إلى أن كانت سَلْطَنَةُ الملك الأشْرَف بَرْسْباي ، فنَدَبَ لحَفْرِه الأمير جَرِبَاش الكَريميّ ، المعروف بقاشِق [a]؛ فتوجَّه إليه ، وجَمَع له من قَدَرَ عليه من رِجال النَّواحِي ، فبَلَغَت عِدَّتُهم ثمان مائة وخمسة وسبعين رجلًا ، ابتدأوا في حَفْرِه من حادي عشر جمادى الأولى سنة ستّ وعشرين وثمان مائة إلى حادي عشر شَعْبان لتَمام تسعين يومًا ، فانْتَهَى عَمَلُهم [1].

ومَشَى الماءُ في الخَليج حتى انتهى إلى حَدِّه من مَدِينَة الإسْكَنْدَرية ، وجَرَت فيه السُّفُنُ ، فسُرَّ الناسُ به سُرورًا كبيرًا [2].

وحُسب[b] ما أُنْفِق على العُمَّال في الحَفْر من أرْباب النَّواحي التي على الخَلِيج ، ومن أرْباب البَساتِين بالإسْكَنْدَرية ، ولم يكُن في حَفْرِه كبيرُ شَناعَة ، ممَّا جَرَت به عادَةُ الوُلاة في مِثْل ذلك ، ولله الحَمْدُ . وعندما انْتَهَى قَدِمَ الأمير جَرِبَاش إلى قَلْعَة الجَبَل ، فخَلَعَ السُّلْطانُ عليه وشَكَرَه ، ثم عَمِلَه حاجِب الحُجَّاب [3]، فلم يستمرّ ذلك إلّا قليلًا حتى انْطَمّ بالرَّمْلَ ، وتَعَذَّر سُلوكُ الخَليج بالمراكِب إلّا في أيَّام النِّيل فَقَط .

ذِكْرُ جُمَل حَوادِث الإسْكَنْدَرية

وفي سنة تسع وتسعين ومائة ، عَظُمَت الحُروبُ بِديار مصر بين المُطَّلِب بن عبد الله الخُزاعي أَمير مصر ، وبين عبد العَزيز بن الوَزير الجَرَوِي الثَّائِر بتِنِّيس ، فعَقَدَ المُطَّلِب على الإسْكَنْدَرية لمحمد ابن هُبَيْرَة بن هاشِم بن حُدَيْج ، فاسْتَخْلَف محمد خالَه عمر بن عبد الملك بن محمد بن عبد الرَّحْمَن بن مُعاوية بن حُدَيْج ـ الذي يُقالُ له عُمَر بن مَلال[c] ـ ثم عَزَله المُطَّلب بعد ثلاثة أشهر بأخيه الفَضْل بن عبد الله بن مالِك .

---

a) عند العيني : سرماش قاشوق . b) وجبي . c) في النسخ : ملاك .

---

[1] ابن إياس : بدائع الزهور ٢ : ٨٧.

[2] السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية ٣٩٢-٣٩٣.

[3] قارن ، العيني : عقد الجمان (تحقيق القرموط) ١٩٤؛ المقريزي : السلوك ٤ : ٦٣٩؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١٤ : ٢٤٥؛ الصيرفي : نزهة النفوس ٣ : ١٩؛ السخاوي : الضوء اللامع ٣ : ٢٧٠.

وكانت بالإسْكَنْدَرية مَراكِب الأَنْدَلُسيين قد قَفَلوا من غَزْوِهم. وكان سَبَبُ قُدوم هذه المراكِب ما جَرَى لأَهْل قُرْطُبَة بوَقْعَة الرَّبَض مع الحكَم بن هِشام في سنة اثنتين وثمانين ومائة، فأَخْرَجَ جماعَةً منهم، فوَصَلُوا إلى ثَغْر الإسْكَنْدَرية زيادةً على عشرة آلاف.

وكان سَبَبُ ثَوْرَتهم أنَّ قَصَّابًا من الإسْكَنْدَرية رَمَى وَجْهَ رَجُلٍ منهم بكَرْش، فأَنِفُوا من ذلك، وصارُوا إلى ما صارُوا إليه، وذلك لمَّا نَزلوا رَمْل الإسْكَنْدرية ليبْتاعوا ما يُصْلحهم. وكذلك كانوا على الرِّمان، وكانت الأُمَرَاءُ لا تُبيحهم دُخُول الإسْكَنْدَرية، إنَّما كان النَّاسُ يَخْرُجون إليهم فيُبايعونَهم.

فلمَّا عُزِلَ عُمر بن مَلال[a]، كَتَب إليه عبد العَزيز الجَرْوي يأْمُرُه بالوُثوب على الإسْكَنْدَرية والدُّعاء له بها، فبَعَثَ عُمَر بن مَلال إلى الأَنْدَلُسيين، فدَعاهم إلى القِيام معه في إخْراج الفَضْل عنها، فساروُا معه، وأَخْرَجَ الفَضْل، ودَعَا للجَرْوي. فوَثَبَ أَهْلُ الإسْكَنْدرية على الأَنْدَلُسيين، وأَخْرَجوهم ورَدُّوا الفَضْل، وقُتِلَ من الأَنْدَلُسيين نَفَرٌ، وانْهَزَم الباقون إلى مَراكِبهم. فعَزَلَ المُطَّلِب أخاه، ووَلَّى عليها/ ١٧٣ إسْحاق بن أَبْرَهَة بن الصَّبَّاح في شهر رمضان سنة تسع وتسعين، ثم عَزَلَه بأَبي ذِكْر[b] بن جُنادَة المَعافِري. فلمَّا اقْتَتَل السَّرِيُّ بن الحكَم هو والمُطَّلِب بن عبد الله، وغَلَبَ السَّرِيّ على مصر، وَثَبَ عُمَر بن مَلال[a] على أبي ذِكْر، وأَخْرَجَه من الإسْكَنْدَرية، ودَعَا للجَرْوي، وأَقْبَل الأَندلُسيون إليه فأَفْسَدوا، فأَمَرَهم بالخُروج إلى مَراكِبهم، فشَقَّ ذلك عليهم.

وظَهَرَت بالإسْكَنْدَرية طائِفَةٌ يُسَمَّوْن بالصُّوفيَّة، يَأْمُرون بالمَعْروف ويُعارِضُون السُّلْطان في أُموره، فترأَسَ عليهم رَجُلٌ منهم، يُقالُ له أبو عبد الرَّحْمَن الصُّوفي، فصارُوا مع الأَنْدَلُسيين يدًا واحِدَة، واعْتَضَدوا بلَخْم، وكانت لَخْمُ أَعَزَّ من في ناحية الإسْكَنْدَرية؛ فخُوصِمَ أبو عبد الرَّحْمَن الصُّوفيّ إلى عُمَر بن مَلال[a] في امْرَأة، فقَضَى على أبي عبد الرَّحْمَن، فوَجَد في نفسه من ذلك، وخَرَجَ إلى الأَنْدَلُسيين فأَلَّف بينهم وبين لَخْم، ورَجَا أهل الأَنْدَلُس أنْ يُدْرِكوا ثأرًا من عُمَر بن مَلال[a]. فساروُا إلى عُمر بن مَلال[a]، وهم زُهاء عشرة آلاف، فحَصَروه في قَصْره، وخَشِيَ أنَّ القَصْرَ لا يَمْنَعه منهم، وخافَ أن يدخلوا عليه عَنْوَة فيُفْضَح في حُرَمِه، فاغْتَسَل وتَحَنَّط وتَكَفَّن، وأَمَرَ أَهْلَه أن يُدَلُّوه إليهم، فدُلِّيَ فأَخَذَته السُّيوف فقُتِل؛ ثم دُلِّيَ[c] أخوه محمد بن عبد الملك[d] الذي يُلَقَّب جيوش، فقُتِل؛ ثم دُلِّيَ[c] عليهم عبد الله البَطَّال ابن عبد الواحِد بن محمد بن

---

a) في النسخ: ملاك. b) عند الكندي: بأبي بكر. c) بولاق: ولي. d) بولاق: عبد الله.

عبد الرَّحْمٰن بن مُعاوية بن حُدَيْج ، فقُتِل ؛ ثم دُلِّيَ[a] عليهم أَخُوه أبو هُبَيْرَة الحارِث ، فقُتِل ؛ ثم دُلِّيَ[a] عليهم حُدَيْج بن عبد الوَاحِد ، فقُتِل وانْصَرَف القَوْمُ ، وذلك في ذي القعدة[1].

ثم فَسَدَ ما بين لَخْم والأَنْدَلُسيين عند مَقْتَل ابن مَلال[b]، واقْتَتَلوا ، فانْهَزَمَت لَخْم ، فظَفِرَ الأَنْدَلُسيون بالإسْكَنْدَرية في ذي الحجة ، فوَلُّوها أبا عبد الرَّحْمَن الصُّوفي ، فبَلَغَ من الفَساد والنَّهْب والقَتْل ما لم يُسْمَع بمثله ، فعَزَلَه الأَنْدَلُسيون ، ووَلُّوا رَجُلًا منهم يُعْرَف بالكِناني .

ثم حارَبَ بنو مَدْلِج الأَنْدَلُسيين ، فظَفِرَ بهم الأَنْدَلُسيون ونَفَوهم[c] عن البِلاد ، فلم يَقْدر بنو مَدْلِج على الرُّجوع إلى أرْض الإسْكَنْدَرية حتى طَلَبَ السَّرِيّ من الأَنْدلُسيين أن يرُدُّوهم ، فأَذِنوا لهم حينئذٍ ورَجَعُوا .

وكان أبو قَبيل يقول : أنا على الإسْكَنْدَرية من أربعين مَرْكِبًا مسلمين ، ولَيْسُوا بمسلمين ، تأتي في آخِر الصَّيْف ، أَخْوَف مِنِّي عليها من الرُّوم ؛ فيُقالُ له : ما هذه الأَربعون مَرْكِبًا في هذا الخَلْق لو كانت نِيرانًا تَضْطَرم ؟ فيقول : اسْكُت وَيْلَك ، منها ومِمَّن فيها يكون خَرابُ الإسْكَنْدَرية وما حَوْلَها .

وبَلَغَ عبد العزيز الجَرَوي قَتْل ابن مَلال[b]، فسارَ في خمسين أَلفا حتى نَزَل على حِصْن الإسْكَنْدَرية ، وحَصَرَها حتى أَجْهَد من فيها فبَلَغه أنَّ السَّرِيّ بن الحكَم بَعَثَ إلى تِنِّيس بَعْثًا فكَرَّ راجِعًا في المحرَّم سنة إحدى ومائتين ، فدَعا الأَنْدَلُسيون للسَّرِيّ[2] ثم لمَّا خَلَعَ أَهْلُ مصر المأمون ، ودَعَوا لإبراهيم بن المَهْدِي ، وقامَ الجَرَوي بذلك ، سارَ إلى الإسْكَنْدَرية ، وحَصَرَ الأَنْدَلُسيين حتى دَخَلَها صُلْحًا ، ودُعِيَ له بها ، ثم سارَ عنها إلى الفُسْطاط ، فحارَب السَّرِيّ وقَتَلَ ابنه ، ثم انْصَرَف[3].

فثارَ الأَنْدَلُسيون بعامِل الجَرَوي ، وأَخْرَجوه من الإسْكَنْدَرية ، وخَلَعُوا الجَرَوي ، ودَعَوا للسَّرِي ؛ فسارَ إليهم الجَرَوي في شهر رَمَضان سنة ثلاث ومائتين ، فعارَضَتْه القِبْطُ بسَخا ، وأَمَدَّتهم بنو مَدْلِج - وهم في نحوٍ من مائتي أَلف - فهَزَمَهم ، وبَعَثَ بجُيوشِه إلى الإسْكَنْدَرية فحاصَرُوها[4].

---

a) بولاق : ولي . b) النسخ : ملاك . c) بولاق : نفروهم .

---

[1] الكندي : ولاة مصر ١٨٦- ١٨٧.

[2] نفسه ١٨٨- ١٨٩.

[3] نفسه ١٩٣.

[4] نفسه ١٩٥.

وكانت بين السَّرِيّ وبين أهْل الصَّعيد حُروب .

ثم إنَّ الجَرَوي سارَ إلى الإِسْكَنْدَرية سَيْرَه الرابع وحاصَرَها ، ونَصَبَ عليها المَجانيق سبعة أشْهر ، من أوَّل شعبان سنة أربع ومائتين إلى سَلْخ صَفَر سنة خمس ، فأصابَ الجَرْوي فَلْقَةٌ من حَجَرِ مَنْجَنيقه ، فماتَ سَلْخ صَفَر سنة خمس ومائتين [١] .

وقامَ من بعده ابنُه عليٌّ ، فلم تَزَل الفِتَنُ بالأَنْدَلُسيين في الإِسْكَنْدَرية مُتَّصِلَة ، إلى أن قَدِمَ عبد الله بن طاهِر إلى مصر من قِبَل أَمير المؤمنين المأْمُون ، وأَخْرَج عبيد الله بن السَّرِيّ من مصر ، وسارَ إلى الإسْكَنْدَرية في قُوَّاد العَجَم من أهل خُراسَان ، مستهل صَفَر سنة اثنتي عشرة ومائتين ، فحاصَرَها بِضْع عشرة لَيْلَة حتى خَرَجَ إليه أهلُها بأمان . وصالَحَه الأَنْدَلُسيون على أن يُسَيِّرهم من الإسْكَنْدَرية حيث أَحَبُّوا ، على ألَّا يُخْرِجُوا في مراكِبهم أحَدًا من أهل مصر ، ولا عَبْدًا ولا آبِقًا ، فإن فَعَلُوا فقد حَلَّت له دِماؤهم ، ونَكْثُ عَهْدِه وتَوَجُّهوا . فبَعَثَ ابنُ طاهِر من يُفَتِّش عليهم مَراكِبَهم ، فوَجَدوا فيها جَمْعًا من الذي اشْتَرط عليهم ألَّا يُخرجوهم ، فأَمَرَ بإحْراق مَراكِبهم ، فسألوه أن يَرُدَّهم إلى شَرْطِهم ، ففَعَل [٢] .

وسارُوا إلى جَزيرَة إقْريطش ومَلَكُوها ، وكان الأَميرُ معهم أبو حَفْص عُمَر بن عيسَىٰ ، ثم مَلَكَها وَلَدُه من بعده ، وعَمَّرها الأَنْدَلُسيون إلى أن غَزَاها الرُّومُ سنة خمسٍ وأربعين وثلاث مائة ، ومَلَكَتْها[a] بعد حِصار طَويل [٣] .

ووَلي على الإسْكَنْدَرية إلْياس بن أَسَد بن سامَان ، ورَجَعَ إلى الفُسْطاط في جمادى الآخرة ، ثم سارَ إلى العراق .

ولمَّا انْتَقَضَ أَسْفَلُ الأَرْض في جمادى الأولى سنة ستّ عشرة ومائتين ، وحارَبَهم الأَفْشين ومعه عيسَى بن مَنْصور الرَّافِقي أمير مصر ، وبَعَثَ عبد الله بن يَزيد بن مَزْيَد الشَّيْباني إلى الغَرْبيَّة ، فانْهَزَم إلى الإسْكَنْدَرية ، واسْتجاشَت عليه بنو مَدْلِج ، وحَصَرُوه في شوَّال . فسارَ الأَفْشين وأَوْقَعَ

a) بولاق : ملكها .

[١] الكندي : ولاة مصر ١٩٦.

[٢] نفسه ٢٠٧.

[٣] حول هذا الموضوع انظر ، إبراهيم أحمد العدوي : «إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي»، المجلة التاريخية المصرية ٣ (أكتوبر ١٩٥٠)، ٥٣-٦٨.

بمن/ في طَرِيقِه حتَّى قَدِم الإسْكَنْدَرية في جُنودِه، فَلَقِيَته طائِفَةٌ من بني مَدْلِج، فهَزَمَهم مرَّتين، وأَسَرَ منهم وقَتَلَ.

ودَخَلَ الإسْكَنْدَرية لعشر بقين من ذي الحجَّة، ففَرَّ منه رُؤساؤُها، وكان عليها مُعاوِيَة بن عبد الوَاحِد بن محمد بن عبد الرَّحْمَن بن مُعاوية بن حُدَيْج، فأَصْلَح أَمْرَها.

ثم خَرَجَ إلى أهل البَشَرود فامْتَنَعُوا عليه، حتى قَدِم المأمُون إلى مصر، فصارَ إلى البَشَرُود، والأَفْشين قد أَوْقَع بالقِبْط بها كما تقدَّم ذكره.

ولمَّا وَلِيَ إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأَغْلَب إفْرِيقِيَّة في سنة إحدى وستين ومائتين، حَسُنَت سيرتُه، فكانت القَوافِلُ والتُّجَّار تَسير في الطُّرق وهي آمِنَة، وبَنَى الحُصُونَ والمحارِسَ على ساحِلِ البَحْر، حتى كانت تُوقَد النارُ من مَدينة سَبْتَة إلى الإسْكَنْدَرية، فيَصِل الخَبَرُ منها إلى الإسْكَنْدَرية في لَيْلَة واحدة وبينهما مَسيرَة أشهر.

وفي سنة اثنتين وثلاث مائة دَخَل حُبَاسَة، في جُيوش إفريقِيَّة إلى الإسْكَنْدَرية في المحرَّم، ومعه مائة ألف أو زِيادة عليها، وقَدِمَت الجُيوشُ من المَشْرق مَدَدًا لتَكين أَمير مصر، وسارَ حُباسَة من الإسْكَنْدَرية. ونُودي بالنَّفير في الفُسْطاط، لعشرٍ بقين من جَمادي الآخرة، فلم يَتَخلَّف عن الخُروج إلى الجِيزَة أَحَدٌ من الخاصَّة والعامَّة، إلَّا من عَجَزَ عن الحَرَكَة لمَرَضٍ أو عُذْر. وأتاهُم حُباسَة، فلَقَوه وهَزَمُوه، ثم دارَ عليهم، فقَتَلَ من أهل مصر نَحوًا من عشرة آلاف، ونَهَضَ حُباسَة إلى إفْرِيقِيَّة، وأقامُوا بمصر مُضْطَرِبين.

فأَقْبَل مُؤْنِسُ الخادِم من العِراق في رَمَضان بجُيوشٍ كثيرة، فصَرَف تَكين في ذِي القعدة. ووَلِى ذَكَا الأَعْوَر في صَفَر سنة ثلاث وثلاث مائة، فخَرَج في جُيوشه إلى الإسْكَنْدَرية، وتَتَبَّع كلَّ من يُومَئ إليه بمُكاتَبة صاحِب إفْرِيقِيَّة، فسَجَنَ منهم وقَتَلَ كثيرًا. وجَلَا أَهْلُ لُوْبِية ومَرَاقِيَة إلى الإسْكَنْدَرية، في شوَّال سنة أربع وثلاث مائة، خَوْفًا من صاحِب بَرْقَة [1].

وفي سنة سبع وثلاث مائة سارَت مُقَدِّمَةُ المَهْدي عبيد الله من إفْرِيقِيَّة، مع ابنه أبي القاسِم، إلى لُوبِيَة. فهَرَبَ أَهْلُ الإسْكَنْدَرية وجَلَوا عنها، وخَرَج منها مُظَفَّر بن ذَكا الأَعْوَر في جَيْشِه، ودَخَلَت إليه العَسَاكِرُ يوم الجُمُعَة لثمانٍ خَلَوْن من صَفَر، وفَرَّ أَهْلُ القُوَّة من الفُسْطاط إلى الشَّام [2]؛

[1] الكندي: ولاة مصر ٢٩١- ٢٩٢.

[2] نفسه ٢٩٢- ٢٩٣.

فخَرَجَ ذَكا أميرُ مصر إلى الجِيزَة وعَسْكر بها، ثم مَرِضَ وماتَ على مَصافَّة بالجِيزَة في رَبيع الأَّولِ[a] [١].

فوَلي تكين بعده وِلايته الثانية من قِبَل المُقْتَدِر، ونَزَل الجِيزَة [٢]. وأَقْبَلَت مَراكِبُ صاحِب إفْريقِيَّة إلى الإسْكَنْدَرية عليها سُلَيمان الخادِم، فقَدِمَ ثَمْل الخادِم، صاحِب مَراكِب طَرَسوس، فالْتَقَيَا برَشيد في شوَّال، فاقْتَتَلا؛ فبَعَثَ الله رِيحًا على مَراكِب سُلَيمان أَلْقَتْها إلى البَرّ، فتَكَسَّر أكثرها، وأُخِذَ من فيها أَخْذًا باليد، وقُتِلَ أَكْثَرُهم، وأُسِرَ من بَقِي وسيقوا إلى الفُسْطاط، فقُتِلَ منهم نحو سبع مائة رجل [٣].

وسارَ أبو القاسِم بن المَهْدي من الإسْكَنْدَرية إلى الفَيُّوم، ومَلَكَ جَزيرَة الأُشْمونَيْن والفَيُّوم وأزالَ عنها جُنْدَ مصر. فمَضَى ثَمْل الخادِم في مَراكِبه إلى الإسْكَنْدَرية، فقاتَلَ من بها من أهل إفريقِيَّة فظَفِر بهم، ونَقَلَ أَهْلَ الإسْكَنْدَرية إلى رَشِيد. وعادَ إلى الفُسْطاط، ومَضَى في مَراكِبه إلى اللّاهُون، ولَحِقَتْه العَساكِرُ فدَخَلُوا إلى الفَيُّوم في صَفَر سنة سبعٍ وثلاث مائة. فخَرَجَ أبو القاسِم ابن المَهْدِي إلى بَرْقَة، ولم يكن بينهما قِتالٌ، ورَجَعَت العَساكِرُ إلى الفُسْطاط [٤].

ومازالَت الإسْكَنْدَريةُ وأَعْمالُها في اضْطراب إلى أن قَدِمَت جُيوشُ المُعِزّ لدين الله مع القائِد جَوْهَر، في سنة ثمانٍ وخمسين وثلاث مائة، فمَلَكَتْها. وما بَرِحَت إلى أن قامَ بها نِزارُ بن المُسْتَنْصر، وكان من أَمْره ما قد ذُكِرَ عند ذِكْر خَزائِن القَصْر [٥].

وفي سنة اثنتي عشرة وستّ مائة، اجْتَمَع بالإسْكَنْدَرية ثلاثة آلاف من تُجَّار الفِرِنْج، وقَدِمَت بَطْسَة[٦] إلى الميناء فيها من مُلوك الفِرِنْج مَلِكان، فهَمُّوا أن يَثُوروا ويَقْتُلوا أَهْلَ البَلَد ويَمْلكوها. فتَوَجَّه الملكُ العادِلُ أبو بَكْر بن أيُّوب إليها، وقَبَضَ على التُّجَّار المذكورن وعلى من بالبَطْسَة،

---

a) عند الكندي: ربيع الآخر.

---

[١] الكندي: ولاة مصر ٢٩٣. [٢] نفسه ٢٩٣.

[٣] نفسه ٢٩٤. [٤] نفسه ٢٩٥.

[٥] فيما يلي ١: ٣٦١، ٤٢٣.

[٦] البَطْسة ويقال أحيانًا البَطْشَة والجمع البَطْسات والبَطس والبَطْشات والبُطَش. سفينة عظيمة الحجم كثيرة القلوع، قد يصل عدد القلوع في البَطْسَة الواحدة إلى أربعين قلعًا. كانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة، كما كانت تستخدم في نقل جموع كبيرة من المحاربين قد يصل عددهم إلى سبع مائه. واشتهر هذا النوع من السفن في زمن الحروب الصليبية وكانت وظيفتها مشتركة لدى المسلمين والفرنج (درويش النخيلي: السفن الإسلامية ١٤–١٧).

واسْتَصْفَى أَمْوالَهم وسَجَنَهم ، وسَجَن الملكَيْن ، وجَرَت خُطوبٌ حتى أَطْلَق السُّلْطانُ نِساءَهم ، وعادَ إلى القاهِرَة [١].

وفي سنة أربعٍ وخمسين وخمس مائة بَنَى المَلَكُ الصَّالِحُ طَلائِع بن رُزِّيك على بِلْبَيْس حِصْنًا من لَبِن [٢].

وفي سنة اثنتين وستين وخمس مائة كانت وَقْعَةُ البابَيْن ، بين الوَزير شاوَر وأَسَد الدين شِيْركوه ، فانْهَزَم عَسْكَرُ شِيْركوه ، ومَضَى منهم طائِفَةٌ إلى الإِسْكَنْدرية ، ثم كانَت لشِيرْكوه على شاوَر ، فانْهَزَم منه إلى القاهِرَة [٣]. ومَضَى شيرْكوه إلى الإِسْكَنْدَرية ، فخَرَجَ إليه أهلُ الثَّغْر ، وفيهم نَجْمُ الدين محمد بن مَصَال والي الثَّغْر ، وقاضِيه الأَشْرَفَ بن الحَبَّاب ، وناظِره القاضي الرَّشيد بن الزُّبَيْر ، وسُرُّوا بقُدُومِه ، وسَلَّموه المَدينَة . ثم سارَ منها يُريد بِلاد الصَّعيد ، واسْتَخْلَف ابن أخيه صَلاح الدين يُوسُف بن أَيُّوب على الثَّغْر في ألف فارِس . فنَزَلَ عليه شاوَر ، ومعه مُرِّى [Amaury] ملك الفَرِنْج ، فقامَ معه أَهْلُ الثَّغْر ، واسْتَعَدُّوا لقِتال شاوَر ، فكان مِمَّا[a] أَخْرَجوه أربعة وعشرون ألف قَوْس[b] [٤].

فوَعَدَهم شاوَر أن يَضَع عنهم المُكُوس والواجِبات ، ويُعْطيهم الخُمْس إذا سَلَّموه صَلاح الدين ، فأَبَوْا ذلك ، وأَلَحُّوا في قِتالِه ، فحَصَرَهُم حتى قَلَّ الطَّعامُ عندهم . فتَوَجَّه إليهم شِيرْكوه ، وقد حَشَدَ من العُرْبان جُموعًا كَثيرَة ، فبَعَث إليه/ شاوَر ، وبَذَلَ[c] له خمسة آلاف دينار على أن يَرْجِع إلى الشَّام ، فأجابَه إلى ذلك .

وفُتِحَت المَدينَة ، وخَرَجَ صَلاحُ الدين إلى مُرِّي [Amaury] مَلِك الفِرِنْج ، وجَلَس معه ، فأَرادَه[d] شاوَر أن يُسلِّمه صَلاحَ الدين فلم يُوافِقْه في[e] سَيْرَه إلى عَمِّه شِيرْكوه من البحر على عَكَّا

---

a) بولاق : ما . b) بولاق : فرس . c) الأصل : نزل . d) بولاق : فمازال به . e) بولاق : بل .

---

[١] انظر فيما يلي ١: ٤٢٣.

[٢] المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣: ٢٣٦.

[٣] انظر عن هذه الموقعة التي تمت قرب الأشمونيين في صعيد مصر ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٢؛ أبا شامة : الروضتين ١: ١٥١؛ المقريزي : اتعاظ ٣: ٢٨٤.

[٤] ابن ظافر : أخبار الدول ١١٥؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٣، الكامل ١١: ٣٢٤ - ٣٢٦؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٦٥-٣٦٦، ٤٢٤؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧: ١٤٧-١٤٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١: ١٥١؛ النويري : نهاية الأرب ٢٨: ٣٣٧؛ المقريزي : اتعاظ ٣: ٢٨٦.

بمن معه إلى دِمَشْق. ودَخَلَ شاوَر إلى الإسْكَنْدَرية في سابع عشر شوَّال، فاسْتَتَرَ ابن مَصَال وفَرَّ إلى الشَّام، وقَبَضَ على ابن الحبَّاب، وعُوقِب حتى فَدَاه أهْلُه بمالٍ جَزيل، ولم يَقْدر على ابن الزُّبَيْر وخَرَجَ إلى رَشيد.

هذا، وقد امْتَنَعَ الفَقيهُ أبو الطَّاهِر بن عَوْف وجَماعَةٌ كثيرةٌ بالمَنَار، فوَقَفَ عليهم شاوَر، فقال له ابنُ عَوْف: اعْذُرْنا يا أمير الجيُوش، وسامِحْنا بما فَعَلْناه؛ فعَفَا عنهم، ووَلَّي القاضي الأَشْرَف أبا القاسِم عبد الرَّحْمَن بن مَنْصور بن نَجَا ناظِرًا على الأمْوال. وخَرَجَ ومعه مُرِّي [Amaury] مَلِك الفِرنْج إلى القاهِرَة، ثم تَوَجَّه مُرِّي [Amaury] إلى بلادِه [a]ونَزَل على صَيْدا[a].

وفي سنة إحدى وسبعين وستّ مائة وَرَدَ الخَبَرُ بحَرَكَة الفِرنْج إلى ثُغُور مصر، فاهْتَمَّ الملكُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس بأمْر الشَّواني، ونَصَبَ على أسْوار الإسْكَنْدَرية نَحْوًا من[b] مائة مَنْجَنيق.

وفي يوم الخميس، خامِس شهر رَجَب سنة سبع وعشرين، خَرَج بَعْضُ تُجَّار الفِرنْج إلى ظاهِر باب البَحْر، حيث تَجْتَمِع العامَّة[c] للفُرْجَة، وتَعَرَّض إلى صَبِيٍّ أَمْرَدَ يُراوِدُه عن نَفْسه؛ فأنْكَرَ ذلك بعضُ من هناك من المسلمين، وقال: هذا ما يحل. فأَخَذَ الفِرِنْجي خُفًّا كان بيَده وضَرَبه على وَجْهه، فصاحَ بالنَّاس فأتَوه، فقامَ الفِرنْجُ مع صاحِبِهم.

واتَّسَعَ الخَرْقُ، إلى أن رَكِبَ مُتَوَلِّي الثَّغْر، وأَغْلَق أبوابَ المَدينَة، وطَلَب مَن أثارَ الفِتْنَة، ففَرُّوا، وعادَ إلى دارِه وتَرَكَ الأبْوابَ مُغْلَقَة.

وكان بظاهِرِ المَدينَة خَلْقٌ كثيرٌ قد تَوَجَّهوا على عادَتِهم في حَوائِجِهم، فحِيل بينهم وبين بُيوتِهِم، وجاءَ اللَّيْلُ وهم قِيامٌ على الأبواب يَضِجُّون ويَصيحُون، فمَضَى أعيانُ البَلَد إلى المُتَوَلِّي، ومازالو به حي فَتَحَ لهم. فدَخَلُوا مُبادِرين وهم يَزْدَحِمُون، فماتَ منهم زِيادَةٌ على عشرة أَنْفُس، وتَلِفَت أَعْضَاءُ جَماعَةٍ، وذَهَب من عَمائِم النَّاس ومَنادِيلهم وغير ذلك شيءٌ كثيرٌ، وعَظُم البُكَاءُ والصُّراخُ طُول الليل.

فلمَّا كان من الغَد رَكِبَ الوَالي لكَشْف أحْوال النَّاس، فتكاثَروا عليه ورَجَمُوه، فانْهَزَم منهم إلى دارِه، فتَبِعوه وقاتَلُوه، فقاتَلَهم من أَعلى الدار حتى سُفِكَت بينهما دِماءٌ كثيرة، وأَحْرَقوا دارَه[d]، ونَهَبُوا دُورًا بجانِبه. فكَتَبَ يَسْتَنْجِد والي دَمَنْهُور ومَنْ حَوْله من العُرْبان، فأَتَوه واحْتاطوا بالمَدينَة.

(a-a) ساقطة من بولاق. b) ساقطة من بولاق. c) ساقطة من الأصل. d) بولاق: بابه.

وسَرَحَ الطائِرُ إلى السُّلْطان بخُروج أهْل الإسْكَنْدَرية عن الطَّاعَة ، فاشْتَدَّ غَضَبُه ، وخَشِيَ من إطْلاقهم الأُمَرَاء المَسْجونين ، وبَعَثَ إلى القُضَاة فجَمَعَهم واسْتَفْتاهم في قِتالِهم ، فكَتَبُوا بما يَجِب .

وخَرَجَ إليهم الوَزيرُ مُغْلِطاي الجَمَالي ، وطُوغان شادّ الدَّواوين ، وأَيْدَمُر أمير جَنْدار ، وعِدَّةٌ من المماليك السُّلْطانية ، وناظِر الخاصّ ، ومع الوَزير تِذْكِرَة بإراقَة دِماء أهْل الفَساد ، ومُصادَرَة جَماعَة ، وأَخْذ أموال أهْل البَلَدِ ، والقَبْض على الأسْلِحَة المَعَدَّة بها للغُزَاة ، وإمْساك القاضي والشُّهود ، وحَمْل الأُمَرَاء المَسْجونين إلى القاهِرَة .

فسارُوا في عاشِره ، وقَدِمَوا الثَّغْرَ بعد ثلاثة أيام ، ونَزَلَ الوَزيرُ بالخَيْس ، وفَرَضَ على النَّاس خمس مائة ألف دينار مصرية ، وأَحْضَر قاضي القُضَاة عِمادَ الدين ونائِبَه في الحَديد ، وأَنْكَرَ عليهما كَوْنهما شَهَرَا النِّداء في البَلَد بالغُزَاة في سَبيل الله . فأَنْكَرا وقُوعَ هذا منهما [a]وإنَّما كان من غيرهما[a]، وأنَّهما لم يكُن في قُدْرَتهما رَدّ السَّواد الأَعْظَم . فَضَرَبَ نائِبَه ابن التَّنّسي[b] ضَرْبًا مُبرِّحًا ، وأَلْزَمَه بحَمْل ستّ مائة ألف درهم ، وأَلْزَمَ القاضي بخمس مائة ألف درهم ، وكان قد رَسَمَ بشَنْقه ، فتَلَطَّف في مُكاتَبَة السُّلْطان ، واعْتَذَرَ عنه وبَرَّأه حتى عَفَا عنه .

وتَتَبَّعَ العامَّةَ ، فوَسَّطَ منهم ثلاثين رَجُلًا في يوم الجمعة ثالث عشره ، فتَسارَعَ النَّاسُ إلى دُورِهم من الخَوْف ، فذَهَبَت عِدَّةُ عَمائِم ، واشْتَدَّ الخَوْفُ مُدَّة عشرين يومًا ، وكُتُبُ السُّلْطان تَتَوالَى بالإيقاع بأَهْل الثَّغْر وأَخْذ أَمْوالهم ، والوَزيرُ يُحْسِن في الجَوَاب إلى أن جَهَّزَ الأُمَرَاء المَسْجونين وسارَ من الثَّغْر ، وقد اسْتَعْرَض ما به من السِّلاح فوَجَد ستة آلاف عِدَّة كامِلة ، جَعَلَها جَميعها في قاعَة وخَتَمَ عليها ، وبَلَغَت الجِبايَة من النَّاس ما يُنيف على مائتين وستين ألف دينار . فكانَت هذه من المِحَن العَظيمَة ، والحَوادِث الشَّنيعَة .

ذِكْرُ مَدينَة أَتْريب

هذه المَدينَةُ بَناهَا أَتْريب بن قُبْطيم بن مِصْر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح [1]. قال ابنُ وَصِيف شَاه : وكان أَتْريبُ قد انْتَقَلَ إلى حَيِّزه بعد مَوْت أبيه قُبْطيم ، وهي المَدينَة التي كان أبوه بَنَاهَا له ، وكان

(a-a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : الشيبي .

[1] مدينة مندرسة يدل على موقعها الآن التلول التي بأحواض أتريب الواقعة في الجهة الشمالية من سكن بندر بنها =

طُولُها اثني عشر مِيلًا ، ولها اثنا عشر بابًا ؛ وجَعَلَ في شارِعها الأَعْظَم ثلاث قِباب عالية على أَعْمِدَة بعضُها فوق بَعْض ، منها قُبّة في وَسَطِ المَدينة ، وقُبّتان في طَرَفَيْها ، وجَعَلَ على كلِّ باب[a] مَرْقَبًا كبيرًا ، وفي كلِّ ناحية منها مَلْعَبًا ومَجالِس ومُتَنَزَّهات تُشْرِف[b] ؛ وشَقَّ في غربيها نهرًا ، وعَقَدَ عليه قَناطِر ، وجَعَلَ من فَوْقِها مجالِسَ مُتَّصلة ، وحَوْلَها المنازِلُ تدور بالخَليج مُتَّصلة بالقَناطِر
١٧٦:١ على رِياض/ مَزْروعَة من خَلْفِها الأجنة[c] والبَساتين ؛ وعلى كلِّ بابٍ من الأبْواب أُعْجوبَة من تَماثيل وأصْنام مُتَحَرِّكة ، وأصْنام تَمْنَع من يُؤْذي ؛ وجَعَلَ في داخِل كلِّ باب صورة شَيْطانين من صُفْر ، فإذا قَصَدَها أَحَدٌ من أَهْل الخَيْر قَهْقَهَ الشَّيْطانُ الذي عن يَمْنَة الباب ، وإن كان من أَهْل الشَّرِّ بَكَى الشَّيْطانُ الذي عن يَسْرَة الباب ؛ وجَعَلَ في كلِّ مُتَنَزَه منها من الوَحْش الآلِفة والطُّيور المُغَرِّدَة كلَّ مُسْتَحْسَن ، وفَوْق قِباب المَدينة صُوَرًا تُصَفِّر إذا هَبَّت الرِّياحُ ، ونَصَبَ مَرايا[d] ترى البِلادَ البعيدة ؛ وبَنَى حِذاءَها في الشَّرْق مَدينَةً ، وجَعَلَ فيها ملاعِبَ وأصْنامًا بارِزَة في صُوَرٍ مختلفة ، وفي وَسَطِها بِرْكَة إذا مَرَّ بها الطَّيْرُ سَقَطَ عليها فلا يَبْرَح حتى يُؤْخَذ ؛ وجَعَلَ لها حِصْنًا باثني عَشْر بابًا ، على كلِّ بابٍ تِمْثالٌ يعمل أُعْجوبَة ؛ وعَمِلَ حوالَيْها أجنّة[e] ، وجَعَلَ بالقُرْب منها ـ في ناحية الشَّرْق[f] ـ مَجْلِسًا مَنْقوشًا على ثماني أساطِين ، وفَوْقه قُبّة عليها طائِرٌ مَنْشورُ الجَناحَيْن ، يُصَفِّر في كلِّ يوم ثلاث تَصْفيرات : بُكْرَةً ، ونِصْف النَّهار ، وعند غُروب الشَّمْس ؛ وأقامَ فيها أصْنامًا وعَجائِبَ كثيرة .

وبَنَى مُدُنًا كثيرة ، وأقامَ فيها رَجُلًا يُقالُ له بُرْسان ، يعمل الكِيمْياء ، وضَرَبَ منها دَنانير ، في كلِّ دينار سبعة مَثاقيلَ ، عليها صُورَتُه .

وعاشَ أَتْريب مَلِكًا ثلاث مائة وستين سنة ، وبَلَغَ من العُمْر خمس مائة سنة . وعُمِلَ له ناوُوسٌ في جَبَلٍ بالمَشْرق[g] ، حُفِرَ له تحته سَرَب بُطِّن بالزُّجاج والمَرْمَر ، وجُعِلَ على سَريرٍ من ذَهَب مُرَصَّع ، وحُمِلَت إليه ذَخائِرُه ، وجَعَلوا على بابه صُورةَ تِنِّين لا يَدْنُو منه أَحَدٌ إلّا أَهْلَكه ، وسَفَوا عليه الرِّمال ، وزَبَرُوا عليه اسْمَه وتاريخ وَقْته[1] .

---

a) بولاق : قبة . b) بولاق : تشـرق ، وفي المقفى : تشرف على ما تحتها . c) بولاق : الجنان . d) بولاق : مرآة . e) بولاق : جنان . f) في المقفى : في شرقها . g) بولاق : بالشرق .

= (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٨٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ١١؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, p. 3) .

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٦ - ٧٧؛ وترجم المقريزي لأتريب في المقفى الكبير ١ : ٣٤١ - ٣٤٢ .

وقال ابنُ الكِنْدي : أَرْبَعُ كُوَر بمصر ليس على وَجْه الأرض أَفْضَلُ منها ، ولا تحت السَّماء لهنّ نَظير : كُورَة الفَيُّوم ، وكورَة أَتْرِيب ، وكورَة سَمَنُّود ، وكُورَة أَنْصِنا [1] . وكُورَة أَتْرِيب من جُمْلَةِ كُوَر أَسْفَل الأرْض ، وهي مائة وثماني قُرَى .

وكان يُقالُ مَدائِنُ السَّحَرَة من ديار مصر سَبْعٌ ، وهي : أَرْمَنْت ، وبَنَا ، وبُوصير ، وأَنْصِنا ، وصان ، وأَتْرِيب ، وصَا [2] .

ذكر مدينة تِنِّيس

تِنِّيس ـ بكَسْر التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وكَسْر النون المشدَّدَة وياء آخِر الحروف وسين مُهْمَلَة ـ بَلْدَة من بلاد مصر في وَسَط الماء ، وهي من كُورَة الخَلِيج ، سُمِّيَت بِتِنِّيس بن حام بن نُوح ، ويُقالُ بَناهَا فليمون من وَلَدِ أَتْرِيب بن قُبْط[a] أَحَدُ ملوك القِبْط في القَديم [3] .

قال ابنُ وَصِيف شاه : ومَلَكَت بعد أَتْرِيب ابنته [تدورة][b] ، فدَبَّرت المُلْكَ وساسَتْه بأيد وقُوَّة ، خمسًا وثلاثين سنة ، وماتَت . فقامَ بالمُلْك من بعدها ابنُ أختها[c] فَليمون المَلِك ، فرَدَّ الوُزَراء إلى مَراتِبِهم ، وأقامَ الكُهَّانَ على مَواضِعِهم ، ولم يخرُج الأَمْرُ عن رأيهم ، وجَدَّ في العِمارات وطَلَب

a) بولاق : قبطيم . b) إضافة مما تقدم ١: ١٣٨ . c) فيما تقدم ١٣٨:١ أخوها .

[1] ابن الكندي : فضائل مصر ٣٦ .

[2] انظر فيما تقدم ٣٤ .

[3] تِنِّيس . مدينة مندرسة ، وهي جزيرة كانت قريبة من البر ما بين الفَرَما ودمياط يحيط بها البحر من كل جهة ، وكان النيل في وقت الفيضان تغلب حلاوته على ماء البحر فتصير البحيرة حلوة ، فحينئذ يدخر أهل تنيس المياه في صهاريجهم لسنتهم . واشتهرت في العصر الفاطمي بصناعة الثياب الملونة والبوقلمون (ناصر خسرو : سفرنامه ٧٧) .

ولاتزال الجزيرة التي كانت بها مدينة تنيس موجودة إلى اليوم ببحيرة المَنْزَلَة وتعرف بجزيرة تنيس وبها بعض بقايا من الطوب الأحمر المخلف من مبانيها القديمة ، وهي تقع على بعد تسعة كيلومترات جنوب غربي مدينة بورسعيد الحالية . (راجع ، البكري : جغرافية مصر ٩٠- ١٩٢؛ مجهول : الاستبصار ٨٧- ٨٨؛ ياقوت : معجم البلدان ١: ٥١- ٥٤؛ النويري : نهاية الأرب ١: ٢٥٢؛ ابن دقماق : الانتصار ٥: ٧٨- ٧٩؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١: ١٩٧- ١٩٨؛ محمد بن أحمد بن بسام المحتسب : «أنيس الجليس في أخبار تنيس» ، نشر وتحقيق جمال الدين الشيال ، مجلة المجمع العلمي العراقي ١٤ (١٩٦٧) ، ١٥١- ١٨٩؛ جابر سلامة المصري : «مدينة تنيس في التاريخ الإسلامي» ، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ٣٥ (١٩٨٧) ، ٨٩- ١٤٢؛ Maspero & Wiet, *Matériaux*, pp. 60-61; Mouton, J.M., EI^2 (art. *Tinnis* X, pp. 570-71) .

الحِكَم. وفي أيَّامِه بُنيَت تِنِّيس الأولى التي غَرَّقَها البحرُ، وكان بينه وبينها شيءٌ كثير، وحَوْلَها الزَّرْع والشَّجَر والكُروم، وقُرًى ومَعاصِر للخَمْر، وعِمارَة لم يكُن أحْسَنَ منها [1].

فأَمَر الملكُ أن يُبْنَى له وَسَطَها[a] مَجالِس، ويُنْصَب له عليها قِبابٌ، وتُزَيَّن بأحسن الزِّينَة والنُّقوش، وأَمر بفَرْشِها وإصْلاحِها؛ وكان إذا بدأ النِّيلُ يَجري انتقل الملكُ إليها، فأقامَ بها إلى النَّوروز ورَجَعَ.

وكان للمَلِك بها أُمَناءُ يَقْسمون المياه، ويَحْطون كلَّ قَرْيَة قِسْطَها، وكان على تلك القُرَى حِصْنٌ يدور بقَناطِر، وكان كلُّ ملك يأتي يأْمُر بعِمارة بها[b] والزِّيادة فيها، ويجعلها له مُتَنَزَّهًا.

ويُقالُ إنَّ الجَنَّتَيْنِ اللَّتين ذَكَرَهُما الله تعالى في كتابِه العَزيز، إذ يقول: ﴿واضْرِبْ لَهُم مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وحَفَفْناهُما بنَخْلٍ...﴾ الآية [الآية ٣٢ سورة الكهف]، كانتا لأخوين من بَيْت الملك أَقْطَعَهما ذلك المَوْضِعَ [2]، فأَحْسَنا عمارَته وهَنْدَسَته وبُنْيانَه. وكان الملكُ يَتنزَّه عليهما[c]، ويُؤْتَى بغَرائِب الفَواكِه والبُقول، ويُعْمَل له من الأَطْعِمَة والأَشْرِبَة ما يَسْتَطيبه. فعَجِبَ بِذلك المكان أَحَدُ الأَخَوَيْن، وكان كثير الضِّيافَة والصَّدَقة، ففرَّق مالَه في وجوه البِرّ، وكان الآخر مُمْسِكًا يَسْخَر من أخيه إذا فَرَّق مالَه، وكلَّما باعَ من قِسْمه شيئًا اشْتَراه منه، حتى بقي لا يملك شيئًا.

وصارَت تلك الأَجِنَّة[d] لأخيه، واحتاج إلى سُؤالِه، فانْتَهَره وطَرَدَه، وعَيَّرَه بالتَّبْذير وقال: قد كنتُ أَنْصَحُك وآمرك[e] بصِيانَة مالِك فلم تَفْعَل، ونَفَعَني إمْساكي فصِرت أكثر منك مالًا ووَلَدًا، ووَلَّى عنه مسرورًا بمالِه وجَنَّته. فأَمَر الله ـ عزَّ وجلَّ[f] ـ البَحْرَ، فرَكِبَ تلك القُرَى وغَرَّقَها جَميعَها، فأَقْبَل صاحِبُها يُوَلْوِل ويَدْعُو بالثُّبور [3]، ﴿وَيَقُولُ يالَيْتَني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾؛ قال الله جَلَّ جَلاله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرونَهُ مِن دُون اللهِ﴾ [الآيتان ٤٢، ٤٣ سورة الكهف].

وفي زَمان فَليمون الملك بُنِيَت دِمْياط [4].

---

a) بولاق: في وسطها. b) بولاق: بعمارتها. c) بولاق: فيهما. d) بولاق: الجنة. e) ساقطة من بولاق. f) بولاق: تعالى.

---

[1] انظر فيما تقدم ٣٧٧.

[2] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧٧- ٧٨.

[3] قارن النويري: نهاية الأرب ١: ٢٥٢ نقلا عن كتاب والعجائب الكبيرة لإبراهيم بن وصيف شاه.

[4] النويري: نهاية ١٥: ٧٨؛ وفيما يلي ٥٨١.

وملك فليمون تسعين سنة، وعَمِل لنفسه ناوُوسًا في الجبَل الشرقي، وحَوَّل إليه الأموالَ والجَواهِرَ وسائِرَ الذَّخائِر، وجَعَلَ من داخِله تماثيلَ تدور بلَوالِب[a] في أيْديها سُيوف، من دَخَل قَطَعَتْه. وجَعَلَ عن يمينه ويَساره أسَدَيْن من نُحاس مُذَهَّب بلَوالِب[a]، من أتاه حَطَّماه، وزَبَرَ عليه: هذا قَبْرُ فليمون بن أتْريب بن قُبْطيم بن مصريم[b]، عَمَّر/ دَهْرًا، وأتاه الموتُ فما اسْتَطاع له دَفْعًا، فمَن وَصَلَ إليه فلا يَسْلُبه ما عليه، وليأخُذ مِمّا[c] بين يديه [١].

ويُقالُ إنَّ تِنِّيسَ أخٌ لدِمْياط [٢].

وقال المَسْعوديُّ في كِتاب «مُرُوج الذَّهَب»: وبُحَيْرَة[d] تِنِّيس كانت أرْضًا لم يكُن بمصر مِثْلُها اسْتواءً وطيب تُرْبة [وثَراءً][e]، وكانت جِنانًا ونَخْلًا وكَرْمًا وشَجَرًا ومَزارِعَ، وكانت فيها مجارٍ[f] على ارتفاع من الأرض. ولم يَرَ الناسُ بَلَدًا أحسنَ من هذه الأرض، ولا أحسنَ اتِّصالًا من جِنانِها وكُرومِها، ولم يكُن بمصر كُورَة يُقالُ إنَّها تُشْبِهُها إلّا الفَيُّوم. وكان الماءُ مُنْحَدِرًا إليها، لا يَنْقَطِعُ عنها صيفًا ولا شتاءً، يَسْقون جِنانَهم[g] إذا شاءُوا، وكذلك زُروعهم، وسائره يصبّ إلى البحر من جميع خُلْجانه، ومن المَوْضِع المعروف بالأُشْتوم.

وقد كان بين البَحْر وبين هذه الأرض مَسيرَةُ يوم، وكان فيما بين العَريش وجَزيرة قُبْرُس طَريقٌ مسلوك إلى قُبْرُس تَسْلُكُه الدَّوابُّ يَبَسًا، ولم يَكُن بين العَريش وجَزيرَة قُبْرُس في البحر سَيْرٌ طويل، حتى عَلا الماءُ الطريق الذي كان بين العَريش وبين[h] قُبْرُس [٣].

فلمَّا مَضَت لدِقْلطيانوس من مُلْكه مائتان وإحدى وخمسون سنة، هَجَمَ الماءُ من البحر على بعضِ المواضِع التي تُسَمَّى اليوم بُحَيْرَة تِنِّيس فأغْرَقَته، ويزيد في كلِّ عام حتى أغْرَقَتها بأجمعها؛ فما كان من القُرَى التي في قَرارِها غَرِق، وأمَّا الذي كان منها على ارْتِفاع من الأرض فبقيت منها تُونَة وبورا، وغير ذلك مِمَّا هو باقٍ إلى هذا الوقت، والماءُ مُحيطٌ بها.

وكان أهْلُ القُرَى التي في هذه البُحَيْرَة يَنْقِلون مَوْتاهم إلى تِنِّيس، فيَقبرونهم واحِدًا فوق واحِد[i]. وكان اسْتِحْكامُ غَرَقِ هذه الأرض بأجْمَعها قبل أن تُفْتَح مصر بمائة سنة [٤].

---

a) الأصل: بكواكب. b) بولاق: مصر. c) بولاق: من. d) بولاق: وغيره. e) إضافة من المسعودي. f) الأصل: بحار. g) الأصل: جنتهم. h) ساقطة من بولاق. i) بولاق: فنبشوهم واحدا=

---

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧٨.

[٢] ابن دقماق: الانتصار ٥: ٧٨.

[٣] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧٤-٧٥.

[٤] نفسه ٢: ٧٦؛ وقارن ابن دقماق: الانتصار ٥: ٩٧.

قَالَ: وقد كان لملِكٍ من المُلوك التي كانت داره[a] الفَرَما، مع أركون من أراكِنَة البَلْيَنَا وما اتَّصَلَ بها من الأرض، حُروبٌ عملت فيها خَنادِق وخُلْجانات[b]، فُتِحَت من النِّيل إلى البحر، يمتنع بها كلُّ واحِدٍ من الآخر. وكان ذلك داعِيًا لتشعُّب الماءِ من النِّيل، واستيلائه على هذه الأرض[1].

وقَالَ في كِتاب «أَخْبار الزَّمان»: وكانت تِنِّيس عَظيمَة لها مائة باب[2].

وقال ابنُ بُطْلان[3]: تِنِّيس بَلَدٌ صغير، على جَزيرة في وَسَط البحر، مَيْله إلى الجَنوب عن وَسَط الإقليم الرابع خَمْس دَرَج، وأرضه سَبْخَة، وهواؤه مُخْتَلَف، وشُرْب أهْله من مياه مَخْزونة في صَهاريج تُمْلأُ في كلِّ سنة عند عُذوبَة مِياه البحر بدُخول ماء النِّيل إليها، وجَميعُ حاجاتِها مَجْلوبة إليها في المَراكِب.

وأكثرُ أغْذِيَة أهلها السَّمَك والجُبْن وألْبان البَقَرِ، فإنَّ ضَمانَ الجُبْن السُّلْطاني سبع مائة دينار حِسابًا عن كلِّ ألف قالَب دينار ونصف، وضَمان السَّمك عشرة آلاف دينار. وأخْلاقُ أهْلِها سَهْلَة مُنْقادَة، وطَبائِعُهُم مائِلة إلى الرُّطوبَة والأُنوثَة.

قال أبو السَّرِيّ الطَّبيب: إنَّه كان يُولَد بها في كلِّ سنة مائتا مُخَنَّث، وهم يُحِبُّون النَّظافَة والدَّماثَة والغِناء واللَّذَّة، وأكثرهم يَبيتون سُكارَى، وهم قليلو الرِّياضَة لضِيق البَلَد، وأبدانُهم مُمْتلئة أخلاطًا[c]، وحَصَل بها مَرَضٌ، يُقال له الفَواق التِّنِّيسي، أقامَ بأهلها ثلاثين سنة.

= بعد واحد، الأصل: فيعبئونهم واحدا فوق واحد، والمثبت من مروج الذهب مصدر النقل. a) بولاق: دارها. b) بولاق: خلجان. c) بولاق: الأخلاط.

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧٦.

[2] المسعودي: أخبار الزمان ٢٦.

[3] أبو الحسن المختار بن الحسن بن عَبْدون بن سعدون ابن بُطْلان، طبيب من أهل بغداد، التي غادرها سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م، في رحلة زار فيها الرحبة والرصافة وحلب وأنطاكية ويافا، وانتهت به في القاهرة حيث دخل في مناظرة مع علي بن رضوان الطبيب رئيس أطباء مصر. ثم غادرها بعد أربع سنوات إلى القسطنطينية ومنها إلى حلب وأنطاكية حيث ترهَّب بها وتوفي سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م. واشتهر بكتابه «دعوة الأطباء» وكتابه «تقويم الصحة» ورسائله التي نشرها شاخت ومايرهوف (القفطي: تاريخ الحكماء ٢٩٤-٣١٥؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١: ٢٤١-٢٤٣؛ Schacht, J., *EI*[2] art. *Ibn Butlân* III, pp. 763-64).

وقال جامِعُ «تاريخ دِمْياط»[١]: وكان على تِنِّيس رَجُلٌ، يُقال له أبو ثَوْر، من العَرَب المُتَنَصِّرَة، فلمَّا فُتِحَت دِمْياط سارَ إليها المسلمون، فبَرَزَ إليهم في[a] نحو عشرين ألفًا من العَرَبِ المُتَنَصِّرَة والقِبْط والرُّوم، وكانت بينهم حروبٌ آلت إلى وقوع أبي ثَوْر في أيدي المسلمين وانْهِزام أصْحابه؛ فدَخَل المسلمون البلد، وبنوا كَنيسَتَها جامِعًا، وقَسَموا الغَنائِمَ، وساروا إلى الفَرَمَا[٢].

وكانت تِنِّيسُ مَدينَةً كبيرةً، وفيها آثارٌ كثيرةٌ للأوائِل، وكان أهْلُها مَياسير أصحاب ثَراء، وأكثرهم حاكَة، وبها يُحاكُ ثِيابُ الشُّروب التي لا يُصْنَع مثلها في الدُّنْيا.

وكان يُصْنَع فيها للخَليفَة بمصر[b] ثَوْبٌ يُقالُ له «البَدَنَة»، لا يَدْخُل فيه الغَزْل ـ سُدَّاء ولُحْمَة ـ غير أُوقِيَّتين، ويُنْسَج باقيه بالذَّهَب بصِناعَة مُحْكَمَة لا تُحْوِج إلى تَفْصيل ولا خِياطَة، تَبْلُغ قيمتُه ألف دينار. وليس في الدنيا طِرازُ ثَوْب كَتَّان يَبْلُغ الثَّوْبُ منه ـ وهو ساذَج بغير ذَهَب ـ مائة دينار عَيْنًا غير طِراز تِنِّيس ودِمْياط.

وكان النِّيلُ إذا أُطْلِق يَشْرب منه من بَمشارِق الفَرَمَا من ناحية جَرْجير وفاقُوس، من خَليج تِنِّيس ومَغايِضها[b].

وكانت تِنِّيس[b] من أَجَلّ مُدُن مصر، وإن كانت شَطَا ودَبَقُو ودَمِيرَة وتُونَة، وما قارَبَهم من تلك الجَزائِر، يُعْمَل فيها الرَّفيع، فليس ذلك بمُقارِب[c] للتِّنِّيسي والدِّمْياطي والشَّطَوي[b]. وكان الحَمْلُ منها إلى بعد سنة ستين وثلاث مائة، يبلُغ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العِراق، فلمَّا تَولَّى الوَزيرُ يَعْقُوب بن كِلِّس تَدْبير المال، اسْتَأْصَل ذلك بالنَّوائِب.

وكان يسكن بجَزيرة[d] تِنِّيس ودِمْياط نَصارَى تحت الذِّمَّة، وكان أهلُ تِنِّيس يَصيدون السُّمَّاني وغير ذلك من الطَّيْر على أبواب دُورهم ـ والسُّمَّاني طَيْرٌ[e] يخرج من البَحْرِ فيَقَع في تلك الشِّباك ـ، وكانت السُّفُنُ تُرْكَب من تِنِّيس إلى الفَرَما/ وهي على ساحِل البحر.

---

a) بولاق: فيهم. b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: يقارب. d) بولاق: بمدينة. e) بولاق: طائر.

---

[١] لم يُحَدِّد المقريزي اسم جامع تاريخ دمياط ولم يشر إليه الدكتور جمال الدين الشيال في رسالته «مجمل تاريخ دمياط»، كما أنني لم أتمكن من الاهتداء إليه، وانظر فيما يلي ٥٠٠.

[٢] في بولاق توجد هنا الفقرة الواردة فيما يلي ١٧٨:١ قبل الفقرة التي أولها: «ولما مات هارون الرشيد ...».

[1]فلم تَزَل تِنِّيسُ بيد المُسْلمين إلى أن كانت إمْرَةُ بِشْر بن صَفْوان الكَلْبي على مصر، من قِبَل يَزِيد بن عبد الملك، في شهر رمضان سنة إحدى ومائة، فنَزَل الرُّومُ تِنِّيس، فقُتِلَ مُزاحِم بن سَلَمَة[a] المُرادي أميرها في جَمْعٍ من الموالي؛ ولهم[b] يقول الشَّاعِر:

[الوافر]

أَلَمْ تَرْبَعْ فيُخبرك الرِّجالُ بما لاقَى بتِنِّيسَ المَوالي

ولمَّا ماتَ هارون الرَّشيد، وقامَ من بعده ابنُه محمد الأَمين، وأرادَ الغَدْر والنَّكْث بالمأمون، كان على مصر حاتِم بن هَرْثَمَة بن أَعْيَن من قِبَل الأَمين، فلمَّا ثارَ عليه أهل تَنّو وتُمَيّ[c]، بَعَثَ إليهم السَّرِيّ بن الحَكَم وعبد العَزيز بن الوَزير الجَرْوِي، فغَلَبا اليمانية في[d] شَوَّال سنة أربع وتسعين ومائة[2].

ثم وَلِيَ الأميرُ جابِر بن الأَشْعَث الطَّائي مصر، وصُرِفَ حاتِم بن هَرْثَمَة، وكان جابِرٌ لَيِّنًا، فلمَّا تباعَدَ ما بين محمد الأَمين وبين أخيه عبد الله المأمون، وخَلَعَ محمد أخاه من وِلايَة العَهْد، وتَرَك الدُّعاء له على المَنابِر، وعَهِد إلى ابنه مُوسَى ولَقَّبه بالنَّاطِق، وَدَعَا له، تَكَلَّمَ الجُنْدُ بمصر بينهم في خَلْع محمد غَضَبًا للمَأمون، فبَعَثَ إليهم جابِرٌ يَنْهاهم عن ذلك، ويُخَوِّفهم عَواقِب الفِتَن. وأَقْبَل السَّرِيُّ بن الحَكَم يَدْعو الناسَ إلى خَلْع محمد، وكان مِمَّن دَخَلَ إلى مصر في أيام الرَّشيد من جُنْد اللَّيْث بن الفَضْل، وكان خامِلًا، فارتَفَع ذِكْرُه بقِيامِه في خَلْع محمد الأَمين. وكَتَبَ المأمون إلى أَشْراف مصر يَدْعوهم إلى القِيام بدَعْوَته، فأجابوه وبايَعوا المأمون في رجب سنة ستّ وتسعين مائة، ووَثَبوا بجابِر فأَخْرَجوه، ووَلَّوا عَبَّاد بن محمد[3].

فبَلَغَ ذلك محمدًا الأَمين، فكَتَبَ إلى رُؤَساء الحَوْف بولاية رَبيعة بن قَيْس الجَرَشي، وكان رئيسَ قَيْس الحَوْف، فانْقادَ أهلُ الحَوْف كلُّهم معه، يَمَنُها وقَيْسُها، وأظهروا دَعْوَة الأَمين وخَلْع المأمون، وساروا إلى الفُسْطاط لمحارَبَة أَهْلِها، واقْتَتَلوا فكانت بينهما قَتْلَى، ثم انْصَرَفوا وعادُوا مِرارًا إلى الحَرْب.

---

a) بولاق: مسلمة. b) بولاق: فيهم. c) بولاق: تنو ونمى. d) بولاق: بعد الثمانية من.

---

[1] هذه الفقرة وردت في بولاق قبل الفقرة التي تبدأ بـ: وكانت تنيس مدينة كبيرة، وهذا الخطأ نتيجة النقل عن طيارات المقريزي دون معرفة موضعها الصحيح.

[2] الكندي: ولاة مصر ١٧٣- ١٧٤.

[3] نفسه ١٧٤- ١٧٥.

فعَقَدَ عَبّاد بن محمد لعبد العزيز الجَرْوي، وسَيَّرَه في جَيْشٍ ليُحارِبَ القَوْم في دارِهم، فخَرج في ذي القعدة سنة سبعٍ وتسعين ومائة، وحارَبَهم بعَمْرِيط، فانْهَزَم الجَرْوي، ومَضَى في قَوْمه من لَخْم وجُذام إلى فاقُوس، فقال له قَوْمُه: ألا تَدْعو لنَفْسك، فما أنت بدون هؤلاء الذين غَلَبُوا على الأرض؟ فمَضَى فيهم إلى تِنِّيس فنزَلَها، ثم بَعَثَ بعُمّاله يَجْبون الخَراج من أَسْفَل الأَرْض.

فبَعَث رَبيعةُ بن قَيْس يَمْنَعه من الجِباية، وسارَ أهلُ الحَوْف في المحرَّم سنة ثمانٍ وتسعين إلى الفُسْطاط فاقْتَتَلُوا، وقُتِلَ جَمْعٌ من الفريقين. وبَلَغَ أهْلَ الحَوْف قَتْلُ الأَمين، فتفرَّقوا[1].

ووَلِيَ إمْرَة مصر مُطَّلِب بن عبد الله الخُزاعي من قِبَل المأْمون، فدَخَلَها في ربيع الأوَّل، ووَلَّى عبد العزيز الجَرْوي شُرْطَتَه، ثم عَزَلَه وعَقَدَ له على حَرْب أَسْفَل الأَرْض[2].

ثم صُرِفَ المُطَّلب، ووَلِيَ العَبّاسُ بن مُوسَىٰ بن عيسىٰ في شَوّال، فوَلَّى عبد العزيز الشُّرْطَة. فلمّا ثارَ الجُنْدُ، وأعادوا المُطَّلب في المحرَّم سنة تسعٍ وتسعين، هَرَبَ الجَرْوي إلى تِنِّيس. وأقبل العَبّاسُ بن مُوسَىٰ بن عيسَى من مَكّة إلى الحَوْف، فنَزَلَ بِبِلْبيس ودَعَا قَيْسًا إلى نُصْرَتِه، ثم مَضَى إلى الجَرْوي بتِنِّيس، فأشارَ عليه أن يَنْزِل دارَ قَيْس، فرَجَعَ إلى بِلْبيس في جمادى الآخرة، وبها ماتَ مَسْمومًا في طَعام دَسَّه إليه المُطَّلب على يد قَيْس[3]. فدانَ أهلُ الأَحْواف للمُطَّلِب وبايَعُوه، وسارَعوا إلى جُبِّ عُمَيْرَةَ وسالَموه عندما لَقُوه، وبَعَثَ إلى الجَرْوي يأْمُره بالشُّخُوص إلى الفُسْطاط، فامْتَنَعَ من ذلك، وسارَ في مَراكِبِه إلى[a] شَطْنُوف[4]. فبَعَثَ إليه المُطَّلِب السَّرِيُّ بن الحكَم في جَمْعٍ من الجُنْد يَسْأَلونه الصُّلْح، فأجابَهم إليه، ثم اجْتَهَد في الغَدْر بهم، فتَيَقَّظوا له، فمَضَى راجِعًا إلى بَنَا، فاتَّبَعُوه وحارَبوه. ثم عادَ فدَعاهُم إلى الصُّلْح ولاطَفَ السَّرِيّ، فخَرَجَ إليه في زَلّاج، وخَرَجَ الجَرْوي في مِثْله، فالْتَقَيا في وَسَط النِّيل مُقابل سَنْدَفا، وقد أَعَدَّ الجَرْوي في باطن زَلّاجه الحِبال، وأَمَرَ أَصْحابَه بسَنْدَفا إذا لَصَق بزَلّاج السَّرِيّ أن يجرُّوا الحِبالَ إليهم[b]، فلَصَقَ الجَرْوي بزَلّاج السَّرِيّ، فرَبَطَه في زَلّاجه وجَرَّ الحبال، وأَسَرَ السَّرِيّ ومَضَى به إلى تِنِّيس

---

a) بولاق: حتى نزل. b) بولاق: إليها.

---

[1] الكندي: ولاة مصر ١٧٧.

[2] نفسه ١٧٨؛ وانظر عن ولاية حرب أسفل الأرض فيما يلي ٢: المسودة.

[3] الكندي: ولاة مصر ١٨٠-١٨١.

[4] انظر فيما يلي ١: ٤٨٩.

فسجَنه بها، وذلك في جمادى الأولى [1]. ثم كَرّ الجَرَوي وقاتَل، فلَقِيَته[a] جموعُ المُطّلب سَفْط سَلْيَط في رجب، فظَفِرَ [2].

ولمَّا عُزِلَ عُمَر بن مَلال[b] عن الإسكَنْدَرية، ثارَ بالأَنْدَلُسيين ودَعَا للجَرَوي، فأَقْبَلَ عبد الله بن مُوسَىٰ بن عيسَىٰ إلى مصر، طالِبًا بدَم أخيه العَبّاس، في المحرَّم سنة مائتين، فنَزَلَ على عبد العزيز الجَرَوي، فسارَ معه في جُيوش كثيرة العَدَد في البَرّ والبَحْر حتى نزل الجيزَة.

فخَرَج إليه المُطَّلِبُ في أَهْلِ مصر، فحارَبوه في صَفَر، فرَجَع الجَرَوي إلى شَرقيُّون، ومَضَى عبد الله بن مُوسَى إلى الحِجاز، وظَهَرَ المُطّلِب على أن أبا حَرْمَلَة فَرَجًا الأَسْود هو الذي كاتَبَ عبد الله ابن مُوسَى وحَرَّضَه على المسير، فطَلَبَه ففَرَّ إلى الجَرَوي.

وجَدَّ المُطّلب في أَمْر الجَرَوي، فأَخْرَجَ الجَرَوي السَّرِيَّ بن الحَكَم من السجن، وعاهَدَه وعاقَدَه على أن يَثُور بالمُطّلِب ويَخْلَعَه، فعاهَدَه السَّرِيُّ على ذلك فأَطْلَقَه، وأَلْقَى إلى أهل مصر أَنَّ كِتابًا وَرَدَ بولايته، فاسْتَقْبَله الجُنْدُ من أَهْل خُراسان، وعَقَدُوا له عليهم؛ وامْتَنَع المصريون من وِلايَتِه، فنَزَلَ دارَه بالحَمْراء، وأَمَدَّه قَيْس بجَمْعٍ منهم، وحارَبَ المصريين فهَزَمَهم وقَتَلَ منهم، فطَلَب المُطّلِب منه الأَمان فأَمَّنَه، وخَرَج من مصر، واسْتَبَدَّ السَّرِيُّ بن الحَكَم بأَمْر مصر في مستهلّ شهر رمضان [3]. فلمَّا قَتَلَ الأَنْدَلُسيون عُمر بن مَلّال[b] بالإسْكَنْدَرية، سارَ إليها الجَرَوي في خمسين ١٧٩ظ أَلْفًا، فبَعَثَ السَّرِيّ إلى تِنّيس بَعْثًا، فكَرّ الجَرَوي راجِعًا إلى تِنّيس في محرَّم سنة إحدى/ ومائتين فلمَّا ثارَ الجُنْدُ بالسَّرِيّ في رَبيع الأَوَّل، وبايَعُوا سُلَيمان بن غالِب، قامَ عَبّادُ بن محمد عليه وخَلَعَه [4].

وقامَ بالأَمْر عليُّ بن حَمْزَة بن جَعْفَر بن سُلَيمان بن عليّ بن عبد الله بن عَبّاس في مستهلّ شعبان، فامْتَنَعَ عَبّادٌ أن يُبايِعَه ولَحِقَ بالجَرَوي، ثم لَحِقَ به أيضًا سُلَيمان بن غالِب، فكان معه. وعادَ السَّرِيُّ إلى وِلايَة مصر في شعبان، وقَوِيَ سُلْطَانُه؛ فلمَّا كان في المحرَّم سنة اثنتين ومائتين، وَرَدَ كِتابُ المأمون إليه يأْمُره بالبَيْعَةِ لوَلِيّ عَهْده عليّ بن مُوسَىٰ الرِّضىٰ، فبُويع له بِمصر. وقامَ في

---

a) بولاق: لقيه. b) النسخ: ملاك.

---

[1] سنة تسع وتسعين ومائة؛ والزلاج نوعٌ من القوارب.

[2] الكندي: ولاة مصر ١٨٢.

[3] نفسه ١٨٣-١٨٤.

[4] نفسه ١٨٢.

فَساد ذلك إبراهيم بن المَهْدي ببَغْداد، وكَتَبَ إلى وُجوه الجُنْد بمصر يَأْمُرُهم بخَلْع المأْمون ووَلِيّ عَهْده، وبالوُثُوب على السَّرِيّ. فقامَ بذلك الحارِثُ بن زُرْعَة بن قَحْزَم[a] بالفُسْطاط، وعبد العزيز ابن الوَزير الجَرَوي بأَسْفَلِ الأرْض، وسَلَمَة[b] بن عبد الملك الطَّحاوي الأَزْدي بالصَّعيد، وخالَفوا السَّرِيّ، ودَعَوا إلى إبراهيم بن المَهْدي، وعَقَدُوا على ذلك الأَمْر لعَبْد العَزيز بن عبد الرَّحْمَن الأَزْدي، فحارَبَه السَّرِيّ وظَفر به في صَفَر.

ولَحِقَ كلُّ من كَرِه بَيْعَة عليّ الرِّضَىٰ بالجَرَوي، لمَنَعَته بِتِنِّيس وشِدَّة سُلْطانه، فسارَ إلى الإسْكَنْدرية ومَلَكَها، ودُعِيَ له بها وببلاد الصَّعيد. ثم سارَ في جَمْع كثير لمُحارَبَة السَّرِي، واسْتَعَد كلٌّ منهما لصاحِبِه بأَعْظَم ما قَدَرَ عليه. فبَعَثَ إليه السَّرِيُّ ابنه مَيْمونًا، فالْتَقَيا بشَطَنُوف، فقُتِلَ مَيْمُون في جُمادَى الأُولى سنة ثلاث ومائتين[١]. وأَقْبَلَ الجَرَوي في مَراكِبِه إلى الفُسْطاط ليَحْرقها، فخَرَج إليه أَهْلُ المَسْجِد وسألوه الكَفّ، فانْصَرَف عنها[٢]. وحارَب الإسْكَنْدَرية غير مَرَّة، وقُتِلَ بها من حَجَرٍ أصابَه من مَنْجَنيقه في آخر صفر سنة خمس ومائتين، وماتَ السَّرِيُّ بعده بثلاثة أشهر في آخر جُمادَى الأُولى[٣].

وقامَ بعد الجَرَوي ابنُه عليُّ بن عبد العزيز الجَرَوي، فحارَب أبا نَصْر محمد بن السَّرِيّ - أمير مصر بعد أَبيه - بشَطَنُوف، ثم الْتَقَيا بدَمَنْهُور، فيُقالُ إنَّ القَتْلَى بينهما يومئذٍ كانوا سبعة آلاف، وانهزم ابنُ السَّرِيّ إلى الفُسْطَاط، فتَبِعَتْه مَراكِبُ ابن الجَرَوي ثم عادَت، فدَخَلَ أبو حَرْمَلَة بينهما حتى اصْطَلَحا[٤]. وماتَ ابنُ السَّرِيّ في شَعْبان سنة ستّ ومائتين، فوَلِي بعده أخوه عبيد الله بن السَّرِيّ، فكَفَّ عن ابن الجَرَوي.

وبَعَثَ المأمون بخالِد[c] بن يَزيد بن مَزْيَد الشَّيْباني إلى مصر في جَيْشٍ من رَبيعَة، فامْتَنَع عبيدُ الله بن السَّرِيّ من التَّسْليم له ومانَعَه، فاقْتَتَلوا بفاقوس[d]. وانْضَمّ عليُّ بن الجَرَوي إلى خالِد بن يَزيد، وأقامَ له الأنْزال وأغاثَه، وسارَ حتى نَزَل على خَنْدَق عبيد الله بن السَّرِيّ، فاقْتَتَلا في شهر ربيع الأوَّل سنة سبع ومائتين، وجَرَتْ بينهما حُروبٌ بعد ذلك آلت إلى تَرَفُّع خالِد إلى أرْض الحَوْف؛ فكَرِه ذلك ابنُ الجَرَوي، ومَكَرَ به حتى أَخْرَجَه من عَمَله إلى غَرْبي النِّيل، فنَزل نَهْيَا،

---

a) بولاق: محرم. b) بولاق: مسلمة. c) بولاق: مخلد. d) ساقطة من بولاق.

---

[١] الكندي: ولاة مصر ١٩٢- ١٩٣. [٢] نفسه ١٩٤. [٣] نفسه ١٩٦. [٤] نفسه ١٩٧.

وانْصَرَف ابن الجَرَوي إلى تِنِّيس ، فصارَ خالِد في ضُرٍّ وجَهْدٍ ، وعسكر له ابنُ السَّرِي في شهر رمضان وأَسَرَه ، وأَخْرَجَه من مصر إلى مَكَّة في البحر[١].

وبَعَثَ المأمُون بولاية عبيد الله بن السَّرِي على ما في يده ، وهو فُسْطاط مصر وصَعيدها وغربيها ، وبولاية عليّ بن عبد العزيز الجَرَوي تِنِّيس مع الحَوْف الشرقي وضَمَّنه خَراجَه . وأَقْبَل ابنُ الجَروي على اسْتِخْراج خَراجِه من أَهْل الحَوْف ، فمانَعُوه وكَتَبُوا إلى ابن السَّرِيّ يسْتَمِدُّونه عليه ، فأَمَدَّهم بأَخيه ، فالْتَقَيَا بكُورة بَنَا في بُلْقِينَة ، فاقْتَتَلُوا في صفر سنة تسع ومائتين ، وامْتَدَّت الحَرْبُ[a] بينهما إلى أثناء رَبيع الأوَّل وهم مُنْتَصِفون .

فانْصَرَف ابنُ الجَرَوي فيمن معه إلى دِمْياط ، فسارَ ابنُ السَّرِيّ إلى مَحَلّة شَرِيقُون ونَهَبَها ، وبَعَثَ إلى تِنِّيس ودِمْياط فمَلَكَهُما . ولَحِقَ ابنُ الجَرَوي بالفَرَما ، وسارَ منها إلى العَرِيش ، فنَزَل فيما بينها وبين غَزَّة ، ثم عادَ وأَغارَ على الفَرَمَا في جُمادَى الآخِرَة ، ففَرَّ أَصحابُ ابن السَّرِي من تِنِّيس .

وسارَ ابن الجَرَوي إلى شَطَنُوف ، فخَرَجَ إليه ابن السَّرِيّ . واقْتَتَلا ، فكانت لابن الجَرَوي في أَوَّل النَّهار ، ثم أَتاه كَمِينُ ابن السَّرِيّ فانْهَزَم ، وذلك في رَجَب ، فمَضَى إلى العَرِيش ، وسارَ ابنُ السَّرِيّ إلى تِنِّيس ودِمْياط ؛ ثم أَقْبَل ابن الجَرَوي ، في المحرَّم سنة عشر ومائتين ، ومَلَكَ تِنِّيس ودِمْياط بغير قِتال ، فبَعَثَ إليه ابنُ السَّرِيّ البُعُوث ، فحارَبَهم[٢].

فبينما هم في ذلك إذْ قَدِمَ عبدُ الله بن طاهِر ، فتلقَّاه ابن الجَرَوي بالأَمْوال والأَنْزال ، وانْضَمَّ إليه ونَزَلَ معه بِبِلْبِيْس ، فامْتَنَع ابن السَّرِيّ ودافَع ابن طاهِرٍ ، فتَراخَى له ، وبَعَثَ فجَبَى المالَ ، ونَزَل زِفْتَى ، وبَعَثَ إلى شَطَنُوف بعيسَى الجلُودي على جِسْر عَقَده من زِفْتَى ، وجَعَل ابن الجَرَوي على شُفُنه التي جاءَتْه من الشَّام لمعرفته بالحَرْب ، فهَزَمَ مَراكِب ابن السَّرِيّ في المحرَّم سنة إحدى عشرة .

وصالَحَ ابنُ طاهِر عبيدَ الله بن السَّرِيّ في صَفَر ، وخَلَعَ عليه وأجازَه بعشرة آلاف دينار ، وأَمَرَه[b] بالخُرُوج إلى المأمُون ، فسَكَنَت فِتَنُ مصر بعبد الله بن طاهِر[٣].

---

a) بولاق : الحروب . b) بولاق : وأقره .

---

[١] الكندي : ولاة مصر ١٩٨- ٢٠١.

[٢] نفسه ٢٠١- ٢٠٣.

[٣] نفسه ٢٠٤- ٢٠٥.

وفي سنة سبع وسبعين وثلاث مائة ، وَلَدَت بِتِنِّيس مِعْزَى جِدْيًا له قُرون عِدَّة ، ورَأْسُه مع صَدْرِه ، وبَدَنُه ومُقَدَّمُه بصُوف أبيض ، ومُؤَخَّرُه بشَعَر أَسْود ، وذَنَبُه ذَنَب شاة .

ووَلَدَت امْرَأَةٌ سَخْلَةَ[a] لها رَأْس مُدَوَّر ، ولها يَدَان ورِجْلان وذَنَب .

ولثلاث بقين من ذي الحجة من هذه السنة ، حَدَثَ بتِنِّيس رَعْدٌ وبَرْقٌ وريحٌ/ شَديدَة وسَوادٌ عظيم في الجَوّ . ثم ظَهَرَ وَقْتَ السَّحَر في السَّماء عمودُ نار احْمَرَّت منه السَّماءُ والأَرْضُ أَشَدَّ حُمْرَة ، وخَرَجَ غُبارٌ كاد أن[b] يَأْخُذ بالأنفاس ، فلم يَزَلْ إلى الرابعة من النَّهار حتى ظَهَرَت الشَّمْسُ ، ولم يَزَلْ كذلك حتى[c] خمسة أيام .

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة ، حَضَرَ عند قاضي تِنِّيس أبي محمد عبد الله بن أبي الدُّنْس[d] رَجُلٌ وامْرَأَةٌ ، فطالَبَت المرأةُ الرجل بفَرْض واجِب عليه ، فقال الرجلُ : تَزَوَّجت بها منذ خمسة أيام ، فوَجَدت لها ما للرجال وما للنِّساء . فبَعَثَ إليها القاضي امْرَأَةً لتُشْرِف عليها ، فأخبرت أنَّ لها فَوْق القُبُل ذَكَرًا بخُصْيَتَيْن والفَرْجُ تحتها والذَّكر أَقْلَف [1] ، وأنَّها رائِعَة الحُسْن ، فطَلَّقها الزَّوْجُ .

قال أبو عُمَر الكِنْدِيّ : حَدَّثني أبو نَصْر أحمد بن عليّ قال : حدَّثني يس بن عبد الأحَد قال : سَمِعْتُ أبي يقول : لمَّا دَخَل عبدُ الله بن طاهِر مصر ، كُنْت فيمن دَخَلَ عليه ، فقال : حَدَّثنا عبدُ الله بن لَهيعَة ، عن أبي قَبِيل عن تُبَيْع[e] ، قال : يا أَهْلَ مصر ، كيف بكم إذا كان في بَلَدِكم فِتَنٌ ، فوَلِيَكم فيها الأَعْرَجُ ثم الأَصْفَرُ ثم الأَمْرَدُ ، ثم يأتي رَجُلٌ من وَلَد الحُسَيْن ، لا يُدْفَع ولا يُمْنَعُ ، تبلغ راياتُه البحر الأخضر ، يَمْلأها عَدْلًا . فقد[f] كان ذلك ، كانت الفِتْنَةُ فوَلِيَها السَّرِيُّ وهو الأَعْرَج ، والأَصْفَرُ ابنه أبو النَّصْر ، والأَمْرَدُ عُبَيْد الله بن السَّرِيّ ، وأنت عبدُ الله بن طاهر بن الحُسَيْن [2] .

ثم إنَّ عبدَ الله بن طاهِر سارَ إلى الإسْكَنْدَرية ، وأَصْلَحَ أَمْرَها ، وأَخْرَجَ ابن الجَرَوي إلى العراق . ثم قَدِمَ به الأَفْشين إلى مصر في ذي الحجة سنة خمس عشرة ، وقد أَمَرَ الأَفْشين أن يُطالبه

---

a) كلمة غير واضحة بالنسخ . b) بولاق : ودخان . c) ساقطة من بولاق . d) بولاق : الريس . e) بولاق : سبيع . f) بولاق : فقال .

---

[1] هو المعروف بالجنس الأفروديسي أو الخنثى المشكل . [2] الكندي : ولاة مصر ٢٠٦ .

بالأموال التي عنده ، فإن دَفَعَها إليه وإلَّا قَتَله ، فطالَبَه فلم يَدْفَع إليه شيئًا ، فقَدِمَه بعد الأضْحَى بثلاثٍ فقَتَلَه .

وفي جُمادَى الآخرة[a] سنة تسع عشرة ومائتين ، ثارَ يحيى بن الوَزير في تِنِّيس ، فخَرَج إليه المُظَفَّر بن كَيْدَر[b] أمير مصر ، فقاتَلَه في بُحَيْرَة تِنِّيس وأَسَرَه ، وتفرَّق عنه أصحابُه [1] .

وفي سنة تسع وثلاثين ومائتين ، أَمَرَ المُتَوَكِّلُ ببناء حِصْنٍ على البحر بتِنِّيس ، فتَوَلَّى عِمارَته عَنْبَسَة بن إسحاق أمير مصر ، وأَنْفَق فيه وفي حِصْن دِمْياط والفَرَما مالًا عَظيمًا [2] .

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين ، عَذُبَت بُحَيْرَة تِنِّيس صَيْفًا وشِتاءً ، ثم عادَت مِلْحًا صيفًا وشتاءً . وكانت قبلَ ذلك تُقيم ستة أشهر عَذْبة وستة أشهر مالِحَة .

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مائة[c]، وَصَلَت مراكِبُ من صِقِلِّيَّة[d]، فنَهَبُوا مَدينَة تِنِّيس [3] .

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاث مائة ، صِيدَ بأُشْتُوم تِنِّيس حُوت طوله ثمانية وعشرون ذِراعًا ونصف ، من ذلك طول رأسه تسعة أذْرُع ، ودائِر بَطْنِه مع ظهره خمسة عشر ذِراعًا ، وفَتْحَة فَمِه تسعة وعشرون شِبْرًا ، وعرض ذَنَبِه خمسة أَذْرُع ونصف ، وله يَدان يجدِّف بهما ، طول كلّ يد ثلاثة أَذْرُع ؛ وهو أَمْلَس أَغْبَرُ غَليظ الجِلْد ، مُخَطَّط البَطْن ببَياض وسَوَاد ، ولسانُه أحمر ، وفيه خَمل الرِّيش طوله نحو الذِّراع يعمل منه أمْشاط تُشْبه الذبل ، وله عَيْنان كعيني البَقَر ؛ فأَمَرَ أميرُ تِنِّيس أبو إسْحاق ابن تَوْبَة به ، فشُقّ بَطْنُه ومُلِّح بمائة إرْدَبّ مِلْح ، ورُفِع فَكُّه الأعْلى بعُود خَشَب طويل ، وكان الرجلُ يدخل إلى جَوْفه بِقِفاف المِلْح وهو قائِم غير مِنْحنٍ ، وحُمِل إلى القصر حتى يراه[e] العَزيزُ بالله [4] .

---

a) الكندي : جمادى الأولى . b) بولاق : كندر . c) جميع النسخ : وثلاث مائة . d) بعد ذلك عند ابن الأثير : فيها جمع من الفرنج . e) بولاق : رآه .

---

[1] الكندي : ولاة مصر ٢١٨.

[2] نفسه ٢٢٧.

[3] هذا الخبر أورده ابن الأثير بنفس الصيغة في حوادث سنة ٥٤٨هـ (وهو في الأصل هنا ٣٤٨هـ) وهو خطأ من المقريزي في ترتيب سياق الأحداث (الكامل في التاريخ ١١: ١٩٠) ، وصحته أن يرد قبل الخبر الذي يذكر وصول شواني صقلية إلى تنيس سنة ٥٧١هـ.

[4] هذا الخبر أورده ابن إياس ، ولكن جعله في سنة إحدى وثمانين وثلاث مائة ، نقلًا عن كتاب «عجائب العجائب وغرائب الغرائب» لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ابن أبي بكر التلمساني المعروف بابن أبي حَجَلَة ، المتوفى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م ، رواية عن الشيخ أبي القاسم عبد المجيد القرشي (بدائع الزهور ١/١: ١٩٥) .

وفي لَيْلَة الجمعة ، ثامِن عشر ربيع الأوَّل سنة تسع وسبعين[a] وثلاث مائة ، شاهَد أهلُ تِنِّيس تسعة أَعْمِدَة من نار تَلْتَهب في آفاق السَّماء من ناحية الشَّمال ، فخَرَج الناسُ إلى ظاهِر البلد يَدْعون الله تعالى حتى أَصْبَحوا ، وخفيت[b] تلك النِّيران [1].

وفيها صِيدَ ببُحَيْرَة تِنِّيس حُوتٌ طوله ذِراع ، ونصفه الأعْلى فيه رأس وعَيْنان وعُنُق وصَدْر على صورة أَسَد ، ويداه في صَدْره بمَخاليب[c] ، ونصفه الأدْنى صورة حُوت بغير قِشْر ، فحُمِلَ إلى القاهِرَة .

وفي سنة سبع وسبعين[a] وثلاث مائة ، وَلَدَت جارِيةٌ بِنْتًا برَأْسَيْن : أحدهما بوَجْه أبيض منزل[d] ، والآخَرَ بوجه أَسْمَر فيه شهولة ، في كلّ وَجْه عَيْنان ، فكانت تُرْضِعُهُما . وكِلاهُما مُرَكَّب على عُنُق واحِد في جَسَد واحِد بيَدَيْن ورِجْلَيْن وفَرْج ودُبُر ؛ فحُمِلَت إلى العَزيز حتى رآها ، ووَهَب لأُمِّها جملةً ، ثم عادَت إلى تِنِّيس وماتَت بعد شُهور [2].

وفي سنة إحدى وسبعين وخمس مائة ، وَصَلَ إلى تِنِّيس ، من شَواني صِقِلِّيَة ، نحو أربعين مَرْكِبًا ، فحَصَروها يومين وأَقْلَعُوا . ثم وَصَلَ إليها من صِقِلِّيَة ، في سنة ثلاث وسبعين أيضًا ، نحو أربعين مَرْكِبًا ، فقاتَلوا أهل تِنِّيس حتى مَلَكوها . وكان محمدُ بن إسْحاق صاحِب الأُسْطول قد حِيل بينه وبين مَراكِبه ، فتَحَيَّز في طائِفَة من المسلمين إلى مُصَلَّى تِنِّيس ، فلمَّا أَجَنَّهم اللَّيْلُ هَجَم بمن معه البلد على الفِرِنْج وهم في غَفْلَة ، فأَخَذَ منهم مائة وعشرين فقَطَعَ رؤوسهم ، فأَصْبَح الفِرِنْجُ إلى المُصَلَّى ، وقاتَلوا مَنْ بها من المسلمين ، فقُتِلَ من المسلمين نحو السبعين ، وسارَ من بقي منهم إلى دِمْياط . فمالَ الفِرِنْجُ على تِنِّيس، وأَلْقَوا فيها النار فأَحْرَقوها ، وسارُوا - وقد امْتَلأَت أيديهم بالغَنائم والأَسْرَى - إلى جِهَة الإسْكَنْدَرية بعدما أقاموا بتِنِّيس أربعة أيام [3].

ثم لمَّا كان في[e] سنة خمس[f] وسبعين وخمس مائة ، نَزَلَ فِرِنْجُ عَسْقَلان ، في عَشْر حَراريق [4]،

---

a) بولاق : وتسعين . b) بولاق : فخبت . c) بولاق : بمخالب . d) بولاق : مستدير . e) بولاق : لما كانت . f) بولاق : ست .

---

[1] ابن إياس : بدائع الزهور ١/١: ١٩٥ وفيه أن ذلك كان في سنة ثمان وسبعين .

[2] نفسه ١/١: ١٩٤- ١٩٥ .

[3] لم يذكر المقريزي هذه الحوادث في السلوك !

[4] حَرّاقة جـ . حراريق وحَرّاقات : نوع من السفن الحربية التي تستخدم للرمي بالنيران والنِّفْط بغرض إحراق سفن العدوّ ، وهي تلي الشَّواني في الأهمية ، وكانت من لواحق المراكب الحربية الكبيرة التي لا تسير بدونها حماية لها.=

على أعْمَال تِنِّيس ، وعليها رَجُلٌ منهم يُقال له الفر[a]، فأَسَرَ جماعَةً . وكان على مصر الملكُ العادِلُ من قِبَل أخيه الملك النَّاصِر صَلاح الدين يُوسُف عندما سارَ إلى بلاد الشَّام . ثم مضى الفر[a]، وعادَ فأَسَر ونَهَب ، فثارَ به المسلمون وقاتَلوه ، فظَفَّرَهم/ الله به وقَبَضُوا عليه ، وقَطَعُوا ١٨١:١ يديه ورجليه ، وصَلَبُوه .

وفي سنة سبع وسبعين وخمس مائة ، انْتَدَب السُّلْطان لعِمارَة قَلْعة تِنِّيس وتجديد الآلات بها ، عندما اشْتَدَّ خَوفُ أهْل تِنِّيس من الإقامة بها ، فقَدَّر لعمارة سُورها القَديم - على أساساته الباقية - مَبْلغ ثلاثة آلاف دينار عن ثَمَن أصناف وآجر [١].

وفي سنة ثمانٍ وثمانين وخمس مائة ، كُتِب بإخلاء تِنِّيس ونَقْل أهْلها إلى دِمْياط ، فأُخْلِيَت في صَفَر من الذَّراري والأَثْقال ، ولم يَبْق بها سوى المقاتِلَة في قَلْعَتِها [٢].

وفي شَوَّال من سنة أربعٍ وعشرين وستّ مائة ، أَمَرَ الملكُ الكامِلُ محمد بن العادِل أبي بكر بن أيُّوب بهَدْم مَدينة تِنِّيس ، وكانت من المُدُن الجَليلَة ، تُعْمَل بها الثِّياب الشُّرْب[b]، وتُصْنَع بها كُسْوَة الكَعْبَة [٣].

قال الفاكِهِيُّ في كتاب «أخبار مَكَّة» : ورأيتُ كُسْوَةً ممَّا يلي الرُّكْن الغربي - يعني من الكَعْبَة - مكتوبًا عليها :

«مِمَّا أَمَر به السَّرِيُّ بن الحكَم وعبد العَزيز بن الوَزير الجَرَوي ، بأَمْر الفَضْل
ابن سَهْل ذي الرِّياسَتَيْن وطاهِر بن الحسين ، سنة سبع وتسعين ومائة» [٤].

ورأيتُ شُقَّةً من قَباطِي [٥] مصر في وَسَطِها ، إلَّا أنَّهم كَتَبوا في أرْكان البَيْت بخَطٍّ دَقيقٍ أسْوَدَ :
«مِمَّا أَمَرَ به أميرُ المؤمنين المأمُون سنة ستٍّ ومائتين» .

---

a) كذا في الأصل ، وفي بولاق المعز وهو اسم غير واضح . b) بولاق : الشربية .

=واستخدم هذا النوع من السفن الحربية بكثرة في مياه البحر المتوسط في زمن الحروب الصليبية (درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ٣٢-٣٧) .

[١] المقريزي : السلوك ١ : ٧٢.

[٢] نفسه ١ : ١١١.

[٣] نفسه ١ : ٢٢٤؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٧٩ وذلك حتى لا تقع في أيدي الفرنج؛ وفيما يلي ٤٩١.

[٤] انظر فيما يلي ٦١٢.

[٥] القباطي نسبة إلى أقباط مصر . نسيج يمتاز بأن زخارفه تتكوّن من لُحمات غير ممتدة في عرض المنسوج وغير منقطعة ويعرف أيضًا بـ«التبستري Tapestry» (أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٧٣) .

ورَأَيت كُسْوةً من كُسا المَهْدي مكتوبًا عليها :

«بِسْم الله ، بَرَكَة من الله لعَبْد الله المَهْدي محمد أَمير المؤمنين ، أطالَ الله بقاءَه ، مِمَّا أَمَرَ به إسماعيلُ بن إبْراهيم أن يُصْنَع[a] في طِراز تِنِّيس ، على يدي الحَكَم بن عُبَيْدَة سنة اثنتين وستين ومائة» .

ورَأَيْتُ كُسْوَة من قَباطي مصر مَكْتوبًا عليها :

«بِسْمِ الله ، بَرَكَة من الله ، مِمَّا أَمَرَ به عبدُ الله المَهْدي محمد أمير المُؤْمنين ، أصْلَحَه الله ، محمد بن سُلَيْمان أن يَصْنَع[a] في طِراز تِنِّيس كُسْوة الكَعْبَة ، على يدي الخَطَّاب بن مَسْلَمَة عامِله سنة تسعٍ وخمسين ومائة»[1] .

قال المُسَبِّحيُّ في حوادِث سنة أربع وثمانين وثلاث مائة : وفي ذي القعدة وَرَدَ يحيى بن اليَمان من تِنِّيس ودِمْياط والفَرَما بهَدِيَّته ، وهي أسفاطٌ وتُخُوتٌ وصَناديقُ مال ، وخَيْلٌ وبِغالٌ وحَمير ، وثلاثُ مَظال ، وكُسْوَتان للكَعْبَة[2] .

وفي ذي الحِجَّة سنة اثنتين وأربع مائة ، وَرَدَت هَدِيَّةُ تِنِّيس الوارِدَة في كلِّ سنة : منها خمس نُوق مُزَيَّنَة ، ومائة رأس من الخَيْل بسُرُوجها ولُجُمها ، وتَجافِيف وصِياغات[b] عِدَّة ، وثلاث قِباب دَيبقية بمَراتِبها ، ومَنْجوقات وبُنُود ، وما جَرَى الرَّسْمُ بحَمله من المَتاع والمال والبَزّ .

ولمَّا فُقِدَ[c] الحاكِمُ ، اسْتدعت أُخْتُه السَّيِّدَة سَيِّدة المُلْك ، إلى عامِل تِنِّيس عن الحاكِم ، بأن يحمل مالًا كان اجْتَمَع قِبَله ، ويُعَجِّل تَوْجيهه ، وقيل إنَّه كان ألف ألف دينار وألْفَيْ ألف دِرْهَم ، اجْتَمَعَت من ارْتِفاع البَلَد لثلاث سنين ، وأَمَرَه الحاكِمُ بتَرْكِها عنده فحَمَل ذلك إليها ، وبه اسْتَعانَت على ما دَبَّرَت[3] .

وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة ، وَرَدَ الخَبَرُ على الخَليفَة الظَّاهِر لإعْزاز دين الله أبي هاشِم عليّ بن الحاكِم بأمْر الله ، أنَّ السُّوْدَانُ وغيرهم ثارُوا بتِنِّيس وطَلَبُوا أرْزاقَهَم ، وضَيَّقُوا على العامِل

---

a) الأصل : بن بصيع . b) بولاق : صناعات . c) بولاق : قدم .

---

[1] لم أجد هذا النص ولا النص الآتي بعد قليل فيما نشره وستنفلد من تاريخ الفاكهي .

[2] المسبحي : نصوص ضائعة ١٤؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ : ٢٨٣؛ وفيما يلي ١ : ٢٩٢ .

[3] نفسه ٣٠؛ نفسه ٢ : ٩١ .

حتى هَرَب ، وأنّهم عاثُوا في البَلَد وأَفْسَدُوا ، ومَدُّوا أَيْديهم إلى النَّاس ، وقَطَعُوا الطُّرُقات ، وأَخَذوا من المُوْدِع ألفًا وخمس مائة دينار . فقامَ الجَرْجَرائي وقَعَد ، وقال : كيف يُفْعَلُ هذا بخِزانَة السُّلْطان ؟ وساءَنا فِعْلُ هذا بتِنّيس أو بَيْت المال ، وسَيَّر خمسين فارِسًا للقَبْض على الجُناة [1] .

ومازالت تِنّيسُ مَدينَةً عامِرَةً ، ليس بأرْض مصر مَدينَةٌ أحسن منها ، ولا أَحْصَن من عِمارَتها ، إلى أن خَرَّبَها الملكُ الكامِلُ محمد بن العادِل أبي بكر بن أَيُّوب ، في سنة أربع وعشرين وستّ مائة ، فاستمرَّت خَرابًا ، ولم يَبْقَ منها إلّا رُسومُها في وَسَط البُحَيْرَة [2] .

وكان من جُمْلَة كورة تِنّيس : بُورا ، ومَناها [a] ، وأبْوان ، وشَطَا . وبُحَيْرَتُها الآن يُصاد منها السَّمَك ، وهي قليلة العُمْق يُسار فيها بالمَعادي ، وتَلْتَقي السَّفينتان هذه صاعِدَة وهذه نازِلَة بريحٍ واحِدَة ، وقَلْع كلٍّ واحِدَة منهما مملوءٌ بالرِّيح ، سَيْرُهما في السُّرْعَة مُسْتوٍ .

وبوَسَط [b] البُحَيْرَة عِدَّةُ جَزائِر تُعْرف اليوم بالعُزَب (جمع عُزْبَة بضم العين المهملة وزاي ثم باء مُوَحَّدة) ، يسكُنُها طائِفَةٌ من الصَّيّادين وفي بعضها مَلّاحات يُؤْخذ منها مِلْحٌ عَذْبٌ لذيذ مُلوحته ، وماؤُها مِلْحٌ وقد يَحْلو أيام النِّيل .

تُونَـة : وكان من جُمْلة مُعامَلَة [c] مَدينَة تِنّيس قَرْيَةٌ يُقال لها تُونَة ، يُعْمَل بها طِرازُ تِنّيس ، ويُصْنَع بها من جُمْلة الطِّراز كُسْوَة الكَعْبَة أحْيانًا [3] .

قال الفاكِهِيّ : ورَأَيْتُ أيضًا كُسْوة لهارُون الرَّشيد ، من قَباطِي مصر ، مَكْتوبًا عليها :

«بِسْم الله ، بَرَكَةٌ من الله للخَليفَة الرَّشيد عبد الله هارُون أمير المؤمنين ، أَكْرَمه الله ، مِمّا أَمَرَ به الفَضْلُ بن الرَّبيع أن يُعْمَل في طِراز تُونَة سنة تسعين ومائة» [4] .

---

a) بولاق : منها . b) بولاق : توسط . c) بولاق : عمل .

---

[1] المسبحي : أخبار مصر ٥٧؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٥٧ .

[2] النويري : نهاية الأرب ٢٩ : ١٣٩ - ١٤٠؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٧٩؛ المقريزي : السلوك ١ : ٢٢٤ .

[3] تونة : يدل على موقعها اليوم الجزيرة التي تعرف بجزيرة سيدي عبد الله بن سَلّام الواقعة في بحيرة المنزلة شرقي بلدة المطرية وعلى بعد أربعة كيلومترات منها ، ولاتزال آثار أطلال هذه القرية ظاهرة بالجزيرة باسم كوم ابن سلام (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٦٦٢؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٧٩؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ١٩٨ - ١٩٩؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 61) .

[4] لم أعثر على هذا النص فيما نشره وستنفلد من تاريخ الفاكهي .

سَمْناي : قَرْيَة من قُرَى تِنِّيس ، غَلَبَت عليها بُحَيْرَةُ تِنِّيس فصارَت جَزيرَة [١] . فلمَّا كان في شهر ربيع الأوَّل سنة سبع وثلاثين وثمان مائة ، كُشِفَ عن حِجارَة وآجُر بها ، فإذا غِضارات[a)٢] زُجاج كثيرة مكتوبٌ على بعْضها اسْم الإمام المُعِزّ لدين الله ، وعلى بَعْضِها اسْم الإمام العَزيز بالله نِزار ، ومنها ما عليه اسْم الإمام الحاكِم بأَمْر الله ، ومنها ما عليه اسم الإمام الظَّاهر لإعْزاز دين الله ، ومنها ما عليه اسْم المُسْتَنْصِر ، وهو أَكْثَرُها ، أَخْبَرني بذلك من شاهَدَه ورَآه .

بُورا : كانت فيما بين تِنِّيس ودِمْياط ، وإليها يُنْسَب السَّمَك الذي يُقالُ له «البُوري» ، وإليها
١ يُنْسَب/ أيضًا بنو البُوري الذين كانوا بالقاهِرَة والإسْكَنْدَرية [٣] .

وفي سنة عشر وستّ مائة ، وَصَل العَدُوُّ إليها بشَوانيه وسَباهَا ، فقَدِمَت إليها القَطائِعُ التي كانت علي رَشيد ، فسارَ عنها العَدُوّ [٤] .

القَسُّ[b)] ـ بفَتْح القاف وبعدها سِين مهملة ـ : بَلَدٌ يُنْسَب إليها الثِّيابُ القَسِيَّة ، آثارُها إلى اليوم باقية على البَحْر المِلْح فيما بين السَّوَّادَة والوَرَّادَة ، وبُعْدها من مَدينَة الفَرَما قَريب من ستة بُرُد في البَرّ [٥] .

---

a) بولاق : عضادات . b) بولاق : القيس .

---

[١] وترد في المصادر بالصيغ الآتية : سمناه وسمناوه ، كانت تقع في جزيرة ببحيرة المنزلة واندثرت الآن ، ويدل على موقعها جزيرة كوم الدهب الواقعة في البحيرة شرقي بلدة فارسكور وعلى بعد ١١ كيلومترًا منها (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١:٢٨١) .

[٢] الغضارات ، هي الصَّنج الزجاجية التي تستخدم كعيارات وزن وكيل ويطبع بها على الأواني لبيان أحجامها المختلفة ، أو لتحديد وزن الدنانير والدراهم (راجع ، Jungfleisch, H., «Jetons (ou Poids) en verre de l'Imam al-Montazar», *BIE* XXXIII (1950-51), pp. 539-74; Balog, P. «Fatimid Glass Jetons: Token Currency or Coin - Weights?», *JESHO* XXIV (1981), pp. 93-104; id., «The Fatimid Glass Jeton», *Annali Dell'Istituto Italiano* 18-19 (1971-72), pp. 175-264, 20 (1973), pp. 121-212, Contadini, A., *Fatimid Art at the Victoria and Albert Museum,* London - V & A Publications 1998, pp. 104-108؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٦٣٩-٦٤٠) ولم يذكر المقريزي هذا الخبر في السلوك .

[٣] بورا ويقال أيضًا بوره . مدينةٌ قديمة كانت تقع على الشاطئ الغربي لفرع دمياط ، ومكانها اليوم القرية المعروفة بكفر البطيخ إحدى قرى مركز شربين بمحافظة الغربية على بعد سبعة كيلومترات جنوب غربي دمياط وتبعد عن ساحل البحر المتوسط مسافة ثمانية كيلومترات . (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١:١٧٦-١٧٩) .

[٤] المقريزي : السلوك ١: ١٩٥ .

[٥] القَسّ . أحد المدن الساحلية الشرقية القديمة ضمن أرض الجفار بين الفَرَما والعريش ، يعرف موضعها اليوم باسم القَلْس على ساحل البحر المتوسط شمال شرقي محطة بئر العَبْد (ياقوت : معجم البلدان ٤:٣٤٦-٣٤٧؛ محمد =

وهناك تلٌّ عَظيمٌ من رَمْل خارج في البحر الشَّامي ، يَقْطَع الفِرنْج عنده الطريق على المارّة ، وبالقُرْب من التَّل سِباخ ، يَنْبُت فيه مِلْحٌ يحمله العُرْبان إلى غَزَّة والرَّمْلَة ، وبقُرْب هذا السِّباخ آبارٌ يُزْرَع عندها مَقاثي لعُرْبان تلك البَوادي .

ذِكْرُ مَدينة صَـا

قال ابنُ وَصِيف شاه : ولمَّا قَسَم قُبْطيم بن مِصرايم الأرض بين أُشْمون[a] وأَتْريب وقِفْط وصَا ، انتقلَ كلُّ واحِد إلى قِسْمِه وحَيِّزه ، فخَرَجَ صَا بأهْله ووَلَده وحَشَمِه إلى حَيِّزه - وهو بَلَد البُحَيْرَة والإسْكَنْدَرية - حتى انْتَهَى[b] إلى بَرْقَة[c]، ونَزَلَ مَدينَة صَا قبل أن تُبْنَى الإسْكَنْدَرية . وكان صا أصغر وَلَد أبيه وأَحَبُّهم إليه ، فلمَّا ملك حَيِّزَه أَمَرَ بالنَّظَر في العِمارات وبناء المَدائِن والبُلْدان والهَياكِل ، وإظْهار العَجائِب ، كما صَنَعَ إخْوته ، وطَلَبَ الزِّيادَة في ذلك .

وكان[d] مَرْهون الهِنْدي[e] صاحِب بنائه[f]، فبَنَى له[g] من حَدِّ صَا إلى حدِّ لُوبِيَة ومَراقِيَة على البحر أعْلامًا ، وجَعَلَ على رُؤوس تلك الأعلام مَرائي من أخْلاط شَتَّى : فكان منها ما يَمْنَع من دَواب البحر وأَذاها ، ومنها ما إذا قَصَدَهم عَدُوٌّ من الجَزائِر وأصابَها الشَّمْس ، أَلْقَت شُعاعًا على مراكِبهم فأَحْرَقَتْها . ومنها ما يَرَى المَدائن التي تُحاذيهم من عَدْوَة البحر وما يَعْمَله أهلُها . ومنها ما يُنْظَر منها[h] إلى إقْليم مصر ، فيعلم منه ما يَخْصُب وما يَجْدب في كلِّ سنة .

وجَعَلَ فيها حَمَّامات تَقِد من نفسها ، وجَعَلَ مُسْتَشْرَقات ومُتَنَزَّهات . وكان ينزل كلَّ يوم منها في مَوْضِع بمَن يَخُصّه من خَدَمِه وحَشَمِه ، وجَعَلَ حَواليها بَساتين ، وسَرَّح فيها الطُّيور المُغَرِّدَة والوَحْش المُسْتَأْنَس والأنهار المُطَّرِدَة والرِّياض المونِقَة . وجَعَل شُرُفاتَ قُصوره من حِجارة مُلَوَّنة ، تَلْمَع إذا أصابَتْها الشَّمْس ، فيَنْشُر شعاعُها على ما حَوْلها ، ولم يَدَع شيئًا من آلة النِّعْمَة والرَّفاهية إلَّا استعمله . فكانت العِمارَةُ مُمْتَدَّة في رمال رَشيد ورِمال الإسْكَنْدَرية إلى بَرْقَة . وكان الرجلُ

---

a) الأصل : أشمن . b) الأصل : تنتهي . c) عند النويري نقلا عن ابن وصيف شاه . وهو بلد البحيرة وما يليها إلى برقة . d) بولاق : قال والتصويب من النويري . e) كذا في الأصل وعند النويري وفي تعليقات Wiet: المهندس . f) بولاق : بابه . g) ساقطة من بولاق . h) بولاق : فيها .

= رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٩٦) .

يُسافِر في أرْض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكِه والخَيْرات ، ولا يَسير إلّا في ظِلال تَسْتُره من الشَّمْس . وعَمِلَ في تلك الصَّحارِي قُصورًا ، وغَرَس فيها غُروسًا ، وساقَ إليها من النِّيل أنْهارًا ، فكان يُسْلَك من الجانِب الغربي إلى حَدّ الغَرْب في عمارة مُتَّصِلة . فلمَّا انْقَرض أولئك القَوْم بَقِيَت آثارُهم في تلك الصَّحاري ، وخَرِبَت تلك المَنازِل ، وبادَ أهلُها . ولا يزال من دَخَل تلك الصَّحاري يَحْكي ما رآه فيها من الآثار والعجائب [1] .

قال مُؤلِّفُه : حدَّثني الثِّقَةُ عمَّن دَخَل مَدينَة صا ومَشَى في خَرابِها [2] ، فإذا هو بلَبِنَة طولُها أربعة أشبار ، فتناوَلَها وأَخَذَ يتأمَّلها ، ثم كَسَرها ، فإذا فيها سُنْبُلَة قَدْر شبر وافِر كأنَّها كما حُصِدَت ، وفَرَكَها بيده ، فخَرَجَ منها قمحٌ أبيض كبارٌ حَبُّه جدًّا ، في قَدْر حب اللُّوْبيا ، فأَكَلَه كلّه فلم يجد فيه تغيرًا .

ودَخَل آخر إليها قُبَيْل سنة تسعين وسبع مائة ، وأَخَذَ منها لَبِنَة طولها ذراع ونصف في عرض ذراع ، فكَسَرَها ، فإذا فيها سُنْبُلَة قَمْح ثَخِن كلّ قَمْحَة منها في مقدار ما يكون أكبر من الحِمِّص ، فلم يَطق كَسْرَه إلّا بعدما رَضَّه بالحجارة رَضًّا .

ووُجد بصَا صَنَمٌ لطيفٌ طوله أُصْبُع ، فاتَّفَقَ أنَّه أُلْقي في خابية ماءٍ فصارَ خَمْرًا ؛ وكان ذلك عند رَجُلٍ من تِنِّيس ، فصَلُحَت حالُه من بَيْعه ذلك الخَمْر . فطَلَبَه الأميرُ الأَوْحَد مُسْتَوْلي تِنِّيس ، ومازالَ به حتى أَخَذَ الصَّنَمَ منه .

رَمْلُ الغَرابي [3]

اعْلَم أنَّ هذا الرَّمْل مُمْتَدٌّ في الأرْض ، ويُسَمِّيه بعضُهم الرَّمل الهَبير ، وطُولُه من وَرَاء جَبَلَ طَيّ إلى أن يَتَّصِل مَشْرِقًا بالبحر ، ويَمْضي من وَرَاء جَبَل طَيّ إلى أرض مصر ، ثم إلى بلد النُّوبَة ، ويمتدُّ إلى البحر المُحيط مسيرَة خمسة أشهر .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨١- ٨٢.

[2] صا . مدينة قديمة كانت تقع في الحَوْف الغربي لمصر تعد من أعمال الغربية . أطلق عليها في العهد العثماني صا الحجر نسبة إلى ما تخلّف من أطلالها من بقايا أحجار معبدها القديم ، وتقع اليوم بمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية (ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٨٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/ ٢ : ١٢٦؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 116) .

[3] كانت الغرابي أحد محطّات البريد بين مصر وغزّة غربي بلدة قَطْيا (قطية) ، ومكانها اليوم حوض أبو غرب في رمال دبة الغرابيات الواقعة جنوبي آثار مدينة الفَرَما وعلى بعد ١١ كيلومترا منها داخل محافظة شمال سيناء . (ياقوت : معجم البلدان ٤ : ١٩٠؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٨٩) .

ومنه عِرْقٌ يَضْرب من القادِسيَّة إلى البَحْرَيْن ، فيَعْبُر البَحْرَيْن ، فيمُرّ على مَشارِق خُوزِسْتان وفارِس إلى أن يرد سِجِسْتان ، ويمرُّ مُشرِّقًا إلى مَرْو آخِذًا على جَيْحون في بَرِّيَّة خُوارَزْم ، ويأْخُذ في بلاد الخَزَلجِيَة[a] إلى الصِّين والبَحْر المحيط في جِهَة الشَّرْق ؛ وهو ، على ما وَصَفْته وسُقْته ، من المحُيط بالمَشْرق إلى المحُيط بالمَغْرب ، وفيه جِبالٌ عِظام لا تُرْتَقَى ، وبعضُه في أرْضٍ سَهْلَة يَنْتَقِل من مكانٍ إلى مكان ، ومنه أصْفَر لَيِّنُ اللَّمْس ، وأحمر قاني[b] وأزْرَق سَماوي ، وأسْودَ حالِك ، وأكْحَل مُشْبَّع كالنِّيل ، وأبْيَض كالثَّلْج ، ومنه ما يَحْكِي الغُبارَ نُعومَةً ، ومنه خَشِن جَرِيش اللَّمْس .

١٨٣:١ وزَعَمَ بعضُهم أنَّ رَمْلَ الغَرابي/ وما يتَّصل به من حَدِّ العَريش إلى أرْض العَبَّاسة ، حادِث . وذُكِرَ في سَبَب كَوْنه خَبَرٌ فيه مُعْتَبَر ، وهو أنَّ شَدَّاد بن هَدَّاد بن شَدَّاد بن عاد ، أَحَد الملوك العادِية ، قَدِمَ إلى مصر وغَلَبَ بكَثْرَة جُيوشه أُشْمون[c] بن مِصر بن بَيْصَر بن حام بن نُوح مَلِك مصر ، وهَدَم ما بَنَاه هو وآباؤه ، وبَنَى لنَفْسه أهْرامًا ، ونَصَبَ أعْلامًا زَبَرَ عليها الطِّلَّسْمات ، واخْتَطَّ مَوْضِع الإسْكَنْدَرية ؛ وأقامَ هُناكَ دَهْرًا إلى أن نَزَلَ به وبقَوْمِه وَباءٌ ، فخَرَجُوا من أرْض مصر إلى جِهَة وادي القُرَى ، فيما بين المَدِينَة النَّبَويَّة وأرْض الشَّام ، وعَمَّرُوا المَلاعِب والمَصانِع لحَبْس المياه التي تَجْتَمع من الأمْطار والسُّيول ، فكانَ سَعَة كلِّ مَصْنَع ميلًا في ميل ، وغَرَسُوا النَّخْلَ وغَيْرَه ، وزَرَعُوا أصْنافَ الزِّراعات فيما بين رايَة وأيْلَة إلى البَحْر الغَرْبي .

وامتدَّت منازِلُهم من الدُّثْنِيَة إلى العَريش والجِفار ، في أرْض سَهْلة ذاتَ عُيون تَجْري وأشْجار مُثْمِرَة وزُروع كثيرة ، فأقامُوا بهذه الأرض دَهْرًا طويلًا ، حتى عَتَوْا وبَغَوْا وتَجَبَّروا وَطَغَوا ، وقالوا : نحن الأكْثَرون قُوَّة الأَشَدُّون الأغْلَبون ؛ فسَلَّطَ الله عليهم الرِّيحَ فأهْلَكَتْهم ، ونَسَفَت مَصانِعَهم ودِيارَهم حتى سَحَلَتْها رَمْلًا [1] .

فما تراه من هذه الرِّمال التي بأرض الجِفَار ـ ما بين العَبَّاسَة حيث المَنْزَلَة التي تُعْرَف اليوم بالصَّالحِيَّة إلى العَرِيش ـ من رَمْل مَصانِع العادِية وسَحُالَة صُخورهم ، لمَّا أهْلَكَهُم الله بالرِّيح ، ودَمَّرَهم تَدْميرًا . وإيَّاك وإنْكار ذلك لغَرابته ، ففي القُرْآن الكَريم ما يَشْهَد لصِحَّته ، قال تعالى :

---

a) الأصل : الخولنجية . b) ساقطة من بولاق . c) الأصل : أشمن .

---

[1] قارن مع النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧١.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الآيتان ٤١، ٤٢ سورة الذاريات]. أي كالشَّيء الهَالِك البالي؛ وقيل الرَّمِيمُ نَبَاتُ الأرْض إذا يَبِس ودَيِس، وقيل الوَرَقُ الجاف المتحطِّم مثل الهَشيم؛ والرَّميمُ الخَلَق البالي من كلّ شيء.

مَراقِيَـــــة: مَدينَةُ مَراقِيَة كُورَة من كُورِ مصر الغَرْبية، وهي آخِر حَدّ أرْض مصر، وفي آخر أرض مَراقِيَة تَلْقَى أرْض انْطابُلُس وهي بَرْقَة [1]، وبُعْدُها من مَدينَة سَنْتَرِيه [2] نحو من بريدَيْن. وكان قُطْرًا كبيرًا به نَخْلٌ كثيرٌ ومَزارِعُ، وبه عيونٌ جارية، وبها إلى اليوم بقيَّة، وثَمرُها جَيِّد إلى الغايَة، وزَرْعُها إذا بُذِر يُنْبِت من الحَبَّة الواحِدَة من القَمْح مائة سُنْبلَة، وأقلّ ما تُنْبِت تعسون سُنْبُلَة، وكذلك الأُرْز بها فإنّه جَيِّد زاكٍ، وبها إلى اليوم بَساتين متعدِّدة.

وكانت مَراقِيَة، في القَديم من الزَّمان، يسكُنها البَرْبَرُ الذين نَفاهُم دَاود ـ عليه السَّلام ـ من أرْض فِلَسْطين، فنَزَلَها منهم خَلائِقُ، ومنها تَفَرَّقَت البَرْبَرُ: فنَزَلَت زَنَاتَة ومُغيلة وضَرِيسَة الجِبال، ونزلت لَواتَة أرْضَ بَرْقَة، ونَزَلَت هَوَّارَة طَرابُلُس المَغْرب، ثم انْتَشَرَت البَرْبَرُ إلى السُّوس [a].

فلما كان في شَوَّال سنة أربعٍ وثلاث مائة من سني الهجرة المحمديَّة جَلَا أهل لُوبيَة ومَراقِيَة إلى الإسْكَنْدَرية خوفًا من صاحِب بَرْقَة [3]؛ ولم تَزَل في اخْتلالٍ إلى أن تَلاشَت في زَمَنِنا، وبها بعد ذلك بقيَّة جَيِّدَة.

كُومُ شَريكٍ ـ هذا المكانُ بالقُرْب من الإسْكَنْدَرية، له ذِكْرٌ في الأَخْبَار، عُرِف بشَريط ابن سُمَيّ بن عَبْد يَغُوث بن جَزْء المُرادي الغُطَيْفي، من الصَّحابَة رضي الله عنهم [4]؛ وكان على مُقَدِّمَة عَمْرو بن العَاص في فَتْح الإسْكَنْدَرية الثاني، فعندما كَثُرَت جَمائِعُ الرُّوم، انْحازَ شَريك إلى هذا الكُوم بأصْحابِه، ودَافَع الرُّومَ حتى أَدْرَكه عَمْرو.

---

a) بولاق: السويس.

---

[1] ياقوت: معجم البلدان ٥: ١٩٤؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٤٠٩.

[2] مدينة سنتريه هي واحة سيوة (انظر فيما يلي ٦٣٧).

[3] الكندي: ولاة مصر ٢٩٢.

[4] انظر السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٢٠٩.

وكُوم شَريك هذا من جُمْلَة حَوْف رَمْسِيس [١].

غِيـــفَا ـ قَـرْيةٌ تُقارِب مَدينَة بِلْبَيْس، من الفُسْطاط إليها مرحلتان، كانت مَنْزِلَة قافِلَة الحاج [٢]. ويُقالُ إنَّ صُواعَ المَلِك الذي فُقِد من مَدينَة مصر، وُجِدَ في رِحال إخْوَة يُوسُف عليه السَّلام بغِيفَا هذه.

سَمَنُّود [٣] ـ كان بها بِرْبا عليه هَيئَة دَرَقَة فيها كِتابة حَكَى ابنُ زُولاق، عن أبي القاسِم مَأْمون العَدْل، أنَّه نَسَخَ هذه[a] الكِتابَة في قِرْطاس وصَوَّرَه على دَرَقَة، قال: فما كُنْتُ أَسْتَقْبِل به أحَدًا إلَّا وَلَّى هارِبًا.

وكان بها أيضًا تماثيلُ وصُوَرُ من يَمْلِك مصر، فيهم قومٌ عليهم شاشِيَّات، وبأَيْديهم الحِراب، وعليهم مكتوبٌ «هَؤلاء يَمْلِكون مِصْر».

---

a) ساقطة من بولاق.

---

[١] كُوم شَريك أحد قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البُحَيْرة (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٢: ٣٣٩–٣٤٠) وأطلق العرب لفظ الحوف بمعنى الجانب على بعض الأقاليم المصرية، حيث أطلقوا اسم حوف رمسيس على القرى الواقعة جنوب إقليم البحيرة نسبة إلى مدينة رمسيس التي كانت قاعدة لبلاد هذا الحوف وهي الآن إحدى قرى مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة (نفسه ١: ٢٣٥).

[٢] غِيفَا (غيفة). أحد مدن الحَوْف الشرقي ـ وهي المدن الواقعة في الجانب الشرقي من الوجه البحري ـ وحُرِّف اسمها في العصر العثماني إلى غيتة، وهي الآن إحدى قرى مركز بلبيس بمحافظة الشرقية. (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١/١: ١٠٣).

[٣] سَمَنُّود. من مدن الوجه البحري تقع على الجانب الغربي لفرع دمياط على مسافة ثمانية كيلومترات شرق مدينة المحلة الكبرى. ذكرها الجغرافيون العرب بين القرنين الثالث والسادس للهجرة كمدينة ذات نشاط اقتصادي هام، وأصبحت في أعقاب الإصلاحات الإدارية لأمير الجيوش بدر الجمالي إقليمًا مستقلًّا باسم «السَّمَنُّودية»، وهي الآن إحدى مدن محافظة الغربية (ابن مماتي: قوانين الدواوين ١٤٨، ١٦٢؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣٨٣؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٢: ٤٦–٥٠، ١٦: ٦٥–٦٦؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٢: ٧١–٧٢؛ Ayman F. Sayyid, *EI* ² art. *Samannûd* VIII, pp. 1066-67).

ذِكْرُ مدينة بِلْبَيْس[١]

وسُمِّيَت في التَّوْرَاة : «أَرْض جاشَان» ، وفيها نَزَلَ يَعْقُوب لمَّا قَدِمَ على وَلَده يُوسُف ـ عليهما السَّلام ـ فأَنْزَله بأَرْض جاشان [a]، وهي بِلْبَيْس إلى العَلاقِمَة ، من أجل مَواشيهم .

قال ابنُ سَعيد : بِلْبَيْس ، وإليها يَصِلُ حُكْمُه إلى الوَرَّادَة ، وهي آخِر حَدّ مصر ؛ وإليها تنتهي المُعامَلَة بفِضَّة السَّواد ، ويصير الناسُ يتعامَلون بالفُلوس بعدَها إلى العَريش ، وهي أوَّل الشَّام ، وقيل هي آخِر مصر .

وقال أبو عُبَيْد البَكْري : بِلْبَيس ـ بفَتْح أوَّله وإسْكان ثانيه بعده باء مثل الأولى مفتوحة أيضًا وياء ساكِنَة وسين مُهْمَلَة ـ وهو مَوْضِعٌ قُرْب[b] مصر معروف[٢].

وذَكَرَ ابنُ خُرداذَبَه في كتاب «المَسالِك والمَمالِك» : أنَّ بين بِلْبَيْس ومَدينَة فُسْطاط مصر أربعة وعشرين ميلًا[٣].

وذَكَرَ الوَاقِدِيّ أنَّ المُقَوْقِسَ زَوَّجَ ابنته أرْمانُّوسَة من قُسْطَنْطين بن هِرَقْل ، وجَهَّزَها بأمْوالِها وجَواريها وغِلْمانِها وحَشَمِها ، لتَسير إليه حتى يَبْني عليها في مَدينَة قَيْسارِيَّة [c]بساحِل البحر من الشَّام ، فَبَلَغَها بعدما سارت إليه أنَّ العربَ قد نزلوا على قَيْسارية[c] وهم مُحاصِرون لها . فرَجَعَت[d] إلى بِلْبَيْس وأقامَت بها ، وبَعَثَت حاجِبَها الكبير في ألفَيْ فارِس/ إلى الفَرَمَا ، ليَحْفَظ الطَّريق ، ولا يَدَعَ أحَدًا من الرُّوم ولا غيرهم يَعْبُر إلى مصر .

---

a) بولاق : حاشان . b) بولاق : قريب . (c-c) ساقطة من بولاق . d) بولاق : فخرجت .

---

[١] بِلْبَيْس . مدينة استراتيجية هامة في الوجه البحري تقع على الطريق الموصل من الرملة إلى الفسطاط ، لذلك كانت تقع تحت حصار من يريد قصد العاصمة المصرية ، كما كانت محطة هامة من محطات البريد . كانت قاعدة الحوف الشرقي أيام العرب ، ثم قاعدة الأعمال الشرقية من أيام الدولة الفاطمية وحتى نهاية الدولة الجركسية ، ثم قاعدة ولاية الشرقية إلى سنة ١٨٣٢ حيث حلت محلها مدينة الزقازيق كعاصمة للإقليم لتوسطها بين مدن الولاية . وهي الآن قاعدة مركز بلبيس بمحافظة الشرقية (ياقوت : معجم البلدان ١: ٤٧٩؛ ابن دقماق : الانتصار ٥: ٥١؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٩: ٧٠-٧٨؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/ ١: ١٠٠-١٠١؛ Wiet, G., *EI*² art. Bilbays I, p. 1254) .

[٢] أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٢٧٢-٢٧٣.

[٣] ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٨٠.

وبَعَثَ المُقَوْقِسُ رُسُلَه إلى أطْراف بلادِه ، ممَّا يلي الشَّام ، ألَّا يَتْرُكوا أحدًا يدْخُل أرض مصر ، مخافَةَ أن يَتَحدَّثوا بغَلَبَة المسلمين على الشَّام ، فيَدْخُل الرُّعْبُ في قُلوب عساكِره .

فلمَّا قَدِمَ عُمَر بن الخَطَّاب الجابِيَة ، وصارَ عَمْرو بن العَاص إلى مصر ، نَزَل على بِلْبَيْس - وبها أَرْمانُّوسة ابنةُ المُقَوْقِس - فقاتَل من بها ، وقَتَلَ منهم زُهاء ألْف فارس وأَسَر ثلاثة آلاف ، وانْهَزَم من بقي إلى المُقَوْقِس ، وأُخِذَت أرْمانُّوسَة وجميع مالِها ، وسائِر ما كان للقِبْط في بِلْبَيْس . فأَحَبَّ عَمْرو مُلاطَفَة المُقَوْقِس ، فسَيَّر إليه ابنته أَرْمانُّوسَة مُكَرَّمَة في جَميع مالِها مع قَيْس بن أبي العَاص السَّهْمي ، فسُرَّ بقُدومِها ، ثم سارَ عَمْرو إلى القَصْر[1] .

ولم تَزَل من مَدائِن مصر الكِبار ، حتى نَزَلَ عليها مُرِّي [Amaury] ملكُ الفِرِنْج ، وأَخَذَها عَنْوَةً بعد حِصارٍ طَويل ، وقَتَلَ منها آلافًا .

ولها أَخْبارٌ كثيرةٌ .

وقد خَرِبَت منذ عَهْد الحَوادِث بديار مصر ، بعد سنة ستّ وثمان مائة ، بعدما أَدْرَكْناها وبها عِمارَة كَثيرة ، وفيها عِدَّةُ بَساتين ، وأَهْلُها أصْحاب يَسار ونِعَم سَنِيَّة .

ذِكْرُ بَلَد الوَرّادَة

الوَرَّادَة من جُمْلة الجِفَار .

قال عُبَيْدُ الله بن عبد الله بن خُرْدَاذْبَه في كتاب «المَسَالِك والمَمَالِك» : وصِفَةُ الطَّريق والأرْض من الرَّمْلَة إلى أَزْدود اثنا عشر ميلًا ، ثم إلى غَزَّة عشرون ميلًا ، [a]ثم إلى رَفَح ستَّة عشر ميلًا[a] ثم إلى العَريش أربعة وعشرون ميلًا في رَمْل ، ثم إلى الوَرَّادَة ثمانية عشر ميلًا ، ثم إلى العُذَيْب[b] عشرون ميلًا ، ثم إلى الفَرَمَا أربعة وعشرون ميلًا .

قال الخَليفَةُ المأْمون :

[الوافر]

لَلَيْلُك كان بالمَيْدا ... نِ أَقْصَرُ منهُ بالفَرَما
غَريبٌ في قُرَى مصرَ ... يُقاسي الهَمَّ والسَّدَما

(a-a) زيادة من المسالك . b) بولاق : العريب .

[1] ملخصًا من الواقدي : فتوح مصر والإسكندرية ١٩ - ٣٢.

ثم إلى جُرْجير[a] ثلاثون ميلًا ، ثم إلى الغاضِرَة[b] أربعة وعشرون ميلًا ، ثم إلى مَسْجِد قُضاعَة ثمانية عشر ميلًا ثم إلى بِلْبَيْس أحَد وعشرون ميلًا ، ثم إلى فُسْطاط مَدينَة مصر أربعة وعشرو ن ميلًا [١].

وقال جامِعُ «تاريخ دِمْياط» [٢]: ولمَّا افْتَتَحَ المُسْلمون الفَرَمَا ، بعدما افْتَتَحُوا دِمْياط وتِنِّيس ، سارُوا إلى البَقَّارَة فأَسْلَمَ مَنْ بها ، وسارُوا منها إلى الوَرَّادَة ، فدَخَلَ أَهْلُها في الإسْلام وما حَوْلَها إلى عَسْقَلان [٣].

وقال القاضي الفاضِلُ في «مُتَجَدِّدات» شهر المحرَّم سنة سبع وستين وخمس مائة : وصابَحْنا الوَرَّادَة فبِتْنَا على مِينَا الوَرَّادَة ، ودَخَلْنا الوَرَّادَة فرَأَيْتُ تأريخ مَنارَة جامِعِها سنة ثمان وأربع مائة ، واسْم الحاكِم بأمْر الله عليها .

والوَرَّادَةُ من جُمْلَة الجِفَار ، ويُقالُ أُخِذَ اسمُها من الوُرُود ؛ ولم يَزَل جامِعُها عامِرًا تُقامُ به الجُمُعَة إلى ما بعد السبع مائة .

وبَلَدُ الوَرَّادَة القَديم[c] في شَرْقِي المَنْزِلَة التي يُقالُ لها اليوم الوَرَّادَة[d]، وبها آثارُ عَمائِر ونَخْلٌ قَليل .

الصَّالِحِيَّةُ

هذه البَلْدَةُ اخْتَطَّها المَلكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدين أيُّوب بن الكامِل محمد بن العادِل أبي بَكْر بن أيُّوب بن شَاذي ، بأرْض السَّانِح[e] والعَلاقِمَة ، في أوَّل الرَّمْل الذي بين مصر والشَّام ، وأنْشأ بها قُصورًا وجامِعًا وسُوقًا ، لتكون مَنْزِلَة العساكِر إذا خَرَجُوا من الرَّمْل ، وذلك في سنة أربعٍ وأربعين وستّ مائة [٤].

---

a) بولاق : جرير . b) بولاق : القاهرة . c) بولاق : القديمة . d) بولاق : الصالحية . e) بولاق : المسانح وما أثبته ورد أيضًا عند ابن واصل .

---

[١] ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٨٠، ٢١٩-٢٢٠ وفيما يلي ٦١٤- ٦١٥.

[٢] انظر فيما تقدم ٤٨٠ .

[٣] قارن الواقدي : فتوح مصر والإسكندرية ١٤٨- ١٤٩.

[٤] ابن واصل : مفرج الكروب ٥: ٣٧٩؛ المقريزي: السلوك ١: ٣٣٠. والسانح اسم يطلق على الأرض الواقعة على جانبي الترعة السعيدية في المسافة الواقعة بين ناحيتي سوادة والصالحية بمركز فاقوس بمحافظة الشرقية (أبو المحاسن: النجوم ١: ١٥٠، هـ٣) . والصالحية اليوم إحدى قرى مركز =

ذكر مدينة أيلة [1]

(a ذَكَرَ ابنُ حَبيب أنَّ أُثال ـ بضم أوّله ثم ثاء مثلثة ـ وادي أَيْلَة a)، وأَيْلَة ـ بفتح أوّله ، على وَزْن «فَعْلَة» ـ مَدينةٌ على شاطئ البَحْر فيما بين مصر ومَكَّة ، سُمِّيَت بأَيْلَة بنت مَدْيَن بن إبراهيم عليه السَّلام .

وأَيْلَةُ أوّلُ حَدّ الحِجاز ، وقد كانت مَدينَةً جليلةَ القَدْر على ساحِل البحر المِلْح ، بها التِّجارَة الكثيرة ، وأَهْلُها أخلاطٌ من الناس . وكانت حَدَّ مملكة الرُّوم في الزَّمَن الغابِر ، وعلى ميل منها بابٌ مَعْقود لقَيْصر ، قد كان مَسْلَحَة(b) يأخذون المَكْس . وبين أَيْلَة وبين(c) القُدْس ستّ مَراحِل ، والطُّور الذي كَلَّم اللهُ عليه مُوسَى ـ عليه السَّلام ـ على يَوْم ولَيْلَة من أَيْلَة . وكانت في الإسلام مَنْزِلًا لبني أُمَيَّة ، وأكثرهم مَوالي عُثْمان بن عَفَّان ، وكانوا سُقاةَ الحاج . وكان بها عِلْمٌ كثيرٌ وآدابٌ ، ومَتاجِرُ وأسْواقٌ عامِرَة ، وكانت كثيرةَ النَّخْل والزَّرْع d) .

وعَقَبَة أَيْلَة لا يَصْعَدُ إليها من هو راكِب ، وأَصْلَحَها فائِقٌ ، مَوْلى خُمارَوَيْه بن أحمد بن طُولون ، وسَوَّى طريقَها ورَمَّ ما اسْتَرَمّ منها .

وكان بأَيْلَة مَساجِدُ كثيرة(e) ، وبها كثيرٌ من اليَهُود ، ويَزْعُمون أنَّ عندَهم بُرْدَ النَّبيّ ﷺ ، وأنَّه بَعَثَه إليهم أمانًا ، وكانُوا يُخْرِجُونه رِداءً عدنيًّا مَلْفوفًا في الثِّياب قد أُبْرِزَ منه قَدْر شِبْر فقط .

(a-a) ساقط من الأصل . b) بولاق : فيه مسلحة . c) ساقطة من بولاق . d) بولاق : الزروع . e) بولاق : عديدة .

= فاقوس بمحافظة الشرقية ، ويطلق عليها الصالحية الكبرى لتميزها عن القرى الأخرى التي تحمل اسم الصالحية (علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٣ : ٦- ٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/١ : ١١٢-١١٣ وفيما يلي ١ : ٢٢٧) .

[1] أيلة . ميناء يقع شمال خليج العقبة حلت محله الآن مدينة العَقَبَة ، كان في العصر الإسلامي مركزًا هامًّا لتجمّع الحجّاج القادمين من مصر والشام وكذلك مركزًا تجاريًّا هامًّا ، ورغم أن المدينة كانت تقع عند التقاء الأراضي المصرية والشامية والحجازية ، فإن الجغرافيين العرب كانوا يلحقونها بالشام . وكانت أيلة في فترة الحروب الصليبية مسرحًا لصراع طويل أدى إلى خرابها في نهاية هذه الفترة . وهي تعادل مدينة العقبة الواقعة بشمال خليج العقبة (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٢٩٢- ٢٩٣؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٨ : ١٠٦- ١٠٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ١٣٦؛ Glidden, H.W., *EI*² art. *Ayla* I, p. 807).

ويُقالُ إنَّ أَيْلَة هي القَرْيَة التي ذَكَرَها الله تعالى في كِتابِه العزيز[a] حيث قال : ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الآية ١٦٣ سورة الأعراف] . وقد اخْتُلِف في تَعين هذه القَرْيَة ، فقال ابنُ عَبّاس ـ رضي الله عنهما ـ وعِكْرِمَة والسُّدِّي : هي أَيْلَة ؛ وعن ابن عَبّاس أيضًا أنَّها مَدينَة بين أَيْلَة والطُّور ؛ وعن الزُّهْري أنَّها طَبَرِيَّة .

وقال قَتادَةُ وزَيْدُ بن أَسْلَم : هي ساحِل من سَواحِل الشّام ، بين مَدْيَن وعَيْنُونَة/، يُقالُ لها مقناة .

وسُئِل الحُسَينُ بن الفَضْلُ : هل تَجد في كِتاب الله الحَلال لا يَأْتيك إلَّا قُوتًا ، والحَرام يأتيك جُزافًا[a] جُزافًا ؟ قال : نَعَم في قِصَّة أَيْلَة : ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ﴾ [الآية ١٦٣ سورة الأعراف] .

وكانَ من خَبَرِ أهل القَرْيَة أنَّهم كانوا من بني إسْرائيل ، وقد حَرَّمَ الله عليهم العَمَل في يوم السَّبْت ، فزَيَّن لهم إبْليسُ الحيلَة وقال : إنَّما نُهيتُم عن أَخْذ الحيتان يوم السَّبْت ، فاتَّخِذوا الحياض ، فكانوا يَسُوقون الحيتان إليها يوم الجُمُعَة فتَبْقَى فيها ، فلا يُمْكنها الخُروج منها لقِلَّة الماء ، فيأْخُذونها يوم الأَحَد .

وقيل كان الرَّجُلُ يأْخذ خَيْطًا ، ويضَعُ فيه وَهْقَة ويُلْقيها[b] في ذَنَب الحُوت ـ وهو بتحريك الهاء وإسكانها ـ حَبْلٌ كالطول ، ويجعل في الطَّرَف الآخر من الخَيْط وتَدًا ، ويتركُه كذلك إلى يوم الأَحَد .

ثم تَطَرَّق الناسُ ، حين رَأَوا من صَنَعَ هذا لا يُبْتَلى ، حتى كَثُر الصَّيْدُ للحيتان ، ومُشِيَ به في الأسْواق ، وأَعْلَن الفَسَقَة بصَيْده . فقامَت طائِفَةٌ من بني إسْرائيل وجاهَرَت بالنَّهْي ، واعْتَزَلَت وقالت : لا نُساكِنُكُم . فقسموا القَرْيَة بجِدار ، فأَصْبَح النّاهون ذاتَ يومٍ في مَجالِسهم ،ولم يَخْرُج من المُعْتَدين أَحَدٌ ، فقالوا : إنَّ للناس لشَأْنًا ؛ فعَلَوْا على الجِدار ، فإذا هم قِرَدَة ، فدَخَلوا عليهم ، فَعَرَفَت القِرَدَةُ أَنْسابَها من الإنْس ، فجَعَلَت تأتيهم فتَشُمّ ثِيابَهم وتَبْكي ، فيقول النّاهُون للقِرَدَة : أَلَمْ نَنْهكم ؟ فتقول برأسها : نعم . قال قَتادَةُ : فصارَت الشُّبابُ قِرَدَة ، والشُّيوخُ خنازير ، فما نَجَا إلَّا الذين نَهَوا ، وهَلَكَ سائِرُهم . وقيل إنَّ ذلك كان في زَمَن نَبِيّ الله داود عليه السَّلام .

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : يلقيه .

وقد[a] قيل إنَّ أَيْلَة أَصْلُها إيلْيَاء[b]، وقد وَقَعَ ذِكْرُها في التَّوْراة كذلك.

وقال الشَّريفُ محمد بن أَسْعَد الجَوَّانِيُّ: دُكَّالَة من البَرْبَر بَطْنٌ من المَصامِدَة؛ وقالَت طائِفَةٌ: إنَّ دُكَّالَة وَلَدَ أَيْلَة - ويُقالُ أَيْل - الذين سُمِّيَت به عَقَبَةُ أَيْلَة، وإخوتهم[c] دَغْفَل بن أَيْلَة، وإنَّهم يُعْزَوْن إلى النِّزاريين[d]، ويقولون: نحن من رَبِيعَة الفُرْس، وفي ذلك خِلافٌ عظيمٌ.

وذَكَرَ المَسْعوديُّ أنَّ يُوشَعَ بن نُون - عليه السَّلام - حارَب السَّمَيْدَع بن هَوْبَر[e] بن مالِك العَمْليقي مَلك الشَّام، ببَلَدِ أَيْلَة نحو مَدْيَن، وقَتَلَه واحْتَوَى على مُلْكه، وفي ذلك يقول عَوْفُ بن سعيد الجُرْهُمي:

[الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العَمْلَقِي بن هوبر[f] بأَيْلَة أَمْسَى لحمُه قد تَمَزَّعَا

تَداعَتْ عليه من يَهود جَحافِلٌ ثمانون أَلْفًا حاشِدون[g] ودُرَّعا

وهي أبياتٌ كثيرةٌ[١].

وقال ابنُ إسْحاق: فلمَّا انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إلى تَبوك، أتاه يُحَنَّة بن رُؤْبَة صاحِب أَيْلَة، فصالَحَه وأَعْطاه الجِزْيَة، وأَتاه أَهْلُ جَرْباء وأَذْرُح فأعطوه الجِزْيَة، وكَتَبَ لهم كِتابًا فهو عندهم، وكَتَب لِيُحَنَّة بن رُؤْبَة:

«بِسْم الله الرَّحْمَن الرَّحيم، هذا[h] أَمَنَةٌ من الله ومُحَمَّد النَّبيّ رَسُوله، لِيُحَنَّة ابن رُؤْبَة وأَهْل أَيْلَة، أَساقِفِهم وسائِرِهم[i] في البَرّ والبَحْر، لهم ذِمَّة الله وذِمَّة [محمد][j] النَّبيّ، ومن كان معهم من أَهْل الشَّام وأهل اليَمْن وأهل البَحْر. فَمَن أَحْدَث منهم حَدَثًا فإنَّه لا يَحُول مالُه دونَ نَفْسه، وإنَّه طَيِّبٌ لمن أَخَذَه من النَّاس. وإنَّه لا يَحِلّ أن يُمْنَعوا ماءً يَردونَه[k]، ولا طَريقًا يُريدونَه من بَرّ أو بَحْر. هذا كِتابُ جُهَيْم بن الصَّلْت وشُرَحْبيل بن حَسَنَة، بإذن رَسُول الله ﷺ»[٢].

---

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: إيلياليه. c) بولاق: وآخر أنهم من. d) بولاق: البرير. e) بولاق: هرمز والتصويب من النسخ ومروج الذهب. f) الأصل: هريز، بولاق: هرمز. g) بولاق: حاسرين. h) في السيرة: هذه. i) في السيرة: سفنهم وسيارتهم. j) إضافة من السيرة. k) الأصل وبولاق، يمنعوا ما يريدونه، والتصويب من السيرة.

---

[١] المسعودي: مروج الذهب ١: ٥٦-٥٧.

[٢] ابن هشام: السيرة النبوية ٤: ١٦٩.

وكان ذَلك في سنة تِسع من الهِجرة، ولم تَزل مَدينَةُ أَيْلَة عامِرَةً آهِلَة.

وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة، طَرَقَ عبدُ الله بن إدْريس الجَعْفَري أَيْلَة ـ ومعه بعضُ بني الجَرّاح ـ ونَهَبَها، وأَخَذَ منها ثلاثة آلاف دينار وعِدَّة غِلال، وسَبَى النِّساءَ والأَطْفالَ، ثم إنّه صُرِفَ عن وِلايَة وادي القُرَى، فسارَت إليه سَرِيَّة من القاهِرَة لمُحارَبَته [1].

قال القاضي الفاضِلُ: وفي سنة ستٍّ وستين وخمس مائة، أَنْشَأ الملكُ النّاصِر صَلاحُ الدين يُوسُف بن أَيُّوب مَراكِبَ مُفَصَّلة، وحَمَلَها على الجِمال، وسارَ بها من القاهِرَة في عَسْكَرٍ كَبير لمُحارَبَة قَلْعَة أَيْلَة، وكانت قد مَلَكَها الفِرنْجُ وامْتَنَعوا بها، فنازَلَها في رَبيع الأَوَّل، وأَقامَ المراكِبَ وأَصْلَحَها وطَرَحَها في البحر، وشَحَنَها بالمُقاتِلَة والأَسْلِحَة؛ وقاتَلَ قَلْعَةَ أَيْلَة في البرِّ والبَحْر حتى فَتَحَها في العشرين من شهر ربيعِ الآخر، وقَتَلَ مَنْ بها من الفِرنْج وأَسَرَهُم، وأَسْكَن بها جماعةً من ثِقاتِه، وقَوّاهم بما يَحْتاجون إليه من سِلاحٍ وغيره، وعادَ إلى القاهِرَة في آخر جُمادَى الأُولى [2].

وفي سنة سبعٍ وسبعين، وَصَلَ كِتابُ النّائِب بقَلْعَة أَيْلَة، أَنَّ المَراكِبَ على تَحَفُّظ وخَوْف شَديد من الفِرنْج، ثم وَصَلَ الإبْرِنْس [3] ـ لَعَنَه الله ـ إلى أَيْلَة ورَبَط العَقَبَة، وسَيَّر عَسْكَرَه إلى ناحِية تَبوك، ورَبَط جانِب الشّام لخَوْفه من عَسْكَر يَطْلُبه من الشّام أو مصر. فلمّا كان في شعبان من السنة المذكورة، كَثُرَ المَطَرُ بالجبَل المُقابِل للقَلْعَة بأَيْلَة، حتى صارَت به مِياهٌ اسْتَغْنَى بها أَهْلُ القَلْعَة عن وُرود العَيْنُ مُدَّة شهرين، وتأَثَّرت بُيوتُ القَلْعَة لتَتابُع المَطَر، ووَهَت لضَعْف أساسِها، فتَدارَكَها أَصْحابُها وأَصْلَحُوها.

وذَكَرَ أبو الحَسَن المَسْعُوديُّ في كتاب «أَخْبار الزَّمان ومَنْ أَبادَه الحَدَثان» الكُوكَة، وهم أُمَّة لهم أربعة مُلوك مَلَكوا أَرْض أَيْلَة والحِجاز؛ وبَنَى كلُّ واحِدٍ منهم مَدينَةً سمّاها باسْمه، وجَعَلوا سائِرَ الأَرْض خَيْمات وقَسَموها على ثلاثين كورَة/، وجَعَلوها أربعة أَعْمال لكلِّ عَمَلٍ مَلِكٌ يجلس على مِنْبَر ذَهَب في مَدينَته. و[في كُلٍّ][a] عَمل بِرْبا ـ وهي بَيْت الحِكْمَة ـ وعَمِلَ هَيْكلًا لأَخْذ الكَواكِب، وجَعَلَ فيه أَصْنامًا من ذَهَب، كل صَنَم له مَرْتَبَة.

a) زيادة من المسعودي.

[1] المسبحي: أخبار مصر ٣٤- ٣٥؛ المقريزي: اتعاظ ٢: ١٤٣، وذلك يوم الأحد لأربع خلون من شهر ربيع الآخر.

[2] المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٣٢٠.

[3] هو البرنس أرناط Renauld de Chatillon صاحب الكَرَك (انظر عن حملته في البحر الأحمر فيما يلي ٢: ٨٦).

وكانت الإسْكَنْدَريةُ ، واسْمها رَقُودة ، فجَعَلوا لها خَمْس عشرة كُورَة ، وجَعَلوا فيها كِبار الكَهَنَة ، ونَصَبُوا في هَياكِلها من أصْنام الذَّهَب أكْثَرَ ممَّا في غَيْرِها ، وكان فيها مائتا صَنَم من ذَهَب . وقَسَّموا الصَّعيد على ثمانين كُورَة ، وجَعَلوه أربعة أقْسام ، وكان عَدَدُ مُدُن مصر ، الدَّاخِلَة في كُورَها ، ثلاثين مَدينَة فيها جميع العَجائِب [١] .

وقيل إنَّ حِمْيَرَ الأكبر ، واسْمُه العَرَنْجج بن سَبَأ الأكبر ـ واسْمُه عامِر ، ويُعرَف بعبد شَمْس ابن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان ـ لمَّا مَلَكَ بعد أبيه جَمَعَ جُيوشَه ، وسارَ يَطَأ الأُمَم ، ويَدُوس المَمالِك كَما فَعَل أبوه ، فأمْعَنَ في المَشْرِق حتى أبْعَد يَأْجُوج ومَأْجُوج إلى مَطْلَع الشَّمْس ، ثم قَفَلَ نحو المغرب ؛ فجاءَه قَبائِلُ من أهْل اليمن ، من بني هُود بن عامِر بن شالِخ بن أرْفَخْشِذ بن سام بن نُوح ، يَشْكُون من ثَمود بن عابِر بن إرَم بن سام بن نُوح ، وما نَزَلَ بهم من ظُلْمِهم . فأمَرَ برَفْعِهم من أرْض اليَمَن ، وأنْزَلَهم أيْلَة ، فعَمَرُوها من أيْلَة إلى ذات الآصال إلى أطْراف جَبَل نَجْد ؛ فقَطَعَت ثَمودُ هناك الصُّخُور ، ونَحَتُوا من الجِبال البُيُوت ، وتَكَبَّروا وطَغَوا ؛ فبَعَثَ الله فيهم صالِحًا نبيًّا ورَسولًا ، فكَذَّبُوه وسألُوه أن يُخْرِج لهم ناقَةً من صَخْرة ، فأخْرَجَها لهم ، فعَقَرُوها ، فأهْلَكَهُم الله بالصَّيْحَة ، ﴿فأَصْبَحُوا في دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [الآيتان ٦٧، ٩٤ سورة هود] .

وقد ذُكِرَ أنَّ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ سارَ ببَني إسْرائيلَ ، بعد مَوْت أخيه هارون ، إلى أرْض أولاد العِيص ـ وهي التي تُعْرَف بجِبال السَّراة ـ جَنْب بَلَد الشُّوْبَك . ثم مَرَّ فيها إلى أيْلَة ، وتَوَجَّه بعد أيام إلى تُرْبَة باب ، حيث بِلاد الكَرَك حتى حارَب تلك الأُمَم .

وكان إلى جانب أيْلَة مَدينَة ، يُقالُ لها عَصْيون ، جَليلَة عَظيمَة .

مَـسْرِيُوط

كُورَة من كُوَر الإسْكَنْدَرية ، كانت لشِدَّة بَياضِها لا يكادُ يَبين فيها دُخُول اللَّيْل إلَّا بعد وَقْت ، وكان الناسُ يَمْشُون فيها وفي أيْديهم خِرَق سُود خَوْفًا على أبْصارِهم ، ومن شِدَّة بَياضِها لَبِسَ الرُّهْبانُ السَّواد [٢] .

---

[١] المسعودي : أخبار الزمان ٦٧- ٦٨؛ وفيما تقدم ٣٤٩، ٣٩٣.

[٢] فيما تقدم ٣٩٨ ، ٤٠٣.

وكانت بلاد مَرْيُوط في نهاية العِمارَة والجِنان المتَّصلة بأرض بَرْقَة. وهي اليوم من بعض[a] قُرَى الإسْكَنْدَرِية، يُزْرَع بها الفَواكِه وغيرها، وقد وَقَفَها الملكُ المُظَفَّر رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْس الجاشْنَكير على جِهاتِ بِرٍّ بالجامع الحاكِمي من القاهِرَة، وبها جامعٌ عُمِّر في سنة ستٍّ وستين وستّ مائة.

ثم اسْتَأْجَرَها الملكُ المُؤَيَّد شَيْخ المَحْمودي، في سنة إحدى وعشرين وثمان مائة، وجَدَّدَ عِمارَة بُسْتانِها، وقد تَخَرَّبَ لِتَرداد عَرَب لَبْدَة وَبَرْقَة إليه[b]، فاستمرَّت في ديوان السُّلْطان.

وادي هُبَيْب

هذا الوادي بالجانِب الغربي من أرْض مصر، فيما بين مَرْيُوط والفَيُّوم، يُجْلَب منه المِلْح والنَّطْرون [١]. عُرِفَ بهُبَيْب بن محمد بن مَعْقل بن الواقِعَة بن حرام بن غفار الغِفاريّ، أَحَدُ أصْحاب رَسُول الله ﷺ، شَهِدَ فَتْح مصر، ورَوَى عنه أبو تَميم الجَيْشاني، وأَسْلَم مَوْلى تُجيب، وسَعيد بن عبد الرَّحْمَٰن الغِفاري. وكان قد اعْتَزَل، عند فِتْنَة عُثْمان - رضي الله عنه - بهذا الوادي فعُرِف به، وكان يقول: لا يُفَرِّق بين قَضَاء دَيْن رَمَضان، ولا بين الصَّلاتين[c] في السَّفر.

ويُقالُ لهذا الوادي أيضًا: وادي المُلوك، ووادي النَّطْرون، وبَرِّيَّة شِيهات[d]، وبَرِّيَّة الأسْقيط، وميزان القُلوب. وكان به مائة دَيْر للنَّصارَى، وبقى به سبعة أدْيِرَة[e]؛ وقد ذُكِرَت، عند ذِكْر الدِّيارات[f] من هذا الكتاب.

وهو وادٍ كثيرُ الفَوائِد، فيه النَّطْرون ويُتَحصَّل منه مالٌ كثيرٌ، وفيه المِلْح الأنْدراني، والمِلْح السُّلْطاني - وهو على هَيْئة أَلْواح الرُّخام - وفيه الوَكْت [٢]، والكُحْل الأسود، ومَعْمَل الزُّجاج. وفيه الماسِكَة، وهو طَينٌ أصْفَر في داخِل حَجَرٍ أسْوَد، يُحَلّ في الماء ويُشْرَب لوَجَع المِعِدَة. وفيه البَرْدي لعَمَل الحُصْر، وفيه عَيْنُ الغُراب، وهو ماء، في هيئة البِرْكَة، وطولُها نحو خمسة عشر

---

a) ساقطة من بولاق. b) الاصل وفييت: لبيد عرب برقة إليه. c) بولاق: ويجمع بين الصلاتين. d) الأصل: شيهاب. e) بولاق: ديورة. f) بولاق: الأديار.

---

[١] وادي هُبَيْب هو المعروف اليوم بوادي النَّطْرون حيث يستخرج من بعض بركه النَّطْرون المستخدم في الصباغة والدباغة، ويقع غربي الدلتا جنوبي محافظة البحيرة ويُتَوَصَّل إليه عن طريق الإسكندرية البري (ياقوت: معجم البلدان ٥: ٣٤٦؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ١١٣؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٤٧٤).

[٢] الوكت. هو التوتيا (علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٧: ٤٩).

ذِراعًا في عَرْض خمسة أذْرُع ، في مَغارٍ بالجَبَل ، لا يُعْلَم من أين يَأْتي ولا إلى أين يَذْهَب ، وهو حُلْوٌ رائِق .

ويُذْكَر أنَّه خَرَجَ منه سبعون ألف راهِب ، بيد كلِّ واحِدٍ عُكّاز ، فتلَقَّوا عَمْرو بن العَاص بالطَّرانَة ، مَرْجعه من الإسْكَنْدَرية ، يَطْلُبون أمانَه لهم على أَنْفُسهم وأَدْيارهم . فكَتَبَ لهم بذلك أَمانًا بقي عندهم ، وكَتَبَ لهم أيضًا بجِرايَة الوَجْه البَحْري فاسْتَمرَّت بأيْديهم . وإنَّ جِرايَتَهم جاءَت في سنة زيادةً على خمسة آلاف أرْدَبّ ، وهي الآن لا تَبْلُغ مائة أرْدَبّ .

ذِكْرُ مَدينة مَـدْيَن[١]

اعْلَم أنَّ مَدْيَن ـ أُمَّةُ شُعَيْب ـ هم بَنُو مَدْيان بن إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وأُمُّهم قَنْطُورا ابنة يَقْطان الكَنْعانية ، وَلَدَت له ثمانية من الوَلَد تناسَلَت منهم أُمَم .

ومَدْيَنُ على بَحْر القُلْزُم ، تُحاذي تَبُوك على نحو ستّ مَراحِل ، وهي أكبر من تَبُوك ، وبها البِئْر التي اسْتَقَى منها مُوسَىٰ لسائِمَة شُعَيْب ، وعُمِلَ عليها بَيْت .

[a]قال الفَرّاء : مَدْيَنُ اسْمُ بَلَدٍ وقُطْرٍ[a]، وقيل اسْمُ قَبيلَة سُمِّيَت باسْم أبيها مَدْيَن ، ويُقالُ له مَدْيان بن إبراهيم ؛ قالَه مُقاتِل وغَيْره . والجُمْهور على أنَّ مَدْيَن أَعْجَمي ، وقيل/ عَرَبي ، فإن كان ١٨٧:
عَرَبيًّا فإنَّه يَحْتَمِل أن يكون «فَعيلا» ، من مَدَن بالمكان : أقامَ به ، وهو بِناءٌ نادِر وقيل مُهْمَل ، أو «مَفْعَلًا» ، من دان ، فتَصْحيحه شاذ ، وهو مَمْنوع الصَّرْف على كلِّ حال ، سَواء كان اسْم الأرْض أو اسم القَبيلَة ، عَجَميًّا أو عَربيًّا[٢].

وقال المَسْعُوديُّ : قد تَنازَعَ أهلُ الشَّرائِع في قَوْم شُعَيْب بن نَويل[b] بن رعويل بن مُرّ بن عَيْفَاء[c] ابن مَدْيَن بن إبراهيم عليه السَّلام ، وكان لِسانُه العَرَبيَّة ، فمنهم من رَأَى أنَّهم من العَرَب الدائِرة والأُمَم البائِدَة ، وبعض من ذَكَرْنا من الأجْيال الخالية ؛ ومنهم من رأَى أنَّهم من وَلَد المُحَصَّن[d] بن جَنْدَل بن يَعْصُب بن مَدْيَن بن إبراهيم الخَليل ، وأن شُعَيْبًا أخوهم[e] في النَّسَب ؛ وقد كانوا عِدَّة

(a-a) ساقط من الأصل . (b) بولاق : نوفل . (c) بولاق : عيفا . (d) مروج الذهب : المحض . (e) بولاق : آخرهم .

---

[١] ياقوت : معجم البلدان ٥: ٧٧.

[٢] الفراء : معاني القرآن ٢: ٣٠٤.

مُلوك، تَفرَّقوا في ممَالِك مُتَّصِلة، فمنهم المُسَمَّى بأَبْجَد، وهَوَّز، وحُطِّي، وكَلَمُن، وسَعْفص، وقَرَشَت.

وهم ـ على ما ذَكَرنا ـ بنو المُحَصَّن[a] بن جَنْدَل، وأَحْرُف الجُمَّل هي أسماءُ هؤلاء المُلوك، وهي الاثْنان والعشرون حَرفًا التي عليها حِسابُ الجُمَّل. وقد قيل في هذه الحُروف غير ما ذَكَرنا من الوُجوه.

فكان أَبْجَدُ مَلك مَكَّة وما يليها من الحِجَاز؛ وكان هَوَّز وحُطِّي مَلِكَيْن ببلاد وَجّ ـ وهي الطَّائِف ـ وما اتَّصَل بذلك من أرْض نَجْد؛ وكَلَمُن وسَعْفَص وقَرَشَت مُلوكٌ بمَدْيَن وقيل ببلاد مصر، وكان كَلَمُن على مُلك مَدْيَن.

ومن النَّاس من رَأَى أنَّه كان مُلْكُ جَميع من سَمَّيْنا مَشاعًا مُتَّصلًا على ما ذَكَرنا، وأنَّ عَذابَ ﴿يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ كان في مُلْك كَلَمُن منهم، وأنَّ شُعَيْبًا دَعاهُم فكَذَّبوه، فوَعَدَهم بعَذابِ يَوْم الظُّلَّة[1]، ففَتَحَ الله[b] عليهم بابًا من السَّماء من نار، ونَجَا شُعَيْب بمن آمَنَ معه إلى المَوْضِع المعروف بأَيْكَة[c]، وهي غِيضَة نحو مَدْيَن.

فلمَّا أَحَسَّ القومُ بالبَلاء، واشْتَدَّ عليهم الحَرّ، وأَيْقَنوا بالهَلاك، طَلَبُوا شُعَيْبًا ومن آمَن معه ـ وقد أَظَلَّتهم سَحابَةٌ بيضاء، طَيِّبَة النَّسيم والهَوَاء، لا يَجدون فيها أَلَمَ العَذاب ـ فأَخْرَجُوا شُعَيْبًا ومَنْ آمَن معه من مَواضِعِهم، وأزالُوهم عن أماكِنِهم، وتَوَهَّموا أنَّ ذلك يُنْجِيهم ممَّا نَزَلَ بهم، فجَعَلَها الله عليهم نارًا فأَتَت عليهم.

[2]فرَثَت جارِيَةٌ بنت كَلَمُن أَباها، وكانَت بالحِجاز، فقالَت:

[الرمل]

كَلَمُون هَدّ رُكْني ... هُلْكُه وَسْطَ المَحَلَّه
سَيِّدُ القَوْم أتاهُ الحَـ ... ـتْفُ نارًا وَسْطَ ظُلَّه
كَوِّنَت نارًا فأَضْحَت ... دار قومي مُضْمَحِلَّه[2]

---

a) مروج الذهب: المحض. b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: بأيلة.

---

[1] يقصد قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الآية ١٨٩ سورة الشعراء].

[2-2] هذه الفقرة والأبيات ساقطة من مروج الذهب وأوردها ابن النديم في الفهرست ٧، وفيه البيت الأخير:
جعلت نارًا عليهم ... دارهم كالمضمحلة

وقال المُنْتَصِر بن المُنْذِر المَدْيَني:

[الطويل]

أَلَا يَا شُعَيْبُ قد نَطَقْتَ مَقالَةً أَتَيْتَ[a] بها عَمْرًا وحيي[b] بني عَمْرو
هم مَلَكُوا أَرْضَ الحِجَاز بأَوْجُهٍ كَمِثْلِ شُعاعِ الشَّمْس في صُورَةِ البَدْر
وهم قَطَنُوا البَيْتَ الحَرَامَ وزَيَّنُوا قُطورًا وفازُوا بالمَكارِمِ والفَخْر
مُلُوكُ بَنِي حُطّي وسَعْفَص ذي النَّدَى وهَوَّز أَرْبابِ الثَّنِيَّةِ والحِجْر[1]

قال المَسْعُودِيُّ: ولهَؤُلاء المُلُوك أَخْبارٌ عَجيبَةٌ من حُروب وسِيَر، وكَيْفِيَّة تَغَلُّبهم على هذه المَمالِك وتَمَلُّكهم عليها، وإبادَتهم من كان فيها وعليها[c] قَبْلَهُم من الأُمَم[2].

وقيل إنَّ الأَيْكَة المذكورة في قَوْله عزَّ وجَلّ: ﴿وَلَقَد كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية ١٧٦ سورة الشعراء]، وفي قَوْله سُبْحانه وتعالى: ﴿وإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُم﴾ [الآيتان ٧٨، ٧٩ سورة الحجر] هي مَدْيَن، وقيل من ساحِلِ البَحْر إلى مَدْيَن، وقيل هي غَيْضَة نحو مَدْيَن.

وقيل بل أصحابُ الأَيْكَة الذين بُعِثَ إليهم شُعَيْب كانوا بتَبُوك بين الحِجْر وأَوَّل الشَّام، ولم يَكُن شُعَيْبٌ منهم، وإنَّما كان من مَدْيَن.

وقال أبو عُبَيْد البَكْري: الأَيْكَةُ المذكورة في كِتاب الله تعالى، التي كانت مَنازِلَ قَوْم شُعَيْب، رُوِيَ عن ابن عَبَّاس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ فيها رِوايَتان: إحداهُما أنَّ الأَيْكَة من مَدْيَن إلى شَغْبٍ وبدا[d]؛ والثانية أَنَّها من ساحِلِ البحر إلى مَدْيَن. وكان شَجَرُهم المُقْل، والأَيْكَةُ عند أَهْل اللُّغَة: الشَّجَر المُلْتَفّ، وكانوا أَصْحابَ شَجَرٍ مُلْتَفّ. وقال قَوْمٌ: الأَيْكَةُ الغَيْضَة، ولَيْكَة اسم البَلَد حَوْلها، كما قيل مَكَّة وبَكَّة. وقال أبو جَعْفَر النَّحَّاس: ولا يُعْلَم «لَيْكَة» اسم بَلَد[e][3].

وقال ابنُ قُتَيْبَة: وكانَ بعضُهم يَزْعُم أنَّ بَكَّةَ هو مَوْضِعُ المَسْجِد، وما حَوْلَه مَكَّة، كما فَرَّق بين الأَيْكَة ولَيْكَة، فقيل الأَيْكَةُ الغَيْضَة، ولَيْكَة البَلَدُ حَوْلها[4].

---

a) بولاق: أبدت. b) بولاق: تحيي. c) ساقطة من بولاق. d) بولاق: شعيب. e) بولاق: البلد.

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٢٨١- ٢٨٣.
[2] نفسه ٢: ٢٨٣.
[3] أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ٢١٥- ٢١٦.
[4] ابن قتيبة: غريب الحديث ١: ٤٧٥- ٤٧٦.

وقال البَكْرِيُّ : مَدْيَنُ بَلَدٌ بالشَّام معلومٌ تِلْقاءَ غَزَّة ، وهو المذكور في كِتاب الله تعالى[1] ـ وهذا وَهْمٌ ، بل مَدْيَن من أرْض مصر .

وبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ سَرِيَّةً إلى مَدِينة مَدْيَن ، أميرهم زَيْد بن حارِثَة ـ رضي الله عنه ـ فأصابَ سَبْيًا من أهل ميناءَ (قال ابن إسْحاق : وميناء هي السَّواحِل) فبِيعُوا ، وفُرِّقَ بين الأُمَّهات والأَوْلاد ؛ فخَرَجَ رَسولُ الله ﷺ وهُم يَبْكُون ، فقال : «ما لَهُم ؟» فأُخْبِرَ خَبَرَهُم ، فقال : «لا تبيعوهم إلَّا جَمِيعًا» .

ومَدْيَنُ من مَنازِل جُذَام بن عَدِيّ بن الحارِث بن مُرَّة بن أُدَد بن زَيْد بن عَمْرو بن عَرِيب بن زَيْد ابن كَهْلان . وشُعَيْبٌ النَّبِيُّ ، المبعوثُ إلى أهْل مَدْيَن ، أحَدُ بني وائِل/ من جُذام .

وقد رُوِيَ أنَّ رَسولَ الله ﷺ قال لوَفْد جُذام : «مَرْحَبًا بقَوْم شُعَيْب وأصْهار مُوسَىٰ ، ولا تَقُوم السَّاعَة حتى يَتَزَوَّجَ فيكم المَسِيحُ ويُولَد له» .

وقال محمد بن سَهْل الأَحْوَل : مَدْيَنُ من أعْراض المَدِينَة أيضًا[a]، مثل فَدَك والفُرْع ورُهَاط[2].

قال مُؤَلِّفُه : وكان بأرْض مَدْيَن عِدَّةُ مَدائِن كَثيرة قد بادَ أهْلُها وخَرِبَت ، وبقيَ منها إلى يومنا هذا ـ وهو سنة خمس وعشرين وثمان مائة[3] ـ نحو الأربعين مَدينَة قائِمَة ، منها ما يُعْرَفُ اسْمُه ، ومنها ما قد جُهِلَ اسمُه ؛ فممَّا يُعْرَف اسْمُه ـ فيما بين أرْض الحِجاز وبلاد فِلَسْطِين وديار مصر ـ ستّ عشرة مَدينَة ، منها في ناحية فِلَسْطِين عشر مَدائِن ، وهي : الخَلَصَة ، والسُّنَيْطَة[b]، والمَدْرَة ، والمُنَيّة ، والأَعْوَج ، والحُوَيْرق ، والبِئْرَيْن ، والماءَيْن ، والسَّبْع ، والمُعَلَّق ؛ وأَعْظَم هذه المَدائِن العشر مَدينتا[a] الخَلَصَة والسُّنَيْطة[b]، وكثيرًا ما تُنْقَل حِجارَتُها إلى غَزَّة ويُبْنَى بها هناك .

ومن مُدُن[c] مَدْيَن بناحية بَحْر القُلْزُم والطُّور مَدينَة فاران ، ومَدينَة الرَّقَّة[4]، ومَدينَة القُلْزُم ، ومَدينَة أَيْلَة ، ومَدينَة مَدْيَن . وبمَدينَة مَدْيَن إلى الآن آثارٌ عَجيبَة ، وعُمُدٌ عَظيمَة .

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : السبيطة . c) بولاق : مدائن .

---

[1] أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٤ : ١٢٠١.

[2] نفسه ٤ : ١٢٠١.

[3] اعتبر كاترمير Quatremère وجست Guest هذا التاريخ هو تاريخ تأليف الخطط !

[4] انظر عنها فيما يلي ٦١٧.

ووُجِدَ في مَدينَة الأَعْوَج، أَعْوَام بضع وستين وسبع مائة، جُبٌّ بقَلْعَتِها بعيد المَهْوَى، يبلغ عُمْقُه نحو مائة باع[a]، وبقاعِه عِدَّة أسْفار على رُفُوف، حُمِلَ منها سِفْرٌ طوله ذِراعان وأَزْيَد، قد غُلِّف بلَوْحَيْن من خَشَب، وكِتابَة بالقَلَم المُسْنَد، طول الألف واللام نحو شِبْر. فوُجِدَ ببلاد الكَرَك من قَرَأَه، فإذا هو سِفْرٌ من عشرة أسْفار، قد ابْتَدَأَه بحَمْد الله، ثم قال: خُروجُ مُوسَىٰ من أرْض مصر إلى بلاد مَدْيَن، ومُلوك بني مَدْيَن فيما بعد شُعَيْب. فَذَكَرَ لموسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ عِدَّة أسْماء منها: اسْمه بالعربية مُوسَىٰ بن عِمْران، وبالعِبْرانية مُوشي، وبالفارِسية داران، وبالقِبْطِيَّة هُرُوهسيس؛ وذَكَرَ أنَّه تَزَوَّج ابنة شُعَيْب، وأنَّه أقامَ بمَدْيَن ثماني حِجَج، ثم قال لابنة شُعَيْب: قد أَتْمَمْت لك شَرْطَك، وسأزيدك من عندي[b] سنتين فَضْلًا مِنِّي[c].

قال[1]: وخَرَجَ مُوسَىٰ مُتَوَجِّهًا إلى مصر، والملكُ يومئذٍ على مَدْيَن أَبْجَد. قال: وقَوِيَ أَمْرُ أَبْجَد، فطَغَى حتى مَلَكَ الحِجاز واليَمَن، وكان له خمسة أولاد، هم: هَوَّز، وحُطِّي، وكَلَمُن، وسَعْفَص، وقَرَشَت. فأقامَ أَبْجَد مَلِكًا باليمن مائة سنة ومات.

وقد اسْتَخْلَف من بَعْده ابنه كَلَمُن باليَمَن، وجَعَلَ ابنه هَوَّز على الحِجاز، وابنه حُطِّي على أرْض مصر، وابنه سَعْفَص على الجَزيرَة وبلادِها حيث المَوْصِل وحَرَّان إلى أرْض العِراق، وابنه قَرَشَت على العِراق ومَشارِقها من خُراسان. وكان قَرَشَت هو الجَبَّار فيهم، وكان سَعْفَص وهَوَّز وكَلَمُن أَهْل عَدْل وحِلْم، وكان حُطِّي صاحِب بَطْشٍ وحَرْب[d]. وكان بَنُو إسْرائيل إذْ ذاك بالشَّام، فلم يَمْلُك أَوْلاد أَبْجَد أرْض الشَّام، ولا احْتَوَوا عليها. وكانت مُدَّةُ مُلْكهم نحوًا من مائة وخمسين سنة؛ فتَمَّ لهم بدَوْلَة أبيهم أَبْجَد ثلاث مائة سنة وأَزْيَدُ. ثم مَلَكَ بعدهم على بني إسْرائيل رُوزيب بن هَوَّز، وعَزْريب بن حُطِّي بن أَبْجَد، نحو سبع سنين. ثم خَرَجَت الدولةُ عن أولاد أَبْجَد. وأقامَ هذا الكتابُ عندهم زَمانًا، ثم أعادوه إلى الجُبّ من قَلْعَة الأَعْوَج.

حَدَّثني بهذا الخَبَر الحافِظ المُتْقِن الضَّابِط أبو عبد الله محمَّد بن أَحْمَد بن محمَّد بن عبد الرَّحْمَٰن الفُرْياني التُّونُسي المالِكي[2]، قال: حَدَّثني به شُتَيّ بن غُنَيم العامِرِيّ ـ شَيْخ لَقِيَه بأرْض فِلَسْطين ـ أنَّه شاهَدَ هذا الكتاب[e] وهو شاب، وحَفِظَ منه ما تقدَّم ذكره.

---

a) بولاق: ذراع. b) ساقطة من بولاق. c) بعد ذلك في بولاق والنسخ التي من عائلتها عنوان هو: بقية خبر مدينة مدين. d) بولاق: وجرأة. e) بولاق: شاهد الكتاب المذكور.

---

[1] لم يحدد المقريزي مصدر هذا القول.

[2] انظر عنه فيما تقدم ٤٣٧.

وقيل إنَّ مالِك بن دَعْر بن حُجْر بن جُدَيْلة بن لَخْم ، كان له أربعة وعشرون وَلَدًا ذَكَرًا ، فكَثُرَت أولادُهم حتى بَنَوا المَدائِن والقُرَى والحُصُون ، وعَمَّرُوا بلاد مَدْيَن كلّها ، وغَلَبُوا على بلاد الشّام ومصر والحِجاز وغيرها خمس مائة سنة .

وقيل إنَّما كان اسْتِيلاءُ مُلوك مَدْيَن على مصر خمس مائة سنة ، بعد غَرَقِ فِرْعَون مُوسَىٰ وهَلاك دَلُوكة بنت زبّان[a]، حتى أَخْرَجَهم منها نَبِيُّ الله سُلَيْمان بن داود ، فعادَ المُلْكُ إلى القِبْط بَعْدهم[1].

ذِكْرُ مَدِينَة فَارَان

هذه المَدينَةُ بساحِل بَحْر القُلْزُم[2]، وهي من مُدُن العَماليق ، على تَلٍّ بين جَبَلَيْن ، وفي الجَبَلَيْن نُقوبٌ كثيرة لا تُحْصَى مَمْلوءَةٌ أمْواتًا .

ومن هناك إلى بحر القُلْزُم مَرْحَلةٌ واحدةٌ ، ويُقالُ له هناك ساحِلُ بحر فاران ، وهو البَحْر الذي أَغْرَق الله فيه فِرْعَوْن . وبين مَدينَة فاران والتِّيه مَرْحَلتان .

ويُذْكَر أنَّ فَارَان اسْمٌ لجِبال مَكَّة ، وقيل اسْمٌ لجِبال الحِجَاز ، وهي التي ذُكِرَت في التَّوْراة[3]. والتَّحقيقُ أنَّ فاران والطُّور كُورَتَان من كُورَ مصر القِبْلِيَّة ، وهي غير فاران المذكورة في التَّوْراة .

وقيل إنَّ فَاران بن عُمرو بن عَمْليق هو الذي نُسِبَ إليه جِبال الحَرَم ، فقيل جِبالُ فاران ، وبعضُهم يقول جبال فَران . [b]والمشهور أنَّ فران هو فَران بن بَلِي بن عمرو بن إلحاف إليه يُنْسَب مَعْدَن فران[b].

وكانت مَدينَةُ فاران من جُمْلة مَدائِن مَدْيَن وبها إلى اليوم نَخْلٌ[c] كثيرٌ مُثمر أَكَلْت من ثَمره ، وبها نَهْرٌ عَظيمٌ ، وهي خَرابٌ يَمُرُّ بها العُرْبان .

---

a) بولاق : زباء . (b-b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : وبها نخل كثير .

---

[1] انظر فيما تقدم ٣٨٩.

[2] اندثرت اليوم هذه المدينة وكانت واقعة في وادي فاران الذي يُعرف اليوم بوادي فيران بين سلسلة جبال طور سيناء في محافظة جنوب سيناء (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١:٣٤٢) .

[3] ياقوت : معجم البلدان ٤:٢٢٥ نقلًا عن القضاعي .

/ ذكر أرض الجفار ١٨٩

اعْلَم أنَّ الجِفارَ[١] اسْمٌ لخَمْس مَدائِن وهي : الفَرَمَا ، والبَقَّارَة ، والوَرَّادَة ، والعَرِيش ، ورَفَح . والجِفَارُ كلُّه رَمْلٌ ، وسُمِّي بالجِفار لشِدَّة المَشْيِ فيه على النَّاس والدَّواب ، من كَثْرَة رَمْله وبُعْد مَراحِلِه . والجِفَارُ تَجْفُر فيه الإبل[٢] ، فاتُّخِذَ له هذا الاسْم ، كما قيل للحَبْل الذي يُهْجَر به البَعير هَجَّار ، وللَّذي يُحْجَر به حَجَّار ، وللَّذي يُعْقَل به عَقَّال ، وللَّذي يُبْطَن به بَطَّان ، وللَّذي يُخْطَم به خَطَّام ، وللَّذي يُزَم به زَمَّام .

واشْتُقَّت البَقَّارَة من البَقَر ، والوَرَّادة من الوَرِيد [a] ، والعَرِيش أُخِذ من العَرْش ، وقيل إنَّ رَفَح اسْمُ جَبَل[٣] . وكان يَسْكُن الجِفَار في القَدِيم جُذامُ بن العُرْبان .

ويُقالُ إنَّ أرْضَ الجِفَار كانت في الدَّهْر الأوَّل والزَّمَن الغابِر مُتَّصِلَة العِمارَة ، كثيرَة البَرَكات ، مَشْهورَة بالخَيْرات ، لكَثْرَة زِراعَة أَهْلها الزَّعْفَران والعُصْفُر وقَصَب السُّكَّر . وكان ماؤُها غَزيرًا عَذْبًا ، ثم صارَ بها نَخْلٌ يُحْدِق بها من كلِّ النَّواحي ، إلى أن دَمَّرَها الله تَدْميرًا ، فصارَت إلى اليوم ذاتَ رَمْلٍ عَظيم يُسْلَك فيه إلى العَرِيش وإلى رَفَح ، كلُّه قَفْر ، يُعْرَف بعضه [b] برَمْل الغرابي ، قليلُ الماء ، عَديم المَرْعَى ، لا أَنيسَ به ، فسُبْحان مُحيل الأَحْوال .

ذكر صعيد مصر

الصَّعيدُ[٤] : المُرْتَفِع من الأَرْض ، وقيل الأَرْضُ المُرْتَفِعَة من الأَرْض المُنْخَفِضَة ، وقيل ما لم يُخالِطه رَمْلٌ ولا سَبْخَة ، وقيل هو وَجْه الأَرْض ، وقيل الأَرْضُ الطَّيِّبَة ، وقيل هو كلُّ تُرابٍ طَيِّب .

---

a) في مسالك الأبصار مصدر الخبر : الورود . b) بولاق : تعرف بقيته .

---

[١] من كور مصر الشرقية ، ذكر ياقوت أنها جمع جَفْر نحو فَرْخ وفِراخ ، وهي سعة في الأرض مستديرة ، والجفر كذلك البئر القريبة القعر الواسعة . مكانها اليوم المنطقة التي كانت تمرّ بها السكة الحديدية الموصلة من القنطرة إلى العريش ثم إلى رفح في محافظة شمال سيناء ، وكانت تمتد غربًا إلى عزبة تلّ المسخوطة بأراضي ناحية أبو صوير بمركز أبو حمّاد بمحافظة الشرقية على بعد ١٦كم غربي مدينة الإسماعيلية (ياقوت : معجم البلدان ٢ : ١٤٤–١٤٦؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٤١–٤٢) .

[٢] تجفر أي تهلك .

[٣] ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٩٤–٩٥.

[٤] انظر مقال جارسان Garcin, J.-Cl., *EI*[2] art. *Sa'īd* و Maspero & Wiet, *Misr* VIII, pp. 892-97، *Matériaux* I, pp. 173-79.

وتَسْمِيَة هذه الجِهَة من أرْض مصر بهذا الاسْم إنَّما حَدَثَ في الإسْلام، سَمَّاها العَرَبُ بذلك لأنَّها جِهَة مُرْتَفِعَة عمَّا دُونها من أرْض مصر، ولذلك يُقالُ فيها أعْلَى الأرض، ولأنَّها أرْضٌ ليس فيها رَمْلٌ ولا سِباخ، بل كلّها أرْضٌ طَيِّبَة مُبارَكَة. ويُقالُ للصَّعيد أيضًا «الوَجْهُ القِبْلِيُّ».

قال الأُسْتاذُ إبراهيمُ بن وَصِيف شاه: ولمَّا حَضَرَت مِصْرايِم الوَفاة عَهِدَ إلى ابنه قُبْطيم، وكان قد قَسَمَ أرْضَ مصر بين بَنِيه: فجَعَلَ لقُبْطيم من بَلَد قِفْط إلى أُسْوان [إلى النُّوبَة][a]، ولأُشْمُون من بَلَدِ أُشْمون إلى مَنْف، ولأتْريب الحَوْف كلّه [إلى الشجرتين إلى أيْلَة من الحجاز][a]، ولصَا من ناحية صَا البُحَيْرَة إلى قُرْب بَرْقَة؛ وقال لأخيه فارِق: لَكَ من بَرْقَة إلى الغَرْب، فهو صاحِب إفْرِيقِيَّة، ووَلَده الأفارِق؛ وأَمَرَ كلَّ واحِدٍ من بَنيه أن يَبْني لنَفْسه مَدِينَةً في مَوْضِعِه[1].

وقال ابنُ عَبْد الحَكَم: فلمَّا كَثُرَ وَلَد مِصْر وأوْلاد أوْلادهم، قَطَعَ مِصر لكلِّ واحِدٍ منهم قِطْعَة يَحوزُها لنَفْسه ولوَلَده، وقَسَمَ لهم هذا النِّيل. فقَطَعَ لابْنه قِفْط مَوْضع قِفْط فسَكَنَها، وبه سُمِّيَت قِفْط قِفْطًا، وما فَوْقَها إلى أُسْوان، وما دُونها إلى أُشْمون في الشَّرْق والغَرْب. وقَطَعَ لأشْمُون من أُشْمُون، فما دُونها في الشَّرْق والغَرْب، إلى مَنْف، فسَكَنَ أُشْمُون أُشْمُون، فسُمِّيَت به. وقَطَعَ لأتْريب ما بين مَنْف إلى صَا، فسَكَنَ أَتْريب، فسُمِّيَت به. وقَطَعَ لصَا ما بين صَا إلى البَحْر، فسَكَنَ صَا فسُمِّيَت به. فكانت مِصْرَ كلُّها على أربعة أَجْزاء؛ جُزْءَيْن بالصَّعيد، وجُزْءَيْن بأَسْفَل الأَرْض[2].

وقال أبو الفَضْلُ جَعْفَرُ بن ثَعْلَب بن جَعْفَر الأُدْفُوي[3] في كِتاب «الطَّالِع السَّعيد في تارِيخ الصَّعيد»: مَسافَةُ إقْليم الصَّعيد الأَعْلَى مَسيرَة اثني عَشْر يومًا بسَيْر الجِمال [السير المُعْتاد][b]، وعَرْضُه ثلاث ساعات وأكثر [وأَقَلّ][b] بحَسَب الأماكِن العامِرَة. ويتصل عرضُه في الكورة

a) زيادة من النويري. b) زيادة من الأدفوي.

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٥؛ المسعودي: أخبار الزمان ١٥٤؛ وفيما تقدم ٤٩ ، ٣٧٠ .

[2] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٩.

[3] كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي الشافعي، ولد في أدفو بصعيد مصر سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ودرس في قوص، ثم قصد القاهرة حيث التقى بشيخه أثير الدين أبي حيّان، وتوفي في القاهرة بعد عودته من الحج سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م. اشتهر بكتابه «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد» الذي أتمه سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، وإن ظل ينظر فيه وينقحه إلى ما قبل وفاته، وهو الكتاب الذي ينقل عنه المقريزي هنا (الصفدي: الوافي بالوفيات ١١: ٩٩-١٠٠؛ المقريزي: السلوك ٢: ٧٩٣؛ أبو المحاسن: النجوم ١٠: ٢٣٧، ابن حجر: الدرر الكامنة ٢: ٧٢-٧٣).

الشرقية بالبحر المِلْح وأراضي البُجَة ، وفي الغربية بالوَاح ، وهي كُورَتان : شَرْقِيّة وغَرْبِيّة ، والنِّيلُ بينهما فاصِلٌ .

وأوّلُ الشَّرْقِيّة من مَرْج بني هُمَيْم ، المتّصلة أَرْضُها بأراضي جِرْجا من عمل إخْميم ، وآخِرُها من قِبْلي أَبْهَر [a]، ويليها أوّلُ أراضي النُّوبَة ، وفي هذه الكُورَة تِيج وقِفْط وقُوص [1].

وأَوّلُ الكُورَة الغربية بَرْدِيس تتصلُ أرضُها بأرض جِرْجا ، وفي هذه الكُورَة الغَرْبية سُمْهُود ، وآخر الكُورَة الغَرْبية أُسْوان ، وبحافَتِه أكثر النَّخْل من الجانِبَيْن ، تكون مِساحَةُ الأراضي التي فيها النَّخْل والبَساتِين تُقارب عشرين ألف فَدّان ، والمَسْتَوْلي على إقليم الصَّعيد المُشْتَرى [2].

ويُقالُ كان بصَعيد مصر نَخْلَة تَحْمل عشرة أرَادِبَّ تَمْرًا ، فغَصَبَها بعضُ الوُلاة ، فلم تَحْمل في ذلك العام ولا تَمْرَة واحِدَة ، وكانت هذه النَّخْلَة في الجانِب الغَرْبي ، وبيعَ منها في الغَلاء كلّ وَيْبَة بدينار .

ويُقالُ لمّا صُوِّرَت الدُّنْيا لأَمير المؤمنين هارون بن محمد الرَّشيد ، لم يَسْتَحْسِن إلّا كُورَة سُيوط من صَعيد مصر ، فإنّها ثلاثون ألفُ فَدّان في اسْتِواءٍ من الأرض ، لو وَقَعَت فيها قَطْرَة ماء لانْتَشَرَت في جَميعها .

وبالصَّعيد بَقَايَا سِحْر قَديم ؛ حَكَى الأمير طُقُصْبا [3] ـ والي قُوص في أيّام النَّاصِر محمد بن قَلاوون ـ قال : أَمْسَكْتُ امرأةً ساحِرَةً فقُلْت لها : أُريد أن أُبْصِرَ شيئًا من سِحْرِك ؛ فقالت : أَجْوَدُ عَمَلي أن أَسْحَر العَقْرَب على اسْم شَخْصٍ بعَيْنه ، فلابُدّ أن تَقَع عليه ، ويُصيبه سُمُّها فتقتله ؛ فقُلْت : أَريني هذا ، واقْصِديني بسِحْرِك .

فأَخَذَت عَقْرَبًا وعَمِلَت ما أَحَبَّت ، ثم أَرْسَلَت العَقْرَب فتَبِعَني ، وأنا أَتَنَحّى عنه ، وهو يَقْصِدُني ؛ فجَلَسْتُ على تَخْتٍ وَضَعْتُه على بِرْكَة ماء ، فأَقْبَل العَقْرَب إلى ذلك الماء ، وأَخَذ في

---

a) بولاق : الهو .

---

[1] الأدفوي : الطالع السعيد ٧- ٨.

[2] نفسه ١٨.

[3] الأمير سيف الدين طُقُصْبا الحسامي الظاهري ، أحد المماليك الظاهرية بيبرس ، ترقى في الخدم إلى أن وَلِيَ قوص وغزا النوبة في سنة ٧٠٥هـ ، وعبر إلى دنقلة وعاد بعد أن مكث هناك بالعسكر تسعة أشهر ، وعُمِّرَ حتى توفي سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م (المقريزي : المقفى الكبير ٤: ٣٠- ٣٣؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ٢: ٣٢٦- ٣٢٧؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١٠: ١١١؛ Garcin, J.-Cl., *Un center musulman de la Haute - Égypte médiévale*, pp. 195-96, 229) .

التَّوَصُّل إليّ فلم يَطِق ذلك ، فمَرّ إلى الحائطِ ، وصَعِدَ فيه وأنا أُشاهِدَه ، حتَّى وَصَل إلى السَّقْف،/ ومَرَّ فيه إلى أن صارَ فَوْقي ، وأَلْقَى نفسه صَوْبي ، وسَعَى نَحْوي حتى قَرُبَ مِنِّي ، فضَرَبْتُه فَقَتَلْتُه ، ثم قَتَلْتُ السَّاحِرَة أيضًا [1].

وأَرْضُ الصَّعيد كَثيرَةُ المَواشي ، من الضَّأْن وغَيْر ذلك لكَثْرَة نِتاجه ، حتى إنَّ الرَّأْسَ الواحِد من نِعاج الضَّأْنِ يَتَوَلَّد عنه في عشر سنين ألفٌ وأَرْبعة وعشرون رَأْسًا وذلك بتَقْدير السَّلامَة ، وأن تَلِد كلُّها إناثًا ، وتَلِد مرَّةً واحِدة كلَّ سَنَة ، ولا تَلِد في كلِّ بَطْن غير رَأْس واحِد ، وإلَّا فإن وَلَدَت في السنة مَرَّتَيْن ، وكان في كلِّ بَطْن رأْسان ، تضاعَفَ العَدَدُ . وتأمَّل حِسابَ ما قُلْناه تَجِده صَحيحًا . وقد شُوهِدَ كثيرًا أنَّ من أَغْنام الصَّعيد ما يَلِد في السنة ثلاث مرَّات ، ويَلِد في البَطْن الواحِد ثلاثة رؤُوس .

وكانت الكَثْرَةُ والغَلَبَةُ ببِلاد الصَّعيد لستِّ قَبائل وهم : بنو هِلال ، وبَلْي ، وجُهَيْنَة ، وقُرَيْش ، ولَواتَة ، وبنو كِلاب . وكان ينزلُ مع هَؤلاء عِدَّةُ قَبائِل سِواهم من الأَنْصار ومن مُزَيْنَة وبني رَزاح[a] وبني كِلاب وثَعْلَبة وجُذام .

وبَلَغَ من عِمارَة الصَّعيد أنَّ الرَّجلُ ، في الأيَّام النَّاصِرية[b] محمد بن قَلاوون وما بَعْدَها ، كان يَمُرّ من القاهِرَة إلى أُسْوان فلا يَحْتاج إلى نَفَقَة ، بل يجد بكلِّ بَلَدٍ وناحِية عِدَّةَ دُور للضِّيافَة إذا دَخَل دارًا منها أُحْضِر لدَابّته عَلَفُها وجِيءَ له بما يَليق به من الأَكْل ونَحْوه ، وآلَ أَمْرُه الآن إلى ألَّا يجد الرَّجُلُ أَحَدًا فيما بين القاهِرَة وأُسْوان يُضَيِّفُه لضِيق الحَال .

ثم تَلاشَى أَمْرُ بلاد الصَّعيد منذ سنة الشَّراقي في الأيَّام الأَشْرَفية[c] شَعْبان بن حُسَيْن بن محمد ابن قَلاوون سنة ستٍّ وسبعين وسبع مائة ، وتَزايَدَ تَلاشيه في الأيَّام الظَّاهِرية[d] بَرْقُوق لجَوْر الوُلاة ؛ ولم يَزَل في إدْبار إلى أن كانت سنةُ ستٍّ وثمان مائة وشَرُقَت مصر بقُصُور مَدّ النِّيل ، فذُهِيَ أَهْلُ الصَّعيد من ذلك بما لا يُوصَف ، حتى إنَّه ماتَ من مَدينَة قُوص سبعة عشر ألف إنسان ، وماتَ من مَدينَة سُيوط أَحَد عشر ألف إنسان ممَّن غُسِّل وكُفِّنَ ، ومن مَدينَة هُو خمسة عشر أَلْف إنسان وذلك كلُّه سوى الطَّرْحَى على الطُّرقات ، ومَنْ لا يُعْرَف من الغُرَباء

---

a) بولاق : دراج .   b) بولاق : أيام الناصر .   c) بولاق : أيام الأشرف .   d) بولاق : أيام الظاهر .

---

[1] نقلًا عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٨٧.

ونَحْوهم . ثم دُمِّرَ في الأيّام المُؤَيّدية[a] شَيْخ فلم يَبْق منه إلّا رُسومٌ تَبْذُل الوُلاةُ الجُهْد في مَحْوها ، نَسْأَل الله حُسْنَ الخاتِمَة .

ذِكْرُ الجَنادِل ولُمَع من أخْبار أرْض النُّوبَة

الجَنْدَلُ ما يَقِلّ الرَّجُل من الحِجارَة ، وقيل هو الحَجَر كلّه ، الواحِدَة جَنْدَلة . والجَنْدَل الجَنادِل ، قال سِيبَوَيْه : وقالوا جَنْدَل يعنون الجَنادِل ، وصَرَفوه لنُقْصان البِناء عمّا لا يَنْصَرف ، وأرْضٌ جَنْدَلَة : ذات جَنْدَل ؛ وقيل الجَنْدَلُ المكان الغَليظ فيه حِجارَة ، ومكانٌ جَنْدَل : كَثيرُ الجَنْدَل [1] .

قال عبدُ الله بن أحْمَد بن سُلَيْم الأسْواني [2] في كِتاب «أخْبار النُّوبَة والمَقُرّة وعَلْوَة والبُجَة والنِّيل» : وأوّلُ بَلَدِ النُّوبَة قَرْيَةٌ تُعْرَف بالقَصْر [3] من أُسْوان إليها خمسة أمْيال ، وآخِر حِصْنٍ للمُسْلمين جَزيرة تُعْرَف بِبِلاق بينها وبين قَرْيَة النُّوبَة ميل ، وهو ساحِل بَلَد النُّوبَة [4] .

---

a) بولاق : أيام المؤيد .

---

[1] سيبويه : الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٧٧، ٣: ٣٤٢.

[2] عاش عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني في منتصف القرن الرابع الهجري ، ولم يعطنا المقريزي في ترجمته التي أفردها له في كتاب «المقفى الكبير» أي تحديد لتاريخي ميلاده أو وفاته ، وإنّما ذكر أن القائد جَوْهَر الصقلبي بعثه بكتاب إلى قيرقي ، ملك النوبة ، يعرض عليه فيه الإسلام وتسديد البَقْط (انظر فيما يلي ١: ٢٠٠) ، وعلى هذا يكون مسيره في هذه البعثة في الفترة بين سنتي ٣٥٨هـ (وصول جوهر إلى مصر) و٣٦٣هـ (وصول المعز إلى مصر) ، وألّف كتابًا وصف فيه المناطق التي زارها في جنوب مصر وقدّمه إلى الخليفة الفاطمي الثاني في مصر العزيز بالله ، وهو الكتاب الذي ينقل عنه المقريزي هنا ؛ ولا نعرف هذا الكتاب إلّا عن طريق النقول التي وصلت إلينا عنه لدى ثلاثة مؤلفين متأخّرين هم : المقريزي وابن إياس والمنوفي . (المقريزي : المقفى الكبير ٤: ٥٧٤- ٥٧٦؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢١٠- ٢١١؛ Troupeau, G., «La description de la Nubie d'al-Uswânî», *Arabica* I (1954), pp. 276-88; Brockelmann, C., *GAL* S I, 410; Yusuf Fadl Hasan, *EI*[2] art. *Ibn Sulaym al-Uswanî* III, p. 973؛ وجمع محمد محمد خير النصوص التي وردت عن ابن سليم وعلى الأخص لدى المقريزي في مقاله Kheir, H.M., «A Contribution to a Textual Problem: Ibn Sulaym al-Aswânî's *Kitâb Akhbâr al-Nûba wal-Maqurra wal-Bega wal-Nil*», *An. Isl.* XXI (1985), pp. 9-72؛ الذي أعاد نشره في مجلة أرابيكا (*Arabica* XXXVI (1989), pp. 36-80) .

[3] عن قرية القصر انظر فيما يلي ٥٤٠؛ وانظر كذلك المسعودي : أخبار الزمان ٦٦-٦٧ ومقال كريستيد وبوزورث Christides, V. & Bosworth, C.E., *EI*[2] art. *Nûba* VIII, pp. 90-93.

[4] انظر فيما يلي ٥٤٠.

ومن أُسْوان إلى هذا المَوْضِع جَنادِلُ كثيرة الحَجَر، لا تَسْلُكها المَراكِب إلّا بالحيلَة ودِلالَة مَنْ يُخْبر بذلك من الصَّيّادين الذين يَصيدُون هناك، لأنَّ هذه الجَنادِل مُتَقَطِّعَة وشِعاب مُعْتَرِضَة في النِّيل، ولانْصِبابِه فيها خَريرٌ عَظيمٌ ودَوِيٌّ يُسْمَع من بُعْد.

وبهذه القَرْيَة مَسْلَحَةٌ وبابٌ إلى بَلَد النُّوبَة، ومنها إلى الجَنادِل الأُولَى من بَلَد النُّوبَة عَشْر مَراحِل. وهي النّاحية التي يَتَصَرَّف فيها المسلمون، ولهم فيما قَرُبَ أمْلاك، ويتَّجرون في أعْلاها. وفيها جماعَةٌ من المُسْلمين قاطِنون، لا يُفْصِح أحَدُهم بالعَرَبية، وشَجَرُها كثير.

وهي ناحِيَةٌ ضَيِّقَةٌ شَظْفَة كثيرة الجِبال، وما تَخْرُج عن النِّيل، وقُراها مُتَسَطِّرَةٌ على شاطِئِه، وشَجَرُها النَّخْل والمُقْل، وأعْلاها أوْسَع من أدْناها، وفي أعلاها الكُرُوم. والنِّيلُ لا يَرْوي مَزارِعَها لارْتِفاع أرْضِها، وزَرْعُها الفَدّان والفَدّانان والثلاثة على أعْناق البَقَر بالدَّواليب.

والقَمْحُ عندَهم قَليلٌ والشَّعيرُ أكْثَر والسَّلْت، ويَعْتَقبون الأرض لضِيقها فيَزْرَعُونها في الصَّيْف، بعد تَطْريتها بالزِّبْل والتُّراب، الدُّخْن والذُّرَة والجاوَرْس والسِّمْسم واللُّوبْيا.

وفي هذه الناحية بخراش مَدينَة المَريسي[a]، وقَلْعَة إبْريم، وقَلْعَة أخرى دونَها، ولها[b] مِينَا تُعْرَف بأدراء يُنْسَب إليها لُقْمان الحكيم وذو النُّون، وبها بِرْبا عَجيب.

ولهذه النّاحِيَة والٍ من قِبَل عَظيم النُّوبَة يُعْرَف بصاحِب الجَبَل من أجَلّ وُلاتهم لقُرْبه من أرْض الإسْلام. ومن يَخْرُج إلى بَلَدِ النُّوبَة من المسلمين فمُعامَلَتُه معه، في تجارة أو هَدِيَّة إليه أو إلى مَوْلاه، يَقْبَل الجَميع ويُكافئ عليه بالرَّقيق، ولا يُطْلِق لأحَدِ الصُّعود إلى مَوْلاه لا لمُسْلم ولا لغَيْره.

وأَوَّلُ الجنادِل من بَلَدِ النُّوبَة قَرْيَة تُعْرَف بتَقْوى هي ساحِل، وإليها تنتهي مراكِبُ النُّوبَة المُصْعَدَة من القصر أوَّل بَلَدهم، ولا تتجاوَزُها المراكِبُ، ولا يُطْلَقُ لأحَدٍ من المسلمين ولا من غيرهم الصُّعود منها إلّا بإذْن من صاحِب جَبَلهم، ومنها إلى[c] المَقْس الأعْلَى ستّ مَراحِل. وهي جنادِلُ كلُّها، وشَرُّ ناحيةٍ رأيتُها لهم لصُعوبَتِها وضِيقِها ومَشَقَّة مَسالِكِها.

أمّا بَحْرُها فجَنادِل وجِبال مُعْتَرَضَة فيه، حتى أنَّ النِّيل يَنْصَبُّ من شِعابٍ ويضيق في مواضِع حتى يكون سَعَة ما بين/ الجانِبَيْنِ خمسين ذِراعًا.

وبَرُّها مَجاوب ضَيِّقَة وجِبالٌ شاهِقَة وطُرُقاتٌ ضَيِّقَة، حتى لا يُمْكن الراكب أن يَصْعَد منها، والراجِل الضَّعيف يَعْجِز عن سُلوكِها، ورِمالٌ في غَرْبِها وشَرْقِها. وهذه الجِبالُ حِصْنهم، وإليها

---

a) بولاق: المريس. b) بولاق: بها. c) ساقطة من بولاق.

يَفْزَع أهلُ النَّاحية التي قَبْلَها المُتَّصلة بأرْض الإسلام. وفي جَزائِرِها نَخْلٌ يَسير، وزَرْعٌ حَقير، وأكثرُ أكْلهم السَّمَك، ويَدْهنون بشَحْمِه.

وهي من أرْض مَريس، وصاحِبُ الجبَلِ واليهم، والمَسْلَحَة بالمَقْس الأَعْلى صاحِبُها من قِبَل كَبيرهم شَديد الضَّبْط لها، حتى إنَّ عَظيمَهم إذا صارَ بها وَقَفَ به المَسْلَحي وأَوْهَم أنَّه يُفَتِّش عليه، حتى يَجِد الطَّريق إلى وَلَده ووَزيره فمن دُونهما.

ولا يَجُوزها دينار ولا دِرْهَم، إذْ كانوا لا يَتبايَعُون بذلك إلَّا دون الجَنادِل مع المسلمين، وما فَوْق ذلك لا بَيْع بينهم ولا شِرَاء، وإنَّما هي مُعاوَضَة بالرَّقيق والمواشي والجِمال[a] والحَديد والحُبوب.

ولا يُطْلَق لأَحَدٍ أن يجوزَها إلَّا بإذْن الملك، ومن خَالَف كان جَزاؤه القَتْل كائنًا من كان. وبهذا الاحْتياط تَنْكَتم أخْبارُهم، حتى إنَّ العَسْكَرَ منهم يَهْجم على البَلَد إلى البادِية وغيرهم فلا يَعْلَمون به.

والسُّنْباذُ[1]، الذي يُخْرَط به الجَوْهَر، يَخْرُج من النِّيل في هذه المواضِع، يُغَطَّس عليه فيُوجَد جسمُه بارِدًا مُخالِفًا للحِجارة، فإذا أُشْكِل عليه نُفِخَ فيه بالفَمِ فيَعْرَق.

ومن هذه المَسْلَحَة إلى قَرْيَة تُعْرَف بساي جَنادِل أيضًا، وهي آخِر كُرْسيهم، ولهم فيها أُسْقُف، وفيها بِرْبا.

ثم ناحية سَقْلوذا، وتَفْسيرها السَّبْع وُلاة، وهي أَشْبَه الأرْض بالأرْض المتاخِمَة لأرض الإسْلام في السَّعَة والضِّيق في مواضِع والنَّخْل والكَرْم والزَّرْع وشَجَر المُقْل. وفيها شيءٌ من شَجَرِ القُطْن، ويُعْمَل منه ثِياب وَخْشَة، وبها شجر الزَّيْتون.

وواليها من قِبَل كَبيرهم، وتَحْت يده وُلاةٌ يَتَصَرَّفون. وفيها قَلْعَة تُعْرَف بأَصْطَنون، وهي أَوَّل الجنادِل الثلاثة، وهي أَشَدّ الجنادِل صُعوبَة لأنَّ فيها جَبَلًا مُعْتَرِضًا من الشَّرْق إلى الغَرْب في النِّيل، والماءُ يَنْصَبّ من ثلاثة أبواب ـ وربَّما رَجَعَ إلى بابَيْن عند انْحِساره ـ شَديد الخَرير عَجيب المَنْظَر، يَتَحَدَّر الماءُ عليه من عُلُوّ الجَبَل.

---

a) بولاق: الجبال.

---

[1] الشُّنْباذ أو الشُّذباذَج، حجر مِسَنّ، فارسي معرب (الفيروزآبادي: القاموس المحيط ٤٢٦).

وقِبْليه فَرْشَ حِجارَة في النِّيل نحو ثلاثة أَبْرُد إلى قرية تُعْرَف ببشْتُو ، وهي آخر قُرَى مَريس وأوَّل بلد مُقْرَة . ومن هذا المَوْضِع إلى حَدّ المسلمين لسانُهم مَريسي ، وهي آخِر عَمَل مُتَمَلِّكهم .

ثم ناحية بُقُون ، وتَفْسيرها العَجَب ، وهي عند اسْمِها لحُسْنِها . وما رأيتُ على النِّيل أَوْسَع منها . وقَدَّرْت أن سَعَة النِّيل فيها من الشَّرق إلى الغَرْب مَسيرَة خَمْس مَراحِل الجَزائِرُ تَقْطَعُه ، والأَنْهار منه تَجْري بينها على أرْض مُنْخَفِضَة ، وقُرَى مُتَّصِلَة ، وعِمارَة حَسَنَة ، بأَبْرِجَة حَمَام ومَواشٍ وأَنْعام .

وأكثرُ مِيرَة مَدينَتهم منها ، وطُيُورها التُّغْتُبط[a] والنُّوبي والبَبْغ ، وغير ذلك من الطُّيور الحِسان . وأَكْثَر نُزْهَة كبيرهم في هذه النَّاحية .

قال : وكُنْتُ معه في بعض الأَوْقات فكان سَيْرُنا في ظِلِّ شَجَرٍ من الحافَتَيْن في الخُلْجان الضيِّقَة . وقيل إنَّ التِّمْساح لا يَضُرّ هناك ، ورأيْتُهم يَعْبُرُون أَكْثَرَ هذه الأنْهار سِباحَةً .

ثم سَفَذَبَغْل وهي ناحية ضَيِّقَة شَبيهَة بأوَّل بلادِهم إلَّا أَنَّ فيها جزائِر حِسانًا ، وفيها دون المرحَلَتَيْن نحو ثلاثين قَرْيَة بالأَبْنِيَة الحِسان والكَنائِس والأَدْيار والنَّخْل الكبير[b] والكُروم والبَساتين والزَّرْع ، ومُرُوج كِبار فيها إبِل وجِمال صُهْب مؤبَّلة للنِّتاج .

وكبيرُهم يُكْثِر الدُّخول إليها لأنَّ طَرَفَها القِبْلي يُحاذي دُنْقُلَة مَدينَتهم ، ومن مَدينَة دُنْقُلة دار المملكة إلى أُسْوان خمسون مَرْحَلَة . وذَكَرَ صِفَتَها ثم قال : إنَّهم يُسَقِّفون مَجالِسَهم بخَشَب السَّنْط ، وبَخَشَب السَّاج الذي يأتي به النِّيلُ في وَقْت الزِّيادة ، إسْقَالات منحوتَة لا يُدْرى من أين تأتي ، ولقد رَأَيْتُ على بعضِها علامَة غَريبَة .

ومَسافَةُ ما بين دُنْقُلَة[1] إلى أوَّل بَلَدَ عَلْوَة أكثر ممَّا بينها وبين أُسْوان ، وفي ذلك من القُرَى والضِّياع والجَزائِر والمواشي والنَّخْل والشَّجَر والمُقْل والزَّرْع والكَرْم أضْعاف ما في الجانِب الذي يَلي أرْض الإسْلام .

---

a) بولاق : التقيط . b) بولاق : الكثير .

---

[1] ذكر القلقشندي ـ نقلًا عن أبي الفدا ـ أن دُنْقُلَة بضم الدال المهملة وسكون النون وقاف مضمومة ولام مفتوحة وهاء في الآخر ، وهو الجاري على ألسنة أهل الديار المصرية ، بينما ذكرها الحميري في «الروض المعطار» دَمْقُلة بإبدال النون ميمًا ، مضبوطة بفتح الدال وباقي الضبط على ما تقدم (صبح الأعشى ٥: ٢٧٥) .

وفي هذه الأماكِن جَزائِرُ عِظام مَسيرَة أيَّام ، فيها الجِبال والوَحْش والسِّباع ، ومَفاوِز يُخافُ فيها العَطَش . والنِّيلُ يَنْعَطِف من هذه النَّواحي إلى مَطْلَع الشَّمْس وإلى مَغْرِبها مَسيرَة أيَّام حتَّى يَصير المُصْعَد كالمُنْحَدِر . وهي الناحية التي تَبْلُغ العُطُوف من النِّيل إلى المَعْدن المعروف بالشَّنْكَة [a]، وهو بَلَدٌ يُعْرَف بشَنْقير ، ومنه خَرَجَ العُمَريّ (b)هو أبو عبد الرَّحْمَن عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عُمَر بن الخَطَّاب [1] ، كانت له في النُّوبَة والبُجَة حروب وهَدَم حَبْس أحمد بن طولون(b)، وتَغَلَّب على هذه النَّاحية إلى أن كان من أَمْره من كان .

وفَرَسُ البَحْر يَكْثُر في هذه المَواضِع [2].

ومن هذا المَوْضِع طُرُقٌ إلى سَواكِن وباضِع ودَهْلَك وجَزائِر البَحْر ، ومنها عَبَرَ مَنْ نَجَا من بني أُمَيَّة عند هَرَبهم إلى النُّوبَة [3].

وفيها خَلْقٌ من البُجَة يُعْرَفون بالزَّنافِج انْتَقَلوا إلى النُّوبَة قَديمًا وقَطَنوا هناك ، وهم على جملتهم [c] في الرَّعْي واللُّغَة لا يُخالِطُون النُّوبَة ولا يَسْكُنون قُراهم ، وعليهم والٍ من قِبَل النُّوبَة .

ذِكْرُ تَشَعُّب النِّيل من بِلاد عَلْوَة ومن يَسْكُن عليه من الأُمَم

اعْلَم أنَّ النُّوبَة والمَقَرَّة جِنْسان بِلِسانَيْنِ كِلاهما على النِّيل : فالنُّوبَة وهم المَريس المُجاوِرون لأرْض الإسْلام ، وبين أوَّل بَلَدِهم وبين أُسْوان خمسة أَمْيال . ويُقالُ إنَّ سلها جَدّ النُّوبَة ، ومَقُرِّي جَدّ المَقَرَّة ، من اليمن . وقيل النُّوبَة ومَقُرِّي من/ حِمْيَر . وأكثرُ أَهْل الأَنْساب على أنَّهم جميعًا من وَلَد حام بن نُوح . ١٩٢:١

وكان بين النُّوبَة والمَقَرَّة حُروبٌ قبل النَّصْرانِيَّة .

وأوَّلُ أرْض المَقَرَّة قَرْيَة تُعْرَف بتافَة على مَرْحَلة من أُسْوان ، ومَدينَة مُلْكهم يُقالُ لها بِخِرّاش ، على أَقَلّ من عَشْر مراحِل من أُسْوان . ويُقالُ إنَّ مِوسَىٰ ـ صلواتُ الله عليه ـ غَزاهُم قَبْل مَبْعَثه في أيَّام فِرْعَون ، فأَخْرَبَ تافَة ، وكانوا صابِئَة يَعْبُدون الكَواكِب ويَنْصُبون التَّماثيل لها ، ثم تَنَصَّروا جميعًا .

---

a) بولاق : الشلة. (b-b) ساقطة من بولاق. c) بولاق : حدتهم.

---

[1] توفي بعد سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م ، وترجم له المقريزي ترجمة حافلة في المقفى الكبير ٤: ٤٠٣- ٤١٥، وفيما يلي ٥٣٤، ٥٤٠.

[2] انظر فيما تقدم ١٧٦.

[3] انظر المسعودي : التنبيه والإشراف ٣٢٩- ٣٣٠.

النُّوبَة والمَقُرَّة ومَدينَةُ دُنْقُلَة هي دارُ مملكتهم، وأوَّلُ بلاد عَلْوَة قُرًى في الشَّرْق على شاطِئ النِّيل تُعْرَف بالأبْواب. ولهذه النَّاحية والٍ من قِبَل صاحِب بَلَدِ[a] عَلْوَة يُعْرف بالوَحْواح[b].

والنِّيلُ يَتَشعَّب من هذه الناحية على سَبْعة أنْهار، فمِنْها نَهْرٌ يأتي من ناحية المَشْرق، كَدِر الماء يَجِفّ في الصَّيْف حتى يَسْكُن بَطْنَه، فإذا كان وَقْتُ زيادة النِّيل نَبَعَ فيه الماءُ، وزادَت البِرَك التي فيه، وأَقْبَل المَطَرُ والسُّيولُ في سائِر البَلَدِ فوَقَعَت الزِّيادَةُ في النِّيل. وقيل إنَّ آخِر هذا النَّهْر عَيْنٌ عظيمة تأتي من جَبَل.

قال مُؤَرِّخُ النُّوبَة [1]: وحَدَّثني سيمون صاحِبُ عَهْد بَلَد عَلْوَة أنَّه يُوجَد في بَطْن هذا النَّهْر حُوتٌ لا قِشْرَ له، ليس هو من جِنْس ما في النِّيل، يُحْفَر عليه قامَة وأكثر حتى يَخْرُج، وهو كبير.

وعليه جِنْسٌ مُوَلَّد بين العَلْوَة والبُجَة يُقالُ لهم الديحيُّون، وجِنْسٌ يُقالُ لهم بازَه، يأتي من عندهم طَيْرٌ يُعْرف بحَمام بازِين.

وبعد هؤلاء أوَّلُ بِلاد الحَبَشَة، ثم النِّيل الأَبْيَض، وهو نَهْرٌ يأتي من ناحِية الغَرْب شَديد البَياض مثل اللَّبَن.

قال: وقد سَأَلْتُ من طَرَقَ بِلادَ السُّودان من المغارِبَة عن النِّيل الذي عندهم وعن لَوْنه، فذَكَرَ أنَّه يَخْرُج من جِبالِ الرَّمْل، أو جَبَل الرَّمل، وأنَّه يجتمع في بَلَد السُّودان في بِرَكٍ عِظام، ثم يَنْصَبُّ إلى ما لا يُعْرَف، وأنَّه ليس بأَبْيَض، فإمَّا أن يكون اكْتَسَب ذلك اللَّوْن ممَّا يمرُّ عليه، أو من نَهْرٍ آخَر يَنْصَبّ إليه، وعليه أجناس من جانبيه؛ ثم النِّيلُ الأَخْضَر، وهو نَهْرٌ يأتي من القِبْلَة ممَّا يلي الشَّرْق شَديد الخُضْرَة، صافي اللَّوْن جِدًّا، يُرَى ما في قَعْره من السَّمك، وطَعْمُه مُخالِفٌ لطَعْم النِّيل، يَعْطَش الشَّارِبُ منه بسرعة، وحيتانُ الجَميع واحِدَة، غير أنَّ الطَّعْمَ مُخْتَلِف، ويأتي فيه وَقْتُ الزِّيادَة خَشَب السَّاج والبَقْم والقناء[c]، وخَشَبٌ له رائِحة كرائِحَة اللُّبان، وخَشَبٌ غَليظٌ يُنْحَت ويُعْمَل منه مِقْدام. وعلى شاطِئِه يَنْبُت هذا الخَشَبُ أيضًا. وقيل إنَّه وُجِدَ فيه عُود البَخور.

---

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: مرحراح. c) بولاق: الغناء.

---

[1] أي ابن سليم الأسواني، فهو مصدر المقريزي الرئيس عن النوبة.

قال : وقد رَأَيْتُ على بعض السَّقَّالات المنْحوتَة السَّاج التي تأتي فيه وَقْتُ الزِّيادة علامَةً غَريبَة ، ويجتمع هذان النَّهْران الأَبْيَضُ والأَخْضَر عند مَدينة مُتَمَلِّك بَلَدِ عَلْوَة ، ويبقيان على أَلْوانهما قَريبًا من مَرْحَلَة ، ثم يَخْتَلِطان بعد ذلك وبينهما أَمْواجٌ كِبارٌ عظيمةٌ بتلاطُمِهما .

قال : وأَخبَرني من نَقَل النّيل الأَبْيَض وصَبّه في النّيل الأَخْضَر ، فبَقي فيه مثل اللَّبَن ساعَةً قبل أن يَخْتَلِطا . وبين هذين النَّهْرَيْن جزيرَةٌ لا يُعْرف لها غايَة ، وكذلك لا يُعْرَف لهذين النَّهْرَيْن نهاية . فأوّلهما يُعْرَف عَرْضُه ، ثم يَتَّسع فيَصير مَسافَة شَهْر ، ثم لا تُدْرَك سِعَتُهما لخَوْف من يَسْكُنهما بَعْضُهم من بعض لأنَّ فيهما أجْناسًا كثيرةً وخَلْقًا عَظيمًا .

قال : وبَلَغني أنَّ بعضَ مُتَمَلّكي بَلَد عَلْوَة سارَ فيها يُريد أَقْصَاها فلم يأْت عليه بعد سنين . وأنَّ في طَرَفِها القِبْلي جِنْسًا يَسْكُنون ودَوابُّهم في بيوت تحت الأَرْض مثل السَّراديب بالنَّهار من شِدَّة حَرِّ الشَّمْس ، ويَسْرَحُون في اللَّيْل ، وفيهم قَوْمٌ عُراة .

والأَنْهارُ الأَرْبَعَة الباقية تأتي أيضًا من القِبْلَة ، ممَّا يلي الشَّرْق أيضًا ، في وَقْتٍ واحِدٍ ، ولا يُعْرَف لها نِهايَة أيضًا وهي دون النَّهْرَيْن الأَبْيَض والأَخْضَر في العَرْض وكَثْرَة الخُلْجان والجَزائِر .

وجَميعُ الأَنْهار الأَرْبَعَة تَنْصَبُّ في الأَخْضَر ، وكذلك الأوّل الذي قَدَّمْتُ ذِكْرَه ، ثم يَجْتَمِع مع الأَبْيَض ، وكلّها مَسْكونَة عامِرَة مَسْلُوك فيها بالسُّفُن وغيرها ؛ وأَحَد هذه الأربعة يأتي مَدُّه من بلاد الحَبَشَة .

قال : ولقد أَكْثَرتُ السُّؤَالَ عنها ، واسْتَكْشَفْتُها من قَوْم عن قَوْم ، فمَا وَجَدْتُ مُخْبِرًا يقول إنَّه وَقَفَ على نِهايَة جميع هذه الأَنْهار . والذي انْتَهَى إليه عِلْمُ من عَرَّفَني عن آخرين إلى خَراب ، وأنَّه يأتي في وَقْت الزِّيادَة في هذه الأَنْهار آلَةُ مَراكِب وأَبْواب وغير ذلك ، فيَدُلّ على عِمارَة بعد الخَراب .

فأمَّا الزِّيادَة ، فيُجْمِعون أنَّها من الأَمْطار مع مادةٍ تأتي من ذاتِها ، والدَّليلُ على ذلك النَّهْرَ الذي يَجفّ ويَسْكُن بَطْنُه ، ثم يَنْبُع وَقْت الزِّيادَة . ومن عَجائِبه أنّلا زِيادَته في أَنْهار مجتمعة ، وسائِر النَّواحي والبُلْدان في مصر وما يليها والصَّعيد وأُسْوان وبَلَد النُّوبَة وعَلْوَة وما وَرَاء ذلك في زَمانٍ واحِدٍ .

وأَكْثَرُ ما وَقَفَ عليه من هذه الزيادة أنَّه رُبَّما وُجِدَت مثلًا بأُسْوان ولا تُوجَد بقُوص ثم تأتي بعد ؛ فإذا كَثُرت الأَمْطَارُ عندهم ، واتَّصَلَت السُّيولَ ، عُلِمَ أنَّها سَنَة رَيّ ، وإذا قَصُرت الأَمطارُ عُلِمَ أنَّها سنة ظَمَا .

قالَ : وأمّا من طَرَقَ بِلادَ الزَّنْج ، فإنّهم أخْبَروني عن مَسيرهم في بَحْر الصِّين إلى بلاد الزَّنْج بالرِّيح الشَّمالي مُساحِلين للجانِب الشَّرقي من جَزيرَة مصر ، حتى يَنْتَهوا إلى مَوْضِع يُعْرَف برأْس حَفْري ، وهو عندهُم آخِر جَزيرَة مصر ، فيَنْظُرون كَوْكَبًا يَهْتَدون به ، فيَقْصِدون الغَرْب ، ثم يَعُودون إلى البَحْري ، ويَصيرُ الشَّمال في وُجوهِهم ، حتى يأْتُوا إلى قَبيلَة من بلاد الزَّنْج . وهي مدينة مُتَمَلِّكهم/، وتَصيرُ قِبْلَتُهم للصَّلاة إلى جُدَّة .

قالَ : وبَعْضُ الأنْهار الأرْبَعَة يأتي من بِلاد الزَّنْج لأنّه يأتي في الخَشَب الزَّنْجي .

وسوبة مَدينَة العلوي شرقي الجَزيرَة الكُبْرَى التي بين البَحْرَين الأَبْيَض والأَخْضَر في الطَّرفِ الشَّمالي منها عند مُجْتَمَعهما ، وشَرْقيها النَّهْرُ الذي يَجِفُّ ويَسْكُن بَطْنُه . وفيها أَبْنِيَة حِسان ودُور واسِعَة وكَنائِس كثيرة الذَّهَب وبَساتين ، ولها رِباطٌ فيه جَماعَةٌ من المسلمين .

ومُتَمَلِّك عَلْوَة أكثرُ مالاً من مُتَمَلِّك المَقُرَّة ، وأَعْظَمُ جَيْشًا ، وعنده من الخَيْل ما ليس عند المَقُرِّي ، وبلدُه أَخْصَبُ وأوْسَع ، والنَّخْلُ والكَرْم عندهم يَسير .

وأكثرُ حُبوبِهم الذُّرَة البَيْضاء التي مثل الأُرْز ، منها خُبْزُهم ومِزْرُهم ، واللَّحْمُ عندهم كَثيرٌ لكَثْرة المَواشي والمُرُوج الواسِعَة العَظيمَة السَّعة ، حتى إنّه لا يُوصَل إلى الجَبَل إلّا في أيام .

وعندهم خَيْلٌ عِتاق ، وجِمالٌ صُهْبٌ عِراب ، ودينُهم النَّصْرانية يعَاقِبَة ، وأَساقِفَتُهم من قِبَل صاحِب الإسْكَنْدَرية كالنُّوبَة ، وكُتُبُهم بالرُّومِيَّة ، يُفَسِّرونها بِلِسانِهم ، وهم أَقَلّ فَهْمًا من النُّوبَة .

ومَلِكُهُم يَسْتَرِقّ من شاءَ من رَعِيَّتِه بجُرْمٍ وبغير جُرْم ، ولا يُنْكِرون ذلك عليه ، بل يَسْجُدُون له ولا يَعْصون أَمْرَه على المَكْروه الواقِع بهم . ويُنادُون : المَلِكُ يَعيش ، فلْيَكُن أَمْرُه . وهو يَتَتَوَّج بالذَّهَب ، والذَّهَبُ كثيرٌ في بَلَدِه .

وممّا في بَلَده من العَجائِب أنَّ في الجَزيرَة الكُبْرَى التي بين البَحْرَيْن جِنْسًا يُعْرَف بالكَرْنينا ، لهم أرْضٌ واسِعَةٌ مزروعةٌ من النِّيل والمَطَر ، فإذا كان وَقْتُ الزَّرْع خَرَجَ كلُّ واحِدٍ منهم بما عنده من البَذْر ، واخْتَطّ على مِقْدار ما معه ، وزَرَعَ في أربعة أَرْكان الخِطَّة يسيرًا ، وجَعَلَ البَذْر في وَسَط الخِطَّة وشيئًا من المِزْر ، وانْصَرَف عنه . فإذا أَصْبَحَ وَجَدَ ما اخْتَطّ قد زُرِعَ وشَرِب المِزْر . فإذا كان وَقْتُ الحَصاد حَصَدَ يسيرًا منه ووَضَعَه في مَوْضِعٍ أرادَه ومعه مِزْر ويَنْصَرِف ، فيَجِد الزَّرْعَ قد حُصِدَ بأَسْره وجُرِنَ فإذا أرادَ دِراسَه وتَذْريتَه فَعَل به كذلك . ورُبّما أرادَ أَحَدُهم أن يُنَقِّي زَرْعَه من الحَشيش ، فيَلْفُظ بقَلْع شيءٍ من الزَّرْع فيُصْبِح وقد قُلِعَ جَميعُ الزَّرْع .

وهذه النَّاحِيَة التي فيها ما ذَكَرْته بُلْدانٌ واسِعَة مَسيرَة شَهْرَيْن في شَهْرَيْن ، يُزْرَع جَميعُها في وَقْتٍ واحِدٍ .

ومِيرَة بَلَد عَلْوَة ومُتَمَلِّكُهم من هذه النَّاحِيَة ، فيُوَجِّهون المَرَاكِب فتُوسَق ، ورُبَّما وَقَعَ بينهم حَرْبٌ .

قالَ : وهذه الحِكايَةُ صَحِيحَة مَعْروفَة مَشْهورَة عند جَميع النُّوبة والعَلْوَة ، وكلّ من يَطْرُق ذلك البَلَدَ من تُجّار المسلمين لا يَشُكُّون فيه ، ولا يَرْتابون به ، ولَوْلا أنَّ اشْتِهارَه وانْتِشارَه مِمّا لا يَجُوز التَّواطُؤ على مِثْله ، لما ذَكَرْتُ شيئًا منه لشَناعَتِه . فأمَّا أَهْلُ النَّاحِيَة فيَزْعُمون أنَّ الجِنَّ تَفْعَلُ ذلك ، وأنَّها تَظْهَر لبَعْضِهم وتَخْدُمهم بحِجارَة يَنْطاعون لهم بها ، وتَعْمَل لهم عَجائِبَ ، وأنَّ السَّحابَ يُطيعُهم .

قالَ : ومن عَجائِب ما حَدَّثَني به مُتَمَلِّك المَقُرَّة للنُّوبَة ، أنَّهم يمطرون في الجبال ، ويلتقطون منه للوَقت سَمَكًا على وَجْه الأَرْض . وسَأَلْتُهم عن جِنْسِه فذَكَروا أنَّه صغيرُ القَدْر بأَذْناب حُمْر .

قالَ : وقد رَأَيْتُ جَماعَةً وأجْناسًا مِمَّن تَقَدَّم ذِكْر أَكْثَرِهم ، يَعْتَرِفُون بالبارِي سُبْحانَه وتَعالَى ، ويَتَقَرَّبون إليه بالشَّمْس والقَمَر والكَواكِب ، ومنهم من لا يَعْرِف الباري ويَعْبُد الشَّمْسَ والنَّار ، ومنهم من يَعْبُد كلَّ ما اسْتَحسَنه من شَجَرَة أو بَهِيمَة .

وذَكَرَ أنَّه رَأَى رَجُلًا في مَجْلِسِ عَظيم المَقُرَّة سأَلَه عن بَلَده فقال : مَسافَته إلى النِّيل ثلاثة أَهِلَّة . وسأَلَه عن دِينِه فقال : رَبِّي وَرَبُّكَ الله ، ورَبُّ المَلِك وَرَبُّ النَّاس كلِّهم واحِد ؛ وأنَّه قال له : فأَيْنَ يَكُون ؟ قال : في السَّمَاء وَحْدَه .

وقال إنَّه إذا أَبْطَأَ عنهم المَطَر ، أو أَصابَهُم الوَباءُ ، أو وَقَع بدَوابهم آفَة ، صَعِدُوا الجَبَل ، ودَعَوْا الله فيُجابُون للوَقْت ، وتُقْضَى حاجَتُهم قبل أن يَنْزِلوا . وسأله : هل أُرْسِلَ فيكم رَسُولٌ ؟ قال : لا ؛ فذَكَرَ له بِعْثَة مُوسَىٰ وعيسَىٰ ومُحَمَّد صلوات الله عليهم وسَلامُه ، وما أُيِّدُوا به من المُعْجِزات ، فقال : إذا كانوا فَعَلُوا هذا فقد صَدَقُوا ؛ ثم قال : قد صَدَّقْتُهم إن كانُوا فَعَلُوا .

قال مُؤَلِّفُه : وقد غَلَب أَوْلاد كَنْز الدَّوْلَة[1] على النُّوبَة ومَلَكُوها من سنة ....[a] وبُني بدُنْقُلة جامِعٌ يأْوِي إليه الغُرَباءُ .

a) بياض في الأصل .

[1] انظر حول بني الكنز فيما يلي ٥٣٩.

واعْلَم أنَّ على ضَفَّة النِّيل أيضًا الكانِم، ومَلِكُها مُسْلِم، وبينه وبين بِلاد مالي مَسافَةٌ بَعيدَةٌ جِدًّا، وقاعِدَةُ مُلْكِه بَلْدَة اسمها جيمي [a]، وأوَّل مَمْلكته من جِهَة مصر بَلْدَة اسْمها زلا [b]، وآخِرها طولا بَلْدَة يُقالُ لها كاكا، وبينهما نَحْوُ ثلاثة أشهر.

وهم يتَلَثَّمون، ومَلِكُهم مُتَحَجِّب لا يُرَى إلَّا يومَي العِيدَيْن، بُكْرَة وعند العَصْر، وطول السَّنة لا يُكَلِّمه أَحَدٌ إلَّا من وَرَاء حِجاب.

وغالِبُ عَيْشهم الأُرْز، وهو يَنْبُت من غير بَذْر. وعندهُم القَمْحُ والذُّرَة والتِّين واللَّيْمون والباذِنْجان واللِّفت والرُّطب. ويَتَعامَلون بقُماش يُنْسَج عندهم اسْمُه دَنْدي، طُول كلِّ ثَوْب عشرة أَذْرُع، يَشْتَرون به من رُبْع ذِراع فأكثر. ويَتَعامَلون أيضًا بالوَدَع والخَرَز والنُّحاس المكسَّر والوَرِق، وجميع ذلك بسِعر ذلك القُماش.

وفي جَنُوبها شَعارِي وصَحاري فيها أشخاصٌ مُتَوَحِّشَة كالفُيول، قَريبَة من شكل الآدَمي، لا يَلْحَقُها الفارِس، تُؤْذي الناس. ويَظْهَر في اللَّيْل أيضًا شِبْه نار تُضيء، فإذا مَشَى أَحَدٌ ليَلْحَقَها بَعُدَت عنه، ولو جَرَى إليها لا يَصلُ إليها بل لا تَزال أمَامَه، فإذا رَماها بحَجَر فأصابَها تَشَظَّى منها شَرَر. وتَعْظُم عندهم اليَقْطينَة حتى تُصْنَع منها مَراكِب يُعْبَر فيها/ في النِّيل.

وهذه البِلادُ بين إفْريقية وبَرْقَة مُمْتَدَّة في الجَنوب إلى سَمْت الغَرْب الأَوْسَط. وهي بِلادُ قَحْط وشَظَف وسُوء مِزاج. وأوَّلُ من بَثَّ بها الإسْلام الهادي العُثْماني، ادَّعى أنَّه من وَلَد عُثْمان بن عَفَّان ـ رضي الله عنه ـ وصارَت بعده لليزنيِّين من بني سَيْف بن ذي يَزَن. وهم على مَذْهَب الإمام مالِك بن أَنَس ـ رَحِمَه الله ـ والعَدْلُ قائِمٌ بينهم، وهم يابِسون في الدِّين لا يَلينُون. وبَنَوا بمَدينَة مصر مَدْرَسَةً للمالِكية عُرِفَت بمَدْرَسة ابن رَشيق في سني أربعين وستّ مائة، وصارَت وُفودُهم تَنْزِل بها، وسَيَرِد ذِكْرُها في المَدارِس إن شاءَ الله [1].

---

a) بولاق: حيمي. b) بولاق: زرلا، القلقشندي: دلا.

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى ٥: ٢٨٠-٢٨١ (ومصدره مسالك الأبصار للعمري)، وانظر فيما يلي ٢: ٣٦٥.

ذِكْرُ البُجَـة

ويُقالُ إنَّهم من البَرْبَر

اعْلَم أنَّ أوَّلَ بَلَدِ البُجَة ، من قرية تُعْرَف بالخَرِبَة مَعْدِن الزُّمُرُّد في صَحْراء قُوص [١] . وبين هذا المَوْضِع وبين قُوص نحو من ثلاث مَراحِل . وذَكَرَ الجَاحِظُ أنَّه لَيْس في الدُّنْيا مَعْدِن للزُّمُرُّد غير هذا المَوْضع . وهو يُوجَد في مَغايِر بعيدة مُظْلِمَة ، يُدْخَل إليها بالمصابيح وبِحِبال يُسْتَدَلّ بها على الرُّجوع خَوْفَ الضَّلال . ويُحْفَر عليه بالمَعاوِل فيُوجَد في وَسَط الحِجارَة وحَوْله غَشيم دُونه في الصِّبْغ والجَوْهَر .

وآخِرُ بِلاد البُجَة أوَّل بِلاد الحَبَشَة ، وهم في بَطْن هذه الجَزيرَة ـ أعْني جَزيرَة مصر ـ إلى سَيْف البَحْر المِلْح ممَّا يلي جَزائِر سَواكِن وباضِع ودَهْلَك .

وهم بادية يَتْبَعون الكَلأَ حَيْثُما كان الرَّعْيُ بأخْبِيَة من جُلود ، وأنْسابُهم من جِهَة النِّساء . ولكلِّ بَطْنٍ منهم رَئيس ، ولَيْس عليهم مُتَمَلِّك ولا لهم دِين [٢] .

وهم يُوَرِّثون ابنَ البِنْت وابنَ الأُخْت دون وَلَد الصُّلْب ، ويَقُولون إنَّ وِلادَة ابن الأُخْت وابن البِنْت أَصَحّ ، فإنَّه إن كان من زَوْجِها أو من غيره فهو وَلَدُها على كلِّ حال .

---

[١] سيُفَصِّل المقريزي الحديث عن معدن الزمرد فيما يلي ٦٣٢.

[٢] البُجَة أو البُجاة وضبطها القلقشندي : البُجَا بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر (ويعرفون في الوقت الحاضر باسم البِجة) قبائل حامِيّة تسكن الصحراء الشرقية جنوبي مصر بين الحبشة والنوبة وأرض الصَّعيد ، وهم شعبٌ قديمٌ تعرَّف عليه العرب الفاتحون منذ بدايات الإسلام في مصر وعَقَدَ معهم والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح معاهدةً عرفت باسم «البَقْط» (فيما يلي ١:١٩٩–٢٠٠) ، وهم ينقسمون إلى قبائل وبطون كثيرة كما أنهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي . وأهم مصدر يحدثنا عن البُجَة وحياتهم ونظامهم كتاب «أخبار النوبة» لابن سُلَيْم الأسواني الذي نقل عنه المقريزي أغلب معلوماته عن النوبة والبُجَة في القرون الأربعة الأُولى للإسلام (فيما تقدم ٥١٧ هـ[١]) . ورغم أن المقريزي يذكر أنهم أسلموا في إمارة عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح فإن الثقافة الإسلامية لم تنتشر بينهم فيصفهم ابن جُبَيْر في النصف الثاني للقرن السادس الهجري بأنهم «أضل من الأنعام سبيلًا وأقل عقولًا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارًا للإسلام ... ورجالهم ونساؤهم يتصرَّفون عُراة ، إلّا خِرَقًا يسترون بها عَوْراتهم ، وأكثرهم لا يُسْتَتِرون» (الرحلة ٤٨–٤٩) ، ولم ينتشر الإسلامُ حقيقةً بينهم إلّا في القرنين الثامن والتاسع للهجرة بسبب الهجرات العربية التي اتجهت على نطاق واسع إلى السودان عبر أراضيهم في أعقاب سقوط بغداد . وينقسم البجة في الوقت الحاضر إلى أربع قبائل كبيرة هي : البِشّاريون في الشمال والأمرأر والهدندوه وبني عامر إلى الجنوب من طُوكر في الشمال إلى داخل حدود إريتريا في الجنوب . (راجع ، القلقشندي : صبح الأعشى ٥:٢٧٣–٢٧٤؛ مصطفى محمد مسعد : «البجة والعرب في العصور الوسطى» ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ٢١ (ديسمبر ١٩٥٩) ، ١–٥٩؛ Holt, (P.M., *EI*[2] art. *Bedja* I, pp. 1192-93 .

وكان لهم قَدِيمًا رَئِيسٌ يَرْجِع جميعُ رُؤَسائِهم إلى حُكْمِه ، يَسْكُن قَرْيَة تُعْرَف بهَجَر هي أَقْصَى جَزيرَة البُجَة .

ويَرْكَبُون النُّجب الصُّهْب ، وتُنْتَج عندهم ، وكذلك الجِمال العِراب كثيرة عِندهُم أيضًا . والمَواشي من البَقرِ والغَنَم والضَّأْن غايَة في الكَثْرَة عندهم . وبَقَرُهم حِسان مُلَمَّعَة بقُرونٍ عِظام ، ومنها جَمّ ، وكِباشُهم كذلك مُنَمَّرَة ولها أَلْبان . وغِذاؤُهم اللَّحْم وشُرْب اللَّبَن ، وأَكْلُهم للخُبْز[a] قليل وفيهم من يأْكُلُه ، وأَبْدانُهم صِحاح ، وبُطونُهم خِماص ، وأَلْوانُهم مُشْرِقَة الصُّفْرَة ، ولهم سُرْعَة في الجَرْي يُبايِنون بها النَّاس .

وكذلك جِمالُهم شَديدَة العَدْو صَبورَة عليه وعلى العَطَش ، يُسابِقُون عليها الخَيْل ، ويُقاتِلون عليها ، وتَدُور بهم كما يَشْتَهُون ، ويَقْطَعُون عليها من البِلاد ما يَتَفاوَت ذكره ، ويَتَطارَدُون عليها في الحَرْب ، فيَرْمي الواحِدُ منهم الحَرْبَة فإن وَقَعَت في الرَّمْيَة طارَ إليها الجَمَل فأَخَذَها صاحِبُها ، وإن وَقَعَت في الأَرْض ضَرَبَ الجَمَلُ بجِرانه الأَرْض فأَخَذَها صاحِبُها .

ونَبَغَ منهم في بَعْض الأَوْقات رَجُلٌ يُعْرَف بكَلاز ، شَديدٌ مِقْدامٌ ، وله جَمَلٌ ما سُمِعَ بمِثْله في السُّرْعَة ، وكان أَعْوَر وصاحِبُه كذلك ، الْتَزَم لقَوْمه أنَّه يُشْرِف على مُصَلَّى مصر يَوْمَ العِيد ، وقد قَرُبَ العِيد قُرْبًا لا يكون للبُلُوغ إليها في مثله حَقِيقَة ، فوَفَّى بذلك ، وأَشْرَف على المُقَطَّم ، وضَرَبَت الخَيْلُ خَلْفَه فلم يُلْحَق .

وهذا هو الذي أَوْجَب أن يكون في السَّفْح طَليعَة يَوْم العيد . وكان الطُّولونِيَّة وغيرهم مِن أُمَراء مصر يُوقِفُون في سَفْح الجَبَل المُقَطَّم ـ مِمَّا يلي المَوْضِع المعروف بالحَبَش ـ جَيْشًا كَثيفًا مُراعِيًا للناس حتى يَنْصَرِفوا من عِيدِهم في كلِّ عيد .

وهم أَصْحابُ ذِمَّة ، فإذا غَدَر أَحدُهُم رَفَعَ المَغْدور به ثَوْبًا على حَرْبَة وقال : هذا غَرْسُ[b] فُلان ـ يعني أنا الغادِر[c] ـ ، فتَصير سَبَّةً عليه إلى أن يَتَرَضَّاه .

وهم يُبالِغُون في الضِّيافَة ، فإذا طَرَقَ أَحدُهُم الضَّيْفُ ذَبَحَ له ، فإذا تَجاوَزَ ثلاثة نَفَر نَحَرَ لهم من أَقْرَب الأَنْعام إليه سَواء كانت له أو لغَيْره ، وإن لم يكُن شيءٌ نَحَرَ راحِلَة الضَّيْف وعَوَّضَه ما هو خَيْرٌ منها .

وسِلاحُهُم الحِراب السُّباعِيَّة ، مِقْدار طُول الحَدِيدة ثلاثة أَذْرُع ، والعُود أَرْبَعَة أَذْرُع ، وبذلك سُمِّيَت سِباعِيَّة ؛ والحَدِيدَة في عَرْض السَّيْف لا يُخْرِجُونها من أَيْديهم إلَّا في بَعْض الأَوْقات ، لأنَّ

---

a) بولاق : للجبن . b) بولاق : عرش . c) بولاق : أبا الغادر .

في آخِر العُود شيئًا شَبيهًا بالفَلْكَة يَمْنَع خُروجَها عن أَيْديهم . وصُنَّاعُ هذه الحِراب نِساءٌ في مَوْضِع لا يَخْتَلِط بهن رَجُلٌ إلَّا المُشْتَري منهن : فإذا وَلَدَت إحداهُنّ من الطَّارِقين لهن جارِيَةً اسْتَحْيَتْها ، وإن وَلَدت غُلامًا قَتَلَتْه ، ويَقُلْن إنَّ الرِّجالَ بلاءٌ وحَرْبٌ .

ودَرَقُهم من جُلود البَقَرَةِ مُشْعَرة ، ودَرَقٌ مَقْلوبة تُعْرف بالأُكْسومِية من جُلود الجَواميس ـ وكذلك الدُّهْلَكية ـ ومن دابَّة في البَحْر .

وقِسِيُّهم عَرَبِيَّة كِبار غِلاظ من السِّدْر والشَّوْحَط ، يَرْمُون عليها بنَبْلٍ مَسْمُوم . وهذا السُّمّ يُعْمَل من عُروق شَجَر الغلفة يُطْبَخ على النَّار حتى يَصِير مثل الغِرا . فإذا أرادوا تَجْرِبته شَرَطَ أَحَدُهم جَسَدَه وسَيَّل الدَّم ثم شَمَّمه هذا السُّمّ ، فإذا تَراجَع الدَّم عَلِم أنَّه جَيِّد ، ومَسَحَ الدَّم لئلَّا يَرْجِع إلى جِسْمه فيَقْتُله . فإذا أصابَ الإنْسانُ قُتِل لوَقْته ، ولو مِثْل شَرْطَة الحِجام . وليس له عَمَلٌ في غير الجُرْح والدَّم ، وإن شُرِبَ منه لم يَضُرّ .

وبُلْدانُهم كلُّها مَعادِن ، وكُلَّما تَصاعَدَت كانت أَجْوَد ذَهَبًا وأكثر . وفيها مَعادِنُ الفِضَّة والنُّحاس والحَديد والرَّصاص وحَجَر المَغْنيطيس والمرْقَشيتا والجمشت والزُّمُرُّد وحجارة بيشطا ، فإذا بُلَّت الشَّطْية منها بزَيْت ، وَقَدَت/ مثل الفَتِيلَة ، وغير ذلك مما شُغْلهم طَلَبُ مَعادِن الذَّهَب عمَّا ١٩٥:١
سواه . والبُجَة لا تَتَعَرَّض لعَمَل شيءٍ من هذه المَعادِن .

وفي أَوْديتهم شَجَرُ المُقْل والإهْليلج والإذْخر والشِّيح والسَّنا والحَنْظَل وشَجَر البان ، وغير ذلك . وبأَقْصَى بَلَدِهم النَّخْل وشَجَر الكَرْم والرَّياحين ، وغير ذلك ممَّا لم يَزْرَعه أَحَدٌ . وبها سائِرُ الوَحْش من السِّباع والفِيَلَة والنُّمور والفُهُود والقِرَدَة وعِناق الأَرْض والزباد ، ودابَّة تُشْبه الغَزَال حَسَنَة المَنْظَر لها قَرْنان على لَوْن الذَّهَب ، قليلة البَقاء إذا صِيدَت ، ومن الطُّيُور البَبَّغا والنَّقيط والنُّوبي والقَماري ودَجاج الحَبَش وحَمَام بازين ، وغير ذلك .

وليس منهم رَجُلٌ إلَّا مَنْزوع البَيْضَة اليُمْنَى ، وأمَّا النِّساءُ فمَقْطوعُ أشْفَارِ فُروجِهِنّ ، وأنَّه يَلْتَحِم حتى يُشَقّ عنه للمُتَزَوِّج بِمقْدار ذَكَرَ الرَّجُل ، ثم قَلَّ هذا الفِعْلُ عندهم . وقيل إنَّ السَّبَبَ في ذلك أَنَّ مَلِكًا من المُلوك حارَبَهم قَديمًا ، ثم صالَحَهم وشَرَط عليهم قَطْع ثَدْي من يُولَد لهم من النِّساء وقَطْع ذُكُور من يُولد من الرِّجال ، أرادَ بذلك قَطْع النَّسْل منهم ، فوَفُّوا بالشَّرْط ، وقَلَبُوا المَعْنَى في أن جَعَلوا قَطْع الثُّدي للرِّجال والفُرُوج للنِّساء .

وفيهم جِنْسٌ يَقْلَعون ثناياهم ويقولون : لا نَتَشَبَّه بالحَمير . وفيهم جِنْسٌ آخَر في آخِر بِلاد البُجَة يُقالُ لهم البازَة ، نِساءٌ جميعهم يَتَسَمَّوْن باسْم واحِد ، وكذلك الرِّجال ، فَطَرَقَهم في وَقْت رَجُلٌ

مُسْلِمٌ له جمال ، فدَعَا بعضُهم بعضًا وقالوا : هذا الله قد نَزَلَ من السَّماء ، وهو جالِسٌ تحت الشجرة ، فجَعَلوا يَنْظُرون إليه من بُعْد .

وتَعْظُم الحَيَّاتُ ببَلَدِهم وتَكْثُر أصْنافُها ، ورُئيت حَيَّة في غَدير ماءٍ قد أَخْرَجَت ذَنَبَها والْتَفَّت على امْرَأَة وَرَدَت فَقَتَلَتْها ، فرُئي شَحْمُها قد خَرَجَ من دُبُرِها من شِدَّة الضَّغْطَة .

وبها حَيَّةٌ ليس لها رَأْس ، وطَرَفاها سَوَاء ، مُنَقَّشَة ليست بالكبيرة ، إذا مَشَى الإنْسانُ على أَثَرِها مات ، وإذا قُتِلَت وأَمْسَكَ القاتِلُ ما قَتَلَها به من عُودٍ أو حَرْبَة في يده ولم يُلْقِه من ساعَتِه مات . وقُتِلَت حَيَّة منها بخَشَبة ، فانْشَقَّت الخَشَبَة . وإذا تَأَمَّل هذه الحَيَّة أحَدٌ وهي مَيِّتَة أو حَيَّة أصابَه ضَرَرُها .

وفي البُجَة شَرٌّ وتَسَرُّعٌ إليه ، ولهم في الإسلام وقَبْله أَذِيَّة على شَرْق صَعيد مصر ، خَرَّبُوا هناك قُرَى عَديدَة . وكانت فَرَاعِنَةُ مصر تَغْزوهم وتُوادِعُهم أحيانًا لحاجَتِهم إلى المَعادِن ، وكذلك الرُّومُ لمَّا أن مَلَكُوا مصر . ولهم في المَعادِن آثارٌ مَشْهُورَة ، وكان أَصْحابُهم بها وقد فُتِحَت مصر .

قال عبدُ الرَّحْمَن بن عبد الله بن عَبْد الحَكَم : وتَجَمَّع لعَبْد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح في انْصِرافِه مِن النُّوبَةِ على شاطئ النِّيل البُجَة ، فسَأَل عن شَأْنِهم فأُخْبِرَ أنْ ليس لهم مَلِكٌ يَرْجِعُون إليه ، فهانَ عليه أمْرُهم وتَرَكهم ، فلم يكُن لهم عَقْدٌ ولا صُلْح .

وكان أوَّلُ من هادَنَهم عُبَيْد الله بن الحَبْحاب السَّلولي . ويُذْكَر أنَّه وُجِدَ في كتاب ابن الحَبْحاب : لهم ثلاث مائة بَكْر في كلِّ عام حين يَنْزلون الرِّيف مُجْتازين ، تُجَّارًا غير مُقيمين ، على ألَّا يَقْتُلوا مُسْلِمًا ولا ذِمِّيًّا ، فإن قَتَلوه فلا عَهْدَ لهم . ولا يُؤْوُوا عَبيدَ المُسْلمين ، وأن يَرُدُّوا آبِقيهم إذا وَقَعُوا إليهم . ويُقالُ إنَّهم كانوا يُؤاخَذون بهذا ، وبكلِّ شاةٍ أَخَذَها البُجاوي فعليه أربعة دنانير ، وللبَقَرة عشرة ، وكان وَكيلُهم مُقيمًا بالرِّيف رَهينَةً بيد المُسْلِمين [1].

ثم كَثُرَ المُسْلِمون في المَعْدِن فخالَطُوهم وتَزَوَّجوا فيهم .

وأَسْلَم كَثيرٌ من الجِنْسِ المعروف بالحَدارِب إسْلامًا ضَعيفًا ، وهم شَوْكَة القَوْم ووُجُوههم ، وهم ممَّا يلي مصر من أوَّل حَدِّهم إلى العَلَّاقي وعَيْذاب المعبر منه إلى جُدَّة وما وَرَاء ذلك [2].

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٨٩.

[2] حول إسلام أهل النوبة انظر دراسة كيوك Cuoq, J., Islamisation de la Nubie Chrétienne VII-XVI° siécles, Paris Geuthner 1986.

ومنهم جِنْسٌ آخَر يُعْرَفون بالزَّنافِج ، هم أكْثَر عَدَدًا من الحَدارِب ، غير أنَّهم تَبَعٌ لهم ، وخُفَراؤهم يَحْمُونَهم ويَحبونهم المَواشي . ولكلِّ رَئيسٍ من الحَدارِب قَوْمٌ من الزَّنافِج في حملته ، فهم كالعَبيد يَتَوارَثونهم بعد أن كانت الزَّنافِج قديمًا أَظْهَرَ عليهم [1].

ثم كَثُرت أَذِيَّتُهم على المُسْلمين ، وكان وُلاةُ أُسْوان من العِراقِ ، فرُفِعَ إلى أمير المؤمنين المأْمُون خَبَرُهم ، فأَخْرَج إليهم عبد الله بن الجَهْم ، فكانت له معهم وَقائِعُ ، ثم وادَعَهُم وكَتَب بينه وبين كَنون ، رَئيسِهم الكبير الذي يكون بقَرْيَتِهم هَجَر المُقَدَّم ذكرها [2]، كِتابًا نُسْخَتُه :

«هذا كِتابٌ كَتَبَه عبدُ الله بنُ الجَهْم مَوْلَى أمير المؤمنين ، صاحِب جَيْشِ الغُزاة ، عامِل الأمير أبي إسْحاق بن أمير المُؤْمنين الرَّشيد أبْقاه الله ، في شهر رَبيع الأوَّل سنة ستّ عشرة ومائتين ، لكَنون بن عبد العزيز عَظيم البُجَة بأسْوان .

إنَّك سَأَلْتني وطَلَبْتَ إليَّ أن أُؤَمِّنك وأَهْلَ بَلَدك من البُجَةِ ، وأَعْقد لك وَلَهم أَمانًا عليَّ وعلى جَميع المُسْلمين ، فأَجَبْتُك إلى أن عَقَدْت لك وعلى جَميع المسلمين أمانًا ما اسْتَقَمْتَ واسْتَقاموا ، على ما أَعْطَيْتَني وشَرَطْت لي في كِتابي هذا .

وذلك أن يكون سَهْلُ بَلَدِك وَجبَلُها من مُنْتَهى حَدِّ أُسْوان من أَرْض مصر إلى حَدِّ ما بين دَهْلَكٍ وباضِع مُلْكًا للمأمُون عبد الله بن هارُون أمير المؤمنين أعَزَّه الله تعالى ، وأنت وجَميع أَهْل بَلَدِك عَبيدٌ لأمير المؤمنين ، إلَّا أنك تكون في بَلَدِك مَلِكًا على ما أنت عليه في البُجَة .

وعلى أن تُؤَدِّي إليه الخَرَاج في كلِّ عام على ما كان عليه سَلَفُ البُجَة ، وذلك مائة من الإبل ، أو ثلاث مائة دينار وازِنَة داخِلَة في بَيْت المال ، والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولوُلاتِه . وليس لك أن تَخْرم شيئًا عليك من الخَرَاج .

وعلى أنَّ كُلَّ أَحَدٍ منكم إن ذَكَرَ محمدًا رَسُول الله صلى / الله عليه ١٩
وسلم أو كِتابَ اللهِ أو دِينَه بما لا يَنْبَغي أن يَذْكُره به ، أو قَتَلَ أَحَدًا من المسلمين حُرًّا أو عَبْدًا ، فقد بَرِئَت منه الذِّمَّة : ذِمَّةُ الله ، وذِمَّةُ رَسُولِه ﷺ ،

[1] فيما تقدم ٥٢١.

[2] فيما تقدم ٥٢٨.

وذِمَّةُ أَمير المؤمنين أعَزَّه الله ، وذِمَّةُ جماعَة المسلمين ، وحَلَّ دَمُه كما يَحلّ دَمُ أهْل الحرْب وذَراريهم .

وعلى أن أحَدًا منكم إن أعانَ المحاربين على أهْل الإسْلام بمالٍ ، أو دَلَّه على عَوْرَة من عَوْرات المسلمين أو أثَر لعِزَّتهم ، فقد نَقَضَ ذِمَّة عَهْده ، وحَلَّ دَمُه .

وعلى أن أحَدًا منكم إن قَتَلَ أحَدًا من المسلمين عَمْدًا أو سَهْوًا أو خَطأً ، حُرًا أو عَبْدًا أو أحَدًا من أهْلِ ذِمَّة المسلمين ، أو أصابَ لأَحَدٍ من المسلمين أو أَهْل ذِمَّتِهم مالًا ببَلَد البُجَة ، أو ببلاد الإسْلام ، أو ببلاد النُّوبة ، أو في شيءٍ من البُلْدان بَرًّا أو بَحْرًا : فعليه في قَتْل المسلم عَشْر دِيَات ، وفي قَتْل العَبْد المسلم عَشْر قِيَم ، وفي قَتْلِ الذِّمِّي عَشْر دِيَات من دِيَاتِهم ، وفي كلِّ مالٍ أَصَبتُموه للمسلمين وأهل الذِّمَّة عشرة أضعافِه . وإن دَخَلَ أحَدٌ من المسلمين بلاد البُجَة تاجِرًا أو مُقيمًا أو مُجْتازًا أو حاجًّا ، فهو آمِن فيكم كأحَدِكم حتى يَخْرُج من بِلادِكم .

ولا تُؤْووا أحَدًا من آبِقي المسلمين ، فإن أتاكُم آتٍ ، فعَلَيْكُم أن تَرُدُّوه إلى المسلمين .

وعلى أن تَرُدُّوا أمْوالَ المسلمين إذا صارَت في بِلادِكم بلا مُؤنَة تَلْزَمُهم في ذلك .

وعلى أنَّكم إن نَزَلْتُم رِيفَ صَعيد مصر لتجارَة أو مُجْتازين ، لا تُظْهِرون سِلاحًا ، ولا تَدْخُلون المدائِن والقُرَى بحال .

ولا تَمْنَعُوا أحَدًا من المسلمين الدُّخولَ في بِلادِكم والتِّجارَة فيها بَرًّا ولا بَحْرًا ، ولا تُخيفوا السَّبيل ، ولا تَقْطَعُوا الطَّريق على أَحَدٍ من المسلمين ولا أَهْل الذِّمَّة ، ولا تَسْرِقوا لمسلم ولا ذِمِّي مالًا .

وعلى ألَّا تَهْدِموا شيئًا من المَساجِد التي ابْتَنَى المسلمون بصَنْجَة[a] وهَجَر ، وبسائِر بِلادِكم طولًا وعرضًا ، فإن فَعَلْتُم ذلك فلا عَهْدَ لكم ولا ذِمَّة .

---

a) بولاق : صيحة .

وعلى أنَّ كَنون بن عبد العَزيز يُقيم بريف صَعيد مصر، وَكيلًا يفي للمسلمين بما شَرَط لهم من دَفْع الخَرَاج، ورَدّ ما أصابه البُجَة للمسلمين من دَم ومال.

وعلى أنَّ أَحَدًا من البُجَة لا يَعْتَرِض حَدّ القَصْر إلى قَرْية يُقال لها قبان من بَلَد النُّوبَة حَدّ الأَعْمِدَة.

عَقَدَ عبد الله بن الجَهْم مَوْلَى أَمير المؤمنين لكَنُون بن عبد العَزيز كَبير البُجَة الأمانَ على ما سَمَّيْنا وشَرَطْنا في كِتابِنا هذا، وعلى أن يُوافي به أَمير المؤمنين. فإن زَاغَ كَنُون أو عاثَ، فلا عَهْدَ له ولا ذِمَّة.

وعلى كَنون أن يُدْخِل عُمَّال أَمير المؤمنين بِلاد البُجَة لقَبْض صَدَقاتِ مَن أَسْلَم من البُجَة.

وعلى كَنُون الوَفاءُ بما شَرَط لعَبْد الله بنِ الجَهْم، وأَخَذَ بذلك عَهْدَ الله عليه بأَعْظَم ما أَخَذَ على خَلْقِه من الوَفَاء والميثاق.

ولكَنُون بن عبد العَزيز ولجَميع البُجَة عَهْدُ الله وميثاقُه، وذِمَّةُ أَمير المؤمنين، وذِمَّةُ الأَمير أبي إسْحاق بن أمير المؤمنين الرَّشيد، وذِمَّةُ عبد الله بن الجَهْم، وذِمَّةُ المسلمين، بالوَفاء بما أَعْطَاه عبد الله بن الجَهْم ما وَفَّى كَنون ابن عبد العَزيز بجَميع ما شُرِط عليه. فإن غَيَّرَ كَنون أو بَدَّل أَحَدٌ من البُجَة، فذِمَّةُ الله جَلَّ اسْمه وذِمَّة أمير المؤمنين وذِمَّة الأَمير أبي إسْحاق ابن أُمير المؤمنين الرَّشيد وذِمَّةُ عبد الله بن الجَهْم وذِمَّةُ المسلمين بَريئة مِنْهم».

وتَرْجَم جَميعَ ما في هذا الكتاب حَرْفًا حَرْفًا زَكريا بن صالِح المَخْزومي من سُكَّان جُدَّة، وعبدُ الله بن إسماعيل القُرَشي. ثم نَسَّقَ جَماعَةٌ من شُهود أُسْوان.

فأقامَ البُجَةُ على ذلك بُرْهَةً، ثم عادُوا إلى غَزْو الرِّيف من صَعيد مصر، وكَثُرَ الضَّجيجُ منهم إلى أَمير المؤمنين جَعْفَر المُتَوَكِّل على الله، فنَدَبَ لحَرْبِهم محمد بن عبد الله القُمّي، فسَأَلَ أن يَخْتارَ من الرِّجال من أَحَبَّ، ولم يَرْغَب إلى الكَثْرَة لصُعوبَة المَسالِك [1]. فخَرَج إليهم من مصر في

---

[1] انظر تفاصيل حملة محمد بن عبد الله القُمّي على بلاد البُجَة في ولاية عَنْبَسة بن إسحاق عند، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٩:٢٠٢–٢٠٦؛ المقريزي: المقفى الكبير ٦:١٣٨–١٤٠؛ أبي المحاسن: النجوم الزاهرة ٢:٢٩٥–٢٩٩.

عِدَّةٍ قليلَة ورِجالٍ مُنْتَخَبَة ، وسارَت المَراكِبُ في البحر ؛ فاجْتَمَعَ البُجَة لهم في عَدَدٍ كثيرٍ عَظيمٍ قد رَكِبُوا الإبِلَ فهابَ المسلمون ذلك ، فشَغَلَهم بكِتاب طَويل كَتَبَه في طُومار ولَفَّه بثَوْبٍ ، فاجْتَمَعوا لِقراءَتِه ، فحَمَلَ عليهم وفي أعْناقِ الخَيْل الأجْراس فنَفَرَت الجِمالُ بالبُجَة ، ولم تَثْبُت لصَلْصَلة الأجْراسِ ، فرَكِبَ المسلمُون أقْفِيَتَهم وقَتَلُوا منهم مَقْتَلَةً عَظيمَةً وقُتِلَ كَبيرُهم .

فقامَ من بعده ابنُ أخيه ، وبَعَثَ يَطْلُبُ الهُدْنَة ، فصَالَحَهُم على أن يَطَأ بِساط أمير المؤمنين ؛ فسارَ إلى بَغْداد وقَدِمَ على المُتَوَكِّل بسُرَّ مَنْ رَأى في سنة إحدى وأربعين ومائتين ، فصُولِح على أداء الإتاوَة والبَقْط ، واشْتُرِطَ عليهم ألَّا يَمْنَعوا المسلمين من العَمَل في المَعْدِن .

وأقامَ القُمِّيُّ بأُسْوان مُدَّةً ، وتَرَكَ في خَزائِنها ما كان معه من السِّلاح وآلَة الغَزْو ، فلم تَزَل الوُلاةُ تأْخُذُ منه حتى لم يُبْقُوا منه شيئًا .

فلمَّا كَثُر المسلمون في المَعادِن واخْتَلَطُوا بالبُجَة قَلَّ شَرُّهُم ، وظَهَر التِّبْرُ لكثرة طلَّابه ، وتَسامَعَ الناسُ به فوَفَدوا من البُلْدان ، وقَدِمَ عليهم أبو عبد الرَّحْمن عبد الله بن عبد الحَميد العُمَري ، بعد مُحارَبَته النُّوبَة في سنة خمسٍ وخمسين ومائتين ، ومَعَه رَبيعَة وجُهَيْنَة وغيرهم من العَرَب ؛ فكَثُرَت بهم العِمارَة في البُجَة ، حتى صارَت الرَّواحِلُ التي تَحْمِل المِيرَة إليهم من أُسْوان ستين ألف راحِلَة ، غير الجِلَاب التي تَحْمِل من القُلْزُم إلى عَيْذاب ، ومالَت البُجَة إلى رَبيعةَ وتَزَوَّجوا إليهم[1] .

وقيل إنَّ كُهَّانَ البُجَة قَبْل إسْلام من أَسْلَم منهم ، ذَكَرَت عن مَعْبودِهم الطَّاعةَ لرَبيعَة ولكَنون معًا ، فهم على ذلك .

فلمَّا قُتِلَ العُمَري ، واسْتَوْلَت رَبيعةُ على الجَزائِر ، والاهُم على ذلك البُجَة / ، فأَخْرَجت من خَالَفَها من العَرَب ، وتَصاهَرُوا إلى رُؤَساء البُجَة ، وبذلك كُفَّ ضَرَرُهُم عن المسلمين .

والبُجَةُ الداخِلَةُ في صَحْراء بلَد عَلْوَة ممَّا يلي البَحر المِلْح إلى أوَّل الحَبَشَة ، ورِجالُهم في الظُّعْن والمَواشي واتِّباع الرَّعْي والمَعيشَة والمَراكِب والسِّلاح ، كحال الحَدارِب ، إلَّا أنَّ الحَدارِب أَشْجَع وأَهْدَى من الدَّاخِلةِ على كُفْرهم من عِبادَة الشَّيْطان والاقْتِداء بكُهَّانِهم .

ولكُلِّ بَطْنٍ كاهِن يَضْرب له قُبَّة من أَدَم مَعْبَدُهم فيها ؛ فإذا رأوا اسْتِخْباره عمَّا يَحْتاجُون إليه ، تَعَرَّى ودَخَلَ إلى القُبَّة مُسْتَدْبِرًا ، ويَخْرُج إليهم وبه أَثَرُ جنون وصَرَع ، يقول : الشَّيْطانُ يُقْرِئُكم

[1] عن دور أبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العُمَري في بلاد النوبة راجع ، البلوي : سيرة أحمد بن طولون ٦٤–٦٧ ، وهو فيه عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عمر بن الخطَّاب يكنى أبا عبد الرحمن ! ؛ المقريزي : المقفى الكبير ٤:٤٠٣–٤١٥ (ترجمة حافلة) .

السَّلام ، ويقولُ لكم ارْحَلُوا عن هذه الحِلَّة فإنَّ الرَّهْطَ الفُلاني يَقَع بكم ؛ وسَأَلْتُم عن الغَزْو إلى بَلَد كذا ، فسيروا فإنَّكم تَظْفَرُون وتَغْنَمون كذا وكذا ، والجِمالُ التي تأْخُذُونها من مَوْضِع كذا هي لي ، والجارِيَة الفُلانيَّة التي تَجِدُونَها في الخِبَاء الفُلاني ، والغَنَم التي من صِفَتِها كذا ، ونحو هذا القَوْل .

فيَزْعُمون أنَّه يَصْدُقُهم في أَكْثَر من ذلك ، فإذا غَنِموا أَخْرَجوا من الغَنيمَة ما ذُكِر ، ودَفَعوه إلى الكاهِن يَتَمَوَّله ، ويُحَرِّمون أَلْبانَ نُوقِها على من لم يَقْبَل . فإذا أرادُوا الرَّحيلَ ، حَمَلَ الكاهِنُ هذه القُبَّة على جَمَل مُفْرَد ، فيَزْعُمون أنَّ ذلك الجَمَل لا يَثُور إلَّا بجُهْد – وكذلك سَيْرُه – ويَتَصَبَّب عَرَقًا ، والخَيْمَة فارِغَة لا شيءَ فيها .

وقد بَقِيَ في الحَدارِب جَماعةٌ على هذا المَذْهَب ، ومنهم من يَتَمسَّك بذلك مع إسْلامه .

قال مُؤَرِّخُ النُّوبَة ، ومنه لَخَّصْتُ ما تَقَدَّم ذِكْرُه : وقد قَرأْتُ في خُطْبَة الأَجْناس لأَمير المُؤْمنين عليّ بن أبي طالِب – رضي الله عنه – ذِكْر البُجَة والكُجَة ، ويقول عنهم : شَديدٌ كَلَبُهم ، قليلٌ سَلَبُهم . فالبُجَة كذلك ، وأمَّا الكُجَة فلا أَعْرِفُهم . انتهى ما ذَكَرَه عبدُ الله بن أَحْمَد مُؤَرِّخُ النُّوبَة .

وقال أبو الحسن المَسْعودي : فأمَّا البُجَة فإنَّها نَزَلت بين بَحْر القُلْزُم ونيل مصر ، وتَشَعَّبوا فِرَقًا ومَلَّكُوا عليهم مَلِكًا . وفي أرْضِهم مَعادِنُ الذَّهَب – وهو التِّبْر – ومعادِنُ الزُّمُرُّد . وتَتَّصل سَراياهُم ومَناسِرُهم على النُّجُب إلى بِلاد النُّوبَة ، فيُغيرون[a] ويَسْبُون ؛ وقد كانت النُّوبَةُ قبل ذلك أَشَدَّ من البُجَة إلى أن قَوِيَ الإسْلامُ وظَهَر ، وسَكَن جَماعةٌ من المسلمين مَعْدِن الذَّهَب وبِلاد العَلَّاقي وعَيْذاب ، وسَكَنَ في تلك الدِّيار خَلْقٌ من العَرَب من رَبيعَة بن نزار بن مَعَدّ بن عَدْنان ، فاشتدَّت شَوْكَتُهم وتَزَوَّجُوا من البُجَة ، فقَوِيَت البُجَة ، ثم صاهَرَها قَوْمٌ من رَبيعَة ، فقَوِيَت رَبيعَة بالبُجَة على من ناوَأَها وجاوَرَها من قَحْطان وغيرهم مِمَّن سَكَن تلك الديار .

وصاحِبُ المَعْدِن في وَقْتِنا هذا[1] – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة – أبو مَرْوان بِشْرُ بن إسْحاق وهو من رَبيعَة[b]، يَرْكَب في ثلاثة آلاف ألف من رَبيعَة وأَحْلافها من مصر واليَمَن ، وثلاثين ألف حَرَّاب على النُّجُب من البُجَة في الحَجَف البجاوِيَّة[c]، وهم الحَدارِبَه[d]، وهم

a) بولاق : يغزون . b) في الأصل وبولاق : بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة ، والتصويب من مروج الذهب .
c) بولاق : النحاوية . d) بولاق : الحدارب والتصويب في مروج الذهب .

[1] أي وقت المسعودي الذي انتهى إلى هذا الموضع من كتابه في هذه السنة وكان بفسطاط مصر (مروج ٢: ١٢٦) .

مسلمون من بين سائرِ البُجَة ، والدَّاخِلَة من البُجَة كُفَّار يَعْبُدُون صَنَمًا لهم [1] .

والبُجَة المالِكَة لمَعْدِن الزُّمُرُّد يتصل ديارُها بالعَلَّاقي ، وهو مَعْدِن الذَّهَب ، وبين العَلَّاقي والنِّيل خمس عشرةَ مَرْحَلة ، وأَقْرَب العِمارَة إليه مَدينة أُسْوَان .

وجَزيرَةُ سَواكِن أَقَلُّ من ميل في ميل ، وبينها وبين البَحْر الحَبَشي بَحْرٌ قصير يُخاض . وأَهْلُها طائِفَة من البُجَة تُسَمَّى الخاسَ ، وهم مسلمون ، ولهم بها مَلِك .

وقال الهَمْداني : نَكَحَ كَنْعانُ بنُ حَام أرتيب بنت تباويل[a] بن ترس بن يافِث ، فوَلَدَت له حقا والأساوِد ونُوبَة وفَزّان[b] والزَّنْج والزَّغاوَة وأجْناس السُّودان [2] .

وقيل البُجَةُ من وَلَد حام بن نُوح ، وقيل من وَلَد كُوش بن كَنْعان بن حَام .

وقيل البُجَة قَبيلَة من الحَبَش أَصْحاب أَخْبِيَة من شَعْر ، وأَلْوانهم أَشَدّ سَوادًا من الحَبَشَةِ ، يتزيُّون بزِيِّ العرب . وليس لهم مُدُنٌ ولا قُرَى ولا مَزارِع ، ومَعيشَتُهم ممَّا يُنْقَل إليهم من أرْض الحَبَشَة وأرْض مصر و النُّوبَة .

وكانت البُجَةُ تَعْبُد الأَصْنام ، ثم أَسْلَمُوا في إمارة عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح ، وفيهم كَرَمٌ وسَماحَة .

وهم قَبائلُ وأَفْخاذٌ ، لكلِّ فَخْذٍ رَئيسٌ . وهم أَهْل نُجْعة ، وطَعامُهُم اللَّحْم واللَّبَن فقط .

ذِكْر مَدينَة أُسْوَان [3]

أُسْوان من قَوْلهم أَسَى الرَّجُل يَأْسَى أَسًى ، إذا حَزِن . ورَجُلٌ أَسْيان وأُسْوان ، أي حَزين . وأُسْوان في آخِر بلاد الصَّعيد ، وهي ثَغْر من ثُغُور الإقْليم يَفْصِل بين النُّوبَة وأرْض مصر .

---

a) بولاق : شاويل . b) بولاق : قران .

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٢٧ .

[2] الهمداني : الإكليل ١ : ٦٥ .

[3] أُسْوان بضم الهمزة كما في معجم البلدان والطالع السعيد للأدفوي ١٧ ، من المدن المصرية الأكثر قدمًا واسمها المصري Soun أو Sounou بمعنى «السوق أو محل التجارة» حيث كانت تُتَبادَل فيها أنواع التجارة بين مصر والسودان فهي آخر بلد في صعيد مصر الأعلى . وهي اليوم قاعدة محافظة أسوان . (البكري : جغرافية مصر ٨٣- ٨٤؛ مجهول المؤلف : الاستبصار ٨٧؛ الإدريسي : نزهة المشتاق ٣٩- ٤١؛ ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٩١- ١٩٢؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣٩٨؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٨ : ٦٤- ٧١؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ٢/ ٤ : ٢١٦- ٢١٧، ومحمود محمد الحويري : أسوان في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٨٠) .

وكانت كثيرَة الحِنْطَة وغيرها من الحبُوب والفَواكِه والخُضْرَاوات والبُقُول . وكانت كثيرَة الحيَوان من الإبِل والبَقَر والغَنَم ، ولحُمانها هناك غاية في الطِّيب والسِّمَن . وكانت أسعارُها أبدًا رَخيصَة ، وبها تِجاراتٌ وبَضائِعُ تُحْمَل منها إلى بلاد النُّوبَة .

ولا يَتَّصل بأُسْوان من شَرْقِها بَلَدٌ إسلاميٌّ ، وفي جَنُوبها جَبَلٌ به مَعْدن الزُّمُرُّد ، وهو في بَرِّيَّة مُنْقَطِعَة عن العِمَارة ، وعلى خمسة عشر يومًا من أُسْوان مَعْدن الذَّهَب .

ويَتَّصِل بأُسْوان من غَرْبِيها الواحات ، ويُسْلَك من أُسْوان إلى عَيْذاب ، ويُتَوَصَّل من عَيْذاب إلى الحِجاز وإلى اليَمَن والهِنْد .

[a]قال المَسْعُوديُّ : ومَدينَةُ أُسْوان يَسْكُنُها خَلْقٌ من العَرَب من قَحْطان / ونِزار بن رَبيعَة ومُضَر ١٩ وخَلْقٌ كثيرٌ من قُرَيْش ، وأكثرُهم من الحِجاز . والبَلَدُ كثيرُ النَّخْل خَصيبٌ كثيرُ الخَيْر تُودَع النَّواةُ في الأَرض ، فتُنْبِت نَخْلَة ، ويُؤْكل من ثَمَرِها بعد سنتين .

ولمن بأُسْوان [من المسلمين][b] ضِياعٌ كثيرةٌ داخِلَة بأرض النُّوبَة ، يُؤَدُّون خَراجَها إلى مَلك النُّوبَة ، وابْتيعت هذه الضِّياعُ من النُّوبَة في صَدْر الإسْلام في دَوْلَة بني أُمَيَّة وبني العَبَّاس .

وقد كان مَلكُ النُّوبَة اسْتَعْدَى المأْمُون – حين دَخَل مصر – على هؤلاء القَوْم ، بِوَفْد وَفَدَهم إلى الفُسْطاط ذَكَرُوا عنه أنَّ أُناسًا من أهْل مَمْلَكَتِه وعَبيدِه باعُوا ضِياعًا من ضِياعِهم ممَّن جاوَرَهم من أهْل أُسْوان ، وأنها ضِياعُه والقَوْم عَبيدٌ لا أمْلاكَ لهم ، وإنَّما تَمَلُّكهم على هذه الضِّياع تَمَلُّك العَبيد العامِرين فيها ؛ فجَعَل المأْمُون أَمْرَهم إلى الحاكِم بمَدينَة أُسْوان ، ومَنْ بها من أهْل العِلْم والشُّيوخ .

وعَلِمَ من ابْتَاع هذه الضِّياع من أهْل أُسْوان أنَّها ستُنْزَع من أَيْديهم ، فاحْتالُوا على مَلِك النُّوبَة بأن يُقَدِّمُوا إلى من ابْتيع منهم من النُّوبَة أنهم إذا حَضَرُوا حَضْرَة الحاكِم ألَّا يُقِرُّوا لمَلِكهم بالعُبُودية ، وأن يَقُولوا : سَبيلُنا مَعاشِر النُّوبة سَبيلُكُم مع مَلِكِكم ، يجبُ علينا طاعَتُه وتَرْك مُخالَفَته ، فإن كنتم أَنْتُم عَبيدًا لمَلِكِكم وأَمْوالِكم له ، فنَحْن كذلك .

فلمَّا جَمَعَ الحاكِمُ بينهم وبين صاحِب الملك ، أَتَوا بهذا الكَلام للحاكِم ونَحْوه مما أَوْقَفُوهم عليه من هذا المَعْنَى ، فمَضَى البَيْع – لعَدَم إقْرارهم بالرِّق لمَلِكهم – إلى هذا الوَقْت ، وتَوارَث الناسُ تلك الضِّياع بأَرْض النُّوبَة من بلاد مَريس .

(a-a) ساقط من الأصل . b) إضافة من المسعودي .

وصارَ النُّوبَةُ أهْلَ مَمْلَكَة هذا الملك نَوْعَيْن : مَنْ وَصَفْنا أحْرار غير عَبيد ، والنَّوْع الآخَر من أهل مملكته عَبيد ، وهم من سَكَنَ النُّوبَة في غير هذه البلاد المُجاوِرَة لأُسْوان ، وهي بلاد مَريس [١].

قالَ : وأمَّا النُّوبَةُ فافْتَرَقتْ فِرْقَتَيْن : فِرْقَةٌ في شَرْق النِّيل وغَرْبه ، فأناخَت على شاطِئه ، واتَّصَلَت دِيارُها بديار القِبْط من أرض صَعيد مصر ، واتَّسَعَت مساكِنُ النُّوبَة على شاطئ النِّيل مُصْعَدَةً ، ولَحِقُوا بقَريبٍ من أعاليه ، وبَنَوا[a] دارَ مَمْلَكَة ، وهي مَدينَة عَظيمة تُدْعَى دُنْقُلَة . والفِرْقَةُ الأُخْرى من النُّوبَة يُقالُ لها عَلْوَة ، وبَنَوا مدينةً عظيمةً سَمُّوها سَوْبَة[b].

والبَلَدُ المتَّصل مَمْلَكته بأرْض أُسْوان يُعْرَف بمَريس ، وإليه تُضافُ الرِّيح المَريسيَّة ، وعَمَلُ هذا المَلِكِ مُتَّصِل بأعْمال مصر من أرْض الصَّعيد ومَدينة أُسْوان [٢].

قالَ : وفي الجانِب الشَّرْقي من صَعيد مصر جَبَلُ رُخام عَظيم كانت الأوائِلُ تَقْطَع منه العُمُد وغيرها . فأمَّا العُمُد والقَواعِد والرُّؤوس التي يُسَمِّيها أهلُ مصر «الأُسْوانِيَّة» ، ومنها حِجارَة الطَّواحين ، فتِلك نَقَرَها الأوَّلون قبل حُدُوث النَّصْرانِيَّة بمِئين من السِّنين ، ومنها العُمُد التي بالإسْكَنْدَرية [٣].

وفي ذي الحِجَّة سنة أربعٍ وأربعين وثلاث مائة أغارَ ملكُ النُّوبَة على أُسْوان ، وقَتَلَ جَمْعًا من المسلمين ، فخَرَجَ إليه محمد بن عبد الله الخازِن على عَسْكر مصر من قِبَل أُونُوجُور بن الإخْشيد ، في مُحَرَّم سنة خمس وأربعين ، فسارُوا في البَرّ والبَحْر ، وبَعَثُوا بعِدَّة من النُّوبَة أَسَرُوهم ، فضُرِبَت أعناقُهم بعد ما أُوْقِعَ بملك النُّوبَة . وسارَ الخازِنُ حتى فَتَح مَدينَة أَبْرِيم وسَبَى أَهْلَها . وقَدِمَ إلى مصر في نصف جُمادَى الأولى سنة خمس وأربعين بمائة وخمسين أَسيرًا وعِدَّة رُؤوس [٤].

وقال القاضي الفاضِلُ : إنَّ مُتَحصَّل ثَغْرِ أُسْوان في سنة خمسٍ وثمانين وخمس مائة بَلَغ خمسة وعشرين ألف دينار .

---

a) نهاية السقط الذي بدأ في الصفحة السابقة . b) بولاق : سرقته .

---

[١] المسعودي : مروج الذهب ٢: ١٣١- ١٣٢.

[٢] نفسه ٢: ١٢٦.

[٣] المسعودي : مروج الذهب ٢: ٧٨ وفيما تقدم ٤٣٢.

[٤] انظر المقريزي : المقفى الكبير ٦: ١٣٧- ١٣٨.

وقال الكَمَالُ جَعْفَر الأُدْفُوي: وكان بأُسْوان ثمانون رَسُولًا من رُسُل الشَّرْع. وتَحَصَّل من أُسْوان في سنة واحِدَة ثلاثون ألف أردبّ تَمْرًا. وأَخْبَرَنا من وَقَفَ على مَكْتُوب كان فيه أَرْبَعون شَرِيفًا خاصَّةً، وأن مَكْتُوبًا آخَرَ رَأَى فيه ستين شَرِيفًا دون من عَدَاهُم؛ قال: ووَقَفْتُ أنا على مَكْتوبٍ فيه نَحْو من أربعين، مُؤَرَّخ بما بعد العشرين وست مائة من الهجرة.

وكان بثَغْر أُسْوان بَنُو الكَنْز من رَبِيعَة، أُمَراءُ مَمْدوحون مَقْصُودون، صَنَعَ لهم الفاضِلُ السَّديد أبو الحَسَن بن عَرَّام سِيرَةً ذَكَرَ فيها مَناقِبَهم وأَسْماءَ مَنْ مَدَحَهم ومَنْ وَرَد عليهم.

ولمَّا أَرْسَلَ السُّلْطانُ صَلاحُ الدين يُوسُف بن أَيُّوب جَيْشًا إلى كَنْز الدَّوْلَة وأَصْحابِه، تَرَحَّلوا عن البِلاد، فدَخَلوا بيوتَهم فوَجَدوا بها قَصائِدَ من مَدْحِهم، منها قَصيدَةُ أبي محمد الحَسَن بن الزُّبَيْر [1]، قال فيها:

[الطويل]

ويُنْجِدُه - إن خَانَه الدَّهْرُ أو سَطَا - أُناسٌ إذا ما أَنْجَدَ الذُّلُّ أُتْهِموا
أَجارُوا فما تَحْتَ الكَواكِبِ خَائِفٌ وجادُوا فما فَوْقَ البَسيطَةِ مُعْدَمُ

وأنَّه أجازَه عليها بألف دينار، ووَقَفَ عليه ساقِيَة تُساوي ألف دينار [2].

وكان بأُسْوان رِجالٌ من العَسْكَر مُسْتَعدون بالأَسْلِحَة لحِفْظ الثَّغْر من هُجُوم النُّوبَة والسُّودان عليه؛ فلمَّا زالَت الدولَةُ الفاطِمية أُهْمِلَ ذلك [3]، فسارَ مَلِكُ النُّوبَة في عشرة آلاف، ونَزَلَ تِجاه أُسْوان في جَزِيرَة، وأَسَرَ مَنْ كان فيها من المُسْلمين.

ثم تَلاشَى بعد ذلك أَمْرُ الثَّغْر، واسْتَوْلَى عليه أَوْلادُ الكَنْز [4] من بعد سنة تسعين وسبع مائة، فأَفْسَدوا فَسادًا كَبيرًا، وكانت لهم مع وُلاة أُسْوان عِدَّة حُروب، إلى أن كانت المِحَنُ منذ سنة ستٍّ وثمان مائة، وخَرِبَ إقْلِيمُ الصَّعيد، فارْتَفَعَت يَدُ السَّلْطَنَة عن ثَغْر أُسْوان، ولم يَبْق / ١٩٩:١ للسُّلْطان في مَدينَة أُسْوان والٍ، واتَّضَعَ حالُه عِدَّة سنين.

---

[1] الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير الأسواني المعروف بالمهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م. (خريدة القصر ١: ٢٠٤؛ معجم الأدباء ٩: ٤٧). والبيت في الديوان ...

[2] الأدفوي: الطالع السعيد ٢٩- ٣١.

[3] أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٧٢٣.

[4] عن بني الكنز الذين أنشئوا في منتصف القرن الرابع الهجري إمارة جنوب مصر أولًا في منطقة العلّاقي ثم انتقلت إلى أسوان إلى أن ضعفت دولتهم بعد تغلُّب قبيلة هَوّارة عليهم في مطلع القرن التاسع الهجري، انظر المقريزي: البيان والإعراب ٤٤- ٤٦؛ عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٩٧٦؛ Holt, P.M., *EI* [2] art. *Banûl Kanz* IV, p. 590.

ثم زَحَفَت هَوَّارَة في محرَّم سنة خمس عشرة وثمان مائة إلى أُسْوان ، وحارَبَت أوْلادَ الكَنْز وهَزَمُوهم ، وقَتَلُوا كثيرًا من النَّاس ، وسَبَوْا ما هُناك من النِّساء والأوْلاد ، واسْتَرَقُّوا الجَميع ، وهَدَمُوا سُورَ مَدينَة أُسْوان ، ومَضَوا بالسَّبْي ، وقد تَرَكُوها خَرابًا يَبابًا لا سَكَنَ بها . فاسْتَمَرَّت على ذلك بعد ما كانت بحَيْثُ يقول عنها عبدُ الله بن أحمد بن سُلَيْم الأُسْواني في كتاب «أخْبار النُّوبَة» : إنَّ أبا عبد الرَّحْمَن عبد الله بن عبد الحَميد العُمَري لمَّا غَلَبَ على المَعْدِن ، كَتَبَ إلى أُسْوان يسأل التُّجَّار الخُروجَ إليه بالجِهاز من طَريق المَعْدن ، فخَرَجَ إليه رَجُلٌ يُعْرَف بعُثْمان بن حَنْجَلَة التَّميمي في ألف راحِلَة فيها الجِهاز والبر .

وذَكَرَ أنَّ العُمَرِيَّ لمَّا عادَ إلى بلاد البُجَة بعد حُروبه للنُّوبَة ، كَثُرَت العِمارَة حتى صارَت الرَّواحِل التي تَحْمِل المِيرَةِ إليهم من أُسْوان ستين ألف راحِلَة ، غير الجِلاب التي تَحْمل من القُلْزُم إلى عَيْذاب [1] .

قال : ومِمَّا شاهَدَه جَماعَةٌ من شُيوخِنا الثِّقات بأُسْوان بقَرْيَة تُدْعَى أَساشي ، هي من أُسْوان على مَرْحَلَتَيْن ونصف ، أنهم رَأَوْا شَرْقَها من جانِب النِّيل قَرْيَة بسُورٍ وخارِج بابها جِمِّيزَة ، وناسٌ يَدْخُلون ويَخْرُجون ، فإذا عَبَرُوا إلى المَوْضِع لم يَجدوا شيئًا ؛ وهذا يكونُ في الشِّتاء دُون الصَّيْف قبل طُلُوع الشَّمْس . والناسُ مُجْمِعون على رُؤْيَتها ، وصِحَّة هذا الخَبَر .

وكان بها أنواعٌ من التَّمْر ، وأنْواعٌ من الرُّطَب ، منها نوعٌ من الرُّطَب أَشَدُّ ما يكون من خُضْرَة السِّلْق . وأَمَرَ هارون الرَّشيد أن يُجْمَع له من ألْوان تَمْر أُسْوان من كلِّ صِنْفٍ تَمْرَة واحِدة ، فجُمِع له وَيْبَة ، ولا يُعْرَف في الدُّنْيا بُسْر يَتَتَمَّر قبل أن يصير رُطبًا إلَّا بأُسْوان .

ذِكْرُ بِلاق

بِلَاق أَجَلُّ حِصْنٍ للمسلمين ، وهي جَزيرَةٌ تَقْرُب من الجَنادِل مُحيطٌ بها النِّيل ، فيها بَلَدٌ كبيرٌ يسكنه خَلْقٌ كثيرٌ من الناس . وبها نَخْلٌ عظيمٌ ، ومِنْبَرٌ في جامِع وإليها تَنْتَهِي سُفُنُ النُّوبَة وسُفُنُ المسلمين من أُسْوان . وبينها وبين القرية التي تُعْرَف بالقَصْر – وهي أَوَّلُ بَلَدِ النُّوبَة – ميل واحِد [2] . وبينها وبين أُسْوان أربعة أَمْيال . ومن أُسْوان إلى هذا المَوْضِع جَنادِلُ في البحر لا تَسْلُكُها المَراكِبُ إلَّا بالحيلَة ودَلالَة من يُخبر ذلك من الصَّيَّادين الذين يَصيدون هناك .

---

[1] انظر فيما تقدم ٥٣٤.

[2] أورد المقريزي هذا النص فيما تقدم ٥١٧ نقلًا عن ابن سليم الأسواني .

وبالقَصْر مَسْلَحَة وباب إلى بَلَد النُّوبَة [١].

ذِكْرُ حَائِط العَجُوز

هذا الحائِطُ كان حِصْنًا لأرض مصر يُحْدِق بجميعها، وكان فيه مَحارِس ومَسالِح، ومن وَرائِه خَليجٌ يَجْرِي فيه الماءُ، مَعْقودٌ عليه القَناطِر، عَمِلَته دَلُوكَة بنت زَبَّاء، وقد وَهَى وتَلاشَى، ولم يَبْقَ منه إلَّا يَسير في شَطِّ النِّيل الشَّرْقي ينتهي إلى أُسْوان [٢].

قال أبو القاسِم عبد الرَّحْمَـٰن بن عبد الله بنُ عبد الحَكَم، في كتاب «فُتُوح مِصْر»: فبَقِيَت مصر بعد غَرَقِهم - يعني فِرْعَون وجُنُوده - وليس فيها من أَشْراف أَهْلِها أَحَدٌ، ولم يَبْقَ بها إلَّا العَبيدُ والأُجَراءُ والنِّساءُ. فأَعْظَمَ أَشْرافُ من بمصر من النِّساء أن يُوَلِّين منهم أحدًا، وأَجْمَع رَأْيُهُنَّ أن يُوَلِّين امْرَأَةً منهن يُقالُ لها دَلُوكة بنت زَبَّاء، وكان لها عَقْلٌ ومعرفةٌ وتَجارِبُ، وكانت في شَرَفٍ منهن ومَوْضعٍ، وهي يومئذٍ بنت مائة سنة وستين سنة؛ فمَلَّكُوها، فخافَت أن يَتَناوَلَها مُلوكُ الأَرْض، فجَمَعَت نِساءَ الأَشْراف فقالت لهن: إنَّ بلادَنا لم يكُن يَطْمَعُ فيها أحَدٌ، ولا يَمُدّ عينَه إليها، وقد هَلَكَ أكابِرُنا وأشْرافُنا، وذَهَبَ السَّحرةُ الذين كُنَّا نَقْوَى بهم. وقد رأيتُ أن أَبْني حِصْنًا أُحْدِق به جَمِيع بلادِنا، فأَضَعُ عليه المَحارِس من كلِّ ناحية، فإنَّا لا نَأْمَن من أن يَطْمَع فينا الناسُ.

فبَنَت جِدارًا أحاطَت به على جَميع أَرْض مصر كلِّها، المَزارِعُ والمَدائِنُ والقُرَى، وجَعَلَت دونَه خَليجًا يَجْرِي فيه الماءُ، وأقامَت القَناطِرَ والتُّرَع، وجَعَلَت فيه مَحارِسَ ومَسالحَ، على كلِّ ثلاثة أَمْيال مَحْرَس ومَسْلَحَة، وفيما بين ذلك مَحارِس صِغارًا على كلِّ ميل. وجَعَلَت في كلِّ مَحْرَس رجالًا، وأَجْرَت عليهم الأَرْزَاق. وأَمَرَتهم أن يُجْرِسوا بالأَجْراس، فإذا أتاهُم أَحَدٌ يَخافُونَه ضَرَب بعضُهم إلى بَعْض بالأَجْراس، فأتاهُم الخَبَرُ

---

[١] بلاق. كلمة مصرية قديمة بمعنى الموردة أو المرساة التي ترسو بها السفن، فكما كانت أسوان تقع بالطرف البحري من الشلال كانت بلاق تقع بالطرف الجنوبي منه ميناء للسفن الحاملة للأصناف الواردة من السودان والصادرة إليه. ويدل على موقعها اليوم جزيرة المعبد وجزيرة أنس الوجود جنوب أسوان (الإدريسي: نزهة المشتاق ٣٨- ٣٩؛ ياقوت: معجم البلدان ١: ٤٧٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ١٨٨؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ١٦٧، ١٨٧، ٢/ ٤: ٢١٦-٢١٧).

[٢] النويري: نهاية الأرب ١: ٣٩٢؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٩.

من أيِّ وَجْه كان[a] فمَنَعَت بذلك مِصْرَ ممَّن أرادَها .

وفَرَغَت من بنائه في ستة أشهر . وهو الجِدارِ الذي يُقالُ له جِدارُ العَجُوز بمصر ، وقد بَقِيَت بالصَّعيد منه بَقايا كبيرة . والله أعْلَم[1] .

ذِكْرُ البَــقْط

البَقْطُ ما يُقْبَضُ من سَبْي النُّوبَة في كلِّ عام ، ويُحْمَل إلى مصر ضَرِيبَةً عليهم ؛ فإن كانت هذه اللَّفْظَة[b] عَرَبِيَّة فهي إمَّا من قَوْلِهم : في الأَرْض بَقطٌ من بَقْل وعُشْب ، أي نَبَذٌ من مَرْعَى ، فيكون معناه على هذا : نَبْذة من المال ، أو / يكون من قَوْلهم إنَّ في بَني تَميم بَقْطًا من رَبِيعَة أي فِرْقَة أو ١: قطعة ، فيكون معناه على هذا : فرقة مِن المال أو قِطْعَة منه ؛ ومنه بَقْطُ الأرض فِرْقَةٌ منها ، وبَقَطَ الشَّيءَ فَرَّقه ؛ والبَقْطُ أن تُعْطي الحَبَّة على الثُّلُث أو الرُّبُع ؛ والبَقْطُ أيضًا ما سَقَط من التَّمْر إذا قُطِعَ فأخطأه المِخْلَب[c] ، فيكون مَعناه على هذا بَعْض ما في أَيْدي النُّوبَة .

وكان يُؤْخَذُ منهم في قَرْيَة يُقال لها القَصْر ، مَسافَتها من أُسْوان خمسة أَمْيال فيما بين بَلَدِ بُلاق وبلد النُّوبَة ، وكان القَصْرُ فُرْضَةً لقُوص[2] .

وأوَّلُ ما تَقَرَّر هذا البَقْطُ على النُّوبَة في إمارَة عَمْرو بن العَاص ، لمَّا بَعَثَ عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح بعد فَتْح مصر إلى النُّوبَة سنة عشرين – وقيل سنة إحدى وعشرين – في عشرين ألفًا ، فمَكَثَ بها زَمانًا ، فكَتَبَ إليه عَمْرو يَأْمُرُه بالرُّجوع إليه .

فلمَّا ماتَ عَمْرو – رضي الله عنه – نَقَضَ النُّوبَةُ الصُّلْحَ الذي جَرَى بينهم وبين عبد الله بن سَعْد ، وكَثُرَت سَراياهم إلى الصَّعيد فأَخْرَبُوا وأَفْسَدوا . فغَزاهُم مرَّةً ثانية عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح وهو على إمارَة مصر في خِلافَة عُثْمان – رضي الله عنه – سنة إحدى وثلاثين ، وحَصَرهم بمَدينة دُنْقُلَة حِصارًا شَديدًا ، ورَماهُم بالمَنْجَنيق – ولم تَكُن النُّوبَةُ تعرفه – وخَسَفَ بهم كَنِيسَتَهم بحَجَر ؛ فبَهَرَهُم ذلك وطَلَبَ مَلِكُهم – واسْمه قليدوروث – الصُّلْحَ ، وخَرَج إلى عبد الله وأَبْدَى ضَعْفًا ومَسْكَنَة وتَوَاضُعًا ؛ فتلقَّاه عبد الله ورَفَعَه وقَرَّبَه ، ثم قَرَّر الصُّلْحَ معه على ثلاث مائة وستين

a) بولاق : من أي جهة كانت . b) بولاق : الكلمة . c) بولاق : المخرف .

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٦-٢٧ وفيما تقدم ١٠١، ٣٨٧.

[2] انظر فيما تقدم ٥١٧، ٥٤٠.

رأسًا في كلّ سنة [1]، ووَعَدَه عبدُ الله بحُبُوبٍ يُهْديها إليه لمّا شَكَا له قِلّة الطَّعام ببَلَدِه، وكَتَبَ لهم كِتابًا نُسْخَتُه بعد البَسْمَلَة:

«عَهْدٌ من الأَمير عَبْد الله بن سَعْد بنِ أبي سَرْح لعَظيم النُّوبَة ولجَميع أهْل مَمْلَكته، عَهْدٌ عَقَدَه على الكبير والصَّغير من النُّوبَة من حَدِّ أرْض أُسْوان إلى حَدّ أَرْض عَلْوَة: أنَّ عبدَ الله بن سَعْد جَعَلَ لهم أمانًا وهُدْنَة جارِيَة بينهم وبين المُسْلمين ممَّن جاوَرَهم من أهْل صَعيد مصر وغَيرهم من المُسْلمين وأهْل الذِّمَّة.

إنَّكُم مَعاشِرَ النُّوبَة آمِنُون بأمانِ الله وأمانِ رَسُوله محمد النَّبيّ ﷺ ألَّا نُحارِبَكُم، ولا نَنْصُب لكم حَرْبًا، ولا نَغْزُوكُم، ما أَقَمْتُم على الشَّرائِط التي بَيْنَنا وبَيْنَكُم؛ على أن تَدْخُلوا بَلَدَنا مُجْتازين غير مُقيمين فيه، ونَدْخُل بَلَدَكم مُجْتازين غير مُقيمين فيه.

وعليكم حِفْظ من نَزَلَ بَلَدَكم أو يَطْرُقَه من مُسْلم أو مُعاهِد حتى يَخْرُج عنكم. وإنَّ عليكم رَدَّ كلّ آبِقٍ خَرَجَ إليكم من عَبيد المُسْلمين حتى تَرُدُّوه

---

[1] البَقْط هو الضريبة السنوية التي كانت تدفعها النوبة المسيحية للدولة الإسلامية في مصر مقابل الهدنة المعقودة بينهما، وهي عبارة عن ٣٦٥ رأسًا من السَّبْي لبيت مال المسلمين بالإضافة إلى أربعين رأسًا تُحْمَل لأمير مصر وعشرين رأسًا لوالي أسوان الذي يتولَّى قبض البَقْط، وخمسة للأمير المقيم بأسوان، واثني عشر رأسًا للاثنى عشر شاهد عَدْل الذين يحضرون مع الحاكم قبض البَقْط في قرية القَصْر (انظر إضافة إلى نصّ المقريزي، البلاذري: فتوح البلدان ٢٨١، ٢٨٢؛ المسعودي: مروج الذهب ٢: ١٢٩، ١٣٠؛ Lokkegaard, F., EI^2 art. *Bakt* I, p. 996; Beshir, B.I., «New Lights on the Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), p. 16). وفي أثناء سنة ١٩٧٢ عثر في منطقة قصر إبريم في النوبة على عدد من لفائف البردي بينها بردية تعدّ من أروع الوثائق البردية المكتشفة حتى الآن طولها ٢٥٥سم وعرضها ٣٥,٥سم مكتوب على وجهها ٦٩ سطرًا بخط جميل، وهي خطابٌ رسمي موجّه من والي مصر موسى بن كعب إلى صاحب مَقُرّه والنوبة في رجب سنة ١٤١هـ/٧٥٨م، متضمّنة الحديث عن البقط الذي يجب عليه دفعه إلى الحكومة الإسلامية في مصر. ويُرَجّح أنَّ هذه الوثيقة ليست هي الوثيقة الأصلية لأنّها لا تشتمل على أية إشهادات، وإنّما صورةٌ نسخت عنها في نفس التاريخ لتحفظ في أرشيف النوبة. (راجع Plumley, M., «An Eighth - Century Arabic Letter to the King of Nubia». *JEA* 61 (1975), pp. 241-45، الذي قدّم ترجمةً لنصّ الوثيقة؛ كما نَشَرَ حمدي السكوت ومارتين هينز النّصّ العربي للوثيقة انظر، Hinds, M. & Sakkut, H., «A Letter from the Governor of Egypt to the King of Nubia and Muqurra concerning Egyptian - Nubian Relations in 141/758», in *Studia Arabica et Islamica: Festschrift for Ihsan ʿAbbâs on his sixtieth birthday.* Ed. Wadâd al-Qâdi, Beirut - AUB 1981, pp. 209-24; Halm, H., «Der nubiache baqt» in Vermeulen, U. & De Smet, D. (eds.) *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras,* Leuven 1998, pp. 63-103).

إلى أرْض الإسْلام ، ولا تَسْتَوْلُوا عليه ، ولا تَمْنَعُوا منه ، ولا تَتَعرَّضُوا لمُسْلم قَصَدَه وحاوَرَه إلى أن يَنْصرِف عنه .

وعليكُم حِفْظ المَسْجد الذي ابْتَناه المُسْلمون بفِناء مَدِينَتكم ، ولا تَمْنَعُوا منه مُصَلِّيًا ، وعليكم كَنْسه وإسْراجُه وتَكْرِمَته .

وعليكم في كلِّ سنةٍ ثلاث مائة وستُّون رَأْسًا تَدْفَعُونَها إلى إمام المُسْلمين من أَوْسَط رَقِيق بِلادِكم غير المَعيب ، يكون فيها ذُكْران وإناث ، ليس فيها شَيْخٌ هرِم ولا عَجُوز ولا طِفْل لم يَبْلُغ الحُلُمُ ؛ تَدْفعون ذلك إلى والي أُسْوان .

وليس على مُسْلمٍ دَفْع عَدُوٍّ عَرَضَ لكم ، ولا مَنْعُه عنكم من حَدِّ أرْض عَلْوَة إلى أرض أُسْوان ؛ فإن أنتم آوَيْتُم عَبْدًا لمُسْلم ، أو قَتَلْتُم مُسْلمًا أو مُعاهِدًا ، أو تعَرَّضْتم للمَسْجِدِ الذي ابْتَناه المسلمون بفِناء مَدِينَتكم بهَدْم ، أو مَنَعْتُم شيئًا من الثلاث مائة رأْس والستين رَأْسًا ، فقد بَرِئَت منكم هذه الهُدْنَة والأَمان ، وعُدْنا نحن وأنتم على سَواء ، ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ ﴾ بَيْنَنَا ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ [الآية ١٠٩ سورة يونس] ؛ عَلَيْنا بذَلك عَهْدُ الله ومِيثاقُه وذِمَّته وذِمَّةُ رَسُوله محمد ﷺ ، ولنَا عليكم بذلك أَعْظَم ما تَدِينُون به من ذِمَّة المسيح وذِمَّة الحَوارِيين وذِمَّة من تُعَظِّمُونه من أهْل دِينِكم ومِلَّتِكم ، الله الشَّاهِد بيننا وبينكم على ذلك .

كَتَبه عَمْرو بن شُرَحْبيل[1] في رمضان سنة إحدى وثلاثين» .

وكانت النُّوبَةُ دَفَعَت إلى عَمْرو بن العَاص ما صُولِحوا عليه من البَقْط قبل نَكْثِهم ، وأَهْدَوا إلى عَمْرو أربعين رأسًا من الرَّقيق فلم يَقْبَلْها ورَدَّ الهَدِيَّة إلى كبير القِبْط[a] - ويُقالُ له نَستقوس[b] - فاشْتَرَى له بذلك جِهازًا وخَمْرًا ووَجَّهَه إليه[2] .

---

a) الأصل وبولاق : كبير البقط والمثبت من فتوح مصر لابن عبد الحكم وفيه : عظيم من عظماء القبط. b) بولاق : سمقوس ، الأصل : سقموس والمثبت من فتوح مصر.

---

[1] أبو مَيْسَرَه عمرو بن شُرَحْبيل الهَمْداني الكوفي (ابن سعد : الطبقات الكبرى ٦:١٠٦-١٠٩؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤:١٣٥-١٣٦) .

[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٨٩.

وبعَثَ إليهم عبدُ الله بن سَعْد ما وَعَدَهم به من الحُبُوب : قَمْحًا وشَعيرًا وعَدَسًا ، وثِيابًا ، وخَيْلًا . ثم تطاوَل الرَّسْم على ذلك فصارَ رَسْمًا يأْخُذُونه عند دَفْع البَقْط في كلِّ سنة ، وصارَت الأربعون رأْسًا التي أُهْدِيت إلى عَمْرو يأْخُذُها والي مصر .

وعن أبي خَلِيفة حُمَيْد بن هِشام البُحْتُري أنَّ الذي صُولِحَ عليه النُّوبَة ثلاث مائة وستون رأْسًا لفَيْءِ المسلمين ، ولصاحِب مصر أربعون رأْسًا ، ويُدْفَع إليهم ألف أرْدَبّ قَمْحًا ، ولرُسُله ثلاث مائة أرْدَبّ ، ومن الشَّعير كذلك ، ومن الخَمْر ألف أقْنين[a]، للمُتَمَلِّك ولرُسُله ثلاث مائة أقْنين[a]، وفَرَسَيْن من نِتاج خَيْل الإمارَة ، ومن أصْناف الثِّياب مائة ثَوْب ، ومن القَباطي أربعة أثْواب للمُتَمَلِّك ولرُسُله ثلاثة ، ومن البَقْطَرية ثمانية أثواب ، ومن المُعَلَّمة خمسة أثْواب ، وجُبَّة مُجَمَّلة للمَلِك ، ومن قُمُص أبي بُقْطُر عشرة أثْواب ، ومن أحاصي عشرة أثواب ، وهي ثياب غِلاظ .

قال أبو خَليفَة : ليس في كِتابِ عبد الله بن وَهْب ، ولا في كتاب الواقِدي ، تَسْمية يُنْتَهَى إليها ، وإنَّما أَخَذْتُ التسمية من أبي زَكَريّا ، قال أبو زَكَريّا : سَمِعْتُ والدي عُثْمان[b] بن صالِح يقول هذا الخَبَر ، فحَفِظتُ منه ما وَقَفْتُ عليه .

وقال : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الأمير عبد الله بن طاهِر ، وهو على مصر ، فقال / : أنت عُثْمان بن ٢٠١:١
صالِح الذي وَجَّهْنا إليك في كتاب بَقْط النُّوبَة ؟ قلت : نَعَم ؛ فأَقْبَل على مَحْفُوظ بن سُلَيْمان فقال : ما أَعْجَبَ أَمْر هذه البَلْدَة ! وَجَّهْنا إليهم نَطْلُب عِلْمًا من عُلومهم وإلى هذا الشَّيْخ ، فما شَفَانا أَحَدٌ منهم ؛ فقُلْتُ : أَصْلَحَ الله الأَمير ، إنَّ الذي طَلَبْتَ من خَبَر النُّوبَة عِنْدي ، قد حَفِظَه شُيوخٌ عن الشُّيوخِ الذين حَضَرُوا هناك ، والهُدْنَة والصُّلْح الذي جَرَى بين عبد الله بن سَعْد وبين النُّوبَة ؛ ثم حَدَّثته عن أَخْبارهم كما سَمِعْت ، فأَنْكَرَ عَطِيَّة الخَمْر ، فقلت : قد أَنْكَرَها عبدُ العزيز ابن مَرْوان . وكان هذا المَجْلِسُ بفُسْطاط مصر سنة إحدى عشرة ومائتين ، بعد أن تَمَّ الصُّلْحُ بينه وبين عبد الله بن السَّرِيّ بن الحكَم التَّميمي الأَمير كان قَبْلَه .

قال عُثْمانُ بن صالِح : فوَجَّه الأميرُ إلى الدِّيوان بظَهْر المَسْجِد الجامِع بمصر ، فاسْتَخْرَج منه خَبَر النُّوبَة فوَجَدَه كما ذَكَرْت ، فسَرَّه ذلك .

---

a) بولاق : أقنيز . b) في النسخ : عمرو ، والصواب ما أثبتناه فالخبر عن أبي زكريا يحيى بن عثمان بن صالح ، وكما صوبه المقريزي في السطور التالية .

وعن مالك بن أَنَس أنّه كان يَرَى أنَّ أَرْضَ النُّوبَة إلى حَدِّ عَلْوَة صُلْح ، وكان لا يُجيز شِراءَ رَقيقِهم ، وكان أَصْحابُه مثل عبد الله بن عبد الحكَم وعبد الله بن وَهْب واللَّيْثُ بن سَعْد ويَزِيدُ بن أبي حَبيب وغيرهم من فُقهاءَ مصر يَرَوْن خِلافَ ذلك .

قال اللَّيْثُ بن سَعْد : نحن أَعْرَفُ بأَرْض النُّوبَة من الإمام مالكِ بنِ أَنَس ، إنَّما صُولِحُوا على ألَّا نَغْزوهم ولا نَمْنَع منهم عَدُوًّا ، فما اسْتَرَقَّه مُتَمَلِّكهم أو غزَا بعضُهم بعضًا فشِراؤه جائزٌ ، وما اسْتَرَقَّه بُغاةُ المسلمين وسُرّاقُهم فغَيْرُ جائِز . وكان عند جماعَةٍ منهم جَوارٍ نُوبِيّات لفَرْشِهم .

ولم يَزَل النُّوبَة يؤدُّون البَقْط في كلِّ سنة ، ويُدْفَع إليهم ما تقدَّم ذكره ، إلى أَيَّام أَمير المؤمنين المُعْتَصِم بالله أبي إسْحاق بن الرَّشيد ، وكَبيرُ النُّوبَة يومئذٍ زَكريّاء بن يُحَنِّس . وكانت النُّوبَةُ رُبَّما عَجَزَت عن دَفْع البَقْط ، فشَنَّت الغارَة عليهم وُلاةُ المسلمين القريبون من بلادهم ، ويُمْنَع من إخْراج الجِهاز إليهم ، فأَنْكَر قِيْرقي وَلَد كبيرهم زَكريّاء على أبيه بَذْله الطّاعة لغَيْره ، واسْتَعْجَزَه فيما يَدْفَع ، فقال له أبوه : فما تَشَاء ؟ قال : عِصيانُهم ومُحارَبتهم . قال أَبوه : هذا شيءٌ رآه السَّلَفُ من آبائِنا صَوابًا ، وأَخْشَى أن يُفْضي هذا الأَمْرُ إليك فتُقْدِم على مُحارَبة المسلمين ، غير أنّي أُوَجِّهك إلى مَلِكِهم رَسُولًا ، فأنت تَرَى حالَنا وحالَهم ، فإن رأيت لنا بهم طاقَةً حارَبْناهم على خِبْرَة ، وإلَّا سألته الإحسانَ إلينا .

فشَخَصَ قِيرْقي إلى بَغْداد ، وكانت البُلْدان تُزَيَّن له ويَسير على المُدُن ، وانْحَدَر بانْحِداره رئيس البُجَة بأَسْبابه ، ولَقِيا المُعْتَصِم فنَظَرَا إلى ما بَهَرَهُما من حال العِراق في كَثْرة الجُيوش وعِظَم العِمارَة مع ما شاهَداه في طريقهما . فقَرَّب المُعْتَصِم قِيْرقي وأَدْناه ، وأَحْسَن إليه إحسانًا تامًّا ، وقَبِلَ هديَّته وكافأه بأَضْعافِها ، وقال له : تَمَنَّ ما شِئْت ؛ فسَأَلَه في إطْلاق المَحْبوسين فأجابَه إلى ذلك .

وكَبُرَ في عَيْنِ المُعْتَصم ، ووَهَبَ له الدار التي نَزَلَها بالعِراق ، وأَمَرَ أن يُشْتَرَى له في كلِّ مَنْزِل من طريقه دارٌ تكون لرُسُلِهم ، فإنَّه امْتَنَع من دُخُولِ دارٍ لأَحَدٍ في طريقه ، فأُخِذَ له بمصر دارٌ بالجِيزَة ، وأخرى ببَني وائِل .

وأَجْرَى لهم في ديوان مصر سبع مائة دينار ، وفَرَسًا وسِرْجًا ولِجامًا ، وسَيْفًا مُحَلًّى ، وثَوْبًا مُثْقَلًا ، وعِمامَة من الخَزّ ، وقَميصَ شَرْب ورداءَ شَرْب ، وثِيابًا لرُسُله غير مَحْدودَة عند وُصُول البَقْط إلى مصر ، ولهم حِمْلان وخِلَع على المتولِّي لقَبْض البَقْط ، وعليهم رُسومٌ مَعْلومة لقابِض البَقْط والمُنْصرفين معه ، وما يُهْدَى إليهم بعد ذلك فغير مَحْدود ، وهو عندهم هَدِيَّة يُجازون عليها .

ونَظَرَ المُعْتَصِمُ إلى ما كان يَدْفَعُه المسلمون فوَجَدَه أكثر من البَقْط ، وأَنْكَر عَطِيَّة الخَمْر ، وأَجْرَى الحُبوبَ والثِّيابَ التي تقدَّم ذكرها ، وقَرَّرَ دَفْع البَقْط بعد انْقِضَاء كلِّ ثلاث سنين ، وكَتَبَ لهم كِتابًا بذلك بقي في يد النُّوبَة .

وادَّعى النُّوبيُّ على قَوْمٍ من أهْل أُسْوان أنَّهم اشْتَروا أمْلاكًا من عبيده ، فأمَرَ المُعْتَصِم بالنَّظَر في ذلك ، فأَحْضَرَ والي البَلَد والمُخْتار للحُكْم فيه التابعين من النُّوبَة وسألاهم عمَّا ادَّعاه صاحِبُهم من بَيْعهم ، فأنْكَروا ذلك وقالوا : نحن رَعِيَّة ، فزالَ ما ادَّعاه .

وطَلَبَ أَشْياءَ غير ذلك من إزالَة المَسْلَحَة المعروفة بالقَصْر عن مَوْضِعِها إلى الحَدِّ الذي بينهم وبين المُسْلمين ؛ لأنَّ المَسْلَحَة على أرْضِهم ، فلم يُجِبْه إلى ذلك . ولم يَزَل الرَّسْمُ جارِيًا بدَفْع البَقْط على هذا التَّقْرير ، ويُدْفَع إليهم ما أجْراه المُعْتَصِم ، إلى أن قَدِمَت الدولةُ الفاطِمية إلى مصر [1] ، ذَكَرَ ذلك مُؤَرِّخُ النُّوبَة .

وقال أبو الحَسَن المَسْعودِي : والبَقْطُ هو ما يُقْبَض من السَّبْي في كلِّ سَنَة ويُحْمَل إلى مصر ضَريبةً عليهم ، وهو ثلاث مائة رأس وخمسة وستون رأسًا لبَيْت المال [2] ، بشَرْط الهُدْنَة بين النُّوبَة والمسلمين ؛ وللأمير بمصر غير ما ذَكَرنا أرْبعون رأسًا ، ولخَليفَتِه المُقيم بأُسْوان - وهو المُتَوَلِّي لقَبْض البَقْط - عشرون رأسًا ، وللحاكِم المُقيم بأُسْوان الذي يَحْضُر مع أمير أُسْوان قَبْضَ البَقْط خمسة أرؤس ، ولاثني عشر شاهِدًا عُدول من أهْل أُسْوان يَحْضُرون مع الحاكِم لقَبْض البَقْط اثنا عشر رأسًا من السَّبْي على حَسَب ما جَرَى به الرَّسْمُ في صَدْر الإسْلام في بَدْء إيقاع الهُدْنَة بين المسلمين والنُّوبَة [3] .

وقال البَلاذُري في كتاب «الفُتُوحات» : إنَّ المُقَرَّر على النُّوبَة أربع مائة رأس يأْخُذون بها طَعامًا - أي غَلَّة - وأَلْزَمَهُم أميرُ المؤمنين المَهْدي محمد بن أبي جَعْفَر المَنْصُور ثلاث مائة وستين رأسًا وزرافَة [4] .

/ وفي سنة أربع وسبعين وستّ مائة كَثُرَ خَبَثُ داود مُتَمَلِّك النُّوبَة ، وأَقْبَلَ إلى أن قَرُبَ من مَدينَة أُسْوان ، وحَرَق عِدَّة سَواقٍ بعدما أفْسَدَ بعَيْذاب فمَضَى إليه والي قُوص فلم يُدْرِكه ، وقَبَضَ

---

[1] عن العلاقة بين النوبة والدولة الإسلامية انظر مقال فورون Forand, P., «Early Muslim Relations with Nubia», *Der Islam* 48 (1972), pp. 111-21، ومع الدولة الفاطمية انظر مقال: بشير إبراهيم بشير Beshir, B.I., «New Lights on Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), pp. 15-24.

[2] أضاف المسعودي : «وأراه رسم على عدد أيام السنة» (مروج ٢ : ١٣٠) .

[3] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٣٠ .

[4] البلاذري : فتوح البلدان ٢٨١ .

على صاحِب الخَيْل في عِدَّة من النُّوبَة، وحَمَلَهم إلى السُّلْطان الملك الظَّاهِرِ بَيْبَرْس البُنْدُقْداري بقَلْعَة الجَبَل فوَسَّطَهم.

وقَدِمَ شُكُنْدَة[a] ابن أخت[b] مُتَمَلِّك النُّوبَة مُتَظَلِّمًا من خالِه داود، فجَرَّدَ السُّلْطان معه الأمير شَمْس الدين آقْ سُنْقُر الفارِقاني الأُسْتادار، والأمير عِزّ الدين أَيْبَك الأَفْرَم، وأمير جانْدار، في جَماعَةٍ كثيرة من العَسْكَر ومن أجْناد الوِلايات وعُرْبان الوَجْه القِبْلي والزَّرّاقين والرُّماة ورِجال الحَراريق.

فساروا في أوَّل شعبان من القاهِرَة حتى وَصَلُوا إلى أرْض النُّوبَة، فخَرَجوا إلى لِقائهم على النُّجُب، بأيْديهم الحِراب وعليهم دَكادِك سُود، فاقْتَتَلَ الفَريقان قِتالًا كبيرًا، انْهَزَم فيه النُّوبَة، وأغارَ الأفْرَم على قَلْعة الدَّرّ، وقَتَلَ وسَبَى. وأَوْغَل الفارِقاني في أرْض النُّوبَة بَرًّا وبحرًا يَقْتُل ويأسر، فحازَ من المواشي ما لا يُعَدّ، ونَزَلَ بجَزيرةِ مِيكائيل برأس الجَنادِل، ونفر المراكِب من الجَنادِل. ففَرَّ النُّوبَةُ إلى الجَزائِر، وكَتَب لقَمَر الدَّوْلة نائب داود مُتَمَلِّك النُّوبَة أمانًا، فحَلَفَ لشُكُنْدَة[a] على الطَّاعَة، وأَحْضَرَ رِجال المَريس ومَنْ فَرَّ.

وخاضَ الأَفْرَمُ إلى بُرْجٍ في الماء وحَصَرَه حتى أَخَذَه، وقَتَلَ به مائتين، وأَسَرَ أخًا لداود، فهَرَبَ داود والعَسْكَر في أثَره مُدَّة ثلاثة أيام، وهم يَقْتُلون ويأسِرون، حتى أَذْعَنَ القَوْمُ.

وأُسِرَت أُمُّ داود وأُخْتُه، ولم يَقْدر على داود فتقرَّر شُكُنْدَة[c] عِوَضُه، وقَرَّر على نفسه القَطيعة في كلِّ سنة ثلاث فِيلَةٍ وثلاث زَرافات وخَمْس فُهود من إناثها، ومائة نَجيب أَصْهَب وأربعمائة رأْس من البقَرِ المُنْتِجَة، على أن تكونَ بِلاد النُّوبَة نِصْفَيْن: نِصْفها للسُّلْطان، ونصفها لعِمارَة البِلاد وحِفْظِها، ما خَلا بلاد الجَنادِل، فإنَّها كلُّها للسُّلْطان لقُرْبها من أُسْوان، وهي نحو الرُّبْع من بلاد النُّوبَة. وأن يَحْمل ما بها من التَّمْر والقُطْن والحُقُوق الجارية بها العادَة من قَديم الزَّمان. وأن يقومُوا بالجِزْيَة ما بَقُوا على النَّصْرانية، فيَدْفَع كلُّ بالِغٍ منهم في السنة دينارًا عَيْنًا[1].

---

a) بولاق: سكندة. b) في كنز الدرر وتاريخ ابن شداد: ابن عم. c) بولاق: سكنده.

---

[1] انظر خبر هذه الموقعة عند ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٤١٦؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ١٢٩- ١٣١؛ الأرب ٣٠: ٣٤٤- ٣٤٨؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد ٢١١، ٢٣٤- ٢٣٦؛ المقريزي: السلوك ١: ٦٢١- ٦٢٣. ابن أيبك: كنز الدرر ٨: ١٨٣- ١٨٦؛ النويري: نهاية

وكَتَبَ نُسْخَة يَمِين بذلك حَلَفَ عليها الملك شُكُنْدَة، ونُسْخَة يمين أُخْرَى حَلَفَت عليها الرَّعِيَّةُ[1].

وخَرَّب الأَميران كَنائِس النُّوبَة، وأُخِذَ ما فيها، وقُبِضَ على نحو عشرين أميرًا من أُمَراء النُّوبَة، وأُفْرِجَ عمَّن كان بأيْدي النُّوبَة من أَهْل أُسْوان وعَيْذاب من المسلمين في أَسْرِهم.

وأُلْبِسَ شُكُنْدَة تاجَ المُلْك، وأُقْعِدَ على سَرير المملكة، بعد ما حَلَفَ والْتَزَمَ أن يحمل جميعَ ما لداود ولكلِّ من قُتِلَ وأُسِرَ من مالٍ ودَوابٍّ إلى السُّلْطان مع البَقْط القَديم، وهو أربع مائة رأْس من الرَّقيق في كلِّ سنة وزَرافَة (من ذلك ما كان للخَليفَة ثلاث مائة وستون رأْسًا، و لنائِبه بمصر أربعون رأْسًا)، على أن يُطْلَق لهم إذا وَصَلوا بالبَقْط تامًّا من القَمْح ألف أرْدَبّ لمتملِّكهم، وثلاث مائة أرْدَبّ لرُسُلِه.

ذكر صحراء عيذاب

اعْلَم أنَّ حُجَّاجَ مصر والمَغْرب أقامُوا زيادةً على مائتي سنة لا يَتَوَجَّهون إلى مَكَّة - شَرَّفها الله تعالى - إلَّا من صَحْراء عَيْذاب، يَرْكَبون النِّيل من سَاحِل مَدينَة مِصْر الفُسْطاط إلى قُوص، ثم يَرْكَبون الإبلَ من قُوص ويَعْبُرون هذه الصَّحْراء إلى عَيْذاب[2]، ثم يَرْكَبون

---

[1] انظر نصّ هذه الأيمان عند النويري: نهاية الأرب ٣٠: ٣٤٦-٣٤٧.

[2] عَيْذاب: ميناء على الساحل المصري للبحر الأحمر، مازالت تُرَى أنقاضُه على أرض منبسطة لا يصل إليها الماء على بُعْد عشرين كيلومترًا شمال مدينة حلايب الحالية. ورد ذكرها في المصادر العربية منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كميناء يتردَّد عليه حُجَّاج بيت الله والتجار المتوجِّهين إلى اليمن والهند. واستمدَّت عَيْذابُ أهميتها ابتداءً من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي مع تنامي الاستراتيجية الشرقية للفاطميين وازدهار التجارة الكارمية (ناصر خسرو: سفرنامه ١١٨؛ ابن جبير: الرحلة ٤٥؛ المقريزي: السلوك ١: ٦٤ (المكوس التي ألغاها صلاح الدين)؛ أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٤٩٨-٥٠٠). وبدأ ميناء عيذاب يفقد أهميته ابتداءً من عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م عندما توقَّف التجار عن استخدامه بسبب ثورة القبائل الجنوبية (البُجَة وهوَّارة والنوبة) وتمرُّدها الذي جعل من طريق عَيْذاب - قوص طريقًا غير آمن. وتظلّ معلوماتنا حول انهيار ميناء عَيْذاب وزوال دوره يكتنفه الغموض، فتتوقَّف المعلومات المُدَوَّنة عنه بطريقة غريبة في منتصف القرن الثامن الهجري إلى أن يخبرنا الرحالة المغربي الحسن بن محمد الوزَّان Jean - Léon l'Africain في مطلع القرن العاشر الهجري - وهو يتحدَّث عن جماعة البجة - أنهم كانت لهم في الماضي مدينةٌ ضخمة على البحر الأحمر تدعى عَيْذاب حيث كان يقوم ميناء يقع مباشرةً تجاه مدينة جدة ميناء مكة، ولكن منذ مائة عام قام هؤلاء البجة بنهب قافلة كانت تنقل السلع والأقوات إلى مكة، فأرسل سلطان مصر أسطولًا احتلّ المدينة وخرَّب ميناءها (وصف إفريقيا ٥٥٨-٥٥٩)، وواضح أنَّ السلطان الذي قام بهذا العمل هو السلطان المملوكي =

البَحْر في الجِلاب[1] إلى جُدَّة ساحِل مَكَّة. وكذلك تُجَّارُ الهِنْد واليَمَن والحَبَشَة، يَرِدُون في البَحْر إلى عَيْذاب، ثم يَسْلُكون هذه الصَّحْراء إلى قُوص، ومنها يَرِدُون مَدينَة مصر.

فكانَت هذه الصَّحْراءُ لا تَزال عامِرَةً آهِلَةً بما يَصْدُرُ أو يَرِدُ من قَوافِل التُّجَّار والحُجَّاج، حتى إن كانت أحْمالُ البُهار كالقِرْفَة والفُلْفُل ونحو ذلك لتُوجَد مُلْقاةً بها، والقُفُول صاعِدَةً وهابِطَةً، لا يَعْتَرِض لها أحَدٌ، إلى أن يَأْخُذها صاحِبُها:

فلم تَزَل مَسْلَكًا للحُجَّاج في ذَهابِهِم وإيابِهِم زيادةً على مائتي سنة: من أعْوام بضع وخمسين وأربعْ مائة، إلى أعْوام بضعٍ وستين وستّ مائة؛ وذلك منذ كانت الشِّدَّة العظْمَى في أيَّام الخَليفَة المُسْتَنْصِر بالله أبي تَميم مَعَدّ بن الظَّاهِر وانْقِطَاع الحَجّ في البَرّ، إلى أن كَسا السُّلْطانُ الملك الظَّاهِر رُكْن الدين بَيْبَرْس البُنْدُقداري الكَعْبَة وعَمِلَ لها مُفْتاحًا، ثم أخْرَج قافِلَة الحاج من البَرّ في سنة ستّ وستين وستّ مائة، فقَلَّ سُلوكُ الحاج لهذه الصَّحْراء، واستمرَّت بَضائِعُ التُّجَّار تُحْمَل من عَيْذاب إلى قُوص حتى بَطُل ذلك بعد سنة ستين وسبع مائة، وتَلاشَى أمْرُ قُوص من حينئذٍ. وهذه الصَّحْراءُ مَسافَتها من قُوص إلى عَيْذاب سبعة عشر يومًا، ويُفْقَد فيها الماءُ ثلاثة أيَّام مُتوالية، وتارَةً يُفْقَد أربعة أيام.

وعَيْذابُ مَدينَةٌ على ساحِل بَحْر جُدَّة، وهي غير مُسَوَّرَة، وأكثر بُيوتِها أخْصَاص. وكانت من أعْظَم مَراسي الدُّنْيا، بسَبَب أنَّ مَراكِبَ الهِنْد واليَمَن تَحُطّ فيها البَضائِع وتُقْلِع منها مع مَراكِب الحُجَّاج الصادِرَة والوارِدَة[2]. فلمَّا انْقَطَع وُرودُ مَراكِبِ الهِنْد واليَمَن إليها، صارَت المَرْسى

= الأشرف برسباي الذي احتكر التجارة الشرقية في القرن التاسع الهجري وسيطر على السفن الحاملة لهذه التجارة ورفع المكوس المفروضة عليها. ويُعْرَف الآن مكان عَيْذاب عند قبائل عرب الصحراء الشرقية باسم سواكن القديمة وتقع على خط عرض ٢٢ درجة و٢٠ ثانية في مواجهة بلدة أبي سمبل المصرية على النيل وبلد رابغ شمال جُدَّة على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، بينما تقع سواكن الحالية على خط عرض ١٩ درجة.

(راجع، البكري: جغرافية مصر ٨٤–٨٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣:٥١٩–٥٢٠؛ أحمد دراج: «إيضاحات جديدة عن التحوُّل في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري»، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – الموسم الثقافي الثاني ١٩٦٨، ١٨٥–٢٢٠؛ Gibb, H.A.R., *EI*² art. ʿ*Aydhâb* I, pp. 805-806; Garcin, J.-C., «Jean-Léon l'Africain et ʿAydhâb», *An. Isl.* XI (1972), pp. 194-95; id., «La Mediterranéisation» de l'empire mamlouk sous les sultans bahrides», *RSO* XLVIII (1973-74), pp. 113-14; Darrag, A., *L'Égypte sous le Règne de Barsbay*, pp. 201-203, 209-10؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١:٣٣٨–٣٣٩).

[1] جلبة جـ جلاب انظر وصفها فيما يلي ٥٥١ نقلًا عن ابن جبير.

[2] نقلًا عن ابن جبير: الرحلة ٤٥.

٢٠٣: العَظِيمَة عَدَن من بلاد اليَمَن ، إلى أن كانت أعْوامُ بضع / وعشرين وثمان مائة فصارَت جُدَّة أَعْظَمُ مَراسي الدُّنْيا ، وكذلك هُرْمُز فإنَّها مَرْسَى جَليل[1].

وعَيْذابُ في صَحْراء لا نَباتَ فيها ، وكلُّ ما يُؤْكَل بها مَجْلوبٌ إليها حتى الماء . وكان لأَهْلِها من الحُجّاج والتُّجّار فَوائِدُ لا تُحْصَى ، وكان لهم على كلِّ حَمْلٍ يحملونه للحُجّاج ضَريبَةٌ مُقَرَّرَةٌ ، وكانوا يُكارون الحُجّاج الجلاب التي تَحْمِلهم في البَحْر إلى جُدَّة ومن جُدَّة إلى عَيْذاب ، فيَجْتَمِع لهم من ذلك مالٌ عَظيم . ولم يكُن في أهْلِ عَيْذاب إلَّا من له جَلْبَة فأكثر على قَدْر يَسارِه[2].

وفي بَحْر عَيْذاب مَغاصُ اللُّؤْلُؤ في جَزائِر قريبة منها ، تَخْرُج إليه الغَوّاصون في وَقْت مُعَيَّن من كلِّ سنة في الزَّوارق ، حتى يُوافُوه بتلك الجَزائِر فيُقيمُون هنالِك أيّامًا ثم يَعُودون بما قُسِمَ لهم من الحَظِّ ؛ والمَغاص فيها قَريب القَعْر . وعَيْشُ أَهْل عَيْذاب عَيْش البَهائِم ، وهم أَقْرَب إلى الوَحْش في أخلاقهم من الإنْس .

وكان الحُجّاجُ يجدون في رُكوبهم الجلاب على البحر أَهْوَالًا عَظيمَة ؛ لأنَّ الرِّياحَ تُلْقيهم في الغالِب بمَراسٍ في صَحارَى بعيدة ممَّا يلي الجَنُوب ، فينزل إليهم التُّجّار من جِبالهم فيُكارونهم الجِمال ، ويَسْلُكون بهم على غير ماء ، فرُبَّما هَلَكَ أكثرُهم عَطَشًا وأَخَذَ التُّجّارُ ما كان معهم ، ومنهم من يَصِل ويَهْلِك عَطَشًا . والذي يَسْلَم منهم يَدْخُل إلى عَيْذاب كأنه نُشِرَ من كَفَن ، قد اسْتحالَت هَيْئاتُهم ، وتَغَيَّرت صِفاتُهم . وأَكْثَرُ هَلاك الحُجّاج بهذه المَراسي ، ومنهم من يُساعِدُه الرِّيح فتَحطُّه بمَرْسَى عَيْذاب ، وهو الأَقَلّ .

وجِلْباتُهم التي تَحْمل الحُجّاجَ في البحر لا يُسْتَعْمل فيها مسمار ألبتّة ، إنَّما يُخَيَّط خَشَبُها بالقِنْبار – وهو مُتَّخَذٌ من شَجَر النارَجيل – ويُخَلِّلونها بدُسُر من عيدان النَّخْل ، ثم يَسْقُونها بسَمْن أو دُهْن الخِرْوَع أو دُهْن القِرْش ، وهو حُوتٌ عظيمٌ في البحر يَبْتَلِع الغَرْقَى ، و قِلاعُ هذه الجِلاب من خُوص شَجَر المُقْل .

ولأَهْل عَيْذاب في الحُجّاج أحْكامُ الطَّواغِيت ، فإنَّهم يُبالِغُون في شَحن الجَلْبَة بالناس حتى يَبْقى بعضهم فَوْق بعض حِرْصًا على الأُجْرَة ، ولا يُبالُون بما يُصِيب النَّاس في البَحْر ، بل يقولون دائِمًا : عَلَيْنا بالأَلْواح ، وعلى الحُجّاج بالأَرْواح .

---

[1] المقريزي : السلوك ٤ : ٦٨١.

[2] نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٥. وعن الجلبة جـ. جلاب وجلبات انظر درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ٢٧- ٢٩.

وأَهْلُ عَيْذاب من البُجَاة ، ولهم مَلِكٌ منهم ، وبها والٍ من قِبَل سُلْطان مصر . وأَدْرَكْتُ قاضيها عندنا بالقاهِرَة أَسْودَ اللَّوْن . والبُجَاةُ قَوْمٌ لا دِيَن لهم ولا عَقْل ، ورِجالُهم ونِساؤهم أبَدًا عُراة ، وعلى عَوْراتهم خِرَق ، وكثيرٌ منهم لا يَسْتُرون عَوْراتِهم [١] .

وعَيْذابُ حَرُّها شَديدٌ بسُموم مُحْرِق .

ذِكْرُ مَدينةِ الأَقْصُر

هذه المَدينة من مَدائِن الصَّعيد العَظيمَة ، يُقالُ إنَّ أَهْلَها المَريس ، ومنها الحَمير المَرِيسِيَّة [٢] .

ذِكْر البُلْيَنا [٣]

ذَكَرَ الكَمالُ الأُدْفُوي أنّه وَقَعَ بين أهل البِلاد ووالي قُوص [مخاصمة] [b]، فتَوَجَّهوا إلى القاهِرَة وصَرَفُوه ، ووُلِّيَ غيره ؛ وطَلَعَ الخَطيبُ بالبُلْيَنا صُحْبته ، وكان إقْطاعُه تَزْمَنْت [c] [٤] ، فلمَّا وَصَل إليها أضافَه أَهْلُها بستين مَنْسَفًا من طَعام اللَّبَن ، فقال للخَطيب : في بلادكم مثلُ هذا ؟ فقال الخَطيبُ : وحَلْوَى . فلمَّا وَصَلَ إلى إخْميم تَقَدَّم الخَطيبُ إلى البُلْيَنا ، فعندما وَصَلَ الوالي إليها أَخْرَجُوا له ستين مَنْسَفًا حَلْوَى وستين مَنْسَفًا شِواءً [٥] .

---

a) ساقطة من الأصل . b) زيادة من الأدفوي . c) بولاق : أرمنت وعند الأدفوي : تزمنت من عمل البهنسا .

---

[١] نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٧– ٤٨.

[٢] الأقصر . مدينة تاريخية كانت عاصمة مصر في العصر الفرعوني ، وهي الآن إحدى مدن محافظة قِنا وتشتمل على معبدي الكرنك والأقصر شرقي النيل ، ووادي الملوك والملكات غربي النيل وهي أكثر مدن العالم آثارًا . (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٢٣٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/ ٤ : ١٦١–١٦٢) . والغريب أنّ المقريزي لم يشر إلى البرابي المنتشرة في مدينة الأقصر سواء في البر الشرقي أو البر الغربي ، وإن كان الشريف أبو جعفر الإدريسي قد ذكرها في كتابه وقال عنها: «إنها من أكبر البرابي ساحةً وأوسعها وأعلاها جدرانًا وأرفعها» (أنوار علوي : الأجرام ٤٤٥؛ Haarmann, U., «Luxor und Heliopolis: Ein Aufruf zum Denkmalschutz aus dem 13 Jahrhundert n. Chr.», *MDAIAK* 40 (1984), pp. 153-57.

[٣] البُلْيَنا : بضم الباء الموحَّدة وسكون اللام ثم ياء آخر الحروف ثم نون ثم ألف (الأُدفوي : الطالع السعيد ١٨) ، وضبطها محمد رمزي البَلْيَنا بفتح الباء ، مدينة على شاطئ النيل من غربيه بمحافظة سوهاج . (القاموس الجغرافي ٢/٤: ٩٦–٩٧) .

[٤] راجع ، ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٦؛ ابن الجيعان : التحفة السنية ١٦٥.

[٥] الأُدفوي : الطالع السعيد ٣٩– ٤١.

قال : وبعضُ الحكّام بها في عيدٍ من الأعْياد امْتَدَحَه من أهْلها خمسة وعشرون شاعرًا . وفيها من لا يَرْضَى بمَدْح القاضي ، وفيها من تَقْصُر رُتْبَتُه عن ذلك .

قال : وكان فيها عِدّةُ مَسابِك للسُّكَّر ، ويُوصَف أهلُها بالمكارِم [١] .

ذِكْر سَمْهُود

هذه المَدينَةُ بالجانِب الغَرْبي من النِّيل ، قال الأُدْفُوي : كان بسَمْهُود سبعة عشر حَجَرًا لاعْتِصار قَصَب السُّكَّر ، ويُقالُ إنَّ الفَأْرَ لا يَأْكُل[b] قَصَبها [٢] .

ذِكْر إِزجَنُّوس

هذه المَدِينَةُ من جملة عمل البَهْنَسا ، بها كَنِيسَةٌ بظاهِرِها فيها بِئر يُقالُ لها بِئر سيرس صَغيرة لها عيد يُعْمَل في اليوم الخامس والعشرين من بَشَنْس أَحَد شُهور القِبْط ، فيَفُور بها الماءُ عند مُضِيّ ستّ ساعات من النَّهار حتى يَطْفُو ثم يَعُود إلى ما كان عليه [٣] . ويَسْتَدِلُّ النَّصارَىٰ على زيادَة النِّيل في كلّ سنة بقَدْر ما على الماء من الأرْض ، فيَزْعُمُون أنَّ الأمْرَ في النِّيل وزيادته يكون موافِقًا لذلك .

ذِكْر أَبْوِيط

هذه المَدينَةُ أيضًا من جملة البَهْنَساوية ، كان بها مَنارَةٌ مُحْكَمَة البِناء ، إذا هَزَّها الرَّجُلُ تحرَّكَت يمينًا وشمالًا ، فيُرَى / مَيْلُها رؤيَةً ظاهِرَةً بانْتِقال ظِلّها عن مَوْضِعِه [٤] . ٢٠٤

---

a) ساقطة من الأصل. b) بولاق : يدخل.

---

[١] الأدفوي : الطالع السعيد ٣٩.

[٢] نفسه ١٨ وفيه : سُمْهود بسين مهملة مضمومة وميم ساكنة وهاء مضمومة ودال مهملة ، وانظر كذلك علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٢: ٥١- ٥٢؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٤: ١٩٧.

[٣] تعرف اليوم بـ «الجزنُوس» وهي تقع في مركز بني مزار بمحافظة المنيا (ياقوت : معجم البلدان ١: ١٤٤؛ ابن مماتي : قوانين ١٠٤؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٠: ٥٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٣: ٢١٣) .

[٤] وتضبط أحيانًا أبوِيط بكسر الواو ، من القرى القديمة تقع اليوم في مركز الواسطى بمحافظة بني سويف (ياقوت : معجم البلدان ١: ٨٢؛ ابن مماتي : قوانين ١٠٧؛ ابن دقماق : الانتصار ٥: ٣؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٣: ١٢٥؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 57) .

ذِكر مَلَّوى

هذه المَدينَةُ بالجانِب الغَرْبي من النِّيل، وأرْضُها معروفة بزِراعة قَصَب السُّكَّر، وكان بها عِدَّةُ أحْجار لاعْتِصاره. وآخِر من كان بها أوْلادُ فُضَيْل، بَلَغت زِراعتهم في أيَّام النَّاصِر محمد بن قَلاوون ألفًا وخمس مائة فَدَّان من القَصَب في كلِّ سنة. فأوْقَعَ النَّشْو - ناظِر الخاصّ[1] - الحَوْطَة على مَوْجودِهم في سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة، فوُجِدَ من جُمْلة مالهم أربعة عشر ألف قِنْطار من القَنْد[2] حَمَلَها إلى دار القَنْد بمصر، سِوى العَسَل، وألْزَمَهُم بحَمْل ثمانية آلاف قِنْطار بعد ذلك؛ وأفْرَجَ عنهم، فوَجَدُوا لهم حاصِلًا لم يَهْتَد له النَّشْو فيه عشر آلاف قِنْطار قَنْد، سوى ما لهم من عَبيد وغِلال وغير ذلك[3].

ذِكْرُ مَدينة أنْصِنَا

اعْلَم أنَّ مَدينةَ أَنْصِنَا إحدى مَدائِن صَعيد مصر القَديمة، وفيها عِدَّة عَجائِب، منها المَلْعَب، ويُقالُ إنَّه كان مِقْياسَ النِّيل، وإنَّه من بِناء دَلُوكَة أَحَد من مَلَك مصر، وكان كالطَّيْلَسان، وفي دائِرِه عُمُد على عِدَّة أيَّام السَّنَة الشَّمْسِيَّة، كلُّها من الصَّوَّان الأحمر الماتِع، ومَسافة مابين كل عَمُودَيْن مِقْدار خطوة إنْسان.

وكان ماءُ النِّيل يَدْخُل إلى هذا المَلْعَب من فُوَّهَة عند زيادَة الماء؛ فإذا بَلَغَ ماءُ النِّيل الحَدّ الذي كان إذ ذاك يَحْصُل منه رَيّ أرض مصر وكِفايَتها، جَلَسَ الملكُ عند ذلك في مُشْرِف له، وصَعِد القَوْمُ من خواصِّه إلى رؤوس الأعْمِدَة المذكورة، فيتَعادَون عليها ما بين ذاهِب وآتٍ، ويتَساقَطون من الأَعْمِدَة إلى المَلْعَب وهو مُمْتلئ بالماء[4].

---

a) ساقطة من الأصل.

---

[1] هو شرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله ناظر الخاص الشريف المتوفى سنة ٧٤٠هـ (ابن حجر: الدرر الكامنة ٣:٤٢- ٤٤؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي ٧: ٣٩٠- ٣٩٣).

[2] القَنْد هو عسل قصب السكر.

[3] كانت إحدى قرى ولاية الأشمونين ونظرًا لوقوع الأشمونين بعيدًا عن النيل نقل ديوان الولاية منها إلى مَلّوي سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م. وفي سنة ١٨٣١ ألغي اسم الأشمونين وسميت مأمورية أسيوط، وأصبحت ملّوي إحدى قرى محافظة أسيوط (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/ ٤: ٦٨؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 197).

[4] النويري. نهاية الأرب ١: ٣٩٣؛ وانظر كذلك =

قال أبو عُبَيْد البَكْري : أَنْصِنا – بفَتْح أَوَّله وإسْكان ثانيه بعده صاد مهملة مَكْسورَة ونون وألف – كُورَة من كُوَر مصر معروفة ، منها كانت مارية[a] سَرِيَّة النَّبِيّ ﷺ أُمّ ابنه إبراهيم من قريةٍ يُقالُ لها حَفْن من قُرَى هذه الكُورَة [1].

ويُقالُ إنَّ سَحَرَةَ فِرْعَوْن كانوا منها ، وإنَّه جَلَبَهُم منها يَومَ المَوْعِد للقِاء مُوسَىٰ عليه السَّلام . ويُقالُ إنَّ التِّمْساح لا يَضُرُّ بساحِل أَنْصِنا لطلاسِمَ وُضِعت بها ، وأنَّه إذا حاذَى بَرَّها انْقَلَب على ظَهْره حتى يُجاوِزَها [2].

ويُقالُ إنَّ الذي بَنَى مَدينةَ أَنْصِنا أُشْمُون بن مِصْرايِم بن بَيْصَر بن حام بن نُوح .

وهي واقِعَة في شَرْقي النِّيل ، وكانت حَسَنَةَ البَساتين والمتنزّهات ، كَثيرة الثِّمار والفَواكِه ، وهي الآن خَراب [3].

وقال أبو حَنيفَة الدِّيْنَوري : ولا يَنْبُت البِنْجُ إلَّا بأَنْصِنَا ، وهو عُود ينشر منه أَلْواح للسُّفُن ، ورُبَّما أرعفت ناشرها . ويُباعُ اللَّوْحُ منها بخمسين دينارًا ونحوها . وإذا شُدَّ لَوْحٌ منها بلَوْح وطُرِحَ في الماء ستَّة أيام ، صارا لَوْحًا واحِدًا [4].

وكان لأَنْصِنا سُورٌ عَتيقٌ هَدَمَه السُّلْطَانُ صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أَيُّوب ، وجَعَل على كلِّ مَرْكِب مُنْحَدر في النِّيل جزءًا من حَمْل صَخْره إلى القاهِرَة ، فنُقِلَ بأَسْره إليها .

ذِكْرُ القَيْس

اعْلَم أنَّ القَيْسَ من البلاد التي تُجاوِر مَدينةَ البَهْنَسا ؛ وكان يُقالُ القَيْسُ والبَهْنَسا [5].

---

a) ساقطة من بولاق . b) ساقطة من الأصل .

= البكري : جغرافية مصر ٨١– ٨٢؛ مجهول المؤلف : الاستبصار ٨٥؛ ياقوت : معجم البلدان ١: ٢٦٥– ٢٦٦.

[1] أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ١٩٩.

[2] أبو عبيد البكري : جغرافية مصر من المسالك والمسالك ٨٢.

[3] مكانها اليوم الأطلال الواقعة في حوض مدينة النصلة (المحرفة عن أنصنا) بأراضي ناحية الشيخ عبادة الواقعة شرقي النيل بمركز ملّوي بمحافظة المنيا (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١: ١٣٢، ٢/٤: ٦٣).

[4] لا يوجد هذا النّصّ فيما وصل إلينا من كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري.

[5] من المدن القديمة كانت تقع غرب النيل فتحها قَيس بن الحارث المرادي ولكنها لم تسم به لأنها كانت معروفة بهذا الاسم قبل فتح العرب لها وتصادف فقط تشابه اسمه مع =

قال ابنُ عَبْد الحكم: بَعَثَ عَمْرو بن العَاص قَيْسَ بن الحارِث إلى الصَّعيد، فسارَ حتى أتَى القَيْسَ فنَزَلَ بها فسُمِّيَت به[١].

وقال ابنُ يُونُس[٢]: قَيْسُ بن الحارِث المُرادي ثم الكَعْبي، شَهِدَ فَتْحَ مصر يَرْوي عن عُمَر بن الخَطَّاب، وكان يُفْتي الناسَ في زَمانِه. رَوَى عنه سُوَيْد بن قَيْس – وقيل شَديد بن قَيْس بن ثَعْلَبَة – ورَوَى عنه عَسْكَرُ بن سَوادَة. وهو الذي فَتَح القَرْيَة بصَعيد مصر المعروفة بالقَيْس فنُسِبَتْ إليه.

وقال ابنُ الكِنْدي: ولهم ثِيابُ الصُّوف، والأَكْسِيَة المِرْعَز، ولَيْسَ هي بالدنيا إلَّا بمصر. وذَكَرَ بَعْضُ أَهْل مصر أنَّ مُعاوِيَة بن أبي سُفْيان لمَّا كَبُرَ كان لا يَدْفَأ، فأجْمَعُوا أنَّه لا يدفيه إلَّا أَكْسِيَة تُعْمل بمصر من صُوفها المِرْعَز العَسَلي الغَيْر المَصْبوغ. فعُمِلَ له منها عَددٌ، فما احْتَاج منها إلَّا إلى واحِد. ولهم طِرازُ القَيْس والبَهْنَسا في السُّتور والمَضارِب، يُعْرَفون به، ومنه طِرازُ أهْل الدنيا[a][٣].

وظَهَرَ بها بالقُرْب من البَهْنَسا سَرَبٌ في أيَّام السُّلْطان الملك الكامِل محمد بن العادِل أبي بَكْر ابن أيُّوب، فأمَّر مُتَوَلِّي البَهْنساوية بكَشْفه، فَجَمَع له أَهْلَ المَعْرِفَة بالعَوْم والغَطْس، فكانُوا ما ينيف على مائتي رَجُلٍ ما فيهم إلَّا من نَزَل السَّرَب فلم يَجد له قَرارًا ولا جَوانِب.

فأَمَرَ بعَمَل مَرْكِب طَويل رَقيق بحَيْث يمكن إدْخاله من رأْس السَّرَب وشَحْنه بالأَزْواد والرِّجال، ورَكَّب فيه حِبالًا مَرْبوطَة في خَوازيق عند رأْس السَّرَب، وحَمَل مع الرجال آلات يَعْرِفون بها أوْقات اللَّيْل والنَّهار، وعِدَّة شُموع وغيرها ممَّا تُسْتَخْرج به النار وتُشْعَل به، وأَمَرهم أن يَسْلُكوا بالمَرْكب في السَّرَب حتى يَنْفُد نصف ما معهم من / الزَّاد. فسَاروا بالمَرْكِب في ظُلْمة وهم يُلْقون الحِبال ولا يَجِدون لما هم سائِرون فيه من الماء جَوانِب. فما زالوا حتى قَلَّت أزْوادُهم،

a) في فضائل مصر: ما يفوقون به طراز أهل الدنيا.

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٦٩ وفيما يلي ٦٧٥.

[٢] انظر عنه فيما تقدم ٦١.

[٣] ابن الكندي: فضائل مصر ٤٨–٤٩؛ وانظر عن الصوف المِرْعَز Serjeant, R.B., *Islamic Textiles*, pp. 161, 252-53.

= اسمها القديم، وكانت تعد من جملة الأعمال البهنساوية، وتقلد القيس والبهنسا في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي المؤرخ المصري الأمير المختار عز الملك المُسَبِّحي، وهي الآن تابعة لمركز بني مزار بمحافظة المنيا (ياقوت: معجم البلدان ٤: ٤٢٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ٢١٥).

فأبْطَلوا حَرَكة المَرْكِب بالمجاذيف إلى داخِل السَّرَب وجَرّوا الحبال ليرجعوا إلى حيث دَخَلوا، حتى انْتَهَوا إلى رأس السَّرَب.

فكانت مُدَّةُ غَيْبَتِهم في السَّرب ستة أيام: أرْبَعة منها دُخولًا إلى جَوْفة وتَطْواف جَوانِبه، ويومان رُجوعًا إلى رأس السَّرَب. ولم يَقِفُوا في هذه المُدَّة على نهاية السَّرب.

فكَتَب بذلك الأميرُ عَلاء الدين أَلْطُنْبُغا والي البَهْنَسا إلى الملك الكامِل، فتعجَّب عَجَبًا كثيرًا، واشْتَغَل عن ذلك بمُحارَبَة الفِرنْج على دِمْياط. فلمَّا رَحَلوا عن دِمْياط وعادوا إلى القاهِرَة، خَرَج بعد ذلك حتى شاهَد السَّرَب المذكور.

ذِكْرُ دَرُوط بَلْهاسَة

اعْلَم أنَّ دَرُوط – وهي بفَتْح الدال المهملة وضَمّ الراء وسُكُون الواو وطاء – اسم لثلاث قُرَى: دَرُوط أُشْمون من الأُشْمونَيْن، ودَرُوط سريان من الأُشْمونَيْن أيضًا، ودَرُوط بَلْهاسَة من ناحية البَهْنَسا بالصَّعيد [1].

وبها جامِعٌ أنْشأه زياد بن المُغيرَة بن زِياد بن عَمْرو العَتَكي [2]، وماتَ في المحرَّم سنة إحدى وتسعين ومائة فدُفِنَ به، وقال فيه الشَّاعِرُ:

[الخفيف]

حَلَفَ الجُود حَلْفَةً بَرَّ فيها ... ما بَرَا الله واجِدًا كَزِيادِ
كان غَيْثًا لمصرَ إذْ كان حَيًّا ... وأمانًا من السِّنين الشِّدادِ

وماتَ أخوه إبراهيم بن المُغيرَة سنة سبع وتسعين ومائة، فقال الشَّاعِرُ فيه:

[البسيط]

ابنُ المُغيرَة إبراهيم من ذَهَب ... يَزْدادُ حُسْنًا على طُول الدَّهارير
لو كان يَمْلِك ما في الأرض عَجَّلَه ... إلى العُفَاة ولم يَهْمُم بتَأخير

وماتَ أحمدُ بن زِياد بن المُغيرَة في المحرَّم سنة ستٍّ وثلاثين ومائتين، فقال الشَّاعِرُ فيه:

[الخفيف]

أحْمَدُ ماتَ ماجِدًا مَفْقُودًا ... ولقد كان أحمدُ مَحْمودًا
وَرِثَ المَجْدَ عن أبٍ ثم عَمٍّ ... مِثْله ليس بعده مَوْجودًا

---

[1] هي المعروفة الآن بقرية الشيخ زِيَاد بمركز مَغَاغَة بمحافظة المنيا (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣:٢٤٥).

[2] مازال هذا الجامع قائمًا ويعرف بجامع الأمير زياد بقرية الشيخ زياد بمحافظة المنيا (سعاد ماهر: مساجد مصر ١:٣١٠-٣١٣).

ذكر أُشْكُر[١]

هي من الإطْفِيحِيَّة ، تجاهَها وادٍ به إلى وَقْتِنا هذا شَكْلُ جَمَل من الحَجَر كأكبر ما يُرَى من الجِمال وأَحْسَنها هَيْئَة . وهو قائِمٌ على أربعة وقد استَقْبل بوَجْهه المَشْرِق ، وعلى فَخْذِه الأَيْمَن كِتابَة بقَلَمِهم ، وهي أَحْرُف مُقَطَّعَة في ثلاثَة أَسْطُر .

ثم على نَحْو مائة وخَمسين خُطْوَة منه جَمَلٌ آخر مثله سَوَاء ، ووَجْهُه إلى وَجْه الجَمَل الأَوَّل ، وليس عليه كِتابَة .

وفيما بين الجَمَلَيْنُ المذكورَيْن هَيْئَةُ أعْدال قد مُلِئَت قُماشًا عِدَّتها أربعون زَكيبَة مَوْضوعَة بالأرض ، عشرين تجاه عشرين ، وجَميعُها من حِجَارَة ، ولا يَشُكُّ من رآها أَنَّها أَحْمال قُماش .

وبعد مائة وخمسين خُطْوَة منها جَمَلٌ ثالِث على هَيْئَة الجَمَلَيْنُ المذكورَيْن ، وهو أيضًا قائِم ، وظَهْرُه إلى ظَهْر الجَمَل الثاني ، ووَجْهُه إلى الجَبَل ، وهناك آخر الوادِي ، وليس على هذا الجَمَل أيضًا كِتابَةٌ . أَخْبَرني بذلك من لا أَتَّهِم رِوايَتَه .

ذكر مُنْيَة الخَصِيب

هذه المَدينَةُ تُنْسَب إلى الخَصيب بن عبد الحَميد ، صاحِب خَراج مصر من قِبَل أَمير المؤمنين هارُون الرَّشيد[٢].

---

a) ساقطة من الأصل .

---

[١] من القرى القديمة تقع شرقي النيل ، وضبطها ياقوت أَشكَر ، وهي تقع اليوم بمركز الصَّفّ بمحافظة الجيزة (ياقوت ، معجم البلدان ١ : ١٨٢؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٣: ٢٥) .

[٢] ورد ذكرها عند الإدريسي باسم منية ابن الخصيب ، وعند ياقوت : منية أبي الخصيب ، وترد أحيانًا باسم منية بني خصيب ، وهي تقع على الضفة الغربية للنيل . وتحول اسمها إلى المنيا ابتداءً من سنة ١٢٣٦هـ . وهي قاعدة محافظة المنيا التي تنسب إليها المحافظة وتكوّنت لأول مرة في جغرافية مصر سنة ١٨٣٣ (الإدريسي : نزهة المشتاق ١٢٤؛ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٢١٨؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٣: ١٩٦-١٩٨) .

ذِكْرُ مُنْيَة البَاسَاك [a]

هي بَلْدَةٌ مِن جُمْلة الإطْفيحِيَّة[١] عُرِفَت بالبَاساك[a] أخي الوَزير بَهْرام الأَرْمنيّ في أيَّام الخَليفَة الحافِظ لدين الله أبي المَيْمُون عبد المجيد بن محمد، وَليَ من قِبَل أخيه مَدينَة قُوص سنة تسع وعشرين وخمس مائة – وولاية قُوص يومئذٍ أَجَلّ ولايات مصر[٢] – فجارَ على المُسْلمين، واشْتَدَّ عَسْفُه وأذاه لهم. فعندما وَصَلَ الخَبَرُ بقيام رِضْوان بن وَلَخْشي على بَهْرام وهَزيمَته منه وتَقَلّده الوَزارَة بعده، ثارَ أَهْلُ قوص بالباساك[a] في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة وقَتَلُوه، ورَبَطُوا كَلْبًا مَيِّتًا في رجله، وسَحَبُوه حتى أَلْقوه على مَزْبَلَة، وكان نَصْرانِيًّا[٣].

ذِكْرُ الجِيزَة

قال ابْنُ سِيدَة: الجِيزَةُ النَّاحِيَةُ والجانِبُ، وجَمْعُها جِيَز وجِيز. والجِيزُ جانِبُ الوادِي، وقد يُقالُ فيه الجِيزَة[٤].

واعْلَم أنَّ الجِيزَةَ اسْمٌ لقَرْيَة كبيرة جميلة البُنْيان على النِّيل من جانِبِه الغَرْبي تجاه مَدينَة فُسْطاط مِصْر، لها في كلِّ يوم أَحَدٍ سوقٌ عظيمٌ يجيء إليه من النَّواحي أَصْنافٌ كثيرةٌ جِدًّا، ويجتمِعُ فيه عالَمٌ عظيمٌ؛ وبها عِدَّةُ مَساجِد جامِعَه.

وقد رَوَى / الحافِظُ أبو بَكْر بن ثابِت الخَطيب، من حَديث نُبَيْط بن شُرَيْط، قال: قال رَسُولُ ٢
الله ﷺ: «الجِيزَةُ رَوْضَةٌ من رِياض الجَنَّة، ومصر خَزائِن الله في أرْضه».

---

a) الأصل وبولاق: الناسك.

---

[١] إحدى قرى مركز الصَّفّ بمحافظة الجيزة مجاورة لناحيتي الشُرَفا والعطيّات وتعرف بالمنيا (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣:٣١).

[٢] كانت ولاية قوص في العصر الفاطمي أعظم ولايات الديار المصرية ويحكم واليها على جميع بلاد الصعيد وكانت تعد أكبر الأعمال بعد الوزارة (أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر ٣٣٠– ٣٣٢؛ Garcin, J.-Cl., *Un Centre musulman de la Haute - Égypte médiéval : Qûs*, pp. 83-85؛ وفيما يلي ١:٢٣٦).

[٣] انظر تفصيل ذلك عند ابن الطوير: نزهة المقلتين ٤٥– ٤٧؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٢٤– ١٢٥؛ النويري: نهاية الأرب ٢٨:٣٠١– ٣٠٢؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ١٦١؛ المقفى ٢:٥١٤– ٥١٦. وإلى هنا ينتهي الجزء الثالث من نشرة جاستون ڤييت.

[٤] ابن سيدة: المحكم ٧: ٣٦٣.

ويُقالُ إنَّ مَسْجِد التَّوْبَة الذي بالجِيزَة كان فيه تابُوتُ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلامَ ـ الذي قَذَفَتْه أُمُّه فيه بالنِّيل؛ وبها النَّخْلَة التي أرْضَعَت مَرْيَمُ تحتها عيسَىٰ، فلم يُثْمر غيرها.

وقال ابنُ عبد الحَكَم، عن يَزِيد بن أبي حَبيب: فاستحبَّت هَمْدان ومَنْ والاها الجِيزَة، فكَتَبَ عَمْرو بن العَاص إلى عُمَر بن الخَطَّاب ـ رَضي الله عنهما ـ يُعْلِمه بما صَنَعَ الله للمُسْلِمين، وما فَتَح عليهم، وما فَعَلوا في خِطَطِهم، وما اسْتَحَبَّت هَمْدان من النُّزول بالجِيزَة. فكَتَبَ إليه عمر يَحْمَدُ الله على ما كانَ من ذلك، ويقولُ له: كَيْف رَضيتَ أن تُفَرِّقَ أصْحابك؟ لم يَكُن يَنْبَغي لكَ أن تَرْضَى لأحَدٍ من أصْحابِكَ أن يكونَ بينكَ وبينهم بَحْر، ولا تَدْري ما يَفْجَأُهُم، فلَعَلَّكَ لا تَقْدِر على غِياثِهم حين يَنْزِلُ بهم ما تَكْرَه؛ فاجْمَعْهُم إليك، فإن أَبَوْا عليك وأعْجَبَهم مَوْضِعَهم بالجِيزَة وأَحَبُّوا ما هُنالِك، فابْن عليهم من فَيْءِ المسلمين حِصْنًا.

فعَرَضَ عليهم عَمْرو ذلك فأَبَوْا، وأَعْجَبَهُم مَوْضِعَهم بالجِيزَة – ومن والاهم على ذلك من رَهْطِهم نافِع وغيرها – وأَحَبُّوا ما هنالِك. فبَنَى لهم عَمْرو بن العَاص الحِصْنَ في الجِيزَة في سنة إحدى وعشرين، وفَرَغَ من بِنائِه في سنة اثنتين وعشرين.

ويُقالُ إنَّ عَمْرو بن العَاص لمَّا سَأَلَ أَهْلَ الجِيزَة أن يَنْضَمُّوا إلى الفُسْطاط، قالوا: مَقْدَمٌ قَدِمْناه في سَبيل الله، ما كُنَّا لنَرْحَل منه إلى غَيْره. فنَزَلَت نافِعٌ الجِيزَة فيها مُبَرِّح بن شِهابٍ، وهَمْدان وذو أَصْبَح فيهم أبو شَمِر بن أَبْرَهَة، وطائِفَة من الحَجْر[١].

وقال القُضَاعيُّ: ولمَّا رَجَعَ عَمْرو بنِ العَاص من الإسْكَنْدَرية، ونَزَل الفُسْطاط، جَعَل طائِفَةً من جَيْشه بالجِيزَة خَوْفًا من عَدُوٍّ يَغْشاهُم من تلك الناحية، فجعل فيها آل ذي أصبح من حِمْيَر وهم كثير ونافِع بن زَيْد من رُعَيْن، وجعلَ فيها هَمْدان، وجَعَلَ فيها طائِفَةً من الأَزْديين بني الحَجْر ابن الهِنْو بن الأَزْد، وطائِفَةً من الحَبَشَة، ودِيوانُهم في الأَزْد.

فلمَّا اسْتَقَرَّ عَمْرو في الفُسْطاط، أَمَرَ الذين خَلَّفَهم بالجِيزَة أن يَنْضَمُّوا إليه، فكَرِهُوا ذلك وقالوا: هذا مَقْدَمٌ قَدِمْناه في سَبيل الله وأَقَمْنا به، ما كُنَّا بالذين نَرْغَب عنه ونحن به مُنْذ أَشْهُر. فكَتَب عَمْرو بن العَاص إلى عُمَر بن الخَطَّاب – رضي الله عنهما – بذلك، يُخْبِره أنَّ هَمْدان وآل ذِي أَصْبَح ونافِعًا ومن كان مَعَهم أَحَبُّوا المُقامَ بالجِيزَة. فكَتَبَ إليه: كَيْف رَضِيت أن تُفَرِّقَ عنك أَصْحابَك وتَجْعَلَ بينك وبينهم بحرًا، لا تَدْرِي ما يَفْجَأُهم، فلعلَّك لا تَقْدِر على

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٢٨- ١٢٩.

غِيائِهم ، فاجْمَعْهم إليك ولا تُفرِّقْهم ، فإن أَبَوْا وأَعْجَبَهُم مكانَهم فابْن عليهم حِصْنًا من فَيْءِ المُسْلمين .

فجَمَعُهم عَمْرو وأَخْبَرَهم بكِتابِ عُمَر ، فامْتَنَعوا من الخُروج من الجِيزَة . فأَمَر عَمْرو بِبناءِ الحِصْن عليهم ، فكَرِهُوا ذلك وقالوا : لا حِصْنَ أَحْصَن لنا من سُيوفِنا . وكَرِهَت ذلك هَمْدان ونافِع ، فأَقْرَعَ عمرو بينهم فوَقَعَت القُرْعة على نافِع ، فبَنَى فيهم الحِصْنَ في سنة إحدى وعشرين ، وفَرَغَ من بِنائِه في سنة اثنتين وعشرين .

وأَمَرَهم عَمْرو بالخِطَط بها : فاخْتَطَّ ذو أَصْبَحَ من حِمْير من الشَّرْق ، ومَضَوا إلى الغَرْب حتى بَلَغُوا أَرْضَ الحَرْث والزَّرْع ، وكَرِهُوا أن يُبْنَى الحِصْنُ فيهم . واخْتَطَّ نافِعُ بن الحارِث من رُعَيْن بوَسَط الجِيزَة ، وبُنِيَ الحِصْنُ في خِطَطِهم ، وخَرَجَت طائِفَةٌ منهم عن الحِصْن أَنَفَةً منه . واخْتَطَّت بَكِيل بن جُشَم بن نَوْف – من هَمْدان – في مَهَبّ الجَنوب من الجِيزَة في شَرْقيها . واخْتَطَّت حاشِدُ بن جُشَم بن نَوْف في مَهَبّ الشَّمال من الجِيزَة في غَرْبيها . واخْتَطَّت الحياوية بنو عامِر بن بَكيل في قِبْلي الجِيزَة . واخْتَطَّت بنُو حَجْر بن أَرْحَب بن بَكيل في قِبْلي الجِيزَة . واخْتَطَّ بنو كَعْب ابن مالِك بن الحَجْر بن الهَبْو بن الأَزْد فيما بين بَكيل ونافِع . والحَبَشَة اخْتَطُّوا على الشَّارِع الأَعْظَم [1] .

والمَسْجِدُ الجامِع بالجِيزَة بَناهُ محمدُ بن عبد الله الخازِن ، في المحرَّم سنة خمسين وثلاث مائة ، بأَمْر الأمير عليّ بن الإخْشيد ، فتَقَدَّم كافُور إلى الخازِن بِبنائِه وعَمِلَ له مُسْتَغَلًّا . وكان النّاسُ قبل ذلك بالجيزَة يُصَلُّون الجُمْعَة في مَسْجِد هَمْدان ، وهو مَسْجِد مُراحِق بن عامِر بن بَكيل ، كان يُجْمَع فيه الجُمْعَة في الجِيزَة ؛ وشارَفَ بِناءَ هذا الجامِع ، مع الخازِن ، أبو الحَسَن بن أبي جَعْفر الطَّحاوي .

واحْتاجوا إلى عُمُد للجامِع ، فمَضَى الخازِنُ في اللَّيْل إلى كَنيسَة بأَعْمال الجِيزَة فقَلَعَ عُمُدَها ونَصَبَ بَدَلَها أَرْكانًا ، وحَمَلَ العُمُد إلى الجامِع ؛ فتَرَكَ أبو الحَسَن ابن الطَّحاوي الصَّلاة فيه مُذْ ذاك تَوَرُّعًا .

قال اليَمَنيّ [2]: وقد كان ابنُ الطَّحاوي يُصَلّي في جامِع الفُسْطاط العَتيق وبعض عُمُده ، أو

---

[1] نقل ابن دقماق نص القضاعي في الانتصار ٤:١٢٥- ١٢٦.

[2] لم أستطع تحديد اسم هذا المؤرخ وهو من مصادر القضاعي فقد نقل عنه في موضع آخر انظر فيما يلي ٢: ١٦١، وكذلك ابن دقماق : الانتصار ٤:١١ س ٦.

أكْثَرها ، ورُخامه من كَنائِس الإسْكَنْدَرية وأرْياف مصر ، وبعضُه بَناه قُرَّة بن شَريك عامِل الوَليد ابن عبد الملك [1].

ويُقالُ إنَّ بالجيزَة قَبْرَ كَعْب الأَحْبار ، وإنَّه كان بها أحْجار ورُخام قد صُوِّرَت فيها التَّماسيح ، فكانَت لا تَظْهَر فيما يلي البَلَد من النِّيل مِقدار ثلاثة أمْيال عُلُوًّا وسُفْلًا .

وفي سنة أربعٍ وعشرين وسبع مائة ، مَنَعَ الملكُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون الوَزيرَ أن يتعرَّض إلى شَيْءٍ مما يَتَحَصَّل من مال الجيزَة ، فصارَ جميعُه يُحْمَل إليه .

ذِكرُ سِجْنِ يُوسُفَ عليهِ السَّلام

قال القُضاعِيُّ : سِجْنُ يُوسُف – عليه السَّلام – بِبُوصير من عَمَل الجيزَة [2] ، أَجْمَعَ أهْلُ المَعْرِفَة من أهْل مصر على صِحَّة هذا المكان . وفيه أثَرُ نَبِيَّيْن : أحَدُهما يُوسُفُ ، سُجِن به المُدَّة التي ذُكِرَ أنَّ مَبْلَغَها سبع سنين ، وكان الوَحْيُ ينزل عليه فيه .

وسَطْحُ السِّجْن مَوْضِعٌ معروفٌ بإجابَة الدُّعاء ، يُذْكَر أنَّ كافُورَ الإخْشيدي سَأَلَ أبا بَكْر بن الحَدّاد عن مَوْضِعٍ معروف بإجابَة الدُّعاء ليَدْعُو فيه ، فأشار عليه بالدُّعاء على سَطْح السِّجْن [3].

والنَّبِيُّ الآخَر مُوسَىٰ – عليه السَّلام – وقد بُنِيَ على أَثَرِه مَسْجِدٌ هناك يُعْرف بمَسْجِد مُوسَى .

أَخْبَرَنا أبو الحَسَن عليُّ بن إبراهيم الشَّرَفي بالشَّرَف [4] قال : حَدَّثَنا أبو محمد عبد الله بن الوَرْد – وكان قد هَلَكَت أختُه ووَرِثَ منها مَوْرِثًا ، وكُنَّا نَسْمَع عليه دائِمًا ، وكانَ لِسِجْن يُوسُف وَقْتٌ يَمْضِي الناسُ إليه يَتَفَرَّجون – فقال لنا يومًا : يا أصحابَنا ، هذا أَوانُ السِّجْن ، ونُريد أن نَذْهَبَ إليه ؛ وأَخْرَجَ عشرة دنانير فناولَها لأَصْحابِه وقال لهم : ما اشْتَهَيْتموه فاشْتَروه ؛ فمَضَى أصحابُ الحَديث واشْتَرَوا ما أرادوا ؛ وعَدَّينا يوم أَحَدِ الجيزَة كُلّنا ، وبِتْنا في مَسْجد هَمْدان ، فلمَّا كان الصَّباحُ مَشَيْنا حتى جِئْنا إلى مَسْجد مُوسَىٰ ، وهو الذي في السَّهْل ، ومنه يُطْلَع إلى

---

[1] ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٢٧ .

[2] القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٨٠ .

[3] السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٣٧ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١ : ٢٣٨ . ودَرَسَ الأستاذ ستريكر جميع النصوص العربية التي ذكرت سجن يوسف لتحديد هذا الموضع ، وتوصّل إلى أن المقصود به هو معبد السّرابيوم (عجل أبيس) بصحراء سقَّارَة قرب الهرم المدرَّج (Stricker, B.M., «La Prison de Joseph», *Acta Orientalis* XIX (1942), pp. 101-137) .

[4] بعد ذلك في الانتصار لابن دقماق : في جمادى الآخر سنة أربع وأربع مائة .

السِّجن ، وبينه وبين السِّجن تَلٌّ عظيمٌ من الرَّمْل ، فقال الشَّيْخُ : من يَحْملني ويَطْلَع بي إلى هذا السِّجْن حتى أُحَدِّثه بحَديثٍ لا أُحَدِّثه لأَحَدٍ بعده حتى تُفارِق رُوحي الدُّنْيا ؟ قال الشَّرَفِيُّ : فأَخَذْتُ الشَّيْخ وحَمَلْته حتى صِرْت في أعْلاه ، فنَزَلَ وقال : مَعك وَرَقَة ؟ قلت : لا . قال : أَبْصِر لي بَلاطَة . فأَخَذَ فَحْمَة وكَتَبَ : حَدَّثَني يحيى بن أَيُّوب ، عن يحيى بن بُكير ، عن زَيْد بن أسْلَمَ ابن يَسار ، عن ابن عَبَّاس قال : إنَّ جِبْريلَ أَتَى إلى يُوسُف في هذا السِّجْن ، في هذا البَيْت المُظْلِم ، فقال له يُوسُف : مَنْ أنت الذي مُذْ دَخَلْتُ السِّجْنَ ما رَأَيْت أَحْسَنَ وَجْهًا منك ؟ فقال له : أنا جِبْريل . فبَكَى يُوسُف فقال : ما يُبْكيك يا نَبيَّ الله ؟ فقال : إيش يَعْمل جِبْريل في مَقام المُذْنبين ؟ فقال : أَما عَلِمْتَ أنَّ الله تعالى يُطَهِّر البِقاعَ بالأَنْبياء ، والله لقد طَهَّرَ الله بك السِّجْنَ وما حَوْلَه ؛ فما أقامَ إلى آخِر النَّهار حتى أُخْرِج من السِّجْن [1] !

قال القُضَاعِيُّ : سَقَط بين يَحْيى وزَيْد رَجُل .

وقال الفَقيهُ أبو محمد أَحْمَد بن مُحمد بن سَلامَة الطَّحاوي ، وذَكَرَ سِجْن يُوسُف : لو سافَرَ الرَّجُلُ من العِراق ليُصلِّي فيه ويَنْظُر إليه ، لما عَنَّفْته في سَفَره .

وقال الفَقيه أبو إسحاق المَرْوَزي : لو سافَر الرَّجُلُ من العِراق ليَنْظُر إليه ما عَنَّفْته .

وذَكَر المُسَبِّحِيُّ في حَوادِث شهر رَبيع الآخر[a] سنة خمس عَشرة وأربع مائة : أنَّ العامَّة والسُّوقَة طافَت الأَسْواقَ بمصر بالطُّبُول والبُوقات ، يَجْمَعون من التُّجَّار وأرْباب الأَسْواق ما يُنْفِقونه في مُضِيِّهم إلى سِجْن يُوسُف ، فقال لهم التُّجَّار : شُغْلُنا بعَدَم الأَقْوات يَمْنَعنا من هذا . وكان قد اشْتَدَّ الغَلاءُ . وأَنْهَوْا حالهم إلى الحَضْرَة المُطَهَّرَة – يعني أَمير المؤمنين الظَّاهِر لإعْزاز دِين الله أبا الحَسَن عليّ بن الحاكِم بأَمْر الله – فرَسَم لسامي[b] الدولة أبي طاهِر بن كافي – مُتَوَلِّي الشُّرْطة السُّفْلَى – التَّرْسيم على التُّجَّار حتى يَدْفَعوا إليهم ما جَرَت به رُسومُهم ، ورَسَمَ لهم بالخُروج إلى سِجْن يُوسُف ، ووُعِدُوا أن يُطْلَق لهم من الحَضْرَة ضِعْف ما أُطْلِقَ لهم في السنة الماضية من الهِبَة ، فخَرَجوا [2] .

---

a) بولاق : الأول والتصويب من المسبحي . b) بولاق : لنائب والتصويب من المسبحي .

---

[1] ابن دقماق : الانتصار ٤:١٢٨– ١٢٩ . الحنفا ٢:١٤٤– ١٤٥ .

[2] المسبحي : أخبار مصر ٣٩– ٤٠ ؛ المقريزي : اتعاظ

وفي يوم السبت لتسع خَلَوْن من جُمادَى الأولى رَكِبَ القائِدُ الأَجَلُ عِزُّ الدولة وسَناها مِعْضادُ الخادِمُ الأَسْوَد[١] في سائِرِ الأَتْراك ووُجوه القُوَّاد، وشَقَّ البَلَدَ ونَزَلَ إلى الصِّناعَة التي بالجِسْر بمن معه. ثم خَرَجَ من هناك وعَدَّى في سائِرِ عَساكِرِه إلى الجيزَة، حتى رَتَّبَ لأَمير المؤمنين عَساكِر تكون معه مُقيمَة هناك لحِفْظِه؛ لأَنَّه عَدَّى يوم الاثنين لإحدى عشرة خَلَت منه في أَرْبع عُشاريات وأَرْبع عشرة بَغْلَة من بِغال النَّقْل، وفي جَميع من معه من خاصَّتِه وحَرَمِه إلى سِجْن يُوسُف - عليه السَّلام - وأَقامَ هناك يومَيْنِ وليلَتَيْنِ، إلى أن عادَ الرمادية الخارِجون إلى السِّجْن بالتَّماثِيل والمَضاحِك والحِكايات والسَّماجات[٢]، فضَحِكَ منهم واسْتَطْرَفَهم، وعادَ إلى قَصْره بُكْرَة يوم الأربعاء لثلاث عشرة خَلَت منه.

وأقامَ أَهْلُ الأَسْواق نحو الأُسْبوعين يَطُوفُون[a] الشَّوارع بالحكايات[b] والسَّماجات والتَّماثيل، ويَطْلَعُون إلى القاهرة بذلك ليُشاهِدَهم أَميرُ المؤمنين، ويَعُودون ومعهم سِجلٌ قد كُتِبَ لهم: أَلَّا يُعارَض أَحَدٌ منهم في ذَهابه وعَوْدِه، وأن يُعْتَمَد إكرامُهُم وصيانَتُهُم.

ولم يَزالُوا على ذلك إلى أن تَكامَلَ جَميعُهم، وكان دُخُولُهم من سِجْن يُوسُف يوم السبت لأربع عشرة بقيت من جُمادَى الأولى، وشَقُّوا الشَّوارِع بالحِكايات والسَّماجات والتَّماثيل، فتَعَطَّل الناسُ في ذلك اليوم عن أَشْغالهم ومَعايشهم. واجْتَمَعَ في الأَسْواق خَلْقٌ كثيرٌ لنَظَرِهم، وظَلَّ الناسُ أَكْثَرَ هذا اليوم على ذلك؛ وأُطْلِق لجَميعهم ثمانية آلاف دِرْهَم، وكانوا اثني عَشَر سُوقًا، ونَزَلوا مَسْرورين[٣].

---

a) بولاق: يطرقون. b) بولاق: الخيال والتصويب من المسبحي.

---

[١] عن القائد معضاد انظر المسبحي: أخبار مصر ٢٤-٢٧، والكشاف ١٣١.

[٢] سَماجَة ج. سَماجات. نوعٌ من الأقنعة (Masques) تبعث على السخرية والضحك، كانت معروفة في مصر. ذكر أمية بن أبي الصَّلْت في وصفه لأهل مصر: «ومن ظريف ما سمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجلٌ ملازمٌ للمارستان يُسْتدعى للمرضى كما تُسْتدعى الأطباء، فيدخل على المريض فيحكي له حكايات مضحكة وخرافات مسلية ويُخْرِج له وجوهًا مضحكة»؛ أي سَماجات (الرسالة المصرية ٣٤)؛ وانظر Dozy, R., *Supl. Dict. Ar.* I, 680؛ ومقال صمويل موريه Moreh, S., «Masks in Medieval Arabic Theatre», *Assaph C*9 (1993), pp. 89-94؛ وفيما يلي ١: ٢٦٨، ٤٩٣.

[٣] المسبحي: أخبار مصر ٤٢-٤٣؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢: ١٤٦.

وبخارج مَدينَة الجيزَة مَوْضِعٌ يُعْرَف بأبي هُرَيْرَة ، فيَظُنُّ من لا عِلْمَ له أنَّه أبو هُرَيْرَة الصَّحابيّ ، وليس كذلك ، بل هو مَنْسوبٌ إلى ابن ابنته .

/ ذِكْرُ قَرْيَةِ تِيْرِسَا ٢٠/

قال القُضَاعِيُّ : وذكر أنَّ القاسِمَ بن عُبيد الله بن الحَبْحاب ، عامِل هِشام بن عبد المَلِكِ على خَراج مصر ، بَنَى في الجيزَة قَرْيَة تُعْرَف بتِيْرِسَا [١].

والقاسِمُ هذا خَرَجَ إلى مصر ووَلِيَ الخِلافَة عن أبيه عُبَيْد الله بن الحَبْحاب السَّلولي على الخَراج في خِلافَة هشام بن عبد المَلِك . ثم أمَّرَه هِشامٌ على خراج مصر حين خَرَجَ أبوه إلى إمارَة إفْريقيَّة في سنة ستّ عشرة ومائة ، فلم يَزَل إلى سنة أربع وعشرين ومائة ، فنُزِعَ عن مصر ، وجُمِعَ لحَفْص ابن الوَليد عَرَبُها وعَجَمها ، فصارَ يلي الخَراج والصَّلاة معًا .

وبتِيْرِسا هذه كانت وَقْعَةُ مَرْوان بن محمد الجَعْدي .

ذِكْرُ مُنْيَةِ أَنْدونَةَ

هي إحدى قُرَى الجيزَة [٢]، عُرِفَت بأنْدونَة كاتِب أحمد المَدائني الذي كان يَتَقَلَّد ضِياعَ مُوسَىٰ ابن بُغَا التي بمصر ، فقَبَضَ أحمدُ بن طُولون على أَنْدونة هذا - وكان نَصْرانِيًّا - فأَخَذَ منه خَمْسين ألف دينار .

ذِكْرُ وُسيم

قال ابنُ عبد الحكَم : وخَرَجَ عبدُ الله بن عبد المَلك بن مَرْوان أمير مِصر إلى وُسيم [٣]، وكانَت لرَجُلٍ من القِبْط ، فسَأَلَ عبدَ الله أن يأتيه إلى مَنْزله ويَجْعل له مائة ألف دينار ، فخَرَجَ إليه عبدُ الله ابن عبد الملك .

---

[١] ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٣١.

[٢] هي المعروفة الآن بقرية المَنَاوات بمركز الجيزة قاعدة محافظة الجيزة (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٣: ٨).

[٣] هي المعروفة الآن بقرية أوسيم التابعة لمركز إمبابة بمحافظة الجيزة (علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٧: ٥٩-٦١؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٣: ٥٧-٥٨).

وقيل إنَّما مَخْرَجُ[a] عبدِ الله إلى قَرْيَة أبي النُّمْرُس[١] مع رَجُلٍ من الكُتَّاب يُقَالُ له ابنُ حَنْظَلَة ، فأَتَى عبدَ الله العَزْلُ وولاية قُرَّة بن شَرِيك وهو هُناك ، فلمَّا بَلَغَه ذلك قامَ ليَلْبَس سَراويله فلَبِسه مَنْكوسًا[٢].

وقيل إنَّ عبدَ الله لمَّا بَلَغه العَزْل ، رَدَّ المالَ على صاحِبه وقال : قد عُزِلْنا .

وكان عبدُ الله قد رَكِبَ معه إلى المَعَدِّيَّة ، وعدى أصحابه قبله وتأخَّر ، فوَرَدَ الكِتابُ بعَزْله فقال صاحِبُ المال : والله لابُدَّ أن تُشَرِّفَ مَنْزلي ، وتكون ضَيْفي ، وتأْكُل طَعامِي . ووالله لا عادَ لي شيءٌ من ذلك ، ولا أَدَعُك مُنْصَرِفًا ، فعَدَّى معه .

ذِكْرُ مُنْيَة عُقْبَة

هذه القَرْيَة بالجِيزَة[٣] عُرِفَت بعُقْبَة بن عامِر الجُهَني رضي الله عنه .

قال ابنُ عبد الحَكَم : كَتَبَ عُقْبَة بن عامِر إلى مُعاوِيَة بن أبي سُفْيَان - رضي الله عنهما - يسألَه أرْضًا يَسْتَرْفِق فيها عند قَرْيَة عُقْبَة ، فكَتَبَ له مُعاوية بألف ذِراع في ألف ذراع ، فقال له مَوْلى له كان عنده : انْظُر أَصْلَحَك الله أرْضًا صالِحَةً ؛ فقال عُقْبَة : ليس لنا ذَلك ، إنَّ في عَهْدِهم شُروطًا ستة : منها ألَّا يُؤْخَذ من أرْضِهم شيءٌ ، ولا من نِسائِهم ولا من أوْلادِهِم ، ولا يُزادُ عليهم ، ويُدْفَع عنهم مَوْضِعُ الخَوْف من عَدُوِّهم ، وأنا شاهِدٌ لهم بذلك .

وفي رِوَايَة : كَتَب عُقْبَة إلى مُعاوِيَة يَسْأَلُه بَقِيعًا[b] في قَرْيَة يَبْني فيها مَنازِل ومَساكِن ، فأَمَرَ له مُعاوية بألف ذراع في ألف ذراع ، فقال له مَوَاليه ومن كان عِنْده : انْظُر إلى أرْضٍ تُعْجِبك فاخْتَطّ فيها وابْتَن ؛ فقال : إنَّه ليس لَنا ذلك ، لَهُم في عَهْدِهم ستَّة شُروط : منها ألَّا يُؤْخَذ من أرْضِهم شيءٌ ، ولا يُزاد عليهم ، ولا يُكَلَّفُوا غير طاقَتِهم ، ولا تُؤْخَذ ذَرارِيهم ، وأن يُقاتَلَ عنهم عَدُوُّهم من ورائِهم[٤] .

---

a) بولاق : خرج والتصويب من فتوح مصر . b) بولاق : نقيعا .

---

[١] مازالت معروفة بهذا الاسم وتقع بمركز الجيزة (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٣:٣) .

[٢] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٣٨.

[٣] هي المعروفة الآن باسم ميت عقبة ، وتقع على الشاطئ الغربي للنيل وتتبع مركز إمبابة بمحافظة الجيزة .

[٤] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨٥- ٨٦.

قال أبو سَعيد بن يُونُس : وهذه الأرضُ التي اقْتطَعَها عُقبَة هي المُنْيَة المعروفَة بمُنْيَة عُقْبَة في جِيزَة فُسْطاط مصر : عُقْبَة بن عامر بن عَبْس بن عَمْرو بن عَدِيّ بن عَمْرو بن رِفاعَة بن مَوْدوعَة بن عَدِيّ بن غَنْم بن الرَّبْعَة بن رَشْدان بن قَيْس بن جُهَيْنَة ، كذا نَسَبَه أبو عَمْرو الكِنْدي [1].

وقال الحافِظُ أبو عُمَر بن عبد البَرّ : عُقبَة بن عامِر بن عَبْس[a] الجُهَنيّ من جُهَيْنَة بن زَيْد بن سَوْد ابن أَسْلَم بن عَمْرو بن إلحَاف بن قُضَاعَة - وقد اخْتُلِفَ في هذا النَّسب - يُكنَى أبا حَمَّاد ، وقيل أبا أَسَد ، وقيل أبا عَمْرو ، وقيل أبا سُعاد ، وقيل أبَا الأَسْوَد . وقال خَليفَةُ بن خَيَّاط : وقُتِلَ أبو عامِرَ عُقْبَة بن عامِر الجُهَني يَوْمَ النَّهْروان شَهيدًا ، وذلك سنة ثمان وثلاثين . وهذا غَلَطٌ منه ، وفي كِتابِه بعد : وفي سنة ثمان وخمسين تُوُفِّيَ عُقْبَة بن عامِر الجُهَني . قال أبو عُمَر : سَكَن عُقْبَة بن عامِر مصر ، وكان والِيًا عليها ، وابْتَنَى بها دارًا ، وتُوُفِّيَ في آخِر خِلافَة مُعاوِيَة . رَوَى عنه من الصَّحابَة جابرٌ وابنُ عَبَّاس وأبو أُمامَة ومَسْلَمة بن مَخْلَد ، وأمَّا رُواتُه من التَّابِعينَ فكَثير [2].

وقال الكِنْديُّ : ثم وَلِيَها عُقْبَة بن عامِر ، من قِبَل مُعاوِيَة ، وجَمَعَ له صَلاتَها وخَراجَها ، فجَعَل على شُرْطِته حَمَّادًا . وكان عُقْبَة قارِئًا فَقيهًا فَرَضيًّا شاعِرًا ، له الهِجْرة والصُّحْبَة السَّابِقَة . وكان صاحِبَ بَغْلَة رَسُول الله ﷺ الشَّهْباء الذي يَقودُها في الأَسْفَار . وكان صَرْفُ عُقْبَة عن مصر بمَسْلَمَة بن مَخْلَد ، لعَشْر بقين من ربيع الأوَّل سنة أربعين ، فكانَت وِلايته سنتين وثلاثة أشهر [3].

وقال ابنُ يُونُسَ : تُوُفِّيَ بمصر سنة ثمانٍ وخمسين ، ودُفِنَ في مَقْبَرتها بالمُقَطَّم ، وكان يُخَضِّب
٢٠٩ بالسَّواد ، رحمه الله / تعالى .

---

a) بولاق : حسن .

---

[1] الكندي : ولاة مصر ٥٩.

[2] هذا النص نقله المقريزي عن كتاب الاستيعاب لابن عبد البَرّ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة - مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ ، ٣ : ١٠٧٣ ، والاستشهاد بتاريخ خليفة ابن خيّاط يرجع لابن عبد البر لا المقريزي ، وهو موجود في تاريخ خليفة بن خياط (تحقيق سهيل زكار ، دمشق ١٩٦٧) ١ : ٢٢٥ ، ٢٧٠ . والتاريخ الصحيح لوفاة عقبة بن عامر هو سنة ثمان وخمسين كما عند الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢ : ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، وقد انتقد قول خليفة بن خياط كذلك أبو المحاسن في النجوم الزاهرة ١ : ١٢٨ .

[3] الكندي : ولاة مصر ٥٩- ٦٠ ، ٦١ .

ذِكْرُ حُلْوان[1]

يُقالُ إنَّها تُنْسَب إلى حُلْوان بن بابِلْيون بن عَمْرو بن امْرِئ القَيْس مَلِك مصر بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان. وكان حُلْوان هذا بالشَّام على مُقَدِّمة أَبْرَهَة ذي المَنار أَحَد التَّبابِعَة.

قال ابنُ عَبْد الحَكَم: وكان الطَّاعونُ قد وَقَعَ بالفُسْطاط، فَخَرَج عبدُ العَزيز بن مَرْوان من الفُسْطاط فنَزَل بحُلْوان داخِلًا في الصَّحْراء في مَوْضِع منها يُقالُ له أبو قَرْقُور، وهو رأْس العَيْنُ التي احْتَفَرها عبدُ العزيز بن مَرْوان وساقَها إلى نَخيلِه التي غَرَسها بحُلْوان؛ فكان ابنُ حُدَيْج يُرْسل إلى عبد العزيز في كلِّ يَوْم بخَبَر ما يَحْدُث في البَلَد من مَوْتٍ وغيره، فأَرْسَلَ إليه ذاتَ يَوْم رَسولًا فأتاه فقال له عَبْد العزيز: ما اسْمُك؟ فقال: أبو طالِب؛ فَثَقُلَ ذلك على عبد العزيز وغاظَه؛ فقال له عبدُ العزيز: أَسْأَلُك عن اسْمِك فتقول أبو طالِب! ما اسْمُك؟ فقال: مُدْرِك، فتفاءَل بذَلك.

ومَرِضَ في مَخْرَجه ذلك وماتَ هنالِك، فحُمِلَ في البَحْر يُراد به الفُسْطاط حتى تَغَيَّر، فأُنْزِلَ في بعض خُصوص ساحِل مَريس فغُسِّلَ فيه وأُخْرِجَت من هنالِك جنازَتُه، وخُرِجَ معه بالمَجامِرْ فيها العُود لما كان قد تَغَيَّر من رِيحِه. وأَوْصَى عبدُ العَزيز أن يُمَرّ بجنازَته إذا ماتَ على مَنْزِل جَناب بن مَرْثَد بن زَيْد بن هانى الرُّعَيْني صاحِب حَرَسِه - وكان صَديقًا له، وقد تُوُفِّي قبل عبد العزيز - فمُرَّ بجَنازَته على باب جَناب، وقد خَرَج عيالُ جَناب ولَبِسْنَ السَّوادَ ووَقَفْنَ على الباب صائِحات ثم اتَّبَعْنَهُ إلى المَقْبَرَة.

وكان لنُصَيْب من عبد العزيز ناحِيَةٍ، فقَدِمَ عليه في مَرَضِه فأَذِن له، فلمَّا رأَى شِدَّةَ مَرَضِه أَنْشأ يقول:

---

[1] من أقدم المدن التي أنشأها العرب في مصر تقع على الشاطئ الشرقي للنيل وجنوبي القاهرة على بعد عشرين كيلومترًا من مصر القديمة. وما ورد في رواية المقريزي هنا من أن المدينة وجدت قبل قدوم العرب إلى مصر غير صحيح، فالثابت من الروايات التاريخية (وخاصة عند ابن عبد الحكم وياقوت الحموي) أن والي مصر عبد العزيز بن مروان هو أوَّل من اختطها وتحوَّل إليها في سنة ٧٠هـ بعد أن اشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار (النجوم الزاهرة ١:١٨٥). واختار عبد العزيز بن مروان لهذه المدينة اسم حلوان لأنَّها تشبه في موضعها ومزاياها موضع حلوان التي كانت بالعراق العجمي، وهي الآن تمثل الضاحية الجنوبية لمحافظة القاهرة. (راجع، ياقوت: معجم البلدان ٢:٢٩٣-٢٩٤؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٠:٧٦-٨٤؛ محمد رزمي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ١٢-١٤؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 74; Jones. M.B., *EI*[2] art. *Hulwân* (III, pp. 591-92).

[الكامل]

ونَزُورُ سَيِّدَنا وسَيِّدَ غَيْرِنا   لَيْتَ التَّشَكِّي كانَ بالعُوَّادِ
لَوْ كان يُقْبَلُ فِدْيَةٌ لَفَدَيْتُهُ   بالمُصْطَفَى من طارِفي وتِلادي

فلمَّا سَمِعَ صَوْتَه فَتَح عَيْنَيه وأَمَرَ له بألْف دينار، واسْتَبْشَر بذلك آلُ عبد العزيز وفَرِحُوا به، ثم ماتَ [1].

وقال الكِنْدِيُّ: ووَقَعَ الطاعونُ بمصر في سنة سبعين، فخَرَجَ عبدُ العزيز بن مَرْوان منها إلى الشَّرْقِيَّة مُتَبَدِّيًا[a]، فنَزَل حُلْوان فأَعْجَبته، فاتَّخذَها وسَكَنها وجَعَلَ بها الحَرَسَ والأَعْوان والشُّرَط، فكان عليهم جَنابُ بن مَرْثَد بحُلْوان. وبَنَى عبدُ العَزيز بحُلْوان الدُّورَ والمَساجِدَ، وعَمَّرَها أَحْسَن عِمَارَة وأَحْكَمها، وغَرَسَ نَخْلَها وكَرْمها، فقال ابنُ قَيْس الرُّقَيَّات [2]:

[المنسرح]

سَقْيًا لحُلْوانَ ذي الكُرومِ ومَا   صَنَّفَ من تِينِه ومِنْ عِنَبِه
نَخْلٌ مَواقِيرُ بالقِنَاء من الـ   ـبَرْنيِّ غُلْبٌ يَهْتَزُّ في سَرَبِه[b]
أَسْوَدُ سُكَّانُه الحَمامُ فَمَا   يَنْفَكُّ غِرْبانُهُ على رُطَبِه

ولمَّا غَرَس عبدُ العَزيز نَخْلَ حُلوان وأُطْعِمَ، دخله والجُنْد معه، فجَعَلَ يَطُوف فيه ويَقِفُ على غُروسِه ومَساقِيه، فقال يَزيدُ بن عُرْوَة الجَمَلي: ألا قُلْت أيُّها الأَمير كما قال العَبْدُ الصَّالِح: ﴿ما شاءَ الله لا قُوَّة إلَّا بالله﴾ [الآية ٣٩ سورة الكهف]؟! فقال: ذَكَّرْتَني، شكرًا يا غُلام، قُل لأثيناس يَزيد في عَطائِه عشرة دنانير [3].

عَبْدُ العَزيز بن مَرْوان بن الحكَم بن أبي العَاص بن أُمَيَّة بن عَبْد شَمْس بن عَبْد مَناف القُرَشي الأُمَوي أبو الأَصْبَغ، أمُّه لَيْلَى ابنة زَبَّان بن الأَصْبَغ الكِنْدي. رَوَى عن أبي هُرَيْرَة وعُقْبَة بن عامِر الجُهَني، ورَوَى عنه عليُّ بن رَباح وبُحَير بن داخِرَة وعبيد الله بن مالِك الخَوْلاني وكَعْب بن عَلْقَمَة، ووَثَّقه النَّسائي وابنُ سَعْد [4].

---

a) بولاق: متنديا. b) في بولاق ومعجم البلدان: برنيّ يهتز ثم في سربه، والمثبت من الديوان.

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٢٣٦- ٢٣٧.

[2] الأبيات في ديوان ابن قَيس الرُّقيّات، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت - دار صادر ١٩٥٨، ١٣؛ وعند ياقوت: معجم البلدان ٢: ٢٩٤.

[3] الكندي: ولاة مصر ٧١- ٧٢.

[4] انظر ترجمة عبد العزيز بن مروان عند، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥: ٢٣٦؛ الكندي: ولاة مصر ٧٠- ٧٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٨: ٥٥٨- ٥٦١؛ أبي =

ولمَّا سارَ أبوه مَرْوان إلى مصر، بَعَثَه في جَيْش إلى أَيْلَة ليَدْخُل مصر من تلك النَّاحِيَة، فبَعَثَ إليه ابن جَحْدَم أمير مصر بجَيْشٍ عليهم زُهَيْر بن قَيْس البَلَوي، فلَقي عبد العزيز ببصاق - وهي سطح عَقَبَة أَيْلَة - فقاتَلَه فانْهَزَم زُهَيْر ومَنْ معه.

فلمَّا غَلَبَ مَرْوان على مصر في جُمادَى الآخرة سنة خمسٍ وستين، جَعَل صَلاتَها وخَراجَها إلى ابنه عبد العَزيز بعد ما أقامَ بمصر شهرَيْن، فقال عبدُ العزيز: يا أَمير المؤمنين، كيف المُقام ببَلَدٍ ليس به أَحَدٌ من بني أبي؟ فقال له مَرْوان: يا بُنَيّ، عُمَّهُم بإحسانك يكونوا كلّهم بني أَبيك، واجْعَل وَجْهَك طَلْقًا تَصْفُ لك مَوَدَّتُهم، وأَوْقِع إلى كلِّ رَئيس منهم أنَّه خاصَّتك دون غيره، يَكُن لك عَيْنًا على غيره، ويَنْقادُ قَوْمُه إليك. وقد جَعَلت معك أخاك بِشْرًا مُؤْنِسًا، وجَعلتُ لك مُوسَى بن نُصَيْر وَزيرًا ومُشيرًا. وما عليك يا بُنَيّ أن تكون أميرًا بأقْصَى الأرْض، أَلَيْس ذلك أَحْسَنُ من إغْلاق بابك وخُمولِك في مَنْزِلك؟

وأوْصاهُ عند مَخْرَجِه من مصر إلى الشَّام فقال: أُوصيكَ بتَقْوَى الله في سِرِّ أَمْرك وعَلانيته فـ ﴿ إنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون ﴾ [الآية ١٢٨ سورة النحل]، وأُوصيك ألَّا تَجْعَل لداعي الله عليك سَبيلًا، فإنَّ المُؤَذِّن يَدْعو إلى فَريضَة افْتَرَضَها الله، ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [الآية ١٠٣ سورة النساء]، وأُوصيك ألَّا تَعِد الناسَ مَوْعِدًا إلَّا أنْفَذْتَه لهم، وإن حَمَلْتَه على الأسِنَّة، وأُوصيكَ ألَّا تَعْجَل في شيءٍ من / الحُكْم حتى تَسْتَشير، فإنَّ الله لو أَغْنَى أحَدًا عن ذلك لأَغْنَى نَبِيَّه مُحمدًا ﷺ عن ذلك بالوَحْي الذي يَأْتيه، قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وشَاوِرْهُم في الأَمْر ﴾ [الآية ١٥٩ سورة آل عمران].

وخَرَجَ مَرْوان من مصر لِهلال رَجَب سنة خمسٍ وستين، فوَلِيَها عبدُ العزيز على صَلاتِها وخَراجِها.

وتوفِّي مَرْوانُ لِهلال رَمَضان، وبُويعَ ابنُه عبدُ الملك بن مَرْوان، فأقَرَّ أخاه عبد العزيز. ووَفَدَ على عبد الملك في سنة سبعٍ وستين، وجَعَلَ على الحَرَس والخَيْل والأعْوان جَناب بن مَرْثَد الرُّعَيْني، فاشْتَدّ سُلْطانُه. وكان الرَّجُلُ إذا أَغْلَظَ لعبد العزيز وخَرَج، تناوَلَه جَنابُ ومن معه فضَربوه وحَبَسُوه.

و[1]عبدُ العزيز أوَّل من عَرَّفَ بمصر في سنة إحدى وسبعين؛ قال يَزيدُ بن أبي حَبيب: أَوَّلُ من أَحْدَثَ القُعُود يوم عَرَفَة في المَسْجِد بعد العَصْر عبدُ العزيز بن مَرْوان.

= المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ١٧١- ٢١٠.

[1] من هنا ينقل المقريزي عن ولاة مصر للكندي.

وفي سنة اثنتين وسبعين ، صَرَفَ بَعْثَ البَحْر إلى مَكَّة لِقتال عبد الله بن الزُّبَيْر ، وجَعَلَ عليهم مالِك بن شُرَحْبيل الخَوْلاني ، وهم ثلاثة آلاف رَجُل فيهم عبد الرَّحمن بن يُحَنِّس مَوْلى ابن أبْزَى ، وهو الذي قَتَلَ ابن الزُّبَيْر [1].

وخَرَجَ إلى الإسْكَنْدَرية في سنة أربع وسبعين ، ووَفَد على أَخيه عبد الملك في سنة خمس وسبعين ، وهَدَم جامِع الفُسْطَاط كلّه ، وزادَ فيه من جَوانِبِه كلّها في سنة سبع وسبعين ، وأَمَر بضَرْب الدَّنانير المنقوشة .

وقال ابنُ عُفَيْر : كان لعَبْد العزيز ألف جَفْنَة كلّ يَوْمَ تُنْصَبُ حولَ داره . وكانت له مائة جَفْنَة يُطاف بها على القَبائِل تُحْمَل على العَجَل [2].

وكَتَبَ عبدُ الملك إليه أن يَنْزِلَ له عن وِلايَة العَهْد ليَعْهَد إلى الوَليد وسُلَيْمان ، فأَبَى ذلك وكَتَب إليه : «إن يَكُن لك وَلَدٌ فلنا أوْلاد ، ويَقْضي الله ما يَشاء» . فغَضِبَ عبدُ الملك ، فبَعَثَ إليه عبدُ العزيز بعَليّ بن رَباح يَتَرَضَّاه . فلمَّا قَدِمَ على عبد الملك ، اسْتَعْطَفَه على أَخيه ، فشَكَا عبد الملك وقال : «فَرَّق الله بَيْني وبَيْنَه» . فلم يَزَل به عليّ حتى رَضِيَ ، فقَدِم على عبد العزيز فأَخْبَرَه عن عبد الملك وعن حالِه ، ثم أَخْبَرَه بدَعْوَته فقال له : أَفعَل ؟ أنا والله مُفارِقُه ، والله ما دَعَا دَعْوَةً قَطّ إلَّا أُجيبَت .

وكان عبدُ العزيز يقول : قَدِمْتُ مصر في إمْرَة مَسْلَمة بن مَخْلَد ، فتمنَّيْت بها ثلاث أماني فأَدْرَكْتها : تَمَنَّيت وِلايَة مصر ، وأن أَجْمَع بين امْرأتَيْ مَسْلَمَة ، ويَحْجُبَني قَيْسُ بن كُلَيْب حاجِبه . فتُوفِّي مَسْلَمَة ، وقَدِمَ مصر فوَلِيَها ، وحَجَبَه قَيْس ، وتَزَوَّج امْرأتَيْ مَسْلَمَة .

وتُوُفِّيَ ابنُه الأَصْبَغُ بن عبد العزيز لتسعٍ بقين من رَبيع الآخر سنة ستٍّ وثمانين . فمَرِضَ عبدُ العزيز ، وتُوُفِّيَ لَيْلَة الاثنين لثلاث عشرة خَلَت من جُمادَى الأولى سنة ستٍّ وثمانين . فحُمِلَ في النِّيل من حُلْوان إلى الفُسْطاط فدُفِنَ بها [3].

وقال ابنُ أبي مُلَيْكَة : رَأَيْتُ عبد العَزيز بن مَرْوان حين حَضَره المَوْتُ يقول : «أَلا لَيْتَني لم أَكُ شَيْئًا مَذْكُورًا ، ألا لَيْتَني كنابِتَة من الأَرْض أو كرَاعِي إبِل في طَرَف الحِجَاز» .

---

[1] الكندي : ولاة مصر ٧٢.

[2] نفسه ٧٣.

[3] نفسه ٧٥- ٧٦.

ولمَّا ماتَ لم يُوجَد له مالٌ ناض[1] إلَّا سبعة آلاف دينار، وحُلْوَان والقَيساريَّة، وثِيابٌ بعضها مَرْقُوع، وخَيْلٌ، ورَقيق. وكانت وِلايتُه على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يومًا، ولم يَلِها في الإسْلام قَبْله أَطْوَل وِلاية منه[2].

وكان بحُلْوان في النِّيل مَعَدِيَّة من صَوَّان تُعَدِّي بالخَيْل، تحمل فيها الناس وغيرهم من البَرّ الشَّرْقي بحُلْوان إلى البَرّ الغَرْبي. فلمَّا كان [a].

وهذا من الأسْرار التي في الخَليقَة؛ فإنَّ جَميعَ الأجْسام المَعْدَنية، كالحَديد والنُّحاس والفِضَّة والرَّصاص والذَّهَب والقَصْدير، إذا عُمِلَ من شيءٍ منها إناءٌ يَسع من الماء أَكْثَر من وَزْنه فإنَّه يَعُومُ على وَجْه الماء، ويَحْمِل ما يُمْكنه ولا يَغْرق.

وما بَرِحَ المُسافرون في بَحْر الهِنْد - إذا أَظْلَمَ عليهم اللَّيْل ولم يَرَوا ما يَهْديهم من الكَواكِب إلى مَعْرِفَة الجِهَاتِ - يَحْمِلون حَديدَة مُجَوَّفة على شَكْل سَمَكَة ويُبالِغون في تَرْقيقها جُهْد المَقْدِرَة، ثم يُعْمَل في فَمِ السَّمَكة شيءٌ من مَغْناطيس جَيِّدًا، ويُحَكّ فيها بالمَغْناطيس، فإنَّ السَّمَكة إذا وُضِعَت في الماء دارَت واسْتَقْبَلَت القُطْبَ الجَنوبي بفَمِها، واسْتَدْبَرَت القُطْبَ الشَّمالي، وهذا أيضًا من أسْرار الخَليقَة.

فإذا عَرَفُوا جَهَتي الجَنُوب والشَّمال، تبينُ منهما المَشْرِق والمَغْرب، فإنَّ من اسْتَقْبَلَ الجَنُوب فقد اسْتَدْبَرَ الشَّمال وصارَ المَغْرِبُ عن يَمينه والمَشْرِقُ عن يَساره. فإذا تَحَدَّدَت الجِهاتُ الأَرْبَع، عَرَفُوا مَواقِعَ البِلاد بها، فيَقْصِدون حينئذٍ جَهةَ النَّاحِيَة التي يُريدُونَها.

ذِكْرُ مَدينَة العَرِيش

العَرِيشُ مَدينَةٌ فيما بين أَرْضِ فِلَسْطين وإقْليم مصر، وهي مَدينَةٌ قَديمَةٌ، من جملة المَدائِن التي اخْتُطَّت بعد الطُّوفان[3].

---

a) بياض بالنسخ. والفقرة التالية يبدو أنَّها طَيَّارة أقحمها النُّسّاخ في غير موضعها فلا علاقة لها بترجمة عبد العزيز بن مروان.

---

[1] المال الناض والنض. الدرهم والدينار.

[2] الكندي: ولاة مصر ٧٦ - ٧٧.

[3] مدينة العريش هي قاعدة محافظة شمال سيناء تقع على شاطئ البحر المتوسط قرب نهاية الحدّ الشرقي لأرض مصر، بينها وبين رَفَح الواقعة على رأس الحد الفاصل بين مصر وفلسطين ٤٥ كيلومترًا (راجع، ابن زولاق: فضائل مصر =

قال الأُستاذُ إبراهيم بن وَصيف شاه عن مِصْرايِم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السَّلام : وكان غُلامًا مُرَفَّهًا ، فلمَّا قَرُبَ من مصر بَنَى له عَرِيشًا من أَغْصان الشَّجَر وسَتَرَه بحَشيش الأَرْض ، ثم بَنَى له بعد ذلك في هذا المَوْضِع مَدينةً وسَمَّاها دُرْسان – أي باب الجَنَّة – فزَرَعُوا وغَرَسُوا الأَشْجار والجِنَان من دَرْسان إلى البَحْر ، فكانت كُلُّها زُروعًا وجِنانًا وعِمَارَة [1].

٢١ وقال آخر : إنَّما سُمِّيَت بذلك لأنَّ بَيْصَر بن حام بن نُوح تَحَمَّل في ولده ، وهم أربعة ومعهم / أولادهم ، فكانُوا ثلاثين ما بين ذَكَرٍ وأُنْثَى . وقَدِمَ ابنُه مِصْر بن بَيْصَر أمامَه نحو أَرْض مصر حتى خَرَجَ من حَدِّ الشَّام ، فتاهُوا وسَقطَ مصر في مَوْضِع العَرِيش – وقد اشْتَدَّ تَعَبُه – ونامَ ، فرَأَى قائِلًا يُبَشِّره بحُصُولِه في أَرْضٍ ذات خَيْرٍ ودُرٍّ ومُلْكٍ وفَخْرٍ ، فانْتَبَه فَزِعًا ، فإذا عليه عَرِيش من أَطْراف الشَّجَر ، وحَوْله عُيونُ ماء . فحَمِدَ الله وسأَلَه أن يَجْمَعَه بأبيه وإخْوَته ، وأن يُبارِكَ له في أَرْضِه ، فاسْتُجِيبَ له ، وقادَهُم الله إليه فنَزَلوا في العَرِيش وأقامُوا به . فأَخْرَجَ الله لهم من البَحْر دَوابٌّ ما بين خَيْل وحُمُر وبَقَر وغَنَم وإبل ، فساقُوها حتى أَتَوْا مَوْضِع مَدينَة مَنْف فنزلُوه ، وبَنَوا فيه قَرْيَةً سُمِّيَت بالقِبْطيَّة ماقَة ، يعني قرية ثلاثين [2].

فنَمَت ذُرِّيَة بَيْصَرَ حتى عَمَّرُوا الأَرْض وزَرَعُوا ، وكَثُرَت مَواشِيهم . وظَهَرَت لهم المَعادِن ، فكان الرَّجُلُ منهم يَسْتَخْرِج القطعة من الزَّبَرْجَد يعمل منها مائِدَةً كبيرة ، ويُخْرِج من الذَّهَب ما تكون القِطْعَة منه مِثْل الأُسْطُوانَة ، وكالبَعير الرَّابِض .

وقال ابنُ سَعيد عن البَيْهَقي : كان دُخولُ إخْوَة يُوسُف وأَبَوَيْه – عليهم السَّلام – عليه بمَدينَة العَرِيش ، وهي أَوَّل أَرْض مصر ؛ لأنَّه خَرَجَ إلى تَلَقِّيهم حتى نَزَلَ المَدينَة بطَرَف سُلْطانه . وكان له هناك عَرْشٌ – وهو سَريرُ السَّلْطَنة – فأَجْلَسَ أَبَوَيْه عليه . وكانت تلك المَدينَة تُسَمَّى في القَديم بمَدينَة العَرْش لذلك ، ثم سَمَّتْها العامَّةُ مَدينَة العَرِيش فغَلَب ذلك عليها .

ويُقالُ إنَّه كان ليُوسُف – عليه السَّلام – حَرَسٌ في أَطْراف أَرْض مصر من جَميع جَوانِبها ؛ فلمَّا أصابَ الشَّامَ القَحْطُ ، وسارَت إخْوَةُ يُوسُف لتَمْتَار من مصر ، أقامُوا بالعَرِيش . وكَتَبَ

= وأخبارها ٥٩؛ ياقوت : معجم البلدان ٤:١١٣–١١٤؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٥٥؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٤:٣٩–٤٨؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٤/٢:٢٦٣؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 125; (Buhl, F., *EI*[2] art. al. ʿ*Arīsh* I, p. 651.

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥:٤٤ عن ابن وصيف شاه؛ المسعودي : أخبار الزمان ١٥٢–١٥٣، وأورد المقريزي نفس النص فيما تقدم ٤٨ نقلًا عن المسعودي!

[2] قارن مع ابن عبد الحكم : فتوح ٤٩؛ النويري : نهاية ١٥:٤٤.

صاحِبُ الحَرَس إلى يُوسُف : إنَّ أَوْلادَ يَعْقُوب الكَنْعاني يُرِيدُون البَلَد لقَحْطٍ نَزَلَ بهم. فَعَمِلَ إخْوَة يُوسُف عند ذلك عَرْشًا يَسْتَظِلُّون به من الشَّمْس حتى يَعُود الجَوَابُ، فسُمِّيَ المَوْضِعُ العَرِيش. وكَتَبَ يُوسُف بالإذْن لهم، فكان من شَأْنِهم ما قد ذُكِر في مَوْضِعه [1].

ويُقالُ للعَرْش الج .. فهذا كما تَرَى. وابنُ وَصِيف شاهْ أَعْرَفُ بأَخْبَار مصر.

وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة، طَرَقَ عبدُ الله إدْريس الجَعْفَري العَرِيشَ بمُعاوَنَة بني الجَرَّاح، وأَحْرَقَها وأَخَذَ جَميعَ ما فيها [2].

وقال القاضي الفاضِلُ : وفي جُمادَى الآخرة سنة سبع وسبعين وخمس مائة، وَرَدَ الخَبَرُ بأنَّ نَخْلَ العَرِيش قَطَعَ الفِرِنْجُ أكثره وحَمَلُوا جُذوعَه إلى بلادِهم، ومُلِئَت منه، ولم يَجِدوا مُخاطِبًا على ذلك.

ونُقِلَ عن ابن عبد الحكَم أنَّ الجِفَارَ بأَجْمَعه كان أَيَّامَ فِرْعُوْن مُوسَىٰ في غاية العِمارَة بالمياه والقُرَى والسُّكَّان، وأنَّ قَوْلَ الله تعالى : ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الآية ١٣٧ سورة الأعراف] عن هذه المَواضِع، وأنَّ العِمارَة كانت مُتَّصلة منه إلى اليَمَن، ولذلك سُمِّيَت العَرِيش عَرِيشًا.

وقِيلَ إنَّها نِهايَةُ التُّخوم من الشَّام، وإنَّ إليه كان ينتهي رُعاةُ إبراهيم الخَليل – عليه السَّلام – بمَواشِيه، وأنَّه – عليه السَّلام – اتَّخَذ به عَرِيشًا كان يجلسُ فيه حتى تُحْلَب مَواشِيه بين يَدَيْه، فسُمِّيَ العَرِيشُ من أَجْل ذلك.

وقِيلَ إنَّ مالِكَ بن دَعْر بن حُجْر بن جَزِيلَة بن لَخْم كان له أربعة وعشرون وَلَدًا، منهم العَرِيش ابن مالِك، وبه سُمِّيَت العَرِيش لأنَّه نَزَلَ بها وبَنَاها مَدِينَةً [3].

وعن كَعْبِ الأَحْبارِ أنَّ بالعَرِيش قُبورَ عَشْرَة أَنْبِياء.

[1] انظر فيما يلي ٦٦١، وأورد ابن سعيد هذا الحديث فيما لم يصل إلينا من القسم المصري من كتاب «المغرب» (انظر فيما يلي ١: ٢٣٠).

[2] قارن مع المسبحي : أخبار مصر ٣٤– ٣٥؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢: ١٤٣؛ وانظر فيما تقدم ٥٠٤.

[3] انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة ١٩٧٧، ٤٢٤.

ذِكرُ مَدينَـــة الفَــرَمَا[1]

قال البَكرِيُّ : الفَرَماء - بفَتْح أوَّله وثانيه ممدود على وَزْن «فَعَلاء» وقد تُقْصَر - مَدينَةٌ تِلْقاء مصر[2].

وقال ابنُ خَالَوَيْه في كتاب «لَيْس» : الفَرَما هذه سُمِّيَت بأخي الإسْكَنْدَر ، كان يسمَّى الفَرَما ، وكان كافِرًا ، وهي قَرْيَةُ أمّ إسماعيل بن إبراهيم[3]، انتهى .

ويُقالُ اسْمُه الفَرَمَا بن فيلقوس ، ويُقالُ فيه ابن فليس ، ويقال بليس . وكانت الفَرَمَا على شَطِّ بُحَيْرة تِنِّيس ، وكانت مَدينَةً خَصْباء ، وبها قَبْر جالينوس الحكيم .

وبَنَى بها المُتَوَكِّلُ على الله حِصْنًا على البَحْر ، تَوَلَّى بِناءَه عَنْبَسَة بن إسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عندما بَنَى حِصْن دِمْياط وحِصْن تِنِّيس ، وأَنْفَقَ فيها مالًا عَظيمًا .

ولمَّا فَتَحَ عَمْرو بن العَاص عَيْنَ شَمْس أَنْفَذَ إلى الفَرَماء أَبْرَهَة بن الصَّبَّاح ، فصالَحَه أَهْلُها على خمس مائة دينار هِرَقْلِيَّة وأربع مائة ناقَة وألف رأس من الغَنَم ، فرَحَل عنهم إلى البَقَّارة .

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاث مائة نَزَلَ الرُّومُ عليها ، فنَفَرَ الناسُ إليهم وقَتَلُوا منهم رَجُلَيْن . ثم نَزَلوا في جُمادى الأُولى سنة تسع وأربعين وثلاث مائة ، فخَرَجَ إليهم المسلمون وأَخَذُوا منهم مَرْكبًا ، وقَتَلُوا مَنْ فيه وأَسَرُوا عشرة .

وقال اليَعْقُوبي : الفَرَما أوَّل مُدُن مصر من جِهَة الشَّمال ، وبها أَخْلاطٌ من النَّاس ، وبينها وبَيْنَ البَحْر الأَخْضَر ثلاثَة أَمْيال[4].

وقال ابن الكِنْدِيُّ : ومنها الفَرَمَا ، وهي أَكْثَرُ عَجائِب ، وأَقْدَمُ آثارًا ، ويذكُر أَهْلُ مصر أنَّه كان منها طَرِيقٌ إلى جَزِيرَة قُبْرُس في البَرّ ، فغَلَبَ عليها البَحْر ، ويقولون إنَّه

---

[1] اندثرت اليوم مدينة الفَرَمَا وتعرف آثارها بتلّ الفرما على بُعْد ثلاثة كيلومترات عن ساحل البحر المتوسط وعلى بعد ٢٣ كيلومترًا شرقي محطة الطينة الواقعة على الطريق الذي يربط بين بورسعيد والإسماعيلية . ويوجد بالقرب من تل الفرما أطلال قلعة قديمة تسمى قلعة الطينة لوقوعها في أرض موحلة ، وكانت هذه القلعة تستخدم كمنفى لغير المرغوب فيهم من المصريين إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي . (البكري : جغرافية مصر ٩٢- ٩٣؛ مجهول : الاستبصار ٨٩؛ ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٢٥٥؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٥٣؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٩١- ٩٢؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 138) .

[2] أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ١٠٢٢.

[3] لا يوجد هذا الخبر فيما وصل إلينا من كتاب «ليس في كلام العرب» لابن خالويه .

[4] اليعقوبي : كتاب البلدان ٣٣٠.

كان فيما غَلَب عليه البَحْرُ مَقْطَعُ الرُّخام الأَبْلَق، وأَنَّ مَقْطَع الأَبْيَض بلُوبِيَّة.

وقال يَحْيى بن عُثْمان: كُنْتُ أُرابِط في الفَرَمَا، وكان بينها وبين البَحْر قَريبٌ من يَوْم، يَخْرُج النَّاسُ والمُرابِطون في أَخْصَاص على السَّاحِل، ثم عَلَا البَحْر على ذلك كُلِّه.

/ وقال ابنُ قُدَيْد: تَوَجَّه ابن المُدَبِّر - وكان بِتِنِّيس - إلى الفَرَمَا في هَدْم أَبْوابٍ من حِجارَة شَرْقي الحِصْن احْتاج أن يَعْمَل منها جِيرًا. فلمَّا قُلِعَ منها حَجَر أو حَجَران خَرَجَ أَهْلُ الفَرَمَا بالسِّلاح فمَنَعُوا من قَلْعِها وقالوا: هذه الأَبْوابُ التي قال الله فيها على لِسَان يَعْقُوب عليه السَّلام: ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ [الآية ٦٧ سورة يوسف].

والفَرَمَا بها النَّخْلُ العَجيب الذي يُثْمِر حين يَنْقَطِع البُسْر والرُّطَب من سائِر الدُّنْيا، فيبتدئُ هذا الرُّطَب من حين يَلِد النَّخْل في الكَوانين، فلا يَنْقَطِع أربعة أشهر حتى يجيء البَلَح في الرَّبيع. وهذا لا يُوجَد في بَلَد من البُلْدان، لا بالبَصْرة، ولا بالحِجَاز، ولا باليَمَن، ولا بغَيْرِها من البُلْدان. ويكون في هذا البُسْر ما وَزْن البُسْرَة الواحِدَة فَوْق العشرين دِرْهمًا، وفيه ما طُول البُسْرَة نحو الشِّبْر والفِتْر[1].

وقال ابنُ المأمون البَطائِحي في حَوادِث سنة تسع وخمس مائة: ووَصَلَت النَّجّابون من والي الشَّرْقِيَّة تُخْبِر بأنَّ بُغْدُوين [Boldwin] مَلِكُ الفِرِنْج وَصَلَ إلى أَعْمَال الفَرَمَا؛ فسَيَّرَ الأَفْضَلُ بن أمير الجُيُوش للوَقْت إلى والي الشَّرْقِيَّة بأن يُسَيِّرَ المَرْكَزِيَّة والمُقْطَعين بها، وسَيَّرَ الراجِل من العُطوفِيَّة، وأن يَسيرَ الوَالي بنفسه بعد أن يتقدَّم إلى العُرْبان بأَسْرِهم بأن يكُونوا في الطَّوالِع، ويُطارِدُوا الفِرِنْجَ، ويُشارِفوهم باللَّيْل قَبْل وُصُول العَساكِر إليهم، فاعتمد ذلك. ثم أُمِرَ بإخْراج الخِيام وتَجْهيز الأَصْحاب والحَواشي؛ فلمَّا تواصَلَت العَساكِرُ وتَقَدَّمها العُرْبان، وطارَدوا الفِرِنْج، وعَلِمَ بُغْدوين [Boldwin] مَلِكُ الفِرِنْج أنَّ العَساكرَ مُتواصِلَة إليه، وتَحَقَّق أنَّ الإقامَة لا تُمْكِنه، أَمَر أَصْحابَه بالنَّهْب والتَّخْريب والإحْراق، وهَدَمَ المَساجِدَ، فأَحْرَق جامِعَها ومَساجِدَها وجَميعَ البَلَد، وعَزَمَ على الرَّحيل، فأَخَذَه الله سبحانه وتعالى، وعَجَّل بنَفْسه إلى النَّار. فكَتَم أَصْحابُه مَوْتَه، وصارُوا بعد أن شَقُّوا بَطْنَ بُغْدوين ومَلَؤُوه مِلْحًا حتى بقي إلى بِلادِه، فدَفَنوه بها[2].

وأمَّا العَساكِرُ الإسلامية، فإنَّهم شَنُّوا الغَارات على بِلاد العَدُوّ، وعادوا بعد أن خَيَّموا على ظاهِر عَسْقَلان.

---

[1] ابن الكندي: فضائل مصر ٣٤ - ٣٥؛ وقارن ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها ٥٧ - ٥٨؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ٥٤.

[2] قارن، المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٥٣؛ المقفى الكبير ٢: ٤٤٠؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٥: ١٧١ وفيه: «فشقّ أصحابه بطنه وصبروه، ورموا حشوته هناك، فهي ترجم =

وكَتَبَ إلى الأمير ظَهير الدِّين طُغْدَكِين - صاحب دِمَشْق - بأَن يَتَوَجَّه إلى بِلاد الفِرَنْج، فسارَ إلى عَسقلان، وحُمِلَت إليه الضِّيافات.

وطُولِعَ بخَبَر وُصوله فأُمِرَ بحَمْل الخِيام وعِدَّة وافِرَة من الخَيْل والكُسْوات والبُنُود والأَعْلام وسَيْف ذَهَب ومِنْطَقَة ذَهَب وطَوْق ذَهَب وبَدْلَة طَقْم وخَيْمة كبيرة مُكَمّلة ومَرْتَبَة مُلوكية وفُرْشها وجَميع آلاتها وما تحْتاج إليه من آلات الفِضَّة.

وسُيِّر برَسْم شَمْس الخَوَاصّ - وهو مُقَدَّم كَبير - خِلْعَة مُذَهَّبة ومِنْطَقة ذَهب وسَيْف وسُيِّر برَسْمِ المُمَيَّزين من الواصِلين خِلَعٌ وسُيوف، وسُلِّم ذلك بثَبَتٍ لأَحَد الحُجّاب، وسُيِّر معه فَرّاشان برَسْم الخِيام.

وأُمِرَ بضَرْب الخَيْمَة الكبيرة وفَرْشها، وأن يَرْكَب والي عَسْقَلان وظَهير الدين وشَمْس الخَوَاصّ وجَميع الأُمَراء الواصِلين والمُقيمين بعَسْقَلان إلى بابِ الخَيْمَة ويُقَبّلوه، ثم إلى بِساطِها والمَرْتَبَة المَنْصوبة، ثم يَجْلس الوالي وظَهير الدِّين وشَمْس الخَوَاص والمُقَدَّمون ويَقِف الناسُ بأَجْمَعِهم إجْلالًا وتَعْظيمًا. ويُخْلَع على الأَمير ظَهير الدين وشَمْس الخَواصّ، وتُشَدّ المَناطِق في أَوْساطِهما، ويُقَلَّدا بالسُّيُوف، ويُخْلَع بَعْدَهما على المُمَيَّزين، ثم يَسير ظَهيرُ الدِّين والمُقَدَّمون بالتَّشْريف والأَعْلام والرَّايات المُسَيَّرَة إليهم، إلى أن يَصِلُوا إلى الخِيام التي ضُرِبَت لهم. فإذا كان كلُّ يوم يَرْكَب الوالي والأَميران والمقدَّمون والعساكِر إلى الخَيْمة الملوكية، ويَتَفاوَضُون فيما يجب من تَدْبير العَساكِر، فامْتُثِلَ ذلك.

وتَوَاصَلَت الغاراتُ على بِلاد العَدُوّ، وأَسَرُوا وقَتَلُوا، فسُيِّرَت إليهم الخِلَعُ ثانيًا، وجُعِلَ لشَمْس الخَواصّ خاصَّةً في هذه السَّفْرَة عشرة آلاف دينار، وتَسَلَّم ظَهيرُ الدِّين الخَيْمَة الكبيرة بما فيها. وكان تقديرُ ما حَصَلَ له ولأَصْحابه ثلاثين ألف دينار. وبَلَغَ المُنْفَقُ في هذه النَّوْبَة وعلى ذَهاب بُغْدُوين وهَلاكِه مائة ألف دينار [1].

وفي شهر رَجَب سنة خمس وأربعين وخمس مائة نَزَلَ الفِرَنْجُ على الفَرَمَا في جَمْعٍ كبيروأَحْرَقوها ونَهَبُوا أَهْلَها [2].

= إلى اليوم بالسبخة».

[1] ابن المأمون: أخبار مصر ١٣- ١٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣:٥٣- ٥٤.

[2] ابن ميسر: أخبار مصر ١٤٤؛ النويري: نهاية الأرب ٢٨:٣١٣- ٣١٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٢٠١.

وآخِرُ أَمْرِها أَنَّ الوَزيرَ شاوَر خَرَّبَها لمَّا خَرَجَ منها مُتَوَلِّيها مُلْهِم أخو الضِّرْغام في سنة ...[a] فاستمرَّت خَرابًا لم تُعْمَر بعد ذلك.

وكان بالفَرَمَا والبَقَّارَة والوَرَّادَة عَرَبٌ من جُذام يُقالُ لهم القاطِع، وهو جَرْيُ بن عَوْف بن مالِك بن شَنوءَة بن بُدَيْل بن جُشَم بن جُذام، منهم عبد العزيز بن الوَزير بن صابي بن مالِك بن عامِر بن عَدِيّ بن خَرْش بن نَفَر بن نَصْر بن القاطِع، ماتَ في صفر سنة خمس ومائتين.

وللسَّرِيّ[b] والجَرْويّ هنا أخبارٌ كثيرة أَتَيْنا[c] عليها في كتاب «عِقْد جَواهِرِ الأَسْفاط في أَخْبار مَدينَة الفُسْطَاط»[1].

وقال ابنُ الكِنْدِيّ: وبها مَجْمَعُ البَحْرَيْن، وهو البَرْزَخُ الذي ذَكَرَه الله عَزَّ وجَلَّ فقال: ﴿مَرَجَ البَحْرَيْن يَلْتَقِيان بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الآيتان ١٩، ٢٠ سورة الرحمن]، وقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [الآية ٦١ سورة النمل]، وهُمَا بَحْرُ الرُّوم وبَحْر الصِّين، والحاجِز بينهما مَسيرَة لَيْلَة ما بين القُلْزُم والفَرَما، وليس يَتَقارَبان في بَلَدٍ من البُلْدان أَقْرَب منهما بهذا المَوْضِع، وبينهما في السَّفَر مَسيرَة شُهُور[2].

ذِكْرُ مَدينَةِ القُلْزُم

/القُلْزُم - بضَمّ القاف وسُكُون اللّام وضَمّ الزّاي وميم - بَلْدَةٌ كانت على سَاحِل بحر اليَمَن في أَقْصاه من جَهِة مِصر. وهي كُورَة من كُوَر مصر، وإليها يُنْسَب بحر القُلْزُم[3]، وبالقُرْب منها غَرِقَ فِرْعَوْن، وبينها وبين مَدينَةِ مصر ثلاثة أيَّامٍ؛ وقد خَرِبَت، ويُعْرَف اليوم مَوْضِعُها بالسُّوَيْس تجاه عَجْرود[4].

ولم يكُن بالقُلْزُم ماءٌ ولا شَجَرٌ ولا زَرْعٌ، وإنَّما يُحْمَل الماءُ إليها من آبارٍ بعيدة. وكان بها فُرْضَة مصر والشَّام، ومنها تُحْمَل الحُمولات إلى الحِجَاز واليَمَن.

---

a) بياض بالنسخ ولعلها ٥٥٩. b) بولاق: السروي. c) بولاق: نبهنا.

---

[1] هذه الإشارة الوحيدة في الخطط إلى هذا الكتاب الذي يتناول فيه المقريزي تاريخ مصر قبل العصر الفاطمي.

[2] ابن الكندي: فضائل مصر ٤٨.

[3] انظر فيما تقدم ٤٠.

[4] انظر ياقوت: معجم البلدان ٤: ٣٨٧-٣٨٨؛ الزبيدي: تاج العروس ٩: ٣٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٩٩؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 149؛ Ebied, R. Y., *EI*² art. *al-Kulzum* V, pp. 368-69.

ولم يكُن بين القُلْزُم وفاران قَرْيَة ولا مَدينَة ، سوى[a] نَخْلٌ يَسير فيه صَيَّادون للسَّمَك . وكذلك من فارَان وجبيلان[b] إلى أَيْلَة .

قال ابنُ الطُّوَيْر : والبَلَدُ المعروف بالقُلْزُم أكْثَرها باقٍ إلى اليوم ، ويَراها الرَّاكِبُ السَّائِرُ من مصر إلى الحجاز . وكانت في القَدِيم ساحِلًا من سَواحِل الدَّوْلَة[c] المصرية ، ورأيتُ شيئًا من حِسابِه من جِهَة مُسْتَخْدَميه في حَواصِل القَصْر وما يُنْفَق على وَاليه وقاضِيه وداعِيه وخَطيبه والأَجْناد المركّزين به لحِفْظِه وقُرْبه وجامِعه ومَساجِده ، وكان مسكونًا مأهُولًا .

قال المُسَبِّحيُّ في حَوادِث سنة سبع وثمانين وثلاث مائة : وفي شهر رَمَضان سامَح أميرُ المؤمنين الحاكِم بأَمْر الله أَهْلَ مَدينَة القُلْزُم ممَّا كان يُؤْخَذ من مُكُوس المراكِب [1].

وقال ابنُ خُرْداذَبَة عن التُّجّار : فيَرْكَبُون في البَحْر الغَرْبي ، ويَخْرُجون بالفَرَمَا ويَحْمِلون تجاراتِهم على الظَّهْر إلى القُلْزُم – وبينهما خمسة وعشرون فَرْسَخًا – ثم يَرْكَبُون البحر الشَّرْقي من القُلْزُم إلى الجَار[d] وجُدَّة ، ثم يَمْضون إلى السِّنْد والهِنْد والصِّين [2].

ومن القُلْزُم ينزل النّاسُ في بَرِّيَّة وصَحْراء سِتّ مَراحِل إلى أَيْلَة ، ويتزوَّدون من الماءِ لهذه السِّتّ مَراحِل . ويُقالُ إنَّ بين القُلْزُم وبَحْر الرُّوم ثلاث مَراحِل ، وإنَّ ما بينهما هو البَرْزَخ الذي ذَكَره الله تعالى بقَوْلِه : ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الآية ٢٠ سورة الرحمن] .

التِّيه

هو أرْضٌ بالقُرْب من أَيْلَة ، بينهما عَقَبَة لا يكادُ الرَّاكِبُ يصْعَدُ من عليها لصُعوبَتها ، إلَّا أنَّها مُهِّدَت من زَمَن خُمارَوَيْه بن أحمد بن طُولون . ويَسيرُ الرَّاكِبُ مرحَلَتَيْن في فَحْص التِّيه هذا حتى يُوافي ساحِل بَحْر فاران ، حيث كانت مَدينَة فاران ، وهُناك غَرِقَ فِرْعَوْن .

والتِّيهُ مِقْدار أربعين فَرْسَخًا في مِثْلها ، وفيه تاه بنو إسْرائيل أربعين سنة ، لم يَدْخُلوا مَدينَةً ولا أووا إلى بَيْتٍ ، ولا بَدَّلوا ثَوْبًا ، وفيه ماتَ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ ويُقالُ إنَّ طُولَ التِّيه نحو من ستَّة أيَّام [3].

a) بولاق : وهي . b) بولاق : جيلان . c) بولاق : الديار . d) بولاق : تجار .

[1] المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٥ .

[2] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ١٥٣ .

[3] هو المعروف اليوم بوادي التيه في محافظة جنوب سيناء (ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٦٩٩؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١: ٣٨) .

واتَّفَق أنَّ المماليكَ البَحْرية لمَّا خَرَجُوا من القاهِرَة هارِبين، في سنة اثنتين وخمسين وست مائة [1]، مَرَّ طائِفَةٌ منهم بالتِّيه فتاهُوا فيه خمسة أيام، ثم تَراءَى لهم في اليوم السادس سَوادٌ على بُعْد، فَقَصَدُوه فإذا مَدينَةٌ عَظيمةٌ لها سُورٌ وأبْوابٌ كلّها من رُخامٍ أخضر، فدَخَلُوا بها وطافُوا بها فإذا هي قد غَلَبَ عليها الرَّمْلُ حتى طَمَّ أسْواقَها ودُورَها، ووَجَدُوا بها أواني ومَلابِسَ، وكانوا إذا تَناوَلُوا منها شيئًا تناثَرَ من طُول البِلَى. ووَجَدُوا في صِينيَّة بعض البَزَّازين تسعة دنانير ذَهَبًا، عليها صُورَة غَزال وكِتابَة عِبْرانية، وحَفَرُوا مَوْضِعًا، فإذا حَجَرٌ على صِهْريج ماء فَشَرِبوا منه ماءً أَبْرَدَ من الثَّلْج. ثم خَرَجُوا ومَشَوْا ليلةً، فإذا بطائِفَةٍ من العُرْبان حَمَلوهم إلى مَدينَة الكَرَك، فدَفَعُوا الدَّنانير لبعض الصَّيارِفَة، فإذا عليها أنَّها ضُرِبَت في أيَّام مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ، ودَفَعَ لهم في كلِّ دينار مائة دِرْهَم [2].

وقيل لهم إنَّ هذه المَدينَةَ الخَضْراء من مُدُن بني إسْرائيل، ولها طُوفان رَمْل يَزيد تارَةً ويَنْقُص أُخْرى، لا يَراها إلَّا تائِهٌ.

ذِكْرُ مَدينَة دِمْياط

اعْلَم أنَّ دِمْياط كُورَة من كُوَر أرْض مصر بينها وبين تِنِّيس اثنا عشر فَرْسَخًا؛ ويُقالُ سُمِّيَت بدِمْياط من وَلَد أُشْمُن بن مِصرايم بن بيصر بن حَام بن نُوح عليه السَّلام؛ ويُقال إنَّ إدْرِيسَ – عليه السَّلام – كان أَوَّلَ ما أُنزل عليه ذو القُوّة والجَبروت: أنا الله مُدين المَدائِن، الفَلَك بأَمْري وصُنْعي، أَجْمَع بين العَذْب والمِلْح والنَّار والثَّلْج، وذلك بقُدْرَتي ومَكْنون عِلْمي الدال والميم والألف والطَّاء.

قيل هم بالسُّرْيانية دِمْياط، فتكُون دِمْياط كَلِمة سُرْيانية أَصْلها دَمَطَ: أي القُدْرَة، إشارَة إلى مَجْمَع العَذْب والمالِح [3].

---

[1] انظر فيما يلي ١: ٣٨٣.

[2] ابن أيبك: كنز الدرر ٨: ٢٦– ٢٨؛ المقريزي: السلوك ١: ٣٩١؛ ويرى كاترمير أن المدينة التي مرّ بها هؤلاء المماليك هي مَدينَة البَتْراء (Quatremère, E., *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte,* I/1 p. 49, n. 71).

[3] دِمْياط: من ثغور مصر القديمة تقع على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط وبينها وبين مصب هذا الفرع في البحر المتوسط ١٥ كيلومترًا. وكانت دمياط الأصلية واقعة في الجهة الشمالية من دمياط الحالية ونُقِلَت إلى مكانها الحالي من سنة ٦٣٣هـ (أبو عبيد البكري: جغرافية مصر ٨٩– ٩٠؛ مجهول: الاستبصار ٨٨؛ ياقوت: معجم البلدان =

وقال الأُسْتاذُ إبراهيم بن وَصِيف شاه : دِمْياطُ بَلَدٌ قَديم بُنيَ في زَمَن فليمُون بن أَتْريب بن قُبْطيم بن مِصْرايِم على اسم غُلام له[a] كانت أُمُّه ساحِرَة لفليمون [1].

ولمَّا قَدِمَ المُسْلِمون إلى أَرْض مصر ، كان على دِمْياط رَجُلٌ من أَخْوال المُقَوْقِس يُقالُ له الهاموك ؛ فلمَّا افْتَتَح عَمْرو بن العَاص مصر ، امْتَنَع الهاموك بدِمْياط واسْتَعَدَّ للحَرْب ، فأَنْفَذ إليه عَمْرو بن العَاص المِقْدادَ بن الأَسْوَد في طائِفَةٍ من المسلمين ، فحارَبَهم الهاموك ، وقُتِلَ ابنه في الحَرْب ، فعادَ إلى دِمْياط ، وجَمَعَ إليه أصحابَه فاسْتَشارهم في أَمْره .

وكان عنده حَكيمٌ قد حَضَر الشُّورَى ، فقال : أيُّها المَلك ، إنَّ جَوْهَرَ العَقْل لا قِيمَةَ له ، وما ٢١٤ اسْتَغْنَى به أَحَدٌ إلَّا هَداه إلى سَبيل الفَوْز والنَّجاة من الهَلاك ، وهؤلاء / العَرَب من بَدْء أَمْرِهم لم تُرَدَّ لهم رايَة ، وقد فَتَحُوا البِلادَ وأَذَلُّوا العِبَاد ، وما لأَحَدٍ عليهم قُدْرة ، ولَسْنا بأَشَدَّ من جُيُوش الشَّام ولا أَعَزَّ وأَمْنَع ، وإنَّ القَوْمَ قد أُيِّدوا بالنَّصْر والظَّفَر ، والرَّأْي أن تَعْقِد مع القَوْم صُلْحًا نَنَال به الأَمْن وحَقْن الدِّماء وصِيانَة الحُرَم ، فما أنت بأَكثر رِجالًا من المُقَوْقِس .

فلم يَعْبَأ الهاموك بقَوْله ، وغَضِبَ منه فقَتَلَه . وكان له ابنٌ عارِفٌ عاقِلٌ ، وله دارٌ مُلاصِقَةٌ للسُّور ، فخَرَجَ إلى المسلمين في اللَّيْل ودَلَّهم على عَوْرات البَلَد ، فاسْتَوْلَى المسلمون عليها وتَمَكَّنوا منها . وبَرَزَ الهاموك للحَرْب ، فلم يَشْعُر بالمسلمين إلَّا وهم يُكَبِّرون على سُور البَلَد وقد مَلَكُوه ، فعندما رأَى شَطا بن الهاموك المُسْلمين فَوْق السُّور ، لَحِقَ بالمسلمين ومعه عِدَّةٌ من أَصْحابه ، ففَتَّ ذلك في عَضُدِ أبيه وأَسْتَأْمَن للمِقْدادِ ، فتَسَلَّم المسلمون دِمْياط ، واسْتَخْلَف المِقْداد عليها ، وسِير بخَبَر الفَتْح إلى عَمْرو بن العَاص .

وخَرَج شَطَا – وقد أَسْلَم – إلى البُرُلُّس والدَّميرَة وأُشْموم طَنَاح ، فحَشَدَ أَهْلَ تلك النَّواحي وقَدِم بهم مَدَدًا للمسلمين وعَوْنًا لهم على عَدُوِّهم . وسارَ بهم مع المسلمين لفَتْح تِنِّيس ، فبَرَز

---

a) إضافة من النويري .

= ٢: ٤٧٢ – ٤٧٥؛ الحميري : الروض المعطار ٢٥٧ – ٢٥٨؛ ابن بطوطة : الرحلة ١: ٢٣ – ٢٥؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٩٣ – ٩٥؛ ابن دقماق : الانتصار ٥: ٨٠ – ٨٢؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٤٠٢؛ وعلي مبارك : الخطط التوفيقية ١١: ٣٦ – ٥٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/١: ٨؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* pp. 92-93; Holt, P. H., *EI*[2] art. *Dimyāt* II, p. 300؛ وجمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط سياسيًا واقتصاديًا ، الإسكندرية ١٩٤٩).

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٧٨.

لأَهْلها وقاتَلَهم قِتالًا شَديدًا حتى قُتِلَ رحمه الله في المعركة شَهيدًا ، بعد ما أَنْكَى فيهم وقَتَلَ منهم ، فحُمِلَ من المعرَكة ودُفِنَ في مَكانه المعروف به خارج دِمْياط . وكان قَتْلُهُ في ليلة الجُمُعَة النصف من شَعْبان ، فلذلك صارَت هذه اللَّيْلَة من كلِّ سَنَة مَوْسِمًا يَجْتَمع الناسُ فيها من النَّواحِي عند شَطا ويُحْيونها ، وهم على ذلك إلى اليوم .

وما زالت دِمْياطُ بيَد المُسْلمين إلى أن نَزَلَ عليها الرُّومُ في سنة تسعين من الهجرة فأَسَرُوا خالِد ابن كَيْسان - وكان على البَحْر هناك - وسَيَّرُوه إلى مَلِك الرُّوم ، فأَنْفَذَه إلى أمير المؤْمنين الوَليد بن عبد الملك من أَجْل الهُدْنَة التي كانت بينه وبين الرُّوم .

فلمَّا كانت خِلافَةُ هِشَام بن عبد الملك نازَل الرُّومُ دِمْياط في ثلاث مائة وستين مركبًا ، فقَتَلُوا وسَبَوا ، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة .

ولمَّا كانَت الفِتْنَةُ بين الأَخَوَيْن محمد الأَمين وعبد الله المأْمُون ، وكانت الفِتَنُ بأَرْض مصر ، طَمع الرُّوم في البلاد ، ونازَلُوا دِمْياطَ في أَعْوام بضع ومائتين .

ثم لَمَّا كانت خِلافَةُ أَمير المؤْمنين المتَوَكِّل على الله ، وأَميرُ مصر يومئذٍ عَنْبَسَة بن إسْحاق ، نَزَلَ الرُّومُ دِمْياط يوم عَرَفَة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، فمَلَكوها وما فيها ، وقَتَلُوا بها جَمْعًا كثيرًا من المسلمين ، وسَبَوُا النِّساء والأَطْفال وأَهْل الذِّمَّة . فنَفَرَ إليهم عَنْبَسَة بن إسْحاق يوم النَّحْر في جَيْشه ، ونَفَرَ كثيرٌ من النَّاس إليهم فلم يُدْرِكوهم [1] . ومَضَى الرُّومُ إلى تِنِّيس فأقامُوا بأُشْتُومِها ، فلم يتبعهم عَنْبَسَة ، فقال يَحْيَى بن الفُضَيْل للمُتَوكِّل [2] :

[الطويل]

أَتَرْضَى بأن يُوطَا حَريمُك عَنْوَةً … وأن يُسْتَباحَ المُسْلِمون ويُحْرَبُوا
حِمارٌ أَتَى دِمْياطَ والرُّوم وُثَّب … بتِنِّيس منه رَأْيَ العَيْنِ وأَقْرَبُ
مُقيمون بالأُشْتوم يَبْغُون مِثْل مَا … أَصَابُوهُ من دِمْياطَ والحَرْبُ تُرَتَّبُ
فمَا رامَ من دِمْياط شِبْرًا ولا دَرَى … من العَجْز ما يَأْتي وما يَتَجنَّبُ

---

[1] أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٢ : ٢٩٢ ، ٢٩٤ .
وراجع ، Levi Della - Vida, G., «A papyrus reference to the Damietta raid of 853 A.D.», *Byzantion* XVII (1944-45), pp. 212-21; Rémondon, R., «A propos de la menace byzantine sur Damiette sous le règne de Michel III», *Byzantion* XXIII (1953), pp. 254-60; Kubiak, W. B., «The Byzantine Attack on Damietta in 853 and the Egyptian Navy in the 9th century», *Byzantion* XL (1970), pp. 45-66
وانظر كذلك أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ١ : ٤٦- ٤٩ .

[2] انظر الأبيات في معجم البلدان ٢ : ٤٧٣ .

فلا تَنْسَنا إنّا بدارِ مَضْيَعَةٍ بمصرَ، وإنّ الدِّينَ قد كادَ يَذْهَبُ

فأَمَرَ المُتَوكِّلُ بِبناء حِصْن دِمْياط، فابْتُدِئَ في بِنائِه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رَمَضان سنة تسع وثلاثين[١]، وأَنْشأَ من حينئذٍ الأُسْطول بمصر.

فلمَّا كان في سنة تِسْعٍ[a] طَرَقَ الرُّومُ دِمْياط في نحو مائتي مَرْكِب، فأقامُوا يَعيثون في السَّواحِل شَهْرًا وهم يَقْتُلون ويَأْسِرون، وكانت للمُسْلِمين معهم مَعارِك.

ثم لمَّا كانَت الفِتَنُ بعد مَوْت كافُور الإخْشيدي، طَرَقَ الرُّومُ دِمْياطَ لعشرٍ خَلَوْن من رَجَب سنة سبعٍ وخمسين وثلاث مائة في بِضْعٍ وعشرين مَرْكِبًا، فقَتَلُوا وأَسَرُوا مائة وخمسين من المُسْلمين.

وفي سنة ثمانٍ وأربع مائة، ظَهَرَ بدِمْياط سَمَكَةٌ عَظيمَةٌ طولُها مائتان وستون ذِراعًا، وعَرْضها مائة ذِراع. وكانت حمير المِلْح تدخل في جَوْفِها مَوْسوقَة فتفرغ وتَخْرج، ووَقَفَ خمسةُ رجال في قَحْفِها ومعهم المَجاريف يَجْرِفُون الشَّحْمَ ويُناوِلونَه الناسَ، وأقامَ أهلُ تلك النَّواحِي مُدَّةً طويلة يأْكُلون من لَحْمِها.

وفي أيَّام الخَليفَة الفَائِز بنَصْر الله عيسَىٰ، والوَزير حينئذٍ الصَّالِح طَلائِع بن رُزِّيك، نَزَلَ على دِمْياط نحو ستين مَرْكِبًا في جمادىٰ الآخرة سنة خمسين وخمس مائة بَعَثَ بها جيوم بن رُجار صاحِب[b] صِقِلِّيَّة[٢]، فعاثُوا وقَتَلوا، ونَزَلُوا تِنِّيس ورَشيد والإسْكَنْدَرية، فأكثروا فيها الفَسَاد.

ثم كانت خِلافَةُ العاضِد لدين الله في وَزارَة شاوَر بن مُجير السَّعْدي ـ الوَزارَة الثانية ـ عندما حَضَرَ مَلِكُ الفِرِنْج مُرِّي [Amaury] إلى القاهِرَة وحَصَرَها، وقَرَّر على أَهْلها المال، واحْتَرقَت مَدينَة الفُسْطاط، فنَزَلَ على تِنِّيس وأُشْموم ومُنْيَة غَمْر، وصاحِب أُسْطول الفِرِنْج في عشرين شُونة، فقَتَلَ وأَسَرَ وسَبَى.

---

a) بولاق: سبع. b) بولاق: لوجيز بن رجا وصاحب، الأصل: بوجير والمثبت من المصادر.

---

[١] الكندي: ولاة مصر ٢٢٧؛ وقارن النجوم الزاهرة ٢: ٢٩٤.

[٢] كان ملك صقلية في ذلك الوقت من ٥٤٨هـ/١١٥٣م، وحتى ٥٦١هـ/١١٦٦م هو جيوم الأول بن رجار Guilaume fils de Roger.

وفي وَزارَة الملك النَّاصِر صَلاح الدين يُوسُف بن أَيُّوب للعاضِد، وَصَلَ الفِرنْجُ إلى دِمْياط في شهر ربيع الأوَّل سنة خمسٍ وستين وخمس مائة، وهم فيما يَزيد على ألف ومائتي / مَرْكِب. فخَرَجَت العَساكِرُ من القَاهِرَةُ، وقد بَلَغَت النَّفَقَة عليهم زيادَةً على خمس مائة ألف وخمسين ألف دينار. فأقامَت الحَرْبُ مُدَّة خمسة وخمسين يومًا، وكانت صَعْبَة شديدة. اتّهم في هذه النَّوْبَة عِدَّةٌ من أعْيان المصريين بمُمالأة الفِرنْج ومُكاتَبتِهم، وقَبَضَ عليهم الملك النَّاصِر وقَتَلَهم.

وكان سَبَبُ هذه النَّوْبَة أنَّ الغُزَّ لمَّا قَدِمُوا إلى مصر من الشَّام صُحْبَة أَسَد الدين شِيرْكوه، تَحَرَّك الفِرنْج لغَزْو ديار مصر خشية من تمكن الغُزّ بها، فاسْتَمَدّوا إخوانهم أهل صِقِلِّيَّة فأَمَدُّوهم بالأموال والسِّلاح، وبَعَثُوا إليهم بعِدَّة وافِرَة. فساروا بالدَّبَّابات والمجانيق، ونَزَلُوا على دِمْياط في صَفَر - وهم في العُدَّة التي ذَكَرْنا من المراكِب - وأحاطوا بها بحرًا وبرًّا. فبَعَثَ السُّلْطانُ بابن أَخيه تَقِيّ الدين عُمَر، وأَتْبَعَه بالأَمير شِهاب الدين الحارِمي في العَساكِر إلى دِمْياط، وأَمَدَّهما بالأَمْوال والمِيرَة والسِّلاح. واشْتَدَّ الأَمْرُ على أَهْل دِمْياط وهم ثابِتون على مُحارَبَة الفِرنْج.

فسَيَّرَ صَلاحُ الدين إلى نُور الدين محمود بن زَنْكي صاحِب الشَّام يَسْتَنْجِده، ويُعْلِمه بأنَّه لا يُمكِنه الخُروج من القاهِرَة إلى لِقاء الفِرنْج خَوْفًا من قِيام المصريين عليه. فجَهَّزَ إليه العَساكِرَ شيئًا بعد شيء، وخَرَجَ نُور الدين من دِمَشْق بنَفْسه إلى بِلاد الفِرنْج التي بالسَّاحل وأغارَ عليها واسْتَباحَها. فبَلَغَ ذلك الفِرنْج وهم على دِمْياط، فخافُوا على بلادِهم من نُور الدين أن يَتَمَكَّن منها، فرَحَلُوا عن دِمْياط في الخامس والعشرين من ربيع الأوَّل، بعد ما غَرِق لهم نحو الثلاث مائة مَرْكِب، وقَلَّت رجالُهم بفَنَاء وَقَعَ فيهم، وأَحْرَقُوا ما ثَقُلَ عليهم حَمْله من المَنْجنيقات وغيرها[1].

وكان صَلاحُ الدين يقول: ما رَأَيْتُ أَكْرَمَ من العاضِد أَرْسَل إليَّ مُدَّة مَقام الفِرنْج على دِمياط ألْف ألف دينار، سوى ما أَرْسَلَه إليَّ من الثِّياب وغيرها.

وفي سنة سبع وسبعين وخمس مائة، رُتِّبَت المُقاتِلَة على البُرْجَيْن، وشُدَّت مَراكِب إلى السِّلْسِلَة ليُقاتَل عليها ويُدافَع عن الدُّخول من بين البُرْجَيْن، ورُمّ شَعَث سُور المَدينَة وسُدَّت ثُلَمُه،

---

[1] راجع، ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٤٣-١٤٤؛ الكامل ١١: ٣٥١-٣٥٢، ابن خلكان: وفيات ٧: ١٥٢؛ أبا شامة: الروضتين ١: ٤٥٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب ١: ١٧٩-١٨٣؛ ابن الفرات: تاريخ ٤/١: ٨٢-٨٧؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٣١٥-٣١٦؛ أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية ٣٠٢-٣٠٣.

وأُتقِنَت السِّلْسِلَة التي بين البُرْجَيْن، فبَلَغَت النَّفَقَة على ذلك ألف ألف دينار. واعْتُبِر السُّور، فكان قِياسُه أربعة آلاف وستّ مائة وثلاثين ذِراعًا [1].

وفي سنة ثمان وثمانين وخمس مائة، أَمَرَ السُّلْطَانُ بقَطْع أشْجار بَساتين دِمْياط وحَفْر خَنْدَقِها، وعَمَلِ جِسْرٍ عند سِلْسِلَة البُرْج [2].

وفي سنة خمس عشرة وستّ مائة، كانت واقِعَةُ دِمْياط العُظْمَى [3]؛ وكان سَبَبُ هذه الواقِعَة أنَّ الفِرِنْجَ في سنة أربع عشرة وستّ مائة تَتابَعَت أمْدادُهم من رُومية الكبرى مَقَرِّ البابا ومن غيرها من بِلاد الفِرِنْج. وساروا إلى مَدينة عَكّا فاجْتَمَعَ بها عِدَّةٌ من مُلوك الفِرِنْج، وتعاقَدُوا على قَصْد القُدْس وأَخْذِه من أيدي المسلمين، فصارُوا بعَكّا في جَمْعٍ عظيم. وبَلَغَ ذلك الملك أبا بَكْر بن أيّوب، فخَرَجَ من مصر في العَساكِر إلى الرَّمْلَة، فبَرَزَ الفِرِنْجُ من عَكّا في جُموعٍ عظيمة؛ فسارَ العادِلُ إلى بَيْسان، فقَصَدَه الفِرِنْجُ فخافَهُم لكَثْرَتهم وقِلَّة عَسْكَره، فأَخَذَ على عَقَبَة فَيْق يُريد دِمَشْق.

وكان أَهْلُ بَيْسان وما حَوْلَها قد اطْمَأَنُّوا لنُزُول السُّلْطان هناك، فأقامُوا في أماكِنِهم. وما هو إلّا أن سارَ السُّلْطانُ، وإذا بالفِرِنْج قد وَضَعُوا السَّيْفَ في النّاس، ونَهَبُوا البلاد، فحازُوا من أمْوال المسلمين ما لا يُحْصَى كَثْرَةً، وأَخَذُوا بَيْسان وبانْياس وسائِر القُرَى التي هناك وأقامُوا ثلاثة أيام، ثم عادُوا إلى مَرْج عَكّا بالغَنائِم والسَّبْي، وهَلَكَ من المسلمين خَلْقٌ كثيرٌ. فاسْتَراح الفِرِنْجُ بالمَرْج أيّامًا، ثم عادُوا ثانِيًا ونَهَبُوا صَيْدًا والشَّقيف، وعادُوا إلى مَرْج عَكّا فأقامُوا به. وكان ذلك كلُّه فيما بين النِّصْف من شهر رَمَضان وعيد الفِطْر، والملكُ العادِلُ مُقيمٌ بمَرْج الصُّفَّر، وقد سَيَّرَ ابنه المُعَظَّم عِيسَى بعَسْكَرٍ إلى نابُلُس لمَنْع الفِرِنْج من طُروقها والوُصُول إلى بَيْت المَقْدس.

فنازَل الفِرِنْجُ قَلْعَةَ الطُّور سبعة عشر يومًا ثم عادوا إلى عَكّا؛ وعَزَمُوا على قَصْد الدِّيار المصرية فرَكِبوا بجموعهم البَحْر، وسارُوا إلى دِمْياط في صَفَر فنَزَلوا عليها يوم الثلاثاء رابع ربيع الأوَّل سنة خمس عشرة وستّ مائة ـ المُوافِق لثامِن حُزَيْران ـ وهم نحو السبعين ألْف فارِس وأربع مائة ألف راجِل، فخَيَّمُوا تِجاه دِمْياط في البَرّ الغَرْبي، وحَفَروا على عَسْكَرِهم خَنْدَقًا، وأقاموا عليه سُورًا؛

---

[1] المقريزي: السلوك ١: ٧٤.

[2] نفسه ١: ١١١.

[3] ينقل المقريزي خبر واقعة دمياط العظمى عن ابن واصل: مفرج الكروب ٣:٢٥٤- ٢٦١، ٤:١٥- ٢٠؛ وانظر كذلك ابن الأثير: الكامل ١٢:٣٢٣- ٣٣١؛ النويري: نهاية الأرب ٢٩:٨٧- ٩٣، ٩٤- ٩٥؛ المقريزي: السلوك ١:١٨٨- ١٩١؛ ٢٠١- ٢٠٣، ٢٠٥- ٢١٠.

وشَرَعوا في قِتال بُرْج دِمْياط، فإنَّه كان بُرْجًا مَنيعًا فيه سَلاسِل من حَديد غِلاظ تُمَدّ على النِّيل لتَمْنَع المراكِب الواصِلَة في البحر المِلْح من الدُّخول إلى ديار مصر في النِّيل. وذلك أنَّ النِّيلَ إذا انتهى إلى فُسْطاط مصر مَرَّ عليه في ناحية الشَّمال إلى شَطَنُوف، فإذا صارَ إلى شَطَنُوف انقسمَ قِسْمَيْن: أحَدُهما يَمُرّ في الشَّمال إلى رَشيد فيصُبّ في البحر المِلْح، والشَّطْر الآخَر يمرّ من شَطَنُوف إلى جَوْجَر؛ ثم يتفرَّق من عند جَوْجَر فُرْقَتَيْن: فُرْقَة تمرّ إلى أُشْموم فتَصُبّ في بُحَيْرَة تِنِّيس، وفُرْقَة تمرّ من جَوْجَر إلى دِمْياط فتَصُبّ في البحر المِلْح هناك. وتَصيرُ هذه الفُرْقَة من النِّيل فاصِلَة بين مَدينَة دِمْياط والبَرّ الغربي[1].

وهذا البَرُّ الغربي من دِمْياط يُعْرَف بجَزيرَة دِمْياط، يُحيط بها ماءُ النِّيل والبَحْر المِلْح. وفي مُدَّة إقامَة الفِرِنْج بهذا البَرّ الغربي، عَملوا الآلات والمَرمَّات[a][2]، وأقامُوا أبْراجًا يَزْحَفُون بها / في المراكِب إلى بُرْج السِّلْسِلَة ليَمْلكوه، فإنَّهم إذا مَلَكوه تمكَّنوا من العُبُور في النِّيل إلى القاهِرَة ومِصْر. وكان هذا البُرْج مَشْحونًا بالمُقاتِلَة، فتَحَيَّل الفِرِنْجُ عليه، وعَمِلوا بُرْجًا من الصَّواري على بَسْطَة كبيرة، وأَقْلَعوا بها حتى أسْنَدوها إليه وقاتَلوا مَنْ به حتى أَخَذُوه.

فبَلَغ نُزولُ الفِرِنْج على دِمْياط المَلِكَ الكامِلَ - وكان يَخْلُف أباه الملك العادِل على دِيار مصر - فخَرَجَ بمن معه من العساكِر في ثالث يوم من وُقُوع الطَّائِر بخَبَر نُزُول الفِرِنْج لخمس خَلَوْن منه، وأَمَر والي الغَرْبِيَّة بجَمْع العُرْبان، وسارَ في جَمْع كبير.

وخَرَج الأُسْطولُ فأقامَ تَحْت دِمْياط، ونَزَلَ السُّلْطانُ بمن معه من العساكِر بمَنْزِلَة العادِلية[3] قُرْب دِمْياط، وامْتَدَّت عساكِرُه إلى دِمْياط لتَمْنَع الفِرِنْج من السُّور، والقِتال مُسْتَمِرّ والبُرْجُ مُمْتَنِع مُدَّة أربعة أشهر. والعادِلُ يُسَيِّر العساكِرَ من البلاد الشَّامية شيئًا بعد شيءٍ، حتى تكامَلَت عند الملك الكامِل.

---

a) بولاق: والمراسي والمثبت من النسخ ومفرج الكروب.

---

[1] انظر فيما تقدم ١٦٦ الحديث عن تحول الدلتا المصرية، وأن شطنوف كانت في هذا الزمان هي رأس الدلتا.

[2] مَرمَّة جـ. مَرمَّات: نوعٌ من السفن الحربية الكبيرة يظهر أنها من أصل إيطالي Maremma وهي اسم ناحية في إيطاليا، تردَّد ذكرها في المصادر التاريخية لهذه الفترة (المقريزي: السلوك ١: ١٨٩، ٣٤٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب ٣: ٢٦٠ هامش ٤؛ درويش النخيلي: السفن الإسلامية ١٤٠-١٤١).

[3] العادلية من القرى القديمة أسَّسها الملك العادل أبو بكر ابن أيوب سنة ٦١٤ ليتخذها قاعدة يواجه منها الفرنج =

واهْتَمَّ الملكُ لنُزول الفِرِنْجِ على دِمْياط واشْتَدَّ خَوْفُه ، فرَحَلَ من مَرْج الصُّفَّر إلى غالقين ، فنَزَلَ به المرض وماتَ في سابع جمادى الآخرة . فكَتَم الملكُ المُعَظَّم عيسَى مَوْتَه ، وحَمَلَه في مَحَفَّة وجَعَلَ عندهِ خادِمًا وطَبيبًا راكِبًا إلى جانِب المحَفَّة ، والشَّراب دار يُصْلح الشَّراب ويَحْمله إلى الخادِم فيَشْرَبه ، ويُوهِم النَّاسَ أنَّ السُّلطانَ شَرِبَه ، إلى أن دَخَلوا به إلى قَلْعَة دِمَشْق ، وصارَت إليها الخَزائِنُ والبُيوتات ، فأَعْلَن بمَوْتِه وتَسَلَّم ابنُه الملك المُعَظَّم جميعَ ما كان معه ، ودَفَنه بالقَلْعَة ، ثم نَقَلَه إلى مَدْرَسَة العادلية بدِمَشْق .

وبَلَغَ الملكَ الكامِلَ مَوْتُ أبيه وهو بمَنْزِلَة العادِلية قُرْب دِمْياط ، فاسْتَقَلَّ بمَمْلَكة ديار مصر .

واشْتَدَّ الفِرِنْجُ وأَلَحُّوا في القِتال حتى اسْتَوْلوا على بُرْج السِّلْسِلَة ، وقَطَعُوا السَّلاسِل المُتَّصِلَة به لتَجُوز مَراكِبُهم في بحر النِّيل ويَتَمَكَّنوا من البلاد . فنَصَبَ الملكُ الكامِلُ بَدَلَ السَّلاسِل جِسْرًا عَظيمًا لمَنْع الفِرِنْج من عُبُور النِّيل ، فقاتَلَت الفِرِنْجُ عليه قِتالاً شديدًا إلى أن قَطَعُوه ، وكان قد أَنْفَقَ على البُرْج والجِسْر ما ينيف على سبعين ألف دينار .

وكان الكامِلُ يَرْكَب في كلِّ يومٍ عِدَّة مِرار من العادِلية إلى دِمْياط لتَدْبير الأُمُور ، وإعمال الحيلَة في مُكايَدَة الفِرِنْج . فأَمَرَ الملكُ الكامِلُ أن يُفَرَّق عدَّةٌ من المراكِب في النِّيل حتى تَمْنَع الفِرِنْج من سُلوك النِّيل . فعَمَدَ الفِرِنْجُ إلى خَليجٍ هناك يُعْرَف بالأَزْرَق ، كان النِّيلُ يَجْرِي فيه قَديمًا ، فحَفَرُوه وعَمَّقُوا حَفْرَه وأَجْرَوا فيه الماءَ إلى البحر المِلْح ، وأَصْعَدُوا مَراكِبَهم فيه إلى بُورَة على أرض جِيزَة دِمْياط ، مُقابِل المَنْزِلَة التي بها السُّلطان ليُقاتِلوه من هناك . فلمَّا صارُوا في بُورَة جاءوه وقاتَلُوه في الماء ، وزَحَفُوا إليه عِدَّة مِرار فلم يَظْفَروا منه بطائِل .

ولم يَتَغَيَّر على أهل دِمْياط شيءٌ ، لأنَّ المِيرَة والأَمْداد مُتَّصِلَة إليهم ، والنِّيلُ يَحْجز بينهم وبين الفِرِنْج ، وأبوابُ المَدينَة مُفَتَّحَة ، وليس عليها من الحَصْر ضِيقٌ ولا ضَرَرٌ ، والعُرْبانُ تَتَخَطَّف الفِرِنْج في كلِّ ليلة بحيث امْتَنَعُوا الرُّقاد[a] خَوْفًا من غاراتهم ، فلمَّا قَوِيَ طَمَعُ العَرَب في الفِرِنْج حتى صاروا يَخْطِفونهم نهارًا ، ويَأْخُذون الخِيَم بمَن فيها ، أَكْمَنَ الفِرِنْجُ لهم عِدَّة كمناء وقَتَلُوا منهم

---

a) بولاق : من الرقاد .

= عندما نزلوا دمياط في هذه السنة . ذكرها محمد رمزي (١: ٢٤٢)، وهي في التقسيم الإداري الحالي تابعة لمحافظة تابعة لمركز فارسكور بمحافظة الدقهلية (القاموس الجغرافي ٢/ دمياط .

خَلْقًا كثيرًا . وأَدْرَكَ الناسَ الشِّتاءُ ، وهاجَ البحرُ على مُخَيَّم المسلمين وغَرَّقَهم ، فعَظُمَ البَلاءُ وتزايَد الغَمُّ . وأَلَحَّ الفِرِنْجُ في القِتال ، وكادوا أن يَمْلكوا ، فبعَثَ الله رِيحًا قَطَعَت مَراسى مَرِمَّة الفِرِنْج - وكانت من عَجائِب الدُّنيا - فمَرَّت إلى برّ المسلمين فأَخذوها ، فإذا هي مُصَفَّحَة بالحَديد لا تَعْمَل فيها النّار ، ومساحَتُها خمس مائة ذِراع ، فكَسَروها فإذا فيها مَسامير زِنَة الواحِد منها خمسة وعشرون رَطلًا .

وبعَثَ الكامِلُ إلى الآفاق سبعين رَسُولًا ، يَسْتَنْجِد أَهْلَ الإسْلام لنُصْرَة المُسْلمين ، ويَخَوِّفُهم من غَلَبَة الفِرِنْج على مصر . فساروُا في شَوّال ، وأَتَته النَّجْدات من حَماة وحَلَب .

وبَيْنَا الناسُ في ذلك ، إذ طَمِعَ الأميرُ عِمادُ الدين أحمد ابن الأمير سَيْف الدين أبي الحُسَيْن عليّ بن أحمد الهَكّاري المعروف بابن المَشْطُوب في الملك الكامِل عندما بَلَغَه موتُ الملك العادِل . وكان له لَفيفٌ يَنْقادون إليه ويُطيعونه ، وكان أميرًا كبيرًا مُقَدَّما عَظيمًا في الأَكْراد الهَكّارية ، وافِرَ الحُرْمَة عند الملوك ، مَعْدودًا بينهم مثل واحِدٍ منهم . وكان مع ذلك عالي الهِمَّة ، غَزيرَ الجُود ، واسِعَ الكَرَم ، شُجاعًا ، أَبِيّ النَّفْس ، تَهابُه الملوك ، وله الوَقائِعُ المشهورة . وهو من أُمَراء الدولة الصَّلاحية يُوسُف [a]. فاتَّفَقَ مع جَماعَةٍ من الجُنْد والأَكْراد على خَلْع الملك الكامِل ، وإقامة أخيه الملك الفائِز إبراهيم ليَصيرَ له الحُكْمُ . ووافَقَه الأميرُ عِزُّ الدين الحَميدي ، والأميرُ أَسَدُ الدين الهَكّاري ، والأميرُ مُجاهِد الدين وجَماعَةٌ من الأُمَراء .

فلمّا بَلَغَ ذلك الملك الكامِل ، دَخَلَ عليهم وهم مُجْتَمِعون والمُصْحَف بين أَيْديهم ليَحْلِفوا للفائِز ، فلمّا رَأَوْه انْفَضُّوا ، فخَشِيَ على نَفْسه وخَرَج [b].

فاتَّفَق وُصولُ الصّاحِب صَفِيّ الدين بن شُكْر من آمِد إلى الملك الكامِل - فإنَّه كان اسْتَدْعاه بعد مَوْت أبيه - فتلقَّاه وأَكْرَمه وذَكَرَ له ما هو فيه ، فضَمِن له تَحْصيل المال . فلمّا كان في اللَّيْل رَكِبَ الملكُ الكامِلُ وتَوَجَّه من العادِلية في جَريدَة إلى أُشْموم طَناح ، فنَزَلَها . وأَصْبَح العَسْكَرُ بغير سُلْطان ، فرَكِبَ كلٌّ منهم هَوَاه ، ولم يَعْطف الأَخُ على أَخيه ، وتَرَكُوا أَثْقالَهم / وخِيامَهم وأَمْوالَهم وأَسْلحَتهم ، ولَحِقُوا بالسُّلْطَان . فبادَرَ الفِرِنْجُ في الصَّباح إلى مَدينَة دِمْياط ، ونَزَلوا البرَّ الشرقيّ يوم الثلاثاء سادِس عشر ذي القعدة بغير مُنازِع ولا مُدافِع ، وأَخَذُوا سائِرَ ما كان في عَسْكَر المسلمين وكان شيئًا لا يُحيط به الوَصْفُ . وداخَل السُّلْطانَ وَهْمٌ عظيمٌ ، وكادَ أن يُفارِق البلاد ، فإنَّه تَخَيَّل من جميع من معه .

a) بولاق : دولة صلاح الدين يوسف . b) بولاق : فخرج .

واشتدَّ طَمَعُ الإفْرِنْج[a] في أرْضِ مصر كلِّها ، وظَنُّوا أنَّهم قد مَلَكوها ، إلَّا أنَّ الله سبحانه وتعالى أغاثَ المسلمين وثبَّت السُّلْطَانَ . ووافاه أخُوه الملك المُعَظَّم بأُشْموم طَنَاح فاشْتَدَّ به أَزْرُه وقَوِيَ جأشُه ، وأَطْلَعَه على ما كان من ابن المَشْطُوب ، فوَعَده بإزاحة ما يَكْرَه .

ثم إنَّ المُعَظَّم رَكِبَ إلى خَيمَة ابن المَشْطُوب واسْتَدْعاه للركوب معه ومُسايرته ، فاسْتَمْهَله حتى يَلْبس خُفَّيْه وثِياب الرُّكوب فلم يُمْهِله وأعْجَلَه . فرَكِبَ معه وسايَرَه حتى خَرَجَ به من العَسْكَر الكامِلي ، ثم قال له : يا عِماد الدين ، هذه البِلادُ لك ، وأَشْتَهِي أن تَهبَها لنا . وأَعْطاهُ نَفَقة ، وسَلَّمَه إلى جماعَةٍ من أصْحابه يَثِقُ بهم ، وقال لهم : أَخْرِجُوه من الرَّمْل ، ولا تُفارقوه حتى يَخْرُج إلى[b] الشَّام . فلم يَسَع ابن المَشْطوب إلَّا امْتِثال ما قال المُعَظَّم ، لأنَّه معه بمُفْرَده ولا قُدْرَة له على المُمانَعَة . فسارُوا به إلى حَمَاة ، ثم مَضَى منها إلى الشَّرْق[c] .

ولمَّا شَيَّعَ الملكُ المُعَظَّمُ ابن المَشْطوب ، رَجَعَ إلى الملك الكامِل ، وأَمَرَ أخاه الفائِز إبراهيم أن يَسيرَ إلى مُلوك الشَّام في رِسالةٍ عن أخيه الملك الكامِل لاسْتِدْعائهم إلى قِتال الفِرِنْج . فمَضَى إلى دِمَشْق ، وخَرَجَ منها إلى حَمَاة فمات بها مَسْمُومًا على ما قيل ، فثَبَتَ للملك الكامِل أمْرُ المُلْك ، وسَكَن رَوْعُه هذا والإفْرِنْج[a] قد أحاطُوا بدِمْياط بَرًّا وبحرًا ، وأحْدَقوا وضَيَّقُوا على أهْلِها ، ومَنَعُوا القُوتَ من الوُصول إليهم ، وحَفَرُوا عليه عَسْكَرِهم المُحيط بدِمْياط خَنْدَقًا ، وبَنَوا عليه سُورًا ؛ وأَهْلُ دِمْياط يُقاتِلونَهم أَشَدَّ القِتال ، ويُمانِعونَهم ، وقد غَلَت عندهم الأَسْعارُ لِقلَّة الأَقْوات .

ثم إنَّ المُعَظَّمَ فارَقَ الملكَ الكامِل ، وسارَ إلى بلاد الشَّام ؛ وأقامَ الكامِلُ لمحاربة الفِرِنْج وانْتَدَب شَمائِل ـ أحَد الجانْدارية في الرِّكاب ـ للدُّخول إلى دِمْياط ، فكان يَسْبَح في الماءِ ويَصِل إلى أهْل دِمْياط فيَعِدُهم بوُصُول النَّجدات . فحَظِيَ بذلك عند الكامِل ، وتَقَرَّب منه حتَّى عَمِله والي القاهِرَة ، وإليه تُنْسَب خِزانَة شَمائِل بالقاهِرَة[1] .

فلم يَزَل الحالُ على ذلك إلى أن دَخَلَت سنة ستّ عشرة ، فجَهَّز الملكُ المَنْصور محمد بن عُمَر بن شاهِنْشاه بن أيُّوب صاحِب حَمَاة ابنه المُظَفَّر تَقيّ الدِّين محمودًا إلى مصر ، نَجْدَةً لخالِه

---

a) بولاق : الفرنج .   b) بولاق : من .   c) بولاق : المشرق .

---

[1] يستمر المقريزي في النقل عن ابن واصل : مفرج الكروب ٤ :١٧- ٢٠ ؛ وعن خزانة شمائل انظر فيما يلي ٢ : ١٨٨ .

الملكُ الكامِل على الفِرنْج ، في جَيْشٍ كَثيف . فوَصَل إلى العَسْكَر ، وتَلَقَّاه الملكُ الكامِلُ وأَنْزَلَه في مَيْمَنَة العَسْكَر مَنْزِلَةَ أبيه وَجَدِّه عند السُّلطان صَلاح الدين يُوسُف . فأَلَحَّ الفِرنْجُ في القِتال ، وكان بدِمْياط نحو العشرين ألف مُقاتِل ، فنَهَكَتْهم الأَمْراضُ ، وغَلَت عندهم الأَسْعارُ حتى بَلَغَت بَيْضَةُ الدَّجاجَة عندهم عِدَّة دَنانير .

قال الحافِظُ عبد العَظيم المُنْذِري [1] : سَمِعْتُ الشَّيْخَ أبا إسحاق عليّ بن قَفْل[a] يقول : كان لبَعْض بني خيار بَقَرة فذَبَحوها وباعُوها في الحِصار ، فجاءَت ثمان مائة دينار .

وقال في « المُعْجَم المُتَرْجَم » [2] : سَمِعْتُ الأَميرَ أبا بَكْر بن حَسَن بن خسويام يقول : كُنْتُ بدِمْياط في حِصار العَدُوّ بها ، فبيع السُّكَّرُ بها بمائة وأربعين دينارًا الرطل ، والدَّجاجَة بثلاثين دينارًا . قال : واشْتَرَيْت ثَلاث دَجاجات بتسعين دينارًا ، والرَّاوِيَة بأربعين دِرْهمًا ، والقَبْرُ يُحْفَر بأربعين مِثْقالًا . وأَخَذَت أُخْتي جَمَلًا فشَقَّت جَوْفَه ومَلأَته دَجاجًا وفاكِهَةً وبَقْلًا وغير ذلك ، وخاطَتْه ورَمَتْه في البَحْر ، وكَتَبَت إليّ تقول : قد فَعَلْتُ كذا فإذا رَأَيْتُم جَمَلًا مَيِّتًا فَخُذُوه ، فوَقَعَ لنا ليلًا فأَخَذْناه ، وكان فيه ما يُساوي جُمْلَة ، ففَرَّقْته على النّاس . ثم عَمِلَ بعد ذلك ثلاثة جِمال على هيئته ، ففَطَن لها الفِرِنْجُ فأَخَذُوها .

---

a) بولاق : أبا الحسن علي بن فضل .

---

[1] الحافظ زكيّ الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المُنْذري الشّامي الأصل المصري المولد والدار والوفاة ، ولد بفسطاط مصر سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م وتوفي بالقاهرة سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . كان محدِّثًا فقيهًا مؤرِّخًا ، ودرَّس بالجامع الظافري بالقاهرة مدة ، ثم ولي مشيخة دار الحديث الكاملية وانقطع بها مكبًّا على التصنيف والتخريج عشرين سنة ؛ وبلغ عدد مؤلفاته نحو ٢٥ كتابًا أكثرها في الحديث وعلم الرجال أهمها كتاب «التكملة لوفيات النقلة» و«المعجم المترجم» و«تاريخ من دخل مصر» (راجع ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٣: ٣١٩- ٣٢٤؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨: ٢٥٩- ٢٦١، الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩: ١٤- ١٦؛ أبا المحاسن : المنهل الصافي ٧: ٣٠٩- ٣١١؛ وبشار عوّاد معروف : المنذري وكتابه التكملة ، النجف ١٩٦٨) .

وهذا النقل ربما كان من كتابه «تاريخ من دخل مصر» ، ووضع ولده القاضي الرشيد أبو بكر محمد بن عبد العظيم الذي توفى شابًّا في حياة أبيه سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م كتابًا على حروف المعجم عنوانه «تاريخ مصر» نحا فيه منحى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ، وقف عليه ابن سعيد المغربي ونقل عنه (ابن سعيد : النجوم الزاهرة ٣٦٤؛ الصفدي : الوافي ٣: ٢٦٤- ٢٦٥؛ أيمن فؤاد : مصادر تاريخ الفاطميين في مصر ١٧١) .

[2] لم يصل إلينا كتاب «المعجم المترجم» للحافظ زكيّ الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري .

وامْتَلأَت مَساكِنُهم وطُرُقاتُ البَلَد من المَوْتَى ، وعُدِمَت الأَقْواتُ ، وصارَ السُّكَّرُ كعزَّة الياقوت ، وفُقِدَت اللُّحومُ فلم يُقْدَر عليها بوَجْه ، وآلَت بهم الحالُ إلى أن لم يَبْق بها سِوَى قليلٍ من القَمْح والشَّعير فقط . فتَسَوَّر الفِرِنْجُ السُّور[a] وأَخَذوا منه البَلَد في يومِ الثلاثاء لخمسٍ بقِينَ من شَعْبانَ ، وكانت مُدَّةُ الحِصار ستة عشر شهرًا واثنين عشرين يومًا .

ولمَّا أَخذُوا البَلَد وَضَعُوا السَّيْفَ في النَّاس ، فتَجَاوَزُوا الحَدّ في القَتْل ، وأَسْرَفُوا في مِقْدار القَتْلَى . وبَلَغَ ذلك السُّلْطانَ ، فرَحَلَ بعد أَخْذ دِمْياط بيومين ، ونَزَلَ قُبالَة طَلْخَا على رأْس بحر أُشْمُوم ورأْس بَحْر دِمْياط ، وخَيَّم[b] في المَنْزِلَة التي صارَ يُقالُ لها المَنْصُورَة .

وحَصَّن الفِرِنْجُ أَسْوارَ دِمْياط ، وجَعَلُوا الجامِعَ كَنيسَة ، وبَثُّوا سَراياهم في القُرَى فقَتَلُوا ونَهَبُوا . وسَيَّر السُّلْطَانُ الكُتُبَ إلى الآفاق ليَسْتَحِثّ الناسَ على الحُضُور لدَفْع الفِرِنْج عن مُلْك مصر ، وشَرَعَ العَسْكَرُ في بِناء الدُّور والفَنادِق والحَمَّامات والأَسْواق بمَنْزِلَة المَنْصُورَة [1] .

وجَهَّزَ الفِرِنْجُ من أَسَرُوه من المُسْلمين في البَحْر إلى عَكَّا ، وخَرَجُوا من دِمْياط ونازَلوا السُّلْطَانَ تجاه المَنْصُورَة ، وصارَ بينهم وبينه بَحْرُ أُشْموم وبَحْرُ دِمْياط . وكان الفِرِنْجُ في مائتَي ألف راجل وعشرة آلافِ فارِس . فقَدَّمَ المسلمون شَوانيهُم أمامَ المَنْصُورَة وعِدَّتها مائة قطعة ، واجْتَمَعَ الناسُ من القاهِرَة ومصر وسائِر النَّواحي من أُسْوان إلى القاهِرَة . ووَصَلَ الأميرُ حُسامُ الدين يُونُس ، والفَقيهُ / تقيُّ الدين أبو الطَّاهِر محمد بن الحَسَين[c] بن عبد الرَّحْمَن المحلِّي ، فأَخْرَجا الناسَ من ٢١٨: القاهِرَة ومصر ، ونُودِيَ بالنَّفير العام . وخَرَجَ الأميرُ علاءُ الدين جَلْدَك وجمالُ الدين بن صَيْرَم لجَمْع الناس فيما بين القاهِرَة إلى آخر الحَوْف الشَّرْقي ، فاجْتَمَعَ عالَمٌ لا يَقَعُ عليه حَصْر .

وأَنْزَلَ السُّلْطَانُ على ناحِية شارِمِسَاح ألف فارِس في آلاف من العُرْبان ، ليَحُولوا بين الفِرِنْج[d] وبين دِمْياط . وسارَت الشَّواني ومعها حَرَّاقة كبيرة على رأْس بحر المَحَلَّة ، وعليها الأَميرُ بَدْر الدين ابن حَسُّون ، فانْقَطَعت الميرَة عن الفِرِنْج من البرِّ والبَحْر . وسارَت عساكِرُ المُسْلمين من الشَّرْق والشَّام إلى الدِّيار المصرية . وكان قد خَرَجَ الفِرِنْجُ من داخِل البحر لمَدَد الفِرِنْج على دِمْياط ، فقَدِمَ منهم أُمَمٌ لا تُحْصَى يُريدون التَّوَغُّل في أَرض مصر . فلمَّا تَكامَلُوا بدِمْياط ، خَرَجُوا منها في حَدِّهم

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : وحيز . c) بولاق : الحسن . d) بولاق : بين الفرنج ودمياط .

---

[1] ابن واصل : مفرج الكروب ٤ : ٣٢ - ٣٣ .

وحَديدهم ، ونَزَلُوا تجاه الملك الكامِل كما تَقَدَّم . فقَدِمَت النَّجْداتُ يَقْدُمها الملكُ الأَشْرف مُوسَىٰ ابن العادِل ، وعلى ساقَتِها الملكُ المُعَظَّم عيسَىٰ ، فتَلَقَّاهُم الملكُ الكامِلُ ، وأَنْزَلَهم عنده بالمَنْصُورَة في ثالث عشري جُمادَىٰ الآخرة سنة ثمان عشرة .

وتَتابَع مَجيءُ الملوك ، حتى بَلَغَت عِدَّةُ فُرْسان المسلمين نحو أربعين ألف فارِس ، فحارَبُوا الفِرنْج في البَرِّ والبَحْر ، وأَخَذُوا منهم ستّ شَواني وجَلَّاسَة[1] وبُطْسَة ، وأَسَرُوا من الفِرنْج ألفين ومائتين ، ثم ظَفِرَ المسلمون بثلاث قَطائِع أُخَر ، فتَضَعْضَع الفِرنْجُ لذلك وضاقَ بهم المُقام ، فبَعَثُوا يَطْلبون الصُّلْح .

فقَدِمَ عند مَجيء رُسُلهم أَهْلُ الإسْكَنْدَرِية في ثمانية آلاف مُقاتِل . وكان الذي طَلَبَ الفِرنْجُ القُدْسَ وعَسْقَلانَ وطَبَرِيَّة وجَبْلَة واللَّاذِقِيَّة ، وسائِرَ ما فَتَحه السُّلْطانُ صَلاحُ الدين يُوسُف من السَّاحِل ، ليَرْحَلوا عن ديار مصر .

فبَذَلَ المسلمون لهم سائِرَ ما ذُكِرَ من البلاد خَلا مدينة الكَرَك والشَّوْبَك ، فامْتَنَعَ الفِرنْجُ من الصُّلْح وقالوا : لابد من أَخْذهم الكَرَك والشَّوْبَك ، ومبلغ ثلاث مائة ألف دينار ، عِوَضًا عما خَرَّبه الملك المُعَظَّم عيسَىٰ صاحِب دِمَشْق من أَسْوار القُدْس .

وكان المُعَظَّمُ لمَّا ماتَ أبوه العادِل ، واسْتَوْلَى الفِرنْجُ على دِمْياط ، ونازَلوا الملك الكامِل قُبالَة المَنْصُورَة ، خافَ أن يَصِلَ منهم في البحر من يأْخُذُ القُدْس ويَتَحَصَّنُوا به ، فأَمَرَ بتَخْريب أَسْوارِه - وكانت أَسْوارُه وأَبْراجُه في غاية العَظَمَة والمَنَعَة - فأَتَى الهَدْمُ على جَميعها ما خَلا بُرْج داود ، وانتقلَ أَكْثَرُ النَّاس من القُدْس ،ولم يَبْقَ به إلَّا القليل ، ونَقَلَ المُعَظَّم ماكان بالقُدْس من الأَسْلِحَة والآلات .

فامْتَنَع المسلمون من إجابَة الفِرنْج إلى ذلك وقاتلوهم ، وعَبَر جَماعَةٌ من المسلمين في بحر المَحَلَّة إلى الأَرْض التي عليها الفِرنْج ، وحَفَرُوا مَكانًا عَظيمًا في النِّيل - وكان في قُوَّة الزِّيادة - فرَكِب الماءُ أكثر تلك الأَرْض وصارَ حائِلًا بين الفِرنْج ومَدينَة دِمْياط . وانْحَصَروا ، فلم يَبْقَ لهم سِوَى طَريقٌ ضَيِّقة ، فأَمَر السُّلطانُ للوقت بنَصْب الجُسُور عند أُشْموم طَناح ، فعَبَرَت العساكِرُ عليها ، ومَلَكَت الطَّريق التي يَسْلُكها الفِرنْجُ إلى دِمْياط إذا أَرادوا الوُصُول إليها . فاضْطَرَبُوا ، وضاقَت عليهم الأَرْض .

---

[1] الجَلَّاسَة . نوعٌ من السفن الحربية الكبيرة تسير بالشراع والمجاديف وهي أثقل وأقوى من الشيني ، كانت شائعة الاستعمال في البحر المتوسط واسمها بالفرنسية Goléace أو Goléasse (درويش النخيلي : السفن الإسلامية ٢٧) .

واتَّفَقَ مع ذلك وُصُول مَرِمَّة[1] عظيمة للفِرِنْج في البحر حَوْلَها عِدَّة حَرَّاقات تَحْميها ، وقد مُلِئَت كلها بالمِيرَة والأَسْلِحة ، فقاتَلَتْهم شَواني المسلمين وظَفَّرَها الله بهم فأَخَذَها المسلمون .

وعندما عَلِمَ الفِرِنْجُ ذلك أَيْقَنُوا بالهَلاك ، وصارَ المسلمون يَرْمُونَهم بالنُّشَّاب ويَحْمِلون على أَطْرَافِهم . فهَدَمُوا حينئذٍ خِيامَهم ومَجانِيقَهم ، وأَلْقَوْا فيها النَّار ، وهَمُّوا بالزَّحْف على المسلمين ومُقاتَلتهم ليَخْلصُوا إلى دِمْياط ، فحالَ بينهم وبين ذلك كَثْرَةُ الوَحْل والمياه الرَّاكِبَة على الأَرض . وخَشَوْا من الإقامَة لِقِلَّة أَقْواتهم ، فَذلُّوا وسأَلوا الأَمانَ على أن يتركوا دِمْياط للمسلمين .

فاسْتَشَارَ السُّلْطانُ في ذلك ، فاخْتَلَفَ النَّاسُ عليه : فمنهم من امْتَنَع من تأْمين الفِرِنْج ، ورأى أن يُؤْخَذوا عَنْوَة ، ومنهم من جَنَحَ إلى إعْطائِهم الأَمان خَوْفًا مِمَّن وراءَهم من الفِرِنْج في الجزائِر وغيرها . ثم اتَّفَقُوا على الأَمان ، وأن يُعْطي كلّ من الفَريقين رَهائِن . فتقرَّر ذلك في تاسع شهر رَجَب سنة ثمان عشرة .

وسَيَّر الفِرِنْجُ عشرين مَلِكًا رَهْنًا عند الملك الكامِل ، وبَعَثَ الملكُ الكامِلُ بابنه الملك الصَّالِح نَجْم الدين أَيُّوب وجَماعَة من الأُمَراء إلى الفِرِنْج . وجَلَسَ السُّلطانُ مَجْلِسًا عَظيمًا لقُدوم مُلوك الفِرِنْج ، وقد وَقَفَ إخْوتُه وأَهْلُ بيته بين يَدَيْه ، وصارَ في أُبَّهَة وناموس مَهيب .

وخَرَجَ قُسُوسُ الفِرِنْج ورُهْبانُهم إلى دِمْياط ، فسَلَّموها للمسلمين في تاسع عشره ، وكان يومُ تَسْليمها يومًا عَظيمًا . وعندما تَسَلَّم المسلمون دِمْياط وصارَت بأيديهم ، قَدِمَت نَجْدَةٌ في البحر للفِرِنْج ، فكان من جَميل صُنْع الله تَأَخُّرها حتى مُلِكَت دِمْياط بأيدي المسلمين ، فإنَّها لو قَدِمَت قبل ذلك لقَوِيَ بها الفِرِنْجُ ، فإنَّ المسلمين وَجَدُوا مَدينَة دِمْياط قد حَصَّنَها الفِرِنْجُ وصارَت بحيث لا تُرَام .

ولمَّا تَمَّ الأَمْرُ ، بعَثَ الفِرِنْجُ بوَلَد السُّلْطان وأُمَرائِه إليه ، وسَيَّرَ إليهم السُّلْطانُ من كان عنده من المُلوك في الرَّهْن ، وتَقَرَّرَت الهُدْنَةُ بين الفِرِنْج والمسلمين مُدَّة ثماني سنين . وكان مِمَّا وَقَعَ الصُّلْحُ عليه أن كلًّا من المسلمين والفِرِنْج يُطْلِق ما عنده من الأَسْرَى . وحَلَفَ السُّلْطَانُ وإخْوَته ، وحَلَفَت مُلوكُ الفِرِنْج . وتَفَرَّق النَّاسُ إلى بلادهم ، ودَخَل الملكُ الكامِلُ إلى / دِمْياط بإخْوته وعساكِره ، ٢١٩:ب
وكان يومُ دُخوله إليها من الأَيَّام المذكورة .

---

[1] مَرِمَّة نوع من السفن انظر فيما تقدم ٥٨٦.

ورَحَلَ الفِرِنْجُ إلى بلادهم ، وعادَ السُّلْطانُ إلى مَقَرِّ مُلْكِه . وأُطْلِقَت الأَسْرَى من ديار مصر ، وكان فيهم من له من أيَّام السُّلْطان صَلاح الدين يُوسُف . وسارَت مُلوكُ الشَّام بعساكِرِها إلى بِلادِها .

وعَمَّت بِشارَةُ أَخْذ المسلمين مَدينَة دِمْياط من الفِرِنْج سائِر الآفاق ، فإنَّ التَّتَر كانوا قد اسْتَوْلَوا على مَمالِك المَشْرِق ، فأَشْرَفَ الفِرِنْجُ على أَخْذ ديار مصر من أيْدي المسلمين .

وكانت مُدَّةُ نُزول الفِرِنْج على دِمْياط ، إلى أن أَقْلَعوا عنها سائِرين إلى بِلادِهِم ، ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يومًا ، منها مُدَّة استيلائهم على مَدينَة دِمْياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يومًا [١].

فلمَّا كان في سنة ستٍّ وأربعين وستّ مائة ، حَدَثَ بالسُّلْطان الملك الصَّالِح نَجْم الدين أَيُّوب ابن الملك الكامِل محمد وَرَمٌ في مَأْبَضِه تكَوَّن منه ناصُور فُتِحَ وعَسُر بُرْؤه ، فمَرِضَ من ذلك ، وانْضَافَ إليه قُرْحَة في الصَّدْر ، فلَزِم الفِراش ، إلَّا أنَّ عُلُوَّ هِمَّته اقْتَضَى مَسيرَه من ديار مصر إلى الشَّام . فسارَ في مَحَفَّة ونَزَلَ بقَلْعَة دِمَشْق ، فوَرَدَ عليه رَسولُ الإمْبراطور ملك الفِرِنْج الألمانية بجَزيرَة صِقِلِّيَّة في هَيْئَة تاجِر ، وأَخْبَرَه سِرًّا بأنَّ بَوَاش الذي يُقالُ له « ريدا فرَنْس »[a][٢] عازِمٌ على المسير إلى أرْض مصر وأَخْذِها .

---

a) بولاق : رواد فرنس .

---

[١] راجع عن هذه الحملة أيضًا ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٢ : ٣٢٣- ٣٣١.

[٢] ريدا فرنس أو رواد فرنس أي Roi de France صيغ استخدمها المؤرخون العرب للتعبير عن ملك فرنسا والمقصود هنا هو لويس التاسع Louis IX (تذكره المصادر العربية باسم بواش) الذي قاد حملة على السواحل المصرية عند دمياط في زمن الصالح نجم الدين أيوب تعرف بالحملة الصليبية السابعة ، وأضاف المقريزي في السلوك ١ : ٣٣٣ «ريدا فرنس - ويقال له الفرنسيس واسمه لويس بن لويس - وريدا فرنس لقبٌ بلغة الفرنج معناه ملك إفرنس» ، وريد تعني ملك بالفرنسية القديمة ؛ وانظر كذلك الصفدي : الوافي بالوفيات ١٠ : ٣١٣- ٣١٦ ؛ ابن شاكر : فوات الوفيات ١ : ٢٣١- ٢٣٣ ؛ أبا المحاسن : المنهل الصافي ٣ : ٤٣٩-٤٤٢ وثلاثتهم ترجموه تحت اسم : بواش ؛ ولتفاصيل أكثر راجع ، محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر - هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، الإسكندرية ١٩٨٤ ؛ Joinville, *Histoire de Saint Louis*, éd. N. de Wailly, Paris 1874; Gabrieli, Fr., *Chroniques arabes des Croisades*, Paris, sindbad - Actes sud, 1996, pp. 314-31.

فسارَ السُّلطانُ من دِمَشْق وهو مَريضٌ في مَحَفَّة ، ونَزَلَ بأُشْموم طَنَاح في المحرَّم سنة سبع وأربعين ، وجَمَعَ في مَدينَة دِمْياط من الأَقْوات والأزْواد والأَسْلِحَة وآلات القِتال شيئًا كثيرًا ، خَوْفًا أن يَجْري على دِمْياط ما جَرَى في أيَّام أبيه ، فأُخِذَت بغير ذلك .

ولمَّا نَزَلَ السُّلْطانُ بأُشْموم ، كَتَبَ إلى الأمير حُسام الدين أبي عليّ بن أبي عليّ الهَذَبانيّ ـ نائبه بديار مصر ـ أن يُجَهِّزَ الأُسْطولَ من صِناعَة مصر . فشَرَع في الاهْتِمام بذلك ، وشَحَن الأُسْطول بالرِّجال والسِّلاح وسائِر ما يُحْتاج إليه ، وسَيَّره شيئًا بعد شيء . وجَهَّزَ السُّلْطانُ الأمير فَخْر الدين يُوسُف بن شَيْخ الشُّيُوخ ومعه الأُمَراء والعَساكِر ، فنَزَل بجيزَة[a] دِمْياط من بَرِّها الغربي ، وصارَ النِّيلُ بينه وبينها . فلمَّا كان في الساعة الثانية من نَهار الجُمُعَة لتسع بقين من صَفَر ، ورَدَت مَراكِبُ الفِرِنْج البَحْرِيِّين ، وفيها جُمُوعُهم العَظيمَة ، وقد انْضَمَّ إليهم فِرِنْجُ السَّاحِل ، وأَرْسَوا بإزاء المسلمين ؛ وبَعَثَ مَلِكُهُم إلى السُّلْطان كتابًا نَصُّه :

« أمَّا بَعْدُ ، فإنَّه لم يَخْف عليك أنِّي أَمينُ الأُمَّة العِيسَويَّة ، كما أنَّه لا يَخْفَى عليَّ أنَّك أَمينُ الأمَّة المحمَّدية . وغيرُ خافٍ عليك أنَّ عندنا أَهْل جَزائِر الأَنْدَلُس وما يحملونه إلينا من الأَمْوال والهَدايا ، ونحن نَسُوقُهم سَوْقَ البَقَر ، ونَقْتُل منهم الرِّجال ونُرَمِّل النِّساء ، ونَسْتَأْسِر البَنات والصِّبْيان ، ونُخَلِّي منهم الدِّيار .

وأنا قد أَبْدَيْت لك ما فيه الكِفايَة ، وبَذَلْتُ لك النُّصْحَ إلى النِّهاية . فلو حَلَفْت لي بكُلِّ الأَيْمان ، وأَدْخَلْت عليَّ الأَقِسَّاء والرُّهْبان ، وحَمَلْت قُدَّامي الشَّمْعَ طاعَةً للصُّلْبان ، لكُنْتَ واصِلًا إليك ، وقاتِلك في أَعَزِّ البِقاع إليك . فإمَّا أن تكونَ البِلادُ لي ، فيا هَدِيَّة حَصَلَت في يَدَيّ ، وإمَّا أن تكونَ البِلادُ لك والغَلَبَة عليّ ، فيَدُك العُلْيا مُمْتَدَّة إليّ .

وقد عَرَّفْتُك وحَذَّرْتُك من عساكِر حَضَرَت في طاعَتي تَمْلأ السَّهْل والجَبَل ، وعَدَدُهم كعَدَد الحَصَى ، وهُم مُرْسَلون إليك بأَسْياف القَضاء » .

a) بولاق : بحيرة .

فلمّا قُرِئَ الكِتابُ على السُّلْطان، وقد اشْتَدَّ به المَرَضُ، بَكَى واسْتَرْجَعَ، فكَتَبَ القاضي بَهاءُ الدِّين زُهَيْر بن محمد[1] الجَوَاب:

« بِسْم الله الرَّحْمَن الرَّحيم، وصَلَواته على سَيِّدنا مُحَمَّد رَسُول الله وآلِه وصَحْبه أَجْمَعِين.

أمَّا بَعْدُ، فإنَّه وَصَلَ كِتابُك وأنت تُهَدِّد فيه بكَثْرَة جُيوشِك وعَدَد أبْطالِك، فنحن أرْبابُ السُّيوف، وما قُتِلَ منَّا قَرنٌ[a] إلَّا جَدَّدْناه، ولا بَغَى علينا باغٍ إلَّا دَمَّرْناه.

ولو رَأَت عينُك أيُّها المَغْرور حَدَّ سيُوفِنا، وعِظَم حُروبِنا، وفَتْحَنا منكم الحُصُونَ والسَّواحِل، وتَخْريبَنا ديارَ الأواخِر منكم والأوائِل، لكان لك أن تَعُضَّ على أنامِلِك بالنَّدَم، ولابد أن تَزِلّ بك القَدَمُ، في يوم أوَّلُه لنا وآخِره عليك. فهُنالِك تُسيء الظُّنُون، ﴿وسَيَعْلَم الَّذين ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون﴾.

فإذا قَرَأتَ كتابي هذا، فتكون فيه على أوَّل سورة النَّحْل ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوه﴾ [الآية ١ سورة النحل] وتكون على آخِر سورة ص ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾، ونَعُود إلى قَوْلِ الله تعالى وهو أَصْدَقُ القائلين ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ الله، واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الآية ٢٤٩ سورة البقرة] وقَوْل الحُكَماء: إنَّ الباغي له مَصْرَع، وبَغْيُك يَصْرَعك، وإلى البَلاء يَقْلِبك. والسَّلام »[2].

---

a) بولاق: فرد.

---

[1] بهاء الدين زهير، القاضي أبو الفضل زهير بن محمد ابن علي المهلبي شاعر من العصر الأيوبي، كان كاتب الإنشاء في مصر في نهاية هذا العصر (القلقشندي: صبح الأعشى ٩٧:١) انظر ترجمته عند ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٣٢:٢-٣٣٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٣١:١٤-٢٤٣؛ أبي المحاسن: النجوم الزاهرة ٦٢:٧-٦٣؛ Brockelmann, C., *GAL* SI, 465; Rikabi, I., *EI*[2] art. *Bahâ' al-Dîn Zuhayr* I, p. 940.

[2] قارن نص الرسالتين مع ابن أيبك: كنز الدرر ٣٦٦:٧-٣٦٨ وبينهما خلاف كبير في الألفاظ؛ المقريزي: السلوك ٣٣٤:١-٣٣٥.

وفي يَوْم السَّبْت غد وُرُود الفِرِنْج[a] وضَرَبُوا خِيامَهم في أكثر البلاد التي فيها عساكِر المسلمين، وكانت خَيْمَةُ الملك ريدا فرَنْس[b] حَمْراء. فناوَشَهم المسلمون القِتال، واسْتُشْهِدَ يومئذٍ الأميرُ نَجْمُ الدين يُوسُف ابن شَيْخ الإسلام، والأَميرُ صارِمُ الدين أَزْبَكُ الوَزِيري.

فلمَّا أَمْسَى اللَّيْلُ، رَحَلَ الأميرُ فَخْر الدين يُوسُف ابن شَيْخ الشُّيوخ بعَساكِر المسلمين جُبْنًا وضَلَفًا، وسارَ بهم في بَرّ دِمْياط، وسارَ إلى جِهَة أُشْموم طَنَاح. فخافَ مَنْ كان في مدينة دِمْياط وخَرَجُوا منها على وُجُوهِهم في الليل لا يَلْتَفِتون إلى شيءٍ، وتَرَكُوا المَدِينَة خالية من الناس، ولَحِقُوا بالعَسْكَر في أُشْموم وهم حُفاة عَرَايا جِياع حَيارَى، بمن معهم من النِّسَاء والأَوْلاد، ومَرُّوا
٢٢٠: هاربين إلى القاهِرَة فأَخَذَ منهم قُطَّاعُ الطَّريق ما عليهم من الثِّياب / وتَرَكُوهم عَرايا.

فشَنُعَت القالَة على الأَمير فَخْر الدين من كلِّ أَحَدٍ وعُدَّ جميعُ ما نَزَل بالمسلمين من البَلاء بسبب هزيمَته، فإنَّ دِمْياطَ كانت مَشْحُونَةً بالمُقاتِلَة والأَزْواد العَظيمَة والأَسْلِحَة وغيرها، خَوْفًا أن يُصيبها في هذه المُدَّة ما أَصابَها في أيَّام الكامِل، فإنَّه ما أَتَى عليها ذاك إلَّا من قِلَّة الأَقْوات بها، ومع ذلك امْتَنَعَت من الفِرِنْج أكثر من سنة حتى فَنِيَ أَهْلُها كما تقدَّم، ولكن الله يَفعَل ما يُريد.

ولمَّا أَصْبَحَ الفِرِنْجُ يوم الأَحدِ لسبعٍ بقين من صَفَر، قَصَدُوا دِمْياط، فإذا أَبْوابُ المَدِينَة مُفَتَّحة ولا أَحَدَ يَدْفَع عنها، فَظَنُّوا أنَّ ذلك مَكيدَة، وتَمَهَّلوا حتى ظَهَرَ لهم خُلُوُّها فدَخَلُوا إليها من غير مانِع ولا مُدافِع، واسْتَوْلوا على ما بها من الأَسْلِحَة العَظِيمة وآلات الحَرْب والأَقْوات الخارجة عن الحَدّ في الكثرة والأَمْوال والأَمْتِعَة، صَفْوًا بغير كُلْفَة، فأُصيبَ الإسْلامُ والمسلمون ببَلاءٍ لولا لُطْف الله لمُحِيَ اسْمُ الإِسْلام ورَسْمِه بالكلِّيَّة.

وانْزَعَجَ الناسُ في القاهِرَة ومصر انْزِعاجًا عَظيمًا لما نَزَل بالمسلمين مع شِدَّة مَرَض السُّلْطَان وعَدَم حَرَكته. وأَمَّا السُّلْطَانُ فإنَّه اشْتَدَّ حَنَقُه على الأمير فَخْر الدين وقال: أما قَدَرْتَ أنت والعَساكِر أن تَقِفُوا ساعَةً بين يَدَيِ الفِرِنْج، وأقامَ عليه القِيامَة، لكن الوَقْتَ لم يكن يَسَع غير الصَّبْر والإِغْضاء. وغَضِبَ على الكِنانيين الذين كانوا بدِمْياط ووَبَّخَهم فقالوا: ما نَعْمَل إذاكانت عساكِرُ السُّلْطَان بأَجْمَعهم وأُمَراؤهم[c] هَرَبُوا وأَحْرَقُوا[d] الزَّرْدَخانات، كيف لا نَهْرُب نحن؟ فأَمَرَ بشَنْقِهِم لكَوْنِهم خَرَجوا من دِمْياط بغير إذْن. وكانت عِدَّةُ من شُنِقَ من الأُمَراء الكِنانية زيادةً على خمسين أميرًا في ساعَةٍ واحِدَةٍ، ومن جملتهم أَميرٌ جَسيمٌ له ابنٌ جَميلٌ، سأَل أن يُشْنَق قَبْل ابنه،

---

a) بولاق: السبت ورد الفرنج. b) بولاق: رواد فرانس. c) بولاق: أمراؤه. d) بولاق: وأخربوا.

فأمَرَ السُّلْطانُ أن يُشْنَق ابنه قَبْلَه ، فشُنِق الابن ثم الأب . ويُقالُ إنَّ شَنْقَ هؤلاء كان بفَتْوَى الفُقَهاء فخافَ جَماعَةٌ من الأُمَراء وهَمُّوا بالقيام على السُّلْطان ، فأشارَ عليهم الأَميرُ فَخْر الدين ابن شَيْخ الشُّيوخ بأنَّ السُّلْطانَ على خِطَّة ، فإن ماتَ فقد كُفيتُم أَمْرَه ، وإلَّا فهو بين أيْديكم .

وأَخَذَ السُّلْطانُ في إصْلاح سُور المَنْصُورَة ، وانْتَقَلَ إليها لخَمْس بقين من صَفَر ، وجَعَل السَّتائِر على السُّور . وقَدِمَت الشَّواني إلى تجاه المَنْصُورَة وفيها العُدَد الكاملة ، وشَرَعَ العَسْكَرُ في تَجْديد الأَبْنِيَة هناك ، وقَدِمَ من العُرْبان وأَهْل النَّواحي ومن المُطَوِّعَة خَلْقٌ لا يُحْصَى عَدَدُهم ، وأَخَذُوا في الإغارَة على الفِرِنْج . فَمَلأَ الفِرِنْجُ أسْوارَ مَدينَة دِمْياط بالمُقاتِلة والآلات .

فلمَّا كان أوَّلُ رَبيع الأوَّل ، قَدِمَ إلى القاهِرَة من أَسْرَى الفِرِنْج الذين تَخَطَّفَهم العُرْبان ستة وثلاثون ، منهم فارِسان ؛ وفي خامس رَبيع الآخر وَرَدَ منهم تسعة وثلاثون ؛ وفي سابعه وَرَد اثنان وعشرون أسيرًا ؛ وفي سادس عشره وَرَدَ خمسة وأربعون أسيرًا ، منهم ثلاثة خَيَّالة ؛ وفي ثامن عشر جمادىٰ الأولى وَرَدَ خمسون أسيرًا ؛ هذا ، ومَرَضُ السُّلْطان يتزايد ، وقُوَاه تتناقَص ، حتى أَيِس الأَطِبَّاءُ منه .

وفي ثالث عشر رَجَب ، قَدِمَ إلى القاهِرَة سبعة وأربعون أسيرًا وأَحَدَ عشر فارِسًا ، وظَفِر المسلمون بمُسَطَّح للفِرِنْج في البحر فيه مُقاتِلَة بالقرب من نَسْتراوة .

فلمَّا كانت لَيْلَةُ الأَحد لأربع عشرة مَضَت من شَعْبان ، ماتَ الملكُ الصَّالِحُ بالمَنْصُورَة ، فلم يُظْهَر مَوْتُه ، وحُمِلَ في تابوت إلى قَلْعَة الرَّوْضَة ، وقامَ بأَمْر العَسْكَر الأميرُ فَخْرُ الدين ابن شَيْخ الشُّيوخ ، فإنَّ شَجَرَ[a] الدُّرِّ زوجة السُّلْطان لمَّا ماتَ أَحْضَرَت الأمير فَخْرَ الدين ، والطَّواشي جَمال الدين مُحْسِنًا ـ وإليه أَمْر المماليك البَحْرية والحاشِيَة ـ وأَعْلَمَتهما بموته ، فكتما ذلك خَوْفًا من الفِرِنْج ؛ لأنَّهم كانوا قد أَشْرَفُوا على تَمَلُّك ديار مصر . فقامَ الأميرُ فَخْر الدين بالتَّدْبير ، وسَيَّرُوا إلى الملك المُعَظَّم تُوران شاه وهو بحِصْن كيفا الفارِس أَقْطَاي لإحْضاره[1] .

---

a) بولاق : شجرة .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ٢٩ : ٣٣٦-٣٣٧ وأورد النويري نص الكتاب الذي أرسله الملك الصالح إلى الملك المعظم تورانشاه بحصن كيفا يسند إليه فيه الملك ويوصيه بجملة من الوصايا قال : «وقد وقفت على الكتاب المذكور – وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملته» (نهاية الأرب ٢٩ : ٣٤٠-٣٥٢) ؛ وفيما يلي ٢ : ٣٧٤ .

وأَخَذَ الأميرُ فَخْرُ الدِّين بتَحْليف العَسْكر للمَلِك الصَّالِح ، وابنه الملك المُعَظَّم بولاية العَهْدِ من بعده ؛ وللأَمير فَخْر الدين بأتابِكِيَّة العَسْكَر والقِيام بأَمْر الملك حتى حَلَّفهم كلَّهم بالمَنْصورَة وبالقاهِرَة في دار الوَزارَة عند الأمير حُسَام الدين بن أبي عليّ في يوم الخَميس لاثنتي عشرة بقيت من شَعْبان . وكانت العَلاماتُ تَخْرُج من الدِّهاليز السُّلْطانِيَّة بالمَنْصورَة إلى القاهِرَة بخَطِّ خادِمٍ يُقالُ له سُهَيْل ، لا يَشُكّ من رآها أنَّها خَط السُّلْطان . ومَشَى ذلك على الأَمير حُسَام الدين بالقاهِرَة .

ولم يَتَفَوَّه أَحَدٌ بمَوْت السُّلْطان ، إلى أن كان يوم الاثنين لثمانٍ بقين من شَعْبان ، وَرَدَ الأَمْرُ إلى القاهِرَة بدُعاء الخُطَباء في الجمعة الثانية للملك المُعَظَّم بعد الدُّعاء للسُّلْطان ، وأن يُنْقَش اسْمُه على السِّكَّة .

فلمَّا عَلِمَ الفِرنْجُ بمَوْت السُّلْطان ، خَرَجُوا من دِمْياط بفارِسهم وراجِلهم - وشَوانيهم تُحاذِيهم في البَحْر - حتى نَزَلُوا فارَسْكُور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان فوَرَدَ في يوم الجمعة من الغد كتابٌ إلى القاهِرَة من العَسْكَر ، أوَّله : ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوالِكُم وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الآية ٤١ سورة التوبة] ، وفيه مَواعِظ بَليغَة بالحَثّ على الجِهاد فقُرئَ على مِنْبَر جامِع القاهِرَة وقد جُمِعَ النَّاسُ لسَماعِه ، فارْتَجَّت القاهِرَةُ ومصر وظواهِرهُما بالبُكاء والعَويل ، وأَيْقَنَ النَّاسُ باستيلاء الفِرنْج على البلاد لخُلُوِّ الوَقْت من مَلِك يَقُوم بالأَمْر ، لكنَّهم لم يَهِنُوا ، / وخَرَجُوا من القاهِرَة ومِصْر وسائِر الأَعْمال ، فاجْتَمَعَ عالَمٌ عَظيم . ٢٢١

فلمَّا كان يوم الثلاثاء أوَّل شَهْر رَمَضان ، اقْتَتَلَ المسلمون والفِرنْج ، فاسْتُشْهِد العَلائي أَمير مَجْلس وجَماعَة ، ونَزَل الفِرنْجُ شارِمِسَاح . وفي يوم الاثنين سابعه نَزَلُوا البَرَمُون ، فاضْطَرَبَ النَّاسُ وزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَديدًا لقُرْبهم من العَسْكَر . وفي يوم الأَحَد ثالث عشره ، وَصَلُوا تجاه المَنْصُورَة ، وصارَ بينهم وبين المسلمين بَحْر أُشْموم وخَنْدَقوا عليهم ، وأَدارُوا على خَنْدَقِهم سُورًا سَتَروه بكثير من السَّتائِر ، ونَصَبُوا المَجانيق ليَرْمُوا بها على المسلمين ، وصارَت شَوانيهم بإزائِهم في بَحْر النِّيل ، وشواني المسلمين بإزاء المَنْصُورَة ، والْتَحَم القِتالُ بَرًّا وبحرًا . وفي سادس عشره ، نَفَرَ إلى المسلمين ستة خَيَّالَة أَخْبَرُوا بمُضايَقَة الفرنْج . وفي يوم عيد الفِطْر أَسَرُوا من الفِرنْج كُنْد[1] من أقارِب الملك .

---

[1] لعل المقصود كونت Comte وهو أحد الألقاب الشرقية لطائفة النبلاء في فرنسا .

وأَبْلَى عَوامُّ المسلمين في قِتال الفِرنْج بَلاءً كبيرًا، وأَنْكَوهُم نِكايَةً عَظيمةً؛ وصارُوا يَقْتلون منهم في كلِّ وَقْت ويأْسِرون، ويلقون أنفسهم في الماء ويَمُرُّون فيه إلى الجانِب الذي فيه الفِرنْج ويتحَيَّلون[a] في اخْتطاف الفِرنْج بكلِّ حِيلَة، ولا يهابُون المَوْت، حتى إنَّ إنْسانًا قَوَّرَ بِطِّيخَةً وحَمَلَها على رأْسِه، وغَطَسَ في الماء حتى حاذَى الفِرنْج، فظَنَّه بعضُهم بِطِّيخَة ونَزَلَ حتى يَأْخُذها، فخَطَفَه وأَتَى به إلى المسلمين.

وفي يوم الأربعاء سابع شَوَّال، أَخَذ المسلمون شُونَةً للفِرنْج فيها كُنْد ومائتا رجل.

وفي يوم الخميس النصف منه، رَكِبَ الفِرنْج إلى بَرِّ المسلمين واقْتَتَلوا، فقُتِلَ منهم أربعون فارِسًا، وسَيَّر في عِدَّة إلى القاهِرَة بسبعة وستين أسيرًا، منهم ثلاثة من أكابِر الدَّوادارية.

وفي يوم الخميس ثاني عشريه، أُحْرِقَت للفرنْج مَرمَّة عَظيمةَ في البحر، واسْتَظْهَر المسلمون عليهم.

وكان بَحْرُ أُشْموم فيه مَخايض، فدَلَّ بعضُ من لا دين له مِمَّن يُظْهر الإسْلام الفِرنْج عليها، فرَكبوا سَحَر يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة أو رابعه، ولم يَشْعُر المسلمون بهم إلَّا وقد هَجَمُوا على العَسْكَر.

وكان الأميرُ فَخْرُ الدين قد عَبَرَ إلى[b] الحَمَّام، فأتاه الصَّريخُ بأنَّ الفرنْجَ قد هَجَمُوا على العَسْكَر. فرَكِبَ دَهِشًا غير مُعْتَدّ ولا مُتَحَفِّظ، وساقَ ليأمر الأُمَراء والأَجْناد بالرُّكوب في طائِفَة من مَماليكه، فلَقِيَه عِدَّةٌ من الفِرنْج الدَّوادارية، وحَمَلوا عليه ففَرَّ أصحابُه، وأَتَتْه طَعْنَةٌ في جَنْبِه، وأَخَذَتْه السُّيوفُ من كلِّ جانِب، حتى لَحِقَ بالله عزَّ وجَلّ، وفي الحال غَدَت مَماليكُه في طَائِفَة إلى دارِه، وكَسَرُوا صَناديقَه وخَزائِنَه، ونَهَبُوا أموالَه وخُيولَه.

وساقَ الفِرنْجُ عند مَقْتل الأمير فَخْر الدين إلى المَنْصورَة فنَفَرَ[c] المسلمون خَوْفًا منهم، وتَفَرَّقُوا يَمْنَة ويَسْرَة، وكادَت الكَسْرَةُ أن تكون، وتَمْحُوا الفرنْج كَلمة الإسْلام من أَرْض مصر.

ووَصَلَ الملكُ ريدا فرنس[d] إلى باب قَصْر السُّلْطان، ولم يَبْقَ إلَّا أن يَمْلكه. فأَذِنَ الله تعالى أنَّ طائِفَة المماليك من البَحْرية والجَمَدارِيَّة الذين اسْتَجَدَّهم الملكُ الصَّالِح، ومن جملتهم بَيْبَرْس البُنْدُقْداري، حَمَلُوا على الفِرنْج حملةً صَدَقُوا فيها اللِّقاء، حتى أزاحُوهم عن مَواقِفِهم، وأَبْلَوا في مُكافَحَتِهم بالسُّيوف والدَّبابيس فانْهَزَمُوا.

---

a) الأصل: يتحيلوا. b) ساقطة من الأصل. c) بولاق: ففرّ. d) بولاق: رواد فرنس.

وبَلَغت عِدَّةُ من قُتِل من فُرْسان الفِرِنْج الخَيَّالة في هذه النَّوْبة أَلْفًا وخمس مائة فارِس ، وأَمَّا الرَّجَّالة فإنَّها كانت وَصَلَت إلى الجِسْر لتعدّي ، فلو تَراخَى الأَمْرُ حتى صارُوا مع المسلمين لأَعْضَل الدَّاء . على أنَّ هذه الواقِعَة كانت بين الأَزِقَّة والدُّروب ، ولولا ضِيق المَجال لما أَفْلَتَ من الفرنْج أَحَدٌ . فنَجا من بقي منهم ، وضَرَبُوا عليهم سُورًا ، وحَفَرُوا خَنْدقًا . وصارَت طائِفَةٌ منهم في البَرِّ الشَّرْقي ، ومُعْظَمُهم في الجَزيرَة المُتَّصِلَة بدِمْياط .

وكانت البطاقَةُ عند الكَبْسَة سَرَحَت على جَناح الطَّائِر إلى القاهِرَة ، فانْزَعَجَ الناسُ انْزِعاجًا عَظيمًا ، ووَرَدَت السُّوقَة وبعضُ العَسْكَر ، ولم تُغْلَق أَبْواب القاهِرَة لَيْلَة الأربعاء

وفي يوم الأربعاء سَقَطَ الطَّائِرُ بالبِشارَة بهَزيمَة الفِرنْج وعِدَّةُ من قُتِلَ منهم ، فزُيِّنَت القاهِرَة ، وضُرِبَت البَشائِرُ بقَلْعَة الجَبَل ، وسارَ المُعَظَّمُ تُوران شاه إلى دِمَشْق فدَخَلَها يوم السبت آخر شهر رمضان ، واسْتَوْلَى على من بها . ولأَرْبَع مَضينَ من شَوَّال سَقَطَ الطَّائِرُ بوُصُوله إلى دِمَشْق ، فضُرِبَت البَشَائِرُ في العَسْكَر بالمَنْصورَة وفي قَلْعَة الجَبَل .

وسارَ من دِمَشْق لثلاث بقين منه ، فتواتَرَت الأَخْبارُ بقُدُومه ، وخَرَج الأميرُ حُسامُ الدين بن أبي عليّ إلى لقائِه ، فوَافاه بالصَّالِحِيَّة لأربع عشرة بقيت من ذي القَعْدة ، ومن يومئذٍ أُعْلِنَ بمَوْت الملك الصَّالِح ، بعدما كان قَبْل ذلك لا يَنْطِقُ أَحَدٌ بمَوْته ألبتَّة ، بل الأُمورُ على حالِها ، والدِّهْليزُ السُّلْطانيّ بحالِه ، والسِّماطُ على العادَة ، وشَجَرُ[a] الدُّر أمّ خَليل زَوْجَة السُّلْطان تُدَبِّر الأُمور وتَقُول : السُّلْطانُ مَريضٌ ما إليه وُصُول . ثم سارَ من الصَّالِحِيَّة ، فتلقَّاه الأُمَراءُ والمماليكُ ، واستقرَّ بقَصْر السَّلْطَنَة من المَنْصورَة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي القعدة .

وفي أثناء هذه المُدَّة ، عَمِلَ المسلمون مَراكِبَ وحَمَلُوها على الجِمال إلى بَحْر المَحَلَّة وأَلْقَوها فيه ، وشَحَنُوها بالمُقاتِلَة . فعندما حاذَت مراكِبُ الفِرنْج بَحْر المَحَلَّة ـ وتلك المراكِب فيه مُكْمَنَة ـ خَرَجَت عليهم ، ووَقَعَت[b] الحربُ بينهما .

وقَدِمَ الأُسْطولُ الإسْلاميُّ من جِهَة المَنْصورَة وأَحاطَ بالفِرنْج ، فظَفِرَ باثنين وخمسين مَرْكِبًا
للفرنْج ، وقَتَلَ / وأَسَرَ منهم نحو أَلف رَجُل . فانْقَطَعَت المِيرَة عن الفرنْج ، واشْتَدَّ عندهم الغَلاءُ ، ٢٢٢
وصارُوا مَحْصورين .

---

a) بولاق : شجرة . b) بولاق : وقع .

فلمَّا كان أوَّلُ يوم مِن ذي الحِجَّة، أَخَذَ الفرنْجُ من المراكِب التي في بَحْر المحَلَّة سبع حَراريق، وفَرَّ مَنْ كان فيها من المُسْلمين.

وفي يوم عَرَفَة، بَرَزَت الشَّواني الإسْلامية إلى مَراكِب قَدِمَت للفرنْج فيها مِيرَة، فأُخِذَت منها اثنين وثلاثين مَرْكِبًا منها تسع شَواني، فوهَنَت قُوَّةُ الفرنْج، وتزايَدَ الغَلاءُ عندهم، وشَرَعُوا في طَلَب الهُدْنَة من المسلمين، على أن يُسلِّموا دِمْياط، ويأْخُذوا بَدَلًا منها القُدْس وبَعْض بلاد السَّاحِل، فلم يُجابُوا إلى ذلك.

فلمَّا كان اليومُ السَّابع والعشرون من ذي الحِجَّة، أَحْرَقَ الفِرنْجُ أخْشابَهم كلَّها، وأتْلَفوا مَراكِبَهم يُريدون التَّحصُّن بدِمْياط. ورَحَلُوا في ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرَّم سنة ثمان وأربعين وستّ مائة إلى دِمْياط، وأَخَذت مراكِبهم في الانْحِدار قُبالَتهم. فرَكِبَ المسلمون أَقْفِيَتَهم بعدما عَدَّوا إلى بَرِّهم، وطَلَعَ الفجْرُ من يوم الأَربعاء وقد أحاطَ المسلمون بالفرِنْج، وقَتَلُوا وأَسَرُوا منهم كثيرًا. حتى قيل إنَّ عدد من قُتِل من الفُرْسان على فارَسْكور يَزيد على عشرة آلاف، وأُسِرَ من الخَيَّالَة والرَّجَّالَة والصُّنَّاع والسُّوقَة ما يُناهِز مائة ألف، ونُهِبَ من المال والذَّخائِر والخُيول والبِغال ما لا يُحْصَى.

وانْحَازَ الملكُ ريدا فرنس[a] وأكابِر الفرنْج إلى تَلّ، ووَقَفُوا مُسْتَسْلمين وسأَلُوا الأمانَ، فأَمَّنَهُم الطَّواشِي جمالُ الدين مُحْسن الصَّالِحِي، ونَزَلُوا على أمانِه، وأُحيط بهم وسيقوا إلى المَنْصورَة. فقُيِّد ريدا فرنس[a] واعْتُقل في الدَّار التي كان يَنْزِل فيها القاضي فَخْر الدين إبراهيم بن لُقْمان كاتِب الإنْشاءِ، ووُكِّل به الطَّواشي صَبيح المُعَظَّمي، واعْتُقِل معه أَخُوه، ورُتِّب له راتِبٌ يُحْمَل إليه في كلِّ يوم[1].

ورَسَمَ الملكُ المُعَظَّمُ لسَيْف الدِّين يُوسُف بن الطُّوري ـ أَحَدُ من وَصَل صُحْبَته من الشَّرْق ـ أن يَتَوَلَّى قَتْل الأَسْرَىٰ. فكان يُخْرِج منهم كلَّ ليلة ثلاث مائة رَجُل ويَقْتُلهم ويُلْقيهم في البَحْر حتى فَنَوا[2].

---

a) بولاق: رواد فرنس.

---

[1] انظر أبا شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٨٣- ١٨٤؛ العيني: عقد الجمان ١: ١٨- ١٩.

[2] النويري: نهاية الأرب ٢٩: ٣٥٦.

ولمّا قُبِضَ على الملك ريدا فرنس[a]، ورَحَلَ الملكُ المُعَظَّمُ من المَنْصورَة، ونَزَل بالدِّهْليز السُّلْطاني على فارَسْكور، وعَمِلَ له بُرْجًا من خَشَب، وتَراخَى في قَصْد دِمْياط. وكَتَبَ بخَطّه إلى الأمير جَمال الدين بن يَغْمُور نائِبه بدِمَشْق.

وَلَدُه[b] تُوران شاه: «الحَمْد لله الذي أَذْهَب عَنَّا الحَزَن، وما النَّصْرُ إلَّا من عند الله ويومئذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنون بنَصْر الله [يَنْصُر من يَشاء وهو العَزيز الرَّحيم][c]، وأمّا بنِعْمَة رَبِّك فحَدِّث، وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصوها. نُبَشِّر المَجْلِسَ السّامي الجَمالي - بل نُبَشِّر المسلمين كافَّةً - بما مَنَّ الله به على المُسْلمين من الظَّفَر بعَدُوّ الدين، فإنّه كان قد اسْتَفْحَلَ[d] أَمْرُه واسْتَحْكَمَ شَرُّه، ويَئِسَ العِبادُ من البلاد والأَهْل والأولاد، فنُودوا ﴿لَا تَايْئَسُوا مِنْ رَوْحِ الله﴾ [الآية ٨٧ سورة يوسف].

ولمّا كان يوم الاثنين مُسْتَهَلّ السنة المباركة - وهي سنة ثمانٍ وأربعين وستّ مائة تَمَّمَ الله على الإسْلام بَرَكَتَها - فَتَحْنا الخَزائِن، وبَذَلْنا الأَمْوال، وفَرَّقْنا السِّلاح، وجَمَعْنا العُرْبان والمُطَّوِّعَة، وخَلْقًا لا يَعْلَمهم إلَّا الله، وجاءُوا من كلِّ فَجٍّ عَميق، ومَكانٍ سَحيق. فلمّا رأى العَدُوُّ ذلك، أَرْسَلَ يَطْلُب الصُّلْحَ على ما وَقَع الاتِّفاقُ بينهم وبين الملك الكامِلِ، فأَبَيْنا.

ولمّا كانت ليلةُ الأربعاء، تَرَكُوا خِيامَهُم وأَمْوالَهُم وأَثْقالَهُم وقَصَدُوا دِمْياط هارِبين، فسِرْنا في آثارِهم طالِبين. وما زالَ السَّيْفُ يَعْمَلَ في أَدْبارِهم عامَّةَ اللَّيْل، وقد حَلَّ بهم الخِزْي[e] والوَيْلُ.

فلمّا أَصْبَحْنا يوم الأربعاء، قَتَلْنا منهم ثلاثين أَلْفًا غير من أَلْقَى نَفْسَه في اللُّجَج، وأمّا الأَسْرَى فحَدِّث عن البَحْر ولا حَرَج. والْتَجأ الفَرَنْسيس إلى المُنْيَة[1] وطَلَب الأَمان، فأَمَّنّاه وأَخَذْناه وأَكْرَمْناه، وسَلَّمْناه دِمْياط

---

a) بولاق: رواد فرنس. b) بولاق: وولده. c) إضافة من النويري. d) بولاق: استكمل. e) الأصل: الحزن.

---

[1] أي مُنْية أبي عبد الله، وهي مازالت موجودة باسم منية الخولي عبد الله وتقع على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط وتتبع مركز فارسكور بمحافظة الدقهلية (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٦: ٣٦٥هـ[1]).

بعَوْن الله تعالى وقُوَّته، وجَلاله وعَظَمته»[١].

وبَعَثَ مع الكِتابَ غِفَّارية[a][٢] الملك فَرَنْسيس فلَبِسَها الأَميرُ جَمال الدين بن يَغْمور، وهي أَشْكَرْلاط[٣] أحمر بفَرْوِ سِنْجاب. فقال الشَّيْخُ نَجْم الدين بن إسْرائيل:

[الخفيف]

إنَّ غِفَّارَة الفَرَنْسيس التي جاءَتَ حِباءً[b] لسَيِّد الأُمَراء
كبَيَاض القِرْطَاس لَوْنا ولكِن صَبَغَتْها سُيوفُنا بالدِّماء

وقال[c]:

[الطويل]

أَسَيِّدَ أَمْلاكِ الزَّمان بأَسْرِهم تَنَجَّزْت من نَصْرِ الإلَه وُعُودَه
فلا زَالَ مَوْلانَا يُبيحُ حِمَى العِدَىٰ ويُلْبِس أَسْلابَ[d] المُلُوك عَبيدَه

وأَخَذَ الملكُ المُعَظَّم يُهَدِّد زَوْجَة أَبيه شَجَر[e] الدُّرّ ويُطالِبها بمالِ أبيه، فخافَتْه وكاتَبَت مَماليك الملك الصَّالح تُحَرِّضُهم عليه.

وكان المُعَظَّمُ لمَّا وَصَلَ إليه الفارِس أَقْطَاي إلى حِصْن كيفا، وَعَدَه أن يُعْطِيه إمْرَةً فلم يَفِ له بها، وأَعْرَض مع ذلك عن مَماليك أبيه واطَّرَح أُمَرَاءَه، وصَرَف الأميرَ حُسام الدين بن أبي عليّ عن نِيابَة السَّلْطَنَة وأَحْضَرَه إلى العَسْكَر ولم يَعْبَأ به، وأَبْعَد غِلْمان أبيه[٤].

واخْتَصَّ بمَن وَصَلَ معه من المَشْرق، وجَعَلَهم في الوَظائِف السُّلْطانية، فجَعَل الطَّواشي مَسْرورًا ـ خادِمَه ـ أُسْتادَارًا، وعَمل صُبَيْحًا ـ وكان عَبْدًا حَبَشِيًّا فَحْلًا ـ أمير جنْداره[f]، وأَمَر أن / تكون له عَصًا من ذَهَب، وأَعْطاه مالًا جَزيلًا وإقْطاعات جَليلَة.

وكان إذا سَكِرَ جَمَعَ الشَّمْعَ وضَرَبَ رُؤُوسَها بالسَّيْف حتى تَنْقَطِع، ويقول: «هكذا

a) بولاق: غفارة. b) بولاق: جاءت حقًّا. c) بولاق: وقال آخر. d) بولاق: أثواب. e) بولاق: شجرة. f) بولاق: خازنداره.

[١] النويري: نهاية الأرب ٢٩: ٣٥٦- ٣٥٧.

[٢] الغفارية: زرد من الدرع ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

[٣] الأشكرلاط. نوع من الملابس الصوفية.

[٤] النويري: نهاية الأرب ٢٩: ٣٥٨- ٣٥٩؛ المقريزي: السلوك ١: ٣٥٦- ٣٥٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٦: ٣٦٧- ٣٦٨ ومصدره سبط ابن الجوزي.

أَفْعَلُ بالبَحْرِيَّة » فإنَّه كان فيه هَرَجٌ وخِفَّة. واحْتَجَبَ على العُكُوف بَملاذّه، فنفَرت منه النُّفُوس[١].

وبقي كذلك إلى يوم الاثنين تاسع[a] عشري المحرَّم، وقد جَلَسَ على السِّماط، فتقدَّم إليه أَحَدُ المماليك البَحْرِيَّة وضَرَبَه بسَيْفٍ قَطَعَ أصابعَ يَدَيْه، ففَرَّ إلى البُرْج، فاقْتَحَمُوا عليه وسُيوفُهم مُصْلَتَة، فصَعِد أَعْلَى البُرْج الخَشَب فرَمَوه بالنُّشَّاب وأَطْلَقُوا النارَ في[b] البُرْج. فأَلْقَى نفسه ومَرَّ إلى البَحْر وهو يقول: ما أُريد مُلْكَكُم، دَعُوني أَرْجِع إلى الحِصْن، يا مُسْلمين، ما فيكم من يَصْطَنِعُني ويُجيرُني، وسائِر العَساكِر بالسُّيوف واقِفَة، فلم يُجِبْه أَحَدٌ، والنُّشَّاب يأْخُذه من كلِّ ناحية. وأَدْرَكُوه فقُطِّع بالسُّيوفُ، وماتَ حَريقًا غَريقًا قَتيلًا في يوم الاثنين المذكور، وتُرِكَ على الشَّاطئ[c] ثلاثة أيام ثم دُفِنَ[٢].

ولمَّا قُتِلَ الملك المُعَظَّم، اتَّفَقَ أَهْلُ الدولة على إقامَة شَجَر[d] الدُّرّ والِدَة خَليل في مَمْلَكَة مصر، وأن يكونَ مُقَدَّم العَسْكَر الأميرُ عزُّ الدين أَيْبَك التُّرْكُماني الصَّالِحي[٣]، وحَلَفَ الكُلّ على ذلك، وسَيَّروا إليها عِزَّ الدين الرُّومي، فقَدِمَ عليها في قَلْعَة الجَبَل وأَعْلَمَها بما اتُّفِقَ، فرَضِيَت به، وكَتَبت على التَّواقيع عَلامَتَها وهي « وَالِدَةُ خَليل »، وخُطِبَ لها على المَنابر بمصر والقاهِرَة.

وجَرَى الحَديثُ مع الملك ريدا فرنس[e] في تَسْليم دِمْياط، وتَوَلَّى مُفاوَضَته في ذلك الأمير حُسام الدين بن أبي عليّ الهَذْباني، فأجابَ إلى تَسْليمها، وأن يُخَلَّى عنه بعد مُحاورات. وسَيَّر إلى الفِرنْج بدِمْياط يَأْمُرُهم بتَسْليمها إلى المسلمين، فسَلَّمُوها - بعد جُهْد جَهيد من كَثْرة المُراجَعات - في يوم الجمعة ثالث صَفَر، ورُفِعَ العَلَمُ السُّلْطاني على سُورِها، وأُعْلِن فيها بكلمة الإسْلام وشَهادَة الحَقّ، بعدما أقامَت بيد الفِرنْج أَحَدَ عشر شهرًا وسبعة أيام.

وأُفْرِجَ عن الملك ريدا فرنس[e] وعن أَخيه وزَوْجته ومن بَقِيَ من أَصْحابِه، إلى البَرّ الغربي. ورَكِبُوا البحر من الغَد - وهو يومُ السبت رابع صَفَر - وأَقْلَعُوا إلى عَكَّا.

---

a) السلوك: سادس، والنويري: سادس أو سابع. b) بولاق: على. c) بولاق: الشط. d) بولاق: شجرة.
e) بولاق: رواد فرنس.

---

[١] المقريزي: السلوك ١: ٣٥٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٦: ٣٧٠- ٣٧١.

[٢] النويري: نهاية الأرب ٢٩: ٣٦٠- ٣٦١؛ المقريزي: السلوك ١: ٣٥٩- ٣٦٠؛ أبو المحاسن: النجوم ٦: ٣٧١.

[٣] نفسه ٢٩: ٣٦٢- ٣٦٣؛ وفيما يلي ٢: ٢٣٧.

وفي هذه النَّوْبَة يَقُولُ الوَزيرُ جَمالُ الدين يحيى بن مَطْروح [١]:

[السريع]

قُلْ للفَرَنْسيس إذا جِئْتَه — مَقالَ صِدْقٍ[a] عن قَؤُول نَصيحْ
آجَرَكَ اللهُ على ما جَرَى — من قَتْل عُبَّاد يَسُوع المَسِيحْ
أَتَيْتَ مِصْر تَبْتَغي مُلْكَهَا — تَحْسَب أنَّ الزَّمْرَ يا طَبْلُ رِيحْ
فساقَكَ الحَيْنُ إلى أدْهَمٍ — ضاقَ به عن ناظِرَيْك الفَسيحْ
وكلُّ أصْحابك أوْدَعْتَهُم — بحُسْن تَدْبيرك بَطْنَ الضَّريحْ
خَمْسون ألفًا لا يُرَى منهم — إلَّا قَتيلٌ أو أسيرٌ أو[b] جريحْ
وفَّقَكَ اللهُ لأمْثالِها — لعلَّ عيسَى منكم يَسْتَريح
إن كان باباكُم بِذا راضِيًا — فرُبَّ غِشٍّ قد أتَى من نَصِيح
قُلْ لهم إن أضْمَرُوا عَوْدَةً — لأخْذِ ثَأْرٍ أو لِقَصْدٍ صَحيحْ
دارُ ابنِ لُقْمانَ على حالِها — والقَيْدُ باقٍ والطَّواشي صَبيحْ

وقَدَّر الله أنَّ الفَرَنْسيسَ هذا بعد خَلاصِه من هذه الواقِعَة، جَمَعَ عِدَّة جُمُوع وقَصَدَ تُونُس، فقال شابٌّ من أهْلها يُقالُ له أحْمَد بن إسماعيل الزَّيَّات:

[الخفيف]

يا فَرَنْسيس هذه أُخْتُ مِصْرٍ — فتَأَهَّب لما إليه تَصيرُ
لَكَ فيها دارُ ابن لُقْمانَ قَبْرٌ — وَطواشيك، مُنْكَرٌ ونَكيرُ

فكان هذا فَألًا حَسَنًا، فإنَّه ماتَ وهو على مُحاصَرَة تُونُس [٢].

a) بولاق: نصح. b) ساقطة من بولاق.

[١] الأمير الصاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح من أهل صعيد مصر، قدم مع الملك الصالح نجم الدين أيوب بآمِد وحَرّان وحصن كيفا، فلمّا تسلطن بمصر ولّاه نظر الخزانة، ثم وَزَرَ له بدمشق إلى أن عزله وتَغيَّر عليه وتوفي في شعبان سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م. (راجع، أبا شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦:٢٥٨- ٢٦٦؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣:٢٧٣- ٢٧٤؛ المقريزي: السلوك ١: ٣٨٢؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٢٤ (في وفيات سنة ٦٤٩) و٧:٢٧ (في وفيات سنة ٦٥٠).

ونشر ديوان ابن مطروح في إستانبول - مطبعة عامرة ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م. وانظر الأبيات عند الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠: ٣١٥؛ ابن شاكر: فوات الوفيات ١: ٢٣٢؛ المقريزي: السلوك ١:٣٦٣- ٣٦٤؛ أبي المحاسن: النجوم الزاهرة ٦:٣٧٠ والمنهل الصافي ٣: ٤٤١.

[٢] قارن المقريزي: السلوك ١:٣٦٤- ٣٦٥؛ وانظر الأبيات عند، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠:٣١٥-=

ولمَّا تَسَلَّم الأُمراءُ دِمْياط ، وَرَدَت البُشْرَى إلى القَاهِرَة ، فضُرِبَت البَشائِر وزُيِّنَت القاهِرَة ومصر ، فقَدِمَت العَساكِرُ من دِمْياط يوم الخميس تاسع صفر [١] .

فلمَّا كان في سَلْطَنَة الأَشْرَف مُوسَى ابن الملك المَسْعود أَقْسيس ابن الملك الكامِل والملك المُعِزّ عِزّ الدين التُّرْكُماني ، وكَثُرَ الاخْتِلاف بمصر ، واسْتَوْلى الملكُ النَّاصِرُ يوسُف بن العَزيز على دِمَشْق ، اتَّفَقَ أَرْبابُ الدَّوْلَة بمصر ـ وهم المماليك البَحْرِيَّة ـ على تَخْريب مَدينَة دِمْياط ، خَوْفًا من مَسير الفرنْج إليها مَرَّة أُخرى . فسَيَّروا إليها الحَجَّارين والفَعَلة ، فوَقَع الهَدْمُ في أَسْوارِها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وأربعين وستّ مائة ، حتى خَرِبَت كلُّها ، ومُحِيَت آثارُها ، ولم يَبْق منها سِوَى الجامِع ، وصارَ في قبْليها أَخْصاصٌ على النِّيل سَكَنَها الناسُ الضُّعَفاء ، وسَمُّوها المَنْشِيَّة [٢] . وهذا السُّورُ هو الذي بناه أميرُ المؤمنين المُتَوَكِّل على الله كما تقدَّم ذِكْرُه [٣] .

٢٢٤ فلمَّا اسْتَبَدَّ الملكُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس البُنْدُقْداري / الصَّالِحِي بمملكة مصر بعد قَتْل الملك المُظَفَّر قُطُز ، أَخرَج من مصر عِدَّةً من الحَجَّارين في سنة تسع وخمسين وستّ مائة لرَدْم فَمِ بَحْر دِمْياط ؛ فمَضَوْا وقَطَعُوا كثيرًا من القَرابيص [٤] وألقوها في بَحْر النِّيل الذي يَنْصَب من شَمال دِمْياط في البَحْر المِلْح حتى ضاقَ وتَعَذَّر دُخُولُ المراكِب منه إلى دِمْياط [٥] وهو إلى اليوم على ذلك ، لا تَقْدِر مَراكِبُ البَحْر الكِبار أن تَدْخُل منه ، وإنَّما يُنْقَل ما فيها من البَضائع في مَراكِب نيلية تُعْرَف عند أهْل دِمْياط بالجُروم (واحدها جَرْم) وتَصير مَراكِبُ بحر المِلْح واقِفَةً بآخر البَحْر ، قَريبًا من مُلْتَقَى البَحْرَيْن .

ويَزْعُم أَهْلُ دِمْياط الآن أنَّ سَبَبَ امْتِناع دُخُول مراكِب البَحْر جَبَلٌ في فَمِ البحر ، أو رَمْلٌ يَتَرَبَّى هناك . وهذا قولٌ باطِلٌ حَمَلَهم عليه ما يَجِدُونه من تَلافِ المراكِب إذا هَجَمَت على هذا المَكان ، وجَهْلِهم بأَحْوال المَوْجود ، وما مَرَّ من الوَقائِع . وإلى يومِنا هذا يُخافُ على المَراكِب عند وُرودِها فَمَ البَحْر ، وكثيرًا ما تَتْلَف فيه . وقد سِرْتُ إليه حتى شاهَدتُه ، ورَأَيْتُه من أَعْجَب ما يَراهُ الإنْسان .

= ٣١٦؛ ابن شاكر : فوات الوفيات ١ : ٢٣٢؛ أبي المحاسن : المنهل الصافي ٣ : ٤٤٢.

[١] المقريزي : السلوك ١ : ٣٦٦.

[٢] نفسه ١ : ٣٧٢؛ أبو المحاسن : النجوم ٧ : ٢٠، ٢٣.

[٣] فيما تقدم ٥٨٣.

[٤] القرباص جـ. القرابيص هي الحجارة (Dozy, R. *Suppl. Dict. Ar.* II, p. 332).

[٥] المقريزي : السلوك ١ : ٤٤٦.

وأمَّا دِمْياطُ الآن فإنَّها حَدَثَت بعد تَخْريب مَدينَة دِمْياط، وعُمِلَ هناك أَخْصاصٌ، وما بَرِحَت تَزْدادُ إلى أن صارَت بَلْدَةً كبيرةً ذات أَسْواق وحَمَّامات وجَوامِع ومَدارِس ومَساجِد، ودُورُها تُشْرف على النِّيل الأَعْظَم، ومن وَرائِها البَساتِين، وهي أَحْسَنُ بلاد الله مَنْظَرًا. وقد أَخْبَرَني الأَميرُ الوَزيرُ المُشيرُ الأُستادَّار يَلْبُغَا السَّالِمي - رحِمَه الله - أنَّه لم يَرَ في البِلاد التي سَلَكَهَا من سَمَرْقَنْد إلى مصر أَحْسَنَ من دِمْياط هذه، فظَنَنْتُ أنَّه يَغْلو في مَدْحِها إلى أن شاهَدْتُها، فإذا هي أَحْسَنُ بَلَدٍ وأَنْزَهُه، وفيها أَقولُ:

[الطويل]

سَقَى عَهْدَ دِمْياطَ وحَيَّاهُ من عَهْدِ ... فقد زادَني ذِكْراه وَجْدًا على وَجْدِ
ولا زالَت الأَنْواءُ تَسْقي سِحابُها ... دِيارًا حَكَت من حُسْنِها جَنَّة الخُلْدِ
فيا حُسْنَ هاتيك الدِّيار وطيبها ... فكَمْ قد حَوَت حُسْنا يَجلّ عن العَدِّ
فالله أَنْهارٌ تَحِفُّ بِرَوْضِها ... لكالمُرْهَف المَصْقُول أو صَفْحَة الخَدِّ
وبشَنِينها الرَّيَّان يَحْكي مُتَيَّمًا ... تَبَدَّلَ من وَصَلَ الأَحِبَّة بالصَّدِّ
فقامَ على رِجْلَيْه في الدَّمْع غارِقًا ... يُراعي نُجومَ الليل من وَحْشَةِ الفَقْدِ
وظَلَّ على الأَقْدامِ تَحْسِب أنَّه ... لطُول انْتِظارٍ من حَبيبٍ على وَعْدِ
ولا سِيَّمَا تلك النَّواعيرُ إنَّها ... تُجَدِّدُ حُزْنَ الوَالِه المُدْنِف الفَرْدِ
أُطارِحُها شَجْوي وصارَت كأنَّما ... تُطارِحُ شَكْواها بِمِثْل الذي أُبْدي
فقد خِلْتُها الأَفْلاكَ فيها نُجُومُها ... تَدُور بمَحْض النَّفْع منها وبالسَّعْدِ
وفي البِرَك الغَرَّاء يا حُسْن نَوْفَر ... حَلا وغَدا بالزَّهْو يَسْطُو على الوَرْد
سَمَاءٌ من البَلُّور فيها كَواكِبُ ... عَجِيبة صَبْغ اللَّوْن محكمة النَّضد
وفي شاطئ النِّيل المُقَدَّس نُزْهَةٌ ... تُعيدُ شَبابَ الشَّيْبِ في عَيْشِه الرَّغْد
وتُنْشِي رِياحًا تَطْرُد الهَمَّ والأَسَى ... وتُنْشِي ليالي الوَصْل من طِيبها عِنْدي
وفي مَرَج البَحْرَيْن جَمٌّ عَجائِبٌ ... تَلُوح وتَبْدو من قَرِيبٍ ومن بُعْدِ
كأن الْتِقاءَ النِّيل بالبَحْر إذْ غَدَا ... مَليكان سارًا في الجَحافِل من جُنْدِ
وقد نَزَلا للحَرْب واحْتَدَم اللِّقَا ... ولا طَعْنَ إلَّا بالمُثَقَّفَة المُلْد
فظَلَّا كما بَاتَا وما بَرِحا كَمَا ... هُمَا من جَليل الخَطْب في أَعْظَمِ الجُهْدِ
فكَمْ قد مَضَى لي من أَفانين لَذَّةٍ ... بشَاطِئها العَذْب الشَّهِيّ لذَوي الوَرْدِ
وكم قد نَعِمْنَا في البَساتين بُرْهَةً ... بعَيْش هَنيء في أمانٍ وفي سَعْدِ
وفي البَرْزَخ المَأْنُوس كم لِيَ خَلْوَةٌ ... وعند شَطًا عن أَيْمَن العَلَم الفَرْد

هناك تَرَى عَيْنُ البَصيرَة ما تَرَى ‏ ‏ من الفَضْل والأفْضَال والخَيْر والمجْدِ
فيا رَبِّ هَيِّئْ لي بفَضْلِك عَوْدَةً ‏ ‏ ومُنَّ بها في غير بَلْوَى ولا جُهْدِ

وبدِمْياط ـ حيث كانت المَدينةُ التي هُدِمَت ـ جامِعٌ من أجَلِّ مَساجِد المسلمين، تُسَمِّيه العامَّة مَسْجِدُ فَتْح، وهو المَسْجِدُ الذي أَسَّسَه المسلمون عند فَتْح دِمْياط أوَّلَ ما فَتَحَ الله أرْضَ مصر على يد عَمْرو بن العَاص، وعلى بابه مَكْتُوبٌ بالقَلَم الكُوفي «إنَّه عُمِّر بعد سنةَ خمس مائة من
٢٢ الهجرة»؛ وفيه عِدَّةٌ من عُمُد الرُّخام، منها ما يَعِزُّ وُجُود مِثْله. وإنَّما عُرِفَ / بجامع فَتْح، لنُزُول شَخْصٍ يُقالُ له فاتِح به، فقالَت العامَّةُ جامِعُ فَتْح. وإنَّما هو فاتِح بن عُثْمان الأَسْمَر التَّكْروري قَدِمَ من مَرَّاكُش إلى دِمْياط على قَدَم التَّجْريد، وسَقَى بها الماءَ في الأسْواق احْتِسابًا من غير أن يَتَناوَل من أَحَدٍ شيئًا، ونَزَلَ في ظاهِر الثَّغْر، ولَزِمَ الصَّلاةَ مع الجَماعَة. وتَرَكَ النَّاسَ جميعًا، ثم أقامَ بناحية تُونَة من بُحَيْرَة تِنِّيس وهي خَراب نحو سبع سنين، ورَمَّ مَسْجِدَها. ثم انتقلَ من تُونَة إلى جامِع دِمْياط، وأقامَ في وَكْرٍ بأسْفَل المنارَة من غير أن يُخالِط أحدًا، إلَّا إذا أُقيمَت الصَّلاةُ خَرَجَ وصَلَّى، فإذا سَلَّمَ الإمامُ عادَ إلى وَكْرِه، فإن عارَضَه أحَدٌ بحَديث كَلَّمه وهو قائِمٌ بعد انْصِرافِه من الصَّلاة؛ وكانت حالُه أبدًا اتِّصالًا في انْفِصال، وقُرْبًا في ابْتِعاد، وأُنْسًا في نَفار.

وحَجَّ، فكان يُفارِق أصْحابَه عند الرَّحيل، فلا يَرَوْنَه إلَّا وَقْت النُّزول. ويكون سَيْرُه مُنْفَرِدًا عنهم، لا يُكَلِّم أحَدًا، إلى أن عادَ إلى دِمْياط فأَخَذَ في تَرْميم الجامِع وتَنْظيفِه بنَفْسه، حتى نَقَّى ما كان فيه من الوَطْواط بسُقوفِه، وساقَ الماءَ إلى صَهاريجِه، وبَلَّط صَحْنَه، وسَبَكَ سَطْحَه بالجِبْس، وأقامَ فيه. وكان قَبْل ذلك من حين خَرِبَت دِمْياط لا يُفْتَح إلَّا في يوم الجُمُعَة فقط، فرَتَّبَ فيه إمامًا راتِبًا يُصَلِّي الخَمْس. وسَكَنَ في بَيْت الخَطابَة، وواظَبَ على إقامَة الأَوْراد به، وجَعَلَ فيه قُرَّاءَ يَتْلُون القُرْآن بُكْرَةً وأصيلًا، وقَرَّرَ فيه رَجُلًا يَقْرأ مِيعادًا يُذَكِّر النَّاسَ ويُعَلِّمهم.

وكان يقول: لو عَلِمْت بدِمْياط مكانًا أفْضَلَ من الجامِع لأقَمْتُ به، ولو عَلِمْتُ في الأرض بلدًا يكون فيه الفَقيرُ أَخْمَل من دِمْياط لرَحَلْتُ إليه، وأقَمْتُ به. وكان إذا وَرَدَ عليه أَحَدٌ من الفُقَراء ولا يَجد ما يُطْعِمُه، باعَ من لِباسِه ما يُضَيِّفه به. وكان يَبيتُ ويُصْبِح وليس له مَعْلُوم، ولا ما يَقَعُ عليه العَيْنُ، أو تَسْمَعُه الأُذُن. وكان يُؤْثِر في السِّر الفُقَراء والأرامِل، ولا يَسْأَلُ أحَدًا شيئًا، ولا يَقْبَل غالِبًا، وإذا قَبِلَ ما يَفْتَحُ الله عليه آثَرَ به. وكان يَبْذُل جُهْدَه في كَتْم حالِه، والله تعالى يُظْهِر خَيْرَه وبَرَكَته من غير قَصْد منه لذلك.

وعُرِفَت له عِدَّةُ كَرامَات ، وكان سُلُوكُه على طريق السَّلَف من التَّمَسُّك بالكِتاب والسُّنَّة ، والنُّفور عن الفِتْنَة ، وتَرْك الدَّعاوَىٰ واطِّراحِها ، وسَتْر حالِه ، والتَّحَفُّظ في أقْوالِه وأفْعالِه . وكان لا يُرافِق أحدًا في اللَّيْل ، ولا يُعْلَمُ أحَدٌ يومَ صَوْمه من يوم فِطْره ، ويَجْعَل دائِمًا قول « إن شاءَ الله تعالى » مكانَ قَوْل غيره « والله » .

ثم إنَّ الشَّيْخَ عبْدَ العَزيز الدَّميري أشارَ عليه بالنِّكاح ، وقال له : النِّكاحُ من السُّنَّةِ ؛ فتَزَوَّج في آخِر عُمْره بامْرَأتَيْنِ لم يَدْخُل على واحِدَةٍ منهما نهارًا ألبتَّة ، ولا أكَلَ عندهما ولا شَرِبَ قَطّ . وكان لَيْلُه ظَرْفًا للعِبادَة ، لكنَّه يأتي إليهما أحيانًا ، ويَنْقَطِعُ أحيانًا لاسْتِغْراق زَمَنِه كلِّه في القِيام بوَظائف العِبادات وإيثار الخَلْوَة .

وكان خواصُّ خَدَمِه لا يَعْلَمون بصَوْمه من فِطْره ، وإنَّما يَحْمل إليه ما يأْكُل ويُوضَع عنده بالخَلْوَة ، فلا يُرَى قَطّ آكِلًا . وكان يُحِبُّ الفَقْرَ ، ويُؤْثِر حالَ المَسْكَنَة ، ويَتَطارَح على الخُمول والجَفَا ، ويَتَواضَع مع الفُقَراء ، ويتعاظَمُ على العُظَماء و الأغْنِياء .

وكان يَقْرَأ في المُصْحَف ، ويُطالِع الكُتُب ، ولم يَرَه أحَدٌ يَخُطّ بيده شَيْئًا . وكانت تِلاوَتُه للقُرآن بخُشُوعٍ وتَدَبُّر . ولم يَعْمَلَ له سِجَّادَة قَطّ ، ولا أَخَذَ على أَحَدٍ عَهْدًا ، ولا لَبِسَ طاقِية ، ولا قال أنا شَيْخٌ ولا أنا فَقِير ، ومتَى قال في كلامه « أنا » ، تَفَطَّن لما وَقَعَ منه ، واسْتَعاذَ بالله من قَوْل أنا ، ولا حَضَرَ قَطّ سَماعًا ، ولا أنْكَرَ على من يَحْضُره .

وكان سُلوكُه صَلاحًا من غير إصْلاح ، ويُبالِغ في التَّرَفُّع على أبْناء الدُّنْيا ، ويَترامَى على الفُقَراء ، ويُقَدِّم لهم الأكْل ، ولم يُقَدِّم لغَني أكلًا ألبتَّة .

وإذا اجْتَمَعَ عنده الناسُ ، قَدَّم الفَقيرَ على الغَنيّ . وإذا مَضَى الفَقيرُ من عنده ، سارَ معه وشَيَّعَه عِدَّة خُطُوات وهو حافٍ بغير نَعْل ، ووَقَفَ على قَدَمَيْه يَنْظُره حتى يَتوارَى عنه .

ومن كان من الفُقَراء يُشارُ إليه بمَشْيَخَةٍ جَلَسَ بين يَدَيْه بأدَبٍ مع إمامَته . وتَقَدُّمه في الطَّريق ويقول : ما أَقُول لأَحَدٍ افْعَل أو لا تَفْعل ، من أرادَ السُّلوك يَكْفيه أن يَنْظُر إلى أفْعالِه ، فإنَّ من لم يَتَسلَّك بنَظَرِه لا يَتَسلَّك بسَمْعه .

وقال له شَخْصٌ من خَواصِّه : يا سيِّدي ، ادْعُ الله لنا أن يَفْتَح علينا فنَحْنُ فُقَراء ؛ فقال : إن أرَدْتُم فَتْح الله ، فلا تُبْقُوا في البَيْت شيئًا ثم اطْلُبوا فَتْحَ الله بعد ذلك ، فقد جاءَ : « لا تَسْأَلَ الله ولَكَ خاتَمٌ من حَديد » . ومن كلامِه : الفَقيرُ بحال البِكْر ، إذا سَأَلَ زالَت بَكارَتُه .

وسأله بعضُ خواصِّه أن يَدْعُو له بِسَعَة ، وشَكَا له الضِّيق ، فقال : أنا ما أَدْعُو لك بسَعَةٍ ، بل أطْلُب لك الأفْضَل والأكْمَل .

وكان مع اشْتِغاله بالعِبادَة واسْتِغْراق أوْقاتِه فيها لا يَغْفل عن صاحِبِه ، ولا يَنْسَى حاجَتَه حتى يَقْضيها ، ويُلازِم الوَفاءَ لأصْحابِه ويُحْسِن مُعاشَرَتَهم ، ويَعْرف أحْوالَ النَّاسِ على طَبَقاتِهم ، ويُعَظِّم العِلْمَ ، ويُكْرِم الأيْتام ، ويُشْفِق على الضُّعَفاء والأرامِل ، ويَبْذُل شفاعَتَه في قَضَاء حَوائِج الخاصّ والعامّ من غير أن يَمَلَّ ولا يَتَبَرَّم بكثرة ذلك ، ويُكْثِر من الإيثار في السِّرّ ، ولا يُمْسِك لنَفْسِه شيئًا ، ويَسْتَقِلّ ما مَنَّه مع كثرة إحْسانِه ، ويَسْتَكْثِر ما يُدْفَع إليه وإن كان يَسيرًا ، ويُكافِئ عليه بأَحْسَن منه . ولم يَصْحَب قطّ أميرًا ولا وَزيرًا ، بل كان في سُلُوكِه وطَريقِه يَرْفَع في تَواضُع ، ويُعَزِّز مع مَسْكَنَة ، وقُرْب في ابْتِعاد ، واتِّصال في انْفِصال ، وزُهْدٍ في الدُّنيا وأَهْلِها . وكان أكْبَر من خَبَرِه .

٢٢٦ / ومن دُعائِه لنَفْسه ، ولمن يَسْأَل له الدُّعاء : « اللَّهُمّ بَعِّدْنا عن الدُّنْيا وأَهْلِها ، وبَعِّدْها عَنَّا » .

وما زالَ على ذلك إلى أن ماتَ آخِر ليلة أَسْفَرَ صَبَاحُها عن الثامِن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وست مائة ، وتَرَكَ وَلَدَيْن ليس لهما قُوتُ لَيْلَة ، وعليه مَبْلَغُ أَلفَيْ دِرْهَم دَيْنًا ، ودُفِنَ بجوار الجامِع ، وقَبْرُه يُزارُ إلى يومِنا هذا .

ذِكرُ شَطَا

شَطَا مَدينَةٌ عند تِنِّيس ودِمْياط ، وإليها تُنْسَب الثِّيابُ الشَّطَوِيَّة [1] . ويُقالُ إنَّها عُرِفَت بشَطَا بن الهاموك ، وكان أَبوه خال المُقَوْقِس ، وكان على دِمْياط ، فلمَّا فَتَحَ الله الحِصْنَ على يد عَمْرو بن العَاص ، واسْتَوْلَى على أرض مصر ، جَهَّزَ بَعْثًا لفَتْح دِمْياط ، فنازَلوها إلى أن مَلَكوا سُورَ المَدينَة ، فخَرَجَ شَطا في ألفين من أصْحابِه ولَحِقَ بالمسلمين ؛ وقد كان قبل ذلك يُحِبّ الخَيْر ويَميل إلى ما يَسْمَعه من سِيرَة أَهْل الإسْلام .

ولمَّا مَلَكَ المسلمون دِمْياطَ ، امْتَنَع عليهم صاحِبُ تِنِّيس ، فخَرَج شَطَا إلى البُرُلُّس والدَّميرَة وأُشْموم طَناح يَسْتَنْجِد ، فجَمَعَ الناسَ لِقتال أهل تِنِّيس ، وسارَ بهم مع مَنْ كان بدِمْياط من المسلمين ومن قَدِمَ مَدَدًا من عند عَمْرو بن العَاص إلى قِتال أهل تِنِّيس . فالتقى الفريقان ، وأَبْلَى شَطَا فيهم[a]

---

[a] بولاق : منهم .

---

[1] إحدى مدن مركز فارسكور بمحافظة دمياط (ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٤٢ - ٣٤٣ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/١ : ٢٤٣) .

بلاءً حَسَنًا وقَتَل من أبطال تِنِّيس اثني عشر رجلًا. واسْتُشْهِد في لَيْلَة الجُمُعَة النصف من شَعْبان سنة إحدى وعشرين من الهجرة، فقُبِرَ ـ حيث هو الآن ـ خارجَ دِمْياط، وبُنِيَ على قَبْره، وصارَ النّاسُ يَجْتَمعون هناك في ليلة النصف من شَعْبان كلَّ عام، ويَغْدُون للحُضُور من القُرَى. وهم على ذلك إلى يَوْمنا هذا.

وكانت تُعْمَل كُسْوَة الكَعْبَة بشَطَا؛ قال الفاكِهِيُّ: ورَأَيْتُ فيها كُسْوَةً من كُسَا أَمير المؤمنين هارُون الرَّشيد من قَباطي مصر، مكتوبًا عليها:

«بِسْم الله، بَرَكَة من الله لعَبْد الله هارون أَمير المؤْمنين أطال الله بقاءَه، مِمَّا أَمَرَ الفَضْل بن الرَّبيع مَوْلَى أَمير المؤمنين بصَنْعته في طراز شَطَا، كُسْوَةً للعَبْد[a] سنة إحدى وتسعين ومائة»[1].

ومن المَوَاضِع المشهورة بدِمْياط:

البَــــرْزَخ: وهو مَسْجِدٌ بُحَيْرَة دِمْياط، تُسَمِّيه العامَّة البَرْزَخ، ولا أَعْرِف مُسْتَنَدهم في ذلك. وشاهَدتُ فيه عَجَبًا، وهو أنَّ به مَنارَة كبيرة مَبْنيَّة من الآجُر، إذا هَزَّها أحَدٌ اهْتَزَّت، فلمَّا صَعِدتُ أعلاها ـ حيث يقف المُؤَذِّنون ـ وحَرَّكْتها، رأيتُ ظِلَّها قد تَحَرَّك بتَحْريكي لها. ويُوجَد حَوْلَ هذا المَسْجد رِمَمُ أَمْواتٍ يُشْبِه أن تكون مِمَّن اسْتُشْهِد في وَقائع الفِرَنْج، والله يَعْلَم وأنتم لا تَعْلَمون.

دَبيق

قَرْيَةٌ من قُرَى دِمْياط، يُنْسَب إليها الثِّيابُ المُثَقَّلَة، والعَمائِم الشَّرْبَ الملوَّنة[2].

والدَّبيقي: العَلَم المُذَهَّب. وكانت العَمائِمُ الشَّرْبُ المُذَهَّبة تُعْمَل بها، ويكون طولُ كلّ عِمامَة منها مائة ذِراع، وفيها رَقْمات مَنْسوجَة بالذَّهَب، فتَبْلُغ العِمامَة من الذَّهَب خمس مائة

a) بولاق وفييت: للكعبة.

[1] لم أعثر على هذا النص فيما نشره وستنفلد من «تاريخ الفاكهي»، وانظر فيما تقدم ٤٨٩ - ٤٩٠.

[2] دَبيق كأمير من المدن المصرية الصناعية القديمة كانت بالقرب من تِنِّيس، وقد اندثرت اليوم ويعرف مكانها بتل دِبْقو أو دبجو بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة في الشمال الشرقي لناحية صان الحجر بمركز فاقوس بمحافظة الشرقية وعلى بعد ٥٥٠٠ متر من صان الحجر (ياقوت: معجم البلدان ٢: ٤٣٨؛ الزبيدي: تاج العروس ٦: ٣٤١؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٢٤٣؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 178; Wiet, G., *EI*[2] art. *Dabik* II, p. 74).

دينار، سِوَى الحَرير والغَزْل. وحَدَثَت هذه العَمائِمُ وغيرها في أيَّام العَزيز بالله بن المُعِزّ، سنة خمس وستين وثلاث مائة، إلى أن ماتَ في شعبان سنة ست وثمانين وثلاث مائة.

النَّحْـرِيرِيَة

قَرْيَةٌ من الأعْمال الغَرْبية، أَسَّسَ حِكْرَها الأميرُ شَمْسُ الدين سُنْقُر السَّعْدِيّ نَقيب الجَيْش في أيَّام النَّاصِر محمد بن قَلاوون، وبالَغَ في عِمارَتها، فبَلَغَت في أيَّامه عشرة آلاف دِرْهَم فِضَّة.

ثم خَرَجَ عنها فعَمُرت للسُّلْطان، واتَّسَع أمْرُها حتى أُنْشِئَ فيها زيادةٌ على ثلاثين بُسْتانًا، ووَصَلَ حِكْرُها لكثرة سُكَّانها إلى ألف دِرْهم فِضَّة لكل فَدَّان، وصارَت بَلَدًا كَبير العَمَل، يبلُغ في السنة ما بين خَراجي وهِلالي ثلاث مائة ألف درهم فِضَّة، عنها خمسة عشر ألف دينار ذَهَبًا.

وماتَ سُنْقُرُ هذا في سنة ثمان وعشرين وسبع مائة، وإليه تُنْسَب المَدْرَسَة السَّعْدِيَّة بخُطّ حَدْرَة البَقَر خارِج باب زَوِيلَة[1].

جَـزِيرَةُ بَنِي نَصْـر

مَنْسوبَة إلى بني نَصْر بن مُعاوِيَة بن بَكْر بن هَوازِن، وذلك أنَّ بَني خَماس بن ظَالِم بن جعيل ابن عَمْرو بن دَهْمان بن نَصْر بن مُعاوِيَة بن بَكْر بن هَوازِن كانت لهم شَوْكَةٌ شديدةٌ بأرض مصر، وكَثُروا حتى ملأوا أسْفَل الأرْض، وغَلَبوا عليها حتى قَوِيَت عليهم قَبيلَةٌ من البَرْبَر تُعْرَف بلَواتَه ـ ولَواتَة تَزْعُم أنَّها من قَيْس ـ فأَجْلَت بني نَصْر وأَسْكَنَتْها الجِدار، فصارُوا أَهْلَ قُرًى في مكانٍ عُرِف بهم وَسَط النِّيل، وهي جَزيرَةُ بَني نَصْر هذه[2].

---

[1] النَّحْرِيرية. من القرى القديمة كانت في بدء تكوينها ضيعة أنشأها نحرير الأرغلي الإخشيدي، المعروف بابن الشويزاني في القرن الرابع الهجري فعرفت به، وهي من أعمال الغربية وورد رسمها كذلك النحرارية في بعض المصادر وهو تحريف، ثم حُرِّف للمرة الثانية إلى النَّحَّارِيَّة وهو اسمها الحالي الذي وردت به في تاج العروس وفي فك الزمام سنة ١٢٢٨هـ مما يدل على أن هذا التحريف وقع في العهد العثماني وهي الآن تابعة لمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية (ابن دقماق: الانتصار ٥: ٨٦؛ الزبيدي: تاج العروس ٣: ٥٥٨؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٧: ٥- ٦؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٢: ١٢٢- ١٢٣؛ وانظر فيما يلي ٦٧٦، ٢: ٣٩٧).

[2] تشمل جزيرة بني نصر المنطقة الواقعة على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد من محلة اللبن التي بمركز كفر الزيات شمالًا إلى زاوية رزين بمركز منوف جنوبًا؛ وسميت جزيرة لأن ماء النيل كان يحيط بها فكان يحدها من الغرب فرع رشيد ومن الشرق ترعة الباجورية وفروعها (ابن مماتي: قوانين ٩٥؛ القلقشندي: صبح ٣: ٤٠٥- ٤٠٦؛ أبو المحاسن: النجوم ٩: ٣٨هـ[2]؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٢١٣-٢١٤).

ذِكْرُ الطَّرِيقِ فِيمَا بَيْنَ مَدِينَةِ مِصْر وَدِمَشْق[١]

اعْلَم أنَّ البَرِيدَ أوَّل من رَتَّبَ دَوابَّه المَلكُ دارا بن بَهْمَن بن كيبشْتاف بن لهراسف[a]، أَحَدُ مُلوك الفُرْس.

وأمَّا في الإسْلام فأَوَّل من أقامَ البَرِيدَ أَميرُ المُؤْمنين المَهْدي محمد بن أبي جَعْفَر المَنْصور، أقامَه فيما بين مَكَّة والمَدينَة ـ [b]على ساكنها أفْضَل الصَّلاة والسَّلام والتحيَّة والإكْرام[b] واليَمَن، وجَعَلَه بِغالًا وإبلًا، وذلك في سنة ستٍّ وستين ومائة. وأَصْلُ هذه الكَلِمَة «بَرِيد ذَنَب» فإنَّ دارا أقامَ في سِكَك البَرِيد دَوابَّ مَحْذوفَة الأذْناب سُمِّيَت «بَرِيد ذَنَب»، ثم عُرِّبَت وحُذِف منها نِصفُها الأَخير فقيل «بَرِيد».

وهذا الدَّرْبُ / الذي يَسْلُكُه العَساكِرُ والتُّجار وغيرهم من القاهِرَة على الرَّمْل إلى مَدينَة غَزَّة، ليس هو الدَّرْب الذي يُسلَك في القَديم من مصر إلى الشَّام. ولم يَحْدُث هذا الدَّرْبُ الذي يُسْلَك فيه من الرَّمْل الآن إلَّا بعد الخمس مائة من سِني الهِجْرَة، عندما انْقَرَضَت الدَّوْلَةُ الفاطِمية[٢].

وكان الدَّرْبُ أوَّلًا قَبْل اسْتيلاء الفرنْج على سَواحِل البِلاد الشَّاميَّة غير هذا؛ قال أبو القاسِم عُبَيْدَ الله بن عبد الله بن خُرْدَاذْبَه في كِتاب «المَسالِك والمَمالِك»: وصِفَة الأرْض والطَّريق من دِمَشْق إلى الكُسْوَة اثنا عشر ميلًا، ثم إلى جاسِم أربعة وعشرون ميلًا، ثم إلى فَيْق أربعة وعشرون ميلًا، ثم إلى طَبَريَّة مَدينَة الأُرْدُنّ ستَّة أمْيال، ومن طَبَريَّة إلى اللَّجون عشرون ميلًا، ثم إلى القَلَنْسُوَة عشرون ميلًا، ثم إلى الرَّمْلَة مَدينَة فِلَسْطين أربعة وعشرون ميلًا، والطريق من الرَّمْلَة إلى أزْدود اثنا عشر ميلًا، ثم إلى غَزَّة عشرون ميلًا، ثم إلى العريش أربعة وعشرون ميلًا في رَمْل، ثم إلى الوَرَّادَة ثمانية عشر ميلًا، ثم إلى أمّ العَرَب[٣] عشرون ميلًا، ثم إلى الفَرَمَا أربعة وعشرون ميلًا، ثم إلى جُرْجير ثلاثون ميلًا، ثم إلى الغاضِرَة[c] أربعة وعشرون ميلًا، ثم إلى

---

a) بولاق: كيستاسف بن كيهراسف. (b-b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: القاصرة.

---

[١] نقل سلفستر دي ساسي هذا الفصل إلى الفرنسية بعنوان De Sacy, S., «Route de la capitale de l'Égypte à Damas (Extrait de la Description de l'Égypte par Makrizi)», *Magazin Encyclopédique* 7 (1801), pp. 328-32.

[٢] ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٢٧-٢٨.

[٣] جاء على هامش نسخة الأصل هنا: وأُمّ العَرَب =

مَسْجِد قُضاعَة ثمانية عشر ميلًا ، ثم إلى بِلْبَيْس أَحَد وعشرون ميلًا ، ثم إلى الفُسْطاط مَدينَة مِصْر أربعة وعشرون ميلًا [١].

فهَذا كما تَرَى إنَّما كان الدَّرْبُ المَسْلُوك من مِصْر إلى دِمَشْق ،على غير ما هو الآن ، فيُسْلَك من بِلْبَيْس إلى الفَرَمَا في البلاد التي تُعْرَف اليوم ببلاد السِّبَاخ ، من الحَوْف ، ويُسْلَك من الفَرَمَا ـ وهي بالقُرْب من قَطْيَة ـ إلى أمِّ العَرَب ـ وهي بلاد خَراب على البَحْر فيما بين قَطْيَة والوَرَّادَة ، ويَقْصِدها قَوْمٌ من النَّاس ، ويَحْفُرون في كِيمانِها فيَجدون دَراهِم من فِضَّة خالِصَة ، ثقيلة الوَزْن ، كبيرة المِقْدار ـ ويُسْلَك من أُمِّ العَرَب إلى الوَرَّادَة ، وكانت بَلْدَةً في غير مَوْضِعها الآن ، قد ذُكِرَت في هذا الكِتَاب [٢].

فلمَّا خَرَجَ الفرنْجُ من بَحْر القُسْطَنْطِينيَّة في سنة تسعين وأربع مائة لأَخْذ البلاد من أَيْدي المُسْلمين ، وأَخَذَ بُغْدوين [Boldwin] الشُّوْبَك وعَمَّره في سنة تسع وخمس مائة ، وكان قد خَرِبَ من تَقادُم السِّنين ، وأغارَ على العَرِيش ـ وهو يومئذٍ عامِر ـ بَطُلَ السَّفَرُ حينئذٍ من مصر إلى الشَّام ، وسَارَ يُسْلَك على طَرِيق البَرّ مع العَرَب مَخافَة الفرنْج ، إلى أن اسْتَنْقَذ السُّلْطانُ صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب بَيْتَ المَقْدِس من أَيْدي الفِرنْج في سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة ، وأكْثر من الإيقاع بالفِرنْج ، وافْتَتَحَ منهم عِدَّةَ بِلاد بالسَّاحِلِ ، وصارَ يُسْلَك هذا الدَّرْب على الرَّمْل [٣]. فسَلَكَه المُسافِرون من حينئذٍ إلى أن وَلِيَ مُلْك مصر الملكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب بن الكامِل محمد بن العادِل أبي بَكْر بن أيُّوب ، فأنْشَأ بأرْض السِّبَاخ ، على طَرَف الرَّمْلَ ، بَلْدَةً عُرِفَت إلى اليوم بالصَّالِحيَّة وذلك في سنة أربع وأربعين وست مائة ، وصارَ يَنْزِل بها ويُقيم فيها ، ونَزَلَ بها من بعده المُلُوك [٤].

فلمَّا مَلَكَ مصر الملك الظَّاهِرُ بَيْبَرْس البُنْدُقْداري ، رَتَّبَ البَريد في سائِر الطُّرُقات ، حتى صَارَ الخَبَرُ يَصل من قَلْعَة الجَبَل إلى دِمَشْق في أربعة أيَّام ويعود في مِثْلها . فصارَت أَخْبارُ المَمَالِك تَرِد إليه في كلِّ جُمْعَة مرَّتين ، ويَتَحَكَّم في سائِر مَمالِكه بالعَزْل والولاية وهو مُقيم بالقَلْعَة ، وأَنْفَقَ في ذلك

=آثارها باقية إلى اليوم على البحر بينها وبين الفَرَما سباخ ويوجد بها دراهم فضة كبار يظفر بها من يتتبّعها . ووجد بها في زماننا رجلٌ مالًا نحو عشرة آلاف دينار في قدر من ... وغلب البحر بها على موضع منها فكشف عن عدَّة حوانيت وجد فيها عدّة قطع من ذهب يشبه أنها كانت الصَّاغة». كتب من الأصل .

[١] ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٨٠، ٢١٩- ٢٢٠.

[٢] انظر فيما تقدم ٤٩٩- ٥٠٠.

[٣] ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٨.

[٤] فيما تقدم ٥٠٠.

مالًا عظيمًا ، حتى تمَّ تَرْتيبه . وكان ذلك في سنة تسعٍ وخمسين وستّ مائة [1] .

وما زال أَمْرُ البَريد مُسْتَمِرًّا فيما بين القاهِرَة ودِمَشْق ، يُوجَد بكلّ مَرْكز من مَراكِزه عِدَّة من الخُيول المُعَدَّة للركوب ـ وتُعْرَف بخَيْل البَريد ـ وعندها عِدَّة سُوَّاس ، وللخَيْل رِجالٌ يُعْرَفون بالسُّوَّاقين ، واحِدُهُم سَوَّاق ، يَرْكَب مع من رُسِمَ برُكُوبه خَيْل البَريد ليَسُوق له فَرَسَه ويَخْدِمه مُدَّة مَسيره . ولا يَرْكَب أَحَدٌ خَيْلَ البَريد إلَّا بمَرْسوم سُلْطاني ، فتارَةً يُمْنَع الناس من رُكوبه إلَّا من انْتَدَبه السُّلْطان لمهمَّاته ، وتارَةً يركبه من يُريد السَّفَر من الأعْيان بمَرْسُوم سُلْطاني .

وكانت طُرُقُ الشَّام عامِرَة ، يُوجَد بها عند كلّ بَريد ما يَحْتَاجُ إليه المُسافِر من زَاد وعَلَف وغيره . ولكَثْرة ماكان فيه من الأَمْن أدْرَكْنا المَرْأة تُسافِر من القاهِرَة إلى الشَّام بمُفْرَدها ـ راكِبَةً أو ماشِيَةً ـ لا تَحْمِل زادًا ولا ماءً .

فلمَّا أَخَذَ تَيْمُورْلَنْك دِمَشْقَ وسَبَى أهْلَها ، وحَرَقَها في سنة ثلاث وثمان مائة ، خَرِبَت مراكِزُ البَريد واشْتَغَلَ أَهْلُ الدَّوْلَة بما نَزَل بالبِلاد من المِحَن ، وما دُهُوا به من كَثْرَة الفِتَن ، عن إقامَة البَريد [2] ، فاخْتَلّ بانْقِطاعِه طَرِيقُ الشَّام خَللًا فاحِشًا ؛ والأَمْرُ على ذلك إلى وَقْتِنا هذا ، وهو سنة ثمان عشرة وثمان مائة .

ذِكْـرُ مَديـنةِ حِطّـين

هذه المَدينَة آثارُها إلى اليوم باقِيَة فيما بين حَبْوة والعاقُولَة بأرْض العاقُولَة فيما بين قَطْيَة والعَريش ، تجاهها بمَيْل ماءٌ عَذْب تُسَمِّيه العَرَبُ أبا العُروق ، وهو شَرْقيها [3] .

وهذه المَدينَةُ تُنْسَب إلى حِطّين ، ويُقالُ حِطّي بن الملك أبي جاد المَديني . وأهل قَطْيَة اليوم يُسَمُّون تلك الأرض بِلاد حِطّين والجفْر .

ومَلَك حِطّينُ هذا أرْضَ مصر بعد مَوْت أبيه ، وكان صاحِبَ حَرْبٍ وبَطْش ، وكان ينزلُ بقَلْعَة في جبال الأُرْدُنّ قريبًا من طَبَريَّة ، وإليه تُنْسب قَرْية حِطّين التي بها / الآن قَبْرُ شُعَيْب بالقُرْب من صَفَد [4] .

---

[1] ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٨.

[2] راجع دراسة سوفاجيه الهامة عن بريد الخيول في العصر المملوكي Sauvaget, J., *La poste aus cheveaux dans l'Empire des Mamelouks,* Damas - IFEAD 1941.

[3] ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٢٧٣-٢٧٤ وفيه أنها موضع بين الفرما وتنيس.

[4] وهي الموضع الذي جرت فيه الموقعة المشهورة التي انتصر فيها صلاح الدين على جيوش الفرنج (الصليبيين) =

ذِكْرُ مَدِينَة الرَّقَّة

هذه المَدِينَةُ من جُمْلَة مَدائِن مَدْيَنَ فيما بين بَحْر القُلْزُم وجَبَل الطُّور. كان بها عندما خَرَج مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ ببَني إسْرائيلَ من مصر قَوْمٌ من لَخْم آل فِرْعَوْن يَعبُدون البَقَر، وإيَّاهُم عَنَى الله بقَوْله تعالى: ﴿وجَاوَزْنا بِبَنِي إسْرائِيلَ البَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُون عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الآية ١٣٨ سورة الأعراف]. قال قَتادَة: أُولَئِكَ القَوْم من لَخْم، وكانُوا نُزولًا بالرَّقَّة. وقيل كانت أصْنامُهم تَماثِيلَ البَقَر، ولهذا أَخْرَجَ لهم السَّامِرِيُّ عِجْلًا.

وآثارُ هذه المَدِينَة باقِيَة إلى اليوم، فيما بَقِيَ من مَدِينَة فاران والقُلْزُم ومَدْيَن وأَيْلَة، تَمُرّ بها الأعْراب [1].

ذِكْرُ عَيْن شَمْس [2]

[a]كانت عَيْنُ شَمْس هَيْكَلًا يَحجّ النَّاسُ إليه ويَقْصِدونه من أَقْطار الأَرْض، في جُمْلَة ما كان يُحَجّ إليه من الهَياكِل التي كانت في قَديم الدَّهْر. ويُقالُ إنَّ الصَّابِئَةَ أَخَذَت هذه الهَياكِلَ عن عادٍ وثَمُود، ويَزْعُمون أنَّه عن شِيث بن آدَم، وعن هِرْمِس الأَوَّل ـ وهو إدْرِيس ـ فإنَّ[b] إدْرِيس هو أوَّل من تَكَلَّم في الجَواهِر العُلْوِيَّة والحَرَكات النُّجومِيَّة وبَنَى الهَياكِل ومَجَّدَ الله فيها.

---

a) قبل ذلك في بولاق: كان يقال لها في القديم رعمساس، وهذه العبارة موجودة في الأصل بعد الفقرة التي تبدأ فيما يلي بـ: قال ابن وصيف شاه. b) بولاق: وإن.

= سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وانظر Cahen, Cl., *EI*[2] art. *Hittîn* ou *Hattîn* III, p. 528.

[1] انظر فيما تقدم ٥١٠.

[2] أخبار عين شمس كثيرة في كتب الجغرافيا والرحلات وهي مدينة «أون» القديمة أطلق عليها العرب عين شمس، وهي أول مدينة في مصر بنيت على الضفة الشرقية لنهر النيل. وظلّت بقايا هذه المدينة موجودة حتى دخول العرب المسلمين إلى مصر سنة ١٩هـ/٦٤٠م. ونجد الآن في ضاحية المطرية شمال القاهرة مسلّة مصرية منعزلة هي الشاهد الوحيد الباقي الآن من هذه المدينة المصرية القديمة (راجع؛ ياقوت: معجم البلدان ٤:١٧٨–١٧٩؛ النويري: نهاية الأرب ١:٣٩٣–٣٩٤؛ وجمع عصام الدين البنّا النصوص العربية التي ذكرت عين شمس في رسالة إلى جامعة باريس انظر El-Banna, E.S., *Matériaux pour servir à l'histoire d'Héliopolis,* thèse de 3° cycle EPHE, V section, Université de Paris-Sorbonne 1975؛ وانظر كذلك Becker, C.H., *EI*[2] art. ʿ*Ayn Shams* I, pp. 811-12.

ويُقالُ إنَّ الهَياكِلَ كانت عِدَّتُها في الزَّمَن الغابِر اثْنَيْ عشرِ هَيْكَلًا ، وهي : هَيْكَل العِلَّة الأولى ، وهَيْكَل العَقْل ، وهَيْكَل السِّياسَة ، وهَيْكَل الصُّورَة ، وهَيْكَل النَّفْس ـ وكانت هذه الهَياكِلُ الخَمْسَة مُسْتَديرات ـ والهَيْكَل السَّادِس هَيْكَلُ زُحَل وهو مُسَدَّس ،وبعده هَيْكَل المُشْتَري وهو مُثَلَّث ، ثم هَيْكَل المَرِّيخ وهو مُرَبَّع ، وهَيْكَل الشَّمْس وهو أيضًا مُرَبَّع ، وهَيْكَل الزُّهَرة وهو مُثَلَّث مستطيل ، وهَيْكَل عُطارِد مُثَلَّث في جَوْف مُرَبَّع مُسْتَطيل ، وهَيْكَل القَمر مُثَمَّن .

وعَلَّلُوا عِبادَتهم للهَياكِل بأن قالوا : لمَّا كان صانِعُ العالَم مُقَدَّسًا عن صِفات الحُدُوث وَجَبَ العَجْزُ عن إدْراك جَلالِه ، وتَعَيَّنَ أن يَتَقَرَّب إليه عِبادُه بالمقرَّبين لديه ، وهم الرُّوحانيون ، ليَشْفَعُوا لهم ، ويكونوا وَسائط لهم عنده .

وعَنَوا بالرُّوحانيين المَلائِكَة ، وزَعَمُوا أنَّهم[a] المُدَبِّرات للكَواكِب السَّبْعَة السَّيَّارَة في أفْلاكِها ، وهي هَياكِلها ، وأنَّه لابدّ لكلِّ رُوحاني من هَيْكل ، ولابد لكلّ هَيْكَلٍ من فَلَك ، وأنَّ نِسْبَة الرُّوحاني إلى الهَيْكل نِسْبَة الرُّوح إلى الجَسَد .

وزَعَموا أنَّه لابدَّ من رُؤْيَة المُتَوَسِّط بين العِباد وبين بارِئهم حتى يَتَوَجَّه إليه العَبْدُ بنَفْسه ، ويَسْتَفيد منه . ففَزِعوا إلى الهَياكِل التي هي السَّيَّارات ، فعَرَفُوا بيوتَها من الفَلَك ، وعَرَفُوا مَطالِعَها ومَغارِبها واتِّصالاتها ، وما لها من الأيَّام واللَّيالي والسَّاعات والأشْخاص والصُّوَر والأقاليم ، وغير ذلك مِمَّا هو مَعْروفٌ في مَوْضِعه من العِلْم الرِّياضي .

وسَمَّوا هذه السَّبْعَة السَّيَّارَة أرْبابًا وآلِهَة ، وسَمَّوا الشَّمْس إله الآلِهَة ورَبّ الأرْباب ، وزَعَمُوا أنَّها المُفيضَة على السَّنَة أنْوارَها ، والمُظْهِرَة فيها آثارَها . فكانُوا يتقرَّبون إلى الهَياكِل تَقَرُّبًا إلى الرُّوحانيين لتُقَرِّبهم إلى البَاري ، لزَعْمِهِم أنَّ الهَياكِلَ أبْدان الرُّوحانيين ، وكلّ من تَقَرَّب إلى شَخْص فقد تَقَرَّب إلى رُوحِه .

وكانوا يُصَلُّون لكلِّ كَوْكَبٍ يومًا يَزْعُمون أنَّه رَبّ ذلك اليوم ، وكانت صَلاتُهم في ثلاثَة أوْقات : الأُولى عند طُلوع الشَّمْس ، والثانية عند اسْتِوائِها في الفَلَك ، والثالثة عند غُروبِها . فيُصَلُّون لزُحَل يوم السَّبْتِ ، وللمُشْتَري يوم الأَحَد ، وللمَرِّيخ يوم الاثنين ، وللشَّمْس يوم الثلاثاء ، وللزُهَرة يوم الأربعاء ، ولعُطارِد يوم الخميس ، وللقَمَر يوم الجُمُعَة .

---

a) بولاق : أنها .

ويُقالُ إنّه كان ببَلْخ هَيْكَلٌ بَناه بنو حِمْيَر على اسم القَمَر لتُعارِض به الكَعْبَة ، فكانَت الفُرْس تَحُجّه وتَكْسُوه الحَرير ، وكان اسْمُه نُوبَهْر . فلما تَمَجَّسَت الفُرْس عَمِلَته بَيْت نار ، وقيل للمُوكَّل بسَدانَتِه بَرْمَك ـ يعني والي مَكَّة وانْتَهَت البَرْمَكَة إلى جَدِّ خالِد جد جَعْفَر بن يحيى بن خالِد ، فأسْلَم على يد هِشَام بن عبد الملك ، وسَمَّاه عبد الله .

وخَرَّبَ هذا الهَيْكَل قَيْسُ بن الهَيْثَم في أوَّل خِلافَة مُعاوِيَة سنة إحدى وأربعين . وكان بِناءً عَظيمًا حَوْله أرْوِقَة وثلاث مائة وستون مَقْصُورَة لسَكَن خُدَّامِه .

وكان بصَنْعَاء قَصْرُ غَمْدان من بِناء الضَّحَّاك ، وكان هَيْكَلَ الزُّهَرَة ، وهُدِمَ في خِلافَة عُثْمان ابن عَفَّان .

وكان بالأَنْدَلُس ، في الجَبَل الفارِق بين جَزيرَة الأَنْدَلُس ، والأرْض الكبيرة ، هَيْكَلُ المُشْتَري من بِناء كِلوبَطْرَة[a] بنت بَطْلَمْيُوس .

وكان بفَرْغانَة بَيْتٌ يُقالُ له كُوشان[b] هَيْكَلٌ للشَّمْسِ ، بَنَاه بَعْضُ مُلوك فارِس الأوَل ، خَرَّبَه المُعْتَصِم .

وقد اخْتُلِفَ فيمن بَنَى هَيْكَلَ عَيْنَ شَمْس ، وسأقُصّ من أخْبارِه ما لم أرَه مَجْموعًا في كِتاب . قال ابن وَصِيف شَاه : [c]وكان يقال لها في القديم رَعْمساس[c] وقد كان الملكُ مَنْقاوس إذا رَكِبَ عَمِلوا بين يَدَيْه التَّخاييل العَجيبَة ، فيَجْتَمع الناسُ ويَعْجَبُون من أعْمالِهم . وأَمَرَ أن يُبْنَى له هَيْكَلٌ للعِبادَة يكون له / خُصوصًا ، ويجعل فيه قُبّة فيها صُورَة الشَّمْس والكَواكِب ، وجَعَلَ حَوْلَها أصْنامًا وعَجائِب ، فكان الملكُ يَرْكَب إليه ، ويُقيم فيه سَبْعَة أيّام . وجَعَلَ فيه عَمودَيْن زَبَرَ عليهما تاريخ الوَقْت الذي عَمِلَه فيه ـ وهما باقِيان إلى اليوم ـ وهو المَوْضِعُ الذي يُقالُ له عَيْنُ شَمس ، ونَقَلَ إلى عَيْن شَمْس كُنوزًا وجَواهِر وطِلَّسمات وعَقاقير وعَجائِب ، ودَفَنها بها وبنواحِيها .

وأقامَ مَلِكًا إحدى وتسعين سنة ، وماتَ من الطَّاعون ، وقيل من سُمٍّ ؛ وعُمِلَ له ناوُوس في صَحْراء الغَرْب ، وقيل في غَرْبيّ قُوص ، ودُفِنَ معه [d]مَصاحِفُ الحِكْمَة والصَّنْعَة ، وتَماثيل الذَّهَب والجَوْهَر ، ومن الذَّهَب المَضْروب شيءٌ كثير . ودُفِنَ معه[d] تِمْثالُ رُوحاني الشَّمْس من ذَهَب يَلْمَع ، وله جَناحان من زَبَرْجَد ، وصَنَمٌ على صُورةِ امْرأتِه ، وكان يُحِبّها ؛ فلمَّا ماتَت أمَر أن تُعْمَل

٢٢٩ (في الهامش بجوار السطر: للعِبادَة يكون له / خُصوصًا)

a) الأصل : كلاوبطرة . b) بولاق : كلوسان . (c-c) ساقطة من بولاق ، وانظر أول الحديث عن عين شمس .
(d-d) ساقطة من الأصل : اختلاف نظر .

صُورَتُها في الهَياكِل كلّها، وعَمِلَ صُورَتَها من ذَهَب بذُؤابَتَيْن سَوْداوَيْن، وعليها حُلَّة من جَواهِر مَنْظومَة وهي جَالِسَة على كرسي. وكان يَجْعلُها بين يدَيْه في كلِّ مَوْضِع يَجْلِس فيه، يَتَسَلّى بذلك عنها، فدُفِنَت هذه الصُّورَة معه تحت رِجْلَيْه كأنَّها تُخاطِبه [١].

وقال الحكيمُ الفاضِل أحمد [بن القاسِم][a] بن خَليفَة [المعروف بـ ابن أبي أُصَيْبِعَة][a][٢] في كِتاب «عُيُون الأنْباء في طَبَقَات الأطِبّاء»: واشْتَاقَ فيثاغُورس إلى الاجْتماع بالكَهَنَة الذين كانوا بمصر، فوَرَدَ على أهْل مَدينَة الشَّمْس - المعروفة في زَمانِنا بعَيْن شَمْس - فقَبِلوه قَبولًا كَريمًا، وامْتَحَنُوه زَمانًا فلم يَجدوا عليه نَقْصًا ولا تَقْصيرًا؛ فوَجَّهُوا به إلى كَهَنَة مَنْف كي يُبالِغُوا في امْتِحانِه، فقَبِلوه على كَراهَة، واسْتَقْصَوا امْتحانه، فلم يجدوا عليه مَعيبًا، ولا أصَابُوا له عَثْرَة؛ فبَعَثُوا به إلى أهل دُيوسْوليس[b] ليَمْتَحنوه، فلم يجدوا عليه طَريقًا ولا إلى إدْحاضِه سَبيلًا [لعناية ملكهم به][c]، فعَرَضُوا[d] عليه فَرائِضَ صَعْبَة كيما يَمْتَنِع من قَبولها فيَدحَضوه، ويَحْرموه طَلِبَته مُخالَفَةً لفَرائِض اليُونانيين، فقَبِل ذلك وقام به؛ فاشتدَّ إعجابُهم به، وفشَا بمصر وَرَعُه، حتى بلَغَ ذكره إلى أَماسيس ملك مصر، فأعْطَاه سُلْطانًا على ضَحايا الرَّبّ وعلى سائِر قَرابينهم، ولم يُعْط ذلك لغَريب قَط [٣].

ويُقالُ إنَّه كان للكَواكِب السَّبْعَة السَّيَّارَة هَياكِل، يَحُجُّ الناسُ إليها من سائِر أقْطار الدنيا، وَضَعَها القُدَماء، فجَعَلوا على اسْم كلِّ كَوْكَب هَيْكَلًا في ناحية من نَواحي الأرض.

زَعَمُوا أنَّ البَيْتَ الأوَّل هو الكَعْبَة، وأنَّه مما أَوْصَى إدريس - الذي يُسَمُّونه هِرْمِس الأوَّل المُثَلَّث [٤] - أن يُحَجَّ إليه، وزَعَمُوا أنَّه مَنْسوبٌ لزُحَل. والبَيْتُ الثَّاني بَيْتُ المرِّيخ، وكان

a) إضافة اقتضاها السياق. b) بولاق: ديوسوس. c) إضافة من عيون الأنباء. d) بولاق: ففرضوا.

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦٦-٦٧ نقلًا عن ابن وصيف شاه.

[٢] موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي المعروف بابن أبي أُصَيْبِعَة المتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م طبيب معروف ألّف تاريخًا للأطباء عنوانه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» يعد أهم كتاب في موضوعه بعد كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل الأندلسي الذي اعتمد عليه كثيرًا فيما يخص الأطباء القدماء (الصفدي: الوافي بالوفيات ٧: ٢٩٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٢٢٩؛ Vernet, J., *EI*[2] art. *Ibn Abi Usaybi'a* III, pp. 715-16).

[٣] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١: ٣٩.

[٤] عن هرمس الأول انظر فيما تقدم ٣١٩-٣٢٠.

بمَدينَة صُور من السَّاحِل الشَّامي . والبَيْتُ الثَّالِث للمُشْتَري ، وكان بدِمَشْق ، بناه جيرون بن سَعْد بن عاد ، ومَوْضِعُه الآن جامِع بني أُمَيَّة . والبَيْتُ الرَّابع بَيتُ الشَّمْس بمصر ، ويُقالُ إنَّه من بِناء هوشِنك[a]، أَحَد مُلوك الطَّبَقَة الأولى من مُلوك الفُرْس ، وهو المُسَمَّى بعَيْن شَمْس . والبَيْتُ الخامِس بَيْتُ الزُّهَرَة ، وكان بمَنْبج[b]. والبَيْتُ السَّادِس بيتُ عُطارِد ، وهو بصَيْدا من ساحل البَحْر الشَّامي . والبَيْتُ السَّابع بَيْتُ القَمر ، وكان بحَرَّان - ويُقالُ إنَّه قَلْعَتها - ويسمَّى المُدَوَّر ، ولم يَزَل عامِرًا إلى أن خَرَّبَه التَّتر ؛ ويُقالُ إنَّه كان هو هَيْكَل الصَّابِئَة الأَعْظَم .

وقال شافِعُ بن عليّ في كتاب «عَجائِب البُنْيان»[c]: وعَيْنُ شَمْس مَدينَةٌ صغيرةٌ ، تُشاهِد سُورَها مُحْدِقًا بها مَهْدومًا ، ويَظْهَر من أَمْرِها أنَّها كانت بَيْتَ عِبادَة . وفيها من الأَصْنام الهائِلَة العَظيمَة الشَّكْل ، من نَحِيت الحِجارَة ، ما يكون طُولُ الصَّنَم بقدر ثلاثين ذِراعًا ، وأَعْضاؤه على تلك النِّسْبَة من العِظَم ، وكلُّ هذه الأَصْنام قائِمَة على قَواعِد ، وبعضُها قاعِدٌ على نَصْبات عَجيبَة وإتْقانات مُحْكَمَةٌ ؛ وبابُ المَدينَة مَوْجودٌ إلى الآن[d].

وعلى مُعْظَم تلك الحِجارَة تَصاويرُ على شَكْل الإنسان وغيره من الحَيَوان ، وكِتابَةٌ كثيرةٌ بالقَلَم المَجْهول ، وقَلَّما تَرَى حَجَرًا غُفْلًا[e] من كِتابَة أو نَقْش أو صُورَة .

وفي هذه المَدينَة المَسَلَّتان المشهورتان ، وتُسَمَّيان مَسَلَّتَيْ فِرْعَوْن . وصِفَةُ المَسَلَّة قاعِدَة مُرَبَّعَة ، طولها عشرة أَذْرُع في مثلها عَرْضًا في نحوها سُمْكًا ، قد وُضِعَت على أساس ثابت في الأرض ، ثم أُقيم عليها عَمُودٌ مثلَّث مَخْروط ينيف طوله على مائة ذِراع ، يبتدئ من القاعِدَة لعلّ[f] قُطْرها خمسة أَذْرُع ، وينتهي إلى نُقْطَة ، وقد لُبِّسَ رَأْسُها بقَلَنْسُوة نُحاس إلى نحو ثلاثة أَذْرُع منها كالقُمْع ، وقد تَزَنْجَر بالمَطَر وطول المُدَّة ، واخْضَرَّ وسالَ من خُضْرَته على بَسيط المَسَلَّة ، وكلّها عليها كِتاباتٌ بذلك القَلَم . وكانت المَسَلَّتان قائِمَتَيْن ، ثم خَرِبَت إحْداهُما ، وانْصَدَعَت من نِصْفها لِعَظم الثِّقَل ، وأُخِذَ النُّحاسُ من رَأْسها .

ثم إنَّ حَوْلَها من الأَصْنام شيئًا كثيرًا لا يُحْصَى عَدَدُه ، على نصف تلك العُظْمَىٰ أو ثلثها[g]، وقَلَّما يُوجَد في هذه المَسَال الصِّغار ما هو قِطْعَة واحِدَة ، بل فُصوصُها بَعْضُها

a) بولاق : هرشيك . b) بولاق : منتيج . c) جميع النسخ : البلدان والصواب ما أثبته ، انظر فيما تقدم ١ : ١٢٠ . d) الإفادة والاعتبار : اليوم . e) بولاق : خلا . f) بولاق : ببسطة . g) بولاق : يليها .

على بَعْض، وقد تَهَدَّم أَكْثَرُها وإنَّما بَقِيَت قَواعِدُها [١].

وقال محمد بن إبْراهيم الجَزَرِيّ في «تارِيخه» [٢]: وفي رابع شهر رمضان ـ يعني من سنة ستٍّ وخمسين وست مائة ـ وقَعَت إحدى مسالٍّ[a] فِرْعَون، التي بأراضي المَطَرِيَّة من ضَواحي القاهِرَة، فوَجَدُوا داخِلَها مائتي قِنْطار من نُحاس، وأُخِذَ من رَأْسها عشرة آلاف دينار.

ويُقالُ إنَّ عَيْنَ شَمْس بَنَاها الوَليدُ بن دَوْمَغ من الملوك العَماليق؛ وقيل بناها الرَّيَّان بن الوَليد، وكانت سريرَ مُلْكه. والفُرْسُ تَزْعُم أنَّ هوشنك[b] بَنَاها. ويُقالُ طُولُ العَمودية مائة ذِراع، وقيل / أربعة وثمانون ذِراعًا، وقيل خمسون ذِراعًا.

ويُقالُ إنَّ بُخْت نَصَّر هو الذي خَرَّبَ عَيْنَ شَمْس لمَّا دَخَلَ إلى مصر.

وقال القُضَاعِيّ: وعَيْنُ شَمْس ـ وهي هَيْكَلُ الشَّمْس ـ بها العمودان اللذان لم يُرَ أعجب منهما ولا من شَأْنهما، طولُهما في السَّماء نحو من خمسين ذِراعًا، وهما مَحْمولان على وَجْه الأرض، وبينهما صُورَةُ إنْسان على دَابَّة، وعلى رَأْسهما شِبْه الصَّوْمَعَتَيْن من نُحاس؛ فإذا جاءَ النِّيلُ قَطَرَ من رأسيهما ما تَسْتَبينه وتراه مِنْهُما واضِحًا يَنْبُع حتى يجري من أسافِلهما، فيُنْبِت في أَصْلِهما العَوْسَج وغيره.

وإذا دَخَلَت الشَّمْسُ دَقيقَة من الجَدْي ـ وهو أَقْصَر يومٍ في السَّنَة ـ انْتَهَت إلى الجنوبي منهما، فطَلَعَت عليه على قِمَّة رأْسه. ثم إذا دَخَلَت دَقيقَة من السَّرَطان ـ وهو أَطْوَل يوم في السَّنة ـ انْتَهَت إلى الشَّمالي منهما، فطَلَعَت على قِمَّة رَأْسه؛ وهُمَا مُنْتَهى الميلين، وخَطُّ الاسْتِواء في الوَاسِطَة منهما، ثم خَطَرَت بينهما ذاهِبَةً وجائية سائِر السَّنَة، كذا يقول أَهْلُ العِلْم بذلك [٣].

---

a) بولاق: مسلتي. b) بولاق: هرشيك.

---

[١] عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٥٠–٥١، وانظر التعليق على كتاب «عجائب البنيان» لشافع بن علي فيما تقدم ٣٢٥.

[٢] تاريخ الجَزَرِيّ ويسمّى «حوادث الزّمان وأنباؤه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه» ألّفه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجَزَري الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٩م، رتّبه على السنين على نسق «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام» للذّهبي، ولا توجد حوادث سنة ٦٥٦ فيما وصل إلينا من نسخ الكتاب (راجع Brockelmann, C., *GAL S* II, 45؛ صلاح الدين المنجد: معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة، بيروت – دار الكتاب الجديد ١٩٧٨، ١٤٥–١٤٦، ٤٤٤؛ ونشر عمر عبد السلام تدمري حوادث السنوات من سنة ٦٨٩–٦٩٩هـ وصدر في صيدا – بيروت عن المكتبة العصرية سنة ١٩٩٨).

[٣] فيما تقدم ٨٤.

وقال ابنُ سَعيد في كتاب « المُغْرِب » : وكانت عَيْنُ شَمْس ، في قَديم الزَّمان ، عَظيمَةَ الطُّول والعَرْض ، مُتَّصِلَةَ البِناء بمصر القَديمَة حيث مَدينَة الفُسْطاط الآن[1] (a)ولمَّا قَدِمَ عَمْرو بن العَاص ، نازَلَ عَيْنُ شَمْس ـ وكان جَمعَ القَوْم ـ حتى فَتَحَها(a).

وقال جامِعُ « السِّيرَة الطُّولونِيَّة » : كان بعَيْنْ شَمْس صَنَمٌ بِمِقْدار الرَّجل المُعْتَدل الخَلْق ، من كذّان أبيض مُحْكَم الصَّنْعَة ، يَتَخيَّل من اسْتَعْرَضَه أنَّه ناطِق . فوُصِفَ لأحمد بن طُولون ، فاشْتاق إلى تَأمُّله ، فَنَهاه نَدُوسة عنه وقال : ما رآه والٍ قَطّ إلَّا عُزِل . فرَكِبَ إليه ـ وكان هذا في سنة ثمان وخمسين ومائتين ـ وتأمَّله ، ثم دَعَا بالقَطَّاعين وأمَرَهُم باجْتِثاثه من الأرْض ، ولم يَتْرُك منه شيئًا . ثم قال لندوسة خازِنه : ياندوسة ، مَنْ صَرَفَ مِنَّا صاحِبَه ؟ قال : أنت أيُّها الأمير .

وعاشَ بعدها أحمد اثنتي عشرة سنة أميرًا[2].

وبَنَى العَزيزُ بالله نِزار بن المُعِزّ قُصورًا بعَيْنِ شَمْس(b)[3].

وقال أبو عُبَيْد البَكْري : عَيْنُ شَمْس ـ بفَتْح الشِّين وإسْكان ثانيه بعده سين مهملة ـ عَيْنُ ماءٍ معروفة . قال مُحمد بن حَبيب : عَيْنُ شَمْس حيث بَنَى فِرْعَون الصَّرْح . وزَعَمَ قومٌ أنَّ عَبْدَ(c) شَمْس إلى هذا الماءِ أُضيف . وأوَّلُ من سُمِّيَ هذا الاسم سَبأ بن يَشْجُب . وذَكَرَ الكَلْبِيُّ أنَّ شَمْسًا الذي تَسَمَّوا به صَنَمٌ قَديم[4].

(a-a) هذه العبارة موجودة في هامش الأصل وغير موجودة فيما نسبه ابن دقماق إلى ابن سعيد. b) أقحمت نسخة الأصل هنا العبارة المذكورة في (a-a). c) بولاق : عين.

---

[1] هذا النص من كتاب «منية النفس في حلى مدينة عين شمس» - أحد أقسام الجزء المصري من كتاب «المغرب» - وهو من الأقسام المفقودة من الكتاب (انظر زكي محمد حسن : مقدمة المغرب لابن سعيد (قسم مصر) ، ٢٨-٢٩) ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥:٤٣- ٤٤.

[2] البلوي : سيرة أحمد بن طولون ٢٨٨- ٢٨٩؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١٠٢-١٠٣ (نقلًا عن ابن الداية) ؛ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ١٢١؛ ابن دقماق : الانتصار ٥: ٤٤.

[3] كان للخلفاء الفاطميين منظرة أو قصرا صغيرا للنزهة في عين شمس ، يقول ناصر خسرو : «وللسلطان حديقة تسمى «حديقة عين شمس» على فرسخين من القاهرة ، وهناك عين ماء عذبة يُسقى البستان بها» (سفرنامه ٩٨) ، وأورد المسبحي في تاريخه المناسبات التي كان الخليفة الفاطمي الرابع الظاهر لإعزاز دين الله يتوجّه فيها إلى نواحي عين شمس للنزهة (أخبار مصر ٩، ١٨، ٢٣، ٤١، ٧٧) .

[4] أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٨٠٨- ٨٠٩، ٩٨٧.

وقال ابنُ خُرْدَاذَبَه : وأُسْطوانَتَيْنِ بعَيْنِ شَمْس من أَرْض مصر ، ومن بَقَايا أَساطِين كانت هناك ، في رأْس كلّ أُسْطُوانة طَوْقٌ من نُحاس ، يَقْطُر من إحداهما ماءٌ من تحت الطَّوْق إلى نصف الأُسْطُوانَة لا يُجاوِزُه ، ولا يَنْقَطِع قَطْرُه ليلًا ولا نهارًا ، فمَوْضِعُه من الأُسْطُوانَة أَخْضَرُ رَطْب ، ولا يَصِلُ الماءُ إلى الأَرْض . وهو من بِناء أوشهَنْك [1] .

وذكر محمد بن عبد الرَّحيم في كتاب « تُحْفَة الأَلْباب » أنَّ هذا المنار مُرَبَّع عُلُوّه مائة ذِراع [من الرخام المُجَزَّع الصَّافي][a] قِطْعَةً واحِدَةً ، مُحَدَّدة الرَّأْس على قاعِدَة من حَجَر ، وعلى رأْس المنار غِشَاء من صُفْر كالذَّهَب ، فيه صُورَة إنْسان على كُرْسي قد اسْتَقْبَل المَشْرِق ، ويَخْرُج من تحت ذلك الغِشَاء الصُّفْر ماءٌ يَسيلَ مِقْدار عشرة أَذْرُع ، وقد نَبَتَ منه شيءٌ كالطُّحْلَب ، فلا يَبْرَح لَمَعانُ الماء على تلك الخُضْرَة أبدًا صَيْفًا وشتاءً ، لا يَنْقَطِع ولا يَصِل إلى الأرضِ منه شيءٌ [2] .

وبعَيْن شمْس نَبْتٌ يُزْرع كالقُضْبان يُسَمَّى « البَلْسَم » ، يُتَّخَذ منه دُهْن البَلَسان ، لا يُعْرف بمكانٍ من الأرض إلَّا هناك ، وتُؤْكل لحَى هذه القُضْبان فيكون له طَعْمٌ ، وفيه حَرارَة وحَرافَة لَذيذَة[b] [3] .

وبناحية المَطَرِيَّة ، من حاضِرَة عَيْن شَمْس ، البَلَسان ، وهو شَجَرٌ قِصارٌ يُسْقَى من ماء بِئْرٍ هناك ، وهذه البِئْرُ تُعَظِّمُها النَّصارَىٰ ، وتَقْصِدها وتَغْتَسِل بمائِها وتَسْتَشْفي به .

ويَخْرُج لاعْتِصار البَلَسان ـ أوان إدْراكه ـ من قِبَل السُّلْطان من يَتَوَلَّى ذلك ويَحْفَظُه ، ويُحْمَل إلى الخزانَة السُّلْطانِيَّة ، ثم يُنْقَل منه إلى قِلاع الشَّام والمارِسْتانات لمُعالَجَة المَبْرُودين ، ولا يُؤْخَذ منه شيءٌ إلَّا من خِزانَة السُّلْطان ، بعد أَخْذ مَرْسُوم بذلك .

ولمُلوك النَّصارَىٰ ـ من الحَبَشَة والرُّوم والفرنْج ـ فيه غُلُوٌّ عَظيم ، وهم يَتَهادَوْنَه من صاحِب مصر ، ويَرَوْن أنَّهم لا يَصِحُّ عندهم لأَحَدٍ أن يَتَنَصَّر إلَّا أن يَنْغَمِس في ماءِ المَعْمودِيَّة ويَعْتَقدون أنَّه

---

a) زيادة من تحفة الألباب . b) هذه الفقرة توجد في الأصل بين نص ابن خرداذبه ونص تحفة الألباب .

---

[1] ابن خرداذبه : المسالك والممالك ١٦١.

[2] أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٣- ٧٤.

[3] عن دُهْن البَلَسان راجع ، ابن حوقل : صورة الأرض ١٦١- ١٦٢؛ المقدسي : أحسن التقاسيم ٢٠٩؛ عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٢٣- ٢٥؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١٣، ٦٨، القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ١٨١، ٣: ٢٨٧؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٤٣؛ الحسن الوزان : وصف إفريقيا ٥٨٨؛ وفيما تقدم ٧٤ .

لابُدّ أن يكون في ماءِ المَعْمُودِيَّة شيءٌ من دُهْن البَلَسان ، ويُسَمُّونه الميرونَ [١] .

وكان في القَديم إذا وَصَلَ من الشَّام خَبَرٌ انتهى إلى صاحِب عَيْنُ شَمْس ، ثم يَرِد من عَيْنُ شَمْس إلى الحِصْن الذي عُرِفَ بقَصْر الشَّمْع حيث الآن مَدينَة مِصْر ، ثم يَرِد من الحِصْن إلى مَدينَة مَنْف حيث كانت مَنْفُ تحت المُلك .

وسَبَبُ تَعْظيم النَّصارَىٰ لدُهْن البَلَسان ما ذَكَرَه في كتاب « السُّنَكْسار » [٢] ـ وهو يَشْتَمِل على أخْبار النَّصارَىٰ ـ أنَّ المَسيحَ لمَّا خَرَجَت به أُمُّه ، ومَعَهُما يُوسُف النَّجّار ، من بَيْت المَقْدِس ، فِرارًا من هِيرودُس ملك اليَهُود ، نَزلت به أوَّل مَوْضِعٍ من أرض مصر مَدينَة بَسْطَة في رابع عشري بَشَنْس ، فلم يَقْبَلْهم أهلُها ، فنزلوا بظاهِرها ، وأقامُوا أيَّامًا ؛ ثم سارُوا إلى مَدينَة سَمَنُّود ، وعَدَّوا النِّيل إلى الغَرْبيَّة ، ومَشَوْا إلى مَدينَة الأُشْمُونَيْن ، وكان بأعلاها إذْ ذاك شَكْلُ فَرَسٍ من نُحَاس قائِم على أربعة أعْمِدَة ، فإذا قَدِمَ إليها غريبٌ صَهَل ، فجاءُوا ونَظَروا في أمْر القادِم ، فعندما وَصَلَت مَرْيَمُ بالمَسيح ـ عليه السَّلام ـ إلى المَدينَة سَقَطَ الفَرَسُ المذكور وتَكَسَّر / ، فدَخَلَت به أُمُّه . ٢٣١:

وظَهَرَت له ـ عليه السَّلام ـ في الأُشمونَيْن آيَةٌ ، وهو أنَّ خَمْسَة جِمال مُحَمَّلَة زَحَمَتْهم[a] في مُرورِهم ، فصَرَخ فيها المَسيحُ في الأُشْمُونَيْن ، فصارَت حِجارَة .

ثم إنَّهم سَارُوا من الأُشْمُونَيْن ، وأقامُوا بقَرْيَة تُسَمَّى فيكُس[b] مُدَّةَ أيَّام ، ثم مَضَوا إلى مَدينَة تُسَمَّى قس قام[c] ـ وهي التي يُقالُ لها اليوم القُوصِيَّة ـ فنَطَق الشَّيْطانُ من أجْوافِ الأصْنَام التي بها ، وقال : إنَّ امْرَأة أتَت ومعها وَلَدُها يُريدون أن يُخَرِّبوا بيوتَ مَعابِدِكم ؛ فخرَج إليهم مائة رَجُل بسِلاحِهِم ، وطَرَدُوهم عن المَدينَة .

فمَضَوا إلى ناحِية مير[d] في غَرْبيّ القُوصِيَّة ، ونَزَلوا في المَوْضِع الذي يُعْرف اليوم بدَيْر المُحَرَّق ، وأقامُوا به ستة أشهر وأيامًا ، فرأى يُوسُف النَّجّار في مَنامِه قائلًا يُخْبره بمَوْت هِيرودُس ، ويأْمُره أن

---

a) بولاق : زاحمتهم . b) بولاق : فيلس . c) الأصل وبولاق : قس وقام ، والمثبت هو الاسم القبطي للمدينة . d) بولاق : ميرة .

---

[١] نقلًا عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٦٨ .

[٢] عن كتاب السُّنِكْسار ، وهو عبارة عن قائمة أسماء القديسين المستخدمة في الكنيسة القبطية ، انظر *The Coptic Encyclopedia* art. *Synaxarion* VII, pp. 2171-90، وتوجد له نشرة عربية في جزءين أعدها عبد المسيح ميخائيل وأرمانيوس حبشي ، القاهرة ١٩٣٥-١٩٣٧.

يَرْجِع بالمَسيح إلى القَدْسِ. فعادُوا من مِير[a] حتى نَزَلوا حيث المَوْضِع الذي يُعْرَف اليوم في مَدينَة مصر بقَصْر الشَّمْع، وأقامُوا بمَغارَة تُعْرف اليوم بكَنيسَة بوسِرْجَة[1].

ثم خَرَجُوا منها إلى عَيْنِ شَمْس، فاسْتَراحُوا هناك بجوار ماءٍ، فغَسَلَت مَرْيَمُ من ذلك الماء ثِيابَ المَسيح وقد اتَّسَخَت، وصَبَّتْ غُسالَتها بتلك الأراضي، فأَنْبَتَ الله هنالك البَلَسان، وكان إذْ ذاك بالأُرْدُن، فانْقَطَع من هُناك وبَقِي بهذه الأرْض[2]. وعَمَرَت[b] هذه البِئْر، التي هي الآن مَوْجودَة هناك، على ذلك الماء الذي غَسَلَت منه مَرْيَم.

وبَلَغَني أنَّها إلى الآن إذا اعْتُبِرَت يُوجد ماؤُها عَيْنًا جارِيَة في أسْفَلها؛ فهذا سَبَبُ تَعْظيم النَّصارَىٰ لهذه البِئْر وللبَلَسان، فإنَّه إنَّما يُسْقَى[c] منها، والله أَعْلَم.

المَنْصُورَة

هذه البَلْدَةُ على رأْس بَحْر أُشْموم[3]، تجاه ناحية طَلْخا، بَناها السُّلْطَانُ الملكُ الكامِلُ ناصِرُ الدِّين محمد بن الملك العادِل أبي بَكْر بن أيُّوب، في سنة ستّ عشرة وستّ مائة، عندما مَلَك الفِرِنْجُ مَدينةَ دِمْياط[4]. فنَزَل في مَوْضِع هذه البَلْدَة وخَيَّم به، وبَنَى قَصْرًا لسُكْناه، وأَمَر مَنْ معَه من الأُمَراء والعَساكِر بالبِناءِ، فبُنِيَ هناك عِدَّةُ دُور، ونُصِبَتِ الأَسْوَاقُ، وأَدار عليها سورًا ممَّا يلي البَحْر، وسَتَرَه بالآلات الحربية والسَّتائِر. وسَمَّى[d] هذه المَنْزِلَة المَدينَة المَنْصُورَة، ولم يَزَل بها حتى

a) بولاق: ميرة. b) بولاق: غمرت. c) بولاق: سقي. d) بولاق: وتسمى.

[1] انظر عنها فيما يلي ٢: ٥١١.

[2] Le Synaxaire arabe Jacobite, texte arabe publié, traduit et annoté par René Basset, *Patr. Or.* XVI (1922), pp. 407-10.

[3] بحر أشموم هو المعروف الآن بالبحر الصغير. (علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٥: ٨٨).

[4] مدينة المنصورة بناها الملك الكامل محمد عند هجوم الفرنج على مصر سنة ٦١٦ عند مفرق البحرين الآخذ أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشمون طناح ومصبه في بحيرة تنيس، وهي اليوم قاعدة محافظة الدقهلية وتقع على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط (ياقوت: معجم البلدان ٥: ٢١٢، وهو أول الجغرافيين العرب الذين ذكروا هذه المدينة؛ ابن واصل: مفرج الكروب ٤: ٣٣؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٧١؛ المقريزي: السلوك ١: ٢٠١-٢٠٢؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٥: ٨٨-٩٣؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١/٢: ٢١٥-٢١٧؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, p. 198; Halm, H., *EI*² art. (*al-Mansûra* VI, pp. 425-26).

اسْتَرْجَع مَدينَة دِمْياط ـ كما تقدَّم ذكره عند ذِكْر مَدينَة دِمْياط من كتابِنا هذا ـ فصارَت مَدينَةً كبيرةً، بها الحَمَّامات والفَنادِق والأَسْواق [١].

ولمَّا استَنْقَذَ الملكُ الكامِلُ دِمْياط من الفِرِنْج، ورَحَلَ الفِرِنْجُ إلى بلادهم، جَلَس بقصره في المنصورة وبين يَدَيْه إخْوَته: الملك المعظم عيسىٰ صاحب دمشق، والملك الأَشْرَف مُوسَى صاحِب بلاد الشَّرْق، وغيرهما من أهله وخَواصِّه، فأَمَر الملكُ الأَشْرَف جارِيَتَه [٢] فغَنَّت على عُودِها [٣]:

[الطويل]

ولمَّا طَغَى فِرْعَوْنُ عَكَّا وقَوْمُه … وجاءَ إلى مصرٍ ليُفْسِدَ في الأَرْضِ
أَتَى نَحْوَهم مُوَسىٰ وفي يَده العَصَا … فأَغْرَقَهم في اليَمّ بَعْضًا على بَعْضِ

فطَرِبَ الأَشْرَفُ، وقال لها: «باللهِ كَرِّري»؛ فشَقَّ ذلك على الملكِ الكامِلِ وأَسْكَتَها، وقال لجاريته: «غَنِّي أنت»، فأَخَذت العُودَ وغَنَّت:

[الطويل]

أيا أَهْلَ دِينِ الكُفْرِ قُومُوا لتَنْظُرُوا … لِما قد جَرَى في وَقْتِنا وتَجَدَّدا
أَعُبَّاد عيسَىٰ إنَّ عيسَىٰ وقَوْمَه [a] … ومُوَسىٰ جَميعًا يَنْصُران مُحَمَّدا

وهذا البَيْتُ من قَصيدَة لشَرَف الدين بن حَبَّارَة أَوَّلها:

«أَبَى الوَجْدُ إلَّا أن أَبِيتُ مُسَهَّدًا» [b]

فأَعْجَبَ ذلك الملكَ الكامِلَ، وأَمَرَ لكلٍّ من الجاريَتَيْن بخمس مائة دينار.

فنَهَض القاضي الصَّدْرُ الأَجَلُّ الرَّئيس هِبَةُ الله بن مَحاسِن قاضي غَزَّة ـ وكان من جُمْلَة الجُلَساء ـ على قَدَمَيْه، وأَنْشَدَ يقول:

[الطويل]

هَنيئًا فإنَّ السَّعْدَ جاءَ مُخَلَّدًا … وقد أَنْجَزَ الرَّحْمَن بالنَّصْر مَوْعِدَا
حَبانَا إلهُ الخَلْق فَتْحًا لَنا بَدَا … مُبينًا وإِنْعامًا وعِزًّا مُؤَبَّدا
تَهَلَّلَ وَجْهُ الأَرْض بعد قُطُوبه … وأَصْبَحَ وَجْهُ الشِّرْك بالظُّلْم أَسْوَدَا

---

a) بولاق: وحزبه. b) هذه العبارة في هامش الأصل.

---

[١] انظر فيما تقدم ٥٨٨- ٥٩٤.

[٢] اسمها ست الفخر بنت التاج (ابن واصل: مفرج الكروب ٤: ١٠٥).

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب ٤: ١٠٥.

ولمَّا طَغَى البَحْرُ الخِضَمُّ بأَهْلِه الطُّغاةِ وأَضْحَى بالمَراكِب مُزْبِدا
أقامَ لهَذا الدِّين مَنْ سَلَّ عَزْمُه صَقيلًا كَما سَلَّ الحُسَامَ المُهَنَّدا
فلَمْ يَنْجِ إلَّا كُلّ شِلْوٍ مُجَدَّل ثَوَى منهمُ أو مَنْ تَراه مُقَيَّدا
ونادَى لِسانُ الكَوْن في الأَرْض رافِعًا عَقيرَتَه في الخافِقَيْن ومُنْشِدَا
أَعُبَّادَ عِيسَى إنَّ عِيسَى وحِزْبَه ومُوسَى جَميعًا يَنْصُران مُحَمَّدا

فكانَت هذه اللَّيْلَةُ بالمَنْصُورَة من أَحْسَن لَيْلَة مَرَّت لِمَلِك من المُلوك [1].

وكان عند إنْشادِه يُشير، إذا قال عيسَىٰ، إلى / عيسىٰ المُعَظَّم، وإذا قال مُوسَىٰ، إلى مُوسَىٰ الأَشْرَف، وإذا قال مُحمدًا، إلى السُّلْطان الملك الكامِل. وقد قيل إنَّ الذي أَنْشَدَ هذه الأَبْيات إنَّما هو راجِحُ الحِلِّي[a] الشَّاعِر [2].

العَبَّاسَة

هذه القَرْيَةُ فيما بين بِلْبَيْس والصَّالِحِيَّة من أرْض السَّدير، ولم تَزَل[b] مُتَنَزَّهًا لملوك مصر، وبها وُلد العَبَّاس بن أحمد بن طُولون فسَمَّاه لذلك أبوه العَبَّاس، ووُلِدَ بها أيضًا الملكُ الأَمْجَد تَقِيّ الدين عَبَّاس بن العادِل أبي بَكْر بن أَيُّوب.

وكان الملكُ الكامِلُ محمد بن العادِل يُقيم بها كثيرًا، ويقول: هذه قِفْل[c] مصر؛ إذا أَقَمْتُ بها أَصْطادُ الطَّيْرَ من السَّمَاء، والسَّمَك من الماء، والوَحْشَ من الفَضَاء، ويَصِل الخُبْزُ من قَلْعَة الجَبَل إليَّ بها في قَلْعَتي، وهو سُخْن. وبَنَى بها آدُرًا ومَناظِرَ وبَساتين، وبَنَى أُمَراؤه بها أيضًا عِدَّة مَساكِن في البَساتين.

ولم تَزَل العَبَّاسَةُ على ذلك، حتى أَنْشَأَ الملكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أَيُّوب بن الكامِل المَنْزِلَة الصَّالِحِيَّة، فتلاشَى حينئذٍ أَمْرُ العَبَّاسَة، وخَرِبَت المَناظِر في سَلْطَنة الملك المُعِزّ أَيْبَك [3].

---

a) بولاق: المحلي. b) بولاق: لم يزل. c) بولاق: تعلو.

---

[1] المقريزي: السلوك ١:٢٠٩-٢١٠.

[2] شرف الدين أبو الوفاء راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الأسدي الحلي الشاعر المتوفى بدمشق سنة ٦٢٧هـ (الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤:٥٣-٥٨).

[3] فيما تقدم ٥٠٠.

فلمَّا كانت سَلْطَنَةُ الملك الظَّاهِر رُكْن الدين بَيْبَرْس، مَرَّ على السَّدير - وهو فَمُ الوادِي - فأُعْجِبَ به، وبَنَى في مَوْضِع اخْتارَه، منه قَرْيَة سَمَّاها «الظَّاهِرِيَّة»، وأَنْشأ بها جامِعًا، وذلك في سنة ستٍّ وستين وستّ مائة [١].

وسُمِّيَت بالعَبَّاسَة بنت أحمد بن طُولون، فإنَّها خَرَجت إلى هذا المَوْضِع مُوَدِّعَةً لبِنْت أخيها قَطْر النَّدَى بنت خُمارَوَيْه بن أحمد بن طُولون، لمَّا حُمِلَت إلى المُعْتَضِد، وضَرَبَت هناك فَساطِيطَها، ثم بُنِيَت[a] قريةً فسُمِّيَت باسْمِها [٢].

ذكر مدينة قفط بصعيد مصر

هذه المَدِينَةُ بصعيد مصر عُرِفَت[b] بقُفْطرِيم بن قُبْطِيم بن مِصْرايم بن بَيْصَر بن حام بن نُوح عليه السَّلام. وكانت في الدَّهْر الأوَّل مَدينَةَ الإقْليم، وإنَّما بَدَأ خَرابُها بعد الأربع مائة من تاريخ الهِجْرَة النبوية[c]. وآخِرُ ما كان فيها - بعد السَّبْع مائة من سِني الهجرة - أرْبَعون مَسْبَكًا للسكر، وسِت مَعاصِر للقَصَب [٣].

ويُقالُ كان فيها قِبابٌ بأعالي دُورِها، تكون[d] إشارَة من مَلك من أهلها عشرة آلاف دينار، أن يَجْعَل في دارِه قُبَّةً. و بالقُرْب منها مَعْدِن الزُّمُرُّد، ولم يَبْطُل إلَّا من قَريب.

قفْطريم[e] ولي المُلْك بعد أبيه قُبْطيم. قال ابنُ وُصيف شاه: كان أَكْبَر وَلَد أبيه، وكان جَبَّارا عَظيمَ الخَلْق، وهو الذي وَضَعَ أساسات الأهْرام الدَّهْشورية وغيرها، وهو الذي بَنَى مَدينَة دَنْدَرَة

---

a) بولاق: بنت. b) بولاق: المدينة تعرف. c) الأصل: الهجرة. d) بولاق: وكانت. e) بولاق: فإن قفطريم.

---

[١] انظر تفصيل ذلك عند ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٢٩١.

[٢] هذه رواية ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤: ٧٥.

[٣] قِفْط (قُفْط، قَفْط)، مدينة قديمة في صعيد مصر، في المنطقة التي يقترب فيها مجرى النهر أكثر ما يكون من شاطئ البحر الأحمر، على نحو ٤٠ كيلومترًا شمال الأقصر وعلى بعد كيلومترين شرقي النيل، وهي تتبع اليوم مركز قنا بمحافظة قنا (البكري: جغرافية مصر ٨٣؛ مجهول: الاستبصار ٨٧؛ ياقوت: معجم البلدان ٤: ٣٨٣؛ ابن جبير: الرحلة ٤٠؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣٢-٣٣؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٤: ١٠٤-١٠٥؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٤: ١٧٧-١٧٨؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 148; Garcin, J.C., *EI*[2] art. *Kift*. V, p. 101).

ومَدينَة الأصْنام ، وهَلَكَت عادٌ بالرِّيح في آخر أيَّامه ؛ وأثارَ من المَعادِن ما لم يُثِرْه غيرُه ، وكان يَتَّخِذ من الذَّهَب مثل حَجَر الرَّحَى ، ومن الزَّبَرْجَد مثل الأُسْطوانَة ، ومن الأسْباذْشْم في صَحراء الغَرْب كالقلَّة . وعَمِلَ من العَجائِب شيئًا كثيرًا ، وبَنَى منارًا عاليًا على جَبل قِفْط يُرَى منه البَحْر الشرقيّ ، ووَجد هناك مَعْدَن زِئْبَق فعَمِلَ منه تِمْثالًا كالعَمُود لا يَنْحَلّ ولا يَذُوبُ . وعَمِل البِرْكَة التي سَمَّاها صَيَّادَة الطَّيْر ، إذا مَرَّ عليها طائِرٌ سَقَطَ فيها ، ولم يَقْدِر على الحَرَكَة حتى يُؤْخَذ . وهذه البِرْكَة يُقال إنَّها هناك إلى الآن ، وأمَّا المَنارُ فسَقَط .

وعَمِلَ عَجائِبَ كَثيرَة . وفي أيَّامه أثار عِبادَة الأصْنَام التي كان الطُّوفان غَرَّقَها ، وزَيَّنَ الشَّيْطانُ أَمْرَها وعِبادَتها ؛ ويُقالُ إنَّه بَنَى المَدائِن الدَّاخِلَة وعمل فيها عَجائِب .

وبَنَى غَرْبِيّ النِّيل وخَلْفَ الوَاحات الدَّاخِلة ، مُدُنًا عَمِلَ فيها عَجائِبَ كثيرة ، ووَكَّل بها الرُّوحانيين الذين يَمْنَعون منها ، فما يَسْتَطيع أَحَدٌ أن يَدْنُو إليها ولا يَدْخُلَها إلَّا أن يعمل قَرَابِين لأُولئك الرُّوحانيين .

وأقامَ قُفطريم مَلكًا أربع مائة وثمانين سنة ، وأكثر العَجائب عُمِلَت في وَقْتِه ووَقْت ابنه البُودسير . ولذلك كان الصَّعيدُ أكثر عَجائِب من أَسْفَل الأرض[a]، لأنَّ حَيِّزَ قُفْطريم فيه .

ولمَّا حَضَرت[b] قُفْطَرِيم الوَفاة ، عُمِلَ له[c] ناوِوس في الجَبَل الغَرْبي قُرْب مَدينَة الكُهَّان ، في سَرَب تحت الأرض مَعْقُود على أَزَج إلى الأرض ، ونَقَر تحت الجَبل دارًا واسِعَة ، وجَعَل دُورَها خَزائِن مَنْقورَة ، وفي سَقْفها مَسارِب للرِّياح ، وبَلَّط السَّرَب وجَميع الدار بالمَرْمَر ؛ وجَعَل في وَسَط الدار مَجْلِسًا على ثمانية أرْكان ، مُصَفَّحًا بالزُّجاج الملوَّن المَسْبوك ، وجَعَلَ في سَقْفه جَواهِرَ تُسْرَج ، وجَعَلَ في كلِّ رُكْن من أرْكان المجْلس تِمثالًا من الذَّهب بيده كالبُوق الذي يُبوق به ؛ وتحت القُبَّة دِكَّة مُصَفَّحة بذَهَب ، ولها حَواف من زَبَرْجَد ، وفَوْق الدُّكَّة فَرْشٌ من حَرير ، وجُعِلَ عليها جَسَدُه بعد أن لُطِّخ بالأدوية المجَفِّفة ، ووُضِعَ في جانِبه آلات كافُور ، وسُدِلَت عليه ثِيابٌ مَنْسوجَة بالذَّهب ، ووَجْهُه مَكْشُوف ،وعلى رأْسه تاجٌ مكلَّل ، وعن جَوانِب الدُّكَّة أربعة تَماثيل مُجَوَّفات من زُجاج مَسْبوك ، في صُوَرِ النساء بأيديهن مراوح من ذهب ، وعلى صَدْره من فَوْق الثِّياب سَيفٌ فاخِرٌ قائِمَتُه من زَبَرْجَد .

وجُعلَ في تلك الخَزائِن من الذَّخائِر وسَبائِك الذَّهَب والتِّيجان والجَوْهَر وبَراني الحِكَم وأصْناف العَقاقير والطِّلَّسْمات ومَصاحِف العُلُوم ما لا يُحْصَى كَثْرَة .

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : حضر . c) زيادة من النويري .

٢٣٣: وجَعَل / على باب المَجْلس ديكًا من ذَهَب ، على قاعِدَة من زُجاج أَخْضَر ، مَنْشُور الجَناحَيْن ، مَزْبورًا عليه آياتٌ مانِعَة .

وجَعَلَ على مَدْخَل كلّ[a] أزَج صورتَيْن من نُحاس بأَيْديهما سَيْفان ، و قُدّامهما بَلاطَة تحتها لَوالِب من وَطِئَها ضَرَباه بأسْيافِهما فقَتَلاه ، وفي سَقْف كلّ أزَج كُرَة ، وعليها لُطُوخ مدبَّر ، يُسْرج فيَتِقد طولَ الزّمان .

وسُدَّ باب الأَزَج بالأَساطِين المُرَصَّصَة ، ورَصوا على سَقْفِه البَلاط العِظام ، ورَدَمُوا فوقَها الرِّمال ، وزَبَروا على باب الأَزَج :

« هذا المَدْخَلُ إلى جَسَد الملك المُعَظَّم ، المَهيب الكَريم الشَّديد قُفْطريم ، ذي الأَيْد والفَخْر والغَلَبَة والقَهْر ، أَفَل نَجْمُه ، وبقي ذِكْرُه وعِلْمُه ، فلا يَصلُ أَحَدٌ إليه ، ولا يَقْدِر بحيلةٍ عليه ، وذلك لسبع مائة وسبعين ودَوْرات مَضَت من السِّنين »[1] .

وقال المَسْعُوديُّ : ومَعْدِنُ الزُّمُرُّد في عَمَل الصَّعيد الأَعْلى من أعمال[b] مَدينَة قِفْط ، ومنها يُخْرَج إلى هذا المَعْدِن ، والمَوْضِعُ الذي هو فيه يُعْرَف بالخَرْبَة ، وهي مفازَة[c] وجبال ، والبُجَة تَحْمي هذا المكان المعروف بالخَرْبَة ، وإليها يُؤَدّي الخِفارات من يَرِد إلى حَفْر الزُّمُرُّد[2] .

ووَجَدتُ جَماعَةً من صَعيد مصر من ذَوي الدِّرايَة ـ ممَّن اتَّصلَت مَعْرِفتُه بهذا المَعْدن ، وعَرَفَ هذا النَّوْع من الجَوْهَر ـ يخبرون أنَّه يَكْثُر ويَقلّ في فُصول السَّنَة ، فيَكْثُر في قُوَّة من[b] مواد الهَواء وهُبُوب نَوْع من الرِّياح الأَرْبع ، وتَقْوَى الخُضْرة فيه والشُّعاع النّوري في أَوائِل الشهر ، والزِّيادَة في نُور القَمَر .

وبَيْنَ المَوْضِع المعروف بالخَرْبَة الذي فيه مَعْدِن الزُّمُرُّد ، وبين ما اتَّصَل من العِمارَة وقَرُبَ منه من الدِّيار ، مَسيرَة سبعة أيّام . وهي قِفْط وقُوص وغيرهما من صَعيد مصر ، وقُوص راكِبَة النِّيل . وبين النِّيل وقِفْط نحو من مِيلَيْن .

ولِمَدينَتَيْ قِفْط وقُوص أَخْبارٌ عَجيبَةٌ في بَدْء عمارتهما ، وما كان في أيّام القِبْط من أَخْبارِهما ، إلّا أنَّ مَدينَة قِفْط في هذا الوَقْت مُتداعِيَة للخَراب ، وقُوص أَعْمَر ، والنّاسُ فيها أَكْثَر[3] .

---

a) بولاق : كل مدخل .   b) ساقطة من بولاق .   c) مروج : مفاوز .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ :٤٦- ٤٩؛ وفيما يلي ٦٣٤.
[2] المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٣٢.
[3] نفسه ٢ : ١٣٥.

وكان بِقِفْط بِرْبا مُوكَل بها رُوحانيٌّ في صورَة جارِية سَوْداء تَحْمِل صَبِيًّا أَسْوَد صغيرًا ، حُكِي أنَّها رُئِيت بها مِرارًا .

ومَعْدِنُ الزُّمُرُّد[1] في البَرّ المُتَّصل بأُسْوان ، وكان له ديوانٌ فيه شُهودٌ وكُتَّابٌ ، ويُنْفَق على العمال به ، وتُنالُ لهم المؤَن لحَفْره ، واسْتِخْراج الزُّمُرُّد منه . وهو في جِبال مُرَمَّلة يُحْفَر فيه ، وربَّما سَقَطَ على الجماعَة به فماتوا . وكان يُجْمَع ما يَخْرُج منه ، ويُحْمَل إلى الفُسْطاط ، ومنه يُحْمَل إلى البلاد[2].

وقد كان الناسُ يَسيرون من قُوص إلى مَعْدِن الزُّمُرُّد في ثمانية أيَّام بالسَّيْر المُعْتَدِل ، وكانت البُجَاة تَنْزل حَوْلَه وقَريبًا منه لأَجْل القِيام بحَفْره وحِفْظه . وهذا المَعْدِنُ في الجَبَل الآخِذ على شَرْقي النِّيل ، في بَحْري قِطْعَةٍ عظيمةٍ من هذا الجَبَل تسمَّى أَقْرَشَنْدَة ، وليس هناك من الجِبال أَعْلى منها ، وهو في مُنْقَطَع من البَرّ لا عِمارة عنده ولا حَوْلَه ولا قريبًا منه ، والماءُ عنه مَسيرَة نصف يوم أو أَزْيَد ، وهو ما يَتَحَصَّل من المَطَر ، ويُعْرَف بغَدير أَعْيَن ، يكثُر بكَثْرَة المَطَر ويَقلّ بقلّته .

وهذا المَعْدن في صَدْر مَغارَة[a] طَويلَة في حَجَر أبيض يُسْتَخْرَج منه الزُّمُرُّد ، وهذا الحَجَر الأبيض ثلاثة أنواع : أَحَدُها يُقالُ له طَلْق كافُوري ، والثاني يُقال له طَلْق فِضّي ، والثالث يقال له حَجَر جَرَوي . ويُضْرَب في هذه الحِجارَة حتى يَخْرُج الزُّمُرُّد ، وهو كالعُروق[b] فيه .

وأنواعُه الذّبابي[c] ، وهو أَقلُّ من القَليل ، لا يَخْرُج إلَّا في النَّادِر ، وإذا اسْتُخْرِج أُلْقِيَ في الزَّيْت الحار ، ثم يُحَطّ في قُطْن ، ويُصَرّ ذلك القُطْن في خِرْقَة خام[d] أو نَحْوها . وكان الاحْتِرازُ على هذا المَعْدِن كثيرًا جدًّا ، ويُفَتَّش الفَعَلَة عند الخُروج منه كلّ يوم حتى تُفَتَّش عَوْراتُهم ، ومع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم في ذلك[3].

---

a) بولاق : مفازة . b) الأصل وبولاق : كالغريق . c) بولاق : الرباني . d) بولاق : خرق وفي مسالك الأبصار خرق كتان .

---

[1] عن هذا المعدن ومواضعه في مصر راجع ، المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٣٢ – ١٣٦؛ التيفاشي : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ٧٨ – ٩١، ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١١ – ١٣؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ١٠٧ – ١١٠، ٣ : ٢٨٢ – ٢٨٣؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٣٣٢.

[2] نقلًا عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٦٧.

[3] نقلًا عن مسالك الأبصار ١١–١٣ وقارن مع القلقشندي : صبح ٢ : ١٠٨ – ١٠٩.

ولم يَزل هذا المَعْدِن يُستَخْرَج منه الزُّمُرُّد ، إلى أن أَبْطَلَ العَمَل منه الوَزيرُ الصَّاحِب عَلَمُ الدين عبد الله بن زُنْبور ، في أيَّام المَلِك النَّاصِر حَسَن بن محمد بن قَلاوون ، في سنة بضع وستين وسبع مائة .

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة ، كانت فِتْنَةٌ كبيرةٌ بمَدينَة قِفْط ، سَبَبُها أنَّ داعِيًا من بَني عَبْد القَوي ادَّعَى أنَّه دَاود بن العَاضِد ، فاجْتَمَع الناسُ عليه ، فبَعَثَ السُّلْطانُ صَلاحُ الدِّين يُوسُف ابن أيُّوب أخاه الملكَ العادِلَ أبا بَكْر بن أيُّوب على جَيْشٍ ، فقَتَلَ من أَهْل قِفْط نحو ثلاثة آلاف ، وصَلَبَهم على شَجَرِها ظاهِرَ قِفْط بعَمائِمهم وطَيالِسَتهم .

ذِكْرُ مَدينَة دَنْدَرَة[1]

أَحَد[a] مُدُن الصَّعيد الأَعْلَى القَديمَة ، بناها قُفْطريم بن مِصْرايم بن بَيْصر بن حام بن نُوح ـ عليه السَّلام ـ وكان فيها بِرْبَا عَظيمَة فيها مائة وثمانون كُوَّة تَدْخُل الشَّمْسُ في كلِّ يوم من كُوَّة حتى تأتي على آخِرِها ، ثم تَكُرّ راجِعَةً إلى حَيْث بَدَأَت . وكانت رُوحانيتها المُوكَّلَة بها تَظْهر في هَيْئَة إنْسان له رَأْسُ أَسَد بقَرْنَيْن .

وكان بها أيضًا شَجَرَةٌ ـ تُعْرَف بشَجَرَة العَبَّاس ـ متوسِّطة ، وأوْراقُها خُضْر مُسْتَديرة ، إذا قال الإنسانُ عندها : يا شَجَرَة العَبَّاس جاءَكَ الفاس ، تَجْتَمِع أوْراقُها وتَحْتَرق[b] لوَقْتها ثم تَعُود كما كانت .

وبين دَنْدَرَة وبين قُوص بَريدٌ واحِد . وكانت بِرْبا دَنْدَرة أَعْظَم من بِرْبا إخْميم[2] .

---

a) بولاق : هي إحدى. b) بولاق : وتحزن .

---

[1] دَنْدَرَة . من المدن القديمة بصعيد مصر تقع غربي النيل دون قوص ، وقد خربت مدينة دَنْدَرَة القديمة التي كانت تقع بجوار حاجر الجبل الغربي ولم يبق منها إلَّا أطلالها ومعبد هاتور ، وتقع في الجنوب الشرقي لبلدة دندرة الحالية التي أنشأها العرب على النيل في شاطئه الغربي غربي مدينة قِنا . وهي الآن تابعة لمركز قنا بمحافظة قنا . (ابن جبير : الرحلة ٤٠؛ ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٤٧٧ – ٤٧٨؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٠ : ٦٠ – ٦٥؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٤ : ١٧٦).

[2] نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٠.

/ ذكر الواحات الداخلة

الواحاتُ مُنْقَطِعَة وَرَاء الوَجْه القِبْلي في مَغارِبه، ولا تُعَدّ في الوِلايات ولا في الأَعْمَال، ولا يَحْكُم عليها من قِبل السُّلْطان والٍ، وإنَّما يُحْكم عليها من قِبَل مُقْطَعِها.

وبلادُ الوَاحات، بين مِصْر والإسْكَنْدَرية والصَّعيد والنُّوبَة والحَبَشَة، بَعْضُها داخِل ببعض. وهو بَلَدٌ قائِمٌ بنفسه غير مُتَّصل بغَيْره، ولا مُفْتَقر[a] إلى سِواه. وفي[b] أرْضِها شَبِّيَّة وزاجِيَّة، وعُيونٌ حامِضَة الطَّعْم تُسْتَعمل كاسْتِعمال الخَلّ، وعُيون مختلفة الطُّعُوم من الحامِض والقابِض والمِلْح. ولكلِّ نَوْع منها خاصِّية ومَنْفَعَة، وهي على قسمين: وَاحاتٍ داخِلَة، وواحاتٍ خارِجة. جملتها أرْبع واحات.

ويُقالُ إنَّ الواحات ولد[c] حويلا بن كوش بن كَنْعان بن حام بن نُوح، وأنَّه أخو سبأ بن كوش أبو الحبش وأبو شقا بن كوش أبو زَغاوَة وأبو شَخُنْتا[d] بن كوش أبو الدُّقمدم[e].

قال ابنُ وَصيف شاه: ويُقالُ إنَّ قُفْطَريم بَنَى المَدائِن الدَّاخِلة، وعَمِلَ فيها عَجائِب: منها الماءُ [الملفوف][f] القائِم كالعَمود لا يَنْحَلّ ولا يَذُوب، والبِرْكَة التي تُسَمَّى فِلَسْطين - أي صَيَّادَة الطَّير - إذا مَرَّ عليها الطَّيْر سَقَط فيها، ولم يُمْكِنه الخُرُوج منها حتى يُؤْخَذ.

وعَمِل أيضًا عَمودًا من نُحاس عليه صُورَة طائِر، إذا قَرُبَ الأَسَدُ أو الحَيَّاتُ، أو غيرها من الأشْياء المضرَّة، من تلك المَدينَة، صَفَّرَ تَصْفيرًا عاليًا، فتَرْجع تلك الدَّواب هارِبَة.

وعَمِلَ على أربعة أبْواب هذه المَدينَة أربعة أصْنام من نُحاس، لا يَقْرَب منها غَريب إلَّا أُلْقي عليه النَّوْمُ والسُّباتُ، فيَنام عندها، ولا يَبْرَح حتى يأتيه أهلُ المَدينَة ويَنْفُخوا في وَجْهه ليَقُوم، وإن لم يَفْعَلوا ذلك لا يزال نائِمًا عند الأصْنام حتى يَهْلِك.

وعَمِلَ منارًا لَطيفًا من زُجاج مُلَوَّن، على قاعِدَة من نُحاس، وعَمِلَ على رأس المَنار صُورةَ صَنَم من أخْلاط كثيرة، وفي يده كالقَوْس كأنَّه يَرْمي عنها، فإن عايَنَه غَريبٌ وَقَف في مَوْضِعه، ولم يَبْرَح حتى يُنَحِّيه أهلُ المَدينَة. وكان ذلك الصَّنَمُ يتوجَّه إلى مَهَبّ الرِّياح الأَرْبع من نَفْسه.

---

a) بولاق: يفتقر. b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: ولدوا. d) بولاق: تسفحتا. e) بولاق: أبو الحبش الرمرم. f) زيادة من النويري.

وقيل إنَّ هذا الصَّنَم على حالِه إلى الآن ، وإنَّ الناسَ تحامَوْا تلك المَدينَة ـ على كثرة ما فيها من الكُنُوز والعَجائِب الظاهِرَة ـ خَوْفًا من ذلك الصَّنَم أن تَقَع عينُ إنسانٍ عليه ، فلا يزالُ قائِمًا حتى يَتْلَف . وكان بعضُ الملوك عَمِلَ على قَلْعِه فما أَمْكَنَه ، وهَلَكَ لذلك خَلْقٌ كثير .

ويُقالُ إنَّه عَمِل في بعض المَدائِن الدَّاخِلَة مِرْآة يُرَى فيها جميع ما يَسْأل الإنسانُ عنه .

وبَنَى غربي النِّيل ، وخَلْف الواحات الدَّاخِلَة ، مُدُنًا عَمِلَ فيها عَجائِبَ كثيرة ، ووَكَّل الرُّوحانيين بها الذين يَمْنَعون منها ، فما يستطيع أَحَدٌ أن يَدْنو إليها ولا يَدْخُلها ، أو يعمل قَرابين أولئك الرُّوحانيين ، فيَصل إليها حينئذٍ ، ويأخُذ من كُنوزِها ما أَحَبَّ من غير مَشَقَّة ولا ضَرَر [1].

وبَنَى الملكُ صَا بن أَنْسَاد ـ وقيل صَا بن مَرْقُونس ـ بداخِل الواحات مَدينَةً ، وغَرَس حولها نخلًا كثيرًا ، وكان يسكُن مَنْف ، وملك الأَحْياز كلها ، وعَمِلَ عَجائِب وطِلَّسْمات ، ورَدَّ الكَهَنَة إلى مَراتِبهم ، ونَفَى المُلْهِين وأَهْل الشَّر مِمَّن كان يصحب أنْسَاد بن مَرْقُونس ، وجَعَل على أَطْراف مصر أَصْحابَ أَخْبار يَرْفعون إليه ما يَجْري في حُدُودهم ، وعَمِلَ على غَرْبيّ النِّيل مَناير يُوقَد عليها إذا حَزَبَهم أَمْرٌ أو قَصَدَهم قاصِدٌ .

وكان لمَّا مَلَكَ البَلَد بأَسْره ، جَمَع الحُكَمَاء إليه ، ونَظَر في نُجومه ـ وكان بها حاذِقًا ـ فرَأَى أنَّ بَلَده لابدّ أن تَغْرَق بالطُّوفان من نِيلها ، ورأَى أنَّها تَخْرَب على يد رَجُلٍ يأتي من ناحية الشَّام ، فجَمَع كلَّ فاعِلٍ بمصر ، وبَنَى في الْواح الأَقْصى مَدينَةً ، جَعَلَ طول حِصْنها في الارْتفاع خمسين ذراعًا ، وأَوْدَعَها جميعَ الحِكَم والأَمْوال ؛ وهي المَدينَة التي وَقَع عليها مُوسَى بن نُصَيْر في زَمَن بني أُمَيَّة لمَّا قَدِمَ من المغرب . فلمَّا دَخَلَ مصر أَخَذ على الْوَاح الأَقْصَى ـ وكان عنده عِلْمٌ منها ـ فأقامَ سبعة أيَّام يَسير في رِمال بين الغَرْب والجَنُوب ، فظَهَرَت له مَدينَةٌ عليها حِصْنٌ وأبْوابٌ من حَديد ، فلم يُمْكنه فَتْح الأَبْواب . وكان إذا صَعِد إليها الرِّجالُ ، وعَلَوا الحِصْن وأَشْرَفوا على المَدينَة ، أَلْقَوا بأَنْفُسهم فيها ، فلمَّا أَعْياه أَمْرُها مَضَى ، وهَلَكَ من أَصْحابه عِدَّة [2].

قال : وفي تلك الصَّحاري كانت مُتَنَزَّهاتُ القَوْم ومُدُنُهم العجيبة وكُنوزُهم ، إلَّا أنَّ الرِّمالَ غَلَبت عليها ، ولم يَبْق يَمْلك مَلكٌ إلَّا وقد عَمِل للرَّمل طِلَّسْمًا لدَفْعه ، ففَسَدت طِلَّسْماتها لِقِدَم الزَّمان [3].

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٤٧– ٤٨، وانظر فيما تقدم ٦٣٠.

[2] نفسه ١٥: ٨٨– ٨٩.

[3] نفسه ١٥: ٨٩.

قال : ولا يَنْبَغي لأَحَدٍ أن يُنْكِر كَثْرَة بُنْيانِهم ، ولا مَدائِنِهم ولا ما نَصَبوه من الأعْلام العِظام ، فقد كان للقَوْم بَطْشٌ لم يكن لغَيْرِهم ، وإنَّ آثارَهم لبَيِّنَة ، مثل الأهْرام والأعْلام والإسْكَنْدَرية ، وما في صَحاري الشَّرْق ، والجِبال المَنْحوتَة التي جَعَلوا كنوزَهم فيها والأَدْوية المَنْحوتَة ، ومثل ما بالصَّعيد من البَرابي وما نَقَشوه عليها من حِكْمَتهم ؛ فلو تَعاطَى جميعُ مُلوك الأرض أن يَبْنُوا مثل الهَرَمَيْن ما تَهَيَّأَ لهم ، وكذلك أن يَنْقُشوا بِرْبا لطال بهم الأَمَد ولم يمكنهم .

وحُكِي عن قَوْم من البَنّائين ، في ضِياع الغَرْب ، أنَّ عامِلًا عندهم عَنُفَ بهم ، ففَرُّوا في صَحْراء الغَرْب ومعهم زادٌ إلى أن تَنْصَلح أحْوالهم ويَرْجعوا ؛ فلمَّا كانوا على مَسيرَة يومٍ وبعض آخر ، قَدمُوا إلى سَفْح جَبَلٍ ، فوَجَدوا عَيْرًا أهْليًا قد خَرَج من بعض الشِّعاب ، فتَبِعَه بعضُهم ، فانْتَهى إلى مساكِن وأشْجار ونَخْل ومياه تَطَّرِدُ[1] ، وقَوم هناك / يَزْعون ولهم مَساكِن ، وكلَّمَهم وأُعْجب بهم . فجاءَ إلى أصحابِه ، وقَدِم بهم على أولئك القَوْم ، فسألوهم عن حَالِهم فأَخْبَروهم ، وأقامُوا عندهم حتى صَلُحَت أحْوالُهم ، وخَرَجوا ليأْتوا بأهاليهم ومَواشيهم ويُقيموا عندهم ، فسارُوا مُدَّةً وهم لا يَعْرفون الطَّريق ولا يتأتَّى لهم العَوْد ، فأَسِفُوا على ما فاتَهم .

وضَلَّ آخرون عن الطَّريق في الغَرْب ، فوَقَعُوا على مَدينَة عامِرَةٍ كثيرة النَّاس والمَواشي والنَّخْل والشَّجَر ، فأضافُوهم وأَطْعَمُوهم وسَقَوهم ، وباتُوا في طاحونَة ، فسَكِروا من الشَّراب وناموا ، فلم يَنْتَبهوا إلَّا من حَرِّ الشَّمْس ، فإذا هم في مَدينَة خَراب ليس فيها أحَدٌ ؛ فخَافوا وخَرَجوا ، وظَلُّوا يومَهم سائِرين إلى المِساء ، فظَهَرَت لهم مَدينَةٌ أكبر من الأولى وأَعْمَر ، وأكثر أهْلًا وشَجَرًا ومَواشِي ، فأَنِسوا بهم وأَخْبَرُوهم بخَبَر المَدينَة الأولى ، فجَعَلوا يَعْجَبون منهم ويَضْحَكون ، وانْطَلَقوا بهم إلى وَليمَة لبعض أَهْل المَدينَة ، فأَكَلوا وشَرِبوا وغَنُّوهم[a] حتى سَكِروا .

فلمَّا كان من الغَد انْتَبَهوا ، فإذا هم في مَدينَة عَظيمَة ليس فيها أَحَدٌ ، وحَوْلَها نَخْلٌ قد تَساقَط ثَمَرُه وتَكَدَّس . فخَرَجوا ، وهم يجدون ريحَ الشَّراب ومعاني[b] الخُمار ، فساروا يومًا إلى المساء ، وإذا راعٍ يَرْعى غَنَمًا ، فسألوه عن الطَّريق فدَلَّهم ، فسارُوا بعض يوم من الغَد ، فوَصَلوا مَدينَة الأُشْمونَيْن بالصَّعيد .

---

a) بولاق : غنوا بهم . b) بولاق : مبادي .

---

[1] تَطَّرِد : تجري .

قال : وهذه مَدائِن القَوْم الدَّاخِلَة القَديمَة قد غَلب عليها الجانُّ ، ومنها ما سَتَرَته عن العُيون ، فلا يَنْظُر إليها أَحَدٌ [1].

وقال : إنَّ البودسير بن قُفْطريم بن قُبْطيم بن بيصر بن حَام بن نُوح عليه السَّلام ، في أيَّامه بُنِيَت بصَحْراء الغَرْب مَناير ومُتَنَزَّهات ، وحَوَّلَ إليها جَماعَةً من أَهْل بيته ، فعَمَّروا تلك النَّواحي ، وبَنوا فيها حتى صارَت أرض الغَرْب عامِرَة كلّها . وأقامَت على ذلك مُدَّةً كثيرةً ، فخالَطَهم البَرْبَرُ ونَكَحُوا منهم ، ثم تَحاسَدوا ، فكانت بينهم حُروبٌ خَرِبَت فيها تلك الجِهات وبادَت ، إلَّا بقيَّة منازِل تُسَمَّى الوَاحَات .

ذِكْرُ مَدينَة سَنْتَرِيّة

ومَدينَةُ سَنْتَرِيَّة من جُمْلة الوَاحَات [2]، بَناهَا مناقيوش باني مَدينَة إخْميم ، كان أَحَدَ مُلوك القِبْط القُدَماء [3].

قال ابنُ وَصيف شَاه : وكان في حَزم أبيه وحُنْكَته ، فعَظُم في أَعْيُن أهْل مصر . وهو أوَّل من عَمِل المَيْدان ، وأمَر أصْحابَه برياضَة أَنْفُسهم فيه ، وأوَّل من عَمِلَ المارِسْتان لِعلاجِ المَرْضَى والزَّمْنَى ، وأوْدَعَه العَقاقير ، ورَتَّبَ فيه الأَطِبَّاء ، وأَجْرَى عليهم ما يَسَعهم ، وأقامَ الأُمَناء على ذلك . وصَنَعَ لنفسه عيدًا ، فكان النَّاسُ يَجْتَمعون إليه فيه ، وسمَّاه « عيد المَلِك » في يوم من السنة ، فيأْكُلون ويَشْرَبون سبعة أيام ، وهو مُشْرِف عليهم من مَجْلس على عُمُد قد طُوِّقت بالذَّهب ، وأُلْبِسَت فاخِر الثِّياب المَنْسوجَة بالذَّهب ، وعليه قُبَّة مُصَفَّحَة من داخِل بالرُّخام والزُّجاج والذَّهَب .

وفي أيَّامِه بُنِيَت سَنْتَرِيَّة في صَحْراء الواحات ، عَمِلَها من حَجَر أبيض مُرَبَّعة ، وفي كلِّ حائِط باب في وَسَطه شارِع إلى حائِط مُحاذٍ له ، وجَعَل في كلِّ شارِع يَمْنَة ويَسْرَة أبوابًا تنتهي طُرُقاتُها إلى داخِل المَدينَة ، وفي وَسَط المَدينَة مَلْعَبٌ يدور به من كلِّ ناحية سَبْع دَرَج ، وعليه قُبَّة من

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٩٠-٩١ ونصّ النويري نقلًا أيضًا عن ابن وصيف شاه ولكنه أكثر تفصيلًا .

[2] هي الواحة المعروفة اليوم بواحة سيوة عُرِفت بذلك منذ القرن العاشر الهجري ، وهي تتبع اليوم محافظة مرسى مطروح (ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٢٦١؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ١٤؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٤ : ٢٥٨) .

[3] عند ابن وصيف شاه - كما نقل عنه النويري - أن الذي بناها ابنٌ لمناقيوس بن أشمون لم يسمه إبراهيم بن القاسم الكاتب مختصر كتاب ابن وصيف شاه الذي نقل عنه النويري .

خَشَب مَذْهُون ، على عُمُدٍ عَظيمَة من رُخام ، وفي وَسَطه مَنارٌ من رُخام ، عليه صَنَمٌ من صَوَّان أسود يَدُور مع الشَّمْس بدَوَرانِها ، وبسائِر نَواحي القُبَّة صُوَرٌ مُعَلَّقة تُصَفِّر وتَصيح بلُغات مختلفة . فكان الملكُ يَجْلس على الدَّرَجة العالية من الملْعب وحَوْله بَنُوه وأقاربُه وأبْناءُ الملوك ، وعلى الدَّرَجة الثانية رُؤساءُ الكَهَنَة والوُزَراءُ ، وعلى الثالثة رُؤساءُ الجَيْش ، وعلى الرَّابِعَة الفَلاسِفَة والمُنَجِّمون والأَطِبَّاء وأرْبابُ العُلوم ، وعلى الخامِسَةُ أصْحابُ العمارات ، وعلى السَّادِسَة أصْحابُ المِهَن ، وعلى السَّابِعَة العامَّة . فيُقالُ لكلِّ صِنْف منهم : انْظُروا إلى مَنْ دونكم ولا تَنْظُروا إلى من فَوْقِكم ، فإنَّكم[a] لا تَلْحَقونهم ، وهذا ضَرْبٌ من التَّأْديب . وقَتَلَتْه امْرَأته بسكينٍ فماتَ ، وكان مُلْكه ستين سنة[1] .

وسَنْتَرِيَّة الآن بَلَدٌ صغير ، يسكُنُه نحو ستّ مائة رجل من البَرْبر يعرفون بسِيوَة ، ولُغَتُهم تُعْرف بالسيوية تَقْرُب من لُغَة زَناتَة . وبها حَدائِق نَخْل ، وأَشْجار من زَيْتُون وتِين وغير ذلك ، وكَرْم كثير . وبها الآن نحو العشرين عَيْنًا تسيح بماءٍ عَذْب . ومَسافَتُها من الإسْكَنْدَرية أَحَد عشر يومًا ، ومن جِيزَة مصر أربعة عشر يومًا .

وهي قَرْية يُصيب أَهْلَها الحُمَّى كثيرًا ، وثَمَرُها غاية في الجَوْدَة ، وتَعْبَث الجِنّ بأَهْلها كثيرًا ، وتَخْتَطِف من انْفَرَد منهم ، وتَسْمَع الناسُ بها عَزيف الجِنّ .

ذِكْرُ الواحَات الخارِجَة

بَناهَا أَحَدُ مُلوك القِبْط الأَوَّل ، ويُقالُ له البُودْسير بن قُفْطيم بن قُبْطيم بن مِصْرايم بن بَيْصَر بن حام بن نُوح عليه السَّلام .

قال ابنُ وَصيف شَاه : وأرادَ البُودْسير أن يَسيرَ مُغَرِّبًا ليَنْظُر إلى ما هُنالِك ، فوَقَعَ على أرْضٍ واسِعَة مُتَخَرِّقة / بالمِياه والعُيون كثيرة العُشْب ، فبَنَى فيها مَنايِرَ ومُتَنَزَّهات ، وأقامَ فيها جماعَة من ١ أَهْل بيته ، فعَمَّروا تلك النَّواحي وبَنَوا فيها حتى صارَت أرْضُ الغَرْبِ عِمارَةً كلّها . وأقامَت كذلك مُدَّةً كثيرةً ، وخالَطَهم البَرْبَر ، فنَكَح بعضُهم من بَعْض ، ثم إنَّهم تَحاسَدوا وبَغَى بعضُهم

---

a) ساقطة من بولاق .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥:٧٢-٧٤؛ وقارن ابن دقماق : الانتصار ٥: ١٤.

على بعض، فكانَت بينهم حُروبٌ، فخَرِب ذلك البَلَدُ وبادَ أهْلُه، إلَّا بقيَّة منازِل تسمَّى الواحات [١].

وقال المَسْعُودي: وأمَّا بلادُ الواحات فهي بين بلاد مصر والإسْكَنْدَرية وصَعيد مصر والغَرْب وأَرْض الأحابِش من النُّوبَة وغيرهم. وبها أرْضٌ شَبِّيّة وزاجِيَّة، وعُيونٌ حامِضَة وغير ذلك من الطُّعُوم. وصاحِبُ الوَاحات في وَقْتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة ـ عبدُ الملك بن مَرْوان، وهو رَجُلٌ من لَواتَه، إلَّا أنَّه مَرْواني المَذْهَب، ويَرْكَب في آلافٍ من النَّاس خَيْلا ونُجُبًا؛ وبينه وبين الأحابِش نَحْو من ستة أيام، وكذلك بَيْنَه وبين سائِر ما ذَكَرْنا من العَمائِر هذا المِقْدار من المَسافَة. وفي أَرْضِه خَواصٌ وعجائِبُ، وهو بَلَدٌ قائِمٌ بنفسه، غير مُتَّصل بغَيْره ولا مُفْتَقِر[a] إليه. ويُحْمَل من أرْضه التَّمْر والزَّبيب والعِنَّاب [٢].

وحَدَّثَني وَكيلُ أبي الشَّيخ المُعَمَّر[b] حُسام الدين عَمْرو بن محمد بن زَنْكي الشَّهْرَزوري، أنَّه سَمِع ببِلاد الوَاحات أنَّ فيها شَجَرة نارِنْج يُقْطَف منها، في سنة واحدة، أرْبَعَة عشر ألف حَبَّة نارِنْج صَفْراء، سوى ما يَتَناثَر وسوى ما هو أخْضَر. فلم أُصَدِّق ذلك لغَرابَته، وقُمْتُ حتى شاهَدتُ الشَّجَرة المذكورة، فإذا هي كأعظَمَ ما يكون من شَجَر الجُمَّيز بمصر وأكبر. وسألْتُ مُسْتَوْفي البَلَد عنها، فأحْضَر إليَّ جرائِدَ حُسْباناته، وتَصَحَّفها حتى أوْقَفَني منها في سنة كذا قُطِفَ من النَّارِنْجة الفُلانية أربعة عشر ألف حَبَّة نارِنْج مستوية صَفَراء، سوى ما بَقي عليها من الأخْضَر، وسوى ما تَناثَر منها وهو صغير [٣].

وبالواحات الشَّبُّ الأَبْيض بوادٍ تِجاه مَدينَة أُدْفو، كان في زَمَن الملك الكامِل محمد بن العادِل أبي بَكْر، وفي زِمن ابنه الصَّالِح نَجْم الدين أَيُّوب، على مُقْطَعي الواحات حَمْل ألف قِنْطار شَبّ أبيض في كلِّ سنة إلى القاهِرَة، ويُطْلَق لهم في نَظير ذلك جَوالي الوَاحات، ثم أُهْمِل هذا فبَطَل.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة، سارَ مَلِكُ النُّوبَة في جَيْشٍ عَظيم إلى الواحات، فأَوْقَع بأَهْلها وقَتَل منها وأَسَرَ كثيرًا [٤].

---

a) بولاق: يفترق. b) بولاق: المعز.

---

[١] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٩.

[٢] المسعودي: مروج الذهب ٢: ١٣٦.

[٣] ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ١١ (نقلًا عن المقريزي) وفيه أن ذلك كان سنة ٧٠١هـ.

[٤] انظر فيما تقدم ٥٣٨، وفيه أن إغارة ملك النوبة على أسوان كانت في سنة ٣٤٤هـ.

ذِكْر مدينة قُوص

اعْلَم أنَّ قُوصَ أَعْظَمَ مَدائنِ الصَّعيد ، وهي على النِّيل ، بُنِيت بعد قِفْط في أيَّام ملكٍ من مُلوك القِبْط الأُوَل يُقال له شدّات[a] بن عَديم بن البودسير بن قُفْطريم[1] . قيل سُمِّيَت باسم قُوص بن قِفْط ابن إخْميم بن سَيْفاف بن أُشْمن بن مصر[2] .

قال ابنُ وَصيف شاه : شَدّات[b] بن عَديم هو الذي بَنَى الأَهْرام الدَّهْشورية من الحِجارَة التي قُطِعَت في زمان أبيه ، وعَمِلَ مَصاحِفَ النِّيرنْجات وهَيْكَل أَرْمَنْت ، وعَمِلَ في المَدائن الداخلة من أنْصِنا هَيْكَلًا وأقامَ قُبَّة[b] في أَتْريب ، وهَيْكَلًا في شَرْقيّ الإسْكَنْدَرية ، وبَنَى في الجانِب الشَّرْقي مَدائِن ، وفي أيَّامه بُنِيتَ قُوص العالية ، وأَسْكَن فيها قومًا من أهل الحِكْمَة وأهل الصِّناعات .

وكانت الحَبَشُ والسُّودانُ قد عاثُوا في بَلَده ، فأَخْرَج لهم ابنه مِنقاوش في جَيْشٍ عَظيم ، فقَتل منهم وسَبَى ، واسْتَعْبَد الذين سَباهم وصارَ ذلك سُنَّةً لهم ، واقْتَطَعَ مَعْدِن

a) بولاق : شدان . b) بولاق : فيه .

[1] قوص . تقع على الشاطئ الشرقي للنيل على بعد نحو ٣٠ كيلومترًا شمال مدينة الأقصر في الموقع الذي يكون فيه مجرى النيل أكثر قربًا من شاطئ البحر الأحمر حيث يفصله عن القصير مائتي كيلومترًا .

وازدهرت مدينةُ قوص في النصف الثاني من العصر الفاطمي مع الإصلاحات الإدارية التي أدخلها أمير الجيوش بدر الجمالي حيث كانت عاصمة الصعيد الأعلى ، بفضل استراتيجية الفاطميين الشرقية للسيطرة على تجارة الهند عن طريق ميناء عَيْذاب على البحر الأحمر ، وأصبح منصب والي قوص هو الرتبة التي تلي رتبة الوزارة كما أصبح بها دار لضرب النقود . وحافظت قوص على مكانتها طالما كانت التجارة الكارمية في ازدهار . واعتبارًا من سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م نتيجة لجفاف أصاب المدينة أخذت تفقد قيمتها كمركز لنقل التجارة خاصة مع انهيار ميناء عَيْذاب الذي تم في القرن التاسع الهجري ، وهي اليوم إحدى مدن محافظة قنا . (البكري : جغرافية مصر ٨٢- ٨٣؛ مجهول : الاستبصار ٨٥- ٨٦؛ ابن جبير : الرحلة ٤٠- ٤١؛ ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٤١٣؛ عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ٤٨٤- ٤٨٥؛ التجيبي : مستفاد الرحلة والاغتراب ١٧٣- ١٧٥؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٨٦- ٨٧؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٢٨؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣٩٧؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٤ : ١٢٨- ١٤٠؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٤ : ١٨٧- ١٨٩؛ Maspero & Wiet, *Matériaux*, pp. 155-57; Garcin, J.C., *Un centre musulman de la Haute - Égypte médiévale : Qûs*, le Caire 1976; id., *EI*[2] art. *Kûs* V, pp. 517-19؛ وانظر كذلك فيما تقدم ٥٤٩) .

[2] الأدفوي : الطالع السعيد ١٣- ١٤ .

الذَّهب من أرْضِهم، وأقامَ ذلك السَّبْي يعملون فيه ويَحْمِلون الذَّهَب إليه.

وهو أوَّلُ من أَحَبَّ الصَّيْد، واتَّخَذَ الجَوارِح، ووَلَّد الكِلاب السُّلوقِيَّة من الذِّئاب والكِلاب الأَهْلية، وعَمِلَ من العَجائِب والطِّلَّسْمات لكلِّ فَنٍّ ما لا يُحْصَى كثرة[1].

وقال الأُدْفُوي في «تاريخ الصَّعيد»: وقُوصُ بجانب قِفْط، حَكَى بعضُ المُؤَرِّخين أنَّها شَرَعَت في العمارة، وشَرَعَت قفْطُ في الخَراب من سنة أربع مائة[2]. قيل إنَّه حَضَر مَرَّةً قاضي قُوص، فخَرَجَ من أُسْوان أربع مائة راكِب بَغْلَة إلى لِقائِه[3].

وفي شهرِ رَمَضَان سنة اثنتين وستين وستّ مائة، أُحْضِر إلى الملك الظَّاهِر بَيْبَرْس فُلوسٌ وُجِدَت مَدْفونَةً بقُوص؛ فأُخِذَ منها فِلْسٌ، فإذا على أَحَد وَجْهَيه صورة ملك واقِف وفي يده اليُمْنَى مِيزان وفي اليُسْرى سَيْف، وعلى الوَجْه الآخر رأسٌ فيه أُذُنٌ كبيرةٌ وعَيْنٌ مفتوحة؛ وبدائِر الفِلْس كِتابَة، فقَرَأها راهِبٌ يُوناني، فكان تاريخُه إلى وَقْت قراءَته ألفين وثلاث مائة سنة، وفيه «أنا غلياث الملك: ميزانُ العَدْل والكَرَم في يَميني لمن أَطاع، والسَّيْفُ في يَساري لمن عَصَى». وفي الوَجْه الآخَر: «أنا غلياث الملك: أُذُني مَفْتوحَة لسَماع المَظْلوم، وعَيْنَيّ مفتوحةٌ أَنْظُر بها مَصالِح مُلْكي».

وقُوصُ كثيرةُ العَقارِب والسَّامِّ أَبْرَص، وبها صِنْفٌ من العَقارِب القَتَّالات حتى إنّه كان يُقالُ فيها [عن المَلْسوع:][a] أَكَلَتْه العَقْرَب؛ لأنَّه كان لا يُرْجَى لمن لَسَعَتْه حياة. واجتمع بها مَرَّة، في يومٍ صائِف، على حائِط الجامِع سبعون سامّ أَبْرَص صَفًّا واحِدًا. وكان الواحِدُ من أَهْلها إذا مَشَى في الصَّيْف ليلًا خارِج داره يَأْخُذ بإحْدَى يديه مَسْرَجة تضيءُ له، وبالأخرى مَشَكّ[b] من حديد يَشُكّ به العَقارِب[4]. ثم إنَّها تلاشَت بعد سنة ثمان مائة.

فلمَّا كانت الحَوادِثُ والمِحَنُ، ماتَ بها سبعة عشر / ألف إنسان في سنة ستّ وثمان مائة. ٢٣٧:أ

وكانت من العِمَارة بحيث إنَّه تَعَطَّلَ منها في شَراقي البلاد سنة ستّ وسبعين وسبع مائة، مائة

---

a) إضافة من مسالك الأبصار مصدر النقل. b) الأصل. مسك.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦١- ٦٣.

[2] الأدفوي: الطالع السعيد ١٣.

[3] نفسه ٢٩؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٢٨.

[4] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٨٦.

وخمسون مَغْلَقًا (والمَغْلَق عندهم بُشتانٌ من عشرين فَدَّانًا فصاعِدًا، وله ساقية بأربعة وُجوه) وذلك سِوَى ما تَعَطَّل مِمَّا هو دون ذلك، وهو كثيرٌ جِدًّا.

ذِكْرُ مَدِينَة إسْنَا

قال الأُدْفُوي: وذُكِرَ أنَّ إسْنَا في سنة حَصَلَ منها أربعون ألف إرْدَبّ تَمْر، واثْنَا عشر ألف إرْدَبّ زَبيب. وإسْنَا تَشْتَمِل على ما يُقارِب ثلاثة عشر ألف مَنْزِل، وقيل إنَّه كان بها في وَقْتٍ سَبْعون شاعِرًا [١].

ذِكْرُ مَدِينَة أُدْفُو

ومَدينَة أُدْفُو (يُقالُ بالدال المهملة، ويُقالُ أيضًا بالتاء المثنَّاة من فَوْق) [٢]، قال الأُدْفُوي: أَخْبَرَني الخَطيبُ العَدْل أبو بكر، خَطيب أُدْفُو، أنَّ جُبَّارة[٣(a] طَرَحَت ثلاثة شَماريخ في كلِّ شَمْروخ تَمْرَة واحِدَة، وأنَّه قَلَع الجُبَّارَة[a)] بأَصْلِها ووَزَنَها فجاءَت خمسة وعشرين درهمًا، كلّها بجَريدها وخَشَبِها، وذلك بأُدْفُو [٤].

ولمَّا كان بعد سَنَة سَبْع مائة، حَفَرَ صُنَّاعُ الطُّوب، فظَهَرت صُورَةُ شَخْص من حَجَر شَكْل امْرأة مُتَرَبِّعة على كُرْسي، وعليها مِثال شَبَكَة، وفي ظَهْرِها لَوْحٌ مكتوبٌ بالقَلَم البِرْبائي [b)]، رَأَيْتُها على هذه الحالَة في مَدينَة أُدْفُو.

---

a) بولاق: جمارة. b) بولاق: اليوناني.

---

[١] الأدفوي: الطالع السعيد ٢٥- ٢٦؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣٠؛ وانظر كذلك، ياقوت: معجم البلدان ١: ١٨٩؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٤: ١٥١؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٨: ٥٦- ٦٤؛ Ritter, H., *EI*^{2} art. *Isnā* IV, p. 216.

[٢] أُدْفُو. بضم الهمزة وسكون الدال وضم الفاء وسكون الواو، من المدن المصرية القديمة تقع بين أُسْوان وقوص وبها الكثير من المعابد المصرية، وهي تابعة الآن لمحافظة أسوان (ياقوت: معجم البلدان ١: ١٢٦؛ الأدفوي: الطالع السعيد ٢٤، ٥٥٥- ٥٥٦؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٨: ٤٤- ٥٠؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٤: ٢١١؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 136, id., *EI*^{2} art. *Adfū* I, pp. 191-92).

[٣] على هامش الاصل: الجبارة من النخل التي فاقت اليد، يقال: نخلة جبارة وناقة جبار إذا عظمت وفوة الجبارة الرفلة وهي النخلة الطويلة وهي دون الحرق وجمع الرفلة رفل.

[٤] الأدفوي: الطالع السعيد ٢٦- ٢٧.

أَهْنَاس

كورَة من كُوَر الصَّعيد [١]، يُقالُ إنَّ عيسَىٰ ابن مَرْيَم ـ عليه السَّلام ـ وُلِدَ بها، وإنَّ نَخْلَة مَرْيَم ـ عليها السَّلام ـ التي ذُكِرت في قَوْله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [الآية ٢٥ سورة مريم] لم تَزَل بها إلى آخر أيَّام بني أُمَيَّة. والذي عليه الجَمَاهِرَة أنَّ عيسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ إنَّما وُلِدَ بقَرْيَة بَيْت لَحْم من مَدينَة بَيْت المَقْدس [٢].

وبأَهْناس شَجَر اللَّبْخ [a].

ذِكْرُ مَدينَة البَهْنَسا

هذه المَدينَةُ في جِهَة الغَرْب من النِّيل [٣]، بها تُعْمَل السُّتور البَهْنَسِيَّة، ويُنْسج المُطَرَّز والمقاطع السُّلْطانية، والمضارِب الكِبار والثِّياب المُتَحَيِّزَة [b]. وكان يُعْمَل بها من السُّتور ما يَبْلُغ طول السِّتْر الواحِد ثلاثين ذراعًا، وقيمَة الزَّوْج مائتا مِثْقال ذَهَبًا.

وإذا صُنِعَ بها شيءٌ من السُّتور والأَكْسِيَة والثِّياب، من الصُّوف أو القُطْن، لابُدّ أن يكون فيها اسْم المُتَّخذ له مَكْتوبًا، على ذلك مَضَوا جيلًا بعد جَيل.

وقِبْطُ مصر مُجْمِعُون على أنَّ المسيحَ وأُمَّه مَرْيَم كانا بالبَهْنَسا، ثم انْتَقَلا عنها إلى القُدْس. وقال بعضُ المُفَسِّـرين في قَوْله تعالى عن المَسيح وأُمّه: ﴿وآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [الآية ٥٠ سورة المؤمنون]: الرَّبْوَة: البَهْنَسا.

وهذه المَدينَةُ بَناها مَلِكٌ من القِبْط يُقالُ له مَناوِش بن مَنْقاوش.

---

a) بولاق: البينج. b) بولاق: المحيرة.

---

[١] إحدى كور الأعمال البَهْنساوية بصعيد مصر وتعرف بأَهْناسية المدينة، لاتزال أطلالُها ظاهرة بالقرب من مساكن القرية الحالية المعروفة بأَهْناسية الخضراء بمركز بني سويف أحد مراكز محافظة بني سويف (ياقوت: معجم البلدان ١: ٢٨٤؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٨: ١٠٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ١٥٣).

[٢] فيما تقدم ٧٢.

[٣] من المدن القديمة تقع على الضفة الغربية للنيل من خليج المَنْهَى (بحر يوسف)، وهي إحدى قرى مركز بني مزار التابع لمحافظة المنيا. (ياقوت: معجم البلدان ١: ٥١٦–٥١٧؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٠: ٢–٥، محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ٢١١–٢١٢؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 51-52; Wiet, G., *EI*[2] art. *al-Bahnasâ* I, p. 974).

قال ابنُ وَصِيف شاه : واسْتُخْلِفَ مَناوش الملك ، فطَلَب الحِكْمَة مثل أبيه ، واسْتَخْرَج كُتُبَها ، وأَكْرَم أَهْلَها ، وبَذَلَ فيهم الجَوائِز ، وطَلَب الإغْراب في عَمَل العَجائِب . وكان كلٌّ من مُلوكهم يجهد جُهْده في أن يَعْمَل له غَريبَة من الأعْمال لم تُعْمَل لمن كان قبله . وثَبَت في كُتُبهم ، وزُبِرَ على الحجارة في تَواريخهم .

وهو أوَّلُ من عَبَدَ البَقَر من أهل مصر ؛ وكان السَّببُ في ذلك أنَّه اعتلَّ عِلَّةً يَئِس منه فيها ، فرأى في مَنامِه صُورَة رُوحانيّ عَظيم يقول له : إنَّه لا يُخْرِجُك من عِلَّتِك إلَّا عِبادَتك البَقَر ، لأنَّ الطَّالِعَ كان وَقْت حُلولها بك صُورَة ثَوْر بقَرْنَيْن ؛ ففَعَلَ ذلك ، وأَمَر بأَخْذ ثَوْر أَبْلَق حسن الصُّورة ، وعَمِلَ له مَجْلِسًا في قَصْره ، وسَقَّفَه بقُبَّة مُذَهَّبة . فكان يُبَخِّره ويُطَيِّب مَوْضِعَه ، ووَكَّل به سادِنًا[a] يقوم به ويَكْنس تحته ، ويَعْبُده سِرًّا من أَهْل مَمْلَكته ، فبَرَأ من عِلَّته .

وهو أوَّل من عَمِل العَجَل في عِلَّته ، فكان يُركّب عليها البُيوت من فَوْقها قِبابُ الخَشَب . وعَمِل ذلك مع[b] من أَحبّ من نِسائِه وخَدَمِه إلى المواضِع والمُتَنَزَّهات ، وكانت البَقَر تَجُرّه[c]، فإذا مرَّ بمكان نَزِه[d] أقامَ فيه ، وإذا مَرَّ بمكان خَراب أَمَرَ بعمارَته فيها[b]؛ فيُقالُ إنَّه نَظَر إلى ثَوْرٍ من البَقَر الذي يجرّ عَجَلته ، أَبْلَق حَسَن الشِّيَة ، فأَمَرَ بتَرَفُّهه وسَوْقِه بين يَدَيْه إعْجابًا به ، وجَعَلَ عليه جُلًّا من دِيباج ؛ فلمَّا كان في يَوْم ، وقد خَلا في مَوْضِع صارَ إليه ، وقد انْفَرَد عن عَبيده وخَدَمه ، والثَّوْر قائِم ، إذ خاطَبَه الثَّوْرُ وقال له : لو رَفَّهَني الملك عن السَّيْر معه ، وجَعَلَني في هَيْكل وعَبَدَني ، وأَمَرَ أَهْلَ مَمْلَكَته بعبادتي ، كَفَيْته جميع ما يُريدُه ، وعاوَنْته على أَمْره ، وقَوَّيْته في مَمْلكته ، وأَزَلْت عنه جَميع عِلَلِه ؛ فارْتاعَ لذلك ، وأَمَرَ بالثَّوْر فغُسِّل وطُيِّب وأُدْخِل في هَيْكَل ، وأَمَرَ بعِبادَتِه .

فأقامَ ذلك الثَّوْر يُعْبَد مُدَّةً ، وصارَ فيه آية ، وهو أنَّه لا يَبُول ولا يَرُوث ، ولا يأْكل إلَّا أطراف وَرَق القَصَب الأخضر في كلِّ شهر مَرَّة ، فافْتَتَن الناسُ به / وصارَ ذلك أَصْلًا لعِبادَة البَقَر[1] .

---

a) بولاق : سائسا. b) ساقطة من بولاق. c) بولاق : وكان البقر يجره. d) بولاق : نزهة.

---

[1] ربما يقصد ابن وصيف شاه بذلك العبادة المعروفة عند قدماء المصريين بعبادة العجل أبيس.

وبَنَى مَواضِعَ كَنَزَ فيها كُنوزًا، وأقامَ عليها أعْلامًا . وبَنَى في صَحْراء الغَرْب مَدينَة يُقال لها دِيماس، وأقامَ فيها مَنارًا، ودَفَنَ حَوْلَها كُنوزًا [1] . ويقالُ إنَّ هذه المَدينَة قائِمَة، وإنَّ قَوْمًا جازُوا بها من نَواحِي الغَرْب وقد ضَلُّوا الطَّرِيق، فَسَمِعُوا بها عَزِيفَ الجِنّ، ورأوا ضوءًا يَتَراءَى بها .

وفي بعض كُتُبهم أنَّ ذلك الثَّوْر، بعد مُدَّة من عبادَتهم له، أَمَرَهم أن يَعْملوا صُورَته من ذَهَب أَجْوَف، ويُؤْخَذ من رأْسه شَعَرات ومن ذَنَبه ومن نُحاتَة قُرونه وأظْلافِه، ويُجْعَل في التِّمْثال المذكور؛ وعَرَّفَهم أنَّه يَلْحَق بعالَمه، وأَمَرهم أن يَجْعَلوا جَسَدَه في جُرْن من حَجَر أَحْمَر، ويُدْفَن في الهَيْكَل، ويُنْصَب تِمثالُه عليه، وزُحَل في شَرَفه، والشَّمْسُ تَنْظُر إليه من تَثْليث و[a] القَمَر زائِد النُّور، ويُنْقَش على التِّمْثال عَلاماتُ الكَواكِب السَّبْعَة؛ فَفعلوا ذلك، وكَلَّلوه بجَميع الأَصْناف من الجَواهِر، وجَعَلوا عَيْنَيْه جَزْعَتَيْن، وغَرَسُوا في الهَيْكَل عليه شَجَرة، بعد ما دَفَنوه في الجُرْن الأحمر، وبَنَوا مَنارًا طولُه ثمانون ذِراعًا، على رأسه قُبَّة تتلوَّن كل يوم لونًا حتى تَمْضي سبعة أيام، ثم تَعُود إلى اللَّوْن الأوّل .

وكَسوا الهَيْكَل أَلْوان الثِّياب، وشَقُّوا نهرًا من النِّيل إلى الهَيْكَل، وجَعَل حَوْله طِلَّسْمات، رؤوسها رُؤوس القُرُود على أبْدان النَّاس، كلّ واحد منها لدَفْع مَضَرَّة وجَلْب مَنْفَعَة .

وأقامَ عند الهَيْكَل أرْبعة أَصْنام على أربعة أبْواب، ودَفَن تحت كلّ صَنَم صِنْفًا من الكُنوز، وكَتَب عليها قُرْبانها وبَخُورها، وأَسْكَنها السَّحَرة[b]، فكانت تُعْرَف بمَدِينَة السَّحَرة[b]، ومنها كانت أَصْنافُ السَّحَرَة[b] تَخْرُج [2] .

وهو أوَّلُ من عَمِل النَّوْروز بمصر . وفي زَمانِه بُنِيت البَهْنَسا . وأقامَ بها أُسْطُوانات، وجَعَلَ فيما فَوْقَها مَجْلِسًا من زُجاج أصفر، عليه قُبَّة مُذَهَّبة، إذا طَلَعت الشَّمْسُ أَلْقَت شُعاعَها على المَدِينَة [3] .

ويُقالُ إنَّه مَلَكَهم ثمان مائة وثلاثين سنة، ودُفِنَ في أَحَد الأَهْرام الصِّغار القبلية، وقيل في غَرْبي الأُشْمونَيْن . ودُفِنَ معه من المال والجَوْهَر والعَجائِب شيءٌ كثير، وأَصْنام[c] الكَواكِب السَّبْعَة

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : الشجرة . c) بولاق : أصناف .

---

[1] فيما تقدم ٣٧٦.

[2] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٦٧– ٦٩.

[3] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧١ (عن ابن وصيف شاه)؛ المسعودي : أخبار الزمان ١٧٧، وانظر فيما تقدم ٣٧٦ وفيما يلي ٧٢٧ نسب عمل النَّوْروز إلى مناوش ابن منقاوش.

التي تَرَى الدَّفين والخبيئَة، وألف سَرْج ذَهبًا وفِضَّة، وعشرة آلاف جام وغِضار من ذَهَب وفِضَّة وزُجاج، وألف عُقار[a] لفُنون الأَعْمال. وزُبِر[b] عليه اسْمه ومُدَّة مُلْكه ووَقْت مَوْتِه.

وفي سنة أربعٍ وثلاثين وسبع مائة، ظَهَرَ بالأُشْمُونَيْن، في وادٍ بين جَبَلَيْن، فَساقي مُرَبَّعَة مملوءَةٌ ماءً عَذْبًا صافيًا، فمَشَى شخصٌ على حافَتها طُول يوم ولَيْلَة فلم يَبْلُغ آخِرها. ويُقالُ إنَّها من عَمَل سُوريد باني الأهْرام، لتكون عُدَّةً لما كانوا قد تَوَقَّعوه من حُدوث طُوفان ناري، فرُدِمَ هذا الوادِي بعد ذلك خَوْفًا من تلاف النَّاس[1].

يقول الشَّيْخُ الإمامُ محمَّد بن أحمد الفَرْياني[2]: حَدَّثَني علي بن حسن بن خالِد الشَّعِيري ثلاث مَرَّات لم يَخْتَلف قَوْلُه عليّ فيها، قال: حَدَّثَني رَجُلٌ من فَزارَة السَّاكِنين بكُورَة البَهْنَسا، قال: خَرَجْتُ أنا ورَجُلٌ رَفيق لي نَرْتاد البلاد ونَطْلُب الرِّزْقَ في الأرض، وذلك بعد سنة عشر وثمان مائة، فقَطَعْنا الجَبَلَ الغَرْبي من ناحِية البَهْنَسا، وسِرْنا متوكِّلين على الله تعالى، فأَقَمْنا أيامًا ونحن نَمْشي ما بين الغَرْب والجَنُوب، فوَقَعْنا في وادٍ كَثير الشَّجَر والنَّبات والماء والكَلأ، ليس فيه أنيس. وهو وادٍ وَاسِع في الطُّول والعَرْض، نحو يَوْم في الطُّول ويوم في العَرْض، كلّه أَعْيُنُ وبَساتين نَخْل وزَيْتُون، كثير الإبِل والمَعِز، والذِّئْبُ والضَّبُع به كثير، والإبِل به مُتَوَحِّشَة وكذلك المَعِز قد صارَت به وَحْشِية، بعد أن كانت آنِسِيه[c]، وليس بالوَادي لا رائِح ولا غادٍ من النَّاس.

قال: فأَخْبَرَني أنَّهما[d] أقامَا بالوادي نحوًا من شَهْرين أو ثلاثة، وأنَّهما رأيا في وَسَط الوادي مَدينَةً حَصينَةً مَنيعةً عاليةَ السُّور شامِخَة القُصُور، فإذا تَقَرَّبا من سُورِها سَمِعا ضَجيجًا عَظيمًا وأصْواتًا مَهولَةً مَخوفَة، ورأيا دُخَانًا يَرْتَفِع إلى جَوّ السَّماء حتى يُغَطِّي سُور المَدينَة وجَميع ما فيها؛ وأنَّ تلك الإبِل الوَحْشية عَدَت على رَواحِلهما الإنسية فآذَتْها وقَتَلَتْها.

---

a) بولاق: عقاقير. b) بولاق: زبروا. c) بولاق: آنسه بهم. d) حتى نهاية الفقرة تستخدم نسخة الأصل صيغة الجمع.

---

[1] في هامش الأصل: وبأصل المصنف ورقة فيها مكتوب ما مثاله بخطٍّ أظنه مغربي: «الحمد لله وحده يقول محمد بن أحمد الفرّياني، حدَّثني علي بن حسن»، الحديث المذكور برمته إلى قوله ... والله أعلم.

[2] انظر عن الشيخ محمد بن أحمد الفرياني فيما تقدم ٤٣٧، ٥١١، وفيما يلي ٢: ٢٠٩، ٣٠٢ فهو أحد المصادر الشفهية للمقريزي.

فتَحَيَّل عند ذلك الرجلان الفَزاريان بحِيَلٍ ، وفَتَلا حِبالًا وأَشْراكًا شِباكًا من ليف النَّخْل ، وقَيَّدا تلك الإبل الوَحْشية ، وفَتَلا خُوصًا ، وضَفَرا قِفافًا من الخُوص لزادهما وملآها تَمْرًا ، وزلَّلا من تلك الإبل الوَحْشية مكان رَواحِلهما ، عِوَضًا عنها ، وركِباها متوجِّهين نحو الشَّرْق ، وحَمَلا معهما من الجَريد ـ أعني جَريد النَّخْل ـ ما يَعْرفان به الطريق التي بينهما وبينها ، ويَجْعَلان ذلك أَمارات لمرورهما إليها .

فكانا كُلَّما مَرَّا على شَرَف ، جَعَلا عليه جَريدَتَيْن عَلَمًا ، حتى وَصَلا إلى الجبَل الغَرْبي من مصر ، فنزلَا إلى البَهْنَسا ، فعَرَفا قَوْمَهما ، وتَحَمَّلا بأهاليهما .

فلمَّا عَلوا سَطْح الجبَل الغربي ، وَجَدا كلَّ ما فَرَّقاه من جَريد النَّخْل على رؤوس الآكام مُجْتَمِعًا في مكانٍ واحِد في أعْلى الجبَل ، فرَجَعا عند ذلك لأهاليهما ومن معهم إلى أرض البَهْنَسا .

وهذا ما حَدَّثَني به ، والله أعلم .

ذِكْرُ مَدينَة الأُشْمُونَيْن[1]

كانت من عَظائِم مدائن[a] الصَّعيد ، يُقالُ إنَّها من بناء أُشْمون بن مِصْر بن بيصر بن حام بن نُوح . وقال / ابنُ وَصِيف شاه : كان أُشْمُون أَعْدَلَ وَلَد أبيه ، وأَرْغَبهم في صَنْعَة تَبْقَى ويَبْقَى ٢٣٩:٧
ذِكْرُها ، وهو الذي بَنَى المجَالِس المُصَفَّحَة بالزُّجاج الملوَّن وَسَط النِّيل .

وتقولُ القِبْطُ : إنَّه بَنَى سَرَبًا تحت الأَرْض ، من الأُشْمونَيْن إلى أَنْصِنَا تحت النِّيل ، وقيل إنَّه حَفَرَه وعَمِلَه لبَناتِه لأَنَّهنّ كنَّ يَمْضين إلى هَيْكَل الشَّمْس . وكان هذا السَّرَب مُبَلَّط الأَرْض والحيطان والسَّقْف بالزُّجاج الثَّخين الملوَّن .

---

a) بولاق : أعظم مدن .

---

[1] الأُشْمونين . من المدن المصرية القديمة ، عرفت في العصرين اليوناني والروماني باسم Hermopolis Magna، كانت تقع غربي النيل بصعيد مصر تجاه مدينة أنصنا التي حَلَّ محلَّها الآن قرية الشيخ عبادة الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل . وهي الآن إحدى مدن مركز مَلّوي الواقعة في محافظة المنيا بالوجه القبلي (الإدريسي : نزهة المشتاق ١٢٥؛ ياقوت : معجم البلدان ١ : ٢٠٠؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ١٥؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٨:٧٤-٧٦؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٤:٥٩-٦٠؛ وتعليقاته على النجوم الزاهرة ٩:٤٠هـ[1، 2]؛ Ayman F. Sayyid, *EI*[2] art. *al-Ushmûnayn* X, p...) .

وقيل: إنَّ أُشْمونَ كان أَطْوَل إخْوَته مُلْكًا؛ وقال أهلُ الأَثَر: إنَّه مَلك ثمان مائة سنة، وإنَّ قَوْمَ عادٍ انْتَزَعوا منه المُلْك بعد ستّ مائة سنة من مُلْكه، وأقاموا تسعين سنة، واسْتَوْلوا على البَلَد، فانْتَقَلوا إلى الدَّثِينة من طريق الحِجاز إلى وادي القُرَى فعَمَّرُوها، واتَّخذوا بها المنازِل والمَصانِع، وسَلَّط الله عليهم الذَّرّ فأهْلَكَهم، وعادَ مُلْك مصر إلى أُشْمون.

ويُقالُ إنَّه عَمِلَ على باب الأُشْمونَيْن إوَزَّة من نُحاس، فكان الغَريبُ إذا جاءَ لِيَدْخُل المَدينَة صاحَتِ الإوَزَّة وصَفَّقَت بجَناحَيْها فيُعْلَم به، فإن أَحَبُّوا مَنَعوه، وإن أَحَبُّوا تَرَكوه. وكَثُرَت الحَيَّات في وَقْتِه، فكانوا يَصيدونَها ويَعْمَلون من لُحومِها أَدْوِية وتِرْياقات، ثم ساقُوها بسِحْرِهم إلى وادي الحَيَّات في جِبال لُوبِيَه ومَراقية، فسَجَنوها هناك[1].

[a]وفي «تواريخ النَّصارَىٰ» أنَّ المسيحَ ـ عليه السَّلام ـ لمَّا قَدِمَت به أُمُّه وهو طفل إلى أرض مصر نَزَلَت أوَّلًا ظاهِر مدينة بَسْطَه، ثم مَضَت وعَدَّت النِّيل إلى الجانب الغربي ومَضَت إلى الأُشْمونَيْن، وكان على أعلى المَدينَة صورة فَرَس على أربعة أعمدة إذا قدم غريبٌ صَهَلَت، فعندما قدم المسيحُ سَقَطَ هذا الفَرَس وتَكَسَّر[a][2].

وقال في «كتاب هُروشِيوش»: إنَّ أُشْمون بن قِبْط أوَّل مُلوك المصريين، وإنَّه كان في زَمان ساروج[b] بن راعو بن فالِغ[c] بن عابِر بن شالِخ بن أَرْفَخْشِذ بن سام بن نُوح، وإنَّ سِني الدنيا صارَت إلى زَمان ساروج[b] ألفين وتسع مائة وخمس سنين[d]، يكون ذلك بعد الطُّوفان بستّ مائة وثلاث وستين سنة[3].

وبها كانت فرهة الخَيْل والبِغال والحَمير، وكان يُعْمَل بها فَرْش القُرْمُز الذي يُشْبه الأَرْمَنيّ.

وكان ينزل بأرض الأُشْمونَيْن عِدَّةُ بُطون من بني جَعْفَر بن أبي طالِب ـ رضِي الله عنه ـ وكانوا باديةً أَصْحاب شَوْكَة ـ وكان معهم بنو مَسْلَمة بن عبد الملك بن مَرْوان حُلَفاء لهم، ومعهم بَطْنٌ آخر يُقال لهم بنو عَسْكَر، يُقالُ إنَّ أباهم كان مَوْلى لعبد الملك بن مَرْوان، ويَزْعُمون أنَّهم من بني

(a-a) هذه الفقرة ساقطة من بولاق. b) بولاق: شاروح وفي أصل أوروسيوس Serug. c) بولاق: تالغ وعند أوروسيوس: فالق. d) عند أوروسيوس: اثنين وستين.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧٠- ٧١.

[2] انظر فيما تقدم ٦٢٥- ٦٢٦.

[3] أوروسيوس: تاريخ العالم ٩١.

أُمَيَّة صُلْبِيَّة . وكان معهم أيضًا حُلَفاء لهم بنو خالِد بن يَزِيد بن مُعاوية بن أبي سُفْيان يَنْزلون أرض دِلْجَة عند أُشْمون .

ذِكْرُ مدينة إخْمِيم

ضَبَطَها البَكْري بكَسْر الهمزة وإسكان الخاء ثم ميم وياء وميم على بناء إفْعيل [١]. وهي في الجانِب الشَّرْقي من النِّيل ، والذي بَنَاها مَناقيوش بن أَحَدِ ملوك القِبْط الأَوَّل [٢].

قال ابنُ وَصِيف شاه : كان جَلْدًا مُحَنَّكًا ، فاستَأْنَف العِمارة ، وبَنى القُرَى ، ونَصَبَ الأَعْلام ، وجَمَعَ الحِكَم ومَصاحِف الملوك والحُكَماء ، وعَمِلَ العَجائِب ، وبَنَى لنفسه مَدينَةً انْفَرَد بها ، وعَمِلَ عليها حِصْنًا ، ونَصَبَ عليه أربعة أعْلام ، في كلِّ رُكْن من أرْكانه عَلَم ، وبين تلك الأعْلام ثمانون صَنَمًا من نُحاس وأخْلاط في أيْديها السِّلاح ، وزَبَرَ على صَدْرِها آياتها .

وكان بمَنْف رَجُلٌ من أولاد الكَهَنَة ، من أعْلَمَ الناس بالسِّحْر ، وأبْصَرهم بأَخْذ التَّماسيح والسِّباع ، وكان يُعَلِّم الغِلْمان السِّحْر ، فإذا حَذَقوا عَلَّمَ غَيْرهم . فأَمَرَ الملك أن يُبْنَى له مَدينَة ، ويُحَوَّل إليها وهي إخْميم .

فمَلَكهم مَناقُيوش نيفًا وأربعين سنة ، وماتَ فدُفِنَ في الهَرَم المُحاذِي لإطْفيح ، ومعه شيءٌ كثير من المال والجَوْهَر والآنِيَة والتماثيل ، وزُبِر عليه اسْمَه والوَقْت الذي هَلَكَ فيه [٣].

قال : وذَكَر أهْلُ إخْميم أنَّ رجلًا أتَى من الشَّرق ، وكان يَلْزَم البِرْبا ، ويأتِي إليه كلَّ يوم ببَخور وخُلوق ، فيُبَخِّر ويُطَيِّب صورةً في عِضادَة الباب ، فيَجد تحتها دينارًا فيأْخذه ويَنْصَرف . ففَعل ذلك مُدَّةً حتى وَشَى به غُلامٌ له إلى عامِل البَلَد ، فقَبَض عليه ، فبَذَل مالًا وخَرج عن البَلَد .

---

a) بياض بالأصل .

---

[١] أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ١٢٥.

[٢] إخميم (وتضبط أحيانًا أخميم) من أقدم المدن المصرية تقع في شرقي النيل ، اشتهرت بمعبدها المعروف ببربا إخميم الذي هدم بعد القرن الخامس الهجري . وهي الآن إحدى مدن محافظة سوهاج في صعيد مصر (البكري : جغرافية مصر ٨١؛ مجهول المؤلف : الاستبصار ٨٤؛ ابن جبير : الرحلة ٣٥- ٣٨؛ الإدريسي : نزهة المشتاق ١٢٥- ١٢٦؛ ياقوت : معجم البلدان ١:١٢٣- ١٢٤؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣٩٦؛ ابن دقماق : الانتصار ٥:٢٥- ٢٦؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٨:٣٥- ٤٣؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٤:٨٩- ٩٠؛ Wiet, G., *EI*[2] art. *Akhmîm* I, p. 340).

[٣] النويري : نهاية الأرب ١٥: ٧٢.

وكانت بِرْبا إخْميم من أَعْجَب البَرابي وأَعْظَمها، قد بُنِيَت لحَزْن بُرّهم، فإنّهم قَضَوا على أَهْل مصر بالطُّوفان قَبْل وقته بقَرائِن، لكنهم اخْتَلَفوا فيه، فقال بعضُهم: تكون نارٌ فتَحْرق جَميع ما على وَجْه الأرض، وقال آخرون: بل يكون ماءٌ، فعَمِلوا هذه البَراني قبل الطُّوفان.

وكان في هذه البِرْبا صُوَرُ المُلوك الذين يَمْلِكون مصر، وكانت مَبْنية بحَجَر المَرْمَر، وطولُ كلّ حَجَر منها خمسة أَذْرُع في سُمْك ذِراعَيْن، وهي سبعة دَهاليز سُقوفُها حِجارَة، طول الحَجَر منها ثمانية عشر ذِراعًا في عرضِ خمسة أَذْرُع، مدْهُونَة بالّلازَوَرْد وغيره من الأصْباغ التي يَحْسبُها النّاظِرُ كأنّما فُرِغَ الدِّهان منها الآن لجِدَّتها[1].

وكان كلُّ دِهْليز منها على اسْم كَوْكَب من الكَواكِب السَّبْعة السَّيَّارَة، وجُدْران هذه الدَّهاليز مَنْقوشَة بصُوَر مختلفة الهَيْئات والمَقادير، فيها رُموزُ عُلوم القِبْط، من الكِيْمياء والسِّيْمياء والطِّلَّسْمات والطِّبّ والنُّجوم والهَنْدَسَة وغير ذلك، أَوْدَعوها تلك الصُّورَ.

وذَكَرَ ابنُ جُبَيْر في «رِحْلَته» أنَّ طُولَ هذه البِرْبا مائتان وعشرون ذِراعًا، وسعتها مائة وسبعون[a] ذِراعًا، وأنّها قائِمَة على أربعين سارِية سوى الحيطان، دَوْرُ كلّ سارية خمسون شِبْرًا، وبين كلّ ساريتين ثلاثون شِبْرًا، ورؤوسها في نِهايَة العِظَم كلّها مُنَقَّشَة[b] من أسْفَلها إلى أعْلاها، ومن رأْس كل سارِية إلى الأُخْرى لَوْحٌ عَظيم من الحَجَر المَنْحوت فيها ما ذَرْعُه ستة وخمسون شِبْرًا طولًا، في عَرْض عَشْرة أَشْبار وارْتِفاع ثمانية أَشْبار؛ وسَطْحُها[c] من أَلْواح الحِجارَة، كأنّها فَرْشٌ واحد، فيه التّصاوير البديعة / والأَصْبِغَة الغَريبَة، كهَيْئَة الطُّيور والآدَميين، وغير ذلك في داخِلِها وخارِجِها؛ وعَرْضُ حائِط البِرْبا ثمانية عَشْر شِبْرًا من حِجارَة مَرْصُوصَة[2]، كذا قاسَها ابنُ جُبَيْر في سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مائة.

ويُقالُ إنّ ذا النُّون عَرَفَ منها عِلْم الكِيْمياء.

وما زالَت هذه البِرْبا قائِمَة إلى سنة ثمانين وسبع مائة، فخَرَّبَها رَجُلٌ من أهل إخْميم، يُعْرف بالخَطيب كمالِ الدين بن بَكْر الخَطِيب عَلَم الدين عليّ، ونالَ منها مالًا، فلم تَطُل

---

a) رحلة ابن جبير: ستون. b) رحلة ابن جبير: منقوشة. c) رحلة ابن جبير: سقف هذا الهيكل.

---

[1] قارن؛ النويري: نهاية الأرب ١: ٣٩٤؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٩- ٢٤٠.

[2] ابن جبير: الرحلة ٣٦، ٣٧.

حياتُه ومات. ومن حينئذٍ تلاشى أَمْر إخْميم إلى أن خَرِبَت.

وقد ذَكَرَ جماعَةٌ أنَّ بِرْبا إخْميم كانت في هيئة غُلام أَمْرَد عُرْيان، وأنَّ قومًا دَخَلوها مَرَّة، فتَبِعَهم وأَخَذَ يَضْرِبهم ضَرْبًا وَجيعًا حتى خَرَجُوا هارِبين. وحُكِيَ مِثْل ذلك عمَّن دَخَلَ الأَهْرام أيضًا.

وقد حُكِيَ أنَّ رَجُلًا أَلْصَق على صورة من بِرْبا إخْميم شَمْعَة، فكان إذا تَرَكَها في مَوْضِع الْتَجأَت العقارِبُ إليها، وإذا وَضَعَ الشَّمْعَة في تابُوت اجْتَمَعت العقارِبُ حَوْلَه.

ويُقالُ إنَّه كان في بِرْبا إخْميم شَيطانٌ قائِمٌ على رِجْلٍ واحِدَة، وله يَدٌ واحِدَة وقد رَفَعَها إلى الهَواء، وفي جَبْهَته وحواليه كِتابَةٌ، وله إحْليلٌ ظاهِرٌ مُلْتَصق بالحائِط. وكان يُذْكَر أنَّ من احْتال حتى يُنَقِّب على ذلك الإحْليل حتى يُخْرِجه من غير أن يَنْكَسر، ويُعَلِّقه على وَسَطه، فإنَّه لا يزال مُنْعِظًا إلى أن يَنْزِعه، ويُجامِع ما أَحَبّ ولا يَفْتُر ما دام مُعَلَّقًا عليه، وأنَّ بَعْض من وَلِيَ إخْميم اقْتَلَعَه فوَجَد منه شيئًا عَجيبًا من ذلك.

وكانت الأَنْطاعُ تُجْلَب من إخْميم، وبها تُعْمَل، ويُقالُ إنَّه كان بها اثنا عشر ألف عَريف على السَّحرة، وكان بها شَجَر البَنْج.

ويُقالُ إنَّ الذي بَنَى بِرْبا إخْميم اسمه دُومريا، وإنَّه جَعَلَ هذه البِرْبا مَثَلًا للأُمَم الآتية بعده، وكَتَب فيها تَواريخ الأُمَم والأَجْيال ومَفاخِرَهم التي يَفْتَخِرون بها، وصَوَّرَ فيها الأنبياء والحُكَماء، وكَتَبَ فيها من يَأْتي من المُلوك إلى آخِر الدَّهْر.

وكان بِناؤه إيَّاها والنَّسْر برأْس الحَمَل، والنَّسْرُ يُقيم عندهم في كلِّ بُرْج ثلاثة آلاف سنة.

قلت: والنَّسْر في زَمانِنا بآخِر باب بُرْج الجَدْي، فيكون على ذلك لهذه البِرْبا منذ بُنِيَت نحو الثلاثين ألف سنة.

وذَكَرَ أبو عَبْدِ الله محمد بن عبد الرَّحيم القَيْسي، في كِتاب «تُحْفَة الأَلْباب»، أنَّ هذه البِرْبا مُرَبَّعة من حِجارَة مَنْحوتَة، ولَها أربعة أَبْواب، يُفْضي كلُّ بابٍ إلى بَيْتٍ له أَرْبَعَة أبْواب، كلُّها مُظْلِمَة، ويُصْعَد منها إلى بُيوت كالغُرَف على قَدْرِها[2].

[1] ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٢٣ عن ابن وصيف شاه.

[2] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ٧٧.

ذكر مدينة العقاب

قال المَسْعودي: مَدينَةُ العُقاب غَربيّ أَهْرام بوصير الجيزَة[a]، على مَسيرَة خمسة أيَّام بلَياليها للرَّاكِب المُجِدّ، وقد غور طريقها، وعُمِيَ المَسْلَكُ إليها والسَّمْت الذي يُؤَدّي نحوها، وفيها عَجائِب البُنْيان والجَواهِر والأَمْوال[1].

وقال ابنُ وَصيف شاه[2]: وكان الوَليدُ بن دَوْمَغ العمليقيّ قد خَرَجَ في جَيْشٍ كَثيف يَتَنَقَّل في البُلْدان ويَقْهَر مُلوكَها، فلمَّا صارَ بالشَّام وَجَّه غُلامًا له يُقالُ له عَوْن، فسارَ إلى مصر وفَتَحَها، ثم سارَ فتَلَقَّاه عَوْنٌ ودَخَل مصر فاسْتَبَاحَ أَهْلَها. ثم سَنَح له أن يَقِف على مَصَبّ النِّيل، فخَرَج في جَيْشٍ كَثيف، واسْتَخْلَف عَوْنًا على مصر، وأقامَ في غَيْبته أربعين سنة.

وإنَّ عَوْنًا، بعد سبع سنين من مَسيره، تَجَبَّر وادَّعى أنَّه المَلِك، وأَنْكَرَ أن يكون غُلامَ الوَليد وإنَّما هو أخوه، وغَلَب بالسِّحْر، وسَبَى الحَرائِر، فمال النَّاسُ إليه، ولم يَدَع امْرأَةً من بَنَات مُلوك مصر إلَّا نَكَحَها، ولا مالًا إلَّا أَخَذه وقَتَل صاحِبَه. وهو مع ذلك يُكْرِم الكَهَنَة، ويُعَظِّم الهَياكِل[b]. فاتَّفَقَ أنَّه رأى الوَليد في مَنامه وهو يقول له: من أَمَرَكَ أن تتسمَّى باسْم المَلِك، وقد عَلِمْت أنَّه من فَعَلَ ذلك اسْتَحقّ القَتْل؟ ونَكَحْتَ بناتَ المُلوك، وأَخَذْتَ الأموال بغير واجِب. ثم أَمَرَ بقِدْر مُلِئَت زَيْتًا، وأُحْمِيَت حتى غَلَت، ونَزَع ثِيابَه ليُلْقيه فيها، فأتاهُ عُقابٌ فاخْتَطَفَه وحَلَّق به في الجَوّ، وجَعَلَه في هُوَّة على رأْس جَبَل، فسَقَط إلى وادٍ فيه حَمْأَة مُنْتِنَة[c]. فانْتَبَه مَرْعوبًا، وقَصَّ ذلك على كَهَنَته، فقالوا: نحن نُخَلِّصك منه بأن تَعْمَل عُقابًا وتَعْبُده، فإنَّه الذي خَلَّصَك في نَوْمِك؛ فقال: أَشْهَدُ لقد قال لي: اعْرِف لي هذا المَقَام ولا تَنْسه.

فعمل عُقابًا من ذَهَب، وجَعَلَ عَيْنَيْه جَوْهَرَتَيْن، ووَشَحَه بالجَوْهَر، وعَمِل له هَيْكلًا لَطيفًا، وأرْخَى عليه سُتور الحَرير، وأَقْبَلوا على تَبْخيره وقُرْبانه حتى نَطَق لهم، فأَقْبَل عَوْن على عِبادَته، ودَعَا النَّاسَ إلى ذلك فأَجابُوه.

---

a) بولاق: أبو صير بالجيزة، المسعودي: بوصير والجيزة. b) النويري نقلًا عن ابن وصيف شاه: وكان مع ذلك يلزم الهياكل ويكرم الكهنة. c) النويري: واد فيه حية.

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧٨.

[2] النويري: نهاية الأرب ١٥: ١١٥ - ١١٨.

ثم أَمَرَ فجُمِعَ له كلُّ صانِعٍ بمصر، وأَخْرَجَ أَصْحابَه إلى صَحْراء الغَرْب لطَلَب أرْض سَهْلَة حَسَنَة الاسْتِواء، يُدْخَل إليها من مَواضِع صَعْبَة وجِبال وَعِرَة، بحيث تَقْرُب من مَغيض الماء ـ التي هي اليوم الفَيُّوم، وكانت مَغيضًا لماءِ النِّيل حتى أَصْلَحَها يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ ليُجْري الماءَ منها إلى المَدينَة.

فخَرَجُوا، وأَقامُوا شَهْرًا يَطوفُون حتى وَجَدوا بُغْيَته، فلم يَبْقَ بمصر فاعِلٌ ولا مُهَنْدِس، ولا أَحَدٌ له بَصَرٌ بالبِنَاء وقَطْع الصُّخُور ونَحْتها إلَّا وُجِّه إليها، وأَنْفَذ ألف رَجُل من الجَيْش وسبع مائة ساحِر لمعاونَتِهم، وأَنْفَذَ معهم الآلات والأَزْواد على العَجَل؛ وطَريق هذه العَجَل إلى الفَيُّوم في صَحْراء الغَرْب واضِحَة من خَلْف الأَهْرام.

٢٤١:١ فلمَّا تكامَلَ له ما أَراد من نَحْت الحِجارَة، خَطُّوا المَدينَة فَرْسَخَيْنِ في مِثْلِهما، وحَفَروا في / الوَسَط بئرًا جَعلوا فيها تِمْثال خِنْزير من نُحاس بأَخْلاط، ونَصَبوه على قاعِدَة نُحاس ووَجْهُه إلى الشَّرق، وذلك بطالِع بَيْت زُحَل واسْتِقامته وسَلامته ـ وكان في شَرَفه ـ وذَبَحوا خِنْزيرًا، ولَطَّخوا التِّمْثال بدَمه في وَجْهه، وبَخَّروا بشيءٍ من شَعْرِه، وحَشَوْا جَوْفه بدَمِه وشَعْره وعِظامِه ولَحْمِه ومَرارَته، وجَعَلوا في أُذُنَيْه من مَرارَته، وحَرَقُوا بقيَّة الخِنْزير، وجَعَلوا رَمادَه في قُلَّة من نُحاس بين يدي التِّمْثال، ونَقَشُوه بآياتِ زُحَل.

ثم شَقُّوا في البِئْر من الجِهات الأَرْبع، في كلِّ جِهَة سَرَبًا إلى حيطان المَدينَة، وعَمِلُوا على أَفْواهِها مَنافِس تَجْذِب الهَوَاء، وسَدُّوا البِئْر، وعَقَدوا فيها قُبَّة على عُمُد مرتفعة على حِيطان المَدينَة، وجَعَلوا فيها شَوارِع يَتَّصل كلُّ شارِع ببابٍ من أبْواب المَدينَة، وفَصَلوها بالطُّرُقات والمنازِل، وجعَلوا حَوْل القُبَّة تَماثيلَ فُرْسان من نُحاس بأَيْديها حِراب، ووُجُوهها تِجاه الأَبْواب.

وجَعَلُوا أساسَ المَدينَة من حَجَر أَسْوَد، فَوقه حَجَر أَحْمَر، عليه حَجَر أَصْفَر، من فَوْقِه حَجَر أَخْضَر. وفَوْقَ الجَميع حَجَرٌ أَبْيَض يَشِفّ، وكلُّها مَبْنِيَّة بالرَّصاص المَصْبوب بين الحِجارَة، وفي قُلوبها أَعْمِدَة من حَديد على بِناء الأَهْرام.

وجَعَلُوا طولَ حِصْنها ستين ذراعًا في عَرْض عشرين، وعلى رأْس كلّ بابِ حِصْن بأَعْلاه عُقابٌ كبير من صُفْر وأَخْلاط قد نَشَرَ جَناحَيْه وهو أَجْوَف، وعلى كلِّ رُكْن فارِس بيده حَرْبَة ووَجْهُه إلى خارِج المَدينَة.

وساقَ الماءَ إلى الباب الشرقي، يَنْحَدر في صَبِّه إلى الباب الغربي ويَخْرُج إلى صَهاريج، وكذلك من الباب الجَنوبي إلى الشَّمالي، وقَرَّب للعُقاب عُقْبانًا ذُكورًا، واجْتَلَب الرِّياحَ إلى أَفْواه

التَّماثِيل، فصارَ يُسْمَع لها أصواتٌ هائِلة، ووَكَّل بها أرْواحًا تَمْنَع الدَّاخِل إليها إلَّا أن يكون من أَهْلها.

ونَصَبَ العُقاب الذي يُتَعَبَّد له تحت القُبَّة في وَسَط المَدينَة، على قاعِدَة بأربعة أركان على كلِّ رُكْن وَجْه شَيْطان، وجَعَلَها على عَمُود يُديرها. فكان العُقابُ يدور إلى الجِهات، فيُقيم في كلِّ جهة رُبْع السنة.

فلمَّا تَمَّ ذلك، نَقَلَ إلى المَدينَة الأَمْوال والجَواهِر التي بمصر من عَهْد المُلُوك، والتَّماثيل والحِكَم وتُراب الفِضَّة والعَقاقير والسِّلاح، وحَوَّل إليها كِبار السَّحَرَة والكَهَنَة وأصْحاب الصَّنائِع والتُّجَّار، وقَسَّم المَساكِن بينهم، فلا يَخْتَلِط أهْلُ صِناعَة بسواهم.

وعَمِلَ لها[a] رَبَضًا [يحيط بها وبنى فيه منازل][b] لأَصْحاب المِهَن والزِّراعَة، وعَقَدَ على تلك الأنْهار قَناطِر يَمْشِي عليها الدَّاخِلُ إلى المَدينَة، وجَعَل الماءَ يَدور حَوْلَ الرَّبَض، ونَصَبَ عليها أعْلامًا وحَرَسًا، ثم غَرَسَ وَراء ذلك مما يَتَّصل بالبَرِّيَّة النَّخْل والكَرْم، وجَميع أصْناف الشَّجر على أقْسام مَقْسومَة، ومن وَراء ذلك كلّه مَزارِع الغَلَّات من كلِّ جِهَة، كلُّ ذلك خَوْفًا من الوَليد.

قال: وبين هذه المَدينَة وبين مَنْف ثلاثة أيَّام، وكان يُقيمُ فيها ويَخْرُج إليها، ثم يَعُود إلى مَنْف، وكان لها أربعة أعْياد في السنة، وهي الأوْقات التي يَتَحَوَّل العُقابُ فيها.

فلمَّا تَمَّ لعَوْن ذلك اطمأنَّ قلبُه، إلى أن وافَى إليه كِتابُ الوَليد من التُّوبةِ، يأْمُره بحَمْل الأَزْواد ونَصْب الأَسْواق. فوَجَّه إليه في البَرّ والبَحْر بما أراد، وحَوَّلَ أَهْلَه ومن اصْطَفاه من بَنات المُلُوك والكُبَراء إلى المَدينَة. فلمَّا قَرُب الوَليد، خَرَجَ إليها وتَحَصَّن فيها، واسْتَخْلَفَ على مَنْف.

فقَدِمَ الوَليدُ، وقد سَمِع ما فَعله عَوْن، فغَضِبَ وهَمَّ أن يَبْعَثَ إليه جَيْشًا، فعَرَفَ بخَبَر المَدينَة ومَنَعَتها وخَبَر السَّحَرَة، فكَتَبَ إليه أن يَقْدَم عليه، ويُحَذِّره عاقِبَة التَّخَلُّف؛ فأجابَه: ما على الملك مِنِّي مَئونَة ولا تَعَرُّض، ولا عَبَث في بَلَده لأنِّي عَبْده، وأنا له رِدْءٌ في هذا المكان من كلِّ عَدُوّ يأْتيه من الغَرْب، ولا أَقْدِر على المسير إليه لخَوْفي منه، فليُقِرَّني الملكُ بحالي كأحَد عُمَّاله، وأُوَجِّه إليه

a) بولاق: بها. b) زيادة من النويري.

ما يَلْزَمُني من خَراجِه وهَداياه؛ وبَعَثَ إليه بأَمْوالٍ جَليلَة وجَوْهَر نَفيس، فكَفَّ عنه. وأقامَ الوَليدُ بمصر حتَّى مات [1].

ذِكْرُ مَدينَةِ الفَيّوم

اعْلَم أنَّ مَوْضِعَ الفيّوم كان مَغيضَ ماء النّيل، فلمَّا وَلِيَ السَّيّد يُوسُف الصِّدِّيق ـ عليه السَّلام ـ تَدْبير أُمُور مصر، عَمَّرَها [2].

قال ابنُ وَصِيف شَاه: ثم مَلَكَ الرَّيّانُ بن الوَليد ـ وهو فِرْعُون يُوسُف، والقِبْطُ تُسَمِّيه نَهْراوش ـ فجَلَسَ على سَرير المُلْك، وكان عَظيمَ الخَلْق، جَميل الوَجْه، عاقِلًا مُتَمَكِّنًا؛ فوَعَدَ بالجَميل، وأَسْقَطَ عن النَّاس خَراجَ ثلاث سنين، وفَرَّقَ المالَ في الخَاصّ والعَامّ [3]. ومَلَّكَ على البَلَد رَجُلًا من أَهْلِ بَيْته يُقالُ له أَطْفين [a]، وهو الذي تُسَمِّيه أَهْلُ الأَثَر: العَزيز، فأَمَرَ أن يُنْصَبَ له في قَصْر المَلِك سَريرٌ من فِضَّة يَجْلس عليه، ويَغْدو فيه ويَرُوح إلى باب المَلِك، ويُخْرِج العُمَّال والكُتَّاب بين يَدَيْه فكَفَى نَهْراوس ما خالَفَ سَتْره، وقامَ بجَميع أُموره، وخَلَّاه للَذَّته [4].

فانْغَمَسَ نَهْراوش في لَهْوه ولم يَنْظُر في عَمَل، ولا ظَهَرَ للنَّاس حينًا، والبَلَد عامِر وهو لا يُسْأَل عن شَيْء، وعَمِلَ له مَجالِسَ من زُجاج مُلَوَّن، وحَوْلَها ماءٌ فيه أَسْماكٌ مُفْرِطَة وبَلُّور ملوَّن، فكان إذا وَقَعَت عليه الشَّمْسُ ظَهَرَ له شُعاعٌ عَجيب. وعُمِلَت له عِدَّةُ مُنْتَزَّهات على عَدَدِ أيَّام السنة، فكانَ كل يوم في مَوْضِعٍ منها، وعُمِلَ له في كلِّ مَوْضِع من الآنِيَة والفَرْش ما ليس لغَيْره.

---

a) بعد ذلك في نهاية الأرب: وقيل في اسمه قطفير، وقيل قوطيفر، وقرأه Wiet أطفير.

---

[1] النويري: نهاية الأرب ١٥:١١٥- ١١٩.

[2] الفيّوم. من المدن المصرية القديمة ويطلق اسمها أيضًا على الإقليم وهي تقع في مصر الوسطى في الصحراء الغربية غربي النّيل قرب أسيوط، يربطها بالنيل خليج المنهى المعروف ببحر يوسف وهي اليوم عاصمة محافظة الفيّوم (ياقوت: معجم البلدان ٤:٢٨٦- ٢٨٨؛ مجهول المؤلف: الاستبصار ٩٠- ٩١؛ ابن مماتي: قوانين ٧٩، ٢٢٩؛ القلقشندي: ٣: ٣٧٦، ٣٩٣- ٣٩٤؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٤:٨٤- ٩٤؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/ ٣: ٩٦؛ Maspero & Wiet, *Matériaux*, pp. 142-43; Holt, P. M., *EI*² art. *al-Fayyûm* II, p. 893).

ومن أهم مصادر تاريخ الفيوم ونظام الزراعة وجبي الخراج والضرائب في مصر في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كتاب «تاريخ الفيوم وبلاده» لعثمان بن إبراهيم النابلسي الذي نشره B. Moritz في القاهرة سنة ١٨٩٩، وانظر كذلك دراسة كلود كاهن الهامة Cahen, Cl., «Le régime des impôts dans le Fayyûm ayyûbide», *Arabica* III (1956), pp. 8-30).

[3] النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٢٠.

[4] فيما تقدم ٣٨٤.

فاتَّصل بمُلوك / النَّواحي تُشاغِلُه بلَذَّته وتَدْبير أَطْفين. فسارَ مَلِكٌ من العَماليق ـ يُقال له أبو قابوس عاكِن بن بيجوم[a] ـ إلى مصر، ونَزَل على حُدودها، فجَهَّز إليه العَزيزُ جيشًا عليه قائِدٌ يُقال له بريانس، فأقامَ يُحارِبه ثلاث سنين، فظَفِرَ به العَمْليقي وقَتَلَه، وهَدَمَ الأَعْلام والمَصانِع، وقَوِي طَمَعُه في البَلَد. فاجْتَمَع الناسُ إلى قَصْر الملك واسْتَغاثُوا، فخَرج إليهم، وعَرَض جُيوشَه، وخَرَج في ستّ مائة ألف مُقاتِل سِوى الأَتْباع، فالْتَقوا من وَراء الحَوْف، وكان بينهما قِتالٌ شَديدٌ، فانْهَزم العَمْليقي، وتَبِعه نَهْراوش إلى حَدّ الشَّام، وقَتَل خَلْقًا من أَصْحابه، وأَفْسَدَ زُروعَهم وأَشْجارَهم، وحَرَّق وصَلَب، ونَصَبَ أَعْلامًا على الأَماكِن التي وَصَلَها، وزَبَر عليها: «إنّي لمَنْ يُجاوِز هذا المكان بالمِرْصَاد».

وقيل إنَّه بَلَغَ المَوْصِل، وضَرَب على أَهْلِ الشَّام خَراجًا، وبَنَى عند العَريش مَدينَةً لَطيفَةً وشَحَنَها بالرِّجال. ورَجَع إلى مصر، فحَشَد من جميع الأَعْمَال جُنودًا، واسْتَعَدَّ لغَزْو مَلِك الغَرْب، وخَرَجَ في سبع مائة ألف، فمَرَّ بأَرْض البَرْبَر، وأَجْلَى كثيرًا منهم، وجَهَّز قائِدًا في السُّفُن من ناحية رَقُّودة إلى جَزائِر بَني يافِث، فعاثَ فيها، وخَرَج من ناحية أَرْض البَرْبَر، فقَتَل وصالَح بعضهم على مالٍ حَمَلوه إليه.

ومَضَى إلى إفْريقيَّة وقَرْطاجَنَّة، فصالَحُوه على مالٍ، ومَرَّ حتى بَلَغ مَصَبّ البَحْر الأَخْضَر إلى بَحْر الرُّوم ـ وهو مَوْضِع الأَصْنام النُّحَاس ـ فأقامَ هناك صَنَمًا زَبَرَ عليه اسمَه وتاريخَ خُروجِه، وضَرَبَ على أَهْل تلك النَّواحي الخَرَاج. وعَدَّى إلى الأَرْض الكَبيرَة، وسارَ إلى الأَنْدَلُس، فحارَبَه مَلِكُها أيَّاما، ثم صَالَحَه على مالٍ، وأن يَمْنَعَ من يَغْزو مصر من ناحِيته. وانْصَرف على غَيْر البَحْر مُشَرِّقًا في بلاد البَرْبَر، فلم يمرّ بأُمَّة إلَّا ودَخَلت في طاعَته.

ومَرَّ في الجَنوب فقَتَل خَلْقًا، وبَعَثَ قائِدًا إلى مَدينَة على البحر الأَسْوَد، فخَرَجَ إليه مَلِكُها، وذَكَرَ له حالَ الرَّيّان ومُصالَحَة الملوك له، فقال: ما بَلَغَنا أَحَدٌ قط. وسأله القائدُ عن البَحْر: هل رَكِبَه أَحَدٌ قط؟ فقال: ما يَقْدر أحَدٌ على رُكوبه، ورُبَّما أَظَلَّه غَمامٌ فلا يُرَى أيامًا؛ وقَدِمَ الرَّيَّانُ، فحَمَلوا الهَدايا إليه، فاكِهَةً أَكثَرها المَوْز، وحِجارَة سَوْداء إذا جُعِلَت في الماء صارَت بَيْضَاء. ثم سارَ الملكُ على أُمَمِ السُّودان إلى مَمْلَكَة الدَّمْدَم الذين يَأْكُلون النَّاس، فخَرَجُوا إليه عُراةً، فهَزَمَهم وظَفِر بهم.

---

a) بولاق: عاكر بن بخوم.

ومَرَّ على البحر المُظْلِم، فغَشِيَهم منه غَمام، فترَجَّع شَمالًا حتى انتهَى إلى تِمْثالٍ من حَجَرٍ أحمر يومئ بيده: ارْجِعوا، وعلى صَدْرِه مَزْبُور: «ما وَرائي أَحَدٌ».

فسارَ إلى مَدينَة النُّحاس فلم يَصِل إليها، ومَضَى إلى الوادي المُظْلم، وكانُوا[a] يَسْمَعُون منه جَلَبَة عَظيمَة، ولا يَرَوْن أحدًا لشِدَّة ظُلْمَته.

وسارَ إلى وادي الرَّمْل، فرَأَى على مَعْبَره أصْنامًا عليها أسماء المُلوك، فأقامَ عليه صَنَمًا زَبَرَ عليه اسمه، فلمَّا أَثْبَتَ الرَّمْل جازَ عليه إلى الخَراب المُتَّصل بالبَحْر الأَسْود، فرأَى سِباعًا يَزْأَر بعضُها على بَعْض، فحَكَمَ أنَّه لا مَذْهَب له من وَرائِها.

فرَجَع وعَدَّى وادي الرَّمْل، ومَرَّ بأَرْض العَقارِب، فهَلَك بعضُ أصْحابِه، ودَفَعُوا عن أَنْفُسهم أذاها بالرُّقَى، وجازَها إلى مَدينَة الحُكَماء - وتُعْرف بمَدينَة الكَنْد - ففَرُّوا منه إلى جَبَل، فأقامَ عليه أيامًا حتى كادَ يَهْلِك جَيْشُه عَطَشًا؛ فنَزَلَ إليه من الجَبَل رَجُلٌ من أفاضِل الحُكَماء، وقد لَبِس شَعْرُه جَسَدَه، فقال للمَلك: أين تُريد أيها المَغْرور المَمْدود له في الأَجَل، المَرْزوق فَوْق الكِفاية؟ أَتْعَبْتَ نَفْسك وجَيْشَك، ألا اجْتزأت بما تَمْلكه، واتَّكَلْت على خالِقِك، ورَبِحْت الرَّاحَة، وتَرَكْتَ العَناء والغَرَر بهذا الخَلْق؟ فعَجِب من قَوْله، وسأله عن الماءِ فدَلَّه عليه. وسأَلَه عن مَوْضِعهم، فقال: مَوْضِعٌ لا يصل إليه أحدٌ، ولا بَلَغه قَبْلَك أَحَدٌ؛ فقال: ما عَيْشُك؟ قال: من أُصول النَّبات نَقْنَع به، ويَكْفينا اليَسير. قال: فمن أين تَشْربون؟ قال: من الأَمْطار والثُّلوج. قال: فلِمَ هَرَبْتُم مِنَّا؟ قال: زَهادَةً في مُخالَطَتكم، وإلَّا فليس لنا ما نَخافُكم عليه؛ قال: فكَيْف بكم إذا حَمِيَت الشَّمْسُ؟ قال: نأْوي إلى غِيرانٍ تحت هذا الجَبَل؛ قال: فهل لكم في مالٍ أُخَلِّفه لكم؟ قال: إنَّما يُريد المالَ أَهْلُ التَّرَف، ونحن لا نَسْتَعْمل منه شيئًا، اسْتَغْنَيْنا عنه بما قد اكْتَفَيْنا به، وعندنا منه ما لو رأَيْتَه لاحْتَقَرْتَ ما عندك؛ قال: فأَرنيه، فانْطَلَق بنَفَرٍ من أصْحابِه إلى أَرْضٍ في سَفْح جَبَلهم فيها قُضْبانُ ذَهب نابِتَة، وأراهُم وادِيًا لهم في حافَتَيْه حِجارَةُ زَبَرْجَد وفَيْرُوز. فأَمَر نَهْراوش أصحابَه أن يَحْملوا من كِبار تلك الحِجارة، فَفَعَلوا.

ورَأَى الحكيمُ جَماعَةَ الملك يُصَلُّون إلى صَنَمٍ يحملونه معهم، فسأَلَ الملكَ أَلَّا يُقيم بأرْضهم، وخَوَّفه من عِبادَة الأصْنام؛ فوَدَّعه وسارَ، فلم يمرّ بأُمَّة إلَّا أَثَّر فيها، حتى بَلَغ النُّوبَة فصالَحَهم على مالٍ، وأقامَ على دَنْقُلة صَنَمًا وزَبَرَ عيه اسمه ومَسيره. وسارَ يُريد مَدينَة مَنْف، فكان أَهلُ كلِّ

---

a) بولاق: فكانوا.

مَدينَةٍ من مَدائن مصر يَتَلَقَّونه بالفَرَح والسُّرور والرَّياحين والطِّيب إلى أن بَلَغَ مَنْف ، فخَرَج أهْلُها إليه مع العَزيز بأصْنافِ الرَّياحين والطِّيب .

وكان العَزيزُ قد بَنَى له مَجْلِسًا من زُجاجٍ مُلَوَّن ، و فَرَشَه بأحْسَنِ فَرْش ، وغَرَسَ حوله الأشجار والرَّياحين ، وجَعَلَ فيه بَحْرَةً[a] من زُجاجٍ سماوي ، وفي أرْضه شِبْه السَّمَك من زُجاج أبيض ، فنَزَل الملكُ فيه ، وأقامَ الناسُ يأكلون ويَشْرَبون أيامًا كثيرة .

وتَفَقَّدَ جَيْشَه ، ففَقَدَ منهم سبعين ألفًا ، ووَجَدَ فيهم ممَّن أَسَره نَيِّفًا وخمسين ألفًا . فكانت / مُدَّة غَيْبَته عن مصر ، في مَسيره هذا ، إحدى عشرة سنة .

فلمَّا بَلَغَ الملوكَ قُدومُه هابُوه ، واشْتَدَّ بأسُه وتَجَبَّر ، وبَنَى في الجانِب الشرقيّ قُصُورًا من رُخام ، ونَصَب عليها أعْلامًا ، وأَمَر بالعِمارَة وإصْلاح الجُسُور واسْتِنْباط الأراضي ، حتى زادَ الخَراج على مائة ألف ألف دينار [1] .

ودَخَلَ إلى البَلَد في أيَّامه غُلامٌ من أهْل الشَّام احْتالَ عليه إخْوَتُه وباعُوه ـ وكانت قَوافِلُ الشَّام تَعْرِس بناحِية المَوْقِف اليوم ـ فوَقَف الغُلام ونُودي عليه ، وهو يُوسُف الصِّدِّيق بن يَعْقوب بن إبراهيم خَليل الرَّحْمن ـ صَلواتُ الله عليهم وسَلامُه ـ فاشْتَراه أطْفين العَزيز[b] ليُهْديه إلى الملك [2] ، فلمَّا أتَى به قَصْرَه رَأَتْه امرأته زُلَيْخا ، وهي ابْنَة عَمِّه ، فقالت : اتْرُكْه لنا نُرَبِّيه ليَنْفَعَنا ، ففَعَل[b] ، وكان من أمْرِها ما قَصَّه الله تعالى في القُرْآن .

فكانَت تَكْتُم حُبَّه حتى غُلِبَت ، فخَلَت به وتَزَيَّنَت له ، وعَرَّفَته أنَّها تُحِبّه ، وأنَّه إن واتاها على ما تُريده منه حَبَتْه بمالٍ عَظيم ، فامْتَنَع من ذلك . ورامَت[c] أن تَغْلِبه ، فما زالَت تُعارِكه ، وهو يَمْتَنِعُ عليها[d] ، إلى أن وافَى زَوْجها ، ورآه وهو هارِبٌ منها ـ وكان العَزيزُ عِنِّينًا لا يأْتي النِّساءَ ـ فجَعَلَ يوسُف يَعْتَذر إليه ، وقالت : إنِّي كُنْتُ نائِمَةً فأتاني يُراوِدُني عن نَفْسي . وتَبَيَّنَ من شاهِد أهْلِها أنَّ الأمْرَ من قِبَل امْرأتِه ، فقال ليُوسُف : ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ـ أي عن اعْتِذارك ـ وقال لها : ﴿اسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ﴾ [الآية ٢٩ سورة يوسف] .

---

a) عند النويري : صهريجا . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : ورأت . d) بولاق : ممتنع عنها .

---

[1] النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٢٠- ١٢٥.   [2] فيما يلي ١ : ٣٤٦.

وقد كان خَبَرُ أَطْفين والغُلام بَلَغ الملك ، وكان نَهْراوش عاوَدَ العُكوفَ على اللَّهْو والاحْتِجاب عن النَّاس .

واتَّصَل خَبَرُ زُلَيْخا ويُوسُف بنِساء الخَاصَّة ، فعَيَّرْنَها بذلك ، فدَعَت جَماعَةً منهن ، وصَنَعَت لهنّ طَعامًا وشَرابًا ، وعَمِلَت مَجْلِسَيْنِ مُذَهَّبَيْن ، وفَرَشَتْهما بدِيباج أَصْفر مُذَهَّب ، وأَرْخَت عليهما سُتورَ الدِّيباج ، وأَمَرت المَواشِطَ بتَزْيِين يُوسُف وإخراجه من المجْلِس الذي يُحاذِي المجْلِس الذي كانت مع النِّسْوة فيه ، وكان المجْلِسُ مُحاذِيًا للشَّمْس .

فأَخذَتْه المَواشِطُ ، ونَظَمْن شَعْرَه بأَصْناف الجَواهِر ، وأَلْبَسْنَه ثَوْبَ دِيباج أَصْفَر قد نُسِجَ بدارات حُمْر مُذَهَّبة فيها أَطْيارٌ صِغارٌ خُضْر ، مُبَطَّن ببِطانَة خَضْراء ، ومن تحْته غلالة حُمْراء ، وعلى رأسه تاجٌ قد نُظِم بالدُّرّ والجَوْهر ، وأَخْرَجْن من تحت التّاج أَطْرافَ شَعْره على جَبْهَته ، وردَدْن ذَوائِبَه على صَدْره ، وجَعَلْن جَبْهَتَه مكشوفَةً والتَّاج مُحيط بها ، وفي أُذُنَيْه قُرْطَيْ جَوْهَر ، ومن خَلْف طَوْق القِباء شَعْرٌ مُسْبَل بين كَتِفَيْه مَنْظومٌ مُشَبَّك بالذَّهب والجَوْهَر ، وفي عُنُقه طَوْقٌ مَنْظوم بِذَهَب ، مُشَدَّد بجَوْهَر أحمر ودُرٌّ فاخِر ، وفي وَسَطه مِنْطَقَة ذَهَب ، فيها كَواكِب[a] جَوْهَر ملوَّن ، ولها مَعاليق مَنْظومَة ، وأَلْبَسْنَه خُفَّيْن أَبيضَيْن مَنْقوشَيْن بأَخْضَر على نُقُوش ذَهَب ، وجَعَلْن للقِباء الذي عليه وُشاحَيْن على كتفيه[b] وفَراوِز يُحيط بأَسْفَله ، وكُمَّيْه من جَوْهَر أَخْضَر ، وعَقْرَبْنَ صَدْغَيْه على خَدَّيْه ، وكَحَّلن عَيْنَيْه ، ودَفَعْن إليه مَذَبَّة شَعْرها أخضر .

فلمَّا فَرَغ النِّساءُ من طَعامِهن ، وشَرِبْن أَقْداحًا ، قَدَّمت إليهن سَكاكينَ نصُلُهنّ[c] من جَوْهَر لِيَقْطَعنَ بها الفاكِهَة . فيُقالُ إنَّهن أَخذْن أُتْرُجًا وهن يُقَطِّعْنَه ، إذ قالَت لهن : قد بَلَغني حَديثكنّ في أَمْري مع عَبْدِي ؛ فقلن لها : الأَمْرُ كما بَلَغَك ، لأَنَّك أَعلى قَدْرًا من هذا ، ومِثْلُك يَرْتَفع عن أَوْلاد الملوك لحُسْنك وشَرَفك ، فكيف تَرْضين بغُلامِك ؟ فقالَت : لم يَبْلُغكن الصِّدْق ، ولا هو عندي بهذا ؛ وأَوْمأَت إلى المَواشِط أن يُخْرِجْن يُوسُف ، فرَفَعْن السُّتورَ عن المجْلس الذي يُحاذي مَجْلسَها ، وبَرَزَ منه يُوسُف مُحاذِيًا بوَجْهِه الشَّمْس ، فأَشْرَق المجْلسُ وما فيه من وَجْه يُوسُف ، وأَقْبَل بالمَذَبَّة ـ وهن يَرْمُقْنَه ـ فوَقَفَ على رأس زُلَيْخا يَذُبّ عنها . فاشْتَغَل النِّساء برُؤْيَته ، وجَعَلْن يُقَطِّعْن أَيْديهنّ مَوْضِع الفاكِهَة التي كانت معهنّ ، ولا يَعِينَ الكلامَ ذهُولًا منهن بما رَأَيْن من حُسْن يُوسُف ؛ فقالت لهنّ زُلَيْخا : ما لكنّ قد اشْتَغَلتنّ عن خِطابي بالنَّظَر إلى عَبْدي ؟ فقلن : معاذَ الله !

a) بولاق : لوالب . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : مقبضهن .

ما هذا عَبْدُك ، إن هذا إلَّا مَلَكٌ كريم ! ولم يَبْقَ منهن امرأةٌ إلا حاضَت ، وأنزلت شَهْوةً من مَحَبَّته ؛ فقالت زُلَيْخا عند ذلك : فهَذا الذي لُمْتُنَّني فيه ؛ فقلن : ما يَنْبَغي لأَحدٍ أن يَلومَكَ في هذا ، ومَنْ لامَكَ فقد ظَلَمَك ، فدُونكه ، قالت : قد فَعَلْتُ فأَبَى عليَّ ، فخاطِبْنَه لي .

فكانت كلُّ واحِدَة منهن تُخاطِبه ، وتَدْعوه سِرًّا إلى نَفْسِها ، وتَبْتَذِل له وهو يَمْتَنِع عليها ، فإذا يَئِسَت منه أن يُجيبَها لنَفْسِها ، خاطَبَتْه من جِهَة زُلَيْخا ، وقالت : مَوْلاتُك تُحِبُّك وأنت تَكْرَهُها ، ما يَنْبَغي أن تُخالِفَها ، فقال : ما لي بذلك حاجَة ؛ فلمَّا رأين ذلك أَجْمَعْن على أَخْذه غَصْبًا ، فقالت زُلَيْخا : لا يَجُوز هذا ، لكنَّه إن لم يَفْعل لأُمْنَعَنَّه اللَّذات ، ولأُسْجِنَّنه ، وأَنْتَزِع جميعَ ما أَعْطيته ؛ فقالت يُوسُف : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [الآية ٣٣ سورة يوسف] .

فأَقْسَمَت بإلهِهَا ـ وكان صَنَمًا من زَبَرْجَد أَخْضَر باسم عُطارِد ـ أنَّه إن لم يَفْعَل لتُعَجِّلَنّ له ذلك . ثم أَمَرت بنَزْع ثِيابِه ، وأَلْبَسَتْه الصُّوف ، وسأَلت العَزيزَ حَبْسَه ليزول ما قَذَفَها به ، فأَمَرَ به فحُبِسَ .

ورأَى الملكُ في مَنامِه كأنَّ آتِيًا أَتاه فقال له إنَّ فُلانًا وفُلانًا قد عَزَما على قَتْلِك ـ يُريد صاحِبَيْ طعامِه وشَرابِه ـ فلمَّا أَصْبَح قَرَّرهما ، فاعْتَرَفا له ، وقيل اعْتَرَف أَحَدُهما وأَنْكَرَ الآخر ، فأَمَرَ بحَبْسِهِما . وكان اسْمُ صاحِب الطَّعام « راسان » ، واسمُ صاحِب الشَّراب « مَرْطَس » .

وكان يُوسُف وهو في السِّجْن ، رَءوفًا بمن فيه ويَعِدُهم / الفَرَج ؛ فأَخْبَرَه صاحِبا طَعام الملك وشَرابِه برُؤْياهما التي قَصَّها الله في كِتابه ، فوَقَع كما قَصَّه يُوسُف .

ورَأَى الملكُ البَقَرات والسَّنابل ، فعَرَّفه السَّاقي خَبَر يُوسُف ، فمَضَى إليه وقَصَّها عليه . فلمَّا عادَ إلى الملك ، قال : جيئوني به ؛ فقال يُوسُف : ما أَخْرُج ، أو يُكْشَف أَمْرُ النِّسْوَة اللاتي من أَجْلِهِنّ حُبِسْت ؛ فكُشِفَ عن ذلك ، فاعْتَرَفَت زُلَيْخا بالقِصَّة .

ووَجَّه إليه ، فأُخْرِج وغُسِلَ من دَرَن السِّجْن وأُلْبِسَ ما يَليقُ بالدُّخول على المُلوك . فلمَّا رآه امتلأَ قَلْبُه من حُبِّه وإكْبارِه ، وسَأَلَه عن الرُّؤْيا ، ففَسَّرها كما قال الله تعالى ؛ فقال الملكُ : ومَنْ يقوم لي بذَلك ؟ فقال : أنا . فخَلَعَ عليه خِلَعَ المُلوك ، وأَلْبَسه تاجًا ، وأَمَرَ أن يُطافَ به ، ورَكِبَ الجَيْشُ معه ، وتَرَدَّد إلى قَصْر المَلِك ، وجَلَسَ على سَرير العَزيز ، واسْتَخْلَفه الملكُ على مُلْكِه مكانَه .

ويُقالُ : إنَّ العزيزَ أَطْفِين كان قد ماتَ ، فزَوَّجه امْرَأته ؛ وقال لها يُوسُف : هذا أَصْلَح ممَّا أَرَدْت ؛ فقالت : اعْذُرني إنَّ زَوْجي كان عِنِّينًا ، ولم تَرَكَ امْرَأةٌ إلَّا صَبا قَلْبُها إليك من حُسْنِك .

وجاءَت سِنُو خِصْب في مصر ، فجَمَعَ يُوسُف الغِلالَ وخَزَنَها وأكثرَ منها . فلمَّا جاءَت سُنو الجَدْب بدأَ النِّيلُ في النُّقْصان ، وكان يَنْقُص كلَّ سَنَة أكثر من التي قَبْلَها ، فقَحَطَ البَلَدُ حتى بيع القَمْحُ بالمالِ والجَوْهَر والدَّواب والثِّياب والآنِيَة والعَقار ، وكادَ أهلُ مصر يَرْحَلون عنها لوْلا تَدْبيرُ يُوسف .

وقَحَط الشَّامُ أيضًا ، وكان من مَجيء إخْوَة يُوسُف ما قَصَّه الله تعالى ، ووَجَّه إلى أبيه فحُمِلَ إلى مِصْر وجَميع أهْله ، وخَرَجَ في وُجُوه أهْل مصر فتَلَقَّاه وأَدْخَلَه على المَلِك .

وكان يَعْقُوب مَهيبًا[a]، فأَعْظَمَه الملك ، وسَأَلَه عن سِنِّه وصِناعَتِه وعِبادَتِه ؛ فقال : سِنِّي عشرون ومائة سنة ، وأمَّا صَناعَتي فَلَنا غَنَمٌ تَرْعَى نَنْتَفِع بها ، وأَعْبُد رَبَّ العالمين الذي خَلَقَك وخَلَقَني ، وهو إلهُ آبائي وإلهُك وإله كلِّ شيءٍ .

وكان في مَجْلس المَلك كاهِنٌ جَليلُ القَدْر ، فقال للمَلك : إنِّي أخافُ أن يكونَ خَرابُ مصر على يَد وَلَدِ هذا ؛ فقال له الملك : فأَنَّى لنا خَبَرُه ، فقال الكاهِنُ ليَعْقوب : أَرِني إلهَكَ أيُّها الشَّيْخُ ؛ قال : إلَهِي أَعْظَمُ من أنْ يُرَى ، قال : فإنَّا نَرى آلِهَتَنا ، قال : إنَّ آلِهَتَكم من ذَهَب وفِضَّة وحِجارَة وجَوْهَر ونُحاس وخَشَب مِمَّا يَعْمَلُه بنو آدَم ، وهم عَبيدُ إلهي ، لا إلَه إلَّا هُوَ العَزيزُ الحكيم ؛ قال الكَاهِنُ : إنَّ كُلَّ شيءٍ لا تَراه العُيُونُ لَيس بشَيءٍ . فغَضِبَ يَعْقُوب وكَذَّبَه ، وقال : إنَّ الله شيءٌ لا كالأَشْياء ، وهو خالِقُ كلِّ شيءٍ لا إلَه إلَّا هُو . قال : فصِفْهُ لنا ؛ قال : إنَّما يُوصَف المَخْلوق ، لكنَّه خالِقٌ واحِدٌ قَديمٌ مُدَبِّر أَزَليٌّ ، يَرَى ولا يُرَى .

وقامَ يَعقوبُ مُغْضَبًا ، فأَجْلَسَه الملكُ ، وأَمَرَ الكاهِنَ فكَفَّ عنه . فقال الكاهِنُ : إنَّا نَجِدُ في كُتُبِنا أنَّ خَرابَ مِصْرَ يَجْرِي على أيْدي هؤلاء ؛ فقال الملك : هذا يكون في أيَّامِنا ؟ قال : لا ، ولا إلى مُدَّة كثيرة ، والصَّوابُ أن يَقْتُلَه الملكُ ولا يُبْقي من ذُرِّيَتِه أحدًا ، فقال المَلكُ : إن كان الأَمْرُ كما تَقُول فلا يُمْكِننا أن نَدفَعَه ، ولا نَقْدر على قَتْل هَؤُلاء .

وأَنْزَلَ يَعْقوبَ ومَنْ معه بوادي السَّدير إلى أن ماتَ ، فحُمِلَ إلى قَرْيَة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ودُفِنَ عنده .

ويُقالُ إنَّ نَهْراوش الملك آمَن ، وكَتَم إيمانَه خَوْفًا من فَسادِ أَمْرِه ، وأقامَ مَلِكًا مائةً وعشرين سنة .

---

a) بولاق : مهابًا .

وفي وَقْتِه عَمِلَ يُوسُف الفَيُّوم ، فإنَّ أَهْلَ مصر كانوا وَشَوا به إلى المَلِك ، وقالوا : قد كَبِرَ ونَقَصَ نَفْعُه ، فاخْتَبِره ، فقال له : إنّي وَهَبْتُ هذه النَّاحِيَة لابْنَتي - وكانت مَغايِضَ للمَاء - فدَبِّرْها لها ، فعَمِلَها يُوسُف ، واحْتالَ للمِياه حتى أَخْرَجَها وقَلَعَ أَدْغالَها[a]، وساقَ المَنْهَى وبَنَى اللَّاهُون ، وجَعَلَ الماءَ فيها مَقْسومًا مَوْزونًا ، وفَرَغَ منها في شُهور أربعة ، فعَجِبُوا من حِكْمَتِه .

ويُقالُ إنَّه أوَّل مَن هَنْدَسَ بمصر .

وماتَ نَهْراوش ، فخَلَف ابنه دريموس[b]، وسَمَّته أَهْلُ الأَثَر دَارِم بن الرَّيَّان ، هو الفِرْعَون الرَّابع عندهم ، فخالَف سُنَّة أبيه[1]. وكان يُوسُف خَليفَته ، فقَبِلَ منه بَعْضًا ، وخالَفَه في البَعْض .

فماتَ يُوسُف في أَيَّامه وله مائة وعشرون سنة ، فكُفِّن وجُعِلَ في تابوتٍ من رُخَام ، ودُفِنَ في الجانِب الغَرْبي فأَخْصَبَ ونَقَص الشَّرْقي ، فحُوِّل إليه فأَخْصَبَ ونَقَصَ الغَرْبي ، فاتَّفَقُوا على أن يَجْعَلوه في الشرقي عامًا وفي الغربي عامًا ، ثم حَدَثَ لهم من الرَّأي أن يَجْعَلوا له حَلَقًا وَثاقًا ويَشُدُّوا التَّابوتَ في وَسَط النِّيل ، فأَخْصَبَ الجانِبان كِلاهُما[2].

وقال ابنُ عبد الحكَم : فمَلَكَهُم الرَّيَّان بن الوَليد بن دَوْمَغ ، وهو صاحِبُ يُوسُف النَّبي - عليه السَّلام - فلمَّا رَأَى المَلِكُ رُؤْياه التي رأَى وعَبَّرَها يُوسُف ، أَرْسَلَ إليه الملكُ فأَخْرَجَه من السِّجْن ، قال ابنُ عَبَّاس رضي الله عنهما : فأَتاهُ الرَّسولُ فقال : أَلْقِ عنك ثِيابَ السِّجْن ، والْبِس ثِيابًا جُدُدًا ، وقُمْ إلى المَلِك ، فدَعَا له أَهْلُ السِّجْن ، وهو يومئذٍ ابن ثلاثين سنة ، فلمَّا أَتاهُ ، رَأَى غُلامًا حَدَثًا فقال : أَيَعْلَم هذا رُؤْياي ولا تَعْلمها السَّحَرَة والكَهَنَة ؟ وأَقْعَدَه قُدَّامُه وقال له : لا تَخَف ؛ قال : فلمَّا اسْتَنْطَقَه وسَأَلَه ، عَظُم في عَيْنَيْه ، وجَلَّ أَمْرُه في قلبه[c]، فدَفَع إليه خاتَمَه ، ووَلَّاه ما خَلْفَ بابِه ، وأَلْبَسَه طَوْقًا من ذَهَب وثِيابَ حَرير ، وأَعْطاه دَابَّة مُسْرَجَةً مُزَيَّنَةً كدَابَّة المَلِك ، وضُرِبَ بالطَّبْل بمصر أنَّ يُوسُفَ خَليفَة المَلك .

وعن عِكْرِمَة أَنَّ فِرْعَوْنَ قال لِيُوسُف : قد سَلَّطْتُك على مصر ، غير أنّي أُريدُ أن أَجْعَل كُرْسيّ أَطْوَل من كُرْسيك بأَرْبَع أَصابع ؛ وأَجْلَسَه / على السَّرير ، ودَخَلَ الملكُ بيته مع ١

a) بولاق : أوحالها . b) بولاق : ذرمجوش . c) بولاق : وجعل إليه أمره .

[1] فيما تقدم ٣٨٤- ٣٨٥.

[2] انظر تفاصيل قصة يوسف عند النويري : نهاية الأرب ١٣٦:١٣-١٥٦؛ وقارن مع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٨- ١٩.

نِسائه، وفَوَّض أَمْرَ مصر كلَّها إليه، فبِسَبَب عِبارَة رُؤْيا المَلِك، مَلَكَ يُوسُف مصر.

وعن اللَّيْث بن سَعْد قال: حَدَّثني مَشْيَخَةٌ لنا، قالوا: اشْتَدَّ الجُوعُ على أَهْل مصر، فاشْتَروا الطَّعامَ بالذَّهَب حتى لم يَجِدُوا ذَهَبًا، فاشْتَروا بالفِضَّة حتى لم يَجدُوا فِضَّة، فاشْتَروا بأغْنامِهم حتى لم يَجدوا غنمًا. فلم يَزَل يَبيعهم الطَّعامَ حتى لم يَبْقَ لهم فِضَّة ولا ذَهَب ولا شاةٌ ولا بَقرةٌ في تلك السنتين، فأتَوه في الثَّالِثَة فقالوا له[a]: لم يَبْقَ لَنا إلَّا أَنْفُسنا وأَهْلونا وأَرْضُونا، فاشْتَرَى يُوسُف أَرْضَهم كلَّها لِفِرْعَوْن، ثم أَعطاهُم يُوسُف طَعامًا يَزْرَعُونَه على أنَّ لِفِرْعَوْن الخُمُس[1].

ويُقَالُ في خَبَر بناء يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ مَدينَة الفَيُّوم: إنَّه لمَّا وَزَرَ لِفِرْعَوْنَ ثلاثين سنة عَزَلَه، فقال: لم عَزَلْتَني؟ قال: لم أَعْزِلْك عن ريبةٍ[b]، ولا أَنْسَى بَرَكَتك، ولكنَّ آبائي عَهِدوا إليَّ أَلَّا يَتَوَلَّى لنا وَزيرٌ أكثر من ثلاثين سنة، وإنَّا نَخْشَى أن يَتَأَصَّل الوَزيرُ حتى يُدَبِّر على المَلِك، فقال له يُوسُف: قد عَلِمْتَ نُصْحِي لك حتى صَيَّرْتَ ديارَ مصر كلَّها مُلْكًا لك، فأَقْطِعْني أَرْضًا تكون لقُوتي وقُوت أَهْلي وعَشيرَتي، فقال له فِرْعَوْن: اخْتَر حَيْث شِئْت.

فمَشَى يُوسُف في قِفارِ الأَرْضِ، حتى رَأَى أَرْضَ الفَيُّوم وفيها جَبَلٌ حائِلٌ بين النِّيل وبينها، فوَزَن ماءَ النِّيل حتى رأَى أنَّ قاعَهَا يَرْكَبه النِّيل، فخَرَق خَرْقًا في ذلك الجَبَل، وساقَ الماء فيه إلى الفَيُّوم فسَقَى الأَرْضَ.

وعَمِلَ في جَوانِب الماء ثلاث مائة وستين قَرْيَة على عَدَد أيَّام السنة، وشَحَنَها بالغِلال والأَقْوات التي ازْدَرَعَها، فكانَ إذا نَقَصَ النِّيلُ ووَقَعَ الجُوعُ بأَرْض مصر، باعَ كلَّ يوم ما جَمَعَه في قَرْيَة من قُرَى الفَيُّوم، حتى مَلَكَ مصرَ لنفسه كما جَمعها للملك.

فعَظُم شَأْنُ يُوسُف وكَثُرَ مالُه، فرَدَّه الملكُ بعد مَدَّة إلى وَزارَته. وتُوُفِّيَ وهو وَزير، فأَوْصَى بخُروج جُثَّتِه إلى الأَرْض المُقَدَّسَة، فخَرَجَ بها هارون بن أفراييم بن يُوسُف في مائة ألف من بني إسْرائيل، فهَزَمَتْه الجَبابِرَةُ فيما بين مصر والشَّام، وهَلَكَ أكثرُ من مَعَه، وعادَ بمن بَقِيَ معه إلى مصر، فأقامُوا بها حتى بَعَثَ الله مُوسَىٰ بن عِمْران ـ عليه السَّلام ـ إلى فِرْعَوْن رَسولًا، فخَرَجَ بِبني إسْرائيل من مصر ومَعَه جُثَّة يُوسُف ـ عليه السَّلام.

a) ساقطة من بولاق. b) بولاق: لريبة.

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٣ - ١٤.

وفي ذلك الزّمان اسْتُنْبِطَت الفَيُّوم ، كان سَبَبُ ذلك أنَّ يُوسُف لمَّا مَلَكَ مصر ، وعَظُمَت مَنْزِلَته من فِرْعَوْن ، وجاوَزت سِنُّه مائة سنة ، قال وُزرَاءُ المَلِك له : إنَّ يُوسُف قَلَّ عِلْمُه ، وتَغَيَّر عَقْلُه ، ونَفِدَت حِكْمَتُه . فعَنَّفَهم فِرْعَوْنُ ، ورَدَّ عليهم مَقالَتَهم ، وأساءَ اللَّفْظَ لهم ، فكَفُّوا .

ثم عاوَدوه بذلك القَوْل بعد سنين ، فقال لهم : هلمُّوا ما شِئْتُم ، من أي شيءٍ أَخْتَبِرُه به ؟ وكان بلد الفَيُّوم يومئذٍ يُدْعى الجَوْبَة ، وإنَّما كانت لمُصالَة ماء الصَّعيد وفُضوله ، فاجْتَمَع رأيُهم على أن تكونَ هي المِحْنَة التي يَمْتَحِنون بها يُوسُف ، فقالوا لفِرْعَوْن : سل يُوسُف أنْ يَصْرِفَ ماءَ الجَوْبَة عنها ويُخْرِجَه منها ، فتَزْدادُ بَلَدًا إلى بَلَدك ، وخَراجًا إلى خَراجِك .

فدَعَا يُوسُفَ فقال : تَعْلَم مكان ابنتي فُلانَة مِنِّي ، وقد رأيتُ إذا بَلَغَت أن أَطْلُبَ لها بَلَدًا ، وإنِّي لم أُصِب لها إلَّا الجَوْبَة ـ وذلك أنَّه بَلَدٌ بعيدٌ قَريبٌ ، لا يُؤتى من وَجْه من الوُجُوه إلَّا من غابَة أو صَحْراء ، وكذلك ليست هي تُؤْتَى من ناحية من النَّواحي من مصر إلَّا من مَفازَة وصَحْراء ، فالفَيُّوم وَسَط مصر كمَثَل مصر في وَسَط البلاد ، لأنَّ مِصْرَ لا تُؤْتَى من ناحية من النَّواحي إلَّا من صَحْراء أو مَفازَة ـ قال : وقد أَقْطَعْتُها إيَّاها ، فلا تتركن وَجْهًا ولا نَظَرًا إلَّا بَلَغْتَه . فقال يُوسُف : نَعَم أيُّها المَلِك ، مَتَى أَرَدْت ذلك فابْعَث إليَّ ، فإنِّي إن شاءَ الله فاعِلٌ ذلك ؛ قال : إنَّ أَحَبَّه إليَّ وأَوْفَقَه أَعْجَلَه .

فأُوحِيَ إلى يُوسُف أن تَحْفُر ثَلاثَة خُلُج : خَليجًا من أَعْلى الصَّعيد من مَوْضِع كذا إلى مَوْضِع كذا ، وخَليجًا شَرْقِيًّا من مَوْضِع كذا إلى مَوْضِع كذا ، وخَليجًا غَرْبِيًّا من مَوْضِع كذا إلى مَوْضِع كذا . فوَضَعَ يُوسُف العُمَّالَ ، فحَفَر خَليج المَنْهَى من أَعْلَى أُشْمُون إلى اللَّاهُون ، وأَمَر البَنَّائِين أن يَحْفُروا اللَّاهُون ، وحَفَرَ خَليجَ الفَيُّوم وهو الخَليجُ الشَّرْقي ، وحَفَر خَليجًا بقَرْيَة يُقالُ لها تَنْهَمْت[a] من قُرَى الفَيُّوم وهو الخَليج الغَرْبي . فخَرَج ماؤُها من الخَليج الشَّرْقي فصَبَّ في النِّيل ، وخَرَج من الخَليج الغَرْبي فصَبَّ في صَحْراء تَنْهَمْت إلى الغَرْب ، فلم يَبْق في الجَوْبَة ماءٌ . ثم أَدْخَلَها الفَعَلَة ، فقَطَع ما كان فيها من القَصَب والطَّرْفاء ، وأَخْرَجَه منها . وكان ذلك ابتداءَ جَرْي النِّيل ، وقد صارَت أَرْضُ الجَوْبَة أرضًا[b] نَقِيَّة برية ، وارْتَفَعَ ماءُ النِّيل فدَخَلَ في رأس المَنْهَى ، فجَرَى فيه حتى انْتَهَى إلى اللَّاهُون ، فقَطَعه إلى الفَيُّوم فَدَخَل خَليجَها فسَقاها ، فصارَت لُجَّةً من النِّيل .

---

a) بولاق : نبهمت .   b) ساقطة من بولاق .

---

[1] النص التالي عن ابن عبد الحكم .

وخَرَجَ إليها الملكُ ووُزرَاؤه ـ وكان هذا كلُّه في سبعين يومًا ـ فلمَّا نَظَرَ إليها الملكُ قال لوُزرائِه أولئك : هذا عَمَلُ أَلْف يَوْم ، فسُمِّيَت الْفَيّوْم ، وأقامَت تُزْرَع كما تُزْرَع غَوائِطُ مِصْر .

قال : وقد سَمِعْتُ في اسْتِخْراج الفَيُّوم غير هذا ، أنَّ يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ مَلَكَ مصر وهو ابن ثلاثين ، فأقامَ يُدَبِّرها أربعين سنَة ، فقال أهلُ مصر : قد كَبِرَ يُوسُف واخْتَلَّ[a] رَأْيُه فعَزَلوه ، وقالوا : اخْتَر لنَفْسِك من المَوَات أرْضًا تُقْطِعها لنَفْسك وتُصْلِحها وتَعْمَل رَأْيك فيها ، فإنَّ رَأَيْنا من رَأْيك وحُسْن تَدْبيرك ما نَعْلَم أنَّك في زيادة من عَقْلِك ، رَدَدْناك إلى مُلْكِك ؛ فاعْتَرَضَ البَرِّيَّة في نَواحِي مصر ، فاخْتَار مَوْضِع الفَيُّوم ، فأُعْطِيها ، فشَقَّ إليها خَليجَ / المَنْهَى من النِّيل حتى أَدْخَله ٢٤٦:١ الفَيُّوم كلَّها ، وفَرَغَ من حَفْر ذلك كلِّه في سَنَة .

قال يَزِيدُ بن أبي حَبيب : وبَلَغَنا أنَّه إنَّما عَمِلَ ذلك بالوَحْي ، وقَوِي على ذلك بكَثْرَة الفَعَلَة والأَعْوَان ، فنَظَروا فإذا الذي أَحْياه يُوسُف من الفَيُّوم لا يَعْلَمون له بمصر كلّها مِثْلًا ولا نَظيرًا ، فقالوا : ما كانَ يُوسُف قَطُّ أَفْضَلَ عَقْلًا ولا رأيًا ولا تَدْبيرًا منه اليوم ، فرَدُّوا إليه المُلْك ، فأقامَ ستِّين سنةً أخرى تَمام مائة سنة ، حتَّى ماتَ وهو ابن ثلاثين ومائة سنة .

قال : ثم بَلَغَ يوسُفَ قَوْلُ وُزَراءِ الملك وأنَّه إنَّما كان ذلك منهم[b] على المِحْنَة منهم له ، فقال للمَلِك : عندي من الحِكْمَة والتَّدْبير غيرُ ما رأيت ؛ فقال له الملكُ : وما ذاك ؟ قال : أُنْزِل الفَيُّوم من كلِّ كُورَة من كُوَر مصر أَهْل بَيْت ، وآمُر أَهْلَ كلِّ بَيْت أن يَبْنوا لأَنْفُسهم قَرْيَة ـ وكانت قُرَى الفَيُّوم على عَدَد كُوَر مصر ـ فإذا فَرَغُوا من بِناء قُراهم ، صَيَّرْت لكلِّ قَرْيَة من الماء بقَدر ما أُصَيِّر لها من الأَرْض ، لا يكون في ذلك زيادَةٌ ولا نَقْص ، وأُصَيِّر لكلِّ قَرْيَة شربًا في زَمان لا يَنالُهم الماءُ إلَّا فيه ، وأُصَيِّر مُطاطِئًا للمُرْتَفِع ومُرْتَفِعًا للمُطاطِئ بأَوْقاتٍ من السَّاعات في اللَّيل والنَّهار ، وأُصَيِّر لها قَبَضات ، فلا يَقْصر بأَحَدٍ دون حَقّه ، ولا يُزاد[c] فَوْق قَدْره ؛ فقال له فِرْعَوْن : هذا من مَلَكوت السَّماء ؟ قال : نَعَم .

فَبَدأ يُوسُف فأَمَر ببُنْيان القُرَى وحَدَّد لها حُدودًا ، وكانت أَوَّلَ قَرْيَة عُمِّرت بالفَيُّوم قَرْيَةٌ يُقالُ لها شانَة[d]، وهي القَرْيَة التي كانت تَنْزلها بنت فِرْعَوْن . ثم أَمَر بحَفْر الخَليج وبُنْيانِ القَناطِر ، فلمَّا فَرَغُوا من ذلك اسْتَقْبَل وَزْنَ الأَرْض ووَزْن الماء . ومن يومئذٍ حَدَثَت الهَنْدَسَة ، ولم يكن النَّاسُ يَعْرِفونها قبل ذلك . وكان أَوَّلَ من قاسَ النِّيلَ بمصر يُوسُفُ ، ووَضَعَ مِقْياسًا بمَنْف[1] .

---

a) بولاق : واختلفت . b) ساقط من بولاق . c) بولاق : يزداد . d) بولاق : سانه .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٤ - ١٦.

قال جامِعُهُ: وفي التَّوراة أنَّ فِرْعَوْن أَلْزَم بني إسْرائيل البِناءَ وضَرْب اللَّبِن، فبَنَوا له عِدَّة مُدُن مُحَصَّنة منها فَيْثُوم وعَرْمَسيس، قال الشارِحُ: هي الفَيُّوم وحَوْف رَمْسيس.

وفي[١] زَمان الرَّيَّان بن الوَليد دَخَلَ يَعْقُوبُ ـ عليه السَّلام ـ ووَلَده مصر، وهم ثلاثة وسبعون نفسًا ما بين رَجُل وامْرأة، فأَنْزَلَهم يُوسُف ما بين عَيْنِ شَمْس إلى الفَرَمَا، وهي أَرْضٌ ريفية برية.

وكان يَعْقُوب لمَّا دَنَا من مصر، أَرْسَلَ يَهُوذَا إلى يُوسُف، فخَرَجَ إليه يُوسُفُ فلَقِيَه فالْتَزَمه وبَكَى. فلمَّا دَخَلَ يَعْقُوب على فِرْعَون كَلَّمَه ـ وكان يعقوبُ شَيْخًا كبيرًا حَليمًا، حَسَن الوَجْه واللِّحْيَة، جَهير الصَّوْت ـ فقال له فِرْعَون: أَيُّها الشَّيْخ، كم أَتَى عليك؟ قال: عشرون ومائة.

وكان بمين[a] ساحِرُ فِرْعَون قد وَصَف صِفَةَ يَعْقُوب ويُوسُف ومُوسَىٰ ـ صلوات الله عليهم ـ في كُتُبه، وأَخْبَرَ أنَّ خَرابَ مصر وهَلاكَ أَهْلِها يكون على أَيْديهم، ووَضَع البِرْبايات وصِفات من تَخْرُب مصر على يَدَيْه. فلمَّا رأَى يَعْقُوبَ قامَ إلى مَجْلِسِه، فكان أَوَّل ما سَأَله عنه أن قال: من تَعْبُد أَيُّها الشَّيْخ؟ قال له يَعْقوب: أَعْبُد الله إله كلّ شيءٍ؛ فقال: فكَيْفَ تَعْبُد من لا تَرَى؟ قال يَعْقُوب: إنَّه أَعْظَم وأَجَلُّ من أن يَراه أَحَدٌ. قال: فنَحْن نَرَى آلِهتَنا؟ قال يَعْقُوب: إنَّ آلِهَتكم من عَمَل أَيْدي بني آدَم من يَموت ويَبْلَى، وإنَّ إلهي لأَعْظَم وأَرْفَع، وهو أَقْرَب إلينا من حَبْل الوَريد.

فنَظَر بمين[a] إلى فِرْعَوْن فقال: هذا الذي يكون هَلاكُ بِلادنا على يَدَيْه، قال فِرْعَوْن: أَفي أَيَّامِنا أو في أَيَّام غَيْرِنا؟ قال: لَيْس في أَيَّامِك ولا أَيَّام بَنيك؛ قال الملكُ: فهل تَجِد هذا فيما قَضَى به إلهُكُم؟ قال: نَعَم. قال: فكَيْفَ تَقْدر أن تَقْتُل من يُريد إلهُه هَلاكَ قَوْمِه على يَدَيْه فلا تَعْبَأ بهذا الكلام؟

وعن كَعْب أنَّ يَعْقوب عاشَ في أُرْضِ مصر ستَّ عشرة سنة، فلمَّا حَضَرْته الوَفَاةُ قال لِيُوسُف: لا تَدْفِنِّي بمصر، فإذا مُتّ فاحْمِلوني فادْفِنوني في مَغارَة جَبَل حَبْرون ـ وحَبْرُون[b][٢] مَسْجد إبراهيم الخَليل ـ عليه السَّلام ـ، وبَيْنَه وبين بَيْت المَقْدس ثمانية عشر ميلًا.

---

a) بولاق: بهمن. b) بولاق: جيرون.

---

[١] يستمر المقريزي ابتداء من هنا في النقل عن ابن عبد الحكم.

[٢] عين حبرون وهي مدينة الخليل الحالية انظر ياقوت: معجم البلدان ٢: ٢١٢؛ Sharon, M., *EI*[2] art. *al-Khalil* IV, pp. 987-94.

قال : فلمَّا ماتَ لَطَّخوه بِمُرٍّ وصَبْرٍ ، وجَعَلوه في تابوتٍ من سَاج ، فكانُوا يَفْعَلون به ذلك أربعين يومًا ، حتى كَلَّمَ يُوسُف فِرْعَوْن فأعْلَمَه أنَّ أباه قد ماتَ ، وأنَّه سأَلَه أن يَقْبُره في أرْض كَنْعان ، فأَذِنَ له ، وخَرَجَ معه أشْرافُ أهْل مصر حتى دَفَنه وانْصَرَف .

وقيل : قَبَرَ يَعْقوب بمصر فأقامَ بها نَحوًا من ثلاث سنين ، ثم حُمِلَ إلى بَيْت المَقْدس ، وأوْصاهُم بذلك عند مَوْته [1].

قال : ثم ماتَ الرَّيّانُ بن الوَليد ، فمَلَكَهم من بعده ابنُه دَارِم بن الرَّيّان . وفي زَمانِه تُوُفِّيَ يُوسُف ـ عليه السَّلام ـ فلمَّا حَضَرَته الوَفاةُ قال : إنَّكم ستَخْرُجون من أرْض مصر إلى أرْض آبائِكم ، فاحْمِلوا عِظامي مَعَكم . فماتَ فجَعَلوه في تابُوتٍ ودَفَنوه في أَحَد جانبي النِّيل ، فأَخْصَبَ الجانِبُ الذي كان فيه وأَجْدَبَ الجانِبُ الآخَر ، فحَوَّلوه إلى الجانِب الآخَر فأخْصَبَ الجانِبُ الذي حَوَّلوه إليه وأَجْدَبَ الآخَر . فلمَّا رَأَوا ذلك ، جَمَعُوا عِظَامه فجَعَلوها في صَنْدوقٍ من حَديد ، وجَعَلوا فيه سِلْسِلَة ، وأقامُوا عَمُودًا على شاطئ النّيل ، وجَعَلُوا في أَصْله سِكَّة من حَديد ، وجَعَلوا السِّلْسِلَة في السِّكَّة ، وأَلْقَوا الصُّنْدوق في وَسَط النِّيل ، فأَخْصَبَ الجانِبان جَميعًا [2].

وكان سَبَبُ حَمْل عِظَام يُوسُف من مصر إلى الشَّام ، أنَّ سارح[a] ابنة أَشِر بن يَعْقُوب عُمِّرَت حتى صارَت عَجوزًا كبيرة ذَاهِبَة البَصَر ، فلمَّا سَرَى مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ ببني إسْرائيل غَشِيَتْهم ضَبابَةٌ حالَت بينهم وبين الطَّريق أن يُبْصِروه ، وقيل لمُوسَىٰ : لن تَعْبُر إلَّا ومَعك عِظامُ يُوسُف ؛ قال : ومن يَدْرِي أين / مَوْضِعُها ؟ قالوا : عَجُوزٌ كبيرةٌ ذاهِبَةُ البَصر تَرَكْناها في الدِّيار ، فرَجَع ٢٤٧:١ مُوسَى ، فلمَّا سَمِعَت حِسَّه ، قالت : ما رَدَّك ؟ قال : أُمِرْتُ أن أَحْمِلَ عِظَامَ يُوسُف ، قالت : ما كُنْتُم لتَعْبُروا إلَّا وأنا مَعَكم ، قال : دُلِّيني على عِظَام يُوسُف ، فدَلَّتْه عليها ، فأَخَذَ عِظَامَ يُوسُف معه إلى التِّيه .

يُوسُف بن يَعْقُوب بن إسْحاق بن إبْراهيم خَليل الرَّحْمَن ، صلوات الله عليهم ، أَحَدُ الأَسْباط الاثْنَي عَشَر ، وُلِدَ بأَرْض كَنْعَان من بِلاد الشَّام ، ورَأَى الأَحَد عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ والقَمَر له ساجِدين ، وعُمْره سَبْعَ عشرة سنة .

---

a) بولاق : سارة .

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧ـ ١٨.

[2] نفسه ١٨ـ ١٩.

وكادَه إخْوَتُه على ذلك، وباعُوه من قَوْم مَدَنيّين، فساروا به إلى مصر وباعُوه لقائِد فِرْعَون. فأقامَ في مَنْزِله اثني عشْر شهرًا، ثم رَاوَدَته امْرَأة العَزيز عن نَفْسه فاعْتَصَم، وكَذَبَت عليه إلى أن حُبِسَ، ومَكَثَ في السِّجْن عشر سنين، وقيل غير ذلك.

فلم يَزَل في السِّجْن إلى أن رَأَى السَّاقي والخَبّاز ذَيْنِك المنامَيْن، وفَسَّر لهما يُوسُف وخَرَجا، فأُنْسيَ السَّاقي يُوسُف سنتين، إلى أن رَأَى الملكُ البقَر والسَّنابِل، فذَكَرَه وأتَاه فقَصَّ عليه الرُّؤْيا وعَبَّرَها، فأُخْرِجَ من السِّجْن وله حينئذٍ ثلاثون سنة، فاسْتَوْزَرَه الملك.

ومن ذلك الوَقْت إلى أن صارَ يَعْقُوب إلى مصر تِسْع سنين، منها سَبْع سنين من سني الشِّبَع، وسنتان من سِني الجُوع.

وكان ليَعْقُوبَ في السَّنَة التي صارَ فيها إلى مصر مائة سنة وثلاثون سنة، وكان أهلُ بيته حينئذٍ سبعين نَفْسًا. ومنذ سارَ إلى مصر إلى أن وُلِدَ مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ مائة وثلاثون سنة أخرى. فلمَّا مَضَى له بمصر سبعَ عشرة سنة توفي وعمره مائة وسبع وأربعون سنة. فخافَ الأَسْباطُ حينئذٍ مُقابَلَة يُوسُف إيَّاهم، فقالوا: إنَّ أباكَ أَوْصَى أن تَغْفِرَ ذَنْبَ إخْوَتك، فإنَّك وهم عبيد الله إله أبيك، فبَكَى يُوسُف وقال لهم: لا تَحْتاجون إلى ذلك، ووَعَدَهم بخَيْرٍ تَمَّمَه لهم.

وماتَ يُوسُف وله مائة سنة وعشر سنين، والله أَعْلَم.

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الفَيُّومِ وَخُلجَانِهَا وَضِيَاعِهَا

قال اليَعْقُوبيُّ: كان يُقالُ في مُتَقَدِّم الأيَّام: مصر والفَيُّوم، لجَلالَة الفَيُّوم وكَثْرَة عِمارَتها، وبها القَمْحُ المَوْصوف، وبها يُعْمَل الخَيْش[1]. وحَكَى المَسْعُودي أن مَعْنَى الفَيُّوم: أَلْف يَوْم[2].

قال القُضَاعِيُّ: الفَيُّومُ، وهي مَدينَةٌ دَبَّرَها يُوسُف النَّبي ـ عليه السَّلام ـ بالوَحْي، وكانت ثلاث مائة وستِّين ضَيْعة، تَمير كلُّ ضَيْعَة منها مصر يومًا واحدًا، فكانت تَمير مصر السَّنَة.

وكانت تُرْوَى من اثْني عشر ذِراعًا، ولا يَسْتَبْحر ما زادَ على ذلك، فإنَّ يُوسُفَ ـ عليه السَّلام ـ اتَّخذ لهم مَجْرَى، ورَتَّبَه ليَدُوم لهم دُخُولُ الماء فيه، وقَوَّمه بالحِجَارَة المُنَضَّدَة، وبَنَى به اللاَّهُون.

---

[1] اليعقوبي: كتاب البلدان ٣٣١.

[2] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧٢؛ وأضاف المسعودي أنه أتى على خبر الفيوم وخلجانها في «الكتاب الأوسط» فأغنى ذلك عن إعادته في مروج الذهب.

وقال ابنُ رِضْوان : الفَيُّومُ يُخْزَن فيه ماءُ النِّيلِ ، ويُزْرَع عليه مَرَّات في السنة ، حتى إنَّك تَرَى هذا الماء إذا خُلِّيَ يَغيَر لَوْن النِّيل وطَعْمه ، وأَكْثَر ما تُحَسُّ هذه الحالَة في البُحَيْرة التي تَكون في أيَّام القَيْظ بسَفْط ونَهْيَا وصاعِدًا إلى ما يَلي الفَيُّوم ، وهذه حالَة تَزيد في رَداءَة أَهْل المَدينَة ـ يعني مصر ـ ولا سيَّما إذا هَبَّت ريحُ الجَنوب [1] ، فإنَّ الفَيُّومَ في جَنُوب مَدينَة مصر على مَسافَة بَعيدَة من أَرْضِها .

وقال القاضي السَّعيد أبو الحَسَن عليُّ بن القاضي المُؤْتَمَن بَقيَّة الدولة أبي عَمْرو عُثْمان بن يُوسُف القُرَشي المَخْزُومي في كِتاب « المِنْهَاج في عِلْم الخَرَاج » : وهذه الأَعْمالُ من أَحْسَن الأَشْياء تَدْبيرًا ، وأَوْسَعها أَرْضًا وأَجْودها قَطْرًا ، وإنَّما غَلَب على بَعْضها الخَرابُ لخُلُوِّها من أَهْلِها ، واسْتيلاء الرَّمْلُ على كَثيرٍ من أَرْضِها . وقد وَقَفْتُ على دُسْتُور عَمِلَه أبو إسْحاق إبراهيم بن جَعْفَر بن الحَسن ابن إسْحاق ، لذِكْر خُلْجان الأَعْمال المَذْكُورَة وما عليها من الضِّياع . وقد أَوْرَدْتُه هَهُنا وإن كان منه ما قد دَثَرَ ، ومنه ما تَغَيَّرت أسْماؤه ، ومنه ماجُهِلَت مَواضِعُه بالدُّثور ولكن أَوْرَدْتُه ليُعْلَم منه حال العامِرالآن ، ويَسْتضيء[a] به من له رَغْبَة في عِمارَة ما يَقْدر عليه من الغامِر . وفي إيراده مَصْلَحة ليعلم شُرْب كلِّ مَوْضع من موضعه[b] . ونُسْخَتُه :

« دُسْتُور يشتمل[b] على ما أَوْضَحَه الكَشْفُ من حالِ الخُلُج الأُمَّهات بمَدينَة الفَيُّوم ، وما لها من المَواضِع ، وشُربِ كلِّ ضَيْعَةٍ منها ، ورَسْمها في السَّد والفَتْح والتَّعْديل والتَّحْرير وزَمان ذلك ، عُمِلَ في جُمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وأربع مائة .

نَبْتَدِئُ ، بعَوْنِ الله وحُسْن تَوْفيقه ، بذِكْر حالِ البَحْر الأَعْظم الذي منه هذَا الخَليج[c] ، فنَذْكُر مادَّته التي صَلاحُه بصَلاحِها .

خَليجُ الفَيُّوم الأَعْظَم : يَصل الماءُ إلى هذا الخَليج من البَحْر الصَّغير المعروف بالمَنْهَى ذي الحَجَر اليُوسُفي ، وفَوْقَه هذا البَحْرِ عند الجَبَل المعروف بكُرْسي السَّاحِرَة من أَعْمال الأَشْمونَيْن ، ومنه شُرْب بعض الضِّياع

---

a) بولاق : ويستقصي . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : هذه الخلج .

---

[1] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٦٥ - ١٦٦.

الأُشْمونية والقَيْسِيَّة والأَهْناسِيَّة، وعلى جانِبَيْه ضِياعٌ كثيرةٌ شُرْبها منه وشُرْب كُروم ما له كُروم منها.

قال: «الحَجَرُ اليُوسُفي»: والحَجَرُ اليُوسُفِي جِدارٌ مَبْني بالطُّوب والجِير المَعْروف عند المتقدِّمين بالصَّاروج، وهو الجِيرُ والزَّيْت. وبِناؤُه من جِهَة الشَّمال إلى الجَنُوب، ويتَّصل من نِهايَتِه من الجَنُوب بجِدار بِناؤه مثل بِنائِه، على اسْتِقامَةٍ من الغَرْب إلى الشَّرْق، ويحصره / ميلان منه في نهايته، وطوله مائتا ذراع بذِراع العَمَل. ويتَّصل بهذا الجِدار، على طول ثمانين ذِراعًا منه من جِهَة الغَرْب، نهاية الجِدار الأَعْظَم من الجَنُوب.

وفائِدَةُ بِناء الجِدار الأَعْظَم، رَدّ الماء إذا انْتَهى إلى حُدود اثنتي عشرة ذِراعًا إلى مَدينَة الفَيُّوم. وطُول ما يَتَّصل منه الجِدار الذي من جِهَة الغَرْب إلى الشَّرْق، ثم يَتَّصل بالمَيْل، ثم يَنْخَفِض من حُدود هذا المَيْل إلى مَيْلٍ مثله يُقابِلُه من جِهَة الشَّمال، خمسون ذِراعًا. وبُعْدُ ما بين هذين الميلين ـ وهو المُنْخَفَض ـ مائة ذِراع وعشرة أَذْرع. ومِقْدارُ المُنْخَفَض منه أربعة أَذْرُع.

وهذا المُنْخَفَض هو الذي يُسَدّ بجِسْر من حَشيش يُسَمَّى لَمْشا: وعَرْضُ ما يجري عليه الماء وقت النِّيل[a] ـ وهو مَوْضِع اللَّمْش وما قابَله إلى جهَة الشَّرْق ـ أربعون ذراعًا، وعليه [b]تجري المراكب في وقت النِّيل ويحصرموضع اللمش ميلان فائدتهما[b] مَسْك اللَّمْش الثاني.

ويتَّصل بهذا الميل إلى جهة الشَّمال ما طولُه ثلاث مائة واثنان وسبعون ذراعًا، ثم يَتَّصل به ـ على نهاية هذا الطول ـ جِدارٌ رُسِمَ[c] على اسْتقامَته إلى المشرق[d] مبني بالحَجَر، طوله على اسْتِقامته إلى جِهَة الشَّرْق مائة ذِراع ـ ثم يَنْخَفِض أيضًا من حيث يتَّصل بهذا الجِدار ما طوله عشرون ذِراعًا، وقَدْر المُنْخَفَض منه ذِراعان. وهذا المُنْخَفَض أيضًا يُسَدّ بجِسْر حَشيش يُسمَّى اللكند.

وطُولُ بقيَّة الجِدارِ إلى نِهايته إلى[e] جِهَة الشَّمال مائة وستة وثلاثون ذِراعًا، وقُبالَة هذا بطوله منه مُبَلَّط، وفيه قَناطِرُ مبنية بالحَجَر، كانت قَديمًا

a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. c) بولاق: يمر. d) بولاق: الحجر. e) بولاق: من.

تردّ الماءَ إلى الفَيُّوم من الخَليج القَديم الذي عنده السُّدود اليوم ، وكان عليها أَبْوابٌ ، وعِدَّتُها عَشْر قَناطِر قَديمَة . فيكون جَميعُ ذَرْع الجِدار الأَعْظَم من نهايته سبع مائة واثنين وسبعين ذِراعًا بذِراع العَمَل ، دون الجِدار المُعْتَرض من الغَرْب إلى الشرق .

ويمرّ هذا الجِدار الأَعْظَم من كِلْتا جهتيه جَميعًا حتى يتَّصل بالجَبَل ، فتُوجَد آثارُه في الغَيْط[a] مُرورًا على غير اسْتِقامَة ، وعَرْضُه مُخْتَلف . وكلَّما انتهى إلى سَطْحه قلَّ عَرْضُه . وعَرْضُ أَعْلاه مع الظَّاهِر من أسْفَلِه جَميعًا ستة عشر ذراعًا . وفيه مَنافِس يَخْرُج منها الماءُ ، وهي بَرابِخ زُجاج مُلَوَّنة تُشْبه المينا وأَزْرَق وسُلَيْماني .

وهو من العَجائِب الحَسَنَة في عِظَم البِنَاء وإتْقانه ؛ لأنَّه من الأَبْنِيَة اللَّاحِقَة بمَنارَة الإِسْكَنْدَرية وبناء الأَهْرام . فمن مُعْجِزَته أنَّ النِّيلَ يمرّ عليه من عَهْد يُوسُف - عليه السَّلام - إلى هذه الغاية وما تَغَيَّر عن مُسْتَقَرِّه .

ويَدْخُل الماءُ من هذا البَحر ، في هذا الزَّمان ، إلى مَدينَة الفَيُّوم من خَليجِها الأَعْظَم ، ما بين أَرْض الضَّيْعَتَيْن المعروفتين بدَمُونَة واللَّاهون ، ومنه شُرْب هاتَيْن الضَّيْعَتَيْن وغيرهما سَيْحًا ، ومنه شُرْب كُرومِها بالدَّواليب على أعْناق البَقَر . وإن قَصَّر النِّيلُ عن الصُّعود إلى سَوادِها ، سُقِيَتْ منه على أعْناق البَقَر وزُرِعَت .

ويُنْتَهى في الخَليج الأَعْظَم إلى خَليج يُعْرَف بخَليج الأَواسي ، وليس عليه رَسْمٌ في سَدٍّ ولا فَتْح ولا تَعْديل .

ويَنْتَهي إلى الضَّيْعة المعروفة بِبَياض ، فيَمْلأ بِرَكتها وغيرها من البِرَك ، وللبِرَك مَقاسِم يصل إلى كلِّ مَقْسَم منها كفايته ومِقْدار شُرْب ما عليه .

وينتهي إلى الضَّيْعَة المعروفَة بالأُوسِيَّة الكبرى ، فمنه شُرْبها من مَقْسَمَيْن لها ، وبرَسْمها بابٌ ، ومنه يَشْرَب نَخْلُها وشَجَرُها ، وعلى هذا الحَدّ طاحونة تَعْمَل بالماء .

---

a) بولاق : القيظ .

ثم يَنْتَهي إلى ثَلاثَة مَقاسِم آخِرها الضَّيْعَة المعروفة بَرْطينة : منها مَقْسَم لها ، ومَقْسَم لقَبالات عِدَّة ، والمَقْسَم الثالث يَسْقي أَحَد أحْياء النَّخْل . وبهذا الحَيّ سَواقٍ وبَساتين قد خَرِبَت ، وجِمِّيز دائِر به . وكان بها بُيوتٌ في أَفْنِيَة النَّخْل .

ثم يَنْتَهي إلى حَيّ ثانٍ على صِفَة الأوَّل ، ثم ينتهي إلى الضَّيْعة المعروفة بالخَرِبَة[a] فيَمْلأ بِرَكها . ويَنْتَهي إلى ثلاثة مَقاسِم في صَفّ ، وفَوْقَها خَليجٌ مُعَطَّل ، ويَشْرَب من هذه المَقاسِم عِدَّة ضِياع . ثم يَنْتَهي الماءُ من هذا الخَليج إلى البَطْس ، وهو نهايته .

وعلى الخَليج الأَعْظَم بعد هذا أَباليز ، شُرْبها منه من أَفْواهٍ لها سَيْحا ؛ فإذا نَضَبَ النِّيلُ نُصب على أَفْواهها ، برَسْم صَيْد السَّمَك ، شِباك .

ثم يَنْتَهي الخَليجُ الأَعْظَم ، على يَمْنَة من يُريد الفَيُّوم ، إلى خَليج يُعْرَف بـ «خَليج سَمَسْطوس» منه شُرْب سَمسْطوس وغيرها ، وأَباليز كثيرة تُجاوِز الصَّحْراء من المَشْرق منه ومن قِبْليه ، وهي ما بين هذا الخَليج وخَليج الأَواسي .

ثم يَنْتَهي الخَليجُ الأَعْظَم أيضًا إلى «خَليج دَهالة» ، ومنه شُرْب عِدَّة ضِياع ، وعليه يُزْرَع الأُرْز وغَيْره ، ثم يَنْتَهي الخَليجُ الأَعْظَم إلى ثَلاثة خُلُج .

ثم ينتهي إلى «خَليج تَنْبطاوة» ، وبهذا الخَليج ثلاثة أبْواب قَديمَة يُوسُفِيَّة ، سَعَة كلّ باب منها ذِراعان بذِراع العَمَل ، ويمرُّ فيه الماء . ويَنْتَهي أيضًا إلى بابَيْن يوسُفيَّيْن .

ورَسْمُ هذا الخَليج : أن يُسَدّ هو وسائِر المُطأْطِئة على اسْتِقبال عشرٍ تَخْلو من هاتُور إلى سَلْخه ، ويُفْتَح على اسْتِقْبال كِيَهْك إلى عَشْر تَبْقى منه ، ثم يُسَدّ إلى عَشْر تَخْلو من طُوبَة ، ثم يُفْتَح لَيْلَة الغِطاس إلى سَلْخ طُوبَة ، ثم يُسَدّ على اسْتِقْبال أَمْشير إلى عشرة تَبْقَى منه ، ثم يُفْتَح لعَشْر تَبْقى منه إلى عشرٍ تَخْلو من بَرَمْهَات ، ثم يُفْتَح إلى عشرٍ تَخْلو من بَرَمُودَة ، ثم يُعَدَّل في مَوْضعه . وقد خَرِبَ ما على بَحْريه من الضِّياع ، ويَشْرَب مه عِدَّةُ ضِياع ولهذا الخَليج مَفيض مَعْمول تَحت الجَبَل بقَبْو يَخْرُج منه الماءُ في زَمان تكاثُره .

---

a) بولاق : بالجوبة .

ثم يَنْتَهي الخَلِيجُ الأَعْظَم إلى «خَليج دله» ، وهو المُطَأْطئة ، وحُكْمُه في السَّدّ والفَتْح والتَّعْدِيل والتَّحْسين كما تَقَدَّم . وهو / على يَسْرَة من يُريد ٢٤٩:١ المَدِينَة ، وله بابان يُوسُفِيَّان مَبْنِيان بالحَجَر سَعَة كلٍّ منهما ذِراعان ورُبْع ، ومنه شُرْب عِدَّة ضِياع أُمَّهات وغيرها ، وفي وَسَطه مَفيض لزَمان الاسْتِبْحار يُفْتَح فيَفيض الماءُ إلى البِرْكَة العُظْمَى ، وفي أَقْصَى هذه البِرْكَة أيضًا مفيضٌ له أبْوابٌ ، يُقالُ إنَّها كانت من حَديد ، فإذا زادَت فُتحت الأَبْوابُ فيَمْضي الماءُ إلى الغَرْب ، وقيل إنَّه يَمُرّ إلى سَنْترِيَّة .

وكان على هَذَيْن الخَلِيجَيْن بَساتِينُ وكُرومٌ كثيرة تَشْرَب على أعْناق البَقَر .

ويَنْتَهي الخَلِيجُ الأَعْظَم إلى «خَليج المَجْنُونَة» ، سُمِّي بذلك لِعظم ما يَصير إليه من الماء . وحُكْمُه في السَّدّ وغيره على ما ذُكِر . ومنه شُرْب ضِياع كثيرة ، وبه تُدار طَواحِين ، وإليه تَصير فضالات مياه الضِّياع القِبْلية ، وإلى بِرْكَة في أَقْصَى مَدِينَة الفَيُّوم تُجاور الجَبَل المعروف بأبي قَطْران ، وتَلْتَقي ما يَنْصَبّ من فَضالات الضِّياع البَحْرِيَّة فيها وهي البِرْكَة العُظْمَى .

ثم يَنْتَهي الخَلِيجُ الأَعْظَم إلى «خَليج تلاله» ، وله بابان يُوسُفيان مَتينان مَبْنيان بالحَجَر ، سَعَة كلٍّ منهما ذِراعان وثُلُثا ذِراع ، وليس فيه رَسْمُ سَدّ ولا فَتْح ولا تَعْديل ولا تَحْيِيز ، إلَّا في تَقْصير النِّيل فإنَّه يُحَيَّز بحَشيش ، ومنه شُرْب طَوائِف المَدينَة وعِدَّة أَراضٍ وضِياع ، وفيه فُوَّهة خَليج البَطْس الذي تَصير[a] إليه مفاضِلُ المِياه ، وفيه أبْوابٌ تُسَدُّ حتى يَصعَد الماء إلى أَراضٍ مرتفعة بقَدْرٍ مَعْلوم . وإذا حَدَثَ بالسَّدّ حَدَثٌ يُفْسِده ، كانت النَّفَقةُ عليه من الضِّياع التي تَشْرَب منه بقَدْر اسْتِحْقاقها .

ثم يَنْتَهي الخَلِيجُ الأَعْظَم إلى خُلْجَان من جانِبَيْه في قِبْليه وبَحْريه .

ثم يَنْتَهي إلى «خَليج بموه» [b]، وهو على يَمْنَة من يُريد مَدينَة الفَيُّوم ، وهو من المُطأطِئَة ، وله بابان يُوسُفيان سَعَة كلٍّ منهما ذِراعان ونصف ، وحُكْمُه حُكْم ما تَقَدَّم ، ومنه شُرْب طَوائِف كثيرَة وعِدَّةُ ضِياع . وينتهي إلى أَرْبَعَة

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : سمرة .

مَقاسِم بأَبْواب ، وإلى [a](خَليج فيه شاذروان[1] ينزل عليه الماء وينتهي الخَليجُ الأَعْظَم إلى عِدَّة[a]) خُلْجان تَسْقي ضِياعًا كثيرة ، منها «خَليجُ تَبْدود» فيه عَيْنٌ حُلْوَة ، فإذا سُدَّ هذا الخَليج سَقَى منها أراضي ما جاوَرَها . وظَهَرَت هذه العين لمَّا عُدِمَ الماءُ ، وحُفِرَ هذا المَوْضِعُ ليُعْمَل بئرًا ، فظَهَرت منه هذه العَيْنُ فاكْتُفِيَ بها .

ثم يَنْتَهي الخَليجُ الأَعْظَم إلى خُلْجان بها شاذْروانات ومَقاسِم قَديمَة يُوسُفية . وبها أَبْواب يُوسُفية لها رُسومٌ في السَّدِّ والفَتْح يَشْرَب منها عِدَّة[b]) ضِياعٍ كثيرة .

ورَسْمُ التُّرع : أَن يُسَدّ جَميعُها على اسْتِقْبال عشرة أَيَّام تَخْلو من هَاتُور إلى سَلْخه ، وتُفْتَح على اسْتِقْبال كِيَهْك مُدَّة عشرين يومًا ، وتُسدّ لعَشْرٍ تَبْقى منه إلى الغِطَاس ، وتُفْتَح يوم الغِطاس إلى سَلْخ طُوبة ، وتُسَدّ على اسْتِقْبال أَمْشير عشرين يومًا ، ثم تُفْتَح لعَشْرٍ تَبْقَى منه إلى عشرين من بَرَمْهَات ، وتُفْتَح عشرة أيام تَخْلو من بَرَمُودَة ، ثم تُعَدَّل فيُهْتَمّ بعمارَتها . ولهم في التَّعْديل قِسَمٌ تُعْطَى منه كلُّ ناحِية شُرْبها بالعَدْل ، بقَوانين مَعْروفَة عندهم» .

وقد اخْتَصَرْتُ أَسْماءَ الضِّياع التي ذَكَرَها لخَرابِ أَكْثَرها الآن ، والله أَعْلَم .

ذِكْرُ فَتْح الفَيُّوم ومَبْلَغ خَراجِها ومَا فيها من المَرافِق

قال ابنُ عبد الحَكَم : فلَمَّا تَمَّ الفَتْحُ للمُسْلمين ، بَعَثَ عَمْرو بن العَاص جَرائِدَ الخَيْل إلى القُرَى التي حَوْلَها ، فأقامَت الفَيُّوم سنةً لا يَعْلَم المسلمون بمكانِها ، حتى أتاهُم رَجُلٌ فذَكَرها لهم . فأَرْسَلَ عَمْرو معه رَبيعَة بن حُبَيْش بن عُرْفُطَة الصَّدَفي ، فلمَّا سَلَكُوا في المَجَابَة لم يَروا شيئًا ، فهَمُّوا بالانْصِراف ، فقالوا : لا تَعْجَلوا ، سيروا ، فإن كان قد كَذَبَ فما أَقْدَرَكم على ما أَرَدْتُم . فلم يَسيروا إلَّا قَليلًا حتى طَلَع لهم سَوادُ الفَيُّوم ، فهَجَموا عليها ، فلم يكُن عندهم قِتالٌ وأَلْقوا بأَيْديهم .

قال : ويُقالُ بل خَرَج مالِكُ بن ناعِمَة الصَّدَفي ، وهو صاحِب الأَشْقَرِ ، على فَرَسِه يَنْفُض المَجابَة ولا عِلْمَ له بما خَلْفَها من الفَيُّوم ، فلمَّا رأَى سَوادَها رَجَع إلى عَمْرو فأَخْبَره بذلك .

(a-a) ساقطة من بولاق . b) ساقطة من بولاق .

---

[1] عن الشاذروان انظر فيما يلي ٢: ٦٢، ٤٠٢.

قال : ويُقالُ بل بَعَثَ عَمْرو بن العَاص قَيْسَ بن الحارِث إلى الصَّعيد ، فسارَ حتى أَتَى القَيْسَ فنَزَل بها ، وبه سُمِّيت القَيْس [1].

فراثَ على عَمْرو خَبَرُه ، فقال رَبيعَةُ بن حُبَيْش : كُفيتَ . فرَكِبَ فَرَسَه فأجازَ عليه البَحْر ـ وكانت أُنْثَى ـ فأتاه بالخَبَر . ويُقالُ إنَّه أجازَ من ناحِيَة الشَّرْقِيَّة حتى انْتَهى إلى الفَيُّوم ، وكان يُقالُ لفَرَسه الأَعْمَى ، والله أَعْلَم [2].

وقال ابنُ الكِنْدِيُّ في كِتاب «فَضَائِل مِصْر» : ومنها كُورَة الفَيُّوم ، وهي ثلاث مائة وستون قَرْيَة دُبِّرَت على عَدَد أيَّام السَّنَة لا تَنْقُص عن الرِّي . فإن قَصَر النِّيلُ في سنة من السنين ، مارَ بلَد مصر كلَّ يَوْم قَرْيَة [a]. ولَيْسَ في الدُّنْيا ما بُنِيَ بالوَحْي غير هذه الكُورَة ، ولا بالدُّنْيا بَلَدٌ أَنْفَسُ منه ولا أَخْصَبُ ولا أَكْثَر خَيْرًا ولا أَغْزَرُ أنْهارًا . ولو قايَسْنا بأنْهار الفَيُّوم أنْهارَ البَصْرَة ودِمَشْق ، لكان لنا بذلك الفَضْل .

ولقد عَدَّ جَماعَةٌ من أهْل العَقْل والمَعْرِفَة مَرافِقَ الفَيُّوم وخَيْرها فإذا هي لا تُحْصَى ، فتَرَكُوا ذلك وعَدُّوا ما فيها من المُباح ـ مِمَّا ليس عليه مِلْكٌ لأَحَدٍ من مُسْلِم ولا مُعاهِد يستعين به القَوِيّ والضَّعيف ـ فإذا هو فَوْق السبعين صِنْفًا [3].

وقال ابنُ زُولاق في كِتاب «الذَّيْل على أُمَراء مصر» للكِنْدي : وعَقَدَت لكافور الإخشيدي الفَيُّوم في هذه السنة ـ يعني سنة ستّ وخمسين وثلاث مائة ـ ستّ مائة ألف دينار ونيفًا وعشرين ألف دينار .

وقال القاضي الفاضِلُ / في كِتاب «مُتَجَدِّدات الحَوادِث» ، ومن خَطِّه نَقَلت : إنَّ الفَيُّومَ بَلَغت في ٢٥٠:١
سنة خمسٍ وثمانين وخمس مائة مَبْلَغَ مائة ألف واثنين وخمسين ألف دينار وسبع مائة وثلاثة دنانير [4].

وقال البَكْرِيُّ : والفَيُّوم مَعْروفٌ هنالك ، يُغِلُّ في كلِّ يومٍ ألْفي مِثْقال ذَهَبًا [5].

---

a) النص عند ابن الكندي : مارت كل قرية منها مصر يومًا واحدًا.

---

[1] فيما تقدم ٥٥٦.

[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٦٩.

[3] ابن الكندي : فضائل مصر ٣٣- ٣٤.

[4] انظر فيما تقدم ٢٣٣.

[5] أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٢٥٢. وانظر أيضًا ، سعيد عاشور : «الفيوم في العصور الوسطى» ، بحوث ودراسات في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧ ، ٣٢٣- ٣٥٠.

مَدِينَةُ النَّحْرِيرِيَّة[١]

كانت أَرْضًا مُقْطَعَةً لعَشَرَة من أَجْناد الحَلْقَة[٢] من جُمْلَتِهم شَمْسُ الدين سُنْقُر السَّعْدي ، فأَخَذ قِطْعَةً من أراضِي زِراعَتها ، وجَعَلَها إصْطَبْلًا لدَوابِّه وخَيْله ، فشَكَاه شُرَكاؤه إلى السُّلْطان الملكِ المَنْصور قَلاوون ، فسأَلَه عن ذلك ، فقال : أُريد أن أَجْعَلَه جامِعًا تُقامُ فيه الخُطْبَة ، فأَذِنَ له السُّلْطانُ في ذلك .

فابتدأ عِمارَته في أُخْريات سنة ثلاث وثمانين وست مائة حتى كَمُلَ في سنة خمس وثمانين ، فعَمِلَ له السُّلطانُ مِنْبرًا ، وأُقيمَت به الجُمُعَة واستمرَّت إلى يَوْمنا هذا .

وأَنْشَأ السَّعْدِيُّ حَوانيتَ حَوْل الجامِع ، فلم تَزَل بيده حتى ماتَ . ووَرِثَها ابْناه غَرْس الدين[a] خَليل ورُكْن الدين عُمَر ، فباعاها بعد مُدَّة للأمير شَيْخو العُمَري ، فجَعَلَها ممَّا وَقَفَه على الخانْكاه والجامِع اللَّذَيْن أَنْشَأَهما بخُطّ صَلِيبَة جامِع ابن طُولون خارِج القاهِرَة . فعَمُرَت هذه الأَرْض بعِمارَة الجامِع ، وسَكَنها الناسُ ، فصارَت مَدينَةً من مَدائِن أَراضي مصر بحيث بَلَغت أَنْوال القزّازين فيها عِدَّة كثيرة .

وتَرَقَّى سُنْقُر السَّعْدي في الخِدَم حتى صارَ من الأُمَراء ، ووَلِيَ نَقيب المماليك السُّلْطانية ، وأَنْشَأ المَدْرَسة السَّعْدِيَّة خارج القاهِرَة قَرِيبًا من حَدْرة البَقَر[٣] ، فيما بين قَلْعَة الجَبَل وبِرْكَة الفِيل ، في سنة خمس عشرة وسبع مائة ، وبنَى أيضًا رِباطًا للنِّساء . وكان شَديد الرَّغْبة في العَمائِر ، مُحِبًّا للزِّراعة ، كَثيرَ المال ظاهِرَ الغِنَى .

ثم إنَّه أُخْرِجَ إلى طَرابُلُس ، وبها ماتَ سنة ثمانٍ وعشرين وسبع مائة[٤] .

---

a) بولاق : عز الدين .

---

[١] انظر فيما تقدم ٦١٣ .

[٢] عن أجناد الحلقة انظر فيما يلي ٢ : ٢١٦ .

[٣] انظر فيما يلي ٢ : ٣٩٧ .

[٤] لم ترد ترجمة لسنقر السعدي سوى عند ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ٢٧٣ .

ذِكْرُ تأريخ الخَليقة

اعْلَم أنَّه لمَّا كانت الحَوادِثُ لابدَّ من ضَبْطِها ، وكان لا يُضْبَط ما بَيْنَ العُصُور وبين أزْمِنَة الحَوادِث إلَّا بالتأريخ المُسْتَعْمَل العام الذي لا يُنْكِره الجَمَاعَةُ أو أكثرها ، وذلك أنَّ التأريخَ المُجْمَع عليه لا يكون إلَّا من حادِثٍ عَظيم يَمْلأ ذكرُه الأَسْماع .

وكانت زِيادَةُ ماء النِّيل ونُقْصانُه إنَّما يَعْتَبرهما أَهْلُ مصر ويَحْسِبون أيَّامهما بأَشْهُر القِبْط ، وكذلك خَراجُ أراضي مصر إنَّما يَحْسِبون أوْقاتَه بذلك ، وهكَذا زِراعاتُ الأراضي إنَّما يعتمدون في أوْقاتِها أيَّام الأشهر القِبْطية عادَةً ، وسَلَكوا فيها سَبيلَ أسْلافِهِم ، واقْتَفَوا مَناهِجَ قُدمائِهِم ـ وما بَرِحَ النَّاسُ من قَديم الدَّهْر أُسَراء العَوايد ـ احْتيج في هذا الكتاب إلى إيراد جُمْلَةٍ من تواريخ[a] الخَليقة لتَعْيين مَوْقِع تاريخ القِبْط منها ، فإنَّ بذِكْر ذلك يتمُّ الغَرَض .

فأقول : التَّأْريخُ عبارَة عن يَوْم يُنْسَب إليه ما يأتي بعده ، ويقالُ أيضًا : التأريخُ عِبارَة عن مُدَّة مَعْلومَة ، تُعَدُّ من أوَّل زَمَن مَفْروض ، لتُعْرَف بها الأوقاتُ المَحْدودة ؛ ولاغِنَى عن التأريخ في جميع الأَحْوال الدُّنْيوية والأُمور الدِّينية ؛ ولكلِّ أُمَّةٍ [b]من أُمَم البَشَر[b] تأريخٌ تَحْتاج إليه في مُعامَلاتها وفي مَعْرِفَة أَزْمِنتها ، تَنْفَرِد به دون غيرها من بَقِيَّة الأُمَم .

وأوَّلُ الأوائِل القَديمَة وأَشْهَرُها هو كَوْن مَبْدَأ البَشر ، ولأَهْل الكِتاب من اليَهود والنَّصارىٰ والمَجُوس في كَيْفيته وسِياقَة التأريخ منه خِلافٌ لا يَجُوز مِثْله في التواريخ . وكلُّ ما تَتَعلَّق معرفته ببَدْء الخَلْق وأَحْوال القُرون السَّالِفَة ، فإنَّه مُخْتَلِط بتَزْويراتٍ وأَساطيرَ ، لبُعْد العَهْد وعَجْز المُعْتَنى به عن حِفْظه . وقد قال الله سُبْحانَه وتعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾[الآية ٩ سورة إبراهيم] . فالأَوْلى ألَّا يُقْبَل من ذلك إلَّا ما يَشْهَدُ به كِتابٌ أُنْزِل من عند الله يُعْتَمد على صحَّتِه لم يرد فيه نَسْخٌ ولا طَرَقه تَبْديلٌ ، أو خَبَرٌ يَنْقُله الثِّقات .

وإذا نَظَرْنا في التأريخ وَجَدْنا فيه بين الأُمَم خِلافًا كبيرًا . وسأَتْلو عليك من ذلك ما لا أَظُنّك تَجِده مَجْموعًا في كِتاب ، وأُقَدِّم بين يَدَيْ هذا القَوْل ما قيل في مُدَّة بَقاء الدُّنْيا[c] .

---

a) بولاق : تاريخ . (b-b) ساقطة من ظ . c) ظ : وسأقص عليك من نبأ ذلك - ومن ذلك ما قيل في مدة بقاء الدنيا - ما لا تجده مجموعًا في غير هذا الكتاب .

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي مُدَّةِ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَبَاقِيهَا وَمَاضِيهَا[a]

اعْلَم أنَّ الناسَ قد اخْتَلَفوا قديمًا وحَديثًا في هذه المسألة، فقال قومٌ من القُدَماء الأُوَل بالأَكْوار والأَدْوار، وهم الدَّهْرِيَّة، وهؤلاء هم القائلون بعَوْد العَوالِم كلِّها على ما كانت عليه بعد أُلُوفٍ من السِّنين مَعْدودَة؛ وهم في ذلك غالِطون من جِهَة طُول أَدْوار النُّجُوم. وذلك أنَّهم وَجَدُوا قومًا من الهِنْد والفُرْس قد عَمِلُوا أدْوارًا للنُّجوم ليُصَحِّحوا بها في كلِّ وَقْت مَواضِعَ الكَواكِب، وظَنُّوا[b] أنَّ العَدَدَ المشترك لجَميعها هو عَوْدُ[c] سِنِي العالِم أو أيَّام العالَم، وأنَّه كُلَّما مَضَى / ذلك العَدَد عادَت الأشياءُ إلى حالِها الأَوَّل. وقد وَقَعَ في هذا الظَّنِّ ناسٌ كثيرٌ مثل أبي مَعْشَر[1] وغيره، وتَبِعَ هؤلاء خَلْقٌ.

وأنت تَقِفُ على فَساد هذا الظَّنِّ إن كنت تخبر من العَدَد شيئًا ما، وذلك أنَّك إذا طَلَبْت عددًا مُشْتَرَكًا بعَدِّه أعدادٌ مَعْلومَة، فإنَّك تَقْدر أن تَضَع لكلِّ زِيج أيَّامًا مَعْلومَة كالذي وَضَعَه الهِنْد والفُرْس؛ فهؤلاء حيث جَهِلوا صُورَة الحالِ في هذه الأَدْوار، ظَنُّوا أنَّها عَدَدُ أيَّام العالَم، فتَفَطَّن تَرْشُد.

وعند هَؤلاء أنَّ الدَّوْرَ هو[d] أَخْذ الكَواكِب من نُقْطَة وهي سائِرَة حتى تَعُود إلى تلك النُّقْطَة[e]، وأنَّ الكُوْر هو[f] اسْتِئْناف الكَواكِب في أَدْوارها سيرًا آخَر إلى أن تَعُودَ إلى مَواضِعها مَرَّة بعد أخرى.

وزَعَمَ أهلُ هذه المقالة أنَّ الأَدْوارَ مُنْحَصِرَة[g] في أنْواع خمسة: الأَوَّلُ أَدْوار الكَواكِب السَّيَّارَة في أفْلاك تَداويرها؛ الثَّاني أدْوارُ مَراكِز أفْلاك التَّدْوير في أفْلاكِها الحامِلَة؛ الثَّالِث أَدْوار أفْلاكِها الحالَة في فَلَك البُرُوج؛ [h]الرَّابع أَدْوارُ الكَواكِب الثَّابِتَة في فَلَك البُرُوج[h]؛ الخَامِس أَدْوارُ الفَلَك المُحيط بالكُلِّ حَوْل الأَرْكان الأربعة.

---

a) ظ: ذكر ما قيل في مدة ما مضى من أيام الدنيا وما قد بقي منها، وفي بولاق: ... ماضيها وباقيها. b) الأصل وبولاق: وظنوا والتصويب من ظ. c) بولاق وظ: عدد. d) ظ: معنى الدور أخذ. e) ظ: تعود إليها. f) ظ: ومعنى الكور. g) ظ: قد انحصرت. (h-h) ساقطة من ظ.

---

[1] أبو معشر انظر عنه فيما تقدم ١٨٠ هـ ٣.

وهذه الأدوارُ المذكورة : منها ما يَكُون في كلِّ زَمانٍ طَويل مَرَّة واحِدَة ، ومنها ما يكون في كلِّ زَمانٍ قَصير مَرَّة واحِدَة . فأَقْصَر هذه الأدْوار أدْوارُ الفَلَك المُحِيط بالكُلِّ حَوْل الأرْكان الأربعة ، فإنَّه يَدُور في كلِّ أرْبَع وعشرين ساعَة دَوْرَة واحِدَة . وباقي الأدْوار يكون في أزْمِنَة أُخَر أَطْوَل من هذه ، لا حاجَة بنا في هذه المسألة إلى ذكرها .

قالوا : وأدوارُ الكَواكِب الثَّابِتَة في فَلَك البُرُوج تكون في كلِّ ستة وثلاثين ألف سنة شَمْسية مَرَّة واحِدَة ، وحينئذٍ تَنْتَقِل أوْجات الكواكب وجَوْزَهراتها إلى مَواضِع حَضِيضها ونُوْبَهراتها وبالعَكْس ، فيُوجِب ذلك عندهم عَوْدَ العَوالِم كلِّها إلى ما كانت عليه من الأَحْوال في الزَّمان والمَكَان والأَشْخاص والأَوْضاع ، بحيث لا يَتَخالَف ذَرَّةٌ واحِدَة . وهم مع ذلك مُخْتَلِفون في كَمِّيَّة ما مَضَى من أيَّام العالَم وما بَقِي .

فقال البَراهِمَةُ من الهِنْد في ذلك قَوْلًا غَريبًا ، وهو على[a] ما حَكاهُ عنهم الأُستاذ أبو الرَّيْحان محمد بن أَحْمَد البِيروني في كتاب «القَانُون المَسْعُودي» ، أَنَّهم يُسَمُّون[b] الطَّبيعَة باسْم مَلِك يُقالُ له براهم[c] ، ويَزْعُمون أنَّه مُحْدَث مَحْصُور المُدَّة[d] بين مَبْدَأ وانْتِهاء ، عُمْرُه كعُمْرها في مقدار[a] مائة سنة بَرْهَموية ، كلّ سنة منها ثلاث مائة وستون يومًا ، زَمانُ النَّهار منها بقَدْر مُدَّة دَوَران الأَفْلاك والكَواكِب لإثارَة الكَوْن والفَساد [١] ، وهذه المُدَّةُ بقَدْر ما بين كلِّ اجْتِماعَيْن للكَواكِب السَّبْعَة في أوَّل بُرْج الحَمَل بأَوْجاتها وجَوْزَهَراتها ، ومِقْدارها أربعة آلاف ألف سنة وثلاث مائة ألف ألف سنة وعشرين ألف ألف ألف سنة شَمْسية ، وهو زمانُ اثني عشر ألف دَوْرَة للكَواكِب الثَّابِتَة ، على أنَّ زَمانَ الدَّوْرَة الواحِدَة ثلاث مائة ألف سنة وستون ألف سنة شَمْسِيَّة [٢] .

واسْمُ هذا النَّهار بلغتهم «الكلْبَة[e]» [٣] ، وزَمانُ اللَّيْل عندهم كزَمان النَّهار ، وفي اللَّيْل تَسْكُنُ المُتَحَرِّكات ، وتَسْتَرِيح الطَّبيعَة من إثارَة الكَوْن والفَساد ، ثم يَثُورُ في مَبْدَأ اليوم الثاني بالحَرَكَة

---

a) ساقطة من بولاق . b) البيروني : يعبرون عن . c) الأصل وبولاق : براهيم ، والتصويب من البيروني . d) الأصل وبولاق : الموت ، والتصويب من البيروني . e) بولاق : الكليه .

---

[١] في ظ لم يرد ما نقله المقريزي هنا عن كتاب «القانون المسعودي» بل أورد النص الوارد في ٦٨٥ وأوله : وقال أصحاب الهاذروان من قدماء أهل الهند ....

[٢] البيروني : القانون المسعودي ، ١-٣ ، حيدرآباد - دائرة المعارف العثمانية ١٩٥٤ ، وردت بداية هذا النص في ١ : ١٧٤ .

[٣] الكلبة Kalpa كلمة سنسكريتية تعبر عن طريقة اتبعها الهنود في تعليم حساب حركات الأجرام السماوية . فقد =

والتَّكَوُّن ، فيكون زَمانُ اليوم بلَيْلَته من سِني النَّاس ثمانية آلاف ألف سنة وستٌّ مائة ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة .

فإذا ضَرَبْنا ذلك في ثلاث مائة وستين ، تَبْلُغ سِنُو أيَّام السَّنَة البَرْهَمَويَّة ثلاثة آلف ألف ألف سنة وعشرة آلاف ألف ألف سنة وأربع مائة ألف ألف سنة شَمْسِيَّة ؛ فإذا ضَرَبْناها في مائة ، يَبْلُغ عُمْر المَلِك الطَّبيعي البَرَهْمَوي ، من سِني الناس ، ثلاث مائة ألف ألف ألف سنة وأحد عشر ألف ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة شَمْسِيَّة . فإذا تَمَّت هذه السُّنون بَطَلَ العَالَم عن الحَرَكَة والتَّكْوينِ ما شاءَ الله ، ثم يَسْتَأْنِف من جَديد على الوَضْع المَذْكور .

وقَسَّموا زَمانَ النَّهار المَذْكور إلى تِسع وعشرين قطعة ، وسَمُّوا كلَّ أَرْبع عشرة قطعةً منها نُوبًا ، وسَمُّوا الخَمْس عشرة قطعة الباقية فُصُولًا ، وجَعَلُوا كلَّ نَوْبَة مَحْصورة بين فَصْلَيْن ، وكلّ فَصْل مَحْصورًا بين نَوْبَتَيْن ، وقَدَّموا زمانَ الفَصْل على النَّوْبَة إلى تَمام المُدَّة .

وزَمانُ الفَصْل هو خُمْسَا الدَّوْر ، والدَّور جُزْء من ألف جزء من المُدَّة . فإذا قَسَمْنا المُدَّة على ألف ، تَحَصَّل زَمانُ الدَّوْر أربعة آلاف ألف سنة وثلاث مائة ألف سنة وعشرين ألف سنة ، وخُمْساه ـ أعني زَمان الفَصْل ـ ألف ألف سنة وسبع مائة ألف سنة وثمانية وعشرون ألف سنة .

وزَمانُ النَّوْبَة عندهم أَحَد وسبعون دَوْرًا ، مِقْدارُها من السنين ثلاث مائة ألف ألف سنة وستة آلاف ألف سنة وسبع مائة ألف سنة وعشرون ألف سنة .

وقد قَسَموا الدَّوْر أيضًا بأَرْبع قِطَع : أوَّلُها أَعْظَمُها ، وهي مُدَّة الفَصْل المذكور ، وثانيها ثَلاثَة أرْباع الفَصْل ، ومُدَّتها ألف ألف سنة ومائتا ألف سنة وستة وتسعون ألف سنة ؛ وثالِثُها نِصْف الفَصْل ، ومُدَّته ثمان مائة ألف سنة وأربعة وستون ألف سنة ؛ ورابِعُها رُبْع الفَصْل ، وهو عُشْر الدَّوْر المذكور ، ومُدَّته أربع مائة ألف سنة واثنان وثلاثون ألف سنة .

ولِكُلِّ واحِدٍ من هذه القِطَع الأَرْبَع اسْمٌ يُعْرَف به ، فاسْمُ القِطْعَة الرابعة عندهم «كَلْكَال» لأنَّهم يَزْعُمون أنَّهم في زَمانِها ، وأنَّ الذي مَضَى من عُمْر المَلِك / الطَّبيعي ـ على زَعْم حَكيمهم

= زعم الهنود أن كل الكواكب غير الثابتة خُلقت مجتمعة مع أوجاتها وجوزهراتها في أول برج الحَمَل - أي في نقطة الاعتدال الربيعي - ثم أخذت تتحرّك حركات مختلفة السرعة ، وبعد ألوف ألوف أدوار تامّة ستجتمع كلها ثانية هي وأوجاتها وجوزهراتها في أوّل الحمل. وجملة السنين الشمسية النجومية (أي الزمان الذي تستغرقه الشمس للرجوع إلى نجم ثابت مفروض) الفائتة بين الاجتماعين الكلّيين تسمّى كلبه Kalpa. (نلينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى) ، روما ١٩١١، ١٥١-١٥٢) .

الأَعْظَم المسمَّى عندهم بَرْهمَكُوت [Brahmagupta] ـ ثمان سنين وخمسة أشهر وأربعة أيَّام .

ونحن الآن في نَهَار اليوم الخامِس من الشهر السادِس من السنة التاسعة ، ومَضَى من النَّهَار الخامس ستُّ نُوب وسبعة فُصُول وسبعة وعشرون دَوْرًا من النَّوبة السَّابِعَة ، وثلاث قطع من الدَّوْر المذكور ـ أَعْني تسعة أَعْشَارِه ـ ومَضَى من القِطْعَة الرَّابعة ـ أعني من أوَّل كَلْكال إلى هلاك شَكَكال عظيم مُلوكِهم ، الوَاقِع في آخِر سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة للإسْكَنْدَر ـ ثلاثة آلاف سنة ومائة سنة وتسع وسبعون سنة .

وقَال : إنَّما عَرَفْنا هذا الزَّمان من عِلْم إلهي وَقَعَ إلينا من عُظَمَاء أَنْبيائِنا المتألِّهين برواياتِهم جيلًا بعد جِيل على مَمَرّ الدُّهور والأَزْمان .

وزَعَمُوا أنَّ في مَبْدَأ كلِّ دَوْر أو فَصْل أو قِطْعَة أو نَوْبَة تتجَدَّد أَزْمِنَة العوالم وتَنْتَقِل من حالٍ إلى حال ، وأنَّ الماضِي من أوَّل كَلْكال إلى شَكَكال ثلاثة آلاف ومائة وتسع وسبعون سنة .

والماضِي من النَّهار المذكور ، إلى آخِر سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة للإسْكَنْدَر ، ألف ألف ألف سنة وتسع مائة ألف ألف سنة واثنان وسبعون ألف ألف سنة وتسع مائة ألف سنة وسبعة وأربعون ألف سنة ومائة سنة وسبع وسبعون سنة .

فيكونُ الماضي من عُمْر المَلِك الطَّبيعي إلى آخِر هذه السَّنة : ستة وعشرين ألف ألف ألف ألف سنة وثلاث مائة ألف ألف ألف سنة وخمسة عشر ألف ألف ألف سنة وسبع مائة ألف ألف واثنين وثلاثين ألف ألف سنة وتسع مائة ألف سنة وسبعة وأربعين ألف سنة ومائة سنة وتسعًا وسبعين سنة .

فإذا زِدْنا عليها الباقِي من تأريخ الإسْكَنْدَر ، بعد نُقْصَان السِّنين المذكورة منه ، تَحَصَّل الماضي من عُمْر المَلَك بالوَقْت المَفْروض ؛ والله أَعْلَم بحَقيقَة ذلك .

وقال الخَطَا والإيغر[a] في ذلك قَوْلًا أَعْجَب من قَوْل الهِنْد وأَغْرَب ، على ما نَقَلْته من «زِيج أَدْوار الأَنْوار» ، وقد لَخَّص هذا القَوْل من كُتُب أَهْل الصين ، وذلك أنَّهم جَعَلوا مَبادئ سِنيهم مَبْنِيَّة على ثَلاثَة أَدْوار :

الأَوَّل يُعْرَف بالعَشْري[b] ، مُدَّته عشر سنين ، لكلِّ سنة منها اسْمٌ يعرف به ؛ والثَّاني يُعْرَف بالدَّوْر الاثني عَشْري ، وهو أَشْهَرها خُصوصًا في بلاد التُّرْك ، يُسَمُّون سِنِيه بأسماء

---

a) بولاق : الخطا والإيغر . b) بولاق : العشر .

حَيوانات بُلُغَتَي الخَطَا والإيغر[١]. والثَّالِثُ مُرَكَّب من الدَّوْرَيْن جَميعًا، ومُدَّته ستون سنة، وبه يُؤَرِّخون سِني العالَم وأيَّامه، ويقوم عندهم مَقام أيَّام الأُسْبوع عند العَرَب وغيرها.

واسْمُ كلّ سَنَة منها مُرَكَّب من اسْمَيْها في الدَّوْرَيْن جَميعًا، وكذلك كلّ يَوْم من أيام السَّنة.

ولهذا الدَّوْر ثلاثة أَسْماء وهي: شانْكوَن [Shank-wan]، وجُونْكوَن [jûnk-wan]، وخاوَن [Khâ-wan]، وتَصيرُ بحَسَبها مَرَّة أعْظَم، ومَرَّة أَوْسط، ومَرَّة أَصْغَر. فيُقالُ: دَوْرُ شانْكوَن الأَعْظَم، ودَوْرُ جُونْكوَن الأَوْسَط، ودَوْر خاوَن الأَصْغَر.

وبهذه الأَدْوار يَعْتَبرون سِني العالَم وأيَّامه، وجُمْلَتها مائة وثمانون سنة، ثم تَدُور الأَدْوَارُ الثلاثة عليها مَرَّة أخرى.

واتَّفَقَ وُقُوعُ مَبْدَأُ الدَّوْر الأَعْظَم في الشَّهْر الأَوَّل من سنة ثلاثة وثلاثين وستّ مائة لِيَزْدَجِرد، واسمها بلغتهم «كازَه»[a] وبلُغَة العرب: سنة الفأر.

وكان أَوَّل دُخُولُ فَرْوَرْدين[b] هذه السَّنَة من سِني العَرَب يوم الخَميس، وهو بلُغَتهم تين جو [tîn-jû][c]، ومن هذا اليَوْم وعلى هذا التَّاريخ تترتُّب مبادي سِنِيهم وأيَّامهم في الماضي والمُسْتَقْبَل.

وشهورُهم اثنا عشر شهرًا، لكلّ شهر منها اسم بلُغة الخَطَا وبلغة الإيغر، لا حاجَة بنا هنا إلى ذكرها.

ويُقَسّمون اليومَ الأَوَّل بلَيْلَته اثني عشر قسمًا، كلُّ قِسْم منها يُقالُ له جَاغ [jag]، وكلّ جاغ ثمانية أقْسام، كلّ قِسْم منها يُقال له كه [Kah].

ويُقَسّمون اليَوْمَ بلَيْلَته أيضًا عشرة آلاف فَنْك [fank]، وكلُّ فَنْك منها مائة مَياو [miyâu]، فيُصيب كلّ جاغ ثمان مائة وثلاثة وثلاثين فَنْكًا وثُلُث فَنْك، وكلّ كه مائة وأربعة أفْناك وسُدْس

---

a) بولاق: كادره والأصل: كاره. b) بولاق: فرودين. c) الأصل وبولاق: سن جن، والتصويب من مقال Pelliot.

---

[١] عن تأريخ الخطا والإيغر انظر Ideler, «Sur la chronologie de Khatâ et d'Igour» (annoté par Kloproth), JA (1835) I, pp. 305-48، وانظر ما كتبه Paul Pelliot حول هذا الموضوع وخص به جاستون ڤييت ونشره في نهاية الجزء الثالث من نشرته للخطط؛ وكذلك مقال بوزورث Bosworth, C.E., *EI*[2] art. *Karâ Khitay* IV, pp. 604-607. والضَّبْط اللاتيني من مقال Pelliot.

فَنْك . ويَنْسِبون كلَّ جاغ إلى صُورة من الصُّورِ الاثنتي عشرة ؛ ومَبْدأ اليوم بلَيْلَته عندهم من نِصْف اللَّيْل ، وفي منتصف جاغ كَشكُو يتغيَّر أوَّلُ النَّهارِ وآخِرُه بحَسَب الطُّول والقِصَر ، من قبل أنَّ كلَّ جاغ ساعتان مستويتان ، وفي منتصف النَّهار ينتصف جاغ يُونْد .

وهم يَكْبِسون في كلِّ ثلاث سنين قَمَرِيَّة شهرًا واحدًا يُسَمُّونه شِيُون ، ليَحْفَظوا بالكَبْس مَبادي سِني الشَّمْس في زَمانٍ واحِد من سَنَة أخرى ، ويَكْبِسون أَحَدَ عشر شهرًا في كلِّ ثلاثين سنة قَمَرية . ولا يَقَع عندهم شَهْرُ الكَبْس في مَوْضِع واحِدٍ بعينه من السنة ، بل يَقَع في كلِّ مَوْضِع منها .

وكلُّ شَهْر عِدَّة أيّامه إمَّا ثلاثون يومًا أو تسعة وعشرون يومًا ، ولا يُمْكن عندهم أكثر من ثلاثَة أَشْهُر مُتوالية تامَّة ، ولا أَكْثَر من شَهْرَيْن ناقِصَيْنْ .

ومبادي شُهورهم يَوْم الاجْتِماع ، إن وَقَعَ اجْتِماعُ النَّيِّرَيْن نَهارًا ، فإن وَقَعَ الاجْتِماعُ ليلًا كان أوَّلُ الشَّهْر في اليوم الذي بعد الاجْتماع .

وزَمانُ السَّنَة الشَّمْسِيَّة ـ بحَسَب أرْصادِهم ـ ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ، وألفان وأربع مائة وستة وثلاثة فَنْكًا .

والسَّنَة أَرْبَعة وعشرون قِسْمًا : كلُّ قِسْم منها خمسة عشر يومًا ، وألفان ومائة وأربعة وثمانون فَنكًا وخمسة أَسْداس فَنْك . ولِكلِّ قِسمٍ من هذه الأَقْسام اسْم ، وكلّ ستة أَقْسام منها فَصْل من فُصول السَّنَة . فاسم أوَّل قِسْم من فُصُولها ليجُن [Lîjun] [a]، وأوَّله أبدًا حيث تكون الشَّمْسُ في ستّ عشرة درجة من / بُرْج الدَّلْو ، وهكذا أوَائِل كلّ فَصْل إنَّما تكون في حُدود أَواسِط البُرُوج الثابِتَة . ٢٥٣:١

وكان بُعد مَدْخل ليجُن [a]، من أوَّل الدَّوْر السِّتيني في السنة المذكورة : أَحَدَ عشر يومًا ، وسبعة آلاف وستّ مائة وستين فَنْكًا .

واسْمُ مَدْخَله يِي خاي [Yî-khây] ، وكان بعد دُخُول السنة الفارِسيَّة المذكورة بنَحْو عشرين يومًا ، ويَبْعُد مَدْخَلُه عن أوَّل الدَّوْر في كلِّ سنة بقَدْر فَضْل سنَة الشَّمْس على سنة الدَّوْر ،وهو خمسة أيَّام وأربعة وعشرين فَنْكًا . فإن زَادَت الأَيَّام على ستين يومًا ، كان الباقِي بَعد ليجُن في تلك السنة عن أوَّل الدَّور السِّتِّيني .

---

a) الأُصل : الخن، وبولاق : الحن ، والتصويب من مقال Pelliot.

ويتفَاضَل البُعْدُ بينها في كلِّ سنة بقَدْر فَضْل سنَة الشَّمْس على سنة القَمَر التي هي ثلاث مائة وأربعة وخمسون يومًا ، وثلاثة آلاف وستّ مائة واثنان وسبعون فَنْكًا . ومقْدارُ الفَضْل بينهما عَشْرة أيّام ، وثمانية آلاف وسبع مائة وأربعة وستون فَنْكًا . فإن زادَت الأيامُ على زَمان الشَّهْر القَمَري الأَوْسَط ، الذي هو تسعة وعشرون يومًا وخمسة آلاف وثمان مائة وستة أَفْناك ، نَقَص منها هذا العدد واحْتُسب بالباقي .

فإذا عَرَفْتَ هذا من حِسابِهم ، فاعْلَم أنَّ عُمْرَ العالَم عندهم ثلاث مائة ألف وَنْ [Wan] وستون ألف وَنْ ، كلّ وَنْ عشرة آلاف سنة ، مَضَى من ذلك إلى أوَّل سنة ثلاث وثلاثين وستّ مائة ليَزْدَجِرْد ـ وهي دور شانْكوَنْ [Shank-wan] الأعظم ـ ثمانية آلاف ون وثمان مائة وثلاثة وستون ونًا وتسعة آلاف وسبع مائة وأربعون سنة ، فتكون المُدَّةُ العُظْمَى على هذا : ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ألف سنة وستّ مائة ألف ألف ألف ألف سنة (بهذه الصُّورَة ٣٦٠٠٠٠٠٠٠٠) والماضي منها إلى السَّنَة المذكورة : ثمانية وثمانون ألف ألف سنة وستّ مائة ألف سنة وتسعة وثلاثون ألف سنة وسبع مائة سنة وأربعون سنة (بهذه الصُّورَة ٨٨٦٣٩٧٤٠) [1] ؛ ﴿ ولِلهِ غَيْبُ السَّمَاواتِ و الأَرْضِ وَإِلَيْه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [الآية ١٢٣ سورة هود] .

وإنَّما ذَكَرْتُ طَرَفًا من حِساب سِنِي البَراهِمَة ، وطَرَفًا من حِساب سِني الخَطَا والإيغر المُسْتَخْرَج من حِساب الصِّين ، ليَعْلم المُنْصِفُ أنَّ ذلك لم يَضَعه حُكَماؤُهم عَبثًا ، ولأمْرٍ ما جَدَع قَصيرُ أَنْفِه .

وكم من جاهِلٍ بالتَّعاليم ، إذا سَمِعَ أَقْوالَهم في مُدَّة سِني العالَم ، يُبادِر إلى تَكْذيبهم من غَيْرِ عِلْم بدَليلهم عليه ؛ وطَريقُ الحَقّ أن يتوقَّف فيما لا يَعْلَمه حتى يَتَبَيَّنَ أَحَدَ طَرَفَيْه فيُرَجِّحه على الآخر ﴿واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

و[2]قال أَصْحابُ «السِّنْد هِنْد»[3] ـ ومَعْناه الدَّهْرُ الدَّاهِر : إنَّ الكَواكِبَ وأَوْجاتها وجَوْزَهْراتها

---

[1] آخر الفقرة التي ترجمها وعلّق عليها Pelliot.

[2] يلتقي نص نسخة ظ مرة أخرى مع الأصل .

[3] السِّنْد هِنْد ، حسابٌ فلكيٌّ هنديٌّ مبني على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه براهمسبهطسدّ هانت Brâhmasphutasiddhanta أَلَّفه سنة ٦٢٨م الفلكي والرياضي الهندي بُرَهْمَكُبتا Brahmagupta، وجاء به إلى بغداد سنة ١٥٤هـ/٧٧١م رجلٌ هندي قدم على الخليفة المنصور العباسي . وكلَّف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر للكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية واستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلًا في حساب حركات الكواكب وما يتعلّق بها من الأعمال . وتولّى نقله محمد بن إبراهيم الفزاري وعمل منه زيجًا اشتهر بين علماء العرب وظلوا =

تجتمع كلّها في أوّل[a] بُرْج الحَمَل ، عند كلِّ أربعة آلاف ألف ألف سنة وثلاثِ مائةِ ألف ألف سنة وعشرين ألفَ ألفِ سنةٍ شَمْسية ، وعندهم أن هذه السنين هي مُدَّة العالم ، ويَزْعمون أنّها إذا اجتمعت برأس برج[b] الحَمَلِ فَسَدَت المكوّنات الثلاث التي يَحْويها عالَم الكَوْن والفَساد ، المُعَبَّر عنه بالحَيَاة الدُّنْيا ، والمُكَوَّنات الثلاث هي[c]: المَعْدِن والنَّبات والحَيَوان ، قالوا[d]: فإذا فَسَدت بقي العالَمُ السُّفْلي خَرابًا دَهْرًا طَويلًا إلى أن تتفرّق الكَواكِبُ والأَوْجات والجَوْزَهرات في بُرُوج الفَلَك ، فإذا تَفَرّقَت فيها بَدَأَ الكَوْنُ بعد الفَساد ، فعادَت أحْوالُ العالَم السُّفْلي إلى الأَمْر الأَوّل ، وهذا يكون عَوْدًا بعد بَدْء إلى غير نهاية .

قالوا[e]: ولكُلٍّ واحِدٍ من الكَواكِب والأَوْجات والجَوْزَهْرات عِدَّةُ أدْوار في هذه المُدَّة ، يدلُّ كلُّ دَوْر منها على شيءٍ من المُكَوَّنات ، كما هو مَذْكورٌ في كُتُبِهم ، مِمَّا لا حاجَةً بنا هنا إلى ذكره ، وهذا القَوْلُ مُنْتَزع من قَوْل البراهِمَة الذي تَقَدَّم ذِكْرُه .

[f]وقال أَصْحابُ الهاذَرْوان من قُدَماء الهِنْد[1]: إنَّ كلَّ ثلاث مائة ألف سنة وستين ألف سنة شمسية يَهْلِكُ العالَم بأَسْرِه ، ويَبْقَى مثل هذه المُدَّة ، ثم يَعُود بعَيْنه ويَعْقُبه البَدَل ، وهكذا أبدًا يكونُ الحالُ لا إلى نِهايَةٍ .

قالوا : ومَضَى من أيّام العالَم المذكورة إلى طُوفان نُوح ـ عليه السَّلام ـ مائة ألف وثمانون ألف سنة شَمْسِيَّة ، ومَضَى من الطُّوفان إلى سنة الهِجْرة المُحَمَّدية ثلاثة آلاف وسبع مائة وثلاث وعشرون سنة وأربعة أشهر وأيّام ، وبَقي من سِني العالَم حتى يَبْتدئ ويَفْنَى مائة ألف وبضع وسبعون ألف سنة شَمْسِيَّة ، أوّلها تأريخ الهجرة الذي يُؤَرّخ به أَهْلُ الإسْلام[f].

---

a) ظ : رأس . b) الأصل وبولاق : وهذه مدة سني العالم . قالوا : وإذا جمعت برأس الحمل . c) الأصل وبولاق : وهذه المكونات هي . d) زيادة من ظ . e) ظ : ويزعمون أن . f-f) هذه الفقرة وردت في ظ موضع النص المطول المنقول عن القانون المسعودي للبيروني .

= يعملون به إلى أيام المأمون عندما بدأ في الانتشار مبدأ بطلميوس في الحساب والجداول الفلكية . ولفظ سِدّهَانْت معناه بالسنسكريتية : معرفة وعلم ومذهب ، فيكون معنى الكتاب الأصلي «كتاب الهيئة المصحّح المنسوب إلى بُرَهْم» وحَذَفَ العربُ ثلثي اللفظ مقتصرين على الثلث الأخير وهو سدّ هنت ثم تحوّل تحت تأثير الاشتقاق الشعبي إلى «السِّنْدهِنْد» الذي تنعكس فيه التسمية العربية لشطري الهند : الهند والسند . وسمّاه بعض المتأخرين «السِّنْدهِنْد الكبير» تمييزًا له عن كتاب «السِّنْدهِنْد» الذي ألّفه في عهد المأمون ، محمد بن موسى الخوارزمي . (نللينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، ١٤٩- ١٥٢ ، ٣٥١؛ كرتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٧٧- ٧٩؛ (Pimgree, P. *EI*[2] art. *Sinhind* IX, p. 665-66) ، وذكر المسعودي في أخبار الزمان ٩ أن كتاب السندهند هو الذي عمل عنه المجسطي وغيره من الزيجات .

[1] الهازَرْوان . هو مدة ستة وثلاثين ألف سنة مضروبة =

وقال أَصْحابُ الأَرْجَبْهَز[a] [١] : مُدَّةُ العالَم ، التي تَجْتَمع فيها الكَواكِبُ برَأْس برج[b] الحَمَل هي وأَوْجاتها وجَوْزَهْراتها ، جُزْء من أَلف جُزْء من مُدَّة السِّنْد هِنْد ، وهذا أَيْضًا مُنْتَزَع من قَوْل البراهِمَة [٢] .

وقال أبو مَعْشَر [٣] وابنُ نُوبَخْت [٤] : إنَّ بَعْضَ الفُرْس يَرَى أنَّ عُمْرَ الدُّنْيا اثنا عشر ألف سنة بعِدَّة البُرُوج ، لكلِّ بُرْج أَلف سنة . فكان ابتداءُ أَمْر الدُّنيا في أَوَّل أَلف الحَمَل ، لأنَّ الحَمَل والثَّور والجَوْزَاء تُسَمَّى أَشْرَف الشَّرَف ، ويُنْسَب إلى الحَمَل الفَضْل ، وفيها تكون الشَّمْسُ في شَرَفِها وعُلُوِّها وطُول نَهارها ، ولذلك الدُّنْيا كانت إلى ثلاثة آلاف سنة علوية رُوحانية طاهرة .

ولأنَّ السَّرَطانَ والأَسَدَ والسُّنْبُلَة مُنْتَقِصَة ، فإنَّ الشَّمْسَ تَنْحَطّ من عُلُوِّها في أَوَّل دَقيقَة من السَّرَطان ، وكان قَدْر الدُّنيا وأَبْنائها مُنْحَطًّا في الثلاثة الآلاف الثانية .

ولأَنَّ الميزَان أَهْبَط الهُبُوط وبِئْر الآبار وضد البُرْج الذي فيه شَرَفُ الشَّمْس ، دَلّ على أنَّه أصابَت الدُّنْيا واكْتَسَب أَهْلُها المَعْصِيَة ، والميزانُ والعَقْرَب والقَوْس إذا نَزَلَتها الشَّمْسُ لم تَزْدَد إلا انْحِطاطًا والأيام إلَّا نُقْصانًا ؛ / فلذلك دَلَّت على البَلايا والضِّيق والشِّدَّة والشَّرّ .

---

a) ظ وبولاق : الأرجهير . b) زيادة من ظ : المطول المقول عن القانون المسعودي للبيروني .

= في اثني عشر ألف عام (المسعودي : مروج الذهب ١ : ٨٥-٨٦، التنبيه والإشراف ٢٠١، ٢٢١) .

[١] آرْيَبْهَطَ Aryabhata أحد حكماء الهند سماه العرب الأَرْجَبْهَر ، وعُرِفَ نظام الحساب الذي توصل إليه باسم سني الأرجبهر أو أيام الأرجبهر ، وزعم بعض العرب القدماء أن الأرجبهر اسم الجزء من ألف جزء من سني السندهند أو اسم كتاب مستخرج من كتاب السندهند . وجعل أصحاب الأرجبهر سني عالمهم أربع مائة ألف واثنين وثلاثين ألف سنة .(المسعودي : التنبيه والإشراف ٢٢٠، مروج الذهب ١ : ٨٥؛ البيروني : الآثار الباقية ٢٥؛ مطهر بن طاهر المقدسي : البدء والتاريخ ٢ : ١٤٦؛ نللينو : علم الفلك ١٥٣-١٥٤) .

[٢] بعد ذلك في نسخة الظاهرية (ظ) : «وقال أصحاب الأركيز من قُدماء الهند خلاف ذلك . وهذه كلها أقوال لا دليل عليها ولا مستند لقائلها إلَّا تقليد قدماء الصابئة . وأما أقوال أهل الإسلام ...» ثم انتقل بعد ذلك إلى ما جاء هنا فيما يلي نهاية ١ : ٢٥٦.

[٣] أبو معشر انظر عنه فيما تقدم ١٨٠ هـ [٣].

[٤] ابن نوبخت ، هو أبو سهل الفَضْل بن نوبخت فارسي الأصل ، كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، اعتمد في علمه على كتب الفرس ونقل الكثير من الكتب من الفارسية إلى العربية (ابن النديم : الفهرست ٣٣٣؛ القفطي : تاريخ الحكماء ٢٥٥) .

وحيث تَبْلُغ الآلاف إلى أوَّل الجَدْي الذي فيه أوَّل ارْتِفاع الشَّمْس وإشْرافِها على شَرَفِها ، وفيه تَزْداد الأيامُ طُولًا ، والدَّلْو والحُوت اللَّذان تَزْدادُ الشَّمْسُ فيهما صُعُودًا حتى تَصل لشَرَفِها ، فيَدُلّ على ظهُور الخَيْر وضَعْف الشَّرّ ، وثَبات الدِّين والعَقْل ، والعَمَل بالحَقّ والعَدْل ، ومَعْرِفَة فَضْل العِلْم والأَدَب في تلك الثلاثة الآلاف سنة .

وما يَكُون في ذلك فَعَلى قَدْر صاحِب الألف والمائة والعَشْرة ، وعلى حَسَب اتِّفاق الكَواكِب في أوَّل سُلْطان صاحِب الألْفِ . فلا يَزالُ ذلك في زِيادَة حتى يَعُود أَمْرُ الدُّنْيا في آخرها إلى مِثْل ما كان عليه ابْتِداؤها وهي في ألف الحَمَل .

وكُلَّما تَقارَبَ آخِرُ كلّ أَلْف من هذه الأُلوف ، اشْتَدَّ الزَّمانُ وكَثُرت البَلايا ، لأنَّ أواخِرَ البُرْج في حُدود النُّحوس ، وكذلك في آخِر المِئين والعَشَرات ، فعلى هذا الانْقِضَاء للدنيا إذا كان الزَّمانُ يَعُود إلى الحَمَل كما بَدَأ أوَّل مَرَّة .

وزَعَمُوا أنَّ ابْتِداءَ الخَلْق بالتحرُّك ، كان والشَّمْس في ابْتِداء المَسير : فدَارَ الفَلَكُ ، وجَرَت المِياهُ ، وهَبَّت الرِّياحُ ، واتَّقَدَت النِّيرانُ ، وتَحَرَّك سائِرُ الخَلائِق بما هم عليه من خَيْرٍ وشَرٍّ . والطَّالِعُ تلك السَّاعَة تسع عشرة دَرَجَة من بُرْج السَّرطان وفيه المُشْتَري ، وفي البيت الرابع الذي هو بيت العافِيَة ، وهو بُرْج الميزان ، زُحَل ، وكان الذَّنَب في القَوْس ، والمَرِّيخ والجَدْي والزُّهَرَة وعُطارِد في الحُوت ، ووَسَط السَّماء بُرْج الحَمَل ، وفي أوَّل دَقيقَة منه الشَّمْس ، وكان القَمَرُ في الثَّوْر وفي بَيْت السَّعادَة ، وكان الرأسُ في بُرْج الجَوْزاء وهو بَيْتُ الشَّقاء .

وفي تلك الدَّقيقَة من السَّاعَة كان اسْتِقْبالُ أَمْر الدُّنْيا ، فكان خَيْرُها وشَرُّها وانْحِطاطُها وارْتِفاعُها وسائِر ما فيها ، على قَدْر مَجاري البُرُوج والنُّجوم وولاية أصْحاب الألوف وغير ذلك من أحْوالِها .

ولأنَّ المشتري كان في السَّرَطان في شَرَفِه ، وزُحَل في الميزان في شَرَفِه ، والمَرِّيخ والشَّمْس والقَمَر في إشْرافِها ، دَلَّت على كائِنَة جليلة ، فكان نَشْو العالَم .

وانْبَرَزَ زُحَل فتولَّى الألف هو والميزان ، وكان المُشْتَري في الطَّالِع مَقْبولًا ، وكذلك جميعُ الكَواكِب كانت مَقْبولَة ، فدَلَّ على نَماء العالَم وحُسْن نَشْوه .

وكان زُحَلُ هو المُسْتَولي والعالي في الفَلَك والبُرْج طويل المَطالع ، فطالَت أَعْمارُ تلك الأَلْف ، وقَوِيَت أبْدانُهم ، وكَثُرت مياهُهُم .

وكَوْن الميزان تَحْت الأرْض ، دَلَّ على خَفاء أوَّل حُدوث العالَم ، وعلى أنَّ أَهْلَ ذلك الزَّمان يَنْظُرون في عِمارَة الأرْضين وتَشْييد البُنْيان .

ثم وَلي الأَلْف الثاني العَقرَب والمرِّيخ، وكان في الطَّالِع المرِّيخ، فدَلَّ على القَتْل في ذلك الأَلْف، وسَفْك الدِّماءَ والسَّبْي والظُّلْم والجَوْر والخَوْف والهَمّ والأَحْزان والفَساد وجَوْر المُلُوك.

ووَلي الأَلْف الثَّالِث القَوْس، وشارَكه عُطارد والزُّهَرَة بطلوعهما، وكان الذَّنَبُ في القَوْس: فدَلَّ المُشْتَري على النَّجْدَة في تلك الأَلْف والشِّدَة والجَلَد والبَأْس والرِّياسَة والعَدْل، وتَقْسيم المُلوك الدُّنْيا وسَفْك الدِّماء بسبب ذلك؛ ودَلَّت الزُّهَرَة على ظُهُور بُيوت العِبادَة وعلى الأَنْبياء؛ ودَلَّ عُطارِد على ظُهور العَقْل والأَدَب والكَلام. وكَوْن البُرْج مَجَسَّدًا، دَلَّ على انْقِلاب الخَيْر والشَّرّ في تلك الأَلف مَرَّات، وعلى ظُهورُ أَلْوان من آيات الحَقّ والعَدْل والجَوْر.

ثم وَلي الأَلْف الرَّابع الجَدْي ـ وكان فيه المرِّيخ ـ فدَلَّ على ما كان في تلك الأَلف من إهْراق الدِّماء، ودَلَّت الشَّمْسُ على ظُهُور الخَيْر والعِلْم ومَعْرِفَة الله تعالى وعِبادَتِه وطاعَته وطاعَة أَنْبيائه، والرَّغْبَة في الدين مع الشَّجاعَة والجَلَد. وكَوْن البُرْج مُنْقَلِبًا هو والبُرْج الذي فيه الشَّمْس، دَلَّ على انْقِلاب ذلك في آخِرها، وظُهور الشَّرّ والتَّفَرُّق والغَشْم[a] والقَتْل وسَفْك الدِّماء والغَضَب في أَصْناف كثيرة، وتَحَوُّل ذلك وتَلَوُّنه. وكَوْن الجَدْي مُنْحَطًّا، دَلَّ على أَنَّه يَظْهَرُ في آخِر تلك الأَلْف الجِنس[b] الشَّبيه بصِفَة زُحَل والمرِّيخ، وانْقِطاع العُظَماء والحُكَماء وبَوارهم، وارْتِفاع السُّفْلَة، وخَراب العامِر، وعِمارَة الخَراب، وكَثْرَة تَلَوُّن الأَشْياء.

ووَلي الأَلْف الخامِس الدَّلْو بطُلوع القَمَر ـ وكان القَمَرُ في الثَّوْر ـ فدَلَّ الدَّلْو لبُرودَته وعُسْره على سُقُوط العُظَماء وعَطَلَة أَمْرِهم، وارْتِفاع السُّفْلَة والعَبيد، ومَحْمَدَة البُخَلاء، وظُهور الجِنْس[c] الأَسْوَد والسَّوَاد، وعلى كَثْرَة التَّفْتيش والتفكُّر وظُهور الكَلام في الأَدْيان ومَحَبَّة الخُصُومات. وكَوْن القَمَر في شَرَفِه يدلُّ على قَهْر المُلُوك، وظُهُور وُلاة الحَقّ، ونَفاذ الخَيْر، وظُهُور بُيوت العِبادَة، والكَفّ عن الدِّماء، والرَّاحَة والسَّعادَة في العامَّة، وثَبات ما يكون من العَدْل والخَيْر وطُول المُدَّة فيه. وكَوْن البرْج مائِيًّا يدلُّ على كَثْرَة الأَمْطار والغَرَق، وآفَة من البَرْد يَهْلك فيها الكثيرُ.

ويلي الأَلْف السَّادِس بُرْج الحُوت بطُلُوع المُشْتَري والرأْس، فيدلّ على المَحْمَدَة في الناس عامَّةً، وعلى الصَّلاح والخَيْر والسُّرور وذَهاب الشَّرّ وحُسْن العَيْش.

ولكُلِّ واحِدٍ من الكَواكِب ولاية أَلف سنة، فصارَ عُطارِد خاتمًا في بُرْج السُّنْبُلَة.

---

a) بولاق: القسم. b) بولاق: الحسن. c) بولاق: الجيش.

وزَعَمَ ابنُ نَوْبَخْت أنَّ من يوم سارَت الشَّمْسُ إلى تَمام خَمْس وعشرين من مُلْك أنوشُرْوان ، ثلاثة آلاف وثمان مائة وسبع وستون سنة ، وذلك في ألف الجَدْي وتَدْبير الشَّمْس . ومنه / إلى ٢٥٥:١ اليوم الأوَّل من الهِجْرَة سبع وثمانون سنة شَمْسية وستة وعشرون يومًا . ومن الهِجْرَة إلى قِيام يَزْدَجِرْد تسع سنين وثلاث مائة وسبعة وثلاثون يومًا ، فذلك الجَميع إلى أن قامَ يَزْدَجِرْد ثلاثة آلاف وتسع مائة وست وستون سنة .

وقال أبو مَعْشَر : وزَعَمَ قَوْمٌ من الفُرْس أنَّ عُمْرَ الدُّنْيا سبعة آلاف سنة بعِدَّة الكَواكِب السَّبْعَة ، وزعم أبو مَعْشَر أنَّ عُمْرَ الدُّنْيا ثلاث مائة ألف سنة وستون ألف سنة ؛ وأنَّ الطُّوفَان كان في النِّصْف من ذلك على رَأْس مائة ألف وثمانين ألف سنة .

وقال قَوْمٌ : عُمْرُ الدُّنْيا تسعة آلاف سنة : لكُلِّ كَوْكَب من الكَواكِب السَّبْعَة السَّيَّارة ألف سنة ، وللرَّأْس ألف سنة ، وللذَّنَب ألف سنة ، وشَرّها ألف الذنب . وأنَّ الأَعْمار طالَت في تَدْبير آلاف الثلاثة العُلوية ، وقَصُرَت في آلاف الكَواكِب السُّفْلية .

وقال قَوْمٌ : عُمْرُ الدُّنْيا تسعة عشر ألف سنة بعَدَد البُرُوج الاثْنَي عشَر لكلِّ بُرْج ألف سنة ، وبعَدَد الكَواكِب السَّبْعَة السَّيَّارَة لكُلِّ كَوْكَب ألف سنة .

وقال قَوْمٌ : عُمْرُ الدُّنْيا أَحَد وعشرون ألف سنة ، بزيادة ألف للرَّأْس وألف للذَّنَب .

وقال قَوْمٌ : عُمْرُ الدُّنْيا ثمانية وسبعون ألف سنة : في تدبير بُرْج الحَمَل اثنا عشر ألف سنة ، وفي تَدْبير بُرْج الثَّوْر أَحَدَ عشر ألف سنة ، وفي تَدْبير الجَوْزاء عشرة آلاف سنة . فكانَت الأَعْمَارُ في هذا الرُّبْع أَطْوَل ، والزَّمانُ أَجَدّ . ثم تَدْبير الرُّبْع الثَّاني مُدَّة أربعة وعشرين ألف سنة ، فتكُون الأَعْمَارُ دون ما كانت في الرُّبْع الأَوَّل . وتَدْبيرُ الرُّبْع الثالث خمسة عشر ألف سنة . وتَدْبير الرُّبْع الرابع ستة آلاف سنة .

وقال قَوْمٌ : كانت المُدَّةُ من آدمَ إلى الطُّوفان ألفين وثمانين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يومًا ، ومن الطُّوفان إلى إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ تسع مائة واثنتين وأربعين سنة وسبعة أشهروخمسة عشر يومًا ، فذلك ثلاثة آلاف ومائتان وثلاث وعشرون سنة .

وقال قَوْمٌ من اليَهود : عُمْرُ الدُّنْيا سبعون ألف سنة مُنْحَصِرَة في ألف جِيل ، ولَفَّقُوا ذلك من قَوْل مُوسَىٰ ـ عليه السَّلام ـ في صَلاتِه : «إن الجيلَ سبعون سَنَة» ، ومن قَوْله في الزَّبُور : «إنَّ إبْراهيمَ عليه السَّلام قَطَع معه الله تعالى عَهْدًا لبَقَاء البَشَر ألْف جيل» ، فجاءَ من ذلك أنَّ مُدَّةَ الدُّنْيا سبعون ألف سنة ، واسْتَظْهَروا لقَوْلهم هذا بما في التَّوْراة من قَوْله : «واعْلَم أنَّ الله إلهك هو القَادِر المُهَيْمن الحافِظ العَهْد والفَضْل لمُحبِّيه وحافِظي وَصاياه لأَلْف جيل» .

وذَكَرَ أبو الحَسَن عليّ بن الحُسَيْن المَسْعُودي في كِتاب «أخْبَار الزَّمَانَ» عن الأَوائِل أنَّهم قالوا: كان في الأَرْض ثمان وعشرون أمَّة ذات أَرْواحٍ وأَيْد وبَطْش وصُوَر مُخْتَلِفات، بعَدَد مَنازِل القَمَر، لكلٍّ منزلة أُمَّة منفردة تُعْرَف بها تلك الأُمَّة. ويَزْعُمون أنَّ تلكَ الأُمَم كانت الكَواكِبُ الثابتة تُدَبِّرها، وكانوا يَعْبُدُونها[1].

ويُقالُ[a]: لمَّا خَلَق الله تعالى البُرُوج الاثْنَي عشر قَسَم دَوامَها في سُلْطانِها[b]: فَجَعلَ للحَمَل اثني عشر ألف عام، وللثَّوْر أحَد عشر ألف عام، وللجَوْزاء عشرة آلاف عام، وللسَّرَطان تسعة آلاف عام، وللأَسَد ثمانية آلاف عام، وللسُّنْبُلَة سبعة آلاف عام، وللمِيزان ستة آلاف عام، وللعَقْرب خمسة آلاف عام، وللقَوْس أربعة آلاف عام، وللجَدْي ثلاثة آلاف عام، وللدَّلْو ألفي عام، وللحُوت ألف عام، فصار الجَميعُ ثمانية وسبعين ألف عام. فلم يَكُن في عالَم الحَمَل والثَّوْر والجَوْزاء حَيَوان، وذلك ثلاثة وثلاثون ألف عام؛ فلمَّا كان عالَم السَّرَطان تَكَوَّنت دَوابُّ الماء وهَوامُّ الأَرْض؛ فلمَّا كان عالَمُ الأَسَد تكوَّنَت ذَوات الأَرْبَع من الوَحْش والبَهائم، وذلك بعد تسعة آلاف عام من خَلْق دَواب الماء والهَواء؛ فلمَّا كان عالَم السُّنْبُلَة تَكَوَّن الإنْسانان الأَوَّلان، وهما أَدَمانوس وحَيوانوس، وذلك لتمام سبعة عشر ألف عام لخَلق دَوَاب الماء وهَوَام الأَرْض، ولتمام ثمانية آلاف عام من خَلْق ذَوات الأَرْبَع[2].

وخُلِقَت الأَرْض في عالَم الميزان، ويُقالُ بل خُلِقَت الأَرْض أوَّلًا، وأقامَت خالية ثلاثة وثلاثين ألف عام ليس فيها حَيَوان ولا عالَم رُوحاني، ثم خَلَق الله تعالى هَوَام الماء ودَوَاب الأَرْض وما بَعْد ذلك على ما تقدَّم ذكره. فلمَّا تَمَّ أربعة وعشرون ألف عام لخَلْق دَوَاب الماء وهَوَام الأَرْض، ولتَمَام خمسة عشر ألف عام من خَلْق ذَوَات الأَرْبع، ولتتمَّة سبعة آلاف عام من لدنْ تكوُّن الإنسانين، خُلِقَت الطُّيور.

ويُقالُ إنَّ مُدَّةَ مُقَام الإنْسانَيْن ونَسْلِهما في الأَرْض مائة ألف وثلاثة وثلاثون ألف عام: منها لزُحَل ستة وخمسون ألف عام، وللمُشْتَري أربعة وأربعون ألف عام، وللمَرِّيخ ثلاثة وثلاثون ألف عام.

---

a) عند المسعودي: وقال هرمس. b) عند المسعودي: قسم لها دوامها في سلطانه.

---

[1] المسعودي: أخبار الزمان ٦. [2] نفسه ٧-٨.

و[١]يُقالُ إنَّ الأُمَمَ المَخْلُوقات قَبْل آدَم هي كانت الجِبِلَّة الأُولى ، وهي ثمان وعشرون أُمَّة بإزاء مَنازِل القَمَر ، خُلِقت من أَمْزِجَة مختلفة أَصْلها الماء والهَوَاء والنار ، فتباين خَلْقُها :

فمنها أُمَّةٌ خُلِقَت طُوالًا زُرْقًا ذَوات أَجْنِحَة ، كلامُهُم قَرْقَعة على صِفَة الأُسود ؛ ومنها أُمَّةٌ أَبْدانُهم أَبْدان الأُسُود ، ورُؤُوسهم رُؤُوس الطَّيْر ، لهم شُعُور وآذان طِوال ، وكلامهم دَوِيّ ؛ ومنها أُمَّةٌ لها وَجْهَان : وَجْهٌ أمامَها ، ووَجْهٌ خَلْفَها ، ولها أَرْجُل كثيرة ، وكلامُهُم / كَلامُ الطَّيْر . ومنها ٢٥٦:١ أُمَّةٌ ضَعيفَة في صُوَر الكلابِ ، لها أَذْناب ، وكلامُهُم هَمْهَمة لا يُعْرَف ؛ ومنها أُمَّةٌ تُشْبِه بني آدَم ، أَفْواهُهُم في صُدورهم ، يُصَفِّرون إذا تكلَّموا تَصْفيرًا ؛ ومنها أُمَّةٌ يُشْبِهون نصف إِنْسَان ، لهم عَيْنٌ واحدة ، ورِجْلٌ يَقْفِزون بها قَفْزًا ، ويَصيحُون كصِياح الطَّيْر ؛ ومنها أُمَّةٌ لها وُجُوهٌ كوُجوه النَّاس ، وأَصْلاب كأَصْلاب السَّلاحِف ، في رُؤُوسهم قُرُون طِوال ، لا يُفْهم كلامُهُم ؛ ومنها أُمَّةٌ مُدَوَّرَة الوُجُوه ، لهم شُعُورٌ بيض وأَذْنابٌ كأَذْناب البَقَر ، ورُؤُوسُهم في صُدورِهم ، لهم شُعُور وثُدِي وهم إناثٌ كلُّهن لَيس فيهنَّ ذَكَر ، يُلَقَّحن من الرِّيح ويَلِدْن أمثالَهن ، ولهن أَصْواتٌ مُطْرِبَة ، يجتمع إليهن كثيرٌ من هذه الأُمَم لحُسْن أَصْواتِهن ؛ ومنها أُمَّةٌ على خَلْق بني آدَم ، سُودٌ وُجوهُهم ، ورُؤُوسُهم كرُؤُوس الغِرْبان ؛ ومنها أُمَّةٌ في خَلْق الهَوَام والحَشَرات ، إلَّا أنَّها عَظيمَة الأَجْسَام ، تأْكُل وتَشْرب مثل الأَنْعَام ؛ ومنها أُمَّةٌ كوُجوه دَوَاب البَحْر ، لها أَنْيابٌ كأَنْياب الخَنَازير وآذان طِوال . ويُقالُ إنَّ هذه الثَّمانية والعِشْرين أُمَّة تَناتَجَت[a] فصارَت مائة وعشرين أُمَّة[٢] .

وسُئِلَ أمير المُؤْمنين عليّ بن أبي طَالب رضي الله عنه : هل كان في الأَرْض خَلْقٌ قَبْل آدم يَعْبُدون الله تعالى ؟ فقال : نَعَم ، خَلَق الله الأَرْضَ ، وخَلَقَ فيها [أُمَمًا من][b] الجِنّ يُسَبِّحون الله ويُقَدِّسونه لا يَفْتُرون ؛ وكانوا يَطيرون إلى السَّماء ، ويَلْقَوْن الملائِكَة ويُسَلِّمون عليهم ، ويَسْتَعْلمون منهم خَبَر ما في السَّمَاء ؛ ثم إن طائِفَةً منهم[c] تَمَرَّدت ، وعَتَت عن أَمْر رَبِّها ، وبَغَت في الأَرْض بغير الحَقّ ، وعَدَا بعضُهم على بَعْض ، وجَحَدوا الرُّبوبية ، وكَفَرُوا بالله وعَبَدوا ما سِواه ، وتَغايَرُوا على الملك حتى سَفَكوا الدِّماء ، وأَظْهَرُوا في الأَرْض الفَسَاد ، وكَثُرَ تَقاتُلُهم ، وعَلَا بَعْضُهم على بَعْض ؛ وأقامَ المُطيعون لله تعالى على دِينِهم ، وكان إبْليس من الطَّائِفَة

---

a) بولاق : تناكحت . b) زيادة من المسعودي . c) المسعودي : من الجن .

---

[١] من هنا يتابع المقريزي النقل عن المسعودي . [٢] المسعودي : أخبار الزمان ١٠ - ١١ .

المُطيعَة لله والمُسَبِّحين له، وكان يَصْعد إلى السَّماء فلا يُحْجَب عنها لحُسْن طاعَتِه.

ويُرْوَى أنَّ الجِنَّ كانت تَفْتَرِق على إحْدى وعشرين قَبيلة، وأنَّ بعدَ خمسة آلاف سنة مَلَّكُوا عليهم مَلِكًا يقال له شِمائيل[a] بن آرِس، ثم افْتَرَقُوا فمَلَّكوا عليهم خَمْسَة مُلوك، وأقامُوا على ذلك دَهْرًا طَويلًا؛ ثم أغارَ بَعْضُهم على بَعْض وتَحاسَدُوا، فكانت بينهم وَقائِعُ كثيرة، فأَهْبَط الله تعالى إليهم إبْليس - وكان اسْمه بالعَرَبِيَّة: الحارِث، وكنيته أبو مُرَّة - ومعه عَدَدٌ كثيرٌ من الملائِكة، فهَزَمَهم وقَتَلَهم. وصار إبْليسُ مَلِكًا على وَجْه الأَرْض فتَكَبَّر وطَغَى، وكان من امْتِناعِه من السُّجود لآدَم ما كان. فأَهْبَطَه الله تعالى إلى الأَرْض، فسَكَن البَحْر وجَعَلَ عَرْشَه على الماء، فأُلْقِيَت عليه شَهْوَةُ الجِماع، وجُعِلَ لِقاحُه كلِقاح الطَّيْر وبَيْضه [كبيضه][b].

ويُقالُ إنَّ قبائلَ الجِنّ من الشَّياطين خَمْس وثلاثون قَبيلَة: خمس عشرة قَبيلَة تَطير في الهَوَاء، وعَشْر قَبائِل مع لَهَب النَّار، وثلاثون قَبيلَة يَسْتَرِقون السَّمْع من السَّمَاء. ولكُلِّ قَبيلَة مَلَكٌ مُوَكَّل بدَفْع شَرِّها.

ومنهم صِنْفٌ من السَّعالي يَتَصَوَّرون في صُوَر النِّساء الحِسَان، ويَتَزَوَّجن برجال الإنْس، ويَلِدن منهم؛ ومنهم صِنْفٌ على صُوَر الحَيَّات، إذا قَتَلَ أحَدٌ منهم واحِدَة هَلَكَ من وَقْته، فإن كانت صَغيرَة هَلَكَ وَلَدُه أو عَزيزٌ عنده[1].

وعن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - أنَّه قال: إنَّ الكِلابَ من الجِنّ، فإذا رَأَوْكم تأْكُلون فأَلْقوا إليهم من طَعامِكم، فإنَّ لهم أَنْفُسًا - يعني أنَّهم يأْخُذون بالعَيْن[2].

ورُوِيَ أنَّ الأَرْضَ كانت مَعْمورَةً بأُمَم كَثيرَة، منهم الطمّ والرمّ والجِنّ[c] والبنّ والحِسّ والبسّ[d]، وأنَّ الله تعالى لمَّا خلَقَ السَّماءَ عَمَّرَها بالملائِكَة، ولمَّا خَلَق الله الأَرْض عَمَّرَها بالجِنّ، فعاثُوا وسَفَكُوا الدِّماء، فأَنْزَل الله إليهم جُنْدًا من الملائِكَة، فأَتَوا على أكْثَرِهم قَتْلًا وأَسْرًا. فكان ممن أُسِرَ إبليس - وكان اسمُه عَزازيل - فلمَّا صُعِدَ به إلى السَّمَاء، أَخَذَ نفسَه بالاجْتِهاد في العِبادَة والطَّاعَة رَجاء أن يَتُوب الله عليه، فلمَّا لم يُجْد ذلك عليه شيئًا خامَرَ الملائِكَة القُنُوط، فأرادَ الله

---

a) الأصل وبولاق: شملال، والتصويب من المسعودي. b) الأصل وبولاق: لقاحه لقاح الطير وبيضه، والمثبت من المسعودي. c) بولاق: الجن. d) بولاق: الحسن والبسن.

---

[1] المسعودي: أخبار الزمان ١١-١٣.
[2] نفسه ١٤.

أن يُظْهر لهم خُبثَ طويَّته وفَساد نِيَّته ، فخَلَق آدَم ، فامْتَحَنه بالسُّجود له ليُظْهر للمَلائِكَة تَكَبُّره وإبانَة ما خَفِي عنهم من مَكْتوم أَنْبائِه .

وإلى عمارة الأرْض قَبل آدَم ممَّن أَفْسَدَ فيها ، أشارَ بقوله تعالى حكايةً عن الملائِكَة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [الآية ٣٠ سورة البقرة] ؟ يَعْنُون كما فُعِلَ بها من قَبْل ، والله أَعْلَم بمُرادِه .

وقال أبو بكر أحمد بن عليّ بن وَحْشِيَّة في كتاب «الفِلاحَة» : إنَّه عَرَّبَ هذا الكِتاب ونَقَلَه من لِسان الكَشدانيين[a] إلى اللغة العربية ، وإنَّه وَجَدَه من وَضْع ثلاثة حُكَماء قُدَماء ، وهم صَغْريت ، و نيوساد ، وقوثامي [b].

ابتدأه الأوَّلُ وكان ظهورُه في الألف السَّابِعة من سبعة آلاف سني زُحَل ،وهي الألف التي يُشارِك فيها زُحَل القَمَر ؛ وتَمَّمه الثاني وكان ظُهورُه في آخر هذه الأَلْف ؛ وأَكْمَلَه الثالث وكان ظُهورُه بعد مُضِيّ أربعة آلاف سنة مَن دَور الشَّمْس الذي هو سبعة آلا سنة ، وإنَّه نَظَرَ إلى ما بين زَمان الأوَّل والثالِث ، فكان ثمانية عشر ألف سنة شَمْسية وبعضُ الألف التاسعة عشرة [1].

وقد اختَلَف أهْلُ الإسْلام في هذه المسألَة أيضًا ، فرَوَى سَعيدُ بنُ جُبَيْر ، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، أنَّه قال : الدُّنْيا جُمُعَه من جُمَع الآخرة ، واليوم ألف سنة ، فذلك سبعة آلاف سَنَة .

ورَوَى سُفْيان عن / الأَعْمَش ، عن أبي صالِح قال : قال كَعْب الأَحْبار : الدُّنْيا سَتَّة آلاف سَنَة . ٢٥٧:١

وعن وَهْب بن مُنَبِّه أنَّه قال : قد خَلَا من الدُّنْيا خمسة آلاف سنة وستّ مائة سنة ، إنِّي لأَعْرف كلَّ زَمان منها ومَنْ فيه من الملوك و[c] الأَنْبياء ؛ فقيل له : فكم الدُّنْيا ؟ قال : ستة آلاف سنة [2].

ورَوَى عبدُ الله بن دِينار ، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول : «أَجَلُكم في أَجَل من كان قَبْلكم من صَلَاة العَصْر إلى مَغْرب الشَّمْس» .

وفي حَديث أبي هُرَيْرَة : «الحُقْبُ ثمانون عامًا ، اليوم منها سُدْس الدنيا» ، والحُقْبُ هنا بكسر الحاء وضَمِّها .

---

a) بولاق : الكلدانيين . b) بولاق : ضعريت وسوساد وفوقاي . c) الكلمتان زيادة من نسخة الظاهرية .

---

[1] ابن وحشية : الفلاحة النبطية ١ : ٩.

[2] الطبري : تاريخ الأمم والملوك ١ : ١٠.

قال أبو محمد الحَسَن بن أحمد بن يَعْقُوب الهَمْدانيّ في كتاب «الإكْليل» : فكأنَّ الدُّنْيا جزءٌ من أربعة آلاف وسبع مائة وثلاثةٍ وعشرين جزءًا وثلث جزء من الحِقَب ، على أنَّ السَّنَة القَمَرِيَّة ثلاث مائة وأربعة وخمسون يومًا وخُمْس وسُدْس يوم . فإذا كانت الدُّنْيا ستّة آلاف سنة واليوم ألف سنة ، تكون سنين قَمَرِيَّة ستة آلاف ألف سنة .

فإذا جَعَلْناه جزءًا وضَرَبْناه في أَجْزاء الحِقَب ـ وهي أربعة آلاف وسبع مائة سنة وثلاثٌ وعشرونَ وثُلْث ـ خَرَجَ من السِّنين ثمانية وعشرون ألف ألف ألف وثلاث مائة ألف ألف وأربعون ألف ألف . وإذا كانت جُمُعَةٌ من جُمَع الآخِرة ، زِدْنا مع هذا العَدَد مثل سُدْسِه ، وهذا عَدَدُ الحِقَب [١] .

وقال أبو جَعْفَر محمد بن جَرير الطَّبَرِيّ في تاريخه الكبير [a]: الصَّوابُ من القَوْل ما دَلَّ على صِحَّتِه الخَبَر[b] الوارِد ، فذَكَر قَوْلَه ـ عليه السَّلام ـ : «أَجَلُكم في أَجل من كان قَبْلَكم من صَلاة العَصْر إلى مَغْرب الشَّمْس» ، وقوْله عليه السلام : «بُعِثْتُ أنا والسَّاعَة كهاتَيْن» وأشارَ بالسَّبَّابَة والوُسْطَى ، وقوله عليه السَّلام : «بُعِثْت أنا والسَّاعَة جَميعًا إن كادَت لتَسْبِقُني» [٢] .

قالَ : فمَعْلومٌ إذا[c] كان اليوم أوَّله طُلُوع الشَّمْس[d] وآخِره غُرُوبِ الشَّمْس ، وكان صحيحًا عن النَّبي ﷺ قَوْلَه : «أَجَلُكم في أَجَلَ من كان قَبْلَكم من صَلاة العَصْر إلى مَغْرب الشَّمْس» ، وقوله : «بُعِثْتُ أنا والسَّاعَة كهاتَيْن» ، وأشارَ بالسَّبَّابَة والوُسْطَى . وكان قَدْرُ ما بين أَوْسَط أَوْقات صَلاة العَصْر ـ وذلك إذا صارَ ظِلُّ كلُّ شيءٍ مِثْلَيْه ـ على التَّحَرِّي إنَّما يكون قَدْر نصف سُبْع اليوم يَزيد قَليلًا أو يَنْقُص قَليلًا ، وكذلك فَضْل ما بين الوُسْطَى والسَّبَّابَة إنَّما يكون نحوًا من ذلك .

وكان صَحيحًا مع ذلك قَوْلَه عليه السَّلام : «لن يُعْجِز الله أن يُؤَخِّر هذه الأُمَّة نِصْفَ يَوْم» يعني نِصْف اليوم الذي مِقْداره ألف سنة ، فأَوْلَى القولَيْن ، اللَّذين أَحَدُهما عن ابن عَبّاس والآخر عن كَعْب ، قَوْل ابن عَبّاس : «إن الدُّنْيا جُمْعَةٌ من جُمَع الآخِرَة سَبْعَة آلاف [سنة][e]» .

وإذا كان [ذلك][e] كذلك ، وكان قد جاءَ عنه عليه السَّلام : «إنَّ الباقي من ذلك في حياتِه نِصْف يَوْم» ، وذلك خمس مائة عام إذا كان ذلك نصف يَوْم من الأيام التي قَدْر الوَاحِد منها ألف

a) الكلمتان زيادة من نسخة الظاهرية . b) ظ : ما دل عليه صحة الخبر . c) بولاق : إن . d) الطبري : الفجر . e) زيادة من الطبري .

[١] لم أقف عليه فيما وصل إلينا من أجزاء الإكليل . [٢] الطبري : تاريخ الأمم والملوك ١ : ١١، ١٢، ١٥.

عام ، كان معلومًا أنَّ الماضي من الدُّنْيا ، إلى وَقْت قَوْله عليه السَّلام ، ستة آلاف سنة وخمس مائة سنة أو نحو ذلك [1].

وقد جاءَ عنه ـ عليه السَّلام ـ خَبَرٌ يدلُّ على صِحَّة قَوْل من قال : إنَّ الدُّنْيا كلّها ستة آلاف سنة ، لو كان صحيحًا [سَنَدُه] [a] لم نَعْدُ القَوْلَ به إلى غيره ؛ وهو حَديثُ أبي هُرَيْرة يرفعه : «الحُقْب ثمانون عامًا ، اليوم منها سُدْس الدنيا» فتَبَيَّنٌ من هذا الخَبَر أنَّ الدنيا كلَّها ستّة آلاف سنة .

وذلك أنَّ[b] اليوم ، الذي هو من أيَّام الآخِرة ، مِقْداره ألف سنة من سِني الدنيا ، وكان اليومُ الواحِد من ذلك سُدْس الدنيا ، كان معلومًا أنَّ جَميعَها ستة أيَّام من أيَّام الآخِرَة ، وذلك ستّة آلاف سنة [2].

وقال أبو القاسِم السُّهَيْلي [c]في كتاب «الرَّوْض الأنف» ، وقد ذكر قول الطَّبري الذي تقدَّم[c]: وقد مَضَت الخمس مائة من وَفاتِه ﷺ إلى اليوم بنَيِّفٍ عليها ، ولَيْس في قَوْله : «لَنْ يُعْجِز الله أن يؤَخِّر هذه الأُمَّة نِصْف يوم» ما يَنْفِي الزيادة على النِّصف ، ولا في قَوْله : «بُعِثْت أنا والسَّاعة كهاتَيْن» ما يُقْطَع به على صِحَّة تأويله ـ يعني الطَّبري ـ ، فقد نَقَلَ في تأويله غير هذا ، وهو أنَّه ليس بينه وبين السَّاعة نَبِيٌّ ولا شِرْعَه غير شِرْعَته مع التقريب لحينها ، كما قال تعالى : ﴿اقْتَرَبَت السَّاعَةُ﴾ [الآية ١ سورة القمر] ، وقال : ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوه﴾ [الآية ١ سورة النحل] .

ولكن إذا قلنا إنَّه عليه السَّلام إنَّما بُعِثَ في الأَلْف الآخِر بعد ما مَضَت منه سُنون ، ونَظَرْنا إلى الحُرُوف المُقَطَّعة في أوائِل السُّوَر وَجَدْناها أربعة عشر حَرْفًا ، يجمعها قولك : «ألم يسطع نص حق كره» ، ثم تأْخُذ العَدَد على حِسابِ أبي جاد ، فيجيء تسع مائة وثلاثة [3].

ولم يُسَمِّ الله تعالى في[d] أوائِل السُّوَر إلَّا هذه الحُرُوف ، فليس يَبْعُد أن يكون من بعض مُقْتَضياتها وبعض فَوائِدها ، الإشارة إلى هذا العَدَد من السِّنين ، لما قَدَّمْناه من حَديث الأَلْف السَّابع الذي بُعِثَ عليه السَّلام فيه .

---

a) زيادة من الطبري . b) بولاق : أنه حيث كان . (c-c) زيادة من ظ . d) ساقطة من بولاق .

---

[1] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١:١٦ - ١٧.

[2] نفسه ١:١٧.

[3] ابن خلدون : المقدمة ٨٢٣ - ٨٢٥. ومجموع هذه الحروف الأربعة عشره ٦٩٣ وهو ما يتفق مع أورده المقريزي نقلًا عن يعقوب بن إسحاق الكندي (فيما يلي ٦٩٧) وهي طريقه المشارقة في الحساب ، أما =

غير أنَّ الحِسَابَ يحتمل أن يكون من مَبْعَثه ، أو من وَفاتِه ، أو من هِجْرَته ـ وكلٌّ قريبٌ بعضُه من بَعْض ـ فقد جاءَ أشْراطها : وَلكِن ﴿لا تَأْتِيكُم إلَّا بَغْتَةً﴾ [الآية ١٨٧ سورة الأعراف] .

وقد رُوي [(a]أنَّ المتوكِّل العبَّاسي سأل جَعْفَر بن عبد الواحد القاضي عمَّا بقي من الدنيا ، فحدَّثه بحديث رَفعَه إلى النَّبيّ ﷺ[a)] أنَّه قال : «إن أَحْسَنَت أُمَّتي فبقاؤها يوم من أيَّام الآخِرَة ـ وذلك ألف سنة ـ وإن أساءَت فنِصْف يَوْم» . ففي هذا[b)] الحَديث تَتْميمٌ للحديث المتقدِّم وبَيانٌ له ، إذ قد انْقَضَت الخَمس مائة والأُمَّة باقية .

وقال[١] شَاذَان البَلْخيّ المُنَجِّم : مُدَّةُ مِلَّة الإسلام ثلاث مائة وعَشْر سنين[c)]؛ وقد ظَهَر كَذِبُ قَوْلِه ولله الحَمْد .

وقال أبو مَعْشَر : يَظْهَر بعد المائة والخمسين من سني الهجرة / اخْتِلافٌ كثير .

وقال جراش[d)]: [(e]رأيت في كتب الأقدمين[e)] إنَّ المُنَجِّمين أَخْبَروا كِسْرَى أنوشَرْوان بتملُّك العَرَب وظُهُور النُّبُوَّة فيهم ، وأنَّ دَليلَهم الزُّهَرَة وهي في شَرَفها والزُّهَرَة دَليلُ العَرَب ، فتكون مُدَّة مُلْك نُبُوَّتهم ألفًا وستين سنة ، ولأنَّ طالِعَ القِرَان الدال على ذلك بُرْج الميزان والزُّهَرَة صاحِبَته في شَرَفِها[٢].

قال : وسَأَلَ كِسْرَى وَزيرَه بُزُرْجَمْهُر عن ذلك ، فأَعْلَمه أنَّ المُلْكَ يَخْرُج من فارِس وينتقل إلى العَرَب ، وتكون وِلادَة القائِم بإمْرَة العَرَب لخمسٍ وأربعين سنة من وَقْت القِرَان ، وأنَّ العَرَبَ تَمْلِك المَشْرق والمَغْرب من أَجْل أنَّ المُشْتَري دَليل فارِس قد قبلَ تدبير الزُّهَرَة دَليل العَرَب ، والقِران قد انْتَقَلَ من المثلَّثة الهوائية إلى المثلَّثة المائية وإلى بُرْج العَقْرَب منها وهو دَليل العَرَب أيضًا ؛ وهذه الأدِلَّة تقتضي بَقَاء المِلَّة الإسلامية بقَدْر دَوْر الزُّهَرَة ، وهو ألف وستون سنة شمسية[٣].

(a-a) هذه العبارة من ظ وجاء عوضها في الأصل وبولاق : وقد روي أنه ـ عليه السلام ـ قال . b) ساقطة من بولاق . c) عند ابن خلدون : وعشرون . d) في الأصل : حراش ، وعند ابن خلدون وبولاق : حراس . (e-e) زيادة من ظ .

= بطريقة المغاربة يكون مجموع هذه الحروف ٩٠٣ (ابن خلدون : المقدمة ٤٢٩ هـ[٣٣٦]) .

[١] من هنا يتّفق نص المقريزي مع نص ابن خلدون في المقدمة ٨٣١-٨٣٣ حيث إن هذه النقول مُضمَّنة في نص جراش بن أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألَّفه لنظام المُلْك واقتبسه ابن خلدون في المقدمة . ووَرَدَ هذا النص في نسخة «ظ» بعد نص ابن حزم ونص ابن وحشية الآتي ذكرهما .

[٢] ابن خلدون : المقدمة ٨٣١، ٨٣٢.

[٣] نفسه ٨٣٢.

وقال نوفَيل[a] الرُّومي ، وكان في أيّام بني أُمَيَّة : تَبْقَى مِلَّةُ الإسْلام بقَدْر مُدَّة القِرَان الكبيرة ، وهي تسع مائة وستون سنة شمسية ؛ فإذا عادَ القِرَان بعد هذه المُدَّة إلى بُرْج العَقْرَب كما كان في ابتداء المِلَّة ، وتَغَيَّر وَضْعُ تَشْكيل الفَلَك عن هَيْئَتِه في الابْتِداء ، فحينئذٍ يَفْتُر العَمَل ، ويتجدَّد ما يُوجِب خِلاف الظَّنّ [١].

قال : واتَّفَقُوا على أنَّ خَرابَ العالَم يكون باستيلاء الماء والنَّار حتى تَهْلِك المكوَّنات بأَسْرِها ، وذلك إذا قَطَعَ قَلْبُ الأسَد أرْبعًا وعشرين دَرَجةً من بُرْج الأسَد ، الذي هو حَدُّ المِرِّيخ ، بعد تسع مائة وستين سنة شمسية من قِران المِلَّة .

ويُقالُ إنَّ مَلِكَ زابَلِسْتان ـ وهي غَزْنَة[b] ـ بَعَثَ إلى عبد الله أمير المؤمنين المأْمُون بحَكيم اسمُه ذُوبان في جملة هَدِيَّة ، فأُعْجِب به المأمون وسأَلَه عن مُدَّة مُلْك بني العَبَّاس ، فأَخْبَره بخُرُوج المُلْك عن عَقِبه واتِّصاله في عَقِب أَخيه ، وأنَّ العَجَمَ تَغْلبهم على الخِلافَة ، فيتغلَّب الدَّيْلَمُ أوَّلًا ثم يسوء حالُهم ، حتى يظهر التُّرْك من شَمَال المشرِق فيَمْلِكوا الفُرات والرُّوم والشَّام [٢].

وقال يَعْقُـوب بن إسْحاق الكِنْديّ [٣]: مُدَّةُ مِلَّة الإسْلام ستّ مائة وثلاث وتسعون سنة [٤]. [c]وعَلَّلَ ذلك بتعاليل نجومية ، ثم قال : وتُعَضّده الحُرُوف الواقعة في أوائل السُّوَر بحذف المكرَّر واعتباره بحساب الجُمَّل . ومن هنا أخذ السُّهَيْلي ما تقَدَّم ذكره عنه[d] .

ويُقال إنَّ الكِنْديَّ هذا وَضَعَ كتابًا في القِران الكائن في المِلَّة الإسلامية وتكلَّم عليها ، وأنَّه حَكَمَ بانقراض دولة بني العَبَّاس في منتصف المائة السابعة من الهجرة وأنَّ بانقراضها تنقضي[c]

---

a) بولاق : نفيل . b) بولاق : عزبة . (c-c) زيادة من ظ . d) في المقدمة : قلت : وهذا هو الذي ذكره السهيلي ، والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه .

---

[١] ابن خلدون : المقدمة ٨٣٢.

[٢] نفسه ٨٣٣ وهو نهاية المنقول من نص جراش عند المقريزي .

[٣] أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي ، فيلسوف العرب ومُنجِّم الرشيد والمأمون ، المتوفى سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م (راجع ، ابن النديم : الفهرست ٣١٥-٣٢٠؛ ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ٧٣- ٧٤؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ١ :٢٠٦-٢١٤؛ Sezgin, F., *GAS* VII, pp. 130-34; Joliver, J. & Rashed, R., *EI*[2] art. *al-Kindi* V, pp. 124-26؛ وللشيخ مصطفى عبد الرازق : فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، القاهرة ١٩٤٥) .

[٤] ابن خلدون : المقدمة ٨٣٢، وكل هذه النصوص مضمنة أيضًا في النص الذي نقله ابن خلدون .

[a]مِلَّةُ الإسلام وهكذا وَقَعَ فإنَّ هولاكو قَتَلَ الخليفة المُسْتَعْصِم وأزال دولة بني العَبَّاس في صفر سنة خمسٍ وخمسين وستّ مائة وكان هو وسَلَفُه على غير المِلَّة الإسلامية[1] . والشُّبْهَة التي أدَّت بالقَوْم إلى القَوْل بقيام السَّاعَة في هذا الوقت أنَّه تقرَّر عندهم من جهة الشريعة أنَّها خاتمة الشَّرائع وعلى أهلها تقوم السَّاعَة ، ودَلَّتهم الأوضاع الفلكية على تلاف المِلَّة الإسلامية والقائمين بها على يد قائم من غير أهلها ، فظنُّوا أنَّ ذلك هو وَقْت قيام السَّاعَة ، فأصابوا بعضًا وأخطأوا بعضًا ، وزالت دولةُ الإسلام من بلاد المشرق بانقراض خُلفاء بني العبَّاس وقامَت المغولُ بأمر المُلْك وهم على غير مِلَّة الإسلام ، وثَبَّت الله أهْلَ مصر حتى حاربوا ملوك المُغُل والتَّتَر غير مرّة ودفعوهم عن مصر والشَّام حتى أسْلَم من ملوك المُغُل من أَسْلَم بعد ذلك ، وصارَ المَشْرقُ بحمد الله دارَ إسْلام إلى اليوم ولم تَقُم السَّاعَة ، والله يَعْلَمُ وأَنْتُم لا تَعْلَمُون [a].

وقال الفَقيه الحافِظ أبو محمد عليّ بن أَحْمد بن سَعِيد بن حَزْم[2] في كتاب [«الفِصَل في][b] المِلل [والأهواء][b] والنِّحل» : وأمَّا اخْتِلافُ الناس في التأريخ ، فإنَّ اليهودَ يقولون أربعة آلاف سنة ، والنَّصارىٰ يقولون الدُّنْيا خمسة آلاف سنة ، وأمَّا نحن ـ يعني أهْلَ الإسْلام ـ فلا نَقْطَع على عِلْم عَدَدٍ معروفٍ عندنا .

ومن ادَّعَى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقلّ ، فقد قال ما لم يأْت قَطُّ عن رَسُول الله ﷺ فيه لفْظَةٌ تَصِحّ ، بل صَحَّ عنه عليه السَّلام خِلافُه .

بل نَقْطَع على أنَّ للدنيا أَمَدًا لا يَعْلَمُه إلَّا الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الآية ٥١ سورة الكهف] ، وقال رسول الله ﷺ :

(a-a) بقية النص المضاف من ظ . b) زيادة اقتضاها السياق .

---

[1] قال ابن خلدون عن هذا الكتاب : «ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ، ولعله غرق في كتبهم (أي العباسيين) التي طرحها هولاكو في دجلة عند استيلائهم على بغداد» (المقدمة ٨٣٤) .

[2] الحافظ أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم الأندلسي، المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ، شاعر ومؤرّخ وفقيه ومتكلم أندلسي ، أحد كبار مفكري الإسلام أذاع المذهب الظاهري ، ووضع العديد من المؤلفات من أشهرها «الفصل في الأهواء والملل والنحل» و«طَوْق الحمامة» و«جوامع السيرة» (راجع ، الحميدي :جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥٢ ، ٢٩٠- ٢٩٣؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٢:٢٣٥- ٢٥٧؛ ابن خلكان : وفيات ٣:٣٢٥- ٣٣٠؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨:١٨٤- ٢١٢؛ المقري: نفح الطيب ٢:٧٧- ٨٤؛ Annaldez, R., *EI*[2] art. *Ibn Hazm* III, (pp. 814-22).

«ما أَنْتُم في الأُمم قَبْلكم إلَّا كالشَّعْرَة البَيْضَاء في الثَّوْر الأَسْوَد ، والشَّعْرَة السَّوْداء في الثَّوْر الأَبْيَض» .

وهذه نِسْبَة من تَدَبَّرها ، وعَرَفَ مِقْدار عَدَد أهْل الإسلام ، ونِسْبَة ما بأيديهم من مَعْمُور الأرض وأنَّه الأَكْثَر ، عَلِمَ أنَّ للدنيا أمَدًا لا يَعْلَمُه إلَّا الله تعالى .

وكذلك قوله عليه السَّلام : «بُعِثْتُ أنا والسَّاعة كهاتَيْن» ، وضَمَّ أصْبَعَيْه المقدَّستين السَّبَّابَة والوُسْطَى ـ وقد جاءَ النَّصُّ بأنَّ السَّاعَة لا يَعْلَم متى تكون إلَّا الله تعالى لا أَحَدَ سِواه ـ فصَحَّ أنَّه ﷺ إنَّما عَنَى شِدَّة القُرْب لا فَضْل السَّبَّابة على السَّبَّاحَة ، إذ لو أرادَ ذلك لأُخِذَت نِسْبَةُ ما بين الأُصْبُعَيْن ونِسَب من طول الأُصْبُع ، فكان يُعْلَم بذلك متى تقوم السَّاعَة ، وهذا باطِلٌ .

وأيضًا فكان تكون نِسْبتُه ﷺ إيَّانا إلى من قَبْلَنا بأنَّنا كالشَّعْرَة في الثَّوْر كَذِبًا ـ ومَعاذَ الله من ذلك ـ فصَحَّ أنَّه عليه السَّلام إنَّما أرادَ شِدَّة القُرْب .

وله ﷺ منذ بُعِثَ أربع مائة[1] عام ونَيِّف ، والله تعالى أَعْلَم بما بقي للدنيا . فإذا كان هذا العَدَدُ العَظيم لا نِسْبَة له عند ما سَلَف ، لقِلَّته وتَفاهَته بالإضافَة إلى ما مَضَى ، فهو الذى قاله ﷺ من أنَّنا فيمن مَضَى كالشَّعْرَة في الثَّوْر أو الرَّقْمَة في ذِراع الحِمَار .

وقد رَأيْتُ بخَطِّ الأمير أبي مُحَمَّد عبد الله بن النَّاصِر قال : حَدَّثني محمد بن مُعاوية القُرَشي أنَّه رَأى بالهِنْد بُدًّا[a] له اثنتان وسبعون ألف سنة .

وقد وَجَدَ محمود بن سُبُكْتُكين بالهِنْد مَدينَةً يُؤَرِّخون بأربع مائة ألف سنة .

قال أبو مُحَمَّد : إلَّا أنَّ لكُلِّ ذلك أوَّلًا ولا بُدَّ ونِهايَة ،لم يكن شيءٌ من العالَم مَوْجودًا قَبْله ، ﴿لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ﴾[2] [الآية ٤ سورة الروم] .

---

a) بولاق : بلدًا .

---

[1] هذا كلام ابن حزم ، حيث توفي سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م .

[2] ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ١٣٢٠هـ ، ٢: ١٠٥-١٠٦ .

ذِكْرُ التَّواريخ الَّتِي كانَتْ للأُمَم قَبْل تَأْريخ القِبْط

التَّأْريخُ كَلِمَةٌ فارِسِيَّة أَصْلُها ماه روز[a]، ثم عُرِّبَت[b]. قال محمَّد بن أَحْمَد بن محمَّد بن يُوسُف البَلْخيّ[1] في كتاب «مَفاتِيح العُلوم»، وهو كِتابٌ جَليلُ القَدْر[c]: وهذا اشْتِقاقٌ بَعيدٌ لَوْلا أنَّ الرِّوايَة جاءَت به[2].

وقال قُدامَة بن جَعْفَر في كتاب «الخَراج»: تاريخُ كلِّ شَيْءٍ آخِره، وهو في الوَقْت غايَته، يُقالُ فُلانٌ تاريخ قَوْمِه، أي إليه يَنْتَهي شَرَفُهم. ويُقالُ: وَرَّخْتُ الكتابَ تَوْريخًا، أَوْرَخْته تأْريخًا. اللُّغَة الأُولَى لتَميم، والثانية لقَيْس. ولكلِّ مملكة و[d] أَهْل مِلَّة تأْريخ[3].

١ فكانَت الأُمَمُ تُؤَرِّخ أوَّلًا بتأْريخ / الخَليقَة وهو ابتداء كَوْن النَّسْل من آدَم عليه السَّلام، ثم أرَّخَت بالطُّوفان، وأرَّخَت ببُخْت نَصَّر، وأرَّخت بفيلِبُّش، وأرَّخَت بالإسْكَنْدَر، ثم بأُغُسْطُس، ثم بأنطينس[e]، ثم بدِقْلِدْيانُوس[f] وبه تُؤَرِّخ القِبْط، ثم لم يكُن بعد تأْريخ القِبْط إلَّا تأْريخ الهِجْرَة، ثم تأْريخ يَزْدَجِرْد. فهذه تَواريخُ الأُمَمِ المشهورة، وللناس تَواريخ أُخَر قد انْقَطَع ذكرُها.

---

a) بولاق: ماروز. b) بولاق: عرب. c) ظ: جليل المقدار. d) ساقطة من بولاق. e) بولاق: بأنطنس. f) الأصل وبولاق: دقلطيانوس ولكن نسخة الأصل فيما يلي تكتبها دقلديانوس.

---

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الخوارزمي البَلْخي المتوفى نحو سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، لم أقف على ترجمة له. أَلَّف كتابه «مفاتيح العلوم» لأبي الحسن عبيد الله بن أحمد العُتْبي وزير نوح بن نَصْر السَّاماني. وهو من أوائل الكتب الموسوعية في الأدب العربي.

[2] الخوارزمي: مفاتيح العلوم، القاهرة - إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٢هـ، ٥٠؛ وانظر الشهاب الخفاجي: شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، القاهرة - المطبعة الوهبية ١٢٨٢هـ، ٥٩ وفيه أنه «تعريب غريب». وذكر أبو منصور الجواليقي أنَّ التأريخ الذي يؤرخه الناسُ ليس بعربيٍّ محضٍ وأنَّ المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب ... وقيل إنّه عربي واشتقاقه من «الأَرْخ» - وهو ولدُ البقرة الوحشية إذا كانت أنثى - بفتح الهمزة وكسرها، كأنَّه شيءٌ حَدَثَ كما يحدُثُ الولدُ ... ويقال: إنَّ «الأَرْخ» الوقتُ، و«التأريخ» كأنه التَّوْقيت. (المعرب من الكلام الأعجمي ٨٩-٩٠)؛ وانظر كذلك الصفدي: الوافي بالوفيات ١:٩-٢٢؛ السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (نشرة روزنتال) ٣٨٢-٣٨٤؛ وفيما يلي ٧٧٠.

[3] ورد هذا النص نقلًا عن كتاب «الخراج» لأبي الفرج قدامة بن جعفر أيضًا عند ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١، ١: ٢١.

فأمَّا تأريخُ الخَليقَة ـ ويُقالُ له ابْتِدَاءُ كَوْن النَّسْل ، وبعضهم يقول بَدْو التَّحَرُّك ـ فإنَّ لأَهْل الكِتاب من اليَهُود والنَّصارَىٰ ، والمجُوس في كيفيته وسياقَة التأريخ منه خِلافًا كثيرًا [١].

قال المجُوسُ والفُرْسُ [٢]: عُمْرُ العالَم اثنا عشر ألف عام على عَدَد بُرُوج الفَلَك وشُهُور السَّنَة . وزَعَمُوا أنَّ زَرادُشْت صاحِبُ شَريعَتِهم قال : إنَّ الماضي من الدُّنيا إلى وَقْت ظُهُوره ثلاثة آلاف سنة مَكْبُوسَة الأرْبَاع . وبين ظُهُور زَرادُشْت وأوَّل تأريخ الإسْكَنْدَر [a]مائتا سنة وثمانٍ وخمسون سنة تامَّة ، فيكون الماضي من أوَّلَ العالم إلى الإسْكَنْدَر[a] ثلاثة آلاف ومائتا سنة وثمانٍ وخمسون سنة . وإذا حَسَبْنا من أوَّل كُيُومَرْت ـ الذى هو عندهم الإنسان الأوَّل [٣] ـ وجَمَعْنا مُدَّة كُلِّ من مَلَك بعده ـ فإنَّ المُلْكَ مُتَّسق[b] فيهم غير مُنْقَطِع عنهم ـ كان العَدَدُ منه إلى الإسْكَنْدَر ثلاثة آلاف وثلاث مائة وأربعا وخمسين سنة ؛ فليس[c] يَتَّفِق التَّفْصيلُ مع الجملة [٤].

وقال قَوْمٌ : الثلاثة الآلاف الماضية إنَّما هي من خَلْق كُيُومَرْت ، فإنَّه مَضَى قبلَه ألف[d] سنة والفَلَكُ فيها واقِفٌ غير مُتَحَرِّك ، والطَّبائع غير مُستحيلَة ، والأُمَّهات غير مُتمازِجَة ، والكَوْنُ والفَسَادُ غير موجود فيها ، والأرْضُ غير عامِرَة . فلمَّا تَحَرَّكَ الفَلَكُ ، حَدَثَ الإنسانُ الأوَّلُ في مُعَدل[e] النَّهار ، وتَوَلَّد الحَيَوانُ وتوالَد ، وتَناسَلَ الإنْس فكَثُروا ، وامْتَزَجَت أَجْزاءُ العَناصِر للكَوْن والفَسَاد ، فعَمُرَت الدُّنْيا وانْتَظَم العالَم [٥].

وقال اليَهُودُ : الماضي من آدَم إلى الإسْكَنْدَر ثلاثة آلاف وأربع مائة وثمان وأربعون سنة . وقال النَّصارَىٰ : المُدَّة بينهما خمسة آلاف ومائة وثمانون سنة ، وزَعَمُوا أنَّ اليهودَ نَقَصُوها ليَقَع خُروجُ عيسَىٰ ابن مَرْيَم ـ عليه السَّلام ـ في الألف الرابع وَسَط السبعة آلاف التي هي مِقْدار العالَم

(a-a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : ملصق . c) الأصل وبولاق : فإذا لم ، والمثبت من البيروني . d) البيروني : ستة آلاف . e) بولاق : معدن .

---

[١] راجع ما كتبه المسعودي في التنبيه والإشراف ١٩٦-٢١٣ حول هذا الموضوع .

[٢] من هنا ينقل المقريزي عن البيروني .

[٣] كيومرت هو أوّل ملوك الطبقة الأولى من الفرس المعروفين بـ «البِيشداذيَّة» ولقبه كِرْشاه أي ملك الطين (الخوارزمي : مفاتيح العلوم ٦٣) ، وأضاف البيروني أن تفسير اسمه : حيّ ناطقٌ ميِّت (الآثار الباقية ٩٩) ، وذكر القلقشندي أن كيومرت - ويقال جُيُومرت - هو مبدأ النسل عند الفرس المجوس كآدم - عليه السلام - عند غيرهم ، وربما قيل إن كُيُومَرْت هو آدم عليه السلام (صبح الأعشى ١٣: ٢٩٢) .

[٤] نقلًا عن البيروني : الآثار الباقية ١٤ .

[٥] نفسه ١٤- ١٥ .

عندهم ، حتى تُخالِف ذلك الوَقْت الذي سَبَقَت البِشارَة من الأنبياء الذين كانوا بعد مُوسَىٰ بن عِمْران عليه السَّلام بوِلادة المسيح عِيسَىٰ[1].

وإذا جُمِعَ ما في التَّوْراة التي بيد اليَهود ، من المُدَّة التي بين آدَم ـ عليه السّلام ـ وبين الطُّوفان ، كانت ألفًا وستّ مائة وستًّا وخمسين سنة . وعند النَّصَارَىٰ في إنْجيلهم ألفان ومائتا سنة واثنتان وأربعون سنة .

وتَزْعُم اليَهود أنَّ تَوْراتَهم بعيدةٌ عن التَّخاليط ، وتَزْعُم النَّصَارَىٰ أنَّ تَوْراةَ السبعين ـ التي هي بأيديهم ـ لم يَقَع فيها تَحْريفٌ ولا تَبْديل ، وتقول اليَهودُ فيها خِلاف ذلك ، وتقول السَّامِريَّة بأنَّ تَوْراتَهم هي الحقّ وما عَداها باطِل ، وليس في اخْتلافِهم ما يُزيل الشَّكّ بل يُقَوّي الجالِبَة له[2].

وهذا الاخْتِلافُ بعينه بين النَّصَارَىٰ أيضًا في الإنْجيل ، وذلك أنَّ له عند النَّصَارَىٰ أربع نُسَخ مجموعة في مُصْحَفٍ واحِدٍ : أَحَدُها إنْجيل مَتَّى ، والثاني لمارْقُوس ، والثالث للوُقَا ، والرابع ليُوحَنَّا ، قد أَلَّفَ كلٌّ من هؤلاء الأربعة إنْجيلًا على حَسَب دَعْوَتِه في بلادِهِ ؛ وهي مختلفة اخْتِلافًا كثيرًا حتَّى في صِفات المَسيح ـ عليه السَّلام ـ وأيَّام دَعْوَتِه ، ووَقْت الصَّلْب بزَعْمِهِم ، وفي نَسَبِه أيضًا ، وهذا الاخْتِلافُ لا يُحْتَمَل مِثْلُه[3].

ومع هذا فعند كلٍّ من أصْحاب مَرْقِيون وأصْحاب ابن دَيْصَان إنْجِيلٌ يُخالِف بعضُه بعض[a] هذه الأناجيل ، ولأَصْحاب ماني إنْجيلٌ على حِدَة يُخالِف ما عليه النَّصَارَىٰ من أوَّله إلى آخِره ، ويَزْعُمُون أنَّه هو الصَّحيح وما عَدَاه باطل ، ولهم أيضًا إنْجيلٌ يسمَّى إنْجيل السَّبْعين يُنْسَب إلى بلامس[b]، والنَّصَارَىٰ وغيرهم يُنْكِرُونه[4].

وإذا كان الأَمْرُ من الاخْتِلاف بين أَهْل الكِتاب كما قد رَأَيْت ، ولم يكُن للقِياس والرَّأْي مَدْخَل في تَمْييز حَقّ ذلك من باطِلِه ، امْتَنَع الوقوف على حَقيقَة ذلك من قِبَلِهم ، ولم يُعَوَّل على شيءٍ من أَقْوالِهم فيه .

---

a) زيادة من البيروني . b) بولاق : تلامس .

---

[1] البيروني : الآثار الباقية ١٥.

[2] قارن مع البيروني : الآثار الباقية ٢٠ - ٢١.

[3] البيروني : الآثار الباقية ٢٢؛ وانظر عن الأناجيل الأربعة ورأي العلماء المسلمين فيها Anawati, G.C., *EI*² art. *Indjil* III, pp. 1235-38.

[4] نفسه ٢٣.

وأمَّا غير أَهْلِ الكتاب، فإنَّهم أيضًا مختلفون في ذلك. قال أثنيوس [a]: بين خَلْق آدَم وبين لَيْلَة الجُمُعَة أوَّل الطُّوفان ألفا سنة ومائتا سنة وستّ وعشرون سنة وثلاثة وعشرون يومًا وأربع ساعات [1].

وقال ما شاءَ الله ـ واسمه مِنَشًّا بن أَثَرى [2] ـ مُنَجِّم المَنْصور والمأمُون في كتاب «القِرانات»: أوَّلُ قِرانٍ وَقَعَ بين زُحَل والمُشْتَري في بَدْء التحرُّك ـ يعني ابتداء النَّسْل من آدَم ـ كان على مُضِيِّ خمس مائة وتسع سنين وشهرين وأربعة وعشرين يومًا مَضَت من ألف المَرِّيخ، فوَقَعَ القِران في بُرْج الثَّوْر من المُثَلَّثة الأرضية على سَبْع دَرَج واثنتين وأربعين دقيقة.

وكان انتقالُ المَمَرِّ من بُرْج الميزان ومُثَلَّثته الهَوائية إلى بُرْج العَقْرَب ومُثَلَّثته المائية، بعد ذلك بألْفيْ سنة وأربع مائة سنة واثنتي عشرة سنة وستة أشهر وستة وعشرين يومًا، ووَقَعَ الطُّوفانُ في الشهر الخامس من السنة الأولى من القِران الثاني من قِرانات هذه المُثَلَّثة المائية.

وكان بين وَقْت القِران الأوَّل الكائِن في بَدْء التحرُّك، وبين الشهر الذي كان فيه الطُّوفان، ألفان وأربع مائة وثلاث وعشرون سنة وستة أشهر واثنا عشر يومًا.

قال: وفي كلِّ سبعة آلاف سنة وسنتين وعشرة أشهر وستة أيام، يرجع القِران إلى مَوْضِعه من بُرْج الثَّوْر الذي كان / في بَدْء التحرُّك. ٢٦٠:١

وهذا القَوْلُ ـ أَعَزَّكَ الله ـ هو الذي اشْتُهِر حتَّى ظَنّ كثيرٌ من المِلَل أنَّ مُدَّة بَقاء الدنيا سبعة آلاف سنة. فلا تَغْتَرّ به، وتَنَبَّه إلى أَصْله تَجِده أَوْهَى من بَيْت العَنْكَبُوت، فاطْرَحْه.

---

a) الأصل: أثينوش، بولاق: أسوس والمثبت من البيروني.

---

[1] البيروني: الآثار الباقية ٢١، وأثينوس راوي الخبر وصفه البيروني بأنه أحد أصحاب الأخبار.

[2] ما شاء الله بن أثَرَي (أو سارية) فلكي يهودي أصله من البصرة، وكان اسمه اليهودي مَنَشا (وكتبه ابن النديم والقفطي ميشَى)، اشتغل بعلم الفلك والنجوم في العراق منذ أيام أبي جعفر المنصور وحتى أيام المأمون (١٣٦-٢١٨هـ/ ٧٥٤-٨٣٣م!) ولكن من المؤكد أنه كان موجودًا سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م. أورد له ابن النديم تسعة عشر مؤلفًا. واسم الكتاب الذي ينقل عنه المقريزي هنا «كتاب في القِرانات والأديان والملل» (راجع ابن النديم: الفهرست ٣٣٣؛ صاعد الأندلسي: التعريف بطبقات الأمم ٢٢٣؛ Kennedy, E.S. & D. Pingree, *The Astrological History of Mashâ'allâh*, Cambridge, Massachusetls 1971؛ القفطي: تاريخ الحكماء ٣٢٧؛ Pringree, D., *Dictionary of Scientific Biography*, N.Y. 1974, pp. 159-62; Sezgin, F., *GAS* VII, pp. 102-8; Samso, J., *EI*² art. *Mashâ'allâh* VI, pp. 699-700)، وانظر فيما يلي ٧٧١.

وقيل: كان بين آدَم وبين الطُّوفان ثلاثة آلاف وسبع مائة وخَمْس وثلاثون سنة، وقيل كانت بينهما مُدَّة ألفين ومائتين وستّ وخمسين سنة، وقيل ألفان وثمانون سنة.

وأمَّا تأريخُ الطُّوفان فإنَّه يَتْلو تأريخ الخَليقَة، وفيه من الاخْتِلاف ما لا يُطْمَع في حقيقته، من أَجْل الاخْتِلاف فيما بين [تأريخ][a] آدَم وبينه، وفيما بينه وبين تأريخ الإسْكَنْدَر. فإنَّ اليَهودَ عندهم أنَّ بين الطُّوفانَ وبين الإسْكَنْدَر ألفًا وسبع مائة واثنتين وتسعين سنة؛ وعند النَّصارَىٰ بينهما ألفا سنة وتسع مائة وثمانٍ وثلاثون سنة؛ والفُرْسُ وسائِر المَجُوس، والكَسدانيُّون[b] أهْل بابِل، والهِنْد وأهْل الصِّين وأصْناف الأُمَم المشرقية، يُنْكِرون الطُّوفان. وأَقَرَّ بعضُ الفُرْس، لكنهم قالوا: لم يكن الطُّوفانُ بسِوَى الشَّام والمغرب، ولم يَعُمّ العُمْران كلّه، ولا غَرَّقَ إلَّا بعض النَّاس، ولم يَتَجاوَز عَقَبَة حُلْوان، ولا بَلَغَ إلى مَمالِك المَشْرِق. قالوا: ووَقَع في زَمان طَهْمُورَث[c]، وأنَّ أهْلَ المغرب لمَّا أَنْذَرَ حكماؤهم بالطُّوفان، واتَّخَذوا المباني العَظيمَة، كالهَرَمَيْن بمصر ونحوهما، ليَدْخُلوا فيها عند حُدُوثِه.

ولمَّا بَلَغَ طَهْمُورَث الإنذار بالطُّوفان، قبل كَوْنه بمائة وإحدى وثلاثين سنة، أَمَرَ باخْتِيار مَواضِع في مملكته صَحيحَة الهَوَاء والتُّرْبَة، فوَجَدَ ذلك بأَصْبَهان، فأَمَر بتَجْليد العُلُوم ودَفْنِها فيها في أَسْلَم المَوَاضِع. ويَشْهَد لهذا ما وُجِدَ بعد الثلاث مائة من سني الهِجْرَة، في حَيٍّ من مَدينَة أُصْبَهان، من التِّلال التي انْشَقَّت عن بُيوت مملوءةٍ أعْدالًا عِدَّة كثيرة، قد مُلِئَت من لِحاء الشَّجَر التي تُلَبَّس بها القِسِيّ وتُسَمَّى التُوز، مَكْتوبَةً بكِتابَة لم يَدْر أحدٌ ما هي[1].

وأمَّا المُنَجِّمون فإنَّهم صَحَّحُوا هذه السنين من القِرَان الأَوَّل من قِرانات العلويين زُحَل والمُشْتَري، التي أَثْبَت عُلَماءُ أهْل بابِل والكِلْدانيين مثلها إذ كان الطُّوفانُ ظهوره من جهة[d] ناحيتهم، فإنَّ السَّفينَة اسْتَقَرَّت على الجُوديِّ، وهوغير بعيد من تلك النَّواحي. قالوا: وكان هذا القِرانُ قَبْل الطُّوفان بمائتين وتسع[a] وعشرين سنة ومائة وثمانية أيام، واعْتَنَوا بأَمْرها وصَحَّحُوا ما بَعْدَها، فوَجَدوا ما بين الطُّوفان وبين أَوَّل مُلْك بُخْت نَصَّر الأَوَّل ألفي سنة وستّ مائة وأربع سنين، وبين بُخْت نَصَّر هذا وبين الإسْكَنْدَر أربع مائة وست وثلاثون سنة؛ وعلى ذلك بَنَى

a) إضافة من البيروني. b) بولاق: الكدانيون. c) بولاق: طمهورث. d) ساقطة من بولاق.

[1] نقلًا عن البيروني: الآثار الباقية ٢٣– ٢٤.

أبو مَعْشَر أوْساط الكَواكِب في زِيجة ، وقال : كان الطُّوفانُ عند اجتماع الكَواكِب في آخِر بُرْج الحُوت وأوَّل بُرْج الحَمَل ، وكان بين وَقْت الطُّوفان وبين تأريخ الإسْكَنْدَر قَدْر ألفيْ سنة وسبع مائة وتسعين سنة مَكْبوسَة وسبعة أشهر وستة وعشرين يومًا [١] ، وبينه وبين يوم الخَميس أوَّل المحرَّم من السنة الأولى من سِني الهِجْرَة النَّبَوِيَّة ألف ألف يوم وثلاث مائة ألف يوم وتسعة وخمسون ألف يوم وتسع مائة يوم وثلاثة وسبعون يومًا ، يكون من السِّنين الفارِسِيَّة المصرية ثلاثة آلاف سنة وسبع مائة سنة وخمسًا وعشرين سنة وثلاث مائة يوم وثمانية وأربعين يومًا .

ومنهم من يَرَى أنَّ الطُّوفانَ كان يوم الجُمُعَة ، وعند أبي مَعْشَر أنَّه كان يومَ الخَميس .

ولمَّا تقرَّر عنده الجملة المذكورة ، وخَرَجَت له المدَّة التي تُسَمَّى أَدْوار الكَواكِب ـ وهي بزَعْمِهم ثلاث مائة ألف وستون ألف سنة شمسية ، وأوّلها متقدِّم على وَقْت الطُّوفان بمائة ألف وثمانين ألف سنة شَمْسِيَّة ـ حكم بأنَّ الطُّوفان كان في مائة ألف وثمانين ألف سنة ، وسيكون فيما بعد كذلك . ومثل هذا لا يُقْبَل إلَّا بحُجَّة ، أو من مَعْصُوم [٢].

وأمَّا تأريخ بُخت نَصَّر فإنَّه على سِني القِبْط وعليه يعمل في اسْتِخْراج مَواضِع الكَواكِب [السَّيَّارَة][a] من كِتاب المَجِسْطي ، ثم أَدْوَار فاللبس[b]، وأوَّل أَدْوَاره في سنة ثماني عشرة وأربع مائة لبُخْت نَصَّر ، وكلُّ دَوْر منها ستّ وسبعون سنة شَمْسِيَّة [٣]. وكان فاللبس من جُلَّة أَصْحَاب التَّعاليم .

وبُخْت نَصَّر هذا ليس هو الذي خَرَّب بَيْت المَقْدس ، وإنَّما هو آخَر كان قبل بُخْت نَصَّر مُخَرِّب بَيْت المَقْدس بمائة وثلاث وأربعين سنة ، وهو اسْمٌ فارِسي أَصْله «بُخْت نَرْسي» ومَعْناه : كثير البُكاء والأَنين ، ويُقالُ له بالعِبْرانية : نَصَّار ، وقيل تَفْسيرُه عُطارِد ، وهو يَنْطِقُ وذلك لتحثّنه[c] على الحِكْمة وتَغْريب أهلها ، ثم عُرِّب فقيل بُخْت نَصَّر [٤].

وأمَّا تأريخ فيلبُش فإنه على سِني القِبْط ، وكثيرًا ما يُسْتَعْمَلُ هذا التأريخ من مَوْت الإسْكَنْدَر البَنَّاء المَقْدوني ، وكلا الأَمْرَيْن سَوَاء ، فإنَّ القائِمَ بعد البَنَّاء هو فِيلبُش ، فسَوَاء كان من مَوْت الأوَّل

---

a) زيادة من البيروني . b) بولاق : فاللبس . c) في بولاق : لتحبيه .

---

[١] البيروني : الآثار الباقية ٢٤- ٢٥.

[٢] نفسه ٢٥- ٢٦.

[٣] نفسه ٢٧.

[٤] نفسه ٢٧.

أو من قِيام الآخَر ، فإنَّ الحالَةَ المؤرَّخَة هي كالفَصْل المُشْتَرك بينهما ، وفِيلِبُش هذا هو أبو الإسْكَنْدَر المَقْدوني . ويُعْرَف هذا التأريخ بتأريخ الإسْكَنْدَرانيين وعليه بَنَى ثاوِن الإسْكَنْدَراني في زِيجِه[a] المعروف بالقانون [١] .

وأمَّا تأريخُ الإسْكَنْدَر فإنَّه على سني الرُّوم ، وعليه يَعْمَل أكثرُ الأُمَم إلى وَقْتنا هذا ، من أهْل الشَّام وأهْل بِلاد الرُّوم وأهْل المغرب والأنْدَلُس والفِرِنْج واليَهود ، وقد تقدَّم الكَلامُ عليه عند ذِكْر الإسْكَنْدَرية من هذا الكِتاب [٢] .

وأمَّا / تأريخُ أُغُسْطُس فإنَّه لا يُعْرَف اليوم أَحَدٌ يستعمله . وأُغُسْطُس هذا هو أوَّل القَياصِرَة ، ومَعْنَى قَيْصَر بالرُّومية : شُقّ عنه ، فإنَّ أُغُسْطُس هذا لمَّا حَمَلَت به أمّه ماتَت في المَخَاض ، فشُقَّ بَطْنُها حتى أُخْرِج منه ، فقيل قَيْصَر ، وبه يُلَقَّب مَنْ بَعْدَه من مُلوك الرُّوم . ويَزْعُم النَّصارَى أنَّ المسيحَ ـ عليه السَّلام ـ وُلِدَ لأربعين سنة من مُلْكه ، وفي هذا القَوْل نَظَر ، فإنَّه لا يَصِحُّ عند سِياقَة السِّنين والتَّواريخ ، بل يَجيء تَعْديل ولادَته عليه السَّلام في السنة السابعة عشر من مُلْكِه [٣] . ١:

وأمَّا تأريخ أنْطَنينس فإنَّ بَطْلَمْيُوس صَحَّحَ الكَواكِبَ الثابِتَة في كِتابِه المعروف بالمَجِسْطي لأوَّل مُلْكِه على الرُّوم ، وسنُو هذا التأريخ رُومِيَّة [٤] .

ذِكْر تأريخ القِبْط

اعْلَم أنَّ السَّنَةَ الشَّمْسِيَّة عبارَة عن عَوْد الشَّمْس في فَلَك البُروج إذ تَحَرَّكت على خِلاف حَرَكَة الكُلّ ، إلى أي نُقْطَة فُرِضَت ابْتِداء حَرَكتها ، وذلك أنَّها تَسْتَوْفي الأَزْمِنَة الأربعة التي هي الرَّبيع والصَّيْف والخَريف والشِّتاء ، وتَحُوزُ طَبائِعها الأَرْبع ، وتَنْتَهي إلى حَيْث بدأَت [منه][b] [٥] .

وفي هذه المُدَّة يَسْتَوْفي القَمَرُ اثنتي عشرة عَوْدَة وأَقَلّ من نصف عَوْدَة ، ويستهلّ اثنتي عشرة مَرَّة ، فجُعِلَت المُدَّة التي فيها عَوْدات القَمَر الاثنتا عَشْرَة في فَلَك البُرُوج سَنَةً للقَمَر على جِهَة

---

a) بولاق : تأريخه . b) زيادة من البيروني .

---

[١] البيروني : الآثار الباقية ٢٨.
[٢] نفسه ٢٨ وفيما تقدم ٤١١ - ٤١٤.
[٣] نفسه ٢٩.
[٤] نفسه ٢٩.
[٥] نفسه ٩.

الاصْطِلاح ، وأُسْقِط الكَسْر الذي هو أحد عشر يومًا بالتَّقْريب ، فصارَت السَّنَةُ على قِسْمَيْن : سَنَة شَمْسِيَّة ، وسنة قَمَرِيَّة [١].

وجَميعُ من على وَجْه الأرْض من الأُمَم ، أَخَذُوا تَواريخ سِنِيهم من مَسير الشَّمْس والقَمَر : فالآخِذون بسَيْر الشَّمْس خَمْس أُمَم ، هم اليُونانيون والسُّريانيون والقِبْطُ والرُّوم والفُرْس . والآخِذون بسَيْر القَمَر خَمْس أُمَم ، هم الهِنْد والعَرَب واليَهُود والنَّصارَىٰ والمُسْلمون [٢].

فأَهْلُ قُسْطَنْطينيَّة والإسْكَنْدَرية وسائِر الرُّوم والسُّرْيانيون والكِلْدانيون وأَهْل مصر ومن يَعْمَل برأْي المُعْتَضِد ، أَخَذُوا بالسَّنَة الشَّمْسِيَّة التي هي ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْع يوم بالتقريب ، وصَيَّروا السَّنة ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا ، وأَلْحَقوا الأَرْباع بها في كلِّ أَرْبع سنين يومًا حتى انْجَبَرت السَّنَة ، وسَمُّوا تلك السنة كَبيسَة لانْكِباس الأَرْباع فيها .

وأمَّا قِبْطُ مصر القُدَماء فإنَّهم كانوا يتركُون الأَرْباع حتى يجتمع منها أيَّام سَنَة تامَّة ، وذلك في كلِّ ألفٍ وأربع مائة وستين سنة ، ثم يَكْبِسُونها سَنَة واحدة ، ويتَّفقون حينئذٍ في أَوَّل تلك السَّنة مع أَهْل الإسْكَنْدرية وقُسْطَنْطِينيَّة [٣].

وأمَّا الفُرْسُ فإنَّهم جَعَلُوا السَّنَة ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا من غير كَبْس ، حتى اجْتَمَع لهم من رُبْع اليوم ـ في مائة وعشرين سنة ـ أيَّام شهر تام ، ومن خُمْس السَّاعة ـ الذي يَتْبع رُبْع اليوم عندهم ـ يوم واحِد ، فأَلْحَقوا الشَّهر التَّام بها في كلِّ مائة وستِّ عشرة سنة . واقْتَفى أَثَرَهُم في هذا أَهْلُ خُوارَزْم القُدَماء والصُّغْد ومن دان بدِين فارِس [٤].

وكانت المُلوكُ البِيشْدَاذِيَّة منهم ـ وهم الذين مَلَكُوا الدُّنْيا بحَذافِيرها ـ يَعْمَلون السَّنَة ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا ، كلُّ شهر منها ثلاثون يومًا سَوَاء ، وكانوا يَكْبِسُون السَّنَة كلّ ست سنين بيومٍ ويسمُّونها كَبيسَة ، وكلّ مائة وعشرين سنة بشَهْرَيْن : أَحَدُهُما بسبب الخمسة الأيام ، والثاني بسَبَب رُبْع اليوم . وكانوا يُعَظِّمون تلك السَّنة ويُسَمُّونها المبارَكة [٥].

---

[١] البيروني : الآثار الباقية ١٠.

[٢] هذه الفقرة من كلام المقريزي .

[٣] البيروني : الآثار الباقية ١٠ نقلًا عن زيج ثاؤن الإسكندراني .

[٤] نفسه ١٠ - ١١.

[٥] نفسه ١١.

وأمَّا قُدَماءُ القِبْط وأهْلُ فارِس في الإسْلام وأهْلُ خُوارَزْم والصُّغْد[a]، فتركوا الكُسُور، أعْني الرُّبْع وما يتبعه أصلًا[١].

وأمَّا العِبْرانِيُّون وجَميعُ بني إسْرائيل والصَّابِئون والحَرَّانيُّون، فإنَّهم أخَذوا السَّنَة من مَسير الشَّمْس وشُهورَها من مَسير القَمَر، لتكون أعيادُهم وصيامُهم على حِساب قَمَريّ، وتكون مع ذلك حافِظَةً لأوْقاتها من السَّنة، فكَبَسوا كلَّ تسع عشرة سنة قَمريَّة بسبعة[b] أشهر. ووافَقَهُم النَّصارَىٰ في صَوْمِهم وبعض أعْيادهم، لأنَّ مَدارَ أمْرِهم على فِصْح اليَهود، وخالَفُوهم في الشُّهور إلى مَذْهَب الرُّوم والسُّرْيانيين[٢].

وكانت العَرَبُ في جاهليتها[c] تَنْظُر إلى فَضل ما بين سَنَتهم وسَنَة القَمَر، وهو عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعَة وخُمْس ساعة، فيُلْحِقون ذلك بها شَهرًا كُلَّما تمَّ منها ما يَسْتَوْفي أيام شهر، ولكنَّهم كانوا يَعْملَون على أنَّه عشرة أيام وعشرون ساعَة، وكان يتولَّى ذلك النَّسأَةُ من بني كِنانَة المَعْروفُون بالقَلامِس - واحِدُهم قَلَمَّس، وهو البَحْرُ الغَزير - وهم[d] أبو ثُمامَة جُنادَة بن عَوْف بن أُمَيَّة بن قَلَع [بن عَبَّاد بن قَلَع بن حُذَيْفَة وكانوا كلهم نَسأَةً][e]؛ وأوَّلُ من فَعَلَ ذلك منهم حُذَيْفة بن عَبْد فُقَيْم، وآخِر من فَعَلَه أبو ثُمامَة[٣].

وأخَذَ العَرَبُ الكَبْسَ من اليَهود قَبْل مَجيء دين الإسْلام بنَحْو المائتي سنة، وكانوا يكْبِسون في كلِّ أربع وعشرين سنة تسعة أشهر، حتى تَبْقَى أشْهُر السَّنَة ثابتة مع الأزْمِنَة على حالَةٍ واحِدَة، لا تتأخَّر عن أوْقاتِها ولا تَتَقدَّم؛ إلى أن حَجَّ رَسُولُ الله ﷺ [حجَّة الوَداع][e]، وأنزل الله تعالى عليه: ﴿إنَّما النَّسيءُ زِيادَةٌ في الكُفْر يُضَلُّ بِه الَّذِينَ كَفَروا يُحِلُّونَه عامًا ويُحَرِّمُونَه عامًا ليُوَاطِئُوا عِدَّة / ما حَرَّمَ الله فيُحِلُّوا ما حَرَّمَ الله زُيِّنَ لَهُم سُوءُ أعْمَالِهِم والله لا يَهْدِي القَوْمَ الكافِرين﴾ ١:
[الآية ٣٧ سورة التوبة]، فخَطَبَ ﷺ، وقال: «إنَّ الزَّمان قد اسْتَدارَ كهَيْئَتِه يوم خَلَقَ الله السَّموات والأرْض» فبَطَلَ النَّسيء، وزالَت شُهورُ العَرَب عمَّا كانت عليه، وصارَت أسْماؤُها غير دالَّة على مَعانيها[٤].

---

a) بولاق: الصغد. b) بولاق: ستة. c) بولاق: جهالتها. d) بولاق: وهو. e) زيادة من البيروني.

---

[١] البيروني: الآثار الباقية ١١ نقلًا عن كتاب المجسطي.
[٢] نفسه ١١.
[٣] نفسه ١١- ١٢.
[٤] نفسه ١٢، وفيما يلي ٧٦٦- ٧٦٨.

وأمّا أهلُ الهِنْد ، فإنّهم يَسْتَعْمِلون رُؤْيَة الأَهِلة في شُهورهم ، ويَكْبِسُون كلَّ تسع مائة سنة وستة[a] وسبعين يومًا بشهر قَمَريّ ، ويَجْعَلُون ابْتِداءَ تأرِيخهم اتّفاق اجْتِماع في أوّل دَقيقَة من بُرْجٍ ما ، وأَكْثَرُ طَلَبهم لهذا الاجْتِماع أن يَتّفِق في إحدى نُقْطَتَي الاعْتِدالين ، ويُسَمُّون السَّنَة الكَبيسَة بذماسة[b] [١].

فهذه آراءُ الخَليقَة في السَّنَة .

وأمّا اليَوْمُ فإنّه عِبارَة عن عَوْد الشَّمْس بدَوَران الكلّ إلى دائِرَة قد فُرِضَت . وقد اخْتُلِف فيه : فجَعَلَه العَرَبُ من غُروب الشَّمْس إلى غُروبها من الغَدّ . ومن أجْل أنّ شُهورَ العَرَب مَبْنيّة على مَسيرِ القَمَر ، وأوائِلِها مُقَيَّدَة برُؤْية الهِلال ـ والهِلالُ يُرَى لدنْ غُروب الشَّمْس ـ صارَت اللَّيْلَةُ عندهم قبل النَّهار [٢].

وعند الفُرْس والرُّوم اليوم بلَيْلَته من طُلُوع الشَّمْس بارِزَةً من أُفُق المَشْرق إلى وَقْت طُلوعِها من الغَد ، فصارَ النَّهارُ عندهم قبل اللَّيْل . واحْتَجُّوا على قَوْلهم بأنَّ النّورَ وُجودٌ والظُّلْمَةَ عَدَمٌ ، والحَرَكَة تَغْلِب على السُّكُون ، لأنَّها وُجودٌ لا عَدَم وحَياةٌ لا مَوْت ، والسَّماءُ أَفْضَلُ من الأَرْض ، والعامِل الشَّاب أَصَحّ ، والماءُ الجاري لا يَقْبَلُ عُفُونَةً كالرَّاكِد [٣].

واحْتَجَّ الآخَرون بأنَّ الظُّلْمَةَ أَقْدَم من النّور والنُّورُ طارِئٌ عليها فالأَقْدَمُ يُبْدَأُ به ، وغَلَّبُوا السُّكونَ على الحَرَكَة بإضافَة الراحَة والدَّعَة إليه ، وقالوا : الحَرَكَة إنَّما هي الحاجَة ، والضَّرُورَة والتَّعَب تُنتِجُه الحَرَكَة ، والسُّكون إذا دامَ في الاسْتِقْصاءات مُدَّةً لم يُوَلِّد فَسادًا ، فإذا دامَت الحَرَكَةُ في الاسْتِقْصاءات واسْتَحْكَمَت أَفْسَدَت ، وذلك كالزَّلازِل والعَواصِف والأَمْواج وشُبَهِها [٤].

وعند أَصْحاب التَّنْجيم أنَّ اليومَ بلَيْلَته من مُوافاة الشَّمْس فَلَك نِصْف النَّهار إلى مُوافاتِها إيّاه في الغَد ، وذلك من وَقْت الظُّهْر إلى وَقْت العصْر ، وبَنَوا على ذلك حِسابَ أَزْياجِهم . وبَعْضُهم ابتدأ باليوم من نِصْف اللَّيْل ، وهو صاحِب زِيج شَهْرَيارَان الشاه[c] [٥]، وهذا هو حَدُّ اليوم على الإطلاقِ

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : بذمات . c) بولاق : شهربازار شاه .

---

[١] البيروني : الآثار الباقية ١٢ – ١٣.

[٢] نفسه ٥.

[٣] نفسه ٦.

[٤] نفسه ٦ وورد فيه هذا الخبر سابقًا على الخبر المتقدم .

[٥] راجع عن زيج شهرياران الشاه ، نلينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ١٨٣ – ١٨٦.

إذا اشترط الليلة في التركيب . فأمَّا على التَّفْصيل : فاليوم بانْفِرادِه والنَّهارُ بمعنًى واحِد ، وهو من طُلوع جِرْم الشَّمْس إلى غُروب جِرْمها ، واللَّيْلُ خِلاف ذلك وعَكْسه [1] .

وحَدَّ بعضُهم أوَّلَ النَّهار بطُلُوع الفَجْر ، وآخره بغُرُوب الشَّمْس ، لقوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [الآية ١٨٧ سورة البقرة] ، وقال : هَذان الحَدَّان هما طَرَفَا النَّهار . وعُورِضَ بأنَّ الآيَةَ إنَّما فيها بَيانُ طَرَفي الصَّوْم لا تَعْريف أوَّل النَّهار ، وبأنَّ الشَّفَقَ ، من جِهَة المَغْرب نَظير الفَجْرِ من جِهَة المَشْرِق ، وهما مُتساوِيان في العِلَّة ، فلو كان طُلوعُ الفَجْر أوَّلَ النَّهار لكان غُروبُ الشَّفَق آخِرَه ، وقد الْتَزَم ذلك بعضُ الشِّيعَة [2] .

فإذا تَقَرَّرَ ذلك فنَقُول : تأْريخُ القِبْط يُعْرَف عند نَصَارَى مصر الآن بتأريخ الشُّهَدَاء ، ويُسَمِّيه بعضُهم تأريخُ دِقْلِطْيانُوس [a] .

ذِكْرُ دِقْلدْيانوس [b] الذي يُعْرَف تأريخُ القِبْط به [3] ـ اعْلَم أنَّ دِقْلْديانوس [b] [Diocletianus] هذا أَحَد مُلُوك الرُّوم المعروفين بالقَياصِرَة ، مَلَك في منتصف سنة خمسٍ وتسعين وخمس مائة من سني الإسْكَنْدَر [4] . وكان من غَيْر بيت المُلْك ، فلمَّا مَلَكَ تَجَبَّرَ ، وامْتَدَّ مُلْكُه إلى مَدائِن الأكاسِرَة ومَدينَة بابِل ، فاسْتَخْلف ابنَه على مملكة رُومَة ، واتَّخَذَ تَخْت مُلْكه بمَدِينَة أنْطاكية ، وجَعَلَ لنفسه بِلادَ الشَّام ومِصْر إلى أَقْصَى المغرب .

فلمَّا كان في السنة التاسعة عشر من مُلْكِه ، وقيل الثانية عشرة ، خالَفَ عليه أَهْلُ مصر والإسْكَنْدَرية ، فبَعَثَ إليهم وقَتَلَ منهم خَلْقًا كثيرًا ، وأَوْقَعَ بالنَّصارَى ، فاسْتَبَاح دِماءَهم ، وغَلَّق كَنائِسَهم ، ومَنَع من دين النَّصارَىٰ ، وحَمَلَ الناسَ على عِبادَة الأَصْنام ، وبالَغَ في الإسْراف في قَتْل النَّصارَىٰ .

---

a) كذا في الأصل وبولاق ولكنه صوب رسم الكلمة فيما يلي في الأصل إلى ديقلديانوس ودقلديانوس . b) بولاق : دقليطانوس .

---

[1] البيروني : الآثار الباقية ٦، ٧.

[2] نفسه ٧، ٨.

[3] نشر عبد المجيد دياب هذا الفصل في كتابه تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي للعلامة المقريزي ٢٥٥-٢٥٧.

[4] راجع حول ترجمة الإمبراطور دقلديانوس (٢٤٥-٣١٣م)، Frend, W. H., *CE* art. *Diocletian* 3, pp. 904-8 وما ذكر من مراجع.

وأقامَ مَلِكًا إحدى وعشرين سنة ، وهَلَكَ بعد عِلَلٍ صَعْبَة دَوَّدَ منها بَدَنُه ، وسَقَطَت أسْنانُه .

وهو آخِر من عَبَدَ الأَصْنَام من مُلُوك الرُّوم[١] ، وكلّ من مَلَك بعده فإنَّما كان على دِين النَّصْرانية ، فإنَّ الذي مَلَكَ بعده ابنه سنةً واحِدَة ، وقيل أكثر من ذلك . ثم مَلَكَ قُسْطَنْطِين الأَكْبَر ، فأَظْهَرَ دين النَّصْرانية ونَشَرَه في الأَرْض[٢] .

ويُقالُ إنَّ رَجُلًا ثارَ بمصر يُقالُ له «أجلة» [Achilleus] ، وخَرَج عن طاعَة الرُّوم ، فسارَ إليه دِقْلَدْيانوس وحَصَر الإسْكَنْدَرية ـ دارَ المُلْك يومئذٍ ـ ثمانية أشهر حتى أَخَذَ أجلة وقَتَلَه ، وعَمّ أَرْضَ مصر كلها بالسَّبْي والقَتْل[٣] .

وبَعَث قائِدَة فحارَبَ سابُور مَلِك فارِس ، وقَتَلَ أكثر عَسْكَره ، وهَزَمَه وأَسَر امْرأته وإخْوَته ، وأَثْخَن في بلادِه ، وعادَ بأَسْرَى كثيرة من رجال فارِس ، ثم أَوْقَع بعامَّة بلاد رومَة فأكثر في قَتْلهم وسَبْيهم ، فكانت أيَّامُه شَنِيعة ، قَتَل فيها من أصْناف الأُمَم ، وهَدَمَ مِن بُيوت العِبادات ما لا يَدْخُل تحت حَصْر .

٢٦٣:١ وكانت واقِعَتُه بالنَّصَارَىٰ / هي الشِّدَّة العاشِرَة ، وهي أَشْنَعُ شَدائِدهم وأَطْوَلها ، لأَنَّها دامَت عليهم مُدَّة عشر سنين ، لا يَفْتُر يومًا واحدًا يَحْرِق فيها كَنائِسَهم ، ويُعَذِّب رجالَهم ، ويَطْلُب من اسْتَتَرَ منهم أو هَرَب ليُقْتَل ، يُريد بذلك قَطْع أَثَر النَّصارىٰ وإبْطال دين النَّصْرانِيَّة من الأَرْض ، فلهذا اتَّخذوا ابْتداء مُلْك دِقْلِطيانوس تأريخًا .

وكان ابتداءُ مُلْكه يوم الجُمُعَة ، وبينه وبين يوم الاثْنَيْن أوّل يوم من تُوت ، وهو أوَّل أيَّام مُلْك الإسْكَنْدَر بن فِيلِبُش المَقْدوني ، خمس مائة وأربع وتسعون سنة وأَحَد عشر شهرًا وثلاثة أيام وبين يوم الجمعة ، أوَّل يوم من تأريخ دِقْلَدْيانوس ، وبين يوم الخميس أوَّل يوم من سنة الهِجْرَة النَّبَوِيَّة ثلاث مائة وثمانٍ وثلاثون سنة قَمَرِيَّة وتسعة وثلاثون يومًا .

وجَعَلُوا شُهورَ السَّنَة القِبْطِيَّة اثني عَشْر شهرًا ، كلّ شَهْر منها عَدَده ثلاثون يومًا سَواء . فإذا تَمَّت الأَشْهُر الاثنا عشر ، أَتْبَعُوها بخَمْسة أيَّام زيادَة على عَدَد أيَّامها ، وسَمَّوا هذه الخمسة الأيام أبو غَمْنَا ، وتُعْرَف اليوم بأيَّام النَّسيء[٤] .

---

[١] البيروني : الآثار الباقية ٢٩، وقارن ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ٧٧– ٧٨.

[٢] انظر فيما يلي ٧٢١ .

[٣] أوروسيوس : تاريخ العالم ٤٥٥. وانظر *The Coptic Encyclopedia* I, pp. 55-56.

[٤] القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٣٩٩.

فيكون الحالُ في النَّسيء على ذلك ثلاث سنين مُتواليات ، فإذا كان في السَّنَة الرابِعَة جَعلُوا النَّسيءَ ستَّة أيام ، فتكون سُنُوهم ثلاث سنين مُتواليات كلّ سنة ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ، والرابعة يصير عددُها ثلاث مائة وستة وستين يومًا .

ويَرْجع حُكْمُ سَنَتِهم إلى حُكْم سنة اليُونانيين ، بأن تَصير سَنَتُهم الوُسْطَى ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا ورُبْع يوم ، إلَّا أنَّ الكَبْسَ يَخْتَلف فإذا كان كَبْسُ القِبْط في سَنَة ، كان كَبْسُ اليُونانيين في السنة الدَّاخِلَة .

وأسْماءُ شُهور القِبْط ـ تُوت ، بابَه ، هاتُور ، كِيَهْك ، طُوبَة ، أَمشير ، بَرَمْهَات ، بَرَمُودَة ، بَشَنْس ، بَؤونَة ، أَبيب ، مِسْرَى [١] . فهذه اثنا عشر شهرًا ، كلُّ شَهْر منها عَدَدُه ثلاثون يومًا ، وإذا كانت عِدَّةُ شهر مِسْرَى ، وهو الشَّهْر الثاني عَشَر ، زادوا أيام النَّسيء بعد ذلك ، وعَمِلوا النَّوْرُوز أوَّل يوم من شهر تُوت [٢] .

ذِكْرُ أسابيع الأيَّام

اعْلَم أنَّ القُدَماءَ من الفُرْس والصُّغْد[a] وقِبْط مصر الأوَل لم يكونوا يستعملون الأسابيعَ من الأيَّام في الشهور ، وأوَّل من استعملها أهلُ الجانِب الغربي من الأرض ، لا سيَّما أهْلُ الشَّام وما حواليه ، من أجل ظهور الأَنْبِياء عليهم السَّلام فيما هنالِك ، وإخْبارِهم عن الأُسْبُوع الأوَّل وبَدْء العالَم فيه ، وأنَّ الله خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْض في سِتَّة أيَّام من الأُسْبُوع .

ثم انْتَشَر ذلك منهم في سائِر الأُمَم ، واسْتَعْمَلَته العَرَبُ العارِبَة بسبب تَجاوُر دِيارِهم ودِيار أَهْل الشَّام ، فإنَّهم كانوا قَبْل تَحوُّلِهم إلى اليَمَن ببابِل ، وعندهم أَخْبَار نُوح عليه السَّلام ، ثم بَعَثَ الله تعالى إليهم هُودًا ثم صالِحًا عليهما السَّلام ، وأَنْزَل فيهم إبراهيم خَليل الرَّحْمَن وابنه إسْماعيل عليهما السَّلام ، فتَعَرَّبَ إسماعيل .

وكانت القِبْطُ الأُول تستعمل أَسْماءَ الأيَّام الثلاثين من كلِّ شهر ، فتَجْعل لكلِّ يوم منها اسْمًا كما هو العَمَل في تاريخ الفُرْس ؛ وما زالَت القِبْطُ على هذا إلى أن مَلَك مِصْر أُغُسْطُس بن يوجس ، فأرادَ أن يَحْمِلَهم على كَبْس السِّنين ليُوافِقُوا الرُّومَ أبدًا فيها ، فوَجَدُوا الباقي حينئذٍ إلى

a) بولاق : الصفد .

[١] انظر فيما يلي ٧٣٠- ٧٣٩.

[٢] انظر فيما يلي ٧٣٠.

تَمام السنة الكَبِيسة الكُبْرَى خمس سنين ، فانْتَظَر حتى مَضى من مُلْكه خَمْس سنين ، ثم حَمَلَهم على كَبْس الشُّهور في كلّ أَرْبع سنين بيوم كما تَفْعَل الرُّوم . فتَرَكَ القِبْطُ من حينئذٍ اسْتِعْمالَ أَسْماء الأيّام الثلاثين لاحْتِياجهم في يوم الكَبْس إلى اسم يَخُصّه [1]، وانْقَرَضَ بعد ذلك مُسْتَعْمِلو أسْماء الأيام الثلاثين من أهْل مصر والعارِفون بها ، ولم يَبْق لها ذِكْرٌ يُعْرف في العالَم بين النَّاس ، بل دَثَرَت كما دَثَرَ غيرها من أسْماء الرُّسُوم القَديمَة والعادَات الأُوَل ، سُنَّة الله في الذين خَلَوا من قَبْل .

وكانت أسْماءُ شُهور القِبْط في الزَّمَن القَديم : تُوت ، باؤني [a]، أَثور ، شواقي [b]، طُوبى ، ماكِير ، فامِينُوث ، بَرْموتي ، ناخون ، باوني ، أفيفي ، أبيقا ، وكلُّ شهر منها ثلاثون يومًا ، ولكلِّ يومٍ اسمٌ يخصّه . ثم أَحْدَثَ بعضُ رُؤساء القِبْط ، بعد اسْتِعمالِهم الكَبْس ، الأَسْماء التي هي اليوم مُتداوَلَة بين الناس بمصر ؛ إلّا أنَّ من الناس من يُسَمِّي كِيَهْك كِياك ، ويقول في بَرَمْهات بَرَمْهُوط ، وفي بَشَنْس بَشَانْس ، وفي مِسْرَى ماسوري .

ومن النَّاس من يُسَمِّي الخمسة الأيَّام الزائِدَة أيَّام النَّسيء ، ومنهم من يُسَمِّيها أبو غَمْنا [c]، ومعنى ذلك : الشَّهْر الصَّغير ، وهي كما تقدَّم تُلْحق في آخر مِسْرَى ، وفيه يُزاد اليوم الكَبيس ، فيكون أبو غَمْنا [c] ستة أيام حينئذٍ ، ويُسَمُّون السَّنَة الكَبيسَة النُّقْط ، ومعناه العَلامَة [2].

ومن خُرافات القِبْط أنَّ شُهورَهُم هي شُهُور سِني نُوح وشيث وآدم منذ ابْتِداء العَالَم ، وأنَّها لم تَزل على ذلك إلى أن خَرَجَ مُوسَى بِبَني إسْرائيل من مصر ، فعَمِلُوا أوَّل سَنَتِهم خامِس عشر نِيسَان كمَا أُمِروا به في التَّوْراة ، إلى أن نَقَلَ الإسْكَنْدَر رأسَ سَنَتِهم إلى أوَّل تِشْرين .

وكذلك المصْريون نَقَل بَعضُ مُلوكِهم أوَّلَ سَنَتِهم إلى أوَّل يَوْم من مُلْكه ، فصارَ أوَّلُ تُوت عندهم يَتَقَدَّم أوَّل يوم / خُلِقَ فيه العالَم بمائتين وثمانية أيام ، أوَّلها يوم الثُّلاثاء وآخِرها يوم السَّبْت . ٢٦٤:١

وكان تُوتُ أوَّله في ذلك الوقت يوم الأحَد ، وهو أوَّل يَوْم خَلَقَ الله فيه العالَم ، الذي يُقالُ له الآن تاسِع عَشْري بَرَمْهَات .

---

a) بولاق : بؤوني . b) بولاق : شواق . c) بولاق : أبو غمنا .

---

[1] مصدر هذه المعلومات البيروني : الآثار الباقية ٤٨- ٤٩. [2] نفسه ٤٩- ٥٠.

وذلك أنَّ أوَّلَ من مَلك على الأرض ، بعد الطُّوفان ، نَمْرود بن كَنْعان بن حَام بن نُوح ، فعَمَّر بَابل ، وهو أبو الكِلْدانيين . ومَلَّكَ بنو مِصْريم بن حَام بن نُوح ـ عليه السَّلام ـ مَنْفس [a]، فبَنَى بمصر مَنْف على النِّيل ، وسَمَّاها باسم جَدِّه مِصْرايم ، وهو ثاني مَلِك مَلَكَ على الأرض . وهذان المَلِكان اسْتَعمَلا تأريخَ جَدِّهما نُوح ـ عليه السَّلام ـ واسْتَنَّ بسُنَّتهم مَنْ جاءَ بَعْدَهم حتى تَغَيَّرت كما تَقَدَّم .

ذِكْرُ أعْيادِ القِبْط من النَّصَارَىٰ بديار مصر [1]

رَوَى ابنُ يُونُس ، عن عُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال : اجْتَنِبُوا عِيد اليَهود والنَّصارَىٰ ، فإنَّ السُّخْطَ ينزل عليهم في مَجامِعِهم ، ولا تَتَعلَّموا رَطانَتهم فتُخَلَّقوا ببعض خُلُقِهم .

[b]وعن ابن عَبَّاس في قَوْله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإذَا مَرُّوا باللَّغْو مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الآية ٧٢ سورة الفرقان] قال : أعْيادُ المُشْرِكين ؛ فقيل له : أَوما هَذا في الشَّهادَة بالزُّور ؟ فقال : لا ، إنَّما آيَةُ شهادَة الزُّور : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[b] [الآية ٣٦ سورة الإسراء] .

اعْلَم أنَّ نَصارَىٰ مصر من القِبْط يَنْتَحِلون مَذْهَب اليَعْقُوبِيَّة كما تقدَّم ذِكْرُه ؛ وأعْيادُهم الآن ، التي هي مَشْهورَة بديار مصر ، أرْبَعَة عَشْر عِيدًا في كلِّ سنة من سِنيهم القِبْطِيَّة : منها سبعةُ أعْياد يُسَمُّونَها أعْيادًا كِبارًا ، وسَبْعَةٌ يُسَمُّونها أعْيادًا صِغارًا .

فالأعْيادُ الكِبار عندهم : عيدُ البِشارَة ، وعِيدُ الزَّيْتُونَة ، وعِيدُ الفِصْح ، وعِيدُ خَميس الأَرْبَعين ، وعِيدُ الخَمْسين [c]، وعِيدُ المِيلاد ، وعِيدُ الغِطاس .

والأعْياد الصِّغار : عِيدُ الخِتَان ، وعِيدُ الأرْبَعين ، وخَميسُ العَهْد ، وسَبْتُ النُّور ، وأَحَد الحُدُود ، والتَّجَلِّي ، وعِيدُ الصَّليب .

---

a) بولاق : متش . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من نسخة ظ . c) في جميع النسخ : عيد الخميس .

---

[1] نشر هذا الفصل ونقله إلى الفرنسية جريفو بعنوان Griveau, «Les fetes des Coptes par al-Maqrîzî», *Part. Or.* X (1915), pp. 313-43؛ كما نشره عبد المجيد دياب في كتاب «تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي للعلامة المقريزي» ، ٢٣١-٢٥٠، وهو موجود في الكراسة التي بخط المقريزي والمحفوظة في مكتبة Liège وفي نسخة الظاهرية (ظ) المنقولة عن مسودة المقريزي .

ولهم مَواسِمُ أُخر ليست هي عندَهم من الأعْياد الشَّرعِيَّة ، لكنَّها عندهم من المَواسِم العادِية ، وهو يَوْمُ النَّوْرُوز .

وسأذْكُر من خَبَر هذه الأعْياد ما لا تَجِده مَجموعًا في غير هذا الكِتاب ، على ما اسْتَخْرَجته من كُتُب النَّصَارَىٰ وتَواريخ أهْل الإسْلام [١].

عِيدُ البِشارَة ـ هذا العِيد عند النَّصَارَىٰ ، أَصْله بِشارَة جِبْريل مَرْيَم بميلاد المَسيح ـ عليهما السَّلام ـ وهم يُسَمُّون جِبْريل غِبْريال ، ويقولون مارت مَرْيَم ، ويُسَمُّون المَسيح ياشُوع ، ورُبَّما قالوا السَّيِّد يَشوع . وهذا العيدُ تعمله نَصَارَىٰ مصر في اليوم التاسع والعشرين من شهر بَرَمْهَات [٢].

عِيدُ الزَّيْتُونَة ـ ويُعْرَف عندهم بعيد الشَّعانِين ، ومَعْناه التَّسْبيح ، ويكون في سابع أَحَدٍ من صَوْمِهم . وسُنَّتُهم في عيد الشَّعانِين أن يَخْرُجُوا بسَعْف[a] النَّخْل من الكَنِيسَة ، ويرون أنَّه يَوْمُ رُكوب المَسيح اليَعْفُور[b] (وهو الحِمار) في القُدْس ودُخُوله إلى صَهْيون وهو رَاكِب ، والناسُ بين يَدَيْه يُسَبِّحون ، وهو يَأْمُر بالمَعْرُوف ، ويَحُث على عَمَل الخَيْر ، ويَنْهَى عن المُنْكَر ويُباعِد عنه [٣].

وكان عيدُ الشَّعانِين من مَواسِم النَّصَارَىٰ بمصر التي تُزَيَّن فيها كَنائِسُهم . فلمَّا كان لعَشْرٍ خَلَوْن من شهر رَجَب سنة ثمانٍ وتسعين[c] وثلاث مائة ، كان عيدُ الشَّعانِين ، فمَنَع الحاكِمُ بأمْر الله أبو عليّ مَنْصور بن العَزيز بالله ، النَّصَارَىٰ من تَزْيين كَنائِسِهم وحَمْلهم الخُوص على ما كانت عادَتهم ، وقَبَضَ على عِدَّة مِمَّن وَجَدَ معه شيئًا من ذلك ، وأَمَر بالقَبْض على ما هو مُحَبَّس على الكَنائِس من الأمْلاك ، وأَدْخَلَها في الدِّيوان ، وكَتَبَ لسائِر الأعْمال بذلك ، وأُحْرِقَت عِدَّةٌ من صُلْبانِهم على باب الجامِع العَتيق بمصر[d] والشُّرْطَة [٤].

عِيدُ الفِصْح[e] ـ هذا العيدُ عندهم هو العِيد الكبير ، ويَزْعُمون أنَّ المَسيح ـ عليه السَّلام ـ لمَّا تَمَالأ اليهودُ عليه ، واجْتَمَعُوا على تَضْليله وقَتْله ، قَبَضُوا عليه وأَحْضَروه إلى خَشَبَة ليُصْلَب عليها ،

---

a) بولاق : سعف . b) بولاق : العفو . c) بولاق : سبعين . d) ساقطة من بولاق . e) الأصل وبولاق وظ : الفسح .

---

[١] اعتمد المقريزي في ذكره أعياد القبط ربما على أوتخيوس Eutychius أو المكين بن العميد ، وهي تقريبًا نفس المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي عند ذكره لأعياد القبط في مصر وإن لم يُصَرِّح كلٌّ منهما بمصدره (صبح الأعشى ٢:٤٢٥– ٤٣٥، ١٣:٢٨٤) . وأورد المقريزي ذكر أعياد القبط في الكراسة الموجودة بخطه في مكتبة Liège ببلجيكا ورقة ١٨٥ظ–١٨٦ظ .

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٤٢٥.

[٣] نفسه ٢: ٤٢٥.

[٤] المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢: ٧١.

فصُلِبَ على خَشَبَة عليها لِصَّان . وعندنا ـ وهو الحَقّ ـ أنَّ الله تعالى رَفَعَه إليه ، ولم يُصْلَب ولم يُقتَل ، وأنَّ الذي صُلِبَ على الخَشَبَة مع اللِّصَّيْن ، غير المَسيح أُلْقَى الله عليه شَبَه المَسيح [1].

قالوا : واقْتَسَم الجُنْدُ ثِيابَه ، وغَشِيَ الأرْضَ ظُلْمَةٌ من السَّاعَة السادسة من النَّهار إلى السَّاعَة التاسعة من يوم الجُمُعَة خامِس عشر هِلال نِيسان للعِبْرانيين ، وتاسع عشري بَرَمْهات ، وخامس عشري آذار سنة [٥٧٠٣ قمرية] [a].

ودُفِنَ الشَّبيهُ في[b] آخِر النَّهار بقَبْرٍ ، وأُطْبِقَ عليه حَجَرٌ عظيم ، وخَتَم عليه رُؤَسَاءُ اليَهود ، وأقامُوا عليه الحَرَس باكِرَ يوم السَّبت كَيْلا يُسْرَق . فزَعَمُوا أنَّ المَقْبورَ قامَ من القَبْر لَيْلَة الأحَد سَحَرًا ، ومَضَى بُطْرُس ويُوحَنَّا التِّلْميذان إلى القَبْر ، وإذا الثِّيابُ التي كانت على المَقْبُور فَقَط[c] بغَيْر مَيِّت ، وعلى القَبْر مَلاكُ الله بثِيابٍ بيض ، فأَخْبَرَهُما بقِيامة[d] المَقْبُور من القَبْر.

قالوا : وفي عَشِيَّة يوم الأَحَد هذا ، دَخَلَ المَسيحُ على تَلاميذِه وسَلَّم عليهم ، وأَكَلَ مَعَهُم وكَلَّمَهُم وأَوْصاهُم ، وأَمَرَهُم بأُمورٍ قد تَضَمَّنَها إنْجيلُهم.

وهذا العِيدُ عندهم بعد عيد الصَّلَبوت / بثَلاثَة أيَّام . ١:

خَميسُ الأَرْبَعين ـ ويُعْرَف عند أهل الشَّام بالسُّلاَّق[e]، ويُقالُ له أيضًا عيد الصُّعود ، وهو اليوم[b] الثاني والأربعون من الفِطْر [2]. ويَزْعُمون أنَّ المَسيحَ ـ عليه السَّلام ـ بعد أرْبعين يومًا من قِيامَته ، خَرَجَ إلى بَيْت عَنْيا والتلاميذ معه ، فرَفَع يديه وبارَكَ عليهم وصَعِدَ إلى السَّماء ، وذلك عند إكْمالِه ثلاثًا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر . فرَجَعَ التَّلامِذَةُ إلى أُوراشَليم ـ يعني بَيْت المَقْدِس ـ وقد وَعَدَهم باشْتِهار أَمْرِهم ، وغير ذلك ممَّا هو مَعْروفٌ عندهم . فهَذا اعْتِقادُهم في كَيْفِيَّة رَفْع المَسيح : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثًا﴾ [الآية ٨٧ سورة النساء] .

عِيدُ الخَمْسين[f] ـ وهو العُنْصُرَة ، ويعملونه بعد خَمْسين يومًا من يوم القِيام [3]، وزَعَمُوا أنَّ بعد عَشْرَة أيَّام من الصُّعود وخمسين يومًا من قِيامَة المَسيح ، اجْتَمَع التَّلاميذُ في عِلِّيَة صَهْيُون ، فتَجَلَّى

---

a) بياض بجميع النسخ ، والمثبت من نشرة ڤييت نقلا عن تاريخ المكين . b) زيادة من ظ . c) ساقطة من بولاق .
d) بولاق : بقيام . e) بولاق : بالمسلاق . f) جميع النسخ : عيد الخميس .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٤٢٦.
[2] نفسه ٢: ٤٢٦.
[3] نفسه ٢: ٤٢٦ وفيه أنه يحتفل به في السادس والعشرين من بشنس .

لهم رُوحُ القُدُس في شِبْه أَلْسِنَة من نار ، فامْتلأوا من رُوح القُدُس ، وتَكَلَّموا بجَميع الأَلْسُن ، وظَهَرَت على أَيْديهم آياتٌ كثيرة ، فعَادَاهم اليَهودُ وحَبَسُوهم ، فنَجَّاهُم الله منهم ، وخَرَجُوا من السِّجْن فساروا في الأرض مُتَفَرِّقين يَدْعُون الناس إلى دِين المَسيح .

الميـــلاد ـ يَزْعُمون أنَّه اليوم الذي وُلِدَ فيه المَسيح ، وهو يوم الاثنين ، فيجعلون عَشِيَّة الأحد لَيْلَة الميلاد [a]. وسُنَّتُهم فيه كَثْرة الوَقود بالكَنائِس وتَزْيينها ، ويَعْمَلونه بمصر في التاسِع والعشرين من كِيَهْك [1] .

ولم يَزَل بديار مصر من المَواسِم المشهورة فكان يُفَرَّق فيه ـ أيَّام الدَّولة الفاطِمِيَّة ـ على أرْباب الرُّسُوم من الأُسْتاذين المُحَنَّكين والأُمَراء المُطَوَّقين وسَائِر العَوَالي [b] من الكُتَّاب وغيرهم الجَامَات من الحَلاوَة القاهِرِيَّة ، والمَثارِد التي فيها السَّميذ ،وقَرابات الجُلَّاب ، وطَيافير الزَّلابية ، والسَّمَك المعروف بالبُوري [2] .

ومن رَسْم النَّصارَىٰ في الميلاد اللَّعِب بالنَّار ؛ ومن أَحْسَن ما قيل :

[البسيط]

ما اللَّعِبُ بالنَّار في الميلادِ من سُنَّة [c] وإنَّما فيه لـلإسْـلامِ مَـقْـصُـودُ
فَفِيه بُهتُ النَّصارَىٰ أنَّ رَبَّهُمُ عِيسَىٰ بنُ مَرْيَم مَخْلوقٌ ومَوْلُودُ

وأَدْرَكْنا الميلادَ بالقاهِرَة ومِصْر وسائِر إقْليم مصر مَوْسِمًا جَليلًا ، يُباعُ فيه من الشُّموع المُزْهرة بالأَصْباغ المليحة والتَّماثيل البَديعَة بأموالٍ لا تَنْحَصِر ، فلا يَبْقَى أحَدٌ من النَّاس أعْلاهم وأدْناهم حتى يَشْتَري من ذلك لأوْلاده وأهْله . وكانوا يُسَمُّونها الفَوانيس (واحِدُها فانُوس) [3]، ويُعَلِّقون منها في الأسْواق بالحَوانيت شيئًا يَخْرُج عن الحَدّ في الكَثْرة والمَلاحَة . ويَتَنافسُ النَّاسُ في المُغالاة في أَثْمانها ، حتى لقد أَدْرَكْتُ شَمْعَةً عُمِلَت فبَلَغ مَصْروفُها ألف درهم وخمس مائة درهم فضَّة ، عنها يومئذٍ ما ينيف على سبعين مِثْقالًا من الذَّهَب .

وأَعْرف السُّؤَّال في الطُّرُقات أيَّام هذه المَواسِم ، وهم يَسْأَلُون الله أن يُتَصَدَّق عليهم بفَانوس ، فيَشْتَري لهم من صِغار الفَوانيس ما يَبْلُغ ثَمَنُه الدِّرْهَم وما حَوْلَه .

---

a) بولاق : فيحيون عشية ليلة الميلاد . b) بولاق : الموالي . c) بولاق : سفه .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٦ .

[2] انظر فيما يلي ١ : ٤٩٤ .

[3] هذه إشارة مهمة لأصل استخدام الفانوس في مصر وأنه كان يستخدم في الأعياد القبطية وعلى الأخص عيد الميلاد ، ولكن لا ندري متى أصبح استخدام الفانوس من عادات شهر رمضان في مصر عند المسلمين .

ثم لمَّا اخْتَلَّت أمورُ مصر، كان من جُمْلَة ما بَطَلَ من عَوائد التَّرف عَمَلِ الفَوانِيس في الميلاد إلَّا قَليلًا.

الغِطَـــاسُ ـ ويُعْمَل بمصر في اليوم الحادي عشر من شهر طُوبَة؛ وأصْلُه عند النَّصَارَى أنَّ يحيى ابن زَكرياء ـ عليهما السلام ـ المعروف عندهم بيُوحنَّا المِعْمَداني ـ عَمَّد المسيح (أي غَسَلَه) في بُحَيْرَة الأُرْدُنّ، وعندما خَرَج المسيحُ عليه السَّلام من الماء اتَّصَل به رُوحُ القُدُس؛ فصارَ النَّصَارَى لذلك يَغْمِسون أوْلادَهم في الماءِ في هذا اليوم، ويَنْزِلون فيه بأجْمَعِهم، ولا يكون ذلك إلَّا في شِدَّة البَرْد، ويُسَمُّونه يوم الغِطَاس، وكان له بمصر مَوْسِمٌ عظيمٌ إلى الغاية[١].

قال المَسْعوديُّ: ولِلَيْلَة الغِطاس بمصر شأْنٌ عَظيمٌ عند أهْلها، لا يَنامُ الناسُ فيها، وهي ليلة الحادي عَشر من طُوبَة. ولقد حَضَرْتُ سنة ثلاثين وثلاث مائة لَيْلَة الغِطاس بمصر والإخْشيدُ محمَّد بن طُغْج ـ أمير مصر ـ في داره المَعْروفَة بالمُخْتار في الجَزِيرَة الراكبة للنِّيل[٢]، والنِّيلُ يُطيفُ بها، وقد أَمَرَ فأسْرِجَ في جانِب الجَزِيرَة وجانِب الفُسْطاط ألف مِشْعل، غير ما أسْرَج أهلُ مصر من المَشاعِل والشَّمْع. وقد حَضَرَ بشَاطِئِ النِّيل في تلك اللَّيْلَة آلافٌ من النَّاس من المسلمين ومن النَّصَارَىٰ: منهم في الزَّوارِق، ومنهم في الدُّور الدَّانِيَة من النِّيل، ومنهم على سائر الشُّطوط، لا يَتَناكَرون كلَّ ما يُمْكِنُهم إظْهاره من المآكِل والمَشَارِب والمَلابِس وآلات الذَّهَب والفِضَّة والجَوْهَر والملاهي والعَزْف والقَصْف؛ وهي أحْسَنُ لَيْلَة تكونُ بِمِصْر، وأشْمَلُها سُرورًا، ولا تُغْلَق فيها الدُّروب، ويُغَطِّس أكثرهم في النِّيل، ويَزْعُمون أنَّ ذلك أمانٌ من المَرَض ونُشْرَة للداء[٣].

وقال المُسَبِّحيُّ في «تاريخه» من حَوادِث سنة سبع وستين وثلاث مائة: مُنِعَ النَّصارَى من إظْهار ما كانُوا يَفْعَلونه في الغِطاس من الاجْتِماع ونُزُول الماءِ وإظْهار المَلاهي، ونُودي أنَّ من عَمِلَ ذلك نُفِيَ من الحَضْرَة[٤].

وقال: في سنة ثمانٍ وثمانين وثلاث مائة كان الغِطاسُ، فضُرِبَت الخيامُ والمَضارِبُ والأَسِرَّة في عِدَّة مَواضِع على شاطئ النِّيلِ، ونُصِبَت أَسِرَّةٌ للرَّئيس فَهْد بن إبراهيم النَّصْراني كاتِب الأسْتاذ بَرْجَوان، وأُوقِدَت له الشُّموعُ والمَشَاعِلُ، وحَضَرَ المُغَنُّون والمُلْهون، وجَلَسَ مع أهْلِه يَشْرَب إلى أن كان / وَقْتُ الغِطاس فغَطَّس وانْصَرف[٥].

---

[١] القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٢٦ وفيه: يقول المصريون: غَطَّسْتُم صَيَّفْتم، ونَوْرَزْتم شَتَّيْتم.

[٢] انظر عنه، ابن سعيد: المغرب ١٦٠- ١٦١.

[٣] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٦٩- ٧٠.

[٤] المسبحي: نصوص ضائعة ١٢.

[٥] نفسه ١٨-١٩ وفيما يلي ١: ٤٩٤.

وقال : في سنة إحدى وأربع مائة ، وفي ثامِن عشري جُمادى الأولى ، وهو عاشِر طُوبَة ، مُنِع النَّصارَىٰ من الغِطاس ، فلم يُغَطِّس أَحَدٌ منهم في البَحْر[1] .

وقال في حَوادِث سنة خمس عشرة وأربع مائة : وفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة : كان غِطاسُ النَّصارَىٰ ، فجَرَى الرَّسْمُ من النَّاس في شِراء الفَواكِه والضَّأْن وغيره ، ونَزَلَ أميرُ المؤمنين الظَّاهِر لإعْزاز دين الله لقَصْر جَدِّه العَزيز بالله في مصر ، لنَظَر الغِطاس ومعه الحَرَمُ ، ونُودي ألَّا يَخْتَلط المسلمونَ مع النَّصارَى عند نُزولهم في البَحْر في اللَّيْل[a] .

وضَربَ بَدْرُ الدَّوْلَة ، الخادِم الأَسْوَد مُتولِّي الشُّرْطَتَيْن ، خَيْمةً عند الجِسْر وجَلَسَ فيها ، وأَمَرَ أميرُ المؤمنين بأن تُوقَدَ النَّارُ والمَشاعِلُ في اللَّيْل ، وكان وَقيدًا كثيرًا ، وحَضَرَ الرُّهبانُ والقُسُوس بالصُّلْبان والنِّيران ، فقَسَّسوا هناك طَويلًا إلى أن غَطَّسوا[2] .

وقال ابنُ المأْمون في «تاريخه» من حوادِث سنة سبع عشرة وخمس مائة ، وذَكَر الغِطاس : ففَرَّق أَهْلُ الدَّوْلة ما جَرَت به العادَةُ لأَهْل الرُّسُوم من الأُتْرُجّ والنارِنْج واللَّيْمون المَراكِبي[b] ، وأَطْنان القَصَب والبُوري ، بحَسَب الرُّسُوم المقرَّرَة بالدِّيوان لكلِّ أَحَد[c] [3] .

الخِـــتَان ـ يُعْمَل في سادس شهر بَئُونَة ، ويَزْعُمون أنَّ المَسيح خُتِنَ في هذا اليوم ، وهو الثامِن من الميلاد ، والقِبْطُ من دون النَّصارَى تَخْتَتِن[d] بخِلاف غيرهم[4] .

الأَرْبَعُـــون ـ وهو عندهم دُخولُ المَسيح الهَيْكَل ، ويَزْعُمون أنَّ سَمْعانَ الكاهِن دَخَلَ بالمَسيح مع أُمِّه [الهَيْكَل][e] وبارَك عليه ، ويُعْمَل في ثامِن شهر أَمْشير[5] .

خَميسُ العَهْد ـ ويُعْمَل قبل الفِصْح بثلاثة أيَّام ، وسُنَّتُهم فيه أن يَمْلأُوا إناءً من ماءٍ ويُزَمْزِمُون عليه ، ثم يَغْسِلُ البِتْرَك به[f] أَرْجُل سائِر النَّصارَى ، ويَزْعُمون أنَّ المَسيحَ فَعَلَ هذا بتَلامِذَته في مِثْل هذا اليوم كي يُعَلِّمهم التَّواضُع ، ثم أَخَذ عليهم العَهْدَ ألَّا يَتَفَرَّقوا ، وأن يَتَواضَع بعضُهم لبَعْض .

---

a) بولاق : النيل . b) بولاق : الليمون في المراكب وفيما يلي ٢ : ١١٨ . c) بولاق : واحد . d) بولاق : تختن . d) بولاق : تختن . e) زيادة من صبح الأعشى . f) الأصل : المتبرك به ، بولاق : للتبرك به والمثبت من ظ .

---

[1] المسبحي : نصوص ضائعة ٣٠.

[2] المسبحي : أخبار مصر ٧٠ - ٧١؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٦٣؛ وفيما يلي ١ : ٤٩٤.

[3] ابن المأمون : أخبار مصر ٦٣ وفيما يلي ١ : ٤٩٥.

[4] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٧.

[5] نفسه ٢ : ٤٢٧.

وعوامُّ أَهْل مصر في وَقْتنا يَقُولون: خَميسُ العَدَس، من أَجْل أنَّ النَّصَارَى تَطْبُخ فيه العَدَسَ المُصَفَّى[١]؛ ويقولُ أَهْلُ الشَّام: خَميسُ الأُرْز وخَميسُ البَيْض؛ ويَقولُ أَهْلُ الأَنْدَلُس: خَميسُ إبْريل، وإبريل اسْمُ شهر من شُهُورِهم.

وكان في الدَّوْلَة الفاطِمية تُضْرَب في خَميس العَدَس هذا خمس مائة دينار، فتُعْمل خَرارِيب تُفَرَّق في أَهْل الدَّوْلَة برُسُوم مُقَرَّرَة[a]، كما ذُكِرَ في أَخْبار القَصْر من القاهِرَة عند ذِكْر دار الضَّرْب من هذا الكتاب[٢].

وأَدْرَكْنا خميسَ العَدَس هذا في القاهِرَة ومصر وأَعْمالِهما من جُمْلَة المواسِم العَظيمَة، فيُباعُ في أَسْواق القاهِرَة من البَيْض المَصْبُوغ عِدَّة أَلْوان ما يَتجاوَز حَدّ الكَثْرَة، فيُقامِر به العَبيدُ والصِّبْيانُ والغَوْغَاء، ويُنْتَدَب لذلك من جِهَة المُحْتَسِب من يَرْدَعُهم في بعض الأَحْيان، ويُهادِي النَّصارَى بعضُهم بَعْضًا، ويُهْدون إلى المسلمين أَنْواع السَّمَك المُنَوَّع مع العَدَس المُصَفَّى والبَيْض. وقد بَطَلَ ذلك لما حَلَّ بالنَّاس، وبَقِيَت منه بَقِيَّة.

سَبْتُ النُّــور ـ وهو قَبْل الفِصْح بيوم، ويَزْعُمون أنَّ النُّور يَظْهَر على قَبْر المسيح ـ بزَعْمهم ـ في هذا اليوم بكَنيسَة القُمامة من القُدْس، فتُشْعَل مَصابيحُ الكنيسَة كلّها[٣]. وقد وَقَفَ أَهْلُ الفَحْص والتَّفْتيش على أنَّ هذا من جُمْلة مَخارِيق النَّصارَى بصناعَة يَعْمَلونها.

وكان بمِصْر هذا اليَوْم من جُمْلَة المَواسِم، ويكون ثالِث يوم من خَميس العَدَس، ومن تَوابِعه.

حَدُّ الحُدُود ـ وهو بَعْد الفِصْح بثمانية أيّام، فيُعْمَل أَوَّل أَحَدٍ بعد الفِطْر لأنَّ الآحادَ قَبْله مشغولةٌ بالصَّوْم، وفيه يُجَدِّدون الآلات والأَثاث واللِّباس، ويَأْخُذون في المُعَاملات والأُمور الدُّنيوية والمَعاش[٤].

عِيدُ التَّجَــلِّي ـ يُعْمَل في ثالِث عشر شهر مِسْرَى، يَزْعُمون أنَّ المَسيحَ تَجَلَّى لتلاميذِه بعد ما رُفِع، وتَمَنَّوا عليه أن يُحْضِر لهم إيْلياء ومُوسَىٰ ـ عليهما السَّلام ـ فأَحْضَرَهُما إليهم بمُصَلَّى بَيْت المَقْدِس، ثم صَعِد إلى السَّمَاء وتَرَكَهم[٥].

---

a) بولاق: مفردة.

---

[١] القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٢٧.
[٢] فيما يلي ١: ٤٥٠.
[٣] القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٢٧.
[٤] نفسه ٢: ٤٢٨.
[٥] نفسه ٢: ٤٢٨.

عيدُ الصَّليب ـ ويُعْمَل في اليوم السَّابع عشرمن شهر تُوت ، وهو من الأعْياد المحْدَثَة ، وسَبَبُه ظُهور الصَّليب ـ بزَعْمِهم ـ على يَد هِيلانَا أمّ قسطَنْطين [1] ، وله خَبَرٌ طويلٌ عِنْدَهم مُلَخَّصُه ما أنت تَراه .

ذِكْرُ قُسطَنطين [2] ـ وقُسطَنْطين هذا هو ابنُ قُسْطَنْش بن وليطوس بن ولنطينوس بن دقيون بن كلوديش بن غايش بن أَكْتَبِيان أُغُشْت الأَعْظَم الملقَّب قَيْصَر ؛ وهو أوَّلُ من ثَبَّت دين النَّصْرانِيَّة ، وأَمَرَ بقَطْع الأَوْثان وهدْم هياكِلها وبُنْيان البِيَع ، وآمَن من المُلوك بالمَسيح . وكانت أُمُّه هِيلانَة من مَدينَة الرُّها ، فنَشأ بها مع أمِّه وتعلَّم العُلوم ، ولم يَزَل في غاية من الظَّفَر والسَّعادة ، مُعانًا مَنْصورًا على كلِّ من حارَبَه .

وكان في أوَّل أمْرِه على دين المجُوس ، شَديدًا على النَّصارَى ماقِتًا لدينهم ، وكان سَبَبُ رُجوعِه عن ذلك إلى دين النَّصْرانِيَّة أنَّه ابْتُلي بجُذامٍ ظَهَرَ عليه ، فاغْتَمَّ لذلك غَمًّا شديدًا ، وجَمَعَ الحُذَّاقَ من الأطِبَّاء ، فاتَّفَقُوا على أدْوية دَبَّروها له ، وأوْجَبُوا أن يَسْتَنْقِع ـ بعد أخْذ تلك الأدْوية ـ في صِهْريج مَملوءٍ من دِماء أطْفال رُضَّع ساعَةً يَسيلُ منهم .

فتقدَّم أمْرُه بجَمْع جملةٍ من أطْفال النَّاس ، وأَمَرَ بذَبْحِهم في صِهْريج ليَسْتَنْقِع في دِمائهم وهي طَرِيَّة ، فجُمِعَت الأطفالُ لذلك ، وبَرَزَ ليَمْضِي فيهم ما تقدَّم به من ذَبْحهم ، فسَمِعَ ضَجيجَ النِّساء اللَّائي أَخَذَ / أولادَهنّ فرَحِمَهنّ وأَمَرَ فدَفَع لكلِّ واحِدَةٍ ابنها ، وقال : احْتِمالُ عِلَّتي أَوْلَى ٢٦٧:١
بي وأَوْجَبُ من هَلاكِ هذه العِدَّة العَظيمَة من البَشَر . فانْصَرَف النِّساءُ بأوْلادِهنّ وقد سُرِرْن سُرورًا كثيرًا .

فلمَّا صارَ من اللَّيل إلى مَضْجَعه ، رأَى في مَنامِه شَيخًا يقول له : إنَّك رَحِمْت الأطفالَ وأُمَّهاتهم ، ورأيت احْتِمال عِلَّتك أوْلَى من ذَبْحهم ، فقد رَحِمَك الله ووَهَبَك السَّلامَة من عِلَّتك ، فابْعَثْ إلى رَجُل من أهْل الإيمان يُدْعَى «شَلْبَشْتَر» قد فَرَّ خَوْفًا منك ، وقِفْ عند ما يَأْمُرك

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٨. نشر عبد المجيد دياب هذه الفقرة في كتابه تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي للعلامة المقريزي ٢٥٨-٢٦٠.

[2] نقل المقريزي ترجمة قسطنطين من الترجمة العربية لكتاب «تاريخ العالم» لباولوس أوروسيوس (هروشيوش) ، وانظر كذلك البيروني : الآثار الباقية ٩٥. وولد قسطنطين في مدينة Naisos سنة ٢٧٣م وحمل لقب أغسطس في ٢٥ يونية سنة ٣٠٦م وأصبح اسمه Constantine I the Great وتوفي في Nikomedia في ٢٢ مايو سنة ٣٣٧م (راجع ، *The Oxford Dictionary of Byzantium*, Oxford 1991 I, pp. 448-500) .

به ، والْتَزِم ما يَخُصّك عليه تتم لك العافِيَة . فانْتَبَه مَذْعورًا ،وبَعَثَ في طَلَب شَلْبَشْتَر الأُسْقُف ، فأُتِيَ به إليه وهو يَظُنّ أنّه يُريد قَتْلَه ، لما عَهِدَه من غِلْظَته على النَّصارَى ومَقْته لدينهم ؛ فعندما رآه تَلَقَّاه بالبِشْر وأَعْلَمه بما رآه في مَنامِه ، فقصَّ عليه دين النَّصْرانيّة ، وكانت له معه أخبارٌ طَويلَة مذكورة عندهم . فبَعَث قُسْطَنْطِين في جَمْعِ الأساقِفَة المَنْفيين والمُسَيَّرين ، والْتَزَم دينَ النَّصْرانِيّة ، وشَفاهُ الله من الجُذام ، فأيَّدَ الدِّيانة ، وأعْلَن بالإيمان بدين المَسيح .

وبَيْنَا هو في ذلك ، إذْ تَوَقَّع وُثوبَ أَهْل رُوَمة عليه وإيقاعهم به ، فخَرَج عنها وبَنَى مَدينَة قُسْطَنْطينية بُنْيانًا جَليلًا فعُرِفَت به ، وسَكَنَها فصارَت مَوْضِع تَخْت المُلْك من عَهْده [1].

وقد كان النَّصارَى ، من لدنْ زَمان نِيرون[a] الملك الذي قَتَلَ [بيطر وبولس][b] الحَواريين ومَنْ بَعْده ممَّن مَلَكَ رُوَمة ، في كلِّ وَقْت يُقْتَلون ويُحْبسون ويُشَرَّدون بالنَّفْي ، فلمَّا سَكَنَ قُسْطَنْطِين مَدينَة قُسْطَنْطينية ، جَمَع إلى نَفْسه أهْلَ المَسيح وقَوَّدَ[c] وُجوهَهم ، وأَذَلَّ عُبّاد الأَوْثان . فشَقَّ ذلك على أهْل رُوَمة ، وخَلَعُوا طاعَتَه ، وقَدَّمُوا عليهم مَلِكًا ، فأهَمَّه ذلك ، ومَرَّت له معهم عِدَّةُ أخْبار مذكورة في تاريخ رُوَمَة . ثم إنَّه خَرَج من قُسْطَنْطِينيّة يُريد رُومَة ، وقد اسْتَعَدُّوا لحَرْبه ، فلمَّا قارَبَهم أَذْعَنُوا له ، والْتَزَمُوا طاعَتَه ، فدَخَلَها فأقامَ إلى أن رَجع لحَرْب الفُرْس ،وخَرَج إليهم فقَهَرَهُم ، ودانَت له أَكْثَر ممالِك الدُّنْيا . فلمَّا كان في عشرين سنة من دَوْلَته ، خَرَجَت القُوطُ[d] على بعض أطْرافِه ، فغَزَاهم وأخْرَجَهم عن بِلاده .

ورأى في مَنامِه كأنَّ بُنودًا شِبْه الصَّليب قد رُفِعَت ، وقائِلًا يقول له : إنْ أَرَدْتَ أن تَظْفَر بمَن خالَفَك ، فاجْعَل هذه العَلامات على جَميع بِزّك[2] وشِكَلِك[e]. فلمَّا انْتَبَه أَمَرَ بتَجْهيز أُمَّه

---

a) بولاق : نيرون . b) زيادة من أوروسيوس . c) بولاق : قوي . d) بولاق : الفرس . e) بولاق : بركك وسكك ، والتصويب من الأصل وظ وتاريخ أوروسيوس .

---

[1] راجع عن تأسيس مدينة القسطنطينية Costantinople التي أضحت بعد دخول السلطان العثماني محمد الفاتح إليها سنة ١٤٥٣م هي مدينة إستانبول الحالية وعاصمة الدولة العثمانية (*The Oxford Dictionary of Byzantium* I, pp. 508-12)، وعن سقوط المدينة على يد السلطان محمد الفاتح انظر، Runciman, S., *The Fall of Constantinople*, Cambridge 1965.

[2] راجع حول كلمة بزك التي قرأها Griveau «برنْكِك» وCasanova «بيرق» والاستخدامات المختلفة في المصادر لكلمة «برك» هامش [14] صفحة ٢٣٨-٢٣٩ من الجزء الثالث من نشرة Wiet، وانظر فيما تقدم ٢٣٣.

هيلانَة [Helana] إلى بَيْت المَقْدِس في طَلَب آثار المَسيح ـ عليه السَّلام ـ وبِناء الكَنائِس وإقامَة شَرائِع[a] النَّصرانِيَّة، فسارَت إلى بَيْت المَقْدس، وبَنَت الكنائِس[1].

فيُقالُ إنَّ الأُسْقُفَ مَقارْيوس دَلَّها على الخَشَبَة التي زَعَمُوا أنَّ المَسيح صُلِبَ عليها، وقد قَصَّ عليها ما عَمِل به اليَهود، فحَفَرَت، فإذا قَبْرٌ وثلاثُ خَشَبات على شَكْل الصَّليب، فزَعَموا أنَّهم أَلْقَوا الثَّلاث خَشَبات على مَيِّت، واحِدَة بعد واحِدَة، فقامَ حيًّا عندما وُضِعَت عليه الخَشَبة الثالِثَة منها. فاتَّخذوا ذلك اليوم عِيدًا، وسَمُّوه «عيد الصَّليب»، وكان في اليوم الرابع عشر من أَيْلول والسابع عشر من تُوت، وذلك بعد ولادَة المسيح بثلاث مائة وثمانٍ وعشرين سنة. وجَعَلَت هِيلانَة لخَشَبات الصَّليب غُلافًا من ذَهَب، وبَنَت كَنِيسَة القُمامَة ببَيْت المَقْدس على قَبْر المَسيح بزَعْمهم، وكانت لها مع اليَهود أخبارٌ كثيرةٌ قد ذُكِرَت عندهم، ثم انْصَرَفَت بالصَّليب معها إلى ابْنِها[2].

وما زال قُسْطَنْطين على مَمالِك الرُّوم إلى أن ماتَ بعد أربعٍ وعشرين سنة من وِلايَتِه، فقامَ من بعده بمَمالِك الرُّوم ابنه قُنْسْطَنْطين [Constantius] الأَصْغَر[3].

وقد كان لعيد الصَّليب بمصر مَوْسِمٌ عَظيمٌ يَخْرُج الناسُ فيه إلى بني وائِل بظاهِر فُسْطاط مصر، ويَتَظاهَرون في ذلك اليوم بالمُنْكَرات من أَنْواع المُحَرَّمات، ويَمُرُّ لهم فيه ما يَتَجاوَز الحَدّ.

---

a) بولاق: شعائر.

---

[1] أوروسيوس: تاريخ العالم ٤٥٧- ٤٦٠، وبعد ذلك في تاريخ أوروسيوس أن ما قامت به هيلانة في بيت المقدس وخبرها مع اليهود مدوّن في كتاب أوسابيوس Eusebius العام الوصف لقصص البيعة وأئمتها. والمقصود هو كتاب «التاريخ الكنسي» *Historia Ecclesiastica* ليوسيبيوس القيصري Eusebius de Caesarea والذي يذكر فيه أبرز الحوادث التي جرت في تاريخ الكنيسة المسيحية حتى سنة ٣٢٤م، والذي كتبه باليونانية.

وواضح مما ذكره المقريزي بعد ذلك وما ذكره عن الديانة المسيحية في آخر الكتاب أنه اعتمد فيه على ترجمة عربية لكتاب يوسيبيوس.

[2] حول هيلانة وقصة العثور على صليب الصلبوت انظر Frolow, A., *Les reliquaires de la vraie Croix*, Paris 1965; *The Oxford Dictionary of Byzantium* II, 909, III, 2121-26؛ إسحاق عبيد: «قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع»، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٩)، ٥- ٢١.

[3] أوروسيوس: تاريخ العالم ٤٦٠، ونهاية ما نشره عبد المجيد دياب.

فلمَّا قَدِمَت الدَّوْلَةُ الفاطِمِيَّة إلى ديار مصر وبَنَوا القاهِرَة واسْتَوْطَنوها ، وكانت خِلافَةُ أَمير المؤمنين العَزيز بالله ، أَمَرَ في رابع شهر رجب في سنة إحدى وثمانين وثلاث مائة ـ وهو يوم الصَّليب ـ فمَنَعَ الناسَ من الخُروج إلى بني وائِل ، وضَبَطَ الطُّرُق والدُّروب [١].

ثم لمَّا كان عيدُ الصَّليب في اليوم الرَّابع عَشَر من شَهْر رَجَب سنة اثنتين وثمانين وثلاث مائة خَرَجَ الناسُ فيه إلى بَني وائِل ، وجَرَوا على عادَتِهم في الاجْتِماع واللَّهْو [٢].

وفي صَفَر سنة اثنتين وأربع مائة ، قُرِئَ في سابعه سِجِلٌّ بالجامِع العَتيق وفي الطُّرُقات ، كُتِبَ عن الحاكِم بأمْر الله ، يَشْتَمِل على مَنْع النَّصارَى من الاجْتِماع على عَمَل عيد الصَّليب ، وألَّا يَظْهَروا بزِينَتهم فيه ، ولا يَقْرَبوا كَنائِسَهم ، وأن يُمْنَعوا منها [٣].

ثم بَطَلَ ذلك حتى لم يَكَد يُعْرَف اليوم بديار مصر ألبتَّة .

النَّـــوْرُوز[a] ـ وهو أوَّل السَّنَة القِبْطِيَّة بمصر ، وهو أوَّلُ يوم من تُوت ، وسُنَّتُهم فيه إشعال النِّيران والتَّراش بالماء ، وكانَ من مَواسِم لَهْو المصريين قَديمًا وحَديثًا [٤].

[b]قال وَهْبٌ : بَرَدَتِ النارُ في الليلة التي أُلْقي فيها إبراهيم وفي صَبيحَتها على الأَرض كلِّها ، فلم يَنْتَفِع بها أَحَدٌ في الدنيا تلك الليلة وذلك الصَّباح ، فمن أَجْل ذلك باتَ الناسُ على النَّار في تلك الليلة التي رُمِيَ فيها إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ووَثَبُوا عليها وتَبَخَّروا بها ، وسَمَّوا تلك الليلة نَيْروزًا ؛ والنَّيْروزُ في اللِّسان السُّرْياني ، العيد .

وسُئِلَ ابنُ عَبَّاس عن النَّيْروز : لِمَ اتَّخَذوه عِيدا ؟ فقال : إنَّه أوَّلُ السَّنة المُسْتَأْنَفَة وآخِر السنة المُنْقَطِعَة ، فكانوا يَسْتَحِبُّون أن يَقْدَموا فيه على مُلوكِهم بالطُّرَف والهَدايا ، فاتَّخَذَته الأعاجِمُ سُنَّة [b].

قال الحافِظُ أبو القاسِم عليُّ بن/ عَساكِر في «تاريخ دِمَشْق» ، من طريق ابن عَبَّاس ـ رضي الله ١:
عنهما ـ قال : إنَّ فِرْعَون لمَّا قال للمَلأ من قَوْمه : ﴿إنَّ هَذا لَساحِرٌ عَليم﴾ [الآية ٣٤ سورة الشعراء] ؛

---

a) بولاق : النيروز . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من ظ .

---

[١] المقريزي: اتعاظ الحنفا ١: ٢٧٢.

[٢] نفسه ١: ٢٧٦.

[٣] نفسه ٢: ٨٩.

[٤] النَّيْرُوز والنَّوْرُوز: فارسي معرب ، وقد تكلمت به العرب (الجواليقي: المعرب ٣٤٠) .

قالوا له : ابْعَث إلى السَّحَرَة ؛ فقال فِرْعَوْنُ لمُوسَىٰ : يا مُوسىٰ ، ﴿اجْعَل بَيْنَنا وبَيْنَك مَوْعِدًا لا نُخْلِفه نحن ولا أَنْت﴾ [الآية ٥٨ سورة طه] فتَجْتَمِع أنْتَ وهارون وتَجْتَمع السَّحَرَة ؛ فقال مُوسَى : ﴿مَوْعِدُكُم يَوْمُ الزِّينَة﴾ [الآية ٥٩ سورة طه] . قال : ووافَقَ ذلك يوم السَّبْت في أوَّل يوم من السَّنة وهو يوم النَّيْرُوز .

وفي روايَة : أنَّ السَّحَرَةَ قالوا لفِرْعَوْن : أيُّها الملك واعِد الرَّجُل ، فقال : قد واعَدْته يَوْمَ الزِّينة وهو عِيدكم الأكبر ، ووافَق ذلك يوم السَّبْت ، فخَرَجَ النَّاسُ لذلك اليوم .

قال : والنَّوْروزُ أوَّل سَنَة الفُرْس ، وهو الرَّابع عشر من آذار وفي شهر بَرَمْهات .

ويُقالُ : أوَّلُ من أَحْدَثَه جَمْشيد من ملوك الفُرْس ، وأنَّه مَلَكَ الأقاليم السَّبْعَة ، فلمَّا كَمُلَ مُلْكه ولم يَبْقَ له عَدُوّ ، اتَّخَذ ذلك اليوم عيدًا ، وسَمَّاه نَوْروزًا في اليوم الجَديد [١] .

وقيل إنَّ سُلَيْمانَ بن داود ـ عليهما السَّلام ـ أوَّل من وَضَعَه ، في اليوم الذي رَجَعَ إليه فيه خاتَمُه [٢] .

وقيل : هو اليوم الذي شُفِيَ فيه أيُّوبُ عليه السَّلام ، وقال الله سبحانه وتعالى له : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [الآية ٤٢ سورة ص] ، فجُعِلَ ذلك اليوم عِيدًا ، وسَنُّوا فيه رَشَّ الماء .

ويُقال : كان بالشَّام سِبْطٌ من بني إسْرائيل أصابَهم الطَّاعون ، فخَرَجُوا إلى العِراق ، فبَلَغَ مَلِكَ العَجَم خَبَرُهم ، فأَمَرَ أن تُبْنَى عليهم حَظيرَةٌ يُجْعَلون فيها ، فلمَّا صاروا فيها ماتُوا ، وكانوا أربعة آلاف رجل . ثم إنَّ الله تعالى أَوْحَى إلى نَبِيّ ذلك الزَّمان : أَرَأَيْت بِلادَ كذا وكذا ، فحارِبْهم بسِبْط بني فُلان ؛ فقال : يارَبّ ، كيف أُحارِب بهم وقد ماتُوا ؟ فأَوْحَى الله إليه أنّي أُحْيِيهم لك .

فأَمْطَرَهم الله لَيْلَةً من اللَّيالي في الحَظيرَة ، فأَصْبَحَوا أَحْياءً ، فهُم الذين قال الله فيهم : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [الآية ٢٤٣ سورة البقرة] . فَرُفِعَ أَمْرهم إلى ملك فارس ، فقال : تَبَرَّكوا بهذا اليوم ، ولْيَصُبّ بعضُكم على بعضِ الماء ، فكان ذلك اليوم يومَ النَّوْروز ، فصارَت سُنَّةً إلى اليوم .

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤١٨؛ وفيما يلي ١ : ٤٩٤ .

[٢] أورد المقريزي هذا الخبر فيما يلي ١ : ٤٩٤ ونسبه إلى الحافظ ابن عساكر .

وسُئِلَ الخَليفَةُ المأْمُون عن رَشِّ الماء في النَّوْروز، فقال: قَوْل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، هؤلاء قَوْمٌ أَجْدَبُوا ـ تَقُول ماتَ فُلانٌ هُزالًا ـ فغِيثُوا في هذا اليوم برَشَّة من مَطَر فعاشُوا، فأَخْصَب بَلَدُهم، فلمَّا أَحْياهم الله بالغَيْث ـ والغَيْثُ يسمَّى الحَيَا ـ جَعَلُوا صَبَّ الماء في مثل هذا اليوم سُنَّة يَتَبَرَّكون بها إلى يَوْمِنا هذا [1].

وقد رُوِيَ أنَّ الذين خَرَجُوا من دِيارهم وهم أُلوف، قَوْمٌ من بني إسْرائيل فَرُّوا من الطَّاعُون. وقيل: أُمِرُوا بالجِهاد، فخافُوا المَوْتَ بالقَتْل في الجِهاد، فخَرَجُوا من دِيارهم فِرارًا من ذلك فأماتَهم الله ليُعَرِّفهم أنَّه لا يُنَجِّيهم من المَوْت شيءٌ، ثم أَحْياهُم على يد حَزْقيل أَحَد أَنْبياء بني إسْرائيل، في خَبَرٍ طَويلٍ قد ذَكَرَه أَهْلُ التَّفْسير.

وقال عليُّ بن حَمْزة الأَصَفْهاني [2] في كتاب «أَعْياد الفُرْس»: إنَّ أَوَّلَ من اتَّخَذَ النَّيْروز: النَّيْروز جَمْشيد ـ ويُقال جَمْشاد ـ أَحَدُ مُلوك الفُرْس الأُوَل.

ومعْنى النَّوْروز اليَوْم الجَديد. والنَّوْروز عند الفُرْس يكون يوم الاعْتِدال الرَّبيعي، كما أنَّ المِهْرَجان أوَّل الاعتدال الخَريفي.

ويَزْعُمون أنَّ النَّوْروزَ أَقْدَمُ من المِهْرَجان، فيقولون: إنَّ المِهْرَجان كان في أيَّام أَفْريدون، وإنَّه أوَّلُ من عَمِلَه لما قَتَلَ الضَّحَّاك ـ وهو بيوراسْب ـ فجَعَلَ يَوْمَ قَتْله عيدًا سمَّاه المِهْرَجان، وكان حُدوثُه بعد النَّوْروز بأَلفِيْ سنة وعشرين سنة [3].

---

[1] انظر رواية مخالفة للقلقشندي عن سبب رش الماء (صبح الأعشى ٢: ٤١٩).

[2] أبو الحسن عليّ بن حمزة بن عمارة بن حمزة بن يسار ابن عثمان الأصفهاني من أولاد يسار أخي أبي مسلم الخراساني. أحدُ أدباء أصفهان المشهورين بالعلم والشعر، توفي سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م. من مصنفاته كتاب «الشِّعر»، وكتاب «فِقَر البُلَغاء» يشتمل على الاختيار من شعر عامة الشعراء، وكتاب «قَلائِد الشَّرَف في مَفاخِر أصبهان وأخبارها». ولم يذكر له ياقوت أو الصفدي ـ اللذين ترجما له ـ كتاب «أعياد الفُرْس» الذي ينقل عنه هنا المقريزي. وفيما يلي ١: ٤٩٤. (معجم الأدباء ١٣: ٢٠٤؛ الوافي بالوفيات ٢١: ٧٣). بينما نسب ابن خلّكان للصاحب إسماعيل بن عبّاد وزير البويهيين المشهور كتابًا في نفس الموضوع عنوانه «الأعياد وفضائل النيروز» (وفيات الأعيان ١: ٢٣٠).

[3] بين النوروز والمهرجان مائة وتسعة وستون يومًا، والمهرجان نسبة إلى أحد ملوك الفرس القدماء كان يسمى «مِهْر»، وكانوا يسمون الشهور بأسماء الملوك فقيل «مِهرماه» ومعنى «ماه» هو الشهر. وطال عمر هذا الملك واشتدت شوكته فلما مات في النصف من هذا الشهر وهو «مِهْرماه» سميَ اليوم الذي مات فيه «مِهْرَجان» وتفسيره: نفس مهر ذهبت. ويجعل أهل المروءات بالعراق وغيرها من مدن =

وقال ابنُ وَصِيف شَاه في ذِكْر مَناوِش بن مَنْقاوِش ، أَحد مُلوك القِبْط في الدَّهْر القديم : وهو أوَّل من عَمِلَ النَّوْروز بمصر ، فكانوا يُقيمون سبعة أيام يَأْكُلون ويَشْرَبون إكْرامًا للكَواكِب [1] .

وقال ابنُ رِضْوان : ولمَّا كان النِّيلُ هو السَّبَبَ الأعظم في عمارة أرْض مصر ، رأَى المصريُّون القُدَماء ـ وخاصَّةً الذين كانوا في عَهْد دِقْلِدْيانوس الملك ـ أن يَجْعَلوا أوَّلَ السَّنَة في أوَّل الخَريف عند اسْتِكْمال النِّيل الحاجَة في الأَمْر الأكْثَر ، فجَعَلُوا أوَّلَ شُهورهم تُوت ثم بابَه ثم هاتُور ، وعلى هذا الوَلاء بحَسَب المشهور من ترتيب هذه الشُّهور [2] .

وقال ابنُ زُولاق : وفي هذه السَّنَة ـ يعني سنة ثلاثٍ وستين وثلاث مائة ـ مَنَع أميرُ المؤمنين المُعِزُّ لدين الله من وَقود النِّيران لَيْلَة النَّوْروز في السِّكَك ، ومن صَبِّ الماء يوم النَّوْروز [3] .

وقال في سنة أربعٍ وستين : وفي يوم النَّوْروز ، زادَ اللَّعِب بالماء ووَقُود النِّيران ، وطافَ أهْلُ الأسْواق وعَمِلوا فِيَلَة [a] ، وخَرَجُوا إلى القاهِرَة بلعبهم ، ولَعِبوا ثلاثة أيام ، وأَظْهَروا السَّماجات [4] والحَلْيَ في الأَسْواق . ثم أَمَرَ المُعِزُّ بالنِّداء بالكَفِّ ، وألَّا تُوقَد نارٌ ولا يُصَبُّ ماءٌ ، وأُخِذَ قَوْمٌ فحُبِسُوا ، وأُخِذَ قَوْمٌ فطيف بهم على الجِمال [5] .

وقال ابنُ المأْمُون في «تاريخه» : وحَلَّ مَوْسِم النَّوْروز في اليوم التاسع من رَجَب سنة سبع عشرة وخمس مائة ، ووَصَلَت الكُسْوَة المُخْتَصَّة بالنَّوْروز من الطِّراز وثَغْر الإسْكَنْدَرية ، مع ما يَتْبَعها من اللَّاذات [b] [6] المُذَهَّبَة والحَريري والسَّوادج ، وأُطْلِق جميعُ ما هو مستقرٌ من الكُسْوات الرِّجالية والنِّسائية ، والعَيْن والوَرِق ، وجَميعُ الأَصْناف المُخْتَصَّة بالمَوْسِم على اخْتِلافها بتَفْصيلها وأَسْماء أرْبابِها .

وأَصْنافُ النَّوْروز : البِطِّيخُ والرُّمَّانُ ، وعَناقيدُ المَوْز ، وأَفْرادُ / البُسْر ، وأَقْفاصُ التَّمْر القُوصي ، ٢٦٩:١

a) بولاق : فيه . b) بولاق : الآلات .

= العجم هذا اليوم أول يوم من الشتاء فتغير فيه الفرش والآلات وكثيرًا من الملابس (المسعودي : مروج الذهب ٣٣٧:٢-٣٧٨) ، وقارن القلقشندي : صبح الأعشى ٤٢٠:٢ - ٤٢٢.

[1] النويري : نهاية الأرب ٧١:١٥ (عن ابن وصيف شاه) ؛ المسعودي : أخبار الزمان ١٧٧ وفيهما أن الذي بدأ بعمله أشمون بن قبطيم ؛ وانظر فيما تقدم ٣٧٦، ٦٤٥.

[2] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٤٢.

[3] المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢١٤:١ وفيما يلي ١ : ٤٩٣.

[4] عن السَّماجات انظر فيما تقدم ٥٦٤ هـ[2] وفيما يلي ٤٩٣:١.

[5] المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢٢٤:١ (Serjeant, R.B., *Islamic Textiles* pp. 158, 215) .

[6] اللاذ جـ. لاذات ، نوع من الحرير الأحمر .

وأَقْفاصُ السَّفَرْجَل ، وبُكَل الهَرِيسَة المعمولة من لَحْم الدَّجاج ومن لَحْم الضَّأْن ومن لَحْم البَقَر ، من كلِّ لَوْن بُكْلَة ، مع خُبْز بُرٍّ مارِق .

قالَ : وأَحْضَر كاتِبُ الدَّفْتَر الإثباتات[a] بما جَرت به العادَةُ ، من إطْلاق العَيْنُ والوَرِق والكُسْوات على اخْتِلافها ، في يَوْم النَّوْروز ، وغير ذلك من جَميع الأصناف ، وهو : أربعة آلاف دينار ذَهَبًا ، وخمسة عشر ألف دِرْهَم فِضَّة ، والكُسْوات عِدَّة كثيرة من شُقَق دَبيقِيَّة مُذَهَّبات وحَريريات ، ومَعاجِرَ وعَصائِب نِسائيات مُلَوَّنات ، وشُقَق لاذ مُذَهَّب وحَريري ومُشَفَّع ، وفُوَط دَبيقِيَّة حَريرية .

فأمَّا العَيْنُ والوَرِق والكُسْوات ، فذلك لا يَخْرُج عمَّن تحوزه القُصور ودارُ الوَزارَة والشُّيوخ والأَصْحاب والحَواشِي المُسْتَخْدمين ورُؤَساء العُشاريَّات وبُحَّاريها ، ولم يكُن لأَحَدٍ من الأُمَراء على اخْتِلاف دَرَجاتِهم في ذلك نَصيبٌ .

وأمَّا الأَصْنافُ من البِطِّيخ والرُّمَّان والبُسْر والمَوْز والسَّفَرْجَل والعِنَّاب والهَرائِس على اخْتِلافها ، فيَشْمَل ذلك جميعَ من تَقَدَّم ذِكْرهم ، ويَشْرُكهم فيه جَميعُ الأُمَراء أرْباب الأَطْواق والأَقْصاب[b] ، وغيرهم من الأَماثِل والأَعْيان مِمَّن له جاهٌ ورَسْمٌ في الدَّوْلَة [1] .

وقال القاضي الفاضِلُ في «مُتَجَدِّدات» سنة أربعٍ وثمانين وخمس مائة : يومُ الثُّلاثاء رابع عشر رَجَب يوم النَّوْروز القِبْطي ، وهو مُسْتَهَلّ تُوت ، وتُوت أوَّل سَنَتِهم .

وقد كان بمصر ، في الأَيَّام الماضية والدَّوْلَة الخالية ، من مَواسِم بَطالاتِهم ، ومَواقيت ضَلالاتِهم ، فكانت المُنْكَراتُ ظاهِرةً فيه ، والفَواحِشُ صَريحَةً فيه . ويَرْكَب فيه أَميرٌ مَوْسومٌ بأَمير النَّوْروز ومعه جَمْعٌ كثير ، ويَتَسَلَّط على الناس في طَلَب رَسْم رَتَبه ، ويَرْسم على دُور الأَكابِر بالجُمَل الكِبار ، ويَكْتُب مَناشِير ، ويَنْدب مُرَسِّمين ، كل ذلك يَخْرُج مَخْرج الطَّنْز[c] [2] ، ويَقْنَع بالمَيْسور من الهِبات .

ويتجمَّع المُؤَنَّثون[d] والفاسِقات تحت قَصْر اللُّؤْلُؤَة ، بحيث يُشاهِدُهم الخَليفَةُ وبأَيْديهم المَلاهي ، وتَرْتَفِع الأَصْواتُ ، ويُشْرب الخَمْرُ والمِزْرُ شُرْبًا ظاهِرًا بينهم وفي الطُّرُقات ، ويَتَرَاش الناسُ بالماء ، وبالماء والخَمْر وبالماء مَمْزوجًا بالأَقْذار .

وإن غَلِطَ مَسْتورٌ وخَرَجَ من بَيْته ، لَقِيَه مَنْ يَرُشُّه ويُفْسدُ ثِيابه ويَسْتَخِفّ بحُرْمَته ، فإمَّا أن يَفْدي

---

a) بولاق : الحسابات . b) بولاق : الأنصاف . c) بولاق : الطير . d) بولاق : ويجتمع المغنون .

---

[1] ابن المأمون : أخبار مصر ٦٥ وفيما يلي ١: ٤٩٣.
[2] الطَّنْز : السخرية .

نَفْسه وإمَّا أن يُفْضَح . ولم يَجْرِ الحالُ على هذا ، ولكن قد رَشّ الماء في الحارات ، وقد أَحْيا المُنْكَرات في الدُّور أرْباب الخَسارات .

وقال في «مُتَجَدِّدات» سنة اثنتين وتسعين وخمس مائة : وجَرَى الأَمْرُ في النَّوْروز على العادَة من رَشّ الماء ، واسْتُجِدّ فيه هذا العام التَّراجُم بالبَيْض والتَّصافُع بالأَنْطاع ، وانْقَطَعَ الناسُ عن التَّصَرُّف ، ومن ظُفِرَ به في الطَّريق رُشَّ بمياهٍ نَجِسَة ، وخُرِقَ به [1].

ومازالَ يومُ النَّوْروز يُعْمَل فيه ما ذُكِرَ من التَّراش بالماء ، والتَّصافُع بالجُلود وغَيْرها ، إلى أن كانت أَعْوامُ بضع وثمانين وسبع مائة ، وأَمْرُ الدَّوْلَة بديار مصر وتَدْبيرها إلى الأَمير الكبير بَرْقُوق ، قَبْل أن يَجْلِس على سَرير المُلْك ويَتَسَمَّى بالسُّلْطان ، فمَنَعَ من لَعِب النَّوْروز ، وتَهَدَّد من لَعِبَ بالعُقوبَة . فانْكَفَّ الناسُ عن اللَّعب في القاهِرَة ، وصارُوا يَعْمَلون شيئًا من ذلك في الخُلْجان والبِرَك ونَحْوها من مواضِع التَّنَزُّه ، بعدما كانت أَسْواقُ القاهِرَة تَتَعَطَّل في يَوْم النَّوْروز من البَيْع والشِّراء ، ويَتَعاطَى الناسُ فيه من اللَّهْو واللَّعب ما يخرجون به[a] عن حَدّ الحَيَاء والحِشْمَة إلى الغاية من الفُجور والعُهْر[b].

وقلَّما انْقَضَى يومُ نَوْروز ، إلَّا وقُتِل فيه قَتيلٌ أو أَكْثَر ، ولم يَبْقَ الآن للناس من الفَرَاغ ما يَقْتَضي ذلك ، ولا من الرَّفَه والبَطَر ما يُوجِب لهم عَمَله . وما أَحْسَن قَوْل بَعضِهم :

[البسيط]

كَيْفَ ابْتِهاجُك بالنَّوْروز يا سَكَني ... وكلُّ ما فيه يَحْكِيني وأَحْكِيهِ
فتارَةً كلَهِيبِ النَّارِ في كَبِدي ... وتارةً كتَوالي دَمْعَتي فيهِ

وقال آخَرُ :

[الرمل]

نَوْرَزَ النـاسُ ونَـوْرَزْ ... ت ولكِنْ بدُمُوعي
وذَكَت نارُهم والنَّـ ... ـارُ ما بين ضُلوعي

وقال آخَرُ :

[الطويل]

ولمَّا أَتَى النَّوْرُوزُ يا غايَة المُنَى ... وأَنْتِ على الإعْراضِ والهَجْرِ والصَّدِّ
بَعَثْتُ بنارِ الشَّوْقِ ليلًا إلى الحَشَا ... فنَوْرَزْتُ صُبْحًا بالدُّموع على الخَدِّ [2]

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : العهود .

[1] المقريزي : السلوك ١: ١٣٦–١٣٧ وفيما يلي ١: ٤٩٤.
[2] انظر فيما يلي ١: ٤٩٤.

ذِكْرُ مَا يُوافِقُ أيّامَ الشُّهورِ القِبْطِيَّةِ مِن الأعْمالِ في الزِّراعات

وزِيادَةِ النّيل وغَيْر ذَلك على ما نَقَلَه أَهْلُ مصر عن قُدَمائِهم واعْتَمَدوا عليه في أُمُورِهم

/اعْلَم أنَّ المِصْريين القُدَماء اعْتَمَدوا في تأريخهم السَّنَة الشَّمْسِيَّة ـ كما تَقَدَّم ذِكْرُه ـ لِيَصير الزَّمانُ مَحْفوظًا ، وأعْمالُهم واقِعَة في أوْقاتٍ مَعْلومَة من كلِّ سَنَة ، لا يَتَغَيَّر وَقْتُ عَمَلٍ من أعْمالِهم بتَقْديمٍ ولا تأْخير ألبتَّة [1]. ١:

تُوت [Tût] ـ بالقِبْطي هو أَيْلُول ، وكانت عادَةُ مصر مُنْذُ عَهْد فَراعِنَتها ، في اسْتِخْراج خَراجِها وجِبايَة أَمْوالِها ، أنَّه لا يَسْتَتِمّ اسْتيفاء الخَراج من أهْلها إلَّا عند تَمامِ الماء ، وافْتِراشِه على سائِر أَرْضِها ، ويَقَع إتْمامُه في شهر تُوت .

فإذا كان كذلك ، ورُبَّما كانت زِيادَةٌ عن ذلك ، أُطْلِق الماءُ في جَميع نَواحيها من تُرَعِها ، ثم لا يزالُ يَتَرَجَّح في الزِّيادَة والنُّقْصان حتى يَفْرُغ تُوت .

وفي أوَّله يكون يَوْمُ النَّوْروز ، ورابِعه أوَّل أَيْلول ، وسابِعه يُلَقَّط الزَّيْتون ، وثاني عشره يَطْلُع الفَجْرُ بالصَّرْفَة [2].

وسابِعُ عشره عيدُ الصَّليب ، فيُشْرَط البَلَسان ، ويُسْتَخْرَج دُهْنُه ، ويُفْتَح ما يتأَخَّر من الأَبْحُر والتُّرَع ، وتُرَتَّب المُدامَسَة لحِفْظ الجُسُور .

وفي ثامِن عشره تُنْقَل الشَّمْسُ إلى بُرْج الميزان ، فيَدْخُل فَصْلُ الخَريف . وفي خامس عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بالعَوَّاء ، ويَكْبُر صِغار السَّمَك .

وفي هذا الشَّهر يعمّ ماءُ النِّيل أراضي مِصْر .

وفيه تُسَجَّل النَّواحي ، وتُسْتَرْفَع السِّجلَّات والقَوانين ، وتُطْلَق التَّقاوي من الغِلال لتَخْضير الأراضي . وفيه يُدْرِك الرُّمَّان والبُسْر والرُّطَب والزَّيْتون والقُطْن والسَّفَرْجَل .

وفيه يكون هُبوبُ رِيح الشَّمال أَقْوَى من هُبُوب ريح الجَنُوب ، وهُبُوب الصَّبَا أَقْوَى من الدَّبُور .

---

[1] انظر حول الشهور القبطية : المقدسي : أحسن التقاسيم ٢١١ - ٢١٢؛ البيروني : الآثار الباقية ٤٩؛ المسعودي : مروج الذهب ٢:٣٣٥ - ٣٣٦؛ المخزومي : المنهاج ٦ - ٨؛ ابن مماتي : قوانين الدواوين ٢٣٤ - ٢٥٧؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٢:٣٨٣ - ٣٩١؛ Cérèz Wissa Wassef, *The Coptic Encyclopedia* II, pp. 438-41.

[2] القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٣٥٢.

وكان قُدَماءُ المصريين لا يَنْصُبون فيه أساسًا وفيه يَكْثُر بمصر العِنَبُ الشَّتْوي ، وتُبْذَر المُحَمِّضات .

بَـابَه [Bâbah] - في أوّله يُحْصَد الأُرْزُ ، ويُزْرَع الفُول والبِرْسيم وسائِرُ الحُبُوب التي لا تُشَقُّ لها الأَرْض .

وفي رابعه أوَّل تشرين الأوَّل .

وفي ثامِنه طُلوعُ الفَجْر بالسِّماك [1] ، وهو نهاية زِيادَة النِّيل وابْتِداء نَقْصه ، وقد لا يتمّ الماءُ فيه ، فيعجز بعْضُ الأرْض عن أن يَرْكَبَها الماءُ ، فيكون من ذلك نَقْصُ الخَراج عن الكَمال .

وفي تاسِعه يكون مَجِيءُ الكَراكي إلى أرْض مصر ، وفي عاشِره يُزْرَع الكتَّان .

وفي ثاني عَشْره يكونُ ابْتِداءُ شَقّ الأرْض بصَعيد مصر ، لبَذْر القَمْح والشَّعير .

وفي ثامن عشره تُنْقَل الشَّمْسُ إلى بُرْج العَقْرَب ، ويُقْطَع الخَشَب .

وفي تاسع عشره يكونُ ابْتِداءُ نَقْص ماء النِّيل ، ويَكْثُرُ البَعُوض .

وفي حادي عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بالغَفْر [2] .

وفي هذا الشهر تُصْرَف المياهُ عن الأراضي ، ويَخْرُج المُزارِعون لتَخْضير الأراضي : فيَبْدَأون ببَذْر زِراعَة القُرْط ، ثم بزِراعَة الغَلَّة البَدْرية أوَّلًا فأوَّلًا .

وفيه يُسْتَخْرج دُهْن الآس ودُهْن النَّيلوفَر ، ويُدْرِك التَّمْرُ والزَّبيب والسِّمْسم والقُلْقاس .

وفيه يَكْثُر صِغارُ السَّمَك ويَقِل كِبارُه ، ويَسْمُن الراي والإبْرِميس من السَّمَط خاصَّةً وتَسْتَحْكم حَلاوَةُ الرُّمّان ، ويكون فيه أَطْيَب منه في سائِر الشُّهور التي يكون فيها ، ويَضَع الضَّأْن والمَعِز والبَقَر الخَيْسِيَّة .

وفيه يُمَلَّح السَّمَك المعروف بالبُوري ، ويَهْزل الضَّأْن والمَعِز والبَقَر ولا تَطيبُ لُحومُها ، وتُدْرِك المُحَمِّضَات .

وفيه يَجِب كِتابَة التَّذاكِر بالأَعْمال القُوصِيَّة . وفيه يُغْرَس المَنْثُور ويزرع السَّلْجَم .

هَاتُور [Hâtur] - في خامِسه يكون أوَّلُ تشرين الثاني ، ويَطْلُع الفَجْرُ بالزُّبانان[a] في رابعه [3] .

---

a) بولاق : بالزبانا .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٣.

[2] نفسه ٢ : ٣٥٢.

[3] نفسه ٢ : ٣٥٣.

وفي سادسه يُزْرَع الخُشْخاش. وفي سابعه يُصْرَف ماءُ النِّيل عن أراضي الكَتَّان، ويُبْذَر في النِّصف منه، وبَعْد تمام شهر يُسَبَّخ.

وفي ثامنه أوانُ المَطَر المَوْسِمي، وفي حادي عشره تَهُبُّ رِيحُ الجَنوب، وفي خامس عشره تَبْرُد المياهُ بمصر، وفي سابع عشره يَطْلُع الفَجْرُ بالإكْليل [1]، وفي ثامِن عشره تَحُلُّ الشَّمْسُ بُرْجَ القَوْس، وفي تاسع عشره يُغْلَق البَحْر المِلْح، وفي سابع عشريه تَهُبّ الرِّياح اللَّواقِح.

وفي هذا الشَّهْر يَلْبَس أهْلُ مصر الصُّوف من سابعه.

وفيه يُكْسَر ما يُحْتاج إليه من قَصَب السُّكَّر برَسْم المعاصِر، وبَراح الغَلَّة في جميع ما يُحْتاج إليه فيها، ويُهْتَمّ بعَلَف أبْقارها وجِمالِها بعد بيع شارِفِها وعاجِزها والتَّعْويض عنه بغَيْره، وإفْراد الأتْبان برَسْم وَقُود القُنُود، وتَرْتيب القَوامِصَة لعَمَل الأباليج والقَواديس، والأمْطار برَسْم القُنُود والأغْسال.

وفيه يُدْرِك البَنَفْسِج والنَّيلوفَر والمَنْثُور، ومن البُقُولات الإسْفاناخ والبَلَسان.

واخْتار قُدَماءُ المصريين في هاتور نَصْب الأساسات، وزَرْع القَمْح. وأَطْيَب حِمْلان السنة حَمْله وفيه يَكْثُر العِنَب الذي كان يُحْمَل من قُوص.

كِيَهْك [Kiyahk] - أوَّلُه الأربعينات بمصر، ويَدْخُل الطَّيْرُ وَكْرَه.

وفي سادسه بِشارة مَرْيَم بحَمْل عيسَى عليهما السَّلام. وفي سابعه أوَّل كانون الأول.

وفي عاشره آخِر اللَّيالي البُلْق، وأوَّلها أوَّل هاتور. وفي حادي عشرة أوَّل اللَّيالي السُّود، ويَدْخُل النَّمْل الأَحْجِرَة.

وفي ثالث عشره يَطْلُع الفَجْرُ بالشَّوْلَة [2]، وتَظْهَر البَراغِيث، ويَسْخَن باطِنُ الأرْض.

وفي سادس عشره يَسْقُط وَرَقُ الشَّجَر.

وفي سابع عشره تُنْقَل الشَّمْسُ إلى بُرْج الجَدْي، فيَدْخُل فَصْلُ الشِّتاء، ويُزْرَع الهُلْيون.

وفي حادي عشريه يكون آخِر اللَّيالي البُلْق، وفي ثاني عشريه عيد البِشارَة، وفي ثالث عشريه تُزْرَع الحِلْبَة والتُّرْمُس.

وفي سادس عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بالنَّعائِم [3].

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٣.

[2] نفسه ٢: ٣٥٣.

[3] نفسه ٢: ٣٥٣.

وفي ثامن عشريه يَبيضُ النَّعام، وفي تاسع عشريه الميلاد.

وفي هذا الشَّهْر يُزْرَع الخِيار بعد/ إغْراق أرْضِه. ٢٧١:١

وفيه يتكامَل بَذْرُ القَمْح والشَّعير والبَرْسيم الحِراثي.

وفيه يُسْتَخْرَج خَراجُ البَرْسيم بدار الوَجْه القِبْلي، وفيه تُرَتَّب حُرّاسُ الطَّيْر.

وفيه كَسْر قَصَب السُّكَّر واعْتِصاره، واسْتِخْدام الطَّبّاخين لطَبْخ القَنود.

وفيه يكون إدْراكُ النَّرْجِس والمُحَمَّضَات والفُول الأَخْضَر والكُرُنْب والجَزَر والكُرّاث الأَبْيَض واللِّفْت.

وفيه يَقِلُّ هُبوب رِيح الشَّمال، ويَكْثُر هُبوبُ رِيح الجَنوب.

وفيه يَجُود الجِدَا، ويكون أَطْيَبَ منها في جَميع الشهور التي يكون فيها.

وفيه يُزْرَع أَكْثَر حُبوب الحَرْث، ولا يُزْرَع بعده في شيء من أرض مصر غير السِّمْسم والمَقاثي والقُطْن.

طُوبَة [Tûbah] - في ثالثه ابْتِداءُ زِراعَة الحِمِّص والجُلُّبان والعَدَس.

وفي سادسه أوَّلُ كانون الثاني.

وفي تاسِعه يَطْلُع الفَجْرُ بالبَلْدَة [1]، وعاشِره صوم الغِطاس، وحادي عشره الغِطاس.

وفي ثاني عشره يَشْتَدُّ البَرْد، وفي رابع عشره يَرْتَفِع الوَباءُ بمصر، ويُغْرَس النَّخْلُ.

وفي سابع عشره تحلّ الشَّمْسُ أوّل بُرْج الدَّلْو، ويكْثُر النَّدَى، ويكون ابتداءُ غَرْس الأشْجار.

وفي العشرين منه يكونُ آخر اللَّيالي السُّود، وحادِي عشريه اللَّيالي البُلْق الثانية، وفي ثاني عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بسَعْد الذَّابح [2]، وفي ثالث عشريه تَهُبّ الرِّياح البارِدَة.

وفي رابع عشريه تُفْرِخُ جَوارِح الطَّيْر. وفي خامس عشريه يكونُ نِتاجُ الإبِل المَحْمُودَة. وفي سابع عشريه يَصْفُو ماءُ النِّيل.

وفي ثامن عشريه يتكامَل إدْراكُ القُرْط.

وفي هذا الشهر تُقَلَّم الكُروم، ويُنَظَّف زَرْعُ الغَلَّة من اللبسان وغيره، ويُنظَّف زَرْعُ الكَتّان من الفِجْل وغيره.

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٣.

[2] نفسه ٢: ٣٥٤.

وفيه تُبرَّش الأراضي أوَّل سَكَّة برَسْم الصَّيافي والمَقاثي والقُطْن والسِّمْسم، وينتهي بُرْشُها في أوَّل أمْشير.

وفيه تُسْقَى أرْض القُلْقاس والقَصَب، وتُشَقُّ الجُسُور في آخِره.

وفيه تُسْتَخْرَج أراضي الخَرْس، ويَكْثُر القَصَبُ الرأس بعد إفْراز ما يُحْتاج إليه من الزَّرِّيعَة، وهو لكلِّ فَدّان طِين قِيراطُ طيب قَصَب رأس.

وفيه يُهْتَمّ بعِمارَة السَّواقي، وحَفْر الآبار، وابْتِياع الأبْقار.

وفيه يَظْهَر اللَّوْز الأخْضَر والنَّبْق والهُلْيون.

وفيه أيضًا يكون هُبوبُ رِيح الجَنُوب أكْثَر من هُبُوب الشَّمال، وهُبُوب الصَّبا أكثر من هُبُوب الدَّبُور.

وفيه يكون الباقِلا الأخْضَر والجَزَر أطْيَبُ منهما في غيره.

وفيه يَتناهَى ماءُ النِّيل في صَفائِه، ويُخَزَّن فلا يَتَغَيَّر في أوانيه ولو طالَ لُبْثُه فيها.

وفيه تَطيبُ لحُومُ الضَّأْن أطْيَبُ منها في سائِر الشهور.

وفيه تُرْبَط الخُيولُ والبِغالُ على القُرْط من أجْل رَبيعِها.

وبطُوبَةَ يُطالَبُ النّاس بافْتِتاح الخَراج، ومُحاسَبَة المُتَقَبِّلين على الثُّمْن من السِّجِلّات عن جَميع ما بأيْديهم من المَحْلول والمَعْقود.

أَمْشِير [Amshîr] - في أوَّله تختلفُ الرِّياحُ، وفي خامسه يَطْلُعُ الفَجْر بسَعْد بُلَع [1]، وفي سادسه يكون أوَّل شَباط.

وفي تاسعه يَجْري الماءُ في العُود، وحادي عشره أوَّل جَمْرَة بارِدَة، وسادس عشره تَحُلُّ الشَّمْسُ بأوَّل بُرْج الحُوت.

وفي سابع عشره يَخْرُج النَّمْلُ من الأحْجِرة، وفي ثامن عشره يَطْلُع الفَجْرُ بسَعْد السُّعُود [2].

وفي العشرين منه ثاني جَمْرَة فاتِرَة، وفي ثالث عشريه تُقَلَّم الكُرُوم، وخامس عشريه يَفْرُخ النَّحْل.

وسابع عشريه ثالِث جَمْرَة حامِيَة، ويُوَرِّقُ الشَّجَرُ وهو آخِر غَرْسِها، وفي آخره يكون آخِرُ اللَّيالي البُلْق.

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٤.

[2] نفسه ٢: ٣٥٤.

وفي هذا الشهر يُقْلَع السَّلْجَم ويُسْتَخْرَج خَراجُه ، وفيه يُثَنَّى برش الصَّيافِي ، وتُبَرَّش أيضًا ثالِث سَكَّة .

وفيه يُعْمَل مَقاطِعُ الجُسُور ، وتُمْسَح الأراضي ، ويُرَقَّد البَيْضُ في المعامل أربعة أشهر آخِرها بَشَنْس .

وفيه يكون رِيحُ الشَّمال أَكْثَر الرِّياح هُبوبًا .

وفيه يَنْبَغي أن تُعْمَلَ أواني الخَزَف للمَاء لتُسْتَعْمَل فيه طُول السَّنة ، فإنَّ ما عُمِلَ فيه من أواني الخَزَفَ يُبَرِّد الماءَ في الصَّيْف أَكْثَر من تَبْريد ما يُعْمل في غَيْره من الشُّهور .

وفيه يتكامَل غَرْسُ الشَّجَر وتَقْليم الكُرُوم وفيه يُدْرِك النَّبْق واللَّوْز الأَخْضَر ويكثُر البَنَفْسِج والمَنْثُور .

ويُقال : أَمْشير يقولُ للزَّرْع سِير ، ويُلْحِق بالطَّويل القَصير .

وفيه يَقِلُّ البَرْد ، ويَهُب الهَوَاء الذي فيه سُخونَة ما .

وفي أَمْشير يُؤْخَذ الناسُ فيه بإتْمام رُبْع الخَرَاج من السِّجِلَّات .

بَرَمْهَات [Baramhat] - أوَّلُ يومٍ منه يَطْلَعُ الفَجْر بالأَخْبِيَة ، وفي خامسه يَحْضُن دُود القَزّ ، وسادسه يُزْرَع السِّمْسِم .

وثاني عشره يُقْلَع الكَتَّان ، ورابع عشره يكون أوَّلُ الأَعْجاز ، ويَطْلُع الفَجْرُ بالفَرْغ المُقَدَّم [1] .

وفي سادس عشره تَفْتَح الحَيَّات أَعْيُنَها ، وفي سابع عشره تُنْقَل الشَّمْسُ إلى بُرْج الحَمَل ، وهو أوَّل فَصْل الرَّبيع ، ورأْس سَنَة الجند ، ورأْس سَنَة العالَم .

وفي العشرين منه يكونُ آخِرُ الأعجاز ، وثاني عشريه نِتاجُ الخَيْل المَحْمُودَة ، وثالث عشريه يَظْهَر الذُّباب الأَزْرَق ، وخامس عشريه تَظْهَر هَوامُّ الأرْض ، وسابع عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بالفَرْغ المُؤَخَّر [2] ، وفي آخِره يتفرَّق السَّحاب .

وفي هذا الشهر تَجْري المَرَاكِب السَّفَرِيَّة في البَحْر المِلْح إلى ديار مصر من المَغْرب والرُّوم ، ويُهْتَمّ فيه بتَجْريد الأَجْناد إلى الثُّغور كالإسكَنْدَرية ودِمْياط وتِنِّيس ورَشِيد .

وفيه كانت تُجَهَّزُ الأَساطِيلُ ومَراكِبُ الشَّواني لحِفْظ الثُّغور .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٤.
[2] نفسه ٢ : ٣٥٤.

وفيه زَرْعُ المَقاثِي والصَّيْفي ، ويُدْرِك الفُولُ والعَدَس ، ويُقْلَع الكَتَّان ، وتُزْرَع أَقْصابُ السُّكَّر في الأرْض المَبْرَوَشَة المُختَارة لذلك ، البَعيدَة العَهْد/ عن الزِّراعَة ، ويَأْخُذ المُقَشِّرون في تَنْظيف الأرْض المَزْروعَة من القَشّ في وَقْت الزِّراعَة ، ويَأْخُذ القَطّاعون في قَطْع الزَّرِيعَة ، ويَأْخُذ المُزارِعون في رَمْي قِطَع القَصَب . ١

وفيه يُؤْخَذ في تَحْصيل النَّطْرون ، وحَمْلِه من وادي هَبيب إلى الشُّونَة السُّلْطانِيَّة .

وفيه يكون رِيحُ الشَّمال أكثر الرِّياح هُبوبًا .

وفيه تُزْهِر الأشْجار ، ويَنْعَقِد أكثر ثِمارِها .

وفيه يكونُ اللَّبَن الرَّائِب أَطْيَبَ منه في جَميع الشُّهور التي يُعْمَل فيها .

وفي بَرَمْهات يُطالَب الناس بالرُّبْع الثاني والثُّمْن من الخَراج .

بَرَمُودَة [Baramudah] - في سادسه أوَّل نِيسان ، وفي عاشره يَطْلُع الفَجْر بالرِّشاء [1] ، وفي ثاني عشره يُقْلَع الفِجْل ، وفي سابع عشره تَحُلُّ الشَّمْسُ أوّل بُرْج الثَّوْر .

وفي ثالث عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بالشَّرَطَيْن [2] ، وهو رأسُ الحَمَلِ وأوَّلُ مَنازِل القَمَر ، وفيه ابْتِداءُ كِسار الفُول وحَصاد القَمْح وهو خِتام الزَّرْع .

وفي هذا الشهر يُهْتَمّ بقَطْع خَشَب السَّنْط من الحَراج الذي كان بمصر في القَديم أيّام الدَّوْلَة الفاطِمِيَّة والأيُّوبِيَّة ، ويُجَرّ إلى السَّواحِل لتَيَسُّر حَمْله في زَمَن النِّيل إلى ساحِل مصر ، ليُعْمل شَواني وأحْطابًا برَسْم الوَقُود في المَطابِخ السُّلْطانِيَّة .

وفيه يَكْثُر الوَرْدُ ، ويُزْرَع الخيار شَنْبَر والمُلُوخِيا والباذِنْجان ، وفيه يُقْطَف أوائلُ عَسَل النَّحْل ، ويُنْفَض بَزْر الكَتَّان . وأَحْسَنُ ما يكون الوَرْدُ فيه من جَميع زَمانِه .

وفيه يَظْهَر البَطْنُ الأوّل من الجُمَّيز . وفيه تَقَع المِساحَة على أهْل الأعْمال ، ويُطالَب النّاس بإغْلاق نِصْف الخَرَاج من سِجِلّاتِهم ، ويُحْصَد بَدْري الزَّرْع .

بَشَنْس [Bashans] - في خامسه تَكْثُر الفاكِهَة . وسادِسه أوَّل أيار ، وفيه طُلوعُ الفَجْر بالبُطَيْن [3] .

وثامنه عيدُ الشَّهيد ، وتاسعه انْفِتاح البَحْر المالِح ، ورابع عشره يُزْرَع الأُرْز ، وثامن عشره تَحُلّ الشَّمْسُ أوّل بُرْج الجَوْزَاء ، وفيه يَطيبُ الحَصاد .

وفي تاسع عشره يَطْلُع الفَجْر بالثُّرَيّا [3] ، وفيه زِراعَة الأُرْز والسِّمْسِم .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٤ حيث أطلق عليه بطن الحوت .
[2] نفسه ٢ : ٣٥١ .
[3] نفسه ٢ : ٣٥١ .

ورابع عشريه يكون عيدُ البَلَسَان بالمَطَرِيَّة ، ويَزْعُمون أنَّه اليوم الذي دَخَلَت فيه مَرْيَم إلى مصر .

وفي هذا الشَّهْر يكون دِراسُ الغَلَّة ، وهِدارُ الكَتَّان ، ونَفْضُ البِزْر والتَّقَاوي والأَتْبان وحَمْلها .

وفيه زِراعَةُ البَلَسَان وتَقْليمُه وسَقْيُه ، وتكريمُ أراضيه من بَؤونة إلى آخر هاتُور ، واسْتِخْراج دُهْنُه بعد شَرْطه في نصف توت ، وإن كان في أوَّله فهو أَصْلَحُ إلى آخِر هاتور . وصَلاحُ أيَّامه أيَّام النَّدَى ، ويُقيم في النَّدَى سنةً كامِلَةً إلى أن يَشْرَب أعْكارَه وأوْساخَه . ويُطْبَخ الدُّهْن في الفَصْل الرَّبيعي في شهر بَرَمْهَات ، فيُعْمَل لكلِّ رَطْل مصري أربعة وأربعون رطلًا من مائة ، فيَحْصُل منه قَدْرُ عشرين دِرْهَمًا وما حولَها من الدُّهْن .

وفي هذا الشهر أكثرُ ما يَهُبّ من الرِّياح الشَّمال [a].

وفيه يُدْرِك التُّفَّاح القاسِمي ، ويَبْتدئ فيه التُّفَّاح المِسْكي والبِطِّيخ العَبْدَلي ، ويُقالُ إنَّه أوَّل ما عُرِفَ بمصر عندما قَدِمَ إليها عبدُ الله بن طاهِر بعد المائتين من سِني الهجرة ، فنُسِبَ إليه وقيل له العَبْدَلي [1].

وفيه أيضًا يَبْتدئ البِطِّيخ الخُوفي [b] والمشمش والخُوخ الزهريّ ، ويُجْنَى الوَرْدُ الأَبْيَض .

وفيه تُقَرَّر المِساحَة ، ويُطالب الناسُ بما يُضافُ إلى المِساحَة من أبْواب وُجوه المال ـ كالصَّرف والجَهْبَذَة وحَقّ المراعي والقُرْط والكَتَّان ـ على رُسُومِ كلِّ ناحية .

ويُسْتَخْرَج فيه إتْمام الرُّبع ممَّا تَقَرَّرت عليه العُقُود والمِساحَة ، ويُطْلَق الحَصَادُ لجميع الناس .

بَؤُونَة [Ba'ûnah] ـ في ثانيه يَطْلُع الفَجْرُ بالدَّبَران [2] ، وفي خامسه يَتَنَفَّسُ النِّيلُ ، وفي تاسعه أوانُ قَطْف النَّخل .

وفي حادي عشره تَهُبّ رِياحُ السَّموم ، وفي ثاني عشره عيدُ مِيكائيل فيُؤْخَذ قاعُ النِّيل ، وفي ثالث عشره يَشْتَدّ الحَرّ ، وفي خامس عشره يَطْلُع الفَجْرُ بالهَقْعَة [3].

وفي عشريه تَحُلُّ الشَّمْسُ أوَّل بُرْج السَّرَطان ، وهو أوَّلُ فَصْل الصَّيْف .

وفي سابع عشريه يُنادَى على النِّيل بما زادَه من الأصابع . وفي ثامن عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بالهَقْعَة [4].

---

a) بولاق : الشمالية . b) بولاق : الجربي .

---

[1] فيما تقدم ١١١.

[2] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٢.

[3] نفسه ٢ : ٣٥٢.

[4] نفسه ٢ : ٣٥٢.

وفي هذا الشهر تُسَفَّر المَراكِبُ لإحْضار الغِلال والتِّبْن والقُنُود والأَعْسال وغير ذلك، من الأعمال القُوصِيَّة ونَواحي الوَجْه البَحْرِيّ.

وفيه يُقْطَف عَسَلُ النَّحْل، وتُخْرَص الكُروم، ويُسْتَخْرَج زَكاتُها.

وفيه يُنَدَّى الكَتَّان، ويُقَلَّب أربعة أَوْجُه في بَئُونَة وأَبِيب.

وفيه زِراعة النِّيلَة بالصَّعيد الأَعْلَى، وتُحْصَد بعد مائة يوم، ثم تُتْرَك وتُحْصَد في كلّ مائة يوم حَصْدَة، ويَحْصُل في أوّل كِيَهْك وطُوبَة وأَمْشير وبَرَمْهَات، ويَطْلُع في بَرَمُودة، وتُحْصد في عشرة أيَّام من أبيب، وتُقيمُ في الأرْض الجَيِّدة ثلاث سنين، وتُسْقَى كلّ عشرة أيام دَفْعَتَيْن، وثاني سنة ثلاث دَفْعات، وثالِث سنة أرْبع دَفْعات.

وفي هذا الشهر يكونُ التِّين الفَيُّومي، والخُوخ الزُّهْرِيّ، والكُمَّثْرَى والقَراصْيَا والقِثَّاء والبَلَح والحُصْرُم، ويبتدئُ إدراكُ العُصْفُر.

وفيه يَدْخُل بعضُ العِنَب، ويطيبُ التُّوت الأَسْوَد، ويُقْطَف جُمْهور العَسَل فتكون رِياحُه قَليلَة، والتِّينُ يكون فيه أَطْيَبَ منه في سائِر الشُّهور، وفيه يَطْلُع النَّخْل، وفيه يُسْتَخْرَج تَمامُ نِصف الخَراج مما بَقِيَ بعد المِساحَة.

أَبِيبُ [Abib] - في سابعه أوَّل تَمُّوز، وفي عاشره آخر قَطْع الخَشَب، وفي حادي عشره يَطْلُع الفَجْرِ بالذِّراع [١]، وثاني عَشْره ابْتِداءُ تَغْطين الكَتَّان.

وفي خامس عشره يَقِلُّ ماءُ الآبار، وتُدْرِك الفَواكِهُ، ويَمُوتُ الدُّود. وفي حادي/ عشريه تَحُلّ الشَّمْسُ أوَّل بُرْج الأَسَد، وتَذْهَب البَراغِيث، ويَبْرُد باطِنُ الأَرض، وتَهيجُ أَوْجاعُ العَيْن.

وفي خامس عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بالنَّثْرَة [٢]، وفي سادِس عشريه تَطْلُع الشِّعْرَىٰ العبور اليمانية.

وفي هذا الشهر أكثرُ ما يَهُبّ من الرِّياح الشَّمال، ويكثُر فيه العِنَبُ ويَجُود.

وفيه يَطيبُ التِّينُ المَقْرون بمَجيء العِنَب، ويتغيَّر البِطِّيخ العَبْدَلي وتَقِلّ حَلاوَتُه، وتَكْثُر الكُمَّثْرَى السكَّرية، ويَطيبُ البَلَح.

وفيه يُقْطَف بَقايا عَسَل النَّحْل، وتَقْوَى زِيادَةُ ماءِ النِّيل فيُقال: «في أَبيب يَدِبُّ الماءُ دَبيب».

وفيه يُنْقَع الكَتَّان بالمبلَّات، ويُباع بَرْسيم البَذْر بِرَسْم زِراعَة القُرْط والكَتَّان.

وفيه تُدْرك ثَمَرة العِنَب، ويُحْصَد القُرْطُم وفيه تُسْتَتَم ثلاثة أرْباع الخَراج.

---

[١] القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٢.
[٢] نفسه ٢: ٣٥٢.

مِسْرَى [Misra] ـ في سابِعه يَطْلُع الفَجْرُ بالطَّرْف[1]، وفي ثامنه أوَّل آب، وفي حادي عشره يجمع القُطْن، وفي رابع عشره يَحْمَى الماء ولا يَبْرد، وفي سابع عشره اسْتِكْمال الثِّمار.

وفي عشريه يَطْلُع الفَجْرُ بالجَبْهَة[2]، وفي حادي عشريه تَحُلُّ الشَّمْسُ بُرْج السُّنْبُلَة.

وفي ثالث عشريه يَتَغَيَّر طَعْمُ الفاكِهَة لغَلَبَة ماء النِّيل على الأرض، وفي خامِس عشريه يكون آخِر السَّموم، وفي تاسع عشريه يَطْلُع سُهَيْل بمصر.

وفي هذا الشَّهر يكونُ وَفاءُ النِّيل ستة عشر ذِراعًا في غالِب السِّنين، حتَّى قيل إن لم يُوَفِّ النِّيل في مِسْرَى فانْتَظِره في السَّنَة الأُخْرى.

وفيه يَجْري ماءُ النِّيل في خَليج الإسْكَنْدَرية وتُسافِر فيه المَرَاكِب بالغِلال والبَهار والسُّكر وسائِر أصْناف المَتاجِر وفيه يَكْثُر البُسْر. وكانوا يَخْرصون النَّخْل، ويُخْرِجون زَكاةَ الثِّمار في هذا الشهر، عندما كانت الزَّكوات يَجْبيها السُّلْطانَ من الرَّعِيَّة.

وأَكْثَرُ ما يَهُبّ في هذا الشهر ريحُ الشَّمال.

وفيه يَعْصِر قِبْطُ مصر الخَمْر، ويُعْمل الخَلّ من العِنَب وفيه يُدْرك المَوْز، وأَطْيَبُ ما يكون المَوْزُ بمصر في هذا الشهر.

وفيه يُدْرَك اللَّيْمون التُّفَّاحي، وكان من جُمْلَة أَصْناف اللَّيْمون بأَرْض مصر لَيْمونٌ يقالُ له التُّفَّاحي، يُؤْكَل بغَيْر سُكَّر لقِلَّة حِمْضِه ولَذَّة طَعْمه. وفيه يكون ابْتِداءُ إدْراك الرُّمَّان.

وإذا انْقَضَت أيَّام مِسْرَى، ابتدأَت أيامُ النَّسِيء، ففي أوَّلِها ابتداءُ هَيْج النَّعام، وفي رابِعها يَطْلُع الفَجْر بالخَرَتان[3].

وفي مِسْرَى يُغْلِق الفَلَّاحون خَراجَ أراضي زِراعاتِهم، وكانوا يُؤَخِّرون البَقايَا على دَقّ الكَتَّان في مِسْرَى وأَبيب، لأنَّ الكَتَّانَ يَبَلّ في تُوت، ويُدَقّ في بابَه.

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٢.

[2] نفسه ٢: ٣٥٢.

[3] نفسه ٢: ٣٥٢.

ذِكْرُ تَحْويل السَّنَة الخَراجِيَّة القِبْطِيَّة إلى السَّنَة الهِلالِيَّة العَرَبِيَّة

وكَيْفَ عُمِلَ ذلك في المِلَّة الإسلامية[a][1]

قد تَقَدَّمَ ، فيما سَلَف من هذا الكِتَاب ، التَّعْريفُ بالسَّنَة الشَّمْسِيَّة والسَّنَة القَمَرِيَّة ، وما للأُمَم في كَبْس السِّنين من الآراء . فلمَّا جاءَ الله تعالى بالإسْلام ، تَحَرَّزَ المسلمون من كَبْس السِّنين خَشْية الوُقوع في النَّسيء[2] الذي قال الله سبحانه وتعالى فيه : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية ٣٧ سورة التوبة] .

ثم لمَّا رَأَوْا تَداخُل السِّنين القَمَرِيَّة في السِّنين الشَّمْسِيَّة ، أَسْقَطُوا عند رأس كلِّ اثْنَتين وثلاثين سَنَة قَمَرِيَّة سَنَةً ، وسَمَّوا ذلك الازْدِلاف[b]، لأنَّ كُلَّ[c] ثلاث وثلاثين سنة قَمَرِيَّة اثنتين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب . وسأَتْلُو عليك من نَبَأ ذلك ما لم أَرَه مَجْموعًا .

قال أبو الحَسَن[d] عُبَيْدُ الله بن أَحْمَد بن أبي طاهِر[3] في كتاب «أَخْبار أَمير المؤْمنين المُعْتَضِد بالله أبي العَبَّاس أحمد بن أبي أَحْمَد طَلْحَة المُوَفَّق ابن المُتَوَكِّل» ومنه نَقَلْت : وخَرَجَ أَمْرُ المُعْتَضِد في ذي الحِجَّة سنة إحدى وثمانين ومائتين ، بتَصْيير النَّوْروز لإحدى عشرة لَيْلَة خَلَت من حُزَيْران ، رَأْفَةً بالرَّعِيَّة وإيثارًا لإرْفاقِها .

وقالوا : خَرَجَ التَّوْقيعُ في المحرَّم سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، بإنْشاء الكُتُب إلى جميع العُمَّال في النَّواحي والأَمْصار ، بتَرْك افْتِتاح الخَرَاج في النَّوْروز الفارِسي الذي يَقَع يوم الجُمُعَة لإحدى عشرة ليلة خَلَت من صَفَر ، وأن يُجْعَلَ ما يُفْتَتَح من خَراج سنة اثنتين وثمانين ومائتين يوم الأَرْبعاء لثلاث عشرة ليلة تَخْلو من شهر ربيع الآخر من هذه السَّنَة ، وهو اليوم الحادي عَشَر من حُزَيْران -

---

a) بولاق : الإسلام . b) بولاق : الازدلاق . c) بولاق : لكل . d) في النسخ : أبو الحسين .

---

[1] يوجد بداية هذا الفصل في طيارة في الكراسة التي بخط المقريزي المحفوظة في مكتبة Liège.

[2] انظر عن النسيء فيما يلي ٧٦٦- ٧٦٩.

[3] أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر طَيْفور المتوفى سنة ٣١٣هـ ، روى عن أبيه كتابه المصنف في أخبار بغداد وذكر ملوكها ، كما ذكر له الصفدي تأليفه ذيلا على تاريخ أبيه في أخبار بغداد ، الذي يبدو أن العنوان الذي أورده المقريزي يمثل قسمًا منه (راجع ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٠: ٣٤٨؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٩: ٣٤٩؛ Rosenthal, F., *EI*[2] art. *Ibn abi Tâhir Tayfûr* III, p. 715).

ويُسَمَّى هذا النَّوْروز المُعْتَضِدي ـ تَرْفيهًا لأَهْل الخَراج ، ونظرًا لهم [١] .

ونُسْخَةُ التَّوْقيع الخارِج في تَصْيير افْتِتاح الخَراج في حُزَيْران :

«أمَّا بَعْدُ ، فإنَّ الله لمَّا حَوَّل أمير المؤمنين للمَحَلّ الذي أحَلَّه به من أُمور عِبادِه وبلاده ، رأَى أنَّ من حَقّ الله عليه ألَّا يُكَلِّفها إلَّا ما به العَدْل والإنْصاف لها والسِّيرَة القاصِدَة ، وأن يتولَّى لها صَلاحَ أُمورها ، ويَسْتَقْرِئ السِّيَر والمُعامَلات التي كانت تُعامَل بها ، ويُقِرّ منها ما أَوْجَب الحَقُّ إقرارَه ، ويُزِيلَ ما أَوْجَب إزالَتَه ، غيرَ مُسْتَكْثِر لها كثيرَ ما يُسْقِطُه العَدْل ، ولا مُسْتَقِلّ لها قليلَ ما يلزمه إياها الجَوْر .

وقد وَفَّق الله أَميرَ المُؤْمنين لما يَرْجو أن يكون لحَقّ الله فيها قاضِيًا ، ولنَصيبِها من العَدْل مُوازِيًا . وبالله يَسْتعين أميرُ المُؤْمنين على حِفْظ ما اسْتَرْعاه منها ، وحِياطَة ما قَلَّدَه من أُمُورها ، وهو خَيْرُ مُوَفِّق ومُعين .

وأنَّ أبا القاسم عبيد الله رَفَعَ إلى أمير المُؤْمنين ـ فيما أَمَرَ أميرُ المؤمنين به ، من رَدّ النَّوْروز الذي يُفْتَتَح به الخَراج بالعِراق والمَشْرِق وما يَتَّصل بهما ويَجْري مَجْراهما ، من الوَقْت/ الذي صارَ فيه من الزَّمان إلى الوَقْت الذي ٢٧٤:١ كان عليه مُتَقَدِّمًا ، مع ما أَمَرَ به في مُسْتَقْبَل السِّنين من الكَبْس ، حتى يصير العَدْلُ عامًّا في الزَّمان كلِّه ، باقِيًا على غابِر الدَّهْر ومرِّ الأيام ـ مُؤامَرَة أَمَرَ[a] أميرُ المُؤْمنين بنَسْخِها[b] لك في آخِر كِتابِه ، مع ما وَقَعَ به فيها لتَمْثيله ، فافْعَل ذلك إن شاءَ الله تعالى ، والسَّلامُ عليك ورَحْمَةُ الله وبَرَكاتُه .

وكُتِبَ يوم الخَميس لثلاث عشرة خَلَت من ذي الحِجَّة سنة إحدى وثمانين ومائتين» .

نُسْخَةُ المُؤامَرَة [٢] :

«أَنْهَيْت إلى أَمير المؤمنين أنَّ ممَّا أَنْعَمَ الله به على رَعِيَّتِه ، ورَزَقَها إيَّاه من

---

a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : بتسجيلها .

---

[١] قارن مع البيروني :الآثار الباقية ٣١.

[٢] المؤامرة . انظر فيما تقدم ٣٤٥ هـ [٢] .

رَأْفَتِه وحُسْن نَظَرِه ، وإقامَتِه عليها من عَدْلِه وإنْصافِه ، ورَفْعِه عنها في خِلافَتِه من الظُّلْم الشَّامِل ما كان الأَقْصَى والأَدْنَى ، والصَّغير والكبير ، والمُسْلم والذِّمِّي فيه سَوَاء ، ما حَرَّرْته من نَقْل كُتُب الخَراج عن السَّنَة التي كانت تُنْسَب إليها من سِنِي الهجرة ، إلى السَّنَة التي فيها تُدْرَك الغَلَّات ويُسْتَخْرَج المالُ .

وإنَّ ذلك ما كان بَعْضُ أَهْل الجَهْل حاوَلَه وبعض المُتَغَلِّبين اسْتَعْمَله ، من تَثْبيت الخَراج على أَهْله ، ومُطالَبَتهم به قَبْل وقت الزِّراعَة ، وإعْناتهم[a] بذِكْر سنة من السنتين اللَّتَيْن يُنْسَب الخَرَاجُ لإحْداهُما ، وتُدْرِكُ الغَلّات ويَقَع الاسْتِخْراج في الأُخرى منهما ، في حِساب شُهور الفُرْس التي عليها يَجْري العَمَلُ في الخَرَاج بالسَّواد وما يليه ، والأَهْواز وفارِس والجَبَل وما يَتَّصل به من جَميع نواحي المَشْرِق وما يُضاف إليه .

إذ كان عَمَلُ الشَّام والجزيرَة والمَوْصِل جَرَى على حِساب شُهور الرُّوم المُوافِقة للأَزْمِنَة ، فليست تَخْتَلِف أَوْقاتُها مع الكَبيسَة المستعملة فيها .

والعَمَلُ في خَراج مصر وما والاها على شُهُور القِبْط المُوافِقَة لشُهور الرُّوم ، وكانت من شُهور الفُرْس قد خالَفَت مَواقِعها من الزَّمان بما تُرِكَ من الكَبْس ، مُنْذ أزالَ الله مُلْكَ فارِس ، وفَتَحَ للمسلمين بلادَهم ، فصارَ النَّوروز ـ الذي كان الخَرَاجُ يُفْتَتَح فيه بالعِراق والمَشْرِق ـ قد تَقَدَّم في تَرْك الكَبْس شهرين ، وصارا بينه وبين إدراك الغَلَّة .

فأَمَر أميرُ المُؤْمنين ـ بما جَبَلَ الله عليه رَأْيَه في التَّوَصُّل إلى كلِّ ما عادَ بصَلاح رَعِيَّته ، وحَسْمًا للأَسْباب المؤدِّية إلى إعْناتها[b] ـ بتأْخِير النَّوْروز الذي يَقَع في شُهور سنة اثنتين وثمانين ومائتين من سني الهجرة ، عن الوَقْت الذي يَتَّفِق فيه أيَّام سَنَة الفُرْس ـ وهو يوم الجُمْعَة لإحْدى عشرة تَخْلو من صَفَر ـ مثل عِدَّة أيام الشهرين من شُهور الفُرْس التي تُرِكَ كَبْسُها وهي ستون يومًا ، حتى يكون نَوْرُوز السنة واقِعًا يوم الأَربعاء لثلاث عشرة لَيْلَة تَخْلو من شهر

---

a) بولاق : وإعيائهم . b) بولاق : إعيائهم .

ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، وهو الحادي عشر من حُزَيْران ؛ وهو يَتَّصل بهما ويَجْري مَجْرَاهما ، ويُنسب ويُضافُ إليهما ، وسائِر أعمالهم ، وما يَعْمله أصْحابُ الحِساب من التَّقْويمات وجميع الأعْمال ، وما يعدّه الفُرْسُ من شُهورهم إلى شهوره الكَبيسَة الأَوّل والآخر ، ثم يُكْبَسُ بعد ذلك في كلِّ أربع سنين من سِنِي الفُرْس ، ولا يَقَع تفاوُت بينه وبينها على مُرور الأيَّام .

وليَكُن أبدًا واقِعًا في حُزَيْران ، وغير خارِج عنه ، وأن يُلْغَى ذِكْر كلّ سنة من أربع سنين تُنْسَب إلى الخَراج بالعراق ، وفي المَشْرق والمَغْرب وسائِر النَّواحي والآفاق ، إذْ كان مقْدارُ سِني أيَّام الهجرة والسَّنَة الجامِعَة للأَزْمِنَة التي تتكامَل فيها الغَلَّات .

وأن يَخْرُج التَّوْقيع بذلك ، لتَنْشَأ الكُتُب به من دِيوان الرَّسائِل إلى وُلاة المَعاوِن والأَحْكام ، وتُقْرأ على المنابِر ، ويَحْمل أصْحابُ المَعاوِن الرَّعِيَّة عليه ، وتَأْخُذُها بامْتِثال ما أَمَرَ به أميرُ المُؤْمنين وسَنَّه الحُكَّامُ في ديوان حُكْمِهم ، ليَمْتَثل الضُّمَناء والمُقاطِعون[a] ذلك على حَسَبه ، واسْتَطْلع رأْي أمير المؤمنين في ذلك ، فرأَى أميرُ المؤمنين في ذلك مُوَفَّقًا[b] إن شاءَ الله تعالى ، وكانت نُسْخَة التَّوْقيع : يُنْفَذ ذلك إلى شاءَ الله تعالى .

وكُتِبَ في شهر ذي الحِجَّة لسنة إحدى وثمانين ومائتين» .

قال[1] : وكان السَّبَبُ في نَقْل الخَراج إلى حُزَيْران في أيَّام المُعْتَضِد ، ما حَدَّثني به أبو أحمد يحيى بن عليّ بن يَحْيى المُنَجِّم النَّديم[c] [2] ، قال : كُنْتُ أُحدِّث أميرَ المؤْمنين المُعْتَضِد ، فذَكَرْت خَبَرَ المُتَوكِّل في تأْخير النَّوْروز ؛ فاسْتَحْسَنَه ، وقال لي : كيف كان ذلك ؟ قلت : حَدَّثني أبي ،

a) الأصل وبولاق : لتمثيل الضمناء والمقاطعين . b) بولاق : موفق . c) بولاق : القديم .

[1] مازال الحديث لابن أبي طاهر طيفور .

[2] أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى بن المنجم النَّديم ، نادَم جماعةً آخرهم الخليفة المكتفي وتوفى سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م (ابن النديم : الفهرست ١٦٠- ١٦١؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٤ : ٢٣٠؛ ياقوت : معجم الأدباء ٢٠ :٢٨- ٢٩؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦ :١٩٨- ٢٠١) .

قال : دَخَلَ المُتَوَكِّلُ ، قبل تَأْخير النَّوْروز بعض بَساتينه الخاصَّة التي كانت في يَدَيَّ - وهو مُتَوَكِّئٌ عليّ يُحادِثُني ، ويَنْظُر إلى ما أُحْدِث في ذلك البُسْتان - فمَرّ بزَرْع فرآه أَخْضَر ، فقال : يا عليّ ، إنَّ الزَّرْعَ أخْضَر بعد ما أَدْرَك ! وقد اسْتَأْمَرَني عبيدُ الله بن يَحيى[1] في اسْتِفْتاح الخَراج ، فكيف كانت الفُرْسُ تَسْتَفْتِحَ الخَراج في النَّوْروز ، والزَّرْعُ لم يُدْرِك بعد ؟ قال : فقُلْت له : ليس يَجْري الأَمْرُ اليوم على ما كان يَجْري عليه في أيَّام الفُرْس ، ولا النَّوْروز في هذه الأيَّام في وَقْته الذي كان في أيَّامِها ؛ قال : وكَيْفَ ذاك ؟ فقُلْت : لأنَّها كانت تَكْبِس في كلّ مائة وعشرين سنة شهرًا ، وكان النَّوْروزُ إذا تَقَدَّم شهرًا ، وصارَ في خمس من حُزَيْران ، كَبَسَت ذلك الشهر ، فصارَ في خَمْسٍ من أيار ، وأَسْقَطَت شهرًا ورَدَّتْه إلى خمْس من حُزَيْران ، فكان لا يتجاوَز هذا .

فلمَّا تَقَلَّدَ العِراقَ خالِدُ بن عبد الله القَسْريّ ، وحضَرَ الوَقْتُ الذي تَكْبِس فيه الفُرْس ، مَنَعَها من ذلك وقال : هذا من النَّسيءِ الذي نَهَى الله عنه فقال : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِى الكُفْرِ﴾ ، وأنا لا أُطْلِقه حتى أَسْتَأْمِر فيه أَمير المُؤْمنين ؛ فبَذَلُوا على ذلك مالًا جَليلًا ، فامْتَنَعَ عليهم / من قَبوله ، وكَتَب إلى هِشام ابن عبد الملك يُعَرِّفه ذلك ويَسْتَأْمِره ، ويُعْلِمْه أنَّه من النَّسيء الذي نَهَى الله عنه ، فأَمَر بمَنْعِهم من ذلك .

فلمَّا امْتَنَعوا من الكَبْس ، تَقَدَّم النَّوْرُوز تقُدمًا شديدًا حتى صارَ يَقَع في نِيسانَ والزَّرْع أَخْضَر ، فقال له المُتَوَكِّلُ : فاعْمَل لهذا يا عليّ عَمَلًا تَرُدّ النَّوروز فيه إلى وَقْته الذي كان يَقَعُ فيه في أيَّام الفُرْس ، وعَرِّف بذلك عبيد الله بن يحيى ، وأَدِّ إليه رِسالَةً منّي في أن يَجْعَل اسْتِفْتاح الخَراج فيه ؛ قال : فصِرْت إلى أبي الحَسَن عبيد الله بن يحيى ، وعَرَّفته ما جَرَى بيني وبين المُتَوَكِّل ، وأَدَّيْت إليه رِسالَته ؛ فقال لي : يا أَبا الحَسَن ، قد والله فَرَّجْتَ عَنّي وعن الناس ، وعَمِلْت عَمَلًا كثيرًا يَعْظُم ثَوابُك عليه ، وكَسَبْتَ لأمير المؤمنين أَجْرًا وشكرًا ، فأَحْسَن الله جَزاءَك ، فمِثْلُك مَنْ يُجالِس الخُلَفاء .

وأَحَبُّ أن يَتَقَدَّم بالعَمَل الذي أَمَرَ به المُتَوَكِّل ، ويُنْفِذه إليّ حتى أُجْري الأَمْرَ عليه ، وأَتَقَدَّم في كَتْب الكُتُب باسْتِفْتاح الخَراج .

قال : فرَجَعْت وحَرَّرْت الحِسابَ ، فوَجَدتُ النَّوْروز لم يكن يتقدَّم في أيَّام الفُرْس أَكْثَر من شَهْر يتقدَّم من خَمْسٍ تَخْلو من حُزَيْران فيَصير في خمسة أيام تَخْلو من أيار ، فتَكْبِس سَنَتَها وتَرُدّه إلى خمسة أيَّام من حُزَيْران .

---

[1] عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل العباسي المتوفى سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م (الجهشياري: الوزراء والكتاب ٢٥٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩:٤١٦-٤١٩).

وأَنْفَذْته إلى عبيد الله بن يحيى ، فأَمَرَ أن يُسْتَفْتَح الخَرَاج في خَمْسٍ من حُزَيْران ، وتقدَّم إلى إبراهيم بن العَبّاس في أن يُنْشِئ كتابًا عن أَمير المؤمنين في ذلك يُنْفِذ نُسْخَته إلى النَّواحي ، فعَمِل إبْراهيم بن العَبّاس [الصُّولي]a)[1] كِتابَه المشهور في أيدي النّاس . قال أبو أحمد : فقال لي المُعْتَضِد : يا يحيى ، هذا والله فِعْلٌ حَسَن ، ويَنْبَغي أن يُعْمَل به . فقلت : ما أَحَد أَوْلى بفِعْل الحَسَن وإحياء السُّنَن الشَّريفَة من سَيِّدنا ومَوْلانا أَمير المؤمنين ، لما جَمَعَه الله فيه من المَحاسِن ووَهَبَه له من الفَضائِل . فدَعَا بعُبَيْد الله بن سُلَيْمان [2] ، وقال له : اسْمَع من يحيى ما يُخْبِرُك به ، وأَمْض الأَمْرَ في اسْتِفْتاح الخَرَاج عليه . قال : فصِرْتُ مع عُبَيْد الله بن سُلَيْمان إلى الدِّيوان ، وعَرَّفْته الخَبَر ، فأَحَبَّ تَأْخيره عن ذلك لئلّا يَجْري الأَمْرُ المَجْرَي الأَوَّل بعينه ، فجَعَلَه في أحد عشر من حُزَيْران ، واسْتَأْمَرَ المُعْتَضِد في ذلك فأَمْضَاه [3] .

فقُلْت في ذلك شِعْرًا أَنْشَدْته للمُعْتَضِد في هذا المعنَى [4] :

[الرمـــل]

يَـوْمُ نَـوْروزِك يَـوْمٌ   واحِـدٌ لا يَـتَـأَخَّـر
مـن حُـزَيْـران يُـوافي   أَبَدًا في أَحَدَ عَشَرَ

قال : وأَخْبَرَني بعضُ مَشايخ الكُتّاب ، قال : كانت الخُلَفاء تُؤَخِّر النَّوْرُوز عن وَقْته عشرين يومًا وأَقَلّ وأَكْثَر ، ليكون ذلك سببًا لتَأْخير افْتِتاح الخَرَاج على أَهْلِه .

فأمّاb) المِهْرَجانُ فلم تَكُن تُؤَخِّره عن وَقْتِه يومًا واحِدًا ، فكان أَوَّلُ من قَدَّمَه عن وَقْتِه بيوم ، المُعْتَمِد بمَدينَة السَّلام في سنة خمس وستين ومائتين ، وأَمَرَ المُعْتَضِدُ بتَأْخير النَّوْروز عن وَقْته ستين يومًا .

---

a) زيادة من البيروني . b) بولاق : وأما .

---

[1] أبو إسحاق إبراهيم بن العبّاس بن محمد الصُّولي ، أحد الشعراء المشهورين والكتاب المذكورين المتوفى سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م (أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ١٠ :٤٣- ٦٨؛ ياقوت : معجم الأدباء ١ :١٦٤- ١٩٨؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٦ :٢٤-٢٨) .

[2] أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب وزير المعتضد بالله العباسي المتوفى سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م (الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩ :٣٧٣-٣٧٦) .

[3] قارن أبا هلال العسكري : الأوائل ٢٧٠- ٢٧٣؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ :٥٥- ٥٧ .

[4] انظر البيتين عند البيروني : الآثار الباقية ٣٣ .

وقال أبو الرَّيْحان محمد بن أحمد البِيْرُوني في كِتاب «الآثار الباقِيَة عن القُرُون الخَالِيَة» ومنه نَقَلْتُ ـ [يعني][a] ما ذَكَرَ ابن أبي طاهِر ـ وزادَ: ونَفَذَت الكُتُبُ إلى الآفاق ـ يعني عن المُتَوَكِّل ـ في مُحَرَّم سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وقُتِلَ المُتَوَكِّلُ ولم يَتِمّ له ما دَبَّرَ.

واستمرَّ الأَمْرُ حتى قامَ المُعْتَضِدُ فاحْتَذَى ما فَعَلَه المُتَوَكِّل في تأْخير النَّوْروز، غير أنَّه نَظَرَ فإذا المُتَوَكِّل أَخَذَ ما بين سنته وبين أَوَّل تاريخ مُلْك[b] يَزْدَجِرد، فأَخَذَ المُعْتَضِدُ ما بين سنته وبين السَّنة التي زالَ فيها مُلْكُ الفُرْس بهَلاك يَزْدَجرد، ظَنًّا أنَّ إهْمالَهم أَمْرَ الكَبْس من ذلك الوَقْت، فوَجَدَه مائتي سنة وثلاثًا وأربعين سنة، حِصَّتُها من الأَرْباع ستون يومًا وكَسْر، فزادَ ذلك على النَّوْروز في سَنَته، وجَعَلَه مُنْتَهَى تلك الأيام ـ وهو [أوَّل يوم][a] من خُرْداذماه في تلك السنة ـ وكان يومَ الأربعاء، ويُوافِقه اليوم الحادي عشر من حُزيْران، ثم وَضَعَ النَّوْروزَ على شهور الرُّوم لتَنْكَبِسَ شُهورُه إذا كَبَسَت الرُّومُ شُهورَها[1].

وقال القاضي السَّعيد ثِقَة الثِّقات ذو الرِّياسَتَيْنِ أبو الحَسَن عليُّ بن القاضي المُؤْتَمَن ثِقَة الدولة أبي عَمْرو عُثْمان بن يوسُف المَخْزُوميّ في كتاب «المِنْهاج في عِلْم الخَراج»: والسَّنَة الخَراجِيَّة مُرَكَّبَة على حُكْم السَّنَة الشَّمْسِيَّة، لأَنَّ السَّنَة الشَّمْسِيَّة[2] ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْع يوم، ورَتَّبَ المصريون سَنَتَهم على ذلك، ليكونَ أَداءُ الخَراج عند إدْراك الغَلَّات من كلِّ سنة. ووافَقَها السَّنَةُ القِبْطِيَّة لأنَّ أيامَ شُهورها ثلاث مائة وستون يومًا، ويَتْبَعها خمسة أيام النَّسيء ورُبْع يوم بعد تَقَضِّي مِسْرَى، وفي كلِّ أربع سنين تكون أيامُ النَّسيء ستة أيام ليَنْجَبِر الكَسْر، ويُسَمُّون تلك السَّنة كَبيسَة، وفي كلِّ ثلاث وثلاثين سنة تَسْقُط سنة، فيُحْتاجُ إلى نَقْلها لأَجل الفَضْل بين السِّنين الشَّمْسِيَّة والسِّنين الهِلالِيَّة، لأنَّ السَّنَة الشَّمْسِيَّة ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْع يوم، والسَّنَة الهِلالِيَّة ثلاث مائة وأربعة وخمسون يومًا وكَسْر.

---

a) زيادة من البيروني. b) ساقطة من بولاق.

---

[1] البيروني: الآثار الباقية ٣٢-٣٣، وواضح أن النسخة التي نقل عنها المقريزي تختلف عن النسخة التي وصلت إلينا، واعتمد البيروني في روايته على ما ذكره أبو بكر الصولي في كتاب «الأوراق» ووَصَفَه حمزة بن الحسن الأصبهاني في رسالته في الأشعار السائرة في النَّيْروز والمهرجان (الآثار الباقية ٣١).

[2] نجد بداية هذه الفقرة في نسخة المنهاج التي وصلت إلينا ثم يوجد بعد ذلك خرم في النسخة يمتد من ورقة ٥٠و-١٠١ظ (المخزومي: المنهاج ٨).

ولمَّا كان كذلك احتيج إلى استِعْمال النَّقْل الذي تُطابِقُ به إحْدى السَّنَتَيْن الأُخْرى.

وقد قال أبو الحَسن عليُّ بن الحَسَن الكاتِب [١]، رحمه الله: عَهِدتُ جِبايَة أَمْوال الخَراج في ٢٧٦:١ سنين، قبل سنة إحْدى وأَرْبعين ومائتين من خِلافَة أمير المُؤْمنين/ المُتَوَكِّل على الله ـ رحمة الله عليه ـ تَجْري كلُّ سَنَة في السَّنَة التي بَعْدَها، بسَبَب تأْخير الشُّهُور الشَّمْسِيَّة عن الشُّهور القَمَرِيَّة في كلِّ سنة أَحَدَ عشر يومًا ورُبْع يوم وزيادة الكَسْر عليه؛ فلمَّا دَخَلَت سنةُ اثنتين وأربعين ومائتين، كان قد انْقَضَى من السِّنين التي قَبْلَها ثلاث وثلاثون سنة، أوّلُهن سنة ثمانٍ ومائتين من خِلافَة أمير المؤمنين المأْمون ـ رحمة الله عليه ـ واجْتَمَعَ من هذا المتأخِّر فيها أيَّام سَنَة شَمْسِيَّة كامِلَة، وهي ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْع يوم وزيادة الكَسْر، وبها إدْراك غَلَّات وثِمار سنة إحدى وأربعين ومائتين في صَفَر سنة اثنتين وأربعين ومائتين [٢].

وأَمَرَ أَميرُ المُؤْمنين المُتَوَكِّل على الله ـ رحمة الله عليه ـ بإلْغاء ذِكْر سنة إحدى وأُربعين ومائتين، إذْ كانت قد انْقَضَت، ويُنْسَب الخَراجُ إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين. فجَرَت الأعْمالُ على ذلك سنةً بعد سنة. إلى أن انْقَضَت ثلاثٌ وثلاثون سنة، آخِرُهنّ انْقِضاءً سنة أرْبع وسبعين ومائتين، فلم يَتَنَبَّهْ كُتَّابُ أمير المُؤْمنين المُعْتَمِد على الله ـ رحمة الله عليه ـ على ذلك، إذ كان رؤساؤُهم في ذلك الوَقْت إسماعيلَ بن بُلْبُل [٣] وبني الفُرَات، ولم يكونوا عَمِلُوا في ديوان الخَراج والضِّياع في خِلافَة أَمير المؤمنين المُتَوَكِّل على الله ـ رحمة الله عليه ـ ولا كانت أسْنانُهم أسنانًا بَلَغَت معرفتهم معها هذا النَّقْل، بل كان مَوْلِدُ أحْمد بن محمد بن الفُرَات قبل هذه السَّنَة بخَمْس سنين، ومَوْلِدُ عليّ أخيه فيها، وكان إسماعيلُ بن بُلْبُل يَتَعَلَّم في مَجْلِس لم يَبْلُغْ أن يَنْسَخ؛ فلمَّا تَقَلَّدتُ للنَّاصِر

---

[١] أبو الحسن علي بن الحسن الكاتب، قال ابن النديم يلقّب بابن الماشطة ظلمًا، كان في أيام المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) وله صناعةٌ في الخراج وتقدُّم في الحساب، أحد العالمين بأمور الكتابة والخراج، تقلَّد في أيام حامد بن العباس بن الفضل ـ وزير المقتدر ـ ديوان بيت المال. ومن تصانيفه كتاب «جواب المُعْنت»، وكتاب «الخراج»، وكتاب «تعليم نقض المؤامرات» ـ وهو الكتاب الذي ينقل عنه المقريزي وكذلك معاصره القلقشندي ـ والمؤامرات مفردها مؤامرة، وهي أعمالٌ تجمع فيها الأوامر الخارجة ويوقع السلطان في آخرها بإجازة ذلك، وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استئمار واستدعاء وتوقيع (الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٣٨ وفيما تقدم ٣٤٥هـ[٢]) وانظر ترجمة علي بن الحسن عند ابن النديم: الفهرست ١٥٠؛ ياقوت: معجم الأدباء ١٣: ١٥-١٨.

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى ١٣: ٥٧.

[٣] أبو الصقر إسماعيل بن بُلْبُل الكاتب الشيباني، ولي الوزارة للمعتمد على الله سنة ٢٦٥هـ وعزل وأعيد إليها سنة ٢٧٢هـ، وتوفي سنة ٢٧٨هـ (الصفدي: الوافي بالوفيات ٩: ٩٥-٩٨).

للّدين أبي أحمد طَلْحَة المُوَفَّق ـ رحمه الله ـ أعمالَ الضِّياع بقَزْوين ونَواحيها لسنة ستٍّ وسبعين ومائتين ـ وكان مُقيمًا بأذْرَبيجان ، وخَليفَتُه بالجَبَل [a]أحمد بن محمد[a] جَرادَة بن محمد وحَمَد[b] ابن محمد كاتِبه ـ واحْتَجْتُ إلى رَفْع جَماعَتي إليه ، تَرْجَمْتها بجماعَة سَنَة ست وسبعين ومائتين التي أُدْرِكَت غَلّاتُها وثِمارُها في سنة سبع وسبعين ومائتين ، ووَجَبَ إلْغاءُ ذِكْر سنة ست وسبعين ومائتين ؛ فلمّا وَقَفَا على هذه الترجمة أنْكَراها ، وسألاني عن السَّبَب فيها ، فشَرَحْتُ لهما ، وأكَّدتُ ذلك بأن عرَّفْتهما أنّي قد اسْتَخْرَجْتُ حِسابَ السِّنينَ الشَّمْسِيَّة والسِّنينَ القَمَرِيَّة من القُرْآن الكريم بعدما عَرَضْته على أصْحابِ التَّفْسير ، فذَكَرُوا أنّه لم يأْت فيه شيءٌ من الأثَر ، فكان ذلك أوْكَد في لُطْف اسْتِخْراجي ؛ وهو أنَّ الله تعالى قال في سورَة الكَهْف : ﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الآية ٢٥ سورة الكهف] فلم أجِد أحَدًا من المُفَسِّرين عَرَفَ معنى قَوْله : ﴿وازْدادُوا تِسْعًا﴾ ، وإنَّما خاطَبَ الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ نَبِيَّه ﷺ بكلامِ العَرَب وما تَعْرِفه من الحِساب ؛ فمعنى هذه التِّسع أنَّ الثلاث مائة كانت شَمْسِيَّة بحِساب العَجَم ومن كان لا يَعْرِف السِّنين القَمَرِيَّة ، فإذا أُضيفَ إلى الثلاث مائة القمرية زِيادَة التِّسع ، كانت سِنينَ شَمْسية صَحيحَة فاسْتَحْسَنَاه ؛ فلمّا انْصَرَف جَرادَةُ مع النّاصرِ لدين الله إلى مَدينَة السَّلام ، وتُوفِّي النّاصِرُ ـ رحمه الله ـ وتقلَّد أبو القاسِمُ عبيدُ الله بن سُلَيْمان كِتابَة أمير المؤمنين المُعْتَضِد بالله ، أجْرَى له جَرادَة ذِكْر هذا النَّقْل ، وشَرَحَ له سَبَبه تقرُّبًا إليه ، وطَعَنَا على أبي القاسِم عُبَيْد الله في تأخيره إيَّاه .

فلمّا وَقَفَ المُعْتَضِدُ على ذلك ، تَقَدَّم إلى أبي القاسِم بإنْشاء الكُتُب بنَقْل سَنَة ثمانٍ وسبعين إلى سنة تسعٍ وسبعين ومائتين ، وكان هذا النَّقْلُ بعد أرْبع سنين من وُجوبه ؛ ثم مَضَت السُّنون سنةً بعد سنَة ، إلى أن انْقَضَت الآن ثلاثٌ وثلاثون سنة : أوْلاهن السَّنة التي كان النَّقْلُ وَجب فيها وهي سَنَةُ خمس وسبعين ومائتين ، وآخِرَتهن انْقِضاءُ سنة سبع وثلاث مائة ، وقد تَهَيَّأ إدْراكُ الغَلّات والثِّمار في صَدْر سنة ثمانٍ وثلاث مائة ونِسْبته إليها وقد عَمِلْت نُسْخَة هذا النَّقْل ، نَسَخْتُها تحت هذا الموضع ليُوقَف عليها [1].

---

a-a) ساقطة من بولاق . b) بولاق : أحمد .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ١٣:٥٨- ٥٩، و٢: ٣٩٨.

وقد كان أصحابُ الدَّواوين في أيَّام المتَوَكِّل ، لمَّا نَقَل سنة إحدى وأربعين ومائتين إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، جَبَوا الجَوالي والصَّدَقات لسنتَيْ إحدى واثنتين وأربعين ومائتين في وَقْتٍ واحِدٍ ، لأنَّ الجَوالي بسُرَّ مَنْ رَأَى ومَدينَةِ السَّلام وقَصَب المُدُن[a] المشهورة كانت تُجبى على شُهور الأَهِلَّة ، وما كان من جَماجِم أهْل القُرَى في الخَراج والضِّياع والصَّدقات والمُسْتَغَلات ، كان يُجْبَى على شُهور الشَّمْس .

وفي الثلاث[b] وثلاثين سنة اجْتَمَعَت أيَّام سنةٍ شَمْسِيَّة كامِلَة ، فأُلْزِم أهل الذِّمَّة خاصَّةً بالجَوالي ، ورَفَعَها العُمَّالُ في حُسْباناتِهم ، فمن لم يَرْفَعْها أُلْزِموه بجَوالي السَّنَة الزَّائِدَة ، فأُحْفِظَ أنَّه اجْتَمَعَ من ذلك أُلوفُ أُلوفٍ[c] دَراهِمَ ، ثم جُدِّدَت الكُتُبُ إلى العُمَّال بأن تكون حُسباناتهم الجَوالي على شُهور الأَهِلَّة ، فجَرَى الأَمْرُ على ذلك [1].

قال القاضي أبو الحَسَن [2] : وقدكان النَّقْلُ أُغْفِلَ في الدِّيار المصرية ، حتَّى كانت سَنَةُ تسع وتسعين وأربع مائة الهِلالِيَّة تَجْري مع سنة سَبْع وتسعين الخَراجِيَّة ، فنُقِلَت سنة سَبْع وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخمس مائة ، هكذا رَأَيْتُ في تَعْليقات أبي رحمه الله [قال][d] : وآخِر ما نُقِلَت السَّنَةُ في وَقْتِنا هذا سنة خمسٍ وستين وخمس مائة إلى سنة سبعٍ وستين وخمس مائة الهِلالِيَّة ، فتطابَقَت السَّنَتان . وذلك أنَّني لمَّا قُلْتُ للقاضي الفاضِل أبي عليّ/ عبد الرَّحيم بن عليّ ٢٧٧:١ البَيْساني أنَّه قد آنَ نَقْلُ السَّنة ، فأنْشأ سِجِلًّا بنَقْلِها نُسِخَ في[e] الدَّواوين ، وحُمِلَ الأَمْرُ على حُكْمه . وما بَرِحَ المُلوكُ والوُزَراءُ يَعْتَنون بنَقْل السِّنين في أحْيانِها [3].

وقال أبو الحُسَيْن هِلال بن المُحَسِّن الصَّابئ [4] : حَدَّثَني أبو عليّ قال : لمَّا أرادَ الوَزيرُ أبو محمَّد المُهَلَّبي نَقْلَ سَنَة خمس وثلاث مائة الهِلالِيَّة ، أَمَرَ أبا إسْحاق والدي وغَيْرَه من كُتَّابه في الخَراج

a) عند القلقشندي : ومضافاتهما . b) بولاق : ثلاث . c) ساقطة من بولاق . d) زيادة من القلقشندي . e) ساقطة من بولاق .

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ٥٧–٥٨ نقلًا عن كتاب «المنهاج في صنعة الخراج» للمخزومي ا

[2] أي أبو الحسن عليّ بن عثمان المخزومي صاحب كتاب «المنهاج» .

[3] القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ٦٠ ، وهو جزء ساقط في النسخة الوحيدة من كتاب «المنهاج» للمخزومي . انظر المنهاج ٨–٩ .

[4] أبو الحسين هلال بن المحَسِّن بن إبراهيم بن هلال الكاتب الصابئ ، كان أبوه وجده صابئين ، وأسلم هو وهو في سن الأربعين كان من كبار العلماء والأدباء وتوفي سنة =

والرَّسائِل ، بإنْشاء كِتابٍ عن المُطيع لله في هذا المَعْنى ؛ فكَتَب كلٌّ منهم ، وكَتَب والدي الكِتابَ المَوْجود في رَسائِلِه ، وعُرِضَت النُّسَخُ على الوَزير فاخْتارَه منها ، وتقدَّم بأن يُكْتَب إلى أصْحاب الأطْراف ، وقال لأبي الفَرَج بن أبي هِشام خَليفَته : اكْتُب إلى العُمَّال بذلك كُتُبًا مُحَقَّقَة ، وانْسَخ في أواخِرها هذا الكِتاب السُّلْطاني ؛ فغاظَ أبا الفَرَج وُقوعُ التَّفْضيل والاخْتيار لكِتاب والدي ـ وقدكان عَمِلَ نُسْخَةً اطُّرِحَت في جملة ما اطُّرِح ـ وكَتَب : «قد رأينا نَقْلَ سنة خمسينَ إلى إحدى وخمسين ، فاعْمل على ذلك» . ولم يَنْسَخ الكتاب السُّلْطاني ؛ وعَرَفَ الوزيرُ ما كَتَب به أبو الفَرَج فقال له : لماذا أَغْفَلْت نَسْخَ الكِتاب السُّلْطاني في آخِر الكُتُب إلى العُمَّال وإثْباتَه في الدِّيوان ؟ فأجابَ جَوابًا عَلَّل فيه ؛ فقال له : يا أبا الفَرَج ما تَرَكْت ذلك إلَّا حَسَدًا لأبي إسْحاق ، وهو والله في هذا الفَنّ أَكْتَبُ أهْل زَمانِه [١] ، فأَعِد الآن الكُتُب ، وانْسَخ الكِتاب في أواخِرها .

قال القاضي أبو الحَسَن [٢] : وأنا أَذْكُر بمَشيئَة الله نُسْخَة الكِتاب الذي أشارَ إليه أبو الحَسَن عليُّ ابن الحَسَن الكاتِب ، وكِتاب أبي إسْحاق وكِتاب القاضي الفاضِل ، ليَسْتَبين للناظِر طَريق نَقْل السِّنين الخَراجِيَّة إلى السِّنين الهِلالية . فإذا قارَبت الموافقة وحَسُنَت فيها المطابَقَة ، فالكِتابُ الفاضِليّ أكثر مَجازًا وأعظم إعْجازًا ، ولا يَخْفَى على المتأمِّل قَدْرُ ما أَوْرَد فيه من البَلاغَة ، كما لا يَخْفَى على العارِف قَدرُ ما تَضَمَّنه كتابُ الصَّابِئ من الصِّناعَة .

نُسْخَةُ الكِتاب الذي أشارَ إليه أبو الحَسَن الكاتِب :

«[أما بَعْدُ][a] فإنَّ أوْلى ما صَرَف إليه أميرُ المؤمنين عنايَتَه ، وأعملَ فيه فِكْره ورَوِيَّتَه ، وشَغَل به تفَقُّدَه ورعايَتَه ، أمْرُ الفَيْءِ الذي خصَّه الله به وألزمه جمْعَه وتوفيرَه ، وحياطَتَه وتكثيرَه ، وجعله عِمادَ الدِّين ، وقِوَامَ أَمْر المسلمين ، وفيما يُصْرف منه إلى أعطياتِ الأولياءِ والجُنود ؛ ومَنْ يُستعانُ به لتحصِين البَيْضة والذَّبِّ عن الحَرِيم ، وحَجِّ البيتِ ، وجهاد العدو ، وسَدِّ الثُّغُور ، وأَمْن السبل ، وحَقْن الدِّماء ، وإصْلاحِ ذاتِ البَيْن . وأميرُ المؤمنين

---

a) زيادة من القلقشندي .

= ٤٤٨هـ . وهو صاحب كتاب التاريخ الذي ذيَّل به على تاريخ ثابت بن سنان الصابئ من سنة ٣٦٠ وحتى ٤٤٧هـ ، وكتاب «رسوم دار الخلافة» و«تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» .

[١] نفسه ١٣:٥٩-٦٠ .

[٢] أي القاضي عليّ بن عثمان المخزومي .

يسألُ الله راغبًا إليه ، ومتوكِّلا عليه ، أن يُحْسِن عَوْنَه على ما حَمَّله منه ، ويُدِيمَ توفيقَه لما أرضاه ، وإرشادَه إلى ما يَقْضِي عنه وله .

وقد نَظَر أميرُ المؤمنين فيما كان يجْرِي عليه أمرُ جِباية هذا الفَيْء في خلافة آبائِه الراشدين فوجَدَه على حَسَب ما كان يُدْرك من الغَلَّات والثِّمار في كل سنة أولًا أولًا على مَجارِي شُهور سِني الشمسِ في النُّجوم التي يَحُلُّ مالُ كلِّ صنف منها فيها ، ووجدَ شُهورَ السنة الشمسية تتأخَّر عن شهور السنة الهلاليّة أحدَ عشرَ يوما ورُبُعا وزيادةً عليه ، ويكونُ إدراكُ الغلات والثِّمار في كل سنة بحسَب تأخُّرِها .

فلا تَزالُ السُّنونَ تَمْضِي على ذلك سنةً بعد سنةٍ حتى تنْقَضِيَ منها ثلاثٌ وثلاثون سنةً وتكونُ عدّة الأيام المتأخِّرة منها أيامَ سنةٍ شمسيّة كاملة ، وهي ثلاث مائة وخمسةٌ وستون يومًا ورُبُع يوم وزيادةٌ عليه ، فحينئذٍ يتهيَّأُ بمشيئة الله وقُدرتِه إدراكُ الغَلَّات التي تجرِي عليها الضرائبُ والطّسُوق في استقْبال المحرَّم من سِني الأهِلَّة . ويجب مع ذلك إلغاءُ ذِكر السنةِ الخارجةِ إذ كانتْ قد انقضتْ ونسبتُها إلى السنة التي أدركتِ الغَلّات والثمارُ فيها . وإنه وَجَدَ ذلك قد كان وَقَع في أيام أمير المؤمنين المتوكِّل على الله - رحمة الله عليه - عند انْقضاء ثَلاثٍ وثلاثين سنةً ، آخِرتُهُن سنة إحدى وأربعين ومائتين ، فاستُغْنِيَ عن ذكرها بإلغائِها ونسبتها إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ؛ فجرَت المُكاتباتُ والحُسْبانات وسائرُ الأعمال بعد ذلك سنةً بعد سنةٍ إلى أن مضتْ ثلاثٌ وثلاثون سنةً ، آخرتهُنَّ انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ، ووجب إنْشَاء الكُتُب بإلْغاء ذِكْر سنة أربع وسبعين ومائتين ونِسْبتِها إلى سنة خمس وسبعين ومائتين . فذَهَب ذلك على كُتّاب أمير المؤمنين المُعْتَمِد على الله وتأخَّر الأمرُ أربع سنين إلى أن أَمَرَ أميرُ المؤمنين المعتضدُ بالله - رحمه الله - في سنة سبع وسبعين ومائتين بنَقْل خَراج سنة ثمان وسبعين ومائتين إلى سنة تسعٍ وسبعين ومائتين ؛ فجَرى الأمرُ على ذلك إلى أن انقضتْ في هذا الوقت ثلاثٌ وثلاثون سنةً : أُولاهُنَّ السنة التي كان يجب نقلُها فيها ، وهي سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرتُهن انقضاءُ شهور خَراج سنةٍ سبْع وثلاث مائةٍ ؛ ووجب افتتاحُ خَراج ما تَجْري عليه الضَّرائبُ والطسُوقُ في أوّلها وإنَّ من صَواب التدبير واستقامة الأعمال ، واستعمالِ ما يخِفُّ على

الرعِية معاملتُها به نقلَ سنة الخراج لسنة سبع وثلاث مائة إلى سنة ثماني وثلاث مائة ، فرأى أميرُ المؤمنين ـ لمَّا يُلْزِمه نفسه ويؤاخِذُها به ، من العناية بهذا الفيء وحياطةِ أسبابه ، وإجرائها مجارِيها ، وسُلوكِ سبيلِ آبائِه الراشدين رحمة الله عليهم فيها ـ أنْ يُكْتَب إليكَ وإلى سائر/ العُمَّال في النواحي بالعمل على ذلك ، وأن يكونَ ما يَصْدُر إليكم من الكُتُب وتُصْدِرونه عنكم وتجري عليه أعمالُكم ورُفُوعكم وحُسْباناتُكم وسائرُ مُناظَراتِكم على هذا النَّقْل .

فاعْلَم ذلك من رَأْيِ أمير المؤمنين واعمَلْ به مستشْعِرا فيه وفي كلِّ ما تُمضِيه تقوى الله وطاعتَه ، ومستعمِلاً عليه ثِقات الأعوان وكُفاتَهم ، مُشرفا عليهم ومقَوِّما لهم ، واكتب بما يكونُ منك في ذلك ، إن شاءَ الله تعالى» .

نُسْخَةُ كتاب[a] أبي إسْحاق الصَّابِئ :

«أما بعْدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين لا يزالُ مجتهِدا في مصالح المسلمين ، وباعِثًا لهم على مَرَاشِد الدنيا والدِّين ، ومهيِّئًا لهم إلى أحسَنِ الاختيار فيما يُورِدون ويُصْدِرون ، وأصْوبِ الرأْي فيما يُبْرِمون وينقُضُون ، فلا تَلُوحُ له خَلَّة داخلةٌ علَى أمُورِهم إلا سَدَّها وتلافاها ولا حالٌ عائدة بحظٍّ عليهم إلا اعتمدَها وأتاها ولا سُنَّةٌ عادلةٌ إلا أخَذَهم بإقامة رَسْمها ، وإمضاء حُكْمِها ، والاقتداءِ بالسَّلَف الصَّالِح في العمل بها والاتباعِ لها ، وإذا عُرِضَ من ذلك ما تعْلَمه الخاصَّة بوفُور ألْبابها ، وتجهَلُه العامةُ بقُصُور أفْهامها ، وكانت أوامِرُه فيه خارجةً إليكَ وإلى أمثالِك من أعيانِ رجالِه ، وأماثِل عُمَّاله ، الذين يكتَفُون بالإشارة ، ويجتزِءُون بيَسِير الإبانة والعبارة ، لم يَدَعْ أن يبلُغ من تَلْخِيص اللَّفْظ وإيضاح المعنى إلى الحدّ الذي يُلْحِق المتأخِّر بالمتقدِّم ، ويجمعُ بين العالم والمتعَلِّم ؛ ولاسِيَّما إذا كان ذلك فيما يتعلَّق بمعاملات الرعيّه ، ومن لا يَعْرِف إلَّا الظَّواهِرَ الجليّة دُونَ البواطن الخفيّه ، ولا يَسْهُل عليه الانتقال عن العادات المتكرره ، إلى الرُّسوم المتغيِّره ، ليكون القولُ بالمشْرُوح لمن بَرَّز في المعرفة مذَكِّرا ، ولمن تأخَّر فيها مبصِّرا ؛ ولأنه ليس من الحق أن تُمنَع هذه الطبقةُ من بَرْد

---

a) ساقطة من بولاق .

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ١٣:٦٣- ٦٥.

اليقين في صُدُورها ، ولا أن يُقْتَصر على اللَّمْحة الدالَّة في مخاطبة جُمْهورها ، حتَّى إذا استوتِ الأقدامُ بطوائِف النَّاس في فَهْم ما أُمِروا به وفِقْهِ ما دُعُوا إليه وصارُوا فيه على كلمةٍ سواء لا يعترِضُهم شكُّ الشاكِّين ولا استِرابة المستَرِيبين ، اطمأنَّتْ قلوبُهم ، وانشرحَتْ صدُورُهم ، وسقَط الخلافُ بينَهم ، واستمرَ الاتفاق فيهم ، واستيقَنُوا أنهم مَسُوسُون على استقامةٍ من المِنْهاج ، ومحرُوسُون من جرائر الزَّيغ والاعوجاج ؛ فكان الانقيادُ منهم وهم دَارُون عالمون ، لا مقلِّدون مُسلِّمون ؛ وطائعُون مختارُون ، لا مُكْرَهُون ولا مُجْبَرُون .

وأميرُ المؤمنين يستمِدُّ الله تعالى في جميع أغراضِه ومَرَامِيه ، ومطالِبه ومَغَازِيه ، مادَّةً من صُنْعه تَقِف به على سَنَن الصَّلاح ، وتَفتَحُ له أبوابَ النَّجاح ، وتُنْهضه بما أهّله لحَمْله من الأعباء التي لا يَدَّعي الاستِقلالَ بها إلَّا بتوفيقِه ومَعُونتِه ، ولا يتوجه فيها إلَّا بدِلَالته وهدايته ، وحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيل .

وأميرُ المؤمنين يرى أنَّ أوْلى الأقوالِ أن يكون سَدَادا ، وأحرى الأفعال أن يكونَ رَشَادا ، ما وُجِد له في السابق من حكْم الله أصولٌ وقَواعِد ، وفي النَّص من كتابِه آياتٌ وشواهِد ؛ وكان مُفْضِيًا بالأمة إلى قَوَام من دينٍ ودُنْيا ، ووِفَاقٍ في آخرةٍ وأُولى ، فذلك هو البناءُ الذي يَثبُتُ ويعلو ، والغَرْس الذي ينبُتُ ويزكُو ، والسَّعيُ الذي تَنْجَح مَبادِيه وهَوَادِيه ، وتُبْهِج عواقِبُه وتَوَاليه ، وتستنير سُبُلُه لسالكيها ، وتُورِدُهم موارد السعود في مَقاصدهم فيها ، غير ضالِّين ولا عادِلِين ، ولا مُنْحرِفين ولا زائِلِين .

وقد جَعَلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لعباده من هذه الأفلاكِ الدائِره ، والنُّجُوم السائره ، فيما تَتَقلَّب عليه من اتِّصالٍ وافتراق ، ويَتَعَاقبُ عليها من اختلافٍ واتِّفاق ، منافِعَ تظْهَر في كُرُور الشُّهور والأعوام ، ومُرُور اللَّيالي والأيَّام ، وتَنَاوُب الضِّياء والظلام ، واعتدالِ المَساكِن والأوطان ، وتَغايرِ الفُصول والأزمان ، ونَشْء النَّبات والحيوان ، فما في نِظَام ذلك خَلَل ، ولا في صَنْعة صانعه زَلَل ، بل هو مَنُوط بعضُه ببعض ، ومَحُوط من كلِّ ثُلْمة ونقْض ، قال الله سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الآية ٥ سورة يونس] ، وقال جَلَّ من قائِل : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ

النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الآية ٢٩ سورة لقمان]، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الآية ٣٨ سورة يس]. وقال عزَّت قدرتُه: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [الآية ٣٩ سورة يس]. ففَضَّل الله تعالى في هذه الآيات بيْنَ الشمسِ والقمرِ، وأنبأنا في الباهِرِ من حِكَمه، والمُعْجِز من كَلِمِه، أنَّ لكلٍّ منهما طريقًا سُخِّر فيها وطبيعةً جُبِل عليها، وأن كلَّ تلك المباينةِ والمخالَفةِ في المَسِير، تُؤدِّي إلى موافقةٍ وملازمةٍ في التدبير؛ فمن هُنالك زادتِ السنةُ الشمسةُ فصارت ثلاث مائة وخمسةً وستين يومًا ورُبُعا بالتقريب المعمُول عليه، وهي المدّة التي تقطَع الشَّمْسُ فيها الفَلَكَ مرَّة واحدة، ونقصَتِ السنةُ الهِلالية فصارت ثلاث مائة وأربعةً وخمسين يومًا وكَسْرًا، وهي المُدّة التي يُجامِع القمرُ فيها الشمسَ اثنتَيْ عَشْرةَ مرة، واحتِيج إذا انساق هذا الفضلُ إلى استعمال النَّقْل الذي يُطابِقُ إحدى السنتين بالأخرى إذا افترقَتا، ويُداني بينهما إذا تفاوَتَتا.

ومازالت الأُمَمُ السَّالِفَة تَكْبِس زياداتِ السنين على افتنانٍ من طُرُقها ومذاهبها، وفي كِتاب الله - عزَّ وجلَّ - شهادةٌ بذلك إذ يقول في قِصَّة أهل الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ/ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الآية ٢٥ سورة الكهف]. فكانت هذه الزيادة بأن الفضْل في السنين المذكورة على تقْريب التقريب.

فأمَّا الفُرْسُ فإنَّهم أجْرَوْا معاملاتِهم على السنة المعتَدِلة التي شهورُها اثنا عشر شهرا، وأيامُها ثلاث مائة وستون يوما، ولَقَّبوا الشهورَ اثْني عشر لَقَبا، وسمَّوْا أيام الشهر منها ثلاثين اسما، وأفردوا الأيَّام الخمسةَ الزائدة، وسَمَّوْها المسترَقَة وكَبَسوا الرُّبْع في كل مائة وعشرين سنةً شهرا.

فلمَّا انقرض مُلْكهم، بطل في كَبْس هذا الربع تدبيرُهُم، وزال نَوْرُوزُهم عن سُنَّته، وانفرج ما بينه وبين حقيقةِ وقْتِه، انفراجا هو زائدٌ لا يقِف، ودائر لا ينقطع، حتَّى إنَّ موضوعهم فيه أن يقع في مَدْخَل الصَّيْف وسينتهي إلى أن يَقَع في مَدْخَل الشِّتَاء، ويتجاوَز ذلك، وكذلك مَوْضُوعهم في المهرجان أن يَقَع في مَدْخَل الشتاء، وسينتهي إلى أن يَقَع في مَدْخَل الصَّيْف ويتجاوزه.

وأمَّا الرُّومُ فكانُوا أتقنَ منهم حِكْمةً وأبعدَ نظرا في عاقبةٍ: لأنهم رَتَّبوا شهورَ السنة على أرصادٍ رصَدُوها، وأنواءٍ عرَفُوها، وفَضُّوا الخمسةَ الأيام

الزائدةَ على الشُّهور ، وساقُوها معها على الدُّهور ، وكبَسُوا الرُّبُع في كلِّ أربع سنِينَ يومًا ، ورسَمُوا أن يكون إلى شَبَاطَ مضافا فقرَّبوا ما بَعَّده غيرُهم ، وسَهَّلوا على الناس أن يقتَفُوا أثَرَهم ، لا جرم أنَّ المُعْتَضِد بالله ـ صلواتُ الله عليه ـ على أصُولِهم بنى ، ولمثالهم احتذى في تصييره نَوْرُوزَه اليومَ الحادِيَ عشَرَ من حَزِيران ، حتى سَلِم مما لَحِقَ النوارِيزَ في سالف الأزمان ، وتلافَوُا الأمرَ في عَجْز سِني الهلال عن سِني الشمس ، بأن جَبَرُوها بالكَبْس ، فكُلَّما اجتمع من فُضُول سِني الشمس ما يَفِي بتمام شهرٍ جعلوا السنةَ الهلاليَّة التي يتَّفِق ذلك فيها ثلاثةَ عشَرَ هلالا ، فرُبَّما تَمَّ الشهر الثالث عشر في ثلاثِ سنين وربَّما تَمَّ في سنتين بحَسَب ما يُوجبه الحساب ، فتصير سنتَا الشمسِ والهلال عندهم متقاربتين أبدًا لا يتباعَدُ ما بينَهما .

وأمَّا العَرَبُ فإنَّ الله ـ جَلَّ وعزَّ ـ فَضَّلَها على الأُمَم الماضية ، وورَّثَها ثَمراتِ مَساعيها المتعِبة ، وأجْرَى شهرَ صيامِها ومواقيتَ أعيادِها وزكاةَ أهل مِلَّتها ، وجِزْيَة أهل ذِمَّتها ، على السنة الهلاليَّة ، وتعبَّدها فيها برُؤْية الأَهِلَّة ، إرادةً منه أن تكون مناهِجُها واضحة ، وأعلامُها لائحة ، فيتكافأ في مَعْرفة الغَرض ودخُول الوقت الخاصُّ منهم والعام ، والناقِصُ الفِقْه والتام ، والأنثى والذكَر ، وذو الصِّغَر والكِبَر ، فصاروا حينئذٍ يَجْبُون في سنةِ الشمس حاصلَ الغلَّات المقْسُومة وخراج الأرض الممسوحة ، ويجْبُون في سنة الهلال الجَوالَي والصَّدَقات والأرجاء والمُقَاطعات والمستَغَلَّات ، وسائرَ ما يجري على المُشاهَرات ، وحدَث من التعاظُل والتداخُل بين السنين ما لو استمر لقَبُح جِدًّا ، وازداد بُعْدا ، إذ كانت الجبايةُ الخَراجيةُ في السنة التي تنتهي إليها تُنْسَب في التسمية إلى ما قبلَها فوَجَبَ مع هذا أن تُطْرَح تلك السَّنَةُ وتلْغى ، ويُتجاوزَ إلى ما بعدها ويُتخطَّى ، ولم يَجُزْ لهم أن يقتَدُوا بمخالفيهم في كَبْس سنة الهلال بشهرٍ ثالث عشر ؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزَحت الأشهرُ الحُرُم عن مواقِعِها ، وانحرفَتِ المناسِكُ عن حَقائِقِها ، ونقصَتِ الجِبايةُ عن سني الأهِلَّة القِبْطية بقِسْطِ ما استغْرَقه الكبسُ منها ، فانتظَرُوا بذلك الفضلِ إلى أن تتِمَّ السنة ، وأوجبَ الحسابُ المقرِّب أن يكون كلُّ اثنتين وثلاثين سنةً

شمسيةً ثلاثا وثلاثين سنةً هلالية ؛ فنقلُوا المتقدّمة إلى المتأخِّرة نقلًا لا يتجاوزُ الشَّمْسية ، وكانت هذه الكُلْفةُ في دُنياهم مستسْهَلة مع تلك النِّعْمَة في دينهم .

وقد رأى أميرُ المؤمنين نَقْلَ سنة خمسين وثلاث مائة الخراجِيَّةِ إلى سنة إحدى وخمسين وثلاث مائة الهلالية جمعًا بينهما ، ولُزومًا لتلك السُّنَّة فيهما .

فاعمَلْ بما وَرَدَ به أمرُ أمير المؤمنين عليْك ، وما تضمَّنَه كتابُه هذا إليك ، ومُرِ الكُتَّاب قِبَلك أن يحتذُوا رسمَه فيما يكتُبون به إلى عُمَّال نواحيك ، ويخلِّدونه في الدواوين من ذُكُورهم ورُفُوعهم ، ويقرِّرونه في دُرُوج الأموال ، وينظِمُونه في الدَّفاتِر والأعمال ، ويبْنُونَ عليه الجماعات والحُسْبانات ، ويُوعِزون بكَتْبه من الرُّوزْنَامجات والبراءات ، وليكن المنسوبُ كان من ذلك إلى سنة خمسين وثلاث مائة التي وقَع النقلُ عنها معْدُولًا به إلى سنة إحدى وخمسين التي وَقَع النَّقْل إليها ، وأقم في نُفُوس من بحضْرتك من أصناف الجُنْد والرعية وأهلِ الملَّة والذِّمَّة أنَّ هذا النقلَ لا يغَيِّر لهم رَسْما ، ولا يُلْحق بهم ثَلْما ، ولا يعودُ على قابِضِي العطاء بنُقْصان ما استحقُّوا قبضه ، ولا على مؤدّي حقِّ بيتِ المال بإغضاء عمَّا وجبَ أداؤه ، فإنَّ قرائحَ أكثرِهم فقيرةٌ إلى إفهام أمير المؤمنين الذي يؤثِر أن تُزَاح فيه العِلَّة ، وتُسَدّ به مِنْهم الخَلَّة ، إذ كان هذا الشأنُ لا يتجدَّدُ إلا في المُدَد الطِّوال التي في مثلها يُحتاجُ إلى تعريف الناشِي ، وإذْكار النَّاسي ، وأجِبْ بما يكون منك جَوابًا يحسُن موقعُه لك ، إن شاءَ الله تعالى»[١] .

وقال ابنُ المأمون[٢] في «تاريخه» من حَوادِث سنة إحدى وخمس مائة : وأوَّلُ ما تُحُدِّث فيه نَقْلُ السَّنَة الشَّمْسِيَّة إلى العَرَبِيَّة ، وكان قد حَصَلَ بينهما تَفاوُتٌ أرْبع سنين ، فتحدَّث القائِدُ أبو عبد الله محمد بن فاتِك البَطَائِحِي مع الأَفْضَل بن أمير الجُيُوش في ذلك ، فأجابَه إليه وخَرَج أمْرُه إلى

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ :٦٥- ٧٠.

[٢] وردت هذه الفقرة في الكراسة التي بخط المقريزي والمحفوظة في مكتبة Liège ببلجيكا ، وبدأها بالعبارة التالية : «الحمد لله . مختارٌ من «سيرة المأمون البطائحي» تأليف الأمير جمال الملك أبي عليّ موسى بن المأمون أبي عبد الله محمد بن فاتك بن مختار المعروف والده بابن البطائحي عفا الله عنه . في هذه السنة ـ يعني سنة ٥٠١ ـ فتح ديوان التحقيق تولَّاه ابن أبي اللَّيْث النَّصْراني وأضيف إليه ديوان المجلس . (فيما يلي ٤٠١:١) فأوّل ما تحدث فيه نقل السنة الشمسية إلى العربية ... (ورقة ١٥٧و) .

الشَّيخ أبي القاسم بن الصَّيْرَفي[١] بإنْشاء سِجِلٍّ به [a]فنُسِخَ نصُّه في دَواوين الأموال والجُيوش وخُلِّد بعد ذلك في بَيْت المال[a]، فأنْشأ ما نُسْختُه :

«بِسْم الله الرَّحْمَن الرَّحيم

الحَمْدُ لله الذي ارْتَضَى أميرَ المؤمنين أَمينَه في أرْضه وخَليفَته، وأَلْهَمَه أن
٢٨٠:١ يعمَّ بحُسْن / التَّدْبير عَبيده وخَليقَته، ووفَّقَه لمصالِح يستمد أسبابها، ويفتح
بحُسْن نَظَرِه أبْوابها، وأوْرَثَه مَقامَ آبائِه الرَّاشدين الذين اخْتَصَّهم بشَرَف المَفْخَر، وجَعَلَ اعْتِقاد ولائهم[b] سَبَبَ النَّجاة في المَحْشَرِ، وعَناهُم بقَوْله : ﴿يأْمُرُهم بالمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُم عَنِ المُنْكَرِ﴾ [الآية ١٥٧ سورة الأعراف]، وأعْلى مَنارَ سُلْطانِه بمُدَبِّر أفلاك دَوْلَته ومُبيد أعْداء مملكته، وأشْرَفِ من نَصَبَ للمَجْد[c] عَلَمًا وراية، ووَقَفَ على مَصْلَحَة البرية نَظَره ورأْيه وأرْشَد بهِدايته الأَلْباب الحائِرَة، وأذْهَب بمَعْدَلَته الأحْكامَ الجائِرَة السَّيِّد الأجَلِّ الأفْضَل، ونتمِّم النُّعوت بالدُّعاء للذي كمَّل تَدْبيره نِظام الصَّلاح وتَمَّمه، وسَدَّدَ تَقْريرَه الأُمور في كلِّ ما قَصَدَهُ ويَمَّمه، وتَنَبَّه[d] في السِّياسَة على ما أَهْمَلَه من سَبَقَه وأغْفَله من تَقَدَّمه، وتتبَّع أحوالَ المملكَة فلم يَدَع مُشْكِلًا إلَّا أوْضَحه وبيَّنَ الواجِب فيه، ولا خَلَلًا إلَّا أصْلَحه وبادَر بتلافيه، ولا مُهمَلًا إلَّا اسْتَعْمَله على ما يُوافِق الصَّواب ولا يُنافيه إيثارًا لعِمارة الأعْمال وقَصْدًا لما

---

a-a) إضافة من كراسة المقريزي المحفوظة في Liège. b) بولاق : موالاتهم. c) بولاق : للجند. d) بولاق : ونبه.

---

[١] تاج الرئاسة أبو القاسم عليّ بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصَّيْرَفي، المتوفى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، كاتب ديوان الإنشاء منذ وزارة الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي، ثم تولى رئاسة الديوان في أيام الخليفة الحافظ لدين الله وحتى وفاته. وأغلب السِّجِلَّات التي وصلت إلينا من عهد الخليفة الآمر بأحكام الله أنشأها ابن الصَّيْرَفي وهو لم يزل كاتبًا في الديوان. ولابن الصَّيْرَفي من المؤلفات ـ التي وصلت إلينا ـ كتاب «القانون في ديوان الرسائل» وكتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» وكتاب «الأفضليات» (راجع، السلفي : معجم السَّفْر ٢٤٦؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٥ : ٧٩- ٨١؛ ابن سعيد : النجوم الزاهرة ٢٥٢- ٢٥٤؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٢ : ٢٢٨- ٢٣٣؛ أيمن فؤاد : مقدمة القانون في ديوان الرسائل ٢٠*-٢٥*؛ Gamâl el-Dîn el-Shayyâl, *EI*[2] (art. *Ibn al-Sayrafî*, pp. 956-57).

يَقْضي بتَوْفير الأمْوال وتَوَخِّيًا لما عادَ بضُروب الاسْتِقْلال[a]، واعْتناءً برجال الدَّوْلة العَلَوِيَّة وأجْنادِها، واهْتمامًا بمَصالِحِهم التي ضعُفَت قواهُم عن ارتيادها، ورعايةً لمن ضَمَّته أقطارُ المملكة من الرَّعايا، وحملًا لهم[b] على أعْدَل السُّنَن وأفْضَل القَضَايا.

يَحْمَده أميرُ المُؤْمنين على ما أعانَه عليه من حُسْنِ النَّظَر للأُمَّة، وادَّخَرَه لأيَّامه من الفَضَائِل التي صَفَت بها ملابِسُ النِّعْمَة، ووفَّقَه لما يَعود على الكافَّة بشُمول الانْتِفاع، حتى صارَ اسْتِبْداء[c] الحُقوق بواجِبات الشَّريعَة الواضِحَة الأدِلَّة، واسْتيفاؤها بمُقْتَضى المَعْدَلة فيما يجري على أحْكام الخَراج وأوْضَاع الأَهِلَّة، ويرغَبُ إليه بالصَّلاة على محمد الذي مَيَّزه بالحِكْمَة وفَصْل الخِطاب، وبَيَّنَ ما اشْتَبهم من سُبُل الصَّواب، وأَنْزَلَ عليه في مُحْكَم الكِتاب ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ﴾ [الآية ٥ سورة يونس]، صَلَّى الله عليه وعلى أخيه وابن عمِّه أبينا أَمير المُؤْمنين عليِّ بن أبي طالِب كافِيه فيما أَعْضَل لمَّا عُدِمَ المُسَاعِد، ووَاقيه بنَفْسه لمَّا تخاذَل الكفُّ والسَّاعِد، وعلى الأئِمَّة من ذُرِّيتهما العامِلين برِضَىٰ الله تعالى فيما يقولون ويَفْعَلون، والذين ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الآية ١٨١ سورة الأعراف]، وإنَّ أوْلَى ما أوْلاه أميرُ المؤمنين حَظًّا وافِيًا من تَفَقُّده وأَسْهَم له جُزءًا وافِرًا من كريم تَعَهُّده، ونَظَر إليه بعَيْنُ اهتمامه واخْتَصَّه بالقِسْم الأجْزَل من اسْتِمالَة أَمْر الأمْوال التي يُسْتعانُ بها على سَدِّ الخَلَل، وبرَجائها يُسْتَدْفَع ما يطرق من الحادِث الجَلَل، وبوفورها تَسْتَتِبُّ شُئُون المملكَة وتَسْتَقيم أحْوالُ الدُّوَل، وباسْتِخْراجِها على حُكْم العَدْل الشَّامِل وقَضِيَّة[d] إنْصاف المعامل تكون العِمارَة التي هي أَصْل زيادتها ومادَّة كَثْرَتها وغَزارَتها، ولمَّا كانت جِبايَتُها على حُكْمين: أحدُهُما يجيء هِلاليًّا، وذلك ما لا يدْخُله عارِضٌ ولا إشْكال ولا إبْهام ولا يُحْتاج فيه إلى إيضاح ولا إفْهام، لأنَّ شهورَ الهِلال يشترك في معرفتها المُبْرِز[e] والمُقَصِّر، ويستوي

a) بولاق: الاستغلال. b) الأصل: حملانهم. c) بولاق: استبدال. d) بولاق: وصية. e) بولاق: الأمير.

في الفَهْم بها المتقدِّم في العِلْم والمتأخِّر، إذ كان الناسُ آلِفين لأَزْمِنَة مُتَعَبّداتهم السِّنين ممَّا يَحْفَظ لهم نِظام مَرْسومهم. والآخر يجيء خَراجيًا ويَثْبُت بنسبته إلى الخَراج، لأنَّها تَضْبِط أوْقاتَ ما يجري ذلك لأَجْله من النّيل المُبارَك والزِّراعة، وتَحْفَظ أحيانه دون السّنة الهِلالية وتحرس أوْضاعَه، ولا يستقلُّ بمعرفته إلّا من باشَرَه وعَلِمَ[a] موارِدَه ومصادرَه، فوَجَبَ أن يُوفَّر[b] على السّنَة الخَراجية النَّظَر ويفعل فيها ما تَعْظُم به الفائِدة ويَحْسُن فيه الأَثَر، ويُعْتمد في إيضاح أَمْرِها وتَقْديم حُكْمها على ما تتحلَّى به التواريخ وتَزَيَّن به السِّيَرُ، ويكون ذلك شاهِدًا لمساعي السَّيِّد الأَجَلّ الأَفْضَل الذي لا يزال ساهِرًا ليله في حِياطَة الهاجِعين، شاهِرًا سَيْفَه في حماية الوادِعين، مُطْلِعًا للدولة بدُورَ السَّعادَة وشُموسَها، مُذَلِّلًا لها صَعْب الحوادِث، وشموسها ناطِقَة تارةً بأنَّ أُمّةً هو راعيها قد فضَّل الله سائِسها وأَسْعَد مَسوسَها، وهذا حين التَّبَصُّر والإِرْشاد وأوان التبيين للغَرض والمُراد، لتتساوَى العامّة والخاصّة في عَمَله، وتَسَعُهم الفائِدَة في معرفة حُكْمه، وتتحقَّق المَنْفَعَةُ لهم فيما يَمْنَع من تَداخُل السِّنين واشْتِباكها[c]، وتتيقَّن المَعْدَلة عليهم فيما يؤمَن من المضَار التي يُحْتاج إلى استدراكها. معلومٌ أنَّ أيّام السّنَة الخَراجيّة - وهي السَّنَة الشَّمْسية - بخِلاف السَّنَة الهِلالية، لأنَّ أيّامَ السنة الخَراجية من اسْتِقْبال النَّوْروز إلى آخِر النَّسيء ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْع يوم، وأيّام السَّنَة الهِلالية لاسْتِقْبال المحرَّم إلى آخر ذي الحجة ثلاث مائة وأربعة وخمسون يومًا، والخِلاف في كلِّ سنة بالتقريب أَحَدَ عشر يومًا، وفي كلِّ ثلاث وثلاثين سنة سنةً واحِدةً على حُكْم التَّقْديم[d]، ويَقْتَضيه ما تقدَّم من الترتيب. فإذا اتَّفَقَ أن يكون أوَّلُ الهِلالية مُوافقًا لمَدْخَل السَّنَة الخَراجية وكانت نِسْبتهما واحِدَة، استمرَّ اتِّفاق التَّسْمِيَة فيهما وبقِي ذلك جارِيا عليهما ولم تزالا مُتداخلتين لكونه مَدْخَل الخَراجيّة في أثناء شُهور الهِلالية إلى انْقِضاء ثلاث وثلاثين سنة، فإذا انْقَضَت هذه المدّة بطَلَت المُداخَلة وخَلَت السَّنَة / الهِلالية ٢٨١:١

a) بولاق: عرف. b) بولاق: يقصر. c) بولاق: استقبالها. d) بولاق: التقريب.

من نَوْرُوز يكون فيها ، وبحُكْم ذلك بَطَل اتِّفاق التسمية ويكون التَّفاوتُ سنةً واحدةً للعِلَّة المقدَّم ذكرها . ومن أين يستمرُّ بينهما ائتلافٌ أو يُعْدم لهما اختلافٌ ؟ أم كيف يَعْتَقِد ذلك أحَدٌ من البَشَر والله تعالى يقول : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [الآية ٤٠ سورة يس] فقد وَضُحَ دليلُ التَّباعد بما جاءَ مَنْصوصًا في الكتاب ، وظَهَرَ بُرْهانُه بما اقْتَضَاه مُوجب الحِساب ، فيُحْتاج بحُكْم ذلك إلى نَقْل السَّنَة بالتسمية[a] إلى التي تليها لتكون موافِقةً للهِلالية بالتسمية[b] وجاريةً معها ، وفائِدَةُ النَّقْل أن لا تخلو السَّنَة الهِلالية من مالٍ خاصٍّ يُنْسَب إلى السَّنة الموافِقَة لها ، لأنَّ واجِبات العسكرية على عِظَمِها واتِّساعها ، وأرْزاق المُرْتَزِقَة على اختلاف أجناسها وأوْضاعها ، جاريةٌ على أحكام الهِلالية غير معدول بها عن ذلك في حالٍ من الأحوال ، والمحافظة على ثَمَرَة ارتفاعها متعيِّنة ومنفعة العِناية بما تجري عليه واضِحَة مبينة .

ولمَّا أهَلَّت سنةُ إحدى وخمس مائة ودَخَلَت فيها سنة تسعٍ وتسعين وأربع مائة الخَراجِيَّة الموافقة لسنة إحدى وخمس مائة الهِلالية ، كان في ذلك من التَّبايُن والتَّعارُض والتفاوُت والتنافُر بحُكْم إهمال النَّقْل فيما تقدَّم ، ما صارَت السَّنَةُ الهِلالية الحاضِرة لا يُجْبَى[c] خَراجُ ما يوافقها فيها ولا تُدْرَك غَلَّاتُ السنة المجرَى مالها عليها إلَّا في السنة التي تليها ، فهي تُسْتَهَلُّ وتنقضي وليس لها في الخراجيّ ارتفاعٌ ، والأعمال تطيف بالزِّراعة ولا حظٌّ لها في ذلك ولا انْتِفاع ، وهذه الحال فالمَضَرَّة[d] بها على بيت المال غير خَفِيَّة ، والأذِيَّة فيها للرجال المُقْطَعين بادِية وأسْباب تَحَيُّفها[e] إياهم مستمِرَّة ، ولاسِيَّما من وُقِّع له بإثبات وأُنعم عليه بزيادات ، فإنَّهم يتعجَّلون الاسْتِقْبال ويتأجَّلون الاسْتغلال ؛ ومتى لم تُنْقَل هذه السَّنَة الخَراجية كانت مُتداخِلَة بين سنتين هِلالية وهي مُوافِقَة لغيرها ، ومالُها يجري على سنة تجري بينهما ، لأنَّ مَدْخَلَها في اليوم العاشر من المحرَّم سنة إحدى وخمس مائة وانْقِضاؤُها

---

a) بولاق : الشمسية . b) ساقطة من بولاق . c) بولاق : يجيء . d) بولاق : المضرة . e) بولاق : لحوقها .

في العشرين من المحرَّم سنة اثنتين وخمس مائة ، وهي مُتداخِلَة بين هاتين السنتين ومالُهما يجري على سنة إحدى وخمس مائة ، والحالُ في ذلك لا ينتهي إلى أَمَدٍ ، ولايزال الفَسَادُ يتَزَايَد طُول الأبد .

وقد رأى أميرُ المؤمنين ، وبالله توفيقُه ، ما خَرَجَ به أَمْرُه إلى السَّيِّد الأَجَلِّ الأَفْضَل ، الذي نَبَّه على هذا الأَمْر وكَشَف غامِضَه ، وأزالَ بحُسْن توصُّله مُتنافيه وتَناقُضه ، أن يُوعِز إلى ديوان الإنْشاء بكَتْب هذا السِّجِلّ مُضَمَّنًا ما رآه ودَبَّره ، مودعًا إنفاذ ما أَحْكَمَه وقرَّره من نَقْل سنة تسع وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخمس مائة لتكون مُوافِقَةً لها ويجري عليها مالها ، ويكون ما يَسْتأدونه من إقْطاعاتهم ويستخرجونه من واجِباتهم جاريًا على نظام محروس ونِطاق مُحيط غير مَنْحوس ، وشاهِدًا بنصيب مُوَفًّى[a] غير مَنْقوص ، ويتَّضح ما أَبْهَم إشكاله التَّعْمية ، ويزول الاسْتِكراه في اختلاف التسمية ، ويستمرُّ الوِفاق بين السِّنين الهِلالية والخَراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمس مائة ،ويُنْسَب إلى[b] مال الخَراج والمقاسمات وما يُسْتَغَلّ ويُجْبى من الإقْطاعات ممَّا كان جاريًا على ذِكْر سنة تسعٍ وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخمس مائة ، وتجري الإضافة إليها مجرى ما يَرْتَفِع من الهِلالي فيها لتكون سنة إحدى من هذه مشتملة على ما يخصُّها من مالِها وعلى مال السَّنَة الخَراجية بما يُشْرَح من انتقالها ، وكذلك نَقْل سنة تسعٍ[c] وتسعين وأربع مائة الخَراجية الثابتة بالتسمية إلى سنة إحدى وخمس مائة المُشار إليها ويكون مالُها جاريًا عليها .

فليُعْتَمد ذلك في الدَّواوين بالحَضْرَة وفي سائِر أعْمال الدولة قاصِيها ودانِيها ، وقريبها ودانيها[d]، وليتنبَّه كافَّةُ الكُتَّاب والمُسْتَخْدمين وجميع العُمَّال والمتصرِّفين إلى اقْتِفاء هذا السَّنَن واتِّباعه ، وليَحْذَروا الخروج عن أحكامِه المقرَّرة وأوْضاعِه ، وليُبادروا إلى امْتِثال المَرْسوم فيه وليَحْذَروا من تَجاوزه وتَعَدِّيه ، وليُنْسَخ في دَواوين الأَمْوال

---

a) بولاق : موافي . b) ساقطة من بولاق . c) الأصل وظ : سبع . d) بولاق : وفارسها وشاميها .

والجُيوش المَنْصورَة ولِيُخَلَّد بعد ذلك في بَيْت المال المعمور[a].

وكُتِبَ في مُحَرَّم سنة إحدى وخمس مائة»[١].

وقال القاضي الفاضِلُ في «مُتَجَدِّدات» سنة سَبْعٍ وستِّين وخمس مائة، ومن خَطِّه نَقَلْت: مستهلُّ المحرَّم نُسِخَ مَنْشورٌ بنَقْل السَّنَة الخَراجِيَّة إلى السَّنة الهِلاليَّة، والمُطابَقَه بين اسْمهما لمُوافَقَة الشُّهور العربية للشُّهور القِبْطِيَّة، وخُلُوّ سنة سبع من نَوْروز، فنُقِلَت سَنَةُ خَمْس وستِّين وخمس مائة الخَراجِيَّة إلى هذه السَّنَة؛ و[b]كان آخِرُ نَقْلٍ نُقِلَتْه هذه السَّنَة في الأيام[b] الأَفْضَلِيَّة، فإنَّ سنة ثمانٍ وتسعين وأربع مائة وسنة تسعٍ وتسعين الخَراجيتين، نُقِلَتا إلى سنة إحدى وخمس مائة[c][٢].

وسبَبُ هذا الانِفْراج بينهما زِيادَةُ عَدَد السَّنة الشَّمْسِيَّة على عَدَد الهِلالِيَّة أَحَدَ عَشْر يومًا، وإغْفالُ النَّقْل في سنة ثلاث وثلاثين في أيَّام الوَزير الأَفْضَل رِضْوان بن وَلَخْشي، وانْسَحَبَ ذَيْلُ هذه الزِّيادَة وتداخُل السِّنين بعضُها في بعض، إلى أن صارَ التَّفاوُتُ بينهما سنتين في هذه السَّنَة، فنُقِلَت؛ وهو انْتِقالٌ لا يَعْدو[d] التَّسْمِيَة، ولا يَتجاوَز اللَّفْظ، ولا يُنْقِص / مالًا لدِيوان ولا لمُقْطَع، ١:
وإنَّما يُقْصَد به إزالَة الإِلْباس وحَلّ الإشْكال.

وقال القاضي أبو الحَسَن[e]: ونُسْخَةُ الكتاب الذي أَنْشَأه القاضي الفاضِل:

«خَرَجَت الأَوامِرُ المَلَكِيَّة النَّاصِرِيَّة - زادَ الله في عَلائها[f] - بإيْداع هذا المَنْشور: إنَّا نُؤْثِر من حُسْن النَّظَر ما يُؤْثِر أَحْسَن الخَبَر، ولا يَنْصَرِف بنا الفِكْرُ عمَّا يُحَلِّي السِّيَر ويُجلِّي الغير[g]، ولا تَزال خَواطِرُنا تَغْتَلي فتَطَّلِع الدَّراري، وتَغُوصُ فتُخْرِج الدُّرَر. وإنَّ أولى ما استجدَّت به البَصائِرُ، وحُرِسَت فيه المَصائِرُ، كلُّ أَمْر يُصَحِّح المُعامَلات ويَشْرَحها، ويُطْلِق عُقولَهم من عُقول الإشْكال ويُسَرِّحها.

---

a) بولاق: بيوت المال المعمورة. b-b) ساقطة من ظ. c) بولاق: وخمسمائة الخراجية. d) بولاق: يتعدى.
e) بولاق: أبو الحسين. f) بولاق: إعلائها. g) بولاق: تحلى به السير وتجلى به الغير.

---

[١] ابن المأمون: أخبار مصر ٣-٤٨؛ وقارن المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٤٠.
[٢] المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٣٢٤.

ولمَّا وَجب نَقْلُ السَّنة الخَراجِيَّة والمُطابَقَة بينها وبين الهِلاليَّة ، لانْفِراجهما سنتين ومُوافَقَة الشهور الخَرَاجِيَّة والهِلاليَّة في هذه السَّنة مَطْلَع المُسْتَهَلّين ، أَمْضَيْنا هذه السَّنَة الخالية في هذه السَّنَة الآتية ، واسْتَخَرنا الله تعالى في نَقْل سنتيْ خَمْس وستٍّ وستين وخمس مائة إلى سنة سبْع وستين وخمس مائة ، التي سُمِّيَت بهذا النَّقْل هِلاليَّة خَراجِيَّة ، نَفْيًا للأُمور المُشْتَبِهة والتَّسْمِيَة المُمَوَّهة ، وتَنْزيهًا لسِني الإسْلَام عن التَّكْبيس ولتأريخه عن مُلابَسَة التَّلْبيس ، وإعْلامًا بالوِفاق الذي اسْتَشْعَرَته آباؤنا[a] وبَنوها ، وإعْلانًا باتِّباعنا عَوايِد[b] السَّلَف التي خَلَّفوها للخَلَف وبيَّنوها .

وفي ذلك ما تُحْمَد به العَواقِب ، وتَنْفَسِح به المَذَاهِب ، وتَتَيَسَّر به المَطالِب ، ويَزول به الإشْكال ، ويُؤْمَن به الاخْتلال ، ويَنْحَسِم به الغَلَطُ في الحِساب ، ويُؤَلِّف بين السِّنين المختلفة الأَنْساب ، ويَحْفَظ على العُمْر[c] مُعامَلَته ويُبْعد عن التأريخ مُعاطَلَته ، ويُقَرِّب على الكاتِب مُحاوَلَته ، ويَصْرف عن نِعْمَة الله هُجْنَته كوْنها مُقَدَّمَة في التَّسْنية مؤخَّرة في التَّسْمية ، وعن مُعامَلَة بَيْت المال وَصُحْبته[d] كَوْنها مَغْذوقة بالمطل وقد بالغت في التوفية ، لأَنَّ من أعطى في سنة سَبْع وستينَ وخمس مائة اسْتحقاق سنة خَمْس ، فلا رَيْب أَنَّه قد مَطَل بحُكْم السَّمْع ، وإن كان قد أَنْجَز بحُكْم الشَّرْع .

فتُوسَم هذه السَّنَة المُبارَكَة بالهِلاليَّة الخَرَاجِيَّة ، وتُرْفَع الحُسْبانات بهذا الوَضْع ، ويُعْمَل في التَّقْريرات والتَّسْجيلات على هذا . فليُفْعَل في ذلك ما يَقْضي بارْتياح هذا الانِفراج وجَبْر هذا الصَّدْع ، وليُعْلَم في الدَّواوين عِلْمه ، وليَنْفُذ فيها حُكْمُه بعد ثُبوته ، بحَيْث[e] يَثْبُت مثله إن شاءَ الله تعالى» .

a) بولاق : آباؤها . b) بولاق : باتباع عناية بعوائد . c) الأصل وظ : الغمر ، وبولاق : القمر . d) بولاق : وصمة . e) بولاق : إلى حيث .

و[١] أمّا تأريخ العرب

فإنّه لم يَزَل في الجاهِلِيّة والإسْلام يُعْمَل بشُهور الأَهِلَّة، وعِدَّة شُهور السَّنة عندهم اثنا عشر شَهْرًا، إلَّا أنّهم اخْتَلَفُوا في أَسْمائِها.

فكانَت العَرَبُ العارِبَة تُسَمّيها: ناتق، ونقيل، وطليق، وأُسنح، وأنتح[a]، وحُلْك، وكَسَح، وزاهر، ونَوْط، وحَوْف، وبَغْش، فناتق هو المُحَرَّم، ونقيل هو صَفَر... وهكذا ما بعده على سَرْد الشُّهور[٢].

وكانت ثَمُودُ تُسَمّيها: مُوجِب، ومُوجِر، ومُورِد، ومُلْزِم، ومُصْدِر، وهَوْبَر، وهَوْبَل، ومَوْهَاء، ودَيْمُر، ودَابِر، وحَيْقَل، ومُسْبِل. فمُوجِب هو المُحَرَّم، ومُوجِر صَفَر، إلّا أنّهم كانوا يَبْدَأُون بالشُّهور من دَيْمُر وهو شهر رَمَضَان، فيكونُ أوّلَ شُهور السنة عندهم[٣].

ثم كانت العَرَبُ تُسَمّيها بأسماء أُخَر، وهي: مُؤْتَمِر، وناجِر، وخَوّان، وصُوّان، وحَنْتَم، وزَبّاء، والأَصَمّ، وعادِل، ونافِق، وواغل[b]، وهُوّاع، وبُرَك[٤]. ومَعْنَى المُؤْتَمِر أنّه يَأْتَمِر بكُلّ شيءٍ ممّا تأتي به السَّنَة من أَقْضِيَتها؛ وناجِر من النَّجْر وهو شِدَّة الحَرّ؛ وخَوّان «فَعّال» من الخِيانَة، وصُوان ـ بكسر الصّاد وضَمّها ـ «فُعال» من الصِّيانَة؛ والزَّبّاء الداهية العظمية المتكاثِفَة، سُمّيَ بذلك لكَثْرَة القِتال فيه؛ ومنهم من يقول: بعد صُوّان الزَّباء، وبعد الزَّبّاء بائِدة، وبعد بائِدَة الأَصَمّ، ثم واغِل، وباطِل، وعادِل، ووَرْنَه، وبُرَك؛ فالبائِدُ من القِتال، إذْ كان فيه يَبيد كثيرٌ من النّاس، وجَرى المَثَلُ بذلك فقيل: «العَجَبُ كلُّ العَجَب بين جُمادى ورَجَب»، وكانوا

a) بولاق: وأنح. b) بولاق: نافق ووغل.

[١] من هنا وحتى بداية الجزء الثاني غير موجود في نسخة الظاهرية التي رجحت أنها منقولة من مسودة المؤلف.

[٢] قارن مع المسعودي: مروج الذهب ٢: ٣٤٩- ٣٥٠.

[٣] البيروني: الآثار الباقية ٦٩.

[٤] ذكرها النويري باسم: «مؤتمر، ناجر، خَوّان، صُوان (ويقال فيه بُصان)، رُنّى، أَيْدَة، الأَصَمّ، عادِل، ناطِل، واغِل، وَرْنَة، بُرَك. وأضاف أن في هذه الأسماء خلافًا عند أهل اللغة وأن الذي ذكره منها هو المشهور (نهاية الأرب ١: ١٥٧).

يَسْتَعْجِلون فيه ويَتَوَخَّون بُلوغَ ما [كان لهم من][a] الثَّأر والغارات قَبْل [دخول][a] رَجَب فإنَّه شَهْرٌ حَرام، ويقولون له «الأَصَمّ» لأنَّهم كانوا يَكُفُّون فيه عن القِتال، فلا يُسْمَع فيه صوتُ سِلاح؛ والواغِلُ الدَّاخِل على شَراب ولم يَدْعُوه، وذلك لأنَّه تَهَجَّم على شهر رَمَضَان، وكان يَكْثُرُ في شَهْر رَمَضَان شُرْبُهم الخَمْر، لأنَّ الذي يتلوه هي شُهور الحَجّ؛ وناطِلٌ هو مِكْيالُ الخَمْر، سُمِّيَ به لإفْراطِهم فيه في الشُّرْب، وكَثْرَة استعمالِهم لذلك المِكْيال؛ وأمَّا العادِلُ فهو من العَدْل، لأنَّه من أَشْهُر الحَجّ، وكانوا يَشْتَغِلون فيه عن الباطِل؛ وأما الرَّنَّة[b] فلأنَّ الأَنْعامَ كانت ترن[c] فيه لقُرْب النَّحْر؛ وأمَّا بُرَك فهو لبُروك الإِبِل إذا أَحْضِرَت[d] المَنْحَر[1].

وقد رُوي أنَّهم كانوا يُسَمُّون المحَرَّم مُؤْتَمِر، وصَفَر ناجِر، ورَبيع الأوَّل نصار، ورَبيع الآخَر خوان، وجُمادَى الأولى حمين، وجُمادَى الآخرة الرَّنَّة، ورَجَب الأَصَمّ ـ وهو شهر مُضَر، وكانت العَرَبُ تَصومُه في الجاهلية، وكانت تَمْتَارُ فيه وتَميرُ أَهْلَها، وكان يَأْمَن بعضُهم بعضًا فيه، ويخرُجون إلى الأَسْفار ولا يَخافُون ـ وشَعْبان عادِلٌ، ورَمَضان ناتِقٌ، وشَوَّال واغِل، وذو القِعْدَة هواع، وذو الحِجَّة بُرَك، ويُقال فيه أيضًا أَبْروك، وكانوا يسمُّونه المَيْمُون.

ثم سَمَّت العَرَبُ أَشْهُرَها بالمحَرَّم، وصَفَر، ورَبيع الأوَّل، ورَبيع الآخَر، وجُمادَى الأُولى، وجمادى الآخِرة، ورَجَب، وشَعْبَان ورَمَضَان، وشَوَّال، وذي القِعْدَة، وذي الحِجَّة[2].

٢٨٣:١ /واشْتَقُّوا أسماءَها من أُمورٍ اتَّفَق وُقوعُها عند تَسْميتها: فالمحَرَّم كانوا يُحَرِّمون فيه القِتال، وصَفَر كانت تُصَفَّر فيه بيوتُهم لخُروجِهم إلى الغَزْو، وشَهْرا رَبيع كانا زَمَن الرَّبيع، وشهرا جُمادَى كانا يَجْمُد فيهما الماءُ لشِدَّة البَرْد، ورَجَب الوَسَط، وشَعْبَان يَشْعَب فيه القِتال، ورَمَضَان من الرَّمْضَاء لأنَّه كان يأتي فيه القَيْظُ، وشَوَّالُ تَشيل فيه الإِبِل أذنابَها، وذو القِعْدَة لقُعودِهم في دُورِهم، وذو الحِجَّة لأنَّه شَهْر الحَجّ[3].

---

a) زيادة من البيروني. b) بولاق: الزباء. c) بولاق: تزب. d) بولاق: حضرت.

---

[1] نقلًا عن البيروني: الآثار الباقية ٦٠- ٦١.

[2] نفسه ٦٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٢:٣٧٣- ٣٨٢، وبينها خلاف في رسم الكلمات.

[3] قارن مع المسعودي: مروج الذهب ٢:٣٤٦- ٣٤٧؛ البيروني: الآثار الباقية ٣٢٥.

وأنت إذا تأمَّلْتَ اشْتِقاقَ أسْماء شُهور الجاهِلِيَّة أوَّلًا ، ثم اشْتِقاقها ثانيًا ، تَبَيَّنَ لك أنَّ بين التَّسْميتَيْن زَمانًا طويلًا ، فإنَّ صَفَرَ في أحَدِهما هو صَميمُ الحَرّ[a] وفي الآخَر رَمَضَان ، ولا يُمْكن ذلك في وَقْتٍ واحِدٍ أو وَقْتَيْن مُتَقارِبَيْن .

وكانت العَرَبُ أوَّلًا تَستَعْمل هذه الشُّهور على نحو ما يَسْتعمله أهْلُ الإسْلام ، إمَّا بطريق إلهي أو لأنَّ العَرَبَ لم يكن لها دِرايَةٌ بُمراعاة حِساب حَرَكات النَّيرَيْن ، فاحْتاجَت إلى اسْتِعمال مَبادي الشُّهور لرُؤْيَة الأهِلَّة ، وجَعَلَت زَمانَ الشَّهر بحَسَب ما يَقَع بين كلِّ هلالَيْن : فرُبَّما كان بعضُ الشُّهور تامًّا ، أعْني ثلاثين يومًا ، ورُبَّما كان ناقِصًا أعني تسعة وعشرين يومًا ، ورُبَّما كانت أشْهُرٌ متوالِيَة تامَّة أكثرها أربعة وهذا نادِر ، ورُبَّما كانت أشهر متوالية ناقِصَة أكثرها ثَلاثَة .

وكان يَقَعُ حَجُّ العَرَب في أزْمِنَة السَّنَة كلِّها ، وهو أبدًا عاشِر ذي الحِجَّة من عَهْد إبراهيم وإسْماعيل عليهما السَّلام ، فإذا انْقَضى مَوْسِمُ الحَجّ تَفَرَّقت العَرَبُ طالِبَةً أماكِنَها ، وأقامَ أهلُ مَكَّةَ بها . فلم يَزالوا على ذلك دَهْرًا طويلًا إلى أن غَيَّروا دِينَ إبراهيم وإسْماعيل ، فأَحَبُّوا أن يتوَسَّعوا في مَعيشتهم ، ويَجْعَلوا حَجَّهم في وَقْت إدْراك شُغْلهم من الأَدَم والجُلود والثِّمار ونحوها ، وأن يَثْبُت ذلك على حالة واحِدَةٍ في أطْيَب الأزْمِنَة وأَخْصَبها ، فتعلَّموا كَبْس الشُّهور من اليَهود الذين نَزَلوا يَثْرِب من عَهْد شَمْويل نبيّ بني إسرائيل ، وعَمِلوا النَّسيءَ قَبْل الهِجْرَة بنحو مائتيْ سنة ، وكان الذي يلي النَّسيءَ يُقالُ له القَلَمَّسُ ، يَعْني الشَّريف[1] .

وقد اخْتُلِف في أوَّل من أنْسَأ الشُّهور منهم : فقيل القَلَمَّسُ هو عَدِيُّ بن زَيْد ؛ وقيل القَلَمَّسُ هو سُرَيرُ بن ثَعْلَبَة بن الحارِث بن مالِكِ بنِ كِنانَة ، وأنَّه قال : أَرَى شُهُورَ الأَهِلَّة ثلاث مائة وأربعة وخمسين يومًا ، وأرى شُهورَ العَجَم ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا . فبَيْننا وبينهم أحَدَ عشر يومًا ، ففي كلِّ ثلاث سنين ثلاثة وثلاثون يومًا ، ففي كلِّ ثلاث سنين شَهْر . وكان إذا جاءَت ثلاثُ سنين قُدِّمَ الحَجُّ في ذي القعدة ، فإذا جاءَت ثلاث سنين أُخَر في المحرَّم . وكانت العَرَبُ إذا حَجَّت قَلَّدَت الإبِل النِّعال وأَلْبَسَتْها الجِلال وأَشْعَرَتها ، فلا يتعرَّض لها أحَدٌ إلَّا خَثْعَم .

---

a) بولاق : الحروب .

---

[1] في لسان العرب لابن منظور (٨ : ٦٥) القَلَمَّس : البحر الغزير .

وكان النَّسيءُ[1] في بني كِنانَة، ثم في بني ثَعْلَبَة بن مالِك بن كِنانَة، وكان الذي يلي ذلك منهم أبو ثُمامَة المالِكِي. ثم من[a] بني فُقَيْم.

وبنو فُقَيْم هم النَّسَاءَة، وهو مُنسئُ الشُّهور، وكان يقومُ على باب الكَعْبَة فيقول: إنَّ آلِهَتَكم العُزّى قد أَنْسأَت صَفَرَ الأوَّل، وكان تُحِلّه عامًا وتُحرِّمه[b] عامًا، وكان أَتْباعُهم على ذلك غَطَفان وهَوازِن وسُلَيم وتَميم.

وآخِر النَّسَاءَة جُنادَة بن عَوْف بن أُمَيَّة بن قَلَع بنِ عَبّاد بن حُذَيْفَة بن عَبْدِ بن فُقَيْم. وقيل القَلَمَّسُ هو حُذَيْفَة بن عَبْدِ بن فُقَيْم بن عَدِيّ بن عامِر بن ثَعْلَبَة بن الحارِث بن مالِك بن كِنانَة، ثم تَوارَثَ ذلك منه بنُوه من بعده، حتى كان آخِرُهم الذي قامَ عليه الإسْلام أبو ثُمامَة جُنادَة.

وكانت العَرَبُ إذا فَرَغَت من حَجِّها اجْتَمَعَت إليه، فأَحَلَّ لهم من الشُّهور وحَرَّم، فأَحَلُّوا ما أَحَلَّ وحَرَّمُوا ما حَرَّم. وكان إذا أراد أن يُنْسِئ منها شيئًا، أَحَلَّ المُحَرَّم فأَحَلُّوه، وحَرَّم مَكانه صَفَر فحَرَّمُوه، ليُواطِئوا عِدَّة الأربعة [الأَشْهُر الحُرُم][c] [2].

فإذا أرادوا الهَدْي، اجْتَمَعوا إليه فقال: اللّهم إنّي لا أُجاب ولا أُعاب في أَمْري، والأَمْرُ لما قَضَيْت، اللّهم إنّي قد أَحْلَلْت دِماءَ المُحِلِّين من طَيِّئٍ وخَثْعَم، فاقْتُلُوهم حيث ثَقِفْتُموهم - أي ظَفِرْتُم بهم - اللّهم إنّي قد أَحْلَلْت أَحَدَ الصَّفَرَيْن: الصَّفَر الأوَّل، وأَنْسأْت الآخَر من العام المقبل. وإنّما أَحَلّ دَم طَيِّئٍ وخَثْعَم، لأنّهم كانوا يعدون على النّاس في الشهر الحَرام من بين جَميع العَرَب.

وقيل أَوَّل من أَنْسَأ سُرَيْر بن ثَعْلَبَة والقَرَض، فأَنْسَأ من بعده ابن أخيه القَلَمَّس، واسْمه عَدِيّ ابن عامِر بن ثَعْلَبَة بن الحارِث بن كِنانَة، ثم صار النَّسيء في وَلَدِه، وكان آخِرهم أبو ثُمامَة

a) بولاق: في. b) بولاق: يحله ... يحرمه. c) الأصل: العدة الأربعة، والإضافة من سيرة ابن هشام مصدر النقل.

[1] انظر عن النسيء فيما تقدم ٧٠٨، ٧٤٠ وكذلك المسعودي: التنبيه والإشراف ٢١٧- ٢١٨؛ البيروني: الآثار الباقية ١١- ١٢، ٦٢- ٦٣؛ ابن هشام: السيرة النبوية ٤٤:١- ٤٧؛ النويري: نهاية الأرب ١٦٥:١- ١٦٧؛ نللينو: علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ٨٤- ١٠٦؛ Moberg, A., *EI*[2] art. *Nâsî* VIII pp. 977-78.

[2] نقلًا عن ابن هشام: السيرة النبوية ٤٥:١-٤٦ (النويري: نهاية الأرب ١٦٦:١).

جُنادَة . وقيل أَخَذَ[a] عَوْفُ بن أُمَيَّة بن قَلَعَ ، عن أبيه أُمَيَّة بن قَلَع ، عن جَدِّه قَلَع بن عَبَّاد ، عن جَدِّ أبيه عَبَّاد ابن حُذَيْفَة ، عن جَدِّ جَدِّه حُذَيْفَة بن عَبْد بن فُقَيْم .

وكان يُقالُ لحُذَيْفَة القَلَمَّسُ ، وهو أَوَّلُ من نَسَأَ[b] الشُّهور على العَرَب ، فأَحَلَّت منها ما أَحَلَّ ، وحَرَّمت[c] ما حَرَّم .

ثم كان بَعْد عَوْف المذكور وَلَدُه أبو ثُمامَة جُنادَة بن عَوْف ، وعليه قامَ الإسْلامُ ، وكان أَبْعَدَهم ذِكْرًا وأَطْوَلَهم أَمَدًا ، يُقال إنَّه نَسَأَ[b] أَرْبعين سنة .

ولهم يقول عُمَيْر بن قَيْس جَذْل الطِّعَان يَفْتَخر :

[الوافر]

وأيُّ النَّاس لم يَسْبِق بِوِتْرِ ... وأيُّ النَّاسِ لم يَعْلُك لِجَامَا
أَلَسْنا النَّاسِئينَ على مَعَدٍّ ... شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُها حَرامَا

وقال[d] عَبَّاد بن ثَعْلَبَة بن أنف الكلب الصَّيْداوي من بني أَسَد بن خُزَيْمَة :

[الطويل]

/أَتَزْعُم أنِّي من فُقَيْم بن مالِك ... لعَمْري لقد غَيَّرت ما كُنْت أَعْلَم ٤١
لَهُم ناسِئٌ يَمْشُون تحت لِوائِه ... يُحِلّ إذا شاءَ الشُّهور ويُحْرِم

وقيل كانت العَرَبُ تَكْبِس في كلِّ أَرْبعٍ وعشرين سنة قَمَرِيَّة بتسعة أشهر ، فكانَت شُهورُهم ثابِتَة مع الأَزْمِنَة ، جارِيَة على سَنَنٍ واحِد ، لا تتأَخَّر عن أَوْقاتها ولا تَتَقَدَّم .

وكان النَّسيءُ الأَوَّل للمُحَرَّم ، فسُمِّي صَفَرُ باسْمه ، وشَهْرُ رَبيع الأَوَّل باسم صَفَر . ثم والَوا بين أسْماء الشُّهور ، فكان النَّسِيءُ الثاني بصَفَر فسُمِّي الذي كان يَتْلوه بصَفَرَ أيضًا ، وكذلك حتى دارَ النَّسيءُ في الشُّهور الاثني عشر وعادَ إلى المُحَرَّم ، فأعادوا فِعْلَهم الأَوَّل .

وكانوا يعدون أَدْوار النَّسِيء ، ويحدون بها الأَزْمِنَة فيقولون : قد دارَت السُّنُون ، من لَدُن زمان كذا إلى زَمان كذا كذا وكذا ، دَوْرَة ؛ فإن ظَهَرَ لهم مع ذلك تقدُّم شَهْرٍ عن فَصْله من الفُصُول الأربعة ، لما يجتمع من كُسور سنة الشَّمْس وبقيَّة فَضْل ما بينها وبين سَنَة القَمَر الذي أَلْحَقوه بها ، كَبَسُوها كَبْسًا ثانيًا ، وكان يَظْهَر لهم ذلك بطُلُوع مَنازِل القَمَر وسُقُوطها ، حتى هاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ ، وكانت نَوْبَةُ النَّسيء بَلَغَت شَعْبان ، فسُمِّيَ مُحَرَّمًا وشهر رَمَضان صَفَر .

---

a) ساقط من بولاق . b) بولاق : أنسأ . c) بولاق : فأحل ... وحرم . d) بولاق : قال آخر .

وقيل إنَّ النَّاسئ الأَوَّل نَسأَ المحَرَّم وجَعَلَه كَبْسًا ، وأَخَّرَ المحَرَّم إلى صَفَرَ ، وصَفَر إلى رَبيع الأوَّل ، وكذا بقيَّة الشهور . فوَقَعَ لهم في تلك السنة عاشِر المحَرَّم ، وجَعل تلك السنة ثلاثة عشر شهرًا ، ونُقِلَ الحَجّ بعد كلّ ثلاث سنين شهرًا . فمَضَى على ذلك مائتان وعشر سنين ، وكان انْقِضاؤها سنة حَجَّة الوَداع .

وكان وُقوعُ الحَجّ في السَّنَة التاسعة من الهجرة عاشِر ذي القِعْدَة ، وهي السَّنَة التي حَجَّ فيها أبو بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - بالنَّاس .

ثم حَجَّ رَسولُ الله ﷺ في السَّنَة العاشِرَة حجَّة الوَداع ، لوُقوع الحَجّ فيها عاشِر ذي الحِجَّة كما كان في عَهْد إبراهيم وإسْماعيل ، ولذلك قال ﷺ في حَجَّته هذه : «إنَّ الزَّمانَ قد اسْتَدارَ كهَيْئَته يَوْمَ خَلَق الله السَّماوات والأَرْض» ، يعني رُجُوع الحَجّ والشُّهور إلى الوَضْع [1].

وأَنْزَلَ الله تعالى إبْطالَ النَّسيء بقَوْله تعالى : ﴿إنَّما النَّسيءُ زِيادَةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بِه الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَه عامًا ويُحَرِّمونَه عامًا لِيُواطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله فيُحِلُّوا ما حَرَّمَ الله زُيِّنَ لَهُم سُوءُ أَعْمَالِهِم﴾ [الآية ٣٧ سورة التوبة] ، فبَطَلَ ما أَحْدَثَته الجاهِلِيَّة من النَّسيء ، واستمرَّ وُقوعُ الحَجّ والصَّوْم برُؤْيَة الأَهِلَّة ، ولله الحَمْد .

وكانت العَرَبُ لها تواريخُ مَعْروفَة عندها قد بادَت ، فممَّا كانت تُؤَرِّخ به أنَّ كِنانَةَ أَرَّخَت من مَوْت كَعْب بن لُؤَيّ ، حتى كان عامُ الفِيل أرَّخوا[a] به ، وهو عامُ مَوْلِد رَسُولِ الله ﷺ . وكان بين كَعْب بن لُؤَيّ والفِيل خمس مائة وعشرون سنة ، وكان بين الفِيل وبين الفِجَار أربعون سنة . ثم عَدُّوا من الفِجار إلى وَفاة هِشام بن المُغيرَة فكان ستُّ سنين ، ثم عَدُّوا من وَفاة هِشام بن المُغيرَة إلى بُنْيان الكَعْبَة فكان تِسْع سنين ، ثم كان بين بِنائِها وبين هِجْرَة رَسُول الله ﷺ خَمْس عشرة سنة .

---

a) بولاق : فأرخوا .

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٩٧.

ثم وَقَعَ التَّأريخُ من الهِجْرَة النَّبَوِيَّة ، فعن سَعيد بن المُسَيَّب قال : جَمَعَ عُمَر بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - الناسَ فسألَهم : من أي يومٍ يُكْتَب التأريخ ؟ فقال عليٌّ بن أبي طالبٍ : من يوم هاجَرَ رَسولُ الله ﷺ وتَرَكَ أَرْضَ الشِّرْك ، ففَعَلَه عُمَر[1] .

وعن سَهْل بن سَعْد السَّاعِديّ قال : أَخْطَأ الناسُ في العَدَد ، ما عَدُّوا من مَبْعَثه ولا من وَفاتِه ، إنَّما عَدُّوا من مَقْدِمه المَدينَة[2] .

وعن ابنُ عَبَّاس - رضي الله عنهما - قال : كان التأريخُ من السَّنَة التي قَدِم فيها رسولُ الله ﷺ المَدينَة[3] .

وقال قُرَّةُ بن خالِد عن محمد كان عند عُمَر بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - عامِلٌ جاءَ من اليمن فقال لعُمَر : أما تُؤَرِّخون ؟ تَكْتُبون في سنة كذا وكذا من شهر كذا وكذا . فأرادَ عُمَر والناسُ أن يَكْتُبوا من مَبْعَث رَسُول الله ﷺ ، ثم قالوا من عند وَفاتِه ، ثم أرادوا أن يكون ذلك من الهِجْرَة . ثم قالوا : من أي شَهْرٍ ؟ فأرادوا أن يكون من رَمَضان ، ثم بَدَا لهم فقالوا من المُحَرَّم[4] .

وقال مَيْمونُ بن مِهْران : رُفِع إلى أمير المؤمنين عُمَر بن الخَطَّاب - رضي الله عنه - صَكٌّ ومحله شَعْبان ، فقال : أيُّ شعبان هو ؟ أَشَعْبانُ الذي نحن فيه أو الآتي[5] ؟ ثم جَمَعَ وُجوه الصَّحابَة فقال : إنَّ الأمْوالَ قد كَثُرَت ، وما قَسَمْنا منها غير مُوَقَّت ، فكيف التَّوَصُّل إلى ما يُضْبَط به ذلك ؟ فقالوا : يجب أن يُعْرَف ذلك من رُسُوم الفُرْس . فعندها اسْتَحْضَر عُمَر - رضي الله عنه - الهُرْمُزان وسأله عن ذلك ؛ فقال : إنَّ لنا حِسابًا نُسَمِّيه «ماهْ روز» معناه حساب الشُّهور والأيام ؛ فعرَّبُوا الكلمة ، وقالوا مُؤَرَّخ ، ثم جعلوه اسم التأريخ واسْتَعْمَلوه[6] . ثم طَلَبُوا وَقْتًا يَجْعَلونه أوَّلًا لتأريخ دَوْلَة الإسْلام ، فاتَّفَقُوا على أن يكون المَبْدَأُ من سَنَة الهِجْرَة .

وكانت الهِجْرَةُ النَّبَوِيَّة من مَكَّة إلى المَدينَة وقد تَصَرَّم من شُهُور السنة وأيَّامها المحرَّم وصَفَر وأيام من رَبيع الأَوَّل . فلمَّا عَزَموا على تأْسيس الهِجْرَة ، رَجَعُوا القَهْقَرَى ثمانية وستين يومًا ، وجَعَلوا التأريخ من أوَّل محرَّم هذه السَّنَة . ثم أَحْصَوا من أوَّل يوم في المحرَّم إلى آخر عُمْر رَسُول الله ﷺ ، فكان عَشْر سنين وشهرين .

---

[1] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢ : ٣٩١.

[2] نفسه ٢ : ٣٨٩.

[3] نفسه ٢ : ٣٨٩.

[4] نفسه ٢ : ٣٨٩.

[5] نفسه ٢ : ٣٨٨ - ٣٨٩.

[6] انظر فيما تقدم ٧٠٠.

٢٨٥:١ وأمَّا إذا/ حُسِب عُمْرُه المُقَدَّس من الهجرة حَقيقةً ، فيكون قد عاشَ ﷺ بعدها تِسْع سنين وأَحَدَ عَشْر شهرًا واثنين وعشرين يومًا .

وكان بين مَوْلده ﷺ ، وبَيْنَ مَوْلِد المَسيح ـ عليه السَّلام ـ خمس مائة وثمان وسبعون سنة ، تَنْقُص شهرين وثمانية أيام.

وابتداءُ تأريخ الهِجْرَة يوم الخميس أوَّل شهر الله المحَرَّم ، وبَيْنَه وبين الطُّوفان ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يومًا ، على ما عَرَّفْنا من الخِلاف في ذلك . وبينه وبين تأريخ الإسْكَنْدَر بن فِيلِيبُش المجَدوني الرُّومي تسع مائة وإحدى وستون سنة قمرية وأربعة وخمسون يومًا ، تكون من السنين الشَّمْسية تسع مائة واثنتين وثلاثين سنة ومائتين وتسعة وثمانين يومًا ، عنها تسعة أشهر وتسعة عشر يومًا . وبينه وبين تأريخ القِبْط ثلاث مائة وسبع وثلاثون سنة وتسعة وثلاثون يومًا .

وقال ابنُ ما شَاءَ الله [1] : إنَّ انْتِقالَ المَمرّ[a] من المُثَلَّثَة الهوائية التي هي بُرْج الجَوْزَاء وذواتها[b] ، إلى بُرْج السَّرطان ومُثَلَّثته المائية التي كانت دَوْلَةُ الإسْلام فيها ، عند تَمام ستة آلاف وثلاث مائة وخمس وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يومًا من وَقْت القِران الأوَّل الواقِع في بَدْء التَّحرُّك ـ يعني خَلْق آدَم عليه السَّلام ـ ، وأنَّ القِرانَ من هذه المُثَلَّثَة وَقَعَ في أرْبع دَرَج ودقيقَة واحِدَة من بُرْج العَقْرَب ، وهو قِرانُ المِلَّة الإسْلامية .

قَالَ : وفي السَّنَة الثانية من هذا القِرَان وُلِدَ رَسولُ الله ﷺ ، وكان بين دُخول الشَّمْس بُرْج الحَمَل في هذه السَّنَة وبين أوَّل يوم من سَنَة الهِجْرَة ، سُنُون فارسية عِدَّتُها إحدى وخمسون سَنَة وثلاثة أشهر وثمانية أيام وستّ عشرة ساعَة ، وكان[c] من وَقْت الطُّوفان إلى وَقْت قِرَان المِلَّة ثلاثة آلاف وتسع مائة واثنتا عشرة سنة وستة أشهر وأربعة عشر يومًا . وزَعَمَت اليهودُ أنَّ من آدَم ـ عليه السَّلام ـ إلى سنة الهجرة أربعة آلاف واثنتين وأربعين سنة وثلاثة أشهر . وزَعَمَت النَّصارىٰ أنَّ بينهما خمسة آلاف وتسع مائة وتسعين سنة وثلاثة أشهر . وزَعَمَت المجُوس ـ أعني الفُرْس ـ أنَّ بينهما أربعة آلاف ومائة واثنتين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يومًا . وقد عَرَفْت أنَّ شُهورَ تأريخ الهِجْرَة

a) بولاق : المر . b) بولاق : دولتها . c) بولاق : فكان .

[1] عن ابن ما شاء الله انظر فيما تقدم ٧٠٣.

قَمَريَّة ، وأيَّام كلِّ سنة منه عِدّتها ثلاث مائة وأربعة وخمسون يومًا وخُمس وسُدْس يوم .

وجَميعُ الأحْكام الشَّرْعِيَّة مَبْنية على رُؤْيَة الهِلال عند جَميع فِرَق الإسْلام ، ما عَدَا الشِّيعَة فإنَّ الأحْكامَ مبنية عندهم على عَمَل شُهور السَّنَة بالحِساب ، على ما ستراه في ذكر القاهِرَة وخُلفَائِها .

ثم لمَّا احْتاجَ مُنَجِّمُو الإسْلام إلى اسْتِخْراج ما لا بُدَّ منه من معرفة الأَهِلَّة وسَمْت القِبْلَة وغير ذلك ، بَنَوا أزْياجَهم على التاريخ العَرَبي ، وجَعَلُوا شُهورَ السَّنة العَرَبِيَّة شَهْرًا كامِلًا وشَهْرًا ناقِصًا ، وابْتَدأوا بالمُحَرَّم اقْتداءً بالصَّحابَة رضي الله عنهم . فجَعَلوا المُحَرَّم ثلاثين يومًا ، وصَفَر تسعة وعشرين يومًا ، ورَبيعًا الأوَّل ثلاثين يومًا ، وربيعًا الآخَر تسعة وعشرين يومًا ، وجُمادَى الأُولى ثلاثين يومًا ، وجُمادَى الآخرة تسعة وعشرين يومًا ، ورَجَب ثلاثين يومًا ، وشَعْبان تسعة وعشرين يومًا ، ورَمَضَان ثلاثين يومًا ، وشَوَّالًا تسعة وعشرين يومًا ، وذا القِعْدَة ثلاثين يومًا ، وذا الحِجَّة تسعة وعشرين يومًا . وزادوا من أَجْل كَسْر اليوم ، الذي هو خُمْس وسُدْس ، يومًا في ذي الحِجَّة إذا صارَ هذا الكَسْر أكثر من نصف يوم ، فيكون شَهرُ ذي الحِجَّة في تلك السَّنَة ثلاثين يومًا ، ويسمُّون تلك السَّنَة كَبيسَة ، ويَصيرُ عَدَدُها ثلاث مائة وخمسة وخمسين يومًا ، ويجتمع في كلِّ ثلاثين من الكَبْس أحَدَ عشر يومًا ، والله أَعْلَم .

وأمَّا تأريخ الفُــرْس ويُعْرَف أيضًا بـ«تاريخ يَزْدَجِـرد» ، فإنَّه من ابتداء تَمَلُّك يَزْدَجِرْد بن شَهْريار ابن كِسْرَىٰ أَبْرَويز ، أرَّخ به الفُرْس من أجْل أنَّ يَزْدَجِرْد قامَ في المملكة ، بعدما تبدَّد مُلْكُ فارِس ، واسْتَوْلى عليه النِّساءُ والمُتَغَلِّبون ، وهو أيضًا آخِر مُلوك فارِس ، وبقَتْله تَمَزَّق مُلْكُهم [1] .

وأوَّل هذا التاريخ يوم الثلاثاء ، وبينه وبين تاريخ الهِجْرَة تسع سنين وثلاث مائة وثمانية وثلاثون يومًا ؛ وأيَّامُ سنة هذا التاريخ تَنْقُص عن السَّنَة الشَّمْسية رُبْع يوم ، فيكون في كلِّ مائة وعشرين سنة شهرًا واحدًا ، ولهم في كَبْس السَّنة آراءٌ ليس هذا مَوْضِعُ إيرادها . وعلى هذا التاريخ يَعْتَمِد في زَمَنِنا أَهْلُ العِراق وبلاد العَجَم ، ولله عاقِبَةُ الأُمور [2] .

---

[1] البيروني : الآثار الباقية ٣١؛ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣٤٣؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٩٩.

[2] نهاية الجزء الرابع من نشرة Gaston Wiet؛ وبعد ذلك في نسخة الأصل بابٌ لا علاقة له بسياق الموضوع أو بموضوع الكتاب ، عنوانه : «الخبر عن الحَفْصيين ملوك تونس» ويليه «الخبر عن أجناس السودان» وآخرها : وقد ذكر أخبار مالي وملوكها [في] كتاب «درر العقود الفريدة» في ترجمة منشا موسى ؛ وهو عبارة عن مذكرات كتبها المقريزي في نهاية مجلد الأصْل المنقول عنه هذه النسخة لاستخدامها في مؤلفاته الأخرى تمامًا مثل ما جاء في نهاية الجزء الثالث من أصل المؤلف خاصًّا بذكر أمراء العرب في بيروت ، ممّا ليس له علاقة بموضوع الخطط أو تاريخ مصر .